kitabweb-2013.forumaroc.net

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين

حرف الخاء

8

ابن خاتمة - الخيري

دار الجيل

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين

[illegible] / [illegible]

دار الجيل

بترخيص من

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

جميع الحقوق محفوظة لـ

دار الجيل

الطبعة الأولى

1426هـ - 2005م

لا يجوز نشر أي جزء من هذه الموسوعة أو اختزان مادتها بطريقة الاسترجاع أو نقلها على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو خلاف ذلك إلا بموافقة الناشر.

ISBN: 9953-78-098-6

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

تونس: القباضية الأصلية - ص.ب. : 1120
هاتف : 784466 - 0021671
فاكس : 782091 - 0021671
784965 - 0021671
E.mail: Alesco@Email.ati.tn
Website: www.alesco.net

دار الجيل

بيروت: البوشرية - شارع الفردوس - ص.ب. : 8737 (11)
هاتف: 52/ 51/ 689950 **فاكس:** 689953 (009611)
E.mail: info@daraljil.com
Website: www.daraljil.com
القاهرة: هاتف: 5865659 فاكس: 5870852 (00202)
تونس: هاتف: 71922644 فاكس: 71923634 (00216)

الإشراف العام

د. المنجي بوسنينة

المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

المدير المسؤول

د. محمد صالح الجابري

الهيئة العلمية

د. هشام نشابة

رئيس المجلس التنفيذي

للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

د. أكمل الدين إحسان أوغلي

الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي

د. محمد إحمد الشريف

أمين جمعية الدعوة الإسلامية العالمية

الجماهيرية العظمى

د. صلاح فضل

جامعة عين شمس

رئيس اللجنة العلمية

د. عبد الرحمن الطيب الأنصاري

جامعة الملك سعود

د. محمود فهمي حجازي

رئيس جامعة نور ـ مبارك،

قازاخستان

د. علي عقلة عرسان

الأمين العام

للاتحاد العام للأدباء والكتّاب العرب

د. إبراهيم بن مراد

جامعة تونس

د. محمد علي آذرشب

جامعة طهران

د. محمد أسلم إصلاحي

رئيس مركز الدراسات العربية والإفريقية

جامعة جواهر لال نهرو ـ نيو دلهي، الهند

هيئـــة التحــريــر

تُنجز هذه الموسوعة بالتشاور والتعاون
مع 70 جامعة علمية، عربية وإسلامية وعالمية، وبمشاركة
أكثر من 2000 عالم جامعي وخبير في مجالات تخصص الموسوعة،
يساهمون في التحرير والمراجعة وتقديم المشورة.

خ

ابن خاتمة ـ الخيري

ابن خاتمة الأنصاري، أبو جعفر أحمد بن علي

(ت 770هـ/1369م)

أحمد بن علي بن محمد بن علي بن محمد بن خاتمة الأنصاري، كنيته أبو جعفر. طبيب ومؤرّخ وأديب، من أهل المرية بالأندلس. قال عنه معاصره ابن الخطيب إنه حسنة من حسنات الأندلس وطبقة في النظم والنثر، بعيد المرقى في درجة الاجتهاد. وهو ناظم درر الألفاظ ومقلد جواهر الكلام.

توفي على الأرجح حسب أحمد بابا التنبكتي في 9 شعبان سنة 770هـ/ 1369م عن قرابة سبعين عامًا. ويبدو أن قول ابن الخطيب إنه كان بقيد الحياة في الثاني عشر من شعبان من سنة 770هـ ناجم عن عدم بلوغه خبر وفاته الحاصل منذ ثلاثة أيام. وذهب الجزري (ت 833هـ) اعتمادا على رواية أحد تلامذة ابن خاتمة أنه توفّي سنة ثمان أو تسع وستين. أما ابن القاضي فقد اقتصر على القول إنه كان حيا سنة 756هـ، وكذلك شأن العمري (ت 749هـ).

لم تذكر مصادر ترجمته تاريخ ولادته، وقد يكون ولد سنة ثلاث وتسعين وستمائة، لأنّه أخذ القراءات القرآنيّة عن شيخه عليّ بن محمد بن أبي العَيْش المتوفى سنة (704هـ/ 1304م) ومن يأخذ القراءات القرآنية لا بد أن يكون قد أحكم تلاوة القرآن الكريم، ثم تعرف على طرق رواية هذه القراءات عن أئمة القراءات السبع أو العشر، وهذا لا يتأتى للطالب قبل سن العاشرة من عمره في أقل تقدير. وبما أن وفاة شيخه كانت سنة (704هـ/ 1304م) فمعنى هذا أن ابن خاتمة في هذه السنة قد بلغ على الأقلّ الحادية عشرة من عمره.

كان ابن خاتمة من أهل المرية، نشأ فيها، ودرس على شيوخها، وتردد إلى مجالس العلم والسماع فيها، وخالط كثيرا من شيوخها، وتعرّف إلى الكثير من علمائها، فأخذ القراءات القرآنية عن شيخه الإمام المقرئ المتصدِّر أبي الحَسَن عليّ بن محمد بن أبي العيش الأنصارِيّ المَرِيّ (ت 704هـ/ 1304م) ولازَمه مدَّة طويلة، وبه تخرَّجَ، وكان به جُلُّ انتِفَاعه، لِفَضْلِ هذا العالم الجليل على أبناء المريَّة كافَّة.

ودَرَسَ الفقه على القاضي الإمام الخطيب عبد الله بن محمد بن أحمد بن أبي جَمْرَة الأزديّ المُرْسيّ نزيل غرْناطة (ت 711هـ/ 1311م)، كان قاضيا، ثم خطيبًا بجامع غرناطة.

وأخذ العربية والفقه والقراءات عن أبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن عليّ بن أبي العاصي التَنُوخيّ (ت 726هـ/ 1326م)، أقرأ الناس فُنُونًا من العلم، وجمع بين القراءة والتدريس، كان مُدَرِّسًا للعربيَّة والفقه، آخذا في الأدب، مع عناية في التفسير.

وتلاً على المقرئ أبي جعفر أحمد بن عبد الله بن أحمد بن يوسف الكِلاَعيّ (ت 727هـ/ 1327م) المقرئ المجوِّد المتقِن، استوطن المريَّة وتُوفِّي بها.

وأخذ الفقه عن القاضي الفقيه أبي جعفر أحمد بن محمد بن أحمد القرشي الغرناطيّ الشهير بابن فركون (ت 729هـ/ 1329م) وقرأ عليه العربيَّة. وكان ابن فركون متصدِّرًا لتدريس العربية والفقه والفرَائضِ مع طيْبِ نَغْمَةٍ بالقُرآن وحسنِ تِلاوَة.

ودَرَس على أبي القاسم عبد الرحمٰن بن محمد بن أحمد القيسيّ المعروف بابن شُعَيْب (ت 737هـ/ 1337م) قاضي المرية وخطيب جامعها الأعظم، له إسناد واعتناء بالرواية الحديثيَّة.

وأخذ عن الوزير الحاج الزاهد أبي القاسم محمد بن محمد بن سهْل بن مالِك الغرناطيّ (كان حيا بعد سنة 730هـ/ 1330م) مُقرئ جليل، وعالم رياضيٌّ، عارف بعِلم العَدَدِ، رحل إلى المشرق وازداد علمًا كثيراً.

وأخذ عن صاحب الرّحلتين شمس الدين أبي عبد الله محمد بن جابر بن محمد الوادي آشيّ (ت 749هـ/ 1348م) المُقرِئ، المُحَدِّث المسند، المتفرِّد في وقته بـ «مُوَطَّأ» الإمام مالك بن أنس الأصبَحيّ (ت 179هـ/ 795م) رواية يحيى بن يحيى اللَيْثِيّ القرطُبيّ (ت 234هـ/ 849م).

وقرأ العلومَ على أبي عثمان سَعْد بن أحمد بن إبراهيم التُّجيبيّ المعروف بابن لِيُون (ت 750هـ/ 1349م) العالم المتفنِّن، البارع في الطب والهندسة والفرائِض والحساب، وله مشاركة حَسَنة في الأدب، وله مؤلفات جليلة في عِدَّة فُنون.

وأخذ رواية الحديث الشريف عن أبي البركات محمد بن محمد بن إبراهيم البَلْفِيقِيّ السُّلَميّ المعروف بابن الحاجّ (ت 771هـ/ 1370م) شيخ المحدِّثين والقُرّاء والفقهاء والأدباء والصُوفيَّة والخُطَباء بالأندلس. كان غزيرَ العلم، واسعَ الاطِّلاع، كثير الفَضْل، مُحسِناً إلى الطَلَبَة.

ولم يتوقف ابن خاتمةَ عن طلب العلم، والسعْي في تحصيلِه على هذه النُّخبَة البارِزة من عُلماء القرن الثامن الهجريّ من أهل الأندلُس، إنّما أخذ عن الواردين على بلدته المرية والمارين بها، واستطاع أن يدخُل غرناطة أكثر من مرَّة لطلب العِلْم، وبعدما صَلُبَ عُودُه ونَضِجَ عِلْمُه دخلها باستدعاءٍ خاصٍّ من السلطان يُوسُف بن إسماعيل بن الأحْمَر، مَلِكِ غرناطة الذي حكم من (سنة 733هـ ـ 755هـ/ 1333م ـ 1354م) وكان دُخُولُه في سنة (751هـ/ 1350م) بعد أن ذاع صيته، وسطع نجمه، واشتهر اسمُه بين الطُلاَّب ومجالس العِلْم والأدبِ في الأندلس، فكان له جملة من الطَلبة، لازَمُوه مدَّة طويلة، وبه تخرَّجُوا في القراءات القرآنيَّة، والأدب، واللُّغة، وغيرها من العلوم التي يشارك فيها ابن خاتِمَة، كان منهم:

أبو جعفر أحمد بن علي بن زُرْقالة الوزير الأديب، الذي جمعَ من شِعْرِ شيخه ابن خاتمة ما يخص التورية من الديوان ومن غيره من مُقَطَّعات ابن خاتمة فجعله كتابًا سمَّاه «رائق التحْلِيَة في فائِق التورِيَة».

وأبو الحسن علي بن لسان الدين محمد بن عبد الله السلماني بن الخطيب، سمع من شيخه أبي جعفر بن خاتمة بالمرية في سنة خمس وستين وسبعمائة قصيدته المشهورة:

أقْبَلْنَ فِي الحَبَرَاتِ يَقْصُرْنَ الخُطَا
ويُرِينَ في حُلَلِ الوراشِينَ القَطَا

وأبو عبد الله محمد بن عليّ بن خاتمة الأنصاريُّ (ت 750هـ/ 1349م) أخو أبي جعفر بن خاتِمة، وبه تأدّب، ونظم، وكان حَسَنَ الخَطّ.

وأبو عبد الله محمد بن محمد بن ميْمُون الغرناطيُّ المقرئُ (ت 793هـ/ 1391م) أخذ القراءات القرآنية عن أبي جعفر بن خاتمة، وبه تخرَّج. وكان من أعلام القراء وتصدَّر للإقراء.

نال ابن خاتِمَةَ درَجَةً عاليةً من العلم أهَّلتْهُ لأن يحْتَلَّ مكان الصدَارة للتدْريس في مسجد المَرِيَّة الأعظم، فأقرأ الناس العربية وفُنون الأدب وسائر العلوم، وعَقَدَ مجالس الإرشاد والتّذكير، وقَيَّد الكثيرَ من العلوم بخطِّه، فأصبح ملحوظًا من الخاصّ والعامّ، ولِمَا يتمتَّع به من مُؤَهَّلاَت علميَّة ومكانة اجتماعيَّة تولى عقدَ الشُّرُوط، وانتُدِبَ للكِتابَةِ عن الوُلاَةِ ببلده المَرِيَّة فكان فيهما مشْكُورَ السِّيرة، حميد الطَّريقة، حسن الخُلُقِ والسَّمْت.

كان ابن خاتمة من العلماء الأجِلاَّء، جَمَّ الفضائِل، وافِرَ الجلالَة، كبيرَ الحُرْمَة، ولأهل المَرِيَّة فيه منفعة، ومنزلته بينهم سامية، فقد وصَفَه صديقه مؤرِّخ الأندُلس لِسَان الدِّين بن الخطيب قائلاً: «هذا الرجلُ صدْرٌ يُشَارُ إليه، طالب متفَنِّنٌ، مشارِكٌ، قويُّ الإدراك، سديدُ النَّظر، قويُّ الذِّهن، موفُور الأدوات، كثيرُ الاجتهاد، مَعِين الطَّبع، جَيِّدُ القَرِيحَة، بارعُ الخَطِّ، ممتعُ المُجالَسَة، حسَنُ الخُلُق، جميل العِشْرَة، حَسَنَةٌ من حَسَنات الأندلس....».

استطاع ابن خاتِمَة أن يقيم علاقات وِدِّيَّة مع عددٍ من أُدَبَاء الأندلس المشهورين، وشيوخه النابهين تَدُلُّ على حسن الصلة وصِدق الصُّحبة، فأثمرت تلك العلاقات مكاتبات ومُرَاسَلات نثريَّة وشعريَّة تَنِمُّ عن تلك المواهب الأدبية الرفيعة التي يمتلِكُهَا ابن خاتِمَة. وأشارت مصادر ترجمته إلى الكثير ممّن رأسه، ولاسِيَّمَا صديقه لِسَان الدين بن الخطيب الذي مَلأَ صفحات كثيرة من «الإحاطة في أخبار غرناطة» بهذه الرسائل، ومن أولئك الأعلام: أبو جعفر أحمد بن عبد النور المالقيُّ النحويُّ (ت 702هـ/ 1302م)، وأبو عبد الله محمد بن شُعَيْب (ت 737هـ/ 1337م)، وشمس الدين محمد بن جابر الوادِي آشيُّ (ت 749هـ/ 1348م)، وأبو البركات محمد بن محمد البَلْفِيقِيُّ بن الحاجِّ (ت 771هـ/ 1369م)، ولسان الدين بن الخطيب محمد بن عبد الله (ت 776هـ/ 1374م)، وأبو القاسم عبد الله بن يُوسُف بن رِضْوَان (ت 783هـ/ 1381م) وغيرهم.

آثاره

1 ـ تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد، كتاب ألفه حول موضوع الوباء الذي اجتاح الأندلس سنة 749 ـ 750هـ/ 1348 ـ 1349م، وتناول فيه موضوع الأوبئة بصفة عامة، أسبابها ونتائجها، وخصوصا ما حصل

بالمرية سنة 749 ـ 750هـ من سرعة انتشار الوباء بالمدينة نظرا لطبيعة موضعها.

تعرّض فيه المؤلف إلى وصف المريّة، اعتمادًا على ما ورد في كتاب المزية أثناء حصار المدينة سنة 1309م، وهي معلومات تتّسم بالدقة، ولا يستبعد أنه اعتمد تخطيط المدينة في هذا الوصف، [مخطوط الأسكوريال ضمن مجموع، ص50أ ـ 105ب]؛ 2 ـ مزية المرية على البلاد الأندلسية، مصنف تاريخي ضائع، غير أن المؤرخين المعاصرين له والمتأخرين اعتمدوه كمصدر للتاريخ السياسي والثقافي بالمرية، وخصوصا ابن الخطيب، وابن القاضي، والمقري.

ويتضح من خلال هذه المقتطفات أنه مصنف في التاريخ المحلّي والتراجم الجغرافية التاريخية، ذكره ابن الخطيب من بين مصادره في كتاب الإحاطة [1/ 83]، لكنه لا يحيل عليه مباشرة، ويبدو أنه اعتمده عند ترجمته لنحو عشرين علما من المرية، كما نقل عنه المقري التراجم والأشعار الخاصة بأعلام المرية، مستعملا العبارات التالية: قال ابن خاتمة في كتابه مزية المرية على غيرها من البلاد الأندلسية [1/ 24، 2/ 175، 5/ 360، 375]. وفي كتاب أزهار الرياض في أخبار عياض، ذكر كتاب مزية المرية سبع مرات، وأحال عديد المرات في أجزائه الخمسة على ابن خاتمة.

ويعد درة الحجّال لابن القاضي من بين المصنفات الأكثر ذكرا لابن خاتمة، إذ ترجم لقرابة 66 عالما من المرية اعتمادًا على كتاب المزية، ودقق في ذكر المواقع. أما «جذوة الاقتباس» المخصص لأعلام فاس، فقد كان اعتماده على المزية أقل، إذ لم يذكر سوى تسعة أعلام من المرية مشيرا إلى المزية في ستة مواضع [ص89، 110، 139، 298، 554]. وبالتالي فالمزية مصنف تاريخي محلي في شكل تراجم لأعلام المرية، شبيه في ذلك بالإحاطة وتاريخ مالقة، ألفه في نهاية العشرية السابعة من القرن الثامن هجريا، إذ استعمله ابن الخطيب في كتاب الإحاطة الذي ألفه بعد سنة 1368م.

وقد انتشر كتاب المزية داخل الأندلس وخارجه، واعتمده العلماء مشرقا ومغربا، وفضلا عن ابن الخطيب، وابن القاضي، والمقري، فقد ذكره العمري في مسالك الأبصار، وابن حجر العسقلاني (ت 852هـ/ 1449م) الذي ألّف كتابا في الوباء «بذل الماعون في فضل الطاعون».

ويتضمن على ما يبدو ثلاثة أقسام: الأول خصص لوصف المدينة ومجالها، والثاني لتاريخ المدينة العام والثالث وهو الأكثر أهمية لترجمة الأعلام، من أهل المرية أو من الغرباء، وهي تحوي معلومات تاريخية عديدة. وتبدو النسبة الكبيرة لهؤلاء العلماء من المعاصرين لابن خاتمة. وقد اعتمد على كتاب أستاذه أبي إسحاق البلفيقي حول تاريخ المرية وبرجة؛ 3 ـ فصل العادل في الرقيب والواشي والعاذل، مصنف صغير من السجع، حول طبيعة الأصناف الثلاثة من الناس: الرقيب، والواشي، والعاذل، نشره ونقله إلى الإسبانية جيلبار؛ 4 ـ إيراد اللآل في إنشاد الضوال، مختصر لكتاب في فقه اللغة للزبيدي، وابن مكي من قرطبة، من شرح ابن هشام ونظم ابن هاني السبتي، نشره وعلق

عليه كولان؛ 5 ـ ديوان ابن خاتمة، مخطوط بالأسكوريال، وهو مقسم إلى خمسة أجزاء: في المدح والثناء، في النسيب والغزل، في الملح والفكاهات، في الوصايا والحكم. نقل عنه المقري عدة أشعار، مبتدئا بعبارة قال أبو جعفر بن خاتمة، منها ما ورد في الصفحات التالية [3/ 302، 441، 5/ 361، 482، 498، 502 ـ 503، 531].

درس الديوان ونقله إلى الإسبانية جيلبار وحققه محمد رضوان الداية (دمشق، 1972)، ويوجد بالمكتبة الوطنية بمدريد قصيد لابن خاتمة، ورد ذكره في ديوانه، وهو عبارة عن تخميس لشعر ابن الخيمي الصوفي؛ 6 ـ رسائل ابن خاتمة، أثبت له ابن الخطيب [الإحاطة، 1/ 124] رسالة خاطبه بها في ربيع الأول عام ثمانية وأربعين وسبعمائة يشكو فيها الزمان، وأخرى يلومه فيها على تركه الأندلس والرحيل إلى المغرب، مفاضلا الأولى على الثانية. وأورد المقري ثلاث رسائل موجهة إلى لسان الدين [نفح الطيب، 6/ 28، 34 ـ 37؛ أزهار الرياض، 1/ 265]، كما أثبت أخرى مرسلة إلى ابن جزي [6/ 33]؛ 7 ـ كتاب رائق التحلية في فائق التورية، مجموعة أشعار لابن خاتمة حول التورية، جمعها تلميذه ابن زرقالة، وقد ذكر المقري [نفح الطيب، ص531] في باب التورية بأسماء الكتب مثالين من شعر ابن خاتمة (أربعة أبيات في الجملة) في هذا الباب؛ 8 ـ إلحاق العقل بالحس في الفرق بين اسم الجنس وعلم الجنس وغيرهما، ذكره أحمد بابا، وهو يخص مسائل في النحو.

■ المصادر والمراجع

● ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، القاهرة 1974، 1/ 239 ـ 259؛ ● الكتيبة الكامنة، تح. إحسان عباس، بيروت 1963، ص239 ـ 245؛ ● ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، السفر 17، إصدار فؤاد سزكين، فرانكفورت 1988، تصوير مخطوطة المكتبة الوطنية بباريس رقم 2327؛ ● المقري، نفح الطيب، تح. إحسان عباس، القاهرة 1949، ج1 ـ 8، الصفحات الوارد ذكرها في النص؛ ● م.س، أزهار الرياض في أخبار عياض، تح. عبد السلام الهراس وسعيد أحمد أعراب، الرباط 1980، ج1 ـ 5، راجع الفهرس؛ ● ابن القاضي، درّة الحجال، تح. محمد الأحمدي أبو النور، القاهرة ـ تونس، ترجمة 116، 1/ 85؛ ● التنبكتي، أحمد بابا، نيل الابتهاج، طرابلس 1989، ص 101 ـ 102؛ ● ابن الأحمر، نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان، تح. محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت 1967، ص331 ـ 332؛ ● الجزري، محمد، غاية النهاية في طبقات القراء، القاهرة 1932، 1/ 87؛ ● مخلوف، محمد، شجرة النور الزكية، تونس، ص229؛ ● البغدادي، هدية العارفين، 1/ 113؛ ● م.س، إيضاح المكنون، 4/ 472؛ ● الزركلي، الأعلام، 1/ 171؛ ● كحالة، معجم المؤلفين، 2/ 19 ـ 20؛

● J.M. Müller, Bericht über die pest, 1863, p. 28-34; ● Emilio Lopez Molina, La Obra historica de Ibn Jatima de Almeria, Al-Qantara, X, 1989, pp. 151-173; ● G. Gibert, El diwan d'Ibn Jatima de Almeria, Barçelona 1975; ● Ibid, Etude et commentaire de K. Ra'iq at-tahliya fi fa'iq at-tawriya, Etudes d'orientalismes dédiées à Levi-Provençal, Paris 1962, pp. 542-557; ● Ibid, Kitab fasl al-adil.., Al-Andalus, XVIII, 1954, pp. 1-16; ● Ibid, Ibn Khatima, Encyclopédie de l'Islam, T. IV, pp. 860-886; ● Brockelmann, G.A.L., T II, p 258, S II, p 329; ● Martinez Antuna, Ibn Khatima de Almeria y su tratado de la peste, Religion y Cultura, oct. 1928; ● Colin, quelques poètes arabes d'occident au XIVème siècle, Hespéris, XII, 1931, p. 1-32.

د. محمد حسن
جامعة تونس
د. صالح مهدي عباس الخضيري
مركز إحياء التراث العلمي العربي
جامعة بغداد ـ العراق

ابن خاتمة اللخمي، محمد بن علي بن هانئ

(ت 733هـ/1333م)

هو محمد بن علي بن هانئ اللّخمي السبتي. قال رضا كحالة: هو محمد بن عبد الله ويلقب بجده، أندلسي من أهل سبتة وأصله من أشبيلية. قرأ علوم اللّغة والتفسير على أبي إسحاق النافعي، وأبي بكر بن عبيدة النحوي، وأبي عبد الله بن حريث.

قال ابن الخطيب: كان إماما في اللغة العربية مبرّزا فيها كثير الإقناع والاحتجاج، اشتهر بأخلاقه مدرّسا إذ كان كثير القناعة حافظا لمروءته ظاهر الخشوع والورع صائنا لماء وجهه حسن المجالسة رائق المحاضرة كثير الاجتهاد والإكبار للعلم والعلماء، شهير الحسب والجلالة. وكان فائق الترسل بارع الخطّ متوسط النظم. ومما أنشد له: [الكامل]

مـا لـلنّـوى مُـدّتْ لـغـيـر ضـرورةٍ
ولـطـالـمـا عـهـدِي بـهـا مـقـصـورة

إنّ الـخـلـيـل وإن دعـتْـه ضـرورة
لـم يـوف ذاك فـكـيـف دون ضـرورة

مات بجبل الفتح والعدوّ يحاصره أصابه بحجر المنجنيق في رأسه، وذلك في أواخر ذي القعدة سنة ثلاث وثلاثين وسبع مائة للهجرة.

آثاره

1 ـ شرح التسهيل لابن مالك؛ 2 ـ الغرّة الطالعة في شعراء المائة السابعة؛ 3 ـ لحن العامة؛ 4 ـ أرجوزة في الفرائض.

المصادر والمراجع

● العسقلاني، شهاب الدين، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تح. ووضع فهارسه محمد سيّد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، مصر، 4/ 210؛ ● السيوطي، جلال الدين، بغية الوعاة في طبقات اللّغويين والنحاة، تح. محمّد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة الخانجي، ط 1، 1326 هـ، 1/ 8؛ ● الحاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، 2/ 1198؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، ط 7، 1986 م، 6/ 284؛ ● بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي، نقله إلى العربية الدكتور رمضان عبد التواب، راجع الترجمة الدكتور السيد يعقوب بكر، ط. دار المعارف، مصر، سنة 1975 م، 2/ 371.

د. عبد السلام العيساوي
جامعة منوبة ـ تونس

خاجه كمال الدين، عبد القادر بن غيبي المراغي

(754هـ/1353م ـ 838هـ/1435م)

ولد في مدينة مراغة جنوب أذربيجان التي تقع اليوم داخل الحدود الإيرانية. ولا يعرف بالتحديد تاريخ ولادته. ويقدم الباحثون تواريخ مختلفة لولادته ما بين سنتي 1350هـ و1360هـ، لكن أياً منها لم يعتمد بشكل ثابت. ويورد محمد علي تربيت تاريخ 20 ذي القعدة 754هـ/ 17 ديسمبر 1353م دون أن يوضح المصدر الذي أخذ منه هذا التاريخ، ثم بعد ذلك تبعه بعض المؤرخين فأخذوا عنه التاريخ نفسه [دانشمنداني آذربيجان، ص258]. وحسب ما ورد عنه فإن أباه غياث الدين (جمال الدين) الغيبي كان صاحب علم متنوع، وكان أيضا موسيقيا معروفا. وبعد أن أخذ عن أبيه علوم الموسيقى ـ إلى جانب علوم أخرى ـ ترك مراغة في سنّ الشباب وذهب إلى تبريز. وبفضل معرفته بالموسيقي وموهبته فيها، ذاع صيته بسرعة في هذه الأنحاء، فأخذه حاكم جِلاَير السلطان الشيخ عُويس (1356 ـ 1374م) إلى قصره.

وبعد وفاة الشيخ عويس بقي في القصر في عهد ابنه السلطان جلال الدين حسين، وحظي باهتمام خاص من قبله. وجميع المصادر التي تحدثت عن موضوع لحن «نوبة مُرتب»، والتي تحدث عنها عبد القادر نفسه كانت في عهد

هذا السلطان. ففي 29 شعبان 778هـ/ 11 يناير 1377م اجتمع كبار الموسيقيين والملحّنين، وكان الحاكم حاضرا، واشترك عبد القادر في هذا الاجتماع، وآختير أصعب لحن على الإطلاق. وكان يسمى «نوبة مرتب». وقيل إن هذا اللحن لا يمكن أداؤه في أقل من شهر، غير أن عبد القادر أصرّ على أدائه في يوم واحد. وفي شهر رمضان من العام نفسه كان يؤدي كل يوم واحدة منها.

ومع حلول يوم عرفة كان قد فرغ منها جميعا. وهذا النجاح جعل شهرته تطير في الآفاق، كما أن هذه الحادثة جعلت مكانته في مجال الموسيقى متواصلة إلى يومنا هذا [للاطلاع على معلومات أوسع أنظر: مقاصد الألحان، مكتبة نور عثمانية، رقم 3656، ورق a87، b86.] وفي عام 1380 ـ 1381م أعدّ أربعة وعشرين لحنا وذلك بطلب من السلطان حسين. وبعد أن قتل السلطان حسين على يد أخيه أحمد بهادر التحق بأخيه الشهزاده الشيخ علي الموجود في بغداد. وفي عام 1382م أعلن الشيخ علي الحرب على أخيه أحمد بهادر، وعندما انتصر عليه طلب من عبد القادر أن يُنشِئ له قطعة موسيقية متكونة من تسعة ألحان تذكّر بنصره في الحرب وسماها «ضرب النصر».

وفي العام نفسه لحقت الهزيمة بالشيخ علي في صراعه على السلطة، فدخل في حماية حاكم جلاير السلطان غياث الدين أحمد بهادر (1382 ـ 1410م). وحسب ما ذكر هو نفسه فقد حظي في مجالس هذا الحاكم الذي استمر حكمه لمدة 20 عاما بعناية كبيرة وقرّبه قربا خاصا، كما أنه أصبح نجما لامعا في مجال الموسيقى في هذه الفترة التي قضاها برفقته.

ونقل عبد القادر أن أحمد بهادر كان بارعا في أنواع الخطوط المختلفة (الأقلام الستة)، وبارعا كذلك في فن التذهيب، والرسم، والشعر، وعلم الفلك، وكان مشهورا كذلك بمعرفته الجيّدة بفن الموسيقى، كما يذكر أنه قرأ «كتاب الأدوار» و«الشريفة» عن أحمد بهادر. وهذه الأيام التي أمضاها في بغداد أنتج فيها الأصول المسماة بـ «دوري شناصي». وبعض المصادر تورد أن حاجه عبد القادر زار في تلك الأعوام السلطان العثماني بايزيد خان، غير أن الشخص المقصود بالفعل ليس السلطان العثماني وإنما هو الشهزاده السلطان بايزيد، أحد أبناء السلطان الشيخ عويس. [انظر: شرح كتاب الأدوار، مكتبة متحف سراي طوب قابي، أحمد الثالث، رقم 3470، ورق 40b - 41b].

وبعد أن تم الاستيلاء على أذربيجان في عام 1386م من قبل تيمور، سافر مع أحمد بهادر إلى بغداد. وبسبب اشتداد الصراع السياسي في المنطقة وصعوبة ظروف الحياة هناك اضطر أحمد بهادر للانتقال إلى مصر، وهو ما دفع المراغي إلى العبور إلى بلاد ماوراء النهر. وفي عام 1398م أرسل إلى سمرقند مصحوبا بنيشان سلم له من قبل تيمور. وهناك أصبح الصديق المقرّب لحفيد تيمور وولي عهده غياث الدين محمد ميرزا، وبطلب منه رتب مائتي قطعة موسيقية سماها «دور مائتين». وفي هذه المرحلة لقي احتراما خاصا في قصر أبناء السلطان وأصبح من بين أعيان المدرسة. كما أنه كتب «جامع الألحان» في هذه المنطقة (1405م).

وبعد وفاة تيمور اعتلى العرش حفيده السلطان

خليل (1405 ـ 1409م) فدخل في حمايته. وبطلب من هذا السلطان أنتج «دور القمرية» المتكونة من ثماني مقطوعات.

وبعد أن انهزم السلطان خليل أمام أخيه شاهروه في صراعهما على السلطة انتقل إلى هرات التي كانت تعد مركزا للعلم والفن في تلك الفترة. وهناك ألّف كتابه «مقاصد الألحان» (1418م). وقام بإهداء نسخ من كتابيه «جامع الألحان» و«مقاصد الألحان» إلى السلطان شاهروه (1405م ـ 1447م) وابنه بايسونغور ميرزا. وفي هرات لقي اهتماما كبيرا وخاصة من بايسونغور ميرزا، غير أن وفاته وهو ما يزال في سن الشباب (20 جانفى 1433م) تركت عبد القادر بلا حام لمدة من الزمن. وإثر ذلك انتسب إلى شاهروه وشارك في المجالس التي كان يقيمها في قصره. ووصف الفترة التي قضاها في قصر هرات بأنها كانت فترة عدل، وصاغ ذلك في مقطوعته الموسيقية التي سماها «دور عدل» (مرحلة العدل) والتي تتكون من ثمانية أزمنة، وقد رتّبها وفق أصول جديدة.

وهناك من يذهب إلى القول بأن عبد القادر أهدى نسخا من كتابه «مقاصد الألحان» إلى السلطان مراد خان الثاني(1421 ـ 1451م)، وهذا ما جعل بعض الباحثين يعتقدون بأنه زار الدولة العثمانية، غير أن شيئا من هذا القبيل لم يرد ذكره في مؤلفاته. ثم إن التطورات السياسية في تلك الفترة تبيّن أنه كان من غير الممكن زيارته إلى الأناضول. ومن هنا يمكن القول أنه من الصعب قبول هذه الفرضية ما لم تظهر أدلة أخرى تثبت هذا الأمر. وخلال السنوات الأخيرة من عمره لم يحظ بالاهتمام الذي كان يتمناه من شاهروه لكثرة خروجه إلى الغزو وبسبب الانتفاضات الداخلية التي كانت تحدث في تلك الفترة. ولمّا تقدم في السنّ ضاقت به الحال. فأعدّ طلبا يخاطب فيه الحاكم. ويعتقد أنه لم يعرضه عليه، إذ توفي خلال الفترة ما بين شهري فبراير ويوليو من عام 1435م بسبب الوباء الذي انتشر في مدينة هرات.

كان المراغي متمكنا من جميع المقامات الموسيقية الموجودة في وقته. كما أنه رتب مجموعة من الأصول ترتيبا جديدا. (تحدث عبد القادر عن الأصول التي رتبها انطلاقا من الأسفل إلى الأعلى). وكانت له قدرة كبيرة على إبداع الألحان الاستثنائية الصعبة، وجلب الاهتمام بمهارته في العزف على الكثير من الآلات الموسيقية وخاصة العود، واكتسب شهرة واسعة وأصبح من الفنانين النادرين الذين لديهم قدرة على التنظير والتلحين والأداء. ولهذا الاعتبار فهو يعتبر من أشهر الموسيقيين في تاريخ الموسيقى التركية. وبالإضافة إلى ذلك فقد كان يجيد الرسم والخط على الأشكال الستة (الأقلام الستة). كما كتب الشعر باللغة العربية، واللغة الفارسية، واللغة التركية. وكان أيضا حافظا للقرآن الكريم وعالما بـ «القراءات» وله صوت جميل في التجويد. ومن بين الخصائص التي زادت شهرته إبداعه لمعزوفات مثل: «صازى كاسات چيني» و«صازى ألواح» و«صازى مرصع غيبي» (القانون المذكور الغيبي)، كما تميّز بتطويره للصاز مثل آلة الشهرود وإدخالها في عالم الموسيقى.

قام المراغي بتلحين العديد من الآثار، وليس من شك في أنه أنار طريق الملحنين الذين جاؤوا من بعده. ومن جانب آخر يمكن

ملاحظة عدد كبير من مقطوعاته الملحنة في مجموعاته المكتوبة. ولم يصلنا منها سوى 45 نوطة. غير أن مئات السنين التي مرت الآن على إنتاج تلك الألحان وانتقالها مشافهة عبر الزمن يمكن أن تكون أحدثت تغييرات في هذه الألحان، ولهذا السبب فإن هذه الألحان ربما لم يكن بالإمكان نسبتها إليه بشكل ثابت. ونلاحظ أن الدراسات التي قام بها بعض الباحثين المعاصرين ظلت منقوصة ومتناقضة بسبب المعلومات القليلة الموجودة في مؤلفات عبد القادر المراغي وكذلك بسبب المعلومات غير الكافية الموجودة في مؤلفات الذين جاؤوا من بعده مثل شرف الدين علي يزدي، ودولتشاه سمرقندي، ومعين الدين محمد الإسفزاري، وغياث الدين محمد حندمير. ومن أبرز من قام بهذه الدراسات المعاصرة نجد محمد علي تربيت، ورؤوف يقطا، وهنري جورج فرمر. ومن أجل تصحيح هذه الأخطاء من الضروري الحصول على معلومات أوسع بشأن حياته، ونعتقد أنه من الممكن الحصول على مصادر جديدة في هذا الموضوع.

لعبد القادر ثلاثة أبناء، أصغرهم يُدعى عبد العزيز، قام بتأليف كتاب في الموسيقى أسماه «نقاوة الأدوار» وأهداه إلى السلطان محمد الفاتح، وقد جاء الى استانبول والى القصر السلطاني. كما أن عبد العزيز ترك ولدا سماه محمودا عاش في عهد السلطان بايزيد الثاني وكتب كتابا في الموسيقى بعنوان «مقاصد الأدوار».

آثاره

جميع مؤلفاته في الموسيقى، ويمكن ترتيبها على النحو التالي:

1 ـ جامع الأحكام، هي مقدمة متعلقة بنظرية الموسيقى، وهو مؤلف يتكون من اثني عشر بابا وخاتمة، كتبه في عام 1405م، وتوجد نسخة من هذا المؤلف في مكتبة نور عثمانية [رقم 3644]. وقد نشر هذا المؤلف من قبل تاكي بينيش اعتمادا على هذه النسخة [طـــهـــران 1366هـــ. ش/ 1987م]؛ 2 ـ مقاصد الألحان، كتب هذا المؤلف في هرات عام 1418م، ويتكون من مقدمة واثني عشر بابا وخاتمة، وهو كتاب نظري، وتوجد منه نسخ كثيرة. وتوجد منه نسخة في متحف سراي طوب قابي مستنسخة في عام 1434 [روان، رقم 1726]. وهذا المؤلف أيضا نشر من قبل تاكي بينيش [طهران 1344هـ. ش/ 1966م]؛ 3 ـ كنز الألحان، وتوجد منه نسخة وحيدة في مكتبة الملك بطهران [رقم 6317]، وقد فقد هذا الكتاب من عهد عبد القادر إلى حدود وقت قريب. ويتكون هذا الكتاب أيضا من مقدمة واثني عشر بابا وخاتمة. ومن ناحية المحتوى فهو لا يختلف كثيرا عن بقية كتبه النظرية الأخرى؛ 4 ـ رسالة الفوائد العشر، تتكون من عشرة أقسام، وقد سمي كل قسم منها بـ «فائدة»، وهو كتاب نظري، وتوجد منه نسخة في مكتبة نور عثمانية رقم [3651/II]؛ 5 ـ شرح كتاب الأدوار، وهو شرح لـ «كتاب الأدوار» الذي ألفه صفي الدين عبد المؤمن، وهو في نظريات الموسيقى. وهو عبارة عن «مقدمة» متكونة من ثلاثة فصول، وباب سماه «مقالة» وخاتمة. وتوجد نسخة المؤلف في مكتبة نور عثمانية [رقم 3651/I] وقد نشر المؤلف من قبل تاكي بينيش (طهران 1991)؛ 6 ـ زبدة الأدوار، هذا المؤلف، أول من تحدث عنه

رؤوف يقطا بك في إحدى مقالاته [متابعات تاريخية حول الموسيقى التركية القديمة I، الأصول، مجلة المتابعات الوطنية، 3/I، ص460]. وتوجد هذه النسخة في مكتبة سپاهسالار في طهران، وقد اعتمد فيها على النسخة التي استنسخها فتح الله الشيرواني من نسخة خط المؤلف المؤرخة بتاريخ 6 شوال 845 [رقم 565]. وبالإضافة إلى ذلك توجد نسخ أخرى في مكتبة مليك والمكتبة الوطنية في طهران.

ألّف الكتابين الأول والثاني عندما كان في تركستان الغربية، أما الكتب الأخرى فقد كتبها باللغة الفارسية عندما كان في دولة الجلايريين في أذربيجان. ويلاحظ أن مؤلفاته كانت تنضج أكثر كلّما تقدمت في الزمن، ويمكن القول إنه لا يوجد اختلاف كبير فيما بينها. ويظهر ذلك بشكل خاص عندما نقارن بين كتاب «جامع الألحان» وكتاب «مقاصد الألحان». وإذا كان هنري جورج فارمر يتحدث عن أن كتاب المراغي المسمى «كتاب الأدوار» هو بمثابة نظرية موسيقية باللغة التركية [الموسوعة الإسلامية، وزارة التعليم الوطنية I، 84] فإن المتأمل في هذا المؤلف سواء من ناحية المحتوى أو من ناحية الأسلوب يكتشف أنه لا يوجد شبه بينه وبين بقية مؤلفات عبد القادر الأخرى، وهو عبارة عن رسالة صغيرة في الموسيقى.

■ المصادر والمراجع

● المراغي، عبد القادر، جامع الألحان، مكتبة نور عثمانية، رقم 3544، ورق، 48b - 50a, 54b - 55a, 118a؛ ● المؤلف نفسه، مقاصد الألحان، مكتبة نور عثمانية، رقم 3656، ورق 102b - 103a, 1b - 2a, 3a, 86a - 87b؛ ● المؤلف نفسه، رسالة الفوائد العشرة، مكتبة نور عثمانية، رقم I/3651، ورق 108a - 107b, 105b, 98b - 96b, 92b - 91a؛ ● المؤلف نفسه، شرح كتاب الأدوار، مكتبة متحف سراي طوب قابي، أحمد الثالث، رقم 3470، ورق 40b - 41b؛ ● دولتشاه، تذكرة الشعراء، ترجمة نجاتي لوغال، أنقرة 1963، 12، 24- II، 348، 1967؛

● Zebîhullah-i Safâ, Târîh-i Edebiyyât der Irân, Tahran 1346 hs., IV, 108-109; ● Hândmîr, Habîbü's-siyer, Tahran 1362 hs., III, 578, 582; IV, 13-14; ● Müneccimbasi Ahmed Dede, Sahâifü'l-ahbâr fî Vekâyi'i'l-âsâr, Istanbul 1285, III, 57; ● Raûf Yektâ, Esâtîz-i Elhân: II, Hâce Abdülkadir Merâgî, Istanbul 1318; ● Mehmet Ali Terbiyet, Dânismendân-i Azerbâycân, Tahran 1314 hs., p. 258-264; ● Muhammed Takî Dânispejûh, Fihrist-i Mîkrôfîlmhâ-yi Kitâbhâne-i Merkezî ve Merkez-i Esnâd-i Danisgâh-i Tahrân, Tahran 1363 hs., p. 166; ● Takî Bînîs, Câmi'u'l-elhân, Tahran 1366 hs.; ● George Sarton, Introduction to The History of Science, New York 1975, III/2, p. 1570-1571; ● Murat Bardakçi, Maragali Abdülkadir, Istanbul 1986; ● Rauf Yekta Bey, «Eski Türk Mûsikîsine Dair Tarihî Te-

tebbûlar I: Kökler», Millî Tetebbûlar Mecmuasi, Istanbul I/3, p. 457-463; • Henry George Farmer, «Abdalqadir Ibn Gaibi on Instruments of Music», Oriens, Leiden 1962, XV, 242-248; Abdülkâdir-i Merâgî, «Abdülkâdir», Islâm Ansiklopedisi (Millî Eğitim Bakanliği), I, 83-85; Abdülkâdir-i Merâgî, «Abd al-Kadir b. Ghaybi», The Encyclopaedia of Islam (New edition), I, 66-67; • M. Kemal Özergin, «Hâce Abdülkâdir Marâgî'nin Manzum bir Arzihâli», Kemal Ciğ'a Armağan, Istanbul 1984, p. 131-156; • Ehad Arpad, «Abdülkadir Merâgî», Küçük Türk-Islâm Ansiklopedisi, Istanbul 1974, I, 25- 26; • Nuri Özcan, «Türk Mûsikîsinin Abide Sahsiyetlerinden Abdülkâdir-i Merâgî», Türkler, Ankara 2002, VIII, 901-904;• Abdülkâdir-i Merâgî, «Abdülkâdir-i Merâgî», Türkiye Diyanet Vakfi Islâm Ansiklopedisi, I, 242-244.

د. نوري أوزجان
جامعة مرمرة - استانبول - تركيا
ترجمة: مصطفى بن الطاهر
الستيتي - تونس

■ الخادمي، أبو سعيد محمد بن مصطفى

(ت 1176هـ/1762م) ■ ■ ■

أبو سعيد محمد بن مصطفى بن عثمان الحسيني النقشبندي الرومي المعروف بالخادمي، فقيه، أصولي، واعظ من علماء الحنفية، ذو مسحة صوفية، أصله من بخارى، ومولده ووفاته في قرية «خادم» من أعمال ولاية قونية بالأناضول، قرأ على أبيه وغيره واشتهر بدرس ألقاه في آيا صوفيا باستانبول في تفسير الفاتحة [الزركلي، الأعلام، 7/ 68].

كان بيته بيت علم وفقه، فقد كان لأخيه أحمد بن مصطفى رسائل ومقالات، كما عرف أبناؤه الثلاثة، عبد الله، وسعيد، ومحمد بالمشاركة في العلم، أما عبد الله (ت 1192هـ) ففقيه أصولي واعظ صنف «منافع الدقائق» وهو شرح على كتاب أبيه «مجامع الحقائق» في الأصول وله أيضًا شرح على «الوصايا الخادمية» لوالده أيضًا [كحالة، معجم المؤلفين، 6/ 141]. أما سعيد، وهو الذي يكنى به (ت 1213هـ) فهو عالم مشارك توفي بمكة، له «حاشية على تفسير البيضاوي»، و«شرح قصيدة البردة» و«شرح الشمائل» للترمذي وغيرها [م.ن، 4/ 231]، أما محمد فقد كان حيا (سنة 1186هـ) وكان فاضلا من آثاره «جواهر البحار في أحكام القرآن» [م.ن، 11/ 213].

توفّي أبو سعيد الخادمي سنة ست وسبعين ومائة وألف هجرية.

■ آثاره

1 ـ مجامع الحقائق وجوامع الروائع والفوائد من الأصول، وهو متن مختزل في أصول الفقه، جعله على مقدّمة وبابين، المقدّمة في ماهيته وموضوعه وغايته، والباب الأول في الأدلّة، وفيه أربعة أركان (الكتاب، السنة، الإجماع، القياس) يبحث في كل ركن ما يتعلّق به من مسائل الأصول، والباب الثاني في الأحكام وفيه أيضًا أربعة أركان (الحكم، والحاكم، والمحكوم به، والمحكوم عليه)، ثم جعل له خاتمة جمع فيها مجموعة كبيرة من القواعد الفقهية، عرضها بنصوص دونما شرح ورتبها على حروف المعجم، بلغت أربعة وخمسين ومائة قاعدة، وقد شرحها مع شرحه للكتاب، الأصولي محمد الكوز الحصاري البولداني في كتابه «منافع الدقائق» تحت عنوان «خاتمة في بيان قواعد كلية أو أكثرية مهمة نافعة» وقد فرغ من تأليفه سنة 1246هـ، ط. في مجلد التاريخ 1288 هـ وله طبعة ثانية بتاريخ 1303هـ وكان الشارح ـ صاحب منافع الدقائق ـ قد رأى أم كتاب الخادمي مشتمل على غرر مسائل الأصول ولكنه لم يكن له شرح يحل غوامض الألفاظ ويكشف عن معانيها، فوضع له شرحا هو اقتباس من الكتب المعتبرة مثل «مرآة الأصول وحواشيه» و«قطعة الشرح» لابن المصنّف عبد الله بن محمد الخادمي و«التوضيح» و«شرح المنار» لابن ملك و«التغيير» لابن الكمال وغيرها؛ 2 ـ البريقة المحمودية في شرح الطريقة المحمدية والشريعة النبوية في السيرة الأحمدية، للبركلي (ت 981هـ) فرغ من تأليفها في رمضان سنة 1168هـ، وهو كتاب في التصوّف والموعظة، ط. في أربعة أجزاء، بولاق 1258هـ ومصر 1268هـ، وبهامشها «الوسيلة في شرح الطريقة المحمّدية»، تأليف الحاج رجب بن أحمد، أستانة 1318هـ؛ 3 ـ حاشية على درر الحكام وشرح غرر الأحكام، في الفقه الحنفي، كلاهما لمحمد بن فرامز المعروف بملا خسرو (ت 885هـ)، وكان الخادمي قد فرغ من تأليف هذه الحاشية سنة 1154هـ، ط. طبعتين بالأستانة، الأولى سنة 1269هـ، والثانية سنة 1310هـ؛ 4 ـ العرائس والنفائس في المنطق، شرحه الحاج نجيب العينتابي المدرّس بالمدينة المنوّرة (ت 1219هـ)، وهو شارح الشفا للقاضي عياض.

وله رسائل عديدة منها: 5 ـ خزائن الجواهر ومخازن الزواهر، وهي رسالة في الكلام على البسملة، ط. آستانة 1261هـ [سركيس، معجم المطبوعات، ص 808]؛ 6 ـ شرح الرسالة الولدية، للغزالي؛ 7 ـ رسالة في حكم قراءة آية الكرسي عقب الصلاة، مخطوط، دار الكتب المصرية؛ 8 ـ رسالة في تفسير «قل اللهم مالك الملك»، مخطوط؛ 9 ـ رسالة في الأحاديث الضعيفة [كحالة، معجم المؤلّفين، 12/ 31]؛ 10 ـ رسالة في حقيقة كلمة التوحيد عند الكلاميين والصوفية، مخطوط في دار الكتب؛ 11 ـ رسالة في التصوّف، وهي كشف الخدر عن حال الخضر [البغدادي،

إيضاح المكنون، 21/ 359] وغير ذلك من الرسائل والمقالات.

المصادر والمراجع

● ابن محمد، مصطفى، الكوز الحضاري البولداني، منافع الدقائق في شرح الحقائق، لأبي سعيد الخادمي، ط. في مجلد، مطبعة الحاج محرم أفندي، ط. 1288هـ، و1303هـ؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، إيضاح المكنون، وهدية العارفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت؛ ● سركيس، يوسف إليان، معجم المخطوطات، مطبعة سركيس، مصر 1346هـ/ 1928م؛ ● الحافظ، محمد مطيع، فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية، فقه الحنفي، دار أبي بكر، دمشق، 1401هـ/ 1981م؛ ● عبد الوهاب، إبراهيم، أبو سليمان، كتابة البحث العلمي، دار الشروق، جدة، ط1، 1400هـ/ 1980م؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط8، 1989م؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، 15 ج، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

د. هشام قريسة
جامعة الزيتونة ـ تونس

الخارجي، منصور الحاج إبراهيم الخليل

(1297هـ/1878م ـ 1364هـ/1944م)

هو منصور الحاج إبراهيم الخليل (النواخذا الفنان).

ولد بجزيرة (خارك) إحدى جزر الخليج العربي عام 1297هـ/ 1878م. ثم انتقل، وهو صغير، مع والده إلى جزيرة فيلكا عام 1305هـ.

ويذكر الخارجي في مقدمة كتابه «القواعد» عن أول مرحلة له في تلقي العلم قوله: «كان أول أسفاري مع أخي علي عام 1313هـ في «البغلة» المسمى "سلامتي" لتعلم علم البحر، وقد أخذت درك التعليم سنة 1324م، (الدرك في اصطلاح البحارة، مسؤولية قيادة السفينة). وفي هذه السنة كنت مع أخي علي في خدمة الوالد الحاج إبراهيم الخليل».

وهكذا تخصّص في قيادة السفن وأصبح ربانا ماهرا، فتنقل في قيادة عدة سفن تجارية كبيرة بين موانئ الخليج العربي والهند وإفريقيا، وزار كلًّا من اليمن، وسيلان، وسواحل الصومال، وزنجبار، وجزائر القمر؛ ووصل حتى مدغشقر، ووضع أشكالا ورسومات لأشكال الجبال وحركة دوران الشمس.

عرف النواخذا «الخارجي» بالشجاعة

والإقدام والتصرف بحكمة في الأمور الصعبة التي واجهته أو واجهت أحدا من زملائه في الموانئ، وظهرت حكمته مما قدمه من نصائح مكتوبة لربابنة السفن الشراعية، مثل وصيته لهم بوجوب اليقظة والانتباه عند قيادة دفة السفينة أو في قواعد القسمة ومعرفة النجوم التي تستخدم للدلالة وكيفية استخراج القبلة. كما وضع جداول بالشهور والسنين.

ومن نصائحه الملاحية: «اعلم، يكون النوخذة حاضر الفكر، منتبها لعلايم البحر وممشى المركب وبُعد المسافة واختلاف جوش الشراع (مقدمته)، والمايات (أي اختلاف مياه البحر أثناء المد والجزر وهي جمع ماية)، ولا تفضل عند أهل السكان وتتوانى في البلد (المسيار) خصوصا إذا كان (الطقس) شتاءا والجو باردا، والإنسان يقوم للأشغال متكاسلا، فينبغي على النواخذة السّهر والحرص على السندان (أي توجيه المركب الوجهة الصحيحة) والبلد، وأن يحسب ساعات ممشاه مع المسافة التي بينه وبين المكان المقصود بتقريب الباطلي والسكروب (من الآلات الملاحية الخاصة بالرصد وقياس المسافات) حيث يعرف ساج المركب في الساعة كم ميل مشى من الهموم والمشاق وهو في غنى عن ذلك، وإذا كان مرتدي(كذا) في رداء العدالة ومتوسما في حركاته في الأمور، فيحق له هناك إذا قام في هذه الوصية أن يسمى رئيسا».

آثاره

- كتاب القواعد والميل والنتيجة وعلم البحر، هو مخطوطة تقع في 193 صفحة من القطع الكبير.

وتضم مقدمة، ثم قياسات الطول والعرض، والظواهر الطبيعية سواء في البحر أو البر للموانئ والتضاريس من شط العرب حتى سيلان جهة اليمين، ومن جهة شط العرب حتى اليمن وسواحل البحر الأحمر وخليج السويس جهة اليسار.

وهناك قسم آخر من اليمين وهو سواحل الصومال «وزنجبار وجزائر القمر حتى مدغشقر» بالإضافة إلى رسومات توضيحية وإرشادات لمداخل المدن ورسومات لأشكال الجبال والتضاريس وحركة دوران الشمس.

وهناك قسم عبارة عن نصائح لربابنة السفن الشراعية ، بخصوص أمور المركب والشراع، ويقظة وانتباه صاحب الدفة، وقواعد القسمة ومعرفة النجوم، وكيفية معرفة القبلة، وقسم بجداول الشهور والسنين بالإضافة إلى العديد من المعلومات والفوائد والنتف التاريخية والأدبية متناثرة في صفحات المخطوطة.

وكتاب الخارجي من نوع (الرحمْني) وهو أشبه بالمذكرة سجلها في رحلاته يرجع إليها وقت الحاجة. ولم يجمع معلومات الكتاب دفعة واحدة في سنة أو سنتين، وإنما جمعها، في فترات متقطعة، وكتبت أجزاؤه في تواريخ متباعدة طوال حياته البحرية الممتدة على مدى أحد عشر عاما (1324 ـ 1313هـ) قبل أن يتعلم الملاحة ويصبح معلما (والمعلم أعلى من الربان مرتبة عند المتأخرين)، والأمثلة الآتية توضح ذلك:

الموضوع	تاريخ كتابته
جداول المنازل بحساب النيروز	1352هـ/1933م
جداول الميل بحساب الأشهر الشمسية	1355هـ/1936م
إشارات الباخرة في سيرها بشط العرب	1357هـ/1938م
وأملمها مركب شراعي معرفة القبلة في كل بلد	1358هـ/1939م
طريقة عمل طول من الساعة	1358هـ/1939م
قاعدة استخراج المساج والعرض والطول من دون باطلي	1359هـ/1940م
جداول العرض والطول للبلدان البحرية	1359 ـ 1360هـ/1940م ـ 1941م
نصائح بخصوص الشراع والمركب	1360هـ/1941م
مسائل في الضرب والقسمة	1360هـ/1941م
قصيدة لعبد الرحيم البرعي	1360هـ/1941م
قصيدة من حفظ جاسم بن نصر الله	1360هـ/1941م
تركيب الساعة على غروب الشمس إذا اردت أن تتحول من جهة إلى جهة.	1362هـ/1943م

ويتبين من هذه الأمثلة أن «منصورالخارجي» قد أضاف إلى هذا الكتاب بعد أن «دخل في ملكه» كما قال في سنة 1358هـ/ 1938م، جداول العرض والطول، أو أنه استبدل بها ما كان موجودا منها من قبل في الكتاب، وأنها نقلت من (النوالي) الجديدة الطبع التي نقل عنها القطامي من قبله. وهو عيسى بن عبد الوهاب القطامي ولد بالكويت سنة 1287هـ، إذ أن جداول العرض والطول للبلدان البحرية أهم جزء في الدليل البحري ولم يفارق منصور البحر، إلا بعد سنة 1362، إذ لا يوجد تاريخ مسجل بعد هذه السنة في الكتاب.

المصادر والمراجع

● منصور، إبراهيم الخليل، كتاب القواعد والميل والنتيجة وعلم البحر، مخطوط 1939؛ ● خالد، سالم محمد، ربابنة الخليج العربي ومصنفاتهم الملاحية، الكويت 1982؛ ● حسن، صالح شهاب، علوم العرب البحرية من ابن ماجد إلى القطامي، منشورات مجلة دراسات الخليج.

د. صبري فارس الهيتي
جامعة بغداد ـ العراق

ابن أبي خازم، بشر بن عمرو بن عوف

(ق 5م - 6م)

شاعر جاهلي وفارس من شجعان بني أسد بن خزيمة ومسكنهم نجد، متصرف في فنون الشعر، مجيد فيها جميعاً، سريع البديهة في النظم، نافح بشعره عن قومه وبنى لهم مجداً، لاهجاً بأيامهم وانتصاراتهم.

هو بشر بن عمرو (أبي خازم) بن عوف بن حميري بن أسامة بن والبة [تاريخ اليعقوبي، 1/ 263] .. من بني أسد بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر [سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب، للبغدادي] وقد مرّ زمن على قبيلة أسد كانت فيه قليلة العدد، ضعيفة فحكمها ملوك كندة. ثم تكاثرت وقويت فثارت بحجر بن الحارث الكندي، والد امرىء القيس الشاعر، وقتلته، وظلت مستعصية على انتقام امرىء القيس. وبعد أن حاربت أسد طيئاً عادت وتحالفت وطيئاً وغطفان. ثم لحقت بهما ضبّة، فغدوا قوة هائلة، مما اجتذب لهم عداوات كثيرة. وهذا كله يشكل أحد أهم المحاور في شعر بشر.

لم تذكر المصادر القديمة شيئاً عن نشأة بشر، كما لم تحدد أياً من تاريخي ولادته ووفاته. لكن أخباره تشير إلى أنه كان معاصراً للنابغة، ولحاتم الطائي، والحطيئة، والنعمان بن المنذر أبي قابوس، وهذا يدل على أنه عاش في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي، ولعله أدرك النبي ﷺ قبل بعثه، إنما لا شيء يشير إلى إدراكه الإسلام. ويذكر الجاحظ أن بشراً أدرك الفُجار، والنبي ﷺ شهد الفجار [الحيوان، 6/ 275 - 278].

حدد الزركلي وفاته في العام 92 ق.هـ/ 533م [الأعلام، 2/ 27] وفي موسوعة الشعر العربي حُددت وفاته في عام 32ق.هـ [الشعر الجاهلي، 1/ 441]. فيما يرى بروكلمن أنه عاش بين 560 و600 ميلادية [تاريخ الأدب العربي، 1/ 118].

أما وفاته فتشير الأخبار إلى أنه مات مقتولاً بسهم أصابه به غلام وائلي في ثندوته (عضلة الصدر فوق القلب) وذلك في إحدى غارات بشر على الأبناء من بني صعصعة، في مكان يقال له «الرده». يقول في قصيدته التي رثى بها نفسه قبيل موته، مخاطباً ابنته:

فإن أباكِ قد لاقى غلاماً
من الأبناء يلتهب التهابا

وإن الوائليّ أصاب قلبي
بسهم لم يكن يُكسى لُغابا

لم يرد في الأخبار، ولا في شعر بشر، ما يشير إلى والديه أو أعمامه أو أخواله ويبدو أن له أخاً (أو ابن أخ) اسمه سوادة ارتبط ذكره بتصحيح خطأ الإقواء الذي كان يقع فيه بشر [خزانة الأدب، للبغدادي، 3/ 12؛ والأغاني، 11/ 9].

وفي ديوان بشر قصيدتان ومقطوعة في رثاء أخ له اسمه سُمير مات مقتولاً، فيصفه بالشجاعة والحلم والكرم والعطف على الأرامل. من ذلك:

يا سُميرُ، من للنساء إذا ما
قَحَطَ القَطْرُ، أمَّهاتِ العيالِ
كنتَ غيثاً لهنّ في السنةِ الشهـ
باءِ، ذات الغُبارِ والإمحالِ

وكانت له ابنة اسمها عُميرة، ذكرها في القصيدة التي رثى بها نفسه وصوّرها تنتظر أوبته، كالعادة، محمّلاً بالأسلاب والهدايا، تستعرض الركب العائدين بحثًا عنه، لعلها كانت لا تزال صبية تعيش في كنفه:

اسائلةٌ عُميرةُ عن أبيها
خلالَ الجيش تعترفُ الرِّكابا
تؤمِّلُ أن أؤوب لها بنهبٍ
ولم تعلم بأن السهمَ صابا

كما لم تأت المصادر على أية ملامح من نشأة بشر وعلاقاته العائلية، فهي تجاهلت علاقاته الشخصية إلا من إشارة عابرة في الأغاني [الأغاني، 17/ 281] إلى أنه كان يتردد على حاتم الطائي في شهر الذبائح رجب، فيقيم عنده ويمدحه، ومن إشارة عابرة أخرى، في الموشّى، إلى حبه هنداً أو هنيدة. عدا ذلك فالعلاقة المهمة في حياته هي بأوس بن حارثة ابن لأم.

ارتضى بشر أن يهجو أوس بن حارثة مقابل ثلاثمئة ناقة بذلها له حاسدو أوس من قبيلته. هجاه بخمس قصائد وأساء إليه حتى نذر أوسٌ لئن أمسكه ليُحرقنّه. مما قاله بشر في هجاء أوس، واصفاً قومه بالبخل والجبن وخفر الذمة، ساخراً من نذره:

لئامُ الناسِ، ما عاشوا، حياةً،
وأنتنُهم، إذا دُفنوا، قبورا
فقولَنْ للذي آلى يميناً
أفيَّ نذرتَ، يا أوسُ، النذورا؟
فباستِكَ حارَ نذرُك يا ابن سُعدى
وحُقَّ لنذرِ مثلكَ أن يحورا

وقد أغار أوس على إبل بشر فاستباحها. وحين وقع بشر أسيراً عند بني نبهان بذل لهم أوس مئتي ناقة وتسلّمه منهم. لكنه لم ينفذ وعيده بل عفا عنه وردّ إليه إبله وأنعم عليه وألبسه حلته وحمله على مركبه، فقال له بشر: «لا جَرَمَ والله، لا مدحتُ أحداً حتى أموتَ غيرك» [الكامل للمبرد، 1/ 232؛ الكامل في التاريخ لابن الأثير، 1/ 382] وفي ذلك يقول بشر:

وإني، إلى أوسٍ، ليَقْبَلَ عُذرتي
ويعفو عني، ما حييتُ لراغبُ
فإني سامحو، بالذي أنا قائلٌ،
به صادقاً، ما قلتُ إذ أنا كاذبُ

وبالفعل راح بشر يمدح أوساً وأهل بيته بمكان كل قصيدة هجاهم بها. فهجاهم بخمس ومدحهم بخمس. [خزانة الأدب، للبغدادي، 4/ 402 وما بعد؛ بلوغ الأرب للألوسي، 1/ 84].

مما قاله في مدح أوس:

إذا ما المكرُماتُ رفعنَ يوماً
وقَصَّرَ مبتغوها عن مداها

وضاقتْ أذرعُ المثرين عنها
سما أوسٌ إليها فاحتواها
له كفّان: كفٌ كفُّ ضُرٍّ
وكفٌّ فواضلٍ خَضِلٌ نداها

الفخر، والمدح، والرثاء، والهجاء هي المواضيع التقليدية في الشعر الجاهلي، وهي كلها تتبلور في شعر بشر، فضلاً عن المقدمات الطللية والغزلية وما يستتبعها من وصف الناقة وحمار الوحش والصيد والقفار الصعبة تجتازها ناقته. والجدير بالملاحظة أن بشراً، في فخره وهجائه، استنفد ذكر الحروب ووصف المعارك وتفاصيل الضرب والطعن والقتل والجرح، والهجوم، والهرب، والنصر والهزيمة. ولا غرو في ذلك لأن بشراً لم يكن مجرد شاعر متفرج وإنما كان فارساً يشارك في الحروب، بل إنه، بسلاطة لسانه، أثار الحرب بين أسد وطيِّىء.

ونذكّر هنا بأن قوام الفخر والرثاء والهجاء هو صفات المثالية العربية لا الصفات الحقيقية التي يتصف بها المعنيون بهذه الفنون. فبشر، شأن معظم الشعراء الجاهليين، يضفي صفات النموذج المثالي العربي على نفسه وقومه في حين يصف أعداءهم بضدها. ولهذا نجده وقومه وحدهم يجسّدون الشجاعة والقوة ونجدة المستغيث وإطعام الضيف وغوث الأرامل عندما يشحّ الرزق في السنين العجاف.

الحروب التي يتحدث عنها تتمحور حول يومي النّسار والجفار.

فيوم النّسار كان بين أسد وطيِّىء وغطفان وضبة وعدي الذين تجمعوا وغزوا بني عامر فقتلوهم قتلاً شديداً. فغضب بنو تميم لقتل حلفائهم بني عامر فتجمعوا حتى لحقوا أسداً وحلفاءها في يوم «الجفار» فقُتلت تميم أشدّ مما قُتلت عامر [الكامل في التاريخ، 1/ 376؛ العقد الفريد، 5/ 248] .

مما قاله بشر في يومي النسار والجفار:

ويومَ النِّسارِ، ويوم الجِفا
رِ كانا عذاباً وكانا غراما
فأما تميمٌ، تميمُ بن مُرٍّ
فألفاهمُ القومُ رَوبى، نياما
وأما بنو عامرٍ بالنِّسارِ
غداةَ لَقُونا، فكانوا نَعاما

وفي الديوان غير مقطوعة يُخيّل لقارئها أن أسداً تحارب، وحدها، معظم قبائل العرب. فهو يتجاوز النسار والجفار إلى قتلهم الملك حجر بن عمرو، ويلتفت إلى القبائل الأخرى:

وبني نُمير قد لقينا منهمُ
خيلاً تضِبُّ لِثاتُها للمَغنمِ
فدهمْنَهمْ دهماً بكلِّ طِمِرَّةٍ
ومقطَّعٍ حلَقَ الرِّحالةِ مِرْجَمِ
ولقد خبطْنَ بني كلابٍ خبطةً
ألصقْنَهمْ بدعائم المتخيَّمِ
وصلقْنَ كعباً، قبل ذلك، صلْقةً
بِقَنا تعاوَرُهُ الأكفُّ، مُقَوَّمِ ..

والمقدمات الطللية الغزلية تكاد لا تخلو منها قصيدة من قصائده، فتشكل في مجموعها ملفاً كاملاً لوصف الطلل وذكر المحبوبة وتذكر أيام الوصال ولحظة الوداع والظعائن. ويمعن بشر في ذرف الدموع متجاوزاً امرأ القيس في

غزارة الذرف. فدموعه تجري كالماء ينسكب من الدلاء:

ودمـعـي، يـوم ذلـك، غـربُ شـنٍّ
بـجـانـب شـهـمـةٍ، مـا تـسـتـريـحُ

ونضيف أخيراً أن أسماء محبوباته غطت معظم عرائس الشعر الجاهلي من سلمى وسُليمى إلى أرام فليلى فأميمة، فهنيدة..

وقد أبدع بشر في نظم أبيات سهلة اللفظ، متينة السبك، تذهب مذهب الحكمة أو المثل. من ذلك:

فـأثـنـوا عـلـيـنـا، لا أبـا لأبـيـكـمُ،
بـإحـسـانـنـا، إن الـثـنـاء هـو الـخـلـدُ

***

قـلـيـلاً، والـشـبـابُ سـحـابُ ريـحٍ
إذا ولّـى فـلـيـس لـه ارتـجـاعُ

لم تكن موهبة بشر الفنية موضع شك عند النقاد القدامى، إنما كان خلافهم على درجة بشر في سلم الشعراء المبدعين، أو الفحول في مصطلحهم.

يروي البغدادي قول الأصمعي: «سألتُ بشاراً عن أشعر الناس فقال: أجمعَ أهلُ البصرة على امرئ القيس وطرفة، وأهل الكوفة على بشر بن أبي خازم والأعشى [خزانة الأدب، 2/ 5].

وفي فحولة الشعراء: «سألت الأصمعي عن خُفاف بن نُدبة، وعنترة، والزِّبرقان بن بدر، قال: هؤلاء أشعر الفرسان، ومثلهم عباس بن مرداس، وبشر بن أبي خازم.. وسمعت أبا عمرو بن العلاء يقول: قصيدته التي على الراء:

ألا بـان الـخـلـيـط ولـم يُـزاروا
وقـلـبُـك، فـي الـظـعـائـنِ، مُـسـتـعـارُ

ألحقته بالفحول» [فحولة الشعراء، 27]

وعن المفضل، بعد ذكر المعلقات السبع، تحدث عن «سبع بعدهن ما هنّ بدونهن» وسماها المجمهرات وهي: لعبيد بن الأبرص، وعنترة.. وبشر بن أبي خازم [جمهرة أشعار العرب، 44].

ومجمهرة بشر ميميته التي مطلعها:

لـمـن الـديـارُ غـشـيـتُـهـا بـالأنـعُـمِ
تـبـدو مـعـالـمـهـا كـلـونِ الأرقـمِ

وفي أمالي المرتضى: ما وصف أحد الثغر إلا احتاج إلى قول بشر:

يـفـلّـجـنَ الـشـفـاهَ عـن اقـحـوانٍ
جـلاه، غِـبَّ سـاريـةٍ، قِـطـارُ

وسئل الفرزدق: من أشعر العرب؟ قال: بشر بن أبي خازم. قيل له: بماذا؟ قال: بقوله:

ثـوى فـي مـلـحـدٍ لا بـدّ مـنـه
كـفـى بـالـمـوتِ نـأيـاً واغـتـرابـا

ثم سُئل جرير، فقال: بشر بن أبي خازم. قيل له: بماذا؟ قال: بقوله:

رهـيـن بـلـىً وكـلُّ فـتـىً سـيَـبْـلـى
فـشُـقّـي الـجـيْـبَ وانـتـحـبي انـتـحـابا

فاتفقا على بشر كما ترى» [المزهر، 2/ 298]

والمأخذ على بشر هو ما ورد في شعره من إقواء. وقد عيب النابغة بذلك ثم أدرك خطأه. أما بشر بن أبي خازم فقال له أخوه سوادة:

إنك تُقوي. قال: وما ذاك؟ قال: قولك: «ويُنسى مثلما نُسيت جِذامُ».

ثم قلت بعده: «إلى البلدِ الشآمِ» ففطن، فلم يعد [الأغاني، 11/ 9].

هذا هو بشر بن أبي خازم الذي عاش فارساً، ورفع الصوت شاعراً، ومات قتيلاً بيد غلام غِرٍّ.

آثاره

أول ديوان عُرف له وضعه أبو عبيدة، من علماء القرن الثاني الهجري، وقد ذكر البغدادي هذا الديوان قائلاً إنه يملك نسخة منه بخط أبي عبيدة الكوفي [خزانة الأدب، 2/ 262]، إنما هذا الديوان لم يصل إلينا. ويذكر بن النديم أن أبا سعيد السكري عمل ديوان بشر، وكذلك عمله الأصمعي، وابن السكيت [الفهرست، 158]. وجميع هذه الأعمال مفقودة.

أما ديوان بشر المتداول فقد جمعه شخص مجهول وحققه الدكتور عزة حسن مستعيناً بمخطوطاتٍ وبأمهاتِ الكتب: المفضليات وفيها تسع قصائد، وجمهرة أشعار العرب وفيها قصيدة، ومختارات بن الشجري وفيها ست قصائد، ومنتهى الطلب من أشعار العرب وفيه تسع قصائد، فضلاً عن أبيات متفرقة في كتب اللغة والأدب والمعاجم.

وقام الدكتور عزة حسن بكتابة مقدمة للديوان سرد فيها ما استطاع جمعه من أخبار بشر كما شرح أشعاره. وقد عُنيت بنشره وزارة الثقافة السورية عام 1972.

وهناك ديوان آخر مطبوع قام بشرحه مجيد طراد، من نشر دار الكتاب العربي، ونشر عادل فريجات دراسته «بشر بن أبي خازم الأسدي» في دار الجيل، بيروت، 1991.

المصادر والمراجع

● ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، 1967م، 1/ 376 وما بعد؛ ● البغدادي، خزانة الأدب، مكتبة الخانجي بمصر، ط2، (أنظر فهرس الأعلام)؛ ● الخطيب التبريزي، شرح اختيارات المفضل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1987م، (انظر فهرس الأعلام)؛ ● الزركلي، الأعلام، لا ناشر، لا تاريخ، ط3، 2/ 27؛ ● ابن الشجري، مختارات بن الشجري، ص 254، 310؛ ● القرشي، جمهرة أشعار العرب، المكتبة التجارية الكبرى، 1926م، ص 45؛ ● المبرد، الكامل، دار نهضة مصر، 1/ 232؛ ● ابن ميمون، محمد بن مبارك، منتهى الطلب من أشعار العرب، تح. محمد نبيل طريفي، دار صادر، بيروت، ط1، 1999م، 2/ 267 وما بعد؛ ● صفدي، مطاع وحاوي إيليا، موسوعة الشعر العربي، شركة خياط، بيروت، 1974م، الشعر الجاهلي، 1/ 441؛ ● المفضل الضبي، المفضليات، تح. د. قصي الحسين، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط1، 1998م، ص 185 ـ 195.

د. سعدي عبد اللطيف ضناوي
الجامعة اللبنانية ـ طرابلس

أبو خازم القاضي، عبد الحميد بن عبد العزيز السكوني

(ت 292هـ/905م)

أخذ العلم عن شيوخ البصرة، وولي القضاء بالشام وبالكوفة وكرخ بغداد.

حدث عن محمد بن بشار، ومحمد بن المثنى، وشعيب بن أيوب، وغيرهم. روى عنه مكرم بن أحمد، وأبو محمد بن زبر.

برع في المذهب الحنفي حتّى فضل على مشايخه وبه يضرب المثل في العقل. قال عنه الإمام الحافظ الذهبي: كان ثقة، ديّنا ورعا، عالما، أحذق الناس بعمل المحاضر والسجلاّت، بصيرا بالجبر والمقابلة، فارضا، ذكيّا، كامل العقل.

قال أبو برزة الحاسب: لا أعرف في الدنيا أحسب من أبي خازم القاضي. ومعرفة الحساب ضرورية في تقسيم الفرائض.

وله شعر رقيق، ولم يذكر مترجموه أنه صنّف كتابا. ولي قضاء دمشق سنة أربع وستين ومائتين بعد وفاة قاضيها محمد بن اسماعيل، وظلّ فيها إلى أن قدم المعتضد قبل خلافته دمشق لحرب ابن طولون، فسار معه أبو خازم إلى العراق.

وقد رويت عن عقله وفطنته في القضاء أخبار طريفة، فمن ذلك ما رواه أبو علي التنوخي بسنده قال: كنت في مجلس أبي خازم القاضي، فتقدّم شيخ معه غلام، فادّعى عليه بألف دينار، فأقر الحدث. فقال القاضي للشيخ: ما تشاء؟ قال: احبسه. فقال للحدث: قد سمعت فهل توفيه البعض؟ قال: لا. ففكر ساعة ثم قال: تلازما حتى أنظر، فقلت: لِمَ أخّر القاضي الحبس؟ قال: ويحك! إني أعرف في أكثر الأحوال وجه المحق من المبطل، وقد وقع لي أن سماحته بالإقرار شيء بعيد من الحق، أما رأيت قلّة تغاضبهما في المحاورة مع عظم المال؟ فبينما نحن كذلك، إذ استبان الأمر، فاستأذن تاجر موسر، فأذن له القاضي، فدخل، وقال: قد بليت بابن لي حدث، يتلف مالي عند فلان المقين، فإذا منعته مالي احتال بحيل يلجئني إلى التزام غرم، وأقربه أنه نصب المقين اليوم لمطالبته بألف دينار، وأقع مع أمه ـ إن حبس ـ في نكد، فتبسّم القاضي، وطلب الغلام والشيخ، فادخلاهما، فوعظ الغلام، فأقر الشيخ، وأخذ التاجر بيد ابنه، وانصرف.

وقد كان أبو خازم رفيع القدر والمكانة عند الخليفة المعتضد، الذي كان يحترمه ويُجِلُّه. ومن آيات ذلك: أن أبا خازم القاضي جلس في الشرقية ذات يوم، فاجترأ خصم على آخر في قضية منظورة، فأمر القاضي بتأديب المعتدي فمات. فكتب رقعة إلى المعتضد من مجلس القضاء قال فيها: اعلم، أمير المؤمنين ـ أطال الله بقاءه ـ أن خصمين حضراني فاجترأ أحدهما إلى ما وجب عليه معه الأدب عندي، فأمرت بتأديبه فمات، فإذا كان المراد بتأديبه مصلحة المسلمين، فمات في الأدب،

فديته واجبة في بيت مال المسلمين، فاذا رأى أمير المؤمنين ـ أطال الله بقاءه ـ ان يأمر بحمل الدية، لأحملها إلى ورثة فعل. فعاد الجواب إليه: بأنّا قد أمرنا بحمل الدية إليك، وحمل عشرة آلاف درهم إليه. فاحضر ورثة المتوفى ودفعها إليهم.

وأورد مترجموه نماذج من مواقفه العادلة الصلبة خلال تولّيه منصب القضاء، فمن ذلك ما رواه ابن الجوزي بسنده في المنتظم قال: إن أحدهم كان يساير أبا خازم القاضي في طريق، فقام إليه رجل فقال: أحسن الله جزاءك أيّها القاضي في تقليدك فلانا القضاء ببلدنا فإنه عفيف، فصاح عليه أبو خازم وقال: اسكت عافاك الله، تقول في قاض إنه عفيف هذا من صفات أصحاب الشرطة والقضاة فوقها. قال: ثمّ سرنا وهو واجم ساعة، فقلت: ما لك أيّها القاضي؟ قال: ما ظننت أني أعيش حتّى أسمع هذا، ولكن قد فسد الزمان، وبطلت هذه الصناعة، ولعمري لقد دخل فيها من يحتاج الفاضل معه إلى التقريظ، وما كان الناس يحتاجون إلى أن يقولوا: فلان عفيف حتّى تقلّد فلان!..

ومن نماذج عدله ومجابهته أصحاب السلطان، أنّ الوزير عبيد الله بن سليمان قد خاطبه مرّة في بيع ضيعة ليتيم تجاور بعض ضياعه، فكتب أبو خازم إليه: «إن رأى الوزير ـ أحسن الله إليه ـ أن يجعلني أحد رجلين: إما رجل صين الحكم به، أو رجل صين الحكم عنه».

ولقد تجلّت آيات عدل هذا القاضي ممّا ندر أمثالها في عصور سلفت، في عدة مواقف عادلة صلبة وقفها في مواجهة المعتضد ـ خليفة زمانه ـ. روى ابن الجوزي بسنده، أنّ الخليفة العباسي المعتضد، وجه إليه بطريف المخلّدي فقال له: ان للمعتضد على الضبعيّ مالاً، وقد بلغه أنّ غرماءه ثبتوا عندك، وقد قسطت لهم في ماله، فاجعلنا كأحدهم. فأجابه القاضي: قل له ـ أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ـ ذاكر لما قال لي وقت ما قلدني: أنه أخرج الأمر من عنقه وجعله في عنقي؟ ولا يجوز لي أن أحكم في مال رجل لمدع إلّا ببينة، فرجع طريف إلى الخليفة فأخبره بما قاله القاضي، فقال له: قل له فلان وفلان يشهدان ـ يعني رجلين جليلين كانا في ذلك الوقت ـ فأجابه القاضي: يشهدان عندي، وأسأل عنهما فإن زكيا قبلت شهادتيهما، والا أمضيت ما ثبت عندي. فامتنع أولئك من الشهادة فزعا، ولم يدفع إلى الخليفة المعتضد شيئا.

ومن آيات عدله وصلابته في الحق، ما ذكره ابن الجوزي بسنده قال:

حدثني وكيع القاضي قال: كنت أتقلّد لأبي خازم وقوفا في أيام المعتضد منها وقوف الحسن بن سهل، فلمّا استكثر المعتضد من عمارة القصر الحسني أدخل اليه بعض وقوف الحسن بن سهل التي كانت مجاورة للقصر، وبلغت السنة آخرها وقد جبيت مالها ـ الا ما أخذه المعتضد ـ فجئت إلى أبي خازم فعرفته اجتماع مال السنة، واستأذنته في قسمته في سبيله، فقال لي: فهل جبيت ما على أمير المؤمنين؟ فقلت له: ومن يجسر على مطالبة الخليفة؟ فقال: والله لأقسمت الارتفاع أو تأخذ ما عليه، ووالله لئن لم يزح العلة لا وليت له عملا! ثم قال: امض إليه الساعة فطالبه. فقلت: من يوصلني؟ قال: امض إلى

صافي الحرمي وقل له: إنك رسول أنفذتك في مهم، فإذا توصّلت تعرفه ما قلت لك. فجئت فقلت لصافي ذلك، فأوصلني، وكان آخر النهار، فلما مثلت بين يدي الخليفة، ظنّ أنّ أمرا عظيما قد حدث، وقال: هيه! كأنه متشوف. فقلت له: إني أتقلّد لعبد الحميد قاضي أمير المؤمنين وقوف الحسن بن سهل، ومنها ما قد أدخله أمير المؤمنين إلى قصره، ولما جبيت مال هذه السنة امتنع القاضي من تفرقته. إلا أن أجيء بما على أمير المؤمنين، وأنفذني الساعة قاصدا لهذا السبب، وأمرني أن أقول: إني حضرت في مهم لأصل. قال: فسكت ساعة مفكّرا ثم قال: أصاب عبد الحميد. يا صافي هات الصندوق، فأحضر صندوقا، لطيفا، فقال: كم يجب لك؟ فقلت: الذي جبيت عام أول من ارتفاع هذه العقارات أربعمائة دينار، فقال: كيف حذقك بالنقد والوزن؟ قلت: أعرفهما، قال: هاتوا ميزانا فجيء بميزان، وأخرج من الصندوق دنانير عينا فوزن لي منها أربعمائة دينار، فقبضتها وانصرفت إلى أبي خازم بالخبر فقال: أضفها إلى ما قد جمع من مال الوقف عندك، وفرقه في سبيله في غد ولا تؤخر ذلك. ففعلت، وكثر شكر الناس لأبي خازم بهذا السبب، وأقدامه على الخليفة بمثل ذلك، وشكرهم للمعتضد في انصافه.

ومن القصص التي ترسم صورة نقية لعدل القضاة المسلمين في عصور الاسلام الذهبية، ما رواه ابن الجوزي في المنتظم عن عدل المترجم له وصلابته في الحق. قال بسنده: قال: حدثني أبو خازم القاضي قال: كان في حجري أيتام ذكور وإناث خلفهم بعض العمال ورددت أماناتهم إلى بعض الشهود فصار إلى الأمين يوما، وعرفني أن عامل المستغلات ببغداد الذي يتولّى مستغلاً السلطان وعامل بادوريا، قد أدخلا أيديهما في أملاك الأيتام، وذكر أنّ الوزير عبيد الله بن سليمان أمره بذلك عن الخليفة المعتضد، فصرت إلى المعتضد في يوم موكب، فلما انقضى الموكب دنوت منه وشرحت له الصورة فقال: يا عبد الحميد! هذا عامل خانني في مالي واقتطعه، ولي عليه مال جليل من نواح كان يتولّاها من ضيعتي خاصّة، ومالي عليه بضعف هذه الاملاك التي خلفها. فقلت: يا أمير المؤمنين ما تدّعيه يحتاج إلى بيّنة، وقد صحّ عندي أنّ هذه الأملاك أملاكه يوم مات ولا طريق إلى انتزاعها من يد وارثه الا ببيّنة، هذا حكم الله في البالغين، فكيف في الأطفال؟! قال: فسكت ساعة مطرقا، ثمّ دعا بدواة ووقع بخطّه إلى عبيد الله بن سليمان (وزيره) بالافراج عن الضياع.

تلك كانت سيرة المترجم له العطرة. وحين أدركته الوفاة بكى وقال: يا رب! من القضاء إلى القبر.

توفّي أبو خازم ببغداد في جمادى الأولى سنة اثنتين وتسعين ومائتين للهجرة. وذكر أنه دفن بالكوفة.

■ المصادر والمراجع

● الشيرازي، أبو إسحاق، طبقات الفقهاء، تح. إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت 1970، ص141؛ ● ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، حيدر آباد الدكن، الهند

1375هـ، 6/ 52 ـ 56؛ ● الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج13، حقق هذا الجزء علي أبو زيد وخرج أحاديثه شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت 1983م؛ ● الذهبي، تذكرة الحفاظ، تح. عبد الرحمٰن بن يحيى العلمي، دار احياء التراث العربي، بيروت، 2/ 654؛ ● ابن طولون، شمس الدين، الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام، تح. صلاح الدين المنجد، دمشق 1956م، ص20؛ ● ابن عماد الحنبلي، عبد الحي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، المكتب التجاري للطباعة والنشر، 2/ 210، بيروت.

أ. هــلال نـاجـي
باحث في التراث العربي ـ بغداد ـ العراق

الخازن، أبو جعفر محمد بن الحسين

(290هـ/902م ـ 360هـ/971م)

هو أبو جعفر محمد بن الحسين الخازن الخراساني: عالم في الرياضيات وعلم الفلك.

لا نملك معلومات كافية بشأن حياته. هو من أصل فارسي ويفهم من نسبته أنه نشأ في خراسان وربما يكون من ساغان القريبة من مرو، ويعتقد أنه ولد في حوالى عام 290هـ/ 902م، وفي عهد الأمير الساماني منصور بن نوح الأول (961 ـ 976هـ) كان الخازن في بخارى وشغل منصب الوزير في نيسابور، وفي فترة وزارته هذه كتب الفيلسوف المشهور أبو زيد البلخي شرحا لمقدمة كتاب أرسطو [ابن النديم، ص 153] المسمى "السماء والعالم" (De Caclo y Mundo).

يذكر ابن الأثير أن الخازن أرسل من قبل الأمير البويهي ركن الدولة (326 ـ 366هـ/ 937 ـ 976م) ممثلا له في مشاورات الصلح مع أبي علي أحمد بن محتاج وهو أحد قواد الأمير الساماني نوح بن نصر عقب الحرب التي اندلعت بينهما [الكامل، 8/ 504]. وبفضل قرب الخازن من الأمير ركن الدولة فقد دخل هذا الأديب والشاعر في حماية الوزير البويهي أبي الفضل بن العميد (328 ـ 360هـ/ 940 ـ 970م)، وأمضى حياته بعد ذلك في البحث في علم الفلك وتأليف الكتب، ويعتقد أن أبا جعفر الخازن توفي بين عامي 350 ـ 360هـ/ 961 ـ 971م.

وقد بدا لعدد من المؤرخين المعاصرين أن هناك شخصين مختلفين هما: أبو جعفر الخازن الذي يكون قد ألّف كتابا في الرياضيات ثم محمد بن الحسين الذي يكون قد انشغل بعلم الفلك والتنجيم [Sezgin F.: Geschichte des arabischen schrifttums, 5,

Brill, Leiden, 1974, pp. 298-299]. وكان المؤرخ ويبك Woepeke هو مصدر هذا الخلط، وتلاه مؤرخون أخذوا برأيه. والفضل يعود للمحقق عادل أنبوبة في تصحيح هذا الخطأ [Anbouba A: L'algèbre arabe aux IXè et Xè Siècles, Aperçu général, Journal for the history of arabic science, vol. 2, nº 1, 1978, p. 100].

ومن الحجج التي قدمها أنبوبة دحضا لهذا الزعم وجود مخطوطة في المكتبة الوطنية بالجزائر رقم 1446/ 10، حول المخروطات نسبت إلى الشخصية الثانية (محمد بن الحسين)؛ غير أن الفحص الدقيق لهذه المخطوطة يبيّن أنها تطابق تلك التي تنسب إلى أبي جعفر الخازن.

عندما كان الخازن في نيسابور التقى بأحد كبار الفلاسفة وهو أبو الحسن الآمدي، وقد استطاع الآمدي بمساعدة الخازن أن يشرح مجموعة من المصطلحات الواردة في كتبه المختلفة حول علم الفلك والهندسة، كما استفاد البلخي في كتابه «صور الأقاليم» من الخرائط التي وضعها الخازن [سحبان خليفات، ص 116، 174 ـ 175، 177]. كما يذكر ابن القفطي أن الخازن كان بارعا في الأرتمطيقا والهندسة وعلم الفلك، وأصبح متخصصا في هذه العلوم نظريا وتطبيقيا، ويرى ابن القفطي أن من أشهر كتبه «زيج الصفائح» و«كتاب المسائل العددية» ويضيف أن الكتاب الثاني هو أفضل ما كتب حتى زمانه [أخبار العلماء، ص 259]. واعتبره العلماء صاحب مكانة كبيرة في الرياضيات وعلم الفلك في تلك الفترة وفي الفترات التي جاءت من بعده، وقد اقتبس عنه بعض العلماء وناقشوا بعض المعادلات التي صاغها ومن بين هؤلاء أبو نصر بن عراق، والبيروني، وأبو الجود محمد بن الليث، وعمر الخيام، ونصير الدين الطوسي، ويذكر ابن خلدون في كتاب «المقدمة» في معرض حديثه عن الأقاليم أن أبا جعفر الخازن هو من كبار علماء الفلك وينقل عنه حديثه عن الأقاليم السبعة وقياساته التي أجراها للمناطق [ق، 354].

وأشار إلى الخازن العديد من المؤرخين الغربيين في مطلع القرن العشرين مثل سمث Smith، موضحا أن الخازن من أولئك الذين حلوا المعادلات التكعيبية بواسطة القطوع المخروطية. وهذا كاجوري Cajori يقول: «إن أبا جعفر أول عربي حلّ المعادلات التكعيبية هندسيا بواسطة قطوع المخروط».

وصلت إلينا من مؤلفات أبي جعفر الخازن في الرياضيات بعض الأجزاء من رسائله وبعض الإقتباسات التي أخذها عنه العلماء، ومن خلالها يمكن لنا أن نقدم تقييما لها، ويوضح عمر الخيام مثلا في مقدمة كتابه «شرح ما أشكل من مصادرات كتاب أقليدس» أن الخازن هو أول عالم رياضيات مسلم يحاول أن يثبت الموضوع الخامس من مواضيع أقليدس. وربما يكون عمل الخازن هذا في موضوع المتوازيات، أول الأعمال وأهمها في الرياضيات عند المسلمين، كما أن الخازن أيضا يعتبر من بين الرياضيين المسلمين الذين طوروا حساب أحجام الأجسام وأصول الإفناء التي وردت عند الرياضيين اليونانيين مثل أدوكثوث، وأرخميدس وخصوصا قيامه باستخدام الأسلوب الذي اتخذه ثابت بن قره

فيما يخص حل مسألة حجم الجسم الناتج عن دوران القطع المكافي حول محوره، وهو أسلوب طويل ومعقد فقام بتطويره ومهّد الطريق بذلك أمام حفيدي ثابت بن قره وهما إبراهيم بن سنان وابن الهيثم.

كما قام الخازن بإيجاد مفهوم آخر لعلم الجبر وذلك بعد اطلاعه على كتاب «الرياضيات» لمؤلفه ديوفانتوس وترجمة كوساب لوفا، وكذلك بسبب المفاهيم التي كان يتبناها محمد بن موسى الخوارزمي، أبو كامل شجاع بن الأسلم. ويقول الخازن في علم الجبر «إذا كان العدد الذي تعتمد عليه المعادلة من مجموعة الأعداد التامة تعتبر تلك المعادلة داخلة ضمن علم الأعداد»، واعتمد في ذلك على أقليدس، لذلك ركز الخازن في أبحاثه على إيجاد حل لتلك المعادلات التي ليس لها مجموع حلول. وكان علماء الجبر المسلمين يسمون هذا الأسلوب الذي اعتمده الخازن أسلوب «الاستنتاج الرياضي»، فحاول إيجاد حل من خلال مثلثات فيثاغورس بوجه خاص، كما استطاع أن يطور نظرية المثلث قائم الزاوية تطويرا كبيرا. ومن العلماء المسلمين الذين لم يقبلوا أسلوب الخازن نجد أبا سعيد السجزي، وابن الهيثم، ومحمد بن الليث أبا الجود، وعارضه من العلماء الأوروبيين باشيت دي مزيرياك، وبير دي فيرما.

تعتبر جهود الخازن في المعادلات الجبرية والتي تعرف حديثا بنظرية «فيرما» من أهم ما قام به. والمعروف أن أصل هذه النظرية يرجع إلى حضارات بلاد الرافدين، وهي نظرية تناولها فيثاغورس في حل معادلاته المثلثية، وتناولها كذلك ديوفانتوس في أبحاثه. إلا أن هذه الجهود كانت تركز على معادلات الدرجة الثانية ؟ = 2. أما علماء المسلمين، مثل حامد بن خضر الخجندي والخازن، فركزوا على معادلات الدرجة الثالثة والرابعة ؟ = 3، ؟ = 4، كما ناقشوا النتائج التي توصلوا إليها خصوصا الخازن الذي ادعى استحالة حل المعادلة س3 + ص3 = ع3. وذلك من خلال تناوله لمعادلة فيثاغورس من الدرجة الثانية رافعا درجتها من ؟ = 2 إلى ؟ = 3. كما قال إن الإثبات الهندسي لهذه المسألة الذي جاء به البرجندي خطأ. واهتم الخازن أيضا بالنظرية المتعلقة بـ «التعبير عن أي عدد طبيعي على شكل مجموع لمربعي عددين طبيعيين»، وهي نظرية تدخل ضمن نظريات مجموع الأعداد، ولقيت اهتماما كبيرا من قبل العالمين ابن الخوام، وفيرما. كما تناول الخازن أيضا نظرية «الأعداد المتماثلة» والمعادلات المتعلقة بها، وله أبحاث عديدة فيها، ويعتبر أول من توصل إلى الحدود التامة لهذه المعادلات، وأثبت أن هذه المعادلات تعتبر أساسا للنظرية الخاصة بالمثلثات قائمة الزاوية ذات الأضلاع الحقيقية.

روي عن عمر الخيام بأن الماهاني بعد اطلاعه على كتاب ألفه أرخميدس في الهندسة قام بمحاولة لتحليل النظرية الرابعة التي وردت في الباب الثاني من الكتاب (الشكل 1) وهو التحليل المعروف في العالم الإسلامي بـ «كتاب في الكرة والإسطوانة» وهو عمل قام به الماهاني كمحاولة لتحليل المعادلة أس3 + ب ص3 = ج، إلا أنه عجز عن ذلك وسماها «المعادلة الممتنعة». إلا أن الخازن تمكن من حل هذه المعادلة من الدرجة الثالثة والتي تسمى في تاريخ الرياضيات «معادلة الماهاني» باستخدام قطع من مخروط، ويذكر

عمر الخيام أيضا أن كثيرا من علماء الهندسة تمكنوا من حل معادلات الدرجة الثالثة (التكعيبية) باستخدام الأسلوب نفسه الذي اتبعه الخازن لأول مرة.

وكان الخازن قد بحث في الشكل القطاع والشكل المغني بشهادة نصير الدين الطوسي (597هـ/ 1201م ـ 672هـ/ 1274م) الذي ذكر في كتابه الشهير الشكل القطاع عند الحديث عن الشكل المغني: «... برهان آخر ـ استعمله أبو الفضل النيريزي وأبو جعفر الخازن أيضا في مطالب جزئية ميل الميول الجزئية، والمطالع في الكرة المستقيمة...». وقال نصير الدين أيضا: «وبوجه آخر قد أورده أبو الفضل وأبو جعفر الخازن، كل واحد منهما في تفسيره للمجسطي شكلا» [طوقان، تراث العرب العلمي، ص 239]. وقد أثار موضوع الشكل المغني جدلا كبيرا بين كبار علماء الفلك مثل البيروني، وأبي الوفاء البوزجاني (328هـ/ 940م ـ 387هـ/ 998م)، وابن علي بن عراق، المدعو أيضا الأمير أبو نصر منصور (المتوفى عام 425هـ/ 1034م).

من خلال سيرة الخازن وكتاباته والمراجع يتبين لنا أن الخازن كان عالما فلكيا. يذكر البيروني في كتابه «تحديد نهاية الأماكن» أن هناك مرصدا أنشئ في الري أيام البويهيين من قبل أبي الفضل بن العميد، وفي هذا المرصد وبتاريخ 12 ربيع الأول 348هـ الموافق 22 يونيو 959م تم رصد ارتفاع الشمس عن طريق أبي الفضل الهروي والخازن. وهذا يعني أن هناك علماء كانوا يعملون تحت إمرة هذين العالمين وأن هذا العمل كان بصورة منتظمة.

اشترك الخازن مرات عديدة في عمليات لتحديد ميلان محور الأرض، ويبين البيروني كذلك في كتابه أن الخازن كان رئيسا للهيئة العلمية التي تولى الهروي من خلالها إجراء عمليات الرصد الفلكية عام 348هـ الموافق لـ 959م [تحديد نهايات الأماكن، ص 98 ـ 101]، كما أوضح البيروني في مؤلفاته «الآثار الباقية»، و«القانون المسعودي»، و«تحديد نهايات الأماكن» أن الخازن كان يتبنى رأيا علميا عن الشمس غير الذي تبناه بطلميوس وهو الرأي القائل بمركزيتها. ويقول البيروني أن هذا الرأي تم تبنيه فيما بعد من قبل علماء أوروبيين مثل ليفي غيرسون، (توفي في عام 1344م)، وهسلي هزي (توفي في عام 1397م)، ولكن من الصعوبة إيجاد علاقة فكرية بين الخازن وهذين العالمين.

آثاره

أ ـ الرياضيات:

1 ـ تفسير صدر المقالة العاشرة، مخطوطة تونس رقم 16167، وحسب سزكين توجد منه نسخ عديدة [سزكين، ب/ 299]؛ 2 ـ البرهان على الشكل السابع من كتاب بني موسى، مخطوطة في مكتبة خاصة بطهران [ذكـــــرهـــــا Sezgin F.: Geschichte des arabischen schrifttums, 5, Brill, Leiden, 1974]؛ 3 ـ رسالة في استخراج خطين بين خطين متواليين متناسبين عن طريق الهندسة الثابتة، مخطوطة المكتبة الوطنية بباريس رقم 2457؛ 4 ـ رسالة أبي جعفر الخازن في المثلثات القائمة الزوايا، قام بترجمتها إلى اللغة الفرنسية ف. ويبكه [Atti dell Lincei Accademia Pontifica dei nuovi XIV]، روما 1861، ص 301 ـ 324)، ونشره عادل أمبوبا، مجلة تاريخ العلوم العربية، III/ 1،

1979، ص 134 ـ 178؛ 5 ـ رسالة إلى عبد الله بن علي الحاسب في البرهان على أنه لا يمكن أن يكون ضلعا عددين مربعين، يكون مجموعهما مربعا، فرديين، بل يكونان زوجيين أو أحدهما زوج والآخر فرد: مخطوطة المكتبة الوطنية بباريس رقم 2457.

ب ـ في علم الفلك:

6 ـ زيج الصفائح، الزيج هو كتاب جداول فلكية تستخلص عموما من قراءات المراصد الفلكية وتستعمل في الحسابات الفلكية المختلفة. وعندما برع العرب في صنع الآلات المختلفة وضعوا هذه الجداول في آلات حاسبة لتسهيل الاستفادة منها.

ويذكر أن الخازن هو أول من ابتكر الصفائح الزيجية وقد وصف آلته في كتاب زيج الصفائح. وقد ذكره البيروني وابن عراق وغيرهما كثيرون، حيث اعتبر من أهم الكتب التي ألفت في هذا الموضوع. واتخذ زيج الصفائح مرجعا للعديد ممن انشغل بعلم الفلك.

ومن المعلوم أن الإسطرلابي الشهير هبة الله بن الحسين البديع (المتوفى عام 534هـ/ 1139م) قام بصنع نسخة متقنة لهذه الآلة سنة 525هـ/ 1131م. ويذكر كينغ أن هذه النسخة الفريدة من زيج الصفائح كانت موجودة بمدينة ميونيخ الألمانية حتى عام 1945. لكنها اختفت بعد الحرب العالمية الثانية. وهناك صورة شمسية أخذت لهذا الإسطرلاب تحدث عنها المقالان:
[- King D.: New light on the Zij al-Safa'ih of Abu Ja'afar al-Khazin, Centaurus, 23, 2, 1979-1980, pp. 105-117].
[- King D.: Some remarks on islamic astronomical instruments, Scientiarum Historia, 18, 1, 1992, p. 16].

لكن كينغ عثر عليها، فيما يبدو، سنة 1996 في متحف الفن الإسلامي هنفول Museum fur Islamisch Kunst ببرلين الشرقية [قاري، لطف الله، الفلك العربي بعد القرن 6هـ/ 12م، أعمال الملتقى المغاربي السادس لتاريخ الرياضيات العربية، 22 ـ 20 نوفمبر 2000، المدرسة العليا للأساتذة، القبة، الجزائر]. ويذكر ديفد كينغ في المرجعين التاليين أنه اكتشف نسخة من كتاب زيج الصفائح في مخطوطة موجودة بمكتبة خاصة في الهند لكنها ليست في متناول الدارسين:
[King D.: Some remarks on islamic astronomical instruments, Scientiarum Historia, 18, 1, 1992, p. 16].
[King d.: Astronomy in the service of Islam, Vario- 1993, p. 7. rum reprints, London, Addenda and Corrigende XI],

وقد قدم الباحث رضا أنصاري عام 1997 إلى كينغ صورة المخطوطة الوحيدة لكتاب الخازن حول الآلة، وهي النسخة المحفوظة في كشمير؛ 7 ـ تفسير المجسطي: عثر على جزء من هذه المخطوطة في مطلع الثمانينات من القرن العشرين. [أنظر بهذا الخصوص: - Larch R.: Abu Ja'far AlKhazin on Isoperimetry and the Archinedean Tradition, Zeitschrift für Geschichte der Arabisch, - Islamischen Wissenschaften, 3, 1986, pp. 150-229.]؛ 8 ـ كتاب في ميل الأجزاء؛ 9 ـ كتاب السماء والعالم؛ 10 ـ كتاب العالمين؛ 11 ـ كتاب البيان؛ 12 ـ مقالة في البرهان على بعض صنعة

الإسطرلاب؛ 13 ـ كتاب الأبعاد والأجرام؛ 14 ـ رسالة في حل التعديل.

كل هذه الأعمال الفلكية للخازن مذكورة في [سـزكـين: Sezgin, F.: Geschichte des arabischen schrifttums, 6, Brill, Leiden, 1978]؛ 15 ـ رؤية الأهلة، من الجائز أن يكون هذا العمل جزءا من كتاب زيج الصفائح، [انظر بصفة خاصة: - King D.: Astronomy in the service of Islam, Variorum reprints, London, Addenda and Corrigenda XI, 1993]؛ 16 ـ عمل الصفيحة الآفاقية.

ج ـ في علم التنجيم:

17 ـ كتاب أحكام النجوم؛ 18 ـ المدخل الكبير إلى علم النجوم.

المصادر والمراجع

● راشد، رشدي، تاريخ الرياضيات العربية، بين الجبر والحساب، ترجمة حسين زين الدين، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1989؛ ● سعيدان، أحمد سليم، تاريخ علم الجبر في العالم العربي، ج 2، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1986؛ ● طوقان، قدري حافظ، تراث العرب العلمي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ودار الشروق، بيروت (د. ت، صدرت الطبعة الأولى عام 1941).

- Biography in Dictionary of Scientific Biography, New York, 1970-1990.
- Anbouba, A: Un traité d'Abu Jafar sur les triangles Rectangles numériques, Journal for the history of arabic science, vol. 3, nº 1, 1979, pp. 134-178.
- Bouzari, A.: Les coniques dans la tradition mathématique arabe à travers un traité attribué à Al-Khazin, Thèse de Magister en histoire des mathématiques dirigées par Djebbar A., Ecole Normale Supérieure, Kouba, Alger, 1999.
- King D.: New light on the Zij al-Safa'ih of Abu Ja'afar al-Khazin, Centaurus, 23, 2, 1979-1980.
- Lorch, R.: Abu Ja'far al-Khazin on Isopermetry and the Archimedean Tradition, Zeitschrift für Geschichichte der Arabisch.-Islamischen Wissenschaften, 3, 1986, pp. 150-229.
- O'Connor, J.J.& Robertson E.F.: Abu Jafar Muhammad ibn al-Hassan Al-Khazin, In: http://www-history.mes.st-andrews. ac.uk/history/Mathematicians/Al Khazin.html
- Samso, J.: A Homocentric Solar Model by Abu Ja'far al-Khazin, J. Hist. Arabic Sci., 1, 2, 1977, pp. 268-275.

د. أبو بكر خالد سعد الله
المدرسة العليا للأساتذة ـ الجزائر

د. أحمد أوزال
مركز الأبحاث الإسلامية ـ استانبول
ترجمة: أنعم محمد عثمان الكباشي

الخازن، العلاء أبو الحسن علي بن محمد

(678هـ/1279م - 741هـ/1339م)

هو علاء الدين أبو الحسن علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر بن خليل الشيحي، بغدادي المولد والنشأة. تتلمذ على ابن الدواليبي، ثمّ قدم دمشق، فسمع من القاسم بن مظفر ووزيرة بنت عمرو، وعمل خازن كتب خانقاه السيميساطيّة، شهر بالخازن، اشتغل بالعلم كثيرا، ثمّ ارتحل إلى بلدة شيحة بالحاء المهملة من أعمال حلب، حيث توفي في آخر شهر رجب أو مستهل شعبان سنة 741هـ فنسب إليها. [العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، 3/ 97].

وقيل في شجرة الذهب توفي يوم 10 رمضان ببعلبك. قال عنه ابن قاضي شبهة: «كان من أهل العلم شافعيّ المذهب متصوّفا، جمع وألّف وحدّث ببعض مؤلّفاته». وقال فيه ابن رافع: «كان حسن السمت، بشوش الوجه كثير التودّد للناس» ووصف بقدوة الأمّة وعلم الأئمّة ومحيي السنّة وناصر الشريعة؛ وقد خلّف كتبا جمّة في فنون مختلفة حيث شرح عمدة الأحكام، وصنّف مقبول المنقول في عشرة مجلّدات، جمع فيه بين مسند الشافعي وأحمد والكتب الستّة والموطّأ، وسنن الدارقطني، فصارت عشرة كتب رتّبها على الأبواب، كما جمع سنّة نبويّة مطوّلة [الداودي، طبقات المفسّرين، ص178].

آثاره

اشتهر بتفسيره «لباب التأويل في معاني التنزيل» المعروف بتفسير الخازن، وهو مطبوع في سبعة أجزاء متوسّطة الحجم بدار المعرفة للطباعة والنشر، ببروت، 1954، ومتداول بين الناس، وقد حلّي هامشه بتفسير آخر للنسفي، وهو المسمّى بـ: «مدارك التنزيل وحقائق التأويل».

قال عنه صاحب كشف الظّنون: «لباب التأويل في ثلاثة مجلّدات للشيخ علاء الدين أبي الحسن علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر بن خليل الشيحي المعروف بالخازن، فرغ من تأليفه يوم الأربعاء 20 من رمضان سنة 725هـ، ذكر فيه أنّ معالم التنزيل للبغوي موصوف بالأوصاف المحمودة، لكنّه طويل فانتخبه، وضمّ إليه فوائد لخّصها من كتب التفاسير بحذف الأسانيد، وجعل علامة للصحيحين، وذكر أسامي غيرهما، وعرض فيه شرح غريب الحديث وما يتعلّق به» [مقدّمة تفسير لباب التأويل في معاني التنزيل، ص1].

وقد قدّم الخازن تفسيره مبيّنا المنهج الذي سلكه فيه وطريقته في تأليفه فقال: «ولمّا كان كتاب معالم التنزيل الذي صنفه الشيخ الجليل والحبر النبيل الإمام العلم الكامل، محيي السنّة، قدوة الأمّة وإمام الأئمّة، مفتي الفرق ناصر الحديث، ظهير الدين أبو محمد

الحسين بن مسعود البغوي من أجلّ المصنّفات في علم التفسير وأعلاها وأنبلها وأسندها جامعا للصحيح من الأقاويل، عاريا من الشبه والتصحيف والتبديل، محلّى بالأحاديث النبويّة، مطرّزا بالأحكام الشرعيّة، موشّى بالقصص الغريبة وأخبار الماضين العجيبة، مرصّعا بأحسن الإشارات، مخرّجا بأوضح العبارات، مفرّغا في قالب الجمال بأفصح مقال ـ أحببت أن أنتخب من غرر فرائده ودرر فوائده وزواهر نصوصه وجواهر فصوصه، مختصرا جامعا لمعاني التفسير ولباب التأويل والتعبير، حاوي لخلاصة منقوله، متضمّنا لنكته وأصوله، مع فوائد نقلتها وفرائد لخّصتها من كتب التفسير المصنّفة في سائر علومه المؤلّفة، ولم أجعل لنفسي تصرّفا سوى النقل والانتخاب متجنبا حدّ التطويل والإسهاب، وحذفت منه الإسناد لأنّه أقرب إلى تحصيل المراد؛ فما أوردت فيه من الأحاديث النبويّة والأخبار المصطفويّة على تفسير آية أو بيان حكم فإنّ الكتاب يطلب بيانه من السنّة وعليهما مدار الشرع وأحكام الدين عزوته إلى مخرجه، وبيّنت اسم ناقله، وجعلت عوض كلّ اسم حرفا يعرف به ليهون على الطالب طلبه؛ فما كان من صحيح أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري فعلامته قبل ذكر اسم الصحابي الراوي للحديث (خ)، وما كان من صحيح أبي الحسين مسلم بن الحجّاج النيسابوري فعلامته (م)، وما كان ممّا اتّفقا عليه فعلامته (ق)، وما كان من كتب السنن كسنن أبي داود والترمذي والنّسائي فإني أذكر اسمه بغير علامة، وما لم أجده في هذه الكتب ووجدت البغوي قد أخرجه بسند له انفرد به، قلت: رواه البغوي بسنده، وما رواه البغوي بإسناد الثعلبي قلت: روى البغوي بإسناد الثعلبي. . . ثمّ إنّي عوّضت عن حذف الأسناد شرح غريب الحديث، وما يتعلّق به ليكون أكمل فائدة في هذا الكتاب وأسهل على الطلاّب، وسقته بأبلغ ما قدرت عليه من الإيجاز وحسن الترتيب مع التسهيل والتقريب. . .» [الخازن، مقدّمة لباب التأويل في معاني التنزيل، ص1].

وإذن فلم يخل الكتاب من استنباط ما كان معضلا في غيره، وجمع ما كان متفرّقا، وشرح ما كان غامضا، مع حسن نظم وتأليف، وإسقاط حشو وتطويل، وقد ضمّن مقدّمة التفسير ثلاثة فصول جعل الأوّل في فضل القرآن وتلاوته وتعليمه، وخصّص الثاني لوعيد من قال في القرآن برأيه من غير علم ووعيد من أوتي القرآن فنسيه ولم يتعهّده، وكان الثالث في جمع القرآن، وترتيب نزوله، وفي كونه نزل على سبعة أحرف، ثمّ عقد فصلا آخر في الفرق بين التفسير والتأويل، ثمّ أبان القول في الاستعاذة، وشرع في التفسير مبتدئا بسورة الفاتحة [محمّد حسين الذهبي، التفسير والمفسّرون، 1/ 310].

فهو تفسير اختصره صاحبه من «معالم التنزيل» للبغوي، وضمّ إلى مختصراته ما نقله ولخّصه من تفاسير من تقدّم عليه، وليس له فيه ـ كما يقول هو ـ سوى النقل والانتخاب مع حذف الأسانيد وتجنّب التطويل والإسهاب. وهو من قبيل التفسير بالمأثور، اعتنى فيه المترجم له بتقرير الأحكام وأدلّتها، وأكثر من إيراد الأخبار التاريخية والقصص الإسرائيليّة دون أن يعقّب عليه ولا ينظر فيه بعين الناقد البصير ـ إلاّ نادرا ـ مع أنّ بعضه غاية في

الغرابة، وبعضه ممّا يخلّ بمقام النبوّة، فهو مثلا عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾ من الآية 10 من سورة الكهف، نراه يذكر قصّة أصحاب الكهف وسبب خروجهم إليه، رواية عن محمد بن إسحاق ومحمد بن يسار، وهي في الطول والغرابة ومع ذلك فهو يعقّب عليها بلفظ واح [علاء الدين الشيحي الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، 4/ 160 ـ 165].

وكذلك عندما يفسّر قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿83﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: 83 ـ 84] نجده يروي في حقّ أيوب ﷺ قصّة طويلة جدّا عن وهب بن منبه، وهي ممّا لا يكاد يقرّها الشرع أو يصدّقها العقل لما فيها من المنافاة لمقام النبوّة، ومع ذلك فهو يمرّ عليها دون أن يعقّب عليها بأيّة كلمة [الخازن، لباب التأويل، م. س، 4/ 250 ـ 254].

أما عناية الخازن في لبابه بالأخبار التاريخيّة فتتجلّى فيما يفيض فيه من ذكر الغزوات التي كانت على عهد النبي ﷺ وأشار إليها القرآن، من ذلك مثلا ما نجده من تفصيل لغزوة الخندق من حيث تعرّض لوقائعها وما جرى فيها باستفاضة وتوسّع على إثر تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: 9].

وكذلك عندما يفرغ من تفسير الآية 27 من السورة نفسها: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ نجده يستطرد إلى غزوة بني قريظة بتوسّع ظاهر وتفصيل تام [الخازن ـ اللّباب، م. س، 5/ 193 ـ 200].

كما نجد المترجم له يعنى في تفسيره هذا عناية كبيرة بالناحية الفقهيّة، فإذا تكلّم عن آية من آيات الأحكام، استطرد إلى مذاهب الفقهاء وأدلّتهم، وأقحم في التفسير فروعا فقهيّة كثيرة قد لا تهمّ المفسّر من جهة كونه مفسّرا في قليل أو كثير فهو مثلا عند تفسيره لقوله تعالى ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: 226] نجده بعد أن ينتهي من التفسير يقول: «فروع تتعلّق بحكم الآية» . ثمّ يذكر خمسة فروع: الأوّل في حكم ما إذا حلف الزوج أن لا يقرب زوجته أبدا، أو مدّة هي أكثر من أربعة أشهر، والثاني في حكم من حلف ألّا يطأها في أقلّ من أربعة أشهر، والثالث في حكم من حلف ألّا يطأها أربعة أشهر، والحكم الرابع في مدّة الإيلاء في حقّ الحرّ والعبد، واختلاف المذاهب في ذلك، والخامس فيما إذا خرج من الإيلاء بالوطء فهل تجب عليه كفارة أم لا؟ [م. ن. 1/ 187 ـ 188].

ثمّ إنّ هذا التفسير كثيرا ما يتعرّض فيه المترجم له بالمواعظ والرقاق، ويسوق أحاديث الترغيب والترهيب؛ ولعلّ نزعة الخازن الصوفية هي التي جعلته يعنى بهذا الجانب، ويستطرد إليه كلّما دعت المناسبة، فهو مثلا بعد انتهائه من تفسير قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: 16] يعقد فصلا في فضل قيام الليل والحثّ عليه،

ويسوق في ذلك أحديث كثيرة عن النبي ﷺ كلّها من تخريج البخاري ومسلم والترمذي [محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، 1/ 316].

المصادر والمراجع

● العسقلاني، أحمد بن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دار الجيل بيروت د.ت.؛ ● الداودي، طبقات المفسرين، دار الكتب العلمية، بيروت 1403هـ؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون، منشورات مكتبة دار المثنى، بيروت د. ت؛ ● الذهبي، محمد حسين، التفسير والمفسّرون، دار الكتب الحديثة، القاهرة 1976.

د. حسين مزيو
جامعة الزيتونة ـ تونس

الخازني، أبو الفتح عبد الرحمن

(حوالى 470هـ/1077م ـ 530هـ/1135م)

أبو الفتح عبد الرحمٰن بن منصور الخازني، من علماء الفلك والفيزياء في أواخر القرن الخامس وبداية القرن السادس ولد حوالي عام 470هـ/ 1077م بمرو (عاصمة خراسان). وكان غلامًا لأبي الحسين (أو أبي الحسن) علي بن محمد الخازن، ولذا عرف بالخازني. وكان علي بن محمد الخازن شديد الاهتمام بالعلوم فشجع غلامه أبا الفتح على تعلّمها؛ وهكذا نال الخازني منها نصيبًا في الرياضيات وعلم الفلك والفيزياء والعلوم الفلسفية. ومن ثمّ أتقن، فيما أتقن، العلوم الهندسية. ويذكر أن الخازني قام بمراجعة بعض أعمال علماء عصره، وأن من تلاميذه الحكيم الحسين السمرقندي.

عاش الخازني وحيدًا، إذ إنه لم يتزوج قط. وكانت حياته متميزة بالزهد والتقشف. يقول ظهير الدين البيهقي في تاريخ حكماء الإسلام عن الخازني «... وكان نقيَّ الجيب عن الأطماع الخسيسة... وكان يلبس لباس الزهاد ولا يأكل إلا طعام الأبرار...»، وروى البيهقي عنه عدة حوادث تعكس مدى ترفّع هذا الرجل عن أمور الدنيا، منها أن حاكم خراسان السلطان سنجر بن ملك شاه (ت 485هـ/ 1092م) الذي كان يرعى العلماء مثل أبيه أرسل ذات يوم إلى الخازني ألف دينار فردّها قائلا: «لا أحتاج إليها، وبقي لي عشرة دنانير ويكفيني كل سنة ثلاثة دنانير، وليس معي في الدار إلا سنّور».

والملاحظ أن اسم الخازني قد اختلط في العديد من المواقع مع أبي جعفر الخازن

(ق4هـ/ 10م)، سيما عندما يتعلق الأمر بالآلات الفلكية، ومع أبي الفتح الخازمي (أو الحازمي) وهو فلكي عاش في بغداد خلال القرن 12م، لأن هذا الأخير اشتهر في الغرب باسم (Al-Khazen) و(Al-Hazen) (وهو تحريف لاسم الحسن). وقد ذكر قطب الدين الشيرازي (634هـ/ 1236م - 710هـ/ 1311م) في نهاية الإدراك أن الخازني قام بأرصاد فلكية في مدينة أصفهان؛ لكنه قول يشكِّك فيه المستشرق روبرت هول (Hall) حيث بدا أن تحريفًا طرأ على هذه الجملة في النص الأصلي فأضيف إليها «في أصفهان».

وقد عاصر أبو الفتح الخازني جماعة من علماء الفلك والهيئة والحكمة كأبي حاتم الاسفزاري (ت قبل 515هـ/ 1121م)، ومحمد بن أبي بشر المروزي (كان حيا في 536هـ/ 1141م)، وأبي العباس المروزي (ت 539هـ/ 1144م)... والأرجح أن الخازني كان خلال إنجازه لأعماله العلمية مقيمًا بمدينة مرو التي كانت آنذاك ذائعة الصيت في حقل النشاط الفكري والعلمي. وقد عرف الخازني بمؤلفين هامين هما «ميزان الحكمة» و«الزيج المعتبر السنجري السلطاني». ومن المعلوم أن اكتشاف هذين الكتابين تمّ على أيدي مستشرقين من القرن التاسع عشر.

ففي الفترة 1845 - 1859 أقام المستشرق الروسي خانيكوف (Khanikof) القادم من مدينة بطرسبورغ في منطقة بخارى وإيران والقوقاز. وشغل منصب قنصل للإمبراطورية الروسية في مدينة تبريز (عاصمة إيران آنذاك). وهناك تحصل خانيكوف على مخطوطات نادرة أهداها فيما بعد إلى جامعة بطرسبورغ.

ثم كتب خانيكوف بحثًا بالفرنسية حول كتاب ميزان الحكمة عام 1857، ووجهه إلى مجلة الجمعية الاستشراقية الأمريكية (American Oriental Society) فنشرته بعد أن ترجمته إلى الإنقليزية، وأرفقته بجملة من التعليقات [Journal of the American Oriental Society, 6, 1859, pp. 1-128]، وقد بيّن هذا البحث أهمية مضمون ميزان الحكمة الذي لم تكن اكتشافاته في مجال الميكانيك والفيزياء معروفة لدى الغرب قبل العصور الحديثة. ولم يكن آنذاك يعرف شيء عن شخص اسمه الخازني حتى أن المهتمين شككوا في وجود هذه الشخصية.

تقول الباحثة ماريا روزنسكايا: «... يمكن اعتباره (أي كتاب ميزان الحكمة) بحق موسوعة لعلم السكون في الشرق في القرون الوسطى. فقد أدرج المؤلف في كتابه موجزات عديدة لأعمال أسلافه، ومن بينهم الكوهي (ق 10م) وابن الهيثم (ق 11م) والرازي (ق 11م) وعمر الخيام (ق 11 - 12م) وغيرهم. ونذكر أن أعمال هؤلاء المؤلفين قد ضاعت». وقد استخلصت روزنسكايا أن مؤلف كتاب ميزان الحكمة هو «أول من وضع في تاريخ علم الميكانيك الفرضية التي تقول إن أثقال الأجسام تتغيّر تبعًا لبُعدها عن مركز الأرض. ولم يأخذ أي مؤلف من المؤلفات في القرون الوسطى التي نعرفها هذه المسألة بعين الاعتبار». وترجِّح الباحثة - على ضوء ما جاء في كتاب ميزان الحكمة - أن الخازني كان مطلعًا لا على الترجمة العربية لكتاب الأجسام العائمة لأرخميدس فحسب، بل اطلع أيضًا على «النص اليوناني الأصلي

والذي لم يعرفه العالم الأوروبي إلا في بداية القرن العشرين».

كان أبو حاتم المظفر بن إسماعيل الأسفزاري (ت 480هـ/ 1087م)، قد صنع قبل الخازني ميزانًا شامل الاستعمال أسماه ميزان الحكمة، وروى البيهقي بهذا الصدد أن الأسفزاري صنع هذا الميزان ليكشف الغش في الوزن، وقضى في صنعه مدة طويلة من عمره. لكن خازن السلطان ملك شاه (والد السلطان سنجر) خشي أن ينكشف أمره وتظهر تصرفاته في الخزينة بسبب ميزان الحكمة فكسّره وأتلفه. وحين سمع الأسفزاري بذلك مرض ومات أسفًا. وفي هذا السياق جاء العمل الذي اشتهر به الخازني المعروف بكتاب «ميزان الحكمة».

لقد عمّم الخازني نظرية أرخميدس الخاصة بالأجسام الممتلئة العائمة في سائل، فشملت أجسامًا فارغة عائمة. وهذا يعني أنه طوّر المبدأ الذي يتحكّم في السفينة حيث قدّم نموذجًا لسفينة باستخدام جسم مجوّف ومفتوح من الأعلى (كالسفينة)، وتصوّر حمولة داخل هذا التجوّف.

قسّم الخازني الموازين إلى مجموعتين هما: الموازين المتساوية والموازين غير المتساوية الذراعين. فأما المتساوية الذراعين فهي مثل تلك التي نجد فيها قضيبًا مشدودًا إلى كتفين. وقد اهتم الخازني من الناحية الحسابية بعدد الأثقال اللازمة كي يتم وزن ما نشاء. واكتشف الحل الذي يجعل ذلك العدد أصغريًا، فهو حل لم يهتد إليه الأوروبيون بسرعة، وأدركوا حينها أنه ينبغي البحث عليه ضمن مصادر الرياضيات العربية.

وأما الموازين غير المتساوية الذراعين فقسمها الخازني إلى نوعين: «القرسطون» (وهو ميزان له كتفان أو كلاليب لتعليق الأوزان)، و«القبّان» (وهو ميزان مزوّد بكفة وبثقل متحرك على طول الذراع). وقد أدرج الخازني في كتابه ميزان الحكمة ما توصل إليه ثابت بن قرة، وأبو حاتم المظفر بن إسماعيل الأسفزاري المتعلقة بهذين النوعين.

وفيما يتعلق بالميزان المائي (الهيدروستاتي)، فقد ظهرت فيه كفة ثالثة لاستخدامها عندما يتم الوزن داخل الماء. وهذا ليس ابتكارًا جديدًا إذ استخدم مثل هذا الميزان في البلاد الإسلامية قبل الخازني. بل لقد أضاف الأسفزاري ذاته عددًا من الكفّات بلغ مجملها خمس كفّات، وصنع بذلك ميزانه الشامل الذي سمّاه ميزان الحكمة. يقول الخازني بخصوص الأوزان وإسهام الأسفزاري فيها: «وكان... الإمام حاتم المظفر بن إسماعيل الأسفزاري ناظرًا فيه مدة أحسن نظر، متأملا في صنعته، ومتأنقًا في حدته. وسعى في تسهيل العمل به على من أراده. وزاد فيه منقلتين للتمييز بين جوهرين مختلطين، وأشار إلى إمكان وجود مراكز الفلزات على عموده استقراءً ورصدًا لماء معين. إلا أنه لم يُشر إلى كميّة أبعادها عن المحور أجزاء وعددًا، ولا إلى شيء من أعمالها سوى شكل الميزان. وسماه ميزان الحكمة، ومضى إلى رحمة الله قبل إتمامه وتدوينه» [ميزان الحكمة، 89]. والملاحظ في إشارة الخازني إلى رحيل الأسفزاري قبل الانتهاء من إتمام عمله أنها إشارة غير مطابقة لرواية البيهقي التي أوردناها آنفًا.

وعلى كلٍّ، فقد قام الخازني بتحسين ميزان الحكمة فطوّر نظريته، وكذا طرق حساب الوزن عند استخدامه. كما دقّق الشروط التجريبية التي ينبغي أن تتمّ فيها عملية الوزن حتى تكون نتائجها بالغة الدقة. ففي هذا السياق استعرض الخازني الشروط الكيميائية والفيزيائية للماء مشيرًا إلى أنه يجب إجراء التجارب بماء منبع معين مؤكدًا على وجوب إجرائها بحرارة معينة ثابتة للهواء. وهكذا تميّز هذا الميزان بالخصائص السبع التالية التي قدّمها الخازني:

1 ـ دقة الوزن: يظهر فيه تفاوت مثقال أو حبة، وإن كانت زنة الجسم بجميع أعضائه ألف مثقال. هذا إذا كان صانعه رقيق اليد، لطيف الصنعة، عالمًا بها.

2 ـ يتحقق به صميم الفلز من مغشوشه آحاد آحاد منها من غير تلخيص.

3 ـ يعرف به ما في الجرم الممتزج بجرم آخر من الفلزات مثنى مثنى من غير أن يفك بعضها من بعض بسبك أو تلخيص أو تغيير هيئة، بأسرع وقت وأهون سعي.

4 ـ يعرف به فضل وزن أحد الفلزين على الآخر في الماء إذا استوى وزنها في الهواء، والعكس صحيح. وكذلك يعرف نسب حجم بعضها إلى بعض من وزنهما فيهما.

5 ـ يعرف به جوهر الشيء الموزون من زنته بخلاف سائر الموازين التي لا تفصل بين الذهب والحجر الموزونين.

6 ـ يعرف به عيار الدراهم والدنانير وصفاتها الأخرى المميزة.

7 ـ تعرف به نقاوة الجواهر وكونها أصلية أو مغشوشة. وهذا أهم الأغراض التي من أجلها صنع الميزان.

ويذكر أيضًا أنّه يمكن استخدام ميزان الحكمة أيضًا كميزان «لتبديل الدراهم إلى الدنانير» وأداة لقياس الزمن.

ويشير الباحثون إلى أنه بفضل أعمال الخازني والبيروني استطاع أن يطلع المؤرخون المعاصرون على أعمال علماء من البلاد العربية الإسلامية مثل: سند بن علي (القرن 9م)، ويوحنا بن يوسف (ق 10م)، وأبو الفضل البخاري (ق 10م)، والنيريزي (ق 10 ـ 11م)، والرازي (ق 10م)، وعمر الخيام (ق 11 ـ 12م)، إلخ. بل تذهب ماريا روزنسكايا إلى القول إنه يمكن أن نعتبر أعمال البيروني والخازني، بحق، بداية تطبيق الطرق التجريبية في العلم في القرون الوسطى.

والجدير بالتنويه أن مفهوم الثقل النوعي (وهو نسبة وزن جسم إلى حجمه) لم يكن معروفًا بهذا المعنى وبهذه الدقة قبل الخازني. فهؤلاء الأسلاف من العصور القديمة والعصر الإسلامي استخدموا مفهوم الثقل النوعي بشكل ضمني. وأول تعريف دقيق لهذا المفهوم يعود إلى الخازني الذي يذكر أن «نسبة ثقل جسم صغير إلى حجمه تماثل نسبة ثقل جسم أكبر إلى حجمه».

أما الكتاب الشهير الثاني الذي عرف به الخازني، وهو كتاب «الزيج المعتبر السنجري السلطاني»، الذي ألّفه عام (514هـ/ 1120م) للسلطان سنجر بن ملك شاه، فقد اكتشف مخطوطه بمكتبة الفاتيكان في روما المستشرق

كارلو ألفونسو نالّينو (Nallino) في نهاية القرن التاسع عشر. وذكر نالّينو هذا الكتاب في [مقدمته لزيج البتاني عام 1899]. كما ورد ذكره أيضًا في [محاضرات «علم الفلك عند العرب»، روما، 1911]. فكان ذلك بداية لدراسات مستفيضة عن أعمال الخازني ما زالت متواصلة إلى اليوم.

ويتضمن كتاب الزيج مقدمة واثني عشر فصلا وأزيد من 150 جدولا. وقد اقتبس الخازني في هذا الكتاب من مؤلفات أسلافه، وبصفة خاصة ثابت بن قرة، والبتاني. ولفظ المعتبَر في عنوان الكتاب تعني أن حساباته تم التأكد منها بمقابلتها مع الأزياج التي أنجزها غيره من العلماء. وقدّم هذا الكتاب الثريّ معلومات عن الكسوف والخسوف والرؤية والإبصار. كما نجد فيه تواريخ مهمة وأيام الأعياد وسيَر الحكام والأنبياء، فلا غرو أن يسمى هذا الكتاب أيضًا «جامع التاريخ للسنجري».

وقد ترجم كتاب الزيج إلى اللاتينية واستعمله الفلكي الجغرافي جورج كريسكوكس (Chrysococes) في القرن الرابع عشر ميلادي، واستخدمه بعده تلميذه ثيودور مليتنيوتس (Meliteniotes) الذي كان فلكيًا بإستنبول في أواخر القرن الرابع عشر ميلادي.

كما ألف الخازني أيضًا كتاب «وجيز الزيج المعتبر السلطاني» عام 525هـ/ 1130م ذكر فيه إنه قارن مواقع الكواكب بناء على الأرصادات والحسابات، بما في ذلك الشمس والقمر، فوجد فيها العديد من الفوارق.

يقول المستشرق هول الذي خصص دراسة وافية تمتد على مساحة 16 صفحة من موسوعة قاموس التراجم العلمية: إنه إذا كان من الصعب تحديد مكانة الخازني فإن ميزانه المائي لا يدع مجالا للشك في أنه يعتبر - بوصفه صانع آلات علمية - من بين أكبر هؤلاء العلماء في كل زمان. وفي حقل علم السكون (الستاتيكا) وعلم السكون المائي (الهيدروستاتيكا) فقد اعتمد واستعار من سابقيه، وبوجه خاص من البيروني والأسفزاري. لكن هذا لا ينقص من كفاءته في هذا المجال. ودليل كتاب ميزان الحكمة الذي يعتبر مرجعًا هامًا للمهتمين بالميكانيكا. وفي علم الفلك، كما في الميكانيكا، يعتبر الخازني امتدادًا لمدرسة عمر الخيام والبيروني. وقد واصل بعده العمل في نفس الاتجاه علماء عرب ومسلمون أمثال نصير الدين الطوسي وقطب الدين الشيرازي.

آثاره

1 - ميزان الحكمة، ألّف عام 515هـ/ 1121م حسب ما ذكره المؤلف ذاته. هناك على الأقل أربع نسخ من هذا الكتاب: الأولى في القسم العربي بالمتحف الآسيوي التابع لجامعة بطرسبورغ. والمخطوطة الثانية نسخها أحمد بن محمد الطرفي عام 585هـ (أي بعد سبعين سنة من تأليف الكتاب)، وهي محفوظة في مكتبة جامع بومبي الهندية. وتوجد صورة من هذه النسخة في مكتبة معهد التراث العلمي العربي بحلب تحت رقم 234. وهناك مخطوطة ثالثة في الخزانة الآصفية الكائنة في معهد أبحاث حكومة ولاية أندرا حيث توجد مدينة حيدر أباد. أما النسخة

الرابعة فهي مقارنة بنسخة جامعة بطرسبورغ، ونشرها بالقاهرة عام 1947 فؤاد جميعان وسمى مؤلفها الخازن (بدل الخازني)؛ 2 ـ الزيج المعتبر السنجري السلطاني، هناك مخطوطتان له: مخطوطة مكتبة الفاتيكان رقم Cod. Ar. 761، وهي في 192 ورقة. أما المخطوطة الثانية فهي في المتحف البريطاني وتحمل رقم Cod. Or. 6669 . وتقع في 156 ورقة. توجد صورة من المخطوطة الأولى في معهد التراث بحلب تحمل رقم 153، وصورة من الثانية تحمل رقم 222، كما يذكر لطف الله قاري [انظر قاري في المراجع، ص 98] أن نسخة ثالثة كانت معروضة من قبل دار كوارتش Quarith بلندن للبيع بـ 40 ألف دولار نسخت في أواخر القرن السابع الهجري؛ 3 ـ الوجيز الزيج المعتبر السلطاني، صنّف عام 525هـ/ 1130م. هناك نسخة منه في مخطوطة رقم 859 بمكتبة الحميدية التابعة للمكتبة السلمانية باستانبول؛ 4 ـ رسالة في الآلات؛ توجد مخطوطتان منها في مكتبة مسجد سباه سالار تحت رقم 681 و682. ومن الجائز أن تكون هي رسالة الآلات العجيبة الرصدية التي أشار إليها بن الأكفاني في «إرشاد القاصد»، وحاجي خليفة في «كشف الظنون»، وغيرهما.

وتوجد صورة من هذه المخطوطة، التي تقع في 11 ورقة، في معهد التراث بحلب تحمل رقم 702، وهي صورة مخطوطة مجلس الشورى بإيران، رقمها 6411/ 2؛ 5 ـ مقالة في اتخاذ كرة تدور بذاتها بحركة مساوية لحركة الفلك ومعرفة العمل بها ساكنة ومتحركة، وهي موجودة ضمن مخطوطة بالمكتبة الظاهرية بدمشق رقم 4871. وتوجد نسخة منها أيضًا بأكسفورد تحمل رقم 3 Thurston. وقد حققت المقالة من قبل الباحث لورش Lorch في مجلة تاريخ العلوم العربية، المجلد 4، 1980؛ 6 ـ جدول القبلة، نسب الجدول إلى الشيخ الفاضل عبد الرحمٰن الخازني حيث ألفه بأمر من السلطان سنجر. ونشر ضمن كتاب فارسي عنوانه «نزهة القلوب» لحمد الله مصطفوي القزويني. كما نشر ليسترنج Le Strange جزءًا من هذا الكتاب في مجلدين بليدن (الأول عام 1915 والثاني 1919). وتناول لورش هذا الجدول في مجلة تاريخ العلوم العربية، مج4/ 1980.

المصادر والمراجع

- الخازني، عبد الرحمٰن أبو الفتح، ميزان الحكمة، تح. فؤاد جميعان، شركة فن الطباعة، القاهرة، 1377هـ/ 1957م؛
- روزنسكايا، ماريا، علم السكون (الستاتيكا)، في موسوعة تاريخ العلوم العربية، إشراف رشدي راشد، مركز دراسات الوحدة العربية، 1997، 2/ 783 ـ 821؛ • قاري، لطف الله، أضواء جديدة على أبي الفتح الخازني، الندوة العالمية الرابعة لتاريخ العلوم عند العرب، 21 ـ 25 أبريل 1987، منشورات جامعة حلب ومعهد التراث العلمي العربي، 1992، ج1؛
- Hall R: Al-Khazini, In Dictionary of Scientific Biography, Vol. 7, Scribners Publischers, New York, 1973; • Khanikoff, N : Analysis and Extracts of Kitab Mizan al-Kikma, Book of the Balance of wisdom,

an arabic work on the Water-Balance, written by al-Khazini in the Twelfth Century, Journal of the American Oriental Society, 6, 1859, pp. 1-128; • Abattouy, M. Sur la Tradition Arabe de la Balance : Thabit ibn Qurra et al-Khazini, In Colloquium on the Philosophy and the Sciences in the Antiquity and in the Middle Ages in Marrakesh, University Mohamed V, Faculty of Letters Press 1997.

د. أبو بكر خالد سعد الله
المدرسة العليا للأساتذة ـ الجزائر
د. محمد عيسى صالحية
جامعة اليرموك ـ أربد ـ الأردن

خاطر، لحد صعب

(1299هـ/1881م ـ 1395هـ/1975م)

هو لحد صعب خاطر، معلّم، مربٍّ، صحافي، أديب، ومؤرّخ. ولد في قرية رويسة النّعمان في قضاء عاليه في محافظة جبل لبنان في شهر شباط من العام 1881م. فَقَدَ والده في الثّانية عشرة من عمره. درس في مدرسة «تحت السنديانة» على يد كاهن القرية، ثمّ انتقل إلى مدرسة القدّيس يوسف اللّبنانيّة في قرنة شهوان حيث أمضى خمس سنوات طالبًا داخليًا، واجتاز صفوفها بنجاح جعله ينال عددًا من الجوائز. ثمّ التحق بمدرسة الحكمة، بيروت.

مارس التّعليم وهو ما يزال طالبًا في مدرسة الحكمة. وفي تشرين الأوّل عام 1907م افتتح «مدرسة السيّدة الأهليّة» في رويسة النعمان. درّس العربيّة، والفرنسيّة، والإنكليزيّة، فضلاً عن الخطّ، والحساب، والجغرافيا، والتّاريخ، وعلم الخطابة، وعلوم الدّين، والأخلاق. وبقي يؤدّي رسالته في هذه المدرسة حتّى أقفلت عام 1915م بسبب الحرب العالميّة الأولى، فعاد لحد خاطر إلى التّعليم في جامعة القدّيس يوسف ـ بيروت، وفي مدرسة الإخوة المسيحيّين في الجميزة في مطلع العام الدّراسي 1920م.

أدرك لحد خاطر عدم وجود كتاب يتعلّم فيه الطّالب تاريخ لبنان وجغرافيّته، فألّف كتاب «جغرافيّة لبنان» في العام 1909م على طريقة السّؤال والجواب لتسهيل الاطّلاع عليه والإفادة منه. وهكذا فعل بالنّسبة إلى كتاب التّاريخ، على الطّريقة السّابقة المتّبعة في كتاب الجغرافيا واعتمدت المدارس آنذاك الكتابين.

وفي العام 1908م أنشأ «جمعيّة الخير العام في رويسة النعمان»، ثمّ ترأس بلديّة القرية وجاهد في تطويرها. وارتبط بصداقات وطيدة مع الكثير من الأدباء والسّياسيّين منهم: فاضل سعيد عقل، وأمين نخله، ونعوم مكرزل،

وحبيب باشا السعد، والشّيخ الرّئيس بشاره الخوري.

مال إلى الصّحافة منذ حداثة عهده بالكتابة والقراءة، فأحبّها ونما هذا الحبّ خلال سنوات التّربية والتّعليم، وراح يمدّ الصّحف والمجلاّت بإنتاجه الأدبي، ممّا خلق صداقة بينه وبين الأدباء مديري الصّحف. وأثمرت هذه الصّداقة التحاقه مطلع صيف 1907م بجريدة «حديقة الأخبار» لصاحبيها خليل ووديع الخوري، لكنّه ما لبث أن غادرها.
وبعد الحرب العالميّة الأولى عاد إلى بيروت وأمدّ الصّحف والمجلاّت بمقالات متنوّعة إلى أن دعاه الأب لويس معلوف اليسوعي إلى معاونته في تحرير جريدة «البشير» في العام 1924م. وعمل فيها محرّرًا، أومصحّحًا، أو معرّبًا، أو ملخّصًا لرسائل، أو ضابطًا لمقالات، وامتاز أسلوبه بسهولة في التّعبير مقرونة بمتانة السّبك، وبلغة جميلة بعيدة عن التّعقيد. ونشر فيها عددًا من المقالات تتناول الأوضاع الاجتماعيّة، والتّاريخ، والجغرافيا، والاقتصاد، والفولكلور، والعلوم، والأمراض، والزّراعة، والسّياسة...
وإلى جانب عمله في «البشير» كان يزوّد سائر المجلاّت والصّحف اللّبنانيّة بمقالات حول تاريخ لبنان وعادات أهله. ومن المجلاّت الّتي كتب فيها: «المشرق»، «الحكمة»، «السنابل»، «الشراع»، «المجالس»، «الرّسالة المخلصيّة»، «الجندي اللّبناني»، «الدبور»، مجلّة «القدّيس شربل»، «الورود»، «العلم»، «المكشوف»، «البيدر»، «الشّحرور»، «السلوى»، «الزجل اللبناني».
أمّا الصّحف الّتي حرّر فيها، فهي: «العمل»، «البيرق»، «الزمان»، «النصير»، «نداء الوطن»، «الإتّحاد اللّبناني»، «المستقبل»، «الحديث»، «النّهار» و«الهدى» النّيويوركيّة. وانتسب إلى نقابة محرّري الصّحافة اللّبنانيّة وخصّها ببعض المطبوعات.

واستمرّ يعمل في البشير طوال 23 سنة، أي حتّى تاريخ احتجابها في العام 1947م. عندها انتقل إلى العمل في إحدى دوائر المطبعة الكاثوليكيّة حيث أمضى زهاء تسع عشرة سنة في إعداد طبعة جديدة ومنقّحة لمعجم المطبوعات العربيّة والمعرّبة، وفي تصحيح بعض منشورات دار المشرق.

لم يقتصر نشاط لحد خاطر على التّعليم، والتّربية، والصّحافة فقط، بل شمل أيضًا كتابة التّاريخ. وقد ميّز بين كتابة التّاريخ وعلم التّاريخ. فكتابة التّاريخ، في رأيه، تتمحور حول أمرين: الأمر الأوّل: «تعيين الوقت»، والأمر الثّاني: «الاخبار عن حوادث الأيّام السّابقة»، أمّا علم التّاريخ، فهو «معرفة الحوادث بأسبابها ونتائجها ومعرفة أحوال الأمم المتقدّمة». ورأى بأنّ غاية التّاريخ الاعتبار بأحوال الماضين واقتناء محامد الفضلاء والاحتراز من معاقب الخونة الأردياء. أمّا الهدف الّذي يجب الوصول إليه فهو طبع حبّ الفضيلة ومقت الرّذيلة في نفوس النّاشئة والجميع.

وكانت الحقيقة هاجسًا يراود لحد خاطر فلم يكتب فصلاً أو مقالاً إلاّ بعد تمحيص وتدقيق ومراجعة الملمّين بالموضوع، أو بعد الاعتماد على المراجع الموثوق بصحّتها أو «المستندات الخطّيّة العذراء».

آثاره

مؤلّفات لحد خاطر كثيرة، وأهمّها:

1 - جغرافيّة لبنان، المطبعة الحميديّة، عيد جدعون وأولاده، بيروت، 1909م؛ 2 - مختصر تاريخ لبنان لطلبة المدارس، المطبعة العلميّة، بيروت، 1914م؛ 3 - ترجمة الشيخ عبد الله البستاني (1854 - 1930م)، المطبعة الكاثوليكيّة، بيروت، 1928م، وقد زار المؤلّف الشيخ عبد الله في غرفته بمدرسة الحكمة واستقى منه أكثر ما دوّنه؛ 4 - حبوبة خاطر (1852 - 1959م)، المطبعة الكاثوليكيّة، بيروت، 1930م، يروي فيه سيرة والدته منذ طفولتها وحتّى ترمّلها؛ 5 - الشّيخ بشاره الخوري الفقيه (1805 - 1886م)، مطابع نصّار، 1956م، لم يقتصر المؤلّف على ترجمة الفقيه فحسب، بل جعله تاريخًا موجزًا للبنان في العصر الّذي عاش بطوله؛ 6 - آل السعد في تاريخ لبنان، ظهر عام 1970م، يبحث في نسبهم وفي تاريخ عدد من الشّخصيّات البارزة من آل السعد؛ 7 - لبنان والفاتيكان: العلاقات المتبادلة بينهما من صدر النّصرانيّة حتّى اليوم، منشورات مجلّة الرّسالة المخلصيّة، 1966م؛ 8 - بين أمير وراهب، طبع في العام 1970م، يروي فيه خدمات الأب إغناطيوس بليبل في حقل الدين والدنيا وما بذله من نصح وإرشاد للأمير بشير الثّاني؛ 9 - عهد المتصرّفين في لبنان (1861 - 1918م)، منشورات الجامعة اللّبنانيّة، بيروت، 1967م؛ ومنشورات دار لحد خاطر، طبعة ثانية، بيروت، 1982م. ويتناول فيه عهد المتصرّفيّة عهدًا عهدًا، وفق تسلسل المتصرّفين من داوود باشا حتّى ممتاز بك.

كذلك استهوى موضوع الفولكلور، أو العادات، والتّقاليد، والأساطير اللّبنانيّة لحد خاطر، فوضع فيه عدّة كتب، منها: 10 - الأمثال والأساطير اللّبنانيّة المختصّة بأشهر السّنة الشّمسيّة، المطبعة الكاثوليكيّة، بيروت، 1933م؛ 11 - أحداث وأحاديث في لبنان، دار الكتاب اللّبناني، جزءان، الطّبعة الثّانية، 1973م؛ 12 - العادات والتّقاليد اللّبنانيّة، منشورات مكتب الدّراسات العلميّة، الجزء الأوّل، بيروت، 1974م؛ والجزء الثّاني، بيروت، 1977م. استغرق إعداده زمنًا طويلاً، واستنفذ جهوده من فجر حياته الأدبيّة حتّى تاريخ دفعه إلى المطبعة.

وما تزال مكتبته تزخر ببعض المخطوطات، أبرزها: 13 - مخطوطة حول تاريخ آل خاطر؛ 14 - حبّ في مأساة، وهي رواية أدبيّة فكاهيّة مترجمة عن الفرنسيّة، يعود تاريخها إلى العام 1940م.

وبالإضافة إلى ذلك، له عدد من المقالات في المجلّات الّتي ذكرناها سابقًا.

نال لحد خاطر العديد من الجوائز. فقد كرّمه الرّئيس بشارة الخوري بمنحه «ميداليّة الاستحقاق اللّبناني المذهبة» في 12 أيلول عام 1950م.

كما قلّده الرّئيس سليمان فرنجية وسام الأرز من رتبة فارس في العام 1971م. ومنحه سعيد عقل جائزته عام 1972م.

توفّي لحد خاطر في 29 تموز عام 1975، بعد أن عمّر حوالي 94 سنة، وودّعه الوطن

بحضور ممثّلين عن رئيس الجمهوريّة ورئيس الحكومة.

المصادر والمراجع

1 ـ الكتب:

● لحد خاطر، الانتخابات النّيابيّة في تاريخ لبنان، قدّم له وحقّقه د. عبد اللّه الملاح، منشورات دار لحد خاطر، بيروت، 1966م؛ ● الخوري، الأب إغناطيوس، «سراج على منارة»، في كتاب لحد خاطر: الشّيخ بشارة الخوري الفقيه، ص 283؛ ● لحد خاطر، العادات والتّقاليد اللّبنانيّة، الجزء الأوّل، ص 6، منشورات مكتب الدّراسات العلميّة، بيروت، 1984م؛ ● جبر، جميل، لبنان في روائع أقلامه، ص 51، المطبعة الكاثوليكيّة، بيروت، 1964م؛ ● داغر، يوسف أسعد، مصادر الدّراسة الأدبيّة، الجزء الرّابع، ص 252 - 253، منشورات الجامعة اللّبنانيّة، بيروت، 1983م؛ ● مجموعة من الباحثين، مؤرّخون أعلام من لبنان، بإشراف الدّكتور مسعود ضاهر، الطّبعة الأولى، ص 313 ـ 344، دارالنّضال، بيروت، 1977م.

2 ـ الجرائد:

● البيرق، 11 شباط 1972م؛ ● جريدة الجريدة، 26 حزيران 1981م؛ ● النّهار، 31 تموز 1975م.

3 ـ المجلاّت:

● الأديب، ج 9، ص 63، أيلول 1975م؛ ● المسرة، ص 400، آب ـ كانون الأوّل 1989م؛ ● المشرق، عدد 4، ص 313 ـ 314، نيسان 1914م؛ ● المؤرّخ العربي، تصدر عن الأمانة العامّة لاتّحاد المؤرّخين العرب، السّنة العشرون، العدد 52 (1415هـ/ 1995م)، ص 184 ـ 201.

د. يوسف لبكي
الجامعة اللّبنانيّة

الخاطر، مبارك راشد جاسم

(1357هـ/1938م ـ 1422هـ/2001م)

مبارك راشد جاسم الخاطر مؤرخ باحث أديب شاعر، ولد في البحرين في مدينة «المحرّق» عام 1935م أو 1938م، وتخرّج في مدارس البحرين وحصل على دبلوم من القسم التجاري الثانوي [الأديب المؤرخ الراحل مبارك راشد الخاطر، ص25، 54، 66].

تلقّى ثقافته في البحرين على يد أساتذته والذين يسميهم المحمّدون الثلاثة وهم محمد صالح يوسف ومحمد صالح العباسي

ومحمد بن علي بن يعقوب الحجازي، كما حظي بعناية الشاعر عبدالرحمٰن بن قاسم المعاودة الذي وجهه لما يصقل موهبته الشعرية [ديوان الصكّ، ص6].

على صعيد تكوينه المعرفي استظهر المعلقات السبع وكمّاً وافراً من الشعر الأموي والعباسي، كما عُني باستظهار الشعر الحديث خاصة شعر البارودي، وشوقي، وحافظ، ومطران، كما عُني بشعر المهجر. وفي النحو قرأ ألفية ابن مالك، ومتن الأجرومية [الكتيب، ص54، 66، وديوان الصكّ، ص6]. وكان لأدب الحسينيات (المآتم) أثره في إثارة حسه الأدبي. ففي طفولته كان يستمع إلى ما يُلقى من قصائد في رثاء الحسين بن علي وغيره من آل البيت، وما ينشد في حسينية قرية «سماهيج» من بكائيات للشريف الرضي، وأبي الأسود الدؤلي، ودعبل الخزاعي ومهيار الديلمي، وما ينسب للإمام علي بن أبي طالب من أبيات، وما يُتلى للإمام الشافعي من شعر [ديوان الصكّ، ص7 ـ 8]. فكان ينشد لكل ذلك ويحتشد له. فغذّى كل ذلك ما تبلور لديه من ميول شعرية.

عمل في بداية حياته موظفاً في إدارة التسجيل العقاري ثم اشتغل كباحث وثائق ومخطوطات في وزارة شؤون مجلس الوزراء والإعلام حتى تقاعد [الكتيب، ص13، 25].

مارس العديد من الأنشطة الفكرية إشباعاً لنهمه العلمي، وتعزيزاً لتوجهاته العلمية. وانضم للعديد من المؤسسات الثقافية فكان عضواً فيها ومن أهمّها:

- جمعية الإصلاح، وانضم إليها منذ العام 1947م، وتسنّم مراكز قيادية فيها، وأسهم في إنشاء العديد من لجانها وعلى رأسها لجنة النشاط الثقافي في العام 1950م، كما ساهم في نشاطها المسرحي في المرحلة التأسيسية [الكتيب، ص4 ـ 5]. وكان آخر إنجازاته دوره في احتضان جمعية الإصلاح لحلقة رابطة الأدب الإسلامية العالمية في البحرين فكان من أعضائها المؤسسين [الكتيب، ص6].

- انضم إلى جمعية تاريخ وآثار البحرين، وإلى اتحاد المؤرخين العرب وحصل على وسام المؤرخ العربي. وكان عضواً في المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ونال جائزة الدولة التقديرية كما تقلّد عضوية رابطة العالم الإسلامي.

شارك في العديد من المؤتمرات والمهرجانات. ومما ركّز منها على الجانب التاريخي وساهم فيه: مؤتمر الدراسات التاريخية للخليج المنعقد في أبوظبي عام 1979. ومما عني بالجانب الشعري وشارك فيه: مهرجان شعراء الأمة العربية ببغداد عام 1984، ومهرجان الشعر العربي في دول الخليج العربي المنعقد في الرياض 1988 [الخاطر، المغمورون الثلاثة، ص108].

ارتبط بصلات كثيرة مع أدباء مصر والعراق والمملكة العربية السعودية والإمارات وغيرها من خلال مراسلاته وكتاباته في العديد من الصحف والمجلات [الكتيب، ص54]. وكان آخر مشاركاته انضمامه إلى عضوية رابطة الأدب الإسلامي العالمية في «الكنهو» بـ«الهند» عام 1986م حرصًا منه على مصلحة الإسلام وترسيخاً لمبادئه ومثله العليا؛ وشارك في اجتماع الهيئة التأسيسية التي وضعت

النظام الأساسي للرابطة. وفي عام 1995 أنشأ الخاطر ضمن إطار جمعية الإصلاح حلقة تابعة لها في البحرين وأصبح رئيساً لها حتى وفاته في مارس 2001. وتمكنت من إقامة العديد من الفعاليات الأدبية والشعرية [ابن عربي خليفة، مبارك الخاطر الأديب الشاعر، ص4].

التصق الخاطر بالشعر منذ طفولته، وانطلق في تكوينه الشعري من قاعدة تراثية صلبة شكّلت مخزوناً رفد موهبته وغذاها غنياً. وكان للمسامرات الشعرية في نادي الإصلاح، وما يعقد من حلقات إنشاد ومسابقات في السجال الشعري في مجالس المنازل دوره في إثراء موهبته وتنمية مهاراته الأدبية [ديوان الصك، ص9 ـ 12].

وأصدر الخاطر تحت اسم «شيئًا من الإصغاء يا سادة» مجموعتين شعريتين، أسمى الأولى «أحاديث سمك» صدرت في 1420هـ/ 1999م، جمع فيها بين عمله كمؤرخ وبين فنه كشاعر، ويعرفها بأنها شعر ذو نكهة تراثية علمية، وقد تندرج في أدب الأسطورة في الخليج العربي، وزاوج في لغتها بين الفصيح وبين مفردات من اللغة الدارجة ذات الأصل الفصيح، وهي تتضمن شعراً سردياً وآخر حوارياً في محاولة منه لتشكيل بنوراما روائية وصفية، واستخدم فيها اسماً لنوخذا ـ ربان سفينة ـ مشهورا اسمه «جهام» مع اثنين من بحارته هما «صقر» و«بطي» وجزّاف أي بائع سمك. ويصف هذا الشعر بأن فيه مسحة من الأدب الساخر [المقدمة، ص5 ـ 6].

ولشعر هذه المجموعة قيمة وثائقية، فقد عنون قصائده بأسماء خمسة عشر نوعاً من السمك الشهير في بيئة الخليج العربي، كـ «الحف» و«الكيتب»، و«السبيطي»، وورد الكثير منه بصيغة تعليمية. ومن القصائد التي نحا فيها منحىً أسطورياً قوله في قصيدة «شعري.. وشحذوذ» ـ و«الشعري» نوع من السمك يكثر في مياه الخليج و«الشحاذيذ» صغاره ـ:

ابصرتُ «شعريّاً» وَعِزْ
يعيشُ ظرفاً لا يَسرّ
يكنُفُهُ (القرقور) .. لا
يستطيعُ منه أن يفرّ
ضرٌ به الحبسُ كما
ضرٌ به الجوعُ الأشرّ

[ص76 ـ 81]

(والقرقور: مصائد تنسج من شرائط حديدية دقيقة، توضع في أعماق البحر فيدخلها السمك ولا يستطيع الخروج منها ص60 هـ5، والدوابي: هي الأنواع الكبيرة من قراقير صيد السمك ص82 هـ3).

لقد سجّل الخاطر صوراً عن أساطير السمك المنتشرة في روايات أهل البحرين قديماً، وقدّم مسحاً لطبيعة الحياة آنذاك حين كان البحر بمتعلقاته يشكل حياة الإنسان البسيط فيها، ورسم من خلال ذلك إطاراً للمجتمع البحريني القديم. واستخدم تلك الأساطير غطاء للسخرية الأدبية [ابن عربي، ص4].

أما مجموعته الشعرية الثانية «الصَّك» فقد صدرت عام 1421هـ/ 2001م، وقدّم لها بمقدمة ضافية تحدث فيها عن ثقافته وشيوخه وبداياته الشعرية وقسّمها إلى خمسة أقسام. واتسمت القصائد الثلاث الأولى خاصة

بمسحة من الحزن الشفيف فاقترب فيها من تخوم الرومانسية. يقول في قصيدة بعنوان «بين القبور»:

لا تسألني كيف سارتْ
قدمي نحو القبورْ
ولماذا جئتُ أسعَى
تاركاً راسي يدورْ
لستُ أدري ما دهاني
في طريقي من شرورْ
لم أفقْ إلا ورجلي
تتثنى وتغورْ
في رفاتٍ ناعم
منتشرٍ بينَ القبورْ

[ص27]

وتناول في القسم الذي عنونه بـ «نماذج ساخرة» الكثير من معطيات الواقع المحلي خاصة الاجتماعية كقصيدة «قِري رمضان» التي صوّر فيها ممارسات الجزارين، وما يأتون به من مداورات واحتيال فيذبحون حيوانات هزيلة عجفاء لا تحتوي سوى على عظام نخرة ويبيعونها بأسعار عالية، وفي قصيدة «صلاة» وهي صلاة لاستسقاء النفط صوّر إمام القوم وعالِمهم الذي يتزيّى بزيين متناقضين؛ ففي الظاهر يبدو إنسانًا ملتزمًا بالدين متمسكًا بقيمه؛ لكنه في الباطن يمارس ضروباً من الاستغلال والجشع، وصاغه الخاطر بأسلوب ساخر:

في مقبلٍ من موسمِ الامطارِ لن
أستسقي منها النجعَ للرعيانِ
كلا ولن أرفعَ كفّي نحوها
أستسقي منها غُلَّةَ الظمآنِ
سأصوّبُ الكفّينِ نحوَ اديمِ هذي
الأرضِ في ركسٍ إلى القيعانِ
استسقي نفطاً يستقرُّ بقاعِها
اجدَى من الوسميِّ في الغدرانِ
فلقد أحالَ النفطُ سُقياها من الـ
ملحِ الأُجاجِ إلى النميرِ الهاني
فكأنَّما السحبُ التي لم تُسقَ
مزناً سقتنا النفطَ بالأطنانِ
فغدوتُ في ضخِّ العطاءِ رواتبًا
غَرْفاً من الآبارِ بالكِيزانِ
متوضِّئٌ والغسلُ لا انفكُّ اسـ
بغُهُ من الآبارِ بالمجّانِ
فالنفطُ في قاعِ الاديمِ مقامُهُ
لِمْ لا نخرُّ له إلى الأذقانِ

[ص51 - 58]

ومن القصائد التي تحمل مضموناً سياسياً يفضح معطيات الزيف المحلّي قصيدة «واعظ ونخّاس»، وقصيدة «أعظ الكواسر»، وقصيدة «ريادات إنسانية قصوى»، وفي قصيدة «مقايضات» يعرض لوناً طريفاً من قضايا الواقع المحلي وهو ما يتعرض له عرب الخليج من ابتزاز أثناء تطوافهم في بلاد العالم. وتناول الخاطر في قصيدة «الخارج .. والداخل» قضية العمّال الآسيويين في المجتمع المحلي، وعرض قضية اثنين منهم قدما بأحلام عريضة، واستغل الأول تدريبه وما كسبه من مهارات في عمله جسراً يوصله

إلى العمل في «أوروبا»، أما الثاني وكان وسيماً فوقع في غرام ابنة الأسرة التي يعمل لديها فهرب معها إلى بلاده. ومن القصائد التي أبرزت ميوله كمؤرخ قصيدة «عقيلة» [ص163] التي تحكي قصة وقعت أيام حكم آل خليفة للزبارة حين جرت إحدى بنات هذه الأسرة مسافة طويلة لتحذر أهلها من غزو محتمل من قبل حاكم «البحرين» آنذاك إثر مناوشات بين الطرفين.

ولغيرته لدينه وتدفق مشاعره القومية تعاطف مع قضايا العالمين العربي والإسلامي. وكان الهمُّ الفلسطيني وقضيته العادلة هاجسًا قويًا يؤرقه، وله قصيدة بعنوان «بيان بالحجر» ومما قاله في خطاب شباب «فلسطين»: [البسيط]

فيا شبابَ «فلسطين» الهويةِ والـ
إيمانِ والأرضِ والقدرِ

وقّع عقودكَ بالمقلاعِ والحجرِ
واستفْدِ منها جوازاً آمنَ الخطرِ

وجُزْ به النارَ والفوضى ومَنْ وقفُوا
في وجهِ حقِّكَ بالإرجافِ والشررِ

وصُغْ بيانَكَ إعجازاً وممتنعًا
إلا عليكَ وزِدْ فيهِ من الغُررِ

وقّعْ لُحُونَ فلسطينَ التي بذلتْ
أطفالَها كقرابينٍ من البشرِ

ففي غمارِ الثلاثيناتِ جُنَّ لها
جنونُنا فتبرَّعْنا على الأثرِ

ومنذ ذلك والتنينُ ينهشُها
ونحنُ نزحمُهُ بالقولِ لا الحجرِ

[ص117]

وتفاعل مع قضايا العالم الإسلامي، وتأثّر بالمجازر الوحشية التي تعرض لها شعب «البوسنة والهرسك» فعبّر عن حزنه وأساه لما ارتكب فيها من فظائع:

وتكوّرتْ أرتالُ أنجمِها السما
واستجمعتْ حمماً .. وقاءتها دما

واستفزعتْ «قدسٌ» وقالتْ ما الذي
بعد انتهاكي .. غالهُ سيلُ العمَى

قالوا أتى «البوشناق» سيلٌ مزبدٌ
من جورِ أوربا .. فذاقتْ علقما

لكنها إنْ تكبو في مأساتها
فعلى خُطاها نستزيدُ تحطُّما

ذي ليس كلُّ مشاعري .. فمشاعري
نضّاخةٌ بجراحِها .. أو بعضِما

مما أصابَ المسلمينَ بقرننا
هذا الذي بخلافةٍ لهمو رمى

[ص126]

وإذا كانت قضايا الواقع المحلي والعربي والإسلامي هي المسيطرة على قصائد مجموعة «الصك» وكان شعراً مألوفاً في مضامينه وأشكاله، فإن شعره في مجموعة «أحاديث سمك» لم يَخْلُ من طرافة بما له من تلوينات خاصة على صعيد المضمون.

■ آثاره

استطاع بما له من حس توثيقي أن يجمع ثروة نفيسة من المادة الوثائقية المنوعة، ويحافظ عليها ليشكل من خلالها ذاكرة وطنية، استثمرها وأطّرها وأخرجها في العديد من المؤلفات فأغنى الحياة العلمية. وعُني برصد

مفردات الثقافة وتسجيل منطلقاتها في مجال التعليم والثقافة والتاريخ والأدب والشعر في البحرين وفي منطقة الخليج العربي، فأثرى المكتبة العربية بالعديد من الأبحاث والدراسات والمقالات. وأسهم في إضاءة الكثير من معالمها المظلمة. وذكر أنه معني بالكتابة عن أعلام الثقافة والأدب في البحرين ودول الخليج العربي كافة من خلال حقبة زمنية قدرها قرن ونصف من الزمان تبدأ بالقرن التاسع عشر وتنتهي بالنصف الأول من القرن العشرين وما بعده بقليل [الكتيب، ص67]، وبرّر ذلك بأن الوثائق الثقافية من أدبية وشعرية وعلمية غير متوفرة لهذه المساحة الزمنية على مستوييها الأهلي والرسمي، ومن ثم طمح إلى الكشف عنها بغرض بناء جسر موصل بينها وبين منجزات القرن العشرين الثقافية والأدبية [الكتيب، ص67]، فكان أحد الرواد الراصدين للحركة الثقافية في البحرين ومنطقة الخليج العربي.

وتتمثل أهم إنجازاته العلمية في تأليفه عدداً من الكتب في تاريخ الثقافة والأدب والفكر، موزعة على سلسلتين: الأولى بعنوان دراسات خليجية، والثانية عن أعلام الخليج وأهمها:

1 ـ «نابغة البحرين» عبد الله الزائد، وقسّم هذا الكتاب إلى قسمين: تناول في القسم الأول شخصية الزائد في مختلف أبعادها، شخصيته كتاجر، وكرجل وطني، وكصحفي، وإسهاماته في حقل السياسة وفي الحقل الاجتماعي، كما تحدّث عن زمالاته الفكرية، وأنهى هذا القسم بالحديث عن أيامه الأخيرة ووفاته. أما القسم الثاني فعنوانه «الزائد الأديب الشاعر» وأورد نماذج من شعره الوطني والوجداني. كما ذكر شواهد من نثره استقاه من جريدة البحرين التي أصدرها الزائد، كما ذكر شيئا من نثره الخاص. وطبع هذا الكتاب طبعتان: الأولى في 1972، والثانية في عام 1986؛ 2 ـ كتاب القاضي الرئيس ـ قاسم بن مهزع، وقسّمه إلى تسعة فصول: الأول عن عصر الشيخ، والثاني عن حياته فتحدث عن نسبه وثقافته وتنقلاته العلمية وتوليه القضاء ومذاهبه في ذلك .والثالث عن دوره في العمل الوطني وعلاقته برئيس الخليج البريطاني وتصدّيه للخطط الاستعمارية وعلاقته بالزعماء الوطنيين .الفصل الرابع وخصصه للتبشير وجهود الشيخ في مواجهة نشاط المبشرين .الفصل الخامس وعنوانه «الشيخ قاسم المرجع والمستشار»، والسادس عن علاقته بـ «بحافظ وهبة» وهو شخصية مصرية تولى بعض الأمور الإدارية في التعليم في البحرين .والسابع عن علاقة الشيخ قاسم بالميجر ديلي، المعتمد البريطاني في البحرين، والثامن الشيخ بين القضاء والاعتزال، والتاسع خصصه لنماذج من رسائله وتقاريره. وطبع الكتاب طبعتين الأولى في 1975 والثانية في 1986؛ 3 ـ الأديب الكاتب ـ ناصر الخيري، واحتوى الكتاب على مقدمة وأربعة فصول. تناول في المقدمة عصر الخيري وأقواله، وخصّص الفصل الأول للتعريف به وتأرجحه بين المدرسة الدينية الإسلامية ومدرسة المبشرين البروتستانت، وتردده المستمر إلى مكتبة المبشرين التي تهتم بلون ثقافي جديد هو العلوم والمخترعات وتوجّه مرتاديها إلى قراءة كتب المبشرين والمستشرقين المترجمة إلى العربية إلا إنه سرعان ما تذمر منها، وضاق

ذرعاً هو وزملاؤه بأساليب المبشرين بما فيها من دسّ على الإسلام. الفصل الثاني وركّز على علاقة الخيري بمجلة المقتطف المصرية ومراسلاته معها، وما وجهه لها من أسئلة وما تلقاه من ردود. الفصل الثالث وعنوانه «المنار وناصر الخيري» وتحدّث عن علاقته بهذه المجلة وصاحبها محمد رشيد رضا. أما الفصل الرابع فهو في رسائل الخيري الخاصة وانتهى بالحديث عن وفاة المترجم له. وطبع طبعته الأولى في عام 1982؛ 4 ـ المغمورون الثلاثة، وعرّف فيه بثلاث شخصيات تكاد تكون مجهولة، وهي:

أ ـ الشيخ عبد الله بن عثمان بن جامع (ت 1278هـ/ 1861م) وتحدث عن مولده وشيوخه وظروف هجرته من «الزبارة» إلى «البحرين»، ورحلاته العلمية، ومرافقته للوجيه أحمد بن رزق (ت 1224هـ/ 1809م)، ثم استقراره في «البحرين» وممارسته التجارة، ووفاته فيها. وذكر نماذج من شعره؛ ب ـ الشيخ خليفة بن حمد النبهاني (ت 1362هـ/ 1943م)، وعرض لسلالته، ولشخصيته العلمية، وما قاله مترجموه عنه. وتحدث عن ممارسته لهواية الغوص على اللؤلؤ في البحرين، ثم مهجره إلى «مكة المكرمة»، وتحوّله إلى ربان ماهر قاد سفن الغوص في الخليج العربي وعدن، وفي جنوب شرق آسيا. كما تحدث عن شيوخه في البحرين والحجاز، وعن تلاميذه. كما عرض لأهم مصنفاته وعددها سبعة؛ ج ـ عبد المحسن بن يعقوب الصحّاف وقدّمه كشاعر للملك حسين بن علي شريف مكة وملك الحجاز ووصفه بشاعر البلاط الهاشمي.

وتحدث عن سلالته وموطنه وانتقال أسرته من «الأحساء» إلى «الزبارة» ومنها إلى البحرين حيث ولد في مدينة «المحرق» عاصمة البحرين آنذاك، ثم انتقال أسرته إلى «مكة» وإقامته فيها حتى وفاته في عام 1351هـ/ 1932م. كما تحدّث عن شعره، وقسّمه إلى قسمين قسم قاله في الحنين إلى البحرين والتغني بها، وقسم حجازي قاله في مديح ملك الحجاز؛ 5 ـ رجل ومولد قرن، وهو كتاب في سيرة علم من أعلام إمارة «الشارقة» بدولة الإمارات العربية المتحدة وهو «مبارك بن سيف الناخي». وقسّم الكتاب إلى خمسة فصول، في الفصل الأول أعطى صورة عن المناخ الذي نشأ فيه الناخي وعاش زهرة شبابه في ظله وعرض للجو الثقافي والتعليم والاجتماع والاقتصاد في الخليج العربي عامة، وركّز على انطلاق مرحلة التنوير وإنشاء التعليم الحديث وتذبذباته. وفي الفصل الثاني عرض لشيء عن طفولة الناخي وانتقاله إلى مدينة «الدوحة» بقطر لتلقي العلم. وذكر أربعة نصوص من تقرير الناخي المخطوط وعنوانه «التعليم في قطر منذ نصف قرن» وتحدّث فيه عن انطلاق التعليم وإنشاء المدارس وقدوم طلاب من دولة الإمارات إليها. وحاول استقراء تلك النصوص وتحليلها نظراً لمحدودية المعلومات عن نشاط المدارس الأهلية الأولى وما أعقبها من تطور التعليم. وفي الفصل الثالث تحدث عن علاقة الناخي بالبيئات الثلاث: البحر والبر والسوق، وعن مجالسه صيفاً على ساحل البحر ووصف المشاهد بكل عناصرها الإنسانية والحرفية والطبيعية، كما عرض لحياة المترجم له في قطر، وعن نشاطه كداعية وتاجر. الفصل

الرابع وعنوانه «الخطاب الدعوي عند الناخي» ركّز فيه على مقالة قصيرة للمترجم له بعنوان «الدعوة إلى الإسلام» نشرتها مجلة «الفتح» القاهرية في العدد 398 بتاريخ 22 يوليو 1932م .الفصل الخامس ومحتواه «الخطاب الأدبي عند الناخي» وذكر نموذجاً من كتاباته النثرية، وأشار إلى مجموعته الشعرية وهي عبارة عن مختارات من الشعر العربي في مختلف عصوره مع قفز على شعراء المنطقة. كما ذكر نماذج شعرية للناخي نفسه تزخر بروح وطنية. والكتاب من منشورات دائرة الثقافة والإعلام - بالشارقة في 1997م.

وللخاطر كتابان آخران في أعلام الخليج ما زالا مخطوطين وهما: «ابن مانع بين الخليج والجزيرة العربية» و«شعراء النهضة الحديثة في الخليج» [الكتيب، ص25].

فضلاً عن سلسلة أعلام الخليج للخاطر سلسلة أخرى تحمل اسم «دراسات خليجية» وأهمها:

أ - «الكتابات الأولى الحديثة لمثقفي البحرين» وحصرها في نصف قرن من 1875م/ 1925م، ويذكر في المقدمة أنه قسمها إلى ثلاثة أقسام: خصص القسم الأول لإثبات حضور الصحافة العربية في البحرين في الربع الأخير من القرن التاسع عشر وذكر أمثلة من كتابات مثقفيها في تلك الصحف .القسم الثاني وركّز فيه على الكتابات الأولى وتطورها في مجال الخطب والمحاضرات وأورد نماذج منها .القسم الثالث وخصصه للكتابة في مجال الرسائل المتبادلة بين مثقفي البحرين وإخوتهم في دول الخليج العربية، مبرزاً العلاقة الفكرية الوطيدة بينهم، وخاصة بين أبناء البحرين وأبناء الشارقة في مجال الكفاح المشترك ضد الاستعمار الإنجليزي. ووزّع مادته على ستة فصول وعنوان الفصل الأول «شهادات معاصرة» على حضور جريدتا «المقتطف» و«العروة الوثقى» في البحرين. وجعل الفصل الثاني مدخلاً إلى أول حضور للصحافة العربية في البحرين، والفصل الثالث خصصه «المجلة «الهلال» في البحرين، والفصل الرابع «المنار في البحرين». والفصل الخامس تناول فيه «كتابات أولى في مجال الخطب والمحاضرات»، والفصل السادس «كتابات في مجال الرسائل» وعرض خلال ذلك لتأثير تلك الصحف على الجو الفكري في البحرين ومراسلات مثقفيها لتلك الجرائد. وطبع الكتاب في القاهرة في مطابع المختار الإسلامي، وصدرت في البحرين في 1978م؛ ب - «المنتدى الإسلامي» وأبرزَ الكاتب مسيرة هذا المنتدى من 1928م إلى 1936م، وقسّم مادته إلى أربعة فصول. تناول في الفصل الأول دوره كثاني منتدى يُؤسس في البحرين، ومقاربته لطبيعة الأندية الحديثة وقارنه بالأندية السابقة عليه، وحدّد نهجه وهو التوجّه الإصلاحي، وذكر ديباجة تأسيسه وشهادات بعض أعضائه. وتحدّث في الفصل الثاني عن القانون الأساسي له واسترشاده بقوانين جمعية الشباب المسلمين المصرية، وقارن بين القانونين في مستوى الجوهر، والتقنين الإداري والمالي. وفي الفصل الثالث ركّز على أنشطة المنتدى وعلاقته بشخصيات فاعلة كالمصلح الكويتي عبد العزيز الرشيد صاحب مجلة «الكويت»، وذكر نماذج مما كان يلقى من محاضرات، وأشار إلى غلبة المضمون الاجتماعي كالدعوة إلى التداوي

في المستشفيات وبناء القناطر والجسور. وعرض في الفصل الرابع للنشاط الأدبي للمنتدى وذكر الشعراء الذين أغنوا أنشطته الشعرية من شعراء بحرينيين وخليجيين وعرب، وذكر نماذج من نظمهم. وطبع الكتاب طبعتان في 1981م ونشره مركز الوثائق التاريخية بمملكة البحرين، والثانية في 1991م؛ ج - «المسرح التاريخي في البحرين»: وثّق فيه فعاليات المسرح التاريخي منذ نشأته، واحتوى على فصول ثلاثة: تضمن الفصل الأول مبررات الكاتب لاختياره الموضوع وتحدّث عن المسرح المدرسي الحكومي والأهلي. وعُني بالمسرح النسوي وعرض شهادات بعض المشاركات في تلك الأنشطة. وخصّص الفصل الثاني لمسرح الأندية، وذكر أهم مسرحيات كل نادٍ وبعض المسرحية .الفصل الثالث تناول فيه نماذج من المسرح التاريخي، وركّز على مسرحية «العلاء الحضرمي» وحلّل فصولها الأربعة. وختم الفصل بقائمة بأهمّ المسرحيات المدرسية ذكورًا وإناثًا، كما قدّم قائمة بأشهر مسرحيات الأندية. ونشرت الطبعة الأولى منه في البحرين عام 1985؛ د - «المؤسسات الثقافية الأولى في الكويت» وقدّم للكتاب الدكتور محمد غانم الرميحي. ووثّق الخاطر فيه لثلاث مؤسسات ثقافية رائدة في الكويت هي: الجمعية الخيرية التي تأسست عام 1913، واهتمت فضلاً عن أنشطتها الخيرية بالجوانب الثقافية في إطار توجهها الإصلاحي، وعُنيت بالتعليم ونشر الوعي والثقافة، والمكتبة الأهلية الكويتية: وافتتحت عام 1922م وغدت نواة للمكتبة الوطنية، وغرست حب القراءة والمعرفة لدى الشباب الكويتي، والنادي الأدبي الكويتي المؤسس عام 1924م ومن أنشطته دعوة شخصيات مرموقة من دعاة الإصلاح العرب والزعماء الوطنيين، والاحتفال بالشعراء الوطنيين وتكريمهم. وصدرت طبعته الأولى في الكويت عام 1997م عن دار قرطاس للنشر؛ 6 - «مضبطة المشروع الأول للتعليم الحديث في البحرين 1919م - 1930م»، وتتبع في هذا الكتاب تأسيس التعليم الحديث، وعرض محتوى الجلسة التمهيدية وبداية التفكير في هذا المشروع وكيف تحقق، وذكر الديباجة التي أقرتها الجلسة: محتوى الجلسة الأولى وذكر نص محضرها وحواراتها وتناولها تحقيقاً واستقراءً، وأدمج الجلسات الثانية والثالثة والرابعة وذكر مضبطة كل منها محضراً واستقراءً، الجلسة الخامسة وركّز على أربع رسائل واردة للمجلس وقدّم إضاءات لبعض فقراتها، الجلسة السادسة وخصّصت لإعانة مدرسة «الهداية» وعرّف بمدينة المحرق التي بنيت فيها المدرسة، وعلّق على الجلسة، وأورد خطابات الرئيس وبعض الأعضاء، الجلسة السابعة وخصصت لعرض نظام التعليم الحديث ووظائف الإدارة وهيكل إدارتها الخيرية واختصاصات جميع أفراد كادرها الإداري. وعرض لمانحي الإعانات وقدّم إضاءات للعديد من بنود الجلسة، وخصّص لاحتفالية تدشين المشروع، وأورد ما ألقي من خطابات، وطبع الكتاب عام 2000 ولم يصدر إلا بعد وفاة الكاتب.

ويرد في قائمة مؤلفات الخاطر ذكر لكتابين هما: «التعليم الأهلي في الخليج ما قبل التعليم الحديث من 1800م - 1950م»،

و«المؤسسات الثقافية الأولى من 1913م - 1936م» إلا أنهما لم يصدرا [عن الغلاف الأخير لكتاب رجل ومولد قرن].

فضلاً عن ذلك أصدر الخاطر «ديوان عبد الله الزائد» جمعاً وتحقيقاً فأضاف جهداً أدبياً طيباً. وقدّم له بحديث عن موقع الزائد في المناخ الشعري وإطاراً عاماً لذلك الشعر؛ بداياته وما قيل فيه من آراء، ومشاركات الزائد في المسابقات الشعرية وتوصيف عام لذلك الشعر.

وصدرت طبعته الأولى في البحرين عام 1996 عن منتدى عبد الله الزائد الأول الذي أقامه النادي الأهلي.

المصادر والمراجع

● الخاطر، مبارك، نابغة البحرين، عبد الله الزائد، الشركة العربية للوكالات والتوزيع، البحرين 1972، ط1؛ ● القاضي الرئيس، قاسم بن مهزع؛ مطبعة حكومة الكويت 1975، ط1؛ ● الكتابات الأولى الحديثة لمثقفي البحرين، مطابع المختار الإسلامي، القاهرة 1978؛ ● المنتدى الإسلامي، مركز الوثائق التاريخية، البحرين 1981، ط1؛ ● الأديب الكاتب، ناصر الخيري، المطبعة الحكومية، البحرين 1982؛ ● المسرح التاريخي في البحرين، المطبعة الحكومية، البحرين 1985؛ ● المغمورون الثلاثة، المطبعة الحكومية، البحرين، 1989، ط1؛ ● ديوان عبد الله الزائد، إصدار منتدى الزائد، النادي الأهلي، البحرين، 1996. ط1؛ ● المؤسسات الثقافية الأولى في 'الكويت، دار قرطاس، الكويت 1997، ط1؛ ● رجل ومولد قرن، منشورات دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، 1997؛ ● مضبطة المشروع الأول للتعليم الحديث في البحرين، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، البحرين 2000؛ ● مجموعة «شيئاً من الإصغاء يا سادة»، أ. «أحاديث سمك» عن مكتبة وهبة، القاهرة 1999، ط1، ب. «الصك» عن مكتبة وهبة أيضاً، القاهرة 2001؛ ● ابن عربي، خليفة، «مبارك الخاطر... الأديب الشاعر»، ورقة أعدت بمناسبة تأبين الخاطر؛ ● كتيب بعنوان «الأديب المؤرخ الراحل مبارك راشد الخاطر»، من ثمانين صفحة أصدرته اللجنة المنظمة لحفل تأبين الخاطر في نادي البحرين ونادي المحرق وتضمّن العديد من المقالات التي تؤرّخ لسيرته وأعماله، ص 4 - 6، 25، 54، 66 - 67 وغيرها.

د. أنيسة أحمد خليل المنصور
د. عبد الجليل منصور العريض
كلية الآداب - جامعة البحرين

خاطر، مرشد

(1306هـ/1888م - 1381هـ/1961م)

مرشد خاطر، عالم وطبيب سوري لبناني الأصل، ولد يوم 1 جانفي سنة 1888م في إحدى قرى قضاء الشوف بلبنان، وقد تلقى فيما يبدو دروسه الابتدائية في قريته ثم انتقل إلى مدرسة الحكمة المارونية في بيروت فواصل فيها تعليمه الثانوي وتخرّج منها بشهادتها سنة 1906م، ثم دخل كلية الطب الفرنسية في بيروت فزاول فيها مرحلة التعليم العالي التي أنهاها سنة 1911م بنيل شهادة الدكتوراه في الطب أمام لجنة مشتركة فرنسية تركية، ولئن خوّله هذا الامتحان نيل شهادتين: شهادة من الجمهورية الفرنسية، وشهادة الدولة العثمانية فإن دراسته الأساسية كانت باللغة الفرنسية التي كان يتقنها.

وقد شمله التجنيد للخدمة العسكرية في الجيش التركي سنة 1915م، بعد إعلان الحرب العالمية الأولى سنة 1914، وقد وقع في شهر أفريل 1918 في أسر الجيش العربي الفيصلي فانخرط واشترك في أعماله وعهد إليه فيه برئاسة قسم الجراحة، ثم رأس قسم الجراحة في المستشفى العسكري بدمشق بعد دخول الجيش العربي لها، وقد بقي في هذه الخطة حتى شهر نوفمبر من سنة 1919، إذ انتقل آنذاك إلى المعهد الطبي العربي - الذي سيصبح كلية الطب السورية - بعد أن انتخب في الثامن منه ليكون أستاذا للأمراض الجراحية وسريرياتها في المعهد. وفي السنة ذاتها - بتاريخ 30 جويلية 1919 - انتخب عُضوًا في المجمع العلمي العربي الذي سيصبح مجمع اللغة العربية بدمشق بعد شهرين من إنشائه.

وقد أشرف في المعهد العربي ثمّ في كلية الطب على مجلّة المعهد الطبي العربي اثنتين وعشرين سنة، من سنة 1924 - سنة صدورها - إلى سنة 1946. وقد كانت مجلة علمية لغوية أسهمت إسهاما جيّدا في تعريب علم الطبّ ومصطلحاته؛ كما درّس علم الجراحة حتّى سنّ التقاعد وقد اهتم لأول مرّة بالاشتراك مع زملائه في المعهد الطبي بدراسة «داء الجلبان» المسمّى بالفرنسية «Lathyrisme» وهو تسمّم يحدث عن ازدراد أطعمة تحتوي دقيق الجلبان ويحدث كساحة تشنّجية. ولم يكن هذا الداء معروفا حقّ المعرفة فكان للبحث الذي أنجزه مرشد خاطر وزملاؤه الوقع الجيّد بعد نشره في المجلاّت الفرنسية وتناقل المجلاّت الأخرى للنتائج المُنتهى إليها فيه. على أنّ تقاعد مرشد خاطر عن التدريس في كلّية الطب بدمشق لم يشغله عن النشاط في مجمع اللغة العربية وخاصة في مجال وضع المصطلحات العلمية، وقد بقي نشطا حتّى وفاته في سوريا في 11 جانفي 1961م.

آثاره

ترك مرشد خاطر إنتاجا علميا غزيرا يمكن تصنيفه إلى:

أ - مؤلفات:

1 - الأمراض الجراحية، في ستّة مجلّدات؛ 2 - كتاب السريريات والمداواة الطبية، في جزئين؛ 3 - كتاب فن التمريض؛ 4 - كتاب إصلاح النسل.

ب - ترجمات:

5 - جراحة أنبوب الهضم؛ 6 - الدروس العملية في الأمراض النسائية؛ 7 - أمراض جهاز البول؛ 8 - معجم المصطلحات الطبية الكثير اللغات، الذي ترجمه مع أستاذين آخرين من كلية الطب بالجامعة السورية هما محمد صلاح الدين الكواكبي (ت 1972م) وأحمد حمدي الخياط (ت 1981م) ونشرته الجامعة السورية سنة 1956، وهو معجم ثنائي اللغة: فرنسي عربي، على أنه في الأصل متعدّد اللغات فهو فرنسي انقليزي ألماني لاتيني ألفه الطبيب الفرنسي ألكس كليرفيل (Alex Clairville) وصدر في طبعة أولى بباريس سنة 1950 ثم صدر في طبعة ثانية سنة 1953 متضمّنًا من المواد - المداخل 14534 مادّة، وهذه الطبعة هي التي اعتمدت في الترجمة العربية.

المصادر والمراجع

● الشهابي، مصطفى، المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق 1956، ط2، ص65 - 66؛ ● ابن مراد، إبراهيم، المصطلح الأعجمي في كتب الطب والصيدلة العربية، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1985، جزآن، 1/ 274 - 276؛ وقد اعتمد المؤلّف في هذه الترجمة على ترجمة ذاتية، كتبها مرشد خاطر بنفسه لمجمع اللغة العربية بدمشق وحصل منها على نسخة مخطوطة أرسلها إليه المجمع مشكورا واعتمدها في كتابه «المصطلح الأعجمي» سنة 1981.

د. إبراهيم بن مراد
جامعة منوبة - تونس

الخاطري، أحمد بن محمد

(بين ق 3 - 4هـ/9 - 10م)

أحمد بن محمد الخاطري، فلكي، ورياضي.

ذكر عمر فروخ في كتابه تاريخ العلوم عند العرب أحمد الخاطري مع العلماء الرياضيين العرب الذين اهتمّوا بشرح كتاب الأصول لإقليدس، أمثال ابن الهيثم، وعمر الخيام.

آثاره

- شرح وتعليق على كتاب الأصول في الهندسة لإقليدس.

■ المصادر والمراجع

● حميدان، زهير، أعلام الحضارة العربية الإسلامية، وزارة الثقافة، دمشق 1996، 1/ 107؛ ● فروخ، عمر، تاريخ العلوم عند العرب، بيروت، ص122 .

د. محمد هشام النعسان
معهد التراث العلمي العربي
حلب ـ سوريا

■ ابن خاقان، الإشبيلي، أبو نصر الفتح بن محمد

(480هـ/ 1087م ـ 528هـ/ 1133م)

أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله، القيسي، الإشبيلي، أديب، صاحب كتابيْ «قلائد العقيان»، و«مطمح الأنفس» اللذيْن ترجم فيهما لأعيان الأندلس.

وانفرد ابن الخطيب في ذكر آبائه فقال: الفتح بن علي بن أحمد بن عبيد الله الكاتب المشهور.

وزاد بعضهم: . . . بن خاقان بن عبد الله. والخاقان هو عظيم الترك، ورئيس الحرس الذي اتّخذه المعتصم ثمّ المتوكّل بسامرّاء، ومنهم الفتح بن خاقان بن أحمد أو بن عرتوج الذي حظي عند المتوكّل ووزر له وقتل معه سنة 247هـ/ 861م.

ولا علاقة للكاتب الأندلسيّ بالأتراك. إلّا أن يكون شبّه بالوزير العبّاسي كما تأوّل ذلك الشيخ ابن عاشور في مقدّمة تحقيقه للقلائد، لاشتراكهما كما قال في الاسم وحرفة الأدب، فقد كان الفتح الأوّل شاعرًا [معجم ياقوت، رقم 889] وَلِيَ الوزارة، وصاحبنا الذي كان كاتبا لأمير غرناطة المرابطيّ يدعى أحيانا ذا الوزارتين، بل سمّاه القاضي عياض «مثنّى الوزارة».

والأرجح أنّ لقب الخاقان لحقه بسبب انحرافه وشذوذه «واتهامه في الخلوة» [ابن سعيد وغيره]، وقد شرح دوزي لفظ الخاقان بمعنى الأمرد من الموالي الأتراك الذين كانوا يخضعون لشهوات مالكيهم ببغداد، واستشهد بالخبر القائل إنه ذبحه عبد أسود كان اختلى به في فندق بمرّاكش. ولعلّ هذا الخلق السيّء هو المقصود في عبارة المقّريّ [نفح، 7/ 29]: «. . كان محارفا (مجازفا في الإحاطة) مقدورا عليه. . .» (في الرزق زادها الشيخ ابن عاشور).

ولد سنة 480هـ/ 1087م ولم يذكر مكان ولادته، إلّا أنّه ينسب إلى إشبيلية، وإن كان أصله من قلعة يحصب من كورة إلبيرة (أي غرناطة).

ومات ذبيحا في غرفة من فندق بمرّاكش ليلة عيد الفطر 528هـ/ 24 جويلية 1133م [ابن الأبّار]، وذكر أيضًا تاريخ537هـ، ولم يشعر

به إلّا بعد ثلاثة أيّام ودفن بباب الدبّاغين بمرّاكش. تلقّى العلم على شيوخ ببلده الأصلي بالأندلس منهم ابن عبدون (ت 529هـ/ 1134م)، وابن السيد البطليوسي (521هـ/ 1127م).

ومن شيوخه أبو علي الصدفي الحافظ (ت 514هـ/ 1120م)، وأبو بكر بن اللبانة الأديب الإخباريّ (ت 507هـ/ 1113م)، وابن دريد الكاتب، لعلّه أبو عامر أحمد المترجم له في المغرب [2/ 78 رقم 395].

قضى حياة مضطربة مليئة بالمغامرة بين أطراف الأندلس آخذا من الحياة ملذاتها دون تحفّظ. تولّى خطّة كاتب لدى والي غرناطة، أبي يوسف تاشفين بن علي. ولم يمكث بها طويلا إذ انتقل بعدها إلى مدينة مراكش حيث لقي مصرعه في فندق هناك، بإيعاز من أحد الأمراء الموحدين، وقيل من السلطان نفسه علي بن يوسف بتاريخ يتراوح بين سنة 528هـ/ 1133م وسنة 555هـ/ 1160م، والأقوى احتمالا سنة 529هـ/ 1134م، يوم 23 محرّم/ 13 نوفمبر.

يتّفق مترجموه على بذاءة لسانه وانحرافه الجنسيّ وإدمانه على الخمر والفواحش، واحتياله على الأعيان بأن يعرض عليهم أن يدرجهم في قلائده، فإن وصلوه بالمال الجزيل مدحهم ورفع من شأن أدبهم، وإن منعوه أسقطهم من الكتاب أو انتقصهم فيه كما فعل بالفيلسوف ابن باجة (المعروف بابن الصائغ (ت 532هـ/ 1139م) إذ ذيّل القلائد بترجمته فبدأها بقوله: «هو رمد جفن الدين، وكمد نفوس المهتدين، اشتهر سخفا وجنونا، وهجر مفروضا ومسنونا. . » ولمّا بعث إليه بالمال اتّقاء لشرّه تحوّل إلى مدحه فقال: «نور فهم ساطع، وبرهان علم لكلّ حجّة قاطع، تتوّجت بعصره الأعصار، وتأرّجت من طيب ذكره الأمصار» [نفح، 7/ 24].

فعندما قرر تأليف منتخباته الأولى، التي قدمها إلى أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين، أحد إخوة السلطان، كتب إلى أعيان القوم ممّن لهم شهرة في مجال الأدب، يخبرهم بعزمه ويطلب منهم أن يوافوه بمدوّناتهم الخاصّة؛ فأما أولئك الذين قبلوا وبعثوا له معها بهدايا فكانوا موضوع تنويه في كتابه. وأمّا الآخرون فلم يكن حظهم إلّا السكوت عنهم أو توجيه الانتقاد لهم. غير أنّ حظ ابن باجة كان مزدوجا كما ذكر، فقد شمله التعريف في الكتاب مرّتين، مرة في مقام الهجاء ومرّة في مقام المدح [النص في ياقوت]!. أما إزاء أعمال السابقين فلم يتردّد ابن خاقان عن الأخذ من مؤلّفاتهم واختياراتهم دون ذكر، حتّى إنّ معاصره ابن بسام قاضاه من أجل ذلك.

وقد قامت شهرة الفتح بن خاقان الإشبيلي على اختيارين: الأوّل «قلائد العقيان في محاسن الأعيان»، والثاني «مطمح الأنفس ومسرح التأنّس». وفي هذين الاختيارين المنشورين تضمّ التراجم التي أوردها ابن خاقان معلومات بيوغرافية وتاريخية مهمّة [A. Cour, De l'opinion d'Ibn Al-Hatib sur les ouvrages d'Ibn Haqan considérés comme historiques, Mél. r., Basset. II, Paris 1925, 17-32]

لكنّها غير متوقّعة في مثل هذه التآليف وخاصّة حين تكون مثقّلة بالسجع إلّا على ذوي الخبرة، كما لاحظ ذلك أحمد ضيف.

وهذا النثر ذو الفواصل القصيرة المسجوعة والذي يشبه النظم هو في نهاية القول مملّ بالنسبة إلى عامّة القرّاء، ولكن هناك من بين المتأخرين من يحبّذه ويتذوّقه، لذلك لا يقصّر في نقل المقاطع الطويلة منه [انظر خاصّة المقري، Analectes، الفهرس]. والأهمّية الرئيسية للقلائد والمطمح تكمن في الأشعار التي أنقذها المؤلّف من النسيان أو الإهمال والضياع، والتي تجعل من هذه الاختيارات مصادر مهمّة لدراسة الأدب العربي في الأندلس، خاصّة في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر للميلاد.

آثاره

1 ـ قلائد العقيان في محاسن الأعيان، وقيل: ومحاسن الأعيان، بواو العطف، ألّفه بين 506هـ ـ 521 هـ. منه عدّة مخطوطات في دار الكتب الوطنية بتونس، ونشر في جريدة البرجيس، ثمّ جمع ونشر في كتاب مستقل في مرسيليا وباريس سنة 1277هـ/ 1860م، وبعد ذلك في بولاق بالقاهرة سنة 1283 و1284هـ، والآستانة 1302هـ، والقاهرة 1320هـ، مطبعة التقدّم العلمية، تونس 1966م، المكتبة العتيقة تقديم محمد العنابي، وتونس 1990م، الدار التونسية للنشر، تح. محمد الطاهر بن عاشور؛ وأدرج رينهارت دوزي R. Dozy عددا من أبواب الكتاب في تاريخه عن العبّاديين، ، ونشر هنري بيريس H. P مقتطفات منه في الجزائر سنة 1946م، وهذا الاختيار ينقسم إلى أربعة أقسام: الأمراء والوزراء والقضاة والفقهاء والشعراء والأدباء. وشرحه محمد بن القاسم بن زاكور الفاسي (ت 1120هـ/ 1708م)، [مخ. في ملك هنري بيريس، انظر Poésie Andalouse، الطبعة الثانية XXXII]، واشتغل E.Bourgade بترجمته إلى الفرنسية دون أن يظهر عمله إلى النور؛ 2 ـ مطمح الأنفس ومسرح التأنّس في مُلَح أهل الأندلس، قد يكون وضعه في ثلاثة أشكال، كبير الحجم ومتوسّط وصغير، والأخير هو وحده الذي وصلنا، نشر في مطبعة الجوائب بالقسطنطينية سنة 1302هـ، وفي القاهرة سنة 1320، و1325، و1328هـ، [وانظر كذلك دوزي Dozy de Abadidis]، وهو نوع من التكملة للاختيار المتقدّم، ويقع في أربعة أبواب: الوزراء، والقضاة، والفقهاء، والأدباء؛ 3 ـ ترجمة البطليوسي، أحد شيوخه، متبوعة باختيارات له [راجع Escurial, 448 Derenbourg, Mss. Arabes de Derenbourg 1]، وبمقامة من تأليفه كذلك [المرجع المتقدّم، ص 538]؛ 4 ـ بداية المحاسن وغاية المُحاسن؛ 5 ـ مجموعة رسائل، مفقودة. . .

المصادر والمراجع

● العماد الأصفهاني، خريدة القصر: قسم شعراء المغرب، تونس 1986، 3/ 538، رقم 148؛ ● ياقوت، معجم الأدباء، نشر إحسان عبّاس، دار الغرب الإسلاميّ، 1993، 5/ 2163، رقم 890؛ ● ابن دحية، المطرب من أشعار أهل المغرب، نشر إبراهيم الأبياري وآخرين، بيروت، د.ت، ص25؛ ● ابن الأبّار، معجم أصحاب الصدفي، نشر إبراهيم الأبياريّ، بيروت، 1990، ص 308؛ ● ابن خلكان، وفيّات الأعيان، 4/ 23 (525)؛

● ابن سعيد المغربي، المغرب في حلي المغرب، نشر شوقي ضيف، القاهرة 1964، 1/ 259 (رقم 184)؛ ● الذهبي، سير أعلام النبلاء، بيروت 1981م، 20/ 107 (رقم 65)؛ ● المقري، نفح الطيب، نشر إحسان عباس، بيروت 1988م، 7/ 29؛ ● ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، نشر محمد بن شريفة، الرباط 1983م؛ ● خليفة، حاجي، كشف الظنون، 1354هـ، 1/ 172، وسمّاه: عيسى بن محمد، وكذلك في هدية العارفين، 814؛ ● الزركلي، الأعلام، 5/ 322، قال: ولد بإشبيلية؛ ● كحالة، معجم المؤلفين، 8/ 49؛ ● دائرة المعارف الاسلامية، ELII 857؛

● Weyers, Specimen criticum exhibens locos Ibn Khacanis de Ibn zeiduno, Leyde 1846, I, 1, 10; ● Wustenfeld, Geschi- chtschreiber, 238; ● Pons Boigues, Ensayo, Nº 162; ● M.ben cheneb, Etudes sur les personnages de l'Idjaza de Sidi Abd al-qadir al-fasy, Paris 1907, nº 241; ● A. Gonalez Palencia M Litterature 2, Barcelone 1945, 204-8; ● H. Pérès, Poésie andalouse 2, Paris 1953; ● H. Pérès, historiques... dan les Qala'id al-Iqyan, Mél. d'hist. et d'archéol. de l'occ. Mus. II, Alger 1957, 147-52.

د. محمد اليعلاوي
الجامعة التونسية
د. المنجي الكعبي
الجامعة التونسية

ابن خاقان البغدادي، الفتح بن خاقان بن غرتوج

(200هـ/815م - 247هـ/861م)

الفتح بن خاقان، أبوه خاقان بن غُرتوج (أو غرتوج) قائد تركي عباسي، قصده الكثير من شعراء عصره، وكان هو نفسه كاتبا وشاعرا. ينتسب إلى أسرة تركية حكمت فرغانة. تولى رئاسة جند الترك المنحدرين من آسيا الوسطى، وكانوا يؤلفون قسما مهما من جيوش الخلافة الإسلامية وخاصة في ولاية المعتصم. والمعلومات المتعلقة بترجمته قليلة جدا: فقد يكون ولد حوالي 200هـ / 815 ـ 6م. وأُقدم إلى بيت الخلافة في سن السابعة من عمره، حيث تربى مع المتوكل، ابن المعتصم، الذي ما إن تولى الخلافة حتى اتخذه كاتبا (وليس وزيره كما تردّد بعض المصادر خطأ)؛ وبعد ذلك، في سنة 235هـ/ 849 ـ 50م أو 236هـ / 850 ـ 51م، عيَّنه نائبا أول له على أشغال بناء مدينة سامراء، ثم في سنة 242هـ/ 856 ـ 57م، ولمدة وجيزة قلّده واليا على مصر خلفا

لابنه المنتصر، وفي 244هـ/ 858 ـ 59م عينه واليا على دمشق. وفي البلاط كان يجالس الخليفة في مجالس أدبه.

وبهذه الصفة كان محط أنظار الكثير من المؤلفين الشبان والمغمورين الطامحين للشهرة، ولكنه كان كذلك صديقا لكبار كتاب العصر وشعرائه مثل الجاحظ، والبحتري، ولمؤرخين من أمثال الثعلبي... الخ. ويروى أنه جمع في قصره بسامراء خزانة فخمة من الكتب متكونة خاصة من المؤلفات الفلسفية كان يؤمها الكثير من علماء البصرة والكوفة. وفي ليلة الرابع من شوال 247هـ/ 11 ديسمبر 861م وفي المتوكلية عاصمة الخلافة الجديدة هلك الفتح بن خاقان مع مولاه الخليفة المتوكل وهو يحميه ببدنه من طعنات المغيرين عليه الذين أنفذهم ولده المنتصر لقتله.

آثاره

لم يصلنا من مؤلفاته سوى الكتب التالية:

1 ـ كتاب أخلاق الملوك؛ 2 ـ كتاب الصيد والجوارح؛ 3 ـ كتاب الرّوضة والزُّهر. وله أيضا: 4 ـ كتاب البستان [هدية العارفين للبغدادي، 5/ 814]؛ 5 ـ شعر: بقي منه ثلاثة عشر بيتا، وهو كل ما ذكره ياقوت [إرشاد، 6/ 118].

المصادر والمراجع

• ابن النديم، الفهرست، 116 ـ 117؛
• ياقوت، إرشاد، 6/ 116 ـ 124؛
• البغدادي، هدية العارفين، دار إحياء التراث العربي، (د.ت)، 5/ 814؛ • بنتو O.Pinto في دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الجديدة، تحت الاسم.
• RSO, O. Pinto, Al-Fath b. Haqan, Favorito di al-Mutawakkil XIII (1932), 133 - 49; • D. Sourdel, Le Vizirat, Abbaside de 749-939 (132-324 de l'hégire), Damas 1959, I, 282-3.

د. المنجي الكعبي
الجامعة التونسية

الخاقاني، محمد بك محمود

(ت 1015هـ/1606م)

تشير المصادر التاريخية إلى كونه ابنا لشخص يدعى محمود، أحد أحفاد إياس باشا وهو من أهالي استانبول. ويذكر قاف زاده الفائزي [زبدة الأشعار، ورقة 143] وكاتب جلبي [كشف الظنون، الجزء الأول، 786] الخاقاني بكنيته إياس باشا زاده. وكاتب جلبي بالذات عندما يتحدث عنه يذكره باسم محمد بن عبد الجليل الخاقاني. ويذكره الرياضي في بعض تذاكره على أنه ابن إياس باشا [رياض الشعراء، ورقة 61 b] ويذكره

في بعضها الآخر على أنه أحد أحفاده. أما معلم ناجي فيذكر أنه ابن بنت رستم باشا كوزلجه وأحد أقرباء الصدر الأعظم إياس باشا [الشعراء العثمانيون، ص 62]. أما محمد ثريا بك فيذكر الخاقاني على أنه صهر إياس باشا وابن بنت رستم باشا كوزلجه [السجل العثماني، 2/ 377]. ويقول عنه حسين إيوان سرايي في معرض حديثه عن جامع مهرماه سلطان في أدرنة قابي أنه ابن بنت رستم باشا كوزلجه وأنه أحد أقرباء إياس باشا. ويقول أيضا إنه مدفون أمام نافذة مدرسة محمد بك الخاقاني [حديقة الجوامع؛ ص 24]. ويفهم من هذا أن هؤلاء قد اعتمدوا في معلومتهم على ما ساقه كل من معلم ناجي، ومحمد ثريا، وحسين إيوان سرايي.

أما علي أميري أفندي فيشير في ملاحظة كتبها على الديوان المسمى الخاقاني والذي هو من مؤلفاته [المكتبة الوطنية، علي أميري أفندي، المنظوم، رقم 127] إلى ما يلي: «إن الخاقاني سواء في حديقة الجوامع أو في كتاب معلم ناجي يذكر على أنه ابن كريمة رستم باشا كوزلجه. ويبيّن لنا هذا الأمر أن إياس باشا هو صهر لرستم باشا كوزلجه كما هو واضح في بعض التحريرات الصادرة في تواريخ معينة. وهذا يؤكد لنا أن الخاقاني كان أحد خدم المرحوم إياس باشا». ولكنه لم يشر إلى التاريخ الذي سجلت فيه هذه المعلومات. ويشار إلى رستم باشا في السجل العثماني على أنه صهر لإياس باشا [2/ 377]، ويبدو أن علي أميري أفندي قد أشار سهوا إلى إياس باشا كصهر لرستم باشا. ونستخلص ممّا ورد من معلومات مختلفة في هذه المصادر أن الخاقاني كان أحد أقرباء الصدر الأعظم إياس باشا، غير أنه لا يمكن لنا الجزم في مدى صلة القرابة التي تربطهما.

تعتبر المعلومات المتعلقة بحياة الخاقاني غير كافية، وتشير المعلومات التي أوردها البياني أن الخاقاني قد تلقى تعليما رفيعا في شبابه ونشأ وترعرع في أوساط القصور. ومما يؤكد هذه المعلومات ممارسة الخاقاني لوظيفة المحاسب في كل من إدارة السنجق العامة والمكتب السلطاني. وعاش الخاقاني قصة عاطفية في شبابه. وبعدها ذهب إلى الحج. وعند عودته لقي أجله في استانبول.

وينقل لنا الرياضي خبرا يقول فيه «إن الخاقاني لفظ أنفاسه 'الأخيرة بعد أن خرجت من فمه العبارة التالية: ما أروع هذا الصفاء، ما أجمل رياض الجنة». وقد أرّخ قاف زاده الفائزي لموت الخاقاني في بيت شعر يقول فيه: «من البيت الفاني ارتحل الخاقاني»، وذكر أن تاريخ وفاته كان عام 1015هـ/ 1606م. ويقع قبره في باحة جامع مهرماه سلطان في أدرنة قابي. ويقول معلم ناجي إن هناك شجرة عمرها 300 سنة على رأس قبره، وأن هناك حجرا مدورا على قبره مكتوب عليه بعبارة ركيكة ما يلي: «هو الباقي، الفاتحة على روح الخاقاني صاحب الحلية». ويقول أيضا أن هناك قنديلا معلقا فوق الحجر يضاء في ليلتي الجمعة والاثنين [الشعراء العثمانيون، ص62]. أما «حديقة الجوامع» فتشير إلى عدم وجود أي كتابة على حجر قبره [ص24] ممّا يدل على أن هذه الكتابة دوّنت في وقت لاحق.

سكن الخاقاني في منطقة أدرنة قابي مثله مثل باقي موظفي المكتب السلطاني في عصره. وعندما أكمل كتابة الحلية الشريفة قدمها إلى الصدر الأعظم جيغالا زاده سنان باشا. وحازت على إعجاب كبار رجال الدولة. وسئل عن المكافأة التي يريدها، فطلب أن تكون الهدية دابة يركبها في تنقله لأن العمر قد تقدم به ولم يعد يستطيع أن يمشي بسهولة بين أدرنة قابي وباشا قابي. ولكن رغبته تلك لم تتحقق، لأن ركوب الدابة من قبل موظف بدرجة الخاقاني كان ممنوعا في تلك العهود. وبدلا من ذلك مُنِحَ بيتا بالقرب من الباب العالي ليصبح سكنا له [الشعراء العثمانيون، ص63].

ويتضح لنا من كتاباته ومؤلفاته أن الخاقاني كان يتقن العربية، والفارسية، بالإضافة إلى تمكنه من الشعر واطّلاعه الواسع على أسراره. وتشير المصادر التاريخية إلى أن الجانب الفني من شعره كان طاغيا على قيمته الأدبية. ومكّنه إتقانه للغة التركية وطريقة استخدامه لها وكذلك أسلوبه الواضح من اكتساب مكانة خاصة بين شعراء عصره. أما أسلوبه في الغزل فغاية في الوضوح، أمّا نثره وذكره للمناقب النبوية فهو أيضا واضح وضوحا شديدًا بالمقارنة مع ما كان يكتب في عصره. ويتّضح مما كتب أنه كان محبّا لأهل البيت، وربما كان هذا الحب هو السبب الذي جعله يهتم اهتماما عميقا بفصاحة وبلاغة ما يكتبه عند وصف النبي عليه الصلاة والسلام.

آثاره

1 ـ حلية الخاقاني، اعتبر ضياء باشا أن مؤلفه هذا يعد معجزة من المعجزات، أما معلم ناجي فقد رأى أنه أفضل من شاعر إيران خاقاني شرواني، ومدحه قائلا:

«لم يدرك إلى الآن إنَّه الثاني فأنتَ فخرُ الأمة يا خاقاني».

وتوجد نسخ مخطوطة من «حلية خاقاني» في مكتبات استانبول [دليل متحف سراي طوب قابي، قصر روان، رقم 80، 829، خزينة الأمانات، رقم 670، 1144؛ مكتبة جامعة استانبول، المخطوطات التركية، رقم 136، 279، 7217؛ مكتبة السليمانية، عاشر أفندي، رقم 438، الفاتح، رقم 5379]. ونجد من بين نسخ الكتاب المطبوعة، نسخة حازت على الاهتمام وهي الأولى التي أعاد راجع أفندي ترتيبها في عام 1264هـ/ 1848م وطبعت طبعتها الأولى بخطّ التعليق في المطبعة العامرة [بالنسبة إلى الطبعات الأخرى أنظر: أوزكه، 2/ 577]. ونشر الكتاب بالحروف اللاتينية الجديدة مرتين من قبل نومان كولكجي (أرضروم 1988) واسكندر بالا (استانبول 1991)؛ 2 ـ الديوان، يتكون من قصائد أكثرها في موضوع الغزل، وهو متوسط الحجم. وتوجد منه نسخ كثيرة في المكتبات التركية وخصوصا في استانبول [دليل متحف سراي طوب قابي، الخزينة، رقم 1003؛ مكتبة جامعة استانبول، المخطوطات التركية، رقم 2843؛ المكتبة الوطنية، علي أميري أفندي، منظوم، رقم 127]. وتتميز القصائد الغزلية والتي عددها 216 قصيدة بالسلاسة والأسلوب البسيط؛ 3 ـ مفتاح الفتوحات، عبارة عن ترجمة للأربعين حديثا، وقد صاغها على وزن «مفتعلن مفتعلن فاعلن»، وهي من نماذج

الأعمال الناجحة عند المؤلف. وشرع في تأليف هذا الأثر في عام 1011هـ/ 1602م وأنهاه في عام 1012هـ/ 1603م في ذكرى ليلة ولادة النبي ﷺ، وأهداه إلى الصدر الأعظم جغالا زاده سنان باشا. واحتوى الكتاب كذلك على ترجمات وشروح لأحاديث متعلقة بالأولياء والأنبياء ومناقب الصحابة. وجعل ترجمة كل حديث في عشرة أبيات، أما القصص التي أوردها فتقع في حدود خمسين بيتا من الشعر [لمزيد من المعلومات أنظر: قرهان، ص197 ـ 203]. ويتبين من خلال هذا الكتاب أن خاقاني يتميز بقدرة فنية عالية جعلته يسيطر سيطرة كاملة على الموضوع، كما يتضح أنه على علم بأرباب الأدب عند الفرس والعرب.

توجد من المؤلف نسخ مخطوطة كثيرة في العديد من المكتبات [مكتبة جامعة استانبول، المخطوطات التركية، رقم 69، 796، 902، 2174، 2318؛ مكتبة متحف سراي طوب قابي، خزينة الأمانات، رقم 680؛ مكتبة السليمانية، حميدية، رقم 387؛ مكتبة نجيب باشا، رقم 137، 138؛ مكتبة جامعة أتاتورك، أغاه سري لفند، رقم 24 ـ 25، 26]. ويلاحظ أن هناك بعض المعلومات المتعلقة بخاقاني في الفصل المسمى بـ «سركوزشت صاحبي تأليف».

■ المصادر والمراجع

● الخاقاني محمد بك، حلية الخاقاني، استانبول 1264؛ ● البياني، التذكرة، مكتبة كلية الآداب بجامعة استانبول، المخطوطات التركية، رقم 2568؛ ● قاف زاده فائزي، زبدة الأشعار، مكتبة السليمانية، الشهيد علي باشا، رقم 1877، ورق 143؛ ● الرياضي، رياض الشعراء، مكتبة نور عثمانية، رقم 3724، ورق 61 ب؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون، 1/ 691، 786؛ ● رضا، التذكرة، مكتبة السليمانية، عاشر أفندي، رقم 243، ورق 56ب؛ ● إسماعيل بليغ، غلدست رياضي عرفاني، دليل متحف طوب قابي سراي، الخزينة، رقم 1281، ورق 292؛ ● أيوان سرايي، حديقة الجوامع، ص24؛ ● ضياء باشا، خرابات، استانبول 1291، المقدمة، ص5؛ ● السجل العثماني، 2/ 264، 377؛ ● معلم ناجي، مجموعة معلم، استانبول 1309، ص177؛ ● المؤلف نفسه، الشعراء العثمانيون، إعداد جمال قورناز، أنقره 1986، ص62 ـ 75؛ ● فائق رشاد، الأسلاف، استانبول 1312، 2/ 1؛

● Hilye-i Hâkânî. (haz. Nihal Eldem, lisans tezi, 1968), Istanbul Üniversitesi Edebiyat .Fakültesi. Türkiyat Arastirmalari Enstitüsü, Tez, nr. 786; a.e. (haz. Hasan Akdoğan, lisans tezi, 1974), a.y., nr. 1251; ● Hâkânî Mehmed Bey , Hadîs-i Erbaîn Tercümesi (haz. Sâdik Tiryâkî, lisans tezi, 1977), a.y., nr. 1916; ● Gibb, History of Ottoman Poetry, III, 193-198; ● Osmanli Müellifleri, II, 163; ● Semseddin Kutlu, Türk Edebiyatinda Hilyeler (lisans tezi, 1941), IÜ Ed.Fak. Türkiyat Arastirmalari Enstitüsü, Tez,

nr. 125; • Türkiye Yazma Divanlar Kataloğu, II, 229-231; • Abdülkadir Karahan, Islâm-Türk Edebiyatinda Kirk Hadis, Istanbul 1954, p. 197-203; • Kocatürk, Türk Edebiyati Tarihi, p. 384; • Banarli, Resimli Türk Eedebiyati Tarihi, I, 602-603; • Özege, Eski Harflerle Basilmis Türkçe Eserler Kataloğu, II, 577; • Neclâ Pekolcay, Islâmî Türk Edebiyati, Istanbul 1981, p. 278-280; • «Hâkaanî», Büyük Türk Klâsikleri, IV, 128-132; • Numan Külekçi, «Edebiyatimizda Hilye ve Hilye-i Hâkânî», Islâmî Edebiyat, sy. 4, Istanbul 1989, p. 40-42; • Ali Fuat Bilkan, «Hadis-i Serifler Isiğinda Hilye-i Hâkânî», a.e., Donem: 2, sy. 1 (1989), p. 12-14; • Ali Canip Yöntem, «Hakanî Mehmed Bey», Türk Dili ve Eedebiyati Dergisi, II/1-2 (1947), p. 43-46; • a.mlf., «Hâkânî», Islâm Ansiklopedisi, V/1, p. 96-97; • Kâmûsü'l-a'lâm, III, 2012-2013; • «Hakanî Meh-med Bey», Türk Ansiklopedisi, XVIII, 322; • Fahir z, «Khakani», Encyclopaedia of Islam (new edition), IV, 916; • «Hakanî Mehmed Beğ», Türk Dili ve Edebiyati Ansiklopedisi, IV, 21; «Hilye, Hilyeler», a.e., IV, 238.

د. مصطفى أوزون
جامعة استانبول - تركيا
ترجمة: مصطفى بن الطاهر
الستيتي - تونس

خالد، محمد خالد ثابت

(1339هـ/1920م - 1416هـ/1996م)

ولد خالد محمد خالد ثابت بقرية العدوة مركز همهيا بمحافظة الشرقية، عام 1920م والتحق بكتاب القرية والمدرسة الإلزاميّة في حدود السابعة من عمره.

وفي التاسعة من عمره، حضر إلى القرية أخوه الأكبر «حسين» في عطلة أحد الأعياد وكان يعمل موظفا في القاهرة، فامتحن أخاه خالدًا بمحضر والده فتلجلج وتلعثم فقرر بمشورة الوالد أن يصطحبه إلى القاهرة، ليشرف على تعليمه بنفسه وخاصة بعد اكتشافه أنّ التعليم في القرية والمدرسة الإلزاميّة مضيعة للوقت وليس على المستوى المطلوب، وكان هذا الأخ قاسيا مع الصبي بسبب الرغبة في أن يحفظ القرآن الكريم ويلتحق بالأزهر فأوكل أمره إلى مؤدب أكثر قساوة.

ويتحدّث خالد محمد خالد عن هذه الفترة فيقول: «وهكذا وعبت في طفولتي الباكرة

خطر الاستبداد على الحرية، وخطر القسوة على التعليم والتربية، وقد تلقنت مبدأ كراهية القسوة في التعليم من خلال تجربة أخي حسين معي الذي كان يزري بجهود المحفّظ في كسر العظام وإرهاق الأجسام.

ويزداد المرء إيمانا بأنّ استخدام القسوة في التعليم أثناء مرحلة الطفولة ليست رذيلة فحسب ولا مفسدة فحسب، بل جريمة وعدوانا بغير حق على مستقبل الأطفال وعلى نابتة الأمة وزرعها، إنما تدمر في الصغير مزايا وخصائص كثيرة وتردم ينابيع المواهب المتفتحة وتنشئهم على الجبن والنقمة والاستهتار والخذلان».

وجاء موعد التقدم إلى المعهد الابتدائي الأزهري ولم تكن سنّه وقتئذ تسمح له بالالتحاق بالأزهر فاستثني من قيد السن، ولكن على شرط أن يسجل بمعهد في الزقازيق تابع للأزهر.

وبعد اجتياز المرحلة الابتدائيّة انتقل للالتحاق بالمرحلة الثانويّة بمعهد القاهرة الأزهري وبدأ في تلك المرحلة يتابع السياسة ويقرأ أخبارها في الصحف والجرائد.

وكانت طبيعة الدراسة في المرحلة الثانويّة تتطلب منهجا متخصصا في علوم الإسلام عقيدة وشريعة ولغة وأدبا ومن ثمّ تكون المرحلة الثانويّة إعدادا كافيا في العلوم يهيئه بصورة مثلى للالتحاق بإحدى كليات الأزهر مثل كلية أصول الدين ـ كلية اللغة العربيّة ـ كلية الشريعة ثمّ يجاوزها إلى أعلى المراحل فيلتحق بتخصص القضاء أو تخصص التدريس.

وبعد انقضاء المرحلة الثانويّة التحق خالد محمد خالد بكليّة الشريعة.

وقد تخرّج من الأزهر عام 1947م حاملا شهادة العالميّة من كليّة الشريعة وإجازة التدريس في تخصص التدريس وبدأ في البحث عن وظيفة والتحق للعمل في التدريس عام 1948م. وبقى مدرّسا إلى عام 1956م ثمّ التحق بعدها بالإدارة العامة للثقافة.

يقول صاحب الترجمة عن هذه المرحلة: «لم يعلق بالذهن الذي حشي بالحفظ وأجبر على تسميع كل العلوم شيء إلّا أقلّ القليل من المرويات والمحفوظات ولا شيء بعد ذلك سوى نسيان وإهمال ما حفظه بعد أن تحقق الغرض السريع منه بالامتحان والنجاح والسلام من العقوبة لدى أخيه ومعلميه».

لذلك لا يرجع الفضل في تكوين شخصية خالد محمد خالد الثقافية والفكريّة إلى علوم الأزهر المكره عليها. بل يعزو تكوينه إلى ما قرأه وحصله عن طريق القراءة الحرة التي حاول إعداد نفسه من خلالها ثقافيا وخاصة تلك المطالعات التي كانت نعم الزاد في مرحلة انضوائه تحت لواء «الجمعيّة الشرعية لتعاون العاملين بالكتاب والسنة»، وإلى جانب هذا كان الفكر الأوروبي في كتبه المعربة مهوى فؤاده وعقله.

وكان أول كتاب ثقافي اشتراه من مصروفه اليومي هو مذكرات لورد جربي الذي كان وزيرا للخارجية في بريطانيا أثناء الحرب العالميّة الأولى. ثمّ أكبّ على الفكر الغربي وراح يطالع في نهم وإعجاب، تولستوي، مكسيم جوركي، فيكتور هوجو، وجوليان، وألدوس هكسلي، وفولتير، وروسو، وأناتول فرانس، وويلز امرسون، ماركس، ولينين، وانجلز . . .

كذلك كان يطالع الصحف بانتظام ومثابرة، وكانت صحف الصباح والمساء وقتئذ هي المصدر الوحيد لثقافته السياسية وكانت على اختلاف مشاربها تعلم وتثقف وكان للمقال السياسي روعته وبراعة نفوذه.

وينمو حسه السياسي ويتابع المؤتمرات واللقاءات حتّى يصير خطيب معهده وخطيب النادي السعدي للوفديين.

تعرف الأستاذ خالد على الإخوان المسلمين وزار دارهم في سن مبكرة، وكان يذهب في صحبة الشيخ سيد سابق الذي أصبح فيما بعد مفتيا ومعلما للنظام الخاص للإخوان.

وكان خالد محمد خالد معجبا أشد الإعجاب بالشيخ حسن البنا من ناحية علمه وخلقه وزهده وسحر حديثه. وكانت علاقته بالإخوان - لحذره منهم - تنحصر في أنه مجرد زائر ومستمع للمرشد الأول دون الارتباط بعضوية أو التزام.

وكان كتاب «من هنا نبدأ» أوّل مؤلفاته الذي أحدث دويا هائلا في الأوساط الفكريّة والثقافيّة وخاصّة في مجال الفكر الديني، وذلك في فبراير من عام 1950م حيث تحركت لجنة الفتوى بالأزهر مطالبة النيابة بمصادرة الكتاب والتحقيق مع المؤلف الذي اتّهم بالخروج على الدين، حيث رأت فيما كتبه تسفيها لنظام الزكاة في الإسلام إلى جانب إهانته لعلماء الدين حيث أسماهم بالكهنة، واتهمته النيابة بأنّ كتابه يحمل دعوى للشيوعيّة ويحض على كراهيّة النظام.

ويقول الأستاذ خالد عن مؤلفه هذا إنّ دافعه إلى نشر هذا الكتاب كان إظهار نقائص النظام السياسي ورزايا الظلم الاجتماعي، وكان يتساءل من خلاله: «أهي بلاد الكهانة أم بلاد الإسلام الخالص والمستنير».

وبعد جدل وتوضيح للمفاهيم وبيان للمقاصد قررت المحكمة الإفراج عن الكتاب الذي وصفه البعض بالجرأة، والبعض بالضلال، والبعض هللوا لصدوره لاحتوائه على أفكار كانوا يريدون التعبير عنها فكفاهم إيّاها ذلك الكتاب.

وقد ردّ عليه الشيخ محمد الغزالي بمؤلّفه «من هنا نعلم» الذي حاور فيه أفكار كتاب «من هنا نبدأ». وكان خالد محمد خالد شجاعا في تراجعه عن بعض أفكاره التي كانت محلّ النقض والحوار مع العلماء ووضح ذلك في كتابه «دولة الإسلام».

لقد أشاد خالد محمد خالد بالحريّة ومقت الاستبداد وكان يرى الحرية قيمة ورسالة تستحق الجهاد والشهادة لكي تقف في جانب المظلومين، فهو عدو للطغاة الحاكمين لا يهادن في قتالهم والدعوة إلى ذلك، فخرجت كلماته من القلب ومن أجل الحريّة، ومن أجل المظلومين الذين يؤرقهم الشرق إلى العدل والكرامة.

توفّي الشيخ خالد محمد خالد بالقاهرة يوم الخميس 10 شوال 1416هـ الموافق 29 فبراير 1996م.

■ آثاره

1 - من هنا نبدأ؛ 2 - مواطنون لا رعايا؛ 3 - الديمقراطيّة أبدا؛ 4 - هذا أو الطوفان؛ 5 - لكي لا تحرثوا في البحر؛ 6 - الدين للشعب؛ 7 - لله، والحرية (أربعة أجزاء)؛

8 ـ معا على الطريق، محمد والمسيح؛ 9 ـ إنّه الإنسان؛ 10 ـ أفكار في القمّة؛ 11 ـ نحن البشر؛ 12 ـ إنسانيات محمد ﷺ؛ 13 ـ الوصايا العشر لمن يريد أن يحيا؛ 14 ـ في البدء، كانت الكلمة؛ 15 ـ كما تحدث الرسول؛ 16 ـ وجاء أبو بكر؛ 17 ـ بين يدي عمر؛ 18 ـ وداعا عثمان؛ 19 ـ في رحاب علي؛ 20 ـ معجزة الإسلام، عمر بن عبد العزيز؛ 21 ـ مع الضمير الإنساني في سيره ومصيره؛ 22 ـ رجال حول الرسول؛ 23 ـ عشرة أيام في حياة الرسول؛ 24 ـ أزمة الحرية في عالمنا؛ 25 ـ لقاء مع الرسول؛ 26 ـ دفاع عن الديمقراطيّة؛ 27 ـ الدولة في الإسلام؛ 28 ـ والموعد الله؛ 29 ـ أبناء الرسول في كربلاء؛ 30 ـ قصتي مع الحياة.

د. زينب رضوان
جامعة القاهرة ـ فرع الفيوم
مصر

■ الخالدي، أحمد سامح

(1314هـ/1896م ـ 1371هـ/1951م) ■ ■ ■

ولد أحمد سامح الخالدي في القدس، وأتمّ دراسته الأولى في مدرسة المطران (سان جورج) في القدس. ثم التحق بالكلية السورية (وهي الجامعة الأمريكية في بيروت حاليا)، وتخرّج منها سنة 1917 بشهادة صيدلي.

التحق بالجيش العثماني وبلغ رتبة ملازم، وسرّح سنة 1918. وبعد الاحتلال البريطاني لفلسطين عيّن مفتشا للمعارف في يافا، ثم نقل إلى الإدارة المركزية في القدس.

وفي سنة 1923 حصل على الماجستير في التربية والاقتصاد السياسي من الجامعة الأمريكية في بيروت. وكان موضوع رسالته: «مدارس القدس في أواخر عهد الدولة العثمانية». وعيّن بعد ذلك بسنتين مديرا بالوكالة لدار المعلّمين بالقدس، وثبت في المنصب مديرا أصيلا سنة 1926. وفي شهر أكتوبر (تشرين الأوّل) سنة 1927 بدّل اسم دار المعلّمين إلى الكلّية العربية، وظلّ مديرًا لها حتّى إقفالها سنة 1948.

وفضلاً عن ذلك، فإنّه اعتبارا من سنة 1944 عيّن بالإضافة إلى عمله كمدير للكلّية العربية، مستشارًا فنّيا لمدير المعارف العام، وبذلك كان له أثر في تطوير برامج التعليم في فلسطين.

وأثناء إدارته للكلية العربية تطوّر هذا المعهد بتوجيهه بحيث أصبح طلّابه، الذين يقضون فيه سنتين بعد نهاية الدراسة الثانوية، مهيّئين للترشّح لامتحان الشهادة المتوسّطة (ما يسمى بالإنكليزية Intermediate).

وكانت الخطط قد وضعت لإضافة سنتين إضافيّتين بحيث يمكن للطلّاب أن يتقدّموا بعدها لشهادة الباكالوريوس (الليسانس) في اتّجاهين رئيسيّين: الآداب والعلوم. وكان الاتّجاه الأوّل يشمل اللغة العربية واللغة الإنكليزية واللغة اللاتينية والفلسفة والمنطق وتاريخ العالمين اليوناني والروماني. أمّا القسم العلمي فكانت مواده تشمل اللغتين العربية والإنكليزية، والرياضيات والفيزياء والكيمياء. وكان المخطّط قد بُدئ بتنفيذه سنة 1947 وذلك بتوسيع المبنى ليتّسع لأكثر عدد من الطلّاب وتزويده بالمختبرات اللازمة.

لكنّ أحداث سنة 1948 أدّت إلى إغلاق الكلّية العربية، التي كانت أعلى معهد للتعليم العالي للعرب في فلسطين.

وبعد ذلك انتقل أحمد سامح الخالدي إلى بيروت، حيث عمل بعض الوقت مستشارا لخطوط الجوية اللبنانية (خطوط الشرق الأوسط)، كما تابع بعض أعماله العلمية في تاريخ المدارس الإسلامية.

لكن الزمن لم يسمح له بإتمام مشاريعه إذ توفّي سنة 1951.

كان أحمد سامح الخالدي يعي مسؤوليته الاجتماعية خارج نطاق عمله التربوي في الكلية العربية؛ ولذلك فقد أسّس سنة 1926 «لجنة نشر التعليم العالي بين المسلمين» التي قامت بدورها بابتعاث طلّاب فلسطينيّين إلى الجامعة الأمريكية في بيروت.

وأسّس مع أصدقاء وصحب له ميتم دير عمرو (بين القدس وعين كارم) الذي كان يحوي مدرسة ومزرعة تحتضن الأيتام، وخاصة الذين فقدوا معيلهم في سبيل القضية الفلسطينية. وظلّت الجمعية المشرفة عليه تقوم بعملها حتى سنة 1948 إذ استولت القوات الصهيونية عليه، فتوقّف العمل فيه.

آثاره

لمّا تولّى أحمد سامح الخالدي إدارة دار المعلمين، (الكلية العربية فيما بعد) بذل جهدا كبيرا في وضع كتب في التربية، إذ إنّ المعهدين كانا معنيّين بتدريب المعلّمين الذين كانوا يرغبون في ممارسة مهنة التعليم. ومؤلفاته هي:

1 - إدارة الصفوف، المطبعة العصرية، القدس 1928؛ 2 - أنظمة التعليم في جزأين نشرتهما المطبعة العصرية في القدس، الأول سنة 1933 والثاني سنة 1935؛ 3 - أركان التدريس، مطبعة بيت المقدس، القدس د.ت؛ 4 - طرق التدريس المثلى (مقتبس أصلا عن كتاب لوليام تشارلز باغلي ومعدل لمصلحة الطالب الفلسطيني)، مطبعة بيت المقدس، القدس 1937؛ 5 - ترجم كتاب الحياة العقلية (Mental Life)، تأليف روبرت ودورث Robert Woodworth إلى اللغة العربية، دار المعارف، القاهرة 1929؛ وفضلاً عن ذلك، فقد كانت له عناية بالتاريخ الفلسطيني، ومن هنا فقد حقّق وألّف الكتب التالية: 6 - حرّر «الأعلام بفضائل الشام» لأحمد بن عيسى المنيبي، المطبعة العصرية، القدس، د.ت؛ 7 - أهل العلم بين مصر وفلسطين، المطبعة العصرية، القدس د.ت؛ 8 - رجال الحكم والإدارة في فلسطين من عهد الخلفاء الراشدين حتى القرن الرابع

عشر الهجري، المطبعة العصرية، القدس، د.ت؛ 9 ـ المعاهد المصرية في بيت المقدس، المطبعة العصرية، القدس، د.ت؛ 10 ـ أهل العلم والحكم في ريف فلسطين، وقد نشره بعد وفاته محمود العابدي، عمان 1968م.

د. نقـولا زيـادة
الجامعة الأمريكية ـ بيروت ـ لبنان

الخالدي، روحي بن ياسين

(1280هـ/1864م ـ 1331هـ/1913م)

ولد روحي بن ياسين الخالدي في القدس (فلسطين)، واضطربت دراسته بين مدارس القدس ونابلس وطرابلس الشام والآستانة وبيروت، وظل يصارع إلى أن تحققت أمنيته في السفر إلى الآستانة سنة 1889م حيث انتسب إلى «المكتب الملكي الشاهاني»، وحضر مجالس جمال الدين الأفغاني.

وفي عام 1898م عيّن قنصلاً للدولة العثمانية في مدينة بوردو وتوابعها، ونال أرفع الأوسمة من الحكومة الفرنسية. وفي بوردو اقترن بالفرنسية إرمانس بنسول، وأنجبت له ولدا أصبح فيما بعد رئيسًا لبلدية بوردو.

وعقب إعلان الدستور العثماني في 24/ 7/ 1908، عاد روحي إلى القدس فانتخبه مواطنوه نائبًا في مجلس النواب العثماني (المبعوثان). وأعيد انتخابه ثلاث مرات، وفي الآستانة انتخب وكيلاً أول للمجلس. ولما حل المجلس عام 1912م عاد إلى القدس، ولكنه ما لبث أن غادرها إلى الآستانة. وفيها توفّي بحمى التيفوئيد التي لم تمهله سوى أربعة أيام، وكانت وفاته في 16/ 8/ 1913 (1331هـ).

يمثل إنتاج روحي الخالدي ركنا مهما من أركان المرحلة المبكرة لعصر النهضة، ويتوّجه كتاب أساسي يعدّ فريدا من نوعه في عنوانه وموضعه، وهو: «تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب، وفيكتور هيغو»، 1904م، وقد اعتبرته الموسوعة الإسلامية العمل الأول من الدراسات العربية المقارنة في الأدب العربي الحديث» [ط. جديدة، 4/ 969]. على أن هناك دراسات سابقة عدته رائدا للنقد الأدبي الحديث ولاسيما في مجال التعامل مع المذاهب الأدبية الغربية؛ من ذلك دراسات إسحق موسى الحسيني وناصر الدين الأسد، ومحمد يوسف نجم، ثم عبد الرحمٰن ياغي، وهاشم ياغي، ثم محمد برادة. وإلى جانب الأدب المقارن والنقد الأدبي كانت هناك الريادة التاريخية التي نسبها إليه ناصر الدين الأسد بجدارة ودقة، من خلال مطولاته التاريخية في «تاريخ علم الأدب»، وغيرها من

الاستبصارات التاريخية المبكرة التي تمثّلت في دراساته حول سرعة انتشار الدين الإسلامي، والمسألة الشرقية، والانقلاب العثماني، وحكمة التاريخ.

كذلك امتد تنوّع إنتاج الخالدي إلى أدب الرحلات، وإلى تاريخ العلوم، إذ كتب عن الكيمياء عند العرب، وعند غيرهم. وتكشف مخطوطاته غير المنشورة عن مزيد من الاهتمام بالتاريخ مثل دراساته عن تاريخ اليهود، وعن السيونزم (الصهيونية)، وعن تراجم أعلام الأسرة الخالدية. وله أيضًا مخطوط في علم الألسنة أو مقابلة اللغات، يصفه اسحق الحسيني بأنه «كتاب نفيس في بضعة مجلّدات» [الحسيني، هل الأدباء بشر؟، ص34].

ويبقى كتاب تاريخ علم الأدب درة إنتاجه، ويكشف عن خصائصه التنقيبية وسعة أفقه بالإضافة إلى ريادته في حقل الأدب العربي المقارن التطبيقي.

وفيما يلي محاولة مركزة لتلمس مزاياه ومفهوماته المقارنية والنقدية:

1 - يحمل عنوان الكتاب مفاجآت علمية، في مقدمتها استعمال مصطلح «علم الأدب» وهو استعمال مبكر جدا ومتأثر بالاتجاه الفرنسي في نهاية القرن التاسع عشر (هيبوليت تين، وسانت بوف). ويبدو من تتمة العنوان أن المؤلف لم يطلق هذه التسمية عبثًا، فما دام الأدب علما فإذن يمكن أن يكون منطقه واحدا وتاريخه واحدا ولاسيما عند الثقافتين العربية والإفرنجية اللتين كان بينهما احتكاك وتفاعل منذ القديم. وهكذا نجد العنوان: تُاريخ علم الأدب، عند الإفرنج والعرب وفيكتور هيغو». أي إنه يقدم هيغو مثالا محسوسا لآرائه.

2 - تظهر المقدمة الفرنسية والمناقشات التي دارت في الكتاب أن مؤلفه كان مجدّدا واسع الأفق وداعيا إلى التبادل الثقافي والحوار. والجدير بالذكر أن الآراء التجديدية حينذاك كانت تجلب النقمة الرسمية على صاحبها حتى لو ظلت في إطار الثقافة والأدب، وهذا ما يفسر إشارة الناشر في مقدمته إلى أن «الهلال» نشرت مقالات الخالدي دون توقيع، ثم رضي المؤلف أخيرا بوضع توقيع «المقدسي» على الطبعة الأولى من كتابه.

3 - يظهر الخالدي في المقدمة الفرنسية أيضًا وعيا نظريا باتجاه اللغة العلمية الواضحة. ويشير إلى أنه كان في مقدوره أن يكتب على طريقة الحريري المسجّعة، ولكنه آثر أن يكون واضحًا دقيقا ليتيح لجمهور القرّاء أن يتابعوه. وبالفعل أتت لغته قريبة نسبيا من اللغة العلمية الدقيقة عن الزخرف والتكلف.

4 - يسجل للخالدي في مجال الأدب المقارن حرصه على الترجمة، أي على إعطاء فكرة عن النصوص الأصلية التي اهتم بها ولا سيما نصوص فيكتور هيغو. وإذا بدت بعض مصطلحاته طريفة اليوم فإن جهده البكر يضعه في مصاف رواد الترجمة ولاسيما من ناحية إصراره على فهم المصطلح الأصلي بلغته وشرح معناه واقتراح ترجمته، وخاصة في مجال المذاهب الأدبية مثل:

- الطريقة الرومانسية أو رومانتيك Romantisme مقابل «المدرسة الرومتية».

ـ الطريقة الحقيقية Réalisme مقابل «الواقعية».

ـ فاجعة أو مبكية Tragédie مقابل «مأساة».

ـ مضحكة Comédie مقابل «ملهاة».

وهناك كلمات لم ينجح في إيراد مرادفات عربية لها فاستعملها كما هي بالفرنسية مع تقديم شرح لمعناها مثل ليريك Lyrique .

5 ـ يسجل للخالدي حرصه على إعطاء فكرة عن المذاهب والأنواع الأدبية لدى الأوروبيين وتلمس آثار أو مشابهات هذه المذاهب والأنواع في الأدب العربي. ومن المعروف أن دراسة المذاهب والأنواع الأدبية بمفهومها الشمولي تشكل ركيزة مهمّة من ركائز الأدب المقارن.

6 ـ تتوافر في كتاب «تاريخ علم الأدب» لمحات مقارنة شديدة الأهمية تدل على توافر حس البحث المقارني والذوق النقدي أيضًا لدى المؤلف، ومثال ذلك:

أ ـ يعالج الكاتب موضوعات مقارنية مباشرة في الفصل الرابع عشر، من مثل «ما اقتبسه الإفرنج من قواعد الشعر العربي». وينتهي إلى التأكيد أنّ الظروف التاريخية والاجتماعية والسياسية والثقافية أتاحت الفرصة لانتقال الأفكار والأساليب والتقنيات الغربية إلى الفرنجة في القرن الحادي عشر الميلادي من خلال الاتصال العربي الفرنسي الحربي وغير الحربي في شمال إسبانيا وجنوب فرنسا، ويتابع هذه الاقتباسات بدقة وتفصيل، ويحرص على رسم خارطة للجو السياسي الاجتماعي الذي دارت فيه المبادلات الأدبية في تلك الفترة، كما يعرج على وصف المنطقة جغرافيا من خلال معرفة مباشرة، وعلى وصف حروب المسلمين والفرنجة فيها. ومن الموضوعات المقارنية التي يعالجها ويبيّن رأيه فيها مثبتا التأثير العربي في الأدب الإفرنجي: «إنشاد فقراء الإفرنج النشائد والمدائح العربية»، «أخذ التروبادور علم القوافي عن العرب»، «اقتباس الإفرنج أقاصيصهم عن العرب». ومن خلال بحثه المقارني يؤكّد باستمرار تأثير المعتقدات الدينية والأساطير والأغاني والتصرفات الاجتماعية في تبادل الأفكار والأساليب الأدبية.

ب ـ ويمكن أن تكون معالجة الخالدي لانتقال علم القوافي إلى الإفرنج نموذجا جيدا لطريقته في المقارنة وهي إن لم تتصف أحيانا بالدقة والمستند العلمي فإنها تتصف بسعة الأفق وذكاء الاستنتاج، ويختمها بالتأكيد التالي: «فتحسّن الشعر الإفرنجي بإدخال القوافي العربية فيه وباقتباس أدب الأندلس ورقة غزلهم» [ط2، ص104 ـ 105].

ت ـ يبدو الكاتب معجبا بفيكتور هيغو، ولكنه لا يغمض العينين عن نواحي الضعف في كتابته، ويعلل شهرته بقوة أمته وأدبه القومي. ومثل هذا يشكل لفتة مقارنية مبكرة.

ث ـ يحوي كتاب الخالدي سلسلة مطوّلة من المقابلات العربية الإفرنجية الفكرية والأدبية وأحيانا المعتقدية (أي غير القائمة على التأثر والتأثير). كما يقدم أمثلة تسهم في تأكيد تشابه التجربة الإنسانية في مجال الإبداع الفني والأدبي. ومن أمثلتها: المقابلة الشاملة بين الشعر العربي والشعر الإفرنجي مع بيان آراء كل طرف في شعر الآخر، المقابلة المستمرة بين هيغو والمعري، المقابلة بين ملحمة رولاند وسيرة أبي زيد الهلالي.

وأخيرا يحسن التأكيد أن الخالدي كان مؤهّلا تأهيلا معقولا لأن يكون باحثًا مقارنيا، فقد كان ذا ذوق أدبي حسن واطلاع جيّد على التاريخ والآداب العربية والأجنبية، وكانت معرفته باللغات وافية إذ أتقن العربية والفرنسية والتركية والفارسية، وساعدته ظروف إقامته في فرنسا على حضور مؤتمرات المستشرقين وتبادل المعارف معهم، وربما كان أول عربي يحاضر في مقر الأكاديمية الفرنسية، حول الثقافة العربية والدين الإسلامي (1896، 1897). وكان سجل حياته، مثلما كان إنتاجه الفكري، مدفوعًا بالدافعين الإصلاحي والمعرفي، مع مسعى مقارني لتحقيق الأصالة والمعاصرة من خلال حوار الثقافات ووضع التراث العربي الإسلامي في إطاره الإنساني الأشمل.

آثاره

1 ـ تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب وفيكتور هيغو، نشرته «الهلال» عام 1904 بتوقيع «المقدسي» ثم أعادت طبعه عام 1912 وعليه اسم المؤلّف ورسمه؛ 2 ـ الكيمياء عند العرب، مصر، دار المعارف، 1953؛ 3 ـ رحلة إلى الأندلس، وتذكر المراجع أنه مطبوع؛ 4 ـ رسالة في سرعة انتشار الدين المحمدي وفي أقسام العالم الإسلامي، محاضرة ألقاها عام 1896 في دار الجمعيات العلمية في باريس، ونشرتها جريدة طرابلس الشام ثم أصدرتها في كتيّب؛ 5 ـ المقدمة في المسألة الشرقية منذ نشأتها الأولى إلى الربع الثاني من القرن الثامن عشر، محاضرة ألقاها في دار الجمعيات العلمية في باريس عام 1897 (مؤتمر المستشرقين العالمي)، وظهرت في كتيّب بالقدس بعد ذلك.

وله كتب أخرى مخطوطة منها: كتاب علم الألسنة أو مقابلة اللغات.

المصادر والمراجع

● الأسد، ناصر الدين، محمد روحي الخالدي، رائد البحث التاريخي في فلسطين، القاهرة، معهد البحوث والدراسات العربية، 1970؛ ● الحسيني، إسحاق، هل الأدباء بشر؟، بيروت دار العلم للملايين، 1950، ص34؛ ● الخطيب، حسام، ملتقى الأدب المقارن في عنابة، المعرفة، ع257، س22، 7/ 1985، ص71؛ ● م.س، روحي الخالدي، رائد الأدب العربي المقارن، الكرمل، عمان 1985؛ ● م.س، آفاق الأدب المقارن عربيا وعالميا، دار الفكر، دمشق ـ بيروت 1992، ص130، 140؛ ● داغر، يوسف، مصادر الدراسة الأدبية، بيروت 1956م، 2/ 333 ـ 335؛ ● الزركلي، معجم الأعلام، ط3، د.ت، 3/ 64؛ ● العودات، يعقوب (البدوي الملثم)، من أعلام الفكر والأدب في فلسطين، عمان 1976م، ص155 ـ 160؛ ● كحالة، معجم المؤلفين، ص174 ـ 175؛ ● نجم، محمد يوسف، «الفنون الأدبية» في الأدب العربي في آثار الدارسين، بيروت 1961، ط1، 2/ 318؛ ● ياغي، عبد الرحمن، حياة الأدب الفلسطيني الحديث من أول النهضة حتى النكبة، بيروت 1968م، ص527 ـ 532؛ ● ياغي، هاشم، حركة النقد الأدبي الحديث في فلسطين، معهد البحوث

والدراسات العربية، القاهرة 1973، ص35 ـ 43؛
• EI2, Tome IV, Paris-London, 1978-969.; • Al-Khateeb, Hussam, Ruhi al-Khalidi, Journal of Arabic Literature, Leiden, XVIII, 1987, p81-87.

د. حسام الخطيب
جامعة دمشق

الخالديان الموصليان محمد وسعيد ولدا هاشم بن وعلة

(ت. 380 وح 391هـ/ح 990 وح 1000م)

ابنا عرام، أبو بكر محمد (أكبرهما) ثم أبو عثمان سعيد، شاعران، أديبان، مؤرّخان أديبان. ينتسبان إلى قرية من قرى الموصل تدعى «الخالدية» أو إلى جد أعلى «خالد العبدي»، ويحتمل الأمران معا، ترتبط حياتهما الابداعيّة والوظيفيّة والتأليفيّة بشكل يكوّنان فيه توأمين سياميين في تاريخ الأدب العربي، يتعذر فك ارتباط حلقات سيرتهما دراسيا وإلّا ضاعت جميعا.

ولدا بالخالدية، ولا يعرف بدقّة تاريخ ولادتيهما، غير أنّ المظنون أنهما ولدا في مطلع القرن الرابع الهجري وانتقلا إلى الموصل وسكنا في محلة «درب دراج» في وسطها. وأخذا العلم عن شيوخ الموصل. ثمّ سافرا إلى بغداد لاستكمال علومهما، فأخذا، والأرجح درسا كتب اللغوي الكبير ابن دريد (ت 321هـ) والأديب والراوية أحمد بن جعفر بن موسى البرمكي المعروف بجحظة (ت 324هـ)، والمؤرّخ والأديب أبي بكر الصولي (ت 335هـ). وترددا، ببغداد، على مجالس الوزراء وكبار رجال الدولة.

عادا إلى الموصل، ولا نعرف من سيرتهما بها سوى العلاقة الأدبيّة المحمومة مع معاصرهما الشاعر الموصلي السريّ الرفّاء (ت 362هـ) القائمة على الاتهام المتبادل بسرقة كل طرف شعر الآخر. وقد عمل الخالديان على إبعاد خصمهما عن البلاط الحمداني بالموصل، واضطراه إلى الهجرة نحو البلاط التوأم بحلب. ولكن الخالديين لم يمهلاه فلحقا به، واتصلا بسيف الدولة الحمداني (ت 356هـ) وصارا في مقدّمة ندمائه، ومقربي شعرائه في الحقبة التي كان فيها الشاعر الخالد أبو الطيب المتنبي (ت 354هـ) نجم البلاط الحمداني الحلبي (337 ـ 346هـ). وتولّى الخالديان الإشراف على خزانة كتب سيف الدولة النفيسة. وقد اضطرّ خصمهما السريّ إلى ترك حلب واللجوء إلى بغداد، حيث حظي عند أبي إسحاق إبراهيم بن هلال الصابئ الحراني (ت 384هـ) والوزير المهلبي الحسن بن محمد (ت 352هـ).

ومثّل لعنة أبدية، طارد الخالديان خصمهما

تاركين سيف الدولة، ويكاد أبو العلاء المعري (ت 449هـ) ينفرد بالقول «... وانصرفا على حد مغاضبة»، واتجها إلى بغداد. ويرجح أنّ مجيئهما كان عندما تولّى أبو إسحاق الصابئ ديوان الرسائل سنة 349هـ. وكان الصابئ معجبا بهما، مناصرا لهما في مواجهة الرفاء، مقربا إيّاهما من الوزير المهلبي. وفي هذا الوقت وببغداد وجها لخصمهما الضربة القاضية، فأبعداه عن رجال الدولة والأدب، واضطراه إلى العيش بالوراقة والنسخ. وحظيا هما عند الصابئ والمهلبي. وكإجراء انتقامي عمد الرفّاء إلى انتزاع أجود ما قاله الخالديان من شعر... وأضافه إلى ديوان صديقه محمود بن الحسين المعروف بكُشاجم (ت حوالي 360هـ).

وتنقطع أخبار الحياة العامّة للخالديين مع وفاة المهلبي سنة 352هـ. وربّما انصرفا إلى التأليف. وقد عُرف عن الخالديين، رغم أنّهما كانا من أجاويد شعراء القرن الرابع الهجري وفي شعرهما رقة في الغزل ومجون، فإنّهما لم يوفرا شعرا يعجبهما إلّا وانتحلاه.
توفي الأخ الأكبر أبو بكر في حدود سنة 380هـ. وبعد وفاته جمع الأخ الأصغر شعره. وشعر أخيه. ولم تعطنا المصادر مكان وفاتيهما.
ومن نماذج أشعارهما: ما قاله أبو بكر محمد متغزّلا بالخمرة:

ومدامةٌ صفراء في قارورة
زرقاء تحملها يدٌ بيضاء

فالراح شمسٌ والحُباب كواكب
والكفّ قطبٌ والإناء سماء

وقال في «دير سعيد» بالموصل:

قد طفح القلبُ بالهمومِ فإنْ
طفت بكاس فهاتها تطفح

في جنح ليل تُرى كواكبُه
وهي إلى الغربِ كلّها جُنح

نراك تنسى سرور يومك في
ديرِ سعيدٍ وظلّه الأفيح

وممّا قاله أبو عثمان سعيد:

والحب لولا جورُه في حكمه
ما سلَّم الأقوى لأمر الأضعف

لم يُبق لي جسمًا ولا دمعا فقُل
في مُدنف يبكي بدمع مُدنف

وقال:

هتف الصبح بالدجى فاسقنيها
قهوة تترك الحليم سفيها

لستَ تدري لرقة وصفاء
هي في كاسِها أم الكاس فيها

ومن شعر الخالديين المشترك، قالا في أحد الأشراف وقد أبطأ عليهما بالجائزة:

أقسمت بالريحان والنـ
ـغم المضاعف والوتر

لئِن الشريفُ مضَى ولم
يُنعم بعبديه النَّظَرْ

لنشاركنّ بني أُميـ
ـة في الضّلال المشتَهِر

قال أبو إسحاق الصابئ (ت 384هـ) فيهما:

أرى الشاعرَيْن الخالديّين سيَّرا
قصائدَ يفنى الدهر وهي تُخلَّد
جواهرُ من أبكار لفظ وغُريبة
يقصّر عنها راجز ومقصِّد

وقال معاصرهما وأول من ترجم لهما ابن النديم (ت حوالي 385هـ) «وكان... إذا استحسنا شيئا غصباه صاحبه حيا أو ميتا لا عجزا منهما عن قول الشعر ولكن كذا كانت طباعهما».

وقال الثعالبي (ت 429هـ) وهو أوّل من أورد كثيرا من شعرهما: «إن هذان لساحران يغربان بما يجلبان، ويبدعان فيما يصنعان. وكان ما يجمعهما من أخوة الأدب، مثل ما ينظمهما من أخوة النسب... ويشتركان في قرض الشعر وينفردان، ولا يكادان في الحضر والسفر يفترقان...».

وقال المعري (ت 449هـ): «ولهما ديوان ينسب إليهما لا ينفرد أحدهما بشيء دون الآخر إلّا في أشياء قليلة، وهذا يتعذر في ولد آدم، إذا كانت الجبلة على الخلاف وقلّة الموافقة.

وقال الذهبي (ت 748هـ): «هما شاعران مُحسنان مجوّدان، متوافقان في النظم، قد اشتركا في نظم كثير من الشعر».

ويقول عمر فروخ (ت 1987م): «هما شاعران محسنان مجيدان رقيقان، في شعرهما تأنق ولفتات بديعة. أمّا فنونهما فهي: المديح، والهجاء، والخمر، والغزل» وأنّهما كانا «يُلمان بمعاني الشعراء من أمثال أبي نواس، وأبي تمام والبحتري، وابن المعتز، وسواهم إلماما قريبا، ثمّ يلقيان عليها تراكيب أسهل وألين. ففضلهما في اللفظ العذب لا في المعنى المقتنص».

آثارهما

أ ـ المطبوعة:

1 ـ الأشباه والنظائر من أشعار المتقدّمين والجاهليين والمخضرمين، ويعرف «بحماسة الخالديين» في ج2، تح. د. السيد محمد يوسف، القاهرة 1958 ـ 1965؛ 2 ـ التحف والهدايا، تح. سامي الدهان، القاهرة 1958؛ 3 ـ ديوان الخالديين، جمع وتح. سامي الدهان، دمشق 1969؛ 4 ـ المختار من شعر بشار، شرح أبي الطاهر البرقي، نشر محمد بدر الدين العلوي، القاهرة 1934، ط2، بيروت 1963.

ب ـ المخطوطة:

5 ـ أخبار أبي تمام ومحاسن شعره، [الفهرست، الهدية، كحالة]؛ 6 ـ اختيار شعر ابن الرومي [الفهرست، الهدية، كحالة]؛ 7 ـ اختيار شعر البحتري [الفهرست، الهدية]؛ 8 ـ اختيار شعر مسلم بن الوليد وأخباره [الفهرست، الهدية]؛ 9 ـ الهديرة، كتاب أخذ عنه ياقوت الحموي في معجم البلدان؛ 10 ـ قصائد لسعيد بن هشام، [الخالدي، برلين، 7567، رقم 403]؛ 11 ـ وقد نسب إليهما كتاب «أخبار الموصل» منذ كتاب «الفهرست» لمعاصرهما ابن النديم. وقد أخذ بعض المؤرخين التالين هذا العنوان فذكروه، أو غيروه إلى «تاريخ الموصل». والذي أراه أنّ هذا الكتاب يبدو كرقعة مختلفة النوع واللون على فرشة مؤلفاتهما المقصورة على الشعر وأخبار الشعراء. وأرجح أنّ تحريفا

ونقصا وقعا في العنوان، فهو إمّا أن يكون «أخبار شعراء الموصل» أو «اختيار شعر الموصل». ولا أستبعد أنّ الخالديين أو أصغرهما، وهما الشهيران بالقنص والسطو، قد أغارا، على كتاب معاصر لهما هو علي بن محمد بن المطهر الشمشاطي الذي نسب إليه كتاب «تاريخ الموصل».

المصادر والمراجع

● الزركلي، خير الدين، الأعلام، بيروت، ط4، 1979، 3/ 103؛ ● الغلامي، عبد المنعم، الأنساب والأسر، بغداد، ط1، 1965، 1/ 73؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، أوفست مكتبة المثنى، بغداد، 1/ 38، 46 و2/ 718 ● ابن كثير، البداية والنهاية، بيروت 1986، 11/ 274، في ترجمة السريّ الرفاء؛ ● الزبيدي، مرتضى، تاج العروس، دار مكتبة الحياة، بيروت، مصور عن ط1، مط. الخيريّة بمصر 1302هـ، 2/ 345؛ ● زيدان، جرجي، تاريخ آداب اللغة العربيّة، بيروت 1983، 2/ 600 وكذلك ص 561، في ترجمة السريّ الرفاء؛ ● بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، تر. د. عبد الحليم النجار، القاهرة، ط2، 1969، 3/ 71 ـ 72؛ ● فاخوري، حنا، تاريخ الأدب العربي، مط. البولسية، بيروت، ط6، د.ت، ص 711، ا، في ترجمة السريّ الرفاء؛ ● فروخ، عمر، تاريخ الأدب العربي، بيروت، ط1، 1969، 2/ 539 ـ 542؛ ● الذهبي، تاريخ الإسلام، تح. د. عمر عبد السلام تدمري، بيروت، ط1، 1987، حوادث ووفيات 351 - 380هـ، ص 684 ـ 686؛ ● البغدادي، الخطيب، تاريخ بغداد، دار الكتاب العربي، بيروت د.ت. عن ط. الخانجي، القاهرة 1931، 9/ 110، سعيد الخالدي، وص 194 (في ترجمة السريّ الرفاء)؛ ● الديوه جي، سعيد، تاريخ الموصل، بغداد 1982، 1/ 197، 214؛ ● الصائغ، القس سليمان، تاريخ الموصل، بيروت 1928، 2/ 57، 59، 61 ـ 63؛ ● الموصلي، ابن باطيش، التمييز والفصل، تح. عبد الحفيظ منصور، الدار العربيّة للكتاب، تونس، 1983، 2/ 629؛ ● الثعالبي، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تح. محمد أبو الفضل ابراهيم، القاهرة 1965، ظ. ك، ص 229 ـ 230؛ ● الشابشتي، الديارات، تح كوركيس عواد، بيروت، ط3، 1986، المقدّمة، ص 28، 39، 40، 45، ثمّ ص 162، 184، 300، 343، 385، 412، 414، 415؛ ● ديوان البحتري، تح، حسن كامل الصيرفي، القاهرة 1978، 5 ج، متواصلة الترقيم، ص 6، 366، 399، 1430، 2102، 2242، 2426؛ ● ديوان السريّ الرفاء، تح د. حبيب حسين الحسني، بيروت وبغداد 1981، ظ.ك، 2/ 867؛ ● عبد الرحمٰن، عبد الجبار، ذخائر التراث العربي الإسلامي، البصرة، ط1، 1981، 1/ 489.

أ. بسام إدريس الجلبي
الموصل ـ العراق

■ الخالع أبو عبد الله، الحسين بن محمد بن جعفر

(373هـ/983م - 422هـ/1031م)

هو الحسين بن محمد بن جعفر الرافقي (نسبة إلى الرافقة) كنيته أبو عبد الله، أديب شاعر محدّث، راوية غير ثقة، له شعر حسن، يقال إنه من ذرية معاوية بن أبي سفيان، لقبه الخالع، سكن الجانب الشرقي من بغداد.

وكانت بغداد تموج بالأحداث الجسام على المستوى السياسي والاجتماعي والثقافي، فقد شهد القرن الذي عاش فيه الخالع تقلبات زعزعت أركان الخلافة، فقد عاصر ستّة من الخلفاء العباسيين، تقلبوا على الحكم، بعضهم عُزل، وبعضهم اعتُقل، وبعضهم سملت عيناه وتُرك مكفوفا حتى وافته المنية.
كما شهد الخالع قيام الدولة البويهية التي انطلقت من فارس، وكرمان، وطبرستان وامتدت إلى دار الخلافة في بغداد، فأصبح البويهيون متسلطين على الحكم، يعزلون الخلفاء، ويتآمرون على ولاة العهد، ويختصمون فيما بينهم على المغانم، وهذا الصراع أدى إلى زعزعة الأمن الداخلي والخارجي للخلافة، ففضلا عن الصراع بين الخلافة العباسية في العراق والخلافة الفاطمية في مصر، شهد العراق نفسه اضطرابات وفتنا بين عناصر السكان، سواء على المستوى المذهبي والطائفي، أم على المستوى العرقي، وهذا قاد إلى إشاعة الفوضى في البلاد، فكثيرا ما كان يتوقف الحج العراقي نتيجة التخوّف من غارات الأعراب على الحجاج، أو من تسلط القرامطة الذين بلغ بهم الأمر إلى انتزاع الحجر الأسود من الكعبة، واحتفظوا به فترة طويلة. ومثل هذا الاضطراب الداخلي سيقوض أركان الأمن وما يجره من فترات الجفاف الاقتصادي الذي يرافقه غلاء الأسعار، وشغب الجند الذين تتأخر مرتباتهم، وما يجره ذلك من مجاعات اجتاحت الخلافة، حتى أكل الناس لحوم الكلاب والحمير، مما أدّى بغوغاء الناس أن ينهبوا بغداد، وأن يثوروا في البصرة. فإذا أضفنا إلى ذلك الجائحات الوبائيّة التي كانت تجتاح البلاد بين فترة وأخرى، أدركنا الوضع المتردي للخلافة في ذلك الزمن.
كل هذه العوامل تفسر الأسباب التي كان يلجأ إليها الشعراء، وهم يمثلون فئة المثقفين والفنانين الذين لا يجدون مرتزقا إلا بما يمتلكون من ثقافة أدبيّة ومواهب فنية. ولذلك نجد رجلا كالخالع موزّعا بين أن يثقف نفسه بثقافة العصر القائمة على الثقافة الدينيّة، أو أن يسير في ركاب الشعراء الذين يتهافتون على أبواب السلطان. لذلك وجدناه يرتاد حلقة أبي عمر الزاهد والطبراني والطوماري ويحدّث عنهم، ولكنه من أجل لقمة العيش يندرج مع مجموعة شعراء أبي نصر سابور بن أردشير، كالسلامي، والحاتمي، وأبي الفرج الببغاء الذين يقدمون أماديحهم لينعموا ببعض

عطايا من أغدقت عليهم الدنيا بالمال والجاه والسلطان وحب العلم والثقافة.
ولذلك حاول الخالع أن يوفق بين متطلبات الدنيا في حلقات القوم الذين يرتادون منزل أبي نصر، وبين متطلبات الآخرة في ارتياد حلقات القوم الذين يتجمعون حول أبي عمر الزاهد، والطبراني، وابن زياد الطوماري الذين يشتغلون في خدمة الحديث والفقه وشؤون الآخرة، ويبدو أنه كان مخلصا لحلقة الشعراء أكثر من إخلاصه لحلقة الفقهاء، ولذلك لم يتمكن من إعطاء مهنة الحديث والفقه كامل حقها. ومن هنا وصفه المشتغلون بالحديث بأنه كان رجلا غير ثقة، بل وصفه بعضهم بأنه كان «كذابا» وتحاشى المحدّثون الثقات الأخذ عنه. وهذا يفسر كلمة أبي الفتح محمد بن أحمد المصري الصواف التي يقول فيها: «لم أكتب ببغداد عمّن أطلق فيه الكذب غير أربعة، أحدهم أبو عبد الله الخالع، كما يفسر الطريقة الحذرة التي لجأ إليها الخطيب البغدادي عندما كان يتحرى الدقة عندما يأخذ عن الخالع، والذي يقرأ في تاريخ بغداد يدرك السلسلة الطويلة من الرواة التي أوردها الخطيب عن الخالع ليبين الثغرات في حديث روي أن الخالع انفرد بروايته. ولكل هذا لم تحمد حلقة المحدّثين سيرته، وإذا ذكر في كتب المحدّثين ذكر بالتضعيف بل بالتكذيب.
أمّا الجانب الآخر من ثقافته وهو الشعر والأدب فلا تحتاج إلى شيء من التوثيق، ولذلك خاض مع الخائضين في حلبة الشعر. وقال شعرا في الغزل وفي المدح، وهو كثير الذكر للخمر التي يبدو أنها من بضاعته، يذكر له الثعالبي أبياتا يسميها من ملح شعره، قال:

اسقِنا من شرابك الصِّرف نمـ ... ـزجْه بماء من الثنايا زلال
بنتِ كرم كأنّها خجْلة الـ ... ـخدِّ تبدّتْ في حُلّة من دلال

أمّا في المديح الذي قدّم له ـ كالعادة ـ بأبيات غزلية، قال يمدح أبا نصر:

فكأنما ريّاه أخلا ... قُ الوزير وقد تكرّم
يا منّ إليه مقالدُ الـ ... ـعلياء عن حقٍّ تسلم
مات السّماحُ فكنت في ... إحيائه عيسى بن مريم

أمّا في الغزل، وهو مكثر منه، فقد أورد له صاحب اليتيمة قصيدة منها:

أفي غلائلها غصنٌ من البان ... يهتزّ في نعمةٍ، أم قدّ إنسان
هيفاءُ مرهفة الاعطاف أن خطرَتْ ... أهدت نشاطَ الهوى من خطوِ كسلان
تبسّمت، فظنّنا أن مبسمها ... فيه منَ اللؤلؤ المجلوّ سمطان
وأومأتْ بيمين لو دنتْ لفمي ... لأفسدتْ صالحا من نسكِ إيماني

ثم شرع في مدح أبي نصر:

مقسم العيش في تحصيلِ مأثرة ... سيّارة يتقاضاها لباسان
فللدروع عليهِ يوم ملحمة ... وللدرائع منه يوم ديوان

طــرز الــطــلاقــة فـــي ديــبــاج غــرّتــه
لــلــبــشــر فــيــهــا إشــاراتٌ بــألــوان

كــأن مــاء الــحــيــاةِ الـغَـمْـر مـنـسـكـبـا
فــيـهَــا يــفــيــض عــلــى نــوّار بــســتــان

فهذه نماذج من شعره تقربنا من صورة الرجل الشاعر تارة، المحدّث تارة أخرى، ولكنه حتّى في فن الشعر ليس بالشاعر المشهور في عصره؛ ولذلك أورده الثعالبي في الباب الثامن في يتيمته الذي جعله بعنوان: «في تفاريق قطع من ملح المقلين من أهل بغداد ونواحيها، والطارئين عليها من الآفاق والمقيمين بها».

وقد تطرق أبو حيان التوحيدي في الإمتاع والمؤانسة للخالع عندما كان يتحدّث عن الشعراء في الليلة الثامنة التي طلب فيها الوزير ابن العارض من أبي حيان أن يحدّث عن الشعر والشعراء؛ إذ قال له ـ بعد أن حدّثه التوحيدي حديثا متصلا عن الفلاسفة والمناطقة وعلماء العربية والمناظرات التي كانت تحصل في بغداد ـ قال لي: فصل حديثك عن هؤلاء بحديث أصحابنا الشعراء، صف لي جماعتهم، واذكر لي بضاعتهم، وما خص كل واحد منهم، وقلت ـ والقائل أبو حيان ـ: لست من الشعر والشعراء في شيء، وأكره أن أخطو على دحض، وأحتسي غير محض، قال: دع هذا القول، فما خضنا في شيء إلى هذا الوقت إلّا على غاية ما كان في النفس، ونهاية ما أفاد من الأنس، فكان الوصف، وراح أبو حيان يتحدث عن الشعراء في بغداد في ذلك الزمان، فعدّد منهم: السّلامي، والحاتمي، وابن جلبات، ومسكويه، وابن نباتة، وابن حجاج، وبشر بن هارون، وكان أبو حيان يتحدّث حديث الناقد الخبير الذي ينقد الشاعر بعبارات موجزة ولكنها تغني عن فصول مطوّلة، وتلخّص مذهب الشاعر الذي يتحدّث عنه، لما وصل إلى الخالع قال: «أمّا الخالع فأديب الشعر، صحيح النحت، كثير البديع، مستوي الطريقة، متشابه الصناعة، بعيد من طفرة المتحيّر، قريب من فرصة المتخيّر، وكان ذو الكفايتين يقدمه بالريّ، ويقبله على النشر والطيّ».

حاولنا جمع أسماء شيوخه من عدة كتب ترجمت له، فكانت الحصيلة أنّه حدّث عن أبي عمر الزاهد، غلام ثعلب، وسليمان بن أحمد الطبراني، وأحمد بن الفضل بن خزيمة، وروى عن أبي بكر بن أحمد بن كامل القاضي، وعن أبي سهيل بن زياد، وأبي علي الطوماري، وعلي بن عبد اللّه بن المغيرة الجوهري، وغيرهم، وكان غير ثقة وروى عنه الخطيب أبو بكر، يقول: كتبت عنه، والخطيب البغدادي هو الذي أورد مسند الحديث المنسوب للخالع الذي نقله عن عمرو بن العاص أنه قال: «انتهى عجبي عند ثلاث: المرء يفر من الغدر وهو لاقيه، والرجل يرى في عين أخيه القذاة فيعيبها ويكون في عينه مثل الجذع فلا يعيبه، والرجل يكون في دابته الصّعر فيقومها جهده، ويكون في نفسه الصّعر فلا يقوّم نفسه، وقال: رأيت بخط الخالع جزءا ذكر أنه سمعه من أبي بكر الشافعي، وفيه أحاديث عن الشافعي عن أبوي العباس: ثعلب والمبرد، وعن الحسين بن فهم، وعن يموت بن المزرع، ولا نعلم أن الشافعي روى عن واحد من هؤلاء شيئا».

وخلاصة ترجمة الخالع أنها نزرة قليلة، لا يستطيع المرء أن يستخلص من كتب التراجم

التي ترجمت له إلّا القليل، لأنه، أولا من المقلين المغمورين، وثانيا من غير المؤلفين إذ لم يؤثر عنه أن ألف كتابا ينسب إليه، وثالثا لأنّ الذين ترجموا له ـ على كثرتهم ـ كان ينقل بعضهم عن بعض، ولا يزيدون إلّا الكلمات القليلة التي لا تغني كثيرا، ولا تسمح بالاستفاضة بترجمته، ورابعا أنه جاء في عصر المتنبي وأبي الفرج الأصبهاني فغطّيا عليه وعلى أمثاله من المقلّين المغمورين.

المصادر والمراجع

● ابن الأثير، عزالدين، اللباب في تهذيب الأنساب، مكتبة المتنبي بغداد، د.ت. ؛ ● البغدادي، الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، دار الكتب العلميّة، بيروت 1416هـ/ 1993م؛ ● التوحيدي، أبو حيان، الإمتاع والمؤانسة، صححه وضبطه وشرح غريبه: أحمد أمين وأحمد الزين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1939م؛ ● الذهبي، الإمام الحافظ شمس الدين، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تح: الشيخ علي محمد معوّض، عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1416هـ/ 1995م؛ ● الذهبي، الإمام الحافظ، سير أعلام النبلاء، تح. شعيب الأرناؤوط، ومحمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت 1403هـ/ 1983م؛ ● الصفدي، صلاح الدين، الوافي بالوفيات، باعتناء محمد الحجيري، دار نشر فرانز شتاينر بفيسبادن، 1404هـ/ 1984م؛ ● عبد الرحمٰن، عفيف، معجم الشعراء العباسيين، دار صادر، بيروت، 2000م؛ ● العسقلاني، أحمد بن حجر، لسان الميزان، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، 1390هـ/ 1971م.

د. محمود الربداوي
جامعة دمشق ـ سوريا

ابن خالويه، الحسين بن أحمد

(ت 370هـ/ 980م)

الحسين بن أحمد أو محمد، كما ورد في إنباه الرواة [القفطي، 1/ 324 ـ 327] عن كتاب «علماء همذان» لشيرويه، ابن خالويه، من كبار علماء النحو واللغة.

لم تذكر كتب التراجم سنة مولده، لكن إذا ما اعتبرنا إجماعها على أنه انتقل إلى بغداد سنة 314هـ/ 926م فلا يستبعد أن يكون ولد في أواخر العقد الأخير من القرن الثالث الهجري، وفي بغداد إذ أخذ النحو واللغة عن أبرز علمائها من البصريّين والكوفيين وغيرهم ممّن لا ينتسب إلى مدرسة معيّنة. أخذ عن

أبي بكر بن الأنباري محمد بن القاسم، ومحمد بن عبد الواحد بن هشام/ هاشم، الملقّب بغلام ثعلب، وابن دريد محمد ابن الحسن الأزدي، وأبي سعيد السيرافي الحسن بن عبد الله بن المرزبان، تلميذ ابن دريد، ونفطويه إبراهيم بن محمد، من تلاميذ ثعلب أبي العبّاس أحمد بن يحيى، ودرس القراءات على ابن مجاهد أبي أحمد بن موسى. وممّن أخذ عنهم الحديث أبو عبد الله محمد بن مخلد العطار.

عدّه السبكي، في طبقاته [2/ 212 ـ 213] من الشافعية، وابن حجر العسقلانيّ في لسان الميزان [2/ 267] إماميًا يزعم بحضرة سيف الدولة بن حمدان أنه سنّيّ، وقال إنّ أبا الحسين النصيبيّ، وهو من الإمامية قرأ عليه كتابه في الإمامة وأنّ في كتابه ليس ما يدلّ على أنّه كان يعتنق المذهب الشيعيّ.

انتقل من بغداد إلى حلب حيث أكرم سيف الدولة وفادته، وكلّفه بتأديب بعض أولاده، وبقي بعد وفاة سيف الدولة في كنف آل حمدان وبخاصّة رشيد بن عليّ بن حمدان. واشتهر بحلب، فكان طلّاب العلم يقصدونه من كلّ بلد. وكان الحمدانيون أنفسهم يدرسون عليه ويقتبسون منه. وكان بينه وبين المتنبّي مجادلات ومنافرات بلغت حسب ما نقل من الأخبار حدّ العنف، فاعتبر ذلك من الأسباب التي دفعت الشاعر إلى فراق سيف الدولة. و«تصدّر بحلب وميّافارقين، وحمص للإفادة والتصنيف» [إنباه الرواة، 1/ 325]. وروى القفطي في المرجع نفسه [1/ 284، 326] عن كتاب «الأترجّة» لمسلم بن محمد اللحجيّ (ت 445هـ) أنّ ابن خالويه زار اليمن وأقام بها برهة بذمار، جمع فيها ديوان الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمّداني المعروف بابن الحائك (ت 334هـ) وشرحه وبيّن إعرابه. وذكر السيوطيّ أنّه يقع في ستّة مجلّدات [بغية، 1/ 498]. ثمّ عاد إلى حلب، وبها توفّي سنة 370هـ/ 980م. وكان له مناظرات مع المتنبّي.

تتلمذ على ابن خالويه عدد كبير من الرجال ومنهم خاصّة أبو بكر الخوارزمي، وابن بلبل، وسعيد بن سعيد الفارقي، وابن القطان، الجرجاني، وابن علبون..

آثاره

ألّف ابن خالويه كتبا عديدة، إلّا أنّ الذي وصلنا منها جدّ قليل. ومن مصنّفاته:

1 ـ رسالة في إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم، طبعت بالقاهرة 1360هـ/ 1941م بإشراف دائرة المعارف العثمانية في عاصمة حيدر آباد الدكن وصحّحها عبد الرحيم محمود، وطبعتها دار الكتب المصريّة انطلاقا ممّا نشر سالم الكرنكوي وعبد الرحمٰن بن يحيى اليماني بالاعتماد على نسخة المتحف البريطاني، ومن مخطوطة وجدت بدار الكتب المصريّة ونسخة رامبور، ونسخة المتحف البريطاني أكملها. وذكرت الرسالة في نسخة داماد زاده 84 لاللي 349 على أنّها تفسير للقرآن الكريم، وإن كان مؤلّفها يسمّى مضمونا إعرابا لثلاثين سورة من المفصّل، يتناول ابن خالويه بالدراسة المعوّذة فالبسملة فالفاتحة، ثمّ ينتقل إلى سورة الطارق، ويتابع الى آخر القرآن، وطريقته أنه يتناول بالبحث الأصل الدلاليّ للفظ، ويلخّص فروعه،

ويفسّر غريب ما أشكله منه، ويذكر مصدره، وتثنيته وجمعه، ومشتقاته، ويصرّفه مع جميع الضمائر، كما فعل مع اللفظ «أعوذ»، وينصّ على القراءات، ويستشهد بالشعر، ويشرح بعض العبارات المشهورة، ويذكر الأمثال الموجود فيها اللفظ، وكلّ ذلك بإسهاب شديد، ويكثر من الافتراضات (فإن قلت لم؟.. قلت..) ويورد مراجعه، ويذكر آراء البصريين والكوفيين وغيرهم في المسألة، فهو كتاب نحو ولغة وأدب وبلاغة وتفصيل للمذاهب النحويّة وأصولها وللقراءات، ولغات العرب وأسسها الصوتيّة والصرفية، ومرجع حديث وتفسير، وهو كتاب جدّ مهمّ، وأكبر الظنّ أنّ ابن خالويه قصد بلفظ «الإعراب» الإفصاح والتوضيح لا مجرّد الدلالة النحوية.

يقول السيّد حسن الصدر في كتابه «تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام»، [ص 87]، بأنّ هذه الرسالة ليست له، بل هي من تأليف أبي عبد الله الحسن بن خالويه السنّي الشافعي الذي يروي عن الشافعي بواسطتين، وأنّها تدعى كتاب الطارقية، وهو إعراب سورة الفاتحة والطارق إلى آخر القرآن، وقد وهم من نسبه إلى ابن خالويه النحوي الحسين بن أحمد، وينصّ السيد حسن الصدر، مستشهدا بما ورد في كتاب «الرجال» للنجاشي، و«معالم العلماء» لأبي جعفر الطوسي، و«خلاصة العلّامة» للحلّي، وغيرها من كتب الإمامية، أنّ هناك عالما ثالثا يدعى كذلك ابن خالويه وهو أبو الحسن علي بن محمد بن يوسف بن مهجور الفرسيّ، شيعي إماميّ كابن خالويه النحوي صاحب الترجمة، وذلك ما أدخل البلبلة في نفوس مؤلّفي كتب الطبقات، والحقيقة أنّ الأمر يحتاج إلى التدبّر والدراسة المتأنّية لأنّ في الكتاب أخبارًا لا يؤمن بها إلّا الشيعة كالذي أورده في تفسيره لسورة الضحى، [ص 120]، والتي مفادها أنّ فاطمة الزهراء مخلوقة من السفرجلة التي أكلها الرسول في الجنّة ليلة المعراج، انظر الحديث وطرقه في اللآلىء المصنوعة [1/ 392 ـ 395] للسيوطيّ، وعلل الشرائع لابن بابويه القمّي [ص 183 ـ 184]، وفيه ما ينفي عنه التشيّع وإن كان ابن حجر العسقلانيّ يؤكّد في لسان الميزان أنه كان يعتنق التشيّع؛ 2 ـ كتاب ليس في كلام العرب، في الصرف واللغة، ذكر السيوطي في المزهر [2/ 2] أنه كتاب حافل في «ثلاثة مجلّدات ضخمة»، وأنه سمّاه كتاب ليس لأنّ كلّ باب منه يبدأ بـ «ليس في اللغة إلّا كذا وكذا»، وأنّ الحافظ مغلطاي بن قليج (ت 762هـ) تعقّب مواضع منه في مجلّد سمّاه الميس على ليس، وانتقى منه السيوطيّ في المزهر صفحات عديدة [2/ 43 ـ 58]، ووصفه ابن خلكان في وفياته [1/ 434]، بأنه كتاب كبير في الأدب بعنوان «ليس»، وبأنه يدلّ على اطّلاع عظيم، غير أنّ ابن خلكان نصّ على أنه مختصر، والظاهر أنه عثر على نسخة ناقصة أو على مختصر للنسخة الأصلية.

نشر الكتاب على عدّة فترات (1893 ـ 1901م) بأوروبا وبعناية المستشرق ديرنبرج D. h. rembourg عن نسخة خطّية وحيدة موجودة بالمتحف البريطانيّ، وتحوي مائة وأحد عشر بابا، ونشرها أيضا أحمد بن الأمين الشنقيطي بالقاهرة سنة 1327هـ، مزيدا

فيها سبعة وسبعون بابا، ونشر المؤلّف كذلك خامسا ضمن كتاب الطرف البهيّة، وفي كتابه لحن العامّة والتطوّر اللغوي [ص 184]، نصّ رمضان عبد التواب على أنّ كتاب «ليس في كلام العرب» المنشور بالقاهرة، دار مصر للطباعة، سنة 1957م بعناية أحمد عبد الغفور عطار غير مستوفى، وأنّ بإسطنبول مخطوطة، تحمل الرقم 2143 في خمسة أجزاء تحوي 171 صحيفة وأنّها ستّ مرّات أكبر ممّا طبع، وتختلف عنه كلّ الاختلاف؛ 3 ـ مختصر شواذّ القراءات من كتاب البديع، نشره بالقاهرة برجستراسر في نشريّات المكتبة الإسلاميّة، رقم 7، 1934م؛ 4 ـ كتاب القراءات، وفي بروكلمان كتاب القراء، منه نسخة مخطوطة بإسطنبول، مراد ملة 85؛ 5 ـ ديوان أبي فراس الحمداني، جمعه وحقّقه وشرحه وقدّم له سامي الدهّان ونشره في ثلاثة مجلّدات، ط. بيروت 1944م، والواقع أنّ ابن خالويه لم يشرح هذا الديوان وإنّما رواه وذكر مناسبة بعض قصائده؛ 6 ـ الحجّة في القراءات السبع، تح. عبد العال سالم مكرم، نشرته دار الشروق عدّة مرّات، وفي هذا الكتاب يقدّم ابن خالويه القراءات السبع، ويحتجّ لها، ويذكر التخريج النحوي أو الصرفيّ واللغويّ الذي يفسّرها؛ 7 ـ ومن الكتب المنسوبة إليه أو التي أخذ عنها كتاب الاشتقاق، وكتاب الجمل، في النحو، وكتاب اطرغشّ، وكتاب المبتدإ، وكتاب المقصور والممدود، وكتاب الألفات، وكتاب المذكّر والمؤنّث، وكتاب التذييل على الأوزان الثمانين والثلاثمائة التي ذكرها سيبويه للأسماء، وأسماء الأسد، أورد السبكيّ أنه عدّ منها خمسمائة اسم، وأسماء الحيّة [ذكره السيوطيّ في المزهر، 1/ 197]، وكتاب مسألة في قول الحمد لله ملء السماوات، هل الأفضل رفع ملء أو نصبها [ذكره النووي في شرح التنبيه لأبي إسحاق الشيرازي ط. القاهرة، 1329، ص 15]، وكتاب زنبيل المدوّر [ذكره حاجّي خليفة، 2/ 7، ط. أولى]، ويرى المستشرق S. Negelberg أنّ الكتب التي تحمل هذا العنوان هي في الغالب نصائح حكميّة [Hebraica 10. n !1-2]، وشرح قصيدة نفطويه في غريب اللغة [حاجّي خليفة، رقم 9489]، وكتاب الألقاب [حاجّي خليفة، رقم 9895]، وشرح كتاب المقصور والممدود لابن ولّاد المهلّبي أبي العبّاس أحمد بن محمد؛ 8 ـ كتاب الريح، وهو مختصر، نشره المستشرق الروسيّ كراتشوفسكي سنة 1926 في مجلّة Islamica II [ص 43 ـ 331]، ونشره حاتم الضامن في مجلّة المورد [م3، ج3، 1974م، ص220 ـ 232]، وقد جمع فيه ابن خالويه ما قيل في الريح وأنواعها...؛ 9 ـ كتاب اشتقاق الشهور والأيّام، نشرت 99 صفحة من الجزء الأوّل منه، ذكر ذلك المستشرق الهولندي إدوارد فانديك، Van dyck, Ed في كتابه اكتفاء القنوع بما هو مطبوع، فهرس، مط. الهلال، 1896، وأورده النجاشي أحمد بن عليّ (ت 450هـ) في كتاب الرجال [ص 53]، من منشورات جابخانه مصطفوي، وآغا برزك الطهرانيّ في كتابه الذريعة إلى تصانيف الشيعة [2/ 101]؛ 10 ـ كتاب الشجر، يتناول فيه أسماء الشجر، نشر في مجلّة Hebraica [مج 10، أكتوبر 1893، كانون الثاني 1894، رقم 1 ـ 2، شيكاغو]، وفيه رسالتان، الأولى عن أبي

زيد وسلسلتها أبو عمر عن ثعلب عن أبي نجدة، والثانية مأخوذة من المعاجم وبخاصّة معجمي أبي حنيفة وابن سيده؛ 11 ـ شرح المقصورة، التي نظمها ابن دريد في مدح والي كور الأهواز: عبد الله بن محمد بن مكيال وابنه أبي العباس إسماعيل، وكان دعي إلى تأديبه بعد انتقاله من البصرة إلى خراسان فارًا من بطش الزنج، نقل منه السيوطي في المزهر، ومن هذا الشرح مخطوطات بالبصرة، والقاهرة، والإسكندرية، ودمشق، وبيروت، وبرلين، وباريس، وبيترسبورغ وغيرها ممّا هو مفصّل في تاريخ الأدب العربيّ لبروكلمان [2/ 179 من الترجمة العربية]؛ 12 ـ كتاب البديع في القراءات، ذكر في عدّة مصادر بهذا العنوان [معجم الأدباء، 9/ 204]، أورد فيه المؤلّف القراءات السبع المعتمدة وقراءة يعقوب الحضرميّ، وهو التاسع من القرّاء العشرة، كما ذكر فيه القراءات غير المعتمدة، درسه المستشرق الأستراليّ آرثر جفري A. Jeffery في كتاب [ذكرى جولدزيهر الخ. الأوّل ص 183 ـ 190]، ط. بودابيست 1948، توجد نسخة منه مصوّرة في معهد المخطوطات، 52 قراءات؛ 13 ـ رسالة فيما جاء مثنى، فهرست مخطوطات يعقوب سركيس، وهي ضمن مجموعة من الرسائل رقم 176، وفي هذه الرسالة يستعرض ابن خالويه ما جاء في اللغة من صور التثنية وخواصها وأحكامها؛ 14 ـ كتاب الآل، نصّ ابن خلكان [وفيات، 1/ 434] أنّه كتاب لطيف ذكر في أوّله أنّ الآل ينقسم إلى خمسة وعشرين قسما منها آل محمد وهم بنو هاشم، وأورد في هذا القسم الأئمّة الاثني عشر وتاريخ مواليدهم ووفيّاتهم وأسماء أمّهاتهم، وقد يشعر هذا بأنّه كان إماميًا؛ 15 ـ كتاب العشرات، يرى بروكلمان في كتابه تاريخ الأدب العربيّ [2/ 218] أنه في الحقيقة لأبي عمر الزاهد الملقب بغلام ثعلب، وأنّ تلميذه ابن خالويه رواه عنه، وهو تفسير لمفردات لغويّة، كلّ عشر كلمات متّفقة في الحرف الأوّل.

المصادر والمراجع

● القفطي، إنباه الرواة، دار الكتب، 1369هـ/ 1950م؛ ● ياقوت، معجم الأدباء، دار المأمون، 1936م؛ ● السبكي، طبقات الشافعية، مصر، 1324م؛ ● ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان، حيدر آباد 1330؛ ● السيوطي، بغية الوعاة، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، 1384هـ/ 1965م، ● المزهر، ط. عيسى الحلبي؛ ● بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، تر. عبد الحليم النجّار، دار المعارف بمصر، 1961؛ ● دائرة المعارف الإسلامية، ط.ج، م 3؛ ● شهاب، عبد الواحد منصور، ابن خالويه اللغوي النحوي، حياته وآثاره، بحث: عدّ لشهادة دكتوراه الحلقة الثالثة، 1987، نسخة مرقونة بمكتبة كلّية الآداب بمنّوبة، تونس.

د. مختار نويرات
جامعة عنابة ـ الجزائر

خان، الأمير صديق حسن

(1248هـ/ 1832م - 1307هـ/ 1890م)

هو الأمير صديق حسن خان بن العالم التقي الشيخ حسن مريد الشهيد سيد أحمد بريلوي، ولد ببلدة «بانس بريلي» بولاية «أتربرديش» بالهند في بيت جده لأمه في 19 جمادى الأولى عام 1248هـ، ومات والده عام 1253هـ بمدينة «قنوج» التي كان يقيم بها وكان عمر الأمير صديق حسن خان إذ ذاك خمسة أعوام فقط، فتولت والدته تربيته وتعليمه، وكانت سيدة صالحة تقية عملت على زرع الالتزام الديني لدى ولدها منذ الصغر، يقول عنها: «كنت في السابعة من عمري، وكان المسجد قريباً من بيتي، وحينما يؤذن لصلاة الفجر وأنا في سبات عميق هادئ، كانت أمي رحمها الله توقظني وتوضئني وتبعثني إلى المسجد، ولا تتركني بأن أصلي في البيت، وإن لم أقم من نومي ترش الماء على وجهي».

هذا وقد ألحقته والدته أول الأمر بأحد الكتاتيب حيث درس بعض الكتب الدينية على يد شقيقه الأكبر الشيخ أحمد حسن. وبعد أن شبّ قليلاً جال في مدن الهند المختلفة طلباً للعلم والدراسة، فانتقل إلى مدينة «فرّخ آباد» ومدينة «كانبور» حيث درس على يد علمائها المعروفين، ثم انتقل إلى «دهلي»، ودرس على يد المفتي «صدر الدين خان بهادر صدر الأفاضل» مفتي الهند إذ ذاك، كما تتلمذ في علوم الحديث على يد الشيخ زين العابدين بن محسن اليماني (ت 1295هـ/ 1878م)، والشيخ عبد الحق بنارسي المحدث تلميذ الإمام الشوكاني، كما كانت له علاقات علمية مع رجال بيت الإمام وليّ الله الدهلوي.

أقام الأمير صديق حسن خان مدة عامين في دهلي كان خلالهما مثالاً للطالب المجد المجتهد، ثم استأذن أستاذه المفتي «صدر الدين» في العودة إلى وطنه «قنوج»، وهناك واجه مشاكل مادية صعبة، وخاصة بعد أن ترك أخوه الأكبر الشيخ أحمد حسن البيت عندما عجز عن الوفاء باحتياجات البيت المادية. وأمام ضغط الحاجة اضطر الأمير صديق حسن خان إلى السفر بحثاً عن الرزق، فتوجه إلى إمارة «بهوبال» في شهر رجب من عام 1271هـ/ 1854م، واستطاع الالتحاق بالعمل لدى الإمارة بواسطة رئيس وزرائها الشيخ جمال الدين الذي كان تلميذاً للشاه عبد العزيز الدهلوي المحدث، وتم تكليفه بكتابة تاريخ «بهوبال» في عهد الأميرة «سكندر جهان بيكم»، لكن الاختلافات الفقهية بينه وبين بعض علماء الإمارة اضطرته إلى الرحيل عنها والتوجه إلى إمارة «تونك»، إلا أنه لم يستطع الاستقرار بها نظراً لقسوة مناخها، فعاد إلى وطنه «قنوج»، وبعد فترة استدعته أميرة «بهوبال» ورئيس وزرائها ثانية، فعاد إلى «بهوبال»، وهناك ظل يرتقي في المناصب الوظيفية التي بذل فيها جهداً بالغاً انعكس في

كثير من مظاهر التطور والرقي في مختلف ميادين الحياة بالإمارة .

تزوج الأمير صديق حسن خان بزكية بيكم ابنة الشيخ جمال الدين رئيس وزراء إمارة بهوبال، وكانت سيدة تقية ورعة عاش معها الأمير حياة طيبة أنجب منها خلالها بنتاً وولدين هما السيد نور الحسن والسيد علي حسن، ولم ينس الأمير صديق حسن خان أهل بيته في «قنوج» فاستدعاهم للحياة معه في «بهوبال»، وبذا توفر للأمير كثير من الراحة النفسية، فأقبل عندها على الإطلاع والقراءة والكتابة والتأليف، وساعده على ذلك المكتبة الضخمة التي ورثها عن والده، والتي حرص على زيادة مقتنياتها بالتأليف والشراء.

وفي عام 1285هـ سافر إلى الأراضي الحجازية لأداء فريضة الحج، وهناك تيسر له لقاء كبار العلماء في عصرهم، كما تمكن من شراء مزيد من الكتب التي لم تكن تتوفر في الهند وقتها، فاشترى كتاب «اقتضاء الصراط المستقيم» لشيخ الإسلام ابن تيمية، وكتاب «إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق في الأصول» وكتاب «نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار»، وكتاب «فتح القدير» للإمام الشوكاني. هذا وقد أقام الأمير صديق حسن خان في الأراضي الحجازية ثمانية أشهر كان لها أكبر الأثر في توجيه حياته العلمية بعد عودته إلى بلاده، فأقبل على التأليف والترجمة باللغات الثلاث: العربية والفارسية والأردية، كما حرص على طبع الكتب قديمها وحديثها، ولم تمنعه اهتماماته العلمية هذه من أن يبذل المزيد من الجهد في مجال وظيفته في إمارة «بهوبال» مما رفع من شأنه فيها فعين رئيساً للديوان الأميري إلى أن اقترنت به الأميرة شاه جهان بيكم بعد توليها العرش، وكانت أرملة مات عنها زوجها النواب باقي محمد خان، وتم الزواج عام 1287هـ/ 1817م، ونصبته معتمداً للمهام عام 1288هـ، كما منحته إقطاعاً من الأرض كانت تدر عليه خمسين ألف روبية كل عام، ومضى بعدها في تنفيذ خطة إصلاحية بالبلاد.

هذا وقد منحت الحكومة الإنجليزية الأمير صديق حسن خان العديد من الأوسمة تقديراً لخدماته في إمارة «بهوبال»، ولكنها ما لبثت أن سحبت منه هذه الألقاب والأوسمة عندما وشى به الوشاة لدى الحكام الإنجليز، ولدى الأميرة «سلطان جهان بيكم» ولية العهد، ثم أعادت الحكومة إليه ألقابه وأوسمته بعدما ثبتت لديها براءته مما نسب إليه، وكان ذلك بعد أن توفاه الله إليه عام 1307هـ/ 1890م بعد معاناة شديدة مع مرض الاستسقاء.

■ آثاره

بلغت مؤلفات الأمير صديق حسن خان في رأي بعض كتاب السير والتراجم مائتين وخمسين كتابا، منها ستَّة وخمسون كتاباً باللغة العربية في مجالات مختلفة منها التفسير والحديث والفقه واللغة والأدب، وهذه أهم مؤلفاته:

١ ـ لف القماط على تصحيح بعض ما استعملته العامة من المعرب والدخيل والمولد والأغلاط: وهو كتاب باللغة العربية يضم مائتين وثمان وستين صفحة جمع فيها المؤلف الكلمات والألفاظ والتعبيرات والمحاورات التي يظن العامة أنها فصيحة في العربية وهي

ليست كذلك، وعمل المؤلف على تصحيح هذه الأخطاء وضبطها مستشهداً بالمصادر العربية الموثوق بها، وبأقوال العرب وأدبائها الكبار أمثال عبد الحميد بن يحيى الكاتب وابن قتيبة والأصمعي والجاحظ وسيبويه والخليل بن أحمد والميداني وغيرهم؛

2 ـ نشوة السكران من صهباء تذكار الغزلان: وهو كتاب بالعربية يضم 112 صفحة، وطبع بالقسطنطينية عام 1296هـ.

يقول المؤلف عن الكتاب: «فهذا بيان العشق والعشاق والمعشوقات من النسوان وما يتصل بذلك من تطورات الصبوة والهيمان الذي أفصح به أصحاب ديوان الصبوة وتزيين الأسواق وسبحة المرجان، لخصته فيها حلية لآذان، وأتيت فيه بأشياء مما يزري بأريج الريحان، وسميته: نشوة السكران من صهباء تذكار الغزلان، ورتبته على مقدمة وفصول وخاتمة».

وقد ضمن الأمير هذا الكتاب بعض قصائده التي قالها في شبابه، وهذا نموذج منها:

لله غانية في مهجتي نزلت
مالت إلى الوصل وقائم ما وصلت

صحت بقلبي وضامتني بلا سبب
يا أيها القوم قولوا كيفما فعلت

أتحفت جوهر قلبي نحو حضرتها
ألقت إلي قماشًا متومًا قبلت

لله درك يا صديق من كلم
نظمتها وهي في أوصافها كملت

صلى الإله على المختار من مضر
ما دام سنته للمؤمنين حلت

3 ـ البلغة في أصول اللغة، وهو كتاب قيم باللغة العربية جمع فيه بعض الطرائف الأدبية وكذلك بعض المبادئ والأصول اللغوية؛

4 ـ أبجد العلوم، وطبع في المطبعة الصديقية ببهوبال، عام 1295هـ؛ 5 ـ إبقاء المنن بإلقاء المحن، طبع في المطبعة الشاهجهانية ببهوبال، عام 1305هـ؛ 6 ـ الروض الخضيب، طبع في اكره 1298هـ؛ 7 ـ رحلة الصديق إلى البيت العتيق، طبع بالمطبعة العلوية بلكهنو عام 1289هـ.

المصادر والمراجع

● الحسني، عبد الحي، نزهة الخواطر في بهجة المسامع والنواظر، حيدر آباد، الهند 1390هـ؛ ● سليم فارس، قرة الأعيان ومسرة الأذهان، قسطنطينية، 1298هـ؛ ● الأمير علي حسن خان، مآثر صديقي، لكهنو، الهند 1942م.

د. أحمد محمد أحمد عبد الرحمن
جامعة الأزهر ـ مصر

خان، حكيم محمد أجمل

(1284هـ/1868م ـ 1346هـ/1927م)

حكيم محمد أجمل خان، طبيب، صيدلي، عالم، وسياسي. من بين قادة حركة التحرير والشخصيات السياسية والدينية الذين تحدث عنهم مولانا واصف الدهلوي. كان مولانا آزاد، والمفتي كفاية الله، والمهاتما غاندي، والدكتور أنصاري، والبانديت موتي لال نهرو، وحكيم أجمل خان، ومولانا أحمد سعيد. هؤلاء العباقرة من مؤسسي الهند الحديثة، تميزوا بمكانتهم الفذة في الميادين العلمية والفنية، ومثلوا فترة الازدهار الحضاري والعلمي الذي لم تشهد مدينة دلهي مثيلا له بعدها.

كان مسيح الملك حكيم أجمل خان طبيبا حاذقا، عالما أجل، دمث الخلق، كريم العادات، عذب الحديث، اشتهر بكرم وسخاء، وفي شخصيته تجسدت مكارم الأخلاق ومفاهيم الإحسان. انحدر من عائلة عريقة مقربة إلى البلاط الملكي مذ وصل أجداده إلى الهند برفقة الملك المغولي بابر، واستقر بهم الأمر في هذا البلد. ومن سلفه الصالح الخواجه هاشم، والخواجة قاسم اللذان عرفا بمكانة مرموقة بين كبار العلماء وشيوخ طرق الصوفية، والملا علي قاري الذي طبق صيته أرجاء البلاد كعالم وفقيه جليل زمن حكم الامبراطور أكبر. لقد عاش آباؤه فترات ازدهار سلطنة المغول، وكثير منهم تلألؤوا كالنجوم في سماء العلوم والفنون. ومسيح الملك نفسه ولد عندما كان آخر ملوك السلالة المغولية، سراج الدين محمد ظفر بهادور شاه، يلفظ أنفاسه في الغربة بعيداً عن دلهي.

خلّف حكيم محمود خان وراءه ثلاثة أبناء هم: حكيم عبد المجيد خان، وحكيم واصل خان، وحكيم أجمل خان، أكبرهم ولد في عام 1266هـ/ 1849م، وأحيا تراث أجداده، فأقام «مدرسة الطب» في عام 1882م، ودرّس «القانون» إلى أخريات أيام حياته. واعترافا بخدماته البارزة في تنمية الطب الشرقي لقبته الحكومة بـ «حاذق الملك». وهو اللقب الذي قامت الحكومة المغولية بمنحه والد جده حكيم محمد أكمل خان سابقا. ولما توفي حكيم عبد المجيد في عام 1319هـ/ 1901م، خلفه شقيقه حكيم واصل خان، في حمل تراث الأجداد، فراح يدرّس الطب في المدرسة الطبية، وبالاشتراك مع حكيم أجمل خان أنشأ «الشركة الهندية للأدوية». هذه الشركة عرفت فيما بعد بـ «هندوستاني دواخانه». وكان حكيم واصل خان من مواليد عام 1861م، ووافاه الأجل عام 1904م بعد ثلاث سنوات من أداء الخدمات الطبية في العيادة الشريفية. (لقد ذكرنا أحوال هؤلاء لتمكين القارئ من بناء فكرة عن العوامل التي كان لها دور في صياغة شخصية حكيم أجمل خان).

وكانت ولادة حكيم محمد أجمل خان في السابع عشر من شهر شوال عام 1284هـ. والمراجع تختلف حول السنة الميلادية لميلاده، ففي «مشير الأطباء» أنها 1864م، وفي «حياة أجمل» 1863م، وفي «مجلة أجمل - عدد خاص» 1864م فيما تقول الأعداد الخاصة لـ «الجمعية» و«مسيح الملك» إنها 1866م. والالتباس في التطبيق التقويمي هو السبب في اختلاف تلك المراجع حول عام ولادته بحسب التقويم الميلادي، والأصح أنه ولد في 11 شباط (فبراير) 1868م.

وفي سن مبكرة حفظ حكيم أجمل خان القرآن الكريم وتلاه في التراويح. ثم توجه إلى تعلم اللغتين، العربية والفارسية، فتتلمذ على عدد من كبار علماء دلهي بجانب شقيقيه. وعلّمه المفسر الكبير المولوي عبد الحق الدهلوي، والمولوي عبد الرشيد الرامبوري، والميرزا عبيد الله بيك وحكيم مولانا جميل الدين التفسير والحديث والأدب والمنطق والفلسفة وغيرها من العلوم الرياضية التقليدية. كما تمرس في تحسين الخط برعاية مولوي رضي الدين، والمير بتجاكش. وبعد إكمال دراسة العلوم العربية والإسلامية، اتجه إلى الطب، فأنهى الكتب الطبية المتداولة برعاية والده حكيم محمود خان، وشقيقيه حكيم عبد المجيد خان، وحكيم محمد واصل خان، فيما درسه «القانون» حكيم غلام رضا خان الذي ارتبط بالأسرة الشريفية بروابط القرابة. وبعد تحقيق تجربة واسعة في فحص النبض والعلاج في العيادة الشريفية، بات يطالع الكتب ويحل مشاكل طبية معقدة، وبفضل المطالعة والذكاء المتوقد اكتسب دقة النظر والمهارة الكبيرة في مجال الطب.

كان حكيم أجمل خان طبيبا بارعا ومجتهدا لا يضاهيه كثير من معاصريه. وقد اعتبر التقليد حجر عثرة في طريق تقدم الطب الشرقي، ورؤيته هذه وجدت انعكاسا في اهتماماته بالمدرسة الطبية، ومبادرته لإنشاء شركة لإنتاج الأدوية ومدرسة طبية للبنات.

وفرت إمارة رامبور منحة للعائلة الشريفية، وحكيم عبد المجيد خان كان يزورها من حين إلى آخر لمعالجة عاهل الإمارة وغيره من أعضاء الأسرة المالكة. وانتقل حكيم أجمل خان إلى رامبور عام 1892م تلبية لدعوة النواب (عاهل الإمارة) بتولي رعاية قسم الطب والعمل عنده كطبيب خاص، وأمضى هناك عشر سنوات قبل عودته إلى دلهي في عام 1902م.

وقد اختلفت المراجع فيما بينها اختلافا بيناً في بيان أسباب وفاة حكيم أجمل خان، فبعضها يقول إنه مات لإصابته بنوبة قلبية، ويذكر الآخر أنه أعدم رميا بالرصاص من دون أن توضح الجهة المسؤولة عن ذلك. في حين ذكر أحد مواطني رامبور الذي بلغ من عمره 105 سنة وكان من جلساء عاهل الإمارة النواب حامد علي خان فقال: إنّ حكيم أجمل خان سقط فريسة مؤامرة القصر الملكي في حالة يرثى لها، واكتشف أن الدكتور هونتر ناوله السم، فيما أعلن النواب نفسه أنه توفي من جراء نوبة قلبية.

ونقل جثمانه من رامبور إلى دهلي، ودفن في مقبرة «رسول نما» ليلة الثامن والعشرين من شهر ديسمبر سنة 1927م.

لقد تميز حكيم أجمل خان بفائق القدرة على ممارسة الطب، واتخذ أساليب غريبة في العلاج وتشخيص الأمراض، وكانت الألسنة تردّد قصصا حول أساليبه في العلاج وتشخيص الأمراض، وأساليب علاجه الطريفة على مدى سنين. ذات مرة جاء إليه مريض يتألم من شدة الوجع في البطن، ففحصه وناوله الزئبق لأنه ارتأى أن عقدة في الأمعاء هي المسببة لآلام، وأنها ستنفتح بثقل الزئبق، والأخير سينفلت مع البراز، وقال لتلاميذه بعد شفاء المريض من الآلام المبرحة: إنه ليس هناك أي دواء لهذا المرض في مثل هذه الحالة سوى الزئبق مع أنّ العلاج به لا يخلو من الخطر.

ومن القصص الشائعة عن حذاقة حكيم أجمل خان أنه أحضر إليه شاب من قرية من ضواحي دلهي مصاب بمرض السل. وبعد فحصه قال حكيم أجمل خان إنه تأخر ولم يعد مرضه قابلا للعلاج، ونصح مرافقيه بأن يعودوا به إلى القرية ويعطوه ما يطلبه من غذاء وشراب باستثناء قصب السكر. وعندئذ كتب كلمات على قطعة ورق وألقاها في صندوق وهو يقول للأسرة أن يطلعوه على أمره إذا ما أصر وتناول قصب السكر في حالة من الحالات. فحدث أن الشاب المريض غدا يطلبه بإلحاح شديد عندما وصل الناس إلى حقل خارج دلهي، فأنكر الأب، لكن الأم لم يرق لها أن يحرم الابن من شيء يشتهيه إليه وهو على حافة الموت. ذهب أحدهم إلى الحقل واقتطف خمسة قصبات اعتصر المريض جميعها قبل وصولهم إلى القرية، وفي البيت أكل وجبة شهية، ثم خرج يلعب مع أقرانه وعاد يطلب الطعام بعد قليل، فأكل حتى شبع، الأمر الذي دل على أنه استعاد الشهية بعد غيابها عنه بسبب المرض. ولقد جاء به الوالد إلى حكيم حين تذكر ما قاله عن مرضه، وقدمه إليه قائلا إنه نفس المريض الذي وجده غير قابل للعلاج. ونهض حكيم أجمل خان من مكانه عندما اكتشف أن المريض تناول قصب السكر، وأمر الحضور بأن يسرعوا معه إلى الحقل لكي يشتروه ويحصدوا ما فيه من قصب السكر. ولما وجد زوجا من الأفاعي وسط الحقل، عاد إلى العيادة، وأخرج قطعة الورق من الصندوق ليريها للناس فوجدوا مكتوبا فيها أن المريض سيشفى لو أكل قصب السكر من حقل فيه أفاع.

ومن القصص المعروفة عن عبقرية حكيم أجمل خان أنه أقام عند صديقه الدكتور مختار أحمد الأنصاري لدى قيامه بزيارة لندن. والأخير كان طبيبا جراحاً في مستشفى شيرنج كروس، وعرف صديقه الزائر إلى الدكتور استينلي بايد الذي كان من أشهر الأطباء الجراحين في زمنه. فقال له الدكتور بايد أن يشارك في صف دراسي للطب الجراحي ويفحص مريضا ففحصه حكيم أجمل خان، وقال إنه يعاني من الوجع والحمى والصفرة لوجود قرحة مزمنة في الأمعاء، فيما عزا الطبيب البريطاني مرضه إلى وجود أورام في المرارة، وطلب من حكيم أجمل خان الحضور إلى المستشفى لمشاهدة العملية في اليوم التالي ليرى بأم عينيه أي طب أصح. يقول الدكتور أنصاري إنه كان يشعر بفداحة الموقف وإلى ما سيؤول إليه الأمر، إلا أن

العملية أثبتت أن حكيم أجمل خان أصاب في تشخيصه، والدكتور بايد كان أول من هنأه على ذلك من أعماق قلبه.

ومن الحكايات الشائعة عن عبقرية حكيم أجمل خان أنه أثناء زيارته إلى كلكتا استلم برقية من عمه يطلب منه التوقف في بلدة كانبور عائدا إلى دلهي لمساعدته في علاج أحد وجهاء المدينة الذي أصيب بالالتهاب الرئوي، ولم يكن يستجيب لأي دواء وبالعكس فإن المرض كان يشتد بمرور الأيام. وعندما وصل حكيم أجمل خان إلى كانبور، اشترط على عمه الطبيب ألا يتدخل ويعطيه حرية كاملة في العلاج، فلم يجد بدا من الانصياع على أمل أن ابن أخيه سيحافظ على سمعة العائلة. فبدأ حكيم أجمل خان العلاج، فأمر أولا بفتح النوافذ وإزاحة الأغطية من على المريض، وأعطاه أعشابا مبردة. مما أثار دهشة العم لكنه التزم الصمت، عندئذ بادر حكيم أجمل خان يوضح الأمر قائلا بأن قرحات في الصدر تسببت في الآلام واشتداد المرض. وشفي المريض في أسبوع بعلاجه ودلّ ذلك على أنه أصاب في تشخيصه. وهناك كثير من القصص والحكايات التي تعزى إلى حكيم أجمل خان دليلا على مهارته الفائقة في ممارسة الطب المحلي.

لقد حل حكيم أجمل خان محل شقيقه حكيم واصل خان بعد وفاته عام 1904م، فتولى إدارة العيادة الشريفية، واتخذ من ترقية الطب شغلا شاغلا له، وعالج الفقراء من مرضاه مجانا طول حياته، وفي بعض الحالات ساعدهم بشيء من عنده ليقوموا بشراء ما يلزم تناوله من أغذية مناسبة أثناء العلاج، ولم يكن يتقاضى رسوما أو أجرة على فحصه للمرضى في العيادة أو في أي مكان بدلهي. لكن ذلك لم يمنعه عن طلب أجور مناسبة لمكانته عندما زار الوجهاء الأمراء لأغراض العلاج.

ذات مرة أتى إليه رجل إنجليزي مصاب بصداع مزمن، فنصحه أن يقضي ليالي في الاصطبل لأنه أدرك أنّ المريض كان راكب خيل في انكلترا، ومرضه ناجم عن انقطاعه فجأة عن البيئة المألوفة منذ زمان. وبذا شفي الإنجليزي من مرضه العضال.

ركز حكيم أجمل خان جل عنايته على «المدرسة الطبية» وترقيتها، فاشترى لها أسهم «شركة الأدوية»، وقام بعد ذلك بتشكيل «المجلس الطبي» بمشاركة عدد من أعيان دلهي بوصفه مجلسا مشرفا على إدارة «هندوستاني دواخانه» والمدرسة الطبية للذكور والإناث. وفي عام 1913م حوله إلى «مجلس الأوصياء» لكي يتسنى له تحويل الكلية إلى المدرسة الطبية. وفي العام نفسه أنشأ «المدرسة الفيدية» لتعليم الطب الهندي التقليدي. ولقد قام اللورد هاردينج بوضع حجر الأساس للكلية الطبية في 19 مارس 1916م، وقام المهاتما غاندي بافتتاحها في 1921م. والغرض من وراء تأسيس «الكلية الطبية اليونانية والفيدية»، لم يكن سوى تأمين بقاء طرق العلاج والأدوية التقليدية التي استمرت تتناقل من جيل إلى أخر منذ سنين لا تحصى.

وبعد إنشاء الكلية الطبية وافتتاحها على يد المهاتما غاندي توجه حكيم أجمل خان إلى مهمة تجديد وإصلاح الطب الشرقي فأنشأ في

الكلية قسما للأبحاث لتمحيص القضايا الطبية القديمة واختبار الأعشاب والأدوية في معامل حديثة. ومنها عشب يسمى «أسرول» تم تحليله في مختبر الكلية الطبية، وورد ذكره في الكتب الصيدلانية التي ألفها بعض الكتاب الغربيين. يقول تريز ايندو ايفانس في مؤلفه «فورموجونومي»: «إن الأخوين صديقي قاما بفصل أجملي - م وأجملي - س بتحليل عشب أسرول في عام 1931م».

ولا تفوتنا الإشارة إلى أهم إنجازات حكيم أجمل خان في مجال الطب الشرقي وكفاحه في سبيل المحافظة على الطب التقليدي الهندي اليوناني من الاندثار، فإنه أدرك قبل غيره خطورة مؤامرة الاستعمار الإنجليزي الذي أراد أن يقضي على التطبيب المتوارث عبر تنفيذ تشريع 1910م بموجبه لم يتبق لأي مواطن الحق في معالجة المريض إلا إذا كان حائزاً على شهادة طبية من جامعة بريطانية أو هندية معترف بها، ونهض ينادي الأطباء وينبههم إلى أهداف المخطط وضرورة التحرك بكل قوة لأجل الحفاظ على الطب المحلي، ونبذ ما هو مستورد ومفروض من قبل الأجنبي. مما مكنه من خلق صحوة واستدراج الأطباء الذين تشبثوا بطريق المعالجة التقليدية، إلى أن تم تشكيل «مؤتمر الطب اليوناني» في دلهي عام 1910م، وتقرر أن ذلك المؤتمر سيقوم بشن حركة احتجاج ضد قانون التسجيل الطبي سالف الذكر على مستوى عموم الهند، هذه الجهود أثمرت في نهاية الأمر، واضطرت الحكومة لسحب ذلك القانون.

ثم سافر حكيم أجمل خان إلى بعض الدول الأوروبية، فزار المعاهد والكليات الطبية، وفحص الوسائل المستخدمة في المستشفيات الحديثة بهدف صياغة خطط مناسبة لتنمية الطب الشرعي وتحديثه من خلال الأبحاث والدراسات ذلك لأنه على خلاف غيره من الأطباء التقليديين، لم يكن يتصور النظريات والمبادئ التي تبناها جالينوس أو الشيخ الرئيس غير قابلة للتجديد والإصلاح وإنما رأى أنّ بناء الطب الشرعي ونموه كعلم وممارسة هدف لا يمكن تحقيقه إلا بطريق التجديد والإصلاح، فقال: «المواد الدراسية التقليدية تتضمن نظريات منطقية وفلسفية يتوجب حذفها واستبدالها بإضافات نافعة توصل إليها الأخصائيون في الهند وأوروبا عبر الأبحاث والدراسات».

وقال في كلمته الرئاسية في المؤتمر الطبي الذي انعقد في كراتشي عام 1919م: «مطلوب من كل مواطن يحب أرض بلاده، أن يحب طبه القديم، فيعمل على إزاحة العقبات التي تحول دون نموه وترقيته».

كان حكيم أجمل خان إنسانا طيب الخلق، معتدل المزاج، كريم العادات. يقول مولانا حبيب الرحمٰن متناولا ذلك الجانب من شخصيته: «تفارقت الطرق بيني وبينه أثناء فترة حركة العصيان المدني، ووقفنا وجها لوجه في بعض مواقف حساسة. لكنني لم أجده - رحمه الله - في حال من الأحوال ينحو عن منحاه، فيحد بصره أو يكون فظا غليظ الكلام. كلما التقيته، وجدته رزينا هادئا، عذب الكلام، قرير العين».

أقبل الأعيان والوجهاء في تلك الفترات من تاريخ الهند على تربية الأولاد وإنماء أذواقهم وميولهم الأدبية والفنية، ومنها خاصة الشعر

الذي كان من السمات المميزة للأسرة الثرية والمثقفة عن غيرها. وبجانب الشعر والأدب فإن تحسين الخط كان فنا آخر نال اهتمام الأشراف آنذاك. وبفضل نفس التربية حقق حكيم أجمل خان قدرة في قرض الشعر باللغات الأردية والفارسية والعربية وانتحل لنفسه اسما كشاعر: «شيدا». ومن ديوانه مترجما:

حبي للآلام سر يعرفه
وجرح قلبي دوما في نزيف

اليوم تتماوج وجنتاه بلون الحياء
وحديثي عن قبلة زاده نضارة

أتية في صحراء ولكن لا تقلق نفسك عليه
فإنه قد تتأذى به رجلاك وأنت رقيق الهندام

كان حكيم أجمل خان طبيبا حاذقا ومتمكنا من أسرار ذلك الفن، وانحدر من عائلة عريقة، وبجانب الانشغال بالأدب والشعر، ساهم في السياسة الوطنية الهندية في إطار حركات التحرير، فلم تمنعه روابط العائلة مع الحكومة عن إصدار «أكمل الأخبار» من المنزل الشريفي لنشر مقالات حول القضايا الوطنية وللتعبير - على صفحاتها المشرقة - عن حبه للوطن.

وفي الوقت نفسه لم يعش بمنأى عن الأنشطة الوطنية والقومية. ففي عام 1900م انتخب عضوا في لجنة الأوصياء لكلية المسلمين في علي كره، وبجانب عضويته في اللجنة الإدارية للمدرسة الانكليزية - العربية (دلهي)، وخدماته لمدرسة ندوة العلماء في لكهنو، وعلى مدى الخمس عشر سنة كعضو في مجلسها الاستشاري، كان في طليعة القادة الوطنيين الذين قاموا بتأسيس «الجامعة الملية الإسلامية» بدلهي.

وخلال العقود الأولى من القرن العشرين، بلغت حركات التحرير أشدها، فانطلقت المنظمات والأحزاب من أمثال حركة الخلافة وجمعية العلماء والكونجرس والحزب الإسلامي تعمل على تخليص الوطن من تبعية الاستعمار الإنجليزي وحكيم أجمل خان بدوره شارك في تلك الجهود مشاركة علمية وفكرية، وأدى خدمات بارزة في سبيل قضايا الحرية. على المستوي الفكري إنه كان من دعاة الوحدة القومية. وعلى الرغم من أنه كان من مؤسسي الحزب الإسلامي الأوائل، وابتداء من عام 1906م نصب جل اهتمامه على أن يكون الحزب منظمة سياسية عصرية ممثلة للجماهير العامة أسوة بمنظمة المؤتمر الوطني، وانتخب رئيسا له في عام 1919م، إلا أنه استغل قيادته لذلك الحزب، لتوطيد جذور التضامن والاتحاد بين المسلمين والهندوس. وفي عام 1921م انتخب رئيساً لمنظمة المؤتمر الوطني الهندي، وتحول «المنزل الشريفي» في حي بليماران في دلهي إلى مركز هام به مختلف الأنشطة السياسية في المدينة. وهكذا لعب حكيم أجمل خان دورا بارزا في حركة العصيان المدني، فأعاد لقب «حاذق الملك» ووسام «قيصر الهند» إلى الحكومة، واتخذ من السياسة الوطنية لتأمين مكانة شرف عائلته على مدى الأجيال. وبعد تخليه عن اللقب الحكومي بأيام عقدت جمعية علماء الهند اجتماعا عاما في كانبور ومنحته لقب «مسيح الملك» الذي التصق باسمه حتى أنه صار يعرف به.

آثاره

1 ـ رسالة الطاعون، يتناول ـ كما يظهر من عنوانه ـ مرض الطاعون وعلاجه وتدابير الوقاية منه، دهلي 1935؛ 2 ـ كتاب حاذق، ويحتوي على تجاربه الشخصية، ويعتبر مؤلفا هاما حول موضوع العلاج، دهلي 1947.

وله أيضا مؤلفات هامة أخرى باللغتين العربية والفارسية، مثل:

3 ـ التحفة الحامدية في الصناعة التكليسية، رامبور 1925؛ 4 ـ أوراق مظهرة، دهلي 1936؛ 5 ـ ديوان شعر نشر في برلين، 1937؛ 6 ـ القول المرغوب في الماء المشروب، دهلي (د. ت)؛ 7 ـ البيان الحسن بشرح المعجون المسمى بإكسير البدن.

المصادر والمراجع

● مشير الأطباء؛ ● حياة أجمل؛ ● مجلة أجمل، عدد خاص؛ ● محمد قاسم الدهلوي، حكيم أجمل خان شخصية فنية، مجلة ثقافة الهند، مج. 49، العدد 1، نيودلهي 1998م.

د. جلال السعيد الحفناوي
جامعة القاهرة ـ مصر

خان، سير سيّد أحمد بن مير

(1233هـ/1817م ـ 1316هـ/1898م)

خان، سير سيد احمد هو سيد أحمد خان بن مير تقي بن سيد هادي الدهلوي. مؤسس حركة علي كره من المصلحين الذين احتدم حولهم النقاش ودار بسببهم جدل واسع في أوساط المسلمين في الهند والعالم الإسلامي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وهو باعث نهضة المسلمين في الهند في العصر الحديث.

وسيد أحمد خان من كبار المصلحين المثقفين بين مسلمي الهند في عصره خلال القرن التاسع عشر، فهو من دعاة الإصلاح السياسي والاجتماعي والتعليمي وله مساهماته المتنوعة في مجال العلم، والتاريخ، والأدب، والثقافة، والتعليم، والتربية، والصحافة.

ولد سيد أحمد خان في السابع عشر من أكتوبر عام 1817 في مدينة دهلي، ويرجع نسبه إلى سيدنا علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه، من ناحية الأب وقد خرج أجداده من شبه الجزيرة العربية إلى «دامغان» بإيران، ثم رحلوا إلى «هرات» بأفغانستان ثم تركوها في عهد الملك شاهجهان واتجهوا إلى الهند وعملوا في خدمة الدولة المغولية، وتقلد أجداده مناصب مدنية وعسكرية رفيعة وقد

توراثوها جيلاً بعد جيل. وكان والده مير تقي بن سيد هادي من أشراف مدينة دهلي وكان متدينًا وتفوق في السباحة والرماية، وقد كان لطبيعته الصوفية دور كبير في تربية سيد أحمد خان وتكوين شخصيته.

وقد تلقى سيد أحمد خان تعليمه الأولي طبقا للطرق القديمة في التعليم، فبدأ بحضور دروس «شاه غلام علي»، كما أخذ يتعلم قراءة القرآن وحفظه على يد سيدة حافظة للقرآن في منزلها، ويتعلم على يد الشيخ حميد الدين، ثم درس اللغة الفارسية وقرأ «بوستان وكلستان سعدي»، وتعلم اللغة العربية ثم اتجه إلى دراسة الرياضيات وعلم الطب على يد غلام حيدر خان.

وفي عام 1838م توفي والده وكان سيد أحمد خان في الواحدة والعشرين من عمره، فزادت عليه أعباء الحياة ففكر في الخروج للعمل واتجه للعمل في الحكومة الانجليزية فعمل في البداية في وظيفة «كاتب» في النيابة بمدينة آجرا ثم تقدم لامتحان المحاماة ونجح فيه، فقام بتلخيص القوانين المدنية تحت اسم «انتخاب أخوين». وفي 24 ديسمبر 1841م عمل في مدينة «منبوري» في وظيفة «محامي». وفي 10 يناير 1842م رحل إلى مدينة «فتحبوري سكري» وظل محاميا بها لمدة أربع سنوات وفي تلك الفترة ظهرت بوادر موهبة التأليف عند سيد أحمد خان فكتب عدة رسائل كان أولها في عام 1840م عندما أعد قائمة بملوك المغول وأعمالهم باسم «جام جم» أي «كأس جمشيد» وذكر فيها السيرة الذاتية لثلاثة وأربعين ملكًا من ملوك المغول، من الأمير تيمور حتى بهادر شاه ظفر آخر ملوك المغول المسلمين، ثم كتب رسالة باسم «جلاء القلوب بذكر المحبوب النبي ﷺ»، وبعدها كتب «تحفة الحسن»، و«التسهيل في جر الثقيل» وفي ذلك الوقت لقبه الملك بهادر شاه ظفر «بجواد الدولة سيد أحمد خان عارف جنك».

وفي 18 فبراير 1846م انتقل سيد خان إلى مدينة دهلي التي أحبها فظل بها حتى عام 1854م وتابع إدارة جريدة «سيد الأخبار» التي كان يصدرها أخوه سيد محمد خان، كما قام بدراسة العلوم العربية والإسلامية على الشيخ «نوازش علي» وألف كتاب «آثار الصناديد» حيث تناول في هذا الكتاب سيرة العديد من علماء ومشايخ وفقهاء دهلي ويعد موسوعة شاملة لمدينة دهلي وأمرائها وملوكها وعماراتها ونشر في عام 1847م.

وفي 13 يناير 1855م انتقل سيد أحمد خان إلى مدينة «بجنور» بعد أن رقي إلى وكيل نيابة وقام في تلك الأثناء بتحقيق كتاب «آئين اكبرى» وهو مجموعة من القوانين التي وضعها الامبراطور جلال الدين أكبر. وفي العاشر من مايو 1857م قامت ثورة التحرير الهندية في معسكر «ميرث» قرب دهلي ومنها انتشرت إلى أنحاء الهند المختلفة وكانت ضد الحكومة الانجليزية الممثلة بحكومة شركة الهند الشرقية ونصّب الثوار بهادر شاه ظفر آخر ملوك المغول قائدًا للثورة التي انتهت بالفشل نتيجة لسوء إدارتها وتنظيمها، ونتيجة لذلك انتهى الحكم الإسلامي للهند وتم نفي بهادر شاه ظفر إلى «رنجوان» في بورما حيث مات ودفن بها ودخلت الهند تحت الحكم الانجليزي المباشر بدلاً من شركة الهند الشرقية.

ثم انتقل سيد أحمد خان إلى مدينة «مراد آباد» بعد الثورة في أبريل 1858م بعد أن رقي إلى درجة قاضي وقد دافع عن ممتلكات المسلمين في مراد آباد، كما حاول جاهدًا إثبات براءة الشيخ عالم علي من تهمة الضلوع في الثورة وتحريض الثوار وتم له ما أراد. وقد شاهد سيد أحمد خان الأضرار التي لحقت بالمسلمين من تعذيب وظلم على يد الانجليز بعد ثورة 1857م لأنهم ألقوا بمسؤولية قيام الثورة على عاتق المسلمين وحدهم، لذا بدأ في محاولة التفاهم مع الانجليز وقد نشر كتابه «أسباب الثورة الهندية» عام 1859م برأ فيه ساحة المسلمين من التهَم التي نسبت إليهم وحاول جاهدًا مد يد العون للحكومة الانجليزية حتى تعلم الحكومة الانجليزية أن المسلمين في الهند يمكن الاعتماد عليهم في الوظائف الحكومية، وحاول سيد أحمد خان اتباع سياسة التقريب بين المسلمين والانجليز فكتب رسالة بعنوان: «تحقيق لفظ نصارى» أكد فيه أن المسلمين والنصارى أهل كتاب وأقرب إلى بعضهم البعض من أتباع الديانات الوضعية الأخرى (يقصد الهندوسية). وفي عام 1862م نشر سيد أحمد خان كتاب «تاريخ فيروزشاهي» لضياء الدين برني بعد أن حققه وقدم له وكانت الارساليات التبشيرية قد تضاعف نشاطها بعد ثورة التحرير عام 1857م فكتب كتابه «تبيين الكلام» ضد التبشير المسيحي وأكد على أهمية التقريب بين الإسلام والمسيحية.

وكان سيد أحمد خان يعتقد أن التعليم له دور هام في نهضة المسلمين في الهند وأن هدفه الأسمى هو نشر العلوم والآداب الغربية، لذا فكر في البداية في تأسيس جمعية علمية لهذا الهدف وتم ذلك في 1863م حيث أقام الجمعية العلمية بـ «غازي بور» وكان مديرها «دريمند» الحاكم العام لشمال الهند وسيد أحمد خان سكريتيرا شرفيا لها. وواصل سيد أحمد خان جهوده في مجال التعليم الذي كان يعتبره السبيل الوحيد لنهضة المسلمين، وعندما انتقل سيد أحمد خان إلى «علي كره» قام بنقل مقر الجمعية العلمية إلى «علي كره»، وفي الرابع عشر من فبراير 1866م افتتح السيد وليمز نائب الحاكم الانجليزي «الجمعية العلمية بعلي كره» والتي قامت بدور هام في نشر المقالات والأبحاث وترجمة الكتب في العلوم الحديثة.

وواصل سيد أحمد خان جهوده في التقريب بين المسلمين والانجليز. فقام في 14 سبتمبر 1866م بنشر رسالة باسم «أحكام طعام أهل الكتاب» أحل فيها الأكل مع الانجليز بشرط عدم وجود أي طعام محرم على المسلمين. وقام سيد أحمد خان من خلال الجمعية العلمية بعلي كره بإصدار «جريدة الجمعية العلمية بعليكره» وقد استمرت هذه الجريدة تصدر لمدة اثنين وثلاثين عامًا وقد واصل سيد أحمد خان الكتابة فيها حتى وفاته. ونالت هذه الجريدة مكانة بارزة بين المسلمين والحكومة الانجليزية في ذلك الوقت، وقد ساهمت في إزالة كثير من العقبات في سبيل نهضة مسلمي الهند.

وفي تلك الفترة قرأ سيد احمد خان كتاب السير وليم ميور (Sir William Mur) «حياة محمد» فغضب منه كثيرا وأراد الرد عليه ولكن لم يجد المادة العلمية الكافية للرد عليه في

الهند ففكر في جمعها من لندن. وفي أول أبريل 1869م سافر سيد أحمد خان إلى لندن مع ابنه سيد محمود ومر أثناء سفره الذي استغرق عشرين يومًا بكل من مصر وباريس، ودوّن ملاحظاته عن الأماكن والبلاد التي مر بها وجمعها في كتاب «سفرنامه» وقد توقف في لندن في منطقة «ميكلن بروك» بانجلترا حيث التقى بصديقه «اللورد لورانس» الذي قام بتعريفه بمشاهير لندن. وظل سيد احمد خان في لندن نحو سبعة عشر شهرا قضاها في زيارة الجامعات والمدارس والمتاحف والمجالس العلمية ونال وسام «نجمة الهند» من الحكومة الانجليزية، وقد أنجز سيد أحمد خان كثيرًا من المهام التي جاء من أجلها، وأهمها جمع المادة العلمية اللازمة لكتابه الذي رد فيه على السير وليم ميور حيث ألف منها كتابه «خطبات أحمدية» الذي وضح فيه حقيقة الإسلام للاوروبيين وأزال الكثير من الافتراءات الموجودة في كتابات الكتَّاب المسيحيين وعلى رأسهم وليم ميور عن الإسلام والرسول محمد.

ووصل سيد أحمد خان إلى مدينة بومباي بالهند عائدًا من لندن في الثاني من أكتوبر 1870م بعد أن اطلع على الأفكار والعلوم الغربية الحديثة، وحمل العديد من الأفكار لنهضة مسلمي الهند وخاصة في مجال التعليم العالي، وقام بكتابة رسالة عن التعليم في الهند باسم «اعتراضات على نظام التعليم العالي في الهند» عبَّر فيها عن رأيه في ضرورة تغيير نظام التعليم المتبع آنذاك في الهند لعدم مواكبته للحياة في العصر الحالي والاتجاه نحو نظام جديد للتعليم، وكانت هذه الآراء في البداية لا تلقى آذانًا عند الكثيرين فأصدر مجلة «تهذيب الأخلاق» لتكون منبرًا لأفكاره وصدر العدد الأول منها في 4 ديسمبر 1870م وظلت تصدر حتى عام 1897م وكتب فيها كبار الكتاب في الهند آنذاك. وظل سيد أحمد خان يرعى هذه المجلة ويكتب فيها حتى لاقت شهرة عريضة في الهند. على أن الخطوة الهامة التالية لإصدار مجلة «تهذيب الأخلاق» هي إقامة معهد تعليمي لتدريس العلوم الحديثة، وقد قدم سيد أحمد خان مقترحاته إلى الحكومة الانجليزية فوافقت عليها وبدأ في جمع التبرعات اللازمة لإنشائه، وفي تلك الأثناء نشر د. هنتر Hinter كتابه «مسلمو هندنا» واحتوى هذا الكتاب على تهم ضد المسلمين خاصة الوهابيين منهم مما كان له أثر عميق على اتساع هوة الخلاف بين المسلمين والانجليز، وقد أغضب ذلك سيد أحمد خان فرد عليه بكتابه «نقد كتاب الدكتور هنتر» وصحح فيه أفكار الانجليز غير الصحيحة تجاه المسلمين. وفي 24 مايو 1875م تم افتتاح «مدرسة العلوم» بالأردية، وقد تفرغ سيد أحمد خان لتشييد هذه الكلية بعد أن ترك وظيفته الحكومية وقام بجمع الأموال اللازمة لمبانيها وشيدها على أحدث طراز هندسي، وفي يناير 1878م بدأت الكلية في ممارسة نشاطها العلمي.

وظل سيد أحمد خان في مقالاته يؤكد على أهمية التعليم الانجليزي في نهضة المسلمين واصلاح أحوالهم وأن «علم الكلام القديم» لم يعد له أهمية في مواجهة الفلسفة الحديثة، لذا نجده يؤسس «علم الكلام الجديد» وأخذ يفسر القرآن طبقًا للأسس الجديدة وقد بدأ ذلك في عام 1876م وحتى 1898م وقام

بطبع أجزاء منه ولم يكمل الأجزاء الأخرى.
وعين اللورد لتن سيد أحمد خان في عام 1878م عضوًا في مجلس الحاكم التشريعي لمدة أربع سنوات حاول فيها التقدم بمشروعات تهم المسلمين وعلى رأسها مسألة «الوقف على الأولاد» حيث دافع عن أحقية الأولاد في ميراث أوقاف أسرهم بعد أن كانت الحكومة الانجليزية تصادر هذه الأوقاف الاسلامية للمسلمين. وفي عام 1883م أسس سيد أحمد خان «جمعية الادخار الاسلامية» لمساعدة الطلاب المسلمين في نفقات السفر إلى لندن للدراسات العليا، كما فتح للطلاب المسلمين قسمًا خاصًا في مدرسة العلوم بعلي كره لإعدادهم لامتحان «التوظيف المدني» وسماه «فصل التوظيف المدني» (Civil Servic Class)، وفي نفس السنة أقام سيد أحمد خان «الجمعية الإسلامية بعلي كره» (Mohammedan Association Aligarh) وكانت عضويتها تضم أعيان مدينة علي كره، وفي تلك الفترة أعد سيد أحمد خان العدة لعقد مؤتمر خاص بالتعليم وإصلاح المناهج، وعقدت الجلسة الأولى للمؤتمر في 27 ديسمبر 1886م في الكلية الإسلامية الشرقية في علي كره تحت مسمى «المؤتمر التعليمي الإسلامي» (Muslim Educational Confere)، وقد استمرت جلسات هذا المؤتمر تعقد لمدة عشر سنوات حتى عام 1896م فكانت تعقد كل سنة في مدينة هندية مختلفة لكي تنتشر أهداف المؤتمر التعليمي في جميع أنحاء شبه القارة الهندية.

لقد رأى سيد أحمد خان أن المسلمين قد ابتعدوا عن العلوم العصرية التي أخذت تروج في الهند بسبب نفوذ الاحتلال الانجليزي وبسبب ما استقر في قلوبهم من الخوف من هذه العلوم الحديثة التي ربما تؤثر على شبابهم فتبعدهم عن دينهم وتقاليدهم وتنصرهم، الأمر الذي دفعهم إلى أن ينهضوا ضد العلوم العصرية واللغة الانجليزية تحت قيادة العلماء المتضلعين في العلوم القديمة المتوارثة. لذا أراد سيد أحمد خان إدخال التعديلات والإصلاحات في المنهج القديم وإقامة مدارس عصرية تعنى بالعلوم الحديثة المواكبة لمتطلبات العصر الحديث، هذا إلى جانب أن التعليم لم تكن توجد له في عصره إلا فكرة محدودة جدًا في أذهان الناس، الأمر الذي جعله يهدف من خلال جهوده في مجال التعليم إلى خلق جيل مثقف واع يخدم المجتمع ويؤدي دوره الايجابي في بنائه وتطويره وجعله مواكبًا لمتطلبات العصر الحديث.

وبعد دراسة الحالة التعليمية في الهند توصل سيد أحمد خان إلى نتيجة هامة هي: «أن العلوم الرائجة بين المسلمين غير مجدية وغير منسجمة مع متطلبات العصر الحاضر، وهذا هو السبب الجوهري لتخلفهم». لقد كان من أهداف المؤتمر التعليمي الإسلامي نشر العلوم والفنون الغربية فيما بين المسلمين وبذل الجهود لتطويرها ونشرها فيما بينهم، وبذل الجهود الممكنة لتدريس العلوم الدينية بصورة جيدة وملائمة في المدارس الانجليزية العصرية التي تم إنشاؤها للمسلمين خاصة، ودراسة أوضاع الذين يدرسون العلوم الشرقية والدينية من العلماء والشيوخ.

وكان لقرارات المؤتمر التعليمي الإسلامي التي اتخذها دور لا يستهان به في تطوير وازدهار جامعة علي كره الإسلامية والبلوغ بها

إلى مستوى الجامعة وأخذ سيد أحمد خان على عاتقه التخطيط لنهضة مسلمي الهند وإحداث ثورة هائلة في التجديد والتعليم، وأضحت علي كره مركزًا حضاريًا للمسلمين في الهند، وكانت حركة قومية التف حولها المسلمون في الهند وساهمت في زيادة أعداد المسلمين المتعلمين في شمال غرب الهند بصفة خاصة، وساهمت في إعداد جيل مؤهل لحمل مسؤولياته الحضارية ومزود بالأفكار والنظريات الحديثة، ذلك الجيل الذي خرج منه قادة التحرير في الهند، ومنهم مولانا محمد علي، ومولانا شوكت علي، ومولانا حسرت موهاني، وذاكر حسين رئيس الهند، وكذلك الذين أسسوا باكستان مثل محمد أيوب خان، ونواب لياقت علي خان وغيرهما.

وكان سيد أحمد خان وافر الانتاج ألف عددا كبيرا من الكتب في مختلف الموضوعات وبعضها يتضمّن أفكارا جريئة، ودرس الأديان السماوية بدقّة عندما أراد تفنيد انتقاد وليم ميور وطعنه في الإسلام وخاصة الحديث النبوي الشريف. وتبلورت أفكاره في تفسيره لبعض سور القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة والتي تعارض بعض الآراء التقليدية التي يتبناها علماء ذلك العصر ضد الاكتشافات العلمية الحديثة خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

ويعترف سيد أحمد خان في تفسيره للقرآن الكريم أن «كل كلمة وردت في القرآن الكريم هي منزلة من الله ﷻ، ولغة القرآن لغة إنسانية عامة على الرغم من أنه أنزل بلسان عربي مبين وأنه يستعمل تشبيهات واستعارات رمزية مجازية وأسلوبًا مباشرًا لتبليغ رسالته، ومن أجل تحديدها يجب علينا ألا نستخدم المعاجم فقط لمعرفة المعاني اللغوية فحسب، بل يجب أن نبحث عن الاستعمال العام للكلمات في العصر الذي نزل فيه القرآن وإدراك وفهم العرب الأميين له. وعلى هذا استخدم سيد خان العقل والمنطق في تفسير القرآن الكريم وكانت لديه جرأة على تبني عقائده الخاصة وعرض أفكاره في ظروف صعبة وغير ملائمة ورفض معظم التفاسير المتوفرة في عصره، ويرى أن كاتبيها يعتمدون على الاسرائيليات، ودعا إلى الفحص والتدقيق لحقائق الدين وأصوله، والفكرة الرئيسية في تفسيره هي أن الحقائق الصعبة التي لا يمكن فهمها من قبل أناس بسطاء يجب إيضاحها وشرحها بشكل رمزي وتعبير مجازي، والدليل على ذلك هو أنه عندما يتحقق التطور والمعرفة والعلم في أزمنة لاحقة لا يجد المؤمنون أي فرق بين المجاز والحقيقة، بل يعتبرونه نقصا في فهمهم للنصوص.

وأكد سيد أحمد خان أن الاستعارات والمجازات التي استعملت في القرآن الكريم ليست ضد الحقيقة والواقعية وبإمكان الناس من مختلف الزمان والمكان أن يستفيدوا منها حسب عقلهم، لذا كان على كاتب التفسير وشارح معاني القرآن أن يستخدم المعرفة الحديثة والعلم المعاصر لذلك الغرض وألا يتردد في ذلك وبعد مرور الزمن تتطور البشرية وتتجلى صحة التفسير واضحة وجلية.

وفي عام 1888م منحت الملكة فيكتوريا سيد أحمد خان «نجمة الهند» وهو أعلى وسام إنجليزي، ثم قلدته رتبة «الفارس القائد» أي لقب سير (Sir) وأقيم له حفل كبير في مدرسة العلوم بعلي كره حضره وجوه المسلمين

والانجليز والهندوس، وفي عام 1898م منحته جامعة ادنبره درجة الدكتوراه الفخرية في القانون لما له من إسهامات في القوانين المدنية في الهند. وتوفي سيد أحمد خان في السابع والعشرين من مارس عام 1898م ودفن في ساحة مسجد علي كره.

مات سيد أحمد خان بعد حياة حافلة في قيادة الأمة الإسلامية في الهند، ولن نكون مبالغين عندما نقول إن الوجود الإسلامي في الهند يدين له بالكثير من المحافظة على بقائه وبقاء ثقافته الإسلامية، بعد أن تولى زمام القيادة الإسلامية في مرحلة بالغة الدقة واستطاع بعقله الراجح أن يصل إلى بر الأمان بعد أن حافظ على الكيان الإسلامي في الهند، وخطط لقيام باكستان بجناحيها الشرقي والغربي بعد أن أيقن استحالة تعايش المسلمين والهندوس. واستطاع أن يوفق بين الثقافتين الإسلامية والغربية وأن يوقظ المسلمين في الهند ويفتح لهم أبوابًا من المعرفة والتفكير، وأن يبذر فيهم بذور تكوين أمة مستقلة بهم ترعى شؤونهم وتحافظ على تراثهم، وتحميهم من هجمات المتعصبين، وأن يظهر في عالم الوجود شخصيتين كبيرتين عملتا على إنماء هذه البذور وتعهدها حتى استوت على سوقها، هاتان الشخصيتان هما الشاعر محمد إقبال ومؤسس باكستان محمد علي جناح. وكان سيد أحمد خان مصلحًا من الطراز الأول فقد كان ثاقب الفكر بعيد النظر عندما رفض الانضمام إلى حزب «المؤتمر القومي الهندي» وحذر قومه من مسلمي الهند من الانضمام له وكان يرى أن عليهم أن يكون لهم حزب يمثلهم لذا دعا إلى تأسيس «المؤتمر التعليمي الإسلامي» الذي انبثق عنه فيما بعد حزب «الرابطة الإسلامية» الذي أخذ على عاتقه الدعوة إلى إنشاء باكستان وتحقق له ذلك في عام 1948م.

وقد أحدثت أفكار سيد أحمد خان الإصلاحية ومنهجه في التجديد دوياً هائلاً لا يزال صداه يتردد في أنحاء شبه القارة الهندية والعالم الإسلامي، وقد نتج عن هذه الأفكار والاجتهاد في التجديد حركة إصلاحية كبرى في الهند سميت فيما بعد «حركة علي كره».

وكان سيد أحمد خان من طراز جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، بل أن سياسته تشبه شبهًا قويًا سعي الإمام محمد عبده في تقديم الإصلاح الاجتماعي والنهضة الثقافية على المطالبة بالاستقلال. وقد تباينت حوله الآراء في شبه القارة الهندية من ناحية وفي العالم الإسلامي من ناحية أخرى، فأيده البعض وعارضه البعض الآخر، ولا يزال حتى اليوم تتضح جوانب خفية في حياة هذا المصلح الهندي الذي يدين له مسلمو الهند بالفضل في نهضتهم الحديثة، سواء كانت هذه النهضة تعليمية أو سياسية أو اجتماعية حتّى أن بصماته ظلّت واضحة في جميع الميادين الإصلاحية في الهند.

آثاره

1 - أسباب بغاوت هند (أسباب الثورة الهندية)، دهلي 1959م؛ 2 - خطابات سير سيد. ترتيب محمد اسماعيل باني بتي، مجلس ترقي أدب، لاهور، 1972م؛ 3 - مقالات سير سيد. ترتيب محمد اسماعلي باني بتي، مجلس ترقي أدب، لاهور،

1962؛ 4 ـ جلاء القلوب بذكر المحبوب النبي ﷺ، فتح بور، الهند 1840م؛ 5 ـ آثار الصناديد، دهلي، 1847م؛ 6 ـ تحقيق لفظ نصارى، دهلي 1862م؛ 7 ـ أحكام طعام أهل الكتاب، دهلي، الهند 1866م؛ 8 ـ خطبات أحمديه، دهلي، الهند 1871م؛ 9 ـ تفسير القرآن، دلهي 1877م.

المصادر والمراجع

● حالي، ألطاف حسين، حيات جاويد، أكادمي بنجاب، لاهور، 1975م؛ ● عبد الحق، سير أحمد خان، انجمن ترقي اردو، كراجي 1975م؛ ● الندوي، عبد الحليم، مراكز المسلمين التعليمية والثقافية والدينية في الهند، مدارس الهند، 1976؛ ● أمين، أحمد، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، النهضة المصرية، القاهرة 1948م؛ ● الحفناوي، جلال السعيد، حركة جامعة علي كره وأثرها في نهضة المسلمين على يد سيد أحمد خان، ثقافة الهند، مجلد 52، عدد 1، نيودلهي، الهند، 2001م.

- Hadi Hussain, Syed Ahmed Khan, Institute of Islamic Culture, Lahore, 1970.

د. جلال السعيد الحفناوي
جامعة القاهرة ـ مصر

خان، محمد أحمد رضا

(1272هـ/1856م ـ 1340هـ/1921م)

أحمد رضا خان هو محمد أحمد رضا خان بن الشيخ نقي علي خان (ت 1297هـ/ 1880م) بن الشيخ رضا علي خان (ت 1272هـ/ 1856م). أما اسمه التاريخي فهو «المختار»، ومنه يعرف تاريخ ميلاده وهو 1272هـ/ 1856م، ولقب الشيخ أحمد رضا خان نفسه بلقب عبد المصطفى.

درس أحمد رضا خان العلوم الدينية على يد والده الشيخ نقي علي خان حتى بلغ الرابعة عشرة من عمره، وبعدها نال إجازة الإفتاء عن أبيه. يقول الشيخ أحمد رضا خان عن هذا الأمر: «بحمد الله أفتيت أول فتيا حينما كنت في الثالثة عشرة من عمري للرابع عشر من شعبان سنة 1286هـ، ولو بقيت حياتي إلى العاشر من شعبان 1336هـ/ 1917م لبلغت مدة الإفتاء إلى خمسين سنة».

كان الشيخ أحمد رضا خان متصوفاً أخذ البيعة على يد سيد آل رسول الأحمدي المارهروي (ت 1297هـ/ 1879م) في الطريقة العالية القادرية عام 1294هـ/ 1877م، كما حصل على الإجازة في طرق صوفية أخرى منها الجشتية والسهروردية والنقشبندية وغيرها. واشتغل الشيخ أحمد رضا في التدريس والإفتاء وتأليف الكتب إضافة إلى

الوعظ والإرشاد، كما برع في الأردية والفارسية والعربية وكتب شعراً بها جميعاً.

هذا وقد تزوج الشيخ أحمد رضا خان عام 1874م وهو في سن الثامنة عشرة، وبعدها بثلاث خرج مع والده إلى الحج، وفي عام 1904م أسس مدرسة دينية في شبه القارة الهندية هي «دار العلوم منظر إسلام»، وفي عام 1905م خرج إلى الحج مرة ثانية، وتوفي ﷺ في صفر عام 1340هـ/ نوفمبر عام 1921م.

آثاره

للشيخ أحمد رضا خان مؤلفات كثيرة، وهناك اختلاف كبير بين المؤرخين حول عدد هذه المؤلفات، ولكن المؤكد أن له مؤلفات كثيرة باللغة العربية نذكر منها ما يلي:

1 ـ النيرة الوضيئة في شرح الجوهرة المضيئة» 1295هـ/ 1878م؛ 2 ـ الكفل الفقيه الفاهم في أحكام قرطاس الدراهم، 1324هـ/ 1906م، وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة الأردية عام 1329هـ/ 1911م؛ 3 ـ الدولة المكية بالدولة الغيبية، 1323هـ/ 1905م؛ 4 ـ العطايا النبوية في الفتاوى الرضوية؛ 5 ـ الصارم الرباني على المرتد القادياني، 1340هـ؛ 6 ـ السوء والعقاب، 1320هـ؛ 7 ـ كنز الإيمان في ترجمة القرآن، 1330هـ/ 1911م؛ 8 ـ المحجة المؤتمنة في آية الممتحنة، 1339هـ/ 1920م.

وللشيخ أشعار بالعربية تقترب من الألف بيت بالإضافة إلى عدد كبير من تواريخ الحساب بالجمّل. كما أن للشيخ ديواناً بالأردية تحت عنوان «حدائق بخشش: بساتين الغفران» طبع أول مرة بمدينة «كراتشي» عام 1325هـ غالبه في مدح النبي ﷺ.

وخلاصة القول أنه إذا نظرنا إلى شعر أحمد رضا خان العربي في ضوء أحوال اللغة العربية في شبه القارة الهندو باكستانية اتضح لنا أنه شعر لا بأس به، يقل فيه ما هو مألوف عند شعراء العربية غير العرب من عجمة، ويتضح فيه ميله إلى استعمال أكبر قدر من الألفاظ العربية حتى وإن صارت متروكة غير مطروقة في عصره أو في عصرنا، كما أنه لم يكتب في كثير من فنون الشعر، ذلك لأنه هو نفسه كان يتجنب هذا الأمر معتبراً كتابة الغزل خاصة مما لا يليق بكبار علماء الدين، ومن هنا فإن شعره يؤهله لأن يكون ضمن صفوف شعراء العربية في شبه القارة الهندو باكستانية وليس على رأسهم.

أما أشعار أحمد رضا خان الأردية مختلفة تمام الإختلاف عن أشعاره العربية، ذلك لأنه بلغته هو، وبالتالي كان شعره هذا أكثر تعبيراً عن مقدرة أحمد رضا خان الشعرية.

المصادر والمراجع

● خان، أحمد رضا، حدائق بخشش، باكستان 1325هـ؛ ● د. أحمد إدريس، الأدب العربي في شبه القارة الهندية، مصر 1998م؛ ● هاشمي، د. رفيع الدين، أصناف أدب، باكستان 1991م؛ ● شاعر لكهنوي، حضرت رضا بريلوي كا منصب، باكستان.

د. أحمد محمد أحمد عبد الرحمن
جامعة الأزهر ـ مصر

ابن الخبّاز أبو العباس، أحمد بن الحسين بن أحمد

(589هـ/ 1193م - 639هـ/ 1241م)

هو أحمد بن الحسين بن أحمد بن معالي (أو أبي المعالي) بن منصور بن علي الإربليّ ثمّ الموصليّ، النحويّ، الضّرير، المعروف بابن الخبّاز، والملقّب بشمس الدين، والمكنّى بأبي العباس وأبي عبد الله.

كان والده وهو بائع خبز من قطان إربل قبل أن ينتقل إلى الموصل ويستقرّ بها، وبالموصل كان مولد شمس الدين سنة (589هـ/ 1193م) وبها توفّي على الأغلب سنة (639هـ/ 1241م)، وهو تاريخ أجمع عليه كلّ من ترجم له إلا السيوطي، فإنّه ذكر هذا التاريخ في تحفة الأريب [1/ 226] ولكنّه ذكر في بغية الوعاة [1/ 300] أنه توفّي قبل ذلك بسنتين (637هـ/ 1239م) ولم نجد في ما أمكننا الاطّلاع عليه من التراجم من أثبت هذا التاريخ.

فقَدَ بصره في وقت مبكّر، ولربّما دعاه ذلك إلى أن يكون حفّاظة، فلقد أشادت كتب التراجم بقوته على الحفظ واستظهار كتب بأكملها. فقد حفظ ابن الخبّاز الكتاب العزيز، وكتاب «الفخري» في الحساب، وكتاب «الكافي في علم العروض والقوافي» لأبي زكريا التبريزي؛ وفي النحو حفظ كتابي «الإيضاح» و«التكملة» لأبي علي الفارسي (ت 377هـ) و«المفصّل» للزمخشري (ت 538هـ)، كلّ ذلك فضلا عن كثير من أشعار الجاهليين والإسلاميين المولدين والمحدثين.

وتتلمذ ابن الخبّاز في النّحو على أحمد بن أبي بكر الموصلي الضرير (ت 618هـ)، وفي الفقه وفي التفسير على عبد الكريم بن أحمد بن محمد المقرئ الضرير المعروف بابن رحيمة (ت 611هـ)، وذكر في بعض مصنّفاته أحد شيوخه في الحساب ويدعى أبا المعالي.

وجلس أبو العباس مدرّسا بأحد مساجد الموصل، فعلّم النحو واللّغة والعروض والحساب والأدب، ثمّ انتقل إلى ما كان يسمّى «المدرسة البلديّة» بالموصل فمكث بها حتّى توفّي.

وأشهر ممّن تتلمذ عليه المبارك بن أحمد الشعّار الموصلي (ت 654هـ) صاحب «عقود الجمان من شعراء هذا الزمان»، وهو أقدم من ترجم له وأكثر من أفاض في ذكره واختيار أشعاره.

وإذا كان ابن الخبّاز شاعرا ونحويّا على ما تردّد في كتب التراجم، فإنّ الفضل في شهرته وتردّد ذكره يعود إلى صفته العلمية لا الأدبية. فلقد استشهد به أكثر من نحويّ في أكثر من مسألة. وأهمّ من ذكره من النّحاة ابن هشام الأنصاري وخصوصا في كتاب «مُغني اللّبيب» [المغني 1/ 19، 147، 215 و2/ 562، 569 . . .]. على أنه ينبغي أن نميّز في هذه النقول بين شمس الدين هذا ونحويّ آخر يحمل نفس الكنية واسمه محمد بن أبي بكر بن

علي الموصلي الشافعي (ت 631هـ)، وانظر نقله عنه في المغني [2/ 396].
وممّا يغلب عليه صفة النحوي ـ لا الشاعر ـ مصنّفاته التي اتّجهت في الغالب إلى شرح مختصرات نحويّة أو بعض النصوص الشعرية المشكلة في إعرابها أو حتى الجمع بين نصّين نحويّين مختصرين.

آثاره

1 ـ الألماع، وهو عنوان أحد شرحين لكتاب «اللّمع» لابن جنّي (ت 392هـ)، وأما الشرح الثاني فهو: «توجيه اللّمع» تح. فايز زكي محمد دياب، في إطار رسالة دكتوراه في كلية اللغة العربية، القاهرة، رقم الأطروحة 367؛ 2 ـ الغرة المخفيّة في شرح الدرّة الألفية، تح. عبد الرحمٰن محمد الكيس، في إطار رسالة دكتوراه في كلية اللغة العربية، القاهرة، وهي شرح لألفية ابن معطي زين الدين أبي الحسن يحيى بن عبد المعطي بن عبد النور الزواوي (ت بالقاهرة 627هـ)، ويذكر أحمد بن يوسف الرعيني (ت 779هـ) في مقدّمة شرحه للألفية نفسها أن ابن الخبّاز كان أوّل شرّاحها وأنّه وضع عليها شرحين أحدهما الذي ذكرناه ولم يذكر الثاني، ولسنا ندري هل أنّ الشرحين لشمس الدين بن الخباز أم له واحد ولابن خبّاز المذكور سابقا الشرح الثاني. وقد ذكرت له كتب التراجم هذا الكتاب فعلا [انظر طبقات النحاة واللّغويين لابن قاضي شهبة، ص 75]. توجد من «الغرة المخفيّة» عدة نسخ منها نسخة بالاسكوريال ودار الكتب المصريّة والأزهرية، والمكتبة الوطنيّة بتونس، نشرت مختارات منها صحبة الدرة الألفية، تح. زتسترين، لابيزيك، 1900؛ 3 ـ النهاية في شرح الكفاية، نسخة بجامعة برنستون؛ 4 ـ شرح الإيضاح، وهو كتاب الفارسي المذكور سابقا؛ 5 ـ الإفصاح في الجمع بين المفصّل والإيضاح، قال ابن الشّعّار إنّه لم يتمّه [عقود الجمان، 1/ 155]، ويبدو أنّه كان يريد أن يجمع فيه جمعا تأليفيا متني «المفصّل» للزمخشري و«الإيضاح» لأبي عليّ؛ 6 ـ الجوهرة في مخارج الحروف، وهي قصيدة على بحر الرّجز موضوعها كما في عنوانها، التصنيف المخارجي لحروف العربيّة؛ 7 ـ الفريدة في شرح القصيدة، والقصيدة مطوّلة متكوّنة من 36 بيتا لابن الدهّان النّحوي (ت 569هـ) سلك في نظمها طريقا مغربة في الإعراب، وهذا الضرب من القصائد يصطلح عليه بـ «الألغاز» وهو ضرب مخصوص من الشعر تجتمع فيه وجوه من الكلام شاذّة من جهة إعرابها، إذ يطرح كلّ بيت إشكالا نحويّا أو أكثر لا يفكّه إلا المتبصّرون بأمور اللّغة العارفون بغريبها ونوادرها وغريب تخريجها.
فشرح هذا الضرب من النصوص شرح مخصوص، مداره التنبيه إلى مواضع الإشكال في الشعر وتحليلها بردّها إلى أحوالها النظرية الممكنة وهي أصول لا تمثل في العادة القواعد المعروفة وإنما تكون أحكاما فرعية ووجوها نادرة من الكلام وشاذة. وإذا كان الشّاذ في الدرس النحويّ العادي قليلا فإنه في هذه القصائد الأصل والواجب فرع عليه؛ 8 ـ تصحيح المقياس في تفسير القسطاس، وهو كتاب شرح فيه مصنّف القسطاس الذي وضعه الزمخشري في العروض؛ 9 ـ شرح

حققه، محمد سيد جاد الحق، 1/ 386 ـ 387، دار الكتب الحديثة، مطبعة المدني، القاهرة؛ ● الأتابكي، يوسف بن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تح. محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1984، 2/ 382 ـ 383؛ ● المكناسي، ابن القاضي، درة الحجال في أسماء الرجال، تح. محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث في القاهرة، المكتبة العتيقة بتونس، دار النصر للطباعة بالقاهرة، 1390هـ/ 1970م، 1/ 211 ـ 212؛ ● الحنبلي، ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، المكتب التجاري للطباعة، بيروت، 6/ 8؛ ● اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان، منشورات مؤسّسة الأعلمي، بيروت 1390هـ/ 1970م، الطبعة الثانية، وهي مصورة بالأوفسيت عن طبعة حيدر آباد الدكن الصادرة في 1339هـ، 4/ 239؛ ● الونشريسي، وفيات الونشريسي، تح. محمد حجي، ص 163، الرباط 1396هـ/ 1976م، طبع ضمن كتاب ألف سنة من الوفيات؛ ● الذهبي، ذيول العبر، ص24 ـ 25، مطبعة حكومة الكويت، تح. محمد رشاد عبد المطلب؛ ● الحنبلي، عبد الرحمٰن بن أحمد، الذيل على طبقات الحنابلة، صححه محمد حامد الفقي، 2/ 350، القاهرة، مطبعة السنة المحمّدية، 1372هـ/ 1953م.

أ. هلال ناجي
باحث في التراث العربي ـ بغداد ـ العراق

ابن خبّازة، أبو عمرو، ميمون بن علي

(ت 637هـ/ 1239م)

ميمون بن عليّ بن عبد الخالق الخطّابي، أبو عمرو ويكنى أيضا أبا سعيد، المعروف بابن خبّازة، شاعر مطبوع ومترسّل مجيد. أصله من إحدى قبائل صنهاجة في جهات تونس.

ولد بفاس في بدايات النصف الثاني من القرن السادس الهجري في تاريخ غير معروف ولا هو يعرفه وقد ترجم لنفسه وهو في السبعين من العمر في كتابه مفاخر البربر.

تطوّر كثيرا وتصوّف ونسك ووعظ وكان في آخر عمره جانحا إلى امتداح ملوك عصره وقد تصرّف في بعض الخدم السلطانية حتّى ولي حسبة الطعام بمراكش.

أكثر قراءته بفاس ثم بسبتة من المغرب ثمّ قرأ في الأندلس بالمنكّب، وغرناطة، ومرسية، وشاطبة، ووادي آش، وإشبيلية، ومالقة، وشلب، وطبيرة، وعدّه بعض مؤرّخي الأندلس «في أهل أشبيلة»، وعدّه ابن سعيد المغربي في شعرائها.

توفيّ ابن خبّازة بالرباط في أوائل سنة 637هـ/ 1239م ودفن في سلا ويعرف قبره الآن بسيدي الخبّاز، ويسمّى به أحد أبواب المدينة.

جمع شعره ونثره بنفسه وكانت نسخته عند معاصر له يدعى أبا الحسن بن عاصم لكن لم يصلنا من شعره إلّا القليل. اشتهر بمتانة شعره وبسرعة بديهته. فمن شعره الباقي قصيدتان مطوّلتان ومقطوعات، إحدى المطوّلتين تبلغ 149 بيتا في المديح النبويّ استلهم فيها السيرة النبويّة وسار على نهجها في موضوعاتها والمطوّلة الثانية تقع في 58 بيتا في رثاء ابن الوزير أبي بكر بن الجدّ وتعزية والده. عدّت «من قصائده المشهورة بل من عجائبه المأثورة».

وقد وصلنا من نثره رسالة خيالية أدبيّة طريفة ذات منزع صوفي ضمّنها حجّة غريبة. تصوّر فيها ابن خبّازة عقدة بيع، باع فيها للمولى ﷻ منزل قلبه بثمن العون على العبادة، ثمّ خيّل إليه أنّ الله سبحانه أعمره ذلك المنزل إلى حين وفاته.

آثاره

1 ـ ديوان شعر؛ 2 ـ كتاب مفاخر البربر.

المصادر والمراجع

● الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت 1992، 8/ 300؛ ● المقّري، أزهار الرياض، ط. صندوق إحياء التراث الإسلامي، المملكة المغربية، والإمارات العربية المتحدة، الرباط 1978، 2/ 378 ـ 380؛ ● كنّون، عبد الله، ذكريات مشاهير رجال المغرب، دار الكتاب المصري ● ميمون الخطابي، الرسالة السابعة، دار الكتاب اللبناني، د.ت، 35ص.

د. حسناء بوزويتة الطرابلسي
جامعة تونس

الخبازي، أبو محمد جلال الدين عمر بن محمد

(629هـ/ 1231م ـ 691هـ/ 1292م)

جلال الدين أبو محمد عمر بن محمد بن عمر الخبازي الخجندي المفتي، أحد مشايخ الحنفية الكبار، أصله من بلاد ما وراء النهر من بلد يقال لها «خجندة»، والخبازي، بفتح الخاء وتشديد الباء الموحّدة وبعد الألف زاي هذه النسبة إلى الخبز، عمله أو بيعه [ابن الأثير، اللباب، 1/ 417]. عرف في كتب التراجم بأنه صاحب «المغني» في الأصول، قال عنه اللكنوي: كان عالما عابدا متنسكا جامعا للفروع والأصول، أخذ عن علاء الدين عبد العزيز البخاري (ت 730هـ) الذي كان أصغر منه عن فخر

الدين محمد المايمرغي عن شمس الأيمّة حمد بن عبد الستار الكردري عن صاحب «الهداية» المرغيناني الحنفي، وكان قد وضع حواش وتعليقات على كتاب الهداية الذي يعتبر من أهمّ المصنّفات في الفقه الحنفي، وعنه أخذ أبو العباس أحمد بن مسعود بن عبد الرحمٰن القونوي، والبدر الطويل، وداود الرومي المنطقي، وهبة الله بن أحمد التركستاني [الفوائد البهية، ص151].

اشتغل ودرس في بداية أمره بخوارزم وأعاد ببغداد ثم قدم دمشق فدرّس بـ «العَزِيَّةِ» على الشرف الشمالي، ثم حجّ وجاور بمكة سنة ثم رجع إلى دمشق فدرّس بـ «الخاتونية» التي على الشرف القبلي إلى أن توفّي في آخر ذي الحجة من سنة إحدى وتسعين وستمائة للهجرة عن اثنين وستين سنة ودفن بالصوفية. قال تلميذه ابن كثير في سنة تسعين: وفي هذا الشهر، أي ذي الحجّة، درس الشيخ جلال الدين الخبازي بالخاتونية البرانية [النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، 1/ 386]، قال البرزالي: كان شيخا فاضلا ولمّا مات كان مدرّسا بالخاتونية ومن شروطها أن يكون المدرّس بها من أفضل الحنفية [القرشي، الجواهر المضية، 2/ 669].

آثاره

1 ـ المُغْني في أُصولِ الفقْهِ، مخطوط، وهو الكتاب الذي عُرف به، قال عنه صاحب كشف الظنون: «محتوٍ على المقاصد الكلية الأصولية مُنْطوٍ على الشواهد الجزئية الفروعية مُرشِدٍ إلى أغراض الطلاب، موصلٍ إلى محض قواعد أصول فقه أولي الألباب، شامل لخلاصة شمس الأيمّة وزبدة أصول فخر الإسلام [حاجي خليفة، كشف الظنون، 2/ 1749]. قال الزركلي: وقد اقتنيت منه نسخة كتبت سنة 692هـ وأخرى سنة 783هـ [الأعلام، 5/ 63]؛ 2 ـ شرح الهداية، للمرغيناني الحنفي، مخطوط، ويعرف أيضًا بالحواشي المشهورة على الهداية في فروع الفقه الحنفي وكان محمد بن أحمد القونوي قد أخذها وكملها إلى آخر الهداية وسمّاها تكملة الفوائد [كشف الظنون، 2/ 2033] وقد انتفع الناس بهذين الكتابين.

المصادر والمراجع

● ابن كثير، البداية والنهاية، دار الفكر، بيروت؛ ● الذهبي، أبو عبد الله، المشتبه في الرجال، تح. البجاوي، دار إحياء الكتب العربي، عيسى الحلبي وشركاه، ط1، 1962م؛ ● الحنبلي، ابن العماد، شذرات الذهب، دار المسيرة، بيروت، 1399هـ/ 1979م، ط2؛ ● طاش كبري زاده، مفتاح السعادة، دار الكتب العلمية، بيروت؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، 1989م، ط8؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1376هـ/ 1975م؛ ● عبد الوهاب، إبراهيم أبو سليمان، كتابة البحث العلمي ومصادر الدراسات الإسلامية، دار الشروق للنشر والتوزيع، جدّة، 1400هـ/ 1980م، ط1.

د. هشام قريسة
المعهد الأعلى للحضارة الإسلامية ـ تونس

الخَبْري، أبو حكيم عبد الله بن إبراهيم

(ت 476هـ/ 1083م)

هو الإمام أبو حكيم عبد الله بن إبراهيم ابن عبد الله الشافعي، عرف بأبي حكيم، وبالخَبْري نسبة إلى خَبْر - بفتح الخاء وسكون الباء - وهي قرية بنواحي شيراز من بلاد فارس، موضع على ستة أميال من مسجد سعد بن أبي وقاص، وفيها بِرْكة للخلفاء وبِرْكة لأم جعفر، وبئران عذبتان قليلتا الماء، وقصور في طريق الحاج، وبها قبر سعيد أخي الحسن بن أبي الحسن البصري [الحموي، معجم البلدان، 2/ 394؛ ابن الأثير، اللباب، 1/ 343، 418؛ القفطي، إنباه الرواة، 2/ 98؛ البغدادي، مراصد الإطلاع، 2/ 125؛ السيوطي، لبّ اللباب، ص88؛ الزركلي، الأعلام، 4/ 63].

ولد بخبر ولم يذكر المترجمون تاريخ ولادته، ثم انتقل إلى بغداد وصار بها معلما. وكان يسكن درب الشاكرية وقيل درب انتاكرية ببغداد [الحموي، معجم الأدباء، 12/ 46؛ ابن الأثير، اللباب، 1/ 418؛ القفطي، إنباه الرواة، 2/ 98]. كان الخبري فقيها فرضيًّا حاسبًا أديبا محدثًا خطاطًا، لقّب بالفرضي والفرائضي وصاحب الفرائض وبإمام الفرضيّين، فقد انتهت إليه الإمامة في الفرائض وفي الأدب [الحموي، معجم الأدباء، 12/ 46 - 47؛ معجم البلدان، 2/ 394؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، 18/ 558 - 559]، كما لقّب أبو حكيم بالمعلم فقد درّس اللغة والأدب والفرائض وحدّث بالسير وكان شيخا حسنا صحيحا [الحموي، معجم الأدباء، 12/ 46 - 47].

عاش الخبري بين فترتين من الحكم، الأولى كانت مع الأسرة البويهية، حين وقعت الخلافة العباسية تحت نفوذها سنة 334هـ وقد دامت إمارتهم في العراق مائة وثلاث عشرة سنة، أي إلى سنة 447هـ قبل وفاة أبي حكيم الخبري بتسع وعشرين سنة. أما الفترة الثانية لحياته فقد كانت مع السلاجقة، وهي مملوءة بالقلاقل والاضطرابات.

وفي سنة 450هـ وقعت فتنة البساسيري وبقي في بغداد طوال عام وهو يخطب للفاطميين، إلى أن رجع السلطان طغرلبك، فقتله [الزهراني، نفوذ السلاجقة السياسي في الدولة العباسية 448 - 590هـ]. هذه الأحداث السياسية أثّرت في المسيرة العلمية لأبي حكيم، فقد عاش أحداثًا مؤلمة فَقَدَ فيها الأحباب والأصحاب والشيوخ، وفَقَدَ فيها ثروته من الكتب والمال، واضطرّ للاشتغال في طلب الرزق، يقول: «وتوالت عليّ سنون كثيرة متصرّفًا فيها على هذه السيرة، مع ما قاسيته من التشاغل بطلب المعاش، والحركة فيما لا بد للإنسان منه...» [الخبري، التلخيص في علم الفرائض، ص563].

ولعلّه كان يجهد نفسه في كتابة المصاحف

لتحصيل القوت لعياله [ابن كثير، البداية والنهاية، 2/ 153]، فأغلبهم كان من النساء، مما جعله يترك علم الفرائض، وكاد ينساه، ولولا خوفه من اندثاره، وحرص الأصدقاء عليه بأن يعيد الكتابة فيه، وتشجيعهم له على ذلك لضاع علم الأولين، وانقطع السند العلمي في هذا العلم.

يقول: «بعد شدائد لاقيتها من حوادث الدهر وصروفه وأمور تتقلّب، وترادفت عليَّ أثقالها من نوائب الزمان وفَقْد الشيوخ والإخوان الذين قرأت عليهم خصوصا كتب أستاذي أبي عبد الله الوَنّي... وختم الله له بالشهادة... فذهبت مع ذهابه عيون تلك الكتب وخيارها، وفقدت أمهاتها وكبارها، حتى لم أظفر منها، مع شدّة الطلب والتتبع لمن أغار عليها وانتهب، إلّا بمثل تعريسة الفجر أو كالقطرة من البحر لا تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً..» [الخبري، التلخيص في علم الفرائض، 562 ـ 563].

تفقه أبو حكيم بشيوخ أجلّاء منهم: أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروزابادي الشيرازي (ت 476هـ)، فقيه شافعي انتهت إليه رئاسة المذهب في زمانه [الصفدي، الوافي بالوفيات، 17/ 5؛ الأسنوي، طبقات الشافعية، 1/ 471ـ 472؛ السبكي، طبقات الشافعية، 3/ 203 ـ 204؛ ابن قنفد، كتاب الوفيات، ص256؛ شرف الطالب، ص57]، ومنهم الحسين بن أحمد ابن محمد بن حبيب الفارسي [الصفدي، الوافي بالوفيات، 17/ 5].

وسمع الحديث من الكثير، من أبي عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد الفارسي، ومن أبي محمد بن الحسين بن علي بن محمد بن الحسن الشيرازي ثم البغدادي الجوهري المقنّعي (ت 444هـ)، آخر من روى عنه في الدنيا والسماع والإذن، وقيل له الخبري، وعرف به، ولم يكن خبريًّا، وإنما اشتهر به لصحبة أبي العباس الفضل بن يحيى بن إبراهيم الخبري [القفطي، إنباه الرواة، ج2؛ ابن مكتوم، تلخيص أخبار اللغويين في هامش ص88؛ الذهبي، السير، 18/ 68 ـ 71؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، 12/ 123]، وأخذ الفرائض والحساب عن أبي عبد الله الحسين بن محمد بن عبد الواحد الوَنّي البغدادي الضرير (ت 450هـ)، فرضي حاسب، من تصانيفه «الكافي في الفرائض» وهو على ما يبدو مؤلف كبير محيط يعرض فيه كل الآراء التي قيلت قبله، وقد وصفه الإسنوي بأنه من أحسن الكتب [ابن خلكان، وفيات الأعيان، 2/ 138؛ الإسنوي، طبقات الشافعية، 2/ 543؛ كحالة، معجم المؤلفين، 4/ 54]، وهو من الشيوخ الذين استفاد منهم الخبري استفادة كبيرة، كما أخذ الفرائض عن عبد الله بن إبراهيم الهمذاني [السبكي، طبقات الشافعية، 7/ 73].

وممن أخذوا عنه نذكر ابنتيه، رابعة، وأمّ الخير فاطمة ابنته الصغرى (ت 534هـ)، وسبطه أبا الفضل محمد بن ناصر بن محمد ابن علي بن عمر السلامي الفارسي ثم البغدادي الحنبلي، ابن رابعة، كان فقيها محدثا لغويا. ربّاه جدّه أبو حكيم بعد وفاة والده المحدّث ناصر. كان أبو الفضل حافظ بغداد في زمانه، وكان من أئمة اللغة (ت 550هـ)، وممن رووا تآليف جدّه لأمه

[السمعاني، الأنساب، 5/ 39 ـ 40؛ ابن الأثير، اللباب، 1/ 418 ـ 419، 583؛ الحموي، معجم البلدان، 2/ 394؛ القفطي، إنباه الرواة، 2/ 98؛ الذهبي، المشتبه، 1/ 184؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، 12/ 325 ـ 326؛ ـ السبكي، طبقات الشافعية، 3/ 203 ـ 204؛ كحالة، معجم المؤلفين، 12/ 72]. وكذلك أبو العز أحمد ابن عبيد الله بن محمد المعروف بابن كادش [الذهبي، سير أعلام النبلاء، 19/ 559 ـ 560]، والحسين بن أحمد بن علي بن جعفر الشقاق البغدادي الفرضي (ت 511هـ) وهو من تلاميذ أبي الحكيم الأوفياء، فقد حدّث عن أبي حكيم بشيء من تصانيفه في الفرائض، وهو صاحب رواية «التلخيص في علم الفرائض» [ابن الصابوني، تكملة إكمال الإكمال، ص194؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، 12/ 325 ـ 326؛ الأسنوي، طبقات الشافعية، 1/ 471 ـ 472؛ كحالة، معجم المؤلفين، 3/ 312]، ومن تلاميذه أيضًا علي بن محمد بن المبارك بن بكروس أبو الحسن بن أبي بكر، قرأ عليه الفرائض والحساب [ابن الصابوني، تكملة إكمال الإكمال، ص209].

وكان أبو حكيم الخبري فقيها صالحا، مرضي الطريقة ديّنًا صدوقًا خيّرا، روى ابن الأهدل قال: «وكان يكتب في مصحف فألقى القلم من يده واستند وقال: والله لئن كان هذا هو موتا إنه لطيّب، ثم مات» [ابن العماد، شذرات الذهب، 3/ 353].

توفي ببغداد يوم الثلاثاء ضحوة نهار 22 ذي الحجة 476هـ/ أفريل ـ ماي 1083م، قاله أكثر المترجمين [الذهبي، سير أعلام النبلاء، 18/ 559؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، 3/ 204؛ الأسنوي، طبقات الشافعية، 1/ 471 ـ 472؛ البغدادي، هدية العارفين، 5/ 452؛ الزركلي، الأعلام، 4/ 63؛ كحالة، معجم المؤلفين، 6/ 17 ـ 18، Brockelman, Geschichte der Arabischen Litteratur, 1/486, Supp. 1/671].

وقيل يوم الثلاثاء ثاني عشر ذي الحجة من سنة 476هـ [السيوطي، بغية الوعاة، 2/ 29]. وفي تلخيص أخبار اللغويين: «كان موته فجأة يوم الثلاثاء ودفن يوم الأربعاء الثاني والعشرين من ذي الحجة سنة 470هـ» والله أعلم [القفطي، إنباه الرواة، ج2 في هامش ص88]. وذكر في المنتظم [ابن الجوزي، 9/ 99 ـ 100] والبداية [ابن كثير، البداية والنهاية، 12/ 135] والنجوم الزاهرة [ابن تغري بردي، 5/ 225] أن وفاته كانت سنة 489هـ. أما في المشتبه فقد نقل أنه توفي سنة 496هـ [ابن الجوزي، المنتظم، 9/ 100؛ الذهبي، المشتبه، 1/ 184؛ ابن كثير، البداية والنهاية، 12/ 153].

آثاره

صنّف في اللغة، والأدب، حيث:

1 ـ شرح ديوان البحتري؛ 2 ـ شرح ديوان المتنبي؛ 3 ـ ديوان الشريف الرضي، وقد عني بجمع ديوان الشريف الرضي جماعة، وأجود ما جُمِعَ الذي جمعه أبو حكيم الخبري [ابن خلكان، وفيات الأعيان، 4/ 414ـ 420]، ويعلّق محقق وفيات الأعيان في الهامش: قلت: والنسخة التي جمعها الخبري من ديوان الشريف الرضي لا تزال موجودة

وقد اعتمدت عليها في دراستي لشعر الرضي [ابن خلكان، وفيات الأعيان، 4/ 416] وهو مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم 3/ 133؛ 4 ـ ديوان الحماسة، لأبي تمام (ت 231هـ)؛ 5 ـ شرح الغرر والدرر، للشريف الرضي [ابن خلكان، وفيات الأعيان، 2/ 138؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، 17/ 5؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، 3/ 203 ـ 204؛ السيوطي، بغية الوعاة، 2/ 29؛ الزركلي، الأعلام، 4/ 63].

6 ـ صنّف في الحساب كتابا توجد منه نسخة بمكتبة جوتا (Gotha) تحت رقم 2 - A71.

[Brockelman, Geschichte der Arabichen Litteratur, Sup 1/671]

7 ـ صنف أيضًا في علم الفرائض، فقد ذكر أغلب المترجمين أنّ للإمام الخبري معرفة تامّة بعلم الفرائض، وأنّ له فيها مصنّفًا، وقيل أكثر، قال الحموي: «وله كتاب كبير سمّاه التلخيص، وله تصانيف مثله» [الحموي، معجم البلدان، 2/ 394] إلّا أنّ القليل منهم من ذكر عنوان مؤلفه هذا، لذا اختلف المترجمون والمؤرّخون في تسمية هذا الكتاب فقيل: التلخيص في علم الفرائض، وقيل: التلخيص في الفرائض، وقيل: التلخيص في الفرائض والحساب، وقيل: التلخيص، وقيل: مختصر في الفرائض، وقيل: مختصر في علم الفرائض [الحموي، معجم البلدان، 2/ 394؛ الزركلي، الأعلام، 4/ 63؛ فهرس مخطوطات مكتبة جامعة قاريونس، 2/ 127ـ 128؛ فهرس المخطوطات العربية المحفوظة في مكتبة الجمعية الاستشراقية الألمانية بمدينة هالا سالة؛ ابن محمد الزيد، أصول المواريث، ص127، Brockelmann, Geschichte der Arabischen Litteratur, supp. 1/461, 486].

وأصحّ هذه التسميات ما ورد في النسخة المروية عن تلميذه الشقاق، أي «التلخيص في علم الفرائض»، ويعتبر هذا الكتاب من المصادر في علم الفرائض، فقد حفظ لنا أقوال الصحابة والتابعين وتابعي التابعين وصولا إلى آراء أئمة المذاهب، الفقهية ـ الباقية والمندثرة ـ وأتباعهم من فقهاء الأمة الإسلامية. كما يعتبر عمدة من عمد كتب فقه الخلاف في علم الفرائض. لذا نجد ابن قدامة المقدسي (ت 620هـ) ينقل عنه كثيرا عند الحديث عن المسائل التي تتعلّق بالميراث والوصايا [ابن قدامة، المغني، 6/ 7 ـ 8، 77، 323، 325، 344 ـ 345].

يقول ابن قدامة: «وبهذا قال مالك وبعض أصحاب الشافعي وحكاه الخبري مذهبا للشافعي...» [ابن قدامة، المغني، 6/ 7]. ويقول: «وقال الخبري، وهو أحد الوجهين لأصحاب الشافعي...» [ابن قدامة، المغني، 6/ 8]. ويقول: «فيما ذكره الخبري عن أحمد...» [ابن قدامة، المغني، 6/ 77]. ويقول: «وقال الخبري: هذا هو الحكم فيما إذا علم موت أحدهما قبل صاحبه ولم يذكر فيه خلافاً» [ابن قدامة، المغني، 6/ 310].

أما مخطوطات هذا الكتاب فهي موزّعة على مكتبات العالم منها؛ نسخة في مكتبة برلين تحت رقم 4687، وهي رواية تلميذه الشقاق، وهي أفضل النسخ على الإطلاق. ونسخة ثانية في مكتبة هالا سالة بألمانيا،

مسجلة تحت رقم 43، ونسخة ثالثة بجامعة قاريونس بنغازي ليبيا بالمكتبة المركزية تحت رقم 386، ونسخة رابعة بجامعة أم القرى مكة المكرمة رقمها 1179، والجزء الثاني من المخطوط بدار الكتب الوطنية بتونس تحت رقم 12865، وقسم الحساب بمكتبة جوتا بألمانيا تحت رقم 2 ـ A 71.

نسب بعض الباحثين المعاصرين خطأ هذا الكتاب إلى ابن حبيب المالكي (ت 238هـ). منهم عبد المجيد التركي في تقديمه لكتاب أدب النساء الموسوم بكتاب الغاية والنهاية [ابن حبيب، أدب النساء، ص66 ـ 67]، ومنهم محمد إبراهيم أحمد علي في بحثه اصطلاح المذهب [البحوث الفقهية، عدد15، محمد إبراهيم أحمد علي، اصطلاح المذهب عند المالكية، ص95]، ولعل هذا راجع إلى نقلهم المعلومات من كتاب تاريخ الأدب العربي عندما تحدّث عن أبي مروان عبد الملك بن حبيب ومؤلفاته حيث قال: «ومما بقي أوّل كتاب الفرائض» برلين 4687 [بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، 3/ 87].

وتنبع أهمية هذا الكتاب من كون علم الفرائض متشابكا مع علم الحساب، وما فيه من المشاكل الفرضية ومن مسائل الوصايا والطرق الحسابية التي يتوصّل بها إلى حلها (طريقة التماثل، التناسب، التخالف، التوافق، طريقة الفرضيين، طريقة الحساب، طريقة الجبر، طريقة الخطأين..) لذا نجد الخبري في كتابه يذكّر الطالب بقواعد علم الحساب كقوله مثلاً: «...لأنّ الزائد في الزائد والناقص في الناقص زائدان والناقص في الزائد ناقص» [الخبري، التلخيص، ص55].

ومن مزايا هذا الكتاب أنه يذكر آراء مختلفة للعلماء ويفنّد بعضها ويبيّن الأولى بالاتباع، مثال ذلك: «قال شيخنا ـ رحمه الله ـ جواب ابن اللبان في الفصل الأول أشبه بمذهب الشافعي وما قاله ابن سريج في الفصل الثاني أصحّ، لأنّه ليس هناك ما يمنع من جواز هبة الثاني للثالث في ثلث ما صار له» [الخبري، التلخيص في علم الفرائض، ص554 ـ 555].

ومن مزايا هذا الكتاب أيضًا أنه يستعمل المعادلات الرياضية ذات درجة ودرجتين لحلّ الوصايا (باب: من الوصايا في العين والدين، باب: يشتمل على أنواع مختلفة ومسائل شتى من الوصايا...) [الخبري، التلخيص في علم الفرائض، ص 471 ـ 502]، ومن مزاياه أيضًا أنه محقق في مذهبه ومذهب غيره فيصحّح وينقد ما يراه خطأ، فعندما تحدّث عن رأي مالك في باب مواريث أهل الملل والمرتد قال: «... ورواه بعض أصحاب مالك عنه، والصحيح أنه ليس عنه فيه نصّ...» وعند الحديث عن ميراث المجوس قال: «واختلفوا في الجدّة إذا كانت أختا لأب، فقال بعضهم: الجدودة أقوى القرابتين لأنّها ولادة ولا سقط بالولد، وقال آخرون: الأخوّة أقوى لأنها أكثر ميراثا له، قاله ابن شريح وهو الصحيح».

المصادر والمراجع

● ابن حبيب، عبد الملك، كتاب أدب النساء الموسوم بكتاب الغاية والنهاية، تح. عبد المجيد التركي، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1412هـ/ 1992م؛

● الخبري، عبد الله، التلخيص في علم

الفرائض، تح. منير بن المختار التليلي، نسخة مرقونة؛ ● السمعاني، أبو سعيد، الأنساب، تصحيح وتعليق عبد الرحمٰن ابن يحيى المعلمي اليمالي، بيروت، لبنان 1385هـ/ 1966م، ط1، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند؛ ● ابن الجوزي، أبو الفرج، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد 1359هـ، ط1؛ ● ابن قدامة، أبو محمد عبد الله، المغني، مكتبة الرياض الحديثة، ط 1401هـ/ 1981م؛ ● ياقوت الحموي، معجم الأدباء، دار المستشرق، بيروت، لبنان؛ ● م.س، معجم البلدان، تح. فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1410هـ/ 1990م؛ ● ابن الأثير، عز الدين، اللباب في تهذيب الانساب، مكتبة دار صادر، بيروت، ط1400هـ/ 1980م؛ ● القفطي، جمال الدين، إنباه الرواة على أنباه النحاة، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، 1371هـ/ 1952م، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، أو مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط1، 1384هـ/ 1964م؛ ● ابن الصابوني، جمال الدين، تكملة إكمال الإكمال في الأنساب والألقاب، تح. مصطفى جواد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، 1377هـ/ 1957م؛ ● ابن خلكان، أبو العباس، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح. إحسان عباس، دار صادر، بيروت؛ ● البغدادي، صفي الدين، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، جزآن، تح. علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط1، 1373هـ/ 1954م؛ ● الذهبي، أبو عبد الله، المشتبه في الرجال: أسمائهم وأنسابهم، جزءان، تح. علي محمد البجاوي، ط1، 1962م، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه؛ ● م.س، سير أعلام النبلاء، تح. شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، ط4، 1406هـ/ 1986م؛ ● ابن مكتوم، أحمد ابن عبد القادر، تلخيص أخبار اللغويين، نسخة بخط المؤلف، دار الكتب المصرية، رقم 3069 تاريخ تيمور؛ ● الصفدي، خليل، الوافي بالوفيات، دار النشر فرانز شتايز فيسبادن، 1405هـ/ 1985م؛ ● السبكي، تاج الدين، طبقات الشافعية الكبرى، ط1، المطبعة الحسنية المصرية؛ ● الأسنوي، جمال الدين، طبقات الشافعية؛ ● ابن كثير، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، ومكتبة النصر، الرياض، ط1، 1966م؛ ● ابن قنفد، أبو العباس، كتاب الوفيات، تح. عادل نويهض، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط4، 1403هـ/ 1983م؛ ● م.س، شرف الطالب في أسنى المطالب، تح. محمد حجي، مطبوعات دار العرب للتأليف والترجمة والنشر، ط 1396هـ/ 1976م؛ ● ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة؛ ● السيوطي، الحافظ جلال الدين، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، جزآن؛ ● م.س، لبّ

اللباب في تحرير الأنساب، أعادت طبعه بالأوفسيت مكتبة المثنى ببغداد لصاحبها قاسم محمد رجب؛ • حاجي، خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، طبعة دار الفكر، 1402هـ/ 1982م؛ • ابن العماد، الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، 8 أجزاء، دار الفكر، بيروت؛ • البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين، أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، 5 أجزاء، ط. دار الفكر، 1402هـ/ 1982م؛ • فهرس المخطوطات العربية المحفوظة في مكتبة الجمعية الاستشراقية بمدينة هالا ـ ساله، جمهورية ألمانيا الديمقراطية، جمع د. عدنان جواد الطعمة، كلية الآداب، جامعة بغداد، العراق، ط1، 1397هـ/ 1977م؛ • فهرس مخطوطات جامعة قاريونس، المكتبة المركزية، جزآن، ط 1983م؛ • الزهراني، محمد بن مسفر بن حسين، نفوذ السلاجقة السياسي في الدولة العباسية، مؤسسة الرسالة، 448هـ/ 590م، ط1، 1402هـ/ 1982م؛ • بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي، نقله إلى العربية د. رمضان عبد التواب، راجع الترجمة، د. السيد يعقوب بكر، ط2، دار المعارف؛ Brockelman, Geschichte der Arabischen Litteratur, 1/486, Supp. 1/671؛ • كحالة، معجم المؤلفين تراجم مصنّفي الكتب العربية، مكتبة المثنى ودار إحياء التراث العربي، بيروت؛ • الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط6، 1984م؛ • الزيد، عبد العزيز، دراسة وتحليل لكتاب «أصول المواريث»، للإمام أبي عبد الله الحسين بن محمد الوتّي الفرضي الحاسب، ط1، 1408هـ/ 1988م؛ • مجلة البحوث الفقهية المعاصرة، العدد الخامس عشر، السنة الرابعة، 1413هـ/ 1992م؛ • مجلة البحوث الفقهية المعاصرة، العدد الثاني والعشرون، السنة السادسة، 1415هـ/ 1994م.

د. منير التليلي
جامعة الزيتونة ـ تونس

الخبوشاني، أبو البركات محمد بن الموفق

(510هـ/ 1116م ـ 587هـ/ 1191م)

الإمام أبو البركات نجم الدين محمّد بن الموفّق بن سعيد بن عليّ بن الحسن الخبوشاني، ولد في الثالث عشر من رجب سنة عشر وخمسمائة للهجرة بأستوى خبوشان بضمّ الخاء المعجمة والباء الموحّدة، وقيل بفتح أوّله وضمّ ثانيه، وهي اسم لبليدة بناحية نيسابور، انتسب إليها جماعة من أهل العلم منهم الحافظ أبو الحارث محمّد بن عبد

الرّحيم بن الحسن بن سليمان الأثريّ، والفقيه أبو موسى عمران بن موسى بن الحصين بن نوشان [السمعاني، الأنساب، 2/ 321؛ ياقوت، معجم البلدان، 2/ 394؛ ابن الأثير، اللباب، 1/ 420؛ اليافعي، مرآة الجنان، 3/ 433؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، 7/ 14].

كان فقيها شافعيا صوفيا يابسا في الدّين، قشفا في العيش يضرب به المثل في الزهد، سمع بخبوشان وتخرّج بكبار شيوخها، وقدم مصر سنة 565هـ فأقام بمسجد بالقاهرة مدّة، ثمّ تحوّل إلى تربة الإمام الشافعي وتبتّل لعمارتها، ودرّس بها مدّة طويلة وأفتى وصنّف في المذهب كتابا مشهورا [الذهبي، تاريخ الإسلام، 12/ 841 ـ 843؛ سير أعلام النبلاء، 15/ 391؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، 7/ 14].

نوّه به معاصروه وأشادوا بمنزلته في العلم والصلاح والفضل قال ابن خلكان: «رأيت جماعة من أصحابه وكانوا يصفون فضله ودينه، وأنه كان سليم الباطن قليل المعرفة بأحوال الدنيا». وقال السّبكي: «كان إماما جليلا كبير المحلّ في الورع، قلّ أن ترى العيون مثله زهدا وعلما، وأمرا بالمعروف، وتصميما على الحقّ»، وكان الإمام أبو الفتح شهاب الدّين محمّد بن محمود الطوسي (ت 596هـ) مع جلالته يتضاءل لنجم الدين الخبوشاني ويعترف بعلوّ قدره.

وممّا يحكى عن ورعه أنه كان يركب الحمار ويجعل تحته أكسية لئلا يصل إليه عرقه، وجاء الملك العزيز إلى زيارته وصافحه، فاستدعى بماء وغسل يديه وقال: «يا ولدي أنت تمسك العنان ولا يتوقى الغلمان عليه، فقال اغسل وجهك، فإنّك بعد المصافحة لمست وجهك فغسل وجهه» [ابن خلكان، وفيات الأعيان، 4/ 240؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، 6/ 399، 7/ 14].

والظاهر أنه كان عظيم الحرمة، وافر الجلالة، ذا منزلة عظيمة نال بها وجاهة عند ذوي السّلطة، فقد كان صلاح الدّين يجلّه ويبالغ في احترامه وتكريمه وقد أشار عليه بعمارة المدرسة المجاورة لضريح الإمام الشافعي ﷺ، فلمّا عمّرها ولّاه تدريسها ونظرها ووقف عليها أوقافا سنية، وكان تقيّ الدّين عمر ابن أخي السلطان له مواضع يباع فيها المزر، فكتب الشيخ إلى صلاح الدين: إنّ هذا عمر لا جبره الله يبيع المزر، فسيّرها صلاح الدين إلى عمر، وقال: لا طاقة لنا بهذا الشيخ، أرْضِه.

وكان يبالغ في ذمّ العبيديين فقد كان يقول بملء فيه: أصعد إلى مصر، وأزيل ملك بني عبيد...، فصعدها وصرّح بلعنهم، وجعل تسبيحه سبّهم فحاروا في أمره، وأرسلوا إليه بمال عظيم فلمّا وقع نظره على رسولهم بالزّي المعروف، نهض إليه بأشدّ الغضب وقال: ويلك ما هذه البدعة؟! وكان الرجل قد زوّر في نفسه كلاما يلاطفه به، فأعجله عن ذلك فرمى الدنانير بين يديه، فضربه على رأسه، فصارت عمامته حلقا في عنقه، وأنزله من الشدّ وهو يرمي الدنانير على رأسه ويلعن أهل القصر.

ولمّا توفي العاضد وتهيّب صلاح الدّين أن يخطب لبني العبّاس خوفا من الشيعة وقف

الخبوشاني أمام المنبر بعصاه، وأمر أن يخطب الخطيب لبني العبّاس، ففعل ولم يقع إلّا الخير، ووصل الخبر إلى بغداد، فزيّنوا بغداد وبالغوا وأظهروا من الفرح فوق الوصف [ابن خلّكان، وفيات الأعيان، 4/ 240؛ الذهبي، العبر، 3/ 95؛ اليافعي، مرآة الجنان، 3/ 433؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، 7/ 16 ـ 17؛ ابن كثير، البداية والنهاية، 12/ 347].

ولئن كان هذا الإمام جامعا بين العلم والصلاح إلّا أنه كان شديد الإنكار على مخالفيه ومفرطا في التغليظ عليهم، بل نقل عنه ما يوجب الطعن فيما نسب إليه من خِلالٍ حميدة، فقد عمد إلى قبر ابن الكيزاني الظاهري وكان من غلاة السنّة وأهل الأثر، فنبش عظامه وقال: «لا يكون صدّيق وزنديق في موضع واحد» يعني هو والشّافعي، فثارت حنابلة مصر عليه وتألّبوا، وقويت الفتنة وصارت بينهم حروب. وقد ثلبه اليافعي، وابن تغري بردي لذلك، فقد قال فيه الأوّل: «كان كثير الفتن منذ دخل مصر إلى أن مات، ومازالت الفتن قائمة بينه وبين الحنابلة وابن الصابوني، وزين الدّين بن نجيّة يكفّرونه ويكفّرهم... وكان طائشا مهموما»، ووصفه ابن الصابوني بسوء الأخلاق وقبح العشرة، ووصفه الثاني بالطيش والتهوّر، وذكر الحافظ الذهبي في السّير ما يعضد ذلك. قال: «وكان أصحابه يأكلون بسببه الدنيا، ولا يسمع فيهم، وهم عنده معصومون، وكان متى رأى ذميّا راكبا قصد قتله، فظفر بواحد طبيب يعرف بابن شوعة فأندر عينه بعصاه، فذهبت هدرا»، ولم يرتض الإمام السّبكي ما تحامل به شيخه الذهبي على الخبوشاني، واعتبره متعصّبا على الحنفية والشافعية، لذلك لا يسمع كلامه فيهم، ولا تؤخذ تراجمهم من كتبه، قال: «ولعلّ النّاظر يقف على كلام شيخنا الذهبي في هذا الموضع من ترجمة الخبوشاني فلا يحفل به، وبقوله في ابن الكبزاني: إنّه من أهل السنّة، فالذهبي ﷺ متعصّب جلد، وهو شيخنا وله علينا حقوق، إلّا أن حقّ الله مقدّم على حقّه» [الذهبي، العبر، 3/ 95، السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، 7/ 14].

تفقّه نجم الدّين الخبوشاني بنيسابور بمحمد بن يحيى تلميذ الغزالي حجّة الإسلام، وكان يستحضر كتابه المحيط في شرح الوسيط، حتى نقل عنه أنّه لمّا عدم الكتاب أملاه من خاطره ممّا يعرب عن قوّة ذاكرته وجودة حفظه، وحدّث بالقاهرة عن أبي الأسعد هبة الرحمٰن بن القشيري [سير أعلام النبلاء، 15/ 391 ـ 392؛ اليافعي، مرآة الجنان، 3/ 433].

مات يوم الأربعاء الثاني عشر ذي القعدة سنة 587 هـ ودفن في قبّة مفردة تحت رجلي الإمام الشافعي بالمدرسة المذكورة [ابن خلكان، وفيات الأعيان، 4/ 239؛ الذهبي، العبر، 3/ 95؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، 5/ 99؛ اليافعي، مرآة الجنان، 3/ 433].

آثاره

صنّف «تحقيق المحيط في شرح الوسيط» وهو كتاب كبير الحجم يقع في ستّة عشر مجلّدا،

وقفه على المدرسة المجاورة لضريح الإمام محمّد بن إدريس الشافعي.

المصادر والمراجع

● السّمعاني، الأنساب، تح. عبد الله عمر البارودي، دار الجنان، بيروت ـ لبنان، 1408هـ/ 1987م، ط1، 2/ 321؛ ● ياقوت، معجم البلدان، تح. فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1410هـ/ 1990م، ط1، 2/ 394؛ ● ابن الأثير، اللباب في تهذيب الأنساب، دار صادر، بيروت 1400هـ/ 1980م، 1/ 420؛ ● ابن خلّكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان، تح. د. إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، 4/ 239 ـ 240؛ ● الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تح. د.بشّار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، 1424هـ/ 2003م، ط1، 12/ 841 ـ 843؛ ● م.س، سير أعلام النبلاء، تح. محب الدّين أبي سعيد عمر بن غامة العمروي، دار الفكر للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1417هـ/ 1997م، ط1، 15/ 391 ـ 392؛ ● م.س، العبر في خبر من غبر، تح. فؤاد سيّد، أمين المخطوطات بدار الكتب المصرية، الكويت 1380هـ/ 1961م، 3/ 95؛ ● الصّفدي، الوافي بالوفيات، تح. ديدرينغ، دار النشر فرانز شتايز بفيسبادن، 1401هـ/ 1981م، 5/ 99 ـ 100؛ ● اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، دائرة المعارف النامية، الكائنة بمدينة حيدر آبار الدّكن، 1338هـ/ 1919م، ط1، 3/ 433 ـ 434؛ ● السّبكي، طبقات الشافعية الكبرى، تح. عبد الفتّاح محمّد الحلو ومحمود محمّد الطّناحي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، ط1، 7/ 14؛ ● الإسنوي، طبقات الشافعية، تح. عبد الله الجبوري، مطبعة الإرشاد، بغداد 1390هـ/ 1970م، ط1، 1/ 493؛ ● ابن كثير، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت 1385هـ/ 1966م، ط1، 12/ 347؛ ● ابن الملقّن، طبقات الأولياء، تح. نور الدين شريبة، مطبعة دار التأليف، 1393هـ/ 1973م، ط1، 471؛ ● ابن تغري بردي، النّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة 1352هـ/ 1933م، 6/ 115 ـ 116؛ ● السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربيّة، 1387هـ/ 1967م، ط1، 1/ 406 ـ 407؛ ● م.س، لبّ اللّباب في تحرير الأنساب، تح. محمّد أحمد عبد العزيز وأشرف أحمد عبد العزيز، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، 1/ 272؛ ● ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح. محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 4/ 288؛ ● البغدادي، إسماعيل، هدية العارفين، أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، استنبول 1955م، 2/ 74؛ ● طاش كبري زاده،

مفتاح السعادة، 2/ 316 ـ 317؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، 1399هـ/ 1979م، ط4، 7/ 120؛ ● كحّالة، معجم المؤلفين تراجم مصنّفي الكتب العربية، مكتبة المثنى، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 9/ 243.

د. برهان النقّاتي

جامعة الزيتونة ـ تونس

ولد ختّي، محمد السالك

(ق 13هـ/19م)

ولد ختّي هو محمد السالك لكنّه اشتهر بالاسم الأوّل، وهو عَلَمٌ من أعلام مدينة تمبكتو في القرن التاسع عشر الميلادي.

وحسب الدراسات التي اعتمدنا عليها فإنّ أصله راجع إلى قبيلة مغشرن، إحدى قبائل الرُّعاة الملثمين الذي أسسوا مدينة تمبكتو في أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي.

فقد كان هؤلاء الملثمون يتجوّلون في الصحراء باحثين عن الكلأ والعشب لمواشيهم، فكانوا يُصيّفون على ضفاف نهر النيجر في موقع هذه المدينة، ثم يرحلون في الخريف إلى ديارهم في أروان.

واستمرّ هؤلاء الملثمون على هذه الحال حتّى أنشأوا مدينة تمبكتو التي أصبحت فيما بعد سوقا هامة يؤمّها التجار والقوافل [السعدي، تاريخ السودان، 20].

وسرعان ما اقتفى العلماء والطلبة أثر التُّجّار فكانت تمبكتو لذلك مركزًا للحياة الفكرية والثقافية، اجتمع فيها العلماء من أجناس شتّى، ووفد عليها علماء وفقهاء من المغرب الأقصى والأندلس بعد سقوط الدولة الإسلامية. ومن مصر والحجاز، أثناء الزيارات التي كان يقوم بها ملوك المنطقة قصد الحجّ. وكذلك كافة بلاد غرب إفريقيا، حيث وجد العلماء والطلبة التشجيع والعناية.

وبعبارة موجزة فإنّ مدينة تمبكتو كما وصفها صاحب «تاريخ السودان»: «مأوى العلماء والعابدين ومألف الأولياء والزاهدين» [السعدي، م.س، 21].

لم تشر المصادر إلى تاريخ ولادة وُلد ختّي ولا إلى تاريخ وفاته، وإنّما أشارت إلى أنه من أبناء القرن التاسع عشر الميلادي. يقول محقّق كتاب «السعادة الأبدية»، الهادي المبروك الدالي: «...لم أعثر على تاريخ لولادته ولا لوفاته إلّا أنه كان من أبناء القرن التاسع عشر الميلادي» [الأرواني، أحمد بابير، السعادة الأبدية، 150].

وبالاعتماد على قول صاحب السعادة: «..وهو (أي ولد ختي) على قيد الحياة» [الأرواني، م.س، 150]. لا شكّ أنّ عالمنا كان معاصرًا له. مع العلم أنّ صاحب السعادة من مواليد عام 1305هـ/ 1887م في قرية أروان.

نشأ محمد السالك، وُلد ختّي في وسط إسلامي علمي، وهو مدينة تمبكتو وتلقّى تكوينه الديني على علماء هذه المدينة التي كانت حاضرة العلم آنذاك والتي كانت تتربّع على أديمها جامعة سنكري منارة العلم.

ولم يكتف الرجل في سعيه لتحصيل العلوم والمعارف على ما كان في مدينة تمبكتو، بل تنقّل بين المراكز الثقافية الأخرى في المنطقة، مثل جني، وولاته، وغاو، وذلك ليوسّع دائرة معرفته بالعلوم الأساسية. كما رحل إلى المشرق قصد الحج والتعليم على غرار علماء المنطقة الذين كانوا يسافرون إلى المشرق العربي لمتابعة الدروس اللاتينية، وخاصة دروس الإمام السيوطي [بلّو، محمد، إنفاق الميسور، 236؛ الأرواني، أحمد بابير، م.س، 150].

وكانت هذه الظاهرة مشهورة في المنطقة إلى وقت قريب جدًا. فكان أحدهم يخرج تاركا عائلته لنية الحج أو لطلب العلم.

ولولا هذه العزيمة القوية لهؤلاء الناس وتمسّكهم بدينهم لما كان طلبة العلم يغادرون بلادهم إلى المغرب الأقصى والمشرق العربي لطلب العلم، مع ما في تلك الرحلة من مشقّة وصعوبة نتيجة لطول المسافة ووعرة الطرق وخطورتها [زبادية، عبد القادر، مملكة سنغاي في عهد الأسقيين، 76؛ أحمد مهدي رزق الله، حركة التجارة والإسلام والتعليم الإسلامي في غربي إفريقية، 559].

تمكّن وُلد ختي خلال جولته العلمية أن يعمق معرفته الدينية واللغوية فكان أستاذًا في النحو، والصرف، والعروض، والتاريخ الإسلامي.

هذا بالإضافة إلى العلوم الشرعية مثل علوم القرآن، وعلوم الحديث، والفقه، والمقاصد.

كعادة كتب التراجم وصفت الدراسات التي اعتمدنا عليها، محمد السالك بعدّة صفاتٍ وألقاب علمية، منها أنه كان عالمًا تقيًّا، ورعًا، صوفيًا، زاهدًا، خالص العمل لله؛ وأنه انشغل بطلب العلم وتدريسه حتّى تملك قدرة لغوية وفكرية على الإبداع. غير أنّ المصادر لم تسعفنا بجلّ مؤلفاته التي «تزيد على أكثر من عشرين كتابا» على حدّ قول الأرواني، أحمد بابير [الأرواني، م.س، 150].

آثاره

مؤلفاته التي وقفنا على أسمائها هي:

1 ـ شرح على منظومة العروض؛ 2 ـ نظم أقرب المسالك الذي شرحه في جزئين؛ 3 ـ منظومة للآجرومية في النحو، لأبي عبد الله محمد الفاسي المشهور بابن أجروم (ت 723هـ/ 1323م)؛ 4 ـ كتاب في الفقه.

ولم يكتف صاحبنا بالتأليف في مجال العلوم الشرعية واللغوية التي كانت تعتبر وسيلة لفهم مقاصد الإسلام وإنما اهتمّ كذلك بعلم التاريخ، وألّف في هذا المجال كتابا سمّاه «إزالة الريب والتفريط».

وحسب رواية صاحب السعادة الأبدية فإنّ هذا الكتاب الأخير لا يزال مخطوطا [الأرواني، م.س، 150]، شأنه شأن كثير من إنتاج مفكّري المنطقة الذي يحتاج إلى دراسات علمية لإنقاذ هذا التراث الإسلامي من الضياع.

المصادر والمراجع

● رزق الله، أحمد، مهدي، حركة التجارة والإسلام والتعليم الإسلامي في غربي إفريقية قبل الاستعمار وآثارها الحضارية، الطبعة الأولى، الرياض، 1419هـ/ 1998م؛ ● الأرواني، مولاي أحمد بابير، السعادة الأبدية في التعريف بعلماء تنبكت البهية، دراسة وتح. الهادي المبروك الدالي، وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة، الطبعة الأولى، بنغازي 2001؛ ● بلو، محمد، إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، تح. مجموعة من الأساتذة المصريين: علي عبد المنعم، ومحمد المجد، وطه محمد الساكت، وحافظ محمد الليثي، وعبد الرحمٰن فرح الجندي، القاهرة د.ت؛ ● زبادية، عبد القادر، مملكة سنغاي في عهد الأسقيين، الجزائر، 1971؛ ● السعدي، عبد الرحمٰن، تاريخ السودان، تح. هوداس، باريس، 1964.

د. سعيد زونغو
بوركينا فاصو - إفريقيا

الخجندي، أبو بكر محمد بن عبد اللطيف

(ت 552هـ/ 1157م)

هو أبو بكر فخر الدين، وقيل صدر الدين، محمد بن عبد اللطيف بن ثابت بن الحسن المهلبي الأزدي الخجندي البغدادي الشافعي الطبيب. ورد بغداد ودرس على شيوخها وتولى التدريس في المدرسة النظامية ووعظ بها وبجامع القصر. وكان صدرَ العراق في زمانه علما ومهابة، يمشي أو يجلس للدرس وخلفه السيوف وهو أشبه بالوزراء منه بالعلماء. خرج من بغداد إلى أصبهان سنة 552هـ/ 1157م، فنزل بقرية بين همدان والكرخ ونام وهو في عافية. وفي الصباح وجد ميتا، فحمل إلى أصبهان حيث دفن سنة 552هـ/ 1157م.

كان الخجندي طبيبا بارعا من العلماء، اختصر القانون في الطب للشيخ الرئيس ابن سينا المتوفى سنة 428هـ/ 1036م، وسماه «تنقيح المكنون من مباحث القانون». ثم صنف كتابه «التلويح إلى أسرار التنقيح» اختصر فيه وأضاف ونقح على القانون.

لقد أخذ علوم الطب ممن سبقه، وأضاف

عليها وأثر في من جاء بعده. وقد شرحت بعض كتبه، ونقلت آراؤه في بعض جوانب الطب.

آثاره

1 ـ تشريح الأبدان، هو مختصر مهم في علم التشريح، استفاد المؤلف عند وضعه من بعض آراء جالينوس وآراء الأولين، وأهمل بعضها الآخر. وجعل كتابه في مقالتين: في تشريح الأعضاء البسيطة، وتشريح الأعضاء المركبة؛ وفصل كل واحدة منها تفصيلا واضحا ودقيقا، فاق فيه الكثير ممَّن سبقه من الأطباء. وكتب للمقالتين مقدمة موجزة في قواعد التشريح، وصف فيها أجزاء البدن وتركيبها وطبيعتها وحركتها وارتباطها بعضها ببعض. أما المقالتان فهما: الأولى: في كليات تشريح الأعضاء البسيطة وأحكامها وجعلها في عدة فصول، وضمنها تخطيطات توضيحية بسيطة. ومن بين ما تناوله المؤلف في هذه المقالة كليات تشريح العظام كالأسنان والفقرات بأنواعها والأضلاع والمفاصل وبقية عظام الجسم وكليات أحكام تشريح العضل بأنواعها المختلفة، وعدد العضلات في كل جزء من جسم الإنسان، وارتباطها ببعضها وببقية أعضاء الجسم، وكليات أحكام تشريح العصب وأنواعها، وتشريح الشرايين والأوردة. وقد أشار المؤلف في هذا الموضع إلى موضوع انتقال الدم في الرئة، وهي إشارة دقيقة وفي غاية الأهمية قد تكون أول التفاتة للدورة الدموية الصغرى التي ذكرها ابن النفيس المتوفى سنة 687هـ/ 1288م حيث قال الخجندي في فصل تشريح الشريان الوريدي ما نصه: «إن أول ما ينبت من البطن الأيسر عرقان، أحدهما صغير ذو طبقة واحدة، ولذلك يسمى الشريان الوريدي وهو يتشعّب في الرئة شعبا كثيرة لاستنشاق النسيم، وإيصال الدم الغادي بها. والثاني عظيم يسمى أورطي، وهو حين يطلع تتفرّع منه شعبتان: إحداهما، وأعني الصغرى، تتفرق في التجويف الأيمن. والثانية تستدير حول القلب، وتتفرق في أجزائه. وما يبقى ينقسم قسمين: أحدهما يصعد، والآخر ينحدر...».

إن ما أورده الخجندي في هذه المقالة يحتاج إلى دراسة المختصين للوقوف على دوره في بداية اكتشاف الدورة الدموية الصغرى التي أكملها ابن النفيس، وكان لهما قصب السبق في اكتشافها. المقالة الثانية: في تشريح الأعضاء المركّبة، وهي على فصول، تناول فيها المؤلف تشريح الدماغ والعين والقلب والكبد والطحال والمعدة والمثانة والرئة والنخاع والرحم وأغشية الجنين؛ 2 ـ التلويح إلى أسرار التنقيح، وهو مختصر على كتابه تنقيح المكنون إلى مباحث القانون لابن سينا، ضمنه فوائد وإضافات وزيادات على التنقيح. ومنها فوائد غريبة لم يذكرها غيره، وقد رتب كتابه على خمسة فنون هي: الفن الأول: في تعريف الطب وموضوعاته والأمور الطبية. الفن الثاني: في الأعراض والأسباب والعلامات. الفن الثالث: في حفظ الصحة. الفن الرابع: في وجوه المعالجات بحسب الأمراض. الفن الخامس: في الحميات والبحارين وتقدمة المعرفة.

وهذا الكتاب شرحه لطف الله المصري

الطبيب. وفي ديباجة شرحه ذكر أن الكتاب مع صغر حجمه رأى فيه مسائل لم يجدها في أغلب المختصرات الأخرى، بل ولا في أكثر المطوّلات. ثم قال: «فشرحته شرحا شافيا بإيضاح بعض مشكلاته وسميته بالتصريح في شرح التوضيح. وقد رتبته في خمسة فنون على ترتيب الأصل»؛ 3 ـ مختصر في صناعة الطب، تناول فيه المؤلف الأدوية والعلاجات بأنواعها، وكيفية تركيبها واستخراجها، واستخراج طبائع المركبات، والأسباب الداعية إلى التركيب، والقوانين الكلية والجزئية للأغذية، والاستفراغات. وقد رتبه المؤلف على قسمين هما: القسم الأول: في أصول تركيب الأدوية، واستخراج طبائع المركبات أو الأسباب الداعية للتركيب، وتحقيق الأوزان والمكاييل وما يناسبها. القسم الثاني: في دستورات مُنْجِحة في صناعة العلاج والقوانين الكلية والجزئية للتغذية والاستفراغ؛ 4 ـ رسالة في النبض، وهي رسالة، مع صغرها، مهمة في مضمونها. بدأها المؤلف بتعريف النبض فقال: «إنه حركة القلب والشرايين الغريزية التي فيها الانقباض والانبساط». ثم قال: «لما كان النبض حركة فله محرك ومتحرك، فالمحرك: هو الفاعلية للنبض، وهذه القوة ضرورية فيها، إما أن تكون على طبيعتها فتكون قوية، أو معتدلة، أو خارجة عن طبيعتها فتكون ضعيفة». وهكذا يستمر المؤلف في تناول هذا الموضوع المهم في علم الطب في هذه الرسالة المختصرة.

المصادر والمراجع

● الوافي بالوفيات، 3/ 284؛ ● شذرات الذهب، 4/ 163؛ ● هدية العارفين، 2/ 92؛ ● معجم المؤلفين، 10/ 192؛ ● الأعلام، 6/ 217.

د. أسامة ناصر نقشبندي
دار المخطوطات ـ بغداد ـ العراق

الخُجَـنـدي، أبو محمود حامد بن الخضر

(ت 391هـ/1000م)

هو أبو محمود حامد بن الخضر الخُجَندي، رياضي وفلكي اشتهر في القرن الرّابع الهجري، لا تتوفّر معلومات كافية عنه، سوى أنّه كان من سكّان مدينة الري (جنوب شرق طهران حاليّا).

عمل الخُجَندي في مرصد الري الّذي بناه فخر الدولة البويهي، ولازم فيه عددا من العلماء الّذين اشتهروا فيما بعد، منهم أبو نصر بن عراق، وأبو الوفاء البوزجاني، والبيروني. وقد دارت في ذلك الوقت مناقشات ضمن المجمّع العلمي الصّغير لمدينة الري، حول إحدى المبرهنات. وقد سمّى الخُجَندي هذه

المبرهنة «قانون الفلك» وهو ما تعرف حاليّا باسم قاعدة المقادير الأربعة، وتخاصم مع أبي الوفاء حول الأسبقيّة في اكتشافها. ولقد قدّم الخُجَندي إلى البيروني كتابا حول رصد الكواكب أثبت في بدايته هذه المبرهنة، واستخدمها بعد ذلك في مختلف أقسام الكتاب. وقد اقتبس كوشيار بن لبان وهو عالم فلكي آخر من مدينة الري، في أحد مؤلّفاته ما كتبه الخُجَندي عن المبرهنة وعدّله وسمّى المبرهنة «الشّكل المغني» الّذي عرفت به فيما بعد. وقد قام بإصلاح أعمال الخُجَندي فيما بعد أبو النصر بن عراق، وأبو الوفاء البوزجاني.

ولقد ازدهر اسم الخُجَندي في الأوساط العلميّة، لابتكاره لآلة رصد أطلق عليها اسم «السدس الفخري»، وهي آلة لقياس زوايا ارتفاع الأجرام السماويّة، وذلك نسبة إلى فخر الدّولة الوزير البويهي. وقد قاس الخُجَندي بآلة السدس الفخري مستوى فلك البروج لعام 384هـ/ 994م. وقد ارتبط اسم الخُجَندي بالسدسية الفخرية الّتي بنيت في مدينة الري تحت رعاية السلطان البويهي فخر الدّولة الّذي أعانه ماليّا، وكانت مدرجة بدقائق الأقواس وذات علوّ يزيد على عشرين ذراعا. ولقد وصف البيروني هذه الآلة بالجميلة الّتي سنحت له الفرصة بتفحّصها مع أبي محمود.

وترتكز السدسية على مبدأ الغرفة السّوداء. وهي غرفة مظلمة ذات فتحة صغيرة في السّقف. وكان المبنى موجّها من الشّمال إلى الجنوب بمحاذاة زوال المكان. وكان مؤلّفا من حائطين متوازيين، تفصل بينهما 3، 5 أمتار، ويبلغ طول كلّ منهما 10 أمتار، مع علوّ يناهز 20 مترا. ولا يدخل فيه النّور إلّا من ثقب في الطّرف الجنوبي من سقفه. وقد حفرت أرضه جزئيّا بين الحائطين بحيث يمكن رسم سدسية مركزها في فتحة السّقف وشعاعها يبلغ 20 مترا. وقد غطّي داخل قوس السدسية، حيث تتكوّن صورة الشمس عندما توجد على خطّ الطّول، بصفائح من النّحاس، وكانت التّداريج المرسومة على القوس بقياس ارتفاع الشمس على الأفق أو مسافتها إلى سمت الرأس. وقد بلغ طول كلّ درجة 35سم تقريبا. وهي مقسومة إلى 360 قسما يمثّل كلّ قسم منها 10 ثوان. وتشكّل صورة الشمس عند مرورها بخطّ الزّوال دائرة يبلغ قطرها 18سم.

وبعد تحديد مركز هذه الدّائرة تتمّ قراءة دقيقة لقيمة زاوية على الغلاف النّحاسي. وقد قاس الخُجَندي ميل فلك البروج فوجده مساويا لـ 19، 32، 23 درجة، وقاس خطّ عرض الري فوجده مساويا لـ 39، 34، 35 درجة. وقد لقي الاسطرلاب الخُجَندي تطويرا فيما بعد على أيدي راصدين مهرة.

ويشتهر الخُجَندي كذلك بأنّه كان واحدا من الرياضيّين الّذين توصّلوا إلى حلول للمعادلات التّكعيبيّة. فيقول جوان فيرنيه في كتاب «تراث الإسلام» إنّ الخُجَندي: «قد سبق إلى اكتشاف حالة خاصّة للنّظريّة القائلة: إنّ مجموع عددين مكعّبين لا يكون عددا مكعّبا، وهي نظريّة العالم الرّياضي الفرنسي بيير دي فرما». بينما يشير رشدي راشد: أنّ الخُجَندي قد حاول برهان حالة «لا يجتمع مع عددين مكعّبين عدد مكعب»، إلّا أنّ الخازن

قد برهن على نقصها، وحاول أيضا أن يبرهن على أنّه «لا يمكن أن يجتمع من عددين مكعّبين عدد مكعّب، كما قد يمكن أن يجتمع من عددين مربّعين مربّع. ولا ينقسم عدد مكعّب إلى عددين مكعّبين، كما قد ينقسم عدد مربّع إلى عددين مربّعين». وقد شغلت هذه المسألة علماء الرياضيّات العرب على مدى قرون، ولم تحلّ إلّا على يدي عالم الرياضيّات السُّويسري أولير (1707 ـ 1783م).

آثاره

ترك الخُجَندي عددا من المؤلّفات لم يصلنا منها شيء ومنها:

1 ـ كتاب الآلات الشاملة في الفلك؛
2 ـ رسالة في تصحيح الميل وعرض البلد.

المصادر والمراجع

● جوان فيرنيه، الرياضيّات والفلك والبصريّات، تراث الإسلام، تصنيف جوزيف شاختو كليفورد بوزورث، ترجمة حسين مؤنس، وإحسان صدقي العمد، ومراجعة فؤاد زكريا، ج 2 (سلسلة عالم المعرفة، العدد 234)، 1998م؛

● ريجيس مورلون، مقدّمة في علم الفلك، موسوعة تاريخ العلوم العربيّة، ج 1 (علم الفلك النظري والتطبيقي)، رشدي راشد، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، 1997م.

د. هاني محيي الدين عطيّة
جامعة القاهرة ـ مصر

ابن خدادة، أبو عمر خليل بن عمر

(كان حيًا 1161هـ/1748م)

يسميه مؤرخو الأدب الموصليون: الشيخ خليل خدادة، أو الحاج خليل بن خداده. إلا أني رأيت صورة للصفحة الأخيرة من كتاب «الحصن الحصين» لابن الجزري (ت 833هـ/ 1429م) بخط خليل الكاتب جاء اسمه: «قد كمل هذا الحصن الحصين... على يد... الراجي عفو مولاه الجزيل ابن المرحوم عمر خدادة الموصلي الحاج خليل...» ـ وخدادة لفظ فارسي مستعمل في التركية أيضاً، بمعنى: عطاء الله. إحسان إلهي [ش. سامي، قاموس تركي، 1/ 573].

هو أبو عمر الموصلي: كاتب، شاعر، خطاط. أخذ عن شيوخ بلده، وبرع في اللغة العربية، وصار كاتباً ماهراً فصيحاً. ونظم الشعر. وشهرته في الخط أكثر منها في النثر

والنظم. أجاد، بالأخص، في خطوط: الثلث والريحاني والنسخ. وكان خطه مضرب المثل في الجودة والحسن والنفاسة.

وهو أحد شعراء الموصل الذين تغنوا بثباتها المقاتل بوجه الحصار الفارسي بقيادة نادرشاه سنة 1156هـ/ 1743م. وممن مدح القائد العسكري والسياسي للموصل: واليها حسين باشا الجليلي (ت 1171هـ).

كان لأبي عمر علاقات ثقافية مع أدباء عصره، فقد مدح الشيخ عبد الله بن أحمد المدرس الرَّبَتكي الموصلي (ت 1159هـ/ 1746م). وكانت له مراسلات مع سميِّه وصديقه خليل بن عليٍ البصير (ت 1176هـ/ 1762م). وكان صديقاً لمحمد بن مصطفى الغلامي (ت 1186هـ/ 1772م) يعرض عليه ما ينظم ليسمع نقده الأدبي.

سافر إلى الهند سنة 1161هـ وانقطعت أخباره عن أبناء بلده، ولم يستطيعوا التثبت من تاريخ وفاته، وينفرد المرادي صاحب «سلك الدرر» بالقول إنه توفي سنة 1163 بالهند.

قال يمدح حسين الجليلي لمواقفه في حصار نادرشاه:

حسين اسم حسنٌ فِعله
مستحسَنُ الراي بأمرٍ أهمْ

قام لنا في حسْن تدبيره
فارهَبَ الخصم بأعلى الهممْ

....
....

يا أيها الشهم الوزيرُ الذي
حفَّ بإقبال ونصْر أتمْ

هنيتَ بالسعد السَّعيد الذي
وحُزْتَ به فخر علو الهممْ

وقال يمدح عبد الله المدرس بقصيدة محشوة بالغزل. وخلص إلى المدح في آخر ثلاثة أبيات:

إنْ لم تَجُدْ بوصالٍ مِلْت عنك إلى
شيخٍ جليل بُسوق الشرع ميزانِ

ما كنتُ في شدة إلا وانجِدني
ولا اعترانِي البَلاَ إلا ونجُاني

صدرُ الشريعة كشافُ الرموز وقد
حازَ الدقائقَ معْ توضيحِ تبيانِ

وكتب إلى صديقه خليل البصيري:

لا تحسَبوا أنَّ البِعادَ مكدِّر
صفوَ الخليل عن الخليل وأُنسِهِ

لكنْ حوادثُ في الزمان تراكمتْ
فالمرءُ فيها قد سهَا عن نفسِهِ

يبدو أن مؤرخي الأدب شغلوا بحسن خط خليل الكاتب ووصفه بأنه "ياقوت زمانه وابن مقلة أوانه» فأعرضوا عن نقد أدبه. فهذا عثمان العمري (ت 1184هـ) يقول في «الروض النضر»: «وصلَ من النظم إلى منتهاه، وتصرف في القريض بين سماكه وسهاه». ويقول الغلامي (ت 1186هـ) في «شمامة العنبر» بعد أن يذكر عرض الشاعر لقصائده عليه ليقول فيها رأيه: «فرأيت له كل قصيدة كالليلة النابغية طويلة، بعيدة مهوى القرط تختال في ثوب الجمال جميلة...». ويقول محمد أمين العمري (ت 1203هـ) في «منهل الأولياء»: «...مع أدب فائق وظرف رائق، ونظر حاذق... وإنشاءات غريبة أساليبها عجيبة». ويقول المرادي (ت 1206هـ) في

«سلك الدرر»: «كان أديباً ماهراً، نبيلاً حاذقاً، وله الفصاحة والنجابة».
وهكذا نجد أن هذه «النقود» الأدبية ليست سوى لغوٍ فارغٍ، يمكن أن يقال في حق أي شاعر.

■ آثاره

لم تُشر المصادر إلى ديوان للشاعر. ويظهر أنه كان مقلاً. وجاءت أشعاره في «الروض النضر» و«شمامة العنبر» و«منهل الأولياء».

وفي الدار العراقية للمخطوطات نسخة من كتاب «الحصن الحصين من كلام سيد المرسلين» لشمس الدين بن الجزري، بخط خليل بن عمر خدادة تمت «في شهر جمادى الآخر - كذا - سنة 1151». ورقم المخطوط 9435/ 1.

■ المصادر والمراجع

● الديوه جي، سعيد، تاريخ الموصل، الموصل 2001، 2/ 235؛ ● العمري، عثمان بن علي بن مراد، الروض النضر، تح. د. سليم النعيمي، بغداد 1975، 2/ 350 - 353؛ ● المرادي، سلك الدرر، أوفست مكتبة المثنى، بغداد عن ط. بولاق 1301هـ، 2/ 105 - 106؛ ● الغلامي، محمد بن مصطفى، شمّامة العنبر، تح. د. سليم النعيمي، بغداد 1977، ص330 - 334؛ ● الغلامي، محمد رؤوف، العَلَم السامي في ترجمة الشيخ محمد الغلامي، الموصل 1942، ص282 - 283؛ ● العمري، محمد أمين بن خير الله الخطيب، منهل الأولياء، تح. سعيد الديوه جي، الموصل 1967، 1/ 301 - 302؛ ● موسوعة الموصل الحضارية، جامعة الموصل 1992، 4/ 354 - 355؛ ● الجلبي، تغريد لقمان عبد الله، شعر حصار الموصل إبان القرن الثاني عشر الهجري 1156هـ/ 1743م، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الموصل 2002، ص27 - 28؛ ● الجلبي، بسام إدريس، موسوعة أعلام الموصل، ط. على الكومبيوتر؛ ● م.س، معجم المؤلفين الموصليين، مخطوط.

بسام إدريس الجلبي
الموصل - العراق

■ الخدري، أبو سعيد سعد بن مالك بن سنان

(10ق هـ/612م - 74هـ/693م)

هو سعد بن مالك بن سنان بن عُبَيْد بن ثعلبة، بن عبيد بن الأبْجَر، وهو خُدْرة بن عوف بن الحارث بن الخزرج الأكبر بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر، الصحابي، المدني، ابن الصحابي [الرياض المستطابة في جملة ما روي في الصحيحين

للصحابة، 100 مكتبة المعارف، بيروت ط. 3، 1983].

اشتهر سعد بن مالك بكنيته «أبي سعيد» وذكر ابن مَنْجَويه له كنية أخرى، فقال: هو أبو مالك، ولم يتابع على هذه الكنية [رجال صحيح مسلم، ص 232].

ولد أبو سعيد الخدري في المدينة المنورة، ولم تشر المصادر إلى سنة ولادته، ولكن أخباره قد تكون دلالة على سنة ولادته بشكل تقريبي، فقد أوردت المصادر أنه عُرِضَ على النبي يوم موقعة أحد ـ (3هـ) ـ وهو ابن ثلاث عشرة سنة، ويقول الذهبي في سيره: عن عبد الرحمٰن بن أبي سعيد عن أبيه قال: «عُرِضْتُ يوم أحد على النبي، وأنا ابن ثلاث عشرة سنة، فجعل أبي يأخذ بيدي ويقول: يا رسول الله: إنه عَبْل (ضخم) العظام، وجعل النبي يُصَعِّد فيَّ النظر ويصوّبه، ثم قال: ردّه، فردّني» [سيرة أعلام النبلاء، 3/ 170].

وقال ابن عساكر: «خرج أبو سعيد مع النبي في غزوة بني المصطلق، وعمره يومئذ خمسة عشر عاماً» [تاريخ دمشق، 20/ 386].

ويتضح مما ذكر آنفاً أن ولادته كانت في السنة العاشرة قبل الهجرة تقريباً، وأنه أسلم في سن مبكرة قبل الثالثة عشرة من عمره، فهو من السابقين إلى الإسلام.

أحب النبي حباً شديداً، فلما منعه صغر سنه من المشاركة في موقعة أُحُد، خرج مع أقرانه لاستقبال الجيش بعد عودتهم من المعركة، قال أبو سعيد: «فخرجنا نتلقى رسول الله حين أقبل من أُحُد ببطن قُبَاء، فنظر إليَّ فقال: سعد بن مالك؟ فقلت: نعم، بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فدنوت منه، وقَبّلت ركبته، فقال: آجرك الله في أبيك، وكان قتل يومئذ شهيداً» [النجوم الزاهرة، 1/ 247].

وأولى غزواته مع رسول الله ﷺ «موقعة الخندق» (5هـ) كما قال بن عبد البر في الاستيعاب قال: «وأول مشاهده الخندق، ثم غزا مع رسول الله اثنتي عشرة غزوة [تهذيب الكمال، 10/ 295]. وروى سعيد المَقْبَري عن عبد الرحمٰن بن أبي سعيد الخدري، عن أبيه قال: «حبسنا يوم الخندق عن الظهر والعصر، والمغرب والعشاء حتى كفينا وذلك قوله تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: 25]، فقال رسول الله [والحديث أخرجه ابن كثير في البداية والنهاية 4/ 112]: فأمر بلالاً فأقام العشاء فصلاها كما كان يصليها قبل ذلك ثم أقام فصلى العصر كما كان يصليها قبل ذلك ثم أقام المغرب فصلاها كما كان يصليها قبل ذلك وذلك قبل أن ينزل ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ [البقرة: 239]. ثم غزا مع النبي غزوة بني المصطلق (6هـ). قال مُحَيْرِيز: «دخلت المسجد فرأيت أبا سعيد الخدري فجلست إليه فسألته عن العزل فقال أبو سعيد: خرجنا مع رسول الله في غزوة بني المصطلق فأصبنا سبياً من سبي العرب فاشتهينا النساء واشتدت علينا العزبة وأحببنا العزل فأردنا أن نعزل، وقلنا: نعزل ورسول الله بين أظهرنا قبل أن نسأله فسألناه ذلك فقال: ما عليكم أن لا تفعلوا ما من نسمة كائنة إلى يوم القيامة إلا وهي كائنة» [والحديث في صحيح البخاري رقم الحديث 3907، كتاب المغازي، باب غزوة بني المصطلق].

ثم شارك مع النبي في فتح مكة وقد تحدث عن ذلك عندما سئل عن الصيام في السفر قال: «لما بلغ النبي عام الفتح مر الظهران فآذننا بلقاء العدو فأمرنا أن نفطر فأفطرنا أجمعون» [البداية والنهاية، 7/ 280].

وكان أبو سعيد الخدري مع من خرج مع علي ﷺ إلى اليمن، سنة عشر قبل حجة الوداع، قال أبو سعيد: «فكنت ممن خرج معه - أي علي - إلى اليمن». والحديث طويل في البداية والنهاية [7/ 101].

ولم يكتف أبو سعيد بمشاركة النبي في غزواته، بل شاركه في أعمال كثيرة أخرى فقد كان معه في بناء المسجد النبوي، قال عكرمة: قال لي ابن عباس ولابنه علي: «انطلقا إلى أبي سعيد فاسمعا من حديثه فانطلقنا فإذا هو في حائط يصلحه فأخذ رداءه فاحتبى ثم أنشأ يحدثنا حتى أتى على ذكر المسجد فقال: كنا نحمل لبنة وعمار لبنتين فرآه النبي فينفض التراب عنه ويقول: ويح عمار تقتله الفئة الباغية، يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار. قال عمار: أعوذ بالله من الفتن» [والحديث في صحيح البخاري، كتاب المساجد، باب التعاون في بناء المسجد، رقم الحديث 436].

كما شارك يوم اليمامة (11هـ) وشهد خطبة عمر بالجابية (10هـ) وورد المدائن في زمن حذيفة بن اليمان وبعد ذلك مع علي لما حارب الخوارج بالنهروان، ثم قدم إلى دمشق ناصحاً لمعاوية كما سنبين في حديثنا عن جرأته. ولما حصلت الفتنة بين علي ومخالفيه، وقُتل الإمام علي، أراد الحسين أن يخرج إلى أهل الكوفة فنصحه جماعة بعدم الخروج منهم أبو سعيد فقال له: «يا أبا عبد الله إني لكم ناصح وإني عليكم مشفق وقد بلغني أنه قد كاتبك قوم من شيعتكم بالكوفة بدعوتكم إلى الخروج إليهم فلا تخرج إليهم فإني سمعت أباك يقول بالكوفة: والله لقد مللتهم وأبغضتهم وملّوني وأبغضوني وما يكون منهم وفاء قط، فمن فاز بهم فاز بالسهم الأخيب، والله ما لهم نيات ولا عزم على أمر ولا صبر على السيف». ثم دعاه إلى وحدة الصف وعدم الخروج على الإمام فقال: «غلبني الحسين على الخروج وقلت له: اتق الله في نفسك والزم بيتك ولا تخرج على إمامك» [البداية والنهاية، 8/ 153؛ أعلام الحفاظ [3/ 90].

وبعد موقعة الحرة لقي أبو سعيد الكثير من المتاعب فقد نقل ابن عساكر في تاريخه عن هند بنت سعيد بن أبي سعيد الخدري عن أبيها، وعن أبي سعيد الخدري قال: «فنتفوا لحيتي وضربوني ضربات ثم عهدوا إلى بيتي فجعلوا ينقلون ما خف لهم من المتاع، حتى إنهم يعمدون إلى الوسادة أو الفراش فينفضون صوفها ويأخذون الظراف حتى لقد رأيت بعضهم أخذ زوج حمام كان في البيت ثم خرجوا» [تاريخ ابن عساكر، 20/ 395].

ونقل أبو عقيل الدروقي قال: «سمعت أبا نضرة يحدث، قال: دخل أبو سعيد الخدري يوم الحرة غاراً فدخل عليه فيه رجل ثم خرج فقال لرجل من أهل الشام: أدلك على رجل تقتله؟ فلما انتهى الشامي إلى باب الغار وفي عنق أبي سعيد السيف قال لأبي سعيد: اخرج. قال: إلا أخرج، وإن تدخل أقتلك فدخل الشامي عليه فوضع أبو سعيد السيف

وقال: بؤ بإثمي وإثمك وكن من أصحاب النار، قال: أنت أبو سعيد الخدري؟ قال: نعم، قال: فاستغفر لي، غفر الله لك» [تاريخ ابن عساكر، 20/ 395؛ أعلام الحفاظ والمحدثين، ص 90].

عاش أبو سعيد الخدري مع النبي، وصاحبه فترة طويلة فحفظ عنه الكثير من السنن التي كان يفعلها وحافظ عليها بعد وفاته، وأشار إلى مخالفة من خالفها وتمسكه بها وإن تركها الناس، فمن ذلك ما رواه أن عياض بن عبد الله بن أبي سعيد الخدري قال: «كنا نخرج إذا كان فينا رسول الله زكاة الفطر عن كل صغير وكبير، حر أو مملوك، صاعاً من الطعام أو صاعاً من أقط، أو صاعاً من شعير أو صاعاً من تمر، أو صاعاً من زبيب، فلم نزل نخرجه حتى قدم علينا معاوية بن أبي سفيان حاجاً أو معتمراً فكلم الناس على المنبر فكان فيما كلم به الناس أن قال: إني أرى أن مدين من سمراء الشام تقول صاعاً من تمر، فأخذ الناس بذلك، قال أبو سعيد الخدري: فأما أنا فلا أزال أخرجه كما كنت أخرجه أبداً ما عشت» [فتح الباري، 3/ 478؛ والحديث في صحيح البخاري، أبواب صدقة الفطر، باب صدقة الفطر من زبيب، رقم الحديث 1437].

وقد عقب الحافظ ابن حجر على هذا القول بقوله: «وفي حديث أبي سعيد الخدري ما كان عليه من شدة الاتباع والتمسك بالآثار، وترك العدول إلى الاجتهاد مع النص» [فتح الباري، 3/ 478].

ومما يدلنا على تمسكه بالسنة النبوية ما رواه عياض بن عبد الله بن أبي سرح قال: «دخل أبو سعيد الخدري يوم الجمعة ومروان يخطب، فقام يصلي فجاء الحرس ليجلسوه فأبى حتى صلى! فلما أتيناه فقلنا: رحمك الله، إن كادوا ليقعوا بك فقال: ما كنت لأتركهما بعد شيء رأيته من رسول الله، ثم ذكر أن رجلاً جاء يوم الجمعة في هيئة بذة والنبي يخطب يوم الجمعة، فأمره فصلى ركعتين، والنبي يخطب» [والحديث بمعناه في صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب من جاء الإمام يخطب صلى ركعتين خفيفتين، رقم الحديث 889].

وهو الذي أنكر على مروان بن الحكم تقديمه الخطبة على الصلاة يوم العيد. قال عياض بن أبي سرح عن أبي سعيد الخدري: قال: «كان رسول الله يخرج يوم الفطر والأضحى إلى المصلى فأول شيء يبدأ به الصلاة ثم ينصرف فيقوم مقابل الناس والناس جلوس على صفوفهم، فيعظهم ويوصيهم ويأمرهم فإن كان يريد أن يقطع بعثاً قطعه، أو يأمر بشيء أمر به ثم ينصرف. قال أبو سعيد: فلم يزل الناس على ذلك حتى خرجت مع مروان وهو أمير المدينة في أضحى أو فطر فلما أتينا المصلى، إذا منبر بناه كثير بن الصلت فإذا مروان يريد أن يرتقيه قبل أن يصلي فجبذت بثوبه فجبذني، فارتفع فخطب قبل الصلاة. فقلت له: غيرتم والله، فقال يا أبا سعيد: قد ذهب ما تعلم، فقلت: ما أعلم والله خير مما لا أعلم. فقال: إن الناس لم يكونوا يجلسون لنا بعد الصلاة فجعلتها قبل الصلاة [والحديث في صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب الخروج إلى المصلى بغير منبر، رقم الحديث 913].

كما أنكر على مروان بن الحكم أيضاً عدم قيامه للجنازة عند مرورها أمامه. فقد روى سعيد المقبري عن أبيه قال: «كنا في جنازة فأخذ أبو هريرة ﷺ بيد مروان بن الحكم فجلسنا قبل أن توضع فجاء أبو سعيد ﷺ فأخذ بيد مروان فقال له: قم، فوالله لقد علم هذا أن النبي نهانا عن ذلك. فقال أبو هريرة: صدق» [والحديث في صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب من يقعد إذا قام للجنازة، رقم الحديث 1247].

كما أنكر على فتى من بني أبي معيط مروره بين يديه وهو يصلي إلى ستْر ستَره عن الناس، عملاً بسنة النبي ﷺ، فقد روى حميد بن هلال العدوي قال: حدثنا أبو صالح السمان قال: «رأيت أبا سعيد الخدري في يوم جمعة يصلي إلى شيء يستره من الناس فأراد شاب من بني أبي معيط أن يجتاز بين يديه فدفع أبو هريرة في صدره فنظر الشاب فلم يجد مساغاً إلا بين يديه، فعاد ليجتاز فدفعه أبو سعيد أشد من الأول، فنال من أبي سعيد ثم دخل على مروان فشكا إليه ما لقيه من أبي سعيد ودخل أبو سعيد خلفه على مروان فقال: ما لك ولابن أخيك يا أبا سعيد؟ قال: سمعت رسول الله يقول: «إذا صلى أحدكم إلى شيء يستره من الناس فأراد أن يجتاز بين يديه فليدفعه، فإن أبى يقاتله فإنما هو شيطان» [والحديث في صحيح البخاري، كتاب الصلاة، أبواب سترة المصلي، باب يرد المصلي من مر بين يديه، رقم الحديث 487].

لم تتحدث المصادر التي ترجمت لأبي سعيد الخدري عن صفاته الخِلقية، ولا نعلم من صفاته إلا أنه كان عَبْلَ العظام، كما وصفه أبوه، قال أبو سعيد: «عرضت يوم أحد على النبي . . . فقال: يا رسول الله إنه عَبْلُ العظام وإن كان مؤذناً». والمؤذن القصير، كما كان لأبي سعيد لحية بيضاء لا يخضب. قال أبو هارون العبدي: «كان أبو سعيد الخدري لا يخضب وكانت لحيته بيضاء خضلاء» (ناعمة) [أعلام الحفاظ والمحدثين، 3/ 77] وكان يحفي شاربه كأخي الحلق عملاً بسنة النبي. روى عثمان بن عبيد بن أبي رافع بسنده قال: «رأيت أبا سعيد يحفي شاربه كأخي الحلق» [سير أعلام النبلاء، 3/ 171].

وكان يلبس الخز، كما روي عن عبد الله بن عمر عن وهب بن كيسان قال: «رأيت أبا سعيد الخدري يلبس الخز» [سير أعلام النبلاء، 3/ 170].

ولم تبخل علينا المصادر في ذكرها لبعض الصفات الأخرى لأبي سعيد، ومما نلمحه من هذه الصفات: حبه للنبي، وقوة إيمانه وجرأته، فقد قدم أبو سعيد إلى دمشق ودخل على معاوية ونصحه وذكّره ثم قال: الحمد لله الذي أجلسني منك هذا المجلس. سمعت رسول الله يقول: «لا يمنعن أحدكم إذا رأى الحق أو علمه أن يقول به، وإنه بلغني عنك يا معاوية كذا وكذا» [الوافي بالوفيات، 15/ 148].

وفي رواية أخرى: «لا يمنعنّ أحدكم مخافة الناس أن يتكلم بالحق إذا رآه أو علمه» قال أبو سعيد: فحملني ذلك على أن ركبت إلى معاوية فملأت أذنيه ثم رجعت» [الإصابة، 3/ 65]. كما أنكر على مروان بن الحكم أشياء كما ذكرنا سابقاً. وكان أبو سعيد ممن بايع النبي على أن لا يأخذه في الله لومة

لائم. فعن سهل بن سعد عن أبيه عن جده قال: «بايعت النبي أنا وأبوك وعبادة بن الصامت، ومحمد بن مسلمة، وأبو سعيد الخدري، وسادس على أن لا تأخذنا في الله لومة لائم، فاستقال السادس فأقاله» [الإصابة، 3/ 66].

وكان أبو سعيد فقيراً معدماً ثم أغناه الله إذ توفّي والده وهو في الثالثة عشرة من عمره، وَعدّه غير واحد من أهل الصُفّة، قال ابن منجويه: «وكان معدوداً في أهل الصفة مؤثراً للفقراء ومحالفاً للصبر» [رجال الصحيحين، 1/ 158].

وقال أبو نعيم الأصفهاني: «وحاله قريب من حال أهل الصفة، وإن كان أنصاري الدار، لإيثاره التصبر، واختياره الفقر والتعفف» [حلية الأولياء، 1/ 453]. ويحدثنا أبو سعيد عن نفسه فيقول: «إن رجلاً من الأنصار كانت له حاجة فقال أهله: ائت رسول الله فاسأله فأتاه وهو يخطب ويقول: «من استعف أعفاه الله، ومن استغْنَ أغناه الله، ومن سألَنا فوجدنا له أعطيناه، فذهب ولم يسأل».

قال ابن الجوزي: «قلت: إنما أشار بهذا إلى نفسه، فهو الأنصاري الذي جرت معه هذه القصة، وقد بين ذلك في حديث آخر. قال فيه: أصبحت وليس عندنا طعام وقد ربطت حجراً من الجوع فقالت لي امرأتي: ائت رسول الله فاسأله فأتيت رسول الله وهو يخطب فأدركت من قوله: «من يستغن يغنه الله، ومن يستعفف يعفه الله»، قال: فما سألت أحداً بعده، ومازال الله يرزقنا حتى ما أعلم أهل بيت من الأنصار أكثر أموالاً منا» [صفة الصفوة، 1/ 715].

أثنى العلماء على أبي سعيد الخدري وأشاروا جميعاً إلى فضله وتقدمه ومن أقوالهم فيه ما قاله الحافظ الذهبي: «كان من علماء الصحابة ممن شهد بيعة الشجرة. روى حديثاً كثيراً وأفتى مدة» [تذكرة الحفاظ، 1/ 44]. وقال ابن القَيْسرُاني: «كان أبو سعيد الخدري من مشهوري الصحابة وفضلائهم المكثرين من الرواية» [الجمع بين رجال الصحيحين، 1/ 58]. وأشار ابن عبد البر في الاستيعاب إلى حفظه لسنن كثيرة عن النبي فقال: «كان ممن حفظ من رسول الله سنناً كثيرة. وروى عنه علماً جماً، وكان من نجباء الأنصار وعلمائهم وفضلائهم» [الاستيعاب، 2/ 602]. وهو الذي شهد لأبي موسى الأشعري عند عمر في حديث الاستئذان [الوافي بالوفيات، 15/ 148].

أخذ أبو سعيد عن النبي علماً كثيراً وعمل على نشره بعد وفاة النبي فاجتمع عليه الناس وحفظوا عنه حديث رسول الله. من ذلك ما رواه أبو نضرة العبدي قال: «كان أبو سعيد يعلمنا القرآن خمس آيات بالغداة وخمساً بالعشي» [تاريخ ابن عساكر، 20/ 395]. كما كان يكره كتابة الحديث، ويفضل أن يحفظ كما حفظ في عهد النبي، فقد روى أبو نَضْرة قال: «قلنا لأبي سعيد: إنك تحدثنا بأحاديث معجبة، وإنما نخاف أن نزيد أو ننقص فلو كتبناها قال: لن تكتبوه ولن تجعلوه قرآناً، ولكن احفظوا عنا كما حفظنا» [أعلام الحفاظ، ص 92]. وكان يفسح المجلس لمن أراد الحديث وحفظه ويوصي به خيراً، عملاً بوصية النبي، فقد نقل أبو نضرة عن أبي سعيد الخدري ﷺ، أنه قال: «كان يقول

لهؤلاء: مرحباً بوصية رسول الله، كان رسول الله يوصينا بكم» [والحديث أخرجه الترمذي في السنن، باب العلم، باب ما جاء في الاستيصاء بمن طلب العلم، رقم الحديث 2652 ـ 2653]، وفي حديث آخر أنه كان يقول: «إذا أتاه هؤلاء الأحداث قال: مرحباً بوصية رسول الله، أمرنا أن نوسع لهم في المجلس ونفقههم في الحديث، فإنكم خلوفنا والمحدّثون بعدنا، وكان يقول للحدث منهم: إذا أنت لم تفهم الشيء، استفهمنيه فإنك أن تقوم وقد فهمته أحب إلي من أن تقوم ولم تفهمه» [أعلام الحفاظ والمحدثين، 93].

وهناك أحاديث كثيرة تشير إلى تحلق الناس حوله لأخذ العلم عنه، منها ما رواه معاوية بن صالح بن ربيعة، قال حدثني قَزَعة، قال: «أتيت أبا سعيد الخدري ﷺ وهو مكثور عليه، فلما تفرق الناس عنه قلت: إني لا أسألك عما يسألك هؤلاء عنه...» [الحديث جامع للأصول، 6/ 398، رقم الحديث 4585 وتخريجه تمت] الحديث، وفي حديث آخر عن قَزَعة قال: «أتيت أبا سعيد وهم مكبّون عليه ـ يعني الناس ـ فانتظرت خلوته فلما خلا سألته عن صيام رمضان في السفر» [الحديث جامع للأصول، 6/ 398، رقم الحديث 4585 وتخريجه تمت].

يعد أبو سعيد الخدري من المكثرين في رواية الحديث، فقد ذكر مَنْ ترجم له أن أبا سعيد روى عن النبي ألفاً ومئة وسبعين حديثاً، روي في الصحيحين مئة وأحد عشر حديثًا، اتفق البخاري ومسلم على ثلاثة وأربعين، وانفرد البخاري بستة عشر حديثاً ومسلم باثنين وخمسين.

وروى أبو سعيد هذه الأحاديث عن أبيه وعن قتادة بن النعمان وأبي بكر، وعثمان، وعلي، وزيد بن ثابت، وأبي قتادة الأنصاري، وأُسَيْد بن حُضَيْر وابن عباس، وأبي موسى الأشعري، ومعاوية، وعبد الله بن سلام، وجابر بن عبد الله وغيرهم وروى عنه خلق منهم: ابنه عبد الرحمٰن، وزوجته زينب بنت كعب بن عُجْرة، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وجابر بن عبد الله، وزيد بن ثابت، وأبو أمامة بن سهل، وابن المسيب، وحفص بن عاصم، وعطاء بن رباح، وعطاء بن يسار، وبشر بن سعيد، وعياض بن عبد الله بن أبي سرح وغيرهم كثير..

اختلفت المصادر في عمره وفي سنة وفاته فذهب الواقدي وابن نُمَيْر وابن بُكَيْر إلى أنه توفي سنه 74هـ وقال غيرهم مات سنة 64هـ وهو بن 74 سنة وقيل 63هـ و65هـ وقال البخاري في التاريخ الكبير بعد الحرة بسنة والأرجح من هذه الأقوال ما ذهب إليه الواقدي، وابن نُمَيْر، وابن بُكَيْر، ويحيى بن أبي بكر العامري اليمني الذي قال: «سكن المدينة وتوفى بها يوم الجمعة سنة أربع وستين» [الرياض المستطابة، ص 10].

وعندما شعر أبو سعيد بدنو أجله أوصى أن يكفن في ثيابه التي كان يصلي فيها، وألا يضرب حول قبره فسطاط، أو أن يتبعوه بنار، كما أوصى بالإسراع به، فقد نقل ابن عساكر بسنده عن ابنة أبي سعيد، قالت: «لما حضر أبو سعيد، بعث إلى نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فيهم ابن عباس، وابن عمر، وأنس بن مالك، وجابر بن عبد

الله فقال: لا يغلبنكم ولد أبي سعيد، إذا أنا مت فكفنوني في ثيابي التي كنت أصلي فيها وأذكر الله فيها، وفي البيت قبطية فكفنوني فيها، وأجمروا علي بوقية مَجْمَر، ولا تضربوا على قبري فسطاطاً، ولا تتبعوني بنار، واجعلوا في سريري قطيفة أرجوان، ولا تتبعني باكية. قال: ففعلوا ما أمرهم [تاريخ دمشق، 20/ 397]. وعن ابنه عبد الرحمٰن عن أبيه قال: «قال لي أبي: يا بني، إني قد كبرت سني وحان مني، خذ بيدي فاتكأ عليّ حتى جاء البقيع مكاناً لا يدفن فيه، فقال: إذا هلكت فادفني هاهنا، ولا تضربن علي فسطاطاً ولا تمشين معي بنار، ولا تبكي علي باكية، ولا تؤذنن أحداً، وليكن مشيك بي خبباً» [تاريخ دمشق، 20/ 395].

عرفنا من أبناء أسرته: أبوه، هو مالك بن سنان بن عبيد بن ثعلبة بن عبد الله بن الأبجر، قتل يوم أُحُد شهيداً وقاتِلُه هو غُرَاب بن سفيان الكناني [تاريخ دمشق، 20/ 397]؛ ووالدته هي أُنَيْسة بنت أبي حارثة بن صعصعة الأنصارية، ذكرها ابن حبيب فيمن بايع رسول الله وهي والدة قتادة بن النعمان [أسد الغابة، 5/ 24]؛ وزوجته هي زينب بنت كعب بن عُجْرة، قال ابن حجر العسقلاني: «صحابية تزوجها أبو سعيد، روت عنه وعن أخته في السنن الأربعة» [الإصابة 8/ 37، رقم الترجمة 6749]؛ وإخوته: قال ابن حجر العسقلاني: ليس لأبي سعيد أخ شقيق، ولا أخ من أبيه، ولا أخ من أمه إلا قتادة [الاستيعاب، 4/ 1857، رقم الترجمة 3364]. وقتادة بن النعمان هو أخوه لأمه، قال الذهبي في سيره: «هو قتادة بن النعمان بن زيد بن عامر، الأمير المجاهد، أبو عمر الأنصاري، الظفري البدري، من نجباء الصحابة، توفي 23هـ» [فتح الباري، 1/ 541]؛ ولأبي سعيد الخدري أختان: الفُرَيْعة وهي أخت أبي سعيد الخدري لأبيه، وأمها حبيبة بنت عبد الله بن أبي، ومدار حديثها عن سعد بن إسحاق بن كعب بن عُجْرة عن عمته زينب بنت كعب بن عُجْرة، ويقال: «الفارعة أيضاً» شهدت بيعة الرضوان [سير أعلام النبلاء، 2/ 331، رقم الترجمة 66]، وزينب بنت مالك بن سنان، ذكرها ابن الأثير في الإصابة [الاستيعاب، 4/ 193، رقم الترجمة 4066؛ ورجال صحيح مسلم، 1/ 232]؛ وذكر من أبنائه: سعيد: قد تكنى به، وهو أكبر أبنائه، وأمه، أم عبد الله بنت عبد الله بن الحارث بن قيس، بن هَيْشة... وله من الأولاد: حمزة، وهند [الإصابة، 8/ 162، رقم الترجمة 11254؛ أسد الغابة، 8/ 135، ورقم الترجمة 6972]. وإبراهيم ذكره ابن عساكر في تاريخه [الطبقات الكبرى، 5/ 205، رقم الترجمة 853]. وعبد الرحمٰن: قال النَّسائي: ثقة، وذكره ابن حِبّان في الثقات، وقال العجلي: «تابعي، مدني، ثقة، وكنيته: أبو محمد، وقيل: أبو جعفر، توفي 112هـ بالمدينة، وله من الأولاد عبد الله، وسعيد ورُبَيْح. وحمزة بن أبي سعيد الخدري: وهو أخ شقيق لسعيد وعبد الرحمٰن. وعبد الله، وقد روى عنه حديث الزكاة» [أسد الغابة، 8/ 351]. وأم عبد الرحمٰن بنت أبي سعيد الخدري: ذ كرها ابن الأثير في أسد الغابة [أسد الغابة، 8/ 351، رقم الترجمة 7526].

المصادر والمراجع

● ابن أبي بكر العامري، يحيى بن أبي بكر، الرياض المستطابة في جملة ما روي في الصحيحين للصحابة، مكتبة المعارف، بيروت، ط 3، 1983، 100؛ ● ابن الأثير، علي بن محمد الجزري «عز الدين»، أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار الكتب العلمية، بيروت، رقم الترجمة 2036، 2/ 451؛ ● ابن تغري بردي، جمال الدين، أبو المحاسن، يوسف، النجوم الزاهرة، قدم له: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1413هـ، 1/ 247؛ ● ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج، صفة الصفوة، تح. محمود فاخوري، دار المعرفة، بيروت، رقم الترجمة 105، ط 2، 1399هـ، 1/ 714 ـ 715؛ ● ابن حبان البستي، أبو حاتم، محمد، تاريخ الصحابة الذين روي عنهم الأخبار، تح. بوران الضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، رقم الترجمة 513، ص 113؛ ● مشاهير علماء الأمصار، دار الكتب العلمية، بيروت، رقم الترجمة 26، ط1، 1416هـ/ 1995م، 1/ 17؛ ● كتاب الثقات، دار الفكر ط 1، 3/ 150؛ ● ابن حجر العسقلاني، أحمد، تهذيب التهذيب، تح. مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، رقم الترجمة 2346، ط 1، 1415هـ/ 1994م، 3/ 418؛ ● الإصابة في تمييز الصحابة، تح. الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، رقم الترجمة 3204، ط 1، 1415هـ، 3/ 65 ـ 67؛ ● البخاري، أبو عبد الله، محمد بن اسماعيل بن ابراهيم، التاريخ الصغير، تح. محمود إبراهيم زايد، دار البازج، 1/ 166، ط1، 1406هـ؛ ● التاريخ الكبير، مؤسسة الكتب الثقافية، رقم الترجمة 1910، 4/ 44؛ ● ابن زبر الربعي أبو سليمان، محمد بن عبد الله، تاريخ مولد العلماء ووفياتهم، تح. محمد المصري، ط 1، 1410، ص 79؛ ● ابن عبد البر أبو عمر، يوسف بن عبد الله بن محمد، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تح. محمد علي البجاوي، دار الجيل، بيروت، رقم الترجمة 954، ط 1، 1412هـ/ 1992م، 2/ 602؛ ● ابن العماد الحنبلي، عبد الحي بن أحمد بن محمد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح. عبد القادر، ومحمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، ط 1، 1406هـ، 1/ 258 ـ 260؛ ● ابن عساكر، أبو القاسم، علي بن الحسن بن هبة الله، تاريخ مدينة دمشق، تح. علي شيري، دار الفكر، بيروت، ط 1، 1415هـ، 20/ 373؛ ● ابن قتيبة أبو محمد، عبد الله بن مسلم، المعارف، تح. د. ثروت عكاشة، دار المعارف بمصر، ط 2، ص 268؛ ● ابن قنفذ، أبو العباس، أحمد بن حسن الخطيب، الوفيات، تح. عادل نويهض، دار الآفاق بيروت، رقم الترجمة 63، ط 1، ص 96؛ ● ابن القيسراني، أبو الفضل محمد بن طاهر بن علي المقدسي، الجمع

بين رجال الصحيحين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1323هـ؛ ● ابن المبارك، شيخ الإسلام، عبد الله بن المبارك المروزي، الزهد، دار الكتب العلمية، بيروت، تح. حبيب الرحمٰن الأعظمي، ط 1؛ ● ابن منجويه، أبو بكر، أحمد بن علي الأصبهاني، رجال صحيح مسلم، تح. عبد الله الليثي، دار المعرفة، بيروت، رقم الترجمة 498، ط 1، 1407هـ/ 1987م، 1/ 232؛ ● ابن أيبك الصفدي، صلاح الدين خليل، الوافي بالوفيات، باعتناء: وداد القاضي، رقم الترجمة 200، ط 1، 15/ 148؛ ● أبو نعيم الأصفهاني، أحمد بن عبد الله، حلية الأولياء، تح. مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، رقم الترجمة 75، ط 1، 1418هـ/ 1997م، 1/ 453؛ ● الخطيب البغدادي، أبو بكر احمد بن علي، تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية بيروت، 1/ 180 ـ 181؛ ● الذهبي شمس الدين، محمد بن أحمد بن عثمان، سير أعلام النبلاء، تح. شعيب الارناؤوط، رقم الترجمة 28، ط 1، 1402هـ، 3/ 172 ـ 168؛ ● تذكرة الحفاظ، دار إحياء التراث العربي، 1/ 44؛ ● ابن أبي حاتم، عبد الرحمٰن، الجرح والتعديل، رقم الترجمة 406، ط 1، 1372هـ/ 1953م، 4/ 93؛ ● عبد الستار الشيخ، أعلام الحفاظ والمحدثين، دار القلم، دمشق، ط 1، 1417هـ، 3/ 74 ـ 100؛ ● الكلاباذي، أبو نصر، أحمد بن محمد بن الحسين البخاري، رجال صحيح البخاري، تح. عبد الله الليثي، دار المعرفة، بيروت، رقم الترجمة 419، ط 1، 1407هـ، 1/ 302؛ ● المزي، جمال الدين، أبو الحجاج يوسف، تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف، تح. عبد الصمد شرف الدين، المكتب الإسلامي، رقم الترجمة 186، ط 1، 1394هـ، 326؛ ● تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تح. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، رقم الترجمة 2224، 10/ 294؛ ● اليافعي أبو محمد، عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان، مرآة الجنان وعبرة اليقظان، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، 1/ 112.

د. أميمة بدر الدين

جامعة دمشق ـ سوريا

الخرائطي، أبو بكر محمد بن جعفر

(ت 327هـ/938م)

عراقي من أهل سامراء، كان مبدعا في تصانيفه، إخباريا، جمع الملح والنوادر، وكان مكثرا منها.

سمع إبراهيم بن عبد الله بن الجنيد، وعماد بن الوليد الغنوي، وحماد بن الحسن بن عنبسة، والحسن بن عرفة، وطاهر بن خالد بن بزار، وعباس بن عبد الله البرقعي، وعلي بن حري، وعمر بن شبة، وسعدان بن يزيد، وحميد بن الربيع، وأحمد بن منصور الرمادي، وأحمد بن بديل، وشعيب بن أيوب، وعدة.

روى عنه: أبو العباس بن إبراهيم بن علي الكندي، وأبو بكر محمد بن أحمد بن عثمان السلمي، وغيرهما.

وحدث عنه: أبو سليمان بن زبر، وأبو علي بن مهنا الداراني، ومحمد وأحمد ابنا موسى السمسار، والقاضي يوسف الميانجي، وعبد الوهاب الكلابي، ومحمد بن أحمد بن عثمان بن أبي الحديد، وآخرون.

سكن الشام وحدث بها فحصل حديثه عند أهلها.

قال ابن ماكولا: صنف الكثير وكان من الأعيان الثقات.

قدِم الخرائطي مدينة دمشق سنة خمس وعشرين وثلاث مائة للهجرة، وكان شاعرا ودخل يوما داره، فسمع بكاء ولد له رضيع، فقال: ما له؟ فقالوا: فطمناه، فكتب على مهده:

منعوه أحبَّ شيء إليه
من جميعِ الورى ومِنْ والديْه
منعوه غذاءَهُ ولقد كا
ن مباحًا له وبين يديه
عجبًا منه ذا على صغر السـ
ـنِّ هوى فاهتدى الفراق إليه

ومن شعره وقد كتبه على قبر أبيه:

أنِسَ اللّهُ وحشتَك
رحمَ اللّهُ وحدتَك
أنتَ في صحبَةِ البِلى
أحسنَ اللّهُ صحبتَك

قال الصفدي: كان من الأعيان أجمعوا على ثقته وفضله.

قال السمعاني: قدم الخرائطي دمشق في سنة 324هـ ومات بعد ذلك بعسقلان. ونقل عن أبي سليمان بن زبر أنه توفي في شهر ربيع الأوّل سنة 327هـ.

وإذا كانت وفاته مُتَّفقًا عليها فالخلاف واقع في مكان وفاته، فأغلب مؤرّخيه قالوا: مات بعسقلان. لكن الذهبي في سير أعلام النبلاء قال: مات بيافا.

تأثر الخرائطي بمصنفات أبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا (ت 281هـ) تأثرًا واضحًا وجرى في مضماره. ويلاحظ دارس آثاره أنه

صنف كتبا بالعناوين ذاتها التي صنف فيها ابن أبي الدنيا، فابن أبي الدنيا صنف كتابه «مكارم الأخلاق» وصنف الخرائطي كتابه «مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها ومرضيها» في الموضوع ذاته. مثل هذا يقال عن كتابه «هواتف الجنّان» فقد تناول موضوعا طرقه ابن أبي الدنيا وصنف فيه كتابه «هواتف الجنّان» ولكل منهما كتاب في الشكر وكتاب في القبور.

وسأحاول في السطور التالية التعريف بأبرز آثاره المطبوعة:

«المنتقى من كتاب مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها ومرضيها». طبع هذا الكتاب في دمشق عام 1406هـ/ 1986م بتحقيق محمد مطيع الحافظ وغزوة بدير، وتولت نشره دار الفكر. ويلاحظ أن هذا المطبوع من انتقاء الحافظ أبي طاهر احمد بن محمد السلفي الاصفهاني، إمام المحدثين في عصره (ت 576هـ) وكان السلطان صلاح الدين الأيوبي وإخوته وأمراؤه قد سمعوا منه الحديث. وكان واسع الآفاق، وافر المشيخة، جمع بين علو الإسناد وغلو الانتقاد، شاعرا، قارئا، مصنفا، جامعا للقراءات. والنسخة التي اعتمدها المحققان في تحقيقهما كانت بخط الحافظ السلفي، وهي نسخة فريدة، افتخر مؤرخ دمشق ابن طولون باحتفاظه بها.

والحافظ السلفي ـ كما يظهر من السماع على النسخة المخطوطة ـ قد قام بالانتقاء ثم نسخ هذا المنتقى، ثم سمعه من شيخه أبي الحسن علي بن مسلم السلمي، وأصل الكتاب مع الشيخ، والشيخ يقرأ من نسخته.

وطريقة الانتقاء هذه هي طريقة العلماء المتقنين النقاد، روى الحافظ ابن عساكر في تاريخه عن سليمان بن موسى قوله: تجلس إلى العالم يليه رجل يكتب كل ما يسمع فذاك حاطب ليل، ورجل يسمع ولا يكتب فذاك جليس العالم، ورجل ينتقي وهو خيرهم.

أهمية الكتاب: كتاب مكارم الأخلاق ـ وإن كان تاليا لكتاب ابن أبي الدنيا ـ جمع بين الحديث النبوي والخبر الأدبي والتفسير اللغوي وطرائف الشعر، بأسلوب مشوق، وقد ظهر فيه لون من التوسع والشمول وجودة التبويب. واتسم أيضا بالأخذ بأسلوب المحدثين في إسناد أخباره إلى أصحابها توثيقا لها. وهو من المصادر المهمة التي اعتمدها جلة المؤرخين والعلماء ومنهم الخطيب البغدادي في تاريخه، وابن عساكر في تاريخ دمشق، والنووي في الأذكار ورياض الصالحين، والسيوطي في الجامع الصغير والكبير. أما أبواب الكتاب فهي:

باب الحث على الأخلاق الصالحة والترغيب فيها ـ باب ثواب حسن الخليفة وجسيم خطرها ـ باب كرم السجية وكف الأذية وجميل العشرة ـ باب ما جاء في اصطناع المعروف من الفضل ـ باب ما يستحب من لين الكلام وخفض الجناح ـ باب حفظ الأمانة وذم الخيانة ـ باب الوفاء بالوعد وكراهية الخلف به ـ باب ما جاء في حفظ الجار وحسن مجاورته من الفضل ـ باب ما جاء في صلة الأرحام والعطف عليهم ـ باب ما جاء في الصدقة على ذي الرحم من الفضل ـ باب فضيلة الحياء وجسيم خطره ـ باب ما جاء في إكرام الضيف والإحسان إليه ـ باب ما

جاء في إطعام الطعام وبذله للضيف وغيره من أبناء السبيل - باب حق الضيافة وتوفيتها - باب ما يستحب من اتخاذ الفراش للضيف - باب ما يستحب أن يشيع الضيف الى باب الدار - باب إكرام الشيوخ وتوقيرهم - باب فضيلة إنصاف الرجل من نفسه - باب الإنصاف - باب العفو والصفح وما في ذلك من الفضل - باب ما يستحب من الإصلاح بين الناس وما في ذلك من جزيل الثواب - باب ما يستحب من كف الأذى عن الناس من اللسان واليد - باب حفظ اللسان وترك المرء في الكلام فيما لا يعنيه - باب ما يستحب للمرء من ستر عورة أخيه المسلم وما له من الثواب - باب ما يستحب من ستر المعصية ويكره من إذاعتها - باب ما يستحب للمرء من ستر فخذه إذ كانت من عورته - باب ما يستحب للمرء الصالح من إزالة الأذى عن الطريق - باب ما يستحب للحليم أن يدفع عن نفسه سوء الظن - باب ما يستحب للمرء التحرز من أن يساء به الظن - باب ما يستحب للمرء إذا أقسم عليه أخوه المسلم أن يبر قسمه - باب ما يستحب للحليم أن لا يضع كلامه إلا في موضعه، وأن يتكلم بما لا يعتذر منه، أو يمسك عنه، فإنه أسلم له وأعود نفعا - باب حسن الملكة والصفح عن زلل المملوكين - باب ما جاء في الإحسان إلى المملوك في الطعام والكسوة - ذكر السؤدد وشريطته - باب شريطة السيد - باب فضيلة صدق الحديث وجسيم خطره - باب ما جاء في السخاء والكرم والبذل من الفضل - باب ذكر حسن المجالسة وواجب حقها - باب ما يستحب من التواضع في المجلس وغيره - باب ما يستحب للمرء أن يحسن الاختيار في مجالسة من يجالس ويخادن - باب ما جاء في حسن الاختيار في المجالس وأن تعطى حقها - باب الوحدة خير من جليس السوء - باب ما يستحب للمرء إذا بلغه عن رجل شيء أن يعرض له ولا يواجهه به - باب ما جاء في الشح على الإخوان وأداء النصيحة لهم - باب ما يستحب للمرء إذا آخى رجلا أن يسأل عن اسمه واسم أبيه - باب ما يستحب للمرء أن يحسن الاختيار لمن يشاور وأن لا يفعل شيئا إلا عن مشاورة - باب ما جاء فيما يجب على المستشار من أداء الأمانة - ما يستحب للمرء من الدعاء لأخيه بظهر الغيب - باب ما يستحب للمرء من الاستئذان على ذوات المحارم من الأمهات وغيرهن - باب ما يستحب للمرء أن يفعله إذا أراد سفرا، وما يقال عند توداعه - باب ما يستحب للمرء إذا قدم من سفر من القول والعمل - باب ما يستحب للمسافر إذا نزل منزلا من القول والعمل - باب ما يستحب للمسافر أن يحمل معه المرآة والمكحلة - باب ما جاء فيما يستحب من البكور في الأسفار وطلب الحاجات - باب ما يستحب للمرء إذا دخل منزله أن يسلم على أهل البيت - باب ما يستحب للمرء من مصافحة أخيه المسلم إذا لقيه، وما للبادي فيه من الفضل وجزيل الثواب - باب ما يستحب للمرء عند دخوله منزله وعند خروجه من القول - باب ما يستحب للمرء من السلام قبل الكلام - باب ما يستحب للرجل من القول إذا أصبح وأمسى - باب ما يستحب من حسن الصحبة في السفر - باب ما يستحب للرجل إذا كان مسافرا أن يسرع الرجعة إلى أهله عند فراغه - باب ما يستحب للمرء من الذود عن عرض أخيه

المسلم - باب ما يستحب للمرء من التحبب إلى خيار الناس واستجلاب موداتهم - باب حق الصحبة والمرافقة - باب ما يستحب للمرء من استخارة الله ﷻ في الأمر يقصد له - باب ما يستحب للمرء من استعمال الحزم والأخذ بالثقة والنظر في عواقب الأمور قبل كونها - باب ما جاء في شدة الحذر من أن ينكب المرء من سبب واحد نكبتين - باب ما يستحب للمرء أن يقوله إذا أوى إلى فراشه - باب ما جاء فيما يستحب للمرء أن يقوله إذا استيقظ من نومه - باب ما يستحب للمرء من القول إذا طنت أذنه - باب ما يستحب للمرء أن يقول عند غشيانه أهله - باب ما يستحب للرجل من القول إذا عصفت الريح - باب ما يستحب من القول عند صوت الرعد وما هو - باب ذكر المطر وما يقال عند نزوله - باب ما يستحب للمرء من الرقى والعُوَذ والقول عند الشيء يخافه من سلطان لو غيره - باب الرقى والعُوَذ - باب ما يقال عند نهقة الحمار. تلك هي أبواب الكتاب ويلاحظ أنها شاملة للأخلاق بين المرء ونفسه، وبينه وبين أهله وأسرته وجيرانه وصحبه، ثم بين الإنسان وربه. فهو كتاب جامع في الأخلاق الدنيوية والأخروية. ويمثل جوهر ما دعا إليه الإسلام من مكارم الأخلاق.

- كتاب «اعتلال القلوب في أخبار العشاق والمحبين»، وموضوعه أحاديث وأخبار تناولت عاطفة الحب وأحوال المحبين والعشاق سلك المصنف فيها طريق الوعظ والإرشاد معتمدا الأحاديث النبوية الشريفة وأخبار المتصوفين والزهاد. حققت الكتاب غريد الشيخ، وصدر عن دار الكتب العلمية في بيروت سنة 1421هـ/ 2001م.

والكتاب - كما تقول محققته - طرح فيه مؤلفه موضوع الحب من زاوية توافق سيرته واتجاهه وعقيدته، فكان من أمهات الكتب في هذا الموضوع. استقى من معينه من صنّف في الموضوع بعده ولا سيما الإمام ابن قيم الجوزية (ت 751هـ) في كتابه «روضة المحبين ونزهة المشتاقين».

تناول الخرائطي موضوع الحب في كتابه من وجهة نظر إسلامية، وحاول أن يرسخ في قلوب وعقول قارئيه «أن من أحب فعفّ فكتم فهو شهيد». فجاءت أخباره وأحاديثه والأشعار التي استشهد بها في الحب والهوى تسير في هذا الفلك الذي رسمه لها. وقد نثر الخرائطي في ثنايا الكتاب كثيرا من آيات القرآن الكريم وأحاديث رسول الله ﷺ وقد أورد وفسّر آراء فقهية تدعم وجهة نظره. واعترض الخرائطي على ما يخالف تعاليم الإسلام كالزنا، وغلبة الشهوات، وحث على ضرورة التمسك بالعفاف، واستند في دعم أفكاره على ما يأتلف معها من تعاليم القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وسير الصحابة والتابعين، وأخبار المحبين وأشعارهم ويمكن استشفاف ذلك من عناوين بعض فصوله، فمنها:

- باب منع النفس هواها وقدعها عن شهواتها - باب ذم الهوى - باب من عف في عشقه عن مواقعة الحرام - باب الافتخار بالعفاف - باب ذم الزنا - باب التخطي إلى ذوات المحارم - باب ترك الزنا في الجاهلية خوفا من العقاب - باب التعوذ بالله من شر النفس الأمارة بالسوء

فالكتاب يكشف أخلاق مؤلفه وسيرته وتقواه.

فهو من جهة كتاب في الحديث النبوي الشريف بما أورده المؤلف من أحاديث مسندة وهو كتاب أدب بما ضمن من أشعار وأخبار ونصوص أدبية رفيعة. وهو كتاب زهد وتصوف بما ورد فيه من أخبار المتصوفة وزهدهم.

وهو كتاب فقه يوضح موقف الإسلام من الحب فيدعو بدعوته ويفرق بين الحلال والحرام، ويطالب بتجنب ما حرم اللّه، والبعد عن الشبهات. وفيه أخبار طريفة عن المحبين اتخذها وسيلة للوعظ بشكل غير مباشر. كل هذه السمات جعلت هذا الكتاب منهلا لمن صنف في موضوعه بعده. وقد اعتمدت المحققة صفية كطاي في تحقيقها مخطوطة كاملة محفوظة في الرباط، ومختصرا من الكتاب موجود في القاهرة. وزودت الطبعة بالفهارس الفنية. والكتاب كان إعداده وتحقيقه رسالة جامعية نالت بها الدرجة العلمية.

- كتاب «هواتف الجنّان» وهو رسالة صغيرة جارى فيها ابن أبي الدنيا في رسالته «هواتف الجن». وموضوع الكتاب هو: ما هتفت به الجن أو نطقت به الكهان مبشرة بمبعث رسول اللّه - عليه الصلاة والسلام -.

وقد صدره المؤلف ببيتين من الشعر هما:

هذا كتاب هواتف الجنان
وعجيب ما يحكى عن الكهان
مما يبشر بالنبي محمد
ويدل منه بواضح البرهان

وبالتالي فهو كتاب يمكن أن يندرج تحت عنوان «دلائل النبوة».

وقد حقق الكتاب ونشره الأستاذ إبراهيم صالح، ونشرته دار البشائر في دمشق سنة 1421هـ/ 2001م. واعتمد نسخة فريدة منه هي من ذخائر دار الكتب الظاهرية بدمشق تقع ضمن مجموع. والنسخة مكتوبة في بداية القرن السابع الهجري بمدينة دمشق.

جدير بالذكر أن عددا من كبار العلماء قد اقتبسوا هذا الكتاب وضمنوه كلا أو جزءا في تصانيفهم. أقدمهم الحافظ ابن عساكر (ت 571هـ) في موسوعته «تاريخ دمشق». وتبعه الحافظ ابن كثير (ت 774هـ) في كتابه «البداية والنهاية» وقد أوردا الأخبار كاملة بأسانيدها. أما ابن حجر في كتابه «الإصابة في تمييز الصحابة» فقد كان يورد السند وبداية الخبر ثم يختصر الباقي.

ولعل في ما قدمنا ما يشف ويكشف المكانة الرفيعة التي احتلتها مصنفات الخرائطي.

آثاره

1 - مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها ومرضيها، طبع طبعة غير علمية في القاهرة عام 1931 وطبعة أخرى قاهرية بمراجعة أبي محمد عبد الله بن حجاج عام 1980 م. ثمّ صدر في دمشق عام 1986 بتحقيق محمد مطيع الحافظ، وغزوة بدير عن دار الفكر، مذيلة بالفهارس العلمية، نشرت بعنوان: المنتقى من مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها بانتقاء الحافظ السلفي؛ 2 - كتاب فضيلة الشكر لله على نعمته وما يجب من الشكر للمنعم عليه، صدر عن دار الفكر بدمشق تح. محمد مطيع الحافظ عام 1982 وذيل بالفهارس العلمية؛ 3 - مساوىء

الأخلاق ومذمومها، منه مخطوطات في الأسكوريال وفي الظاهرية في دمشق تح. أحمد محمد العليمي ولم يطبع فيما أعلم؛ 4 ـ هواتف الجنان، تح. إبراهيم صالح، وطبع في بيروت، مؤسسة الرسالة، 1407هـ/ 1986م، سماه ياقوت: هواتف الجان وعجيب ما يحكى عن الكهان؛ 5 ـ اعتلال القلوب في أخبار العشاق، سماه بروكلمان: اعتلال القلوب في أحاديث المحبّة والمحبّين، وقال: أخذ ابن القيم الجوزية كثيرا من هذا الكتاب في كتابه روضة المحبّين، وذكر مخطوطات منه في القاهرة ومكتبة بروسة، والكتاب تح. صفية كطاي ولم يطبع بعد فيما نعلم؛ 6 ـ كتاب قمع الحرص بالقناعة، ذكره الصفدي، في الوافي بالوفيات وياقوت في معجم الأدباء؛ 7 ـ كتاب القبور، ذكره ياقوت والصفدي؛ 8 ـ أضاف بروكلمان كتابا آخر له لم تذكره مصادره عنوانه تعاليق لابن عيسى المقدسي، وذكر أن منه مخطوطة في الظاهرية.

المصادر والمراجع

● السمعاني، الأنساب، طبعة مرجليوث المخطوطة المصوّرة، الورقة 192، أعادت طبعه بالأوفسيت مكتبة المثنى ببغداد عام 1970 م؛ ● الخطيب البغدادي، تاريخ مدينة السلام، تح. بشار عواد معروف، 2/ 515، دار الغرب الإسلامي؛ ● ياقوت، معجم الأدباء، تح. أحمد فريد الرفاعي، القاهرة، 18/ 98، مطبوعات دار المأمون؛ ● الذهبي، العبر في خبر من غبر، تح. فؤاد السيد، الكويت 1961، 2/ 209؛ ● الذهبي، سير أعلام النبلاء، تح. إبراهيم الزيبق، بيروت 1983، 15/ 267 ـ 268؛ ● ابن الجوزي، المنتظم، حيدر آباد الدكن، الطبعة الأولى سنة 1357هـ، 6/ 298؛ ● ابن كثير، البداية والنهاية، مكتبة المعارف في بيروت، مكتبة في الرياض، ط 1، 1966، 11/ 190؛ ● ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، طبعة مصوّرة عن طبعة الكتب المصرية، وزارة الثقافة، مصر، 3/ 65؛ ● ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2/ 309؛ ● اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان، مصوّرة بالأوفسيت عن طبعة دائرة المعارف النظامية بحيدر آباد 1338هـ، 2/ 289؛ ● بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ترجمة عبد الحليم النجار وسيد يعقوب بكر ورمضان عبد التواب، الطبعة الكاملة، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1993، 3/ 145.

أ. هلال ناجي
باحث في التراث العربي ـ بغداد ـ العراق

الخزّاز، أبو سعيد أحمد بن عيسى

(ت 286هـ/899م)

هو أحمد بن عيسى أبو سعيد الخرّاز، سمّي بالخرّاز نسبة إلى مهنة خرز الجلود. كان من كبار شيوخ الصوفية، ولسان أحوال المريدين وبرهان أوقات الطالبين، وأوّل من عبّر عن مقام الفناء والبقاء. صحب ذا النون المصري وبشرًا الحافي وسريًّا السقطي [الهجويري. كشف، ص 355]، وهو بغداديّ النشأة بإجماع كلّ من أرّخ له وإن اختُلف في تاريخ ميلاده.

سافر كثيرًا منذ بداية شبابه لكننا لا نعثر في أقواله أو في ما تبقى من كتبه على أي معلومات حول هذه الرّحلات. وقد غادر بغداد نهائيًا على إثر حملة القمع التي تعرّض لها الصوفيّة بتحريض من بعض الحنابلة، إذ اتهمه نفر من العلماء بالكفر بسبب عبارات وردت في مؤلّفه «كتاب السر» [الموسوعة الإسلامية، مج4،ط.الفرنسية]، وهو من كتبه المفقودة.

وبعد إقامته بمكة لمدّة تزيد على العشر سنوات طرد منها أيضا لينتقل إلى مصر حيث أقام إلى حين وفاته.

ذكر الكلاباذي أنه ممّن نشر علوم الإشارة كتبًا ورسائل وكان يُقال له «لسان التصوف» [التعرّف، ص 11].

كان الخرّاز محلّ تقدير الأوساط الصوفية، وممّا يدلّ على منزلته وعلوّ شأنه بينهم ما قاله عنه الجنيد، سيّد الطائفة ورأس مدرسة بغداد: «لو طالبنا الله بحقيقة ما عليه أبو سعيد لهلكنا. وقد أقام كذا وكذا سنة ما فاته ذكر الحقّ تعالى بين الخرزتين» [العروسي، نتائج الأفكار، 1/ 167].

ووصفه أبو بكر الطرسوسي فقال: «أبو سعيد الخرّاز قمر الصوفية [الخطيب البغدادي. تاريخ بغداد، 4/ 276].

وكان من الملتزمين بنهج الشريعة وبوحدة الباطن والظاهر لا يفصل بينهما. وقد عبّر عن ذلك بقوله: «كل باطن يخالف ظاهرا فهو باطل»، أي أن كليهما يكمل الآخر. وبهذا يكون للأولياء والمقرّبين من أحباب الله لسانان: لسان في الباطن يعرّفهم صنع الصانع في المصنوع، ولسان في الظاهر يعلمهم علم المخلوقين. فلسان الظاهر يكلم أجسامهم، ولسان الباطن يناجي أرواحهم [السلمي، طبقات، 231].

ولا يختلف أبو سعيد هنا عن أغلبية الصوفية الذين ظهروا سواء قبله أو بعده في هذا الاتجاه. فقد أوجسوا خيفة من محاولة التفرقة بين الشريعة والحقيقة، فألحّوا في المطالبة بظاهر الشرع؛ بل إنّ الخرّاز ليبالغ في تحذير أولئك الذين يعتقدون أنّ باستطاعتهم الوصول إلى الهداية عن طريق الجهد والمجاهدة وحدهما [شرف، دراسات في التصوف الإسلامي، ص 284]، ذلك أن الوصول

والقرب من الحق تعالى هبة منه وفضل، وليس كسبًا ومجاهدة فقط.

أمّا بدء الطريق إلى الله في نظره فهو التوبة. ومنها ينتقل السالك إلى مقام الخوف، ومن مقام الخوف إلى مقام الرّجاء، ومن مقام الرّجاء إلى مقام الصالحين، ومن مقام الصالحين إلى مقام المريدين، ومن مقام المريدين إلى مقام المطيعين، ومن مقام المطيعين إلى مقام المشتاقين، ومن مقام المشتاقين إلى مقام الأولياء، ومن مقام الأولياء إلى مقام المقرّبين [الحلية، 10/ 247 ـ 249].

ومثلما جمع أبو سعيد بين الظاهر والباطن جمع كذلك بين نوعين من المعرفة: المعرفة اللدنية أو الذوقية، والمعرفة المكتسبة بالمكابدة والمجاهدة. ومن هنا قوله: «المعرفة تأتي القلوب من جهتين من عين الجود ومن بذل المجهود [م. س، ص 248].

ومثل كل الصوفيين يرى الخرّاز أن المعرفة اللدنية سرّ من الأسرار يودعه الله قلوب أوليائه ممّن بلغوا المقامات السامية. فللعارفين، أي أهل الذوق من الصفوة، «خزائن أودعوها علومًا غريبة وأنباء عجيبة، يتكلمون فيها بأسرار الأبدية ويخبرون عنها بعبارة الأزلية» [م. س].

آثاره

ـ كتاب الصدق أو الطريق إلى الله، لم يبق من آثار أبي سعيد الخرّاز سوى هذا التأليف وهو من الكتب التي يتوارثها الصوفيّة ويضِنّون بها على غير أهلها لأنّها ذخيرة نفيسة لا يصحّ أن تقتحمها أعين الدهماء [عبد الحليم محمود، مقدّمة كتاب الصدق].

يتضمّن الكتاب مقدّمة على شكل حوار بين المؤلف وشيخه ـ قد يكون حقيقيا وقد يكون مفترضا ـ يسأله فيه عن الصدق كيف هو؟ وما معناه؟ وما العمل به؟ فيجيبه الشيخ عن أسئلته ويُعلمه، فيما يعلمه، أن على المريد السالك سبيل النجاة معرفة ثلاثةِ أصول يعمل بها حتى يقوى إيمانه وتقوم حقائقه وتثبت فروعه، فتصفو عند ذلك الأعمال. وهذه الأصول هي الإخلاص والصدق والصبر. ويستشهد على ذلك بآيات قرآنية كثيرة.

أما أبوابه فعددها أربعة عشر بابا هي: ـ الصدق في الإخلاص ـ الصدق في الصبر ـ معاني الصدق ـ معرفة النفس ـ معرفة إبليس ـ الصدق في الورع ـ الصدق في الزهد ـ التوكل على الله ـ الخوف من الله ـ معرفة نعم الله ـ الصدق في المحبّة ـ الرضا عن الله ـ الشوق إلى الله ـ الأنس بالله. وقد توخّى المؤلّف في كتابه منهجًا تعليميا كان سبقه إليه الحارث المحاسبي بغية تسهيل محتواه وتقريبه من جمهور السالكين والمريدين المبتدئين.

فلشرح هذه المقامات والأحوال يستشهد الخرّاز بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأقوال الصحابة والتابعين أو الحكماء ويعني بهم عادة الصوفية.

وبعد أن يعرّف بالمقام تعريفا موجزا وأنواعه إن وجدت، يبدأ تدريجيًا بالتوسع في معانيه مع الإكثار من الأمثلة والاستشهادات التي أشرنا إليها.

وقد يبدأ أحيانا بآية قرآنية وذكر المناسبة التي نزلت فيها ليتخذها منطلقا لبسط آرائه والمفاهيم التي يريد إيصالها.

أما إذا تعدد ذكر المقام المقصود في أكثر من آية، فإنه يوردها كلها مع شرحها وتبيان مقاصدها مستعينا بالحديث، وقد يعمد إلى ذكر أكثر من رواية للحديث الواحد إمعانا في الدقة.

وأمّا إذا أشار إلى حديث أو قول لأحد الحكماء، فإنه كثيرًا ما يفسّره بالعودة إلى القرآن، فيذكر الآية أو الآيات المتضمّنة لفحوى هذا الحديث أو بهذه الحكمة ويفيض في شرحها.

حقّق كتاب الصدق أو الطريق إلى الله، لأوّل مرّة الشيخ عبد الحليم محمود وصدر عن دار الكتب الحديثة بالقاهرة دون تاريخ.

المصادر والمراجع

● الخرّاز، أحمد بن عيسى، كتاب الصدق أو الطريق إلى الله، تح. عبد الحليم محمود، دار الكتب الحديثة، القاهرة د.ت؛ ● الهجويري، أبو الحسن علي، كشف المحجوب، ط. مصر 1974م؛ ● الإصبهاني، أبو نعيم، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1967م؛ ● السلمي، أبو عبد الرحمٰن، طبقات الصوفيّة، ط. ليدن 1960م؛ ● شرف، محمد جلال، دراسات في التصوف الإسلامي؛ ● العروسي، مصطفى، نتائج الأفكار القدسيّة في بيان الرّسالة القشيريّة، ط. دمشق د.ت.

أ. محمد الخالدي

شاعر ـ تونس

الخراساني، أبو أيوب عطاء بن ميسرة

(50هـ/670م ـ 133هـ/750م)

أبو أيوب، واسم أبيه ميسرة وقيل عبد الله، فهو عطاء بن ميسرة، وعطاء بن عبد الله. أصله من بلخ، وأقام في خراسان مدة فنسب إليها. وهو مولى قبيلة هذيل، واعظ، محدث، مجاهد. وشذ صاحب النجوم الزاهرة فرده إلى قبيلة بجيلة، وقال: عطاء الخراساني البجلي [1/ 331] وقال عن أبيه ميسرة: مولى المهلّب بن أبي صفرة. وكنيته: أبو أيوب، وأبو عثمان، وأبو محمّد، وأبو صالح.

روى عن الحسن البصري، وحمران مولى العبلات، وسعيد بن جبير، وسعيد بن أبي سعيد المقبري، وسعيد بن المسيب، وأبي سفيان طلحة بن نافع، وعبد الله بن محيريز، وعبد الرحمٰن بن أبي ليلى، وعدي بن عدي الكندي، وعروة بن الزبير، وعطاء بن أبي رباح، وعكرمة مولى ابن عباس، وعلي بن أبي طلحة، وعمرو بن شعيب، وكعب بن عجرة، ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهري، ومطرف بن مطاع، ومعاذ بن جبل،

والمغيرة بن شعبة، ونافع مولى ابن عمر، ونعيم بن سلامة الفلسطيني، ونعيم بن أبي هند، ويحيى بن عمرو بن عقبة، ويحيى بن أبي المطاع ابن أخت بلال، ويحيى بن يعمر البصري، وأبي إدريس الخولاني، وأبي الدرداء، وأبي الغوث الفرعي، وأبي مسلم الخولاني، وأبي نضرة العبدي، وأبي هريرة، مع ملاحظة أنّ رجال الصحابة الذين روى عنهم روى مرسلا. قال صاحب الشذرات: كان كثير الإرسال عن الصحابة [1/ 192].

قال عطاء: قدمت المدينة وقد فاتني عامة الصحابة.

روى عنه: إبراهيم بن طهيان، وأسامة بن زيد بن أسلم، وأبو عبد الرحمٰن إسحاق بن أسيد الخراساني، وإسماعيل بن عياش، وحبيب بن أبي مزوق الرقي، وحماد بن سلمة، وأبو سلام خالد بن سلام الخثمعي، وداود بن أبي هند، ورجاء بن أبي سلمة، وزيد بن واقد، وسعيد بن عبد العزيز، وسفيان الثوري، وشعبة بن الحجاج، وشعيب بن رزيق المقدسي، والضحاك بن عبد الرحمٰن بن أبي حوشب، والضحاك بن مزاحم وهو أكبر منه، وضرار بن عمرو الملطي، وعبد الله بن عبد الرحمٰن بن يزيد بن جابر، وعبد الرحمٰن بن حسان الكناني، وعبد الرحمٰن بن عمرو الأوزاعي، وعبد الرحمٰن بن يزيد بن جابر، وعبد العزيز بن عبد الملك القرشي، وعبد الملك بن جريج، وعتبة بن أبي حكيم الطبراني، وابنه عثمان بن عطاء الخراساني، وعروة بن رويم اللخمي، وعطاء بن أبي رباح وهو من شيوخه، وعمر بن أبي خليفة العبدي، وعمر بن المثنى الأشجعي، وعمرو بن الحارث المصري، والقاسم بن أبي بزة المكي، والقاسم بن عاصم الكليبي، وكلثوم بن محمد بن أبي سدرة الحلبي، ومالك بن أنس، والمثنى بن الصباح، وأبو رجاء محمد بن يوسف الأزدي، ومطر الوراق، ومعمر بن راشد، وموسى بن عيسى القرشي، ونجم بن فرقد العطار، وهشام بن سعد المدني، وهشام بن يحيى الغساني، ويحيى بن حمزة الحضرمي، ويزيد بن عبد الله بن الهادي، ويزيد بن أبي مريم الشامي، ويونس بن راشد قاضي حران، ويونس بن يزيد الأيلي.

رحل الخراساني كثيرا وطوّف في البلاد ثم نزل الشام، شهد له أصحابه بحبّه للغزو وقيام الليل والوعظ.

وكانت روايته للحديث موضوع أخذ وردّ، وقد نقل ابن أبي حاتم صاحب «الجرح والتعديل» ثلاث روايات عن مكانة الخراساني في الحديث، فالأولى عن شعبة بأنه كان نسيًا، والثانية عن يحيى بن معين بأنّه ثقة، والثانية عن عبد الرحمٰن عن أبيه بأنه ثقة يحتجّ به؛ وممن وثقه ابن سعد صاحب الطبقات بقوله: «وكان ثقة وأتى الشام فروى عنه الشاميون وروى عنه مالك بن أنس وغيره»، ووثقه الترمذي قائلا إنه لم يسمع أحد من المتقدمين تكلّم فيه، واعتبره النسائي «ليس به بأس»... وممن ضعفوا روايته البخاري، والعقيلي، وابن حبّان.

إن هذا الخلاف الكبير بين الطائفتين من مدوّني الحديث النبوي الشريف، جلاه ابن حبان حين تحدّث عن عطاء فقال: «...وكان من خيار عباد الله، غير أنه كان رديء

الحفظ، كثير الوهم، فلمّا كثر ذلك في روايته، بطل الاحتجاج به».

آثاره

تنوّعت آثاره في علوم القرآن، منها ما كان في التفسير، ومنها ما كان في الناسخ والمنسوخ، ومنها ما كان إجازة في القراءات.

1 ـ ففي التفسير، له أوراق مخطوطة أشار إليها الزركلي في دار الكتب الظاهرية بدمشق، ونوه فؤاد سزكين عن مكان وجودها وتصنيفها كالتالي: «فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية، مجموع 95 (من 126أ ـ 132أ. في القرن الخامس الهجري)، سراي أحمد باشا الثالث، 310 (6 أوراق)؛ 2 ـ وفي الناسخ والمنسوخ، له جزء من مخطوط في دار الكتب الظاهرية؛ 3 ـ أما في علم القراءات فقد قال فؤاد سزكين في ترجمته له: «حصل الخطيب البغدادي في دمشق على إجازة بروايته [انظر مشيخة الظاهرية، مجموع 198، ص128أ]، ويبدو أن نقولا من هذا الكتاب قد بقيت في التفاسير المتأخرة، والمؤلفة بنفس العنوان».

ولم تذكر كتب التراجم لعطاء الخراساني مصنفات في علم الحديث، سوى ما كان من رواياته الحديثية التي نقلها عنه من رووا عنه. فقد نوه الذهبي عن الذين حملوا عنه روايته، فكان منهم: ابنه عثمان، والأوزاعي، ومعمر، وشعبة، وسفيان، ويحيى بن حمزة، وإسماعيل بن عباس، وسواهم.

المصادر والمراجع

● الأصبهاني، أبو نعيم، حلية الأولياء، القاهرة، مطبعة السعادة 1979م؛ 5/ 193 ـ 209؛ ● ابن أبي حاتم، عبد الرحمن، الجرح والتعديل، حيدر آباد، دائرة المعارف العثمانية، د.ت، 1/ 334 ـ 335؛ ● الحنبلي، ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت، دار الكتب العلمية، 1985م، 1/ 325؛ ● الذهبي، الحافظ محمد بن أحمد، العبر في خبر من غبر، بيروت، دار الكتب العلمية، 1985م، 1/ 140 ـ 141؛ ● الذهبي، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، د.ت، 3/ 72 ـ 75؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، الطبعة السابعة، بيروت، دار العلم للملايين، 1986م، 1/ 55 ـ 56؛ ● ابن سعد، الطبقات الكبرى، بيروت، دار صادر، د.ت، 7/ 369؛ ● العسقلاني، ابن حجر، تهذيب التهذيب، حيدر آباد، دائرة المعارف النظامية، 1326هـ، 7/ 212، 215؛ ● مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، المملكة العربية السعودية، الرياض، عام 1424هـ/ 2003.

د. رجاء محمد عودة
جامعة الملك سعود بن عبد العزيز
الرياض ـ المملكة العربية السعودية
أ. هلال بن ناجي
باحث في التراث ـ بغداد ـ العراق

ابن الخراساني، أبو العزّ محمد بن محمد

(494هـ/1100م - 576هـ/1180م)

محمد بن محمد بن مواهب أبو العزّ، نحوي عروضي شاعر وكاتب لا نكاد نعرف شيئا عن مراحل حياته، وتكتفي المصادر بذكر بعض شيوخه والتنويه بمكانته الأدبيّة، من أشهر أساتذته أبو منصور الجواليقي (466هـ/ 1073م - 539هـ/ 1144م) اللّغوي صاحب كتاب المعرّب من الكلام الأعجمي، وتتلمذ على أساتذة آخرين أقلّ شهرة، وممن تذكره المصادر محمد بن سعد بن نبهان، والمبارك بن عبد الجبّار الصيرفي، وعلي بن أحمد بن اليسري، وأحمد بن الحسين بن قريش...

تشير كلّ التّراجم المقتضبة الخاصّة به إلى أنّه متضلّع في النّحو والأدب والعروض، فمعاصره العماد الأصفهاني يصفه بأنّه علاّمة الزّمان في الأدب والنحو متبحّر في علوم الشعر [خريدة القصر، 19/ 46]، ويقول في شأنه السيوطي نقلا عن ابن النجار (578هـ/ 1183م - 643هـ/ 1245م): «كان أديبا فاضلا عالما بالنحو واللّغة والعروض وقول الشعر مشهورا بذلك» [بغية، 1/ 236].

وقد كان شاعرا ومدح الخلفاء والوزراء، ويورد العماد الأصفهاني وياقوت مقتطفات من شعره في المدح وأغراض أخرى متنوّعة.

وتصفه المصادر بأنّه: «غزير العلم ذكيّ الفهم... له خاطر كالماء الجاري، على أنّه تغيّر في آخر عمره فأصيب بالسهو» [إنباه الرواة: 3/ 213].

لا نعرف شيئا عمّن يمكن أن يكونوا تتلمذوا عليه سوى قول ابن النجار كما نقله السيوطي: «روى لنا عنه عبد العزيز بن الأخضر، وأبو الحسن محمد بن عبد اللّه المهتدي، وأبو الفتوح نصر بن الفرج بن الحصري».

■ آثاره

أمّا مؤلّفاته فقد ذكر منها اثنان فقط وهما:

1 - كتاب العروض؛ 2 - النّوادر المنسوبة إلى حدّة الخاطر.

وتذكر المصادر أنّ له مصنّفات أدبيّة وديوان شعر يبدو أنّه كان ضخما إذ يتكوّن من عشرة مجلدات حسب ياقوت [19/ 47] أو خمسة عشر مجلدا حسب غيره [القفطي، 3/ 214؛ الصفدي، 1/ 150].

■ المصادر والمراجع

● العماد الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر. تح. محمد بهجة الأثري، منشورات وزارة الإعلام العراقية 1976، مجلد 1، 3/ 228 - 255؛
● ياقوت الحموي، معجم الأدباء، دار المأمون، 19/ 46 - 47؛ ● القفطي، إنباه الرواة على أنباء النحاة، تح. محمد أبي الفضل إبراهيم، دار الكتب المصريّة 1374هـ/ 1955م، 3/ 213؛ ● الصفدي،

الوافي بالوفيّات، دار النشر فرانز شتاينر بفيسبادن 1394هـ/ 1974م، 1/ 150؛
● ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، تح. إحسان عباس، دار صادر، 3/ 238؛
● السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللّغويّين والنحاة، تح. محمد أبي الفضل إبراهيم، القاهرة 1384هـ/ 1964م، 1/ 235 ـ 236.

د. عبد القادر المهيري
جامعة منوبة ـ تونس

الخراساني النيسابوري الأعرج، نظام الدين الحسن بن محمد

(ت 850هـ/1446م)

هو الإمام الحسن بن محمد بن الحسين الخراساني نظام الدين، من أهل نيسابور، وكان يعرف بالأعرج.

ولد ونشأ بنيسابور، أمّا أصله وموطن أهله وعشيرته فمدينتة «قم». لم نعثر في كتب الرّجال والتّراجم على التّاريخ الضّابط لمولده ووفاته، وإنّ كلّ ما أمكننا الوقوف عليه في هذا الصّدد هو قول محمّد باقر الموسوي في «روضات الجنّات في أحوال العلماء والسّادات» أنّه كان من علماء رأس المائة التّاسعة، على قرب من درجة السّيّد الشّريف، والمولى جلال الدّين الدّواني، وابن حجر العسقلاني، وقرنائهما الكثيرين من علماء الجمهور، وأنّ تاريخ إنهاء مجلّدات تفسيره ـ المشهور به ـ صادف حدود ما بعد الثّمانمائة والخمسين من الهجرة (بعد 850هـ) [محمّد باقر الموسوي، روضات الجنّات، ص225].

ويؤرّخ خير الدّين الزّركلي في «الأعلام» لوفاة المترجم له بما بعد سنة 850هـ وبعد سنة 1446م؛ ويذكر حاجي خليفة في «كشف الظّنون» عند كلامه عن تفسير النّيسابوري أنّه توفي سنة 728هـ. والمتّفق عليه بين أهل التّراجم أنّ نظام الدّين النّيسابوري من أساطين العلم بنيسابور ومن أعلم أهل زمانه، وأنّه مضيء الحجّة، ساطع البرهان، جامع للمعقول والمنقول، بارع في توضيح المشكلات، وكشف الغوامض، والعناية بشرح كلام الأقدمين، وتأليف شروح لكتبهم، له القدم الرّاسخ في صناعة الإنشاء والمعرفة الوافرة بعلم التّفسير والتّأويل، وأنّه معدود من كبار الحفّاظ والمقرئين. وممّا امتاز به المترجم له أيضا، أنّه يحسن جمع المعاني الكثيرة من ألفاظ قليلة معدودة بعبارة سهلة وأسلوب أدبيّ سائغ ممتاز، وقد جمع التّبحّر في العديد من العلوم والمعارف، فهو مفسّر وفقيه ومحدّث ومتكلّم، ذو باع بارع في علوم اللّغة، وخطو واسع في علوم الهيئة والفلك

والطّبيعة والمنطق؛ حتّى ذكر في ترجمته أنّه إذا تكلم في أيّ فنّ من هذه الفنون أجاد فيه وأفاد، حتّى كأنّه لا يحسن غيره. وحسبنا في الإشارة إلى ما وهب من ذلك، ما يذكره ـ هو ـ في وصف مواهبه الذّاتيّة حيث يقول: «... الحمد للّه الذي جعلنا ممّن شرح صدره للإسلام فهو على نور من ربّه، وجبلني ذا نفس أبيّة، وهمّة عالية لا تكاد تستأنس إلّا بذكر حبّه، أعاف سفساف الأمور، وأخاف الموبقات الموجبات للثّبور، أميل عن زخرف الدّنيا، وأكبح النّفس أن تحوم حول مخرجها ومولجها، وإذ وفّقني اللّه تعالى لتحريك القلم في أكثر الفنون المنقولة والمعقولة، كما اشتهر بحمد اللّه تعالى ومنّه فيما بين أهل الزّمان. وعلم التّفسير من العلوم عندي بمنزلة الإنسان من العين، والعين من الإنسان، وكان قد رزقني اللّه تعالى من إبّان الصّبا وعنفوان الشّباب حفظ لفظ القرآن وفهم معنى الفرقان...» [محمّد باقر الموسوي، روضات الجنّات في أحوال العلماء والسّادات، ص226].

وكان نظام الدّين مع هذه الشّهرة العلميّة الواسعة، على جانب كبير من الورع والتّقوى، وعلى مبلغ عظيم من الزّهد والتصوّف، ويظهر ذلك واضحا جليّا في تفسيره الذي أودع فيه مواجيده الصّوفيّة وفيوضاته الرّبانيّة.

ولئن لم نجد في كتب الرّجال والتّراجم أيضا قائمة بأسماء شيوخه وتلاميذه، فبتتبّع تصانيفه ومؤلّفاته أمكننا التّعرّف إلى من تتلمذ عليهم بواسطة كتبهم إمّا بدراستها أو شرحها أو التّعليق عليه.

آثاره

1 ـ شرحه على متن الشّافية للإمام الحاجب في فنّ الصّرف، والكتاب مطبوع ويعرف بشرح النّظام، وقد ذكره الزّركلي وغيره من المترجمين له؛ 2 ـ تعبير التّحرير: وهو شرح على تذكرة الخواجة نصير الملّة والدّين، الطّوسي المعروفة بتحرير المجسطي وبالتّذكرة النّصيريّة، وهي في علم الهيئة. كما له رسائل في علم الحساب؛ 3 ـ كتاب في أوقاف القرآن: وهو في فنّ القراءات حذا فيه حذو ما كتبه السّجاوندي، والكتاب مطبوع ومتداول بين أهل الاختصاص؛ 4 ـ أمّا ما اشتهر به نظام الدّين النّيسابوري من مصنّفاته، فهو تفسيره المعروف بـ «غرائب القرآن ورغائب الفرقان».

وقد اختصره النّيسابوري من التّفسير الكبير للفخر الرّازي، وضمّ إلى مختصراته بعض ما جاء في الكشّاف للزّمخشري وغيره من التّفاسير وما فتح اللّه به عليه من الفهم لمحكم كتابه، وضمّنه ما ثبت لديه من تفاسير سلف هذه الأمّة والصّحابة والتّابعين. وهو إذ يختصر كلام الفخر الرّازي أو يقتبس من تفسير الكشّاف أو غيره، لا يقف عند حدّ النّقل وقوف من يجمد عند النّصوص، بل نجده حرّا في تفكيره، متصرّفا فيما يختصر أو يقتبس، فإن وجد فسادا نبّه إليه وأصلحه، وإن رأى نقصا تداركه فأتمّه وأكمله، كما أجهد عقله في التّرجيح والاختيار والتّنقيح والاختصار، وإضافة ما اطمأنّ إليه من الإشارات والتّأويلات، والموعظة البالغة والقصص المعتبرة حتّى جاء التّفسير وفق

المنهج الذي أراده حيث قال: «واجتهدت كلّ الاجتهاد في تسهيل سبيل الرّشاد ووضعت الجميع على طرف التّمام، ليكون الكتاب كالبدر في التّمام، وكالشّمس في إفادة الخاصّ والعامّ من غير تطويل يورث الملل، ولا تقصير يوعر مسالك السّالك ويبدّد نظام الكلام، فخير الكلام ما قلّ ودلّ، وحسبك من الزّاد ما يبلغك المحلّ».

وكثيرا ما نجد النّيسابوري في تفسيره هذا ينقل عن الرّازي قوله وعن الزّمخشري قوله، ثمّ ينصب نفسه حكما بينهما فيما اختلفا فيه، مبديا رأيه على حسب ما يظهر له، فهو مثلا عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الزمر: 67] يقول ما نصّه. «قال جار اللّه: الغرض من هذا الكلام - إذا أخذته كما هو بجملته - تصوير عظمته والتّوقيف على كنه جلاله، من غير ذهاب بالقبضة واليمين إلى جهة حقيقة أو جهة مجاز، وكذلك حكم ما روي عن عبد اللّه بن مسعود: أنّ رجلا من أهل الكتاب جاء إلى النّبيّ ﷺ فقال: يا أبا القاسم إنّ اللّه يمسك السّماوات يوم القيامة على إصبع، والأرض على إصبع، والجبال على إصبع، والشّجر على إصبع، والثّرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، ثمّ يهزّهنّ ويقول أنا الملك. فضحك النّبيّ ﷺ تعجّبا ممّا قال، وأنزل اللّه الآية تصديقا له. قال جار اللّه: وإنّما ضحك أفصح العرب وتعجّب لأنّه لم يفهم منه إلّا ما فهمه علماء البيان من غير تصوّر وإمساك، ولا إصبع، ولا هزّ، ولا شيء من ذلك، ولكنّ فهمه وقع - أوّل شيء وآخره - على الزّبدة والخلاصة التي هي الدّلالة على القدرة الباهرة، وأنّ الأفعال العظام التي لا تكتنهها الأوهام هيّنة عليه . . . واعترض عليه الإمام الفخر الرّازي بقوله: إنّ هذا الكلام الطّويل لا طائل تحته؛ لأنّه هل يسلّم أنّ الأصل في الكلام حمله على حقيقته أم لا؟ وعلى الثّاني يلزم خروج القرآن بكلّيته عن كونه حجّة؛ فإنّ لكلّ واحد حينئذ أن يؤوّل الآية بما يشاء، وعلى الأوّل - وهو الذي عليه الجمهور - يلزم بيان أنّه لا يمكن حمل اللّفظ الفلاني على معناه الحقيقي لتعيّن المصير إلى التأويل، ثمّ إن كان هناك مجازان وجب إقامة الدّليل على تعيين أحدهما، ففي هذه الصّورة لا شكّ أنّ لفظ القبضة واليمين مشعر بهذه الجوارح، إلّا أنّ الدّلائل العقليّة قامت على امتناع الأعضاء والجوارح للّه تعالى، فوجب المصير إلى التأويل صونا للنّصّ عن التّعطيل، ولا تأويل إلّا أن يقال المراد كونها تحت تدبيره وتسخيره كما يقال: فلان في قبضة فلان، وقال تعالى ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ [الاحزاب: 50].

ويقال: هذه الدّار في يد فلان ويمينه، وفلان صاحب اليد. وأنا أقول: هذا الذي ذكره الإمام طريق أصولي، والذي ذكره جار اللّه طريق بياني، وإنّهم يحيلون كثيرا من المسائل إلى الذّوق، فلا منافاة بينهما» [نظام الدّين النّيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، 24/ 17 - 18].

وقد قدّم نظام الدّين لتفسيره هذا بإحدى عشرة مقدّمة جعل الأولى منها في فضل القراءة والقارئ وآداب وجواز اختلاف الرّوايات، والثّانية في الاستعاذة، والثّالثة في مسائل هامّة حول القراءات السبع والأحرف السبعة، والرابعة في كيفية جمع القرآن، والخامسة في

معاني المصحف والكتاب والقرآن والسّورة والآية والكلمة والحرف وغير ذلك، والسّادسة في ذكر السبع الطّوال والمثاني والميئين والطّواسيم والحواميم والمفصّل والمسبّحات وغير ذلك، والسّابعة في ذكر الحروف التي كتب بعضها على خلاف بعض في المصحف وهي في الأصل واحدة، والثّامنة في أقسام الوقف، والتّاسعة في تمسّيات يعرف منها اصطلاحات مهمّة، والعاشرة في أنّ كلام الله تعالى قديم أم لا؟ أمّا الحادية عشرة فهي في كيفيّة استنباط المسائل الكثيرة من الألفاظ القليلة؛ ثمّ شرع في تفسير القرآن وفق ترتيب التّلاوة مبتدئا بالفاتحة سالكا مسلكا قد يكون منفردا فيه بين المفسّرين؛ ذلك أنّه يذكر الآية القرآنيّة ثمّ يذكر القراءات، مع التزامه ألّا يذكر ما كان منها منسوبا إلى الأيمّة العشرة، مع عزو كلّ قراءة إلى صاحبها، ثمّ يذكر الوقوف مع التّعليل لكلّ وقف منها، ثمّ يشرع في التّفسير مبتدئا بذكر المناسبة وربط اللّاحق بالسّابق مع عناية كبيرة سرت إليه من التفسير الكبير للفخر الرّازي. ثمّ بعد ذلك يبيّن معنى الآيات بأسلوب بديع يشتمل على إبراز المقدّرات وإظهار المضمرات وتأويل المتشابهات وتصريح الكنايات وتحقيق المجاز والاستعارات، وتفصيل المذاهب الفقهيّة مع توجيه أدلّة على مذهب وما حملت عليه الآية القرآنيّة لتكون مؤيّدة لمذهب من المذاهب، أو غير متعارضة معه ولا منافية له؛ كما تميّز صاحب الغرائب والرّغائب بخوضه في المسائل الكلاميّة وذكر كلّ المذاهب وأدلّة كلّ مذهب، ثمّ انتصاره لمذهب أهل السّنّة وتأييده له وردّ ما يردّ عليه من جانب المخالفين [النّيسابوري، الغرائب والرّغائب، 7/ 129].

كما كان المترجم له كثير الخوض أيضا في المسائل الكونيّة والفلسفيّة، فإذا مرّ بآية من الآيات الكونيّة لا يتأخّر عن أن يدلي برأيه في أسرار الكون وكلام الطّبيعيّين والفلاسفة [النّيسابوري، م.ن. 2/ 223، 4/ 7 ـ 8، 30/ 39] وما هذا المسلك ـ الذي سلكه النّيسابوري في الكونيّة والآراء الفلسفيّة ـ في الحقيقة إلّا صدى لما جاء في تفسير الفخر الرّازي، وإن كان قد يستدرك عليه ولا يرتضي قوله في بعض ما يذهب إليه.

ويعكس تفسير النّيسابوري هذا نزعته الصّوفيّة، حيث إنّه كان بعد ما يخرج من تفسير الآية يتكلّم عن التأويلات الممكنة لها والتي هي عبارة عن التّفسيرات الإشاريّة التي يفتح الله بها على عقول أهل الحقيقة من المتصوّفة.

والنّيسابوري كان صوفيّا، يمثّل المدرسة التصوفيّة بأعلى أنواعها، وهو كثيرا ما يستطرد في تفسيره إلى المواعظ المبكية والحكم الغالية. هذا وقد نوّه صاحب روضات الجنّات بمكانة هذا التّفسير قائلا: «وتفسيره ـ يريد النّيسابوري ـ من أحسن شروح كتاب الله المجيد وأجمعها للفوائد اللّفظيّة والمعنويّة، وأحوازها للفوائد القشريّة واللبيّة، وهو قريب من تفسير مجمع البيان كمّا وكيفا، وسمة وترتيبا، بزيادة أحكام الأوقاف في أوائل تفسير الآي ومراتب التأويل في آخره، والإشارة إلى جملة من دقائق نكات العربيّة في البيان» [محمّد باقر الموسوي، روضات الجنّات، ص226].

والتّفسير مطبوع على مصحف التّهجّد

بدار الصّفوة للطّباعة والنّشر والتّوزيع بالغردقة في مصر طبعة أولى سنة (1416هـ/ 1995م) وقد قدّم لهذه الطّبعة الدّكتور عبّاس حسن زكي بترجمة للمؤلّف ومصنّفه [ج 1 ص. ط. ي. ك]. فقال: «هذا الكتاب الغرائب والرّغائب للعلّامة نظام الدّين الحسن بن محمّد الحسيني القمّي النّيسابوري من التّفاسير التي جمعت بين أحكام القراءات وأحكام القرآن والدّلالة على معانيه وحكمه وأسراره وإشاراته ومواعظه بما قد لا يتيسّره مثله بمثل ما جاء فيه، مع رقّة العرض وحسن الاستشهاد وسلاسة الأسلوب واستيعاب ما تيسّر له من المعنى».

كما حقّق هذا التفسير أيضا إبراهيم عطوي وطبعه بمطابع حلب. وهو مطبوع طبعة أخرى على هامش تفسير ابن جرير الطّبري [محمّد حسين الذّهبي، التّفسير والمفسّرون، 1/ 332].

المصادر والمراجع

● النّيسابوري، نظام الدّين، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، دار الصّفوة 1416هـ/ 1995م؛ ● زكي، حسن عبّاس، مقدّمة الغرائب والرّغائب، دار الصّفوة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، الغردقة، مصر 1416هـ/ 1995م؛ ● الزركلي، خير الدّين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط9، سنة 1990؛ ● الموسوي، محمّد باقر، روضات الجنّات في أحوال العلماء والسّادات، ط. فارس 1307هـ؛ ● الذهبي، محمّد حسين، التّفسير والمفسّرون، دار الكتب الحديثة، القاهرة 1393هـ/ 1973م.

د. حسن مزيو
جامعة الزيتونة ـ تونس

ابن خراش، أبو محمد عبد الرحمن بن يوسف

(ت 283هـ/896م)

مروزي الأصل، بغدادي الإقامة، قال أبو نعيم بن عدي: ما رأيت أحفظ من ابن خراش، لا يُذكر له شيء من الشيوخ والأبواب، إلّا مرّ فيه.

قال الخطيب البغدادي: كان ابن خراش أحد الرحالين في الحديث إلى الأمصار بالعراق، والشام، ومصر، وخراسان، وممّن يوصف بالحفظ والمعرفة.

قال ابن حجر: وقد سمع ابن خراش من الفلاس وأقرانه بالعراق، ومن عبد الله بن عمران العابدي وطبقته بالمدينة، ومن الذهلي وبابته في خراسان، ومن أبي التقي اليزني بالشام، ومن يونس بن عبد الأعلى وأقرانه بمصر. وهذه الرحلة في طلب الحديث دفعته إلى التصريح بأنه شرب بوله في هذا الشأن خمس مرات.

قال البغدادي: أحسب فعل ذلك في السفر اضطرارا عند عدم الماء، والله أعلم.

وقيل عنه: كان من المعدودين المذكورين بالحفظ والفهم بالحديث وبالرجال.

سمع منه: نصر بن علي الجهضمي، وأحمد بن إبراهيم الدورقي، وعلي بن خشرم المروزي، وعبد الرحمٰن بن بشر بن الحكم، وعمرو بن علي الصيرفي، وعبد الجبار بن العلاء، وعبد الله بن عمران العابدي، والفضل بن سهل الأعرج، ومحمد بن بشار بندار، وأبا يحيى صاعقة، وأبا التقي هشام بن عبد الملك الحمصي، وأبا عمير بن النحاس الرملي، ويونس بن عبد الأعلى، وأبا عبيد الله أحمد بن عبد الرحمٰن بن وهب، ومحمد بن يحيى الذهلي، وغيرهم.

وقال الذهبي: ان ابن خراش روى عن خالد بن يوسف السمتي، وعبد الجبار بن العلاء، وأبي عمير بن النحاس الرملي، وأبي حفص الفلاس، ونصر بن علي، وأبي التقي هشام بن عبد الملك اليزني، وعلي بن خشرم، ويعقوب الدورقي وطبقتهم. وروى عنه ابن عقدة، وبكر بن محمد الصيرفي، وأبو سهل بن زياد القطان، ومحمد بن محمد بن داود الكرجي وآخرون.

أنشد عبد الملك بن محمد أبو نعيم، قال: أنشدنا عبد الرحمٰن بن خراش الحافظ:

وقائل: كيفَ تهاجرتما
فقلت قولاً فيه إنصافُ
لم يكُ من شكلي فتاركته
والناسُ أشكال وآلافُ

روى ابن خراش بسنده عن عمار بن ياسر، أنهم سألوا رسول الله ﷺ: «هل أتيت في الجاهلية من النساء شيئا حراما؟ قال: لا، وقد كنت على ميعادين، أما أحدهما فغلبتني عيني، وأما الآخر فشغلني عنه سامر قوم». وهو حديث إسناده ضعيف، ففيه زياد بن عبد الله النخعي، وهو مجهول. وقد أخرجه الطبراني في الأوسط [7611] وفي الصغير [921] من طريق إسحاق بن إبراهيم بن شاذان، به.

ومما ذكر عنه أنه خرَّج جزأين في «مثالب الشيخين» وحملهما إلى ابن بندار فأجازه بألفي درهم، فبنى بها حجرة ببغداد ليحدث فيها، فما مُتّع بذلك، ومات حين فرغت.

قال: أبو زرعة محمد بن يوسف الحافظ عنه: كان رافضيا.

وقال عبدان، قلت لابن خراش حديث: «لا نورث ما تركنا صدقة»؟ قال: باطل، قلت: من تتهم به؟ قال: مالك بن أوس. قال ابن حجر: لعل هذا بدا منه وهو شاب، فإني رأيته ذكر مالك بن أوس بن الحدثان في تاريخه فقال: ثقة.

قال عبدان وقد ذكر ابن خراش: وقد حدّث بمراسيل وصلها، ومواقيف رفعها. وهذا اتّهام له بالاصطناع والتزوير في الحديث.

وقال الذهبي عنه: هذا معثّر مخذول، كان علمه وبالا، وسعيه ضلالا، نعوذ بالله من الشقاء. وذكره ابن حجر العسقلاني فقال: هو الشيخ المغتر الذي ضلّ سعيه، فإنه كان حافظ زمانه، وله الرحلة الواسعة والاطلاع الكثير والإحاطة وبعد هذا فما انتفع بعلمه.

توفي ابن خراش ببغداد لخمس خلون من شهر رمضان سنة ثلاث وثمانين ومائتين. وفي رواية ذكرها الخطيب البغدادي في تاريخه أن ابن خراش توفي بطرطوس سنة أربعة وتسعين ومائتين للهجرة، قال: والأوّل أصحّ في تاريخ موته ببغداد، والله أعلم.

آثاره

كان لابن خراش كتاب في الجرح والتعديل.

المصادر والمراجع

● البغدادي، الخطيب، تاريخ مدينة السلام، المجلد الحادي عشر، تح. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1422هـ/ 2001م؛ ● الذهبي، سير أعلام النبلاء، تح. علي أبو زيد، 13/ 508 ـ 510، مؤسسة الرسالة 1403هـ/ 1983م؛ ● الذهبي، العبر في خبر من غبر، تح. فؤاد السيد، ص70 ـ 71، الكويت 1961؛ ● الذهبي، تذكرة الحفاظ، دار إحياء التراث العربي، 2/ 684؛ ● ابن الجوزي، المنتظم، طبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الدكن سنة 1357هـ، 5/ 164؛ ● العسقلاني، لسان الميزان، طبعة حيدر أباد الدكن، مؤسسة الأعلمي، بيروت، 3/ 444 ـ 445؛ ● الصفدي، الوافي بالوفيات، 18/ 311، تح. أيمن فؤاد السيد، منشورات المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، بيروت، 1988، 18/ 311؛ ● السيوطي، طبقات الحفاظ، تح. علي محمد عمر، القاهرة، 1393هـ، 297؛ ● الحنبلي، ابن العماد، شذرات الذهب، المكتب التجاري، بيروت، 2/ 187.

أ. هلال بن ناجي
باحث في التراث العربي ـ العراق

ابن الخرّاط، أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن

(510هـ/1116م ـ 581هـ/1185م)

أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمٰن بن عبد الله، الأديب الأندلسي، الإشبيلي، وعرف في زمانه بابن الخرّاط، إمام، علّامة، محدّث حافظ، حجّة، لغويّ بارع، شاعر، متفنن، زاهد. قال ابن الأبّار: كان فقيها حافظا، عالما بالحديث وعلله، عارفا بالرجال، موصوفا بالخير والصلاح، والزهد والورع، ولزوم السنّة والتقلّل من الدنيا، مشاركا في الأدب وقول الشعر.

ولد بإشبيلية في ربيع الأوّل سنة عشر وخمسمائة للهجرة، وقيل: أربع عشرة وخمسمائة بإشبيلية، وتلقّى العلم عن كبار شيوخ الأندلس بإشبيلية ولَبْلة، ومنهم: أبو الحسن شريح بن محمد الرعيني، وأبو بكر بن

العربي، وأبو الحكم بن برجان، وطاهر بن أحمد بن عطيّة، وغيرهم، وأجازه من المشرق الحافظ الكبير أبو القاسم بن عساكر الدمشقي، والمحدّث أبو طاهر أحمد بن محمد السلفي، وروى عنه العلم جمع غفير، تلقيا وإجازة في المغرب والمشرق وحدّثوا عنه بتصانيفه.

تحوّل من إشبيلية إلى لبلة، إبّان الفتن التي داهمت الأندلس في أواخر العصر المرابطي وقيام دولة الموحّدين الذين سيطروا على إشبيلية سنة 541هـ، ثمّ وقعت فتنة بلبلة سنة 549 هـ، فخرج منها قاصدا الحجّ فلم يُقدّر له ذلك، فاستقرّ بمدينة بجاية ـ وهي على البحر الأبيض المتوسّط (تقع الآن في القطر الجزائري). وكانت الدولة الحمادية قد اتّخذتها عاصمة لها ـ فألّف فيها التآليف النافعة، وولي خطبة الجمعة وصلاة الجماعة بالجامع الأعظم، وجلس للوثيقة والشهادة، وأقبل عليه الطلّاب يدرسون عليه، ويحملون عنه، ولمّا مات يوسف بن عبد المؤمن في إحدى المعارك بالأندلس، خرج علي بن إسحاق بن غانية، أمير بني غانية بميروقة بجيش فسيطر على بجاية سنة 580هـ، فخطب لهم عبد الحق، ودعا لبني العبّاس في المشرق ولهم، وتولّى القضاء، وكان قد دعي إليه للموحّدين من قبل فلما يجب. فلمّا أعدت بجاية للحكم الموحّدي في صفر سنة 581هـ، غضب عليه يعقوب المنصور الموحّدي لتعاونه مع بني غانية، ورام سفك دمه، فعصمه الله منه حتّى مات على فراشه سنة 581هـ، في شهر ربيع الاخر، وقيل سنة 582هـ، وكانت مدّة بقائه في بجاية نحوا من ثلاثين سنة.

كان أحد أقطاب المعرفة في المغرب والأندلس، متقلّلا من الدنيا، قسّم ليله أثلاثا: ثلثا للقراءة، وثلثا للعبادة، وثلثا للنوم، وقسّم نهاره أثلاثا، كان إذا صلّى الصبح في الجامع أقرأ الطلبة إلى وقت الضحى، ثمّ قام فركع ثماني ركعات، ونهض إلى منزله واشتغل بالتأليف إلى صلاة الظهر، فإذا صلّى الظهر أدّى الشهادات وقرىء عليه في أثناء ذلك إلى صلاة العصر فإذا صلّى العصر مشى في حوائج الناس.

آثاره

ترك عبد الحق الإشبيلي مصنّفات جليلة ومتنوّعة زادت على خمسة وعشرين تأليفا في الحديث الشريف وعلومه، والزهد والرقائق، واللغة، وقد أثّرت هذه المصنّفات بقوّة في أهل العلم والتأليف بعده، ولا سيّما كتبه الحديثيّة، إذ أصبحت محلّ درس، وحفظ، واعتمد عليها في حياة مؤلّفها وبعده، وتناقلها كبار العلماء غربا وشرقا، ونوّهوا بقدرها وجلالتها، ومنها:

1 ـ الأحكام الشرعية الكبرى، جمع فيه الأحاديث النبويّة التي تستنبط منها أحكام أفعال المكلّفين، وكان عمله هذا رائدا في مضماره لم يسبقه به إلّا اثنان قريبان منه، هما: أبو القاسم الزيدوني، وأبو العباس أحمد بن أبي مروان الأنصاري، ولكنّ عملهما انطفأ فلا يعرف له أثر، وبقي عمل عبد الحقّ منبعا للمعرفة. وقد ساق الأحاديث في هذا الكتاب بأسانيدها فجاء ذلك الكتاب كبيرا. يوجد منه نسخة خطّيّة تتكوّن من ستّة أجزاء ينقصها الثالث والرابع، وهي بدار الكتب المصريّة تحت رقم 29 حديث، وذكر

له بروكلمان مخطوطات في أماكن أخرى؛ 2 ـ الأحكام الشرعية الوسطى، وقد اختصره من الكبرى، بحذف الأسانيد، وبعض الأحاديث، وضمّنه نحوا من خمسة آلاف وخمسمائة حديث، وصدّره بمقدّمة منهجيّة فيها غرر من قواعد علم الحديث، وتكلّم على الأحاديث بالتصحيح والتضعيف، والجرح والتعديل. وقد شغل هذا الكتاب حلقات الدّرس الإسلامي على اختلافها في عصره وبعده وغدا مقصد الطلاب، وتلقّاه الناس بالقبول، وذلك لحسن تصنيفه، وبراعة تأليفه، وجودة اختياره، ودلّ ذلك منه على حفظ واتقان، وعلم وفهم، واطّلاع واتّساع. وعرف هذا الكتاب بعبد الحقّ، وعرف هو به.

قال الحافظ الذهبي (ت 748هـ): وسارت بأحكامه الصغرى والوسطى الركبان. وبقي حتّى يومنا هذا رائد هذا الميدان. وشرح مقدّمة هذا الكتاب الحافظ ابن دقيق العيد (ت 720هـ)، وتتبّع الأحاديث وكلامه عليها الحافظ الناقد أبو الحسن بن القطان الفاسي (ت 628هـ) في كتابه الجليل: «بيان الوهم والإيهام». ولأبي عبد الله محمد بن علي حماد الصنهاجي تلميذ عبد الحقّ (ت 628هـ) كتاب «الإعلام بفوائد الأحكام». وقد اختصرها من الوسطى، واقتصر فيها على أحاديث الصحيحين والسنن الثلاثة والموطأ، وقليل من غيرها وقد نشرت هذا الكتاب مكتبة ابن تيمية، ومكتبة العلم بجدّة 1413هـ/ 1993م بتحقيق أم أحمد بنت أحمد الهليس، وكان قد شرحه قديما أبو عبد الله بن مرزوق التلمساني (ت 781هـ)، وشرحه صدر الدين محمد بن المرحل (ت 716هـ)، وأبو محمد عبد العزيز بن بزيزة التونسي (ت 663هـ) وغيرهم؛ 3 ـ كتاب التهجّد، ورد في بعض المصادر بعنوان: الصلاة والتهجّد، وبهذا العنوان طبع 1413هـ/ 1992م بدار الوفاء بالمنصورة بتحقيق عادل أبي المعاطي، وهو كتاب جليل في موضوعه، على طريقة أهل الحديث في مجلّد بلغ أربعمائة وعشرين صفحة؛ 4 ـ الجمع بين الصحيحين، جمع فيه بين صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وحذف الأسانيد ووضعه على ترتيب كتاب مسلم، وعُدّ أحسن عمل في هذا الباب، يوجد منه السفر الأوّل بخزانة القرويين تحت رقم ق 198هـ، وذكر بروكلمان وجوده في أماكن أخرى؛ 5 ـ تلقين الوليد، وفي بعض المصادر: تلقين المهتدي، وفي بعضها: تلقين المبتدىء، صنعه للولدان الصغار ليحفظوه، وذكر فيه مائة واثنين وسبعين حديثا، من مصادر متفرّقة وقسمها على الأبواب المعروفة في العبادات والآداب، وطبع ضمن مجلّة لسان الدين بالمطبعة المهديّة بتطوان 1372هـ/ 1952م؛ 6 ـ الجامع الكبير في الحديث، قصد فيه جمع الكتب الستّة، وأضاف إليها كثيرا من غيرها ومنه صحيح ومعتلّ، تكلّم على علله، وهو أضعاف كتاب الأحكام الكبرى، قال الغبريني عن شيخه أبي محمد بن عبادة: سمعت منه أنّ الكتاب المذكور اضمحلّ أمره بعد كمال تأليفه لكبره، وقيل نهب منه في الفتنة التي حصلت ببجاية، وقد وصف بأنّه في عشرين مجلّدا جمع فيه ما وقع إليه من الحديث إلّا الواهي والمتروك ـ وهذه محاولة رائدة في الموضوع؛ 7 ـ جامع الكتب الستّة، وهو مصنّف كبير، وقد نهب منه في الفتنة

أيضًا؛ 8 ـ بيان المعتلّ من الحديث، قال تلميذه محمد بن حسن الأنصاري: وهو قدر صحيح مسلم جمع فيه ما وقع إليه من الأحاديث المعتلّة، وبيّن عللها في نحو ستّة مجلّدات؛ 9 ـ المرشد، قال محمد بن حسن الأنصاري: تضمّن حديث مسلم كلّه، وما زاد البخاري على مسلم وأضاف إلى ذلك أحاديث حسانا وصحاحا، من كتاب أبي داود، والنسائي، والترمذي، وغيرهم؛ 10 ـ العاقبة في ذكر الموت والآخرة، وهو من أشهر مصنّفاته التي وقعت العناية بها، وموضوعه الموت والاستعداد له، والقبر وأحواله، والبعث والنشور وأحوال الآخرة، وقد وضعه في مقدّمة طويلة واثنين وعشرين بابا، وله نسخ كثيرة مخطوطة، نشر للمرّة الثانية بمكتبة العجيري 1990م، بتحقيق خضر محمد خضر؛ 11 ـ معجزات الرسول في سفر؛ 12 ـ كتاب التوبة يقع في سفرين؛ 13 ـ الرقائق، اختصار كتاب الرشاطي في الأنساب من القبائل والبلاد، قال الغبريني: وهو أحسن من الأصل وتوجد منه نسخة بالمكتبة الأزهرية تحت رقم 133 (والأصل اسمه: اقتباس الأنوار والتماس الأزهار في أنساب الصحابة ورواة الآثار لعبد الله بن علي بن خلف الرشاطي، ت 542هـ)، وقد وُصف بأنّه لم يسبق إلى مثله وتداوله العلماء؛ 14 ـ مختصر الكفاية في علم الرواية، والكفاية كتاب في علوم الحديث للخطيب البغدادي (ت 463هـ)؛ 15 ـ الواعي في اللغة، وجاء في بعض المصادر باسم الحاوي، وهو كتاب حافل ضاهى به كتاب الغريبين لأبي عبيد الهروي، وُصف بأنّه في ثمانية عشر مجلّدا، وقيل في نحو خمسة وعشرين سفرا، شرح فيه ماورد في القرآن والحديث من غريب اللغة.

وذكر في مصنّفاته أيضًا: «المنير».

المصادر والمراجع

ترجمت له مصادر كثيرة من عصره إلى يومنا هذا وركّزت على ذكر مصنّفاته وأثرها العلمي، وقد أجمعت كلها على فضله وجلالته منها:

● الضبّي، بغية الملتمس، ترجمة رقم 1104، ط. دار الكاتب العربي، 1967م، ص 391 ـ 392؛ ● الغرناطي، ابن الزبير، الصلة، تح. لَفي بروفنسال، ط. الرباط، 1937م، ص 4، 7؛ ● الغبريني، أبو العباس، عنوان الدراية، منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر ببيروت، الطبعة الأولى، 1969 م، ص 41 ـ 44؛ ● الذهبي، سير أعلام النبلاء، تح. بشار عواد معروف، ومحيي هلال السرحان، ط. الأولى 1404هـ/ 1984م بمؤسّسة الرسالة ببيروت، 21/ 198 ـ 202؛ ● تذكرة الحفاظ، مطبوعات دائرة المعارف العثمانية بدار إحياء التراث العربي، د.ت، 4/ 1350 ـ 1353؛ ● الذهبي، نقد بيان الوهم والإيهام، دراسة وتحقيق د. فاروق حمادة، ط. أولى بدار الثقافة بالدار البيضاء 1408هـ/ 1988م؛ ● ابن فرحون، الديباج المذهّب، تح. محمد الأحمدي أبو النور، نشر بمكتبة دار التراث بالقاهرة، د.ت، 2/ 59 ـ 61؛ ● المنذري، التكملة لوفيات النقلة، ط. الثالثة بمؤسّسة الرسالة ببيروت، تح. بشار

عوّاد معروف، 1/ 61؛ ● الكتبي، ابن شاكر، فوات الوفيّات، 2/ 256 ـ 257؛ ● ابن قنفذ القسنطيني، الوفيّات، تح. عادل نويهض، منشورات دار الآفاق الجديدة ببيروت، ط. الرابعة 1403هـ/ 1983م، ص 293؛ ● الحنبلي، ابن العماد، شذرات الذهب، ط. دار الفكر ببيروت، د.ت، 4/ 271؛ ● المقّري، نفح الطيب في مواضع أهمّها: 2/ 164، 3/ 180، تح. إحسان عبّاس، ط. دار صادر ببيروت 1388هـ/ 1968م؛ ● الكتاني، الرسالة المستطرفة، ط. الرابعة بدار البشائر الإسلامية 1406هـ/ 1986م، ص178 ـ 179؛ ● مخلوف، محمد، شجرة النور، ط. دار الفكر ببيروت د.ت، ص155 ـ 156؛ ● بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ط. الرابعة، دار المعارف بمصر نقله إلى العربية عبد الحليم النجار، 6/ 278 ـ 279؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون، نشر مكتبة المثنى ببغداد، د.ت، ص19، 20، 481، 483، 599، 600، 611، 1437، 1996؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، هديّة العارفين، أعادت طبعه بالأوفست مكتبة المثنى ببغداد، د.ت، ص 503؛ ● الثعالبي، الحجوي، الفكر السامي، نشر المكتبة العلمية بالمدينة المنوّرة، 1397هـ/ 1977م، 2/ 226 ـ 227؛ ● الزركلي، الأعلام، ط. الرابعة بدار العلم للملايين، ببيروت 1979م، 3/ 281؛ ● كحّالة، معجم المؤلّفين، 4/ 92؛ ● لمحمّد رسالة حافلة نال بها دبلوم الدراسات العليا ـ الماجستير ـ نوقشت بكلّية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط بعنوان «عبد الحق الإشبيلي وآثاره الحديثيّة».

د. فاروق حمادة
جامعة محمد الخامس
الرباط ـ المغرب

ابن خُرداذْبَه أبو القاسم، عبيد الله بن عبد الله

(حوالي 205هـ/ 820م ـ 280هـ/ 893م)

أبو القاسم، عُبيد الله بن عبد الله بن خُرداذْبَه، مؤرخٌ وجغرافي موسوعي العِلم والتأليف، فارسي الأصل، كان والده حاكماً على طبرستان جنوب بحر قزوين، وجده خُرداذْبَه مجوسيٌّ أسلم على أيدي البرامكة، وقد ذاع صيته بسبب إخضاعه لبعض مناطق الديلم وإلحاقها بالخلافة الإسلامية، والمعلومات عن ابن خرداذْبَه ضئيلة عن طفولته ونشأته.

ولد حوالي سنة 205هـ وإن كانت بعض المراجع تجعل ولادته سنة 200هـ وبعضها يجعل وفاته سنة 300هـ، ولاشك أن موقع

أبيه وأسرته جعله يتلقّى تعليماً جيداً، درَسَ الموسيقى على يد المغني الشهير إسحق الموصلي صديق والده الحميم، ثم نجده نديماً للخليفة العباسي المعتمد (256 ـ 279هـ)، وكان ابن خُرْداذْبَه من أصحاب النفوذ في الدولة العباسية، شغل منصباً هاماً هو صاحب البريد والخَبَر في منطقة الجبال بغربي إيران أو ميديا القديمة أوأذربيجان وكردستان الحالية، وقد شغل هذا المنصب في بغداد (سامراء) وأفاده منصبه في الاطّلاع على وثائق الدولة ومكّنه من تأليف كتابه الشهير «المَسالك والممَالك»، ومعظم ما كتبه عُرِفَ من الإشارات إليه في مراجع المتأخرين عنه. وقد نوّه به المسعودي في كتابه المروج حيث قال: «وعبيد الله بن عبد الله، فإنه كان إماماً في التأليف مبتدعاً في ملاحة التصنيف قلَّ منْ وَطِيءَ على قدمه وقفا أثره. وإذا أردت أن تعلم صحّة ذلك فانظر كتابه الكبير في التاريخ فإنه أجمع هذه الكتب جداً، وأبرعها نظماً، وأكثرها علماً، وأحوى لأخبار الأمم وملوكها وسيرها من الأعاجم وغيرها. ومن كتبه النفيسة كتابه «المسالك والممالك» وغير ذلك مما إذا طلبته وجدته، وإذا تفقدته حمدته». وقد أصبح عنوان كتابه «المسالك والممالك» موضوعاً لسلسلةٍ من كتب المؤلفين في المسالك كالبلخي، والإصطخري، وابن حوقل والبكري الأندلسي . . . وهو يحدد في مقدمة كتابه مضمون الكتاب ومصدره الأساسي وهو كتاب الجغرافيا لبطليموس فيقول: «هذا كتاب صفة الأرض وبنية الخلق عليها وقبلة أهل كل بلد والممالك والمسالك إلى نواحي الأرض، وقد وجدت بطليموس قد أبان الحدود وأوضح الحجة في صفتها بلغةٍ أعجمية فنقلتها عن لغته باللغة الصحيحة لتقف عليها».

ويتألف الكتاب من سبعة أقسام متفاوتة في طولها ويظهر فيها عدم التنسيق والترتيب في المادة، فالقسم الأول: نظريات في الكوزموغرافيا (علم الكون) تناول فيه الأرض في الفلك على عادة معظم الجغرافيين العرب الذين أرادوا تهيئة القارئ لفهم الجغرافيا الرياضية عن الأرض وأبعادها.

وتظهر في هذا القسم مبادئ الجغرافيا الفلكية من خلال اهتمامه ككل الجغرافيين المسلمين بقبلة كل بلد «فقبلة أهل أرمينية وأذربيجان وبغداد وواسط والكوفة والمدائن والبصرة وحلوان والدينور ونهاوند وهمذان وأصبهان والريّ وطبرستان وخُراسان، كلها وبلاد الخزر وقشمير الهند إلى حائط الكعبة الذي فيه بابها وهو من القطب الشمالي عن يساره إلى وسط الشرق، وأما التُبَّت وبلاد الترك والصين والمنصورة فخلف وسط المشرق بثمانية أجزاء لقرب قبلته من الحجر الأسود، وأما قبلة أهل اليمن فصَلاتهم إلى الركن اليماني ووجوههم إلى وجوه أهل أرمينية إذا صلّوا، وأما قبلة أهل المغرب وإفريقية ومصر والشام والجزيرة فوسط المغرب وصلاتهم إلى الركن الشأمي ووجوههم إذا صلّوا إلى وجوه أهل المنصورة إذا صلّوا، فهذه قِبَلُ القوم والنحو الذي يُصَلّون إليه».

والقسم الثاني: يتحدث فيه عن جغرافية إقليم بغداد مركز الخلافة. وفي الأقسام 3 و4 و5 و6 تناول فيه شرق العالم الإسلامي وما يليه: فارس والهند والصين، ثم بلاد الشام ومصر والمغرب وما بين النهرين وبلاد بيزنطة وينتقل

شمالاً إلى أرمينيا وبلاد الخزر وجزيرة العرب. والقسم السابع: يخصصه لأقسام العالم الأخرى وغرائبه وقد ألّف ابن خُرداذبه الكتاب تحقيقاً لرغبة أحد أمراء العباسيين وجمع فيه ما كان يصله من الوثائق والتقارير ووصف البلاد والطرقات مما يجعله مصدراً جغرافياً هاماً عن تلك الفترة، ويمثل المراحل الأولى للجغرافيا الوصفية التي نراها عند كل من أتى بعده أمثال ابن الفقيه، وابن حوقل، والمقدسي، والجيهاني والمسعودي، والإدريسي، وابن خلدون، ونسج على منواله البكري الأندلسي (ت 487هـ) في كتابه المسالك والممالك، وكذلك الإصطخري وابن حوقل، كما يعد بداية لجغرافية الطرق والمواصلات.

آثاره

1 ـ المسالك والممالك نشره باربييه دو مينار Barbier De Meynar في المجلة الآسيوية 1865 ودرسه دوغويه De Gyoeje ونشره مع المكتبة الجغرافية (ج 6) واستخلص من دراسته أنه أُلِّف عام 232هـ/ 846م، ونشره في ليدن 1309م. وظهر مع موسوعة سزكين (منشورات معهد العلوم العربية والإسلامية) عن طبعة دو غويه الذي يرى أن مسودة الكتاب الأولى تعود إلى حوالي عام 232هـ/ 846م، والمسودة الثانية تعود إلى عام 272هـ/ 885م بعد أن أخذ يضيف إليها بالتدريج بعض الزيادات.

وصدر كتاب وصف المغرب وأورفي (أوروبا) بالفرنسية لمحمد حاجي صادق في الجزائر عام 1949، عما كتبه ابن خرداذبه، وابن الفقيه الهمذاني، وابن رستة عن المغرب وأوربا؛ 2 ـ اللهو والملاهي نشره الأب أغناطيوس عبده عن نسخة يتيمة، وعلّق عليه ونقده إبراهيم السامرائي في مقالة مطوّلة في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق [مج 5، 2/ 1951]، كما نشره في بغداد إبراهيم العزّاوي في كتابه: الموسيقى العربية في عهد المغول والتركمان نقلاً عمّا أورده المسعودي، وحكى أن المعتمد كان شغوفاً بالطرب وأنه سأل ابن خرداذبه عن مخترع آلة العود فأجابه واستطرد في ذكر أنواع الأصوات وطبقاتها والأنغام وما اشتهرت به كل أمّة وأنواع الرقص، مما يجعل كتابه في اللهو والملاهي موسوعة فنيّة في عهده؛ 3 ـ كتاب أدب السماع؛ 4 ـ كتاب الأنواء؛ 5 ـ كتاب جمهرة أنساب الفرس والنوافل؛ 6 ـ كتاب الشراب؛ 7 ـ كتاب الطبيخ؛ 8 ـ الندم والجلساء (الندماء).

ويضيف المستشرق كراتشكوفسكي كتاب التاريخ اعتماداً على ما ذكره المسعودي عن تاريخ الأمم قبل الإسلام، وكتاب الملاهي والأسمار (وهو كتاب اللهو والملاهي نفسه) وبذلك يكون مجموع كتبه تسعة كتب فقط.

المصادر والمراجع

● الفندي، محمد ثابت، دائرة المعارف الإسلامية، مج 1، جمادى الثانية 1352هـ/ أكتوبر 1933م؛ ● ابن النديم، الفهرست، تح. رضا تجدد، طهران 1391هـ/ 1971م؛ ● الفهرست لابن النديم، صياغة حديثة، تح. د. ناهد عباس عثمان، ط1، 1985م، دار قطري بن الفجاءة، الدوحة، قطر؛

● كراتشوفسكي، أغناطيوس، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح عثمان، الخرطوم 1960، إصدار الجامعة العربية؛ ● الزركلي، الأعلام؛ ● دائرة معارف البستاني، ج 1؛ ● مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مج 50، ج 2، ربيع أول 1395هـ/ابريل 1975م؛ ● ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت؛ ● المسعودي، مروج الذهب، ج 1، تح. محمد محيي الدين عبد الحميد، كتاب التحرير، 1386هـ/ 1966م؛ ● غربال، شفيق، الموسوعة العربية الميسرة؛ ● العزاوي، عباس، الموسيقى العراقية في عهد المغول والتركمان، بغداد 1370هـ/ 1951م؛ ● ابن خُرداذبه، المسالك والممالك، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، الجغرافيا الإسلامية، مج 39، 1413هـ/ 1992م، منشورات فؤاد سزكين عن طبعة دوغويه؛ ● المستشرق مينورسكي، الجغرافيون والرحالة المسلمون، ترجمة د. عبد الرحمٰن حميدة، نشرة الجمعية وقسم الجغرافيا بجامعة الكويت، ربيع 2، 1405هـ/ يناير 1985م؛ ● دائرة المعارف الاسلامية، ط. ج III، فصل ابن خرداذبة.

د. محمود عصام الميداني
جامعة دمشق ـ سوريا

خُرد اليمني، محمد علي

(ت 960هـ/ 1553م)

جمال الدين بن علي بن علوي بن محمد باعلوي، المعروف بخُرد اليمني، محدّث، فقيه، من شيوخ حضرموت وفُضلائها. ولد في مدينة تريم ونشأ وتفقّه بها. وقد ذكر الطيب بامخرمه وغيره أنّ هذه المدينة قد أنجبت عددًا كبيرًا من رجالات الفضل وأركان الدين والعِلم، وخرج منها علماء فقهاء فضلاء ومشايخ أجلّاء، ومنهم صاحب الترجمة جمال الدين محمد بن علي خُرد [ابن عبيد الله، السقاف، معجم بلدان حضرموت، ص 502، 505؛ هدية العارفين، 2/ 244؛ كحالة، معجم المؤلّفين، 11/ 29؛ الزركلي، الأعلام، 6/ 292].

كان خُرد كثير الترحال، زار خلال رحلاته مناطق يمنية عديدة منها؛ عدن وزَبيد، وربّما كان ذلك بهدف الاستزادة من العلم، ثمّ ذهب إلى مكّة وأدّى فريضة الحجّ، توفّي بتريم سنة 960هـ [هدية العارفين، 2/ 244؛ شذرات الذهب، 8/ 327؛ كحالة، م. س، 11/ 29؛ الزركلي، م. س، 6/ 292].

آثاره

1 ـ غرر البهاء الضَّوّي في ذكر العلماء من بني

جَديد وبَصري وعلوي، يحمل رقم 1982 في مكتبة الحسيني بمدينة تريم، وجاء في 222 ورقة [عبد الله الحبشي، فهرست المخطوطات اليمنية، ص45، ومراجع تاريخ اليمن، ص238؛ المركز اليمني للأبحاث، فهرست الكتب المخطوطة للمؤلّفين اليمنيين، ص109؛ الزركلي، الأعلام، 6/ 292؛ أيمن فؤاد سيّد، مصادر تاريخ اليمن، ص209]؛ 2 ـ الوسائل، في الحديث؛ 3 ـ النفحات؛ 4 ـ النصح والإرشاد؛ 5 ـ له ديوان شعر [الزركلي، م. س، 6/ 292؛ كحالة، م. س، 11/ 29].

المصادر والمراجع

● البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين أسماء المؤلّفين وآثار المصنّفين، استانبول، 1951، منشورات مكتبة المثني، بغداد؛ ● الحنبلي، ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، المكتبة التجارية، بيروت د.ت؛ ● السقاف، عبد الرحمٰن بن عبيد الله، معجم بلدان حضرموت المسمّى إدام القوت في ذِكر بُلدان حضرموت، تح. إبراهيم المقحفي وعبد الرحمٰن حسن السقاف، الطبعة الأولى، مكتبة الإرشاد، صنعاء، 1423هـ/ 2002م؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلّفين، مطبعة الترقي بدمشق، 1378هـ؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت 1979م، ط4؛ ● المركز اليمني للأبحاث الثقافية والآثار والمتاحف، فهرست الكتب المخطوطة بمكتبة الأحقاف بتريم للمؤلّفين اليمنيين، حضرموت، تريم، 1988؛ ● الحبشي، مراجع تاريخ اليمن، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1972م؛ ● نفس المؤلّف، فهرست المخطوطات اليمنية في حضرموت، مؤسسة 14 أكتوبر للطباعة والنشر، عدن، 1974م؛ ● سيدّ، أيمن فؤاد، مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي، المعهد العِلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، 1974م.

د. محمد عبد الله بن هاوي باوزير
جامعة عدن ـ اليمن

الخرشي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله

(1010هـ/1601م ـ 1101هـ/1690م)

محمد بن عبد الله بن علي الخرشي البحيري المالكي، أبو عبد الله الإمام الفقيه، المحدث، النحوي، الأصولي، المتكلم. ونسبته إلى قرية يقال لها: أبو خراش، بالبحيرة من أعمال مصر. وقيل: اسم القرية خرشة. وعلى هذا اختلف في

ضبط هذه النسبة بين «الخراشي» أو «الخرشي»؛ وكذلك بين فتح الخاء أو كسرها أو ضمها، وأقرب المترجمين له زمنا، وهو الشيخ أحمد العدوي (ت 1189هـ/ 1775م) أحد تلاميذ تلامذته، وصاحب الحاشية على شرحه للمختصر؛ قد ضبط النسبة بدون ألف المد بعد الراء، وذلك نقلا عن خط الخرشي نفسه، وذكر أن اسم القرية «أبو خراش»، وأنّ النسبة على غير قياس [حاشية العدوي، 1/ 11].

ويعرف أهله بأولاد «صباح الخير». أقام بالقاهرة، روى الحديث عن والده عبد الله الخرشي؛ والعلامة إبراهيم اللقاني، والشيخ علي الأجهوري، بأسانيدهم إلى أصحاب الكتب الستة.

وأخذ العلوم عنهم ومن غيرهم من العلماء كالشيخ يوسف الفيشي، والشيخ عبد المعطي البصير، والشيخ حسين النماوي، والشيخ ياسين الشامي. وكان حصيلة ما أخذه من علماء عصره بمصر اتّساع معارفه في سائر الفنون الشرعية، حتى عد من آخر الأئمة المتصرفين التصرف التام في العلوم، وخاصة في الفقه المالكي. ووصفه مترجموه بالإمام، والعلامة وشيخ الإسلام والمسلمين، وشيخ المالكيّة شرقا وغربا، انتهت إليه رئاسة العلم في مصر حتّى إنه لم يبق فيها أواخر عمره إلّا طلبته وطلبة طلبته؛ ووقف الناس عند فتاويه.

كان يدرس بجامع الأزهر، وبالمدرسة الابتغاوية. وكان يقرئ بهما التوحيد، والنحو، والفرائض، والحساب، والفقه.

وقد تخرج به جماعة حتى وصل عدد ملازميه المجدّين نحو الألف، منهم: الشيخ أحمد اللقاني، والشيخ محمد الزرقاني، والشيخ علي اللقاني، والشيخ شمس الدين اللقاني، والشيخ محمد النفراوي، والشيخ علي النوري، والشيخ أحمد الشرفي الصفاقسي، والشيخ أحمد الشبراخيتي، وغالب علماء العصر من المذاهب الأربعة.

وكان الخرشي أول من تولى مشيخة الأزهر. وكما اشتهر بعلمه، فقد اشتهر أيضا، وفي بلاد الإسلام كلها، بالصلاح والفضل والورع والزهد؛ فأثر عنه أنه كان متقشفا في مأكله وملبسه ومفرشه، محافظا على صلاة الصبح بجامع الأزهر صيفا وشتاء، كثير التهجد في الليل، منشغلا بالطاعة في النهار بين العلم وقراءة القرآن والذكر، واسع الخلق متواضعًا، ساعيا في حوائج العامة والأرامل والأطفال، باذلا كتبه لكل طالب، قائما على قضاء مصالحه من السوق، متعاطيا مصالح بيته في منزله، كثير الأدب والحياء، كريم النفس، جميل المعاشرة، حلو الكلام. وما كان قط يزاحم على شيء من الدنيا، أو يتردد إلى أحد من الولاة، إلّا لضرورة شرعيّة من شفاعة لمظلوم، ونحو ذلك. وكان الأمراء يهابونه ويجلونه ويقبلون شفاعته. وقد رفعته هذه الأخلاق إلى أن يكون قدوة على طريق التربية والسلوك.

توفي بالقاهرة صبيحة يوم الأحد 17 ذي الحجة سنة 1101هـ/ 1690م وقيل سنة 1102هـ ودفن مع والده بوسط تربة المجاورين. وقبره مشهور كما نقل ذلك العدوي في حاشيته. وقد حضر جنازته خلق عظيم.

آثاره

للخرشي مؤلفات مختلفة الفنون منها:

1 ـ منتهى الرغبة في حل ألفاظ النخبة؛ والنخبة كتاب لابن حجر، وهو في مصطلح الحديث؛ 2 ـ الفرائد السنية في شرح المقدّمة السنوسية، وهو في التوحيد؛ 3 ـ الدرة السنية على حل ألفاظ الأجرومية، مخطوط، دار الكتب الوطنيّة، تونس، رقم 9610، الأوراق 77، لغة؛ 4 ـ جزء على البسملة؛ 5 ـ شرح كبير على مختصر خليل؛ 6 ـ شرح صغير على مختصر خليل أيضا، ويسمى «فتح الجليل على مختصر خليل». والشرحان في فقه المالكيّة، وقد اشتهر الصغير واعتنى به المغاربة والمشارقة بوضع الحواشي عليه، وهو مطبوع مع حاشية العدوي عليه، نشر دار الكتب العلميّة، بيروت لبنان، ط1، 1417هـ/ 1997م.

المصادر والمراجع

● البغدادي، إسماعيل باشا، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، دار الفكر 1402هـ/ 1982م، 2/ 182؛ ● البغدادي، هدية العارفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1955م، 2/ 302؛ ● الجبرتي، عبد الرحمٰن، تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، 1/ 113؛ ● الحجوي الثعالبي الفاسي، محمد بن الحسين، الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، دار التراث، القاهرة ط1، 1396هـ، 2/ 284؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط2، 6/ 240 ـ 241؛ ● العدوي الصعيدي، أحمد، حاشية على شرح الخرشي على مختصر خليل، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط1، 1417هـ/ 1997م، 1/ 9 ـ 11؛ ● القادري، محمد بن الطيب، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، ضمن موسوعة أعلام المغرب، تح. محمد حجي ومن معه، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1417هـ/ 1996م، 5/ 1796 ـ 1800؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلّفين، مطبعة الترقي، دمشق، 1380هـ/ 1960م، 10/ 210 ـ 211؛ ● مخلوف، محمد، شجرة النور الزكية، دار الفكر، ص 317.

أ. الحبيب بن طاهر
وزارة الشؤون الدينية ـ تونس

خرفي، صالح بن صالح

(1351هـ/1932م - 1419هـ/1998م)

ولد ببلدة القرارة بوادي ميزاب في الجمهورية الجزائرية سنة 1932م، درس الابتدائي في المدارس التابعة لجمعية العلماء بمدينة باتنة ثم بمدرسة الحياة بالقرارة التي زاول بها التعليم الثانوي، ثم غادرها لاستكمال تعليمه بجامعة الزيتونة بتونس سنة 1953م، حيث تفتقت مواهبه الأدبية، وشرع يكتب وينشر أشعاره ومقالاته في الصحف والمجلات التونسية.

وانخرط خرفي خلال تواجده بتونس في صفوف الثورة الجزائرية وطاف باسمها معرّفا بالثورة وأهدافها في المشرق العربي مستخدما في ذلك جواز سفر تونسي باسم «حمودة الحبيب» نظرا لحرمان الجزائريين من الحقوق المدنية في ظل الاستعمار الفرنسي.

وفي سنة 1957 التحق الشاعر بجامعة القاهرة وتخرّج منها سنة 1960 وشارك بعد تخرّجه في التوجيه المعنوي والتعبئة السياسية للثورة في الحدود الجزائرية التونسية واستمرّ في عمله ذاك إلى يوم استقلال الجزائر في سنة 1962.

ورغم تسلم خرفي لعدة مسؤوليات تربوية، وممارسته مهنة التعليم في المستوى الجامعي فقد أهله طموحه للحصول على شهادتي الماجستير والدكتورا في موضوع (الشعر الجزائري الحديث) سنة 1970. وفي سنة 1976 انتدب الشاعر للعمل في المنظمة العربية للتربية والعلوم التي استمر يعمل بها حتى وفاته في شهر نوفمبر 1998. وقد كرس الشاعر معظم جهوده وأعماله لخدمة الثقافة العربية التي انتمى إليها عن صدق، ومَحض لها كل حياته، وقد تميّزت كتاباته باطلاعه الواسع على الشعر الجزائري والثقافة الجزائرية والسعي لتأصيلها واستشراف أبعادها العربية الإسلامية. وكانت أطروحته عن الشعر الجزائري الحديث من أوائل الدراسات التي عرفت بالشعر الجزائري، ولفتت الانتباه إلى أعلامه، واقترنت كتاباته بالمضامين الثورية، وبما شاع في الشعر الجزائري من أغراض وطنية وتمثّل لبطولات الثورة وتاريخ الجزائر الحافل بالأمجاد والبطولات.

وكان خرفي من أوائل الكتاب والأدباء الذين وجهوا اهتمامهم للمغرب العربي ووجوب التحام أقطاره، وللنسيج الاجتماعي والاقتصادي والنضالي الذي يربط بين شعوبه، وكان يعتبر الدعوة إلى الوحدة المغاربية جزءا من الدعوة إلى الوحدة العربية والإسلامية التي كانت بارزة المعالم في كل كتاباته، تعبيرًا صادقا عن مشاعره وأفكاره والبيئة التي انتمى إليها والوسط الذي تخرج منه، سواء في وادي ميزاب، أو جامعة القاهرة، أو المنظمة العربية التي كانت إحدى منظمات العمل العربي المشترك في مجالات الثقافة والتربية والعلوم.

آثاره

أ ـ في الأبحاث والدراسات:

1 ـ شعراء من الجزائر، القاهرة، 1969؛ 2 ـ صفحات من الجزائر، الجزائر 1974؛ 3 ـ الشعر الجزائري الحديث، الجزائر 1975؛ 4 ـ الجزائر والأصالة الثورية، الجزائر 1978؛ 5 ـ شعر المقاومة الجزائرية، الجزائر 1982؛ 6 ـ في ذكرى الأمير عبد القادر الجزائري، الجزائر 1984؛ 7 ـ في رحاب المغرب العربي، بيروت 1985؛ 8 ـ الشيخ عبد العزيز الثعالبي، من آثاره وأخباره في المشرق والمغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1995.

ب ـ في التحقيق:

9 ـ الرسالة المحمدية من نزول الوحي إلى وفاته ﷺ، للشيخ عبد العزيز الثعالبي، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت 1997؛ 10 ـ خلافة الصديق والفاروق، للشيخ عبد العزيز الثعالبي، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت 1997؛ 11 ـ الفلسفة الإسلامية وحكمة التشريع، للشيخ عبد العزيز الثعالبي، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت 1997.

ج ـ في الشعر:

12 ـ صرخة الجزائر الثائرة، قطر 1958؛ 13 ـ نوفمبر، قطر 1961؛ 14 ـ أطلس المعجزات، الجزائر 1967؛ 15 ـ أنت ليلاي، الجزائر 1974؛ 16 ـ من أعماق الصحراء، بيروت 1991.

د ـ في الأدب الجزائري الحديث:

17 ـ المدخل إلى الأدب الجزائري الحديث، الجزائر 1983؛ 18 ـ عمر بن قدور الجزائري، الجزائر 1984؛ 19 ـ حمود رمضان، الجزائر 1983؛ 20 ـ محمد السعيد الزاهري، الجزائر 1986؛ 21 ـ محمد العيد آل خليفة، الجزائر 1986؛ 22 ـ الأديب الشهيد أحمد رضا حوحو في الحجاز، بيروت 1991.

المصادر والمراجع

● ابن محمد علي، الأطلس الأجرد، المجاهد الأسبوعي، 1968م؛ ● أبو حسام، بن ذياب، صالح خرفي وأطلس معجزاته، جريدة الشعب، 10 يونيو 1969؛ ● الحوفي، أحمد محمد، القومية العربية في الشعر الحديث، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، 1966م؛ ● الجابري، محمد صالح، النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين في تونس، الدار العربية للكتاب، تونس ـ ليبيا، 1986م؛ ● التواصل الثقافي بين الجزائر وتونس، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1990؛ ● الأدب الجزائري في تونس، بيت الحكمة، تونس؛ ● جمال الدين محسن، العراق في الشعر العربي والمهجري، مطبعة الإرشاد، بغداد 1965م؛ ● ركيبي، عبد الله، قضايا عربية في الشعر الجزائري المعاصر، الدار العربية للكتاب، 1977؛ ● الأوراس في الشعر العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1982؛ ● بركات، درار أنيسة، آدب النضال في

الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984م؛ ● السائحي، محمد الأخضر عبد القادر، نوفمبر الصوت والصدى، وزارة الثقافة والسياحة، الجزائر 1985م؛ ● سعدي عثمان، المؤتمر الرابع للأدباء العرب، الكويت 1958م؛ ● سلمان نور، الأدب الجزائري، دار العلم للملايين، بيروت 1981؛ ● الغزي، الهادي حمودة، الأدب وقضايا الفكر العربي، الأخلاء، تونس 1987م؛ ● حسن، فهمي ماهر، القومية العربية والشعر العربي المعاصر، مؤسسة المطبوعات الجديدة، القاهرة، د.ت، صدر الكتاب في أواخر الخمسينات؛ ● قبش، أحمد، تاريخ الشعر الحديث؛ ● حسان بدر الدين، الموسوعة الميسرة، مطابع ألف باء، الأديب، دمشق 1979م؛ ● معمر علي يحيى، الإباضية في موكب التاريخ، مكتبة وهبة، القاهرة، 1979م؛ ● ناصر، محمد، الشعر الجزائري الحديث، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1988م؛ ● نشاوي، نسيب، المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر؛ ● مرتاض، عبد الملك، صالح خرفي الشاعر الفقيد، جريدة (صوت الأحرار)، الجزائر 7 ديسمبر 1998؛ ● لمباركة، نوار، مجلة الفيصل، أكتوبر ـ نوفمبر 2004؛ ● الشيخ بلحاج، قاسم أحمد، الشاعر صالح خرفي صفحات من مساره الفكري، القرارة، الجزائر 2004؛ ● أعمال الملتقى الوطني للمجاهد الأديب الدكتور صالح خرفي، غرداية، جويلية 2004.

د. محمد صالح الجابري

مدير الموسوعة

الخرقي، أبو بكر محمد بن أحمد

(ت 533هـ/1138م)

أبو بكر محمد بن أحمد بن بشر بهاء الدين الخرقي، نسبة إلى قرية خرق من قرى مرو من أعمال خراسان، وقد عرف باسم المروزي، ولا يعرف بالضبط متى ولد.

ولد أبو بكر الخرقي في قرية خرق، ونشأ وتعلّم في مرو، وتعمّق في دراسته لهيئة الأرض من حيث تقسيماتها إلى مسكون وغير مسكون، كما قدم لنا في كتابه «منتهى الإدراك» أفكارا قيّمة حول البحار الخمسة.

وقد درس بكل عناية نتاج كل من ابن الحسن بن الهيثم، وأبي جعفر الخازن في علم الفلك وقدم شروحا مهمة لأعمالهم، ولذلك كان أمينا في أبحاثه التي قدمها في العلوم الفلكية، فقد نوّه في أماكن كثيرة عن

استفادته العظيمة من آراء ونظريات ابن الهيثم، والخازن الفلكية والتي تخص الكواكب بشكل عام.

كما أولى أبو بكر الخرقي الجداول والسحابات الفلكية اهتماما بالغا، جعلت مؤلفاته في هذا المجال من أهمّ المصادر لعلماء الفلك من بعده، لما تحتوي عليه من معلومات أصيلة مبتكرة في علم الفلك، جعلت المؤرّخ سارتون في كتاب «مقدمة في الإدراك في تاريخ العلم» يعترف بمكانة أبي بكر الخرقي العلمية في علم الفلك، إذ قال: «إنّ منتهى الإدراك في تقسيم الأفلاك هو أحسن الكتب التي تبحث في الأفلاك».

وتشير بعض المراجع التاريخية أنّ الخرقي نشر أرصاده حوالي 527هـ.

وقد خدم أبو بكر الخرقي في بلاط مرو، وربّما عمل فلكيا ومنجما لدى الوزير أبي الحسن علي بن نصير الدين الذي أهداه كتابه «التبصرة». وتوفّي الخرقي في مدينة مرو في سنة 533هـ.

■ آثاره

ألف أبو بكر الخرقي بحوثا مثمرة عديدة في كثيرمن فروع المعرفة مثل الفقه، والفلسفة، والجغرافيا، والفلك، والرياضيات. ولكنه تميّز واشتهر في علم الفلك. وأهمّ كتبه:

1 ـ كتاب منتهى الإدراك في تقسيم الأفلاك، اعتمد في بعض أقسامه على نظريات ابن الهيثم (354 ـ 430هـ) الفلكية المتعلّقة في الكواكب مثل تركيب الأفلاك وحركاتها، والتواريخ الفلكية. وهذا الكتاب مرتب على ثلاث مقالات:

المقالة الأولى في بيان تركيب الأفلاك وحركاتها وأشكال المجموعة النجمية.

المقالة الثانية في هيئة الأرض وتقسيمها إلى ثلاثة أقسام مسكونة وغير مسكونة وبحث فيه في البحار الخمسة وأن اختلاف الطالع والمطالع يرجع إلى الأوضاع الجغرافية.

المقالة الثالثة في ذكر التواريخ وتقسيمها وأدوار القرانات وعودتها، وقد ترجم نللينو هذا الكتاب إلى اللاتينية، وفيديمان إلى الألمانية.

2 ـ كتاب التبصرة في علم الهيئة، لخص فيه الخرقي كتابه منتهى الإدراك، واقتدى فيه بابن الهيثم في تقسيم الأفلاك بالأكر المجسّمة دون الاقتصار على الدوائر المتوهّمة كماهو دأب أكثرالمتقدّمين. وقد قسّمه إلى قسمين:

القسم الأول في الأفلاك وذكر فيه اثنين وعشرين بابًا.

القسم الثاني في الأرض وذكر فيه أربعة وعشرين بابًا.

ويذكر حاجي خليفة أنّ أحمد بن عثمان بن صبيح (ت 744هـ) أقدم على شرح كتاب التبصرة؛ 3 ـ كتاب الرسالة الشاملة في الحساب، ذكره سارتون؛ 4 ـ كتاب الرسالة المغربية، ذكره سارتون.

■ المصادر والمراجع

● خليفة، حاجي، كشف الظنون، 1/ 245، 2/ 537؛ ● دفاع، علي، رواد

علم الفلك في الحضارة العربية الإسلامية، نادي أبها الأدبي، 1988، ص103؛ ● سارتون، مقدمة في تاريخ العلم، 1/ 204، 2/ 205؛ ● طوقان، قدري، تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك المقتطف، 1941م، ص188؛ ● مجموعة مؤلفين، موسوعة العلوم الإسلامية والعلماء المسلمين، 2/ 83.

د. محمد هشام النعسان
معهد التراث العلمي العربي
حلب - سوريا

الخِرَقي، أبو القاسم عمر بن الحسين بن عبد الله

(ت 334هـ/945م)

هو عُمر بنُ الحُسين بنِ عبد اللّه بن أحمد، أبو القاسم الخرقي [أبو يعلى، طبقات الحنابلة، 2/ 75]، والخِرَقي بكسر الخاء المعجمة وفتح الراء وبعدها قاف، هذه النسبة إلي بيع الخِرَق والثياب. [ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 2/ 336 - 337؛ وابن خلكان، وفيات الأعيان، 3/ 441] وهو فقيه حنبلي من أهل بغداد. وكان من أعيان الفقهاء وكبار العلماء وطبقة المجتهدين ومن سادة العُباد، كثير الفضائل والعبادة. كما كان والده من الأعيان أيضا. له آراء خالف فيها بعض الأصحاب، فقد خالف أبا بكر عبد العزيز الحنبلي البغدادي في ثمانية وتسعين مسألة. [ابن خلكان، وفيات الأعيان، 3/ 441؛ ابن كثير، البداية والنهاية، 15/ 171 - 172، ابو يعلى، طبقات الحنابلة، 2/ 76]. وهو يُعدّ أومن كتبَ متنًا في فقه المذهب الحنبلي وأول شارح له [أبو زيد، المدخل المفصّل، 1/ 601].

رحل عن بغداد لمّا ظهر فيها سبّ الصحابة ﷺ ولما بدأ فيها الرفض (الانتساب إلى مذهب الرافضة) والإعتزال بالعراق ببني بُوَيه (هم حكّام الدولة البويهية التي قامت بالعراق بين سنتي 334هـ و447هـ، وكانوا من الشيعة المغالين، وتسميتهم نسبة إلي أبيهم شجاع بُوَيْه) [حسن، ابراهيم، تاريخ الإسلام، 3/ 93؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 9/ 440] وقصد دمشق، فأقام بها حتّى مات سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة للهجرة، وقبره بباب الصغير، وهو قريب من قبور الشهداء.

قال ابن بَطّة: مات الخرقي بدمشق سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة للهجرة وزرت قبره [ابن كثير، البداية والنهاية، 15/ 173؛ أبو يعلى، طبقات الحنابلة، 2/ 118؛ والزركلي، الأعلام، 5/ 44]، وقيل توفي ببغداد [ابن خلكان، وفيات الأعيان، 3/ 441]. روى الخرقي عن جماعة، وروت عنه جماعة،

وتفقه بوالده الحُسين بن عبد الله المتوفى ببغداد سنة 229هـ [أبو زيد، المدخل المفصل، 1/ 516].

ومن شيوخه الذين قرأ عليهم: أبو بكر المروزي أحمد بن محمد بن الحجاج، وهو من أجَلِّ أصحاب الإمام أحمد بن حنبل، وقد نقل عنه الكثير من المسائل، كان إماما في الفقه والحديث، وتوفي سنة 275هـ [السدحان، أصول الفقه، 2/ 367؛ التركي، تح. الواضح في أصول الفقه لابن عقيل الحنبلي، 2/ 101] صالح بن أحمد بن حنبل (203 ـ 265هـ/ 818 ـ 878م). سمع أباه، وأبا داود الطيالسي وغيرهما. درّس الفقه في بغداد مدة طويلة، وتولّى القضاء في طرطوس وأصبهان؛ وعبد الله بن أحمد بن حنبل المُكنى بأبي عبد الرحمٰن (213 ـ 290هـ)؛ وحرب الكرماني [سَزكين، تاريخ التراث العربي، ص 229؛ أبو زيد، المدخل المفصل، 1/ 333؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 2/ 336؛ أبو يعلى، طبقات الحنابلة، 2/ 75].

ومن تلاميذه: أبو عبد بن بَطَّة عبيد الله بن محمد بن حَمْدان العُكْبَري (304 ـ 384هـ/ 916 ـ 994م). تعلم في بغداد على العلماء البارزين، ومن بينهم أبو القاسم الخرقي. وهو يعد من العلماء الحنابلة الذين أسهموا كثيرا في نشر المذهب والاعتراف به [سَزكين، تاريخ التراث العربي، م 1، 3/ 239]؛ وأبو الحسن التميمي عبد العزيز بن الحارث بن أسد بن الليث (317 ـ 371م) [السدحان، أصول الفقه، 1/ 37]؛ وأبو بكر أحمد بن محمد هارون الخلّال، مفسر وعالم باللغة والحديث، من كبار الحنابلة من أهل بغداد، درس على أكثر تلاميذ أحمد بن حنبل وهو جامع علم أحمد ومرتبه. توفي سنة 311هـ/ 923م. [سَزكين، تاريخ التراث العربي، م 1، 3/ 233؛ السدحان، أصول الفقه، 1/ 223].

قال بكر أبو زيد: الخلال (ت 311هـ) وتلميذه أبو القاسم الخرقي (ت 334هـ) [أبو زيد، المدخل المفصل، 1/ 462 ـ 463]؛ وأبو الحسن بن شمعون، وقيل بن سمعون [ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 2/ 336].

آثاره

صنف الخرقي كتبا كثيرة، وقد احترقت كلها عندما رحل عن بغداد، ولم يبق منها سوى المختصر في الفقه، فقد أودع كتبه في بغداد في مدينة السلام لما عزم على السفر إلى دمشق، فاحترقت في غيبته، لم تكن منشورة قبل ذلك الوقت لبعده عن البلد [ابن خلكان، وفيات الأعيان، 3/ 441؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 2/ 336؛ طبقات الحنابلة، أبو يعلى، 2/ 75 ـ 76؛ الزركلي، الأعلام، 5/ 44]. قال الخطيب البغدادي: قال لي القاضي أبو يعلى: «كانت له مصنفات كثيرة وتخريجات على المذهب لم تظهر... ولم تكن كتبه قد انتشرت لبعده عن البلد». [ابن كثير، البداية والنهاية، 15/ 172] ومؤلفاته المتبقية هي:

1 ـ المختصر في الفقه، ويعرف بمختصر الخرقي، وبالمختصر في فروع الفقه الحنبلي،

وهو في الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل. أولُ متن أُلِّفَ في المذهب، وأول مختصر في فقه الإمام أحمد، فصار بدء إقرائه في الكتاتيب كما في تلقن القاضي أبي يعلى له. وعدد مسائله ألفان وثلاثمائة مسألة، ويشتغل به أكثر المبتدئين من أصحابهم. وهو مطبوع، وبه بَدَأ دور الاختصار وقصر التصنيف في المعتمد في المذهب، وكان لأبي القاسم الخرقي فضل السبق في عمل هذا الكتاب [أبو زيد، المدخل المفصل، 1/ 365، 459؛ كحالة، معجم المؤلفين، م 4، 7/ 282]، وقد جرى فيه على طريقة أصحاب الإمام الشافعي، فحذا في ترتيب مختصره حذو المُزني الشافعي في ترتيب مختصره، إذ جعل الجهاد بعد الحدود، وختم مختصره بالعتق [أبو زيد، المدخل المفصل، 2/ 679]. ومن بين ما جاء فيه في كتاب الحج، «ويأتي الحجر الأسود ويقبله إن كان هناك. وإنما قال ذلك لأن تصنيفه لهذا الكتاب كان حال كون الحجر الأسود بأيدي القرامطة حين أخذوه من مكانه في سنة سبعَ عشرةَ وثلاثمائة للهجرة، ولم يردوه إلا سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة [ابن كثير، البداية والنهاية، 15/ 172]؛ 2 - شرح المختصر، فقد تولّى الخرقي شرح مختصر، وهو بهذا عُد أول شارح لكتابه في المذهب الحنبلي، كما عُد أول ماتن وأول شارح، وقد ذكره أبو يعلى في كتاب «الروايتين» في النية في الصيام، وكذا شيخ الإسلام ابن تيمية في «الفتاوى»، وابن مفلح في «الفروع»، والزركشي في «شرح الخرقي»، والمرداوي في «الإنصاف» [أبو زيد، المدخل المفصل، 2/ 691]. مختصر الخرقي له شروح مهمة جدا، وبعضها معدود من أمهات المصادر في الفقه أو المذهب الحنبلي في العصر الحالي وفي العصور الماضية، ولا سيما كتاب المغنى لابن قدامة الذي يعتبر مصدرا أساسيا وضروريا لأهل العلم والبحث، سواء من قبل الحنابلة أو من قبل أصحاب وأتباع المذاهب الفقهية الأخرى. وهذه الشروح هي: شرح موفق الدين عبد الله بن أحمد بن قُدامى المقدسي (ت 620هـ/ 1223م)، وسماه «المغني» في الفقه الحنبلي، وهو مطبوع في دار الفكر في بيروت في اثني عشر مجلدا مع معجم له، وهو رأس الشروح المعتمدة [سزكين، تاريخ التراث العربي، م 1، 3/ 236؛ ابن كثير، البداية والنهاية، 15/ 171؛ العَمروي، تح. سير أعلام النبلاء، 12/ 46] ومطبوع كذلك عدة طبعات محققة بوزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية في خمسة عشر مجلدا. شرح القاضي أبي يعلى محمد بن الحسين بن محمد بن الفرّاء (ت 458هـ/ 1065م). الواضح لأبي طالب عبد الرحمٰن بن عمر بن أبي القاسم البصري (ت 684هـ/ 1285م)، وهناك معارضات لهذا الكتاب من عمل عبد العزيز بن جعفر غلام الخلّال (ت 363هـ/ 973م) وعلى هذا الكتاب الأصلي وهو كتاب المختصر اعتمد يحيى بن يوسف بن يحيى الصرصري (ت 656هـ/ 1258م) [سزكين، م 1، 3/ 236]. «المقنع في شرح الخرقي» أو «شرح مختصر الخرقي في فقه الإمام أحمد بن حنبل» لأبي علي الحسن بن أحمد بن عبد

الله بن البنا البغدادي، الفقيه الحنبلي، من رجال الحديث، ولد سنة 396هـ وتوفي سنة 471هـ. «كفاية المرتقي إلى فرائض الخرقي» لابن بدران المتوفى سنة 1346هـ. «الدر النقي في شرح ألفاظ الخرقي» لابن عبد الهادي المتوفى سنة 909هـ. «الهادي في الزوائد على الخرقي» لابن قدامة المتوفى سنة 620هـ. [أبو زيد، المدخل المفصل، 2/ 1055؛ السدحان، أصول الفقه، 1/ 16]؛

3 ـ فوائد، وتوجد مختارات منه برواية أبي القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري اللالكائي (ت 418هـ/ 1027م) وكانت وفاته بدينور [سَزكين، تاريخ التراث العربي، م 1، 3/ 211 ـ 212، 236].

المصادر والمراجع

● ابن الأثير، عز الدين الشيباني، الكامل في التاريخ، تح. عبد الوهاب النجار، دار صادر، بيروت، 1386هـ/ 1966م، ومطبعة الاستقامة، القاهرة، 1338هـ، 9/ 440؛ ● التركي، عبد الله بن عبد المحسن، تح. الواضح في أصول الفقه لابن عقيل أبي الوفاء (ت 513هـ)، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى سنة 1420هـ/ 1999م، 2/ 101؛ ● حسن، إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والإجتماعي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، 3/ 93؛ ● ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين، (608 ـ 681هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 3/ 414؛ ● أبو زيد، بكر بن عبد الله، المدخل المفصل إلى فقه الإمام أحمد بن حنبل وتخريجات الأصحاب، دار العاصمة، الرياض، 1417هـ/ 1997م، 1/ 333، 365، 459، 462، 463، 516، 601، 2/ 679، 691، 1055؛ ● السدحان، فهد بن محمد، أصول الفقه لابن مفلح المقدسي الحنبلي (712 ـ 763هـ)، مكتبة العبيكان، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى سنة 1420 هـ/ 1999م، 1/ 16، 2/ 37، 223، 367؛ ● سَزكين، فؤاد، تاريخ التراث العربي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، السعودية، سنة 1411هـ/ 1991م، مجلد 1، 3/ 211، 212، 229، 233، 236، 239؛ ● ابن العماد، الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح. لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، 2/ 336؛ ● العَمروي، محمد الدين أبو سعيد عمر، تح. سير أعلام النبلاء للذهبي، دار الفكر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى سنة 1417هـ/ 1997م، 12/ 46؛ ● ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبو الفداء، البداية والنهاية، تح. الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، مصر، 1419هـ/ 1998م، 15/ 171 ـ 173؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، مكتبة المثنى، بيروت، ودار

إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، مجلد 4، 7/ 282؛ ● أبو يعلى، القاضي أبو الحسين محمد، (ت 526هـ)، طبقات الحنابلة، تصحيح محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة سنة 1371هـ/ 1952م، 2/ 75 ـ 76، 118.

د. نور الدين الخادمي
جامعة الزيتونة ـ تونس

الخرقي، أبو محمد بهاء الدين عبد الجبار

(477هـ/ 1084م ـ 553هـ/ 1158م)

ولد في 28 ربيع الأول عام 477هـ/ 4 أغسطس 1084م في قرية «خرق المعمورة» والمشهورة بسوقها في تلك الفترة، بالقرب من عاصمة دولة السلاجقة مرو التي نشأ فيها علماء آخرون. وقد ذكر كاتب چلبي هذا اللقب خطأ فأورد «الخراقي» [كشف الظنون، 1/ 338]. كما أخطأ في نسبة كتابه «التبشرة» و«منتهى الإدراك» إلى أبي بكر محمد بن أحمد بن أبي بشر الخرقي المروزي وهو محدث وفقيه ومتكلم توفي في عام 533هـ/ 1139م، ثم اتّبعه من بَعده من المؤلّفين والباحثين المعاصرين.

وحسب ما يذكر تلميذه عبد الكريم بن محمد السماعي فإنّ الخرقي بدأ حياته العلمية بما تلقاه عن عمّه أبي القاسم عبد الرحمٰن بن محمد بن ثابت الخرقي، ثم اتجه إلى مرو ودرس الفقه على يدي والد عبد الكريم السمعاني تاج الإسلام محمد بن منصور السمعاني، وارتبط به، ثم درس المذهب الشافعي على يدي أبي إسحاق إبراهيم بن أحمد المروزي، وأصبح فقيها كبيرا، وفي هذه الأثناء درس الحديث عن أبي علي إسماعيل بن أحمد البيهقي، كما تلقى على يديه الحديث الكثير من طلاب العلم. ثم استقر المروزي في مرو واهتم بالعلوم الرياضية مثل الحساب والهندسة كما تعمّق في دراسة الفلسفة، ومع ذلك فقد كان متمسّكا بدينه حسن الأخلاق. ولا توجد معلومات في المصادر حول من تلقّى عنهم العلوم الرياضية، ولم يهتم أستاذه السّمعاني بهذا الموضوع كما أنّ البيهقي الذي لا يعرفه معرفة جيدة لم يذكر شيئا حول هذا الأمر.

ويفهم من مؤلفاته أنّه قرأ لبطلميوس، وأبي جعفر الخازن، وابن سينا وابن الهيثم، ويعتقد أنّه استفاد من «الزيج» الذي أعده عالم الفلك وعالم الفيزياء المشهور عبد الرحمٰن الخازني (ت 550هـ/ 1155م)، كما يعتقد أيضا أنه كان يحظى برعاية القصر وينظر إليه بعين الاحترام ذلك أنه أهدى أشهر كتبه إلى الأمير شمس الدين علي وهو ابن ناصر الدين محمود بن مظفر

الخارزمي وهو الوزير المشهور للسلطان سنجر [Hândmîr II, 515-516]

كما اهتم الخرقي بتعليم العلوم العقلية والعلوم الرياضية، وقد أوضح في مقدمة كتابه «منتهى الإدراك» أنه ألف هذا الكتاب لطلابه [كينغ، 2/ 14]. ويذكر في مقدمة كتابه «التبشرة» أنه ألف كتابا ضخما في المنطق، بيد أنّ هذا الكتاب لم يصل إلى أيدينا. وعندما احتل أتسز حاكم دولة خوارزم مرو في 17 ربيع الأول عام 536هـ/ 20 أكتوبر 1141م أخذ معه مجموعة من العلماء من بينهم الخرقي [البيهقي، ص155؛ ابن الأثير، الكامل، 4/ 88]. وبعد عام كان السلطان سنجر على وشك محاصرة خوارزم فعرض أتسز على السلاجقة أن يكون تابعا لهم، وعندما أعاد كل ما أخذه من مرو لا بد أن يكون الخرقي أيضا قد عاد إلى بيته. ولم يمكث طويلا في خوارزم، غير أنّ السمعاني لم يتحدث عن ذلك، ولم يذكر إلّا أنّه عاش في مرو وتوفي بها صباح يوم عيد الفطر عام 553هـ (26 أكتوبر 1158م) ودفن فيها [التحبير، 1/ 422].

فرض الخرقي شهرته في زمانه باعتباره عالما في الفلسفة والعلوم الرياضية والعلوم العقلية والعلوم الدينية، وكرّس حياته، إلى جانب ذلك لخدمة علمي الفلك والجغرافيا، وترك لنا كتابين في هذا المجال تناول فيهما في أقسام منفصلة علمي الجغرافيا والكوزموغرافيا. وبذلك استطاع في منتصف القرن العاشر أن يربط بين الجغرافيا الوصفية (الجغرافيا الطبيعية) والجغرافيا الرّياضية، وبذلك نحا بهما منحى جديدا [كراكوفسكي، 1/ 316].

في مؤلفه الأول «منتهى الإدراك» يقدم معلومات واسعة عن البحار، ويحمل الباب الثاني من المقالة الثانية أهمية خاصة للجغرافيا الطبيعية، وهذا القسم الذي اعتمد على الجيهاني غير موجود في التّبشرة. ومن هذا الجانب فإن لكتابه الثاني علاقة ضئيلة بالجغرافيا، وحسب ما ذكر و«يدمان» و«كراكوفسكي» فإن «التبشرة» اهتم بعلم الفلك ولم يهمل علم الجغرافيا. [IA, V/I s. 860؛ كراكوفسكي، 1/ 317].

والخرقي الذي لخص المعارف المتعلقة بعلمي الفلك والجغرافيا لم يتوقف عند دوائر حركة النجوم والكواكب كما فعل الخازن وابن الهيثم، بل شرح آراءه بشكل مقنع وواضح فيما يتعلّق بالحركة الدّائمة والدائرية للمسطحات الكروية. وبفضل ذلك فقد وقع التخلي عن الرأي القائل بأن الكوكب عند حركته يضغط الهواء أمامه و يترك فراغا خلفه، وبينت دراساته في علم الفلك أنّ ما ذهب إليه سوتار من أن كتاب ابن الهيثم «كتاب في هيئة العالم» لم يجد له صدى عند العلماء المسلمين، وفي مقابل ذلك وجد شهرة واسعة عند المسيحيين واليهود - لا ينطبق مع الحقيقة [IA, V/I s. 860]. وقد أثبت كراكوفسكي أن الرسائل اللاتينية القديمة قد مدحت مؤلفات الخرقي [كراكوفسكي، 1/ 317]. وقد ذكر قطب الدين الشيرازي عالم الرياضيات الشهير (توفي عام 710هـ/ 1311م) هذين الكتابين في نهاية كتابه «نهاية الإدراك».

آثاره

1 - منتهى الإدراك في تقاسيم الأفلاك، وهو

أول كتاب له في علم الفلك، والجغرافيا ويتكون من ثلاثة أقسام. يتكون القسم الأول من عشرين بابا، ويتحدث في هذا القسم عن الأجسام السماوية وخصائص حركاتها. وأما القسم الثاني فيتكون من سبعة عشر بابا، ويبحث فيه موضوع الكرة الأرضية والأجزاء المسكونة وغير المسكونة وفوارق الزمن بينها وموضوع البحار أيضا. ويتكون القسم الثالث من أحد عشر بابا يتناول فيه مفهوم الزّمن ووحداته، وموضوع التقويم، وقد قسمت بعض أبواب الكتاب إلى فصول، وتوجد من الكتاب ثلاث نسخ لم تنشر إلى حدّ الآن، وهي موجودة في القاهرة، المكتبة التيمورية [رياضة، رقم 111] وفي المكتبة الوطنية بباريس [رقم 2499] وفي المكتبة الملكية في برلين [رقم 5699]. غير أنّه لم ينشر من الكتاب سوى الباب الثاني من القسم الثاني مع ترجمته اللاتينية من قبل كارلو ألفونسو نالينو. [AL-Batennii opus Astronomicum, Milano 1903, I, 169-175] وقد قام أ. ويدمان بترجمة مقدمة الكتاب مع مقدمة «التبشرة» إلى اللغة الألمانية. [Zeitschrift für physk, XXIV 1924, s. 166-16]؛ 2 - التبشرة في علم الهيئة، أخذ بعض أقسام كتاب «منتهى الإدراك» ولخّص ما بقي منه، وأعاد ترتيبه من جديد وأهداه إلى الأمير شمس الدين علي بن ناصر الدين محمود الخوارزمي. ورتب المؤلف كتابه في قسمين، تناول في القسم الأول الذي يتكون من 22 بابا مكونات الأجسام السماوية ومواقعها بالنسبة إلى بعضها البعض. أما القسم الثاني والذي يتكون من 14 بابا فيتحدث فيه عن جغرافية العالم. وقد ذكر في المقدمة معاني المصطلحات التي استعملها في علم الهيئة، ويوجد من الكتاب عدد كبير من النسخ، ومن ضمن هذه النسخ نسخة مكتبة قوطة (Gotha) والتي ذكر فيها اسم المؤلف صحيحا وهو بهاء الدين أبو محمد الخرقي [Pertsch, III, 1384, 45-46, nr.] أما نسخة القاهرة فتوجد في (طلعت، هيئة، رقم 35، وهي مؤرخة بحوالي عام 550هـ/ 1155م)، وقد استنسخت هذه النسخة في حياة المؤلف [كينغ، 2/ 15 - 16]. ويوجد من الكتاب في مكتبات إسطانبول وحدها 13 نسخة، وهي في السليمانية [آياصوفيا، رقم 2578، 2579، 2580، 2581، 3/ 4857؛ جارالله أفندي، 2/ 1483؛ الفاتح، رقم 3/ 3172، 1/ 3385؛ حسن حسني باشا، رقم 1279؛ ورق، 128b-62b] ونور عثمانية [رقم 2898] والحاج سليم آغا [رقم 741] ومكتبة جامعة إسطانبول [AY رقم 1341، 3398 مؤرخ بـ 630هـ]، وبورصة [خراجتشي أوغلو، رقم 1157]، وفي قوطاهيا - تاوشانلي [المكتبة العمومية في زيتين أوغلو، رقم 2/ 4645]. بالإضافة إلى هذا [Brockelmann, GAL, I, 624; Suppl. I, 863].

وفي عام 733هـ/ 1332م كتب ميرك محمد بن مبارك شاه البخاري شرحا للتّبشرة «شرح التبشرة في علم الهيئة»، وتوجد نسختان من هذا الشرح بخط المؤلف داخل مجلّة في مكتبة السليمانية [آياصوفيا، رقم 2/ 2582]. وذكر كاتب جلبي أن تاج الدين بن التركمان (متوفي عام 744هـ/ 1343م) قد شرح هذا الكتاب [كشف الظنون، 1/ 339]، غير أنه لم يعثر على العمل إلى حد اليوم.

3 ـ رسالة في عمل ذات الحَلَق، مؤلف صغير يدور حول التعريف بآلة ذات الحَلَق المستعملة في تحديد مواقع الشمس والقمر والنجوم، ويبدو أنه استفاد في تأليف هذا الكتيّب من كتاب «المجسطي» لبطلموس، والنسخة المعروفة من هذا الكتيب توجد في مكتبة السليمانية [الفاتح رقم 2/ 3442]؛

4 ـ التلخيص في عدد الوفق: رسالة صغيرة تتناول موضوع مربعات الوفق وأعدادها، وتوجد منها نسخة ناقصة الأشكال في مكتبة السليمانية [آياصوفيا، 2/ 4843]؛

5 ـ تاريخ مرو: وهذا المؤلف، حسب ما ذكر السمعاني يتناول مشاهير العلماء والمحدثين في مرو ولكنه لم يصل إلينا إلى حد اليوم؛

6 ـ ومن بين مؤلفات الخرقي في الرياضيات نجد «الرسالة الشاملة» و«الرسالة المغربية» [كشف الظنون، 1/ 664]، غير أنه لم يتم العثور عليها إلى حد الآن. ونقل البهيقي عن أحد تلاميذ الخرقي ملاحظة تبين كونه ألف في علم الرياضيات [التتمة، ص155] وتوجد النسخة الوحيدة من هذه الملاحظة في مكتبة السليمانية [آياصوفيا، رقم 2587، ورق خ124].

المصادر والمراجع

● السمعاني، التحبير، 1/ 421 ـ 422، 2/ 61 ـ 62؛ ● المؤلف نفسه، الأنساب، 5/ 90 ـ 91؛ ● البيهقي، التتمة، ص 155؛ ● ياقوت، معجم البلدان، 2/ 360؛ ● ابن الأثير، الكامل، 11/ 88؛ ● المؤلف نفسه، اللباب، 1/ 435؛ ● الشهرزوزي، محمد بن محمود، تاريخ الحكماء، طرابلس 1988، ص 344 ـ 345؛ ● الصفدي، الوافي، 18/ 39؛ ● السبكي، الطبقات، 6/ 79، 7/ 143؛ ● حاندمير، حبيب السير، 2/ 515 ـ 516؛ ● كشف الظنون، 664، 1/ 338 ـ 339، 664، 2/ 1852 ـ 1853؛ ● اللكنوي، الفوائد البهية، ص 92 ـ 93؛ ● هدية العارفين، 2/ 88؛ ● أ. كراكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، القاهرة. 1963، 1/ 316 ـ 317؛ ● كحالة، معجم المؤلفين؛ ● طوقان، قدري حافظ، تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، نابلس 1963، ص 366 ـ 367؛ ● رمضان ششن، نوادر المخطوطات العربية في مكتبات تركيا، بيروت 1975، 1/ 450 ـ 451 ● فروخ، عمر، تاريخ العلوم عند العرب، بيروت 1977، ص 406؛ ● نجيب عبد الرحمن، دراسات في تاريخ العلوم عند العرب، الموصل 1977، ص97. ● د. أ. كينغ، فهرس المخطوطات العلمية المحفوظة بدار الكتب المصرية، القاهرة 1981 ـ 86، 2/ 13 ـ 16؛ ● الزركلي، الأعلام (فتح الله)، 5/ 317.

● De Slane, Catalogue des manuscrits Arabes de la Bibliothèque Nationale, Paris 1883-95, s. 443 (nr. 2499); ● Ahlwardt, Verzeichnis-V, 155-156; ● Suter, Die Mathematiker, s. 116; ● Brockelmann,

GAL, I, 624,Supp, I, 863; • Sarton, Introduction, II/1, s. 204-205, 238, VIII; 80. V, Pertsch, Gotha, III. 45-46, nr. 1384; • E. Wiedmann, Hirakî, IA, V/1, s. 449; • A.mlf, al-kharaki, EI[2] (ing)IV, 1059; • H. Suter (A. Adnan-Adivar), Ibnül heysem; • IA, V/2, s. 860; • D. Pingree, Bahâ-al-Din Karaqi, eIr, III, 431.

د. جميل آقبكار
جامعة استانبول
ترجمة: مصطفى بن الطاهر الستيتي - تونس

الخِرنْق بنت هفان بن بدر

(ت 48 ق. هـ/574م)

هي الخِرنَق بنت بدر بن هفان بن مالك أخت طرفة بن العبد. والخرنق كما جاء في لسان العرب مادة خرنق «ولد الأرنب ويكون للذكر والأنثى». يتفق مؤرّخو الأدب على أن الخرنق وطرفة أخوان غير شقيقين، فهي أخته لأمّه وردة. وقد توسّع كل من البكري والبطليوسي في تفصيل نسبها [سمط اللآلي، في شرح أمالي القالي، ص1378؛ الحلل في إصلاح الخلل في كتاب الجمل، ص2]، وأشار إليها ابن قتيبة والمرزباني وأبو البقاء الحلي في معرض ترجمتهم لأخيها طرفة وأسباب مقتله [الشعر والشعراء، 1/ 185؛ أشعار النساء، ص103؛ المناقب المزيدية في أخبار الملوك الأسدية، ص149].

والناظر في كتب التراجم وتاريخ الأدب يلاحظ أن الإجماع حاصل على أنها أخت طرفة لأمه، لكن البغدادي يشير إلى أنها من المحتمل أن تكون عمّة طرفة. يقول: «وقال يعقوب بن السكيت في أبيات المعاني: هي عمة طرفة بن العبد» [خزانة الأدب، ص3639].

يكتنف الغموض أيضًا زوج الخرنق الذي سترثيه مرارا. يذهب ابن قتيبة إلى أن زوجها هو عبد عمرو بن بِشر بن مَرثد ويصفه بكونه «كان سيّد أهل زمانه» وإلى الرأي نفسه يذهب كلّ من المفضّل الضبي وأبو البقاء الحلي [الشعر والشعراء، 1/ 185؛ الأمثال، ص232؛ المناقب المزيدية في أخبار الملوك الأسدية، ص149]، ويقول أبو علي القالي إن زوجها هو عمرو بن مرثد [الأمالي، ص1098]. أما أبو عبيد البكري، وأبو محمد البطليوسي، وعبد القادر البغدادي فيشيرون إلى أن زوجها هو بشر بن عمرو بن مرثد [اللآلي في شرح أمالي القالي، ص1379؛ الحلل في إصلاح الخلل في كتاب الجمل، ص2؛ خزانة الأدب، ص3631].

لكن الروايات الواردة في كتاب تاريخ الأدب

وكتب التراجم لا تختلف أيّ اختلاف في سيرة الشاعرة وفي المأساة التي عصفت بحياتها. فلقد تجرّعت مرارة الترمّل والثكل وفقد الأخ في مدّة وجيزة. تجمع الروايات والأخبار على أن الخرنق اشتكت شينا من أمر زوجها لأخيها الشاعر طرفة بن العبد فهجاه طرفة بقوله من الطويل:

ولا عَيبَ فيه غَيرَ أنَّ له غِنًى
وأنَّ له كَشْحًا، إذَا قامَ، أهْضَمَا

وأنَّ نساءَ الحَيِّ يعْكُفْنَ حَوْلَهُ
يَقُلْنَ: عَسِيبٌ من سَرَارَةِ مُلْهَمَا

وكان طرفة قد هجا الملك عمرو بن هند ملك الحيرة قبل ذلك ولما وشى به زوج أخته الخرنق طلبه الملك، وأرسل إلى عامله بالبحرين فقتله وهو في مقتبل العمر. ورغم أن الروايات لا تصف الوضع المأسوي الذي عاشته الشاعرة بسبب غدر الزوج وموت الأخ غيلة فإنها تنجح، على اقتضابها، في الإيحاء بالمأساة ودفع المتلقي إلى تخيلها. أما ثكل الشاعرة وترمّلها فتتوسّع الروايات في ذكر تفاصيلها إذ يجمع الرواة على أن زوج الخرنق وابنها علقمة ومن معها أغاروا على بني أسد فتربّصت بهم بنو أسد في محلّة يقال لها قلاب وبطشت بالزوج وأبنائه علقمة وحسّان وشرحبيل في ذلك اليوم الذي سمّي يوم قلاب [فرحة الأديب، ص17 ـ 20؛ اللآلي في شرح أمالي القالي، ص1378 ـ 1379؛ الحلل في إصلاح الخلل في كتاب الجمل، ص 2 ـ 3؛ خزانة الأدب، ص3144 ـ 3145].

الراجح أن أغلب شعر الخرنق لم يصل إلى مسامع أبي عمرو بن العلاء (ت 154هـ/ 770م) الذي جمع أشعارها ورواها. إذ لا يحتوي الديوان كما رواه أبو عمرو إلا على مقطّعات لا يتجاوز عددها 15 مقطوعة ومجموع أبياتها لا يتعدّى 65 بيتًا. لكن حضور الخرنق في كتب اللغة والأمثال والتراجم وكتب تاريخ الأدب يظلّ يشير إلى أهمية هذا الشعر على قلّته. والراجح أن الأحداث المأسوية التي حفّت بحياة الشاعرة قد لعبت دورا في رواج ما تبقّى من أشعارها.

لم تطرق الخرنق من أغراض الشعر العربي إلا غرضي الهجاء والرثاء. أما ما قالته في الفخر فإنه لا يتعدّى اللمحة العابرة التي ترد مضمّنة داخل الرثاء أو ضمن الهجاء. والناظر في المقطّعات الواردة في ديوانها يلاحظ أن الأشعار كلّها جاءت معبّرة عن المأساة التي عاشتها الشاعرة. حتى كأن الذاكرة الجماعية عظّمت هول مأساتها فلم تحفظ من شعرها إلا ما يجسّد تلك المأساة ويصوّر أطوارها ووقائعها وشخصياتها. فبعضها يخصّ مقتل أخيها طرفة، وبعضها يخصّ مقتل زوجها وابنها، وبعضها الآخر إنّما قيل انتقاما من الملك عمرو بن هند وثأرا من الزوج الذي أسلم طرفة إلى ميتة مروّعة. لكن الجامع بين الأشعار كلّها إنّما هو موضوع الموت والفقد كما عاشتها امرأة شاعرة قبل الإسلام.

تفرع الرثاء في ديوان الخرنق إلى قسمين. قسم أول فيه رثاؤها لأخيها القتيل طرفة بن العبد. قالت [من الطويل]:

عَدَدْنا لَهُ خَمسًا وعِشرِينَ حِجَّةً
فلمَّا توَفَّاها استوى سَيِّدًا ضَخْمَا

فَجِعْنَا بِهِ لَمَّا انتَظَرنَا إِيابَهُ
عَلَى خَيرِ حَالٍ لا وَلِيدًا قَحِمَا

[الديوان، ص32].

ولهذين البيتين قيمة توثيقية هامة في الدلالة على عمر أخيها يوم اغتيل. لذلك شاع ذكرهما في كتب التراجم والأعلام وكتب تاريخ الأدب. لكن هذين البيتين، على ما فيهما من بساطة الألفاظ وقرب المعاني، يستوفيان جميع شروط المرثية وأقسامها المتعارفة في الشعر العربي أي ذكر الميت، وتمجيده بمدح خصاله، ثم ذكر حادثة الموت، والتفجّع أمام المصاب.

يحتوي القسم الثاني من مراثي الخرنق على المقطعات التي قالتها في رثاء زوجها وابنها علقمة. وهي مقطّعات تتناول كل واحدة منها قسما من الأقسام التي عليها جريان المراثي في الشعر العربي. وبدل التكثيف الذي اعتمدته الشاعرة عند رثائها لأخيها القتيل تتوسّع في طرق المعاني التي عليها جريان المراثي في الشعر العربي القديم عند رثائها زوجها وابنها. فتطرق قسم التفجّع على الميت وذكر خصاله ويكون مدار الكلام إسناد القيم التي جرت في الرثاء مجرى العادة فتسند إلى زوجها القتيل صفات الفروسية والكرم والفتك بالأعداء. تقول في مقطوعة تتكوّن من بيتين [من الطويل]:

ألا ذَهَبَ الحَلّالُ في القَفَراتِ
وَمَنْ يَملأُ الجَفَانَ في الحَجَراتِ
وَمَن يرجعُ الرُمحَ الأصمَّ كُعُوبُهُ
عَلَيهِ دِماءُ القَومِ كَالشُّقِراتِ

[الديوان، ص48 ـ 49].

وتعمد في مقطوعة أخرى إلى تناول الموضوع نفسه وتتوسّع في الكلام عن خصال زوجها القتيل. ولا يتعدّى الكلام ذكر الخصال التي جرت العادة بإسنادها إلى الميت في الرثاء إذ تنعت بِشْرًا زوجها بالفروسية والبطش وتذكر ما أتاه مع بني قومه من بطولات وأمجاد معتمدة على رصف الصور المُخَيِّلة. ويكون مدار تلك الصور والاستعارات تخيل الغزوات التي قادها بشر. تقول [من الوافر]:

لَقَد عَلِمَت جَديلَةُ أَنَّ بِشْرًا
غَداةَ مَرَبِّحٍ مُرُّ التَّقاضي
غَداةَ أَتاهُمُ بِالخَيلِ شُعْثًا
يَدُقُّ نُسُورَها حَدُّ القِضاضِ
عَلَيها كُلُّ أَصْيَدَ تَغلِبِيٍّ
كَريمِ مُرَكَّبِ الخَدَّينِ ماضِ
بِأَيديهِم صَوارِمُ مُرهَفاتٌ
جَلاها القَينُ خالِصَةُ البَياضِ
وَكُلُّ مُثَقَّفٍ بِالكَفِّ لَدْنٍ
وَسابِغَةٍ مِنَ الحَلَقِ المُفاضِ
فَغادَرَ مَعقِلاً وَأَخاهُ جِضْنًا
عَفيرَ الوَجْهِ لَيسَ بِذي انتِهاضِ

[الديوان، ص50 ـ 51].

تتناول بعض المقطّعات الأخرى قسما آخر من أقسام الرثاء التي درج الشعراء العرب القدامى على طرقها في مراثيهم وهو القسم الخاص بذكر الفاجعة والتوسّع في ذكر حادثة الموت وتفاصيلها لدفع المتلقي دفعًا إلى التعاطف مع الشخص المرثي. والتخلّص بعد ذلك إلى القسم الخاص بالتفجّع على المرثي قصد تحقيق نوع من المشاركة الوجدانية بين الشاعر

ومتلقّيه. لذلك تفتح الشاعرة الكلام بذكر زوجها وابنها القتيلين بشر وعلقمة. تقول [من الوافر]:

أعــاذِلَــتــي عــلــى رُزْءٍ أفــيــقــي
فــقــد أشــرَقــتــنــي بــالــعــذْلِ ريــقــي

ألا أقــسَــمــتُ آسَــى بَــعْــد بِــشْــرٍ
عــلــى حَــيٍّ يَــمُــوتُ ولا صَــديــقِ

وبــعــدَ الــخَــيــر عَــلــقَــمَــةَ بــن بِــشْــرٍ
إذا نَــزَتِ الــنُّــفــوسُ إلــى الــحُــلــوقِ

[الديوان، ص39 ـ 42].

ثم تتطرّق إلى ذكر حادثة الموت وتمعن في رصد تفاصيل عملية الفتك بهما وبمن كان معهما يوم قلاب. فتشبّه القتلى من قوم زوجها بجذوع النخل يلتهمها الحريق فتميل وتتهاوى. ويطفح المشهد الذي تبتنيه بصور قاتمة ذات طابع جنائزي. ذلك أن صور الجماجم المفلّقة والأنوف المجدوعة والأوصال المخرّقة تمنح الكلام بعدا تخييليا وتصوّر الجسد البشري مِزَقًا وأشلاء. وبذلك تتمكّن الشاعرة من ابتناء الفظيع والوحشي والمروّع لتحفز المتلقّي على التعاطف مع المرثي وتدفعه إلى التأسّي على حال القتيلين. نقرأ:

ومــال بــنــو ضــبــيــعــة بــعــد بــشــرٍ
كــمــا مــالَ الــجــذوعُ مــن الــحَــريــق

مُــنَــت لَــهُــمُ بِــوالِــبَــةَ الــمَــنــايَــا
بِــجَــنْــبِ قُــلابَ لــلــحَــيْــنِ الــمَــسُــوقِ

فَــكَــم بــقُــلابَ مَــن أوصــالِ خِــرقٍ
أخــي ثِــقَــةٍ وجُــمْــجُــمَــةٍ فَــلــيــقِ

....
....

هُــمُ جَــدَعــوا الأنــوفَ وأَوعَــبُــوهــا
فَــمــا يــنــســاغُ لــي مِــن بَــعْــدُ ريــقــي

[الديوان، ص41 ـ 42].

ثم يأتي القسم الخاص بالتفجّع على المرثيّ وهي تختزله في بيتين لا غير. وبدل استخدام أسلوب الرجاء والنداء والتمنّي المألوف لدى الشعراء آن طرقهم القسم الخاص بالتفجّع على المرثي، تنقل الكلام إلى وصف حالها لتبتني معنى الحزن والحداد. نقرأ:

وبــيــضٍ قــد قَــعَــدنَ وكُــلُّ كُــحْــلٍ
بــأعــيُــنِــهِــنَّ أصــبــحَ لا يَــلــيــقُ

أضــاعَ بُــضُــوعَــهُــنَّ مُــصــابُ بِــشْــرٍ
وطَــعــنَــةُ فــاتِــكٍ فَــمَــتَــى تُــفــيــقُ

[الديوان، ص42].

طرقت الخرنق الهجاء أيضًا. فهجت الملك عمرو بن هند قاتل أخيها طرفة في مقطوعة من خمسة أبيات مطلعها [من الوافر]:

ألا مَــن مُــبــلِــغٌ عَــمــرَ بــنَ هِــنــدٍ
وقَــد لا تُــعْــدَمُ الــحَــســنــاءُ ذامــا

[الديوان، ص52].

لكن هجاءها المقذع انصبّ على زوجها قبل موته. فلقد هجته حين بلغها ما كان من أمر سعايته بطرفة إلى عمرو بن هند. وجاء هجاؤها له جامعا إلى الإقذاع بعضًا من فحش. وهو هجاء يدور حول المعاني التي درج الشعراء على طرقها في الهجاء بإسناد الصفات المذمومة إلى المهجوّ من ذلك الغدر

والخسّة وإتيان الخربات أي القبائح. تقول في مقطوعة من خمسة أبيات [من الوافر]:

الا ثَـكِـلَـتْـكَ أُمُّـكَ عَـبـدَ عَـمـرٍو
أبـا الـخَـرَبَـاتِ آخَـيْـتَ الـمُـلـوكَـا
هُـمُ نَحُـوكَ لـلـوَرِكَـيْـنِ نَحًّـا
ولَـو سـألُـوا لاعـطَـيْـتَ الـبُـروكَـا
الا سِـيَّـانِ مـا عَـمْـرُو مُـشـيـحًـا
عـلـى جـرْداء مـشـحـلـهـا عـلـوكَـا
فَـيَـومُـكَ عِـنْـدَ زانـيـةٍ هَـلـوكٍ
تـظَـلُّ لِـرَجْـعِ مِـزْهَـرهـا ضَـحُـوكَـا

[الديوان، ص60ـ 61].

وهي تهجوه في مقطوعة أخرى وتذكر أمر سعايته بطرفة. فيرد الكلام جامعا إلى الإشهاد على الفعلة الشنيعة الإقذاع والتشنيع على عبد عمرو وذلك بالإخبار عن الجرم الذي أتاه في حقّ ابن عمه طرفة وتعييره بالجبن لأنه لم يثأر لأبيه ومولاه حين قتل بل ولّى الأدبار هاربًا يجري. تقول مقطوعة من ثلاثة أبيات [من الطويل]:

أرى عـبدَ عـمرَوٍ قَـد أشـاطَ ابنَ عَـمِّـهِ
وأنْـضَـجَـهُ فـي غَـلْـيِ قِـدْرٍ ومـا يَـدْري
فَـهَـلّا ابنَ خـسـحَـاسٍ قَـتَـلْـتَ ومَـعْـبَـدًا
هـمـا تَـرَكَـاكَ لا تَـريـشُ ولا تَـبْـري
هُـمـا طـعَـنـا مَـولاكَ فـي فَـرْجِ دُبْـرِهِ
واقـبلتَ مـا تَـلوي عَلى مُـحْـجَرٍ تَـجْـري

[الديوان، ص54].

احتوت أشعار الخرنق، على قلّتها، على جانب مهمّ من سيرة الشاعرة وعبّرت عن حكاية حالها. بل إنّ الأشعار جاءت لتجسّد الحكاية وتخدمها. ولعلّ هذا ما جعلها تعبّر عن محنة شعورية صادقة. حتى أنه لا يمكن للأشعار أن تستمدّ فاعليّتها في وجدان المتلقين جيلا بعد جيل إلا بما ترويه من وقائع تلك الحكاية الفاجعة. ولا يمكن للحكاية أن تستمرّ في التاريخ إلّا بواسطة تلك الأشعار التي تجسّدها. من هنا استمدّت الأشعار بعدها المأسوي فهي تروي وقائع حكاية لها كل شروط المأساة.

آثارها

- ديوان الخرنق بنت بدر بن هفان، وقد طبع مرات عديدة: - نشره لويس شيخو ضمن كتابه شعراء النصرانية، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت 1890م؛ - أشار بروكلمان إلى وجود نسخة مخطوطة في آيا صوفيا وفي القاهرة وذكر أنه طبع في بيروت سنة 1897 ضمن كتاب ديوان الشواعر الثلاث [تاريخ الأدب العربي، 1/ 166 - 167]؛ - نشره بشير يموت في كتابه شاعرات العرب، المطبعة الوطنية، بيروت 1934م؛ - نشره حسين نصار، دار الكتب المصرية، القاهرة 1969م؛ - شرحه وحققه وعلّق عليه يسري عبد الغني عبد الله ونشره تحت عنوان ديوان الخرنق بنت بدر بن هفان أخت طرفة، رواية أبي عمرو بن العلاء (ت 154هـ/ 770م)، دار الكتب العلمية، بيروت1990، ط1. وقد اعتمدنا تحقيق يسري عبد الغني عبد الله ذلك أن المحقّق قد أعاد نسخ الديوان من جميع النسخ المطبوعة والخطّية فاستفاد من جهود سابقيه وأنجز تحقيقًا أكثر شمولاً ودقّة.

نشر ديوان الخرنق على شبكة الأنترنيت وعلى قرص مرن:

- شبكة الأنترنيت، الموسوعة الشعرية، ضمن موقع المجمّع الثقافي، أبو ظبي، على شبكة الأنترنيت http//www.cultural.org.ae؛
- قرص مرن، الموسوعة الشعرية، المجمّع الثقافي، أبو ظبي، 2000 ط1، 2001 ط2، 2003 ط3.

المصادر والمراجع

● ديوان الخرنق بنت بدر بن هفان أخت طرفة، رواية أبي عمرو بن العلاء (ت 154هـ/ 770م)، شرحه وحققه وعلّق عليه يسري عبد الغني عبد الله، دار الكتب العلمية، بيروت 1990، ط1؛ ● البطليوسي، أبو عبد الله بن محمد، الحلل في إصلاح الخلل في كتاب الجمل، قرص مرن، الموسوعة الشعرية، المجمّع الثقافي، أبو ظبي 2003، ط3، باب المراجع؛ ● البغدادي، عبد القادر، خزانة الأدب ولب ألباب لسان العرب، قرص مرن، الموسوعة الشعرية، المجمّع الثقافي، أبو ظبي 2003، ط3، باب المراجع؛ ● البكري، أبو عبيد، اللآلي في شرح أمالي القالي، قرص مرن، الموسوعة الشعرية، المجمّع الثقافي، أبو ظبي 2003، ط3، باب المراجع؛ ● م.س، سمط اللآلي، لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر، 1354هـ/ 1936م؛ ● الحلي، أبو البقاء، المناقب المزيدية في أخبار الملوك الأسدية، قرص مرن، الموسوعة الشعرية، المجمّع الثقافي، أبو ظبي، 2003، ط3، باب المراجع؛ ● الضبّي، أبو العباس المفضل، الأمثال، قرص مرن، الموسوعة الشعرية، المجمّع الثقافي، أبو ظبي 2003، ط3، باب المراجع؛ ● ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم، الشعر والشعراء، تح. أحمد محمد شاكر، دار المعارف، د.ت، ج1؛ ● الغندجاني، أبو محمد الأسود، فرحة الأديب، قرص مرن، الموسوعة الشعرية، المجمّع الثقافي، أبو ظبي 2003، ط3، باب المراجع؛ ● المرزباني، أبو عبيد الله، أشعار النساء، قرص مرن، الموسوعة الشعرية، المجمّع الثقافي، أبو ظبي 2003، ط3، باب المراجع؛ ● ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين، لسان العرب، دار صادر، بيروت، د.ت.

د. محمد لطفي اليوسفي
جامعة منوبة ـ تونس

ابن خروف أبو الحسن، علي بن محمد بن علي

(525هـ/1130م - 610هـ/1213م)

علي بن محمد بن علي الحضرمي المعروف بابن خروف أبو الحسن، نحويّ أندلسيّ ولد حوالي 525هـ بإشبيلية. واختلف في مكان وفاته وتاريخها فقيل بإشبيلية، وقيل نقلا عن أبي حيّان بحلب، كما حدّدت وفاته بسنوات خمس وست وتسع عشر بعد الستّمائة للهجرة عن ثمانين أو خمس وثمانين سنة [بغية الوعاة، 2/ 203 - 204]؛ والجدير بالملاحظة أنّه يوجد ابن خروف آخر أندلسي وهو أبو الحسن عليّ بن محمد بن يوسف القيسي القرطبي وهو شاعر توفي حوالي 620هـ [صلة الصلة، ص 114 - 115].

درس ابن خروف على عدد من أعلام عصره في القراءات والحديث والنّحو، فقد أخذ القراءات على أبي بكر بن ضياف وأبي محمد قاسم بن الزقاق، والحديث عن أبي بكر بن خيّر الاشبيلي صاحب الفهرسة، وتفقه في هذين الفنّين حسب ما ذكره ابن عبد الملك المراكشي [الذيل والتكملة، السفر 5، القسم 1، ص 319]. كما درس على ابن بشكوال. والأول محدّث أديب مؤرّخ والثاني أديب فقيه، ودرس علم الكلام وأصول الفقه على أبي الوليد بن رشد الأصغر، وأبي عبد الله الرعيني؛ لكن الفنّ الذي غلب على تكوينه وقامت عليه شهرته هو النّحو. فقد درسه على ابن ملكون وهو «أستاذ نحويّ جليل» حسب ابن الزبير [صلة الصلة، 122 - 123]، وخاصة على أبي بكر بن طاهر المعروف بالخدّب. وقد اشتهر بتدريس كتاب سيبويه، ولازمه ابن خروف وأتقن عليه هذا المصنّف واعتمد في شرحه الكتاب «طرر أستاذه»، ويبدو هذا من خلال ما نقله أبو حيّان النّحويّ من آرائه. فكثيرا ما يقرن بين ابن خروف وأستاذه ابن طاهر وقد عرف عنه أنّه كان كثير التنقّل بين مدن الأندلس والمغرب ومنها على ما ذكره صاحب الذيل والتكملة: رندة، وإشبيلية، وقرطبة، وسبتة، وفاس، ومراكش. ولعلّه تنقّل وهو طالب إذ درس على ابن طاهر بفاس ثمّ تنقّل وهو مدرّس يتاجر بأنواع من البضاعة وخاصة ما يصنعه من أواني الخشب المخروطة. ويبدو أنّ إقامته في كل ما كان يزور من المدن وتدريسه بها محددان ببيع بضاعته ولعلّه رحل إلى الشرق وقيل إنّه مات بحلب.

تتلمذ على ابن خروف عدد من الرجال ومنهم أبو الحسن الدباج النحويّ، وعلي بن محمد السبتي الشاعر، وأبو الحسن الغافقي المحدّث المقرئ، وعبد الرحمٰن بن محمد بن رحمون، وكانت له حسب السيوطي «معرفة جيّدة بالنّحو» وأخذ عنه أحمد بن يوسف الفهري اللبلي الحديث وقد اعتبره صاحب الذيل والتكملة مقرئا مجوّدا حافظا للقراءات نحويا ماهرا عدديا فرضيا عارفا بالكلام وأصول الفقه [ص 320].

وكان ميّالا إلى الردّ على النحاة وغيرهم من العلماء، ردّ على ابن الطراوة في مقدماته على أبواب الكتاب، والأعلم الشنتمري، وابن ملكون، والسهيلي، وابن حزم، وابن رشد، وأبي المعالي الجويني، وابن مضاء. وكانت بينه وبين أبي علي الرندي مناظرات في النّحو تنتهي بخذلانه حسب ابن عبد الملك المراكشي. كما أنّ ردوده على المتكلمين كانت حسب عبارة ابن الزبير «ممّا خرج فيه عن طوره ولم يسلم له كلامه فيه» [صلة الصلة، ص 122]؛ ولئن كان «حسن التعليم قاصد العبارة» حسب ابن الزبير، فقد كان حسب ابن عبد الملك «شديد الضجر عند تتبع البحث معه والمساءلة له». أما فيما يتعلّق بحياته الخاصّة فإنّه لم يتزوّج قط، وقد كان مشهورا بالصدق والعفاف. وقد اختلّ في آخر حياته.

آثاره

يستنتج ممّا قاله صاحب «الذيل والتكملة» بعد أن نوّه بعلومه من قراءات ونحو وفقه وفرائض وأصول أنّه صنّف في كلّ ما ينتحله من العلوم مصنّفات مفيدة يبدو أنّها شاعت في الشرق والغرب لكنه باستثناء ذكره لشرحين في النّحو يشير إلى أنّ له مصنّفات في القراءات «مستجادة»؛ ويضيف الفيروزبادي بعد ذكر الشرحين أنّ له كتابا في الفرائض.

1 ـ شرحان في النحو؛ 2 ـ كتاب في الفرائض؛ 3 ـ تنقيح اللباب في شرح غوامض الكتاب. وهو شرح لكتاب سيبويه أهدى منه نسخة بخطّه في أربعة مجلّدات إلى الناصر من بني عبد المؤمن، ويبدو أنّه هو الذي جاءت فيه مختلف آرائه التي تداولها النحاة المتأخرون في موسوعاتهم كارتشاف الضرب لأبي حيّان، وتوجد منه قطعة بدار الكتب المصرية وبالمكتبة الوطنية بتونس، وقد نشر منه محمد خليفة الدفاع مختارات مع مختارات من شرح الصفّار لكتاب سيبويه أيضا. دار النهضة العربيّة، بيروت؛ 4 ـ شرح جمل الزّجاجي: منه نسخة بمكتبة جامع ابن يوسف العامة بمراكش رقم 304. ويشير ابن الزبير أنّ صاحب الذّيل ينسب إليه شرحا كبيرا لكتاب الإيضاح. لكن ذلك غير وارد في الذّيل في ترجمة ابن خروف. ولا شكّ أنّه يقصد ما ذكره في ترجمة ابن الطراوة. فابن عبد الملك يقول متحدّثا عمّن يغمزون بجهله «كأبي الحسن ابن خروف فإنّه أتبع شرحه كتاب سيبويه التّعقّب عليه في مقدّماته على كتاب سيبويه وتنبيهاته على إيضاح الفارسي. وجلّ ذلك من مهمّات النظر في تبيين أغراض سيبويه» [الذّيل والتّكملة، السفر الرابع، ص 80]. ولعلّ ابن الزبير يشير إلى ما كتبه ابن خروف حول موقف ابن الطراوة من أبي علي الفارسي.

المصادر والمراجع

● ابن الزبير، صلة الصلة، تح. ليفي بروفنسال، مكتبة خياط، بيروت، والرباط 1937؛ ● الرعيني، البرنامج، تح. إبراهيم شبّوح، دمشق 1962؛ ● ابن عبد الملك المراكشي، الذّيل والتكملة، 1964، بيروت دار الثقافة، تح. إحسان عبّاس؛ ● الفيروزبادي، البلغة في تاريخ أئمة اللغة، تح. محمد المصري،

1392هـ/ 1972م دمشق؛ • القفطي، إنباه الرواة على أنباه النّحاة، 1986، تح. أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي القاهرة، بيروت؛ • ياقوت، معجم الأدباء، 1993، 5/ 1969 ـ 1970، تح. إحسان عبّاس، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت؛ • ابن قاضي شهبة، طبقات النّحاة واللغويين، العراق، 1974، ص 40؛ • السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تح. أبو الفضل إبراهيم، 1964، 2/ 203 ـ 204، المكتبة العصرية بيروت؛ • الأشباه والنظائر، 3/ 169 ـ 174، دار الكتاب العربي، بيروت، 1984؛ • ابن خلكان، وفيات الأعيان، ط. باريس، 1838، 1/ 476؛ • رضا عبد الجليل الطيار، الدراسات اللغوية في الأندلس، دار الرشيد للنشر، العراق، 1980.

د. منصف عاشور

جامعة تونس

خروفة أبو الربيع، سليمان بن عمران بن هاشم

(183هـ/ 799م ـ 270هـ/ 883م)

سليمان بن عمران بن أبي هاشم، أبو الربيع، لقب خروفة. قاضي إفريقية وفقيهها على المذهب الحنفي. تعلم أساسا بالقيروان. ومن شيوخه نذكر عبد الله بن المغيرة الكوفي الحنفي الذي قدم إلى إفريقية من الشرق، وخاصة أسد بن الفرات الذي انتهى بالتحول إلى المذهب الحنفي.

لقب سليمان خروفة نتيجة لكثرة ملازمته أسدًا. ويقول الخشني في هذا الصدد: «كان لا يلقي أسد بن الفرات في موضع إلا ويلقى سليمان ماشيا وراءه، فشبه أتباعه له باتباع الخروف لأمه». وهو يعتبر وريث علم أسد، ووريثه في زعامة المدرسة الحنفية.

لم تعرفنا المصادر بتلاميذه، باستثناء أحمد بن تميم بن تمام أبي العرب صاحب الطبقات، وأبي المهلب هيثم بن سليمان القيسي [ت حوالى 275هـ/ 888م]. والراجح أن عددا من أتباع المدرسة الحنفية الأفارقة قد أخذوا عنه مثل أبي العباس بن عبدون، ويحيى بن محمد بن قادم، وكاتبه في القضاء أبي عقال سعيد بن محمد بن جرير، وابن أبي الحواجب الذي عينه سليمان على الصلاة والخطبة. تتلمذ له أيضا محمد بن الأغلب، إذ كان لسليمان «يوم في الجمعة أو يومان يقرأ عليه فيه العلم تفسير القرآن وغيره»، وربما تقابل العبارة الأخيرة أسدية أسد.

لم يخصه القاضي عياض بترجمة بخلاف ابن ناجي والخشني اللذين وضعاهُ في «باب ذكر الرجال العراقيين». ولم تذكر المصادر أنه كانت له رحلة إلى الشرق. ولكن من خلال

إشارة غير مباشرة أوردها القاضي عياض، نستنتج أن سليمان حج واتصل بالعلماء، على الأقل علماء مصر.

وفي ترجمتها له، ركزت المصادر أساسا على ولايته القضاء، وعلى نوعية علاقته بعلماء المالكية.

اتخذه القاضي سحنون كاتبا. ثم عينه قاضيا على بجاية وباجة والأربس. وقد عرفنا ابن أبي زيد القيرواني في النوادر والزيادات ببعض الأسئلة التي كان توجه بها سليمان، أيام قضائه هناك، إلى القاضي سحنون. وإثر وفاة سحنون (240هـ/ 854م)، ارتقى سليمان إلى خطة قضاء إفريقية، ثم عزل سنة 257هـ/ 870م لِيَلِيَ مكانه عبد الله بن طالب المالكي المذهب. ثم عزل ابن طالب سنة 259هـ/ 872م ليعود إليها سليمان بن عمران. وظل قاضيا إلى سنة 267هـ/ 880م، تاريخ عزله وعودة ابن طالب إلى القضاء. فقد ظلت هذه الخطة عموما متداولة بين الأحناف والمالكية في العهد الأغلبي.

كان سليمان يتصف بالإيثار، من ذلك أنه قدم على نفسه سحنون في ولاية قضاء إفريقية. فلما «أراد محمد بن الأغلب أن يولي سحنون، جمع العلماء والفقهاء للمشورة، فأشار سحنون بسليمان بن عمران، وأشار سليمان بسحنون، وأشار غيرهما بسليمان. فأُدخلوا فُرادى، فقالوا كقولهم الأول، وذلك أن أكثر الفقهاء إذاك كانوا على رأي الكوفيين. وكان سليمان يرى رأيهم». ومن هنا نستنتج أن سليمان كان حنفيا، وربما يأتي هذا لتعديل ما ذهب إليه ميكلوش موراني.

فكأننا به مال إلى تصنيف سليمان ضمن المالكية. نستنتج أيضا أن منزلة سليمان العلمية ربما لا تقل أهمية عن منزلة سحنون، بما أن هذا الأخير قدمه على نفسه.

وعندما ألح عليهم الأمير، قال سليمان في سحنون: «ما ظننت أنه (الأمير) يشاورني في سحنون، حججت فرأيت أهل مصر يتمنون أن يكون بين أظهرهم، وما يستحق أحد القضاء وسحنون حي».

ولما ولي سحنون القضاء، قال لسليمان: «ابتليتني، فوالله لأبتلينك»، فولاني القضاء وقال لي: «عليك يا أبا الربيع بالحجازية»، فقلت: «القاضي مفت، فما كنت أفتي به، فبه أقضي. فسكت عني». وهذا يعني أن سليمان كان يقضي بالمذهب الحنفي. يؤيد ذلك ما نقله ابن ناجي. فقد اشتكى أهل باجة سليمان إلى القاضي سحنون على أساس أنه «يحكم بمذهب أبي حنيفة». فقال سحنون: «ما قدمته عليكم إلا وأنا أعلم أنه يحكم بمذهبه، وانصرفوا». ويأتي هذا لرد ما ذكره الخشني. فقد نقل أن سليمان كان يقضي آنذاك بالمذهب المالكي، واستدل في ذلك بإقراره لشهادة في ثور اقتصرت على رَجُل ويمين.

أوَّل محمد الطالبي استعانة القاضي سحنون بسليمان برغبته في تركيز سلطته. ويمكن تأويله أيضا بسعي سحنون إلى تقوية صفوف الاتجاه السني لمواجهة الاعتزال والمذاهب «المبتدعة». يؤيد هذا أن المصادر المالكية أكدت أن سليمان كان على «مذاهب السنة»، وأنه «لم يكن يقول بخلق القرآن».

وإثر وفاة سحنون، سعى علماء المالكية إلى

تولية محمد بن سحنون القضاء، إلا أن الأمير بن الأغلب قدم سليمان بن عمران عليه. وبذلك توجهت العلاقات بين المالكية والحنفية نحو مزيد التوتر. فقد ضايق القاضي سليمان، بن سحنون وأهانه، مما أجبره على التخفي. فتدخل له الأمير ليرفع عنه يد القاضي.

في تلك الظروف، اتصل ابن سحنون بمحمد بن أحمد بن ربيعة الحضرمي، أحد رجال الأمير، ليعيد عبد الله بن طالب إلى ولاية الصلاة والخطبة مكان ابن أبي الحواجب. فكان ذلك. وكان من جملة ردود فعل القاضي أن امتحن البعض من علماء المالكية. فقد ضرب حبيب بن نصر صاحب مظالم سحنون وسجنه، وامتحن فرات بن محمد المعروف بالسماع من سحنون. امتحن أيضا في مرحلة لاحقة عبد الله بن طالب عند العزلة الأولى عن القضاء. وعندما ارتقى ابن طالب إلى القضاء في المرة الثانية، طلب منه الأمير أن ينظر على سليمان بن عمران. فطلبه ابن طالب، فاستخفى منه.

فالامتحان آنذاك كان متبادلا بين المالكية والحنفية، وقد كان للعامل السياسي دور هام في ذلك.

ومهما يكن من أمر، فإن المصادر أثنت على سليمان بن عمران. فهو ثقة نقل عنه أصحاب كتب طبقات المالكية أخبارا تخص ابن غانم وسحنون وخاصة أسد بن الفرات. وهو يعتبر، إلى جانب معمر بن منصور، ابرز سند بإفريقية في رواية علم أسد.

ورغم أن أبا عبد الله بن زرزر الفقيه، كان «يستخف بسليمان لقصر فهمه في العمل»، فإن الدباغ وابن ناجي كانا يثنيان عليه. أكد الدباغ «فضله وعلمه»، بينما وصفه محمد مخلوف نقلا عن ابن ناجي بأنه «من أهل الفضل وقضاة العدل ومن أعلام العلماء ومن أحضر فقهاء إفريقية جوابا وألطفهم حسًّا وأحدِّهم ذهنا». كانت له أيضا «فراسة وكانت له في الأحكام إدارة». لذلك كان يقول: «لو شئت أن أقضي بين الخصمين بلا بينة لفعلت، والله ما يقعد بين يدي الخصمان ويتناظران، إلا وأنا أعرف من له الحق منهما». وربما ساعدته على هذا، ميزة أخرى عرف بها في القضاء. فقد كان «يجلس قبل خروجه إلى الناس في مكان يسمع منه كلامهم وما يجري من القول بينهم». ماطل رجلا شهد له أربعة شهود زور، وقد علق الخشني على ذلك قائلا: «وهذا إن لم يكن وجه القضاء على مر الحق، فهو من باب اللطف والسياسة». وربما لهذا السبب ضج الناس عندما عزل سليمان عن القضاء. فقد قالوا: «إنا لله وإنا إليه راجعون، عزل سليمان عن القضاء، وأين مثل سليمان؟».

كان أيضا «كثير النادر، وكثير التحكك بالناس في التعريض بعيوبهم وألقابهم». دخل عليه رجل يلقب بالفقوسة، فقال له سليمان: «كنت أعرف لكم مقثأة، فما صنع الله بها؟» فقال الرجل: «كانت حسنة لولا خروفة دخلتها فأفسدتها».

كان سليمان بن عمران متصفا كذلك بالورع. من ذلك أنه رفض تمكين الأمير أحمد بن محمد من رخصة. فقد تكلم الأمير في حال سكره بكلام يشعر بالكفر، فندم وسأل علماء

المدنيين والعراقيين بمن فيهم سليمان، هل من توبة؟ «فصعبوا عليه»، بينما مكنه منها محمد بن يحيى بن سلام قائلا: «فتب وتصدق».

ولئن كانت علاقة سحنون بعلي بن حميد، أحد وزراء الأغالبة، طيبة، فإن علاقة سليمان به كانت متوترة.

توفي سليمان مفلوجا، وعمره 87 عاما. وصلى عليه القاضي عبد الله بن طالب مكرها. وقد رثاه كاتبه أبو عقال سعيد بن محمد بن جرير. ومن جملة ما ورد في تلك المرثية أن سليمان ولي القضاء 56 سنة. وفي هذا مبالغة واضحة، بما أنه يصعب أن تكون فترات ولايته تجاوزت 32 سنة. ودفن بباب سلم من القيروان. قد عرفنا ابن ناجي أن قبره أصبح مزارا «يعرفه الخاصة والعامة».

آثاره

لم تنسب المصادر إلى سليمان بن عمران مؤلفات، وهذا لا يعني بالضرورة أنه لم يهتم بالتأليف. وبالمقابل فقد أكثر من الرواية عن أسد بن الفرات. فالروايات التي أخذها أبو المهلب هيثم بن سليمان القيسي عن سليمان بن عمران، في كتاب القاضي والقضاء، ترجع كلها إلى أسد، هذا الذي يروي عن أبي يوسف وغيره.

وصلتنا قطعة مخطوطة بالمكتبة العتيقة بالقيروان. تحت عنوان «كتاب السرقة وقطع الطريق من الأسدية»، تحمل سندا يفيد رواية سليمان عن أسد، إلى جانب رواية معمر بن منصور عن أسد. وقد رجح الباحثون صحة نسبة ذلك الكتاب إلى الأسدية. وبعد تفحصنا له استنتجنا أنه من الصعب أن تصح تلك النسبة. ومهما يكن من أمر فالراجح أن سليمان كان من أصح رواة الأسدية عن أسد.

المصادر والمراجع

● أبو المهلب، هيثم بن سليمان، أدب القاضي والقضاء، تح. فرحات الدشراوي، تونس، الشركة التونسية للتوزيع، د. ت.، 17، 18، 28، 55، 87، 131؛ ● ابن أبي زيد القيرواني، النوادر والزيادات، تح. جماعة من الأساتذة المغاربة، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1999، 4/ 627 ـ 628، 8/ 193؛ ● أبو العرب، طبقات علماء إفريقية وتونس، تح. علي الشابي ونعيم حسن اليافي، تونس، 1968، 114، 161 ـ 162، 165؛ ● الخشني، طبقات علماء إفريقية، نشر الشيخ محمد بن أبي شنب، الجزائر، 1914، 116، 180 ـ 183، 236 ـ 237؛ ● المالكي، رياض النفوس، تح. بشير البكوش، بيروت، 1983، 1/ 238، 254، 267 ـ 268، 276، 453، 514؛ ● القاضي عياض، ترتيب المدارك، تح. أحمد بكير محمود، بيروت ـ طرابلس، 1967، 1/ 474، 595 ـ 596، 598 ـ 599، 608، 3/ 334؛ ● تراجم أغلبية مستخرجة من مدارك القاضي عياض، تح. محمد الطالبي، تونس، 1968، 99، 102، 210؛ ● ابن فَرحون، الديباج المذهب، مصر، 1932، 119؛ ● ابن ناجي،

معالم الإيمان، تح. إبراهيم شبوح ومحمد ماضور. . .، تونس، 1993، ط 2، 2/ 151 ـ 158؛ ● ابن عذاري، البيان المغرب، تح. ج. س. كولان وإ. ليفي بروفنسال، ليبيا ـ تونس، الدار العربية للكتاب، 1983، ط 3، 1/ 112، 115 ـ 117، 119؛ ● مخلوف، شجرة النور الزكية، دار الفكر للطباعة والنشر، د. ت، 71؛ ● الطالبي، محمد، الدولة الأغلبية، نقله إلى العربية المنجي الصيادي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1985، ط 1، 257؛ ● ميكلوس موراني، «رواية كتب أهل المشرق بالقيروان في القرن الثالث للهجرة»، ضمن محاضرات ملتقى القيروان مركز علمي مالكي بين المشرق والمغرب حتى نهاية القرن الخامس للهجرة، القيروان، 1995، ط 1، 214؛ ● الهنتاتي، نجم الدين، المنهج بين الأسدية والمختلطة والمدونة»، مجلة كلية الآداب بتطوان ـ المغرب.

د. نجم الدين الهنتاتي
جامعة تونس

ابن الخريطة، الشَّمَرْدَل بن شَريك اليربوعي

(ت. نحو 80 أو 100هـ/700 أو 718م)

هو الشمردل بن شريك (بالفتح) وقيل: شُرَيْك (بالضم) بن عبد الملك بن ثعلبة بن يربوع، من بني تميم، يعرف بابن الخَريطة ـ وجاء: الخَرْبَطَة (بالباء الموحدة) وهو تصحيف؛ وذلك أنه وُضع، وهو صبي صغير في خريطة، وهي وعاء من جلد أو نحوه يُشَدُّ على ما فيه. والشمردلُ، في اللغة كـ «سَفَرْجل»: الفَتيُّ السريع من الإبل؛ وهو أيضًا: الطويل من الناس وغيرهم؛ وهناك عدد من الشعراء تَسَمّوا الشمردل، منهم شاعرنا اليربوعي، والشمردل بنُ حاجزٍ البَجَليّ، والشمردل الكعبيّ، والشمردل بن ضرار الضبّيّ..

شاعر إسلامي مرواني، من شعراء الدولة الأموية؛ نشأ في جنوبي العراق، وربّما في البصرة. عُرف بمراثيه الشعرية الرقيقة لإخوته، وكان مولعًا بالخمر واللهو، من غير تهتك أو مجون.

هذا كل ما وصلنا عن حياته الأولى ونشأته وأسرته.. أما أخباره، ومعالم حياته فقد سلط الأغاني بعض الأضواء عليها، كذلك أشعاره المتعددة الأغراض.

أخبر الرواة أن الشمردل كان له ثلاثة إخوة فرسان هم: حَكَم، ووائل، وقُدامة؛ خرجوا مع وَكيع بن أبي سود التميمي المولج بأمر الكوفة من قبل الخليفة، إلى خراسان. فبعث وكيع كلّ واحد من إخوة الشمردل إلى الحرب في ناحية... فقال الشمردل: إنْ رأيتَ أيها

الأمير أن تُنفِذَنا معًا في وجه واحد؛ فإنّا إذا اجتمعنا تعاونّا وتناصرنا وتناسبْنا، فلم يأبه لهذه الرغبة؛ فهجاه الشاعر بقصيدة عينيّة أرسلها إلى أخيه حكَم مع رجل من بني جُشَم، ضِمْنها هجاء لاذعٌ لوكيع..

فلم يمض وقت قصير حتى جاءه نَعْيُ أخيه قدامة، من فارس، ثم تلاه نَعْي أخيه وائل بثلاثة أيام؛ فرثاهما معًا بقصيدة لامية ذكر الأغاني منها ثلاثة عشر بيتًا، توقفت المصادرُ القديمة عند بيتين منها، وأعارتهما عناية وافية من الشرح والتحليل وهما:

بِنَفْسي خَليلايَ اللذان تَبَرَّضَا
دموعي حتى أسْرَعَ الحزنُ في عقْلي

ولولا الأُسى ما عشتُ في الناس بَعْدَهُ
ولكنْ إذا ما شئتُ أسْعَدَني مِثْلي

ولم يكتف بقصيدة واحدة في رثاء أخويه، بل نظم مرثية لاميّة أخرى، في أخيه وائل، هي من عيون أشعار الرثاء في الأدب العربي؛ توقف القدماء أيضًا عند بيتين اثنين منها، رأوا فيهما خلاصة ما يعتمل في داخل الإنسان من كمد وتفجع حيال الموت المباغت:

أبى الصَّبْرَ أنَّ العيْنَ بعْدَكَ لم يَزَلْ
يُخالطُ جَفْنَيْها قَذىً ما تُزاوِلُهْ

وكنتُ أُعيرُ الدمعَ قبلَكَ مَنْ بكى
فأنتَ على من مات بَعْدَكَ شاغِلُهْ

ثم رثى أخاه الثالث حكم الذي قتل في وجهه، فثارتْ عشيرته له، فَقَتَلت قاتِلَه، وكان ذلك كما يقول العرب: بمنزلة ثالثة الأثافي للشاعر، ومطلع رثائه:

يقولون احتسِبْ حَكَمًا، وراحوا
بأبيضَ لا أراه ولا يراني

ومن أخباره ـ بحسب الأغاني ـ إخلافُ أحد ممدوحيه (هلال بن أحوز المازني) في إجزال العطاء له بعد مدحه واستماحته، فماطل طويلاً لينتهي ذلك بمال يسير لا يسمن ولا يغني من جوع، فهجاه الشاعر بقصيدة صوَّر فيها كبرياءه وعزَّته، وأقسم أنه لو وعده بمال قارون، لما عاد إليه... وفي هجائه هذا نفحة من روح النكتة والمداعبة من الهجاء القادح:

غدًا نَصْفُ حَول منه إنْ قال لي: غدا
وبَعْدَ غدٍ منه، كَحَولٍ أُراصِدُهْ

ولو قيلَ مِثلا كنزِ قارُونَ عندَه
وقيلَ التمِسْ موعودَهُ لا أُعاوِدُهْ

ومثل ذلك فعل مع رجل من بني ضبَّة كان عدوًّا للشمردل، شَمِتَ بمقتل إخوته الثلاثة وسرَّ كثيرًا:

ما أرضعَتْ مَرضِعٌ سَخْلاً أعقَّ بها
في الناس لا عَرَبٍ منها ولا عَجَمِ

من ابنِ حنْكلةٍ كانت وإنْ عَرِبتْ
مُذالةً لقدور الناسِ والحُرَمِ

ومن أخباره الطريفة التي توقف عندها الرواة حكايته مع الفرزدق الذي كان يُصلِتُ على الشعراء أشعارهم (يَشهر عليهم سيفه) ثم يهجو مَن ذكر أنَّ شيئًا انتحله أو ادّعاه لغيره..

وكان يقول: ضَوَالُّ الشعر أحبُّ إليَّ من ضوالِّ الإبل. وخيرُ السَّرقة ما لم تقطعْ فيه اليدُ. فمرَّ يومًا بالشمردل، وهو يُنشِدُ قصيدة، فاستوقفه عند البيت التالي:

وما بينَ من لم يُعطِ سَمعًا وطاعةً
وبين تميمٍ غير حَزُّ الحلاقِمِ

فقال الفرزدق: والله لَتَتْركنَّ هذا البيت أو لَتَتْركنَّ عِرْضَك! فقال: خُذْه على كرهٍ مني، لا باركَ الله لك فيه؛ فجعله في قصيدته التي أولها:

تَحِنُّ بِزَوْراءِ المدينة ناقتي
حَنينَ عَجولٍ تبتغي البَوَّ رائمِ

[الموشّح، 168، 171 ـ 172].

تلك كانت أبرز محطات سيرته في الحياة وفي الشعر، لم يتوافر لنا أوسع منها، شأنه شأن معظم الشعراء المقلّين أو المغمورين؛ لولا بعض أبياتهم المعبِّرة وقصصهم الطريفة وأحداثٍ جِسام وقعتْ لهم، لما حفظتْ كتب السير والتراجم شيئًا عنهم...

وأما وفاته فقد اختُلف في زمانها، فقيل كانت سنة 80هـ، وشكَّكَ عمر فروخ في ذلك وجعلها بعد سنة 100هـ، لأنَّ الفرزدق عندما سمع بيت الشمردل وانتزعه منه، كان على أُهْبة مدح سليمان بن عبد الملك الذي اعتلى الخلافة منتصف سنة 96هـ، وأن الشمردل كان يحيا في زمان سليمان؛ ولذلك فإن وفاته ـ بحسب تقدير فروخ ـ قد حصلت بعد المائة الهجرية، بعد عودته من خراسان إلى العراق.

تمحور شعر الشمردل حول موضوعة رئيسة هي الرثاء الذي كان يتعاظم يومًا بعد يوم، عقب مقتل إخوته الثلاثة، في حروب الإسلام، الواحد بعد الآخر. ولا شكَّ في أن ما أوردته كتب السير والمنتخبات، أقلُّ بكثير مما نظمه الشاعر المفجوع.

يلي الرثاء، مدح وهجاء؛ نصيب الثاني أكبر، لكنهما لا يشكلان نسبة كبيرة كما في الرثاء..

ومن الأغراض الأخرى، نذكر الغزل، والخمريات، والطرديات، ونتفًا من الطرائف، مما نعرضه في السطور الآتية:

شغلت مراثي الشاعر حيِّزًا واسعًا في حياته وشعره، احتلَّ فيه البكاءُ والدمعُ النسبة العليا في المعاني والأفكار التي توزّعت بين ذكْر المناقب الذاتية والمآثر الجميلة، والمقارنات بين المرثيّ بعد الموت وقبله، من جهة، وبينه وبين غيره من الرجال الأحياء من جهة ثانية؛ كما تطرق الشعرُ فيها إلى مشاركة الطبيعة في أجواء الحزن، ولا سيما الحمام النائح، وإلى المكانة الفريدة التي يحتلها الفقيد، ودوره في الشجاعة، والذود عن الحمى، والتمتع بكل صفات الكبار العظماء، مما كان الشعراء يذكرونه في مراثيهم، بحيث لا نكاد نعثر على معنى جديد أو صورة بديعة جديدة.. ولا يختمرنا شكّ في أن كل شاعر يحرص على ابتداع أفكار وأساليب جديدة، ولكن ذلك لا يتحقق إلّا مع قلّة هم النوابغ والملهمون..

ومن أقواله المعبِّرة اللافتة، ما جاء في مرثاة أخيه الحَكَم، مشيرًا إلى مكانته الفريدة في الحياة:

وكنتَ سِنانَ رُمحي من قَناتي
وليس الرمحُ إلّا بالسِّنانِ
وكنتَ بَنَانَ كفِّي من يميني
وكيفَ صَلاحُها بعد البَنَانِ؟

ومنها في أخيه وائل الذي فاضت معه القريحة، فكانت قصيدة لامية، وصفها النقاد بأنها من مختار المراثي، وجيِّد شعره، وفيها

إشارات ورموز لموقع المرثي في حياة الشاعر الذي لم يجد في الحياة بعده من يمكنه الحلول محلّه، وأن الموت به شغَفٌ بمن ينفع ويُحسن، أكثر من الضّارّ المؤذي:

فما كنتُ أُلْفي لامرئٍ عند مَوْطنٍ
أخًا بأخي، لو كان حيًّا أبادِلُهْ

وكنتُ به أَغْشَى القتالَ فَعَزَّني
عليه من المقدار مَنْ لا أُقاتِلُهْ

لَعَمْرُكَ إنَّ الموتَ منّا لَمُولَعٌ
بِمَن كان يُرجَى نَفْعُه ونَوافِلُهْ

أمّا هجاؤه: أولُ مهجويه كان وكيع بن أبي سود، قائد الحملة لمحاربة قتيبة بن مسلم (ت 96هـ/ 715م)، قتله وكيع بأمر من الخليفة سليمان بن عبد الملك؛ وكان سبب هجائه ما ذكرناه من إرسال إخوة الشاعر للقتال في الأمصار كلٌّ في ناحية، وما تَلا ذلك من فواجع مقتلهم.. ثم هجا من بعده هلال بن أحوز المازني بسبب شُحّه في عطائه وإخلافه المتكرر في وعده للشاعر؛ وهجا الضبّي الذي كان مع وكيع في بعثته إلى القتال، وعلم بمقتل إخوة الشمردل، فسُرَّ بذلك وشمتَ به، ما دعاه إلى هجائه هجاءً مُرًّا لا هوادة فيه، انتهى فيه إلى أبيات حكيمة مؤثّرة...

لا شيء جديد في أهاجي الشاعر سوى ما جاء في قصيدته الميميّة التي هجا فيها الضبّيَ الشامت، من خلط الهجاء بالمدح، بالحكمة، بحيث جاء المدح أكبر من الهجاء لا بل فاقه قليلاً؛ ونادرًا ما يرشّح في المِدْحَة أو الأهجية شعر في الحكمة لكن الشاعر ههنا ختمها ببيتين حكيمين دالّين، بقوله:

وما بناءٌ وإن سُدَّتْ دعائِمُهُ
إلّا سيُصبِحُ يومًا خاويَ الدِّعَمِ

لئن نَجَوْتَ من الأحداثِ أو سَلِمتْ
منهنّ نفْسُكَ لم تسْلم من الهَرَمِ

ذلك أنّ الشمردل، وهو يهجو الضبيَّ، أقام مقارنة بين الضبّيِّين وبني ثعلبة التميميين من عشيرته، أفرد أبياتًا خمسة متتابعة، أرْدَفها بلَفْتةٍ من ثلاثة أبيات، نحو إخوته وما حلَّ به من مصائب وأحزان. انتهت بشعر الحكمة..

ذاك هو الجديد في هذه القصيدة التي تداخلت فيها أغراض أربعة هي: الهجاء فالمدح، فالرثاء، فالحكمة. وما سوى ذلك، فهجاء الشمردل هو نفسه هجاء شعراء زمانه؛ إلّا أنه لم يُسِفَّ فيه أو يَبتذل، لا بل رأينا في بعض قصائده نوعًا من عبثية التصوير الساخر في هجائه للرجل المسوِّف المقتِّر هلال، كما مرَّ معنا.

في المدح: لم نقرأ له شعرًا كثيرًا، إذ استنفدَه في الرثاء الذي يُعتبر أعلى درجات المدح وأصدقها. ومما جاء في مدحه بني ثعلبة، بيتان تصدّرا سيرة الشمردل في بعض المصادر الأدبية، كالشعر والشعراء، الذي لم يذكر من سيرة الشاعر إلّا هذين البيتين، وسطرين آخرين في اسمه ونسبه؛ وشرح الحماسة للمرزوقي، وشرح الحماسة للتبريزي، وسمط اللآلي، وغيرها.. كما توقفت عندهما شارحةً، ومنوهة ومحلّلةً ـ وهما:

يُشَبَّهونَ سيوفًا في صَرائمهمْ
وطولِ أنْضيةِ الأعناقِ والأُمَمِ

إذا غدا المِسْكُ يَجْري في مَفارقِهِمْ
راحوا تخالُهم مرْضى من الكَرَمِ

ورد في البيت الأول: «قريشًا في تكلُّمهم» بدل: سيوفًا... والصرائم: العزائم. والأنضية: ج النَّضِيّ، هو في الأصل مركّب النصل في السيف. وهو هنا: مركّب الرأس في العُنُق. والأَمَم: ج أَمّة، وهي القامة. وقوله: «راحوا تخالُهم مرضى من الكرم» أي من الحياء.

ووَصَفَهم بالصراحة والنفاذ في الأمور، فكأنهم السيوف؛ وبطُول القوام وحُسْن الشطاط (القوام) وباستعمال العطر وكرم النفس وشدّة الحياء بعد الشرب، وبتمام الأُبّهة والمروءة في مجالس الأنس [شرح الحماسة للمرزوقي، 4/ 1611 ـ 1612].

ومن شعره أيضًا مُقطّعتان اثنتان ـ أوردهما الأغاني، الأولى في الغزل، والثانية في منادمة شراب، ذكر في الأولى (أربعة أبيات) خبرَ حسّانٍ غوانٍ أتقنَّ فن الإغواء وإيقاع الرجال في حبالهنّ.

وذكر في الثانية (خمسة أبيات) خبر نديمين طالما عاشراه في خانات الخمارين بخراسان، أحدهما يقال له دَيْكَل والثاني قبيصة. شربوا جميعًا وأكلوا من جَزور نحروها، حتى سكروا، وانصرف قبيصة حافيًا تاركًا نَعْله عندهم، فقال الشمردل:

شربتُ ونادمتُ الملوكَ فلم أجدْ
على الكاس نَدْمانًا لها مثل دَيْكَلِ

....
....

عَشيّةَ انسَيْنا قبيصةَ نَعْلَهُ
فراحَ الفتى البكريُّ غيرَ مُنعَّلِ

وفي ذلك غير ضوءٍ على سلوك الشاعر ومجالسه وندمانه وكرمه في تعاطيه الشراب، وأنه ليس امرأ عاديًا في مجالسه، بل هو نديم الملوك وجليسهم. ولا يكون ذلك إلا لرجل عالي القدْر، رفيع الهمّة، واسع العلاقات.

شعره في الطرديات: اتّسم بدقّة التصوير ومطاوعة القافية له، ولو على حساب السلاسة وعذوبة اللفظ.. فقد وصف الصقر وكلب الصيد في أرجوزة من عشرات الأشطر، ووصف الذئب وقتله بعد طول معاناة ومكابدة من نقصان الغنم، والشاة تلو الشاة... قائلاً، في مطلع الأرجوزة ومَخْتَمها:

هل خُبِّرَ السِّرحانُ إذ يَسْتَخْبِرُ
عني وقد نام الصِّحابُ السُّمَّرُ
....
....
ثُمَّةَ أهْويتُ له لا أُزْجَرُ
سَهْمًا، فولّى عنه وهو يعْثُرُ
وبتُّ ليلي آمنًا أُكَبِّرُ

(السرحان، الذئب)

ومن موصوفاته في الحيوان، ما جاء في لسان العرب، عن وصفه الفرس، ما يتمتع به من بديع الخَلْق ورفعة الهيئة:

لاحِقُ القُرْبِ، والأياطِلِ
نَهْدٌ مُشرفُ الخَلْقِ في مَطاهُ تمامُ

[اللسان، (قرب)، 1/ 668]

ومثل ذلك وصفه للصدفة البحرية يخرج منها

كهيئة الظفْر، في شطر رجزٍ يتيم، أورده اللسان:

دَوْلَعَةٌ يَسْتَلُّها بظُفْرها

[اللسان، (دلع)، 8/ 91].

أوجز الدكتور عمر فروخ السمات العامة التي اتّسم بها الشمردل فقال:

«الشمردل بن شريك شاعر وراجز مقتدر، صحيح اللغة، متين السبك، وتجد له أحيانا شيئًا من غرابة الألفاظ». كلام سديد لكنه غير دقيق؛ بمعنى أن معظم شعراء زمانه يمتلكون هذه السمات، الشاعر منهم والراجز، الهاجي والمادح، الراثي والواصف والفاخر.. وسأضيف إلى ما ذكر أشياء أو بعض الشواهد تؤكد ما أوجزه فروخ وتوضح مزايا أخرى ألصقَ بالشاعر من غيره.

ففي رثائه لأخيه وائل، غيرُ صورة أدبية بديعة. أشرتُ إلى بعضها من قبل، وألفتُ إلى واحدة، ظاهرها حسّي مباشر، ولكنها تلامس ضمير الواقع في المشاركة الوجدانية للأخ الراحل، وقد صاغها الشاعر بكثير من البساطة والعفوية:

فما البعدُ إلّا أنّنا بَعْد صُحبةٍ
كأنْ لم نُبايِتْ وائلاً ونُقايِلُهْ

استخدم الشاعر لفظين عاديين في معناهما وهما: المبايَتَة: أي المبيتُ معًا، والمُقايَلة: النوم معًا في ضحوات النهار، من: قال، يَقيلُ، إذا نام وقْت القائلة، وهي الظهيرة. جمال الصورة هو هذه اللفتة الإنسانية إلى حركات لا يكاد أحدُنا يُعيرها موقعًا من الكلام والتذكر، لكنها غنية في ربط المشاعر الأخوية وحبكها في مسيرة عُمْر مليء بصنوف الرغد والشقاء المتعاقبين أبدًا، ولا سيما أُويقات الطفولة والصبا. وقد أحدث الفعْلان ما لا حدَّ له من التذكار اللذيذ واستعادة أجمل أنماط الحياة الغابرة والمبكرة، ويكمن ذلك كله في صيغة «المفاعلة» أي الاشتراك الحيّ في الفعل. وما كان ليحدُثَ شيء من ذلك لو قال: «بتُّ معه أو قِلتُ معه» فالجمال في صيغة الكلام والتعبير لا المعنى.

وفي هجائه لوكيع التميمي، يومضُ الشاعر في لفته بديعية حسنة الوقع والتأثير، وهو أبعد ما يكون عن الصنعة والتكلف:

يا أيها المبتغي شَتْمي لأشْتُمَهُ
إنْ كان أعمى، فإنّي عَنْكَ غيرُ عَمِ

فقد انتقل مباشرة من ضمير المخاطب، إلى ضمير الغائب، بخفّةٍ وانسلال لطيفٍ، بعث فينا ظلال دهشة عابرة لكنها بعيدة التأثير. وهذا يسمّى في علم البديع: الالتفات. فنعم الالتفات ونعم البلاغة الشعرية في تدافع الخواطر واحتدام الانفعال!».

بقيتْ إشارة إلى غرابة الألفاظ التي أشار إليها الدكتور فروخ، فقد استوقفتني ألفاظ كثيرة من هذا القبيل. أذكر منها ستة ألفاظ غريبة لا تُفهم إلّا بالرجوع إلى كتب اللغة، وهي كلها من قصيدة لامية في رثاء أخويه: قدامة ووائل، وهي أُسى الدهر، جمع أُسْوة (بكسر الهمزة، وضمّها). تَبرّضَ الدمعُ: سال حتى جفّ. فتى وَغْلُ: الساقط الرّذل. التَّبْلُ: العداوة. التّتَرُّع: التسرُّع. العرِّيسةُ: مأوى الأسد.

وهناك لفظان قاموسيّان غريبان في قصيدته

اللامية الثانية في رثاء أخيه وائل: غَياطِلُهُ، أي ما اجتمع عليه والتفّ. والغَرْقد: نوع من الشجر. ولفظ ثالث في اللامية نفسها هو: الضَّفِرات: ج ضَفْرَة، الأرض السهلة.

ولفظان آخران غريبان لم يفهما، وهما في بائية وصف الصقر والكلب: الجِذابُ، والثَّبْتُ. هكذا وَرَدَا ولا معنى لهما.

وهناك شطرُ رَجَزٍ بكامله، لا سبيل إلى فهمه، من البائية نفسها: «عصفرة الفؤاد أو قضابه»، وغير ذلك من ألفاظ لا يخلو منها قاموس شاعر أو ديوانه. وربما كان ذلك مقبولاً في عصر سابق، لكنه في عصر الفتوحات والتحضّر العربي، فمن الضرورة والأنسب مراجعة القصائد وغربلتها من كل غريب غير مأنوس.

المصادر والمراجع

● ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تح. وشرح أحمد محمد شاكر، القاهرة 1974؛ ● الآمدي، بشر، المؤتلف والمختلف، تح. عبد الستار أحمد فراج، القاهرة 1381هـ/ 1961م؛ ● المرزباني، محمد بن عمران، الموشح، تح. علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر، القاهرة 1965؛ ● الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، طبعة مصورة عن دار الكتب، القاهرة، د.ت، ج 13؛ ● التبريزي، أبو زكريا، شرح ديوان الحماسة، القاهرة 1296هـ/ 1878م، ج2؛ ● المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، لجنة الترجمة والتأليف، القاهرة 1968م، الجزء الثاني والرابع؛ ● الإفريقي، ابن منظور، مختار الأغاني، أشرف على طبعه زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت 1383هـ/ 1964م، ط1، ج6؛ ● البصري، صدر الدين أبو الفرج، الحماسة البصرية، قدم له وشرحه وضبطه مختار الدين أحمد، جامعة علي كَره، الهند 1383هـ/ 1964م؛ ● الزَّبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، تح. د. عبد الفتاح الحلو، راجعه د.أحمد عمر، ود.خالد جمعة، الكويت 1418هـ/ 1997م، ج29؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت 1986م، ط7، ج3؛ ● فروخ، عمر، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت 1987، ط5، ج1؛ ● ياقوت، شعراء الأمكنة وأشعارهم في معجم البلدان، أعده جورج مارون، أشرف عليه وراجعه د. ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت 1997م. وفيه أربعة عشر بيتًا للشمردل، موزّعة على خمسة أمكنة. وهي: أَبْرَق ذات مأسل، تَوَّج، حزيزَ، روضة الخيل، غمرة.

د. ياسين الأيوبي
الجامعة اللبنانية

خريّف، البشير بن إبراهيم

(1336هـ/1917م - 1404هـ/1983م)

قصاص وروائي تونسي يعتبر مؤسس اتّجاه روائي من أهم أركانه استلهام الواقع الاجتماعي وتوظيف الأحداث التاريخية واعتماد اللهجة الدارجة في الحوار.

ينتمي إلى أسرة شعراء من آل خريّف أصيلة نفطة بواحات الجريد بالجنوب التونسي حيث ولد سنة 1917م. اشتغل في صناعة الشاشية، ثم أتمّ تعليمه وانخرط في سلك التعليم الابتدائي والثانوي فموظّفًا في الإذاعة الوطنية ومؤسسات ثقافية أخرى قبل أن يتفرّغ نهائيًا للكتابة الأدبية.

ساهم في الحياة الأدبية بتنظيم مجالس تلقائية في بعض مقاهي العاصمة وعرف عن كثب الحركة المسرحية واستلهم حياة روادها.

بدأ مسيرته الأدبية منذ سنة 1937 فنشر قصّة قصيرة بعنوان «ليلة الوطيّة» أثارت ضجّة نقدية بسبب لغتها. ثم أضاف أقاصيص أخرى أصدرها سنة 1971 بعنوان «مشموم الفل». وكان نشر منذ نهاية الخمسينات روايته «إفلاس» أو «حبك درباني» تباعا في مجلّة «الفكر» «فاختلف النقاد في شأنها بين مستحسن لطرافة بنائها وأحداثها وشخصياتها ومستنكر لحوارها بالدارجة التونسية. ثم أتبعها بثانية لعنوان «الدقلة في عراجينها» (1968) كرّسته زعيما لمدرسة تونسية تعدّد أتباعها.

أما النصوص التي استلهم فيها أحداث تونس في القرن السادس عشر زمن الاحتلال الأسباني فلم ينشر منها في حياته سوى رواية «برق الليل» محتفظا بمخطوطات روايته «بلارة» التي لم تنشر إلّا بعد وفاته. أصدرتها مؤسسة «بيت الحكمة» سنة 1992 بتحقيق الأستاذ فوزي الزمرلي الذي نشر عنه رسالة جامعية بعنوان «الكتابة القصصية عند البشير خريّف» 1998.

وللبشير خريّف مسرحيّتان مخطوطتان الأولى بعنوان «سوق البلاط» صوّر فيها حياة الناس في أحد أسواق العاصمة، والثانية بعنوان «طمبياس» استلهم فيها بعض أحداث تاريخ تونس. الأولى بأكملها بالدارجة والثانية بالفصحى.

وبذلك يكون مجموع مؤلفاته سبعة كتب متنوّعة الأساليب تنوّع مصادر إلهامها. وقد ترجم بعضها إلى الإسبانية والروسية وبعضها الآخر إلى الفرنسية، وحوّل أحدها إلى شريط سينمائي «خليفة الأقرع» وأخرى إلى تمثيلية إذاعية «برق الليل».

ويمكن تصنيف هذه المؤلفات إلى اتجاهين بارزين: اتجاه واقعي اجتماعي يشمل مختلف الأجناس الأدبية التي كتب فيها: القصة القصيرة «مشموم الفل»، والرواية «إفلاس»، و«الدقلة في عراجينها»، والمسرحية «سوق البلاط»، واتجاه تاريخي يضمّ روايتيه «برق

الليل» و«بلّارة» ومسرحية «طمبياس»:

أ - الاتجاه الواقعي الاجتماعي: استلهم البشير خريّف أحداث نصوصه السرديّة وشخصياتها من الواقع الاجتماعي مركّزا على التفاعل مع محيطه وسعيه لتحقيق ذاته والوعي بإنسانيته فكانت بمثابة الشهادة على العصر صادرة عن كاتب غير محايد، لم يكن هاجسه تصوير البيئة في وثائق جافة بقدر ما كان عرض شخصيات تنبض بالحياة وتمارس حقها في الوجود.

وقد عاش الكاتب في بيئتين مختلفتين: بيئة الجنوب التونسي وواحاته على تخوم الصحراء، وبيئة العاصمة وتعقّد العلاقات الاجتماعية فيها. فجعل أحداث روايته «الدقلة في عراجينها» تدور في الأولى، وأحداث روايته «إفلاس» تدور في الثانية، فكان توظيف الفضاء توظيفا فنّيا يهدف إلى تجذير الشخصيات في محيطها قصد فهم طموحاتها وأشواقها وتفسير تعاليها أو سقوطها. إلا أنّ مأساتها ليست وليدة الفضاء بقدر ما هي ناتجة عن تعقّد العلاقات البشرية وما جبل عليه الإنسان من خير وشرّ يتفاعلان في أعماقه ويذكّيها الظرف فتتفجّر الطاقات الكامنة فيه وتتحوّل إلى أعمال ومواقف شتّى.

فالإنسان إذن في هذه المؤلفات هو الغاية الأساسية من كلّ كتابة أدبية. وليست تجارب الكاتب غريبة عن هذه الأوضاع، إلّا أنه قنّعها بقناع غير شفّاف هو قناع الفن السردي في أعلى درجاته. ذلك لأنّ المتعة الفنية هي أهم دافع للكتابة عند البشير خريّف، رام بلوغها بوسائل مختلفة أبرزها لغة عفوية بسيطة في السرد، دارجة في الحوار، خالية ممّا كان يطبع النثر من تعقيدات بلاغية وإيقاعات كالسجع مثلا. ومع ذلك فهي لا تخلو من شاعرية ناتجة بالذات عن هذه البساطة والعفوية، فضلا عن روح الهزل والسخرية المنبثة في كامل نصوصه تقريبا، هزل متخفٍّ في منعرجات التعبير والتصوير فلا ينكشف بصفة فجّة عبر الأوضاع المضحكة والمواقف الساخرة، لذلك قال السارد في إحدى الروايات: «ربّ متعة أمتع منها قصتها». وإن انتساب البشير خريّف إلى علي الدوعاجي، ومحمد الصادق الرزقي يبرّره هذا التمسك بتلك الجوانب الفنّية. وكلّ هذا لم يمنع الكاتب من بناء روايته بناء فنيا محكما وازن فيه في «الدقلة في عراجينها» مثلا بين فصول الرواية وعناصر النخلة فقسّمها إلى عراجين ثلاثة يتفرّع كلّ منها إلى شماريخ ثلاثة ليصوّر حياة عائلة من واحات الجريد، فجعل كلّ عرجون أي كل فصل يحمل اسم إحدى الشخصيات الفاعلة في الأحداث. ولمّا كان النخيل أهمّ مصدر للرزق في تلك الواحات القصية فقد كانت العلاقات البشرية القائمة على الصراع والحبّ والتقاضي والخصام كلّها من أجل التفرّد بملكيته. فلم يتردّد أحدهم في رفع قضية ضدّ صهره وحرمان أخته من نصيبها الشرعي من ميراث الأسرة، وهذا ما جعلها ممزّقة بين حب زوجها وسطوة أخيها وجشعه. ويوم جاءها شقيقها بوثيقة تنفيذ الحكم على زوجها أظهرت الفرحة وأضمرت التعاطف مع زوجها إلى أن شلّت فجُنّت فماتت ضحية الغدر والوفاء معًا [من أعلام، 108] ومع ذلك يفنى العباد وتبقى الحياة.

وقد أعجب بالرواية الكاتب الكبير الطيب

صالح فكتب مقدمة لها جاء فيها بالخصوص: «هذا الكاتب ليس كاتبا عاديا، وهذه الرواية التي كان من الممكن أن تتحوّل إلى عمل عاطفي فجّ في يد كتّاب أقل خبرة، ترتفع أحيانا إلى قمم عليا من الفن التراجيدي» [ص18]، وقال أيضا «والرواية بعد ذلك تستغل بيئة عربية معيّنة لمناقشة مشاكل العرب قاطبة: التحرّر من التسلّط الأجنبي والتحرّر من القيود الذاتية التي تشل إرادة الإنسان العربي وتمنعه من إطلاق العنان لطاقته الخلاقة. الحيرة التي يعانيها العرب وهم يواجهون عالما معقدا لا يفهمون أسراره فهمًا تامًا، القيم الموروثة التي آلت إليهم أبا عن جدّ والتي أصبحت في كثير من الأحيان مظهرا فارغا يفتقد الطاقة التي تعينهم في صراعهم من أجل البقاء والاستمرار [...] بلى، إن هذا عمل روائي محزن، ولكن الحزن يختلط بالرقة والفكاهة والسخرية التي تصل أحيانا إلى درجة القسوة. وهو عمل عظيم تفرّغ من قراءته فترى الدنيا غير الدنيا» [ص20].

ولا تقل حياة فوزية نعيم في رواية «إفلاس» مأسوية إذ نزحت من الريف إلى العاصمة باسمها القديم منّوبية، وأقحمت في النشاط المسرحي إقحاما دون موهبة ولا استعداد نفسي وعقدت علاقات مرتبكة مع ثلاثة رجال: شيخ مسنّ تبتزه، وشاب زيتوني يحبها ولا تحبه، وتاجر عشقته لكنه عشق غيرها. فاضطربت حياتها وأصابها اليأس في الصميم.

فلا يخلو أي نص من نصوص البشير خريّف من بُعد إنساني ثابت رغم إضفائه عليه لونا محليا يؤصلها في جذورها الإقليمية. لذلك يوم استقرّ بأحد النازحين المقام في بعض ضواحي العاصمة بمجرّد شروعه في النفخ في نايه «باتت رمال الجنوب تموج مع أنغامه» [مشموم الفل، 55].

2 ـ الاتجاه التاريخي: لم يعد البشير خريّف في البعض من رواياته إلى التاريخ ليكرّره أو ليمجّده بل ليرمّمه كما تُرمّم الآثار ويعيد تشكيله في صورة متكاملة انطلاقا من بعض المعطيات الثابتة، وذلك حسب مقتضيات الفنّ السردي. لذلك اهتمّ بالجوانب الخفيّة من التاريخ وأبرز ما أهمله المؤرّخون، وغيّب ما ضخّموه من أعمال الملوك والسلاطين ليظهر حياة العامّة اليومية وتطلّعاتها التي تصنع حقيقة الأحداث. ولم يبق الكاتب محايدا بل اتّخذ موقفا من خيانة أحد أمراء تونس في العهد الحفصي واستنجاده بالأسبان أعداء الأندلسيين والمسلمين عموما لكسر شوكة منافسيه على السلطة. ولم يعلم أنه مكّن العدوّ من موطئ قدم وسمح له باحتلال البلاد وإهانة العباد.

وهذا يظهر جليا في روايتيه «برق الليل» و«بلارة» اللتين تنبضان بالحياة وتعجّان بالشخصيات التي يظهر جانبها الإنساني وتردّدها بين الأمل واليأس والعزم والانهزام: «رجال ونسوة لم يصنعهم التاريخ ولم يذكرهم، بل هم ثمرة خيال الكاتب السردي وإنشاؤه، من قوانين الوجود ركّبهم، ومن سحر البيان أبدعهم، فصاغهم صورًا حية فيّاضة بالمواجد، زاخرة بالمواقف والأفكار» [من أعلام الرواية في تونس، ص101].

وقد ركّز الكاتب في الأولى على عبد زنجي بيع مع أمّه في سوق النخاسة، فأخذ يتنقّل من

سيّد إلى آخر، إلى أن استقرّ به المقام عند تاجر طلّق زوجته ثلاثا فاضطرّ إلى استعماله «تيّاسًا» أي زوجا لليلة واحدة حتى تحلّ له من جديد، لكن العبد العاشق يرفض إغراء المال مفضّلا البقاء مع المرأة التي طالما حلُم بها، ويواجه قدره ببطولة فائقة تقربه من الشخصيات الأسطورية وتكسب الرواية نَفَسا ملحميا خصوصا بعد تسميمه للآبار التي يشرب منها جند العدوّ الأسباني المحتلّ، فيصابون بالجذام ويرحلون بدون رجعة. وفي النهاية يعود العبد إلى سيده كي ينعم برؤية محبوبته لكنه سرعان ما يرتحل بدوره حتّى لا يخون نفسه.

أما الثانية فإنّ أحداثها تقع في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي أي في فترة الاحتلال الأسباني أيضًا. وقد تحوّل برق الليل صحبة رفاق له شهدوا وقائع التاريخ إلى راوٍ يحدث الصبيان عن زمن الصمود والخيانة مركّزا على شخصيات نسائية أهمّها شخصية بلارة التي أرادت أن تقلب منطق التاريخ لاسترجاع مُلْك أبيها. ولم يجد الكاتب أفضل من المنطق الروائي لفهم منطق التاريخ والفعل فيه. ورغم اعتماده على مصادر تاريخية موثّقة مثل كتاب «المؤنس» لابن لأبي دينار فإنه تصوّر مرآة مكبّرة يقرأ بها ما بين السطور لاكتشاف الدوافع النفسية والأسرار الخفية التي تحرّك التاريخ. فكانت بمثابة الميثاق السرديّ الذي لا يغني عن التذكير بأهمّ الأحداث التاريخية في عصر تنافس قوّتين عظيمتين، قوة الدولة العثمانية وقوّة الأمبراطورية الأسبانية.

وبذلك كانت للبشير خريّف عين على التاريخ وأخرى على الراهن، يستنطق الأوّل لتفسير الثاني إذ الراهن ليس إلّا امتدادا للماضي. وإنّ بعض العادات والتقاليد لا تزال مستمرّة منذ عهود وإن رواسب الهجرة الأندلسية إلى تونس والخصومة بين أهل البادية وأهل الحاضرة لا تزال قائمة في بعض الجهات. ورغم سقوط الروائي أحيانا في فخّ التوثيق فإنه «أديب فنّان، خبر مواطن الجمال في التعبير الفصيح والعامّي، وسنّ لنفسه أسلوبا كشف عن طبعه التحرّري وذوقه الرفيع وروحه المرحة...» [فوزي الزمرلي، مقدّمة «برق الليل»، ص 18].

آثاره

1 ـ إفلاس أو حبّك درباني، رواية، نشرت تباعا في مجلّة «الفكر» سنتي 1958 ـ 1959، ثم في كتاب، تونس 1980؛ 2 ـ برق الليل، رواية، الشركة القومية للنشر والتوزيع، 1961، 3148؛ 3 ـ مشموم الفل، مجموعة قصصية، الدار التونسية للنشر، 1971، ص141؛ 4 ـ الدقلة في عراجينها، رواية، الدار التونسية للنشر، 1969؛ 5 ـ بلارة، رواية، تح. فوزي الزمرلي، بيت الحكمة، قرطاج، 1992؛ 6 ـ سوق البلاط، مسرحية مخطوطة؛ 7 ـ طمبياس، مسرحية مخطوطة.

المصادر والمراجع

● ابن القاسم، نور الدين، تحليل رواية الدقلة في عراجينها، قصص، جويلية 1971، ص92 ـ 100؛ ● ابن صالح، محمد الهادي، قصص، البشير خريّف في

الميزان، قصص، عدد 63، جانفي 1984؛ ● ابن صالح، محمد الهادي، لقاء مع البشير خريّف، قصص، أفريل 1972؛ ● ابن صالح، محمد الهادي، وممّو، أحمد، هكذا عاش ومات البشير خريّف، قصص، عدد 63، جانفي 1984؛ ● ابن طالب، عثمان، سردية التجاوز في «الدقلة في عراجينها» ضمن كتاب «البشير خريّف في عيون النقاد»، اتحاد الكتّاب التونسيين 2003، 15 ـ 32؛ ● ابن عمر، محمد صالح، من مظاهر اشتغال الملكة الإبداعية لدى البشير خريّف، المسار، عدد 45، جانفي ـ فيفري 2000، 26 ـ 32؛ ● ابن عمر، محمد صالح، الإطار الحضري في حبّك درباني، ضمن كتاب «البشير خريّف في عيون النقاد»، اتحاد الكتّاب التونسيين، 2003، 67 ـ 74؛ ● ابن عمر، محمد، السرد بروح مرحة في أدب خريّف القصصي، ضمن كتاب «البشير خريّف في عيون النقاد»، 2003، 87 ـ 99؛ ● ابن مراد، محمد علي، ترجمة رواية برق الليل إلى اللغة الأسبانية ضمن كتاب «ترجمة الأدب التونسي إلى اللغات الأجنبية»، دار الخدمات العامة، تونس 1999، 121 ـ 137، سبتمبر ـ أكتوبر 1999، 44 ـ 57؛ ● براهم، عبد الفتاح، المنطق القصصي في رواية البشير خريّف، حبك درباني، الحياة الثقافية، عدد 30، 1984، 8 ـ 17؛ ● بكّار توفيق، معنى الحرية في أدب البشير خريّف، الفكر، عدد 8، ماي 1982، 17 ـ 21؛ ● بوجاه، صلاح الدين، من دلالات الأشياء في «الدقلة في عراجينها»، الحياة الثقافية، عدد 35، 1985، 72 ـ 81؛ ● بوجاه، صلاح الدين، الريف والمدينة في «الدقلة في عراجينها» ضمن كتاب «البشير خريّف في عيون النقاد»، اتحاد الكتاب التونسيين، 2003، 33 ـ 46؛ ● التواتي، مصطفى، أقصوصة «رحلة الصيف»، دراسة وتحليل، الفكر، ج27، عدد 8 ماي، 1982، 35 ـ 45؛ ● التومي، الناصر، البشير خريّف الأديب الفنان، قصص، عدد 63، جانفي 1984، 21 ـ 32؛ ● الحمزاوي، محمد رشاد، أدب البشير خريّف في الذهنية الأدبية السائدة، الفكر، ج27، عدد 8 ماي 1982، 8 ـ 16؛ ● حميد، حسن، الخطاب الأنثوي في «الدقلة في عراجينها»، ضمن كتاب «البشير خريّف في عيون النقاد»، اتّحاد الكتّاب التونسيين، 2003، 47 ـ 56؛ ● الحوار، فرح، المدينة في مجموعة «مشموم الفل»، المرجع نفسه، 75 ـ 86؛ ● الخوري، إدريس، انطباعات عن البشير خريّف، المسار، عدد 45، 36 ـ 37؛ ● الزمرلي، فوزي، الصراع الحفصي التركي الأسباني في روايتي «برق الليل» و«بلارة» للبشير خريّف، المجلّة التونسية للغات الحية، عدد6، 1991، 25 ـ 40؛ ● الزمرلي، فوزي، البداية والنهاية في روايات البشير خريّف، حوليات الجامعة التونسية، عدد 24، 1985، 159 ـ 176؛ ● الزمرلي، فوزي، فضاء العاصمة في «حبّك درباني» ضمن كتاب «البشير خريّف في عيون النقاد»، مرجع مذكور، 57ـ 66؛

● الساكر، الشاذلي، خصائص المكان في روايات البشير خريّف، الحياة الثقافية، عدد 145، ماي 2003، 134 ـ 140؛ ● شيخة، جمعة، البشير خريّف في الدراسات الجامعية، قصص، عدد 63، جانفي 1984، 161 ـ 165؛ ● طرشونة، محمود، البحث عن الزمن الضائع في روايات البشير خريّف، ضمن كتاب «من أعلام الرواية في تونس»، مركز النشر الجامعي، 2002، 76 ـ 114؛ ● الطويلي، أحمد، البشير خريّف، حياته ورواياته، بوسلامة، تونس 1988، 65 ص؛ ● محمد الصادق، عبد اللطيف، لقاء مع البشير خريّف، الفكر، جويلية 1968، 55ـ 59؛ ● عبيد، عبد اللطيف، دراسة خصائص العربية الفصيحة في «الدقلة في عراجينها»، شهادة الكفاءة في البحث، 1973، 107ص؛ ● عبيد، عبد اللطيف، التداخل اللغوي في أدب البشير خريّف، الفكر، عدد 8، ماي، 1982، 25ـ 30؛ ● العيادي، سمير، البشير خريّف كما عرفته، ضمن كتاب «البشير خريّف في عيون النقاد»، مرجع مذكور، ص101 ـ 106؛ ● غازي، محمد، صورة الجريد في رواية «الدقلة في عراجينها»، المسار، عدد 26ـ 27، ديسمبر 1995، 133 ـ 139؛ ● الكيلاني، مصطفى، الواقع والمتخيّل والحرية في «الدقلة في عراجينها»، الحياة الثقافية، عدد ماي 1982، 22 ـ 24؛ ● المرزوقي، رياض، هل «برق الليل» رواية تاريخية؟، الفكر، عدد 8 ماي 1982؛ 27/ 22 ـ 24؛ ● المرزوقي، سمير وشاكر، جميل، مدخل إلى نظرية القصة، الدار التونسية للنشر، 1985، 173 ـ 200؛ ● المصعبي، المختار، قضية الجنس في قصص البشير خريّف، شهادة الكفاءة في البحث، 1980؛ ● المطوي، محمد العروسي، البشير خريّف عضو نادي القصة، الفكر، عدد 6 مارس 1984، 3/ 12 ـ 15؛ ● ميلاد، فوزي، «برق الليل» بين الواقع والتاريخ، قصص، عدد 63 جانفي 1984، 64 ـ 79؛ ● النفزي، عبد المجيد، مقدار الرؤية في «الدقلة في عراجينها»، الفكر، عدد 3 ديسمبر 1982، 28/ 54 ـ 59؛ ● النفزي، عبد المجيد، الدقلة في عراجينها» نظريات في الأسلوب، الفكر، تونس، عدد 6 مارس 1984، 29/ 16 ـ 30؛ ● النفزي، عبد المجيد، خصائص العاميّة في أدب البشير خريّف، الفكر، عدد 8ماي 1984، 29/ 35 ـ 43؛ ● النفزي، عبد المجيد، البشير خريّف: «النقرة مسدودة»: الرسوب في امتحان النقلة، الحرية، الملحق الثقافي، عدد 93، 31 جانفي 1998، 87 ـ 92؛ ● يوسف، عبد المجيد، «برق الليل»، دراسة في علاميّة البطل، الحياة الثقافية، عدد 83 مارس 1997، 120 ـ 125؛

أعداد خاصة من مجلات:

● الإذاعة والتلفزة، فيفري 1982؛ ● الطريق الجديد، عدد 22، 27 فيفري، 1982؛ ● قصص، عدد 56، أفريل 1982؛ ● قصص، عدد 63، جانفي 1984؛ ● الفكر، عدد 8 ماي، ج27؛

● الفكر، عدد 6 مارس 1984، ج29؛
● Bachir Khraeif, Barg El-lil, Inst. Hispano-Arabe de Cultura, Madrid, 1982, 118p.; ● Bachir khraeif, la Terre des passions brulées, traduit par Hédi Djebnouon et Assia Djebar, 1986, 308p; ● Baccar Taoufik et Garmadi, Salah : Ecrivains de Tunisie, Sinbad, Paris 1981, 93-10 ; ● Fontaine, Jean: Al-Degla fî arajiniha et sa traduction française

ضمن كتاب «ترجمة الأدب التونسي إلى اللغات الاجنبية»، تونس 1999، 153 - 156؛
● Ghazi, Mohamed Farid : Le roman et la nouvelle e, Tunisie, M.T.E. p 56-66; ● Hamzaoui, Rached, IBLA, 1969, p37-50; ● Khayati Khmais le réalisme dans les nouvelles de Bachir Khraeif; ● Lelong, IBLA 1963, p 43-50.

د. محمود طرشونة
جامعة منوبة - تونس

خريف، مصطفى بن إبراهيم

(1327هـ/1909م - 1387هـ/1967م)

ولد بنفطة بالجنوب التونسي 1909م. تعلّم في الكتاتيب وفي بيت والده الشيخ إبراهيم خريّف مؤلّف كتاب «المنهج السديد في تاريخ الجريد». وقد نشأ مصطفى خريف في عائلة مولعة بالأدب. فأخوه البشير خريف (1917 - 1983م) من أهم القصاصين والروائيين التونسيين. انتقل سنة 1921م مع عائلته إلى تونس العاصمة حيث التحق بمدرسة السلام القرآنية. وفي سنة 1926م التحق بجامع الزيتونة ولم يواظب على التعلّم فيه فغادره دون أن يكمل تحصيله. لكنه عوّل على نفسه في الإحاطة بعيون الأدب العربي وبالتراث الشعبي. ربطته أواصر الصداقة بأبي القاسم الشابي (1909 - 1934م)، والطاهر الحداد (1901 - 1935م)، وعلي الدوعاجي (1909 - 1949م)، ومحمود بيرم التونسي (1883م - 1961م)، وزين العابدين السنوسي (1898 - 1965م). [الجابري، الشعر التونسي المعاصر، 1/ 323 - 324؛ وانظر الموقع التالي على شبكة الانترنيت www. nadiadab. cdunet.tn/biographies/tunisiens/mostafa_khraif]

أخذ مصطفى خريّف علم العروض عن أمير شعراء تونس الشاذلي خزندار (1881 - 1954م) ودرس على شيخ أدباء عصره محمد مناشو (1884 - 1933م) [الأدب التونسي في القرن الرابع عشر، 2/ 271؛ مجلة الهلال، عدد ماي 1973، ص 72]، ويذكر

زين العابدين السنوسي أن مصطفى خريف ظلّ يرتاد النوادي الأدبية ويعمل في صمت ويطلعه على بعض أشعاره [الأدب التونسي في القرن الرابع عشر، 2/ 271].

كان مصطفى خريّف مؤمنا بضرورة تجديد الثقافة العربية وتجديد أسئلة الشعر العربي. لذلك ساند حركات التجديد وكتب العديد من المقالات في المجلات والجرائد التي تزعّمها المجددون في تونس. منها مثلا مجلة «العالم الأدبي» التي أصدرها زين العابدين السنوسي في الثلاثينات. وانضم إلى هيئة تحريرها مع الشابي، ومحمد البشروش (1911 ـ 1944م)، ومحمد الحليوي (1907 ـ 1978م)، وعلي الدوعاجي. أصدر سنة 1937م جريدة خاصة وهي «الدستور». وحين توقّفت عن الصدور التحق بأسرة مجلّة «المباحث» ذات النزعة التجديدية في مطلع سنة 1938م. والناظر في مجلّة «العالم الأدبي» عدد مارس 1930م مثلا، يلاحظ أنه يحتوي على قصيدة الشابي «النبي المجهول» التي كانت تنشر لأول مرّة [ص 10] ومقالة مصطفى خريف «الأدب القومي والأدب العالمي» [ص 14 ـ 15].

كان مصطفى خريف ملتزما في شعره ونثره بقضايا أمته وثقافتها تشهد بذلك المقالات التي ظلّ الشاعر يكتبها حتى سنة 1967م. فلقد جاءت جميع مقالاته منشغلة بقضية الالتزام والتجديد، وتحديد مفهوم الأدب القومي، وقضايا العروبة والتحرّر وقضايا المرأة والشباب.

يتّسم شعر مصطفى خريف، رغم إيمان صاحبه بالتجديد وبالالتزام بقضايا عصره ومجتمعه، بنزعة تأصيليّة أدّت إلى نوع من الاتّباع والتقليد. وتجلّى التقليد على مستويات عديدة منها مثلا الحفاظ على الأغراض التي عليها جريان الشعر العربي القديم. ففي حين ثار الشابي قبله على هذه الغرضية وكرّس أشعاره لتجاوزها، عاد إليها مصطفى خريّف وأجرى شعره وفق شروطها.

لا يأتي هذا الطابع الاتّباعي في شعره من قبيل التأثّر غير المقصود، بل هو اختيار وطّن الشاعر عليه نفسه وشعره. يكتب في نصّ بعنوان «المديح»: «إذن فالمديح في حقيقته وفي فنه وفي واقعه إيحاء وإلهام بالمكارم والمناقب، وليس الشاعر مطالبا ـ إذا هو مدح صانعا ـ إلّا بأن ينحت أفضل مثل وأكمل صورة لصاحب تلك الصناعة أو الصفة» [نحن نمشي، ص 31].

غير أن هذا الاقتداء بالقديم العربي والإيمان بأن للشاعر دورا اجتماعيا لابدّ أن يلعبه في حفز همّة بني قومه جعلا مصطفى خريف ينظم شعر المناسبات. فتعدّدت القصائد التي قالها في حفلات التكريم وقصائد التنويه بالمشاريع الاجتماعية الخيرية وقصائد التهنئة. حتى أنه لا يكاد يترك مناسبة ذات صلة بقضيّة وطنية أو قومية إلّا قال فيها شعرا. لكن الناظر في هذه القصائد سرعان ما يلاحظ أن الشاعر يتّخذ من هذه المناسبات فرصة لاستنهاض بني قومه لتغيير ما بأنفسهم. يقول مثلا في قصيدة «هذه البلاد بلادي» التي ألقاها في حفل تكريم مؤتمر الطلبة المسلمين بشمال افريقيا سنة 1930م [من الخفيف]: [شوق وذوق، ص 76]

مَـرْحـبـاً فِـتْـيَـةَ الـشَّـمـالِ، فـهـذَا الـ
يَـوْمُ يَـوْمُ الـودادِ والاتِّـحـادِ

ثم يشرع في تعداد أمجاد الماضي ليستنهض همم الشباب: [ص 79 ـ 77]

كـمْ اراقَ الـدِّمـاءَ اجْـدادُنـا فـيـ
ـهـا احـتـفـاظاً بـالـمَـجْـدِ من عـهْـد عـادِ
فـاسْـألُـوا عـن آثـارِهِـمْ كـلَّ شـيءٍ
فـهـي مِـلْءُ الـزَّمـانِ مِـلْءُ الـبـلادِ

....

نـحْـنُ جِـيلُ الـنُّـهـوضِ فَلْـنَـرْفَـعْ الـرَّأْ
سَ بـعـزمٍ إلـى الـعُـلا ولْـنُـنَـادِ
لا نُـريـدُ الـحـيـاةَ إلّا بـعِـزٍّ
دونَ ذُلِّ الـحـيـاةِ خَـرْطُ الـقَـتَـادِ

كان مصطفى خريف يطلب من الشعر أن ينهض بدور اجتماعي نفعي. غير أن هذا البعد النفعي لا يمكن أن يتحقّق إلّا إذا كان القول الشعري بيّنا لا لبس فيه كي يتمكّن المتلقّي من استيعاب المعنى الذي يريد الشاعر إيصاله. هذا ما جعل أشعار مصطفى خريف التي قالها في استنهاض الهمم تتسم بالحماسة، وتجمع إلى النبرة الخطابية قرب المعنى ووضوحه. من ذلك مثلا قصيدة «قربان الدم» [ص 12 ـ 18]، وقصيدة «عشيرة الحق» [26 ـ 32]، وقصيدة «يوم البعث» [ص 33 ـ 41].

تجلّى الالتزام عنده في إيمانه الإيمان كلّه بالعروبة وبالوحدة العربية طريقا للخلاص والنهضة. لذلك كرّس العديد من أشعاره للدفاع عن فكرة العروبة ذاتها. فاعتبر تأسيس الجامعة العربية مثلا عيدا للعرب أجمعين. وحال مرور سنة على تأسيسها نظم قصيدة «تحية لعيد العروبة». وهو يلجأ فيها إلى الطريقة ذاتها فيذكّر بأمجاد الماضي ويحفز همم بني قومه كي يجعلوا الحاضر صفحة تنضاف إلى تلك الأمجاد الماضية يقول [من الكامل]: [شوق وذوق، ص 59]

عِـيـدَ الـعُـروبَـةِ عُـد فَـنَـتْـكَ بِـمَـا لَـنَـا
واقْـبَـلْ تـحـيَّـتَـنـا ومَـحْـضَ هَـوَانَـا

يستعاد هذا البعد القومي في مجمل أشعاره التي قالها في نكبة فلسطين [ص 68 ـ 75، 99 ـ 96] وترد القصائد طافحة بالحماسة والخطابة. يقول [من الطويل]: [شوق وذوق، ص 98]

بني العرب هبُّوا وانفعو العار عنكمُ
فقد كنتم الشمُّ الأُباةَ المَطاعِينَا

بـنـي الـعـرب إنَّ الـموتَ لـلـخُـلْـدِ مَـدْخلٌ
أنُـؤْمِـنُ بـالاخْـرَى ونـرْهـبُ عِـزْرِيـنَـا

ويعتمد مصطفى خريف في قصائده الحماسية على طريقة فنية مدارها ابتناء مشاهد تصوّر الماضي الحافل بالأمجاد ومقابلتها بمشاهد من الحاضر باعتباره لحظة توثّب نحو نهضة جديدة. لذلك كثيرا ما يتوسّل مقصده باستخدام الرموز التاريخيّة. فيستدعي شخصيات تجسّد أمجاد العرب. يوظّف في قصيدة «القيروان» مثلا رموزا تاريخية عديدة منهم طارق بن زياد، وابن نصير، وعقبة بن نافع، وأسد بن الفرات ويحدّث عن أمجادهم، ثم يخلص إلى مراده من قصيدته قائلا [من الخفيف]: [شوق وذوق، ص 25]

آهِ يـا قَـيْـرَوَانُ قـدْ ضـاعَ مَـجْـدٌ
مَـنْ يُـجِـيـبُ الـنِّـداءَ حـيـنَ نُـنَـادِي
هـلْ لـتـلـكَ الأيَّـامِ رُجْـعَـى قـريـبـاً
لـيْـتَ شِـعْـرِي وهـلْ لَـهـا مِـنْ مَـعَـادِ

لا تخلو مراثي مصطفى خريف من هذا البعد النضالي الذي ينشد استنهاض العرب لبناء النهضة. لذلك خصّ بمراثيه أشخاصا عرفهم. فرثى مثلا أبا القاسم الشابي في ذكراه السابعة [ص 125 ـ 128]، ورثى الشيخ عبد العزيز الثعالبي [ص 150 ـ 158] والتجأ في رثائه إلى طريقة فنية مغايرة لتلك التي يعتمدها في قصائده الحماسية. فعمد إلى تصوير تونس امرأة ثكلى تبكي لهول رزيّتها. يقول [من الخفيف]: [شوق وذوق، ص 150]

أنْظِـرُوهَـا تُـذْرِي الـدُّمُـوعَ سِـجَـامَـا
حـطَّـمَ الـموتُ فـي يـديْـهَـا الـحُـسَـامَـا

ثـم تـوسّـع فـي ذكـر خـصـال الـشـيـخ قـائـلًا: [ص 154 ـ 158]

مـلأتْ قـلـبَـه الـتَّـجـاربُ والـحِـكْـ
ـمَـةُ واسـتـوعـبَ الـدُّنَـى والأنَـامَـا
كان عـبدُ الـعزيزِ فـي الـبـيـتِ شَـعْـبـاً
مُـسْـتَـمِـيـتـاً يُـصـارِعُ الآلامَـا
كَـان جـيـلاً مـن الـعـزائـمِ والآمـ
ـالِ حــرًّا يــكــافــحُ الأيَّــامــا
كَـان يـهْـوَى بـلادَهُ وبَـنِـيـهَـا
كَـان صَـبًّـا يـكـافِـحُ الأيَّـامَـا

غير أن الشاعر وسّع من دائرة غرض الرثاء فلم يكتف برثاء ناس عرفهم وفجع فيهم، بل حوّل غرض الرثاء نفسه إلى استدعاء لأمجاد الماضي. فرثى المعرّي [ص 117 ـ 124]، وابن خلدون [ص 113 ـ 116] وغايته من ذلك الإلحاح على أن استرداد المجد والسؤدد والعزّة مسألة في المتناول. لكن ذلك لا يمكن أن يدرك إلا باتّباع سيرة السلف المجيد. تعلن الرغبة في التمسّك بالأصول وبأمجاد الماضي عن نفسها في بنية القصائد أيضا. وترد في شكل استلهام للعديد من الآيات القرآنية أو في شكل تضمين للشعر القديم. من ذلك مثلا قوله [من الكامل]: [ص 63]

كـالـغَـرْبِ حـيـنَ تـألَّـبَـتْ أَعْـجَـامُـه
وجَــزَى أيَــادِيَ رَبِّــهِ كُــفْــرَانَــا
«يُـعْـطِـيكَ مِـنْ طـرفِ الـلِّـسَانِ حـلاوةً»
وإذا كـشـفـتَ وجـدتَـهُ ثُـعْـبَـانَـا

طرق مصطفى خريف غرض الغزل فخرج من الحماسة التي كرّسها في مدائحه ومراثيه إلى نوع من الغنائية المرهفة. يقول مثلا [من الرمل]: [شوق وذوق، ص 173]

يـا نُـجُـومَ الـلَّـيـل، بـالـلَّـهِ أَجِـيـبِـي
بـعْـدَ يَـوْمِ الـبَـيْـنِ مـا حـالُ حَـبِـيـبِـي؟
يـا نُـجُـومَ الـلَّـيـل مـهْـلاً فـاسْـمَـعِـيـنِـي
أنْـتِ أُنْـسِـي الـيـوْمَ مِـنْ بَـعْـدِ قَـرِيـنِـي

لكن مبدأ الالتزام الذي نذر له مصطفى خريف أشعاره يتخذ مظهرا آخر في غزلياته إذ يعود الشاعر إلى الإلحاح، وفق طريقة أكثر تسترا، على ضرورة ربط حاضر العرب بماضيهم. فلا يجاهر بهذا التصوّر بل يجعل بنية قصائده تنطق به. فلقد نظم العديد من المعارضات منها «حامل الهوى» [ص 169 ـ 172] وقد

عارض فيها قصيدة أبي نواس التي مطلعها [من المقتضب]:

حَـامِـلُ الـهَـوى تَـعِـبُ
يَـسْـتَـخِـفُّـهُ الـطَّـرَبُ

وفي حين جاءت قصيدة أبي نواس في 5 أبيات بلغت قصيدة مصطفى خريف 44 بيتا. وعارض قصيدة الحصري القيرواني التي مطلعها [من المتدارك]:

يـا لـيـلُ الـصـبُّ مـتـى غـدُه
أقـيـامُ الـسّـاعـةِ مَـوْعِـدُهُ

والمعارضة ليست مجرّد محاكاة للقديم واقتداء به، بل هي حدث تأصيل ومغايرة. إنها حركة اقتراب من القديم وتباعد عنه في الآن نفسه. فهي تستدعي القديم فتغتذي به لكنها تفتح مجراها الخاص.

وتتسم غزليات مصطفى خريف أيضا بقدرة فائقة على المحاكاة. فهو يعمد مثلا في قصيدة «راقصة» [ص 183 ـ 187] إلى محاكاة حركة الإيقاع الموسيقي وحركة جسد الراقصة. فيوظّف المقابلة بين الأفعال والصور ليعمّق الإحساس بالحركة عبر الانتقال من الضدّ إلى الضدّ بصفة دورية منتظمة. يقول [من مجزوء الرمل]: [شوق وذوق، ص 183 ـ 186]

رنّتِ الأوتارُ سَكْرَى اللّحْنِ تَخْفى ثمّ تَظْهَرْ
صَوْتُها مُخْتَلِفُ التَّوْقيعِ يَعْلُو ثمّ يَقْصُرْ
تارةً يمتدّ كالنُّورِ وطَوْرًا يتكسَّرْ
تارةً كالنّارِ يَنْكُو جاحِمٌ منهُ مُسَعَّرْ
....
وتمطّى قدُّها ثمّ تَدانَى فتَحَسَّرْ
في انكماشٍ وارتعاشٍ واندهاشٍ وتَحَيُّرْ

قضى مصطفى خريّف حياته مؤمنا بقضايا أمته ووطنه فخصّهما بشعره. والراجح أنه كان يدرك أن متطلّبات الالتزام تدخل على الشعر بعضا من ضيم. وهو يعبّر في مقدّمة ديوانه عن هذا الوعي فيقول في نبرة لا تخلو من سماحة وتواضع: «لم يكن مطمحي أن أملأ مكان «الشاعر» كما أتصوّره في مثله الأعلى، أعتذر لنفسي بأني بظروفي وأحوالي أضعف عن هذا المطلب، ولكنها تجارب ورياضات وملء للفراغ أو هي لعب ولهو وافتراض أضمّنه مذهبي وفهمي للفنون وأنا أمشي على حافة الطريق».

■ آثاره

1 ـ الشعاع، ديوان شعر، طبع مطبعة المنار، تونس 1949م؛ 2 ـ شوق وذوق، ديوان شعر، طبع الشركة التونسية لفنون الرسم، تونس 1965؛ 3 ـ نحن نمشي، منشورات وزارة الثقافة، تونس: المطبعة الرسمية للبلاد التونسية، 1993. وهو كتاب يضمّ مقالاته التي نشرها في الصحف بداية من سنة 1957 إلى ما قبل وفاته في 11 مارس 1967.

■ المصادر والمراجع

● خريف، مصطفى، شوق وذوق، ديوان شعر، طبع الشركة التونسية لفنون الرسم، تونس 1965، 328 ص؛ ● م. ن، نحن نمشي، منشورات وزارة الثقافة، تونس، المطبعة الرسمية للبلاد التونسية، 1993؛
● الجابري، محمد صالح، الشعر التونسي

المعاصر، تونس، الدار العربية للكتاب، 1989، الجزء الأول؛ ● السنوسي، زين العابدين، الأدب التونسي في القرن الرابع عشر، تونس، الدار التونسية للنشر، ط 2، 1979؛ ● شيبوب، الحبيب، مجلّة الهلال، عدد ماي 1973؛ ● النهدي، محمد الصالح، مصطفى خريف في الميزان، تونس - ليبيا، الدار العربية للكتاب، 1978.

د. محمد لطفي اليوسفي
جامعة تونس

الخزاعي، أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد

(710هـ/1310م - 789هـ/1387م)

من أسرة أندلسية عرفت بالعلم والأدب. اشتهر بنسبته إلى خزاعة قبيلة من الأزد. وجدُّ والده موسى بن سعود ولي القضاء بمدينة أدلة بالأندلس في أوائل عهد الدولة الناصرية ثم خلفه على قضائها ابنه الفقيه أحمد بن موسى. غير أنه لأسباب لا ندريها غادر تلك البلدة وتحوّل إلى غرناطة، فولّاه أبو عبد الله محمد بن محمد ثالث سلاطين بني نصر (701هـ/ 1302م - 708هـ/ 1309م) الأشغال السلطانية أي جعله صاحب ديوان العساكر. غير أن أحمد بن موسى جد الخزاعي عَبَرَ البحر للعدوة فاستقر بتلمسان ومعه ابنه محمد والد الخزاعي، وتوفي أحمد بتلمسان وبقي فيها ابنه محمد حيث لقي حظوة لدى حكامها بني زيان (بني عبد الواد) فعمل كاتبا لديهم ثم أصبح وزيرًا في أيام السلطان أبي زيان تاشفين عبد الرحمٰن بن موسى الزياني (718هـ/ 1318م - 737هـ/ 1337م). ووصفه ابن الأحمر في كتابه «السيف والقلم»: وكان رسوخ قدمه في الفروسية والعلم أثبت من علم، وكان من آبائه بالأندلس جملة قضاة وأرباب تحصيل العلوم وحلل مرتضاة.

ولد أبو الحسن الخزاعي في تلمسان سنة 710هـ/ 1310م، ودرس على علمائها منهم العالم الراوية أبو عبد الله بن مرزوق الخطيب، وقاضي الجماعة أبو البركات محمد بن أبي بكر محمد الشهير بابن الحاج البلفيقي. وكان الخزاعي حسن التحصيل في الحديث والفقه والأدب والنحو واللغة وعرف بمهارته في الحساب وجودة الخط وقدرته على نظم الشعر. وصفه تلميذه الإمام الصوفي محدث فاس أبو زكريا يحيى بن أحمد بن محمد السراج الحميري الفاسي في فهرسته بالشيخ الجليل الحافظ اللغوي التاريخي المصنّف الناظم الناثر، ثم قال: كان شيخا جليلا فاضلا لغويا شاعرا مجيدا مقدما في التاريخ كثير الصدقة والإيثار لم يكن في زمانه من يضاهيه فيها، فذًا في طريقته. ووصفه ابن الأحمر في كتابه «مستودع العلامة» بالفقيه

الكاتب صاحب القلم الأعلى، ثم قال عنه: «تلقى راية الفخر باليمين وهو واسطة عقد المفاخر الثمين، من أعلام كتاب العدوتين ومعرفته بالحساب تستغرق العقول، إذ أربت عن حد الحصر والمنقول، وأما اللغة فمسلكه في سبلها أسكت ابن السكيت وبكت فهمه المدرك في حفظها أي تبكيت، والعربية هو على رياستها العلمية وقد برز في إجادتها الإدراكية العلمية. ولم يكن في معرفة الفقه بالمقصر كما نظر عن إنسان عين الحديث المبصر، وكفه بإرسال المواهب لم تكن جامحة إلى التقصير، ولا قيل لطول جودها جدعت أنف الفضائل عن بخل يا قصير».

وهذه الثقافة كانت تؤهله للكتابة في الديوان فقد خلف أباه في خدمة بني عبد الواد بتلمسان فتولى خطة الأشغال السلطانية لأمير المؤمنين المتوكّل على الله أبي سعيد عثمان بن عبد الرحمٰن بن يحيى بن يغمراسن (749هـ/ 1348م - 753هـ/ 1352م). غير أن عدم استقرار الأمور بتلمسان ربما حفزه إلى مغادرتها فتوجّه إلى فاس حيث كلف بأعباء خطة الأشغال السلطانية في أيام المتوكّل على الله أبي عنان المريني (749هـ/ 1348م - 759هـ/ 1358م). وبقي علي الخزاعي حتى آخر حياته في خدمة سلاطين بني مرين، ظل كاتب الأشغال السلطانية للسعيد بالله أبي يحيى أبي بكر (759هـ/ 1358م - 760هـ/ 1359م) ثم من بعده لأبي سالم إبراهيم (760هـ/ 1359م - 762هـ/ 1361م) في الوظيفة نفسها وأضاف إليه أبو سالم كتابة العلامة أو خطة القلم الأعلى واستمر على ذلك في فترة حكم المنتصر بالله أبي زيان محمد وحكم المستنصر بالله أبي فارس عبد العزيز وحكم ابنه السعيد بالله أبي زيان (774هـ/ 1372م - 776هـ/ 1374م).

توفي الخزاعي في الخامس من ذي القعدة سنة 789هـ/ 17 نوفمبر 1387 بمدينة فاس.

وعرف الخزاعي بكتابه المسمى «تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله ﷺ من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية» الذي فرغ من كتابته سنة 786هـ/ 1384م وقدمه إلى السلطان أبي فارس موسى المريني الذي تولى السلطنة في ربيع الأول من ذلك العام.

قال الخزاعي في سبب تأليف الكتاب: «فإني لما رأيت كثيرا ممّن لم ترسخ في المعارف قدمه وليس لديه من أدوات الطالب إلا مداده وقلمه، يحسبون من دفع إلى النظر في كثير من تلك الأعمال في هذا الأوان مبتدعا لا متبعًا ومتوغلا في خطة دينية، ليس عاملا في عمالة سنية، استخرت الله ﷻ أن أجمع ما تأدى إلى علمه من تلك العمالات في كتاب يضم نشرها ويبيّن أجاهليها أمرها فيتعرّف الجاهل وينصف المتحامل فألفت هذا الكتاب... وذكرت في كل عمالة منها من ولاه رسول الله ﷺ من الصحابة ليعلم ذلك من يليها الآن فيشكر الله ﷻ على أن استعمله في عمل شرعي كان يتولاه صاحب من أصحاب النبي ﷺ وأقامه في ذلك مقامه ويجتهد في إقامة الحق فيه بما يوجبه الشرع ويقتضيه فيكون قد أحيا سنة وأحرز حسنة...». وعلق عليه إحسان عباس محقق الكتاب بقوله: «ولعل هذا كله مستمد من واقع المؤلف، فإنه قضى معظم عمره في خطة سلطانية وعلى

ذلك كان أبوه وجدّه من قبل، وليس مستبعدا أن يكون قد واجه نقدا لانخراطه في سلك الدولة ومصاحبته للسلطان، فإن النغمة المنفرة عن مصاحبة السلطان التي ظهرت بظهور موجة زهدية في القرن الأول لم تكن ـ فيما يبدو ـ قد تبدّدت».

وقد قسم المؤلف كتابه إلى عشرة أجزاء، ثمانية منها في العمالات وواحد في الحرف والصناعات وجزء ختامي. وذكر الخزاعي في الباب الرابع والأخير من الجزء العاشر أسماء المراجع التي استمد منها مادة كتابه وهي 166 مرجعا، ولكن في فهرست الكتب التي رتّبها محقق الكتاب تبلغ عدد المراجع إلى 210.

ولقد لقي الكتاب شيئا من الاهتمام في العصر الحديث ولفت نظر رفاعة الطهطاوي فلخصه في كتابه «نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز» [القاهرة 1291، ص305 ـ 531]، ثم نال إعجاب الشيخ عبد الحي الكتاني فجعله قاعدة لكتابه المسمى «التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التي كانت على عهد تأسيس المدنية الإسلامية في المدينة المنوّرة العلية»، وأضاف إليه أضعاف ما ذكر الخزاعي من كل قسم من المعلومات مستعينا بمصادر لم يطلع عليها الخزاعي وحذف مكرره واستطراده إلا أن النسخة التي اطلع عليها الكتاني تنقص الجزء العاشر من الكتاب وأقام مكانه بابًا في تشخيص الحالة العلمية على عهد رسول الله ﷺ تعلما وتعليما والحالة الاجتماعية من حيث النبوغ وسعة المدارك [بيروت سنة 1416هـ/ 1996م في مجلّدين].

وترجم الدكتور أحمد أوزال التراتيب الإدارية إلى اللغة التركية بمراجعة مصادرها وتصحيح الأخطاء الكثيرة الواقعة في طبعتيه [في 3 أجزاء، اسطنبول 1990 ـ 1993، في جزئين، اسطنبول 2003].

وطبع تخريج الدلالات السمعية بتونس، د.ت، أولا، وبعده قام المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في وزارة الأوقاف بجمهورية مصر العربية بطباعته وحققه أحمد أبو سلامة اعتمادا على نسخة واحدة دون تحقيق واف (القاهرة 1401هـ/ 1981م) وحققه أخيرا الأستاذ إحسان عباس اعتمادا على ثلاث نسخ (بيروت 1405هـ/ 1985م، 1993م). واختصره أحمد مبارك البغدادي باسم مختصر تخريج الدلالات السمعية (الكويت 1410هـ/ 1990م).

وقد أورد ابن الأحمر في نثير الجمان قصيدة للخزاعي في مدح المتوكّل على الله، وأورد له ابن القاضي في جذوة الاقتباس مقطوعة قالها حين عثرت بموسى بن أبي عنان المريني فرسه بالشماعين.

المصادر والمراجع

● الخزاعي، علي بن محمد، تخريج الدلالات السمعية، تح. إحسان عباس، بيروت، 1405هـ/ 1985م، مقدمة المحقق، ص7 ـ 17؛ ● ابن الأحمر، مستودع العلامة ومستبدع العلامة، تح. محمد التركي التونسي ومحمد تاويت الطنجي، تطوان 1384هـ/ 1964م، ص62 ـ 64؛ ● ابن الأحمر، نثير الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان،

تح. محمد رضوان الداية، بيروت، 1407هـ/ 1987م، ص 249؛ ● ابن خلدون، التعريف بابن خلدون، تح. محمد بن تاويت الطنجي، القاهرة 1951م، ص 43؛ ● ابن القاضي، درة الحجال في أسماء الرجال، تح. محمد الأحمدي أبو النور، القاهرة، 1390هـ/ 1970م، 3/ 247 ـ 248؛ ● ابن القاضي، جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس، الرباط 1974، 2/ 488 ـ 490؛ ● الونشريسي، أحمد، وفيات الونشريسي، ضمن كتاب ألف سنة من الوفيات، تح. محمد حجي، الرباط، 1396هـ/ 1976م، ص 131؛ ● مخلوف، محمد بن محمد، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، القاهرة 1349، 1/ 238؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، إيضاح المكنون، 1/ 269؛ ● الكتاني، عبد الحي، التراتيب الإدارية، بيروت 1416هـ/ 1996م، 1/ 32 ـ 48؛ ● العباس بن إبراهيم، الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، تح. عبد الوهاب بن منصور، الرباط، 1980، 9/ 176 ـ 182؛ ● الجيلالي، عبد الرحمٰن بن محمد، تاريخ الجزائر العام، بيروت 1400هـ/ 1980م، 2/ 130 ـ 131؛ ● نويهض، عادل، معجم أعلام الجزائر، بيروت 1400هـ/ 1980م، ص132 ـ 133.

د. أحمد أوزال
مركز البحوث الإسلامية ـ استانبول ـ تركيا

الخزاعي، دعبل بن علي بن رزين

(148هـ/765م ـ 246هـ/860م)

هو دِعْبِل بن علي بن رزين الخزاعي ولد بالكوفة. وقيل ولد بقرقيسيا سنة 148هـ/ 765م. يجمع المؤرّخون على أنه شاعر هجّاء بذيء اللسان روّع ناس زمانه بما قاله في أكابرهم من مَهاجٍ تَجمع إلى الفحش الإقذاع. فلا أحد سلم مِن لسانه ولاسيما خلفاء بني العباس وأولادهم وولاتهم. وقد بلغ من شدّة ميله إلى الهجاء أن هجا قبيلته خزاعة، وهجا زوجته وأخاه [مختصر تاريخ دمشق، ص1105 ـ 1107؛ العبر في خبر من عبر، ص84؛ التدوين في أخبار قزوين، ص1819؛ العمدة، 1/ 166 ـ 167؛ نهاية الأرب في فنون الأدب، ص1679؛ اللآلي في شرح أمالي القالي، ص554؛ وفيات الأعيان، ص222؛ تصحيح التصحيف وتحرير التحريف، ص316؛ معجم البلدان، ص909؛ معجم الأدباء، ص 2407].
والراجح أن لقب دِعْبِل صفة أطلقت عليه. فالدعبل في الصحاح وفي لسان العرب الناقة الشارف المسنة. ويذكر كلّ من ابن عساكر

وابن العديم أن اسمه عبد الرحمٰن أما دِعْبِل فلقب لقبته به دايته تفكها فاشتهر به [مختصر تاريخ دمشق، ص1107؛ بغية الطلب في تاريخ حلب، ص1431].

تذكر بعض المصادر أن دعبلا كان يعاني من الصمم ومن تشوّه في الخلقة. فلقد كان «أطروشا في قفاه سلعة» [النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة، ص1402؛ مختصر تاريخ دمشق، ص1100؛ بغية الطلب في تاريخ حلب، ص1432؛ وفيات الأعيان، ص1197] لكنها لا تتوسّع في الإخبار عن نشأته بالكوفة. فيكتفي صاحب الأغاني مثلا بالإلحاح على أنه كان في أوّل عهده شابا «له شعرة جعدة وكان يدهنها ويرجلها حتى تكاد تقطر دهنا» وكان يتشطّر في الكوفة ويسطو على الناس ليلا. فلما أصاب دما وقتل أحد الصيارفة طلبه السلطان فغادر الكوفة [الأغاني، 18/ 31، 35]، ويرسم له الأصبهاني صورة الشاطر الذي يجوب الأمصار والبلدان «ويدور الدنيا كلّها ويعود وقد أفاد وأثرى وكانت الشراة والصعاليك يلقونه فلا يؤذونه ويؤاكلونه ويشاربونه ويبرّونه» [الأغاني، 18/ 36].

غير أن الأصبهاني وابن عساكر يوردان خبرا آخر يلح على أن دِعْبِلاً كان أول أمره غلاما خاملا لا يؤبه له وكان بينه وبين مسلم بن الوليد الملقّب صريع الغواني (ت 208هـ/ 823م) «إزار لا يملكان غيره شيئًا، فإذا أراد دِعْبِل الخروج جلس مسلم بن الوليد في البيت عاريًا، وإذا أراد الخروج فعل دِعْبِل مثل ذلك، وكانا إذا اجتمعا لدعوة يتلاصقان بطرح هذا شيئًا منه عليه، والآخر الباقي».

[الأغاني، 18/ 57؛ مختصر تاريخ دمشق، ص1102].

تجمع المصادر التي تناولت أخبار دِعْبِل الخزاعي أيضًا على أنه كان «عالما بصيرًا بالغريب والأخبار وأيام العرب» [المذاكرة في ألقاب الشعراء، ص115]، وأنه حدّث عن المأمون، ومالك بن أنس، وشعبة بن الحجاج، وسفيان الثوري، وسالم بن نوح، ومحمد بن عمر الواقدي. وقد روى عنه كل من أحمد بن أبي دؤاد، ومحمد بن موسى الترمذي [مختصر تاريخ دمشق، ص1100].

كانت علاقة دِعْبِل مع خلفاء بني العباس علاقة متوتّرة دائما وكان الشاعر متقلّبًا فعلا يطلق لسانه بالمدح ثم يشنّع على ممدوحه. فلقد كان يمدح الواحد منهم وينال صلاته وعطاياه ثم ينقلب عليه فيهجوه هجاء مقذعًا. وتذكر المصادر أن أوّل صلة نالها كانت من هارون الرشيد نفسه أيّام كان دِعْبِل شابًا بالكوفة. فلقد سمع الرشيد من المغنين قول دِعْبِل [من الكامل]:

لا تعجَبي يا سَلمَ مِن رجُلٍ
ضَحِكَ المَشيبُ برأسِهِ فَبَكى

[الديوان، ص143]

فطرب له وسأل عن قائله وأرسل إليه مالا وفيرا وثوبا ومركبا من مراكبه واستقدمه إلى بغداد واستحثّه على قول الشعر. فظلّ يمدحه إلى أن فتك الرشيد بالبرامكة سنة 178هـ/ 794م، وتوعّد من يذكرهم من الشعراء. لكن دِعْبِل الخزاعي تجرّأ على رثائهم وخاف العاقبة فلجأ إلى أمير طخارستان الفضل بن عباس الخزاعي. ولما توفي الرشيد هجاه

وهجا بني العباس كلهم بقصيدته الرائية الشهيرة التي مطلعها [من البسيط]:

تأسّفت جارتي لمّا رأت زَوَري
وعدّت الحِلْمَ ذنبًا غيرَ مُغتفرِ

[الديوان، ص105 ـ 108].

وقد أورد منها صاحب الأغاني ثمانية أبيات في معرض كلامه عن تقلّب دِعْبِل [الأغاني، 18/ 57].

اتّصل دِعْبِل أيضًا بالمعتصم ومدحه فلم يجزل عطاءه فهجاه وأقذع [الأغاني، 18/ 40؛ مختصر تاريخ دمشق، ص1104؛ التذكرة الحمدونية، ص3024 ـ 3025؛ معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، ص1066 ـ 1067]. فلقد نعته بأرذل النعوت وأسند إليه من الصفات أشنعها حين قال [من الطويل]:

مُلوكُ بَني العَبّاسِ في الكُتْبِ سَبعَةٌ
ولَم تأتنا عَن ثامِنٍ لَهُمُ كُتبُ

كَذلكَ أهلُ الكَهفِ في الكَهْفِ سَبعَةٌ
خِيارٌ إذا عُدّوا وثامِنُهُم كَلبُ

وإنّي لأُعلي كَلبَهُم عَنكَ رِفعَةً
لأنّكَ ذو ذَنبٍ ولَيسَ لَهُ ذَنبُ

كأنّكَ إذ مُلِّكتَنا لِشَقائِنا
عَجوزٌ عَلَيها التاجُ والعِقدُ والإتبُ

لقد ضاعَ أمرُ الناسِ إذ ساسَ مُلكَهُم
وَصيفٌ وأشناسٌ وقد عَظُمَ الكَربُ

فطلبه المعتصم ليبطش به لكنه توارى عن الأنظار. ثم قصد خراسان ونادم أميرها عبد الله بن طاهر (ت 230هـ/ 844م) ومدحه فكان يصله في كلّ شهر بمائة وخمسين ألف درهم [مختصر تاريخ دمشق، ص1100؛ النجوم الزاهرة، ص1149 ـ 1150]. ثم قصد أمير مصر المطلب بن عبد الله بن مالك الخزاعي ومدحه فأغدق عليه مالا وفيرا وولّاه على أسوان. لكن دعبلا سرعان ما هجاه فعزله المطلب وتوعّده [الأغاني، 18/ 48].

والناظر في بعض الأخبار التي أراد أصحابها أن يفسّروا أسباب تعلّق دعبل الخزاعي بالهجاء ومغامرته بحياته في سبيل ذلك يلاحظ أن بعضها يرجع هوسه بالهجاء إلى جبلّة فيه. فلقد كان ينظم العديد من القصائد في الهجاء فإذا سئل فيمن هذا؟ قال: ما استحقه أحد بعينه بعد، وليس له صاحب، فإذا غضب على رجل جعل ذلك الشعر فيه» [الأغاني، 18/ 33] وحدث أن هجا صديقًا له ثم اعتذر له قائلاً: «يا أخي والله ما اعتمدتك بمكروه، ولكن كذا جاءني الشعر لبلاء صبّه الله ﷻ عليك لم أعتمدك به» [الأغاني، 18/ 36].

أما الروايات الأخرى فتلحّ على أنه كان يتبع خطّة مدبّرة إذ حوّل الهجاء إلى وسيلة للتكسّب فارتاع منه الناس وأكرموه درءًا للسانه. ويورد صاحب الأغاني ما يؤكّد تهمة النيّة والتدبير. إذ ينقل أن دعبلا جاهر بأن «أكثر الناس لا ينتفع بهم إلا على الرهبة ولا يبالي بالشاعر وإن كان مجيدا إذا لم يخف شرّه» [الأغاني، 18/ 31].

والراجح أن دعبلا كان ميالاً إلى الهجاء فعلا. ولذلك أيضًا آلى على نفسه أن لا يهجو إلّا الخلفاء فما دونهم، وحرّم على نفسه هجاء الشعراء ونهى عن ذلك. يقول الآمدي في الموازنة إن دعبل بن علي كان «يهجو الملوك

والخلفاء ولا يكاد يعرض لشاعر إلا ضرورة، وقد حذّر في أوّل كتابه الذي ألّفه في الشعر من التعرّض للشاعر، ولو كان من أدون الناس صنعة في الشعر، لا يهجو الشعراء ونهى عن ذلك» [الموازنة بين أبي تمام والبحتري، ص14]. والثابت تاريخيا أن دعبلا صار طُلبة الأمراء والخلفاء ولم يكن ينجو دائمًا من عقابهم وتنكيلهم. فلقد هجا مالك بن طوق التغلبي وشنّع عليه قائلاً [من السريع]:

سـألْـتُ عـنْـكُـم يـا بَـنـي مـالِـكٍ
فـي نـازِحِ الأرضَـيْـنَ والـدّانِـيَـه
طُـرًّا فـلَـم تُـعْـرَف لَـكُـم نِـسْـبَـةٌ
حَـتّـى إذا قُـلْـتُ بَـنـي الـزانِـيَـه
قـالـوا فَـدَعْ دارًا عـلـى يَـمْـنَـةٍ
وتِـلْـكَ هَـا دارُهُـم ثـانِـيَـه

[الديوان، ص185]

ومما يروى أن مالك بن طوق طلبه وقبض عليه ودعا بالنطع والسيف فأقسم دعبل أنه لم يقل هذه الأبيات وأن بعض أعدائه هم الذين نظموها كيدًا له، وتضرّع وبكى فأعفاه مالك من القتل، لكنه أشهره فجلده بالعصا حتى سلح «وأمر به فألقي على قفاه، وفتح فمه فرُدَّ سلحه فيه والمقارع تأخذ رجليه، وهو يحلف ألّا يكفّ عنه حتى يستوفيه ويبلعه أو يقتله. فما رفعت عنه حتى بلع سلحه كلّه، ثم خلّاه، فهرب إلى الأهواز» [الأغاني، 18/ 60؛ معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، ص1086 - 1087].

يجمع مؤرّخو الأدب الذين تناولوا أخبار دعبل الخزاعي وشعره على أنه كان يدين بمذهب الشيعة ويتعصّب لآل البيت تعصّبًا شديدًا. وبهذا يشهد ديوانه فله مراث عديدة في أهل البيت. ويلحّ الذهبي على أنه كان رافضيا [العبر في خبر من عبر، ص84]. أما أبو العلاء المعرّي فقد عمد، إزاء تشهيره بالشعراء المداحين المتكسّبين، إلى التشكيك في مذهب دعبل فجزم بأنه من المرائين الذين لا يدينون بدين ولا يقرّون بمذهب ويتظاهرون بالتشيّع تكسّبًا وطلبا للرزق. فكتب: «وما يلحقني الشكّ في أن دعبل بن علي لم يكن له دين، وكان يتظاهر بالتشيّع، وإنّما غرضه التكسّب، وكم أثبت نسبا بنشب، ولا أرتاب أن دعبلا كان على رأي الحكمي وطبقته، والزندقة فيهم فاشية، ومن ديارهم ناشية» [رسالة الغفران، ص207]، لكن أخبار الشاعر تدلّ صراحة على أنه كان يدين بمذهب الشيعة. أما أشعاره فتجسّد تعصّبه لآل البيت وإنكاره إمامة الشيخين وبغضه لبني أميّة ولبني العبّاس الذين عدّهم من السفّاحين الذين قتلوا نسل النبي وأبناء علي بن أبي طالب وأحفاده. والثابت أن ما ذكرته المصادر من أمر دعبل مع الإمام أبي الحسن علي بن موسى الرضا (ت 203هـ/ 818م) يؤكّد تشيّعه وتعصّبه لأهل البيت. فلقد قصد الشاعر الإمام الرضا بخراسان وأنشده تائيته الشهيرة التي قالها في مدح آل البيت والتشنيع على خصومهم من الأمويين والعباسيين. ومطلعها [من الطويل]:

تَـجـاوَبْـنَ بـالإرنـانِ والـزَّفَـراتِ
نـوائِـحُ عُـجـمُ الـلّـفـظِ والـنَّـطِـقاتِ

[الديوان، ص56]

فأمر له بعشرة آلاف درهم مما ضرب باسمه فاستوهب دعبل الإمام الرضا ثوبا من ثيابه

ليجعله في كفنه تبرّكًا. فخلع عليه جبّة كانت عليه. ولما بلغ الخبر مسامع أهل قُم سألوه أن يبيعهم إيّاها بثلاثين ألف درهم لينعموا ببركاتها، فلما امتنع كمنوا له في الطريق وأخذوها منه عنوة. وحين هدّدهم بالشكوى إلى الإمام الرضا صالحوه وأعطوه الثلاثين ألفًا وقطعة من الجبة فرضي بذلك. أما العشرة آلاف درهم التي وهبه إياها الإمام فقد باع كل درهم منها إلى شيعة العراق بعشرة دراهم، ويقال إن الشاعر كتب قصيدته على ثوب أحرم به وأوصى أن يوضع في كفنه [الأغاني، 18/ 42 ـ 43؛ معجم الأدباء، ص 2408].

عاش دعبل حياته مطلوبا من الخلفاء والأمراء الذين هجاهم فهرب من الكوفة إلى بغداد، ومن بغداد إلى خراسان، ومن خراسان إلى طخارستان، ثم فرّ إلى مصر، ووصل إلى إفريقية بالمغرب العربي حتى قال عنه صاحب الأغاني: «ولم يزل مرهوب اللسان وخائفا من هجائه للخلفاء فهو دهره كلّه هارب» [الأغاني، 18/ 29]. لكن مقدرته على الفرار والتواري لم توقّه القتل. فلقد قتل دعبل بتدبير من أحد حكّام عصره. يورد كل من الذهبي وياقوت الحموي روايتين تشير الأولى إلى أن المعتصم أهدر دم دعبل ثم قتله صبرا سنة 220هـ. أما الرواية الثانية التي يرجّحها الذهبي فتقول إن الشاعر حين هجا مالك بن طوق التغلبي «بعث إليه رجلاً ضمن له عشرة آلاف درهم، وأعطاه سمًّا؛ فلم يزل يطلبه حتى وجده قد نزل في قرية بنواحي السوس، فاغتاله في وقت من الأوقات بعد صلاة العتمة؛ فضرب ظهر قدمه بعكاز لها زجّ مسموم، فمات من غده، ودفن بتلك القرية، وقيل: بل حمل إلى السوس فدفن بها» [الأغاني، 18/ 60؛ مختصر تاريخ دمشق، ص1107؛ معجم البلدان، ص909] وقد رثاه البحتري ورثا أبا تمام بقوله [من الكامل]:

قَدْ زادَ فِي كَلَفِي وأوقَدَ لَوْعَتي
مَثْوَى حَبيبٍ يَومَ مَاتَ ودَعْبَلُ

يتّسم شعر دعبل الخزاعي بباسطة اللفظ وقرب المعاني فهو بعيد كلّ البعد عن الغريب والتعقيد والصنعة. لذلك حظي باهتمام المغنّين في عصره وشاع صيته وذكره. ويمكن تصنيف أشعاره من جهة الغرض الذي فيه القول إلى ستة أغراض كبرى هي المدح والرثاء والفخر والهجاء والحكمة والوصف. والناظر في ما قاله في المدح يلاحظ أن الأشعار التي قالها في هذا الباب صنفان. تندرج في الصنف الأوّل المدائح التي قالها للتكسّب. أما الصنف الثاني فيحتوي على مدائحه في أهل البيت الذين نذر شعره لنصرتهم والتشنيع على أعدائهم. غير أن الناظر في ديوانه وفي ما أوردته المصادر من أشعاره يلاحظ ندرة قصائده التي قالها للتكسّب. حتّى أننا لا نكاد نعثر إلا على بعض الأبيات التي أوردها أبو الفرج الأصبهاني. ومنها بيتان خاطب بهما عبد الله بن طاهر متوسّلاً فأجزل عطاءه، وقد قال فيهما من المنسرح:

جِئتُ بِلاَ حُرْمَةٍ ولا سَبَبِ
إليكَ إلّا بِحُرْمَةِ الأدَبِ

فاقضِ ذِمامي فإنَّني رَجُلٌ
غَيرُ مُلِحٍّ عَلَيكَ في الطَّلَبِ

[الأغاني، 18/ 59].

ومنها أيضًا الأبيات التي مدح بها المطلب بن

عبد الله بن مالك الخزاعي. وقد تناول فيها المعاني المألوفة في المدح فذكر الشوق لملاقاة الممدوح وذكر تجشّم أهوال الرحلة إليه. لكنه جدد في معنى طلب الصلة فاعتمد اللطف في الإشارة حين سوّى بين ما ناله في الحجّ من ثواب يدّخره معادًا وما سيناله من ممدوحه من عطايا يستعين بها على المعاش. يقول [من البسيط]:

لَـم آتِ مُـطَّـلِـبًـا إلّا بِـمُـطَّـلَـبِ
وَهِـمَّـةٍ بَـلَـغَـتْ بـي غـايَـةَ الـرُّتَـبِ

....

....

رَحَلت عَيْسي إلى البَيْتِ الحرامِ على
ما كانَ مِن وَصَبٍ فيها ومِن نَصَبِ

ألقَى بِها وبِوَجهي كُلُّ هاجِرَةٍ
تَكادُ تَقدَحُ بَيْنَ الجِلْدِ والعَصَبِ

فأَمَّمْتُكَ وقَدْ ذابَتْ مَفاصِلُها
مِنْ طولِ ما تَعَبٍ لاقَتْ ومِنْ نَقَبِ

إنّي استَجَرْتُ بِإستارَينِ مُستَلِمًا
رُكنَينِ مُطَّلِبًا والبَيْتَ ذا الحُجُبِ

فذاكَ لِلآجِلِ المَأمولِ أذخُرُهُ
وأنتَ لِلعاجِلِ المَرجُوِّ والطَّلَبِ

وقد أوردَ محقّق ديوان دعبل وجامع أشعاره من المتون القديمة أبياتًا أخرى بعضها قاله في الإمام الرضا [الديوان، ص100، 4 أبيات] وبيتين قالهما في مدح الهيثم بن عثمان الغنوي [الديوان، ص100]، وثلاثة أبيات مدح بها المطلب بن عبد الله الخزاعي [الديوان، ص55]، وأورد أيضا أبياتًا مفردة لا تذكر المصادر في من قالها الشاعر ولا تحدّث عن ظروف نظمها [الديوان، ص129، 157، 163، 183].

أما المدائح التي قالها في آل البيت فهي عديدة بعضها ورد في شكل مقطّعات وبعضها الآخر جاء في شكل قصائد مطوّلة. وفيها يعلن الشاعر نصرته لهم ويجاهر بتشيّعه. فلقد كان هذا الموضوع أثيرًا لديه. لذلك ظلّ يستعيده ويطرقه طوال حياته. ورغم وحدة الغرض الذي فيه القول ووحدة الموضوع الذي عليه جريانه، تمكّن الشاعر من تنويع المعاني. فلقد قال في علي بن أبي طالب 8 قصائد ومقطّعات [الديوان، ص66 ـ 76، 86، 167، 182، 186 ـ 187، 191]، أما القصائد والمقطّعات التي مدح بها آل البيت وذكر رزاياهم ومحنهم فقد بلغ عددها خمس قصائد [الديوان، ص 57 ـ 66، 99، 135 ـ 136، 178 ـ 179]. وأغلب ما قاله في آل البيت من المطوّلات. فلقد بلغ عدد أبيات تائيته التي مطلعها [من الطويل]:

تَجاوَبْنَ بالإرنانِ والزَّفَراتِ
نوائِحُ عُجمُ اللَّفظِ والنَّطِقاتِ

115 بيتا... وهي قصيدة قد جرت على كل لسان حتى أن ابن المعتز عدل عن ذكرها قائلاً: «وهي أشهر من الشمس» [طبقات الشعراء، ص267].

أما داليته فقد بلغ عدد أبياتها 36 بيتًا ومطلعها [من الكامل]:

يا واقفًا يَبْكي الطُّلولَ ويُنشِدُ
باللهِ تِهتَ وغابَ عَنْكَ المُرشِدُ

[الديوان، ص93]

لكن الناظر في هذه القصائد والمقطّعات يلاحظ أن الشاعر يعمد في كلّ مرّة إلى التوسّع في معنى بعينه. فيتناول مثلا صفات علي بن أبي طالب ويعدّد خصاله فيسند إليه الخصال التي جرت العادة بإسنادها إلى الممدوح مثل التقوى والشجاعة وحبّ الخير. نقرأ [من الطويل]:

ألاَ إنّـهُ طُـهـرٌ زكِـيٌّ مُـطَـهَّـرٌ
سـريـعٌ إلـى الـخَـيْـراتِ والـبَـرَكـاتِ

غُـلامًـا وكـهْـلاً، خَـيْـرُ كَـهْـلٍ ويَـافِـعٍ
وأبْـسَـطُـهـمْ كَـفًّـا إلـى الـكُـرُبـاتِ

واشْـجَـعُـهُـمْ قـلْـبًـا واصـدقُـهُـم أخًـا
واعْـظَـمُـهُـمْ فـي الـمـجـدِ والـقُـرُبـاتِ

[الديوان، ص66 ـ 67]

ثم يتوسّع في معاني المدح فيضمّن من الحديث الشريف ما يستدلّ به الشيعة على أحقية علي بالخلافة. ومنها قول النبي لعليّ: «أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبيّ بعدي» وحديث خم الذي خاطب فيه النبيّ عليًا قائلاً: «من كنت مولاه فعليّ مولاه اللهمّ والِ من والاه وعادِ من عاداه» يقول [من الطويل]:

أخو المصطفى، بلْ صِهْرُهُ ووَصيُّهُ
مـن الـقـومِ، والـسـتَّـارُ لـلـعَـوْرَاتِ

كَهارونَ من موسَى على رَغْمِ مَعْشَرٍ
سِـفَـالٍ لِـئـامٍ شُـقَّـق الـبَـشَـراتِ

فـقـالَ: ألاَ مَـنْ كُـنـتُ مَـوْلاهُ مِـنـكـم
فَـهـذا لَـهُ مَـوْلَـى بَـعْـدَ وَفَـاتِـي

[الديوان، ص66 ـ 67]

أما في مدائحه الأخرى التي قالها في عليّ بن أبي طالب فإنه يعمد فيها إلى التذكير بأمجاد الإمام ونصرته للدين. لكنه يظلُّ دائمًا يذكّر بأن عليًا هو وصيّ النبي وخليفته وأفضل من سعت به قدم بعده [الديوان، ص182، 186 ـ 187، 191].

تنكشف مقدرة الشاعر على التجديد في غرض المدح ومعانيه في المطوّلات التي قالها في مدح آل البيت. ذلك أن الشاعر لا يعوّل في ابتناء المعاني على الصور المفردة بل يجري الكلام وفق نسق بموجبه تتوالد الصور غزيرة وتتشابك في شكل مشاهد ولوحات متتالية بعضها يذكّر بأمجاد آل البيت ويحيطهم بهالة قدسية. يقول [من الطويل]:

هُـمْ أهلُ مـيراثِ الـنّـبـيّ إذا اعـتَـزَوا
وهُـم خَـيـرُ قـاداتٍ وخَـيـرُ حُـمـاةِ

إذا لَـم نُـنـاجِ الـلـه فـي صَـلَـواتِـنَـا
بِـأَسْـمـائِـهِـم لَـم يَـقْـبَـل الـصَّـلَـواتِ

[الديوان، ص60].

أما بعضُها فيذكّر باجتماع السقيفة ويستنكر ما جرى يوم بويع أبو بكر الصديق معتبرًا بيعة أبي بكر جريرة سلبت عليًا وصيّ النبيّ حقّه:

ومـا سَـهَّـلَـت تِـلـكَ الـمَـذاهِـبَ فـيـهِـمُ
عـلـى الـنـاسِ إلاّ بَـيـعَـةُ الـفَـلَـتَـاتِ

ومـا نـالَ أصـحـابُ الـسَّـقـيـفَـةِ إمـرَةً
بـدعـوَى تُـراثٍ بَـلْ بِـأمْـرِ تِـراتِ

ولـو قـلّـدوا الـموصـى إلَـيْـهِ زِمـامَـهـا
لَـزُمَّـتْ بِـمَـأمـونٍ مِـنَ الـعَـثَـراتِ

....

....

هُمُ مَنَعُوا الآباءَ عَن أخذِ حَقِّهِم
وَهُمُ تَرَكُوا الأبناءَ رَهنَ شَتاتِ

وَهُم عَدَلوها عَنْ وَصِيِّ مُحَمَّدٍ
فَبَيْعَتُهُم جاءَت عَلى الغَدَراتِ

[الديوان، 58 ـ 59].

ويمزج الشاعر بين الإشهاد على ما يعتبره جريرة وقعت في التاريخ والإشهاد ما آل إليه أمر المسلمين كلّهم من ابتلاء بضياع العدل والشورى. نقرأ:

تُراثٌ بلا قُربَى ومِلْكٌ بِلا هُدَى
وحُكْمٌ بِلاَ شُورَى بِغَيْرِ هُداةِ

[الديوان، ص58].

وهو يعمد في الآن نفسه إلى ابتناء مشاهد مروّعة تجمع إلى الفظيع المروّع لحظة تصويره لمصير آل البيت. وبدل المجاهرة بما آل إليه أمرهم من تقتيل يعتمد اللمح والإشارة فيعدّد القبور ويبتني مشاهد جنائزية:

قُبورٌ بِكوفانٍ وأُخرَى بِطِيبَةٍ
وأُخرَى بِفَخٍّ نالَها صَلَواتي

وأُخرَى بِأَرْضِ الجوزجَانِ مَحَلُّها
وقَبْرٌ بباخَمْرَا لَدَى القُرُباتِ

وقَبرٌ بِبَغْدادٍ لِنَفسٍ زَكِيَّةٍ
تَضَمَّنَها الرَّحمَنُ في الغُرُفاتِ

....

....

قُبُورٌ بِجَنْبِ النَهرِ مِنْ أرضِ كَربَلَا
مُعَرَّسُهُم مِنْهَا بِشَطِّ فُراتِ

[الديوان، ص61].

وبدل النياحة على آل البيت وندبهم باستخدام عبارات التفجّع والتأوّه يعمد إلى استبكاء فاطمة الزهراء ويخيّل ثكلها ورزيتها قائلاً:

أفاطِمُ لَو خِلتِ الحُسَينَ مُجَدَّلاً
وقد ماتَ عَطشانًا بِشَطِّ فراتِ

إذَن لَلَطَمْتِ الخَدَّ فاطِمُ عِنْدَهُ
وأَجْرَيْتِ دَمعَ العَينِ في الوَجَناتِ

أفاطِمُ قومي يا ابنَةَ الخَيرِ واندُبِي
نُجُومَ سَمَواتٍ بِأَرْضِ فَلاةِ

[الديوان، ص61]

طرق دعبل الخزاعي غرض الفخر أيضًا. لكنه لم يجدد في المعاني التي درج الشعراء على تناولها في الفخر. فحدّث عن شجاعته ونبل محتدّه وكرمه. يقول [من البسيط]:

قَومي بَنو مِذحِجٍ والأزْدُ إخْوَتُهُم
وآلُ كِنْدَةَ والأحياءُ مِنْ عُلَةٍ

....

....

نَفْسي تُنافِسُني في كُلِّ مَكْرُمَةٍ
إلى المعالي ولو خالَفتُها أبَتِ

وكَم زَحَمْتُ طَريقَ المَوتِ مُعتَرِضا
بالسيفِ صَلتًا فأدّاني إلى السَّعَةِ

والجودُ يَعْلَمُ أنّي مذ عاقَدَني
ما خُنتُهُ وقتَ مَيسوري ومَعسِرَتي

[الديوان، ص 68 ـ 69].

أما ما قاله في الرثاء فقد خصّ به آل البيت ولا سيما الحسين والإمام الرضا. ودارت مجمل قصائده ومقطّعاته التي قالها في رثاء الحسين على التذكير بحادثة الفتك به في كربلاء والتشهير بمن قتلوه وأهله والخلّص من رفقته [الديوان، ص 67 ـ 68، 93 ـ 98، 118 ـ 119]. لم يشهد دعبل مقتل الحسين لكنه عرف الإمام الرضا ومدحه وشهد مقتله مسموما على أيدي بني العباس. لذلك تردّدت معاني الحرقة والفقد في المراثي التي قالها في الرضا [الديوان، ص98، 133، 137، 169 ـ 170، 178 ـ 179]. ولم تختلف هذه المراثي من جهة الجمع بين رثاء القتيل والتشهير بقتلته عمّا قاله في الحسين. فهو يعمد إلى ذكر خصال الإمام قائلاً [من الوافر]:

لقَدْ رَحَلَ ابنُ موسى بالمعالي
وسارَ بِسَيْرِهِ العِلمُ الشَّريفُ

وتابَعَهُ الهُدى والدينُ كُلًّا
كَما يَتَتَبَّعُ الإلْفَ الأليفُ

[الديوان، ص133].

وكثيرا ما يعمد فيما هو يرثيه إلى التشهير ببني العباس وبني أمية قائلاً [من الطويل]:

هُوَ النفسُ إلّا أنّ آلَ محمدٍ
لهُم دونَ نفسي في الفؤادِ كَمينُ

....

....

دَعَتْهُمْ ذِئابٌ مِن أُمَيَّةَ وانتَحَتْ
عَلَيهِم براكًا ازمةٌ وسِنونُ

وعاشَتْ بَنو العَبّاسِ في الدين عَيْثَةً
تَحَكَّمَ فيها ظالِمٌ وظَنينُ

وسَمّوا رَشيدًا ليسَ فيهِمْ لِرُشْدِهِ
وها ذاكَ مَأمونٌ وذاكَ أمينُ

فما قُبِلَتْ بالرُّشْدِ مِنهُم رِعايَةٌ
ولا لِوَلِيٍّ بالأمانَةِ دينُ

رَشيدُهُم غاوٍ وَطِفلاهُ بَعدَهُ
لِهَذا رَزايا دونَ ذاكَ مُجونُ

[الديوان، ص169 ـ 170].

برع دعبل الخزاعي في الهجاء حتى قيل عنه إنه «أهجى أهل الزمان» [أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم، ص558]. والناظر في أشعاره التي قيلت في هذا الغرض سرعان ما يدرك أن الشاعر لم يكن ينظم قصائده اتفاقًا وبختا، بل كان يتخيّر البحور القصيرة حتى يسهل تناقل الكلام ويشيع بين الناس. قال مثلا بعد موت الخليفة المعتصم وتولّي الواثق [من البسيط]:

الحَمدُ لله لا صَبرٌ ولا جَلَدُ
ولا عزاءٌ إذا أهلُ البَلا رقدوا

خليفةٌ ماتَ لَم يَحزَن لَهُ أحدٌ
وآخَرٌ قامَ لَم يَفرَح بِهِ أحَدُ

فَمَرَّ هَذا ومَرَّ الشُؤمُ يَتبَعُهُ
وقامَ هذا فقامَ الشُؤمُ والنَّكَدُ

[الديوان، ص83]

وقل أيضًا في رحيل المعتصم وتولّي الواثق [من المنسرح]:

قَد قُلتُ إذ غَيَّبوهُ وانصَرَفوا
في شَرِّ قَبرٍ لِشَرِّ مَدفونِ

إذهَبْ إلى النارِ والعَذابِ فَمَا
خِلتُكَ إلّا مِنَ الشَياطينِ

ما زلتَ حتّى عقدْتَ بيعةَ
مَن أضَرَّ بالمُسلِمينَ والدِّينِ

[الديوان، ص175].

وقال في المطلب بن عبد الله الخزاعي الذي ولّاه على أسوان [من المتقارب]:

تُعلِّقُ مِصْرُ بِكَ المُخزِياتِ
وتَبْصُقُ في وَجهِكَ المَوصِلُ

....

....

وَضَعْتَ رِجالاً فما ضَرَّهُم
وشَرَّفتَ قوماً فلَم يَنْبُلُوا

شِعارُكَ في الحَرْبِ يومَ الوَغى
إذا انهَزَموا عَجِّلوا عَجِّلُوا

هَزائِمُكَ الغُرُّ مَشهُورةٌ
يُقرطِسُ فيهِنَّ مَن يَنضُلُ

[الديوان، ص146 ـ 147].

غير أن ما يميّز هجاء دعبل إنما هو إصراره على أن يمزج بالفحش كلامه. فكثيرًا ما يستخدم عبارات وصورا جنسية فاضحة ويصل إلى حدّ الإسفاف من ذلك مثلا هجاؤه لمالك بن طوق [الديوان، ص185] وهجاؤه لأبي سعد المخزومي [الديوان، ص103] وهجاؤه لجارية تدعى برهان [الديوان، ص81].

أما ما قاله في الوصف والحكمة فقد ورد كلّه في شكل مقطّعات لا تتجاوز البيتين عادة. من ذلك مثلا ما قاله في وصف قوس قزح والمطر [الديوان، ص101] ووصف الحبّ [الديوان، ص109] ووصف الشراب [الديوان، ص134] ووصف الخمرة [الديوان، ص163 ـ 164] ووصف الشيب [الديوان، ص212]. والناظر في هذه المقطّعات يدرك أن الشاعر كثيرًا ما يأتي بالمعاني المبتكرة إذ يجمع بن الشيئين المتباعدين ويكشف ما بينهما من شبه يدقّ المسلك إليه كأن يقيم علاقة تشابه بين البرق وبطن الحية. يقول في وصف البرق [من الطويل]:

أرِقتُ لِبَرْقٍ آخِرَ اللّيلِ مُنْصِبِ
خَفِيٍّ كَبَطْنِ الحَيَّةِ المُتَقَلِّبِ

[الديوان، ص49].

كان دعبل شاعرا قد ملأ الدنيا في عصره وجاب البلدان والأمصار وروّع الخلفاء والأمراء. والراجح أنه كان شاعرًا مغامرا جريئا غير هيّاب من الموت. فلقد تناقلت المصادر القديمة أنه كان يقول: «أنا أحمل خشبتي على كتفي منذ خمسين سنة لست أجد أحدا يصلبني عليها» [الأغاني، 18/ 30؛ طبقات الشعراء، ص265؛ المذاكرة في ألقاب الشعراء، ص122]. وسواء قتل صبرا أو قتل غدرا وغيلة فإن أخباره وأشعاره تظل تجسّد فصلاً من فصول الصراع العنيف بين السلطة الشعرية والسلطة السياسية في الثقافة العربية.

آثاره

1 ـ ديوان دعبل بن علي الخزاعي، شرحه وضبطه وقدّم له ضياء حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت 1997. نشر ديوان دعبل بن علي الخزاعي على شبكة الأنترنيت وعلى قرص مرن: ـ شبكة

الأنترنيت، الموسوعة الشعرية، ضمن موقع المجمّع الثقافي (أبو ظبي)، على شبكة الإنترنيت: http//www.cultural.org.ae، ـ قرص مرن: الموسوعة الشعرية، إصدار المجمّع الثقافي أبو ظبي، الإصدار الأول سنة 2000، الإصدار الثاني سنة 2001، الإصدار الثالث سنة 2003؛ 2 ـ كتاب طبقات الشعراء، وهو كتاب قد استفاد منه النقاد الذين جاؤوا بعده ومنهم المبرّد في الكامل، وابن المعتز في طبقات الشعراء، والمرزباني في معجم الشعراء، وابن رشيق في العمدة وابن الجراح في الورقة. لكن هذا الكتاب ضاع؛ 3 ـ كتاب الواحدة، وهو كتاب في المثالب، وقد ذكره ابن النديم في الفهرست؛ 4 ـ وصايا الملوك وأبناء الملوك من ولد قحطان بن هود، وقد جمع فيه ما نُقل شعرًا، وقد أورد فيه أخبارًا وحكايات يدور أغلبها حول أيّام ملوك اليمن وأمجادهم، والكتاب برواية علي بن محمد بن دعبل الخزاعي، تح. نزار أباظة، دار صادر، بيروت 1997، ط1.

■ المصادر والمراجع

● ديوان دعبل بن علي الخزاعي، شرحه وضبطه وقدّم له ضياء حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت 1997؛ ● الإربلي، النشابي (ت 632هـ/1235م)، المذاكرة في ألقاب الشعراء، قرص مرن، الموسوعة الشعرية، المجمّع الثقافي، أبو ظبي 2003، ط3، باب المراجع؛ ● الأصبهاني، أبو الفرج، الأغاني، نسخة مصوّرة عن طبعة بولاق الأصلية، نشر صلاح يوسف الخليل ودار الفكر للجميع، بيروت 1390هـ/1970م؛ ● الآمدي، أبو القاسم، الموازنة بين أبي تمام والبحتري، قرص مرن، الموسوعة الشعرية، المجمّع الثقافي، أبو ظبي 2003، ط3، باب المراجع؛ ● البغدادي، عبد القادر، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، قرص مرن، الموسوعة الشعرية، المجمّع الثقافي، أبو ظبي 2003، ط3، باب المراجع؛ ● البكري، أبو عبيد، اللآلي في شرح أمالي القالي، قرص مرن، الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي، أبو ظبي 2003، ط3، باب المراجع؛ ● ابن تغري بردي، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، قرص مرن، الموسوعة الشعرية، المجمّع الثقافي، أبو ظبي 2003، ط3، باب المراجع؛ ● الجوهري، أبو نصر إسماعيل، الصحاح، تح. أحمد عبد الغفور عطّار، دار العلم للملايين، بيروت 1404هـ/1983م، ط3؛ ● الحموي، ياقوت، معجم الأدباء، الورّاق، موقع المجمّع الثقافي، أبو ظبي، على شبكة الانترنيت http://www.alwaraq.com.؛ ● م.س، معجم البلدان، الوراق، موقع المجمّع الثقافي، أبو ظبي، على شبكة الانترنيت، http://www.alwaraq.com؛ ● ابن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمد، وفيات الأعيان، الورّاق، موقع المجمّع الثقافي، أبو ظبي، على شبكة الانترنيت http://www.alwaraq.com.؛ ● الذهبي، العبر في خبر من عبر، الوراق، موقع المجمع الثقافي، أبو ظبي، على شبكة

الأنترنيت .http://www.alwaraq.com؛ ● الرافعي، أبو القاسم، التدوين في أخبار قزوين، الورّاق، موقع المجمّع الثقافي، أبو ظبي، على شبكة الانترنيت //:http www.alwaraq.com.؛ ● ابن رشيق، أبو علي الحسن، العمدة؛ ● الصفدي، صلاح الدين، الوافي بالوفيات، قرص مرن، الموسوعة الشعرية، المجمّع الثقافي، أبو ظبي 2003، ط3، باب المراجع؛ ● م.س، تصحيح التصحيف وتحرير التحريف، الورّاق، موقع المجمّع الثقافي، أبو ظبي، على شبكة الانترنيت .http://www.alwaraq.com؛ ● الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى، أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم، الورّاق، موقع المجمّع الثقافي، أبو ظبي، على شبكة الانترنيت .http://www.alwaraq.com؛ ● العباسي، عبد الرحيم، معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، قرص مرن، الموسوعة الشعرية، المجمّع الثقافي، أبو ظبي، 2003، ط3، باب المراجع؛ ● ابن عساكر، علي بن حسين، مختصر تاريخ دمشق، الورّاق، موقع المجمّع الثقافي، أبو ظبي، على شبكة الانترنيت //:http www.alwaraq.com.؛ ● ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم، الشعر والشعراء، تح. وشرح أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ج1؛ ● ابن المعتز، أبو العباس عبد الله بن محمد، طبقات الشعراء، تح. عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف بمصر، القاهرة 1976؛ ● المعري، أبو العلاء، رسالة الغفران، تح. محمد عزت نصر الله، المكتبة الثقافية، بيروت، د.ت؛ ● ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين، لسان العرب، دار صادر، بيروت، د.ت؛ ● النويري، شهاب الدين، نهاية الأرب في فنون الأدب، الورّاق، موقع المجمّع الثقافي، أبو ظبي، على شبكة الانترنيت .http://www.alwaraq.com

د. محمد لطفي اليوسفي
جامعة منوبة ـ تونس

الخزرجي، إسماعيل بن محمد الأنصاري

(1340هـ/ 1920م ـ 1417هـ/ 1997م)

ولد إسماعيل بن محمد بن ماحي بن عبد الرحمان بن أحمد بن محمد الأنصاري في الصحراء الكبرى سنة 1340هـ/ 1920م، حفظ القرآن على عمه الشيخ محمد ابن عبد الرحمان الأنصاري ثم تتلمذ على يد عدد من الشيوخ، فأخذ «الرسالة» في المذهب المالكي عن الشيخ محمد بن الأمين الانصاري، وقرأ نصف الأجرومية على الشيخ

محمد بن تاني الأنصاري، وقرأ «مختصر خليل» على الشيخ محمود بن محمد الصالح، وأخذ «ألفية ابن مالك» على الشيخين محمد ابن هارون الإدريسي، وأحمد بن الصالح مقا، وأخذ «لامية الأفعال»، و«شافية ابن حجاب» عن شيخه أحمد بن الصالح مقا، ونال من شيوخه الإجازة في التفسير والحديث، ونال إجازة عامة في التدريس والإفتاء.

قدم إسماعيل بن محمد الأنصاري إلى مكة المكرمة سنة 1369هـ/ 1949م، وفي السنة التالية تم تعيينه مدرّسًا في المدرسة الصولتية، وحصل سنة 1372هـ/ 1952م على إجازة التدريس في المسجد الحرام من الشيخ عبد الله بن حسن آل الشيخ، وكانت له حلقة يدرس فيها التوحيد والحديث، وظلّ مدرسًا بالمسجد الحرام والمدرسة الصولتية حتى سنة 1374هـ/ 1954م حيث انتدب للتدريس في المعهد العلمي بالرياض، واختاره مفتي المملكة العربية السعودية آنذاك الشيخ محمد ابن إبراهيم آل الشيخ للتدريس في مسجده بالرياض.

وفي سنة 1375هـ/ 1955م انتقل للتدريس في معهد إمام الدعوة بعد تأسيسه، فتولى تدريس التفسير، والحديث، ومن طلابه في المعهد الشيوخ: عبد العزيز بن عبد الله آل الشيخ، وعبد الله بن عبد الرحمان جبرين، وعبد الرحمان الفريان، وصالح بن غانم السدلان، وفي سنة 1382هـ/ 1962م نقل إلى دار الإفتاء ثم عيّن قاضيا بالمحكمة الكبرى بالرياض سنة 1384هـ/ 1964م، وفي السنة التالية عاد إلى دار الإفتاء، وعمل مع مفتي المملكة العربية السعودية الشيخ عبد العزيز بن باز حتى أحيل إلى التقاعد سنة 1405هـ/ 1985م.

ظل بعد تقاعده من العمل الرسمي يستقبل الطلاب في داره وكانت لديه مكتبة زاخرة بأمهات الكتب والمخطوطات، ولم يزل باحثًا دؤوبا حتى وفاته في السادس والعشرين من ذي القعدة سنة 1417هـ/ 1997م.

وقد شهد له كل من خالطه أو عرفه من كتاباته بالمعرفة التامة وعمق البحث وجودة التحقيق والدأب على المطالعة والتبحر في علوم الفقه والحديث والتفسير والأدب واللغة والتاريخ، وقد مدحه الشيخ عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ في قصيدة نقتطف منها الأبيات التالية:

أيها العالِمُ الحصيفُ هنيئًا
لك هذا العطا من العلم بحره

كم دفينٍ في قاعة كان نسيًا
وصفتَه للأنام في حسْن صنعه

كم جهول قد قال في العلم قولاً
ظنّه الحق فانبَرَيْتَ لهدمه

ترفع الباطل اللجوجَ بحق
مشرقٍ في السماء إشراق شمسه

آثاره

أ ـ المؤلفات:

1 ـ إباحة التحلي بالذهب المحلق للنساء، الرياض 1404هـ/ 1984م؛ 2 ـ تخريج حديث الخلافة الراشدة، الرياض 1405هـ/ 1985م؛ 3 ـ تنبيه اللاهي على تحريم

الملاهي، الرياض 1410هـ/ 1990م؛ 4 ـ نقد تعليقات الألباني على شرح الطحاوية، الرياض 1410هـ/ 1990م؛ 5 ـ نشيد الفرح بمقدم النبي ﷺ، الرياض، 1415هـ/ 1995م؛ 6 ـ التحفة الربانية في شرح الأربعين حديثًا النووية، الرياض 1415هـ/ 1995م؛ 7 ـ القول الفصل في حكم الاحتفال بمولد خير الرسل ﷺ، الرياض 1416هـ/ 1996م؛ 8 ـ استخراج عقيدة السلف الصالح في الأسماء والصفات من كتاب فتح الباري، الرياض؛ 9 ـ حكم بناء الكنائس والمعابد الشركية في بلاد المسلمين، الرياض.

ب ـ التحقيق:

10 ـ أخلاق العلماء للآجري، الرياض 1398هـ/ 1978م؛ 11 ـ الفتن والملاحم لابن كثير، الرياض 1403هـ/ 1983م؛ 12 ـ الصارم المنكي في الرد على السبكي لابن عبد الهادي الحنبلي، الرياض 1403هـ/ 1983م؛ 13 ـ السيف القاطع للنزاع للفلاتي، الرياض 1404هـ/ 1984م؛ 14 ـ العجالة السنية على ألفية السيرة النبوية للمناوي، الرياض 1406هـ/ 1986م؛ 15 ـ تحريم حلق اللحية لعبد الرحمان الحنبلي، الرياض؛ 16 ـ براءة الذمة في نصح الملوك والأئمة للمنصور، الرياض؛ 17 ـ الأنوار الرحمانية لهداية الفرقة التيجانية لعبد الرحمان الإفريقي، الرياض؛

ج ـ المخطوطة:

18 ـ آداب المشي إلى الصلاة؛ 19 ـ أقوال أهل العلم في أقصى مدة النفاس؛ 20 ـ استعمال الأواني المطلية والمموهة بالذهب والفضة؛ 21 ـ التخلف عن الجماعة في ليلة باردة أو ذات مطر؛ 22 ـ مساجد المدينة المنورة؛ 23 ـ نماذج من الملاحظات على كتاب الدرر السنية؛ 24 ـ وتزوّدوا فإن خير الزاد التقوى؛ 25 ـ الوقف على فقراء الذرية والمحتاجين.

د. محمد بن إسماعيل الأنصاري
باحث ـ المملكة العربية السعودية

الخزرجي، حماد بن محمد الأنصاري

(1344هـ/ 1925م ـ 1418هـ/ 1998م)

حماد بن محمد الأنصاري، من ذرية سعيد بن سعد بن عبادة، من الخزرج من الأنصار.

ولد سنة 1344هـ/ 1925م في مدينة تادا مكة بالصحراء الكبرى، حفظ القرآن الكريم، وتلقى العلم على عدد من العلماء منهم خاله الشيخ محمد بن أحمد بن تقي الأنصاري، والشيخ موسى الكسائي الأنصاري، والشيخ

محمد أحمد الملقب بالبحر، وتلقى عليهم علوم التوحيد، وعلوم اللغة العربية، والأصول، والفقه المالكي.

التقى حماد بن محمد الأنصاري مع الشيخ محمد بن عبد الله المحمود المدني أحد تلاميذ الشيخ محمد الطيب الأنصاري، وإمام الحرم النبوي، فأفاد منه كثيرا في العقيدة السلفية، ونصحه الشيخ محمد بن عبد الله المحمود المدني بالعودة إلى المدينة المنوّرة فعاد إليها في سنة 1367هـ/ 1947م، تتلمذ بعد عودته على أيدي عدد من مشايخ الحرمين الشريفين والرياض ومنهم: الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، والشيخ محمد بن تركي آل تركي، والشيخ عبد الحق الهاشمي في مكة المكرمة، وتلميذ الشيخ محمد الطيب الأنصاري الشيخ أبو بكر بن محمد أحمد الشريف في المدينة المنوّرة.

عمل مدرّسًا بالمدرسة الصولتية بمكة المكرمة منذ سنة 1371هـ/ 1951م وحتى سنة 1374هـ/ 1954م، ثم عمل مدرّسًا بمعهد إمام الدعوة بالرياض خلال الفترة من سنة 1375هـ/ 1955م وحتى سنة 1381هـ/ 1961م، ثم انتقل للتدريس في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية واستمر بها حتى سنة 1383هـ/ 1963م، لينتقل إلى معهد مكة العلمي، ومنذ سنة 1385هـ/ 1965م عمل مدرّسًا بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنوّرة التي ظلّ بها حتى تقاعده عن التدريس سنة 1410هـ/ 1990م، وأشرف وناقش عددًا من الرسائل العلمية بالجامعة الإسلامية وغيرها من الجامعات، كما درّس بالمسجد النبوي الموطأ، وجامع الترمذي، والتوحيد لابن خزيمة، وعلم الفرائض، واللغة العربية، ودرّس في داره الصحيحين، ونيل الأوطار للشوكاني.

قام الشيخ حماد بن محمد الأنصاري بالعديد من الرحلات العلمية بغية الاطلاع على محتويات المكتبات العالمية من مخطوطات في السنّة النبوية المشرفة وما يتّصل بها من علوم، فسافر إلى كل من الهند، وتونس، والمغرب، وإسبانيا، وسوريا، ومصر، وكانت هذه الرحلات بين سنة 1395هـ/ 1975م و1407هـ/ 1987م.

وكتب مذكراته عن هذه الرحلات، وتتجلى أهم ثمارها في تصوير مئات من المخطوطات في علوم العقيدة، والحديث. وتمكّن بفضل رحلاته تلك من تزويد مكتبة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنوّرة بأجود المخطوطات وأنفسها.

وأثمرت السنين الطويلة التي أمضاها حماد بن محمد الأنصاري في التدريس كثرة الطلاب الذين أخذوا العلم عنه وصار منهم العلماء الذين يشار إليهم بالبنان، وظل يواصل العطاء حتى لقي وجه ربه في الحادي والعشرين من جمادى الآخرة سنة 1418هـ/ 1998م ودفن بالبقيع.

■ آوثارة

1 - فتح الوهاب فيمن اشتهر بالألقاب، مؤسسة الرسالة، بيروت؛ 2 - بلغة القاصي والداني في تراجم شيوخ الطبراني، مكتبة الغرباء، المدينة المنوّرة؛ 3 - اتحاف ذوي الرسوخ فيمن اشتهر بالتدليس من الشيوخ، مكتبة المعلا، الكويت؛ 4 - يانع الثمر في

مصطلح أهل الأثر، مكتبة ابن القيم، المدينة المنوّرة؛ 5 ـ رفع الأسى عن المضطر إلى رمي الجمار بالمسا، مكتبة الفرقان، عجمان؛ 6 ـ المستفاد في المتن والإسناد للحافظ أبي زرعة العراقي، مطابع الرياض، الرياض؛ 7 ـ ديوان الضعفاء للحافظ الذهبي، مكتبة النهضة، مكة المكرمة؛ 8 ـ تحريم نكاح المتعة للحافظ نصر المقدسي، مكتبة طيبة، المدينة المنوّرة؛ 9 ـ ذكر من اختلف النقاد وعلماء الحديث فيه لابن شاهين، مكتبة أضواء السلف، الرياض.

د. عبد الباري بن حماد الأنصاري
باحث ـ المملكة العربية السعودية

الخزرجي، رشيد الدين علي بن خليفة بن يونس

(579هـ/1183م ـ 616هـ/1219م)

يتصل نسبه بسعد بن عُبادة، سيد الخزرج في المدينة المنورة، فألحق بنسبه السعدي الخزرجي، من أسرة اشتهرت بالطب؛ فأخوه القاسم، وابن أخيه أحمد، كانا من أشهر أطباء الدولة الأيوبية في مصر والشام، وابن أخيه أحمد هو صاحب كتاب «عيون الأنباء في طبقات الأطباء». بالإضافة إلى علي، المشار له.

كان والده خليفة بن يونس السعدي الخزرجي، المعروف بابن أبي أصيبعة من أتباع صلاح الدين، يعمل في خدمته وخدمة أولاده، فتوجه إلى القاهرة برفقة صلاح الدين عندما فتحها سنة 559هـ/ 1163م، وأنهى الدولة الفاطمية من مصر والشام، وفي القاهرة ولد ابنه القاسم، والد أحمد سنة 575هـ/ 1179م، ويبدو أن صاحب حلب طلب إليه القدوم لطرفه، وبعد لأي التحق بصاحب حلب، وثمة وُلِدَ ابنُه الثاني رشيد الدين علي، سنة 579هـ/ 1183م. ولكن مقامه لم يطل في حلب، فقفل عائداً إلى القاهرة [ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، 736].

كان خليفة بن يونس يرغب في تعليم ولديه، القاسم وعلي صناعة الطب لمعرفته بشرفها، وكثرة احتياج الناس إليها، وإن صاحبها الملتزم لما يجب من حقوقها، يكون مبجلاً حظياً في الدنيا، وله الدرجة العليا في الآخرة [ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، 736]، ومن أجل هذا تخيَّر له والده، أبرز الشيوخ والمدرسين للاشتغال والدراسة على يديهم.

نشأ رشيد الدين علي في القاهرة، واشتغل في بدايته عند أبي التقي، صالح بن أحمد بن إبراهيم بن الحسن بن سليمان العرشي المقدسي، وقد وُصِفَ بمعرفته لعلوم كثيرة، وله سيرة حسنة في التعليم، وأسلوب في التدريس وطيب معاملة للمبتدئين «لم يكن أحد يقدر عليها إلا هو» [ابن أبي أصيبعة،

عيون الأنباء، 736]، فحفظ عنده القرآن، وأجاد أساسيات علم الحساب.

ثم دفعه والده لدراسة صناعة الطب، مستفيداً من معرفته وصداقته لكبار الأطباء الشاميين، الذين انتقلوا إلى مصر، وعملوا في خدمة سلاطين بني أيوب، ومنهم:

- جمال الدين بن أبي الحوافر، عثمان بن هبة الله بن أحمد بن عقيل القيسي (ت 616هـ/ 1219م)، أفضل الأطباء، أتقن الصناعة الطبية وتميز في أقسامها العلمية والعملية، ولاه الملك العزيز عثمان، رئاسة الطب، ثم استمر في خدمة الملك الكامل محمد، وظل في خدمته حتى توفي جمال الدين، حيث قرأ عليه شيئاً من كتب جالينوس الستة عشر، وحفظ منها الكتب الأولى، أي كتب جالينوس وأبقراط وغيرهما من علماء اليونان [ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، 584 - 585، 736؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، وفيات (611 - 620هـ)، ص408؛ المنذري، التكملة لوفيات النقلة، 3/ 80].

وشهاب الدين، أبو الحجاج يوسف الكحال الحموي، والد صلاح الدين الكحال المتوفى حوالي سنة 696هـ/ 1296م، صاحب كتاب نور العيون وجامع الفنون (طُبع). وكان أبو الحجاج يكحل في البيمارستان الكائن في سوق السقطيين، خارج باب زويلة، بجوار دار التفاح [ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، 736]، وكان له قدم راسخ في طب العيون، ذكره ابنه صلاح الدين، وأفاد بنقله لأدوية كان والده يستعملها في علاج حكة الأجفان والعين والسلاق والدمعة وغلظ الأجفان ومنها صفة أشياف ذهبي، وأشياف الأبار [صلاح الدين بن يوسف الكحال، نور العيون، 26]، وكانت هذه بدايته في صناعة الكُحل.

والقاضي نفيس الدين بن الزبير، أبو القاسم، هبة الله بن صدقة بن عبد الله الكولمي (ت 636هـ/ 1238م)، والكولم من بلاد الهند، وصف بالطبيب العالم، وينسب من جهة أمه إلى الزبير الشاعر المشهور الذي كان بالديار المصرية، وكان يتقن صناعة الكُحل وعلم الجراح وبرع في العلم الطبيعي، ولاه الكامل محمد، رئاسة الطب بالديار المصرية، وكان يكحل بالبيمارستان الناصري، وباشر معه أعمال الجراح [ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، 586 ؛ الأدفوي، الطالع السعيد، 690؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، 27/ 285].

وعبد اللطيف بن يوسف بن محمد البغدادي، موفق الدين (ت 629هـ/ 1231م)، المشهور بالعلم، المتميز في النحو واللغة العربية والطب والحديث والحكمة والحساب والنبات والأديان وغيرها، وتصانيفه تزيد عن المائتين، منها الكتب، ومنها المقالات والرسائل وتعاليق واختصارات وردود، شملت معظم العلوم المعروفة آنذاك، وقد ذكرها ابن أبي أصيبعة في أربع صفحات من القطع الكبير في كتابه عيون الأنباء [693 - 696]، وكان قد جاء إلى مصر بعد سنة 580هـ/ 1184م، وقد اشتغل عليه رشيد الدين في علم الأدب والحكمة والطب والأدوية، وقرأ معه كتب أرسطوطاليس وكان البغدادي كثير العناية بها، والفهم لمعانيها. وكان البغدادي يقرئ الطلبة بالجامع الأزهر، ويجعل وسط النهار لدارسي الصناعة الطبية،

كما اشتغل عليه في شرح بعض كليات القانون، وصنف البغدادي كتاب الرد على الخطيب، محمد بن عمر بن حسين الرازي (ت 606هـ/ 1209م)، في شرحه بعض كليات القانون، استجابة لطلب تلميذه رشيد الدين علي بن خليفة أيضاً، وأرسله إليه [ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، 683 ـ 696؛ القفطي، إنباه الرواة، 2/ 142؛ ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، 2/ 385]، ومن الجدير بالذكر اشتغال رشيد الدين علي بن خليفة عليه أيضاً في دمشق بعد عودتهما إليها ؛ حيث كانت له مباحثات مع البغدادي في الحكمة [ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، 737].

والشيخ السديد بن أبي البيان، داود بن سليمان بن أبي الفرج الإسرائيلي، (ت 636هـ/ 1238م)، كان شيخاً محققاً للصناعة الطبية، متقناً لها، متميزاً في علمها وعملها، خبيراً بالأدوية المفردة والمركبة، وكان يعالج على مصنفات جالينوس، وصنف، كتاب الأقراباذين الكبير، واقتصر فيه على الأدوية المركبة المستعملة المتداولة في البيمارستانات بمصر والشام والعراق وحوانيت الصيادلة، ويعتبر الشيخ السديد بن أبي البيان، من أقدر أهل زمانه على تركيب الأدوية ومعرفة مقاديرها وأوزانها، وله تعاليق على كتاب العلل والأعراض لجالينوس [ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، 584، 737؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، 13/ 467].

وبدأ رشيد الدين علي دراسته العملية والتطبيقية بالبيمارستان الناصري، حيث باحث الأطباء، ولازم مشاهدة المرضى، ومعرفة أمراضهم، وما يصف الأطباء لهم [ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، 737؛ أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، 79 ـ 82].

وكان رشيد الدين علي بن خليفة قد اشتغل منذ مرحلة مبكرة من حياته بعلم النجوم والهيئة وبالموسيقى، فقد درس علم النجوم والهيئة على الشيخ أبي محمد بن الجعدي، وكان فاضلاً في علم النجوم وأحكامه، عمل عند الخلفاء الفاطميين، وكان والده من أعيان الأمراء في الدولة الفاطمية، وتعلم رشيد الدين علي الموسيقى والعزف على العود، فأخذ الموسيقى عن ابن الديجور المصري، وصفي الدين ابي علي بن التبان والبهاء المصلح الكبير، الذي صنف في الموسيقى، وشهاب الدين النقجوني، وشجاع الدين بن الحصين البغدادي، وغيرهم من الموسيقيين اللاعبين على الآلات أو المصنفين، حتى غدا موسيقياً بارعاً، يعرف الموسيقى وعلومها ويلعب على العود، ورزق طيب الصوت وعذوبته، سمع منه الملك المعظم العزف والغناء في مجالسه، ومن المعروف أن العديد من ملوك بني أيوب، بعد صلاح الدين ؛ كان لهم ميل نحو اللهو والترف والغناء [ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، 637، 639]، ويلاحظ دأب رشيد الدين علي على الاشتغال بالعلوم والنظر فيها، وسعيه الدائم للتزيد بها في كل أوقاته، حتى أجاد الطب وخاصة صناعة الكُحل، والرياضة والموسيقى.

ثم كانت عودة والده إلى الشام سنة 597هـ/ 1200م، بعد الأحداث التي عصفت بالديار المصرية، وصراع ملوك بني أيوب على النفوذ والسلطة، وفشل ملوك مصر في تصديهم

للغزوات الفرنجية، وانتهاج بعضهم سياسة التفريط واللين مع الصليبيين، فواصل اشتغاله على علماء بلاد الشام، فاشتغل على: رضي الدين الرحبي، يوسف بن حيدرة بن الحسن الرحبي (ت 631هـ/ 1233م)، وهو من أكابر الأطباء في صناعة الطب، وكان يعالج بقلعة دمشق والبيمارستان النوري طوال حياته، ولم يجب دعوات صلاح الدين الأيوبي للسفر معه إلى مصر، ورفض أن يكون من أطباء الخاص أو في خدمة الصحبة، واشتغل عليه بصناعة الطب عدد كبير من الأطباء ومنهم مهذب الدين الدخوار، وكان يرفض تعليم الطب لمن لا يجده أهلاً للصناعة، وكان يكتفي بما أطلق له من جراية وجامكية، وما يكسبه من تجارته، وقد صنف من الكتب: تهذيب شرح ابن الطبيب لكتاب فصول أبقراط، واختصار كتاب المسائل لحنين بن إسحاق، ولكنه لم يكمله.

ولما كان رضي الدين الرحبي، صديق والد رشيد الدين علي وبينهما مودة وصحبة أكيدة، فقد كان رشيد الدين علي يحضر مجالسه ويقرأ عليه ويبحث معه في صناعة الطب ودرس معه الجزء العملي (الجراحة) من مصنفات أبي بكر الرازي في كتابه المنصوري في الطب والحاوي في الطب، وباشر معه المرضى في البيمارستان النوري [ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، 672 ـ 675؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 6/ 277]، والدخوار، عبد الرحيم بن علي بن حامد، مهذب الدين (ت 628هـ/ 1231م)، صاحب المدرسة الدخوارية الطبية الدمشقية، أول مدرسة خاصة طبية، رئيس الأطباء، والمتميز في صناعة الكُحل، والمتفوق في علوم الهيئة والنجوم والعلوم الحكمية، وكان له مجلس لتدريس الطب في البيمارستان النوري، ثم في داره الكائنة بالصاغة العتيقة عند سوق المناخليين، وقد صنف الدخوار عدة مؤلفات منها: كتاب الجنينة في الطب، وشرح تقدمة المعرفة لأبقراط، ومقالة في الاستفراغ، ومقالة في ترتيب الأغذية، واختصارات كثيرة، وقد درس عليه رشيد الدين علي بن خليفة، العلوم الحكمية، وكتبه في الطب وكتاب الحاوي لأبي بكر الرازي، ولازمه في الاشتغال بالبيمارستان النوري والقلعة وفي داره المدرسة [ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، 733؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، 6/ 123].

واشتغل أيضاً على شيخين من كبار علماء العربية والنحو وهما:

العلامة ابن معطي، يحيى بن عبد المعطي بن عبد النور الزواوي المغربي، (ت 628هـ/ 1230م)، شيخ النحو، صاحب الألفية المشهورة في النحو المسماة «بالدرة الألفية في علم العربية، والفصول الخمسون في النحو»، وكان له مجلس للتدريس في دمشق، وقد لازمه واشتغل عليه [ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، 737؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، 6/ 123؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، 6/ 143].

وتاج الدين، أبو اليمن الكندي، زيد بن الحسن بن زيد الكندي البغدادي (ت 613هـ/ 1216م). وصف بالشيخ، العلامة، المفتي، شيخ الحنفية، وشيخ العربية، وشيخ القراءات ومسند الشام، قال عنه الذهبي: «ما رأيت

شيخاً أكمل منه عقلاً ونبلاً وثقة وصدقاً ورزانة مع دماثة أخلاقه »، وكان من أعلم أهل زمانه بالنحو، وكان قد حدث بدمشق طويلاً، وهو أحد البارعين في علم الأدب، وكان تاج الدين، أبو اليمن صديق والده، وبينهما مودة سالفه من أيام وزارة تاج الدين الكندي لفروخشاه، فلازم رشيد الدين علي أستاذه، واشتغل عليه في العربية [ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، 737؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، 22/ 181؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، 1/ 144].

أمضى في طلب العلم والاشتغال فيه هذه المرة خمس سنوات، وصار شيخاً يقتدى به في صناعة الطب، ويشتغل عليه بها، وله من العمر دون الخمس والعشرين سنة، وبالإضافة لذلك، فقد كان يشعر ويترسل في الكتابة، ويعرف الفارسية تكلماً وقواعد وينظم الشعر بالفارسية، ويجيد التركية التي اكتسبها في مصر والشام [ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، 735 ـ 737].

إن كل هذه المؤهلات العلمية والعملية، والمهارات التي اكتسبها في الموسيقى وحلاوة الصوت وطيبه، فتحت له أبواب الشهرة على مصراعيها، ونال الحظوة والثقة من ملوك بني أيوب. فانخرط في ميادين الحياة العملية، وهو ما سنورده لاحقاً، ومع كل نجاحاته في الحياة العملية، فقد حرص على الاشتغال على علّامة وقته في العلوم الرياضية، فقرأ عليه علم الهيئة والحساب والهندسة وهو: علم الدين قيصر بن أبي القاسم بن عبد الغني الأسفوني الملقب بتعاسيف (ت 649هـ/ 1251م)، أقام زمنًا بحماة وخدم صاحبها محمود المظفر، وبنى له أبراجاً فلكية وطاحوناً على نهر العاصي (تسمى الغزالة)، وتحيَّل فيها بعلم الميكانيكا بأسدٍ صوَّره على الرحى، إن غُمر بالماء، وقفت الطاحون عن الماء وبدونها تدور الرحى، وصنع للمظفر محمود كرة من الخشب مدهونة رسم عليها جميع الكواكب المرصودة. وله رسالة يعترض فيها على شرح شكوك والد نصير الدين الطوسي، وكانت له معرفة جيدة بالموسيقى، وقد لازمه رشيد الدين علي، وأفاد من علومه [ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، 740؛ الأدفوي، الطالع السعيد، 469 ـ 471؛ أحمد تيمور، المهندسون في العصر العباسي، 44].

ولما أقام في دمشق، جُعل له مجلس لتدريس صناعة الطب، واشتغل عليه جماعة، تميزوا في الطب.

كان رشيد الدين علي، معروفًا بمهارته عند الأطباء العاملين في البيمارستان النوري الذي عمل فيه، وجعل له مجلساً لتدريس صناعة الطب، وكان يتردد إلى الدور السلطانية بقلعة دمشق، ويداوي مرضاها، فقد عالج جماعة، كانت في أعينهم أمراض صعبة، فصلحوا في أسرع وقت [ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، 638]، كما كان يتردد على دار ست الشام بنت أيوب شادي، أخت صلاح الدين والعادل، (توفيت 616هـ/ 1219م)، حيث كان يُعْمَلُ في دارها من الأشربة والمعاجين والعقاقير في كل سنة بألوف الدنانير، وتفرقها على الناس، وكانت ست الشام، سيدة خواتين بني أيوب، كثيرة البر والصلوات والصدقات، فأطلقت لرشيد الدين علي

جامكية في الطب [أبو شامة، تراجم رجال، 119].

ولكن خدمته لملوك بني أيوب بدأت منذ 15 رمضان 605هـ/ 1212م، ففي ذاك اليوم استدعاه السلطان الملك المعظم عيسى بن الملك العادل أبو بكر بن أيوب، وأمره أن ينتظم في خدمته بعد أن سمع كلامه وأنعم عليه، ولكن لم ينتظم لأسباب اتصلت بدخول السلطان المعظم في أتون صراعات مع إخوته وأعمامه [ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، 737].

ثم كانت معالجته لخادم السلطان العادل، أبي بكر بن أيوب المسمى سُلَيْطة، وكان قد تفاقم المرض في عيني الخادم، وعجز الأطباء والكحالين عن مداواته، وأجمعوا على أنه قد عمي، ولما كان سُلَيْطة الخادم عزيزًا عند السلطان العادل، ذا مكانة، فقد استدعي رشيد الدين علي لمداواته، وشرع في علاجه حتى برئ، وعاد لخدمة السلطان، ولما تناهى الخبر إلى السلطان، قال: مثل هذا يجب أن يكون معي في الحضر والسفر، وطلبه للخدمة، ودخل في خدمته في 15 ذي الحجة 609هـ/ 1212م، وأطلق له جامكية وجراية، وظل في خدمة العادل وأولاده حتى توفي العادل [ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، 738].

وحين حج المعظم سنة 611هـ/ 1214م، حج معه رشيد الدين علي، ولم يزل في خدمته حتى منتصف شعبان 614هـ/ 1217م، حين هاجم الفرنجة عمتا، وتقدمت الفرنج، ووقع الخلاف بين العادل وولده المعظم، فاتجه العادل نحو دمشق، وأما المعظم فسار إلى نابلس، وقد مضى رشيد الدين علي برفقة العادل إلى دمشق، الذي ولاه طب البيمارستان النوري في محرم سنة 615هـ/ 1218م، ويتردد إلى القلعة، وخصص له جامكية وجراية، وكان المعظم قد ندبه لتولي كتابة الجيش، وأصر على ذلك، فقعد في الديوان أياماً، وشرع بمباشرة العمل، ثم رأى أن اشتغاله بالكتابة والحساب ما لا يروقه ويمنعه عن الاشتغال بالطب والحكمة والتصنيف، وعمل بشفاعة جماعة من خواص المعظم على الاستعفاء من ولاية الكتابة والحساب في ديوان الجيش، فاستجاب المعظم وأقاله [ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، 740]، ولكنه استمر في خدمة المعظم منذ صفر 616هـ/ 1219م، وله الجراية والجامكية، ويواصله بالافتقاد والأنعام. فقد كان لا يفارقه في أكثر أوقاته، يستمع للحنه على الموسيقى والعود، ويعتمد عليه في صناعة الطب [ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، 739 ـ 740]، ولما ملك الناصر داود بن المعظم، استمر في خدمته، وأمر أن يجري عليه ما كان مقرراً في أيام والده، وبقي معه إلى أن توجه الناصر إلى الكرك مخالفاً ومحارباً، سار معه حتى وصلا عجلون، ثم رجع إلى دمشق.

وفي سنة 614هـ/ 1217م، مرض واستمر مريضاً بحمى حادة لأكثر من ستة أشهر لا يقوى على المشي، فمال إلى الانفراد والاشتغال بالكتب حتى عُوفي، وعاد إلى البيمارستان المنصوري، ومنذ 20 رمضان 615هـ، وقع تغير في سيرة رشيد الدين علي فمن قائل:

يــا صـــاحِ مـــنّـــاع نُـــسْـــكـــي
مُــذْ صِــرْتُ فــي بَــعْــلَــبَــكّ
وكـــيـــفَ يـــســلَـــمُ ديـــنـــي
بــعــد افــتِــتــانــي وهَــتْــكِــي
بــكُــلّ اهــيَــفَ لَــدنِ
الــقــوامِ لــلــبَــدْرِ يَــحْــكــي

[ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، 747]

تحول إلى متصوف، ومريد لشيخ الشيوخ صدر الدين محمد بن عمر بن أبي الحسن بن محمد بن حموية (ت 617هـ/ 1220م)، وألبسه خرقة التصوف في التاريخ المشار إليه، ولعل انخراطه في الحركة الصوفية يفسره، مكانة شيوخ الخانقاوات والزوايا الصوفية عند ملوك بني أيوب، وتأثيرهم في المجتمع الدمشقي عند العامة والخاصة، ثم شخصية شيخه، فصدر الدين بن حمويه كان شيخ شيوخ الخانقاوات والزوايا الصوفية في دمشق، وله الإجلال عند سلاطين بني أيوب، فشيخ الشيوخ يلبس خرقة التصوف لشيخ الأطباء، بالإضافة إلى فترة مرضه الطويلة [أبو شامة، تراجم رجال، 125].

وفي سنة 616هـ/ 1219م، وصله كتاب من الملك الصالح إسماعيل بن العادل، بخطه، يطلب منه أن يتوجه إليه إلى مدينة بُصرى، ليعالج والده الملك، ومرضى آخرين من وباء أصاب أهل بُصرى، فتوجه إلى هناك وعالج المرضى حتى عوفوا، فأنعم عليه الصالح إسماعيل بالذهب والخلع، وهناك عاودته الحمى الحادة، فعاد إلى دمشق، ولم يزل المرض يتزايد به وأعيان الأطباء ومشايخهم يلازمونه ويعالجونه، حتى حُمّ القضاء.

وتوفي في 17 شعبان 616هـ/ 1219م، وله من العمر ثمان وثلاثون سنة، ودفن عند أبيه وأخيه في ظاهر باب الفراديس [ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، 742].

آثاره

وضع رشيد الدين علي بن خليفة، العديد من المؤلفات، ضاعت كلها، ولم نعثر على أي منها لا في المكتبات العربية ولا الأجنبية، ولا ندري إن كانت قد دخلت في حوزة ابن أخيه أحمد بن القاسم بن خليفة، صاحب عيون الأنباء، أو تلفت لسبب من الأسباب، أو ما زالت حبيسة المكتبات الأسرية - وهو ما نشك فيه -، أو لا زالت ضمن مقتنيات المكتبات التي لم تفهرس لحد الآن، فالمكتبة السليمانية في استانبول - على سبيل المثال - لا زالت تقتني عدداً كبيراً من المحفوظات العربية غير المفهرسة، ومحفوظة في مخازن خاصة.

ومن كتبه التي أوردها [كشف الظنون، 2/ 1899؛ إيضاح المكنون، 2/ 311، 331؛ هدية العارفين، 1/ 705؛ عيون الأنباء، 750]:

أ - الكتب:

1 - كتاب الموجز المفيد في علم الحساب، ألفه للملك الأمجد، صاحب بعلبك في شهر صفر سنة 608هـ/ 1211م، وهو في المخيم بالطور، وجاء في أربع مقالات؛ 2 - كتاب في الطب، ألفه للملك المؤيد نجم الدين مسعود بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، استقصى فيه ذكر الأمور الكلية من صناعة الطب، ومعرفة الأمراض

وأسبابها ومداواتها؛ 3 ـ كتاب طب السوق، ألفه لبعض تلاميذه، وهو يشتمل على ذكر الأمراض التي تحدث كثيرًا ومداواتها بالأشياء السهلة الوجود التي قد اشتهر التداوي بها؛ 4 ـ كتاب الاسطقسات في الطب؛ 5 ـ كتاب المساحة في الهندسة.

ب ـ المقالات:

6 ـ مقالة في نسبة النبض وموازنته إلى الحركات الموسيقية؛ 7 ـ مقالة في السبب الذي له خلقت الجبال، ألفها للملك الأمجد، صاحب بعلبك؛ 8 ـ تعاليق ومجريات في الطب.

هذه المصنفات لا زالت مفقودة، ومعها ضاعت أسماء تلاميذه الذين درسوا عليه في مجلس الطب الذي جُعِلَ له في البيمارستان النوري، ولم يبق من آثاره سوى بعض الأقوال والمقطعات الشعرية التي سجلها ابن أخيه في كتاب عيون الأنباء، وقد كان لنا دراسة هذه الشذرات الأدبية من ترسلات وشعر، في محاولة لاستقصاء طريقته في البحث وأسلوبه في التدريس.

وانتهينا إلى أنه في الصناعة الطبية يكون اشتغاله أو تدريسه على مراحل أو درجات:

ـ الاشتغال بكلام المشهورين الجامعة أولاً للطب، فكان اشتغاله بكتب جالينوس وأبقراط وأرسطوطاليس وغيرهم (أي الكليات).

ـ فإذا حصلت الصناعة الكلية، يكون الاشتغال بالكتب الجزئية من كلام كل قائل عارياً عن محبة أو بغض.

ـ ثم يزنه بالقياس.

ـ ويمتحنه بالتجربة إن أمكن.

ـ وإن أشكل، فيشارك الغير، فإن لكل ذهن خاصية بمعانٍ ودون معان.

وهو منهج سليم، ومنصف، يتدرج فيه من الكليات إلى الجزئيات فالقياس والتجربة، ثم الاستعانة بذوي الخبرة إن كان أو وقع الشك.

أما فيما يتعلق بالاشتغال بالحكمة (الفلسفة وعلم الكلام والمنطق والعلوم التطبيقية)، فهو أيضًا يتدرج في التعلم والتعليم ضمن خطوات:

ـ الاشتغال من الكلام بما قصد قائله التعليم،

ـ وإذا حصلت الصناعة، يؤكد الاشتغال بكلام محبي الحق، مبطلي الباطل.

ـ وإذا تبرهن علم الناظر وتيقن بحيث لا تقدح فيه الشكوك، فلا مانع من مطالعة كتب المتشككين والجدليين، في بعض الأوقات.

وعليه، فالاشتغال بعلوم الحكمة، كما يفهمه رشيد الدين علي بن خليفة، يقتضي فهم قصد الفيلسوف في كتابته ومعرفة وإدراك معاني كلماته والاصطلاحات التي يستخدمها، وعندها تكون دراسة كتابات المنصفين وصولاً للبرهان واليقين، ولا مانع من الاطلاع على كتابات المتشككين والجدليين.

وله أقوال أخرى في الحكمة والحياة والاجتماع وأشعار ألغاز، ومن شعره: [من الوافر]

هيَ الدُّنيا فلا تَغْتَرُّ منها
بشيءٍ إنّه عَرَضٌ يَزولُ

المصادر والمراجع

● ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تح. وشرح نزار رضا، بيروت، دار مكتبة الحياة، 1965م؛ ● ابن تغري بردي، يوسف جمال الدين، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تح. محمد محمد أمين، ط. القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985، 6 أجزاء؛ ● النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة، ط. القاهرة، المؤسسة المصرية للتأليف 1957، الجزء السادس؛ ● الكتبي، محمد بن شاكر، فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1974، 5 مجلدات؛ ● ابن الوردي، زين الدين عمر، تتمة المختصر في أخبار البشر، تحقيق أحمد رفيق البدراوي، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر، 1971، جزآن؛ ● أبو شامة، عبد الرحمٰن بن إسماعيل، تراجم رجال القرنين السادس والسابع (الذيل على الروضتين)، تح. عناية عزت العطار الحسيني، بيروت، مكتبة الثقافة الإسلامية، 1947؛ ● أحمد تيمور، المهندسون في العصر العباسي، القاهرة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، 1977؛ ● أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، ط. دمشق، المطبعة الهاشمية 1357هـ/ 1938م؛ ● الأدفوي، جعفر باقر الموسوي، الطالع السعيد، الجامع أسماء نجباء الصعيد، تح. سعد محمد حسن، ط. القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966م؛ ● الخوانساري، محمد باقر الموسوي، روضات الجنان في أحوال العلماء والسادات، 4 أجزاء في مجلد واحد، ط. حجر، 1307هـ؛ ● الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان، تاريخ الإسلام، ووفيات المشاعير والأعلام (حوادث 611 ـ 620هـ)، تح. بشار عواد وشعيب الأرناؤط وصالح مهدي عباس، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1408هـ/ 1988م؛ ● سير أعلام النبلاء، تح. بشار عواد ومحيي هلال السرحان، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1405هـ/ 1985م، الجزء الثاني والعشرون؛ ● الصفدي، خليل بن أيبك، صلاح الدين، الوافي بالوفيات، عناية س. ديدرينغ، فسبادن، دار النشر فرانز شتاينر، 1392هـ/ 1972م، الجزء السادس، الجزء الحادي والعشرون، عناية محمد الحجيري، فسبادن، دار النشر فرانز شتاينر، 1411هـ/ 1991م، الجزء الثاني والعشرون، عناية رمزي بعلبكي، فسبادن، دار النشر فرانز شتاينر 1404هـ/ 1983م. الجزء السابع والعشرون، عناية تغريد فاينترت، بيروت، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، 1977م؛ ● القفطي، علي بن يوسف، انباه الرواة على أنباء النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. القاهرة، دار الكتب المصرية، 1952م، الجزء الثاني؛ ● الكحال، صلاح الدين بن يوسف، نور العيون وجامع الفنون، تحقيق محمد ظافر الوفائي، الرياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، 1407هـ/

1987م؛ • المنذري، عبد العظيم بن عبد القوي، التكملة لوفيات النقلة، تح. بشار عواد، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1401هـ/ 1981م، ج 3؛ • النعيمي الدمشقي، عبد القادر بن محمد، الدارس في تاريخ المدارس، دمشق، مكتبة الثقافة الإسلامية، 1988م، جزآن.

د. محمد عيسى صالحية
جامعة اليرموك ـ الأردن

الخزرجي، صفي الدين أحمد بن عبد الله

(900هـ/1495م ـ 923هـ/1517م)

يمنيًا الدار والمنشأ، كان منذ صغره على مرتبة عالية من الذكاء والحفظ والإنضباط والإتقان.

آثاره

نظرًا لأننا لم نقف له على ترجمة وافية، فسوف نكتفي بالكلام عن الكتاب الوحيد الذي صنفه وسماه: «خلاصة تهذيب الكمال في أسماء الرجال» واشتهر باسم «خلاصة الخزرجي» على سبيل الاختصار. والكتاب لا يستغني عنه باحث ولا دارس في علم الحديث.

موضوع الكتاب هو علم رجال الحديث ومعرفة وفياتهم، ونحن نعلم أن علم الحديث النبوي الشريف قد خدم خدمة لا تقاربها خدمة أي علم آخر من العلوم. واعتني به من كل جانب من جوانبه. فألفت الكتب العديدة في جمعه وتدوينه، وفي صحيحه وحسنه، وفي ضعيفه وموضوعه، وفيما جاء منه في العقائد والعبادات والأحكام، وما جاء منه في المواعظ والآداب والفضائل، كما ألفت التآليف الجمة المتزايدة في ضبط ألفاظه، وفي ضبط أسماء رواته وتراجمهم وأنسابهم وبلدانهم ورحلاتهم وسني وفياتهم، وأسماء شيوخهم وتلامذتهم، وقويهم وضعيفهم، وجرحهم وتعديلهم، وشروطهم فيما دونوه، وما سلم لهم وما أخذ عليهم. وكما قال الإمام علي بن المديني: «التفقه في معاني الحديث نصف العلم، ومعرفة الرجال نصف العلم». وقال أيضًا: «أشد التصحيف التصحيف في أسماء الرجال».

وقيل أيضًا: أولى الأشياء بالضبط أسماء الناس، لأنه شيء لا يدخله القياس، ولا قبله شيء، ولا بد من شيء يدل عليه. وإذا كان هذا في الناس عموما فهو أولى وأحق فيمن نقل لنا الأحكام الاعتقادية والمسائل الفقهية المأخوذة من كلام خاتم النبيين وسيد المرسلين. ولذلك كان التعريف بهؤلاء النقلة من الواجبات التي قام بها قديما وحديثا أهل الحديث.

وأصل كتاب «الخلاصة» للخزرجي هو كتاب «الكمال في أسماء الرجال»، من تصنيف الشيخ عبد الغني المقدسي (ت 600هـ). وهو أول من جمع رجال الكتب الستة في كتاب.

ثم جاء المزي (ت 742هـ) فأصّل الكتاب وهذبه وأضاف إليه وسماه «تهذيب الكمال في أسماء الرجال».

ثم جاء تلميذه الذهبي (ت 748هـ) واختصر كتاب أستاذه المزي وسماه «تذهيب التهذيب» واختصره أيضًا العسكري (ت 750هـ).

وتوالى العلماء بعد ذلك ما بين مختصر ومزيد ومضيف وجامع ومؤلف أمثال: ابن كثير، (ت 774هـ)، وابن الملقن (ت 804هـ)، وسبط ابن العجمي الشافعي (ت 841هـ)، وابن قاضي شهبة (ت 851)، وابن حجر العسقلاني (ت 852هـ)، والحافظ تقي الدين أبي الفضل محمد بن محمد الهاشمي (ت 871هـ)، وجلال الدين السيوطي (ت 911هـ).

ثم كان الخزرجي ـ صاحب الترجمة ـ والذي استمد كتابه من: تهذيب الذهبي، وتقريب ابن حجر العسقلاني، وإكمال ابن ماكولا، والمؤتلف والإكمال للحافظ عبد الغني المقدسي، والجمع لأبي الفضل بن طاهر، والميزان للذهبي.

وكان من أهم الزيادات في هذا الكتاب ـ كما قال الخزرجي ـ ضبط الأسماء والنسب والألقاب، وعدد ما لكل صحابي من الأحاديث وما خرج له الشيخان إن كان ممن خرج لهم من الصحابة، وما انفرد به أحدهما. وقد تميّز الكتاب بمزايا هامة تهمّ العالم والمتعلم والمحدث والمؤرخ وهي:

ـ فيه ذكر أشهر شيوخ الراوي وتلامذته، مما يعين على تمييز الرجال الذين تشترك أسماؤهم وتتحد طبقتهم أو تتقارب، وفيه توسيع لدائرة المعرفة بالرجال.

ـ وفيه نقل كلمات علماء الجرح والتعديل بألفاظهم، وفي ذلك تبصرة للمتعلّم وتذكرة للعالم، بقواعد الجرح والتعديل ومراتبها ومدلولاتها، وفيه تعريف بهم وبمقاماتهم.

ـ وفيه ذكر أهم البلاد التي رحل إليها الراوي وأخذ عن أهلها أو أخذوا عنه فيها.

ـ وفيه ذكر بعض مناقب الراوي أو مآخذه، مما يزيد التعريف بقبوله أو رده.

ـ وفيه استيفاء المعرفة الموجزة بالراوي قبولا او ردا مع فصاحة العبارة وسلاستها وقصرها، فقد أوتي الخزرجي موهبة عظيمة في الاختصار الوافي.

ولهذا يقضي له بتفضيله على سواه مما نهج به منهجه.

وقال الخزرجي: «كتابنا هذا إنسان عين هذه المؤلفات الجليلة، يعرف ذلك من له معرفة تامة بالمقصود من هذا العلم، ورتبته على خلاف ما رتبوا، وهذبته على خلاف ما هذبوا، وجمعته لنفسي ولأبناء جنسي ـ والله العظيم ـ لا للرياء والمباهاة والإشكار والتصدر، وفوق كل ذي علم عليم».

المصادر والمراجع

● الخزرجي، صفي الدين أحمد الأنصاري اليمني، خلاصة تهذيب الكمال في أسماء الرجال، وعليه: إتحاف الخاصة بتصحيح الخلاصة. تأليف علي بن صلاح الدين الكوكباني الصنعاني (ت 1191هـ)، قدم للكتاب: عبد الفتاح أبو غدة، طبع دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان 1411هـ؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت 1979، الطبعة الرابعة؛ ● سركيس، يوسف إليان، معجم المطبوعات العربية والمعربة، مطبعة سركيس بمصر 1929.

خديجة محمد كامل
دار الكتب والوثائق المصرية
القاهرة ـ مصر

الخزرجي، أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن

(492هـ/1099م ـ 569هـ/1173م)

أحمد بن عبد الرحمٰن بن محمد بن الصفر الأنصاري الخزرجي، أبو العباس، فقيه ومحدّث وأديب، أصله من الثغر الأعلى من مدينة سرقسطة Zaragoza بالأندلس، حيث منازل الأنصار. انتقل جدّ أبيه إلى بلنسية Valencia فولد له بها ابنه عبد الرحمٰن، والد أبي العباس، ثم انتقل عبد الرحمٰن هذا إلى المرية Almeria، فولد بها أبو العباس.

يذهب أغلب المترجمين إلى أنّ مولده كان بالمرية في ربيع الأوّل 492هـ/1099م [الذيل والتكملة، 1/ 231؛ الأعلام للمراكشي، 9/ 78؛ الأعلام للزركلي، 1/ 46؛ أعلام المغرب العربي، 3/ 318]، وانفرد صاحب [المقتضب، 49] بجعل تاريخ ميلاده سنة 502هـ/ 1108م وتبعه في ذلك صاحب [هدية العارفين، 1/ 86]، مرتكبا خطأ في لقبه إذ سماه ابن الصغير.

رحل الخزرجي مع أبيه إلى سبتة وهو ابن سبع سنوات فأقام بها مدة، ثمّ تحوّل إلى مدينة فاس واستقرّ بها زمنا، قبل أن يستوطن مدينة مراكش [الديباج، 117].

عني به والده منذ صغره، فأسمعه كثيرا من الشيوخ، وشاركه في بعضهم، وعني هو بنفسه، واشتدّ طلبه للعلم، والحرص عليه، والتواضع في التماسه، شغفا به، فأخذه عن الصغير والكبير، واستكثر من ذلك حتّى اتّسعت روايته، وجلّت معارفه. فأصبح كما يقول ابن الخطيب محدثا مكثرا، ثقة، ضابطا، مقرئا، مجوّدا، حافظا للفقه، متقنا

لمسائله، عارفا بأصوله، متقدما في علم الكلام، عاقدًا للشروط، بصيرا بعللها، حاذقا بالأحكام، كاتبا بليغًا، شاعرًا محسنًا، جميل الخط [ابن الخطيب، الإحاطة، 3/ 183].

وقد أشار محمد بن عبد الملك المراكشي إلى نحو خمسين شيخا من شيوخه، الذين قرأ عليهم القرآن الكريم، وروى عنهم الأحاديث النبوية الشريفة، وتحمل عنهم العلم. فقد تلا القرآن برواية ورش أبي سعيد، على أبيه، وأكثر عنه، وأجاز له بهاق وتلا أيضًا على أبي عبد الله بن حسين التطيلي المقرىء، وهو أوّل من قرأ عليه. وتلا بقراءة نافع على أبي علي الحسن بن عبد الله المروي، وأبي عبد الله بن عبد الله، وبقراءة أبي عمرو على أبي عبد الله بن أحمد، وبالسبع على أبي العباس بن فيرة بن فضل اليحصبي، وأبي القاسم عثمان بن إدريس، الذي أخذ عنه أيضًا بعض مصنّفات أبي عمر الداني.

ومن شيوخه الذين روى عنهم الحديث، أبو إسحاق بن أبي الفضل بن صواب، وأبو بحر بن سليمان بن العاصي، وأبو بكر عبد الله بن عطية اليابري، وغالب بن عطية، وأبو بكر بن العربي، ويحيى بن عبد الله التجيبي، وقد استفاد بالتأكيد من رحلته إلى الأندلس، وتنقّله بين مختلف مدنها، ومدن المغرب الأقصى في سماع الشيوخ، ومنهم أبو القاسم خلف بن بشكوال، صاحب كتاب الصلة، وأبو محمد بن أحمد الوحيدي بمالقة Malaga، وعبد الحق بن عطية بغرناطة Granada، وابن علي سبط بن عمر بن عبد البر بأغمات وريكة، وعبد المجيد بن عبدون بمراكش، فأخذ عنهم قراءة وسماعا، كما سمع من أبي عبد الله بن أحمد الجياني البغدادي، وناوله، ومالك بن وهيب، ولازمه في مراكش.

بعدما أتمّ الخزرجي تعليمه بسبتة وفاس، انتقل إلى مراكش على عهد المرابطين، وتعرّف على أحد سراة لمتونة بها، وكان عاملا على دكالة فرغب منه أن ينقطع إلى صحبته ويخرج إلى عمالته، على أن يعطيه ألف دينار مرابطية، فرفض لحرصه على التفرّغ لخدمة العلم، ومداخلة الفقهاء، والانخراط في سلكهم [الجامعة اليوسفية، 151؛ الذيل والتكملة، 1/ 288].

وبعد هذا الاعتذار عين أبو عبد الله محمد بن حسون بن البزاز على قضاء مراكش فاستدعاه إلى الكتابة عنه سنة 527هـ/ 1132م لثقته به، ولما تحقّق قبل من حاله، فقدم عليه واستعمله إلى أن صرف عن الخطّة. واستقرّ الخزرجي بمراكش متوليا أحكامها، والصلاة بمسجدها إلى أن اختلت أحوال المرابطين. . . [الذيل والتكملة، 1/ 228].

ولما خبره أبو القاسم واستقضى أبو الفضل عياض بن موسى في غرناطة واستكتبه وآثره لصحبة قديمة ولقراءته عليه... وبقي معه إلى أن صرف عن الخطّة سنة 534هـ/ 1139م وعوّض بأبي عبد الله بن علي الأزدي الجياني، فقدمه إلى الأحكام والصلاة بوادي آش، فأقام بها نحو سنتين إلى أن توفّي أبو عبد الله المذكور سنة 536هـ/ 1141م فعاد إلى غرناطة [الذيل والتكملة، 1/ 226]. ثمّ عاد إلى مراكش حيث تولّى الكتابة للقاضي أبي عبد الله بن حسون، حينما أعيد هذا الأخير لمنصب القضاء في مراكش للمرّة

الثانية. وظلّ معه إلى أن صرف عن القضاء، فبقي أبو العباس متوليًا للأحكام والصلاة في مسجد مراكش، إلى أن اختلّت أحوال الدولة المرابطية، فاستعفى عن الأحكام، فأعفي، ورغب في التزام خطّة القضاء، فامتنع، وبقي على الإمامة بالجامع، إلى قيام دولة الموحّدين [المراكشي، الذيل والتكملة، 1/ 227 - 228].

وعندما دخل الموحّدون مدينة مراكش عانى محنة كبيرة نتيجة لاستباحة الموحّدين لهذه المدينة، فاضطرّ إلى الاختفاء، حتّى نودي بالعفو عمّن تبقّى فيها، فكان من القلائل الذين نجوا من هذه المحنة. لكنّه بعد ذلك نال احترام الخليفة عبد المؤمن بن علي (524هـ/ 1130م - 558هـ/ 1163)، الذي ألحقه بجملة طلبة العلم الملازمين لحضور مجلسه، وبالغ في الإحسان إليه، وعيّنه على الأحكام في مدينة مراكش، ثمّ ولّاه قضاء غرناطة، وبعدها قضاء إشبيلية Sevilla بصحبة ابنه وولي عهده أبي يعقوب يوسف وعندما أصبح الأخير خليفة (558هـ/ 1163م - 580هـ/ 1184م)، ألزمه خدمة الخزانة العلمية أو العالية، التي كانت من الخطط الجليلة، التي لا يعين لتوليها إلّا النخبة من رجال العلم وأكابرهم. وكانت مواهب وصلات الخليفة عبد المؤمن بن علي وابنه يعقوب إليه جزيلة ومتوالية، لكنه كان يصرفها جميعا للمحتاجين من معارفه وأهله، لما اعتاده من الزهد في حياته. ولم يكتسب شيئا من عرض الحياة الدنيا، وظلّ مقتنعا باليسير، راضيا بالبساطة في العيش، مع همّة عالية مصروفة إلى العلم وأسبابه، ونفس أبيّة، حتّى وفاته في مراكش يوم الأحد لثمان خلون من جمادى الأولى سنة 569هـ/ 1173م. وصلّى عليه القاضي أبو يوسف حجاج، ورثاه صديقه وجاره الطبيب والفيلسوف أبو بكر بن الطفيل بأبيات بعث بها من إشبيلية إلى ابنه أبي عبد الله.

تصدّر الخزرجي للتدريس وتلقين العلوم والمعارف وفضل ذلك في بعض الأوقات على القضاء والفتوى، وكانت العادة أن لا ينتصب للتدريس في الجوامع الكبرى إلا من انتهت إليه المهارة في العلم والدين في وقته. وكان الخزرجي يدرس الحديث والفقه والقراءات بمراكش، وتخرّج على يديه عدد من العلماء، منهم: ابنه محمد بن أحمد بن عبد الرحمٰن... الذي لازمه طويلا وأشرف على تعليمه وتثقيفه، وكان يقدمه لشيوخ العلم في المدن التي تصدر فيها للقضاء منذ صغره، واستجاز له عددا من العلماء الأفاضل [الذيل والتكملة، 8/ 263]؛ وأبو خالد يزيد بن يزيد بن رفاعة؛ وأبو محمد عبد الله بن محمد بن علي بن وهب القضاعي [الإحاطة، 1/ 1884؛ الدياج، 117].

واشتهر بجودة الخط، إذ كتب من دواوين العلم ودفاتره ما لا يحصى كثرة، وقد ساعده ذلك على نسخ المؤلّفات المهمّة وضمّها إلى مكتبته الغنيّة التي جمعها، إذ كان عنده منها عند توجهه إلى مراكش خمسة أحمال، وزاد في إغنائها خلال مقامه بالمدينة [الجامعة اليوسفية، 151].

ومن أمثلة شغفه بقراءة الكتب، أنه أثناء حصار مراكش، والحال به ضيق والسعر شديد، يخرج بالدرهم ليشتري به قوتا لنفسه

وعياله، فربّما صادف في طريقه كتابا بيد إنسان فيشتريه منه بذلك الدرهم، ويرجع دون قوت ويبقى هو وعياله طاويا إلى أن ييسّر الله في غيره [الذيل والتكملة، 1/ 229]. وهكذا استطاع أن يجمع عددا كبيرا من الكتب، قيل إنه أخذ منها خمسة أحمال إلى غرناطة، حينما توجّه إليها مع القاضي أبي حمزة. وممّا يؤسف له أنّ هذه الأحمال الخمسة فقدت، حينما تعرّضت غرناطة لفتنة داخلية بين أهل البلد، والحامية المرابطية في المدينة. وبعد تغلّب الحامي، استبيحت المدينة ونهبت، وتعرّضت دار أبي العباس إلى هذا النهب، ولم يبق فيها شيء من الكتب وغيرها. كذلك فقد أبو العباس مجموعة أخرى من كتبه في أثناء افتحام مراكش من قبل الموحّدين سنة 541هـ/ 1146م.

■ آثاره

على الرغم من قول ابن عبد الملك المراكشي أنه «كتب من دواوين العلم ودفاتره ما لا يحصى كثرة وجودة»، لكنّه لا يشير إلّا إلى اثنين من مؤلّفاته فقط [الذيل والتكملة، 1/ 225، 227، 230]، وهما:

1 - شرحه لكتاب الشهاب في الآداب والأمثال والمواعظ المروية عن رسول الله ﷺ، وهو بالأصل من تأليف أبي عبد الله بن محمد بن سلامة بن جعفر القضاعي [ابن خير، فهرسة، ص182]؛ 2 - كتاب أنوار الأفكار فيمن حلّ جزيرة الأندلس من الزهاد والأبرار. ولكنّه توفّي قبل إتمام هذا الكتاب، فأكمله، وهذّبه، ونقّحه، ورتّبه، أبو عبد الله ابنه. وقد اطّلع ابن عبد الملك المراكشي على هذا الكتاب، وأخذ معظم أخبار أبي العباس عنه. ويبدو من عنوانه، أنّه كان مختصّا بالتراجم للزهاد والعلماء الصالحين الذين حلّوا في الأندلس.

■ المصادر والمراجع

● ابن الأبّار، التكملة لكتاب الصلة، نشر عزت العطار الحسيني، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1955 - 1956، 1/ 76؛ ● ابن الأبّار، المقتضب من كتاب تحفة القادم، تح. إبراهيم الأبياري، ط2، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1983، ص 102؛ ● ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، تح. محمد بن شريفة، بيروت، دار الثقافة، السفر الأوّل، 1/ 223 - 232؛ ● ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تح. محمد عبد الله عنان، ط2، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1973، 1/ 182 - 186؛ ● ابن فرحون، الديباج المذهّب، تح. محمد الأحمدي أبو النور، القاهرة، دار التراث، 1972م، 1/ 211 - 214؛ ● الصفدي، الوافي بالوفيات، باعتناء إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1969، 7/ 47 - 48؛ ● المقّري، نفح الطيّب من غصن الأندلس الرطيب، تح. إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1968، 3/ 333، 4/ 319؛ ● العباس بن إبراهيم، الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، المطبعة الملكية، الرباط، 1974 - 1983، تح. عبد الوهاب بن منصور، فهرسة د. حسن

جلاب، 2002م؛ ● الزركلي، الأعلام، قاموس تراجم، دار العلم للملايين، بيروت 1980م؛ ● ابن منصور، عبد الوهاب، أعلام المغرب العربي، المطبعة الملكية 1983؛ ● المراكشي، الجامعة اليوسفية بمراكش في تسعمائة سنة، تح. وتقديم د. حسن جلاب، ط. مراكش، 2001م.

د. حسن جلاب
كلية اللغة العربية - مراكش - المغرب
د. عبد الواحد ذنون طه
جامعة الموصل - العراق

الخزرجي، محمد الطيب الأنصاري

(1296هـ/ 1879م - 1363هـ/ 1943م)

ينتسب إلى بني ساعدة من الخزرج من الأنصار، واسمه محمد الطيب ابن إسحاق بن الزبير بن محمد بن محمد بن البشير، وقد هاجر أحد أجداده إلى المغرب والأندلس، وبعد تجوال في أرجائها استقر في مدينة السوق في الصحراء الكبرى، وبعد أن خربت تلك المدينة في القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر ميلادي تفرق سكانها فنزلت كل عشيرة أو قبيلة منزلاً خاصًا بها متحالفة مع إحدى قبائل الطوارق.

وفي أحد تلك المنازل والتي عرفت باسم المراقد ولد محمد الطيب الأنصاري سنة 1296هـ/ 1879م، ونشأ في كنف والده الذي كان من العلماء المعروفين بالورع والزهد، وبعد وفاة والده كفله خاله الشيخ المبارك محمد المختار الأنصاري.

حفظ محمد الطيب الأنصاري القرآن على الشيخ محمد بن أحمد، ثم اتجه إلى دراسة العلوم الشرعية وبرع فيها، وتلقى العلم على عدة مشايخ في طليعتهم خاله الشيخ المبارك محمد المختار الأنصاري فأخذ عنه الفقه المالكي والنحو واللغة والحديث والتفسير، ومنهم الشيخ أحمد بن عبد الهادي الذي درس عليه الأدب والمنطق، والشيخ أحمد بن الأحمر الذي درس عليه علم الأصول، وأخذ الإجازة في الصحاح الستة من الشيخ الأمين.

وتولى منصب القضاء عندما بلغ العشرين من عمره، وكان ممن تصدوا للاستعمار الفرنسي فقد اشترك في إحدى المعارك التي جرت بين القوات الفرنسية والمواطنين وكاد أن ينال الشهادة في تلك المعركة، ولما أخفقت جهود عشيرته في طرد المستعمرين أجمعوا على العودة إلى المدينة المنوّرة فرارًا بدينهم، فعادوا إليها سنة 1325هـ/ 1907م.

بعد أن استقر به المقام في المدينة المنورة تولى منصب رئيس المدرسين بمدرسة العلوم الشرعية، ثم عيّن مدرّسًا بالمسجد النبوي،

ومراقبًا للمدرسين. وقد ظل يشغل هذا المنصب حتى وفاته، وكان قد أوكل إليه تدريس علم التوحيد بالمدرسة الحكومية في المدينة المنورة. وكان سلفي العقيدة مالكي المذهب إلا أنه كان على دراية تامة بالمذاهب الثلاثة الأخرى، وكان يدرّسها لطلبته.

وذاعت شهرة محمد الطيب الأنصاري في المدينة المنورة وأقبلت أفواج الطلاب على الالتحاق بحلقته فاتسعت وتضخّمت بجموع الوافدين، ولُقب بشيخ المدينة، وعالم الحرمين، ويذكر تلميذه عبد القدوس الأنصاري أن خلافًا نشب في مسألة نحوية بين طلبة الشيخ وطلبة شيخ آخر، فلما استحكم الخلاف وانتصر طلبة الشيخ الأنصاري نظم تلميذه محمد عمر البري قصيدة خاطب فيها شيخه قائلاً:

متى انسخت أفكارُ حاسد نعمة
فصبنه «بالصبان» بعد يقارب

ويقصد بالصبان هنا شارح الألفية. وكان محمد الطيب الأنصاري يرى أن إتقان علم النحو واستيعاب مسائله هو الطريق لإتقان غيره من العلوم.

كان يحثُّ تلاميذه على استعادة أمجاد الإسلام بقوله: «فأنتم يا أبنائي الأعزاء حفدة أولئك المجاهدين الأبطال وأبناء أولئك العلماء العباقرة فجدّدوا مجدهم بالعلم القوي والخلق القوي والعمل القوي فما يتجدّد مجد الأمة إلا بالعلم الرشيد والعمل الرشيد»، كما كان يشجعهم على قول الشعر وينتقدهم إذا أخطأوا ويرشدهم إلى طرق التفوّق في صياغة النثر.

ويعبر عن ذلك تلميذه ضياء الدين رجب قائلاً: «كنت أنظم الشعر وأعرضه عليه، فألاقي تشجيعه وإرشاده وتحبيذه حتى اشتدّ ساعدي، وحينئذ أخذ يتابعني بنقده القاسي المرير، وكأنما انتهى عنده دور التشجيع، وجاء دور التمحيص والتمكين، فلا يغفل الزلة ولا يقبل الضرورة، ومشيت معه ومشى معي على هذا النهج حتى قرأت عليه قصيدة فقال بعد أن سمعها: أنت اليوم شاعر، ويكفيك ما وصلت إليه من الشعر، وقد قال الناس عنك إنك شاعر وقالوها بحق، ولكني أحب أن يقول الناس عنك ضياء العالم فلتشدّ عزمك في الفقه والأصول والحديث فأمامك الفتيا والقضاء ينتظرانك».

وقال عنه تلميذه عبد القدوس الأنصاري: «ومع أن العلم الذي زاول الشيخ نشره هو العلم العربي المحض من نحو، ولغة، وبيان، وأدب، وفقه، وحديث، وتفسير، فقد ساير طلابه النهضة الحديثة وكان بعضهم من روادها ومن بناتها، وما كانوا مطلقًا أقل في هذا الميدان من زملائهم الآخرين».

وكان محمد الطيب الأنصاري يرى التدريس أكثر فائدة من التأليف وقال في ذلك: «إن إماما من الأئمة عندما طلب إليه أن يترك وراءه مؤلفات، أجاب بأنّ مؤلفاته هي تلاميذه»، ومن أشهر تلاميذ محمد الطيب الأنصاري الذين نبغوا في شتى المجالات على سبيل المثال لا الحصر: أسعد طرابزوني الحسيني، وإسماعيل مصطفى حفظي، وأمين مدني، وأبو بكر محمد أحمد الشريف، وسيف بن سعيد اليماني، وضياء الدين رجب، عبد الله المحمود المدني، وعبد

القدوس الأنصاري، وعبد المجيد الجبرتي إمام المسجد النبوي، وعبيد مدني، ومحمد علي الحركان، ومحمد عمر البري، ومحمد المختار الكنتي وغيرهم كثير.

عرف عنه حبه لبلده المدينة المنورة وتفضيله الإقامة بها على غيرها، ولم يخرج منها إلا لأداء فريضة الحج، وقد حج خمس مرات، وحينما اشتدت عليه وطأة مرضه الأخير رفض الخروج من المدينة المنورة للعلاج، وظلّ متمسكًا بالإقامة بها حتى وافته المنية في السابع من جمادى الآخرة سنة 1363هـ ودفن في البقيع، ووردت ترجمة عنه في الأعلام للزركلي، وفي الموسوعة الإسلامية The Encyclopaedia of Islam 1986, pp. 994-1007.

■ آثاره

ترك محمد الطيب الأنصاري العديد من المصنفات منها:

1 ـ الدرة الثمينة في النحو، نظم بها كتاب شذور الذهب لابن هشام، وقد أعدها لطلابه سنة 1335هـ/ 1916م، ثم قامت لجنة منهم بطباعتها في المطبعة الماجدية بمكة المكرمة سنة 1354هـ/ 1936م؛ 2 ـ البراهين الموضحات في نظم كشف الشبهات في التوحيد، طبع في مطبعة صحيفة المدينة المنورة؛ 3 ـ الدلائل اليقينيات في الفرق بين كرامة الأحياء والأموات، الطبعة الأولى، مطبعة الحكومة بمكة المكرمة، 1360هـ/ 1940م، الطبعة الثانية 1409هـ/ 1989م، طبعه ابنه عبد الرحمان؛ 4 ـ اللآلئ الكمينة في شرح الدرة الثمينة، مطبعة المدني، القاهرة 1381هـ/ 1962م؛ 5 ـ تسهيل الوصول إلى الثلاثة الأصول، ويليه: تسهيل الحفظ والوصول نظم الثلاثة الأصول، نظمها عمر بن إبراهيم البري، دار البشائر الإسلامية، بيروت 1419هـ/ 1989م؛ 6 ـ قام بتحقيق كتاب عمدة الأخبار في مدينة المختار للشيخ أحمد بن عبد الحميد العباسي، الإسكندرية، د.ت؛ 7 ـ السراج الوهاج في اختصار صحيح مسلم بن الحجاج، مخطوط مفقود؛ 8 ـ التحفة البكرية في نظم الشافية في الصرف، شافية ابن الحاجب، مخطوط؛ 9 ـ تحبير التحرير في اختصار تفسير الإمام ابن جرير.

د. عبد الرحمن الطيب الأنصاري
جامعة الملك سعود - المملكة العربية السعودية

الخزرجي، موفق الدين أبو الحسن علي بن الحسن

(ت 812هـ/1410م)

هو موفق الدين أبو الحسن علي بن الحسن بن علي بن وهّاس الخزرجي الزبيدي الشافعي الأنصاري؛ يعرف بابن النقاش وينتسب إلى قبيلة الخزرج.

لا تذكر المصادر تاريخ ولادته ولا المدينة التي ولد بها، ولكنه ينتسب إلى مدينة زبيد فلقب بالزبيدي، وقد أكدت المصادر على نسبته إلى زبيد، وكان يفتخر بانتسابه إلى اليمن كما في قوله: «وكنت بحمد الله رجلا من اليمن منشأ ومولدا ومسكنا» [العقد الفاخر الحسن في طبقات أكابر اليمن، الورقة 3ب].

وأشارت مصادر ترجمته إلى أنه توفي سنة 812هـ/ 1410م بعد أن جاوز السبعين، وبذلك يكون مولده بين 738هـ/ 1337م وسنة 741هـ/ 1340م.

عاش الخزرجي في عصر الدولة الرسولية. وكانت علاقته وثيقة بالملك الأشرف إسماعيل بن رسول (ت 803هـ/ 1400م) إذ قربه وأحسن مثواه.

وقد عرف عن بني رسول حبّهم للعلم والعلماء واهتمامهم بهما. لذلك حظي الخزرجي بعناية ورعاية من الملك الأشرف. ومما يؤكد هذه العلاقة التي تربط الخزرجي بمليكه أنه قال إن الأشرف انتدبه للحج نيابة عن والدته، ولما رجع سامحه بخراج أرضه ونخله مسامحة مستمرة [الخزرجي، العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، 2/ 175].

لم ينل الخزرجي عناية من قبل المؤرخين قديما وحديثا، فليس هناك من ذكر شيوخه ولا تلاميذه؛ وعلى الرغم من هذا الإغفال فإن مكانة الخزرجي العلمية برزت من خلال إشارات لمن ترجم له أنه شارك في علوم كثيرة وبرع فيها كاللغة والأدب والحديث والفقه والنحو والأنساب والتاريخ. فقال عنه العيني: «وكان قد اشتغل بالأدب ناظما وناثرا، وكان متولّعا بالتاريخ» [عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، 20/ الورقة 302]. وقال السخاوي: «اشتغل بالأدب ولهج بالتاريخ فمهر به» [الضوء اللامع، 5/ 210]. وذكره ابن العماد الحنبلي فقال: «وكان ناظما ناثرا» [شذرات الذهب، 7/ 97].

ويبدو من أقوال مترجميه أن اهتمامه الأول كان بعلم التاريخ. يؤكد هذا قوله في مقدمة تاريخ اليمن: «حداني على جمعه ما رأيت من إهمال الناس لفن التاريخ مع شدة احتياجهم إليه وتعويلهم في كثير من الأمور عليه، لما يندرج في ضمنه من المواعظ والآداب وتفصيل شوابك الأرحام والأنساب؛ ولولا معرفة التاريخ ما اتصل أحد من الخلف بشيء من أخبار السلف، ولا عرف فاضل من مفضول، ولا امتاز معروف عن مجهول».

إن اهتمامه بعلم التاريخ وظفه للاهتمام بتاريخ بلده اليمن؛ يدل على ذلك قول حاجي خليفة: «عني بأخبار اليمن، فجمع تاريخا على السنين، وآخر على الأسماء، وآخر على

الدول». كما كتب تاريخا لمدينتي زبيد وعدن، وأرّخ للدولة الرسولية حتى وفاة الملك الأشرف (803هـ/ 1400م).

ونظرا إلى هذا الاهتمام بالتاريخ أصبح الخزرجي من مؤرخي اليمن البارزين من حيث سعةُ اطلاعه وكثرة معارفه؛ وقد أثنى عليه ابن حجر (852هـ/ 1448م)، وكان قد اجتمع به في زبيد، فقال: «فوجدته بحرا لا تكدِّره الدِّلاء، وجوهرة تتلألأ على مفرق الخضراء».

آثاره

1 ـ العقد الفاخر الحسن في طبقات أكابر اليمن. ويسميه السخاوي باسم «طراز أعلام الزمن في طبقات أعيان اليمن» [الضوء اللامع، 5/ 210]؛ ويقع هذا الكتاب في أربعة مجلدات تشتمل على مقدمة في سيرة الرسول مع تراجم الأعيان مرتبة على 28 بابا على حروف المعجم. ويلي ذلك بابان: أحدهما للكنى، والآخر لأسماء النساء؛ وسماه السخاوي تاريخ اليمن [الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، 25]. وقد اقتبس الخزرجي، كما صرح في العقد الفاخر، أكثر معلوماته من الجندي (ت 733هـ/ 1332م) قال: واعلم أيها الناظر وفقنا الله وإياك أن كتابنا هذا إنما هو مأخوذ في الغالب من كتاب الفقيه الإمام الفاضل وحيد عصره وفريد دهره أبي عبيد الله محمد بن يعقوب بن يوسف الجندي الملقب بهاء الدين صاحب التاريخ المعروف، وأنه إمامنا وشيخنا المذكور. وإنما تبعنا إثره وصدقنا خبره واغترفنا من فضالته وشربنا بدلالته. ولولاه ما خضنا هذا البحر العميق، ولا وجدنا إلى هذا المنزل طريق. وقد حقق (الفترة 575هـ ـ 801هـ) من هذا الكتاب قاسم عبد الحسين، في نطاق رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي سنة 2001 من معهد التاريخ العربي؛ 2 ـ الكفاية والإعلام فيمن ولي اليمن وسكنها في الإسلام، والكتاب خاص بتاريخ اليمن وملوكها وعلمائها. رتبه الخزرجي حسب الدول التي حكمت اليمن. يبتدئ بالباب الرابع في ذكر ملوك اليمن وملوك صنعاء وعدن، وقد جعله في عشرة فصول تبدأ بظهور الإسلام وتنتهي بقيام دولة بني زريع (476هـ/ 1083م ـ 569هـ/ 1173م)؛ والباب الخامس خصصه لتاريخ مدينة زبيد ومن حكمها؛ وأرخ من عصر بني زياد (204هـ/ 819م ـ 412هـ/ 1021م) إلى عصر الملك الأشرف بن رسول (ت 803هـ/ 1400م). حققه قاسم جواد من كلية التربية، جامعة بغداد 1995، رسالة ماجستير، الفترة من 1هـ ـ 531هـ؛ 3 ـ مرآة الزمن في تاريخ زبيد وعدن، [هدية العارفين 1/ 726]؛ 4 ـ كتاب المحصول في انتساب بني رسول. ويرى الحبشي أنه ألفه بقصد دفع الأقوال التي ترجع نسب بني رسول إلى التركمان [مصادر الفكر العربي في اليمن، 418]؛ 5 ـ العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية. يبتدئ بالكلام عن نسب بني رسول وينتهي بوفاة الملك الأشرف سنة 803هـ/ 1400م، وقد اقتبس الخزرجي معلومات هذا الكتاب من ثلاثة كتب هي: السيرة المظفرية، والعقد الثمين، وتاريخ الجندي [تاريخ اليمن: عمارة اليمن، مقدمة الكتاب لهنري كسلي]؛ وكتاب العقود اللؤلؤية مرتب على السنين والدول حيث يذكر

حوادث ووفيات كل سنة متبعا نظام الحوليات. ترجم هذا الكتاب إلى الإنكليزية ونشره أربعة مستشرقين هم: ريدهوس، وبراون، ونيكلسون، وروجرس؛ أما الأصل العربي فقد نشره محمد بسيوني عسل سنة 1914 في مجلدين؛ 6 ـ أعمال وديوان شعر، لم يعثر عليها إلى حد الآن . . . الخ.

المصادر والمراجع

● العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر، إنباء الغمر بأبناء العمر، ط. حيدر آباد الدكن، 6/ 190؛ ● السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، بيروت، مطبعة دار مكتبة الحياة، 5/ 210؛ ● م. ن، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، تح. فرانز روزنثال، ترجمة صالح أحمد العلي، بغداد 1963، مطبعة العاني، ص 160، 227؛ ● الربيع، عبد الرحمٰن بن علي: بقية المستفيد في تاريخ مدينة زبيد، تح. عبد الله محمد الحبشي، صنعاء 1979، مركز الدراسات اليمنية، ص13؛ ● م. ن، قرة العيون بأخبار اليمن الميمون، تح. محمد بن علي الأكوع، القاهرة، المكتبة السلفية، 19؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، بغداد، منشورات مكتبة المثنى، 1/ 310؛ ● ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت، دار المسيرة 1979، 7/ 97؛ ● اليمني، محمد بن محمد بن يحيى، الملحق التابع للبدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، القاهرة 1929، 161؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين، إستانبول 1927، مطبعة المعارف، 1/ 728؛ ● الحبشي، عبد الله، مصادر الفكر العربي، 417 ـ 418؛ ● سيد، أيمن فؤاد، مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة 1974، 7/ 161 ـ 165؛ ● الزركلي، الأعلام، ط 14، بيروت 1999، دار العلم للملايين، 4/ 374.

د. نبيلة عبد المنعم داود
مركز إحياء التراث العلمي العربي ـ بغداد

خزندار، محمد الشاذلي

(1299هـ/ 1881م ـ 1373هـ/ 1954م)

محمد الشاذلي خزندار الملقب بشاعر الخضراء هو ابن أمير الأمراء محمد بن المنجي بن الوزير الأكبر بالمملكة التونسية (سابقًا) مصطفى خزندار. ولد بمنّوبة (من ضواحي تونس) عام 1299هـ/ 1881م الذي أعلنت فيه تونس محميّة فرنسية. نشأ في قصر جدّه الوزير الأكبر ومكّن فيه من تعليم خصوصيّ على عادة أعيان الإيّالة. فتتلمذ على

أفضل شيوخ العصر ومنهم الشيخ عثمان بن المكّي والشيخ علي ساسي ولكنّه انقطع مدّة سبع سنوات إلى الشيخ الطيّب بوشناق من عام 1314هـ/ 1896م فتلقّى على يديه علوم القرآن والحديث والأدب والعروض. ويذكر محمد محيي الدين القليبي [مقدمة الديوان، 1/ 12] أنّ والده قد اعتكف في بيته واعتزل الناس في آخر حياته وألزم ابنه الاعتزال فانقطع الشاعر بعض الوقت لا يغادر القصر.

في عام 1330هـ/ 1912م عيّن في سلك ضباط القصر برتبة ملازم وتلقّى تكوينا عسكريا مكّنه من أن يرقى إلى رتبة "يوزباشي" فرتبة "بينباشي". ولم تمنعه وظيفته العسكرية من الاشتغال بالأدب وكان يلتقي مع صديقه الشاعر مصطفى آغة والأمير الشاعر محمد الصالح باي. وما فتئ أن صار شعره مؤثرًا في العامة مزعجًا الخاصة حتّى كانت حادثة إيقافه وسجنه لأجل قصيد قاله في حفل لتكريم الزعيم الوطني عبد العزيز الثعالبي.

وبعد خروجه من السجن هدّد بالاستقالة ولكنّ محمد الناصر باي الذي سيعرف بمواقفه الوطنية فيما بعد، سمح له بالانخراط في الحزب فكان عضوا فيه نشيطًا وساهم في تقريب ما بين البلاط والشعب من خلال إقناع الباي بالاستماع إلى مطالب الحزب الحرّ الدستوري التونسي (وكان الباي من المنخرطين فيه: بطاقة عدد 495 لعام 1340هـ/ 1922م). بل ساعد على أن يكون الباي ورقة ضغط على فرنسا كي تنفّذ ما طالب به الوطنيون من إصلاحات. وقد هدّد الباي بالتنازل على العرش إن لم تلبّ فرنسا مطالب الشعب بإقرار دستور للبلاد.

وقاد توتّر الأحداث بين الإقامة العامّة من ناحية والحزب والباي من ناحية أخرى إلى أحداث يوم الخميس 3 شعبان 1340هـ/ 5 أفريل (نيسان) 1922م وما شهدته البلاد من مسيرات تأييد للباي. ولكنّ المقيم العام طوّق قصر الباي وفرض طرد من كانت تعتبرهم فرنسا، من آل البلاط، متسبّبين في الأزمة وهم الشاذلي خزندار وأبناء الباي وخصوصًا منصف [المستيري، المنصف باي، 28]. وهكذا عزل خزندار وأقصي من القصر نهائيًا إثر موت محمد الناصر في السنة نفسها.

تفرّغ بعد عزله لتدريس العروض ونظم الشعر وللعمل الحزبي. ولم يعد خزندار إلى البلاط إلّا بعد اعتلاء المنصف باي بن محمد الناصر باي العرش يوم 19 جوان 1361هـ/ 1942م فقد اعتمد هذا الباي الوطنيّ في أيّام حكمه المعدودة على الحزبيّين الذين صار لهم رصيد نضالي فاستدعى الشاذلي خزندار وجعله مستشاره وشغل معه هذه الخطة علي كاهية وصالح فرحات وهم جميعا من أعضاء الحزب الدستوري المؤسسين. وفي يوم 20 أوت 1942 منحه الباي نفسه لقب "أمير الأمراء" الفخري.

عمل خزندار بحماسة مع هذا الباي ومع حكومة وطنية هي حكومة محمد شنيق (جانفي 1943). ولكن الأمر لم يدم طويلاً لهذا الباي الذي خلعته فرنسا بتهمة مزيّفة هي التعامل مع المحور (14 ماي 1943). وكانت التهمة الحقيقية المطالبة بحقوق أكبر للتونسيين كالتسيير الإداري. وفي منفاه بفرنسا زاره خزندار أكثر من مرّة قبل أن يتوفّى بمنفاه 28 شوال 1367هـ/ 1 سبتمبر 1948م. وكانت بينه وبين الباي المخلوع مراسلات وصف فيها

الباي مستشاره وشاعره بالوفاء والوطنية. توفي الشاذلي خزندار سنة 1373هـ/ 1954م.

آثاره

ترك خزندار مجموعة أشعار ضخمة نشرت تباعا في ثلاثة أجزاء .الجزء الأوّل منها نشر بتقديم محيي الدين القليبي في عام 1924. أما الجزء الثاني فقد قدّم له زين العابدين السنوسي وصدر أوّل مرّة عام 1925 عن مطبعة العرب بتونس. أما الجزء الثالث فقد نشره نجل الفقيد المنجي خزندار وسمّاه المنصفيّات جمع فيه قصائد أغلبها في المنصف باي في زمني الحكم والنفي.

شعره مختلف الأغراض من مدح أصحاب النفوذ في العائلة الحسينية ورثائهم إلى الغزل والإخوانيات ولكنّ أكثر ما يلفت الانتباه هو الوطنيّ منه. فهو مفعم بالحماسة والروح النضالية من أجل قيم سياسية مثلى. ولهذا الضرب من الشعر قيمة أخرى هي بالأساس وثائقية إذ تسجّل مراحل حاسمة من الكفاح التونسي في فتره عصيبة شهدت عالميًا استبداد الدول العظمى بأمم حاجتها إلى الحرية متأصلة وقديمة. ولعلّ أطرف ما في هذه المسألة أنّ أشعاره كانت شاهدًا على مواقف رسمية وطنيّة كالتي وقفها الباي محمد الناصر وابنه الملك الطريد المنصف باي.

والقيمة الفنّية في شعره متفاوتة قد يضعفها في الغالب البحث عن احترام القوالب العروضية دون سواها. ويبرز هذا الوهن خصوصا في القصائد الطوال. ويشكو غالب شعره من فقر ملحوظ في التصوير الفني ومن إحكام الترابط بين المعاني إذ لم يخرج شعره سالمًا من أسر وحدة البيت. ويمكن أن يعتذر للشاعر بطبيعة جمهوره إذ كان يرفض نخبويّة الأدب ويطمع في جمهور أوسع يستنفره ويحمّسه لقضايا الوطن الجريح. لكنّنا إذا التفتنا إلى شاعر عاصره بعض الوقت هو أبو القاسم الشابي تأكّد لنا أنّ الشاذلي خزندار كان نمطا آخر أكثر واقعية وبالتالي أكثر أسرا للراهن على خلاف الشابي الذي كان كوني المشاعر إنساني الحلول. هكذا فإن خزندار الملقب فخرا بأمير الشعراء كان شاعر الأمراء ولكن الوطنيين منهم.

المصادر والمراجع

● خزندار، محمد الشاذلي، ديوان خزندار، الدار التونسية للنشر، تونس 1972 ج1، ج2؛ ● م.س، ديوان محمد الشاذلي خزندار ـ المنصفيات ـ، نشر بعناية المنجي خزندار، تونس 1991م، ج3؛ ● السنوسي، زين العابدين، الأدب التونسي في القرن الرابع عشر، الدار التونسية للنشر، تونس، د.ت، 1/ 25 ـ 45؛ ● الجابري، محمد الصالح، ديوان الشعر التونسي الحديث (تراجم ومختارات)، الشركة التونسية للنشر والتوزيع، تونس 1976، ط1، ص29 ـ 39؛ ● م.س، الشعر التونسي المعاصر، الدار العربية للكتاب، ليبيا ـ تونس 1989، 2/ 33 ـ 41؛ ● المستيري، سعيد، المنصف باي، تح. هشام القروي، دار الأقواس للنشر، تونس 1991م.

د. توفيق قريرة
جامعة منوبة ـ تونس

الخزنداري، قَرَطاي العِزّي

(ت. بعد 708هـ/1308م)

قرطاي العِزّي الخزنداري. لا نعرف تاريخ مولده، ولا مراحل نشأته، أو ظروف تعلّمه العربية وهو تركيّ الجنس، إذ لم يذكره أحدٌ من مؤلّفي كتب التاريخ والتراجم والرجال، فلا نجده في «أعيان العصر وأعوان النصر» الذي جمع فيه الصفدي (ت 774هـ) تراجم رجال عصره، ولا في موسوعته «الوافي بالوفيات»، ولم يذكره الحافظ ابن حجر العسقلاني (ت 852هـ) في «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» مع أنه من المتوفّين في القرن الثامن وهو من شرطه، ولم يُذكر بين المؤلّفين في «تاريخ الأدب العربي»، ولا في «معجم المؤلّفين»، ولا في الموسوعات الثلاث: «كشف الظنون»، و«إيضاح المكنون»، و«هدية العارفين».

وللتعرُّف على قَرَطاي ينبغي العودة إلى مؤلّفه «تاريخ مجموع النوادر مما جرى للأوائل والأواخر»، وبالتحديد في جزءيه اللذين بقيا من أصل خمسة أجزاء، وهما الأول والرابع، ومنهما عرفنا أنه يؤرّخ من بدء الخليقة إلى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون، حتّى سنة 708هـ. وهو عاش معظم حياته في مصر، وفيها نشأ، وأخذ علومه، وتعلّم العربية، وكتبها، واهتمّ بالتأريخ، وأجاد الأدب ونظْم الشعر، بدليل الأبيات التي نظمها في مدح مصر والقاهرة مُعارضًا فيها أبياتًا لأحد الأدباء، وهو يمدح دمشق وما حولها، وأكّد فيها قَرَطاي على محبّته لمصر وتغنّيه بها، فكان مواطنًا مصريًا، عربيّ اللسان، قاهريّ الهوى، تركيّ الأصل، وأنه كان مطالعًا جيّدًا في كتب التاريخ والأمم، وكتب الأدب، والمعارف العامة، والسِّيَر، والتراجم، والفوائد، والجغرافيا، والحديث، فضلاً عن القرآن الكريم. وتوفّر تحت يده مجموعة من الكتب التي كوّنت ثقافته، مثل كتاب «الأغاني»، وكتاب الدامغاني (ت 478هـ)، وكتاب «مفرّج الكروب» لابن واصل (ت 697هـ)، وكتاب «مُزيل الغم فيما جرى ببلاد العجم»، و«تاريخ الطبري»، و«المنتظم» لابن الجوزي(ت 597هـ)، و«أخبار الزمان» للمسعودي (ت 345هـ)، وكتاب للزمخشريّ (ت 538هـ) لعلّه «ربيع الأبرار»، وكتاب للواقديّ (ت 208هـ)، وكتاب لابن قُتيبة (ت 276هـ)، وكتاب «انشراح الصدور وتذكار أهل القبور».

لكنه، رغم مطالعاته ودرايته بالعربية، فقد ظلّ يلْحَنُ باللغة والنحو، ولذا نجد الأغلاط الكثيرة في كتاباته، لُغويًا ونحْويًا، وتنحدر لغته في بعض الأحيان إلى لغة العوامّ، شأنه شأن الكثيرين من أمثاله المؤرّخين الأتراك المستعربين، غير أنّ عاميّة عبارته في بعض الأحيان، وضعف لغته، لا يقلّلان من أهمّية كتابه الضخم الذي تَعِبَ في جمع مادّته، وتفرّد بالنقل عن مصادر لم تقع لغيره، فهو لم يكن فريد عصره من المؤرّخين بعاميّته

وركاكة لُغته، بل هي السِمة السائدة لدى الكثير من مؤرّخي عصر المماليك، وخاصّة من كان منهم من أصولٍ تركية، وغير عربيّة، وهو واحد منهم، ويُشبهه في عاميّته وضَعْفه في اللغة والنحو مؤرّخون عرب، من أبوين عربيّين، ومن أرومة عربية الجدود والنسب.

وفي الجزء الأوّل من كتابه «تاريخ مجموع النوادر» أوضح سبب تأليفه فقال: «سألني بعض الفضلاء أن أنظم (هكذا) له تاريخًا مختصرًا يستريح به في خلوته وينشرح صدره بمطالعته، فكان أوّل ما نبتد (هكذا) به ذكر الأنبياء... إلى أن وصلتُ إلى سيرة مولانا السلطان الأعظم الملك الناصر ملك البسيطة محمد بن السلطان الملك المنصور الشهيد قلاوون الصالحي، تغمّده الله برحمته إلى سنة ثمانٍ وسبعمائة»

يتناول الجزء الأول من تاريخ بدء الخليقة إلى وفاة الخليفة الأمويّ «عمر بن عبد العزيز» المُتوفّى سنة 101هـ. أمّا الجزء الرابع فيبدأ ـ كعنوان ـ بسنة 626هـ. ولكنّه في واقع الأمر يعود بحوادثه إلى سنة 615هـ. فهو يضع السنة عنوانًا، ولكنّ الأخبار التي تحت العنوان متقدّمة كثيرًا، عنها، وأحيانا يكون الفرق بين سنة العنوان وسنة الخبر يزيد على القرن وأكثر. فتحت عنوان سنة 626هـ، مثلاً، يُدرج وفاة الأمير «مقلّد الدولة صاحب صرخد» والصواب أنه توفّي قبل ذلك بمدّة طويلة، في سنة 450هـ. وقيل 435هـ، ومثل ذلك كثير في كلّ سنة. ولا تنتظم الحوادث مع السنوات إلّا اعتبارًا من سنة 688هـ وفيها كان أمير طرابلس في سنة 636هـ «أرناط» (أي رينالد)، والصواب «بوهموند الخامس»، ويسمّي صاحب جبيل «سير طرياط»، والصواب «هيو امبرياكو»، ويسمّي ملك قبرص «المريدكور»، والصواب «هيو دي لونيان»، وهكذا.

وفي الجزء تراجم لأشخاص غير معروفين لم نجدهم في المصادر المعاصرة، وكثيرًا ما تكون التراجم مُقْحَمة في غير موضعها، الأمر الذي يرجّح أنّ هذا الجزء هو مسودّة المؤلّف وليس الصيغة النهائية لتناقُض تواريخ الحوادث والوفيات، ويبدو أنّ قَرطاي لم يجد الوقت الكافي لتبييض كتابه أو إعادة النظر فيه وتصحيحه، ومن غير المعروف إن كان أكمل كتابه إلى سنة 708هـ. كما وعد في الجزء الأوّل، فالذي وصلنا من الجزء الرابع يؤرّخ حتّى سنة 693هـ.

اعتمد المؤلّف الأسلوب التقليدي في سَرْد الأحداث والوقائع والوفيات سردًا متواصلاً، ولم يضع إلّا عناوين قليلة. واستعرض في بدايات بعض السنين أسماء الملوك وأصحاب البلاد من مسلمين، وفرنج، وتتر. واستخدم الكثير من النصوص المبنيّة على تبادل الأقوال بين المتخاطبين والمتحدّثين والمتحاورين، وكأنه حاضر ذلك الحوار، وكثيرًا ما يكون صاحب الخطاب تركيًا أو تتريًا أو فرنجيًا، فلا يجد حَرَجًا في إثبات الحوار بالعربية! والمُلفت أنّ المقريزي (ت 845هـ) شيخ المؤرّخين العمالقة يُجاريه في أسلوبه، بل يمكن القول إنه ينقل عنه في كتابه «السلوك لمعرفة دول الملوك».

ويصرّح قَرطاي بالنقل في هذا الجزء عن «تذكرة النبيه» لابن حبيب الحلبي (ت 779هـ)،

و«مفرّج الكروب» لابن واصل (ت 697هـ)، و«فضائل الدولة المنصورية على الدولة الظاهرية» لشرف الدين بن الوحيد الموقّع (ت 711هـ).

واتّكأ - في الغالب - على سماعات مباشرة من الرواة والإخباريين القريبين من الحَدَث، أو المشاركين فيه، أو من مشاهديه، ونقل عن أناس لم يسمّهم، ونوّه عن نفسه بـ«قال صاحب التاريخ» وتتقارب النصوص والأخبار والأسماء أحيانا مع كثير مع نصوص وأخبار «الدرّ المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب»، و«الدرّة الزكيّة في أخبار الدولة التركية» وهما لابن أيبك الداوداري (ت حوالي 737هـ) وأحيانا أقلّ مع «زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة» لبيبرس المنصوري (ت 725هـ)، وهذا يجعلنا نعتقد أنّهم ينقلون عن بعضهم، خاصّة وأنّ ثلاثتهم أرّخوا وكتبوا بالعربية، وهم في الأصل من المماليك الأتراك، وكانوا في القاهرة في وقت واحد. إلّا أنّ قَرطاي تفوّق على أقرانه بالأخبار التي تفرّد بها دون غيره، ووجد فيه المقريزي مَنْهلاً استقى منه نصّ رسالة، وشعرًا بشكل شبه حرفيّ، وكذلك فعل ابن إياس (ت 930هـ) في «بدائع الزهور». وقد تجاوز ما انفرد به قرطاي من أخبار ووقائع ووفيات العشرات، وأتى بأخبار فريدة ونادرة، وأثبت مجموعة من النصوص لا توجد عند غيره.

وتميّز عن غيره من المؤرّخين المصريين بإحاطته بأسماء المدن والقرى والضياع اللبنانية التي كانت تتبع نائب دمشق أو نائب طرابلس، وتفوق بذلك أيضًا على أقرانه من المؤرّخين اللبنانيين المعاصرين، وأتى بتفاصيل حادثة مقتل صاحب جبيل الفرنجي دون غيره، إلى معلوماته الثرّة عن التتر، والقُفجان، والروم، والفرنج، والسودان، والإيوانية من التُرك، والخوارزمية، والأكراد القَيْمُريّة، وبلاد خُراسان والعجم، وأخبار تونس، وبرقة، والأندلس، وقلاع الإسماعيلية، وبلاد الفرنج وجُزُرهم في البحر المتوسّط. بالإضافة إلى أخبار عن الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون لا نجدها في الكتب التي وُضعت عنهما، وغير ذلك من وَفيات الأعلام التي لم تذكرها المصادر الأخرى.

■ آثاره

1 - تاريخ مجموع النوادر مما جرى للأوائل والأواخر؛ 2 - شعره.

■ المصادر والمراجع

● مصطفى، د. شاكر، التاريخ العربي والمؤرّخين، بيروت، 1990، 3/ 202، 209؛ ● تاريخ مجموع النوادر، تح. عمر عبد السلام تدمري.

د. عمر عبد السلام تدمري
الجامعة اللبنانية - طرابلس - لبنان

ابن خزيمة، أبو بكر محمد بن اسحاق

(223هـ/838م - 311هـ/924م)

أبو بكر محمد بن اسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر [السهمي، تاريخ جرجان، 314، حيدرآباد، 1950] السّلمي [الذهبي، التذكرة، 2/ 720] مولاهم [الشيرازي، طبقات الفقهاء، 105] النيسابوري الشافعي [الذهبي، سير، 11/ 358] المشهور بابن خزيمة نسبة إلى جدّه المذكور [السيوطي، طبقات الحفاظ، 313]، لا خلاف في اسمه وتسلسل نسبه عند من ترجموا له.

أحد أركان الحديث وحفاظه المشاهير الذين تميّزت جهودهم في خدمة السنة تدوينا وتوثيقا وفقها وذودا عن طريقتها. وهو ممّن بلغوا درجة الاجتهاد المطلق، وله مساهمة ملحوظة في تأصيل عقايد المحدثين والاستدلال لاختياراتهم الكلاميّة.

ولد بنيسابور سنة 223هـ [الذهبي، السير، 11/ 388] في شهر صفر [السبكي، الطبقات، 3/ 110]. ولم يخالف في هذا إلّا ابن العماد في شذراته فجعلها سنة 222هـ، ولم يذكر مصدره في ذلك رغم تأخره ومخالفته للجمهور.

أصله من الفرس وكان جدّه الأعلى مولى لمحسن بن مزاحم السلمي [ابن كثير، البداية، 11/ 149، مكتبة المعارف 1966] والمعلومات عن أسرته قليلة لا تحدّد طبيعتها ومكانتها، ويبدو أن أباه كان من محبّي العلم، فقد طلب إلى ابنه - المترجم له - أن يقرأ القرآن أوّلا قبل أن يأذن له في الرحلة للسماع [الذهبي، تذكرة، 2/ 722]. وله ابن يكنى أبا النّصر كان من طلبة العلم وقد صلى على أبيه المترجم له حين موته [الحاكم، معرفة علوم الحديث، 147]. أما حفيده فيعرف بأبي طاهر محمد بن الفضل، وكان ممّن سمع من جدّه وروى عنه خلق كثير، ولا يعرف هل الفضل هو أبو النضر أم هو ولد آخر لابن خزيمة. أما عمّه إسماعيل بن خزيمة فهو من أهل الحديث لرواية ابن خزيمة عنه في صحيحه [1/ 9] وفي كتاب التوحيد [1/ 100، 488 - 489].

اعتنى والده بتربيته الدينية وتوجيهه الدراسي حيث كان يرسم له الخطوات العلميّة التي عليه أن يقطعها في باكورة حياته. فبعد حفظه للقرآن وصلاته بالختمة في رمضان وتجاوزه لمرحلة الكتّاب وسماعه من شيوخ نيسابور، أذن له والده في الرحلة وهو في السابعة عشرة من عمره، فخرج على مَرْو للسماع من شيخ عصره قتيبة بن سعيد (ت 240هـ) ولكنه لم يدركه [الذهبي، التذكرة، 2/ 722] وللمترجم له ميل كبير إلى الحديث، وقد حضر مجالسه بنيسابور وهو لم يدرك سن الثامنة [الذهبي، سير، 14/ 365] وعنايته بهذا الشأن في حداثته جعلته يتضلّع منه ويوم

أهل عصره فيه بعد أن طاف بأقاليم العلم بالشرق الإسلامي وقتئذ كخراسان والعراق والشام والجزيرة والحجاز ومصر. ولا نعرف عدد رحلاته ولا تواريخها بالتفصيل، وكل ما لدينا أنه بدأ في التجوال سنة 240هـ تاريخ وفاة قتيبة. وأنّ له رحلة ثانية [ابن خزيمة، التوحيد، 2/ 265] لا نعلم توقيتها ولا اتجاهها.

من البلدات التي ذكرت المصادر سماعه فيها: نيسابور، ومرو، ومرو الرّوذ، والرّي، وبغداد، والكوفة، والبصرة، وواسط، وعبّادان، وسرخس، وفراوة. ولقي في ترحاله الكثير من الشيوخ إلا أنه كان يتحرى في السماع فينتقي شيوخه من الرواة الثقات الذين لم يعرفوا باختلال ضبطهم أو الغلوّ في بدعتهم [الذهبي، السير، 14/ 373]. وأورد الذهبي في سير الأعلام طائفة وافرة من مشاهيرهم [11/ 358] ومنهم من سمع منه كالشيخين في غير الصحيحين، ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم [ابن نقطة، التقييد، 1/ 17]. ومنهم من نوّه بشأنه وذكر أنه استفاد منه أكثر مما استفاده ابن خزيمة منه [تذكرة الحفاظ، 2/ 722].

وبلغ عدد شيوخه في كتابه التوحيد مائة وخمسة وثلاثين (135) نفسا، وعددهم في صحيحه: مائتان وثلاثة وستون (263) شيخا [الكبيسي، الإمام ابن خزيمة، 1/ 155]. وفيهم الجهابذة حفاظ عصرهم، ونقاد الحديث، ومصنّفو مدوّناته المشهورة كالإمام البخاري (ت 256هـ) الذي قال عنه المترجم له: ما رأيت تحت أديم هذه السماء أعلم بالحديث ولا أحفظ له منه [الذهبي، التذكرة، 2/ 556] ومسلم بن الحجاج أبو الحسين النيسابوري (ت 261هـ) صاحب الصحيح، وعلي بن حجر بن إياس السعدي أبو الحسن (ت 244هـ). والمزني أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى صاحب الشافعي وفقيه عصره (ت 264هـ) كان يقول عن ابن خزيمة: «هو أعلم بالحديث مني».

أمّا الربيع بن سليمان أبو محمد المرادي (ت 270هـ) الذي سمع منه ابن خزيمة كتب الشافعي فقد كان يقول عن تلميذه هذا: استفدنا منه أكثر مما استفاد منا [تذكرة الحفاظ، 2/ 722]، والحافظ الناقد أبو يعقوب إسحاق بن راهويه (ت 238هـ).

ومن عوامل تميّزه ونبوغه ـ تبكيره بالاشتغال بالحديث والفقه ومداومته على ذلك وكان من ثمار هذا أن صار يضرب به المثل في سعة العلم والإتقان [الذهبي، السير، 14/ 365] وقوّة حافظته وحدّة ذهنه. وقدرته على استحضار المسائل ساعده على التبحّر في العلم، والتفوق في الحفظ، وكان يقول عن نفسه: ما كتبت سوادًا في بياض إلّا وأنا أعرفه [الذهبي، السير، 14/ 372]. ومن مظاهر ذلك استئذانه من أبيه للرحلة وهو لا يزال صغيرا [تذكرة الحفاظ، 2/ 722]، وقوله لو لم يكن في أبي عبد الله البوشنجي من البخل بالعلم ما كان ما خرجت إلى مصر [ابن حجر، تهذيب التهذيب، 9/ 8]. ومن ذلك أنه كان يقضي الليالي الطوال جائعا ولا يثنيه ذلك عن الطلب [ابن الجوزي، المنتظم، 6/ 186].

ولا شكّ أن استقامته وورعه وعمله بالعلم قد ساعد على تميّز شخصيته وعلو شأنه، إذ

كانت له عظمة في النفوس وجلالة في القلوب لعلمه ودينه واتباعه السنّة [الذهبي، السير، 14/ 374]. وقد كان كثير العبادة وقافا عند حدود الله منصرفا عن الدنيا رغم قدرته عليها وثرائه الكبير [ابن العماد، الشذرات، 1/ 263] ومن محامده أنه كان جوادا ينفق بسخاء على أهل العلم والمساكين [تذكرة الحفاظ، 2/ 722] قوّالاً للحق غير هيّاب فيه [السبكي، م.س، 3/ 111]، يتّبع السنة في كل أمور حياته ويقتدي بالآثار في أبسط الأشياء.

ولكنه لم يسلم من شواظ فتنة القول بخلق القرآن، فقوّلوه ما لم يقله في هذه المسالة حسدا له وتشغيبا عليه كمحدث علم [الذهبي، التذكرة، 2/ 724ـ 728]، وقد دافع عن نفسه بقوّة في مجالسه ومؤلفاته.

كان يتجوّل في البلدان لنشر العلم وتيسيره لطالبيه احتسابا، من ذلك أنه دخل جرجان ـ وهو في حوالي السبعين من عمره ـ في رجب من سنة ثلاثمائة (300هـ) وحدّث بها ثمّ خرج إلى رباط داهستان للزيارة وحدّث بها وأملى في مسجده العتيق [السهمي، م.س، 314].

رحل إليه الطلبة من كلّ الآفاق، وتخرّج عليه أئمة الدنيا في وقتهم [الخليلي، الإرشاد، 3/ 832] واشتهر تلاميذه في حياته لعلو شأنه وتفرده بالإمامة [الذهبي، السير، 14/ 377] منهم: أبو أحمد الحسين بن علي التميمي النيسابوري (ت375هـ) الحافظ، كان ابن خزيمة يبعثه إلى مجلس السلطان لينوب عنه إذا تعذّر عليه الحضور، وكان يعزّه ويقدمه على أولاده، وابن المنذر أبو بكر محمد بن ابراهيم النيسابوري (ت 318هـ) شيخ الحرم وصاحب الكتب التي لم يصنف مثلها [الذهبي، سير، 14/ 490]، وابن عدي الجرجاني أبو أحمد عبد الله بن محمد، الحافظ صاحب «الكامل في ضعفاء الرّجال» (ت 365هـ)، وابن حبّان أبو حاتم محمد بن حبان البستي (ت 354هـ) أحد أركان الحديث وكبار المصنفين، وأبو بكر الإسماعيلي أحمد بن إبراهيم الجرجاني الحافظ صاحب التصانيف (ت 371هـ)، وأبو أحمد الحاكم الكبير محمد بن محمد النيسابوري الكرابيسي (ت 378هـ) الحافظ صاحب الكتب المشهورة، وأبو طاهر محمد بن الفضل، حفيده وآخر من سمع عنه، وراوية علمه كالصحيح، والتوحيد وغيرهما (ت 387هـ).

كانت وفاته سنة 311هـ، ولم يخالف في هذا إلا أبو إسحاق الشيرازي الذي أرّخها بسنة 312هـ، وهو مخالف لاتفاق بقية من ترجموا له بمن فيهم تلميذه ابن حبّان. ولا خلاف في أن ذلك كان في شهر ذي القعدة، إلا أن تحديد يوم الوفاة منه لم يتّفق عليه. فابن حبّان يجعله ليلة السبت بعد العشاء الآخرة في الخامس من ذي القعدة بعدما اعتلّ ليلة الأربعاء [الثقات، 9/ 156]، ووافقه ابن الجوزي على ذكر نفس اليوم لكنه أرّخه بالثامن من ذي القعدة [المنتظم، 6/ 186] ومثله فعل ابن نقطة في التقييد لمعرفة الرواة والسنن والمسانيد [1/ 171]، وضبط الذهبي ذلك بالثاني من ذي القعدة [تذكرة، 2/ 730].

وقد يكون هناك تصحيف في أصل الكتاب من الثاني إلى الثامن، أمّا التحديد بيوم ثاني ذي القعدة فيمكن أن يكون قد اشتبه على من قال

به: يوم بداية علّة الوفاة بيوم الوفاة نفسها. لأن ابن حبّان الذي ذكر أن الوفاة كانت يوم السبت الخامس من الشهر قد ذكر أن العلّة قد ابتدأت ليلة الأربعاء، وهذا يعني أن العلة قد ابتدأت في اليوم الثاني. والراجح هو قول ابن حبان لخصوصيّة علاقته بابن خزيمة وتفصيله الدقيق لواقعة الوفاة [الكبيسي، 1/ 88].

دفن يوم السبت [ابن حبان، م.س، 9/ 156] بعد أن صلّى عليه ابنه أبو النضر [الحاكم، م.س، 147] وأقبر في حجرة من داره ثمّ صيّرت تلك الدّار مقبرة [ابن الجوزي، م.س، 6/ 186] وقد عاش تسعا وثمانين سنة.

اتسمت حياته الفكرية بطابع الجدّ والتألق، وكان يتمتع بشهرة واسعة في الأوساط العلمية حتى صار قبلة شيوخ عصره والمرجوع إليه في أمر الدين. ولقّب بإمام الأئمة [الشيرازي، م.س، 105] لكثرة من تتلمذ له من الحفاظ وأعيان العلماء.

وتجمع كل المصادر على تبريزه في مجالي الحديث والفقه. ومن الكلمات الجامعة في هذا الشأن شهادة تلميذه المميّز ابن حبان له بأنه كان أحد أئمة الدنيا عِلْمًا وفقها وحفظا وجمعا واستنباطا حتى تكلّم في السّنن بإسناد لا نعلم سبق إليها غيره من الأئمة مع الإتقان الوافر والدين الشديد [الثقات، 9/ 156]. واستقرت مكانته في تاريخ الثقافة الإسلامية على أنه إمام عصره في المجال الأول [الذهبي، تذكرة، 2/ 720] وأنه من أصحاب الاجتهاد المطلق في الثاني [السبكي، الطبقات، 3/ 127].

وأميز أعماله الحديثية: الرواية، وقد ترجمت له كل كتب طبقات المحدثين، ووصفته بأعلى درجات الحفظ والإتقان، واعتبرته إماما معدوم النظير [الذهبي، السير، 11/ 362] وسواه تلميذه أبو علي النيسابوري بالنسائي في مرتبته [الذهبي، تذكرة، 2/ 689]. له إحاطة واسعة بالرواية النبويّة وشارك في تدوينها بدرجة ملحوظة، ولم يُرَ مثله في حفظ الاسناد والمتن [ابن العماد، الشذرات، 1/ 263]، وبلغت مسائله المصنفة في الحديث مائة جزء [الحاكم، م.س، 83]. وانتهت إليه إمامة خراسان في عصره [الذهبي، التذكرة، 2/ 720].

ومن أبرز جهوده في الرواية التي تعكس علوّ محدثيته كتابه الصحيح الذي عدّه النقاد من كتب الحديث الأساسية ولم يقدموا عليه في ذلك إلا الصحيحين. وله غيره من المؤلفات الهامّة في الرواية ومدارها غالبا على أحاديث الأحكام، كما له اهتمام بأحاديث العقيدة. ويتجلى ذلك خاصة في كتابه: «التوحيد وإثبات الصّفات»، وله فيه ردود قويّة على الفرق المخالفة في مقالاتها لقناعات أهل السنة، وهو سلفي العقيدة على طريقة المحدثين، يستخدم النص النبوي بكثافة في استدلاله. وكتابه هذا أظهر مؤلفاته التي تشرح بتركيز منهجه وحججه كمتكلّم مثبت ومفوّض، وهو متشدّد في هذا الأمر.

كما يمثل هذا الكتاب وثيقة مرجعية كاملة تشرح بوضوح وجهة نظر المحدثين في أهم المسائل الكلامية التي عرفتها الساحة الإسلامية في القرون الثلاثة الأولى.

أمّا في مجال النقد الحديثي فالمترجم مصنّف

في من يعتمد قوله في الجرح والتعديل ويوصف بأنه جهبذ بصير بالرجال [الذهبي، سير، 14/ 373]، وتميّزت طريقته في النقد بشدة التحري والاحتياط حتى أنه كان يتوقف في التصحيح لأدنى كلام في الإسناد. وعلى هذا فمذهبه في الرجال أقرب إلى التشدّد منه إلى الاعتدال لأنه ترك حديث أقوام احتجّ بهم غير واحد احتياطا منه للحديث [الذهبي، السير، 11/ 362 ـ 363]. وأقرّ له شيوخه بتقدمه عليهم في المعرفة بالروايات ونقدها؛ أسانيدَ ورجالاً. قال عنه المزني: إذا جاء الحديث فهو يناظر لأنه أعلم بالحديث منّي وأنا أتكلم [الشيرازي، م.س، 106].

سمّى كتابه: «مختصر المختصر من المسند الصحيح عن النبي ﷺ». وبيّن أن أساس الرواية فيه هو نقل العدل عن العدل موصولا إليه من غير قطع في أثناء السند، ولا جرح في ناقلي الأخبار التي ذكرناها، إلا ما نذكره أن في القلب من بعض الأخبار شيئا، إمّا الشكّ في سماع راو ممّن فوقه خبر، أو راو لا نعرفه بعدالة ولا جرح فنبيّن أن في القلب من ذلك الخبر، فإنا لا نستحل التمويه على طلبة العلم بذكر خبر غير صحيح لا نبيّن علته فيغترّ به من يسمعه [الصحيح، تح. الأعظمي، بيروت 1971، 1/ 3، 3/ 186].

وفي شرطه هذا في الرواية وكذلك في تسميته لكتابه تصريح منه بأنه التزم تخريج الصحيح دون سواه، وما لم يكن كذلك ورؤاه في كتابه بيّنه.

ولكن الدراسات النقدية لصحيحه أظهرت أن ما اعتبره صحيحا ليس كلّه كذلك حسب المفهوم الاصطلاحي للصحّة، بل فيه الكثير من الأحاديث الحسنة، وهذا معناه أنّه لا يقول بالتفرقة بين الصحيح والحسن، وأن الحسن عنده قسم من الصحيح لا قسميه. وهذا يفيد أن مفهوم الصحة عند ابن خزيمة هو أوسع مدى ممّا هو مصطلح عليه عند جمهور المحدثين، ويعني به: صلاحية الحديث للاحتجاج به وكونه في ميزان النقد مقبولا لا مردودا [الحاكم، م.س.].

والحديث الصالح للاحتجاج به يشمل الصحيح والحسن، والمحدثون يفرّقون بينهما بالاختلاف في درجة ضبط الراوي. فإن كان ضبطه تاما مع توفر بقية الشروط الاصطلاحية اعتبر حديثه صحيحا، وإن كان ضبطه خفيفا خفة طفيفة غلبنا حسن الظن بذاكرته وسمّينا حديثه حديثا حسنا، وأنزلناه درجة عن مرتبة الحديث الصحيح اصطلاحا. ولكن ابن خزيمة يسمي كل ذلك صحيحا من غير تفريق ولا تفصيل. وتخريجه لهذين النوعين في كتابه لا يعدّ إخلالا منه بشرط التزامه بالصحّة بناء على اصطلاحه هو الخاصّ به لا اصطلاح الجمهور.

وإلى هذا الاختيار أشار ابن حجر حين قال: إن حكم الأحاديث التي في كتاب ابن خزيمة ـ وابن حبّان ـ صلاحية الاحتجاج بها لكونها دائرة بين الصحيح والحسن ما لم يظهر في بعضها علّة قادحة، وأما أن يكون مراد من يسميها صحيحة أنها جمعت الشروط المذكورة في حدّ الصحيح، فلا [النكت على ابن الصلاح، 1/ 290، الرياض 1988].

ومفهومه المتسع للصحّة مقارنة له بشرط الجمهور مبنيّ على خصوصية مذهبه في الرجال، المتمثلة في التنصيص على

وجود أصل الضبط ومسمّاه في الراوي من غير اشتراط ضرورة تحقق تمام الضبط للحُكم على حديثه بالصحة إذا توفرت بقية الشروط العامة للتصحيح. ومفهوم ابن خزيمة الخاص للصحة أثمر من الناحية العملية اتساع عنايته بتخريج الأحاديث الحسنة في صحيحه وهي تمثل قسما كبيرا مما يعتمد في الاحتجاج.

جهوده في خدمة الفقه بناء على معرفته الواسعة بالحديث

عدّ الحاكم ابن خزيمة من فقهاء أهل الحديث [الحاكم، م.س، 83]، ووصفه الشيرازي «بأنه ممّن جمعوا بين الفقه والحديث من الشوافع [م.س، 106]، وكان هو يقول: ليس لأحد مع رسول الله ﷺ قول إذا صحّ الخبر [الذهبي، سير، 11/ 363] ويعلن أنه لا يقلد أحدا في نظره الفقهي منذ بلوغه ست عشرة سنة [الشيرازي، م.س، 106]، وجعله ابن كثير في مصاف المجتهدين في الإسلام [البداية، 11/ 149]، وأقرّ السبكي بأن اختياراته التي خالف فيها مذهبه الفقهي مأتاها اجتهاده المطلق [طبقات، 3/ 127]، وممّا أهّله إلى هذه المرتبة سعة اطلاعه وغزارة علمه ومعرفته بالأدلّة لذلك ترك التقليد ولم يتكلف التأويل لتطويع النصوص لخدمة مذهبه ودار مع الدليل حيث دار.

ومما امتاز به معرفته لأحاديث الأحكام وإجادته لمسائلها، وقد اشتهر بحفظه للفقهيات من حديثه كما يحفظ القارئ السورة [الذهبي، العبر، 1/ 462] ورزق قدرة عالية على تخريج معاني النصوص والاستنباط منها حتى وصف بأنه يستخرج النكت من حديث رسول الله ﷺ بالمنقاش [الشيرازي، م.س، 106]، وأثنى عليه بأنه ما رؤي على وجه الأرض من يحسن صناعة السنن ويحفظ ألفاظها الصحاح وزياداتها حتى كأن السنن بين عينيه إلا هو [الذهبي، التذكرة، 2/ 723].

وهو من رؤساء المحدثين الذين عرفوا بحذقهم الكبير لمبحث مختلف الحديث وكان يقول عن نفسه: لا أعرف أنه روي عن رسول الله ﷺ حديثا بإسنادين صحيحين متضادّين، فمن كان عنده فليأت به حتى أؤلف بينهما [الخطيب البغدادي، الكفاية، 432 ـ 433].

وله نفس طويل في بحوثه الفقهية، من ذلك أن دراسته لفقه حديث بريرة تقع في ثلاثة أجزاء، وجاءت معالجته لمسألة الحج في خمسة أجزاء [الحاكم، م.س، 83] ووصف من وقف عليها عمله فيها بأنه السحر الحلال [السبكي، م.س، 3/ 112] وقال أبو الحسن علي السنجاني: نظرت في مسألة الحج لابن خزيمة فتيقنت أنه علم لا نحسنه نحن [الحاكم، م.س، 83]. كما يتجلى طول باعه في الفقه في كتابه «الصحيح»، ومن وجوه ذلك:

ـ تكثيره للأبواب: بأن رتّب الأحاديث على مسائل الفقه وفرع كل كتاب من صحيحه إلى أبواب كثيرة العدد، وحرصه على الاستفادة القصوى من الحديث في الاستنباط.

ومقارنة كتب صحيحه السبعة التي وصلتنا بمثلها من صحيح البخاري يؤكد أهمية الجانب الفقهي في صحيح ابن خزيمة. فقد

أورد في كتاب الوضوء 225 بابا، وفي الصلاة 708 أبواب، وفي الإمامة 181 بابا، وفي الجمعة 129 بابا، وفي الصيام 271 بابا، وفي الزكاة 180 بابا، وفي المناسك 463 بابا [انظر الكبيسي، الإمام ابن خزيمة، 1/ 273]. بينما نجد البخاري قد روى في صحيحه في كتاب الوضوء وتوابعه من الغسل والحيض والتيمم 143 بابا فقط. وأورد في كل ما يتعلق بالصلاة عنده في 16 كتابا تبدأ بكتاب الصلاة وتنتهي بكتاب الجنائز ومجموع أبوابها كلّها 642 فقط، ويقابلها عند ابن خزيمة: 1018 بابا أوردها في ثلاثة كتب خاصة بالصلاة، والإمامة، والجمعة. وكتاب الصيام مع توابعه: التراويح، وفضل ليلة القدر، والجمعة به 94 بابا فقط، وروى في الزكاة 78 بابا، وفي الحجّ والكتب التابعة له كالعمرة والمحصر وجزاء الصّيد وفضائل المدينة 220 بابا، والمقارنة تبيّن أن مجموع الكتب السبعة المذكورة وتوابعها عند ابن خزيمة تضم 2157 بابا بينما هي عند البخاري لا تتعدى 1177 بابا فقط.

- ثراء تراجمه وأهميتها: كمّا ونوعا وطابعا، وقد غلبت عليها الناحية الفقهية بوضوح بما فيها من تفصيل وتدقيق وتوسّع وتطوير لنمط الترجمة البخارية بتطويلها وتوسيع مباحثها شرحا وافيا للمعنى، وبيانا للغريب، وعرضا لمسائل الخلاف ورواية لأقوال الصحابة وآراء حملة العلم من بعدهم، مع وضوح المعنى وقربه، وهو في كل ذلك يعرض اجتهاداته في فقه المسألة بطريقة تَبين عن سعة اطلاعه على النصوص والآثار واستبحار معارفه وبراعته في الاستنباط والاستدلال.

- تركيزه على فقه الحديث في صحيحه: واهتمامه الكبير بهذا الأمر، ومحلّ ذلك في كتابه: التراجم كما تقدم، وعقب الحديث أيضا حيث يسوق مسائل فقهية كثيرة في قالب تقريرات ومناقشات في معرض بيانه لرأيه الخاص في المسألة أو الاستدلال على صحة اختيارات فقهاء الشافعية، أو نقد رأي المخالفين وترجيح ما استصوبه.

- عنايته بالعلوم المساعدة على فقه الحديث: من صور ذلك اعتناؤه بشرح غريب الألفاظ في صحيحه، وبيان الناسخ والمنسوخ من الروايات، وذكر أسباب الورود ليسهل فهم الحديث في ضوء سياقه، واهتم بدفع التعارض بين الأحاديث المختلفة والمشكلة وله قدم راسخة في هذا المجال. ولاحظ العلماء تميزه في هذا الشأن وعدوّه من أحسن الناس فيه كلاما.

والملاحظة الأساسية في دراسة فكر ابن خزيمة العقدي والفقهي أنه متأثر بعمق بمنهج مدرسة المحدثين في استنباط الأحكام وتقرير المسائل الاعتقادية، وقد جاءت أبحاثه في كل مواضيعها محكومة بطابع هذه المدرسة في توثيق النص وفقهه.

آثاره

كان ابن خزيمة مكثرا من التصنيف ومعانا عليه [ابن كثير، م.س، 11/ 149] وجيّد التأليف [الذهبي، تذكرة، 2/ 72] وموضوعها الرئيسي الحديث والفقه [الخليلي، الإرشاد، 3/ 832]. وله أيضا أبحاث في العقيدة والتفسير.

والإسناد ورواية الحديث هي الأساس الذي

قام عليه منهجه في التأليف والاستدلال وتزيد كتبه على مائة وأربعين سوى المسائل المصنّفة وهي أكثر من مائة جزء [الذهبي، التذكرة، 2/ 729].

واشتهرت عند معاصريه فنوّهوا بقيمتها [الحاكم، م.س، 83]، وكاتبوه يستجيزون بعضها [الذهبي، السير، 14/ 370 ـ 371]. وكان هو مدركا لأهمية كتبه ويرى أن أهل المشرق والمغرب يعرفون أنه لم يصنّف أحد في التوحيد والقدر وأصول العلم مثل تصنيفه [الذهبي، السير، 14/ 379].

ومع الأسف لم يصلنا من مؤلفاته إلا القليل وهو مهمّ في التعريف بمقام صاحبه، ويعدّ كتابه «التوحيد» من أهم تصانيفه الموجودة التي تضمّنت عناوين الكثير من كتبه التي لم تصلنا. ويحتمل أن بعض كتبه إنما هي أبواب وأجزاء من تصانيفه الكبيرة التي اشتملت على تلك المسائل، ومما يرجّح ذلك المقارنات التي أجراها الدكتور الكبيسي في كتابه: الإمام ابن خزيمة [1/ 250 ـ 251] فإنه قابل بين إشارات المؤلف في كتابه التوحيد إلى أنه خرّج حديث كذا في الكتاب كذا وبين ما ذكره في كتابه الصحيح من أحاديث ذلك الباب (الكتاب) فوجدها متطابقة.

وبين أيدينا اليوم من مؤلفاته:

1 ـ التوحيد وإثبات صفات الربّ ﷻ طبع عدّة طبعات، أجودها طبعة دار الرشيد للنشر بالرياض عام 1988، بتحقيق ودراسة د. عبد العزيز بن ابراهيم الشهوان وهي أطروحة دكتوراه في مجلدين؛ 2 ـ كتاب الدعاء، ذكره في التوحيد [10، 80، 107] وقد وهم د. الكبيسي لما ذكر في كتابه [ابن خزيمة، 1/ 246] بعد ذكره لكتاب «الدعاء» كتابا آخر لابن خزيمة باسم شأن الدّعاء وتفسير الأدعية المأثورة عن النبيّ ﷺ وقال: توجد منه نسخة مخطوطة في الظاهرية [رقم 61، 11أ ـ 19ب] القرن السادس.

والصحيح أن شأن الدعاء لأبي سليمان الخطابي (ت 388هـ) لا لابن خزيمة. وهو شرح وتكميل لكتاب الدعاء (الدعوات) لابن خزيمة الذي لا نعرف له اليوم نسخة إلّا التي وردت ضمن كتاب شأن الدعاء للخطابي [انظر أحمد الدقاق مقدمة تحقيق شأن الدعاء، ص8]؛ 3 ـ حديث علي بن حُجْر السعدي أبو الحسين المروزي (ت 244هـ) مخطوط لم أر من ذكره في ترجمة ابن خزيمة. استمد منه الألباني في كتابه [تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد، ص96، 145]، وأحال عليه في سلسلته الصحيحة [المجلد 6، القسم2، ص840]. ونقل عنه ابن حجر في هدي الساري [ص24، 484]؛ 4 ـ مختصر المختصر من المسند الصحيح عن النبي ﷺ. وهو المعروف بصحيح ابن خزيمة. انتقاه من كتابه الكبير المسند. ولم يصلنا منه إلا ربعه المتعلق بالعبادات وفيه منها سبعة أبواب لا غير هي: الوضوء، والصلاة، والإمامة، والجمعة، والصيّام، والزكاة، والمناسك. طبع بتحقيق محمد مصطفى الأعظمي المكتب الإسلامي، بيروت 1390.

وبقية كتبه لا نعرف مصيرها ومنها ما عرفناه من خلال كتابه «التوحيد» فقط وهي: الأشربة، والأهوال، والأيمان، والنذور،

والبرّ، والصلة، والتّوبة، والتوكل، والجنائز، وذكر نعيم الجنة، والصدقات، وصفة نزول القرآن، والصلاة الكبير، والصلاة، والصيام، والطبّ والرّقي، والظّهار، والفتن، وفضائل علي بن أبي طالب ﷺ، والقدر، والمختصر من كتاب الصلاة، والمناسك، والورع، والوصايا.

ومنها ما جاء في أكثر من مصدر وهي: عوالي ابن خزيمة. قال الذهبي: وقع لي بالإجازة عدّة أجزاء منها [التذكرة، 2/ 730؛ وهدية العارفين، 2/ 29]، وفقه حديث بريرة وهو في ثلاثة أجزاء [الحاكم، م.س، 83؛ الذهبي، التذكرة، 2/ 729؛ السير، 11/ 36، 14/ 376؛ السبكي، م.س، 3/ 188]، والمسائل المصنفة في الحديث وهي مائة جزء [الحاكم، م.س، 83؛ الذهبي، تذكرة، 2/ 729؛ هدية العارفين، 6/ 21]، والمسند الكبير في الحديث. أحال عليه في مواضع من التوحيد، وفي صحيحه [1/ 249، 290، 312، 342؛ هدية العارفين، 2/ 29]، ومعاني القرآن، ذكره في التوحيد، وفي صحيحه [1/ 249، 251]، والإيمان [التوحيد، والصحيح، 1/ 21، 160]، والتفسير [التوحيد، وصحيح ابن خزيمة، 1/ 226؛ هدية العارفين، 2/ 29]، والجهاد، ذكره في التوحيد، وأورده الذهبي في التذكرة [1/ 724]، والسير [14/ 370 ـ 371].

ومنها ما ذكره في صحيحه فقط ككتاب اللباس [1/ 382]، وكتاب البيوع [1/ 105] ومنها ما ذكره غيره منفردا كمسألة الحجّ [الحاكم، م.س، 83]، والقراءة خلف الإمام [الكبيسي، م. س، 1/ 249]. والمخزون في الوجدان، ذكره الكبيسي ولم يذكر مصدره فيه وقال: وعلى الرغم من كثرة مصنفات بن خزيمة وتنوعها لكنني لم أعثر بعد البحث والتتبع إلا على أربعة كتب هي: الصحيح، والتوحيد، وشأن الدّعاء ـ وهو خطأ سبق بيانه ـ والمخزون في الوجدان [م.س، 1/ 241] ثم لم يذكره بعد في قائمة مؤلفات صاحب الترجمة.

المصادر والمراجع

● ابن خزيمة، كتاب التوحيد وإثبات الصّفات، مراجعة محمد خليل هرّاس دار الكتب العلميّة، بيروت، 1412هـ/ 1992م؛ ● صحيح ابن خزيمة، تح. محمد مصطفى الأعظمي، نشر المكتب الإسلامي، بيروت 1390، الكتاب ومقدمة تحقيقه؛ ● الحاكم النيسابوري، أبو عبد الله محمد (ت 405هـ)، معرفة علوم الحديث، تصحيح السيد معظم حسين، نشر دار الأوقاف الجديدة، بيروت 1400هـ/ 1980م، ص83 ـ 85؛ ● الشيرازي، أبو اسحاق ابراهيم (ت 476هـ)، طبقات الفقهاء، تح. إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت 1970، ص105 ـ 106؛ ● ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمٰن (ت 597هـ)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدّكن، 1357، 6/ 184 ـ 186، ط1؛ ● الذهبي، سير أعلام النبلاء، تح. أكرم البوشي، مؤسسة الرسالة، بيروت 1986، 14/ 3؛ ● م.س، تذكرة

الحفاظ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت) 2/ 720 ـ 731؛ ● السبكي، التاج أبو نصر (771هـ)، طبقات الشافعية الكبرى، ط. الحلبي 1966، 3/ 131 ـ 135؛ ● السيوطي، جلال الدين، طبقات الحفاظ. تح. علي محمد عمر، مكتبة وهبة، القاهرة 1973، ص310 ـ 311؛ ● هاشم، أحمد عمر، السنة النبوية وعلومها، دار غريب، مصر 1989، ص338 ـ 343؛ ● الأعظمي، محمد ضياء الرحمٰن، دراسات في الجرح والتعديل، عالم الكتب، بيروت 1995، ط. أولى، 1/ 336 ـ 340؛ ● الكبيسي، عبد العزيز شاكر حمدان الفياض، الإمام ابن خزيمة ومنهجة في كتابه الصحيح، دار ابن حزم للطباعة، بيروت، 1422هـ/ 2001م، ط. أولى في مجلّدين.

د. محمد الناصر الزعايري
جامعة الزيتونة ـ تونس

خسرو، أبو الحسن بن سيف الدين محمود

(653هـ/ 1255م ـ 725هـ/ 1324م)

الشاعر الفذ والأديب الشهير الأمير خسرو بن سيف الدين محمود.

ولد بمدينة «بتيالي» في مديرية «ايته» الواقعة في الإقليم الشمالي للهند في 653هـ/ 1255م [أمير خسرو، ص221]، وقد انحدرت أسرته إلى الهند عقب هجمات جنغيز خان على مناطق «بلخ» و«بخارى» وما يجاورهما من البلاد واستقرّت لفترة وجيزة بمدينة دلهي في أيام الملك شمس الدين التمش الذي لم يوظّف واحدا من أعضائها وهو سيف الدين محمود والد الأمير خسرو على منصب حكومي فحسب، بل أعطاه أقطاعية كبيرة بمحافظة «آجرا» التي تقع في دائرتها مديرية «أيته» [خسرو شناسي، ص11]. ولإعمار واستصلاح هذه الأقطاعية انتقل والد الأمير خسرو إلى مدينة «بتيالي» وتوطن فيها حتى استشهاده في إحدى المعارك تاركا أربعة أولاد كان الأمير خسرو أصغرهم سنا، ولدى وفاة أبيه كان عمره سبع سنوات فتكفّل به جدّه لأمه عماد الملك الذي كان من كبار أركان الدولة المملوكية الحاكمة في بلاد الهند في تلك الحقبة من الزمن.

آثاره

في سن مبكّرة ظهرت مخايل فطانة الأمير خسرو الذي سماه والده «أبو الحسن» فكان ينظم الشعر بالفارسية في زمن كان يتلقى فيه الدروس الابتدائية في الخط والرسم عن سعد الدين الخطاط وقد وهبه الله طبعا موزونا فلم يكن يجد صعوبة في إظهار عواطفه شعرًا ونثرًا فأصبح صاحب ديوان في الشعر الفارسي

عنوانه «تحفة الصغر»، ولم يتجاوز عمره آنذاك عشرين عاما، ثم قام بطبع ديوانه الثاني بعنوان «وسط الحياة»، ثم ديوانه الثالث المعنون بـ «غرة الكمال».

هذه الدواوين الثلاثة لا تدل على براعة الأمير وقدرته الفائقة في كتابة الشعر الفارسي فحسب، بل هي تنم كذلك عن أنّ الأمير كان يمتلك ناصية اللغة العربية وتراكيبها النحوية والصرفية، وخير شاهد على هذا القول عناوين هذه الدواوين. وبالرغم من ذلك لم يجعل الأمير اللغة العربية وسيلة للتعبير عن أفكاره، ذلك لأنّ الفارسية كانت حينذاك تحظى بمكانة رسمية وكانت واسعة الانتشار في الدوائر الحكومية والحلقات العلمية والأدبية، فكان من الطبيعي أن يختار الأمير خسرو الفارسية لغة لأشعاره وأبحاثه. ولكن ذلك لا يعني أنه لم يتقن العربية ولم يكن قادرا على قرض الشعر بها بل كان طويل الباع في نظم الأشعار العربية. يقول في مقدّمة «غرة الكمال» لا يجوز لأحد أن يفهم من هذا الديوان أني لست بارعا في قرض الشعر بالعربية [أمير خسرو، ص13]، على أن الذي لا مراء فيه أن الأمير لو كان اختار اللغة العربية لغة كتاباته لكان من أكبر الشعراء الهنود بالعربية وكان للأدب العربي في الهند شأن آخر.

وعلى أية حال فمما لا ريب أنه كان عبقريا ذا مواهب فائقة وله ابتكارات متنوّعة في مجال الأدب والعلم والموسيقى، وكان متضلّعا في لغات عديدة منها: الفارسية، والعربية، والتركية، والهندية. وقد قرض الشعر بجميع هذه اللغات إلّا أنّ أشعاره في الفارسية والهندية نالت انتشارا واسعا في المجتمع الهندي، وهي كذلك حتى الآن تنتشر في الأرياف والأمصار الهندية بترانيمها وألحانها، ومقطوعاتها الشعبية.

عاش خسرو في بلاطات الملوك والأمراء إلّا أنّ صلته بعامة الناس لم تنقطع أبدًا، فقد مدح إلى جانب السلاطين الصعاليك والمتصوّفة، وكان من أقرب وأحب المريدين للشيخ نظام الدين أولياء (634هـ/ 1236م - 745هـ/ 1343م) الذي جمع الأمير أقواله وحكمه في كتابه «أفضل الفوائد»، وله عدا هذا الكتاب أكثر من تسعين مؤلّفا. معظمها بالفارسية وأقلّها بالهندية.

أما إنتاجه من الشعر العربي فلم يتم العثور حتى الآن على أي ديوان له ومع ذلك توجد له قصائد بالعربية مبعثرة في مختلف كتاباته وبوجه أخص في ديوانه «غرة الكمال»، و«إعجاز خسرو» [Contribution of Indo-Pakistan to Arabic Literature by M.G. Zubeid Ahmed, P 238] وهي تكفي للدلالة على قدرته الفائقة على الكتابة بمختلف أساليب الشعر العربي. ومن اللافت للنظر في هذا الخصوص هو أنّ الأمير كان بارعا في صياغة الشعر العربي على الأوزان الفارسية والألحان الهندية. وهكذا اخترع الأمير نوعا فريدًا من الشعر الذي تمتزج فيه عذوبة اللغة الفارسية والموسيقى الهندية، وجزالة العربية. وفي بعض الأحيان كان يضم مصرعا واحدا بالعربية وثانيا بالفارسية أو الهندية، كما أدخل أحيانا في شعره كلمة وكلمات تحتمل معاني مختلفة في العربية والفارسية والهندية، مثلا هو يقول:

إذا دعا لعطاياك انجما نادى
غدا النجوم كما في مسرة شادي

كلمة «شادي» في هذا البيت تعني بالهندية والفارسية حفلة زفاف بينما معناها بالعربية «طائر غريد»، ومثل هذه الابتكارات توجد في عدة مواضع في مؤلفاته ودواوينه. وفي الحقيقة حاول الأمير بهذه الطريقة كسب الروح الهندية في قوالب فارسية وعربية، ومن هنا تبدو شاعريته بوتقة انصهرت فيها ثقافات مختلفة ولغات عديدة، فكتاباته عصارة تجارب فنان لا يعترف بالحدود الجغرافية والأوطان عند البحث عن الخير والحب والجمال. لقد ذاق الأمير مرارة الحياة التي تجمع كافة الشعوب والأقوام على رصيف واحد وكم كان قلبه غارقا في الحب ممّا تنضح به أبياته التالية:

وإذا بحثتِ لدَى الورَى كربَ النوى
تبكي الأحبة والأعادي ترحم

يا عاذل العشاق دعني باكيًا
إنّ السكون على المحبّ محرّم

من باتَ مثلي فهو يدري حالتي
طول الليالي كيف باتَ مُتيّمُ

[الندوي، رضوان علي، اللغة العربية وآدابها في شبه القارة الهندية الباكستانية، ص173]

المصادر والمراجع

● أحمد، السيد سليم، أمير خسرو، ط.؛ ● أنصاري السيد، ط.، وسحر أبو الفيض، خسرو شناسي، ط.؛ ● الندوي، رضوان علي، اللغة العربية وآدابها في شبه القارة الهندية؛

● Contribution of Indo-Pakistan to Arabic Literature by M.G. Zubeid Ahmed.

د. محمد أسلم إصلاحي
جامعة جواهر لال نهرو - الهند

خسرو زادة، مصطفى بن محمد البروشوي

(ت 998هـ/1590م)

لغوي من أتراك الأناضول، ونسبته إلى مدينة بروسة التركية.

لم يترجم له الأتراك الذين صنفوا معاجم في مؤلفيهم، لأنّ هذه المعاجم اهتمّت بمن صنف باللغة التركية، وهو لم يصنّف فيها، فمصنّفاته كتبت بالعربية واهتمّ فيها بلغة القرآن الكريم. ولهذا السبب خفيت أخباره علينا. ولم ينتبه له كذلك المصنّفون العرب ممّن أرّخوا لوفيات القرن العاشر. وتبقى بعد هذا مصنفاته التي وصلت إلينا وهي جديرة بأن

تدرس، وأن يشرح منهج مصنفها، وما مكانتها بين المصنفات الأخرى في موضوعها، وما قد تقدّمه من جديد، ولكن هذا الأمر لا يتيسّر بغير الوقوف عليها، وهذا لا يتيسّر لنا لبعد الشقة.

ذكر حاجي خليفة في كتابه كشف الظنون [العمود 1209]، كتابا عنوانه غلطات العوام قال عنه: جمعه مصطفى بن محمد المعروف بخسرو زادة (ت 998هـ) ورغم اختلاف العنوان فإنّ الموضوع واحد وهو لحن العامة، وللاتفاق الحاصل بين اسم مؤلفه وتاريخ وفاته ولقبه مع اسم المترجم له ولقبه وتاريخ وفاته رجحنا أن يكون هو الكتاب السالف الذكر المعنون «تنبيه الأنام في توجيه الكلام» فكثيرا ما تختلف العناوين بسقوط الورقة الأولى من المخطوط. لكن الأمر لا ينتهي عند هذا الحد فقد ترجم إسماعيل باشا البغدادي في كتابه هدية العارفين، أسماء المؤلفين وآثار المصنّفين [2/ 437] رجلا سماه: خسرو زادة الرومي وقال في ترجمته: مصطفى رفقي بن إبراهيم بن محمد جلبي القسطنطيني المعروف بخسرو زادة الرومي الحنفي من أحفاد ملّا خسرو المشهور. تولّى قضاء طرابلس الشام وتوفّي عند رجوعه بآقشهر سنة 1000هـ. من تآليفه: تحفة الملوك في الأدعية، ترجمة تاريخ مكّة المكرمة لقطب المكي، غلطات العوام، قراضة الفقهية وفكاهة الرفقية.

وقد وهم عمر رضا كحالة في معجم المؤلفين [12/ 237، 251 - 252] حين ترجم له مرتين وظنّه شخصين مختلفين. ولكن هذا الرجل رغم اتفاقه في لقب خسرو زادة مع المترجم له فهو شخص آخر بالأدلّة الآتية:

- أنّ من ترجم له كحالة منسوب إلى القسطنطينية، والمترجم له منسوب إلى مدينة بروسة.

- أنّ تاريخ وفاتهما مختلف فالمترجم له توفي سنة 998هـ، والآخر توفّي سنة 1000هـ.

- أنّ اسم المترجم له مصطفى بن محمد، واسم من ترجم له كحالة وذكره صاحب هدية العارفين [2/ 437] هو مصطفى بن إبراهيم بن محمد.

- أنّ الاختلاف واقع في أسماء مصنفاتهما بالتفصيل الذي تقدّم [إيضاح المكنون، 1/ 259، 2/ 222].

- أنّ الذي أثار الشك في هذا الأمر هو: وجود كتاب «غلطات العوام» منسوبا لمصطفى بن محمد (ت 998هـ) في كشف الظنون [العمود 1209]، وتكرار هذا العنوان في مصنّفات مصطفى بن إبراهيم بن محمد (ت 1000هـ). فهل صنّف كلاهما كتابا بهذا العنوان؟ أم أنّ صاحب «كشف الظنون» قد وهم حين نسب كتابا بهذا العنوان لمصطفى بن محمد، والصواب نسبته لمصطفى بن إبراهيم بن محمد؟ إن كون مادة الكتاب تعالج «لحن العامة» تجعلنا نرجّح أن يكون للمترجم له كتاب بهذا العنوان وربّما كان عنوانه كما أثبته بروكلمان.

آثاره

1 - تنبيه الأنام في توجيه الكلام، وهو كتاب من كتب لحن العامة، مخطوطته الفريدة في مكتبة الدولة في برلين برقم 799؛ 2 - مجمع

العبارات على أفصح اللغات، مخطوطته في الاسكندرية برقم 26 لغة.

المصادر والمراجع

● بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي، نقله إلى العربية، محمود فهمي حجازي وعمر صابر عبد الجليل، القسم التاسع، العصر العثماني، ص 294، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1995م؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، تح. محمد شرف الدين بالتقايا، ورفعت بيلكة الكليسي، ط3، طهران 1378هـ، ج2، العمود 1209؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، 2/ 437، ط3، طهران، 1387هـ، 2/ 437؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، طهران، الطبعة الثالثة، 1387هـ، 1/ 259، 2/ 222؛ ● كحالة، معجم المؤلفين، مطبعة الترقي، دمشق 1960، 12/ 237، 251 ـ 252.

أ. هلال ناجي

باحث في التراث العربي ـ بغداد ـ العراق

خسرو، أبو المعين ناصر المروزي

(394هـ/ 1003م ـ 481هـ/ 1088م)

أبو المعين ناصر خسرو المروزي العلوي القبادياني. رحالة وأديب وفيلسوف إيراني وداعية إسماعيلي فاطمي شهير. ولد في إحدى ضواحي مدينة بلخ في بلاد إيران لوالد من صغار ملاك الأراضي. تثقف ثقافة دينية وعلمية رفيعة، ثم التحق بخدمة الدولة الغزنوية ومن بعدها السلجوقية موظفا في الإدارة المالية. وقد أتاحت له شخصيته وثقافته الواسعة أن يرتقي سلم المناصب وأن ينغمس في ترف الحياة وملذاتها. لكنه تعرض بعد أن ناف على الأربعين إلى هزة نفسية عميقة جعلته يقرر هجر حياته هذه، والبحث عن ولادة جديدة تبدأ مع الارتحال إلى بيت الله الحرام لأداء فريضة الحج. وبالفعل استقال ناصر خسرو من منصبه وشرع برحلته التي سجل تفاصيلها في كتابه الشهير «سفرنامه». وبعد سبع سنوات (437هـ/ 1045م ـ 444هـ/ 1052م) عاد إلى خراسان بذهنية تختلف تماما عن تلك التي غادر بها، حيث أصبح داعية للفاطميين ومذهبهم الإسماعيلي، لكنه جوبه بمعارضة صلبة من قبل السلاجقة وعلمائهم، فالتجأ إلى إقليم مازندران. ومرة أخرى تواجه دعوته بالرفض والصدود فأسقط في يده، فلم يجد مناصا من

الالتجاء إلى إقليم بادخشان ووادي بمكان نائي (على الحدود الحالية بين افغانستان وطاجيكستان). وهناك أمضى سنيه الأخيرة دون أن يغادره، معتكفا على كتابة مؤلفاته، مثل، ديوانه الشعري وكتبه ذات الطابع الدعوي. ثم توفي ودفن فيه عن عمر تجاوز سبعة وثمانين عاما، وتحول قبره إلى مزار يؤمه أتباع المذهب الإسماعيلي من الصين، وآسيا الوسطى، والهند، وأفغانستان.

ويأتي كتابه «سفرنامه» في مقدمة كتبه التي تهم القارئ العربي، ففيه دوّن مشاهداته في رحلته السالفة الذكر. وهي مشاهدات بالغة القيمة، لأنّها تقدم صورة غنية بالتفاصيل عن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية لمناطق آسيا الصغرى، وبلاد الشام، ومصر والجزيرة العربية في منتصف القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، بما جعله مصدرا مهما من مصادرنا عنها. وأهم ما فيه وصفه المفصل والدقيق للكعبة المشرفة ولمدينة القدس والحرم القدسي الشريف فيها حيث أكد على المنزلة السامية التي تمتعت بها القدس في نظر المسلمين قبل الغزو الصليبي بنحو نصف قرن. إلّا أنّ أهمّ جوانب كتابه هي تلك التي خصّ بها مصر الفاطمية، حيث أفرد لها نحو ثلث الكتاب، يستشف من كل سطر منه إعجابا عميقا بالحكم الفاطمي في عهد المستنصر بالله (427 ـ 487هـ) فقد أثارته سيادة القانون والنظام، كما أدهشته ثروة البلاد وغنى أسواقها وازدهارها. ووصف خطط القاهرة وحاراتها وحدائقها وأبنيتها.

فضلا عن ذلك فقد تحدث بعبارات ملؤها الإشادة عن الحياة العلمية في المدينة وعن الأزهر، وجامع عمرو، والعلماء، والفقهاء. ويقول الدكتور زكي محمد حسن: «إن وصف مصر في رحلة ناصر خسرو يعدُّ من أكثر المصادر التاريخية إمتاعا وأعظمها شأنا في بيان حال البلاد» [الرحالة المسلمون، ص 57] ونخلص من هذا الوصف أن ناصر خسرو قد ألقى بحظوظه إلى جانب الفاطميين ولقن وهو في القاهرة تعاليم المذهب الإسماعيلي حتى ارتقى إلى درجة حجة خراسان (أي كبير الدعاة فيها) وهو المنصب الذي سبق أن شغله المؤيد لدين الله الشيرازي داعي الدعاة.

بعد ثلاث سنوات أمضاها ناصر خسرو في مصر قرر العودة إلى موطنه للاضطلاع بالمهمة الجديدة التي كلّف بها وهي الدعوة للفاطميين. ثم رحل إلى الطائف ومنها إلى اليمامة والأحساء، وأتحفنا بوصف ثمين لأوضاع المنطقة الشرقية في الجزيرة العربية، وجانب من حكم دولة القرامطة وهي الدولة التي كانت تمت بالأسباب للفاطميين. وقد استغرقت رحلته في هذه المنطقة نحو تسعة أشهر. ولا ريب أن ثمة دوافع سياسية وراء هذه الرحلة التي لم يفصح عنها كتاب الرحلة. ولعل الأمر مرتبط بمحاولة إعادة الصلات بين الفاطميين والقرامطة لمواجهة الزحف السلجوقي، وجمع أعراب هذه المنطقة تحت راية الفاطميين [حمزة أحمد عباس، إضاءة من الداخل، ص 20]. لكن من الثابت أن هذه الرحلة لم تأت بنتيجة حيث خرج ناصر خسرو من المنطقة في وضع مزر حيث دخل البصرة ممزق الثياب رث الهيئة، لولا أن تداركه كرم وزير ملك الأحواز الذي عرفه فأحسن إليه ويسر له طريق العودة إلى

بلاده. ويختتم الكتاب بدخوله بلخ في 26 جمادى الأخرى من عام 444 هـ (26 تشرين الأول 1052م)، وقد قدر المسافة التي قطعها في رحلته بنحو 2220 فرسخا. وللأسف لم يترجم هذا الأثر الجغرافي الثمين إلى العربية إلّا في منتصف القرن العشرين على أيدي الأستاذ الدكتور يحيى الخشاب ولم يدخل قبل ذلك في عداد الفكر الجغرافي العربي.

أمّا الجانب الثاني في شخصية ناصر خسرو فهو الشاعر حيث يعد من أعلام الشعراء الفرس، فقد خلف ديوانا ضخما من 7425 بيتا في 277 صفحة طبع طبعات متعددة ارتقى فيه إلى صف الفردوسي، وعمر الخيام وسواهُما، ويعكس هذا الديوان عمق ثقافة ناصر خسرو واتساعها، ففيه إشارات إلى الأديان المعروفة مثل الإسلام، واليهودية، والنصرانية، والزرادشتية، والهندوسية، واطلاع على كتبها المقدسة ومعرفته باللغات مثل السنسكريتية، والتركية، والعبرية، علاوة على العربية والفارسية. أمّا المعارف العلمية فتجسدت في درايته بالهندسة والمنطق والموسيقى والفلسفة والفلك وغيرها من العلوم وهذا ما يفسر تسمية البعض له بـ «الحكيم».

ومن جانب آخر فإن دور ناصر خسرو بوصفه داعية تجسد كذلك في عدد من التآليف، فقد كتب عدة كتب ورسائل في هذا الشأن لا سيما بعد اعتكافه. ومن هذه الأعمال كتاب «وجه دين» وهو مقدمة في المذهب الإسماعيلي، و«جامع الحكمتين» وفيه حاول الجمع بين الفقه والفلسفة، وله أيضا «خوان الاخوان»، و«بستان العقول»، و«دليل المحتارين» و«زاد المسافرين» وكلها تصب في الهدف نفسه أي الدعوة للمذهب الإسماعيلي. وقد نشر بعضها على أيدي المختصين بالدراسات الاسماعيلية مثل، إيفانوف وكوربن. أمّا القراء العرب فصلتهم به تتأتى بالدرجة الأساس من كتابه «سفرنامه». في حين لم تترجم كتبه الأخرى إليها مع أنها قد نشرت أو نشر بعض منها باللغة الفارسية.

آثاره

1 ـ سفرنامه، ترجمة وتعليق يحيى الخشاب، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر 1941م، ط 1، ط 2، 1970م؛
2 ـ رحلة ناصر خسرو القبادينى، تح. وترجمة أحمد خالد حامد البدلتي الرياض 1403هـ وترجمة الكتاب الانكليزية بعنوان: Wheeler, M. Thackston, Nasir Khusraw. Book of Travels (London, Institute of Ismili of studies, N. D.)
3 ـ سفرنامه، تح. محمد دبير سيامي، طهران 1956م؛ 4 ـ جامع الحكمتين، تح. ومقدمة هنري كوربن ومحمد معين، طهران 1953م؛ 5 ـ خوان الاخوان، تصحيح يحيى الخشاب، القاهرة 1940م؛ 6 ـ روشنائي نامه، تح. محمد غني زاده، برلين 1922م؛ 7 ـ وجه دين، برلين 1925م؛ 8 ـ زاد المسافرين، برلين 1922م؛ 9 ـ رسالة شيش فصل، روشنائي نامه، تصحيح: ايفانوف، القاهرة 1948م؛ 10 ـ كشايش ورهايش، تح. سعيد نفشي، بومباي 1955م؛
11 ـ ديوان قصائد ومقطعات، تصحيح مجتبي

مينوي، طهران 1928م؛ 12 ـ ديوان، طهران 1896م؛ 13 ـ بانزده قصيدة از حكيم ناصر خسرو قباديني، طهران 1961م.

■ المصادر والمراجع

● اغناطيوس كراشتكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1963م؛ ● حسن، زكي محمد، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، بيروت، دار الرائد العربي 1981؛ ● عباس، حمزة أحمد، إضاءة من الداخل: رحلة ناصر خسرو في شرق الجزيرة العربية، البحرين الثقافية، السنة 2002 م، ع 32، ص 20 ـ 26.

● E. G Browne, Literacy History of Persia (Cambridge: 1908); ● Alice C-Hunsberger: Nasir Khusraw: The Ruby of Badakhshan (London: lavris: 2002).

د. ناصر عبد الرزاق الملّا
جامعة الموصل ـ العراق

■ الخسروشاهي، شمس الدين أبو محمد عبد الحميد

(580هـ/1184م ـ 652هـ/1254م) ■ ■ ■

الشيخ الإمام شمس الدين أبو محمد عبد الحميد بن عيسى بن عمويه الخسروشاهي التّبريزي الشّافعي «تميز في العلوم الحكميّة، وحرّر الأصول الطبية، وأتقن العلوم الشّرعية... والعقليات والفلسفة، ولم يزل دائم العمل جامعا للفضل والأفضال» [ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء]، ودرس وناظر وبرع في علوم وفنون عديدة. صحب شيخه فخر الدين أبو علي محمد بن عمر بن الحسين بن الخطيب الرازي التّيمي البكري الطّبرستاني (543 ـ 606هـ) ملك المناظرين وإمام الدنيا في العلوم العقلية، وله غاية المرام في علم الكلام وأصول الفقه والدين والمباحث والعلاجات الطبية. وسمع المؤيد الطوسي واختصّ بأبي إسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي الفيروزآبادي جمال الدين (393 ـ 476هـ) في المهذب والجدل، وأخذ عنه خطيب دمشق زين الدين بن صدر الدين بن المرحل، وروى عنه الدمياطي.

بعد ذلك حضر إلى سورية وسكن دمشق. ثم انتقل إلى مدينة الكرك عاصمة الأيوبيين في الشرق الأردني، وأقام عند مضيفه آنذاك الملك الناصر صلاح الدين داود بن الملك المعظم شرف الدين عيسى فأكرمه أيما إكرام وكان له منه الإحسان والعطايا الجزيلة. وقد حدّث الطبيب المؤرخ موفق الدين أحمد بن القاسم بن خليفة بن أبي أصيبعة (ت 668هـ) بأنه حين وصل دمشق اجتمع معه فوجده

«شيخا حسن السّمت مليح الكلام». ويبدو أنه كان قوي الذكاء، متقنا للعلوم الحكمية والفقه. ثم قال: «وقد رأيته يومًا أتى إليه بعض فقهاء العجم بكتاب دقيق الخطّ ثمن البغدادي معتزلي التقطيع. فلمّا نظر فيه صار يُقبّله ويضعه على رأسه». وحين سئل الخسروشاهي عن ذلك قال: «هذا خطّ شيخنا الإمام فخر الدين الخطيب رحمه الله، فعظم عندي قدره لتعظيمه شيخه».

وفي حوالي 644 هـ، رجع الخسروشاهي إلى دمشق، وهناك تعرف جيدا على ابن أبي أصيبعة الحفيد كما سبق ذكره. بعد ذلك سقطت دولة الأيوبيين وانتقلت السلطة إلى المماليك البحرية، لأنّ الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك العادل أسكنهم في قلعة الرّوضة حيث تدربوا على الأعمال البحرية على نهر النيل، كان ذلك في آخر أيام الملك الصالح حوالي 647هـ. وأمّا الشيخ الإمام شمس الدين الخُسروشاهي فقد مات في شهر شوال سنة 652هـ/ نوفمبر ـ ديسمبر 1254م. وله من العمر حوالي 72 عاما هجريا ودفن في جبل قاسيون بتربة المعظمي بدمشق.

وكتب إليه الشيخ سعد الدين محمد بن عربي في عام 652هـ:

يمينًا لقد أحييت علمَ أفاضلٍ
مضوا فرأيناه لديكَ جميعًا

ولو لم أكذّب قلتُ إنّك منهم
فليت لقولي سامعًا ومطيعًا

لأنك أنتَ الشمسُ والشمسُ إن تغبْ
فإنّ لها بعد المغيب طلوعا

ورثاه الشيخ عز الدين الضّرير الآربلي الغنوي محمد بن حسن بقوله:

بموتك شمس الدين مات الفضائل
وأقفر من ذكْر العلوم المحافلُ

أصاب الرّدى شمس الورى عندما استوت
وأودى ببدر الفضل والبدرُ كامل

فتًى عالم بالحقّ، بالخير عامل
وما كلّ ذي علمٍ من النّاس عامل

فتًى بذّ كل القائلين بصمته
فكيف إذا وافيته وهو قائلُ

وكنا لحل المشكلات نعدُّه
إذا أعيت الحذّاق منّا المسائل

فربْع الحجى من بعده اليوم قد خلا
وجيد المعالي من حلى الفضل عاطلُ

أتدري المنايا من رمتْ بسهامها
وأيّ فتى أودى وغال الغوائل

رمت أوحدَ الدنيا وبحرَ عُلومها
ومن قصّرت في الفضل عنه الأوائلُ ...

آثاره

1 ـ مختصر كتاب المهذب في الفقه على مذهب الإمام الشافعي لأبي اسحق الشيرازي (في الفروع)؛ 2 ـ مختصر كتاب الشفاء للشيخ الرئيس ابن سينا (في المنطق)؛ 3 ـ تتمة كتاب الآيات البينات لفخر الدين الرازي...

المصادر والمراجع

• ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، بولاق، القاهرة 1299هـ، 1/ 161، 277 ـ 259،

2/ 46، 98 ـ 112، وبيروت منشورات دار مكتبة الحياة (د.ت)، 584؛ ● ابن القف الكركي، جامع الغرض في حفظ الصّحّة ودفع المرض، تح. سامي خلف حمارنة، عمان، مطبعة الجامعة الأردنية، 1409هـ/ 1989م، ص 27؛ ● ابن تغري بردي، النّجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة 1354هـ، دار الكتب المصرية، 7/ 32؛ ● الإسنوي، جمال الدين عبد الرحيم، طبقات الشافعية، تح. عبد الله الجبوري، بغداد 1380هـ/ 1960م، 1/ 503؛ ● ابن شاكر الكتبي، محمد، فوات الوفيات، تح. إحسان عباس، بيروت 1396هـ/ 1974م، دار صادر، 257 ـ 259؛ ● ابن العماد الحنبلي، عبد الحي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت 1351هـ، لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، 5/ 21، 255 ـ 256؛ ● الحافظ الذهبي، العبر في خبر من غبر، تح. صلاح الدين المنجّد وفؤاد السيّد، الكويت 1386هـ/ 1966م، 5/ 211؛ ● السّبكي، تاج الدين، طبقات الشافعية الكبرى، القاهرة 1324هـ، المطبعة الحسينية، 5/ 33 ـ 40، 60؛ ● القفطي، تاريخ الحكماء، مكتبة المثنّى، ط. 1903م بألمانيا، بغداد، ص 291 ـ 293؛ ● ابن الساعي، عنوان التواريخ، القاهرة، ص 307 ـ 308؛ ● ابن خلكان، وفيات الأعيان، تح. د. إحسان عباس، وداد القاضي، وعز الدين أحمد موسى، بيروت 1392هـ/ 1972م، دار صادر، 1/ 29 ـ 31؛ ● الزركلي، الأعلام، ط 2، بيروت 1376هـ/ 1956م، 3/ 11.

- Lucien Leclerc, Histoire de la Médecine Arabe, Paris, E. Leroux, 1876: or revised ed. by the Ministry of the Habous and the Islamic Aaires, Rabat, Mor., 1980, Vol. 2/ 40-127.
- Brockelmann, Carl. Geschichte der arabischen Litteratur, Leiden, Vol. 1: Leiden, E.R Brill; and Supplement, 1937-43, pp. 666-9; 920-924.

د. سامي خلف حمارنة
باحث في التراث العلمي ـ واشنطن

الخشاب، أبو الحسن إسماعيل بن سعد

(ت 1230هـ/1815م)

أبو الحسن إسماعيل بن سعد بن إسماعيل الوهبي الحسيني الشافعي المصري المعروف بالخشاب، شاعر، وأديب، ومؤرّخ.

ولد إسماعيل الخشاب في القاهرة في القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي. وقد كان أبوه سعد يعمل نجارًا، ثم احترف تجارة الأخشاب، غير أنّ ابنه لم يشأ أن يمتهن مهنة أبيه، وتثقّف بثقافة العصر الدينية واللغوية، وتفقّه إسماعيل الخشاب من صغره بالقرآن الكريم، وتلقّى سائر العلوم على يد أئمّة علماء ومشايخ عصره، واتّصل منهم بالشيخ العروسي شيخ الجامع الأزهر في الفترة ما بين (1193 ـ 1208هـ) وبالعلامة محمد المرتضى الزبيدي صاحب معجم «تاج العروس»، والشيخ محمد الأمير مفتي المالكية. وتتلمذ على يد هؤلاء وغيرهم، وقال فيهم مدائح نجدها في ديوانه.

بعد ذلك أقبل إسماعيل الخشاب على قراءة ودرس الكتب الأدبية والكتب التاريخية، فحفظ منها شيئًا كثيرًا، وأصبح نادرة عصره في المحاضرات والمذاكرات، وكان يرتزق من الشهادة بالمحكمة الشرعية.

وكان إسماعيل الخشاب صديقًا للشيخ حسن العطار ينشدان الشعر في مجالس لطيفة. ولما توفي الخشاب جمع العطار ما كان لصديقه من المنظوم في كتاب هو ديوان الخشاب.

كما كان إسماعيل الخشاب واحدًا من أصدقاء المؤرّخ المصري عبد الرحمٰن الجبرتي (ت 1241هـ) المقربين إليه، ولذلك ذكره الجبرتي بقوله: «وأولع إسماعيل الخشاب بذلك حتى صار نادرة عصره في المحاضرات، والمحاورات، واستحضار المناسبات، والماجريات، وقال الشعر الرائق والنثر الفائق، وتقرب بأدبه إلى طبقة الوجهاء والرؤساء، وتنافسوا في صحبته كالشيخ السادات وغيره..».

واتّصل إسماعيل الخشاب برجال الحملة الفرنسية وعلمائها، والغريب في الأمر أنّ المؤرّخ الجبرتي يروي لنا شعرًا قاله الخشاب في رجلين من رجالات الحملة، واحد منهم يدعى «ريج» وهو أحد أعضاء لجنة الترجمة بالمجمع الفرنسي الذي أنشأه نابليون بونابارت في مصر. أما الثاني فهو من رؤساء كتاب الحملة ومن العارفين ببعض العلوم العربية.

يقول الجبرتي في كتابه عجائب الآثار:

«ولما وردت الفرنساوية لمصر اتّفق أن علق ـ أي الخشاب ـ شابا من رؤساء كتابهم، كان جميل الصورة لطيف الطبع، عالـمًا ببعض العلوم العربية، يحفظ كثيرًا من الشعر، فبتلك المجانسة مال كل منهما للآخر، فكان ـ

الخشاب - تارة يذهب إلى داره، وتارة يزوره هو..».

ويبدو أنّ هذه الصداقة بين إسماعيل الخشاب وبين بعض المستشرقين من علماء الحملة الفرنسية مهّدت له السبيل للاتصال الرسمي بقادة الفرنسيين، لذلك عندما أعيد تأسيس الديوان الثالث كديوان للقضاء بين المسلمين، في عهد «مينو» في جمادى الثانية سنة 1215هـ/ 1800م، من تسعة أعضاء، اختير الشيخ إسماعيل الخشاب ليكون أمينًا لمحفوظات هذا الديوان، أو على حد تعبير الجبرتي - كاتبا لسلسلة التواريخ - وهي عبارة عن محاضر جلسات الديوان وسجل الحوادث اليومية الهامة». أما الذي تذكره المراجع الفرنسية الموثوق بها أن الجنرال مينو أو «عبد الله مينو» أصدر في السادس والعشرين من تشرين الثاني سنة 1800م مرسوما بإنشاء جريدة عربية اسمها التنبيه L'Avertissement وأنّهم كانوا يدونون ما يقع فيها كل يوم، ويطبعون من ملخصها نسخا يفرقونها بالقاهرة وخارجها وفيها الحوادث الرسمية، واختير الشيخ إسماعيل الخشاب ليكون رئيسًا لتحريرها وذلك تحت إشراف أعضاء الديوان من العلماء، ويكون من أغراضها الآتي:

- البحث في أعمال الديوان.

- البحث في أعمال الحكومة الفرنسية.

- نشر الأخبار الداخلية والخارجية.

- نشر المقالات المختلفة في العلوم والفنون والأخلاق.

ويقول إبراهيم عبده: «إن الآمال التي علّقت على ظهور التنبيه لم تتحقق، إذ إن الظروف السياسية واضطراب الأمن، كل ذلك حال دون ظهور الجريدة، وبقي مرسوم إنشائها معطّلا حتّى جلا الفرنسيون عن مصر».

وظلّ إسماعيل الخشاب يلي وظيفته هذه في الديوان «ضحوة يومين في الجمعة» طوال عهد «مينو» حتى خرجت الحملة الفرنسية من مصر سنة 1801م، وظلّ على الشهادة في المحكمة، وذلك مقابل أجر شهري قدره سبعة آلاف ونصف فضة.

وهناك عدة ملاحظات يمكن استنتاجها من عبارة الجبرتي:

- أولا: أنّ إسماعيل الخشاب لم يكن إلّا كاتب ديوان، أو مسجل مضبطة.

- ثانيا: رأى الجبرتي عناية الفرنسيين بكل ما يقال في الديوان وذلك أمر جديد بالنسبة له وقد علّلها هو بقوله: «عناية القوم بضبط الحوادث اليومية في جميع دواوينهم» لأنّهم كانوا «يجمعون المتفرق في ملخص» ويوزعونه «في جميع الجيش»، ونحن نقول إنه لا يعقل بالمرة أن يوزع هذا الملخص في جميع الجيش الفرنسي.

- ثالثا: الملخص الذي كان يتحدث عنه الجبرتي، وبالفعل كان يطبع وتوزع نسخ منه على جميع الجيش حتّى لمن كان في الأرياف، هو الصحيفة الفرنسية الشهيرة في مصر أيام الحملة الفرنسية، والتي كانت تصدر كل خمسة أيام.

والذي يهمنا في هذا المقام أنّ الشيخ إسماعيل الخشاب حاول أن يكتب تاريخًا لمصر في هذه الحقبة من الزمن معتمدًا على

ما تحت يده من محاضر الديوان وسجلاته، وكان ذلك يهيء له فرصة طيبة للوقوف على الأحداث، والاطلاع على الكثير من الوثائق والبيانات بتاريخ الاحتلال الفرنسي. فاختار لنفسه بعض ما ورد فيها، ولكن مصير هذا المشروع، وهذه المختارات مجهولة تمامًا بالنسبة لنا، فنحن لا نكاد نسمع عنها إلّا عندما يقول الجبرتي: «فجمع ـ أي إسماعيل الخشاب ـ من ذلك عدة كراريس لا أدري ما فعل بها».

إلا أنه وبالعقل والمنطق نذهب إلى أنّ هذا التاريخ ـ أي تاريخ الخشاب ـ لم يولد، وما هو إلّا مشروع أعد له إسماعيل الخشاب بضع كراسات ضمنها الكثير من المادة والوثائق التي نقلها من مضابط الديوان وسجلاته، ولو أنه أتمّه، أو لو أن هذه الكراسات المهمة بقيت ووصلت إلى أيدينا لأمدتنا بمادة غزيرة وثيقة عن تاريخ مصر في عهد الحملة الفرنسية، وعن الديوان الذي أنشأه الفرنسيون، ومدى اختصاصه وأعماله وأثره في حكم مصر والمصريين.

■ آثاره

1 ـ ديوان الخشاب، وهو في مجلّد طبع في القسطنطينية سنة 1300هـ؛ 2 ـ تاريخ حوادث وقعت بمصر من سنة 1120هـ/ 1708م إلى دخول الفرنسيين، يؤرّخ إسماعيل الخشاب في هذا الكتاب لمصر في القرن الثامن عشر الميلادي. وتوجد نسخة منه في المكتبة التيمورية بالقاهرة، ونسخة في المكتبة الوطنية بباريس.

■ المصادر والمراجع

● البغدادي، إسماعيل، إيضاح المكنون، 1/ 500؛ ● ن. المصدر، هدية العارفين، 1/ 224؛ ● زيدان، جرجي، تاريخ آداب اللغة العربية، 3/ 371، 4/ 574؛ ● الجبرتي، عبد الرحمٰن، عجائب الآثار، 2/ 38؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلّفين، 2/ 270؛ ● عنان، محمد عبد الله، مؤرّخو مصر الإسلامية، ص 179؛ ● فنديك، أدورد، اكتفاء القنوع بما هو مطبوع، دار صادر، بيروت، ص479.

د. محمد هشام النعسان
معهد التراث العلمي العربي
حلب ـ سوريا

ابن الخشّاب، عبد الله بن أحمد بن أحمد

(492هـ/ 1099م ـ 567هـ/ 1171م)

عبد الله بن أحمد بن أحمد بن عبد الله بن نصر الخشّاب، نحويّ لم تورد المصادر من المعلومات ما يمكّن من استعراض أطوار حياته وتفاصيل سيرته. لا شك في أنّه قضى حياته في بغداد وبها توفّي، ولئن لم تشر المصادر صراحة إلى أنّه درس بالمدرسة النظاميّة فإنّ بعض من تتلمذ عليهم قد اضطلعوا بالتدريس فيها، ومنهم أبو الحسن بن أبي زيد الاستربادي المشهور بالفصيحي (ت 526هـ/ 1132م) تلميذ عبد القاهر الجرجاني، وتشير المصادر إلى أنّ تدريسه بالنظاميّة تميّز خاصة بتدريس آثار أستاذه ونشر آرائه؛ كما تتلمذ على أعلام آخرين من شيوخ هذه المدرسة وخاصة ابن الشجري (450هـ/ 1058م ـ 542هـ/ 1148م) صاحب الأمالي وأحد شراح كتابي ابن جنّي «اللّمع والتصريف الملوكي»، وأخذ اللغة عن الجواليقي (466هـ/ 1073م ـ 539هـ/ 1144م)، صاحب كتاب المعرّب، وأحد أساتذة النظاميّة المرموقين.

كما درس النحو على غير هؤلاء كابن الأشقر، (ت 550هـ/ 1155م)، تلميذ الخطيب التبريزي، والمبارك بن الفاخر (448هـ/ 1056م ـ 500هـ/ 1106م) وكان يعتبر «قيّما بالنحو عارفا باللّغة»؛ ودرس ابن الخشّاب علوما أخرى منها الحديث.

ومن شيوخه في هذا العلم أبو منصور القزاز (ت 535هـ/ 1140م)، وأبو شجاع البسطامي (ت 542هـ/ 1147م)، ومحمد بن علي بن هبيرة (ت 510هـ/ 1116م)، وأخذ الفرائض عن محمد بن الحسين بن عبد الله الشيباني المزرقي (439هـ/ 1047م ـ 527هـ/ 1132م)، وقد اعتبرته المصادر «أعلم أهل زمانه في النحو» وأنّه «كان في درجة الفارسي». كما أشارت إلى إلمامه بعلوم أخرى. فقد كانت «له معرفة بالحديث، والتفسير، والمنطق، والفلسفة، والحساب، والهندسة» [بغية الوعاة، 2/ 29].

وقد نوّه بعضهم بولعه بالكتب وشرائها لكنّه اتّهم بالبخل والتحيّل لشرائها بأثمان بخسة؛ وقد كان حنبليّا منتصرا لهذا المذهب مدافعا عنه رافضا للبدع؛ ومع ما له من مكانة علميّة فقد كان قليل العناية بمظهره، وكان لا «يحفظ ناموس العلم» حسب عبارة السيوطي، فيجالس العوام على قارعة الطريق ليلعب الشطرنج. وكان يميل إلى المزح واللّعب وقد كلّف بتأديب أولاد الخليفة المستضيء (536هـ/ 1142م ـ 575هـ/ 1180م) لكنّه كان يرغب عن صحبة أولي الأمر [طبقات ابن قاضي شهبة، 2/ 19].

ورغم ما اعترف له به من تضلع في النحو ومعرفة بعلوم عدّة فلم تذكر المصادر أنّه درّس بالمدرسة النظاميّة ببغداد على غرار معاصره ابن الأنباري (513هـ/ 1119م ـ 577هـ/ 1182م) الذي خلف الجواليقي، وابن الشجري في التدريس، لكن لا شك في

أن ابن الخشّاب جلس للتدريس سنوات عديدة فدرّس الحديث والنحو واللّغة والأدب، يدلّ على ذلك عدد من تذكرهم المصادر من تلاميذه، وبعضهم ممّن تتلمذ أيضا على شيوخ النظاميّة كابن الشجري، وابن الأنباري.

ومن تلاميذه من درّس بالنظاميّة واشتهر بتدريسه أو بمصنفاته أو بالاثنين معا، وأشهرهم: أبو البقاء العكبري (538هـ/ 1143م - 616هـ/ 1219م) صاحب كتاب «التبيين عن مذاهب النحويّين البصريّين والكوفيّين»، والعماد الإصفهاني (519هـ/ 1125م - 597هـ/ 1200م) صاحب «خريدة القصر وجريدة أهل العصر»، وابن الدهان وهو آخر كبار مدرّسي النحو بالمدرسة النظاميّة.

وقرأ عليه عدد آخر تتضمّن كتب المصادر إشارات إلى صحبتهم له أو ملازمتهم إيّاه، ومنهم ابن الزاهدة فقد «كان له اختصاص عظيم بابن الخشّاب، لا يفارقه فحصل منه علما جمّا» [بغية الوعاة، 1/ 395]، وابن ناهوج فقد صحبه «وعلّق عنه تعاليق تنبئ عن يد باسطة» [بغية، 1/ 514]، وابن حميدة فقد «لازمه حتى برع» [بغية، 1/ 173] . . .

ومن تلامذته عدد آخر من البغداديّين أو ممّن طرأوا على عاصمة الخلافة، فأخذوا عنه وعلى غيره من أعلام النحو اللّغة وخاصة ابن الأنباري ومنهم ابن العبرتي والحظيري. . . ومن أشهر تلاميذه في الحديث عبد الكريم بن محمد السمعاني صاحب كتاب الأنساب.

آثاره

تنسب إلى ابن الخشّاب مصنّفات من قبيل الشروح أو الرّدود على غيره من معاصريه، ويبدو أنّه شرع في بعضها ولم يتمّه، كما يلاحظ أنّ مشاغله في التأليف تتّصل بما كان يدرس في النظاميّة من تصانيف أعلام النحو واللّغة، وأهمّ ما بقي لنا من مصنّفاته:

1 - كتاب المرتجل في شرح الجمل، تح. علي حيدر، دمشق 1392هـ/ 1972م، وهو شرح لكتاب الجمل الذي لخّص فيه عبد القاهر الجرجاني العوامل حسب التقسيم الثلاثي للكلام. والجدير بالملاحظة أنّ الفصيحي أستاذ ابن الخشّاب درّس هذا الكتاب في المدرسة النظاميّة؛ 2 - أغلاط الحريري في مقاماته أو الردّ على مقامات الحريري، نشر بإسطنبول سنة 1328هـ بعنوان الاستدراكات على مقامات الحريري؛ 3 - انتصار ابن برّي، كان نشر بالقاهرة سنة 1326، بعد المقامات، ومزج الكتابان في شكل مناظرة بالمطبعة الحسينيّة المصرية، سنة 1343هـ/ 1925م، [مقدّمة تحقيق المرتجل، ص 23]؛ 4 - لمع في الكلام من لفظة آمين المستعملة في الدعاء وحكمها، كوبرلى 1393هـ، رقم 5؛ 5 - القصيدة البديعيّة الجامعة لأشتات الفضائل والرموز العلميّة، دار الكتب المصريّة رقم 3908أ، د، ب. تدور هذه القصيدة حول أسلوب الكتابة والبلاغة والمفردات الصعبة والنحو والعروض والسير وأخبار الأوائل؛ 6 - تواريخ ميلاد الأئمة ووفياتهم: نسخة في مجموع بمكتبة فخر الدين نصيري بطهران، وكذلك في مجموع بالمكتبة

المركزية بطهران؛ 7 ـ شرح اللمع لابن جني: لم يتمه ابن الخشّاب؛ 8 ـ الرد على ابن بابشاذ في شرحه للزجاجي؛ 9 ـ الرد على الخطيب التبريزي في تهذيب اصلاح المنطق لابن السكيت؛ 10 ـ الرد على أمالي الشجري وعنوانه الانتصار؛ 11 ـ حاشية على درة الغواص في أوهام الحريري.

المصادر والمراجع

● ياقوت الحموي، معجم الأدباء، مكتبة القراءة والثقافة، مصر؛ ● القفطي، إنباه الرواة على أنباء النحاة، تح، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب المصريّة، 1371هـ/ 1952م؛ ● ابن خلّكان، وفيات الأعيان، تح، إحسان عبّاس، بيروت؛ ● ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، تح، إحسان عبّاس، بيروت؛ ● السيوطي، بغية الوعاة، تح، محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، 1384هـ/ 1965م؛ ● الفيروز آبادي، البلاغة في تاريخ أئمّة اللّغة، تح، محمد المصري، دمشق 1392هـ/ 1972م؛ ● بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ترجمة د. رمضان عبد التواب، دار المعارف بمصر، 1983م، 5/ 167؛ ● دائرة المعارف الإسلاميّة، ط. ج، مجلّد 3، فصل ابن الخشّاب؛ ● دائرة المعارف الإسلاميّة الكبرى، طهران، 1416هـ/ 1995م.

د. المنصف عاشور
جامعة منوبة ـ تونس

الخشخاش بن سعيد بن أسود القرطبي

(ت 245هـ/ 859م)

هو الخشخاش بن سعيد بن أسود القرطبي مسكنًا، والغسّاني نسبًا. لقّبه الأندلسيّون بـ «خشخاش البحري» لأنّه كان أوّل من غامر باستكشاف المحيط الأطلسي. ويُعدّ الخشخاش أحد القادة البحريّين الّذين أرسلهم بنو أميّة إلى منطقة بجانة لحماية السّواحل الأندلسيّة وأعطوا إقليم أرض اليمن غلّة لهم مقابل ذلك.

وكان بنو أسود الغسّاني من البيوت البحريّة المشهورة في بجانة، ومرساهم المجاور لمرسى المرية أكبر دليل على ذلك وكان يُسمّى آنذاك «قابطة بني أسود» [البكري، المسالك والممالك، 2/ 755].

كانت شبه جزيرة إيبيريا في عصر الخشخاش معرّضة من ثلاث جهات لغزوات من البحر، ممّا دفع بالأمير «عبد الرحمٰن الثاني» (206هـ/ 822م ـ 237هـ/ 852م)، ثمّ «الإمام محمد الأوّل» (237هـ/ 852م ـ 272هـ/ 886م) من بعده إلى إنشاء نواة للأساطيل البحريّة هي الأولى من نوعها ببلاد الأندلس

الإسلامية، وقد استلهمت هذه الأساطيل النّموذج البيزنطي في بنائها، واتّخذت من المرية قاعدة لها.

عيّن الخليفة عبد الرحمٰن الثّاني «تمامًا أبا غالب» أميرا للبحر بينما تولّى قيادة الأسطول كلّ من الخشخاش و«سبش بن كشوح» [ابن عذاري، نصوص عن الأندلس، ص 119]. وقد شارك الخشخاش في أربع معارك بحرية خاضها ضد سفن القراصنة النورمان وذلك في أعوام 229 و230هـ، و240هـ، وأخيرا 245هـ . وقد استشهد في المعركة الأخيرة مع جملة من المسلمين [نفس المرجع، الصفحة 119].

ولم يهتمّ الإخباريّون بالجانب العسكري وحده من حياة الخشخاش بل اهتمّوا أيضا برحلاته. وكان السبّاقَ إلى ذلك الجغرافي المؤرّخ أبو الحسن المسعودي (ت 347هـ/ 958م) الذي أورد إحدى مغامرات الخشخاش الرّائدة في عرض المحيط الأطلسي.

ومن الجغرافيين الآخرين الذين ذكروا أخبار ونتائج رحلة الخشخاش عبيد الله البكري (ت 487هـ/ 1094م)، والشريف الإدريسي (ت 560هـ/ 1166م). أما ابن ماجد فقد اكتفى بالإشارة إليها.

لقد طغى الحدث الاستكشافي في العصور الوسطى على الأحداث العسكرية وهكذا أصبح الخشخاش أحد أعلام البحّارة العرب ممن اقترنت أسماؤهم بالمحيط الأطلسي. لكنّ الدّارسين لتاريخ الحضارة العربية لم ينتبهوا إلى هذا الإنجاز ولم يُولوه ما يستحقّ من عناية. أمّا وقد ظهرت في الآونة الأخيرة بعض البحوث القيّمة، فقد أصبح بالإمكان أن نبرهن بأن الخشخاش بن سعيد كان السبّاق إلى تحديد الضفّة الغربية للمحيط الأطلسي وذلك حوالي عام 235هـ/ 850م.

واعتمادا على كتابات كلّ من المسعودي، والبكري، والإدريسي ثمّ ابن ماجد أمكننا التّوصّل إلى معرفة الهدف من وراء هذه الرحلة: معرفة جزيرة «واق واق»، موطن «المجوس» النّورمان وذلك لأغراض استراتيجية واقتصادية وعلمية. لكنّ الرحلة لم تتمّ كما كان مقرّرا لها لأن الخشخاش ومن نجا معه من جماعته قد وصلوا في الواقع، إلى جزر العالم الجديد، وبالتحديد جزر أمريكا الوسطى.

ويُرجّح أن يكون الأمير عبد الرحمٰن الثاني هو الذي عيّن الخشخاش على رأس أسطول بحري للبحث عن موطن القرصان إذ إنّ غزواتهم طغت على جميع أحداث عصر هذا الأمير وصارت الشغل الشاغل للحكم الأموي في الأندلس طيلة القرن الثالث الهجري - التاسع الميلادي. وهذا يعني أن الدافع الأساسي كان دافعا عسكريا واستراتيجيا. وقد لا نستبعد وجود دوافع أخرى كإغراء الذّهب والفضّة التي تزخر بهما المستعمرة الجديدة التي يأتي منها الغزاة النورمان، وإن كانت هذه الثروات في الواقع حصيلة النهب الذي كان يقوم به هؤلاء في بلدان أوروبا.

وقد يكون عبد الرحمٰن الثاني، الشغوف بالعلم والمعرفة، قد رام من وراء اكتشاف هذا البلد النائي الذي أطلق عليه اسم «واق واق» اكتساب شهرة لدى خلفاء بني العبّاس في المشرق المعروفين برعايتهم للفنون والعلوم.

بقي أن نعرف ماذا كان يعني الأندلسيّون بجزيرة «واق واق»؟

في عهد عبد الرحمٰن الثاني، فوجئ الأندلسيون بأولى هجمات النورمان، لكنّهم لم يعرفوا على وجه الدقّة موطن الغزاة الغرباء. فأطلقوا عليهم في البداية اسم «المجوس» أي عبدة النّار، لأنهم كانوا في الأماكن التي ينزلون بها يشعلون النار. فظن العرب أنهم من عبدة النار، وفيما بعد عرفوا اسمهم الأصلي «فاريف» (Varegues)، فنطقوه محرّفا فأصبح «واق واق» وقد عوّضوا حرف V بالواو وحذفوا حرف الرّاء للتخفيف. وفيما بعد أطلق على هؤلاء القوم اسم «الويكينغ» أو «الفيكينغ».

وأفاد ابن عذاري [البيان المغرب، 2/ 341] أن الويكينغ أصبحوا يعرفون في القرن الرابع الهجري بالأرْدُمانيّين وهذه التسمية تحريف لاسمهم الحقيقي «نورثمان» (Northmen).

ولئن توصّل الأندلسيون إلى ضبط الاسم الصّحيح لمن كانوا ينعتونهم بـ «المجوس» فإنّ معرفة موطنهم الأصلي تطلّب عدة أجيال. وكان الرأي السّائد لدى الأندلسيين أن موطن المجوس يقع جنوب المحيط الأطلسي لا في شماله، لأنّ الجهة المعروفة والمشهورة بالأساطيل البحرية موجودة بالمحيط الهندي، ولهذا السبب ظنّوا بأنّ «الواق واق» تقع في أقاصي جنوب المحيط الأطلسي.

وظل موقع «الواق واق» مجهولا لدى الأندلسيين حتى القرن السادس الهجري - الثاني عشر الميلادي. عندها تبيّن لهم أن البلاد النائية، موطن أصحاب الأساطيل الضخمة التي نسجوا حولها الأساطير إنما هي جزر تقع في أطراف المعمورة شمالا. وقد ذكرها الإدريسي باسم «رسلندة» (إسلندا)، وأطلق على سكانها اسم «الشاسلاند»، استعمرها النّورمان في القرن الثالث الهجري - التاسع الميلادي [الإدريسي، نقل إسماعيل العربي، الأندلس والمغرب، ص 71]، وواضح أن الإدريسي إنما يشير هنا إلى منطقة النورماندي الفرنسية، بكونها أخذت اسم مستعمرها (النورماني).

وممّا يؤكّد وصول الخشخاش إلى جزر إقليم أمريكا الوسطى، ما أورده المسعودي عن مغامرة قام بها هذا الأخير في عرض المحيط الأطلسي، ممّا يشير إلى إصرار أمراء الأندلس على الوصول إلى أرض الغنائم والعجائب، وقد ذكر المسعودي أخبار هذه المغامرة موجزة في كتابه «مروج الذهب»، ثمّ أوردها مفصلة في كتابه «أخبار الزمان» وعنه نقل البكري والإدريسي من بعده.

وقد اعتمد المسعودي على الوسائل المستخدمة في عصره لتأكيد فرضيته وهي الوصف: وصف السكان، وعاداتهم، ولغتهم، ووصف الحيوانات، والنباتات. وقد استمرّ العمل بهذه الوسيلة حتّى بداية القرن العاشر الهجري - السادس عشر للميلاد. ومن الّذين اعتمدوا الجغرافيا الوصفية الرحّالة كريستوف كولومبس. وممّا جاء في كتاب «مروج الذهب» للمسعودي قوله: «ومنهم رجل من أهل الأندلس يُقال له خشخاش، وكان من فتيان قرطبة وأحداثها، فجمع جماعة من أحداثها وركب بهم في مراكب استعدّوها في هذا البحر المحيط، فغاب فيه مدة ثم انثنى بغنائم واسعة.

وخبره مشهور عند أهل الأندلس» [مروج الذهب، 1/ 103].

ولعلّ وصف السكان هو خير دليل على وصول الخشخاش إلى أمريكا الوسطى. فما أورده المسعودي ومن بعده البكري والإدريسي بخصوص السكان لا يدع مجالا للشك بأنّ القوم المعنيين هم الهنود الحمر: «فهم أمّة بجزيرة على شبيه النّساء، سبط الشعور، نواهد الصدور يقال لهنّ بنات الماء، لهنّ قهقهة وضحكة وكلام لا يفهم» [البكري، كتاب المسالك، 1/ 212]. ووصف الإدريسي جزيرة النساء وصفا أكثر دقّة: «وفيها خلق كخلق النّساء، لهم أنياب بادية وعيونهم كالبرق... يتكلّمون كلاما لا يفهم ويحاربون الدّواب البحرية ولا فرق بين الرّجال منهم والنّساء إلا بالذكور والفروج لا غير، ورجالهم لا لحيّ لهم ولباسهم ورق الشجر» [الإدريسي، نقل إسماعيل العربي، الأندلس والمغرب، ص 68].

ومن خلال ما تقدّم يمكننا أن نستنتج بأن هذه الجزيرة قد تكون إحدى جزر الباهاماس الأمريكية التي وصف الخشخاش سكّانها وصفا يتّفق تماما مع وصف الرحالة الّذين ذكرناهم. ومما يزيد من رجحان هذا الافتراض هو أن جزر الباهاماس أقرب الجزر إلى السواحل الأندلسية. فتكون الريح الشرقية قد حملت الخشخاش من الأندلس إلى تلك المناطق مثلما حملت رحّالة عربا آخرين ثمّ كولومبس من بعدهم إلى المناطق ذاتها.

لنفترض أن البيانات التي قدمنا، غير كافية لإثبات وصول الخشخاش إلى شواطئ أمريكا الوسطى. لكن، من يستطيع أن يقدح في وجود التّشابه الواضح بين الأسماء العربية القديمة والأسماء الغربية الحديثة، لهذه الجزر؟ لهذا نرى أنه ليس من البعيد أن يكون مصدر اشتقاق عبارة «باهاماس» (Bahamas) هو تحريف العبارة التي ذكرها البكري: «بنات الماء». وما يزيد في أرجحية هذه الفرضية هو أن الاسم القديم لجزر الباهاماس والذي أطلقه عليها السكان الأصليون هو: لوقاي (Lucay) [انظر موسوعة لاروس الفرنسية (كلمة: Bahamas)]. هذه التسمية سبق إلى ذكرها الإدريسي، بحسب نطقه العربي: جزر «لاقة»، عند وصفه لمجموعة جزر البحر المحيط وهي الخارجة على وصفه لجزائر السعادة (Canarie) [المصدر نفسه، ص 68]. أما كلمة الواقواق التي ذكرها المسعودي في معرض حديثه عن رحلة الخشخاش فمعناها واضح، وليست إلا تحريف الكلمة: الأراواق (Arwaq) وتعني اسم السكان الأصليين لجزر الباهاماس [Revue Science et Avenir, janvier 1992, page 63].

إننا لا نعرف تاريخ الرحلة على وجه التدقيق، ولكنها على الأرجح أنْ تكون قد تمّت عام 235هـ/ 850م، أي في عهد عبد الرحمٰن الثاني، إثر الهجمة «المجوسية» الثانية عام 230هـ/ 845م. وفي دراسة حديثة له، قال الأستاذ يوسف مروة: أمّا العرب المسلمون فقد وصل أول ملاح منهم وهو خشخاش بن سعيد بن الأسود القرطبي إلى جزر البحر الكرايبي عام 275هـ/ 889م. [مجلة العربي، عدد 519، شهر فيفري 2002، ص 68]. ولئن ابتهجنا بتأييد الأستاذ الكريم لنجاح

مغامرة خشخاش وأعجبنا بحكمه على كون كولومبوس هو آخر من قام باستكشاف أمريكا، فنحن نخالفه فقط في ضبط موعد الرحلة، إذ المؤرّخ العذري يؤكد أن خشخاش استشهد عام (245هـ/ 859م).

إن مسألة التثبّت في موعد هذه الرحلة الاستكشافية هامٌّ جدا، إذ التدقيق فيها أوحى لنا بإمكانية وجود قرابة عائلية بين الرحالة البحري «السيرافي سليمان»، والرّحالة البحري خشخاش، فالأول اسمه الكامل: سليمان بن هبّار بن الأسود، أما الثاني فهو: خشخاش بن سعيد بن الأسود (ينظر ترجمة السيرافي سليمان) وإن صدقنا في تخميننا هذا، يحق لنا أن نستنتج أن خشخاش البحري غادر إقليم الشرق العربي زمان بدء رحلات معاصريه إلى بلاد الهند والصين، ليقيم في بلاد الأندلس، لكن ليس فقط لهدف قيادة الأسطول الحربي، إنّما أيضا لهدف الوصول إلى بلاد الهند وبلاد الصين عن طريق الغرب، بحيث أصبح وكأنّه في نفس الموقع الجغرافي، وبالتالي فهو لم يخسر مكانة وطنه الأصلي في التعامل مع نواحي الشرق الأقصى.

فرضية وصول خشخاش إلى أقصى الشرق عن طريق الغرب، يدعمها ما نقله ابن سعيد المغربي عن المسعودي حيث بيّن أن جزيرة «الواقواق» تقع شرق بلاد الصين: «وجزيرة الواقواق في آخر عمارة هذه الجزيرة مع المشرق... حكى المسعودي أن فيها شجرا يخرج نباتا كالابرنج...» [جغرافية ابن سعيد المغربي، ص 89].

ومما سبق ذكره سواء من كلام المسعودي المباشر أو مما نقله عنه ابن سعيد، يتوضّح لنا جليا أن خشخاش فعلا خرج من شواطئ بلاد الأندلس ووصل إلى شواطئ أقصى الشرق الأمريكي. جزيرة واقواق التي نزل فيها قدّرها جغرافيا في شرق تخوم الصين، فزعمه هذا مقبول ومنطقي جدا بما أنه لم ينسبها إلى الهند أو الصين نفسها. بعد ستة قرون كاملة من رحلة خشخاش وقع كولومبوس في خطأ أعظم ونسب تلك الضفة الأمريكية إلى جزر الهند. وقد مات خشخاش، بدون أن يدرك أنه نزل بأطراف قارّة جديدة.

وفي ختام هذه الترجمة نشير إلى أنّ باحثي القرن الماضي حكموا بكون مغامرة خشخاش، لم تتجاوز في البعد، إحدى جزر الأطلسي القريبة من الشواطئ الأندلسية أو المغاربية، أما المحدثون مثل الأستاذ يوسف مروة، فيرى أن خشخاش وصل إلى الجزر الأمريكية ويستشهد في نظريته بوجود المساجد الإسلامية بعدة مناطق ومنها ما هو مكتوب عليها إلى الآن، عبارة: «ولا غالب إلا الله» [المصدر السابق، ص 69]. وقد يضعف هذا البرهان ما ذهب إليه الدكتور عبد المجيد وافي في كون العبارة المذكورة كانت مألوفة لدى البنائين المدجنين، وأنهم كتبوها على مآذن المساجد، بعد استرداد الإسبان للأندلس... [مجلة العربي، العدد 277، ديسمبر 1981، ص 130].

ومع هذا تبقى لرحلة خشخاش أهميتها الأدبية والثقافية، فعلى غرار رحلة سليمان السيرافي التي سجّلت أسبقية اتصال العرب بأقصى الشرق بفضل الرغبة في البحث والتعرّف على الشاي والسكر، مثلا. نجد في المقابل أن

رحلة خشخاش قد أثرت الأدب العربي ببعض ما يختصّ به برّ أقصى الغرب: المسعودي يذكر حيوان آفة الفيل المسمّى بالزبرق - Mouffette - هذا الحيوان الأمريكي يصفه أدق وصف مما نجده في قاموس لاروس الفرنسي [المسعودي، مصدر سابق، ص 332]. شجرة التين الشوكي، الميكسيكية الأصل، يصفها لأول مرة، ابن سعيد المغربي نقلا عن المسعودي، تحت اسم: «الإبرنج» [ابن سعيد مصدر سابق، ص 89] ولعل هذه العبارة هي تحريف العبارة الميكسيكية (Opuntia). أما القزويني فيصف نفس الثمرة، «بشكل العذاري» أي ثمرة لها أشواك صغيرة تشبه زغب العذراء العربية المحافظة [القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص 174].

المصادر والمراجع

- البكري، المسالك والممالك، الدار العربية للكتاب، 1992؛ • ابن عذاري، نصوص عن الأندلس، بيروت، 1983؛ • المسعودي، مروج الذهب، الدار الإفريقية العربية، 1989؛ • ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافية، تحقيق اسماعيل العربي، بيروت، 1970؛ • الإدريسي، نقل إسماعيل العربي، بلاد الأندلس والمغرب، الجزائر، 1983؛ • العذري، البيان المغرب، بيروت، 1983؛ • القزويني، آثار البلاد وأخبار العبّاد، بيروت، 1960؛ • مجلة العربي، العدد 519، فيفري 2002؛ • مجلة العربي، العدد 277، ديسمبر 1981؛
- Revue Sciences et Avenir, janvier 1992.
- Larousse Encyclopédique, Ed: 1985.

أ. حسين عبد العزيز

مهندس - تونس

ابن الخشرم، أبو سليمان هدبة بن كرز

(ت. بين 50 و60هـ/670 و680م)

هدبة بن الخشرم بن كرز من عذرة هكذا يقول ابن قتيبة، أما المرزباني فيتابع سياق النسب حتى يصل إلى سعد، ويقول: «...سعد أخو عذرة». وهذا يعني أن هدبة ينتسب إلى سعد، وليس هو من عذرة، والأصفهاني يختلف مع المرزباني في سياق النسب ولم يذكر عذرة [ابن قتيبة، الشعر والشعراء، 2/ 581؛ المرزباني، معجم الشعراء، 483؛ الأصفهاني، الأغاني، 21/ 254].

وهدبة اسم طائر ويقال: طرف الثوب، والخشرم جماعة النحل وأميرها. ويقول

المرزباني: يكنّى هدبة، أبا سليمان، أمّا الزركلي، فيقول: يكنّى أبا عُمَيْر [معجم الشعراء، 483؛ الأعلام، 8/ 78].

لم نعثر في المراجع والمصادر القديمة على أيّة إشارة تدلّ على تاريخ ولادة هدبة، ولكنّنا نجد في بعضها ما يشير إلى تاريخ الوفاة بطريقة ترجيحية وليست حاسمة، فالزركلي يقول: كانت وفاته نحو 50هـ/ 670م، وفرّوخ يقول: نحو 60هـ/ 680م، وبلاشير يقول نحو 54هـ/ 672م، والجبّوري يحسم مقتله سنة 57هـ حيث يقول: «وكان مقتله في حَرّة المدينة سنة سبع وخمسين من الهجرة وهو شاب» [الجبّوري، شعر هدبة بن الخشرم، ص22].

ويعتمد الجبّوري في ذلك على الرواية القائلة: إنّ مقتل هدبة كان في ولاية مروان بن الحكم، كانت بدايتها سنة 54هـ ونهايتها في ذي القعدة سنة 57هـ حين عُزِلَ عن ولاية المدينة، وفي رواية أخرى تقول سنة 58هـ. وهي السنة التي توفّيت فيها السيدة عائشة أم المؤمنين، والتي أرسل إليها هدبة أن تستغفر له. ولماذا اختار الجبوري سنة 57هـ ولم يختر سنة 56 أو 55 وكلتاهما في ولاية مروان وقبل وفاة عائشة؟ [تاريخ الطبري، 5/ 293؛ الكامل لابن الأثير، 3/ 497].

تكاد تُجمع المصادر والمراجع القديمة على أنه كان لهدبة ثلاثة إخوة كلهم شاعر وهم: حَوْطٌ، وسَيْحَانُ، والواسع وأمّه «حية» كانت شاعرة أيضًا، غير أن شارح الحماسة «التبريزي» يسمّيها «ريحانة». والآمدي يضيف أخًا رابعًا لهدبة واسمه «الأجدع» وهو شاعر ذكر له ثلاثة أبيات أوّلها:

يلامُ رجالٌ قبل تجريب دَهْرِهِم
وكيف يُلام المرء حتى يجرّبا

وأضاف: وله أشعار جياد.

وله أختان شاعرتان أيضًا: الأولى «سلمى» وهي زوجة «زيادة» الذي قتله «هدبة»، والأخرى «فاطمة» التي تغزّل فيها «زيادة» فكانت سبب الشرّ بين الحيّين [الأصفهاني، الأغاني، 21/ 254؛ الجاحظ، الحيوان، 7/ 155].

ويقال: إنه كان لهدبة زوجة واحدة، وكانت من أجمل نساء زمانها، وكان له منها ولدان [يحيى الجبّوري، 6].

إنّ أخبار «هدبة» تكاد تنحصر في الفترة التي بدأ فيها الخلاف بينه وبين صهره «زيادة بن زياد» فقتله، وحُبِسَ «هدبة» وقُتِلَ صبرًا. وكان أوّل ما هاج الحرب بينهما أنّ «حوْطًا» أخا «هدبة» راهن «زيادة» على جملين، وكان مطلقُهما من الغاية، على يوم وليلة، وذلك في القيظ. فمالت «سلمى» مع أخيها «حوط» ووهّنت أوعية ماء زوجها «زيادة» فَغَنِيَ ماؤه قبل ماء صاحبه. فكان ذلك أوّل أسباب الأحقاد بينهما.

ثم إن هدبة وزيادة اصطحبا في ركب من قومهما، فارتجز زيادة بفاطمة أخت هدبة، التي كانت معهم، فقابله هدبة برجز بأخت زيادة وأفحش فيها مثلما أفحش زيادة في رجزه، وتشاتما وتسابا، وتدخّل القوم، وظلّ هدبة أشدّ حنقا لأن أخته فاطمة سمعت قول زيادة، وأخت زيادة كانت غائبة، وبعدها ظلّ هدبة وزيادة يتهاجيان ويتفاخران، وتفاقم الشرّ بينهما، إلى أن تمكّن هدبة من قتل زيادة.

وتنحّى هدبة مخافة السلطان، وكان على المدينة يومئذٍ سعيد بن العاص الذي أرسل إلى أهل هدبة وأودعهم السجن، حينها أقبل هدبة فأمكن من نفسه وتخلّص أهله [ابن قتيبة، الشعر والشعراء، 2/ 581؛ الأصفهاني، الأغاني، 21/ 254]. ظل هدبة في السجن فترة من الزمن، اختُلِفَ فيها، فمن قائل: حُبِسَ ثلاث سنين وقِيلَ خمسًا، وقيل بل ستًّا، ومشت خلالها عشيرة «عذرة» إلى عبد الرحمٰن، أخي زيادة وسألوه قبول الدية فامتنع، وقيل إنّ سعيد بن العاص عرض عليه مائة ناقة حمراء، فلم يقبل. وقيل إنّ أهل المدينة رقّوا لهدبة لوفائه وشعره، وأنه أوّل مصبور في الإسلام. فأضعفوا الدية حتى بلغت عشر ديات، فأبى عبد الرحمٰن إلّا القود. فبقي هدبة في الحبس حتى أقيد منه [المرزباني، معجم الشعراء، 483؛ البغدادي، خزانة الأدب، 9/ 335].

قال المرزباني والأصفهاني: كان هدبة شاعرًا مفلقًا متقدّمًا كثير الأمثال في شعره وكان راوية للحطيئة وكان جميل بن معمّر راوية هدبة. وقال الجاحظ: كان هدبة شاعرًا فصيحًا وكان من شياطين «عذرة» وهذا شعره، كما تراه، وقد أُمِرَ بضرب عنقه وشدّ خناقه، وقليلاً ما ترى مثل هذه الحال، وإنّ امرأً مجتمع القلب، صحيح الفكر، عضب اللسان في مثل هذه الحال، لناهيك به مطلقًا غير موثّق، وادعًا غير خائف. وقال ابن رشيق: ومن الشعراء من شعره في البديهة والرويّة سواء، وعند الأمن والخوف، لقدرته وسكون جأشه وقوّة غريزته كهدبة... ويقول «الجبوري»: وتكثر في شعر هدبة المقطعات والأبيات وفيها دليل على ضياع شعره، وقيل إنّ الشاعر مروان بن أبي حفصة قال: كان هدبة أشعر الناس منذ يوم دخل السجن إلى أن أُقِيدَ منه. ورُوِيَ عن مصعب بن الزبير أنه قال: كنّا بالمدينة أهل البيوتات، إذا لم يكن عند أحدنا خَبَرُ هدبة وزيادة وأشعارهما ازدريناه [الجُبّوري، ص27؛ الأصفهاني، الأغاني، 21/ 254]. ومن المراجزة التي كانت بينهما قول زيادة:

عُوجِي علينا واربَعي يا فَاطِمَا
ما دون أن يُرَى البَعِيرُ قائِمَا
خيرٌ من استقبالك السَّمائِمَا
ومِنْ مُنادٍ يبتغي مُعاكِمَا

أي رجل تناديه تبتغي أن يعينك على عَكْمِكِ حتى تشدّه.

فقال هدبة مرتجزًا بأمّ حازم، وقيل أمّ القاسم، أخت زيادة:

جَذَارِ دارٍ مِنْكَ لَنْ تُلائِمَا
والله لا يَشْفِي الفؤادَ الهائِمَا
ولا اللِّثَامُ دون أن تُفاقِمَا
ولا الفِقَامُ دون أن تفاغِمَا
وتعلُو القوائِمُ القَوائِمَا

[ابن قتيبة، الشعر والشعراء، 2/ 581]

يقول ليس يشفيه التقبيل دون الجماع، ولا الجماع دون التقبيل، وما يشفيه هو أن، تقع السيقان على السيقان.

وظلّا يتفاخران ويطلب كلّ منهما العلوّ على صاحبه في شعره حتى أفضت بهما الحال إلى أن قتل هدبة صاحبَه، فأدخل السجن. ولما

حُمِلَ هدبة إلى معاوية تقدّم معه عبد الرحمٰن أخو زيادة فادّعى عليه. فقال معاوية: ما تقول؟ قال: أتحبُّ أن يكون الجواب شعرًا أم نثرًا؟ قال: بل شعرًا. فقال: هدبة قصيدة ارتجالاً منها:

ألا يا لَقومي للنّوائب والدهر
وللمرء يُردي نفسه وهو لا يَدْري

رُمينا فرامَيْنا فصادفَ رَمْيُنا
منايا رجالٍ في كتابٍ وفي قَدْرِ

وأنت أميرُ المؤمنين فما لنا
وراءكَ من مَعْدّى ولا عنك من قَصْرِ

فإن تَكُ في أموالنا لم نَضِقْ بها
ذِراعًا، وإن صَبْرٌ فَنَصْبِرُ للصَّبْرِ

[المبرد، الكامل، 2/ 362؛ الأصفهاني، الأغاني، 21/ 264].

ولما أُخرج للقتل أظهر صبرًا عجيبًا، فقد انقطع قبال نعله، فجلس يصلحه، فقيل له «أوَتُصْلِحُه وأنت على ما أنت» فقال:

أشُدُّ قِبَالَ نَعْلي أن يَراني
عدوّي للحوادث مُسْتَكِينا

ولما مرَّ على «حُبَّى» وهي زوجة رجل اسمه مالك، فقالت: في سبيل الله شبابك وجَلَدُكَ وشعرُكَ وكَرَمُكَ، فقال هدبة:

تَعَجَّبُ حُبَّى من أسيرٍ مُكَبَّلٍ
صَلِيبَ العَصَا باقٍ على الرَّسَفَانِ

ثم أقبل على أبويه وهما بسوء حال، فقال:

أبْلِيَاني اليومَ صبرًا منكُما
إنَّ حُزْنًا إن بدا بادئُ شَرّ

إصْبِرَا اليومَ فإنّي صابِرٌ
كلُّ حيٍّ لِقَضَاءٍ وقَدَرْ

والتفت فرأى امرأته وكانت من أجمل نساء عصرها، فارتجل مقطوعة بدأها بقوله:

أقِلّي عليَّ اللومَ يا أمَّ بَوْزَعا
ولا تجزَعي مِمّا أصابَ فَأَوْجَعا

إنّنا نحسّ، ونحن نقرأ هذه الأبيات، بالقوّة والصلابة والإباء عند هدبة وبرباطة الجأش في أحلك الأوقات وأصعب الظروف، وكأنّي به، لم يكن بحاجة إلى من يصبّره ويهدّئ من روعه، وهذا ما يحملنا على الموافقة على رأي الجاحظ الآنف الذكر.

إننا نجهل المرحلة الأولى من حياة هدبة مرحلة الفتوّة وريعان الشباب، ومعظم الشعر المنثور عنه وهناك في المصادر القديمة من أدبيّة وتاريخية ونحوها، هو شعر الخصومة والسجن، حيث عبّر عن ذلك أفضل تعبير، هذا هو الأساس، ورغم ما اشتهر عنه من جلادة وصبر، تظلّ عنده العواطف الإنسانية والميول والرغبات، سنحاول العمل على التنقيب عنها من خلال مأساته.

قال هدبة في الغزل:

تَذَكَّر حُبًّا كان في مَيْعَةِ الصِّبَا
وَوَجْدًا بها بعد المشيبِ مُعَتَّبا

إذ كادَ ينساها الفؤادُ ذَكَرْتُها
فيا لكِ ما عَنّى الفُؤادَ وعَذَّبا

[الأصفهاني، الأغاني، 21/ 262؛ الجبّوري، شعر هدبة، 60]

وفي الفخر بنفسه وبقبيلته يقول:

إنّي مِنْ قُضاعَةَ مَنْ يَكِدْها
أكِدْهُ وَهْيَ مِنّي في أمانِ

ولَسْتُ بِشاعِرِ السَّفْسافِ فيهم
ولكنْ مِدْرَهُ الحَرْبِ العَوانِ

ومن وصفه للسجن وحاله فيه يقول:

حديدٌ ومرصوصٌ بِشَيْدٍ وجَنْدَلٍ
له شُرُفاتٌ مَرْقَبٌ فوقَ مَرْقَبِ

يُخَيِّرُني تَرّاعُه بينَ حَلْقَةٍ
أُزُومٍ إذا عَضَّتْ، وَكَبْلٍ مُضَبَّبِ

ومن قوله في الحكمة:

وَكُنْ مَعْقِلاً للحلْمِ واصْفَحْ عن الخَنَا
فإنَّكَ راءٍ ما حَيِيتَ وسامِعُ

وقال أيضًا:

إصْحَبِ الأخْيارَ وارْغَبْ فيهِمُ
رُبَّ مَنْ صاحَبْتَهُ مِثْلُ الجَرَبْ

ويستسلم هدبة إلى مصيره ويتوجه إلى الله يناجيه ويلتمس المغفرة فيقول:

أذا العَرْشِ، إنّي مُسْلِمٌ بك عائذٌ
من النار ذو بَثٍّ إليك فقيرُ

وقال أيضًا:

لأعْلَمُ أنَّ الأمرَ أمرُكَ إنْ تَدِنْ
فَرَبٌّ، وإنْ تَغْفِرْ فأنتَ غَفُورُ

وأخيرًا، عرفنا الشعراء يرثون الإنسان بعد موته، أمّا صاحبنا هدبة فقد رثى نفسه قبل موته، قال:

الا علّلاني قبلَ نَوْحِ النوائحِ
وقبلَ اطّلاعِ النفسِ بينَ الجَوانِحِ

هذا هو هدبة الذي أصبح من أشعر الناس منذ يوم دخوله السجن إلى أن أقيد منه.

آرشادة

يوجد كتاب يحمل اسم: «شعر هدبة بن الخشرم العذري»، جمع وتح. د. يحيى الجبوري، وهو من منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1976. وقد أشار صفحة 23 نقلاً عن الفهرست لابن النديم أنّ أبا سعيد السكري (ت 275هـ) قد عمل شعر هدبة مع ما عمل من دواوين لفحول الشعراء، وكذلك ألّف «السكري» مجموعة من الكتب منها: أخبار هدبة بن الخشرم وزيادة العذري، ولكنّ الجبّوري لم يعثر على شيء منها. ولمن يريد البحث والتدقيق يمكن الاطلاع على ما ورد أعلاه في كتاب الفهرست للنديم ص86 و180، تح. رضا تجدد، طهران، أكتوبر 1971.

وهذا ما ذكره أيضًا ياقوت في معجم الأدباء، المجلّد الرابع، الجزء الثامن، ص98، دار المستشرق ودار إحياء التراث العربي، بيروت.

المصادر والمراجع

● الجاحظ، الحيوان، تح. عبد السلام هارون، المجمع العلمي العربي الإسلامي، بيروت 1969، ط3، 7/ 155؛ ● القالي، كتاب الأمالي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1/ 71، 2/ 204؛ ● التبريزي، شرح ديوان الحماسة «أبو تمّام»، عالم الكتب،

بيروت، 2/ 12؛ ● الأصبهاني، الأغاني، تح. العزباوي غنيم، إشراف محمد أبو الفضل إبراهيم، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت، 21/ 254 ـ 274؛ ● المبرّد، الكامل في اللغة والأدب، مكتبة المعارف، بيروت، 2/ 362 وما بعدها؛ ● فرّوخ، عمر، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت 1981، ط4، ص396 ـ 401؛ ● شيخو، لويس، شعراء النصرانية بعد الإسلام، المكتبة الشرقية ودار المشرق، بيروت 1967، ط3، 2/ 95 ـ 113؛ ● المرصفي، رغبة الآمل من كتاب الكامل، مكتبة الأسدي، طهران 1970، 2/ 242، 343، 8/ 240 وما بعدها، والحاشية؛ ● الجبّوري، يحيى، شعر هدبة بن الخشرم، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1976، ص5 وما بعدها؛ ● الصمد، واضح، السجون وأثرها في الآداب العربية، مؤسسة مجد الجامعية للدراسات والنشر، بيروت 1995، ط1، ص148 وما بعدها.

د. واضح الصمد
الجامعة اللبنانية

الخشني، أبو ذر مصعب بن محمد بن مسعود

(535هـ/1139م ـ 604هـ/1208م)

مصعب بن محمد بن مسعود الخشني ـ يعرف بابن أبي ركب ـ جمع ركبة ـ وخشين قرية بالأندلس، وقبيلة من قضاعة وإلى القبيلة ينسب، من أهل جيان، إمام علامة في العربية والنحو، من المتقنين الضابطين، مع اتساع في اللغة والأدب، والحديث والفقه، وغير ذلك، من أهل بيت علم ودين يعرفون ببني أبي ركب.

تجول بالأندلس، والعدوة، وطلب العلم، واعتنى وقيّد، أخذ عن أبيه أبي بكر علم العربية واللغات والآداب، وعن أبي بكر بن طاهر، ومن أبي الحسن بن حنين، وأبي عبد الله النميري، وابن قرقول، وابن بشكوال وعن عبد الحق الأشبيلي ببجاية، وطلب منه أن يقرأ عليه السيرة، فقال عبد الحق: أو تحسن ذلك؟ يشير إلى صعوبة الكتاب، بما انطوى عليه من شعر وغريب، وأسماء مشكلة، ثم أخذ بالقراءة فسرّ عبد الحق به، فلما أكمل الكتاب أراد الطلبة النزهة، فقال الشيخ: أنا أولى من صنع لكم ذلك لانتفاعي بقراءة هذا الأستاذ عليّ، منوهاً بأبي ذر.

وكتب إليه مجيزاً أبو محمد الدبباجي، وأبو محمد العثماني، وأبو طاهر السلفي من المشرق.

روى عنه علماء جلّة منهم: أبو محمد، وأبو سليمان ابنا حوط الله، وأبو العباس العزفي،

وأبوعبد الله الأزدي، وأبو الخطاب بن خليل، وأبو الحسن الغافقي، وابن فرتون أحمد بن يوسف، وغيرهم.

أقرأ العلم ببلده جيان، وأشبيلية، وسبتة، وفاس، وبجاية وغيرها، كان رئيساً في العربية، عالماً بها، قائماً عليها درّسها طول حياته، ورحل الناس إليه فيه، متقدماً في معرفة كتاب سيبويه ومعرفة أغراضه وغوامضه، وبعد صيته، مع الأخذ بحظ من قرض الشعر، ونقده، مطلق العنان في معرفة أيام العرب، وأشعارها ولغاتها، ولم يكن في وقته من شيوخ العلم أضبط منه، ولا أتقن تقييداً، راوياً لكتب شتى في فنون كثيرة، ذا سمت ووقار، وفضل ودين، ومروءة كثير الحياء على سنن السلف، يأبى الجواب فيما يراجع هيبة، قليل التصرف في أمور الدنيا، لايخرج من بيته إلا لإقرائه، أو الصلاة إذا حضرت، يقرئ النهار كله، وبعض الليل، قال ابن سعيد: ذكر والدي أنه كان من عظماء نحاة الأندلس. وقال ابن الزبير: وأخباره كثيرة مستحسنة، وقد سارت بتصانيفه الركبان، وكان الوزراء والأعيان يمشون إلى مجلسه، وإذا ركب مشوا معه.

وكان أبو ذر قد سكن أشبيلية، وولي بها الخطابة، وقضاء المناكح ثم سكن مدينة فاس، ثم ولي قضاء جيان أيام يعقوب المنصور سنة تسعين وخمسمائة للهجرة ثم أُخر عنه لنزاع بينه وبين واليها، وقيل لأمر غير هذا، ثم سكن مدينة فاس ثانية إلى أن توفي بها ضحى يوم الإثنين الحادي عشر من شوال سنة 604هـ ودفن بعدوة القرويين، خارج باب الفتوح.

آثاره

1 - إملاء في شرح غريب السيرة، وهي سيرة عبد الملك بن هشام المتوفى218هـ التي هذب فيها سيرة محمد بن اسحق المتوفى 151هـ، وسماه بعضهم: المختصر في شرح غريب السيرة. وسماه آخرون: شرح السيرة النبوية.

وقد أملى هذا الشرح من حفظه على كتاب سيرة رسول الله، أثناء سماع الطلبة وغيرهم الكتاب عليه فأجاد وأفاد، وغار في البلاد وأنجد. بدأه بقوله: الحمد لله باعث الرسل، وناهج السبل، الذي هدانا للإسلام، وشرفنا بملة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام...

وبعد فهذا إملاء أمليته من حفظي بلفظي على كتاب سيرة رسول الله التي تقدم محمد بن اسحق إلى جمعها وتلخيصها، أوان سُمع هذا الكتاب مني، وقُيِّدت رواياته بطرقها عني، قصدت فيه شرح ما استبهم من غريبه، ومعانيه، وإيضاح ما التبس تقييده على حامله وراويه، مع اختصار لا يخل، وإيجاز يتم به البيان ويستقل...

وقد عرض في هذا الشرح للأسماء فضبطها، وبيِّن معانيها في اللغة، كما عرض للّغة ففسرها، وللأبيات الشعرية - وهي كثيرة في السيرة - فتتبعها، وكشف معانيها ببيان موجز وعبارة محكمة، وتفسير واضح سهل المأخذ، قريب المعنى، وبدأ عمله بتفسير ما في نسب رسول الله «من الغريب، وختمه بتفسير غريب أبيات حسان بن ثابت في رثاء رسول الله».

وقد قسم شرحه إلى عشرين جزءاً على طريقة المحدثين والأوائل، وضبط روايات السيرة وأثبت الخلافات بينها وفسر ذلك.

ويذكر في تفسيره أحياناً بعض لهجات العرب، ووجوه النحو والإعراب. ويستشهد في شرحه بالشعر، ويبين وجهه ومعناه.

وفيه بعض أحاديث نقلها بإسناده الطويل إلى النبي. وقد كان في عمله هذا لايحيل إلى المصادر التي يقتبس منها في اللغة أو الأنساب إلا نادراً، ككتاب «العين» للخليل في اللغة، وللدارقطني وعبد الغني بن سعيد في الأنساب، بل كان ينتقي ويفسر حسب المقام مما جعل لكتابه عذوبة خاصة. وأصبح الدارسون بعده يحيلون إليه ويعتمدونه كواحد من الكتب النفيسة المحررة، وقد امتدحوه، وأفادوا منه كثيراً وسار مع الأجيال، ولا زال.

وللكتاب مخطوطات عديدة ذكرها بروكلمان، وسزكين في «تاريخ التراث العربي»، والكتاب مطبوع. ومن ذلك الطبعة التي استخرجها وصححها بولس برونلة المطبوعة بإرادة أمبراطور ألمانيا وملك بروسيا، وملك ورتمبرج، سنة 1329هـ بمطبعة هندية بالموسكي بمصر، في مجلدين صغيرين عدد صفحاتهما 466 مع مقدمة بالانجليزية في ثماني صفحات.

وقد نظم هذا الكتاب ثم شرحه فتح بن موسى المغربي المتوفى 663هـ، ونشر شرحه وشرح السهيلي للشعر الوارد في غزوة أحد المستشرق أ. شاده A.. schaade في ليبتزج 1920م.

2 ـ شرح كتاب سيبويه، وهو مصنف كبير كما يقول الإمام الذهبي؛ 3 ـ شرح كتاب الإيضاح للفارسي؛ 4 ـ شرح كتاب الجمل؛ 5 ـ تأليف في العروض، وصفه ابن الأبار بأنه صغير؛ 6 ـ وله شعر في فنون شتى ـ نقل بعضه ـ وشروح وتعاليق.

المصادر والمراجع

● ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، 2/ 188 ـ 189، ترجمة رقم 493، تح. د. عبد السلام الهراس، نشر دار المعرفة بالدار البيضاء د.ت؛ ● ابن الزبير الغرناطي، صلة الصلة، القسم الثالث، ص 74 ـ 76، ترجمة رقم 99، تح. د. عبد السلام الهراس، وسعيد أعراب، ط. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب 1413هـ/ 1993م؛ ● ابن القاضي، جذوة الاقتباس، 1/ 336، ط. دار المنصور للطباعة والوراقة بالرباط 1973م؛ ● ابن سعيد، المُغرب في حلى المغرب، 2/ 55، تح. شوقي ضيف، سلسلة ذخائر العرب 10، ط. دار المعارف بمصر د.ت؛ ● ابن أبي زرع، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، ص 42 ـ 44، ط. دار المنصور للطباعة والوراقة بالرباط 1972 م؛ ● الذهبي، سير أعلام النبلاء، 21/ 477 ـ 478، تح. د. بشار عواد معروف ود. محيي هلال السرحان، ط. مؤسسة الرسالة 1404هـ/ 1984م؛ ● الذهبي، تاريخ الإسلام مجلد وفيات 601 ـ 610هـ، ص 163 ـ 164، تح. د. عمر عبد السلام التدمري، نشر دار الكتاب العربي، ط. الأولى 1417هـ/ 1997م؛ ● الحميري، الروض المعطار، ص 184، تح.

د. إحسان عباس، ط. مؤسسة ناصر للثقافة الثانية 1980م؛ ● السيوطي، بغية الوعاة، 2/ 287 ـ 288، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. دارالفكر 1399هـ/ 1979م؛ ● ابن العماد، شذرات الذهب، 14/ 5، ط. المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ببيروت د.ت؛ ● إسماعيل باشا البغدادي، هدية العارفين، 2/ 465 ـ 466، منشورات مكتبة المثنى ببيروت عن طبعة استانبول سنة 1955م؛ ● كحالة، معجم المؤلفين، نشر مكتبة المثنى، بغداد ودار إحياء التراث العربي ببيروت د.ت؛ ● بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، 14/ 3، ترجمة د. عبد الحليم النجار، ط. دار المعارف بمصر، الرابعة د.ت؛ ● الزركلي، الأعلام، 7 / 249، ط. الرابعة بدار العلم للملايين ببيروت 1979م؛ ● سزكين، تاريخ التراث العربي، 1/ 2/ 109، ترجمة د. محمود فهمي حجازي، ط. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض 1403هـ/ 1983م.

د. فاروق حمادة
جامعة محمد الخامس ـ الرباط ـ المغرب

الخشني، أبو عبد الله محمد بن حارث بن أسد

(ت 371هـ/ 981م)

هو أبو عبد الله محمد بن حارث بن أسد. وتتفق كل المصادر والمراجع على إضافة نسبة الخشني إليه، أي أنّه منسوب إلى خشن وهو اسم موضع بإفريقية حسب ما أورده ياقوت الحموي [ياقوت الحموي، معجم البلدان، طبعة دار صادر ببيروت، 2/ 374]. وتضاف إليه في نفس الوقت نسبة القيرواني ثم الأندلسي [الزركلي، الأعلام، 6/ 75]، ويعرف الخشني في المصادر بابن حارث، وهو الفقيه الحافظ... المؤرخ [مخلوف، شجرة النور، 1/ 94].

ولد بالقيروان، لكن كل المصادر والمراجع أهملت سنة ولادته. ويمكن أن يكون ذلك سنة 288هـ/ 901م أو بعدها بقليل، أي أنّه من مواليد الربع الأخير من القرن الثالث للهجرة/ 9م [شيخة، جمعة، أبو عبد الله محمد بن حارث بن أسد، الكراسات التونسية، عدد 103 ـ 104].

عاش الخشني وشبّ بالقيروان في نهاية القرن الثالث للهجرة / 9م وبداية القرن الرابع للهجرة / 10م وهي مرحلة عصيبة من تاريخ إفريقية بسبب انهيار الدولة الأغلبية وقيام الدولة الفاطمية. وشاهد وهو يتعلّم محنة سببها تعسّف الدولة الفاطمية على علماء السنة المالكية. وهو الذي صوّر لنا فيما بعد في تآليفه صورا من الصراع الحاصل بين فقهاء

المذهب المالكي والمذهب الشيعي حيث بدأت المسألة في شكل مناظرات ثم تحوّلت إلى تعسّف شديد. وأشهر المناظرات التي سجّلها في كتابه طبقات علماء إفريقية وقعت بين أبي العباس المخطوم الشيعي، وأبي عثمان سعيد بن الحداد (ت 302هـ/ 914م) وتناولت مبادئ دينيّة أهمها الإقرار بأن علي بن أبي طالب أفضل من أبي بكر وعثمان وبالتالي فهو أولى منهما بالخلافة.

وفي مرحلة من حياته خرج الخشني من القيروان قاصدا الأندلس سنة 311هـ/ 923م أو سنة 312هـ. ووصلها في عهد الخليفة الأموي عبد الرحمٰن النّاصر بن محمّد (300 ـ 350هـ/ 912 ـ 961م). وسكن مناطق شتّى أندلسيّة منها قرطبة، ثم قصد مدينة سبتة المغربيّة مدّة من الزّمن قبل سنة 320هـ/ 932م فأعجب أهلها بشخصيته العلمية وتفقهت طائفة منهم عليه [عياض، المدارك، 4/ 531]. ثمّ عاد إلى الأندلس، وبعد أن تردّد في كور الثغور آثر الاستقرار بقرطبة [ابن فرحون، الدّيباج، 355] التي بلغت عظمة فائقة وتسمّت بدار العلوم خاصة في عهد الحكم الثاني بن عبد الرحمٰن الملقّب المستنصر (350 ـ 366هـ/ 961 ـ 976م). والحكم هذا هو الذي قرّب إليه الخشني وكلّفه بوضع عدد من الكتب، كما عهد إليه بخطّة المواريث ببجّانة (Pechina في إقليم المريّة) ثمّ الشّورى بقرطبة. لكن إثر وفاته تقلّصت حظوة مترجمنا في قصر الأمير المنصور بن أبي عامر الذي كان يحكم باسم الخليفة الأموي هشام الثّاني بن الحكم الملقّب بالمؤيّد (366 ـ 399هـ/ 976 ـ 1008م)، وابتعد الخشني عن القصر وصار يشتغل بصناعة الأدهان ويبيعها للنّاس إلى أن توفي ودفن بقرطبة.

تفقّه الخشني بالقيروان على أحمد بن نصر، وأحمد بن زياد، وأحمد بن يوسف، وابن اللباد، والممسي، وسمع من غير واحد من شيوخ إفريقية. ولمّا قدم الأندلس سمع من شيوخ قرطبة كمحمد بن عبد الملك بن أيمن، وقاسم بن أصبغ، وأحمد بن عبادة، ومحمد بن لبابة، والحسن بن سعد. وكلّ هؤلاء الشيوخ من أعلام المذهب المالكي الذين عرفوا بالاجتهاد والمناظرة، ومنهم تعلّم فنّ المناظرة. وقد بدأ نبوغه المبكّر في ميدان المناظرة قبيل انتقاله إلى الأندلس. فقد نقل المعيطي بن أحمد بن عبادة الرعيني أنه رأى الخشني سنة 11 (أي سنة 311هـ) في مجلس أحمد بن نصر وهو شعلة يتوقد في المناظرة. [المدارك، 4/ 532].

تختلف المصادر في ذكر تاريخ وفاة ابن حارث الخشني. فقيل إنّه توفيّ سنة 361هـ/ 971م وهو ما ذكره الفرضي في تاريخ علماء الأندلس، والقاضي عياض في المدارك، وابن فرحون في الدّيباج، وتبنّاه محمد مخلوف في شجرة النّور الزّكية، واستعمله محقّقو كتبه الثلاثة المطبوعة والمذكورة آنفا. وأضاف كلّ من القاضي عياض، وابن فرحون تاريخا آخر لوفاته مع التّاريخ الأوّل وهو سنة 364هـ. إلّا أنّ الذّهبي نبّه إلى وجود خطأ في تاريخ وفاته سنة 361هـ معتمدا في ذلك على أنّ الخشني عاش بعد وفاة الخليفة الأموي الحكم سنة 366هـ/ 976م، وحدّد الذّهبي تاريخ وفاته بسنة 371هـ/ 981م، وهو ما نميل إليه، لأنّ المصادر ذكرت أنّ مترجمنا استحال عليه العيش مع الحاكم الجديد للأندلس وغيّر

نمط عيشه تماما وصار يشتغل بصناعة الأدهان كما قلنا.

وإنّنا إذ نرفض التّاريخ الذي قدّمه الزركلي في الأعلام وهو سنة 366هـ. فإنّنا نعتبر أنّه توفيّ في الرّبع الأخير للقرن الرّابع للهجرة/ 10م في سنة يبعد أن تكون سنة 381هـ/ 991م حسب دراسة الباحث جمعة شيخة [مقال سبق ذكره، ص 51].

■ آثاره

برع ابن حارث الخشني في عدّة علوم وضع فيها مجموعة من التّآليف. ووصفت تآليفه بأنّها «تآليف حسنة مفيدة» [مخلوف، شجرة النّور، 1/ 94] لكنّها لم تذكر كلّها في كتب التراجم، ويعتبر ابن فرحون في كتابه الدّيباج أكثر أصحاب التّراجم إحصاء لكتبه. وتنتمي تآليفه إلى ميادين الفقه، والتاريخ، والتراجم، والشعر. لكن لم يؤثر أنّ الخشني كتب في ميدان الكيمياء رغم علمه بصناعة الأدهان وهي المهنة التي تعاطاها في آخر حياته.

وصارت تآليفه من بعده مرجعا للمؤلّفين أصحاب كتب التّاريخ والتّراجم. فالخشني هو أحد المصادر التي أخذ منها كلّ من أبي العرب (ت 333هـ/ 944م) في طبقاته، وابن الفرضي (ت 403هـ/ 1013م) في تاريخه، والدبّاغ (ت 699هـ/ 1300م) في معالم الإيمان، والقاضي عياض (ت 544هـ/ 1149م) في مداركه...

أ ـ في مجال الفقه:

ترك الخشني عددا من الكتب تعبّر مضامينها عن تطوّر المدرسة الفقهيّة المالكية في عهده بالقيروان والأندلس وهي:

1 ـ كتاب الاتفاق والاختلاف في مذهب مالك [الدّيباج، 355، وتوجد منه نسخة مخطوطة بدار الكتب الوطنية بتونس رقم 17778]؛ 2 ـ كتاب رأي مالك الذي خالفه فيه أصحابه [الدّيباج]؛ 3 ـ كتاب الفتيا [المدارك، 4/ 531]، ومن المرجّح أن يكون عنوانه الكامل أصول الفتيا في الفقه على مذهب الإمام مالك. وسنتناوله بالدّراسة لاحقا؛ 4 ـ كتاب المحاضر [الدّيباج]، وهي فصول المقالات التي تستفتح بها الخصومات؛ 5 ـ كتاب التّحاصر والمغالاة [المدارك، 4/ 531].

وتفسّر هذه الكتب ما جاء من نعوت في كتب الطبقات من أنّه «كان حافظا للفقه، متقدّما فيه...، عالما بالفتيا، حسن القياس في المسائل» [الدّيباج].

ب ـ في مجال التاريخ والتّراجم:

ترك الخشني جملة من كتب التاريخ والتّراجم شملت عددا من علماء المذهب المالكي عامّة وعلماء إفريقية والأندلس خاصّة. وقد قسّم البعض منها إلى طبقات، واختصّ البعض الآخر بذكر النّسب وتواريخ الولادة والوفاة. وأهمّ هذه المصنّفات هي:

1 ـ كتاب الرواة عن مالك أو طبقات من روى عن مالك [الدّيباج]؛ 2 ـ كتاب مناقب سحنون [الدّيباج]؛ 3 ـ كتاب قضاة قرطبة وسمّاه ابن فرحون تاريخ قضاة الأندلس [الدّيباج]، وهو أخبار القضاة عند البغدادي [هديّة العارفين، 2/ 38] وسنتناوله بالدّراسة

لاحقا؛ 4 ـ طبقات فقهاء المالكية [الدّيباج]؛ 5 ـ علماء إفريقية أو طبقات علماء إفريقية [مخلوف، شجرة النّور، 1/ 94] أو هو تاريخ الأفارقة [الطالبي، تراجم أغلبية، (مقتبسة من المدارك)، تونس 1968، 208] وسنتناوله بالدّراسة لاحقا؛ 6 ـ أخبار الفقهاء والمحدّثين [البغدادي، هديّة العارفين، 2/ 38]، وهو حسب الزّركلي أخبار الفقهاء [الأعلام، 6/ 75]؛ 7 ـ كتاب التعريف [الدّيباج]، وهو الذي ذكره الخشني في كتابه علماء إفريقية؛ 8 ـ كتاب المولد والوفاة [المدارك 4/ 531؛ الدّيباج، 355]؛ 9 ـ كتاب النّسب [المدارك، 4/ 531؛ الدّيباج، 355].

وهذه الكتب تثبت ما ورد في كتب الطبقات من أنّه «كان عالما بالأخبار وأسماء الرجال» [الدّيباج].

ج ـ في مجال الشعر:

لم تسجّل لنا كتب التّراجم أسماء الدّواوين التي كتبها الخشني، وهو الذي وُصف بالشاعر البليغ. وقد يكون اتّهامه باللحن في الشّعر وراء ضياع ما كتب، وقد قيل إنّه أنتج مائة ديوان [المدارك، 4/ 532، الدّيباج، 355].

آثاره المطبوعة:

من جملة آثاره العديدة نعرّف بثلاثة كتب تمّ طبعها ونشرها للنّاس، وهي: كتاب أصول الفتيا في الفقه، وكتاب قضاة قرطبة، وكتاب طبقات علماء إفريقية في التّراجم.

1 ـ كتاب أصول الفتيا في الفقه على مذهب الإمام مالك:

نتبيّن من خلال هذا الكتاب الفقهي أنّ ابن حارث الخشني جمع أصول المذهب المالكي التي تساعد على استنباط أحكام الفروع. وتوخّى صاحبه فيه الوضوح وابتعد عن التّعقيد وترك التّكرار والاختصار المخلّ والتّطويل المملّ. وقال في مقدّمة كتابه: «فإنّي جمعت في هذا الكتاب أصول الفتيا على مذهب مالك بن أنس والرّواة من أصحابه جمعا محكما، قيّدت فيه المعاني المكرّرة، والمسائل المفتية بالألفاظ الموجزة. والإشارة المبهمة ولم أدع أصلا يتفرّع منه حباد المعنى، ولا عقدة يستنبط منها حسان المسائل بلغ إليها علمي، ووجدتها حاضرة في حفظي، إلا أودعتها كتابي، وضمنتها رسمي» [أصول الفتيا، 44]، وبشّر على القارئ فهم الكتاب بوضع فهرس مفصّل لأبوابه العديدة. وقال في ذلك: «وقد قيّدت في صدره التّعريف بجميع ما يحويه من الأبواب ليكون ذلك دلالة للمتعرّف ومفهما للمتصفّح» [أصول الفتيا، 45]. وعدد هذه الأبواب ثمانية وستّون بابا، منها الأبواب الفقهيّة المألوفة في سائر كتب الفقه كالوضوء والصلاة والزكاة والصوم من العبادات، وكالبيوع والإجازات والقراض من المعاملات. ومنها أبواب تخص مواضيع متفرّقة مرتبطة بواقع الأندلس الاجتماعي والاقتصادي كباب أحكام المرأة، وباب أحكام البنيان والأبواب المعلّقة بأحكام العبيد والإماء والعتق وغير ذلك.

وقام بإصدار هذا الكتاب وتحقيقه والتعليق عليه الأساتذة محمد المجدوب، ومحمد أبو الأجفان، وعثمان بطيخ، ونشرته الدار العربية للكتاب سنة 1985.

2 ـ كتاب قضاة قرطبة:

أشار الخشني في مقدّمة هذا الكتاب إلى أنّ الخليفة الأموي الحكم هو الذي أمره بكتابته وطلب منه أن يجعله خاصّا بقضاة قرطبة. ونصّ على ذلك بقوله: «فإنّه لمّا أمر الأمير. يعني الحكم ـ أبقاه الله بتأليف كتاب القضاة مقصورا على من قضى للخلفاء ﷺ، بأرض المغرب في الحاضرة العظيمة قرطبة» [طبعة الأبياري، 1989، ص 24]، ومن هنا نفهم أنّ عنوان الكتاب هو قضاة قرطبة، لا تاريخ قضاة الأندلس كما ذكر ابن فرحون في الدّيباج.

والكتاب مرويّ عن أبي محمد بن عتاب عن أبيه عن أبي بكر التجيبي [طبعة الأبياري، ص 22]، وهذا يعني أنّ الخشني حدّث به، وعن هذا التّحديث حدّث أبو بكر التُّجيبي، وعنه حدّث عتّاب، وعن عتّاب حدّث ابنه أبو محمّد. فالظاهر أنّ هذا الكتاب ظهر بعد وفاة الخشني بواسطة من سمعه منه.

وتحدّث الخشني في كتابه سير قضاة مدينة قرطبة من الفتح الإسلامي إلى سنة 375هـ/ 986م، وقدّم بالتّالي معلومات عن قرطبة في عصر الإمارة الأمويّة بالأندلس. فوفّر لنا مادّة قيّمة لدراسة نظام القضاة في الأندلس، وعرّفنا بأصول القضاة (عربا أو مولدين أو بربرا)، وأطلعنا على كفاياتهم وموازينهم في إصدار الأحكام. كما قدّم لنا مادّة طيّبة عن إجراءات التّقاضي ونظام المحكمة وجلال منصب القضاء بالمقارنة مع ما كان عليه الحال في غير الأندلس من البلاد الإسلامية.

والأكيد هو أنّ الخشني قد كتب الكتاب وتحت يده مادّة غزيرة مأخوذة من الوثائق المحفوظة في ديوان الخلافة وسجلات القضاة والأوراق الخاصة لبعض الأفراد وعدد من الكتب، بالإضافة إلى الرّوايات التي يتناقلها النّاس.

أمّا إصدار الكتاب فقد تولّاه أوّلا المستشرق الإسباني خوليان ريبيرا ونشره بمدريد سنة 1914، وجعل معه مقدّمة وترجمة للكتاب بالإسبانيّة.

ثمّ أصدر السيّد عزّت العطار الحسيني هذا الكتاب بالقاهرة في طبعته الأولى سنة 1372هـ/ 1952م وجعل معه كتاب «علماء إفريقية» لنفس المؤلّف.

وبعد ذلك أصدر الباحث إبراهيم الأبياري الكتاب مع تحقيق تضمّن شروحا وفهارس ونشره في طبعة أولى سنة 1401هـ/ 1981م، وصدر ضمن المكتبة الأندلسيّة، المجلّد عدد 6.

3 ـ طبقات علماء إفريقية:

اعتنى الخشني في هذا الكتاب بتراجم علماء إفريقية ونظّمهم في طبقات. وترجم لكلّ العلماء بقطع النّظر عن انتمائهم إلى المذهب المالكي أو الحنفي رغم كونه مالكيّ المذهب، مما يعني أنّه ذكر الواقع دون تعصّب لمذهبه. وصوّر لنا بذلك آثار الاتجاهين الفكريين الكبيرين الموجودين بالقيروان المنبثقين عن المدرسة المالكية والمدرسة الحنفية. وترجم الخشني كذلك للعلماء الذين كانوا من إفريقيّة أو من أصل آخر ووفدوا عليها واستقرّوا بها. ثم ترجم لكل من رحل إلى المشرق من القيروانيين. وترجم أيضا لقضاة القيروان وتحدّث عنهم.

لكن يبدو أنّ هذا الكتاب وصل إلينا مبتورا لأنّه لا يشتمل على مقدّمة، ثم إنه بدأ مباشرة بترجمة محمّد بن سحنون (ت 256هـ/ 869م). والحال أنّ كلّ كتب التّراجم تبدأ بمقدّمة تنصّ على غاية المؤلّف في كتابة الكتاب. ثمّ إنّ طبقة محمد بن سحنون ليست الأولى في طبقات علماء إفريقيّة إذ تسبقها مثلا طبقة والده الإمام محمد بن سحنون (ت 240هـ/ 854م) ولا نجده تحدّث عنها في كتابه وهو أمر مستبعد.

وتكمن أهميّة هذا الكتاب ـ على اختصاره ـ في تقديم جملة من المعلومات التّاريخية المفيدة التي تتعلّق بالحياة الثقافيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة بالقيروان في القرون الأولى من الحضور الإسلامي بالمنطقة.

وقد كان الباحث محمد بن شنب أوّل من أصدر هذا الكتاب وجعل معه كتابا آخر في الموضوع نفسه لأبي العرب (ت 333هـ/ 944م) وجعلهما تحت عنوان طبقات علماء إفريقية، وقام بترجمتهما إلى الفرنسيّة ونشرهما عام 1332هـ/ 1914م.

المصادر والمراجع

● القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تح. أحمد بكير محمود، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، ودار مكتبة الفكر، طرابلس ليبيا، 4/ 531 ـ 532؛ ● ابن فرحون، الديباج المذهب، دراسة وتحقيق مأمون بن محيي الدّين الجنّان، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 1417هـ/ 1996م، التّرجمة 375، ص 355؛ ● الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، 1986، 6/ 75؛ ● مخلوف، شجرة النّور الزكيّة، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، 1/ 94 ـ 95؛ ● آنخل جنثالث بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، نقله عن الإسبانيّة حسين مؤنس، ط 1، القاهرة، ماي 1955، ص 267 ـ 270.

د. منير رويس
الجامعة التونسية

الخصّاف، أبو بكر أحمد بن عمرو الشيباني

(181هـ/797م ـ 261هـ/875م)

أبو بكر أحمد بن عمرو، وقيل عمر، بن مهير الشيباني المعروف بالخصاف، فرضيّ حاسب، شيخ الحنفية في عصره. والخصاف نسبة إلى خصف النعال، (خرزها بالإبرة)، واشتهر بذلك لأنه كان زاهدا ورعا يأكل من كسب يده، كذا ذكر ابن النجار في تاريخه [ابن أبي الوفاء، الجواهر المضية، 1/ 231]. كما ذكره المرغناني الحنفي في

«الهدايا» بلقبه الخصاف، ونقل عنه مسائل فقهية في مواضع عديدة منها كتاب أدب القاضي - باب كتاب القاضي إلى القاضي - [3/ 106]، وكتاب الوديعة [3/ 219].

حدث عن أبيه وعن أبي عاصم النبيل، وأبي داود الطيالسي، وهشام بن عبد الملك، وإبراهيم بن بشار الرمادي، ومسدد بن مسرهد، ووهب بن جرير، وأبي عامر العقدي، والواقدي، ويحيى بن عبد الحميد الحماني، وعبد الله بن محمد بن أبي شيبة، وأبي معاوية الضرير، وعمرو بن عاصم، ومحمد بن الفضل عارم، ومسلم بن إبراهيم الأزدي، وعبد الله بن مسلمة القعنبي، وعلي بن المديني، ومعاذ بن أسد الخراساني، والحسين بن القاسم النخعي الكوفي، وعمرو بن عاصم الكلابي، والحسن بن عنبسة الوراق، والفضل بن دكين أبي نعيم، ومعلى بن أسد، وحفص بن عمر الضرير، وعمرو بن عون الواسطي، وخلق كثير غيرهم. قال الذهبي في السير: وقلَّ ما روي.

كان الخصّاف مقدّما عند الخليفة المهتدي بالله، قال فيه الناس إنه أحيا دولة ابن أبي داؤد وأنه يقدّم الجهمية، وهي الفرقة الكلامية التي تقول بالجبر، وقد صنّف للمهتدي كتابا في الخراج فلما قتل هذا الخليفة نهبت دار الخصاف وذهبت بعض كتبه ومنها هذا الكتاب.

آثاره

ترك الخصاف مصنفات كثيرة عليها المعوّل في المذهب الحنفي منها:

1 - أدب القاضي، من أجمع الكتب في علم القضاء، وأشملها لموضوعاته، احتوى مائة وعشرين بابا، بدأه بباب الدخول في القضاء، والإكراه على القضاء، وختمه بباب المرأة تخاصم زوجها في ولدها، وقد بحث في هذا الكتاب طرق الإثبات من اليمين والشهود واختلاف البيّنات والموضوعات الحقوقية من المعاملات والأنكحة والطلاق، وكل ما هو سبب في الخصومات، يفتح بحث كل موضوع غالبا بحديث نبوي أو أثر مروي عن الصحابة والتابعين ممّا ورد بصدده شيء من تلك الآثار أو مسألة من المسائل الفقهية، وذكر حلها قضائيا.

وقد تلقى العلماء هذا الكتاب بالقبول، وشرحه أيمّة الفروع والأصول منهم الإمام أبو بكر الجصاص (ت 370هـ)، وأحمد القدوري (ت 428هـ)، وأبو بكر محمد السرخسي (ت 490هـ)، وقد اهتمّ بعض الباحثين حديثا بتحقيقه وإخراجه إخراجا علميا لتحصيل درجة الدكتوراه من جامعة لندن؛ 2 - كتاب الأوقاف أو الوقوف، يعتبر هذا الكتاب حجة في موضوعه، وقد حوى من أحكام الوقوف مسائلها الدقيقة ومشاكلها الكثيرة، قسّم الكتب إلى ثمانية وسبعين بابا في أحوال الوقف وأحكامه وأنواعه، وقسم كل باب إلى مطالب، بدأه بما روي عن النبي ﷺ وصحابته والتابعين في الصدقات ثم تناول الموضوعات الخاصّة بالوقف، مبتدئا بباب الوقف على الرجل والشرط فيه، وقد اشتهر كتاب الخصاف في الأوقاف مع كتاب هلال بن يحيى البصري (ت 245هـ) حتى عُرِفا بـ «وَقْفَيْ هلال والخصاف»؛ 3 - كتاب الحيل

والمخارج، بهذا العنوان نشره المستشرق يوسف شخت في هانوفر بألمانيا سنة 1923 والمصادر تذكره بعنوان «الحيل». قيل: والمتأمّل في الحيل التي تضمنها هذا الكتاب يجدها من النوع الذي يحتال به على التوصّل إلى الحق، أو على دفع الظلم بطريقة مباحة لم توضع موصلة لذلك، ولكن قصد بها ذلك التوصّل. وهي ليست من النوع المذموم الذي يقصد به هدم مقاصد الشريعة في التحليل أو التحريم، وتفويت الغاية السامية التي يرمي إليها الشرع الإسلامي فيما يشرع من أحكام وتكاليف وقد أعيد طبعه بالتصوير سنة 1968م. وكان هذا الكتاب قد نشر نشرة غير علمية في القاهرة سنة 1316هـ؛ 4 ـ كتاب النفقات، وعليه شرح لعمر بن عبد العزيز بن مازة، الصدر الشهيد (ت 536هـ)، منه مخطوطات عدة في تركية وقد نشر في حيدر آباد الدكن سنة 1349هـ؛ 5 ـ كتاب أحكام الوقف، طبعه ديوان عموم الأوقاف المصرية في القاهرة سنة 1323هـ/ 1904م ووقع في 369ص، ثم طبع في القاهرة في المطبعة الرحمٰنية سنة 1913 في مجلّدين. جدير بالذكر أنّ لهلال الرأي وهو من أعلام الحنفية كتابا في الوقف، وأنّ بعض المصنّفين المتأخرين واسمه محمود بن أحمد القونوي (ت 771هـ) صنع كتابا في أحكام الوقف سماه «المنتخب من وقفي هلال والخصاف» ومنه مخطوطات عدة في مصر، وتركية، وألمانية ذكرها بروكلمان؛ 6 ـ كتاب أدب القاضي، منه مخطوطات في تركية ذكرها بروكلمان، وقد حظي هذا الكتاب بشروح بعض العلماء، فقد شرحه أحمد بن علي الجصاص الرازي (ت 370هـ)، وحقق هذا الشرح فرحات زيادة ونشر في الكويت سنة 1980م بتح. أسعد طرابزوني الحسيني. وشرحه أيضًا برهان الأئمة حسام الدين عمر بن عبد العزيز بن مازة البخاري الحنفي الصدر الشهيد (ت 536هـ)، حقق هذا الشرح النفيس الدكتور محيي هلال السرحان، عميد كلية الشريعة بجامعة بغداد، وطبعته وزارة الأوقاف والشؤون الدينية في بغداد بمطبعة الإرشاد، الأجزاء 1 ـ 3، أما الجزء الرابع فقد طبع بالدار العربية للطباعة سنة 1398هـ/ 1978م ووقعت الأجزاء في 520ص + 548ص + 600ص + 630ص وهو أوسع شرح في أدب القاضي طبع حتّى اليوم. وثمّة شرح ثالث لمحمد بن أحمد القاسمي الخجندي منه مخطوطات في بعض المكتبات التركية ذكرها بروكلمان ولم يطبع حتّى اليوم ـ حسب علمنا ـ؛ 7 ـ كتاب الشروط الكبير؛ 8 ـ كتاب الشروط الصغير؛ 9 ـ كتاب الوصايا؛ 10 ـ كتاب الرضاع؛ 11 ـ كتاب المحاضر والسجلّات؛ 12 ـ كتاب الإقرار للورثة؛ 13 ـ كتاب العصير وأحكامه؛ 14 ـ كتاب ذرع الكعبة والمسجد والقبر؛ 15 ـ كتاب المناسك الذي ذكرنا خبر فقدانه قبل خروجه إلى الناس حين انتهبت داره؛ 16 ـ كتاب الخراج الذي صنفه للمهتدي بالله العباسي.

المصادر والمراجع

● ابن إبراهيم، محمد، الحيل الفقهية في المعاملات المالية، الدار العربية للكتاب، تونس، 1983؛ ● بوبشيش، صالح، الحيل الفقهيّة، ضوابطها وتطبيقاتها على

الأحوال الشخصية، منشورات جامعة باتنة، الجزائر، 1999؛ ● التميمي، تقي الدين عبد القادر، الطبقات السنّية في تراجم الحنفية، تح. عبد الفتاح محمد الحلو، ط. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1390هـ/ 1970م؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار الفكر، 1402هـ/ 1982م؛ ● الحجوي، محمد الثعالبي، الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، دار التراث، القاهرة؛ ● الخصّاف، أحمد، كتاب الحيل والمخارج، ط. مصر 1316هـ؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، بيروت، 1969، ط3؛ ● الشيرازي، أبو إسحاق إبرهيم، طبقات الفقهاء، تح. إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت، 1981م، ط2؛ ● العقيقي، نجيب، المستشرقون، ط. دار المعارف، مصر، 1965؛ ● القمّي، عباس، الكنى والألقاب، مؤسسة الوفاء، بيروت، 1983، ط2؛ ● الجوزية، محمد بن قيم، إعلام الموقعين عن ربّ العالمين، تح. عبد الرحمٰن الوكيل، دار الكتب الحديثة، مصر، 1389هـ/ 1969م؛ ● الكردري، حافظ الدين بن محمد، مناقب أبي حنيفة، دار الكتاب العربي، بيروت، لجنة إحياء التراث العربي؛ ● اللكنوي، أبو البركات محمد بن عبد الحي، الفوائد البهية في تراجم الحنفيّة، دار المعرفة للطباعة، بيروت؛ ● ابن أبي الوفاء، أبو محمد بن عبد القادر القرشي، الجواهر المضيّة في طبقات الحنفيّة، حيدر آباد الدكن، دائرة المعارف النظامية، د.ت.

د. محمد بوزغيبة
جامعة الزيتونة ـ تونس
د. هشام قريسة
المعهد الأعلى للحضارة الإسلامية ـ تونس
أ. هلال بن ناجي
باحث في التراث العربي ـ بغداد

ابن أبي الخصال، أبو عبد الله محمد بن مسعود

(465هـ/1072م ـ 540هـ/1146م)

هو أبو عبد الله محمد بن مسعود بن خلصة بن فرج بن مجاهد الغافقي ثم الغرناطي المكنّى بابن أبي الخصال، كاتب وشاعر ولد عام 465هـ/ 1072م بقرية فرغلّيط من شقورة التابعة لكورة جيّان. وكان أغلب أهل شقورة ينسبون إلى غافق وكان اجتماعهم في شمال قرطبة. ويبدو أنّ أبا عبد الله كان سليل عائلة متواضعة خاملة الذكر على ما يفهم من إشارة لصاحب القلائد ونقلها عنه صاحب الخريدة [2/ 449]. تتلمذ أبو عبد

الله على ثلة من الشيوخ البارزين في عصره منهم أبو بحر الأسدي، وأبو بكر بن أبي الدوس، وأبو تميم المعز بن بقنة، وأبو بكر غالب بن عطية، وشيخ المرية أبو علي الصدفي، وأبو عبد الله النفري، وتخرج على يديه كثير أهمهم ابن بشكوال صاحب كتاب الصلة.

انتقل إلى قرطبة وبها استقر لكن أخباره فيها وخصوصا في الفترة السابقة لبسط المرابطين نفوذهم عليها معدومة، فأغلب أخبار هذا الأديب تقترن بالدولة المرابطية أي بعد عام 474هـ/ 1081م. إذ تذكر الأخبار أنه في عهد يوسف بن تاشفين كان يشتغل بالكتابة لابنه وولي عهده علي بن يوسف حين كان والياً على غرناطة قبل سنة 500هـ/ 1106م تاريخ توليه الخلافة. إلا أنه في المخمسة التي قالها في الأمير أبي إسحاق بن يوسف بن تاشفين الوالي وقائد الجيش، يذكر أحداثا كثيرة منها موقعة الزلاقة أيام حكم الطوائف (479هـ/ 1086م) حين تدخل ابن تاشفين ونصر العرب المسلمين على المسيحيين، ومنها المعارك التي دارت في الثغر الشمالي الغربي ضد «ألفونس» صاحب «أرجون» Aragon المعروف براذمير حتى سنة 536هـ/ 1141م، مرورا بأحداث 503هـ/ 1109م على يد علي بن يوسف [الرسائل، ص 39 ـ 50]. كما يذكر في المخمّسة [الخريدة، 3/ 453 ـ 459] قرطبة عهد «ملوك الطوائف» في ذكر يدل على عيان وإن لم يكن يشتم فيها الحنين إلى ذلك العهد.

كان ابن أبي الخصال يدور في فلك الأسرة الحاكمة أو من كانت له صلة بها كبني الحاج. فبالإضافة إلى كتابته لعليّ بن يوسف، كانت له صلات تبدو أكثر متانة مع أخيه الأمير أبي إسحاق ابراهيم (ت بعد 515هـ/ 1121م) الذي عرف بميله إلى أهل الأدب والذي أهداه الفتح بن خاقان «قلائد العقيان» ومدحه ابن خفاجة. كما اتصل بوليّ عهد عليّ بن تاشفين لمّا كان والي الأندلس. ولسنا ندري إن كان اتصل به لما صارت الخلافة له بعد وفاة أبيه 537هـ/ 1142م. عرفت علاقة ابن أبي الخصال ببني الحاج وبني تاشفين فتورا حين وقف على الحياد من موقف أبي بكر محمد بن الحاج داود إذ رفض بيعة علي بن تاشفين عام 500هـ وفرّ إلى شرق الأندلس، ولم يعد الصفاء إلى سالفه إلا حين تصالح ابن الحاج مع علي بن يوسف وعينه واليا على فاس.

وإذا كانت بعض رسائل ابن أبي الخصال تدل على أنه كتب لعلي بن يوسف وهو أمير للمسلمين، فإننا لا نعرف كم دامت مدة خطته تلك، وهل أن تلقيبه بذي الوزارتين يرجع إلى هذه الفترة أم إلى ما تلاها. كما يبدو من خلال بعض خطبه [نص: 128ص 534/ن: 131 ص 546] أنه كان يتصدر للإمامة بنفسه أو يكتب لأولي الأمر في المناسبات الدينية.

ظل ابن أبي الخصال ينتقل بين طرفي الدولة المرابطية من الأندلس إلى المغرب: من قرطبة وإشبيلية وبلنسية وسرقسطة وفاس وسبتة... وقد أفاد من تنقلاته في ربط صلات مع مثقفي المغربين، وكان لذلك أثر في تدبيج رسائل متميزة، فله مراسلات مع أبي بكر بن العربي، وأبي اسحاق بن خفاجة، والكاتب أبي محمد بن الحاج اللّورقيّ، وأبي محمد عبد المجيد بن عبدون، وأبي بكر بن

القصيرة، ومع أبي الوليد بن رشد الجد . . .

وفي عام 540هـ/ 1145م كان في قرطبة لما ثارت الفتنة بين ابن حمدين حاكم قرطبة ومريد الخلافة لنفسه ابن غانية الداعي إلى الموحّدين، وفي هذه الفتنة قتل ابن أبي الخصال على يد بعض جنود المصامدة البربر.

ابن أبي الخصال شاعر وناثر أغلب نثره رسائل متنوعة إخوانية وديوانية وأدبية يميل فيها إلى غريب اللفظ بعض الميل وإلى التسجيع كلّ الميل. يبحث عن المجانسة من غير إفراط ويميل إلى الاقتباس والتضمين والإحالة على آثار الأولين من أخبار وحكم وسير. لا يكثر في نثره من الإطناب و إنّما للمعاني في الغالب الأوّليّة وليس للألفاظ وهو يعي بأنه يتبع خطّ الموازنة بين الألفاظ والمعاني، ولذلك ينتصر لأبي إسحاق الصابي (ت 384هـ/ 994م) وليس للهمذاني (ت 398هـ/ 1007م) [انظر الرسالة 53 إلى الوزير أبي محمد بن القاسم الفهري، ص 139 ـ 156، وفيها يصوغ تصوره في الكتابة النثرية المتأثّرة بالصّابي وينتقد، موجها الكلام في ظاهره إلى نفسه، سيطرة الاتجاه اللفظي على النثر في الأندلس عصره].

كتب ابن أبي الخصال المقامة ونهج فيها منهج الحريري، كما أنشأ الخطب ولكنه لم يتميز فيها تميزه في الرسائل.

أمّا شعره ـ ولم يصلنا منه شيء كثير ـ فلقد اختار فيه نهج محاورة الشعراء المشارقة في شكل مخمّسات أو معارضات. فمن المخمّسات ما ورد في مدح الأمير أبي إسحاق [قطعة 2، ص 39 ـ 50] وهي مبنية على بائية أبي تمام في فتح عمورية التي قيلت في المعتصم. كما يعارض المعرّي في «ملقى السبيل» وهي رسالة راوح فيها أبو العلاء بين الشعر والنثر ورتبها على حرف الهجاء [انظر قطعة 89، ص 370 ـ 390]. وإضافة إلى ذلك نجد أشعارا أخرى في أغراض متفرقة في الرثاء [ق 63/ 246، ق 72/ 282 ـ 287] أو المدح [ص 653] والرسائل الشعرية [ق 109/ 476 ـ 645] أوفي الوصف من وصف للطبيعة وغيرها وله قصيدة بعث بها إلى ابن خفاجة [ص 651] كأنما يبارزه في وصف الطبيعة. واشتهر ابن أبي الخصال في مدح الرسول ﷺ بقصيدة سماها «معراج المناقب ومنهاج الحبيب الثاقب» [الرسائل، 627 ـ 636] وهي بائية على البحر الطويل أورد منها المحقق ما يزيد عن مائة وعشرين بيتا وقال إنّها «اختصار» للأصل. أما بقية شعره فمختلط برسائله يقع في صدرها أو حشوها أو آخرها موصول بمواضيعها المتفرقة لا ينم في أغلبه عن تفرد في الصنعة بقدر ما يدل على مجرد إحكام لها. روت كتب الأخبار عن قوله الشعر وهو صبي عندما كان بضيافة القاضي ابن مالك بـ «شقورة» [الرسائل، 648].

آثاره

ما وصلنا من نثر ابن أبي خصال أكثر بكثير مما وصلنا من شعره، ويبدو أن جمع نثره كان بغير عنايته فهو يقول مخاطبا ابن بسام وقد طلب أن يرسل إليه من نثره ما يضمنه الذخيرة «فوالله ما من عادتي أن أثبت ما أكتب من رسم ينقل» [الذخيرة، ق 3، 2/ 79]، ولكنه

اختار من شعره مقطوعات متفرقة دلت على أنه كان يدون شعره ويحتفظ به.

ويبدو أن شهرة ابن أبي خصال ناثرا أكثر منه شاعرا هي التي جعلت الناس يتداولون نثره، وخصوصا رسائله أكثر من شعره، فلقد قال المراكشي [المعجب، 240]: «ولأبي عبد الله بن أبي الخصال ديوان رسائل يدور بأيدي أدباء الأندلس قد جعلوه مثالا يحتذونه ونصبوه إماما يقتفونه». وما ينسب لابن أبي الخصال هي آثار يغلب عليها النثر وهي:

1 ـ رسائل ابن أبي الخصال، تح. د. محمد رضوان الداية، دار الفكر دمشق سوريا، ط1، 1987، هذا الكتاب مخطوطة الاسكوريال تجمع بين نثر ابن أبي الخصال وشعره؛ 2 ـ سراج الأدب، ذكره المقري في نفح الطيب [3/ 184]، وقال إن صاحبه نزع فيه منزع القالي في النوادر والحصري في زهر الآداب و لكنه لم يصلنا؛ 3 ـ لمحة البارق وقذف المارق، رسالة فيها رد على ابن غرسية التي فضل فيها العجم على العرب [ذكرها صاحب الإعلام ممن حل مراكش من الأعلام، 4/ 89] لم تصلنا؛ 4 ـ ظل الغمامة وطوق الحمامة في مناقب من خصّه رسول الله ﷺ بالكرامة، ذكرها صاحب الأعلام وزاد في «المطرب»: من صحابته بالكرامة وأحلهم بشهادته الصادقة دار المقامة؛ 5 ـ كتاب المنهج في معارضة المبهج، ذكره ابن خير [الفهرسة، 376].

المصادر والمراجع

● ابن أبي الخصال، رسائل ابن أبي الخصال، تح. الداية، دار الفكر، دمشق، سورية 1987؛ ● ابن خاقان، قلائد العقيان، ط. باريس 1277هـ/ 1860م، ص 199؛ ● ابن بسام، الذخيرة، الدار العربية للكتاب، ليبيا ـ تونس، 198، ق 3، مج 3/ 768؛ ● ابن بشكوال، الصلة، ط. القاهرة 1374، ص 530؛ ● الضبي، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، ط. مدريد 1885م، ص 121؛ ● العماد الاصفهاني، خريدة القصر، ط. الدار التونسية للنشر، تونس 1986، 3/ 449 ـ 459؛ ● المراكشي، عبد الواحد، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ط. القاهرة 1386، 124؛ ● ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، ط. القاهرة 1374هـ، 1/ 395؛ ● المقتضب من تحفة القادم، ط. القاهرة 1957، 1 ـ 2؛ ● ابن دحية، المطرب. ط. القاهرة 1954، ص 171؛ ● ابن سعيد، رايات المبرزين وغايات المميزين، ط. مدريد 1941، ص 74؛ ● المغرب في حلى المغرب، ط القاهرة 1964، 2/ 66؛ ● العمري، مسالك الأبصار، مخطوط المكتبة الوطنية بباريس 2327، ورقة 243؛ ● الصفدي، الوافي بالوفيات، ط. اسطانبول ـ دمشق 1931 ـ 1959، 3/ 47؛ ● ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ط. القاهرة 1319هـ، 2/ 264؛ ● المقري، نفح الطيب، ط. دار صادر 1968، 2/ 264؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، ط. دمشق د.ت.

12/ 18؛ ● بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، 1/ 368؛ ● الداية، محمد رضوان، ابن أبي الخصال، رئيس كتاب الأندلس، سلسلة أعلام الفكر، عدد 5؛ ● رسائل أبي الخصال، دار الفكر 1987، المقدمة ص 9 ـ 21.

د. توفيق قريرة

جامعة منوبة ـ تونس

خصباك، جعفر حسين عبّاس

(1339هـ/1920م ـ 1415هـ/1994م)

ولد جعفر حسين عباس خصباك في مدينة الحلة سنة 1920م، وبعد إكماله الدراسة الابتدائيّة والثانويّة فيها التحق بكليّة الملكة عالية (دار المعلمين العالية كليّة التربية ـ ابن رشد حاليا). وتخرج فيها بدرجة شرف سنة 1946م في اختصاص الاجتماعيات الجغرافيّة ولم تكن لديه رغبة في هذا الاختصاص. وفي السنة التالية التحق بالبعثة العلميّة باختصاص التاريخ الحديث فالتحق بجامعة بيركلي (كاليفورنيا) في الولايات المتحدة وحصل على شهادة الماجستير عام 1949، وكان موضوع دراسته «روسيا السوفيتية والشرق الأوسط 1917 ـ 1919»، واصل دراسته للدكتوراه في جامعة شيكاغو وحصل على الدكتوراه عام 1952 وموضوع رسالته «انكلترا والحركة القوميّة في مصر 1918 ـ 1924».

عمل الدكتور خصباك في السلك الوظيفي لأول مرة عام 1938، ثم عمل لفترة قليلة في سلك التعليم الثانوي، وبعد حصوله على الدكتوراه عاد إلى العراق والتحق بكليّة الآداب والعلوم جامعة بغداد في سنة 1952 مدرّسا لمادة تاريخ أوروبا والشرق الحديث، ومادة العراق بين الاحتلالين: حصل على مرتبة أستاذ مساعد في 1956 وعلى أستاذ مشارك في 1964، وعلى مرتبة الأستاذيّة في 8/ 1/ 1967 وشغل عام 1961 منصب رئيس قسم التاريخ بكليّة الآداب.

كرّس جهوده للتدريس والبحث والإشراف، وساهم في العديد من الأبحاث العلميّة، وحضور المؤتمرات والندوات العلميّة إلى أن أحيل على التقاعد في عام 1978. في النصف الثاني من عقد الثمانينات عمل محاضرا في جامعة العلوم الإسلاميّة. والدكتور خصباك موضع احترام وتقدير الأساتذة والطلبة لما يحمله من خلق وتواضع العلماء، وحرص شديد، وروح وطنيّة، وانتماء عروبي صحيح وإيمان عميق بقيم الإسلام ومبادئه. ووصفه الأستاذ الدكتور صالح أحمد العلي بأنّه الباحث الثبت العميق التفكير الواسع المعرفة، الحريص على تأدية واجبه وإخراج إنتاجه بالشكل الذي يتفق مع

مكانته وسمعته. وكان يحرص دوما على أن يقدم الشيء الجديد. ومما كان يؤكده لطلابه أنّ الماركسية كانت تسير عكس حركة التاريخ وأنّ هذه التجربة لا بد أن تنهار في يوم من الأيام، وأصبح هذا القول يقينا بعد زيارته للاتحاد السوفيتي السابق عام 1975.

عرف الدكتور خصباك بأنّه من بين الأساتذة المقلين في الكتابة، إذ كان يرى أنّ بحثا أصيلا واحدا يأتي بفكرة جديدة أو تفسير جديد أفضل من عشرات البحوث ذات المعلومات المكرّرة. وربّما كان هذا بتأثير المستشرق لويس كوتشاك أستاذ التاريخ الأوربي والبحث التاريخي في جامعة شيكاغو آنذاك الذي أطلق على بحثه التاريخي «العلم المختبري» Laboratory Work. فالبحث في رأي الدكتور خصباك بحاجة إلى تأنٍّ وصبر وتروٍّ، وكان يردد دائما أنّ العديد من كبار المؤرّخين عرفوا من خلال دراسة واحدة قيمة ولم يعرفوا من خلال غزارة إنتاجهم. اتّسمت كتابات الدكتور خصباك على قلتها بالدقة والأصالة والعمق. وقد كان مؤرخا أصيلا ومحلّلا دقيقا ومفكرا عميقا.

آثاره

1 ـ العراق في عهد المغول الايلخانيين 1258 ـ 1335: تناول فيه الفتح المغولي والإدارة والأحوال الاقتصاديّة والاجتماعيّة، وسبب ذلك يعود في اعتقاده إلى أنّ الدراسات السابقة اهتمت بالجوانب العسكريّة والسياسيّة وشرح عمليات غزو المغول للعراق دون الاهتمام بالناحية الإداريّة والأحوال الاقتصاديّة والاجتماعيّة. ويرجع الدكتور خصباك سبب دخول هولاكو بغداد إلى التدهور المستمر في مؤسسة الخلافة العباسيّة منذ منتصف القرن الثالث الهجري حيث كان الخلفاء يقتلون ويعذبون بيد القادة الأتراك، منذ أن قتل المتوكل على الله 247هـ/ 861م. وبعدها فتح أبواب بغداد للبويهيين والسلاجقة ولم يكن للخلفاء الحول والقوّة، فلم يبق تحت سيطرتهم في أواخر عهدهم سوى بغداد وأطرافها. وقد اضطربت الأحوال الإداريّة وتدهورت اقتصاديات البلاد وخرب نظام الري قبل مجيء المغول بقرون. فالدولة والحالة هذه لا تستطيع مقاومة المغول الوثنيين الذين أرادوا غزو العالم بجيش جرار. ويؤكّد الدكتور خصباك أنّ هولاكو لم يتوان عن القتل والسلب والنهب بعد احتلاله بغداد من السنّة والشيعة، دون أن يمس أهل الذمّة لأنّ زوجته كانت نصرانيّة.

ويعدّ كتابه هذا المرجع الأصيل لعهد المغول الايلخانيين، ويرجع الدكتور خصباك سبب نهاية الدولة العباسيّة إلى ضعف الخلفاء العباسيين خاصة الأربعة المتأخرين منهم. ولعله كان مصيبا ويرى «... أنّ إيقاف الغزو المغولي كان يحتاج إلى الدولة العباسيّة بقوتها في زمن الخليفة هارون الرشيد ومساندة العالم الإسلامي كله».

وكان الدكتور خصباك يرغب مواصلة البحث في حقل العراق في العهد المغولي بكتابات أخرى عن الأدوار ما بعد الإيلخانيّة، إلّا أنّ إحالته على التقاعد عام 1978 ومرضه حالا دون تحقيق أمنيته.

2 ـ أسهم الدكتور جعفر مع زملائه الدكتور عبد العزيز الدوري، والدكتور صالح أحمد

العلي، والمرحوم الدكتور ياسين عبد الكريم في تأليف ونشر كتاب «تفسير التاريخ» ببحث تحت عنوان «التفسير الماركسي للتاريخ»، ويرى أنّ الماركسية تقوم على قاعدة من الفلسفة الماديّة وأنّ المادّة في نظرهم أزليّة والحركة الديلكتكيّة (الجدليّة) أو التطوّرية التناقضية صفة من صفاتها بينما أثبت العلم الحديث أنّ المادة ليست أزليّة إنّما ذرات تتكون من شحنات كهربائيّة تتحول إلى قوّة عظيمة عند تفجيرها، إذن هي شكل من أشكال القوّة. وإنّ علم الفلك الحديث كشف للعالم أنّ الكون من السعة بحيث لا يستطيع العقل الإنساني تصوره. وكل هذا يحملنا على الأقل إلى التساؤل عن مدى صحة ما يدعيه ماركس من أزليّة المادة وحركتها وعدم حاجتها إلى عقل كلّي يدبر أمرها.

وقدر الدكتور خصباك آراء ماركس في قوى الإنتاج باعتبارها أساس الحركة التاريخيّة مستندا على الحقائق التاريخيّة وتاريخ المجتمع الإنساني منذ ظهوره إلى الآن. وأعلن بكل إيمان وجرأة أنّ مفهوم الماركسية عن الطبقية مصطنع لا يستند إلى حقيقة الغريزة البشريّة وتعاملها مع معطيات الحياة الفرديّة والجماعيّة. ويؤكّد أنّ مفهوم الماركسية عن صراع الطبقات قاتم أسود يجعل التاريخ كله حربا أهليّة مستمرة وسفكا دائما للدماء. ولو كان التاريخ في اعتقاد خصباك حرب الطبقيّة لما بقي هناك تاريخ، بمعنى آخر لقتل الإنسان أخاه الإنسان وانقرضت المدنية منذ أوّل نشأتها. ولكن التقدم المستمر الذي أحرزه الإنسان خلال آلاف السنين، وتغلب صفة القبلية أو المدنيّة أو القوميّة أو الدوليّة على الحرب، وندرة الحروب الطبقيّة دليل واضح على فساد هذه النظريّة. والحقيقة أنّ مفهوم الطبقيّة والصراع الطبقي الذي يمثل جوهر الماركسيّة في نظر الدكتور خصباك مصدرا لإثارة الأحقاد والكراهية بين أفراد الأمّة الواحدة، وسبب في تقسيمها إلى فئات مصطنعة تحجز بينها أسلاك شائكة. ويقطع أنّ الماركسيّة استطاعت أن تلغي من تسميهم مستغلّين لتخلق مكانهم طبقة مستغلّة جديدة تسيطر على كل شيء من اقتصاد وسياسة وفكر ودين، طبقة مستغلّة تتمتع بنفوذ ما شهد له التاريخ مثيلا.

3 ـ كما قام الدكتور خصباك بترجمة كتاب «القوميّة» تأليف بويد شيفر، بيروت عام 1966 والمؤلف من بين أهم الكتب التي تناولت موضوع القوميّة إن لم يكن أهمّها على الإطلاق. وتعد ترجمة هذا الكتاب إلى العربيّة من الأعمال الجليلة التي قام بها؛ 4 ـ الإقطاع في عهد النبي ﷺ؛ 5 ـ القضاء في العراق في العهد السلجوقي؛ 6 ـ الفيودليّة والإقطاع، دراسة مقارنة بين الفيودلية الأوربيّة والإقطاع الإسلامي إلى نهاية الدولة السلجوقيّة؛ 7 ـ الري في العراق في العهد السلجوقي 1974؛ 8 ـ الحروب الصليبيّة (ترجمة).

المصادر والمراجع

● جعفر، خصباك، الملف الشخصي كليّة الآداب جامعة بغداد؛ ● صالح، محمد محمد، الدكتور جعفر حسين خصباك، مجلّة المؤرخ العربي، بغداد العدد 56، 1408هـ/ 1988م؛ ● عواد، كوركيس، معجم المؤلفين العراقيين، بغداد، مطبعة

الإرشاد، 1966، ج1؛ ● المطبعي، حميد، موسوعة أعلام العراق في القرن العشرين، بغداد، دار الشؤون الثقافية 1995، ج1؛ ● الحربي، علاء جاسم محمد، رحيل المؤرخ الدكتور جعفر خصباك، جريدة العراق، الخميس 29 شعبان 1414هـ/ 10 شباط 1994م.

د. بهجة كامل عبد اللّطيف

جامعة بغداد ـ العراق

الخصيب، أبو بكر الحسن الكُوفي

(ت. أوائل القرن 4هـ/10م)

أبو بكر الحسن بن الخصيب الكوفي، فلكي، ومنجم، ويسمّيه صاعد في كتابه طبقات الأمم: الحسين بن الخصيب.

عاش الحسن بن الخصيب بين أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجريين/ التاسع والعاشر الميلاديين، ودرس العلوم الفلكية والتواريخ. ويقول عنه النديم في كتابه الفهرست إنه كان: «أحد الحذاق بصناعة النجوم».

توفّي الخصيب في أوائل القرن الرابع الهجري.

آثاره

1 ـ كتاب المدخل إلى علم الهيئة، ذكره النديم؛
2 ـ كتاب تحويل سني العالم، ذكره النديم؛
3 ـ كتاب المغني في المواليد، ذكره النديم، وبروكلمان، ويوجد نسخة منه في مكتبة الاسكوريال برقم 973؛ 4 ـ كتاب تحويل سني المواليد، ذكره النديم، وفيه ذكر لحساب أوساط الكواكب على مذهب السند هند.

المصادر والمراجع

● بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي، دار المعارف، 4/ 203؛ ● حميدان، زهير، أعلام الحضارة العربية الإسلامية، وزارة الثقافة، دمشق 1996، 1/ 309؛ ● صاعد بن محمد، طبقات الأمم، ص 90؛ ● القفطي، جمال الدين، إخبار العلماء بأخبار الحكماء، مطبعة السعادة، مصر، ص 114؛ ● النديم، أبو الفرج، الفهرست، تح. رضا تجدد، طهران، ص335؛ ● نللينو، كارلو، علم الفلك وتاريخه عند العرب في القرون الوسطى، الجامعة المصرية، 1911م، ص 175.

د. محمد هشام النعسان

معهد التراث العلمي العربي
حلب ـ سوريا

خضر، موفّق

(1356هـ/1937م - 1401هـ/1980م)

ولد القاص والروائي موفّق خضر عام 1937، وتوفّي ببغداد عام 1980.
بعد إنهائه دراسته الجامعية ببغداد في العلوم الإنسانية، تقلد عدة مناصب ثقافية، منها: المسؤول الثقافي لمجلّة «ألف باء» العراقية لأكثر من عشر سنوات، ومنها محرر ثقافي وعضو هيئة تحرير مجلّة «الأقلام» العراقية، وأخيرا شغل موقع مدير عام في وزارة الثقافة والإعلام العراقيةعام 1979، وبقي في موقعه هذا حتّى وفاته.
عرف موفق خضر بالرصانة والهدوء ودماثة الخلق، والإخلاص لعمله الابداعي، وامتلك شرف مواصلة الكتابة بعد جيل الخمسينات وحتّى آخر حياته، وكان معبرًا في كتاباته عن مسؤولية الأديب الملتزم المؤمن بقضية النهوض وتحديث الحياة العربية.
سار موفق خضر في الاتجاه التحليلي، فقدم لنا إنتاجه الأول عام 1960 برواية باسم «المدينة تحتضن الرجال».
وقدم عام 1962 إنتاجه الثاني مجموعة قصصية باسم «الانتظار والمطر»، وإذا رجعنا إلى معظم هذه الأقاصيص فإننا نتبيّن أنّ الكاتب يصدر فيها عن تجربة يعانيها ويعيشها بل هي تجارب مرّت في حياة الكاتب أثناء دراسته الجامعية وذكريات مشاعره الفردية إلى درجة الذوب الشخصي، وكلّها صادرة عن موقف اجتماعي وسياسي. ويبرز الوجه العقيدي للكاتب في أعماله بوصفه أديبًا ملتزمًا بفكر قومي اشتراكي يؤمن بالوحدة والحرية.
أما أسلوب الكاتب اللغوي فيوازن فيه بين التعقّل والحرارة العاطفية، بين الشاعرية والتجريد، ويستند فيه على التشبيهات الجميلة والاستعارات والألفاظ الملوّنة والجمل القوية المعبّرة.
إن الوصف والحوار والتركيب والتعبير، كل ذلك يأتي بنسب معينة متوازنة، فحواره يتلاءم والموقف في القصة ويبينه الكاتب في ذبذبة نفسية وإيحائية ومرونة طبيعية، ويفصله في جمل معبّرة على قدر الشخوص ويلجأ إليه في الوقت المناسب ويقربه في ألفاظ من الاستعمال السهل. إن القلق والضياع هما ما يصبغ قصص المجموعة ويصوّر الجيل القلق الذي انتظر التحوّل بمشاعر يقظة فإذا هو موضوع في بؤرة ضياعه وحيرته.
في«مرح في فردوس صغير» عام 1968، يبدو موفّق خضر شديد الالتصاق بالواقع، بل ينقل لنا حرفيا الواقع كما في قصة «التلويحة» أو ينقل لنا حدثًا مرّ به كما في قصته «مرح في فردوس صغير» و«العصافير»، ولم يستطع التخلّص من السرد والمباشرة والنبرة الخطابية وقد وقف عند أسماء الأماكن يذكرها ويحدّدها تأكيدًا للسمة المحلّية، وتمكن أن ينقل لنا أجواء عراقية صميمة وخاصة الانهزامية التي كان يعاني منها بعض الناس نتيجة للاضطهاد والقسر والانحراف.

في «ألق ما في يدك» عام 1970، يتطوّر الكاتب، وإن كنا نجد خطًا واحدًا ينتظم مع أعماله السابقة، بيد أنّ أسلوبها أكثر إشراقًا وبناءها أشد متانة وقد تطرّق فيها إلى موضوعات جديدة كما في قصتي «الرماد في اللون الأزرق» وقصة «القرد والببغاء»!، وغلب على المجموعة طابع الضياع والحصار الذي يعاني منه الانسان العربي، وقد شاع هذا الأسلوب بين الكتاب الشباب في أواخر ستينات هذا القرن في العراق. ونبصر في المجموعة محاولات تجريبية لكتابة قصة حديثة تتكوّن من عدّة مقاطع تمليها الضرورة.

وجاءت مجموعته «نهار متألّق» عام 1974، بقصص بنيت بناء سليمًا وكتبت بأسلوب قصصي جيد واستطاعت أن تبتعد عن السطح الخارجي للشخصيات التي يختارها أبطالاً لقصصه ليتعمّق إنسان المجتمع العراقي مع حرص شيد على تصوير همومه ممتزجة بنغم إنساني يتناغم مع الطبيعة والحيوان ذلك الحب الذي يجد فيه الإنسان المسحوق خلاصًا من واقع مؤلم شديد الوطأة، ونجد قصصًا سياسية جدا تخلص من المباشرة والخطابية، مؤكدًا دأبه على الكتابة همةً ونشاطًا نادرين.

إن أوّل قصص موفّق خضر المعروفة، هي أقصوصته «الشقية» التي نشرها في صحيفة أخبار الساعة في 27 تموز 1954م. ونماذج موفّق تحب الحياة وتثق بها وتمنحها تجربتها كاملة رغم وعيها للواقع المتغيّر ولممكناته، فالأبطال ينشدون إلى الواقع ليقاوموا الجانب الرديء منه وينهلوا من جانبه الغض الأمل الشديد الضياء.

ويتّضح أنّ القاص والروائي موفّق خضر، قد تميّز بشكل جلي في مجموعته القصصية «نهار متألّق» فهو قد تجاوز أعماله السابقة على مستوى الشكل والمضمون، ومن جهة أخرى قدم للقصة العراقية نموذجا صحّيًا أسهم في ترسيخ ملامح الجودة في القصّة العراقية المعاصرة. ويمكن تأشير بعض الملامح الأساسية في قصص المجموعة، في أنّ إنسان القصة عند موفّق خضر، فرد متعب ومهمل يعيش في الأماكن المعتمة والنائية وفي الزوايا التي لا يصلها الضوء. وشخوص القصص نماذج بسيطة محاصرة وتعاني من إشكالات اجتماعية ووجودية، لكنها تقاوم بنبل إنساني واقعي ولا تنهزم، والنماذج التي يطرحها القاص، تمتلك حرارة الحضور ودفء الواقع الحقيقي، قد نمر بها فلا تستوقفنا ولكنّها تستوقف القاص الذي يرصدها من زاوية حادة تجعلنا نحسُّ أهمّية هذه النماذج وبطولتها. وأغلب هذه النماذج تختار بديلا لرعب الأزمة التي تفترسها فتلجأ إلى ملاذ كتعويض عن حالة القسوة، تنغمر في الطبيعة، في أشياء وحركة وعلاقات العالم والحلم لتجد خلاصها في ذلك.

في قصته «الحمامة والنافورة وحلم الصيف» يحقّق القاص من خلال ـ حسان ـ ذي الإحساس المتوهّج بالأشياء، نموذجه الأثير الذي يخلق فهمًا سليمًا للقصة القصيرة، يتم بتناول الإنسان البائس الذي يواجه قدره بصلابة، فحسان يعيش بذاكرة قوية، أحداث الماضي المتمثل في الأم والأخ والرصاصة الطائشة، وذكريات سلة المشمش الجميلة، وتعطشه للماء الذي هو التعطش للحياة.

فالماء كما هو معروف في أغلب الأديان، هو أصل الوجود والحياة، وتعطشه يعصف به لأنه يرتبط بلحظة إصابته: «الحظة الاصابة اشتهيت الماء حتّى رفست روحي، اشتهيته على أنه خالقي». وحسان صديق المسحوقين والصعاليك والمال وكل البسطاء وحبه لهم يبرز في مراقبة عالمه الغريب والقريب إلى نفسه ـ النافورة، الناس، الحمامة. وشهوته الكبيرة للحياة السابقة، تظهر عندما تطير الحمامة، فيخشى عليها أن تموت عطشًا، فيسقط همومه على الحمامة. ووسط هذا الجو المختلط، يجد خلاصه في الانغمار وسط ماء البركة كتنفيس عن حالة التمزق فيندمج بالماء والأشياء: «فجأة أحس بالماء يطفح من فوقه وأنه محمول على أجنحة من رشاش بارد وشهي وعبق بالصبوات».

إن هموم موفّق خضر في هذه القصص، هموم عامة ويطغى فيها الموضوعي على الذاتي، ويتداخل الذاتي بالموضوعي مشكلاً جزءًا منه. ولغة الكاتب هنا تتميّز بإشراقها الهادىء يبدأها بجُمَل وصفية ثم ينطلق منها إلى الحوار والمونولوغ لينتهي الحدث بنهاية مرتبطة بالبدايات في وحدة درامية مشدودة التفاصيل إلى غاية. والقاص في كل قصصه حتّى الذاتية منها، التي تكتسب صفة التعويض السايكولوجي يخطو خطوات مرسومة بدقة.. ترى المقدمة حادة أو وئيدة تضعك في الجو ثم يبدأ الحوار الداخلي أو المتبادل لتعود جُمَل الربط من جديد حيث تقودك إلى النهاية باستقامة، إنه قاص يستخدم أدواته بهدوء والقصة تطرح عنده مشكلة حادة لكنه يرققها بأسلوبه الهادىء، وإن هذا التعويض الدائم الذي يقود إلى طرح البدائل علميًا وممارسة يمارسه موفق خضر في أكثر من مكان، في «أغنية الأشجار» و«الكلمات» و«نهار متألّق» و«السماء زرقاء أو ذهبية»، وهو في ذلك يقيم العلاقة بين شخوصه وسلوكياتهم بشكل مدروس وطبيعي، وهو أيضًا لا يعطيك ذلك مرة واحدة إنما يجعلك تحسه خلال المراجعة المتأنية للنماذج التي يطرحها وقد كان ذلك تمامًا في روايته «الاغتيال والغضب» ـ.

إن موفّق خضر قاص متمكن من أسرار فنه، لكنه لا يغامر بالشكل ولا يضع للمضمون امتدادات تفسده دون مبرّر.

يرى موفق خضر، أنّ القصّة القصيرة هي إيقاع حركة الفرد أو الجماعة ـ المحدودة عدديا ـ بمواجهة الحياة.. أما الرواية فانها إيقاع حركة المجتمع أو الأفراد ـ المحدودين عدديا والممثلين لذلك المجتمع ـ بمواجهة الحياة، وهو يدرك أن الوعي الفني ركيزة أساسية في استكمال ملامح وإرساء الرواية القوية المتماسكة، وهو يعني «بالوعي» ذلك الادراك الانساني المسؤول بأن مهمة الروائي وما ينجزه وما يحققه، تبدأ من استيعابه للمواصفات الفنية والقواعد والاشتراطات التي يضعها الفن المبدع الأصيل.. وتبدأ كذلك من التزام الكاتب نفسه بقضايا شعبه ومجتمعه وأحداث عصره التزاما تفرضه قيم الحرية والنضال والانسانية الشريفة المكافحة من أجل خلق أوضاع إنسانية أكثر جمالا وبهاء للحياة والإنسان.. ومن هنا يصبح الروائي واحدا من أكثر شهود العصر صدقًا وأصالة وتعبيرًا لأنه هو المؤهَل دون غيره ـ بسبب قوة ملاحظته وشدّة حساسيته وعمق

تلاحمه ـ للتعبير عن طبيعة التغييرات الاجتماعية وعن حركة الحياة في صيرورتها المستمرة.

آثاره

1 ـ المدينة تحتضن الرجال، رواية، مطبعة الإرشاد، بغداد، 1960؛ 2 ـ الانتظار والمطر، قصص، مطبعة العالم، بغداد، 1962؛ 3 ـ مرح في فردوس صغير، قصص، مطبعة الغري، النجف، 1968؛ 4 ـ إلق ما في يدك، قصص، مطبعة البيان، بغداد، 1970؛ 5 ـ نهار متألق، قصص، دار الحرية، بغداد، 1974؛ 6 ـ الاغتيال والغضب، رواية، دار الحرية، بغداد، 1975؛ 7 ـ أغنية الأشجار، قصص، دار الحرية، بغداد، 1977م.

المصادر والمراجع

● ياسين نجمان، أمام المرآة، مقالات في الشعر والقصة، المركز الثقافي الاجتماعي، جامعة الموصل، 1976؛ ● الطالب، عمر، القصة القصيرة الحديثة في العراق، جامعة الموصل، 1979؛ ● حمودي، باسم عبد الحميد، رحلة القصة العراقية، وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر، بغداد، 1980؛ ● رحلة مع القصة العراقية القصيرة، مجلّة الأقلام، العدد الخامس، سنة 14، شباط 1979؛ ● خضر، موفّق، شهادة إبداعية حول الرواية في العراق، مجلّة الأقلام، العدد الخامس، شباط، 1977؛ ● أحمد، عبد الإله، نشأة القصة وتطوّرها في العراق، مطبعة شفيق، بغداد، 1969؛ ● فهرست القصة العراقية، دار الحرية، بغداد، 1973م.

د. نجمان ياسين

الرئيس الأسبق لاتحاد أدباء العراق

ابن خَضْرَوَيه، أبو حامد أحمد بن الخضر

(145هـ/762م ـ 240هـ/854م)

أبو حامد، أحمد بن الخضر معروف بابن خضرويه البلخي، صوفي محدّث.

يلقّب بشيخ خراسان ويضاف إلى العدد الكبير من العلماء الذين ينتسبون لـ «بلخ» وهي مدينة كبيرة بخراسان، فتحت في عهد عثمان بن عفّان. كما اشتهر في تصوّفه بالتجريد الحميد وبالفتوة وهي خلق تجتمع فيه خصال عديدة منها: الكرم، والإيثار دون حدود ودون الشعور بالفضل على الغير. كما تعني الصفح عن عثرات الغير وأن لا يتّخذ المرء أي خصم، بل يكون خصما لربّه على نفسه. والفتوة هي الصفة نفسها التي عرفت بها

زوجته، أمّ علي، بل وفاقته فيها على حد تعبير البسطامي [الرسالة القشيرية، ص16، 103 ـ 104؛ معجم البلدان، 1/ 479؛ الأتابكي، النجوم الزاهرة، 2/ 303].

تتلمذ ابن خضرويه على كل من «حاتم الأصمّ» الذي يقال له «لقمان هذه الأمّة» لحكمته، و«النخشبي»، كما صحب بعضا من كبار الصوفية وكان يشد الرحال إليهم، حيث رحل إلى بسطام قاصدا «أبا يزيد البسطامي» قدوته وقدوة زوجته في العرفان. وأبو زيد البسطامي هو القائل لأحمد بن خضرويه: «تعلّم الفتوة من زوجتك» [سير أعلام النبلاء، 11/ 488]. كما قال في نص آخر أورده السلمي في طبقاته: «من تصوّف فليتصوّف بهمّة كهمّة أمّ علي زوجة أحمد بن خضرويه» [ص 407]. وتروي المصادر المترجمة لابن خضرويه أنّ هذه المرأة بنت الرؤساء والأجلّة، كانت معجبة جدًّا بتصوّف البسطامي؛ حتّى أنّها عندما كانت تقف أمامه «تفقد حظوظ نفسها»، بمعنى تسمو روحها على بدنها وينتابها شعور بالفناء، وقيل بأنّها تنازلت عن همومها مقابل أن يصحبها ابن خضرويه إلى حضرة البسطامي، كما أنّها أنفقت مالها على الفقراء، ورضيت بالعيش مع زوجها حياة الزهد [حلية الأولياء، 10/ 42].

ولقد كان أبو زيد البسطامي في نظر ابن خضرويه من المتصوّفة الواصلين المغمورين بالحب الإلهي، وهو ما يقصه في رؤيا أفصح عنها بقوله: «رأيت ربّ العزة في منامي فقال لي: يا أحمد كل الناس يطلبون منّي إلّا أبا يزيد فإنه يطلبني» [صفوة الصفوة، 4/ 113]، ورحل ابن خضرويه أيضًا إلى نيسابور لزيارة «أبي حفص» وليتّخذه رفيقا، حتّى أنّ هذا النيسابوري قال: «ما رأيت أحدا أكبر همّة ولا أصدق حالا من أحمد بن خضرويه» [سير أعلام النبلاء، 11/ 488]. وبالإضافة إلى التصوّف أسند «ابن خضرويه» الحديث عن محمد بن عبدة المروزي، وممّا رواه قوله ﷺ عن أنس بن مالك: «تسحّروا فإن السحور بركة» ولكن كان الجانب الصوفي غالبا على المحدّث [سير أعلام النبلاء، 11/ 485؛ حلية الأولياء، 10/ 43].

إن أخذه التصوف على أمثال حاتم الأصمّ، والنخشبي، والبسطامي، ورحلاته وتجربته الطويلة في الحياة، إذ عمر خمسًا وتسعين سنة، كل هذا جعله يتعمّق في علم الباطن ويكتسب حكمة كبيرة جعلت الكلاباذي يعده من جملة رجال الصوفية الأوائل الذين نطقوا بعلومهم وعبروا عن مواجدهم، جاعلا إياه في طبقة البسطامي، والتستري، ويوسف بن الحسين الرازي وغيرهم. وأثمرت تجربة ابن خضرويه الصوفية تلاميذ أصبحوا من جهابذة المتصوّفة ومن مشايخهم، كما ترك مواقف متميّزة وأقوالا جلّها حكم أضحت متداولة على ألسن الصوفية وفي تواليف المؤرّخين. ومن أبرز تلامذة ابن خضرويه: الحكيم الترمذي (230هـ/ 845م ـ 320هـ/ 932م) صاحب التصانيف الصوفية وكتب الحديث، ومحمد بن الفضل البلخي (ت 319هـ/ 931م)، ومحمد بن حامد الترمذي، وأبو بكر الوراق وغيرهم ممّن ألف في التصوّف ودوّن مواقف وروى أقوال وحكم المتصوّفة الذين سلكوا وحكوا ولم يؤلّفوا، كأحمد بن

خضرويه [طبقات الصوفية، ص86، 95؛ الذهبي، العبر، 2/ 182؛ سير أعلام النبلاء، 31/ 469؛ التعرف لمذهب أهل التصوّف، ص27 ـ 29].

لما كان التصوّف هو أخلاق كريمة كانت أغلب حكم ووصايا ابن خضرويه تحثّ على القيم الأخلاقية التي تعكس ما وُصف به من فتوة، منها قوله: «من خدم الفقراء أكرم بثلاثة أشياء: التواضع، وحسن الأدب، وسخاوة النفس» [طبقات الصوفية، ص96]، وليتمكّن الإنسان من الوصول إلى هذا السلوك النبيل، الغاية في حد ذاته والذي لا ينتظر منه جزاء ولا شكورا، عليه أن يكون قلبه ممتلئا بالحق، فلا يتمكّن منه الباطل، وتكون كل أفعاله وممارساته تعكس الحق الذي بباطنه، وإذا كان باطنه خرابا، كانت سلوكاته شرورا لما يُبطنه من باطل. يقول ابن خضرويه في هذا الشأن: «القلوب أوعية فإذا امتلأت من الحق أظهرت زيادة أنوارها على الجوارح وإذا امتلأت من الباطل أظهرت زيادة ظلمتها على الجوارح»، وفي امتلاء القلوب بالحق واقتراب الحق من خلقه تفاوت بين الناس بحسب أخلاقهم، فكلّما كانت أخلاقهم الفاضلة تغمر سلوكاتهم كلّما امتلأت قلوبهم بالحق وكان الله قريبا منهم، لهذا قال ابن خضرويه: «أقرب الخلق إلى الله أوسعهم خلقا» [نفسه، ص97]. وأمام القلوب في نظر ابن خضرويه طريقان لا ثالث لهما: طريق يوصل إلى الحق، وطريق يضل عنه ويؤدي إلى الباطل، ولقد عبر عن هذه الفكرة بقوله: «القلوب جوالة فإما أن تجول حول العرش وإما أن تجول حول الحشر» [صفة الصفوة، 4/ 464]. ويفهم من كل هذا أنّ السلوك الإنساني تحكمه الغاية التي يريدها المرء فإذا كان هدفه هو الحق والتقرّب من الله قدر المستطاع كانت سلوكاته أخلاقية مستقيمة والعكس صحيح. ومن لا يعمل على بلوغ الحق فقد ضل السبيل وهو بمثابة الأعمى، «فالطريق واضح والحق لائح والداعي قد أسمع فما التحيّر بعد هذا إلّا من العمى» [طبقات الصوفية، ص97].

ولكي يبلغ الإنسان هذا الحق اشترط ابن خضرويه على المريد أن يطلب معرفة توصله إلى ذلك، وتشمل هذه المعرفة محبّة لله تملأ القلب، ولسانا دائم الذكر له، وعزلة وانقطاعا عن كل شيء ما عدا الله، فقال: «حقيقة المعرفة المحبّة له بالقلب والذكر له باللسان وقطع الهمّة عن كل شيء سواه» [ص97].

وفي هذه الأعمال الثلاثة التي تحقق المعرفة المؤدّية إلى الحق لا بد من توفّر قيمة أخلاقية تعكس بالفعل مدى رغبة المريد في الوصول إلى الله مع الصادقين» [حلية الأولياء، 10/ 42] ومن يرد الاتصال بالله والتقرّب منه بالصدق في الطلب وعقد العزم على ذلك بشحذ كل الهمم، عليه أن يتخلّى عن الغفلة التي تنسيه طلب اليقين، والتي تدفعه إلى أن تحكمه الشهوات وتستعبده، ذلك لأنّ عبودية العبد لشهواته أدهى وأمرّ ـ حسب ابن خضرويه ـ من الرق، وفي هذا الصدد قال: «لا نوم أثقل من الغفلة ولا رق أملك من الشهوة ولولا ثقل الغفلة لما ظفرت بك الشهوة» [ابن الجوزي، المنتظم، 11/ 275].

ومن الأخلاق التي توقّف عندها ابن خضرويه كغيره من المتصوّفة والتي تعكس مدى جلادة

العارف على الالتزام بالفقر وتحمّل الأذى والابتلاء وصعوبة المسلك وما تحفه من مخاطر، مسألة الصبر والرضا. فذهب إلى أنّ الصبر وحده لا يكفي للمرء حتى يتّسم بالعرفان، بل لا بد من الرضا بكل ما يدعو إلى الصبر، ذلك لأنّ الصوفي اختار مسلك العرفان هذا بإرادته الحرّة، فلا جبر هنا ولا اضطرار. ثم إنّ الرضا ليس مجرّد سلوك أخلاقي ينمّ عن تحمّل مسؤولية ما اختاره المرء، بل هو درجة صوفية على العارف أن يرقى إليها. يقول ابن خضرويه عن الصبر والرضا: «الصبر زاد المضطرين والرضا درجة العارفين». وجمع الرضا مع الصبر هو المعبّر عنه في موضع آخر من قبل ابن خضرويه بعبارة: «الصبر على الصبر» ويؤكّد ذلك قوله: «من صبر على صبره فهو الصابر لا من صبر وشكا» [صفة الصفوة، 4/ 164؛ طبقات الصوفية، ص96].

إنّ الصبر والرضا يقودان الصوفي إلى ضرورة تسليم العارف مقاليد نفسه وتفويض كل أموره لله ﷻ، من أجل أن تنعم النفس بالقرب من الله فتحيا الحياة الحقيقية، لذلك على العارف حسب ابن خضرويه أن يمحو ذاته ويميت نفسه من أجل أن تحيا بالله، لهذا عندما تقال رجل لأحمد بن خضرويه أوصني فقال أمت نفسك حتّى يحيها» [المنتظم، 11/ 275] ما نلمسه في حديث ابن خضرويه عن الخضوع الكلي لله هو فكرة صوفية عالية التجريد لها بعدها الفلسفي الواضح، ذلك أنّ هذا النوع من الخضوع والخنوع لله ليس مجرّد سلوك فرّ من الخلق إلى الله، وإنّما هو درجة صوفية رفيعة تُعرف لدى علماء الباطن بضرورة التحقق من مقام العبودية، وهو في رأي ابن خضرويه مقام بقدر ما يبدو أنه يسلب من المرء حرّيته هو بالعكس اتّجاه نحو المطلق والكمال ومن ثمّ نحو الحرّية المطلقة لا العبودية. فالمرء الذي يشعر بأنّه عندما لا تربطه صلة بالله هو في حقيقة أمره عبد لسوى الله، وبهذا المعنى يكون مفهوم العبودية لله لدى ابن خضرويه ولدى رجال التصوّف عموما هو قمّة الحرّية، يقول ابن خضرويه مجملا هذا المعنى بقوله: «في الحرية تمام العبودية وفي تحقيق العبودية تمام الحرية» [طبقات الصوفية، ص96].

وبجانب كل هذه السلوكيات والقيم الأخلاقية المؤلّفة للعرفان يضيف ابن خضرويه فضيلة خلقية أخرى يعتبرها متمّمة لسائر الفضائل ومتوّجة لها وهي ضرورة كتمان السر عن الأغراب عن المسلك الصوفي، وعن كل ما سوى الله أحيانا، ولقد أجاب ابن خضرويه أحد سائليه عن أي الأعمال أفضل؟ بقوله: «رعاية السر عن الالتفات إلى شيء سوى الله تعالى» [صفة الصفوة، 4/ 164]، والبوح بسر من أسرار العرفان أو بسلوك صوفي يقتضيه التصوّف، قد يدفع بصاحبه إلى الشعور بحاجة المريد إلى الغير دون الله تعالى، أو يلحق الأذى بأي شكل من الأشكال، ويروي ابن خضرويه في هذا الصدد واقعة مفادها أنّ شخصا من الأغنياء طلب زيارة شخص من الزهاد، فدخل عليه فرآه يفطر في رمضان على خبز الشعير والملح، فرجع التاجر إلى داره وأرسل للزاهد ألف دينار فردّها وقال لغلامه: «قل لمولاك هذا جزاء

من أفشى سره على مثلك» [الشعراني، الطبقات الكبرى، ص70].

بالرغم من كل هذه الحكم وهذه التجربة الطويلة في التعبّد والزهد والمبشّرات من الرؤى التي يقصصها لم تكن كافية لابن خضرويه كي يعتقد بالنجاة وبأنّ الله سيتقبّله عنده من الأولياء السعداء. وهذا ما ندركه في قول الصوفي محمد بن حامد عن أستاذه ابن خضرويه: «وهو في النزع وكان قد أتى عليه خمس وتسعون سنة فسئل عن مسألة فدمعت عيناه وقال: يا بني باب كنت أدقه خمسا وتسعين سنة هو ذا يفتح لي الساعة لا أدري أيفتح لي بالسعادة أو بالشقاوة آن لي أوان الجواب» [حلية الأولياء، 10/ 42؛ المنتظم، 11/ 276] وعند وفاته وفّى عنه رجل سبع مائة دينار كان ابن خضرويه قد اقترضها ليقضي بها حوائج المعوزين. وكثيرا ما استقرض مبالغ ضخمة وتصدّق بها حتّى قيل: «استقرض أحمد بن خضرويه من رجل مائة ألف درهم، فقال له الرجل: أليس أنتم الزهاد في الدنيا، ما تصنع بهذه الدراهم؟ قال: أشتري بها لقمة فأضعها في فم مؤمن ولا أجترئ أن أسأل ثوابه من الله تعالى. قال لم؟ قال: لأنّ الدنيا كلّها لا تزن عند الله جناح بعوضة لو أخذتها فطلبت بها شيئا ما الذي تعطى بها والدنيا كلّها لها هذا القدر» [المنتظم، 11/ 276؛ طبقات الصوفية، ص96] ذكر وفاة ابن خضرويه سنة 240هـ/ 845م دون اختلاف في المصادر المؤرّخة لذلك، وذكر أنه توفّي عن عمر يناهز الخمسة وتسعين عاما، كما جاء في النص المذكور آنفا، والوارد في عدّة مصادر، نستدلّ من خلاله أنه ولد سنة 145هـ/ 762م.

المصادر والمراجع

● ابن الجوزي، أبو الفرج، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تح. محمد ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت 1412هـ/ 1992م، 11/ 275؛ ● ابن الجوزي، صفة الصفوة، تح. محمود فاخوري، ومحمد رواس، دار المعرفة، بيروت، 1399هـ/ 1979م، ط2، 4/ 113، 164؛ ● الأتابكي، جمال الدين، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، المؤسّسة المصرية العامّة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، 2/ 303؛ ● الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتاب العربي، بيروت، 1405هـ/ 1985م، ط4، 10/ 42 ـ 43؛ ● الذهبي، العبر في أخبار من غبر، تح. صلاح الدين المنجد، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، 1948، 2/ 182؛ ● الذهبي، سير أعلام النبلاء، تح. شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1413هـ/ 1993، ط4، 11/ 485، 488؛ ● السلمي، طبقات الصوفية، يليه ذكر النسوة المتعبّدات، تح. مصطفى عبد القادر، دار الكتب العلمية، بيروت 1998، ص68، 95 ـ 98، 104، 171 ـ 175، 407؛ ● الشعراني، الطبقات الكبرى، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده، القاهرة، 1/ 70؛ ● القشيري،

الرسالة القشيرية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ص16، 103 ـ 104؛ ● الكلاباذي، التعرّف لمذهب أهل التصوّف، تح. عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، دار الإيمان، دمشق، 1407هـ/ 1986م، ص727، ● ياقوت، الحموي، معجم البلدان، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1/ 479.

د. ساعد خميسي
جامعة منتوري ـ قسنطينة ـ الجزائر

أبو خضور، محمد

(1356هـ/1937م ـ 1423هـ/2002م)

ولد محمد أبو خضور في درعا عام 1937، وتلقى تعليمه فيها، وتخرج في جامعة دمشق حاملاً الإجازة في اللغة الإنكليزية والإجازة في الفلسفة ودبلوم التربية، ونال من الجامعة الأمريكية في بيروت الدبلوم في علم النفس. وعمل مترجماً ومحرراً ومشرفاً على الصفحات الثقافية في الصحف السورية، وتولى أمانة تحرير صحيفة الثورة عام 1981، ورئاسة قسم الدراسات في جريدة تشرين، ونيابة رئاسة تحرير جريدة «البعث» عام 1982، وأميناً لتحرير مجلة «الموقف الأدبي» عام 1981. وترأس فرع اتحاد الكتاب العرب في درعا عام 1990، بالإضافة إلى عمله رئيساً لتحرير الأخبار في الإذاعة والتلفزيون، وأعدّ برامج ثقافية متعددة خلال هذه الفترة مثل «كتاب الأسبوع»، وكان عضواً في إدارة تقييم الأعمال والنصوص التلفزيونية، وعمل أميناً لتحرير «الأسبوع الأدبي» فيما بين عامي 1993 و1997. وهو عضو مؤسس في اتحاد الصحفيين العرب، ووضع عدة كتب في الفكر والنقد.

لقد غلب الإبداع المعرفي والنقدي على مسيرته الثقافية والإعلامية، فخص تأليفه بالقضايا الفكرية والسياسية والتاريخية الراهنة والملحة على وجودنا القومي، مثل كتبه «النكتة الصهيونية ـ دراسة نفسية اجتماعية» (1977)، و«التصلب في الشخصية» (1973 بالإنجليزية)، و«الأبيض والأسود» (1979)، وفيه دراسات متعددة في السياسة الاجتماعية مثل الشخصية العربية والضحك الأسود في النكتة الإسرائيلية والإيديولوجية الصهيونية والتفكير السياسي والاجتماعي في شرق أوسط معاصر، واليسار الأمريكي الجديد والثورة ضد المناهج. ووجه القسم الثاني إلى دراسات أدبية مثل النقد، والحرية، والزنجي في الرواية الأمريكية، والقسم الثالث إلى دراسات في علم النفس مثل علم النفس وتأثيره في كتابة القصة وضد الطب العقلي وعلم النفس والتركيب الاجتماعي. ونظر إلى كتبه على أنها أشبه شيء بالمقابسات أو المحاورات مع ما ينتظم «هاجس الثقافة باعتباره بؤرة تلتقي في محرقها الأنظمة الفكرية لجميع مناشط

الإنسانيات تقريباً» [ص14 من مقدمة خلدون الشمعة لكتابه «الأبيض والأسود»].

وكان كتابه «دراسات نقدية في الرواية السورية» (1981) من أبرز الكتب في بابه ترسيخاً لمنهجية النقد الجديد الذي يهتم بالتحليل النصي المعمق للأعمال الروائية كما في أبحاثه «التماثل بين المصابيح الزرق وبين زقاق المدق» و«خيري الذهبي بين رواية التاريخ و رواية الأفكار» و«البطل السلبي في المتألق» لعبد النبي حجازي»، و«دوائر الصراع الاجتماعي في «وردة الصباح» لعادل أبو شنب».

لقد كتب محمد أبو خضور عدة كتب نقدية عن الأدب والرواية والقصة، مثلما ترجم كتباً كثيرة في الأدب وعلم النفس، وها هو ذا يخطو خطواته الأولى الواثقة في كتابة القصة القصيرة مبرهناً في هذه القصص القليلة عن استطاعة تعبيرية ولغوية وحكائية ثرة بتلويناتها السردية وتعدد موضوعاتها، والأهم بانخراطها في تاريخها بما يحقق لها صدقاً فنياً هو أول علامات القصة القصيرة الجيدة.

وأظهر أبو خضور في كتاباته الفكرية والنقدية لوعة المسؤولية الوطنية والقومية، إذ أسهم في ترقية الأداء الثقافي والإعلامي، وأضاء بدأبه ويقظته الفكرية والسياسية عشرات القضايا الملتبسة التي ما تزال موضع رأي واختلاف في الفكر النظري والسياسي والنفسي والقومي، وعندما تفرغ في العقدين الأخيرين من حياته للعمل الأدبي والنقدي، عني أيّما عناية بهذه القضايا أيضاً، ومنها كتابه عن «كافكا والصهيونية» (1999) الذي وضع النقاط على الحروف في أدباء الصهيونية وممارساتهم العنصرية والمعادية للعرب ولحقوقهم التاريخية ووجودهم الأصيل والمشروع على أرضهم.

واتجه أبو خضور عام 1991 لكتابة القصة بالدرجة الأولى، وصدرت مجموعته الأولى «السماء تمطر تصفيقاً» عام 1992 التي أظهرت بقوة ذلك الفنان المتخفي في إهاب الناقد. وإذا كان أبو خضور قد أفصح في قصصه عن شيء من سيرته الذاتية، فإنه أفلح في اندغام هذا الشيء بالتجربة الإنسانية، وهذا بحد ذاته إنجاز ينبغي الإشارة إليه، فقصصه تمتح من معين الذات أو التأريخ الشخصي، لتصب في مشكلات جماعات مغمورة تعاني من عناء الوجدان أو ضنك العيش أو ضغوط الحياة اليومية.

يعنى أبو خضور كثيراً بالمعنى الذي تشي به التجربة خلل متن حكائي لا يباشر مقاصده، ولا يرمي بحكمته جزافاً، بل يصوغ من تفاصيل حارة غافية تحت رماد الزمن لغة أليفة عن بشر ينافحون عن جوهرهم النبيل، ثم تزيدهم المكابدة ألقًا.

تنفتح القصص على خصوصية محلية هي بعض الروح المتوجعة بحثاً عن دفء أو هناءة أو أمن أو حرية. يعود أبو خضور في قصصه غالباً إلى مرحلة مضت، ولكن حرارة السرد وضبطه تجعل اللحظة القصصية حاضرة دائماً. في قصة «نجمة النهار تنطفئ» عود إلى سنوات اليفاعة والإقبال على الحياة وامتلاكها، من خلال حافز بسيط ما يلبث أن يتسع ليعبر عن الموقف من الخيارات الحبيسة. إنه فعل الحب المبكر مثل الوشم يظل جمرة في القلب لا

يطفئها الزمن. لقد نجح أبو خضور في بناء «رومانس» لطيف تضيئه أفكار احتمالية عن العناء الدائم. كان قد تعرف إليها ذات صباح مشحون بالضياء، غير أن صوت الغجرية موشومة الخدين علامة باقية: «أما الثالث فاحذري منه لأنك سوف تحبينه أكثر مما يحبك».

توجز هذه القصة طريقة أبو خضور السردية، اختيار لقطة يتواجه فيها رجل وامرأة على مقاعد الجامعة ضمن تفاصيل مغرقة في عاديتها تؤلف حكاية قديمة . جديدة، حيث الحب محكوم عليه أن يظل دفيناً، فلا تنفع محاولة إعادة الحياة إلى الجذور الميتة. مشهدية تثمّر الحوار يقظة ذهنية وعاطفية في الوقت نفسه.

ونقع على مثل هذه التقنية في قصة «واجب الضيافة» التي تومئ إلى حكاية أخرى عن المثال الأزلي: القصاص الصامت لفعل متهور يجانب الأخلاق، ولما كانت الأخلاق غامضة لجهة فهمها وممارستها، فإن أبو خضور يوشح تأمله الأخلاقي بإيماءة خفيفة عن العرف الذي يغطي حياة بأكملها.

تطورت المشهدية إلى مفارقة كما هو الحال غالباً في هذه القصص حين يمعن في تقصي الشروط الإنسانية القاهرة، ونلمس استغراق المشهدية في وصف مشكلات جماعته المغمورة من العمال المياومين والحرفيين والمعلمين على سبيل المفارقة في قصص «المفلس» و«السماء تمطر تصفيقاً» و«الكأس الأولى».

على أن ما يلحظ في قصص محمد أبو خضور هو إدغام العنصر السيري في المبنى الحكائي لقصصه بما يجعله هذا العنصر مكوناً فنياً يعزز الرؤية، ويمنحها الإقناع والمصداقية. وهذا واضح في قصص «قارع الطبل» و«سفر الموت» و«المصيدة»، ولا سيما القصة الطويلة نسبياً «غصن ياسمين وصبار صحراوي». وعلى وجه العموم، فإن هذه القصص تحفل بشهوة السرد الروائي الذي يطنب في وصف الأحداث أو الشخصيات، أو يتوقف ملياً عند تباين الضمائر الساردة حسب مواقف الشخصيات من توالي الأحداث.

تعيد هذه القصص ذكرى سنوات الأربعينات والخمسينات، حين كانت فرنسا محتلة وحين خرجت فرنسا، تصف قصة «غصن ياسمين وصبار صحراوي» تداخل الذاتي بالوطني العام، على أن تفاصيل ذلك التاريخ إطار للعلاقة بين فايز الصفتلي وامرأة اسمها روز.

ويتكرر هذا الموقف في قصة «قارع الطبل» استرداداً لذكريات الدراسة في عهد الاستعمار الفرنسي، والدلالة الخصيبة لتنامي الشعور الوطني المبكر لدى التلامذة الذين عزفوا نشيدهم الوطني بدلاً من «المارسيّيز» الفرنسي. أما قصة «سفر الموت» فتركز على مشهدية طفل متعلق بأمه التي تموت أمامه، ويحضر غسيلها. إنها قاتمة مؤسية شديدة التأثير، ولربما وجد فيها هواة التحليل النفسي دلالات غافية عن الوعي الباطن، فالراوي حريص على تثبيت الصورة الأخيرة وكأنها حدثت للتو.

وتابع مسعاه الإبداعي في مجموعته الثانية «ليلة المستشار» (1993)، وأنتج قصصاً تروم

رفعة القيم الإنسانية والقومية، وتتطلع إلى إقامة العدالة في أحسن صورها من خلال تناول موضوعات تعانق معضلات التاريخ والوجود في آن معاً، ونأخذ مثالاً لذلك قصتيه «المستشفى» و«ليلة المستشار»، إذ يتأمل في القصة الأولى الموت وتجاذباته العميقة على الذات والواقع، فقد حضر الراوي الغائب والعارف من درعا إلى دمشق، ودُعي من صديقه أبي الفتح إلى جمع من الأصدقاء «بعد طول غياب في دروب الحياة، ورغم أنهم جميعاً يعيشون في العاصمة، إلا أن مشاغل الحياة صرفتهم عن لقاء منعش مثل هذا اللقاء منذ أمد بعيد» [ص 9]، ولكن خاطراً ملحاً أملى عليه الذهاب إلى المشفى الإيطالي لحضوره الراسخ في وجدانه، فلطالما زاره في حالات إنسانية فاجعة من أجل الاطمئنان على أهله وأحبته وتذكر إقامتهم فيه: موت أمه ذات يوم بعيد فيه بسبب سرطان الرحم، رحيل أخيه فيه بحالة سبات كبدي فقد مرّ ثلاثة وعشرون عاماً «وكأنها ومضة ثانية» [ص 13].

ولما اقترب من مبنى المشفى «أحس أنه بحاجة إلى البكاء. لا يعرف لم تعود إلى ذاكرته اللعينة صورة ذلك اليوم» [ص 16] حين نقلوا خاله إلى المشفى إياه، وقد غمره الشجن من هجمة الموت الذاهب بالأحبة، وفوجئ بالسائق الذي يركب سيارة الأجرة إلى جانبه قد اصطدم بشجرة على رصيف المشفى. إنه مرأى الموت الذي يتلامح في الفضاء كلّه، و«رأت الراهبة فوق وجهه الساكن ظل ابتسامة: ابتسامة ارتباك ودهشة، عندما عرّت صدره على الطاولة الكبيرة» [ص 19].

وأمعن أبو خضور في إطالة السرد في القصة الثانية «ليلة المستشار» فحصاً لحال مقاومة الأجنبي المحتل في تفاصيل دالة على دواعي هذا الكفاح من أجل الحرية، وبشير الحوار الأخير إلى جوهر فعل المقاومة:

«اسمع يا فيت.. نحن لا نقرأ التاريخ جيداً، تاريخ هذه المنطقة. أنت على قناعة يا فيت أن هذه المنطقة تهضم كل جسم غريب يطرأ عليها. الحملات الصليبية كلها انتهت بصدمة عسكرية وسياسية للمنطقة وحكامها، ولكن هذه المنطقة، طردت كل جسم غريب عنها في النهاية. نحن الآن يا فيت نسير في طريق النهاية، في الساعة الأخيرة ولا بد من الانتهاء» [ص 168].

واستعاد أبو خضور في مجموعتيه الثالثة والرابعة «قبعة القش» (1996) و«أوتار غير مدوزنة» (1998) قبسات من ذكريات الطفولة واليفاعة، ومن واقع محيطه الاجتماعي، تعبيراً عن قهر الإنسان وانسحاقه من القنوط إلى تلمس ضوء يلوح في الظلمة، فالناس البسطاء تتفجر من دواخلهم بطولة مثالية نادرة دفاعاً عن الشرف والأرض والوطن. وقد حوت تلك القصص ذاكرة المكان، وتميزت بحملها للهموم العامة في ابتعاث طرائق سرد جديدة إلى حدّ كبير ومفعمة بجمالياتها.

وتفصح قصة «القطار» من مجموعته «أوتار غير مدوزنة» عن مثال هذه القبسات، فثمة مؤشر حركة القطار في محطة درعا إلى إثارة كوامن عميقة وثرّة عن أسى الوجود كلما ارتفعت الأعلام والرايات مازجة الذكرى بحزنه من ضغوط الحياة اليومية مع زوجته وسواها إلى الدرجة التي بات يفكر فيها بما يشبه الانتحار والانغماس في غيهب الكارثة:

ولكنه ما لبث أن استسلم لرحابة الطبيعة وزقزقة العصافير التي تفرّ من ضجيج القطار، أو يفرّ الفرح من ضجيج الحياة بالنسبة إليه.

وارتفعت وتيرة التجديد القصصي إلى منتهاه الاستعاري في ضبط المبنى ومواءمته للمعنى المجازي في مجموعته الخامسة «الدقّ على مقام البحر» (2000)، وتشير القصة التي تحمل اسم المجموعة إلى طريقته المستحدثة في القص، فقد لفت نظره عجوز بائع دربكات إلى جانب حديقة السبكي، ثم تداخل وصف الاقتراب منه ومحاورته مع المعاني العميقة للعزف على شؤون الحياة الكثيرة والمعقدة، حتى قرر الراوي أخيراً أن يعود إلى البائع العجوز، ويشتري دربكة «فالنقر لليد اليسرى، لأنها أقرب إلى القلب. والضرب لليمنى، لأنها مباركة تعطي وتمنح.

تطلعت إليه فرأيته فاغر الفم، قلت مؤكدًا:

ـ سأشتري دربكة لأتعلم العزف من جديد.

وتركته واقفاً على الرصيف وأنا أغوص في زحمة الشارع الذي بدا لي لحظتها عريضاً.. عريضاً!» [ص 19].

محمد أبو خضور قاص مبدع في تجديد الفن القصصي واستطاعته الرؤيوية الشاملة والإستعارية للقيم النفسية والاجتماعية والقومية ضمن جماليات قصصية مدهشة فيما هو أقرب إلى مهارة البساطة.

آثاره

1 ـ عبد الناصر للتاريخ، دراسة، دمشق 1971م؛ 2 ـ التصلب في الشخصية، بحث، بيروت 1972؛ 3 ـ النكتة الصهيونية، دراسة، دمشق 1978؛ 4 ـ الأبيض والأسود، دراسة، دمشق 1979؛ 5 ـ دراسات نقدية في الرواية السورية، دراسة، دمشق 1981.

وترجم عدة كتب عن الإنجليزية، نذكر منها:

6 ـ فلسفة الردة، دمشق؛ 7 ـ عطيل وراسكولينكوف، دمشق 1983؛ 8 ـ مقتل طائر غرّيد، دمشق، 1981؛ 9 ـ المادية المقاتلة، تأليف بليخانوف، دمشق 1974؛ 10 ـ حرب الفلاحين، دمشق 1975؛ 11 ـ كومونة باريس، دمشق 1976.

المصادر والمراجع

● أبو خضور، محمد، دراسات نقدية في الرواية السورية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 1981؛ ● أبو خضور، محمد، النكتة الصهيونية، دراسة نفسية اجتماعية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 1977؛ ● أبو خضور، محمد، الأبيض والأسود، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 1979؛ ● أبو خضور، محمد، السماء تمطر تصفيقًا، اتحاد الكتاب العرب، دمشق 1992؛ ● أبو خضور، محمد، ليلة المستشار، اتحاد الكتاب العرب، دمشق 1993؛ ● أبو خضور، محمد، قبعة القش، اتحاد الكتاب العرب، دمشق 1993؛ ● أبو خضور، محمد، أوتار غير مدوزنة، اتحاد الكتاب العرب، دمشق 1998؛ ● أبو خضور، محمد، الدق على مقام البحر، وزارة الثقافة، دمشق 2000.

د. عبد الله أبو هيف
جامعة تشرين ـ اللاذقية ـ سوريا

ابن الخطاب، أبو بكر محمد بن عبد الله

(ت 686هـ/1288م)

محمد بن عبد الله بن داود بن الخطاب الغافقي الأندلسي المكنّى بأبي بكر [الزركلي، خير الدين، الأعلام، 1/ 232] وقال لسان الدين: «محمد بن عبد الله بن داود بن خطاب الغافقي من صلة ابن الزبير» [لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، 2/ 426]. عرف ابن خطاب بالنباهة وسرعة البديهة ورجاحة العقل وحسن المعاشرة وكان محبًا للمشاكسة العلمية ميالا إلى الزهد، قال لسان الدين بن الخطيب: «كان محمد بن عبد الله بن خطاب من صلة ابن الزبير، كان كاتبا بارعا وشاعرا مجيدا له مشاركة في أصول الفقه وعلم الكلام وغير ذلك مع نباهة وحسن فهم، ذو فضل وتعقّل وحسْن سمت ... وكان شكيس الأخلاق متقاطبا زاهدا بنفسه ابتدأ يوما كتابا مصدّرا بخطبته فقال فيه يصف صحابة رسول الله ﷺ «عفوة العفوة» (خيرة الخيرة) وتركه لأمر عرض له فنظر إليه الفقيه عمر اللوشي وهو كاتب المقام السلطاني فظنّ لقصوره أنّه وهم وأراد «الصفوة» فأصلحه، فلمّا عاد ونظر إليه مزّقه وكسر الآلة وقال لا أقيم بموضع بلغ فيه الجهل هذا القدر ويتسور به الإصلاح على قلم يطمع بعد في مقامه وانصرف [الإحاطة، 2/ 426 ـ 427].

كان محمد بن عبد الله بن الخطاب كاتبا وأديبا وعالما بالأصلين، قدم غرناطة وعمل كاتبا عند السلطان ورجع إلى مرسية ثمّ انتقل إلى العدوة وارتحل إلى تلمسان بالجزائر واستقرّ بها وقيل استقدمه حاكمها. قال لسان الدين بن الخطيب «ورد على غرناطة واستعمل في الكتابة السلطانية مدة وكان معلوم القدر معظما عند الكافة ثمّ إنه رجع إلى مرسية وقد ساءت أحوالها فأقام بها مدة ثمّ انفصل عنها وقد اشتدّت أحوالها واستقرّ بالعدوة بعد مكايدة ... وانصرف واستقرّ بتلمسان كاتبا عند سلطانها أبي يحيى يغمراسن بن زياد وزعموا أنّ المستنصر أبا عبد الله بن الأمير زكريا استقدمه على عادته في استدعاء الكتاب المشاهير والعلماء وبعث إليه ألف دينار من الذهب العين فاعتذر ورد عليه المال وكان أشقّ ما مرّ على المستنصر وظهر له علو شأنه وبعد همّته» [م.ن، 2/ 426 ـ 427].

وقال عبد الله بن مريم: سيدي محمد بن عبد الله بن داود بن خطاب الغافقي نزيل تلمسان من أهل مرسية، كان من أبرع ملوكها وقفل إلى مرسية وقد اختلفت أمورها فارتحل إلى تلمسان وكتب بها لأمير المؤمنين يغمراسن بن زياد [البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص 228].

روى محمد بن خطاب عن القاضيين، أبي عيسى بن أبي السداد، وأبي بكر بن محرز وعن محمد القرشي، وأبي الربيع بن سالم.

قال ابن الخطيب «روى عن القاضيين أبي عيسى بن أبي السداد وأبي بكر بن محرز وعن الأستاذ أبي بكر محمد بن محمد المعروف بالقرشي وقرأ وسمع على هؤلاء ببلده وأجاز له كتابة أبي الربيع بن سالم وغيره» [م. ن، 2/ 427].

من نماذج أشعاره ونثره نذكر ممّا ورد في الإحاطة في مجال القناعة والزهد والتصديق بالقضاء قال:

اقنع بما أوتيته تنل الغنا
وإذا دهتك ملمّةٌ فتصبّر

واعلم بأن الرزقَ مقسوم فلو
رمنا زيادة ذرّةٍ لم نقدر

والله أرحمُ بالعباد فلا تَسَل
أحدًا تعش عيشَ الكرام وتؤجر

وإذا سخطتَ لبؤس حالك مرة
ورأيت نفسك (قد غدوت تبصّر)

لعظيم نعمته عليك وتشكر
لعظيم نعمته عليك وتشكر

وممّا قيل في صباه واصفا حبه في قصيدة وجد مطوّلة نذكر منها:

ظبي تصدّى للقلوب يصيدها
من ناظريْه في سلاح شاك

ورمى وإن قالوا رنا عن
فاتر ساج عليه ميسم النسّاك

قد كنت أحذر بطشه لو أنني
أبصرت منه مخايل الفتّاك

أو ما عليه ولا عليه حاكم
يحمي ثغورك أو يحوط حماك

اصليْتنِي نار الصدود وإنني
راض بأن أصلَى ولا أسلاك

أأموتُ من عطَش وثغرك مورِد
فيه الحياة استودعتْها فاكِ

إلى جانب القصائد المطوّلة التي وردت في الزهد والغزل والتوبة ذكر له ابن الخطيب فقرات من نثره، فمنه ما خاطب به صديقين له بمرسية من مدينة إشبيلية: كتبته، كتب الله لكما فوزا بالحسنى، وأجناكما من ثمرات إحسانه أكثر ما يجني من إشبيلية، وحالي بحمد الله حسنة، ونفسي بحب قربكما مرتهنة، وعلى بما لديكما من السراوة التي جبلتما على فطرتها، (وامتزتما في الاجتلاء بغرّتها) علم لا يدخله الشكّ، ونسبتي إلى ودّكما الذي لبسته معلّما وتقلّدته محرما، لا يعبر عن معناها إلا بما لا يزال، ولا ينفكّ. فلتثن عنان القلم عن مداده، ونأخذ في حديث سواه. وصلنا إشبيلية ضحوة يوم الثلاثاء خامس ربيع الاخر، ولقينا الإفانت (الإفانت هنا يقصد بها «الانفانتي Infante»، وهو لقب يطلق على ولي عهد ملك قشتالة) على ميلين، وفزنا بما ظهر من بشره واعتنائه بقرار الخاطر، وقرّة العين، ونزلنا في الأخبية خارج البلد، موضعا يعرف بالقنب، قد تفجّر عيونا، وجمع ماؤه وهواؤه من المحاسن فنونا، وعرض علينا النزول في الديار داخل المدينة، فرأينا المقام فيه، أحد الأسباب المسعدة على حفظ الصحّة المعينة، ورغبنا عن المدينة لحرّها الوهاج، وغبارها العجاج، ومائها

الأجاج. ولما ثاب من النشاط البارح، استقلّ من المطيّ الرازح، طفت في خارجها وداخلها، ووقفت على مبانيها المشيّدة ومنازلها، ورأيت انسياب أراقشها، وتقصّيت آثار طريانتها (يقصد بها طريانة Triana ضاحية إشبيلية الجميلة الواقعة إزاءها على الضفّة الغربيّة من نهر الوادي الكبير. وما تزال طريانة حتّى اليوم من أجمل ضواحي إشبيلية) وبراقشها فشاهدت من المباني العتيقة، والمنارة (يقصد بها هنا منارة الجامع الأعظم الواقعة في قلب إشبيلية، وهي التي حوّلت فيما بعد من أعلاها إلى برج لأجراس كنيسة إشبيلية العظمى، التي بنيت فوق موقع الجامع، وما تزال حتّى اليوم من أعظم الآثار الأندلسية الباقية. وتعرف بالإسبانية باسم: لا خيرالدا La Giralda) الأنيقة ما يملأ أعين النظّار، وينفسح فيه مجال الاعتبار. على أنّي ما رأيتها إلا بعد ما استولى عليها الخسف. وبان عنها الظرف، ونبا عنها الطرف، فلا ترى من مغانيها إلا طللا دارسا، ولا تلمح من بدايعها إلا محيّا عابسا، لكن الرائي إذا قدّر وضعها الأوّل، وركب وهمه من مبانيها ما تحلّل، وتخيّل في ذهنه حسنها وتمثّل، تصوّر حسنا يدعو إلى المجون، ويسلى عن الشجون لولا أنّها عرضت لأشمط راهب. لما دان إلا بدن، ولا تقرّب بغير قارب وحسبي أن أصفها بما يقيها من القبول، وأقول إنها في البلاد بمنزلة الربيع من الفصول، ولولا أنّ خاطري مقسّم وفكري حده مثلم، لقضيت من الإطناب وطرا، ولم أدع من معاهدها عينا إلا وصفتها ولا أثر [الإحاطة في أخبار غرناطة، 2/ 131 - 133].

هذه عيّنات من أدب ابن خطاب في الشعر والنثر وقد بدأ رومانسيا رهيف الإحساس مشتعل الذكريات ولا شكّ أنّ البيئة التي عاش فيها صنعت منه أديب الحبّ والطبيعة أمّا عن مساهمته في علم الكلام وأصول الفقه فلم نعثر له على أثر.

وكانت وفاته سنة ستّ وثمانين وستمائة وقد ذكر الزركلي أنّها كانت سنة ستّ وثلاثين وستمائة وذلك في تلمسان [الأعلام، 1/ 232] ووافقه صاحب البستان قال: وتوفّي سنة ست وثلاثين وستمائة 636هـ [م.س، ص 228] وقال ابن الخطيب: توفي بتلمسان يوم عاشوراء سنة ستّ وثمانين وستمائة وهو الأرجح [الإحاطة، م.ن، 2/ 133].

المصادر والمراجع

● ابن مريم، أبو عبد الله محمد، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، المطبعة الثعالبيّة، الجزائر 1326هـ/ 1908م؛ ● ابن الخطيب، لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، ط1، مج2، مكتبة الخانجي، القاهرة 1397هـ/ 1977م؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، قاموس تراجم، ج1، دار العلم للملايين، بيروت.

د. حزّاث بوعلاقي
جامعة الزيتونة - تونس

ابن الخطاب، سالم عبد الله بن عمر

(ت 106هـ/725م)

هو سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب القرشي العدوي، الفقيه الزاهد العابد القدوة [ابن العماد، شذرات الذهب، 1/ 133]. من سادات التابعين وعلمائهم، ويعدّ أحد فقهاء المدينة، بل ذكر بعضهم أنه أحد فقهاء المدينة السبعة [ابن حجر، تهذيب التهذيب، 3/ 437؛ الزركلي، الأعلام، 3/ 71] الذين كانوا إذا جاءتهم المسألة دخلوا جميعا فنظروا فيها.

أبوه الصحابي عبد الله بن عمر أحد كبار رواة الحديث، وأمه أم ولد فارسية نبيلة، هي ابنة يزدجرد آخر ملوك الفرس، كانت قد وقعت أسيرة مع أختيها بأيدي المسلمين في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، وعوملت الأسيرات الثلاث معاملة خاصة بإشارة من علي بن أبي طالب، فقوّمت أثمانهنّ وأعطيت واحدة للحسين بن علي، والثانية لمحمد بن أبي بكر الصديق، والثالثة لعبد الله بن عمر. فأنجبت الأولى علي زين العابدين، والثانية أنجبت القاسم بن محمد بن أبي بكر أحد فقهاء المدينة السبعة، والثالثة أنجبت سالم بن عبد الله بن عمر الذي نترجم له. ونقل ابن حجر عن ابن أبي الزناد أنّ أهل المدينة كانوا يكرهون اتّخاذ أمّهات الأولاد حتّى نشأ فيهم القرّاء السادة علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، والقاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله ففاقوا أهل المدينة علما وتقى وعبادة وورعا، فرغب الناس حينئذ في السراري.

ولد سالم بن عبد الله بالمدينة وتربّى بها، وأخذ العلوم وروى عن الصحابة فأخذ عن والده وعن شيخ المدينة أبي أيوب الأنصاري، وأبي هريرة، وأبي رافع، وزيد بن الخطاب، وغيرهم.

لم يترك سالم بن عبد الله أثرًا مكتوبًا، وإنّما ترجع شهرته إلى سعة علمه وزهده. وقد روت عنه جماعة كثيرة. ذكر ابن حجر جماعة منهم، وهم: «ابنه أبو بكر، وأبو بكر بن محمد بن عمر بن حزم، والزهري، وصالح بن كيسان، وحنظلة بن أبي سفيان، وعبيد الله بن عمر بن حفص، وأبو واقد الليثي الصغير، وعاصم بن عبيد الله، وعبد الله بن أبي بكر بن حزم، وأبو قلابة الجرمي، وحميد الطويل، وعمر بن حمزة بن عبد الله بن عمر، وعمرو بن دينار المكي، وعمرو بن دينار البصري، ونافع مولى أبيه، وموسى بن عقبة، ومحمد بن واسع، وآخرون» [ابن حجر، تهذيب التهذيب، 3/ 437].

عرف سالم بن عبد الله بتضلّعه في علم الحديث، وذكره ابن سعد بأنّه «كان ثقة كثير الحديث عاليا من الرجال» [ابن حجر، تهذيب التهذيب، 3/ 438]. وقال فيه أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه: أصحّ الأسانيد الزهري عن سالم عن أبيه [ابن حجر، تهذيب التهذيب، 3/ 437].

أمّا زهده فقد أشارت إليه أقوال ووقائع كثيرة. من ذلك أنّ الإمام مالك مدحه بقوله: «لم

يكن أحد في زمان سالم بن عبد الله أشبه من مضى من الصالحين في الزهد والفضل والعيش منه» [ابن حجر، تهذيب التهذيب، 3/ 437]. ومن الوقائع الدالة على زهده ما وقع له مع حكّام بني أمية: روى الزهري أنّ سالم بن عبد الله، الذي اشتهر بجمال خلقته، حدّث عن نفسه قائلا: دخلت على الوليد بن عبد الملك فقال: ما أحسن جسمك فما طعامك؟ قلت: الكعك والزيت، فقال: وتشتهيه؟ قلت: أدعه حتى أشتهيه، فإذا اشتهيته أكلته. وكان يقول: إيّاكم ومداومة اللحم فإنّ له ضراوة كضراوة الشراب [ابن خلّكان، وفيات الأعيان، 2/ 349].

وكان سالم بن عبد الله يرفض التقرّب إلى الحكام رغم محاولتهم. من ذلك أنّ الخليفة سليمان بن عبد الملك دخل الكعبة فرأى سالما واقفا، فقال له: سلني حوائجك، فقال: لا والله لا سألت في بيت الله غير الله [ابن العماد، شذرات الذهب، 1/ 133].

أما الواقعة التي حصلت له مع الوالي الأموي الحجاج بن يوسف فهي تؤكّد حرصه على تجنّب الوقوع في أمر لا يرضي الله يأمره به الحاكم، وكان قد استعمل سعة علمه للخروج من المأزق الذي وقع فيه. وذلك أنه كان يوما جالسا في مجلس الحجّاج إذ وقع جلب طائفة من الرجال مقيّدين بالحديد، فسأل سالم بن عبد الله عنهم، فقال له الحجاج: إنّهم بغاة مفسدون في الأرض مستبيحون لما حرّم الله من الدماء، ثم أعطاه سيفه وأشار إلى رجل منهم قائلا: عليك به يا سالم، فقم إليه واضرب عنقه. فأخذ سالم السيف من يد الحجّاج وذهب إلى الرجل، فلما كان عنده قال: أمسلم أنت؟ فقال الرجل: نعم، ولكن لا شأن لك بذلك، امض لإنفاذ ما أمرت به. فقال سالم: وهل صلّيت الصبح؟ قال الرجل: قلت لك إنّي مسلم، فكيف تسألني إن كنت صلّيت الصبح؟ هل تظنّ أنّ هناك مسلما لا يصلّي الصبح؟ فقال سالم: أسألك عن اليوم، صبح اليوم. فقال الرجل: نعم. فرجع سالم إلى الحجّاج، ورمى له السيف وقال: بلغني أنّ رسول الله ﷺ قال: من صلّى الصبح فهو في ذمّة الله [رواه مسلم]، وإنّي لا أقتل رجلا دخل في ذمّة الله ﷻ. وبلغ هذا الأمر والده عبد الله بن عمر في المدينة فقال: حسن حسن، عاقل، عاقل [عبد المنعم الهاشمي، عصر التابعين، 387 ـ 388]. كما مدحه والده وافتخر به لما حازه من علم ومعرفة، واشتهر به من تقوى وزهد وفضل قائلاً:

يلومونني في سالم وألومهم
وجلدة بين العين والأنف سالم

[ابن الجوزي، صفة الصفوة، 1/ 133]

توفّي سالم بن عبد الله بالمدينة في شهر ذي القعدة أو ذي الحجّة سنة ستّ ومائة للهجرة (على الأشهر)، وقيل ثمان ومائة، وصلّى عليه الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك، وتكاثر الناس في جنازته إلى درجة اختيار فضاء البقيع لتتمّ الصلاة عليه [ابن خلّكان، وفيّات الأعيان، 2/ 349].

المصادر والمراجع

• ابن الجوزي، صفة الصفوة، دار الجيل، الطبعة الأولى، 1412هـ/

1992م، 1/ 387 ـ 388؛ ● ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، دار صادر، بيروت 1325هـ، 3/ 436 ـ 438؛ ● ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، الطبعة الثانية، 1399هـ/ 1979م، 1/ 133؛ ● ابن خلكان، وفيات الأعيان، 2/ 349؛ ● الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة السابعة، 1986، 3/ 71؛ ● الهاشمي، عبد المنعم، عصر التابعين، دار بن كثير، الطبعة الثالثة، 1421هـ/ 2000م، ص381 ـ 389.

د. منير رويس
جامعة تونس

الخطّابي، أبو سليمان حمْدُ

(319هـ/931م ـ 388هـ/998م)

حمد ـ بفتح الحاء وسكون الميم ـ بن محمد بن إبراهيم بن خطّاب أبو سليمان الخطّابي الشافعي. لا خلاف بين المصادر على هذا السياق لنسبه، وإنما اضطربت الأقوال في ضبط اسمه، فالأكثر يذكرون أنه حمد، وعلى هذا الحاكم النيسابوري في تاريخه، وعبد الرحمٰن الفامي الهروي في تاريخ هراة، وأبو طاهر السلفي في مقدمة شرحه لمعالم السنن للخطابي [ياقوت، معجم الأدباء، 4/ 251]، والسمعاني في الأنساب [2/ 226]، والسبكي في طبقاته [3/ 282]، والذّهبي في سيره [13/ 3]، وتذكرته [3/ 1018].

ولكن القفطي في أنباه الرواة سمّاه أحمد [1/ 125]، وكذلك فعل قبله كل من الثعالبي في يتيمة الدّهر [4/ 334]، وأبي عبيد الهروي، وجاراهما في ذلك ياقوت في معجم الأدباء [4/ 247] متعللا بأن هذين كانا معاصريه وتلميذيه فهما أعرف به. وأما الصّفدي فإنه وإن سمّاه أحمد إلّا أنه عقّب على ذلك بقول أبي طاهر السلفي بأنّ الجمّ الغفير والعدد الكثير قد ذكر أنّ اسمه: حمد، وأن هذا هو الصّواب وعليه الاعتماد [الوافي بالوفيات، 7/ 317].

ومما يؤكد ما عليه الجمهور في هذه المسألة ويحسم الخلاف فيها ما ذكره السمعاني في تاريخ مرو من أن الخطّابي سئل عن اسمه فقال: اسمي الذي سمّيت به حمد، لكن الناس كتبوه أحمد فتركته عليه [ياقوت، م.س، 4/ 251]. لهذا جزم الذهبي بأن الصّواب في اسمه ما عليه الجمهور، ووهّم أبو منصور الثعالبي في مخالفته [السير، 13/ 3].

ومن المسائل المثارة أيضا حول اسمه، هل حَمْدٌ بسكون الميم أم بفتحها؟ وهل نسبته الخطابي تعود إلى جدّه المذكور في سلسلته العائلية، أم إلى زيد بن الخطاب أخي عمر بن الخطّاب؟.

بعض المصادر تذكر أنه من ولد زيد بن الخطاب ولا تعلّق على ذلك [ياقوت، م.س، 4/ 247]، وبعضها يتشكك في هذه النسبة فيوردها بصيغة التمريض [ابن خلكان، الوفيات، 2/ 214]، ولكن السبكي نفى ثبوتها وجزم بأنه ينسب إلى جدّه خطّاب [م.س، 3/ 282].

وممّن سكّنوا حرف الميم في اسمه الذهبي في المشتبه [1/ 242]، وفي السير، [13/ 3]، والسمعاني في الأنساب [2/ 226]، والأسنوي في طبقات الشافعية، [1/ 223]، والسبكي في طبقاته، [3/ 282]. بينما أورده بفتح الميم السلفي في مقدمة شرحه لمعالم السنن، والحاكم في تاريخ نيسابور، والسمعاني في تاريخ مرو، والفامي الهروي في تاريخ هراة [ياقوت، م.س، 4/ 248، 250 ـ 251].

ولا سبيل للجزم بواحدة من هذين الصورتين في الضّبط، لأنه ضبط شكل لا ضبط بالحروف وتنصيص، لإمكانية أن يكون ذلك من عمل النسّاخ أو ناشري الكتب، ولأن المعتمد في ضبط الأسماء هو السماع لا القياس في الأغلب الأعمّ. إلّا أن التأصيل اللغوي للمادة يجعل الأقرب إلى الصّواب تسكين ميم حَمْد لا فتحها. ولعلّ تنصيص الشهاب أبي العباس أحمد المتبولي (ت 1003هـ) في شرحه للجامع الصغير للسيوطي على أن حمدا بسكون الميم قد راعى فيه هذا الاعتبار المعجمي [انظر هامش شذرات ابن العماد، 3/ 127، دار الفكر 1979].

يعدّ الخطابي أحد صدور المحدثين الذين قام عليهم سوق العلم في النصف الثاني من القرن الرابع، وتجمع كل المصادر على إمامته في الحديث والفقه والأدب، وقد استفادت أبحاثه ـ التي جاء معظمها في الحديث ـ من هذا التنوّع في مواهبه العلميّة. وهو من روّاد شرّاح الحديث. ومؤلفاته في هذا المجال هي أول ما وضع في بابه، وله مشاركة متميّزة في الدراسات اللغوية للحديث.

ولد في رجب سنة 319هـ بمدينة بست [ياقوت، م.س، 4/ 248] بأفغانستان اليوم، وفي شعره ما يفيد أنه أصيل هذه المدينة. ولم تتعرض المصادر المعروفة لا كثيرا ولا قليلا للحديث عن أسرته وظروف نشأته الأولى ولم يشر هو إلى ذلك في شيء من كتبه التي وصلتنا، ولا نملك تفاصيل كافية على ملفه المدرسي.

والمعروف من أحواله أنه رحل في طلب الحديث وقراءة العلوم وقد أكثر من ذلك [الذهبي، سير، 13/ 3] فدخل العراق والحجاز وجال في خراسان وخرج إلى ما وراء النّهر [ياقوت، م.س، 4/ 250] وسمع بنيسابور وبغداد [الذهبي، تذكرة، 3/ 1018] والبصرة ومكة [السمعاني، م.س، 2/ 226].

ويظهر من تراجم كبار شيوخه أنه قد شرع في الرحلة في حدود العشرين من عمره وقبل سنة 340هـ التي مات فيها شيخه بمكة ابن الأعرابي أبو سعيد أحمد بن محمد بن زياد أحد رواة سنن أبي داود السجستاني، ويلزمه أن يكون قد دخل بغداد قبل نهاية هذا العام أيضا ليتهيّأ له السماع من شيخه النحوي الأديب أبي علي إسماعيل بن محمد الصّفار الذي مات في المحرّم سنة 341هـ.

كان عالي الإسناد جدًا [ياقوت، م.س، 4/ 253] وفي شيوخه كثرة [ذهبي، سير، 13/ 3] ومن مشاهيرهم الذين تخرّج عليهم في الحديث أصحاب أبي داود السجستاني كابن الأعرابي المتقدّم (246 ـ 340هـ) شيخ الحرم، وأبو بكر بن داسة التمّار محمد بن بكر (ت 346هـ) مسند البصرة. وتفقّه بالقفّال الشاشي أبي بكر محمد بن عليّ (ت 365هـ)، وأبي علي بن أبي هريرة حسن بن حسين شيخ الشافعية ببغداد (ت 365هـ).

وسمع أيضا من أبي العباس الأصمّ محمد بن يعقوب النيسابوري محدث عصره ومسند خراسان (ت 346هـ)، وأخذ اللغة عن أبي عمر الزاهد محمد بن عبد الواحد بن أبي هاشم المطرّز غلام ثعلب (261هـ ـ 345هـ) الذي يذكر عنه أنه لم يتكلم في العربية أحد من الأوّلين والآخرين أعلم منه [السيوطي، البغية، 1/ 164، دار الفكر 1979].

عني بهذا الشأن متنا وإسنادًا [الذهبي، سير، 3/ 13]، وحصل الكثير [ابن كثير، البداية، 11/ 236] حتى صار من العلم بمكان عظيم [السبكي، م.س، 3/ 283]، وشبّه بأبي عبيد القاسم بن سلام في عصره عِلْمًا وأدبا وزهدًا وورعا وتدريسا وتأليفا [الثعالبي، م.س، 4/ 334].

أوقف حياته على العلم تأليفا وتدريسا احتسابا لله وكان يعيش من احترافه التجارة في ملكه الحلال معتزلا السلطان، زاهدا في الشهرة والجاه، ولا يتوانى عن الإنفاق على الصلحاء من إخوانه [ياقوت، م س، 4/ 250].

كان محدثا رحّالا [الذهبي، تذكرة، 3/ 1019] ينشر العلم ويروي الحديث حيثما حلّ، وقد سمع منه بعدّة مناطق كبست، وغزنة، وسجستان، وفارس وعموم خراسان [ياقوت، م.س، 4/ 253 ـ 254] وأقام بنيسابور سنين وحدّث بها وكثرت الفوائد من علومه [السمعاني، م.س، 5/ 157 ـ 159].

من أعيان تلاميذه: الحاكم النيسابوري أبو عبد الله محمد (ت 405هـ) الحافظ المشهور صاحب المستدرك، وعبد الغافر بن محمد بن عبد الغافر أبو الحسين الفارسي النيسابوري (ت 448هـ) راوي صحيح مسلم عن أبي عمرويه، وراوي كتاب غريب الحديث عن الخطابي، وأبو عبيد الهروي أحمد بن محمد الباشاني (ت 401هـ) اللغوي الكبير صاحب الغريبين، وأبو ذرّ الهروي عبد بن أحمد بن محمد (ت 435هـ) الحافظ الثقة وروايته لصحيح البخاري هي الرواية المتداولة اليوم، وأبو منصور الثعالبي عبد الملك بن محمد النيسابوري الأديب الشاعر المشهور (ت 430هـ).

غلب على حياته طابع الزهد والورع، وأشاد كل من ذكره بديانته وأمانته وحسن طريقته، ومال في آخر حياته إلى الصوفية فدخل خلوتهم [السمعاني، م.س، 5/ 159]. ويبدو أنه تأثر في مسلكه الديني بشيخه ابن الأعرابي الذي كان زاهدا صوفيا ربانيا كبير القدر وهو مؤلف كتاب طبقات النساك وكان قد صحب الجنيد [الذهبي، تذكرة، 3/ 852]. كما أن كثرة القلاقل والفتن وغلبة الدنيا على الناس قد شجعت ظاهرة الخلوة والزهد عند الأتقياء من أهل القرن الرابع الهجري تورّعا واحتياطا للدين. وقد فسّر الخطابي نفسه هذه النزعة بقوله: العزلة عند الفتنة سنة الأنبياء وعصمة العلماء وسيرة الحكماء والأولياء، فلا أعلم لمن عابها عذرا لا سيما في هذا الزمان القليل

خيره وبالله نستعيذ من شره [العزلة، ص8].

توفي ببلدته بست في رباط على شاطئ نهر هِنْدَمَنْدَ يوم السبت السادس عشر (16) من شهر ربيع الثاني [الثعالبي، م.س، 4/ 334] سنة 388هـ على ما حققه الذهبي في [السير، 13/ 3] و[التذكرة، 3/ 1020]، وللعلماء فيه مدحيات ومراثٍ كثيرة تدل على رفعته في الدين والعلم والفضل [ياقوت، م.س، 4/ 256 ـ 260].

تركزت أبحاثه في إطارها العام حول الحديث والأدب. وكثر الثناء عليه في هذا المجال. وأبرز جهوده في العناية بالحديث تتجلى في جانبين:

ـ الرواية: ووصف فيها بالمحدث [ياقوت، م.س، 10/ 368؛ ابن خلكان، الوفيات، 2/ 214؛ الحافظ الذهبي، سير، 13/ 3] والمفيد [م.س، تذكرة، 3/ 1019]. والحجّة الصدوق [ياقوت، م.س، 4/ 250]. صنف في الدلائل، والجهاد، والدعاء، والزهد، وله إسناده الخاصّ وإضافاته المستقلة، ولهذا أهميته في مجال التخريج.

ـ فقه الحديث: يعدّ الخطابي أول شارح لصحيح البخاري على الإطلاق [يوسف الكتاني، مقدمة أعلام السنن، 36]، كما أن معالم السنن يعدّ أقدم شروح سنن أبي داود. وتميّزت أعماله في هذا المضمار بالتركيز على توضيح الأحاديث المشكلة وحسن تأويلها والبراعة في استنباط الأحكام وتعليلها وتدقيق المعاني وجودة تلخيص آراء الفقهاء وحصر أوجه الاختلاف بينها، وكان صاحب نظر مستقل وتحقيق.

وفي شرحه أسّس منهجية لنمطين من الشرح تطورا في ما بعد: أولهما الشرح التحليلي الذي يعنى فيه بالتدقيق اللغوي ومعرفة اختلاف الروايات وزياداتها وضبط سياقها لقوة ارتباط هذه المسائل بالجانب التشريعي في النّص واعتماد الاستنباط عليها. وثانيهما الشرح المقارن القائم على عرض آراء المذاهب في فقه النص وتوضيح مدارك أنظارهم فيه وتأصيل اختياراتهم في ذلك والترجيح بينها بحسب قوة الدليل، وهذا ما يدلّ على معرفته الواسعة بمذاهب الفقهاء ورسوخ قدمه في الفقه.

ويلحق بهذا عنايته الخاصّة بغريب الحديث، وحملت أبحاثه فيه إضافات مهمّة كانت الأساس الذي قامت عليه شهرته كلغوي. كما كان يهتمّ بتصحيح النصوص وضبط حالات التصحيف فيها وقد أجاد وأفاد.

أمّا الأدب فله مشاركة قويّة فيه نوّه بها كل من ترجم له، وهناك إجماع على تبريزه في اللغة والشعر خاصّة، لذلك لا تخلو كتب طبقات الأدباء والشعراء من ذكره. وإمامته في اللغة تشهد له بها دراساته اللغوية التطبيقية وما فيها من تحقيق وإتقان، نلمس ذلك بوضوح في كتبه الخاصّة بالغريب والشرح وإصلاح غلط المحدثين والإعجاز القرآني.

أمّا شعره فقد وصف بالكثرة [الصفدي، الوافي، 7/ 318]، والحسن والجودة [القفطي، إنباه، 1/ 125؛ ابن الجوزي، المنتظم، 6/ 397؛ الثعالبي، اليتيمة، 4/ 334]، وقال الذّهبي له شعر هو السحر [السير، 13/ 3] وأغلبه يتعلق بالأخلاق والمثل العليا وحكمة الحياة، وفيه تصوير لصفاء نفس صاحبه وزهده وإيثاره السلامة

بمداراة الناس وبذل النصيحة لهم [ابن كثير، البداية، 11/ 236 ـ 237]. وقد وصلتنا منه نتف مفرّقة في يتيمة الدهر [4/ 234 ـ 235] ومعجم الأدباء [4/ 254 ـ 259] وغير ذلك.

آثاره

وصفت بأنها كثيرة [الذهبي، سير، 4/ 13]، وحسنة [ابن كثير، البداية، 11/ 236]، وبديعة [ابن خلكان، الوفيات، 2/ 224]، ونافعة جامعة [ابن العماد، الشذرات، 3/ 127 نقلا عن ابن الأهدل]، ومشهورة وصحيحة [طاش كبري زاده، مفتاح السعادة، 2/ 146]. وقال عنها أبو طاهر السّلفي: إذا وقف مصنّف على مصنفاته واطلع على بديع تصرفاته في مؤلفاته تحقق إمامته وديانته فيما يورده وأمانته [الذهبي، سير، 13/ 4]. ولا يخرج أفقها المعرفي عن دائرة الرواية والفقه واللغة، والذي وصلنا منها وطبع هو أشهرها وله علاقة وثيقة بدراسات الحديث.

أ ـ آثاره المطبوعة:

1 ـ غريب الحديث، وهو من أمهات كتب هذا الفن، تح. عبد الكريم العزباوي، ذكر فيه ما لم يذكره أبو عبيدة، وابن قتيبة في كتابيهما، طبعته دار الفكر بدمشق في 3 أجزاء، 1402هـ/ 1982م؛ 2 ـ رسالة في إعجاز القران، ويسميها البعض: بيان إعجاز القرآن، تح. محمد خلف الله أحمد، ومحمد زغلول سلامة، نشر في عليكره بالهند سنة 1953، وطبع ضمن مجموع به ثلاث رسائل في الإعجاز: الأولى للرّماني، والثانية لعبد القاهر الجرجاني، والثالثة للخطابي، في دار المعارف بالقاهرة، 1955؛ 3 ـ أعلام السّنن، وهو في شرح صحيح البخاري اقتصر فيه على شرح المشكل من أحاديثه، تح. يوسف الكتاني، مطابع منشورات عكاظ، الرباط، المغرب؛ 4 ـ إصلاح غلط المحدثين وموضوعه الإصلاح اللغوي لتصحيفات المحدثين، جمع فيه الأحاديث التي احتوت على ألفاظ يرويها أكثر الرواة ملحونة ومحرّفة، وأصلحها وأخبر بصوابها، تح. حاتم صالح الضّامن، طبع في القاهرة سنة 1936م، ونشرته مؤسسة الرسالة في سلسلة كتب التصحيح اللغوي سنة 1405هـ/ 1985م، كما نشر في مجموعة الرسائل الكمالية في الحديث التي أصدرتها مكتبة محمد سعيد حسني كامل في الطائف؛ 5 ـ الاعتصام بالعزلة، وطبع باسم: العزلة، لأول مرّة بإدارة الطباعة المنيريّة بالقاهرة 1352هـ، ووهم الكتّاني في الرسالة لما اعتبره كتابا آخر سوى كتاب العزلة وسماه الاعتصام، تح. عبد الغفار سليمان بنداري، دار الكتب العلمية، بيروت، 1405هـ/ 1985م؛ 6 ـ شأن الدعاء، ورد اسمه عند ياقوت متعدّدا، وهو واحد: فنسب للخطابي كتب: تفسير أسامي الرّب ﷻ، وشرح دعوات ابن خزيمة، [معجم الأدباء، 4/ 253 ـ 254] ثم ذكر له في الجزء العاشر ص 269 كتاب شأن الدعاء، وسماه الذهبي شرح الأسماء الحسنى [سير، 13/ 5؛ تذكرة، 3/ 1019].

وذكر له الصفدي كتابي: شرح الأدعية المأثورة، وتفسير أسماء الرب ﷻ [الوافي، 7/ 317]. وكذلك فرق حاتم الضامن [في مقدمة تحقيقه لإصلاح غلط المحدثين، ص8]

بين شرح الأسماء الحسنى وقال هو نفس كتاب شأن الدعاء وبين كتاب شرح دعوات لابن خزيمة وقال لم أقف عليه. والواقع أنهما كتاب واحد. وإنما سماه كلّ واحد من القدماء بطرف من موضوعه فوقع الالتباس، لأن كتاب شأن الدعاء كما سماه الخطابي، يشتمل على تفسير الأسماء الحسني وشرح الدعوات المأثورة التي جمعها ابن خزيمة والنسخة المخطوطة في الظاهرية [مجموع 308] ليست كما يظن من أنها كتاب الدعوات لابن خزيمة، بل هي تكميل الخطابي له مع شرحه. ولا تعرف اليوم نسخة لكتاب الدعوات لابن خزيمة إلا التي وردت في نسخة شرحها وتتميمها للخطابي والتي بها خمسة وثلاثون(35) حديثا أضافها الخطابي على أصل كتاب ابن خزيمة [الدقاق، مقدمة تحقيق شأن الدعاء، ص8]؛ 7 - معالم السنن، وهو شرح لسنن ابي داود السجستاني (ت 275هـ) اقتصر فيه على ما تمسّ إليه الحاجة، طبع مرارا، آخرها طبعة منشورات المكتبة العلمية ببيروت 1401هـ/ 1981م في أربعة أجزاء.

ب - آثاره المخطوطة:

8 - كتاب الجهاد، أشار العزباوي إلى أنه مخطوط، ولم يحدّد مصدره في ذلك [مقدمة تحقيق غريب الحديث، 1/ 20]، ومثله فعل الضامن في مقدّمة تحقيق إصلاح غلط المحدثين [ص9]، والكتاني في مقدمة تحقيق أعلام السنن [ص41]؛ 9 - كتاب الشجاج، ذكره ياقوت [م.س، 10/ 269]، والقفطي[م.س، 1/ 125]، وابن خلكان [م.س، 2/ 214] وذكر الكتاني أنه مخطوط [م.س، ص40]؛ 10 - الغنية عن الكلام وأهله، ذكره ياقوت [م.س، 4/ 253]، والذهبي [سير، 13/ 5؛ التذكرة، 3/ 1019] ونقل عنه ابن تيمية في مجموعة الرسائل الكبرى [1/ 439]، ورجّح الدقاق أنه في العقيدة [مقدمة تحقيق شأن الدعاء، 46 - 47]. وأشار العزباوي [م.س، 1/ 20]، ويوسف الكتاني [م س، 40]، والضامن [م.س، 8]، إلى أنه مخطوط؛ 11 - علم الحديث، ذكر سزكين أنه مخطوط بالموصل، رقم 84، 35 [تاريخ التراث العربي، 1/ 428] ونقل عنه ذلك العزباوي [م.س، 20] وبوسف الكتاني [م.س، 8]؛ 12 - أعلام الحديث ذكره ياقوت [م.س، 4/ 253]. وأشار داود الجلبي في كتابه مخطوطات الموصل [ص 94] إلى أن نسخته موجودة في جامع السلطان أويس بالموصل ولكن يوسف الكتاني وهمّه وقال بأن النسخة المشار إليها هي نسخة من كتاب أعلام السنن الذي حققّه [م.س، 20] فليراجع ذلك لأن ياقوت ذكر للخطابي كتاب شرح صحيح البخاري ككتاب مستقل عن إعلام الحديث [4/ 253] وسمى شرح صحيح البخاري أعلام السنن في الجزء العاشر من معجمه [ص 269].

ج - آثاره التي لم يتبيّن أمرها:

13 - تفسير اللغة التي في مختصر المزني، نقل عنه السبكي في طبقاته [3/ 290]؛ 14 - دلائل النبوّة، ذكره يوسف الكتاني [م.س، 42] وقال إن الخطابي قد أشار إليه في أثناء كتابه أعلام السنن بقوله: والخبر مشهور أمليناه في دلائل النبوة؛ 15 - الرسالة الناصحة، ذكره يوسف الكتاني [م.س، 41]

وصاحب مقدمة مجموعة الرسائل الكمالية [ص 41] ويظنّ أن موضوعها في الصفات؛ 16 ـ شعار الدين في أصول الدين، ذكر في مقدمة مجموعة الرسائل الكمالية [ص 41] وأورده الكتاني في مقدمة تحقيق أعلام السنن [ص 41]؛ 17 ـ العروس، ذكره ياقوت [م.س، 4/ 253]، ويوسف الكتاني [م.س، 40]، والضامن [م.س، ص8]، ومقدمة الرسائل الكمالية [ص 41]؛ 18 ـ معالم التنزيل، ذكره أحمد جمال العمري [الخطابي ومفهوم إعجاز القرآن، 187؛ ويوسف الكتاني، م.س، 42].

المصادر والمراجع

● الثعالبي، أبو منصور، يتيمة الدّهر، دار الفكر، بيروت د.ت، 2/ 335، 4/ 334؛ ● ياقوت الحموي، معجم الأدباء، دار الفكر، بيروت 1400هـ/ 1980م، ط3، 4/ 246 ـ 260؛ ● القفطي، إنباه الرواة على انباه النحاة، دار الكتب المصرية، القاهرة 1369هـ/ 1950م، 1/ 125؛ ● الذهبي، سير أعلام النبلاء، تح. العمروي، بيروت 1966م، 13/ 3؛ ● تذكرة الحفاظ، دار إحياء التراث العربي، بيروت د.ت، 3/ 1018 ـ 1020؛ ● الصّفدي، الوافي بالوفيات، نشر دار فرانزشتاينر، ألمانيا، ط 2، 1402هـ/ 1982م، 7/ 317 ـ 318؛ ● السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ط. عيسى الحلبي، القاهرة، 1384هـ/ 1965م، 3/ 282؛ ● العزباوي عبد الكريم ابراهيم، مقدمة تحقيق غريب الحديث للخطابي، دار الفكر، دمشق 1402هـ/ 1982م، ص3 ـ 40؛ ● الكتاني، يوسف، مقدمة تحقيق أعلام السنن شرح صحيح البخاري، مطابع منشورات عكاظ، الرباط، المغرب د.ت، ص22 ـ 44؛ ● الدقاق، أحمد يوسف، مقدمة تحقيق شأن الدّعاء، دار المأمون، دمشق، ط 1، 1404هـ/ 1984م، ص 33 ـ 47.

د. محمد الناصر الزعايري
جامعة الزيتونة ـ تونس

الخُطبي، أبو محمد إسماعيل بن علي

(269هـ/ 882م ـ 350هـ/ 961م)

أبو محمد إسماعيل بن علي بن إسماعيل بن يحيى بن بيان الصفدي البغدادي، لقب بالخُطبي نسبة إلى الخُطب وإنشائها، وكان يرتجل الخطب لفصاحته لا يتقدمه فيها أحد لذلك نُسب إليها. ولازمت هذه النسبة أحفاده من بعده، منهم أبو إسماعيل الخطبي قاضي إصفهان (ت 502هـ/ 1108م).

ولد الخطبي سنة 269هـ/ 882م، ببغداد ونشأ

بها. وليست لدينا معلومات عن أصله ولا حياة عائلته.

وقد ذكره ابن أبي يعلى الفراء في الطبقة الثالثة، وذكر أنه تتلمذ على يدي عبد الله بن أحمد بن حنبل. وهذا يدل على أنه حنبلي المذهب [طبقات الحنابلة، 2/ 118].

عاش الخطبي في عصر تميّز بضعف الخلافة العباسيّة وتسلُّط العنصر التركي عليها، وظهور دويلات مستقلة. كما تميّزت هذه الفترة بتطورات اقتصادية واجتماعية وفكرية؛ وممن عاصرهم من الخلفاء: المعتمد على الله (256هـ/ 869م - 279هـ/ 892م)، والمعتضد بالله (279هـ/ 892م - 289هـ/ 902م)، والمكتفي بالله (289هـ/ 902م - 295هـ/ 908م)، والمقتدر بالله (295هـ/ 908م - 320هـ/ 932م)، والقاهر بالله (320هـ/ 932م - 322هـ/ 933م)، والراضي بالله (322هـ/ 933م - 329هـ/ 940م)، والمتقي بالله (329هـ/ 940م - 333هـ/ 944م)، والمستكفي بالله (333هـ/ 944م - 334هـ/ 945م)، ثم المطيع لله (334هـ/ 945م).

وكان الخطبي مقرّبا إليهم، خاصّة إلى الخليفة الراضي بالله، فينال هداياهم ومنحهم. كما كان مقدّما عند شيوخ بني هاشم مثل عبد الواحد بن محمد المهتدي بالله (ت 318هـ/ 930م)، والحسن بن عبد العزيز الهاشمي (ت 333هـ/ 944م).

وشهد عصر الخطبي أيضا ظهور مؤرخين كبار تناولوا تاريخ الأمة، وأكدوا أهمية التاريخ ودوره في الحياة الثقافية والحياة العامة. ومن هؤلاء أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت 279هـ/ 892م)، والدينوري (ت 282هـ/ 895م)، واليعقوبي (ت 284هـ/ 897م)، والطبري (ت 310هـ/ 922م)، والمسعودي (ت 346هـ/ 957م).

وكانت نشأة الخطبي ببغداد بلد العلم والعلماء، حيث تلقى دروسه فيها، وحضر مجالس العلم لعلماء بغداد وشيوخها والواردين إليها لطلب العلم.

ومما يلفت النظر كثرة عدد شيوخ الخطبي، فقد بلغ عددهم ثمانية وسبعين (78) شيخا، وكلهم شيوخ كبار ثقات؛ فكان يحضر مجالسهم، ويأخذ منهم الحديث والفقه والتاريخ والسير والتراجم. وقد ترجم الخُطبي لهؤلاء الشيوخ، ونقل عنه تراجمهم الخطيب البغدادي في تاريخه، منهم:

الحارث بن محمد بن أسامة، أبو محمد التميمي (ت 282هـ/ 895م)؛ وإبراهيم بن عبد السلام بن محمد بن شاكر، أبو إسحاق الرشاء (ت 282هـ/ 895م) [الخطيب، 6/ 136]؛ عبد الله بن محمد بن عزيز، أبو محمد التميمي الموصلي، سكن بغداد وحدث بها وكان جار الخطبي (ت 288هـ) [الخطيب، 10/ 92]؛ عبد الله بن أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد، أبو عبد الرحمٰن الشيباني البغدادي، كان إماما في الحديث خبيرا به وبعلله (ت 290هـ)؛ إسماعيل بن إسحاق بن إبراهيم، أبو بكر السراج النيسابوري، نزل بغداد وحدث بها وكان له اختصاص بأحمد بن حنبل (ت 293هـ/ 905م)؛ علي بن محمد بن خالد بن بيان أبو الحسن المطرز، قال

الخطبي: سمعنا منه كتاب المغازي عن سعيد الأموي في منصرفه من الحج سنة 294هـ/ 906م، قتلته القرامطة [الخطيب، 12/ 62]؛ الحسن بن علي بن شبيب، أبو علي المعمري نسبة إلى جده لأمه محمد بن سفيان بن حميد المعمري، كان من أوعية العلم. مات ببغداد سنة 295هـ/ 907م [الخطيب، 3/ 369]؛ محمد بن الحسين بن الحبيب أبو حصين الوداعي الكوفي القاضي، قدم بغداد وحدث بها. وكان صاحب مسند، توفي بالكوفة سنة 296هـ/ 908م [الخطيب، 2/ 229]؛ يوسف بن يعقوب بن إسماعيل بن حماد، أبو محمد القاضي الأزدي البصري الأصل البغدادي. ولي قضاة البصرة وواسط سنة 276هـ، وضم إليه قضاء الجانب الشرقي في بغداد. مات في 297هـ/ 909م، وقد صرف عن القضاء [ابن الجوزي، 6/ 96]؛ موسى بن إسحاق بن موسى بن عبد الله، أبو بكر الأنصاري الخطمي، أقرأ للناس القرآن وهو ابن 18 سنة في الجانب الشرقي من بغداد، واستقضى وله 28 سنة، ولي قضاء الري والأهواز وتوفي بالأهواز قاضيا سنة 297هـ/ 909م [سير أعلام النبلاء، 11/ 103]؛ جعفر بن محمد بن الحسن بن المستفاض، أبو بكر الفريابي قاضي الدينور، طاف البلاد شرقا وغربا في طلب العلم، ولقي الأعلام، واستوطن بغداد. توفي سنة 302هـ/ 913م [ابن الجوزي، 6/ 124]؛ محمد بن خلف بن صدقة، أبو بكر الضبي الملقب بوكيع. من أهل القرآن والفقه، وله تصانيف كثيرة؛ منها كتاب القضاة، ولي قضاء كور الأهواز كلها، توفي سنة 306هـ/ 918م [الخطيب، 5/ 236]؛ علي بن محمد بن أحمد بن الحسن الواعظ المصري؛ وهو بغدادي أقام بمصر مدة طويلة. ثم رجع إلى بغداد، فعرف بالمصري. صنّف كتبا كثيرة في الزهد، وكان له مجلس يتكلم فيه بلسان الواعظ، مات سنة 338هـ/ 949م [الخطيب، 12/ 75].

ونظرا إلى كثرة هؤلاء الشيوخ وسعة علمهم، فقد تكونت شخصية الخطبي العلمية أحسن تكوين حتى وصف بأنه مجموع الفضائل، ولقب بالشيخ الإمام العلامة الخطيب المحدث الأديب الإخباري المؤرخ الفقيه؛ كما أصبح مقصدا لطلاب العلم يستفيدون من علمه، منهم: محمد بن العباس بن أحمد بن الفرات، أبو الحسن كتب مائة تفسير ومائة تاريخ، وخلف 18 صندوقا مملوءة كتبا أكثرها بخطه، توفي سنة 384هـ/ 994م؛ وعلي بن عمر بن أحمد بن مهدي، أبو الحسن البغدادي الدارقطني، أول من صنف القراءات وعقد لها أبوابا، توفي سنة 385هـ/ 995م [الخطيب، 11/ 265]؛ وأحمد بن محمد بن علي أبو عبد الله الصيرفي المعروف بابن الأبنوسي، وهو والد أبي الحسن محمد بن أحمد بن علي الأبنوسي أحد رواة مختصر تاريخ الخلفاء. توفي سنة 394هـ/ 1003م [مختصر تاريخ الخلفاء للخطبي، ق1، ق2]؛ ومحمد بن أبي يعقوب إسحاق بن محمد، أبو عبد الله المعروف بابن مندة. مات سنة 395هـ [سير أعلام النبلاء، 13/ 6]؛ ومحمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رزق بن عبد الله، أبو الحسن البزاز المعروف بابن رزقويه، أول شيوخ الخطيب البغدادي توفي سنة 412هـ/ 1021م [الخطيب، 1/ 351]؛ والحسن بن

إبراهيم بن الحسن، أبو علي البزاز، المعروف بابن شاذان، مات سنة 426هـ/ 1034م [سير أعلام النبلاء، 13/ 267].

ومن أهم أعمال الخطبي مختصر تاريخ الخلفاء، وهو يعتبر مصدرا مهما، فقد ضمنه أخبارا وروايات كان فيها شاهد عيان، وأفاد فيها من صحبته للخلفاء ورجال الإدارة في تدوين بعض الروايات. كما أن هذا التاريخ رغم كونه مختصرا إلا أنه قدم لنا مادة تاريخية مهمة، وحفظ لنا نصوصا من كتب تاريخية مفقودة معظمها عن تاريخ الخلفاء منها: تاريخ الخلفاء لمحمد بن إسحاق، ولأبي معشر، والمدائني، وضم معلومات خططية وإدارية واقتصادية وعسكرية عن بغداد لها أهميتها لقدم عصر الخطبي؛ كما أنه أصبح مصدرا لمن جاء بعده منهم ابن مندة (ت 470هـ/ 1077م)، والخطيب البغدادي (ت 463هـ/ 1070م)، وهكذا كان الخطبي مؤرخا، ثقة خطيبا محدّثا إخباريا أثنى عليه العلماء وتلاميذه ومعاصروه.

توفي الخطبي ببغداد سنة 350هـ/ 961م، عن إحدى وثمانين سنة في خلافة المطيع لله.

آثاره

على الرغم من سعة علم الخطبي ومشاركته في علوم كثيرة إلا أن مصادر ترجمته لم تذكر له سوى مؤلفين هما:

1 ـ التاريخ الكبير، وهو تاريخ مرتب على نظام الحوليات. وقد أشار إليه في مقدمة كتابه تاريخ الخلفاء حيث قال: هذا مختصر من كتاب الخلفاء وتاريخ أوقاتهم ومددهم وأعمارهم مجردا دون سيرهم وأخبارهم وأعوانهم فإن ذلك في الكتاب مرسوما [مختصر تاريخ الخلفاء، مخ. مصور الورقة 2]؛ كما أشار إليه الخطيب لما ذكر أن الخطبي صنف تاريخا كبيرا على ترتيب السنين؛ 2 ـ مختصر تاريخ الخلفاء، وضعه الخطبي في مجلدين: الأول فيه ذكر الخلفاء وتاريخ أوقاتهم وأنسابهم وصفاتهم مجردا [مختصر تاريخ الخلفاء، الورقة 2]؛ والثاني جعله في ذكر ولاة العهود ومن يجري مجراهم، وذيله في ذكر من ظهر من الطالبيين وبويع بالخلافة في دولة العباسيين [مختصر تاريخ الخلفاء، الورقة 97 ـ 111].

المصادر والمراجع

● الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، بيروت: دار الكتاب العربي، 6/ 304 ـ 306؛ ● الفراء، بن أبي يعلى، طبقات الحنابلة، تح. حامد الفقي، القاهرة 1952، 2/ 118؛ ● السمعاني، عبد الكريم محمد، الأنساب، بيروت 1982، 2/ 150؛ ● ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ط. حيدر أباد الدكن، 3/ 7؛ ● ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ط. مرجليوت، 2/ 350؛ ● ابن الأثير، اللباب في تهذيب الأنساب، ط. دار صادر، 1/ 453؛ ● الذهبي، سير أعلام النبلاء، ط. بيروت 1997، دار الفكر، 12/ 150؛ ● ابن كثير، البداية والنهاية، ط. بيروت 1966، مكتبة المعارف، 11/ 238؛ ● ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من

ذهب، ط. بيروت، 3/ 3؛ ● البغدادي، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، طبعة إستانبول 1951، 1/ 207؛ ● الزركلي، الأعلام، ط 14، بيروت 1999، دار العلم للملايين، 1/ 319؛ ● كحالة، معجم المؤلفين، دمشق 1957، مطبعة الترقي، 2/ 280.

د. نبيلة عبد المنعم داود
مركز إحياء التراث العلمي العربي - بغداد

الخَطِّي العبدي، أبو البحر جعفر بن محمد

(حوالى 980هـ/1572م - 1028هـ/1618م)

ولد أبو البحر جعفر بن محمد بن حسين بن علي بن ناصر في بلدة «القطيف» «الخط»، إحدى مناطق بلاد البحرين القديمة، في حدود (980هـ/ 1572م) تقريباً، ونسب إليها، ولقب بالعبدي نسبة إلى قبيلة «عبد القيس»، من قبائل البحرين العريقة، وكان يعتدّ بذلك الانتماء القبلي [الأمين، الأعيان، 4/ 157؛ كحّالة، معجم المؤلفين، 3/ 146؛ المحبّي، نفحة الريحانة، 3/ 204؛ خلاصة الأثر، 1/ 482؛ المدني، سلافة العصر، 524].

في حدود عام (1000هـ/ 1591م) نزح إلى جزر «البحرين» واستقرّ فيها، ولعلّ ذلك ناتج عن سوء وضعه الاقتصادي وحالة العوز وما رافق ذلك من مشاعر الإحباط والقلق، وربما لما أبداه الحكّام الأتراك من نزعة طائفية واضطهاد نجم عنه نزوح الكثير من أشراف «القطيف» إلى «البحرين» [الديوان، ص21، 23؛ التاجر، المنتظم، ترجمة 162].

في هاتين البيئتين تشكلت حصيلة الخطي المعرفية، فقد تلقى تكوينه الأول على يد علماء «القطيف»، فحصل على علوم الدين وبعض علوم اللغة، والتاريخ، وروى الشعر، وحفظ بعض عيونه، وأكمل مسيرته العلمية في «البحرين»، حين اختلط بفضائها الفكري.

في وطنه الجديد حاول التفاعل مع نسيج البحرين الاجتماعي والثقافي، فأقام علاقات وأواصر مع حكامها وأشرافها وعلمائها [الأمين، الأعيان، 4/ 157؛ التاجر، المنتظم، ترجمة 162]. وشارك في حياتها الأدبية حين توجه لهذه الطبقة بشعره مديحاً ورثاءً، وتوطدت أواصر صداقته مع العديد من الأسر البحرانية كأسرة «عبد الرؤوف الجد حفصي»، وهي من الأسر المرموقة وارتبط بعلاقة حميمة مع أبنائها خاصة السيد ماجد بن هاشم (1028هـ/ 1618م) وكان عالماً شاعراً [الديوان، ص23 - 24].

وزار إيران في (1010هـ/ 1601م)، وأخذ يتردد عليها فيما بعد وباستمرار [التاجر، المنتظم، ترجمة 162]، وزار من مدنها «شيراز»، و«كازرون»، كما زار «خراسان» [الديوان، ص27 - 28]. وفي مدينة إصفهان

التقى بالشيخ البهائي محمد بن الحسين شيخ الإسلام فيها (ت 1031هـ/ 1621م). وحضر مجلسه، وعرض عليه أدبه، فطلب منه معارضة إحدى قصائده فعارضها في حينه، ونالت إعجاب البهائي فقرظها بقوله: «... إني كلما سرحتُ بريد نظري في رياض قصيدتك الغراء، وروّيت فكري من فريدتك العذراء، زاد بها ولوعي وهيامي، واشتد إليها ولهي وأوامي .. ولعمري لا أراك إلا آخذاً بأزمة أوابد اللسن تقودها حيث أردت وتوردها أنى شئت وارتأيت، حتى كأن الألفاظ تتحاسد على التسابق إلى لسانك، والمعاني تتغاير على الانثيال إلى جنانك..» [البلادي، الأنوار، ص290 ـ 291؛ التاجر، المنتظم، ترجمة 162]. كما حظي الشاعر بإجازة من البهائي [أفندي، رياض العلماء، 1/ 111؛ الأمين، الأعيان، 4/ 157؛ البلادي، الأنوار، ص289؛ الحر العاملي، أمل الآمل، 2/ 54؛ المدني، السلافة، ص524]. ومع استقراره بالبحرين لم تنقطع صلته بموطنه الأول «القطيف» فكان دائم التردد عليها والحنين إليها [الديوان، ص173، 295]. وبقي حاملاً عصا التسيار متنقلاً بين هذه البلدان حتى وافاه الأجل في 1028هـ/ 1618م في مدينة «شيراز» ووُوري ثراها.

كانت البحرين بشقّيها «القطيف» و«البحرين» تعيش مرحلة من الانتعاش الفكري، أتاحت للخطي إثراء رصيده الثقافي، وإخصاب موهبته الشعرية بالقراءة في الموروث الأدبي العربي إبان ازدهاره، والتعرّف على حجم التهافت والجمود الذي أصاب الشعر والفكر. ومن ثم برزت لديه رغبة لتجاوز ذلك الوضع [الديوان، ص36؛ المنصور، شعر البحرين، ص131، 149 ـ 151]، ويتجلى الطموح إلى التجديد في قوله: [الخفيف]

وَرَدَ النـاسُ قبلنـا مَوردَ النظـ ... ـمِ فـاضحَـى مُكـدّراً مطروقـا

إنْ نظمْنـا بيتـاً غريبـاً وخلنـا ... هُ جـديداً كانَ الجديدُ عتيقـا

أو سبقْنـا ـ فيما نظنُّ لمعنًى ... مُعْجِبٍ كانَ سَبقُنـا مسبوقـا

[الديوان، ص197؛ المنصور، لمحات إبداعية، ص4]

واستطاع بالفعل تحقيق جوانب إبداعية قياساً على عصره، فقد نظم شعراً ينضح بالعاطفة كشعر الحنين، كما ربط بين الشعر والحياة في زمن عزّ فيه هذا المنزع، وذلك حين وصف في قصيدة مشهداً من مشاهد الحياة التي يتعرض لها أبناء تلك البيئة البحرية فقد ضربته سمكة «سبيطية» في وجهه وشجته، ونحى فيها منحىً قصصياً، استثمر فيه الجغرافيا (المكان: البحر) والتاريخ، ووظّف البديع في ربط موفق بين الفن والحياة، مطلعها: [الطويل]

برغمِ العوالي والمهنَّدَة البُتْرِ ... دماءٌ أراقتها «سبيطيةُ» البحرِ

[الديوان، ص 359]

ولما عرضت هذه القصيدة على السيد ماجد بن هاشم، وهو من رموز الحركة العلمية والشعرية في البحرين، كتب عليها مقرّظاً: «أجلتُ رائد النظر في ألفاظها ومعانيها، وسرّحتُ صاعد الفكر في أركانها ومبانيها،

فوجدتها قرة في عين الإبداع، ومسرة في قلب الاختراع، والحق أحق بالاتباع، والحمد لله على تجديد معالم الأدب بعد اندراسها، وتقويم راية البلاغة بعد انتكاسها، وردّ غرائب ألفاظها إلى مسقط رأسها، وإزالة وحشتها إلى إيناسها» [البحراني، الكشكول، 2/ 181؛ البلادي، الأنوار، ص 292؛ المدني، السلافة، ص531؛ المنصور، شعر البحرين، ص 131، 149]. والمقولة تشهد للخطي بالريادة والفضل في بعث حركة تجديدية، وتدل على وعي فني يطمح إلى تشخيص العلل التي أسقمت الأدب، وهي بمثابة التأسيس الفعلي لمرحلة شعرية تقدمية تتطلع إلى الوصول مراقي النهوض والتقدم الشعري والأدبي [المنصور، لمحات إبداعية، ص3].

وتجلت تلك الميزة التقدمية في المحاور الفكرية التي تحرّك فن الخطي في إطارها واتسمت بقدر من الإبداع بالقياس إلى عصرها رغم جذورها الاتباعية، وتمثلت في قضايا الذات المتسمة بالطابع الوجداني والمنبعثة من تجارب صادقة، والتي تقهقرت في عصره؛ كقوله متألماً من إغفال مكانته وإنكارها مع جنوح إلى التماسك وإيجاد المبرر النفسي: [الطويل]

جُهلتُ على معروفِ فضلي فلم يكنْ
سواهُ من الأقوامِ يعرفُ مقداري

على أنه لم يبقَ فيما أظنُّهُ
من الأرضِ قطرٌ لم تطبقه أخباري

ولا غروَ فالإكسيرُ أكبرُ شهرةً
وما زال من جهلٍ به تحتَ أستارِ

[الديوان، ص 154 - 155]

وقوله شاكياً من الدهر وإحباطاته المستمرة التي يوقعها به ليلاً ونهاراً: [الخفيف]

يا ليَ اللهُ كم يجرّعُني الدهـ
ـرُ صَبُوحاً من ظلمِهِ وغَبوقا

كلّما قلتُ آنَ أنْ يقضيَ الدهـ
ـرُ حُقُوقي قضى عليَّ عُقُوقا

[الديوان، ص 196]

وضيقه من الفقر الذي يضطره إلى إراقة ماء الوجه: [الكامل]

اصبحتْ منذُ اليومِ ضيِّقةً يدي
فابعثْ إليَّ ولو بعثْتَ بدرهمِ

[الديوان، ص 440]

كما برزت في شعره الذات الشاعرة في تعاملاتها مع محيطها الإنساني منطلقة من نطاقها الضيق، العلاقات الأسرية، ومنفتحة على أفراد المجتمع من أصدقاء وأصحاب؛ كمشاعر الأبوة المتدفقة والمعبّرة عن سعادته وجذله من بيتين من الشعر قالهما الابن فكانت مصدر دفء وسعادة بعد اليأس: [الكامل]

يا منْ يبلّ بما يقولُ أُوامي
ويَبوخُ نارُ صبابتي وغرامي

احييتَ حينَ بعثْتَ لي بتحيةٍ
وسلمتَ إذ ارسلتَ لي بسلامِ

من بعدِ ما وقفتْ على طَرَفِ الردى
نفسي وما حامتْ وراءَ حِمامي

بيتان كانا منكَ جَاءَا نغمةً
رجحتْ بما عندي من الأنغامِ

[الديوان، ص 423]

واعتز بالصداقة وبجلها فقال منوّهاً بصديقين

كانا له نعم السند، ومثّلا دوحة ظليلة يلجأ إليها حين تدلهم به الحياة: [الكامل]

لـي إن تـحـامـانـي أخٌ وحـمـيـمُ
أخَـوانِ فـضـلُـهـمـا عـلـيَّ عـظـيـمْ

كـهـفـانِ آوي فـي الـخـطـوبِ إلـيـهـمـا
وعـلـى الـنـصـيـرِ يـعـوّلُ الـمـظـلـومُ

وَصَـفَـا بـكـلٍّ مـنـهـمـا عـيـشـي فَـذَا
روضٌ أغـازلُـهُ وذاكَ نـسـيـمُ

[الديوان، ص 188]

وبرز الوطن كمحور أصيل في شعره، فكان يتوق إليه حين تشط به النوى، فيرسل أشعار الوجد والهيام، يتوجع من ألم البعد، ويعرب عن تشبثه بالبحرين «أوال» ورفض البديل مهما كانت إغراءاته: [الكامل]

آهٍ وقـلَّ عـلـى «أوالَ» تـأوّهـي
فـإذا جُـنِـنـتُ بـهـا فـغـيـرُ كـثـيـرِ

مـا كـنـتُ مـبـتـاعـاً أزقّـةَ «فـارسٍ»
بـالـفـيـحِ مـن عـرصـاتِـهـا والـدّورِ

هـيـهـاتَ مـا «شـيـرازُ» وافـيـةٌ بـمـا
فـي تـلـك لـي مـن نـعـمـةٍ وحُـبُـورِ

[الديوان، ص 315]

وهام بالوطن فدبّج في حبه غزلاً تغنى فيه بجماله وفتنته: [الكامل]

لا شـيءَ أبـهـجُ مـنـظـراً مـن صَـحْـوِهِ
والـشـمـسُ فـيـه صـقـيـلـةُ الـمـرآةِ

ومـتـى أغـامَ أراكَ بُـرداً أدكـنـاً
بِـسـنـا الـبُـرُوقِ مُـطَـرَّزَ الـصـنـفـاتِ

تُـعـدي عـلـى حَـرِّ الـقـلـوبِ بـبـردِهـا
نـسـمـاتُـهُ مِـسـكـيـةَ الـنـفـحـاتِ

والـمـاءُ تُـرسِـلُـهُ جـداولُـهُ كـمـا
جـاريـتَ بـيـنَ الـخـيـلِ فـي الـحَـلَـبـاتِ

والـنـخـلُ مـثـلُ عـرائـسٍ ذهـبـيـةِ الـ
أنـداءِ فـيـروزيّـةِ الـوَفَـراتِ

وزهـتْ عـنـاقـدُ كـرمِـهِ لـمّـا غَـدَتْ
بـنـواظـرِ الأوراقِ مُـلْـتـحـفـاتِ

[الديوان، ص310]

وعرض مشاهد اجتماعية عديدة في شعره؛ فوصف بعض المآكل، ووصف الحلاّق وهو يمارس عمله، وتناول قضية النقود الزائفة وأثرها على الناس. ومن طرائفه رصده الحرف المهنية الشائعة في مجتمع «البحرين»، فقال مخاطباً رجلاً متشاعراً ناصحاً إياه وبسخرية أن يتخذ أية مهنة عدا احتراف الشعر، واستثمر ذلك لاستعراض جلّ المهن مما جعل هذه المنظومة وثيقة اجتماعية، يقول والمطلع لروايته «الغنوي»: [البسيط]

اعـمـلْ لـنـفـسِـكَ مـثـقـالاً ومـعـيـارا
واسـررْ أبـاكَ بـأن يـلـقـاكَ عـطّـارا

أو فـاتّـخـذْ لـكَ سـنـدانـاً ومـطـرقـةً
واعملْ متى شِئْتَ سكيناً ومسمارا

أو فـاتّـخـذْ لـكَ مـنـشـاراً وقـشـتـرةً
وكـنْ كـ «نـوحٍ» نـبـيِّ الـلـهِ نـجّـارا

أو فاقتلعْ من «رَشَالَى» الطينَ متّخذاً
مـنـه الـجرارَ وعِشْ فـي «الـخطّ» جَرّار

أو فاقتنِ الأُتنَ واحملْ فوقَها حَطَبا
فـخـيـرُ شـيءٍ إذا أصـبـحـتَ حَـمّـارا

أو فاحمل الفخَّ واذهبْ حيثُ شئتَ فَصدْ
به لصبيةِ أهلِ «الخطّ» أطيارا

أو قيَماً في بيوتِ اللهِ تُسمعُنا
آذانكَ العذبَ آصالاً وإسحارا

[الديوان، ص 374 ـ 574]، (ورَشَالِّي من قرى «القطيف» في الجزء الشرقي من الجزيرة العربية)

إلى جانب هذا التوجّه الذي نحا فيه إلى معالجة بعض الأغراض بطريقة إبداعية أو طريفة، تناول أكثر موضوعات الشعر العربي القديم، فطرق موضوع المديح والتزم بأدبيات منظومة المديح العربي وحافظ على آلياتها. فمدح أعلام السياسة، ورجال العلم، وأعيان البلاد. قرّظ وزير البحرين ركن الدين محمود بن نور الدين، وأسبغ عليه معاني المديح المعروفة فقال: [الكامل]

مَلِكٌ رَقى دَرَجَ الفخارِ فلم يدعْ
فيها لراقٍ بعده من مَطْمعِ

وتناولتْ كَفّاهُ أشرفَ رتبةٍ
لو قامَ يلمسُها السُّهى لم يَسطعِ

أندَى من الغيثِ المُلِثّ إذا اجتُدي
أحمَى من الليثِ الهزبرِ إذا دُعي

التاركُ الابطالِ صَرْعَى في الوغى
فكأنَّهم أعجازُ نخلٍ مُنقَعِ

[الديوان، ص109 ـ 110]

وحثّه على النوال بطريقة مهذبة:

لذْ بالوزيرِ ابنِ الوزيرِ فإنما
تأوي إلى الكَنَفِ الأعزِّ الأمنعِ

وكان كثيرًا ما يمدح اعترافاً بفضل وردًّا لمعروف: [البسيط]

وشدَّ أزري بما ضاقَ الثناءُ بهِ
ذرعاً فَفَهّهني عجزاً وعَيَّاني

[الديوان، ص 121]

ومال إلى المبالغة على عادة المديح في الشعر العربي القديم: [البسيط]

ما سَارَ في موكبٍ إلّا وحَفَّ بهِ
من الوحوشِ وطيرِ الأُفقِ جيشانِ

لم يرضَ أن غَمَرَ الأحياءَ نائلُهُ
حتى كَسَا بالصنيعِ الهالكِ الفاني

[الديوان، ص 121 ـ 122]

وطرق موضوع الرثاء فرثى بعض الأعيان، واستأثر رثاء العلماء بالنصيب الأوفر من فنه، وساير فيه سنن وآليات الرثاء القديم. يقول في رثاء العلّامة الحسين بن الحسن الغريفي (ت 1001هـ/ 1592م) مستعظماً الحدث مبيناً أثره: [البسيط]

اللهُ أكبرُ ما أدهاكِ مرزيةً
قصمتِ ظهرَ التُّقى والعلمِ فانْقَصَمَا

أحدثتِ في الدينِ كَلْماً لو أُتيحَ له
عيسى ابنُ مريمَ يأسُوهُ لما التحما

أيُّ امرئٍ ويكِ أفجعتِ الأنامَ به
فاستشعروا بعدهُ التزفارَ والألما

[الديوان، 205]

ويثني على حسن سجايا المرثي، فيقول في رثاء قاضي القضاة عبد الرؤوف بن الحسين (ت 1006هـ/ 1597م): [الكامل]

هيهات أنْ ولدتْ له الدنيا أخًا
أنّى وقد عقمتْ عن الميلادِ

نضبتْ مواردُ كلِّ خيرٍ بعدهُ
فالوردُ معتلٌ على الوُرّادِ

عمري لقد نقلوا إلى دارِ البِلَى
طَوداً أشمَّ ونجمَ ليلٍ هادي

[الديوان، ص 221 ـ 222]

وبرز عنده رثاء المرأة، وانصبّ على نساء أسرة عبد الرؤوف الحسيني نظراً لعمق العلاقة مع أفرادها، وتعاطفاً مع فواجعهم. فرثى السيدة ملوك بنت عبد الرؤوف، وهي زوجة صديقه ماجد بن هاشم، فخاطبها مشيداً بمكانة قومها: [الطويل]

فيا ابنةَ مَن لو كان بعدَ «محمدٍ»
رسولٌ لما أمسَى سواهُ رسولُ

وزوجةَ مَنْ لو فَتَّشَ الخلقُ لم يكنْ
ليلقَى في العالمينَ مثيلُ

وأختَ الذينَ استفرغوا الجهدَ في العُلا
وأثرى بهم عافٍ وعَزَّ نزيلُ

وذكر ظروف وفاتها:

وعائدةٍ من حجّها لم يكنْ لها
على غيرِ أصحابِ القبورِ نزولُ

وأثنى على خصالها وجعلها وراثة لها من جدها الإمام «علي» وأمها «البتول» لقب السيدة فاطمة:

وإحدى النساءِ اللائي هنَّ لفرطِ ما
كسبنَ من أخلاقِ البعُولِ بُعُولُ

عفائفُ ما زرَّتْ لهنَّ على الخَنَا
جيوبٌ ولا جُرَّتْ عليه ذُيولُ

جمعنَ إلى عقلٍ عُلاً جَابَ قُمصَها
لهنَّ «عليٌّ» ذو العلا و«عقيلُ»

وأثرينَ من هدي «البتولِ» وراثةً
فَمَنْ شِئتَها منهنَّ فهي بتولُ

[الديوان، ص 235 ـ 236]

كما رثى أختها [الديوان، ص 238]. وله رثاء في الأطفال [الديوان، ص 249]. ويرى ابن رشيق القيرواني إن «من أشدّ الرثاء صعوبة على الشاعر أن يرثي طفلاً أو امرأة لضيق الكلام عليه فيهما، وقلة الصفات» [العمدة، 2/ 154].

وتشطّ به النوى، ويعيش تجربة البعد عن الوطن، فتتفجر مشاعر الغربة، ويعترف بلوعة الفراق، وعجزه عن مواجهة جيوشه: [الطويل]

يشنُّ عليَّ البعدُ غاراتِ جَورهِ
وتهتفُ بي من كلِّ فجٍّ صوائحُه

له الغلبُ فليثنِ الأعنّةَ مبقياً
عليَّ فما عندي جنودٌ تكافحُه

[الديوان، ص290]

وفي إطار هذا الوضع النفسي تغدو العودة إلى الديار أعزّ أمانيه:

هلِ اللهُ مُستَبْقٍ ذِمامي بعودةٍ
إليها يريني الدمعَ قد هَشَّ كالحُهْ

[الديوان، ص293]

وتضاءل موضوع الغزل بمفهومه الإتباعي،

ولم ينطلق من عواطف صادقة وغلب عليه التقليد، كما ظهر في معانيه وعلى اختلاف أغراضها ميل إلى المبالغة كقوله: [الطويل]

فَتىً لو وزنّا الناسَ كلَّهُمُ به
لخفُّوا على الميزانِ وهو ثقيلُ

[الديوان، ص 246]

وعلى المستوى الفني احتذى الخطي الأقدمين في موسيقاه الشعرية ؛ فورد وزن الطويل في المرتبة الأولى، تلاه الكامل فالخفيف [المنصور، شعر البحرين، ص 416 ـ 537]، ومال إلى الانعتاق من مدرسة البديع التي شاعت في عصره، لكنه لم يستطع التحرر من سيطرتها وورد من فنون البديع وبشكل واضح في شعره التصدير، فكان يكرر اللفظة الأولى أو مشتقاتها في أي موضع في البيت، وترد الثانية في نهاية البيت وهو موضع قارّ لها. ومن أنواعه المتواترة التصدير بالجناس أو شبهه، ومن الأول: [الطويل]

وراء كما إنّ المصابَ جليلُ
وإنَّ البُكا في مثلِهِ لَقليلُ

[الديوان، ص245]

وقد يأتي اللفظ الأول في أول الصدر: [الكامل]

يا مُنتقي الأخلاقِ أيُّ وسيلةٍ
أُنْلي بها بعد الكلامِ المنتقى؟

[الديوان، ص 467]

أو يأتي في أول العجز: [الخفيف]

تُسعدُ العينُ أُختَها ويعينُ المو
قُ في صبِّهِ الدموعَ الموقَا

[الديوان، ص 193]

وقد يرد اللفظان متجاورين في العجز: [الخفيف]

وجواداً إذا استرشتُ به مَدْ
دَ بإمدادِهِ وسَاقَ الوسُوقَا

[الديوان، ص 197]

واستخدم الخطي الطباق وأورده بأشكال عديدة. فقد يودعه في كل شطر من شطري البيت، وهو قليل: [الطويل]

سقتكَ برغمِ المحلِ أخلافُ مُزنةٍ
تلفُّ مَتَى جَاشَتْ سُهُولاً بأوعارِ

[الديوان، ص 153]

وقد يبني العجز على الطباق وهو نادر: [الرمل]

ما لكم بَدَّلتُموني سَادتي
(بالرضا سُخطاً) (وبالوصلِ انصراما)

[الديوان، ص281]

والغالب أن يوزع الخطي طرفي الطباق على شطري البيت: [البسيط]

ما بثَّ في ساكنِ الغبرَاءِ أسهمَهُ
إلّا ويصمي بها مَنْ يسكنُ الفَلَكَا

[الديوان، ص226]

أو يأتي أحد طرفي الطباق في مقام الضرب والآخر في مقام العروض: [الوافر]

فَهلّا كنتَ تتركُ فيهِ عيباً
فَكَانَ يقيهِ من عَينِ الكمالِ؟

[الديوان، ص254]

أو يوزع طرفيه في مقام الصدر، وهو قليل: [البسيط]

لو أنصفَ الدهرُ أفنانا وخلَّدهُ
وكانَ ذلكَ من أفعالِهِ كرما

[الديوان، ص206]

وكثيراً ما يأتي طرفا الطباق مركّزين في العجزِ متباعدين كقوله: [الخفيف]

يا ليَ اللهُ كم يُجرِّعُني الدهـ
ـرُ صَبوحاً من ظلمِهِ وغَبوقا

[الديوان، ص196]

أو متجاورين كقوله: [الخفيف]

فَعُلوقي بكم، وإنْ نأتِ الدا
رُ عُلوقُ الأرواحِ بالأجسامِ

[الديوان، ص145]

وترد المقابلة بدرجة أقل من الطباق، وغالباً ما تأتي موزعة بين شطري البيت. ولكن قد تمتدّ فتشمل الشطرين بأكملهما: [الخفيف]

(حُبُّ بالأسودِ العتيقِ) (ولا حُـ
ـب بهذا البياضِ وهو جديدُ)

[الديوان، ص202]

ونادراً ما تأتي المقابلة مقصورة على شطر واحد: [الخفيف]

يا أخا هاشمَ بنِ عبدِ منافِ
أنتَ (دفءُ الشتا) و(بردُ المصيفِ)

[الديوان، ص453]

واستخدم الخطي التقطيع، وهو تكرار وحدات صوتية ضمن البيت الشعري، وغالباً ما يأتي موزعاً على شطري البيت، وأتى بألوان عديدة منه؛ ومن التقطيع الثنائي: [الوافر]

(وسمرُ الخطِّ مركزُها التراقي)
(وبيضُ الهندِ مغمدُها النخاعُ)

[الديوان، ص278]

ومن التقطيع الثنائي المحصور في الصدر، وهو قليل وبناه على التضاد: [الطويل]

(بعادهُمُ قربٌ) و(فقرهُمُ غِنًى)
تبلُّ يدي اليمنَى بهِ وشماليا

[الديوان، ص473]

ومما بناه على ثلاث وحدات، وعني بترصيع بعض أجزائه: [البسيط]

من دوحةٍ (طَابَ مجناها) و(خَلُق اعـ
ـلاها) كما (قَرَّ مَسرَى عِرقِها) وزكا

[الديوان، ص227]

ومن التقطيع الرباعي المرصّع أغلب أجزائه: [البسيط]

(عَفُّ السريرةِ) (صَفَّاح الجريرةِ) (مِـ
ـقدامُ العشيرةِ) (جَوَّادٌ بما مَلَكا)

[الديوان، ص227]

ومما بناه على وحدات ست ورصّع أجزاءه فأتى مجلجلاً: [الكامل]

(شمسُ العلا) (نجمُ الهدى) (طودُ النُّهىَ)
(بحرُ الندَى) (ركنُ النجا) (كنز التقَى)

[الديوان، ص467]

وقد تأتي جلّ مفردات البيت مقطعة فيشتد الإيقاع: [الخفيف]

يا أخا الفضلِ والنباهةِ والسوء
دد والذكرِ والأيادي الجسامِ

[الديوان، ص145]

وقد يرد التقطيع مبنياً على التشبيه ضمن سلسلة من الأبيات المتتابعة: [الخفيف]

(كسرويُّ) العدالةِ (اسكندريُّ الـ
فتحِ) والعزمِ (رستميُّ الكفاحِ)

(أسدُ الفتكِ) (اجدل الخطفِ) (نيبُ الـ
مكرِ) (فهدُ الوثوب) (كبشُ النطاحِ)

احنفُ الحِلمِ) (اكثمُ الرأي) (زبيرُ الـ
ثارِ) (قِسُّ البيانِ) (كعبُ السماحِ)

[الديوان، ص128]

ويأتي الجناس في شعر الخطي بقلة؛ ومن التام منه: [الطويل]

توجّهتُ من «مِرّي» ضُحَىً فكانما
توجّهتُ من «مِرّي» إلى العلقمِ المُرّ

[الديوان، ص360]

وأكثر وروده ناقصاً موزعاً على شطري البيت: [الخفيف]

يومَ حَظّي من المسَرةِ وافِ
وشرابيَ صَافٍ وعيشي رغيدُ

[الديوان، ص201]

وقد يأتي طرفاه مركزين في شطر واحد: [الخفيف]

اخذوا عن عليْهم حينَ تنبو الـ
بيضُ قطُّ الطلا وقدُّ الهامِ

[الديوان، ص144]

وقد يركزه فيجانس بين تركيبين: [الخفيف]

الفوا (بذلةَ النفائسِ) في السلـ
مِ و(بذلَ النفوسِ) في الأقدامِ

[الديوان، ص144]

على أن الخطي وإن لم يتحرر من قيود البديع إلا إنه استعمله باعتدال في الغالب. فكان له دور في زيادة جرعة الموسيقى، وغلب على لغته الرصانة، لكنه لم ينجِ من المبالغات وبعض التراكيب اللغوية الفجّة. ومع ذلك عدّ أهم شاعر ظهر في منطقة «البحرين» في زمنه، وأشعر من ترجم له ابن معصوم في «سلافة العصر»، والمحبّي في «نفحة الريحانة» بالقياس إلى مواطنيه [ضيف، عصر الدول والإمارات، ص135].

آثاره

لديوانه طبعتان: الأولى طبعت في «طهران» عام 1373هـ/ 1953م. أعدّها وأخرجها علي بن الحسين الهاشمي (ت 1969م)، واعتمد فيها على نسخة خطية عثر عليها في «خراسان» صدفة. ويرجّح أن تكون نسخة العلّامة «عبد الصمد بن عبد القادر الحسيني البحراني»، كان حياً في (1104هـ/ 1692م)، كما يرجّح أن تكون منقولة عن نسخة «الحسن بن محمد الغنوي الهذلي»، راوية أشعار الخطي، وصديقه، وناسخ المخطوطة الأم، وكان الشاعر يتولى بنفسه إملاء شعره عليه وذلك في قرية «سار» من قرى البحرين في عام 1019هـ/ 1610م [الديوان، ص 92 ـ 93، 489].

أمّا الطبعة الثانية فبتحقيق ودراسة الباحثين البحرينيين د. أنيسة أحمد المنصور ود. عبد الجليل منصور العريض، وقامت «مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري» الكويتية بنشرها ضمن أعمال «دورة

علي بن المقرب العيوني» شاعر البحرين في القرن السابع الهجري، والمنعقدة في مملكة البحرين في أكتوبر 2002م.

المصادر والمراجع

● أفندي عبد الله، رياض العلماء، مطبعة الخيّام، قم، 1401، 1/ 111 ـ 112؛ ● الأمين محسن، أعيان الشيعة، دار التعارف، بيروت، 1983، 4/ 154 ـ 173؛ ● البحراني، يوسف بن أحمد العصفور، الكشكول، نشر مكتبة نينوى، طهران، د.ت، 2/ 181؛ ● البلادي، علي بن حسن، أنوار البدرين، مطبعة النعمان، النجف، 1377هـ، ص288 ـ 294؛ ● التاجر، محمد علي، منتظم الدرين، مخطوطة بخط المؤلف، ترجمة 162؛ ● الحر العاملي، محمد بن الحسن، أمل الآمل، مكتبة الأندلس، بغداد، ط1، 1385، 2/ 54 ـ 55؛ ● الخطي، جعفر بن محمد أبوالبحر، ديوانه، تح. أنيسة أحمد المنصور وجليل منصور العريض، مؤسسة جائزة عبد العزيز البابطين للإبداع الشعري، الكويت 2002، صفحات متعددة؛ ● ديوانه إعداد علي الهاشمي، مطبعة الحيدري، طهران 1373هـ/ 1953، المقدمة؛ ● ابن رشيق القيرواني، علي بن الحسن، العمدة، تح. محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط4، 1972، 2/ 154؛ ● كحّالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت 3/ 146؛ ● ضيف، شوقي، عصر الدول والإمارات، الجزيرة العربية، العراق، إيران، دار المعارف، مصر، 1980، ص133 ـ 135؛ ● المحبّي، محمد أمين، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، دار صادر، بيروت د.ت؛ ● م.س، نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة، تح. عبد انفتاح الحلو، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1967، 3/ 204 ـ 213؛ ● المدني، علي بن أحمد (ابن معصوم)، سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر، المكتبة المرتضوية، إيران، 4/ 132؛ ● المنصور، أنيسة، شعر البحرين من القرن السابع عشر إلى الثلث الأول من القرن العشرين، أطروحة بصدد النشر، ص131، 149، 536؛ ● م.س، لمحات إبداعية لشاعر البحرين جعفر الخطي، دراسة بصدد النشر في مجلة العلوم الإنسانية، جامعة البحرين.

د. أنيسة أحمد خليل المنصور
جامعة البحرين

الخطيب الإسكافي أبو عبد الله، محمد بن عبد الله

(ت 420هـ/ 1029م)

هو محمد بن عبد الله الخطيب الإسكافي، لغوي، أديب، كاتب، شاعر، كنيته أبو عبد الله، ويسميه ياقوت الحموي في كتابه إرشاد الأريب المشهور بمعجم الأدباء، يسميه (خطيب القلعة الفخرية). ويوجد علم آخر يشاركه في الاسم؛ مما أوهم بعض المترجمين فحسب الرجلين رجلا واحدا، وذلك اسمه محمد بن عبد الله الإسكافي البغدادي (أبو جعفر) وفاته 240هـ/ 854م، وهو متكلّم معتزلي، له تصانيف وأخبار في تاريخ بغداد [5/ 416]، ولكنّه غير عالمنا هذا، وذكرناه هنا لكي لا يقع التخليط بينهما.

أمّا صاحب هذه الترجمة فهو متعدّد جوانب الثقافة من أدب ولغة وتفسير وغيرها، جاءت ترجمته مقتضبة جدا في كثير من المصادر، فلم تتحدّث عن شيوخه، ولا عن تلاميذه، ولا عن رحلاته العلميّة، ولا عن الأعمال التي مارسها، ولا حتّى عن تاريخ ولادته، وإنّما اكتفت بذكر موطنه فقالت: هو من أهل أصبهان، وأصبهان مدينة عظيمة خرّجت الكثير من العلماء والأدباء والمفكرين، فلذلك ألف أحدهم كتابا في علماء أصبهان، وسموه بالخطيب؛ لأنّه مارس هذه المهنة في مدينة الري، حيث كان صاحبه وصديقه الصاحب بن عباد. وهو كما ذكرنا، أحد أصحاب الصاحب بن عباد، الوزير الأديب المشهور، له كلمة يلخص فيها بعض العلماء الذين عاصروه من أصبهان، قال الصاحب: فاز بالعلم من أهل أصبهان ثلاثة: حائك، وحلاّج، وإسكاف: فالحائك أبو علي المرزوقي، والحلاّج أبو منصور ماشد، والإسكاف أبو عبد الله الخطيب.

آثاره

أجمعت كل الكتب التي ترجمت له أنّه صاحب تصانيف، ذكرت منها:

1 ـ مبادئ اللغة، وصفوه بأنّه معجم صغير مرتب على الموضوعات، وهو أشهر كتبه. وجد على حاشية الكتاب ما يلي: «وجد في الأصل المنقول عنه ما نصّه: هذا الكتاب أعني مبادئ اللّغة، مستخرج من كتاب العين للخليل، ونوادر ابن الأعرابي، وحروف أبي عمرو الشيباني، ومصنف أبي زيد، وجمهرة بن دريد الأزدي».

ليس له فهارس، من أبواب مبادئ اللّغة: باب في ذكر السماء، وباب أسماء البروج والأزمنة والأوقات، باب الليل والنهار، باب صفة الحر والبرد . . . الخ . . .

وقال في باب ذكر السماء والكواكب: «السماء كل ما علاك فأظلّك، ولذلك قيل

للسقف وللسحاب ولأعلى الفرس سماء . . . الخ». طبع هذا الكتاب برواية أبي الفرج الأردستاني، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1325هـ/ 1907م؛ 2 ـ شرح شواهد كتاب سيبويه، مفقود؛ 3 ـ نقد الشعر، مفقود؛ 4 ـ لطف التدبير في سياسات الملوك؛ 5 ـ درة التنزيل وغرة التأويل في الآيات المتشابهة، مطبوع برواية أبي الفرج الأردشتاني، ط1، بيروت، دار الآفاق الجديدة، 1973؛ 6 ـ خلق الإنسان؛ 7 ـ كتاب المحاسن، وفيه 35 مجلسا، وأكثر موضوعات بعضها في القرآن وبعضها في أخبار الرسول، ويشغل فيها الكلام على النحو مكانا كبيرا؛ 8 ـ غلط كتاب العين؛ 9 ـ الغرّة، تتضمن شيئا من غلط أهل الأدب، مفقود.

المصادر والمراجع

● الحموي، ياقوت، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، المشهور بـ (معجم الأدباء)، تح. الدكتور أحمد فريد رفاعي، مطبوعات دار المأمون بمصر، 18/ 214؛ ● الزركلي، خير الدين، كتاب الأعلام، ط3، بيروت، لبنان، 1389هـ/ 1969م، 7/ 102؛ ● السيوطي، جلال الدين، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، مصر، 1384هـ/ 1964م، 1/ 149 ـ 150؛ ● الصفدي، صلاح الدين، الوافي بالوفيات، ط2، باعتناء: س، دايدرينغ، دار النشر، فرانز شتاينر، بفيسبادن، 1394هـ/ 1974م، 3/ 337، ترجمة رقم 1400؛ ● كحالة، معجم المؤلفين، ط1، مؤسسة الرسالة، 1414هـ/ 1993م، 3/ 437، رقم 14243.

د. محمود الربداوي
جامعة دمشق ـ سوريا

الخطيب التبريزي، أبو زكريا يحيى بن علي

(421هـ/1030م ـ 502هـ/1109م)

يذكر ياقوت الحموي وابن القفطي أن والده كان أديبا ويطلقان عليه لقب ابن الخطيب، بينما يذكره أهل التراجم بلقب «الخطيب»، ولهذا السبب غلب عليه هذا اللقب. ولد في تبريز وترعرع بها إلا أننا لا نملك معلومات كافية بشأن هذه الفترة الأولى من حياته، وبعد أن تلقى تعليمه الأول في تبريز انتقل إلى المدن المجاورة لمواصلة تحصيله العلمي، فذهب إلى بغداد ودرس على أبي القاسم الرقي، وحسن بن محمد بن

الدهّان، ثم انتقل إلى البصرة ودرس على فضل بن محمد القصباني ثم درس على يد عبد القاهر الجرجاني في جرجان.

في عام 443هـ/ 1051م ذهب الخطيب التبريزي إلى معرّة النعمان ومكث فيها حتى عام 446هـ/ 1054م وهناك درس على أبي العلاء المعري كتاب «التهذيب في اللغة» للأزهري بالإضافة إلى بعض كتب اللغة والأدب، ثم عاد إلى بغداد والبصرة، وفي عام 456هـ/ 1064م ذهب إلى دمشق وتلقى العلم على علماء مشهورين مثل الخطيب البغدادي، كما استمع في صُور إلى دروس في علم الحديث من العالم سليم بن أيوب الرازي، بعد ذلك اتجه التبريزي إلى القاهرة وأصبح أحد روّاد مجلس دلجي البابشاز العلمي كما نقل عنه النقاش الذي كان يدور في علم اللغة العربية.

يعتقد أن الخطيب التبريزي عاد إلى بغداد مرة أخرى بعد عودته من الحج. والمعروف عنه أنه تنقل تقريبا في جميع المراكز العلمية في عصره واستفاد من علماء كثيرين أمثال ابن برهان البصري، وأبي القاسم التنوخي، وهلال بن محسن السبع، وأبي القاسم السياري، وأبي الطيب الطبري، وأبي بكر العلاف. بالإضافة إلى نبوغ التبريزي في علم اللغة كان ضليعا أيضا في الأدب وترك مؤلفات قيمة في هذين المجالين، كما قام بتدريس اللغة والأدب في المدرسة النظامية في بغداد وشغل خطة أمين المكتبة في هذه المدرسة لمدة من الزمن. من أهم التلاميذ الذين تلقوا العلم على يديه ابن الأشقر البغدادي، وأبو الحسن بن التلميذ، وأبو السعادات بن الشجري، وأبو بكر بن العربي، وابن الهبّارية، وأبو منصور الجواليقي، وأبو الطاهر السلفي. ويقول المستشرق بلاسنار إنه ليس صحيحا ما ذكرته بعض المصادر من أن الخطيب البغدادي هو أحد تلاميذه.

توفي التبريزي في 28 جمادي الآخرة عام 502 الموافق لـ 2 فبراير عام 1109 ببغداد ودفن في قبر باب الأبرز.

يعتبر الخطيب التبريزي من أهم الشخصيات التي نبغت في مجالي اللغة والأدب، إلّا أننا لا نجد أي مؤشر في المصادر الكلاسيكية عن أي المدارس التي كان يتبعها ويسير على منهجها. ويلاحظ من خلال مؤلفاته أنه يتبع أحيانا البصريين وأحيانا أخرى يسير على درب الكوفيين بينما تعكس بعض مؤلفاته الأخرى تبنيه للمدرسة البغدادية، ولهذا السبب يعتقد أنه كان صاحب منهج حر في كتاباته ولا يتقيد باتباع مدرسة معينة. يعتبر كل من القصباني، وابن برهان من أهم أساتذته البصريين، بينما نجد من أساتذته الكوفيين فقط أبا العلاء. ومن أهم البصريين الذين نقلوا عن التبريزي فيما بعد نجد أبا عمرو بن العلا، والخليل بن أحمد، وسيبويه، وأبا عبيدة، والأصمعي، والسكري، وابن دريد، وابن جنّي، وأبا علي الفارسي، والمرزوقي.

آثاره

1 - تهذيب إصلاح المنطق، وهو من أهم الدراسات التي تناولت ماجاء في كتاب «إصلاح المنطق» لابن السكيت (ت 244هـ/ 858م)، وقد تناول التبريزي في المقدمة رغم

صغرها بعض الأخطاء والتكرار الذي ورد في الكتاب السابق. وقد نشر كل من محمد زكي وصالح علي، القاهرة 1325هـ/ 1907م، وبدرالدين نعساني، القاهرة 1913، جزءا من الكتاب، بينما نشر الكتاب كاملا من قبل فخر الدين قباوة، بيروت 1403هـ/ 1983م، وفوزي عبد العزيز مسعود، I-II، القاهرة 1986ـ 1987؛ 2 ـ شرح لامية العرب، شرح لقصيدة الشنفرى المشهورة، نشره محمود محمد العمودي [مجلة معهد المخطوطات العربية، XXXXI/1، 1418هـ/ 1997م، ص 135 ـ 183]؛ 3 ـ الملخص في إعراب القرآن، وصل إلينا منه المجلد الثاني، نشره محمد عبد المجيد الطويل [مجلة معهد المخطوطات العربية، XXXXIII/1، 1420هـ/ 1999م، ص 7 ـ 49]؛ 4 ـ شرح القصائد (المعلقات) العشر، وشرح للمعلقات السبع التي علقت في الكعبة في العهد الجاهلي بالإضافة إلى قصائد للأعشى الكبير، والنابغة الذبياني وعبيد بن الأبرص (نشره شارلس جيمس ليال، كالكوتا 1312هـ/ 1894م؛ ومحمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة 1382هـ/ 1962م؛ وفخر الدين قباوة، حلب 1389هـ/ 1969م؛ وعبد السلام الخوفي، بيروت 1405هـ/ 1985م؛ وعمر فاروق الطبّة، بيروت)، وكتاب «شرح القصائد السبع» الذي نسبته إليه المصادر الكلاسيكية هو القسم الذي احتوى على المعلقات من كتاب «شرح القصائد العشر»؛ 5 ـ شرح بانت سعاد (شرح قصيدة كعب بن زهير)، نشره فريتز كرينكاو، بيروت 1401هـ/ 1981م؛ وعبد الرحيم يوسف الجمل، القاهرة 1410هـ/ 1990م؛ 6 ـ شرح مقصورة ابن دريد، استانبول 1300، 1319؛ نشره عبد الله اسماعيل الصافي، القاهرة 1371هـ/ 1951م؛ ومحمد زهير الشاويش، دمشق 1380هـ/ 1961م؛ وفخر الدين قباوة، حلب 1398هـ/ 1978م؛ 7 ـ الكافي في العروض والقوافي، نشره الحسّاني حسن عبد الله، مجلة معهد المخطوطات العربية، XII/1، 1386هـ/ 1966م، ص 1 ـ 250. ونشر بعنوان «الوافي في العروض والقوافي» من قبل عمر يحيى وفخر الدين قباوة، حلب 1390هـ/ 1970م؛ دمشق 1407هـ/ 1986م؛ 8 ـ شرح ديوان أبي تمام (شرح المفضليات)، I-III نشر فخر الدين قباوة، دمشق 1388 ـ 1391هـ/ 1968 ـ 1972م؛ بيروت 1407هـ/ 1987م؛ I-III، ونشر علي محمد البجاوي، القاهرة بدون تاريخ؛ 9 ـ شرح ديوان أبي تمام، نشره محمد عبدو أعظم، القاهرة 1371هـ/ 1951م؛ 10 ـ شرح أشعار الخمسة، شرح لكتاب أبي تمام، نشره جورج فريتاق، بون 1828؛ ليدن 1838؛ بولاق 1286 ـ 1296هـ؛ I-IV، ونشره محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة 1357هـ/ 1938م؛ I-II، ونشره محمد عبد المنعم خفاجي، القاهرة 1375هـ/ 1955م. وتذكر المصادر الكلاسيكية أن المؤلف كتب ثلاثة شروح (صغيرة ومتوسطة وكبيرة) لهذا الكتاب؛ 11 ـ شرح سقط الزند، شرح كتبه لديوان أستاذه أبي العلاء المعري، طبع مع شروح ابن السيد البطليوسي وقاسم بن حسين الخوارزمي، V, I، القاهرة 1365 ـ 1368هـ/ 1945 ـ 1948م؛ 12 ـ كنز الحفاظ في كتاب

تهذيب الألفاظ، شرح يتناول الألفاظ وقاموس ابن السكيت الذي رتب حسب المواضيع، نشره كل من لويس شيخو، بيروت 1313هـ/ 1895م، وصالح بن علي، القاهرة 1325هـ/ 1907م؛ 13 ـ شرح اللمع في النحو، شرح كتب لكتاب ابن جني، نشره السيد تقي أبو السيد، المنصورة 1411هـ/ 1991م.

ومن مؤلفات الخطيب التبريزي المعروفة:

14 ـ شرح ديوان المتنبي؛ 15 ـ شرح ديوان امرئ القيس؛ 16 ـ شرح ديوان النابغة؛ 17 ـ مقدمة في النحو؛ 18 ـ تهذيب مقاتل الفرسان؛ 19 ـ تفسير القرآن؛ 20 ـ تهذيب غريب المصنف؛ 21 ـ تهذيب غريب الحديث.

المصادر والمراجع

● الباخرزي، دمية القصر، نشر عبد الفتاح محمد الحلو، القاهرة د. ت، 1/ 145 ـ 237؛ ● الحموي، ياقوت، معجم الأدباء، القاهرة 1936 ـ 1938، 20/ 25 ـ 28؛ ● ابن الأنباري، نزهة الألباء، نشر إبراهيم السامرائي، الزرقاء 1405هـ/ 1985م، ص 270 ـ 273؛ ● ابن القفطي، إنباه الرواة، 4/ 28 ـ 30؛ ● ابن الجوزي، المنتظم، حيدرآباد 1359هـ/ 1940م، 9/ 161 ـ 163؛ ● السمعاني، الأنساب؛ ● الذهبي، سير أعلام النبلاء، 19/ 269 ـ 271؛ ● ابن خلكان، وفيات الأعيان، نشر إحسان عباس، بيروت 1397 ـ 1398هـ/ 1977 ـ 1978م، 6/ 191 ـ 196؛ ● ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 5/ 197؛ ● السيوطي، بغية الوعاة، بيروت، د. ت، ص 413 ـ 414؛ ● اليافعي، مرآة الجنان، بيروت 1390هـ/ 1970م، 3/ 172؛ ● طاش كبري زاده، مفتاح السعادة، 1/ 175 ـ 176؛ ● ابن العماد، شذرات الذهب، القاهرة 1350 ـ 1351هـ، 8/ 157 ـ 158؛ ● قباوة، فخر الدين، منهج التبريزي في شرحه للمفضليات وقيمته التاريخية للمفضليات، دمشق 1997؛ ● الفتلي، عبد الحسين، النحو عند التبريزي في شرح القصائد العشر، المفرد، XVI/ 1، بغداد 1987، ص 87 ـ 118؛

● Carl Brockelman, Geschichte, der Arabischen Litteratur, I, 279, Supplementband, I, 492; ● M. Plessner, Tebrizi, Islam Ansiklopedisi (Türkçe Tercümesi), XII/1, 98-99; ● Rudolf Sellheim, al-Tibrizi, Encyclopaedia of Islam, X, 461-462.

د. أحمد أوزال

مركز البحوث الإسلامية ـ استانبول ـ تركيا

ترجمة: مصطفى بن الطاهر الستيتي ـ تونس

ابن خطيب الدهشة، أبو الثناء نور الدين محمود

(750هـ/1349م - 834هـ/1431م)

أبو الثناء نور الدين محمود بن شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد، بن علي [الباباني، هدية العارفين، 6/ 410] الهمداني الفيومي الأصل الحموي، الشهير بابن خطيب الدهشة.

فقيه شافعي ومحدّث مفيد، له مشاركة قويّة في النحو والشعر، وكان من الأعلام البارزين للحياة الفكرية في حماة وقتئذ.

لم يحظ هذا العالم بترجمة تفصيلية وكافية في كتب الرجال التي تحدّثت عن طبقته، والمعلومات عنه قليلة ومكرّرة في كل المصادر.

أصله من الفيوم بمصر حيث ولد أبوه الذي كان يعرف بابن ظهير، وقد هاجر إلى سورية واستوطن منها حماة التي ولد بها المترجم له في حدود سنة خمسين وسبعمائة، ونشأ في وسط علمي مناسب، مكّنه من التبكير في الدراسة، إذ كان أبوه من العلماء أصحاب المصنّفات [الشوكاني، البدر الطالع، 2/ 293] وولي خطابة الدهشة، بحماة [السخاوي، الضوء اللامع، 4/ 129]، تعلّم في صغره القراءة والكتابة، وحفظ القرآن وعدة متون على العادة التعليمية الجارية وقتئذ [السخاوي، م. س، 4/ 130]، ولم يشأ والده أن ينفرد بتعليمه بل آثر له أن يأخذ عن غيره فتلقّى عن جماعات من علماء حماة وتفقه بهم.

ثمّ ارتحل إلى مصر والشام فأخذ بهما عن أئمّة عصره، وواصل التحصيل ولقاء الشيوخ وكان حازما مجتهدا في أمره، مقبلا على الدرس وكثير الانكباب على المطالعة.

تخرّج في الحديث على الشهاب أحمد بن عبد الرحمٰن بن محمد بن عبد المرداوي قاضي حماة (712 - 787هـ) الذي سمع منه صحيح مسلم، وأخذ عن الكمال عمر بن عثمان بن هبة الله المعري (718 - 783هـ) وسمع منه ثلاثيته، وتلقّى صحيح البخاري عن الشيخ قاسم الضرير الذي لم تعرّف به كتب التراجم، وتفقّه بوالده أحمد بن محمد الفيومي الفقيه المقرىء اللغوي الذي كان خطيب جامع حماة (ت 770هـ).

ومن أقرانه في الدراسة ثلة من أعيان عصرهم منهم المحدّث الكبير بدر الدين محمود بن أحمد العيني (ت 855هـ) صاحب "عمدة القاري في شرح صحيح البخاري"، وأبو المحاسن الجمال يوسف بن الحسن بن محمد المعروف بابن خطيب المنصوريّة (ت 809هـ) والتقى أبا بكر بن علي بن عبد الله بن حجّة الأزراري الحموي (ت 837هـ)، وناصر الدين أبا عبد الله محمد بن عثمان الجهني الحموي ويعرف بابن البارزي (ت 823هـ). والزين عمر بن أحمد بن المبارك الحموي ويعرف بابن الخرزي (ت 862هـ).

برّز في الحديث وغريبه [الزركلي، الأعلام، 7/ 162] ووصف بشيخ المحدّثين في عصره ببلده [البنجويني، دراسة عن المترجم له، ص31]، وبرع في الفقه وأصوله والعربية واللغة وتقدم فيها، واشتهر ذكره وعظم قدره، إلى أن انفرد مدّة بالمشيخة العلمية لحماة بعد موت رفيقه ابن خطيب المنصورية (ت 809هـ) [سخاوي، م.س، 4/ 130].

أثنى عليه عامة من ترجموا له من أقرانه وغيره، كابن خطيب الناصرية، علي بن محمد بن سعد الحلبي (ت 843هـ)، والتقي بن فهد محمد بن محمد (ت 871هـ) [الصابوني، تاريخ حماة، ص158] ولكن أبا بكر بن أحمد بن محمد المعروف بابن قاضي شهبة (ت 851هـ) مع أنه مدحه في معجمه، إلّا أنّه أشار إلى أنّه كانت فيه غفلة وعنده تساهل فيما ينقله ويقوله [السخاوي، م.س، 4/ 130] وقال فيه ابن حجر في أنبائه: انتهت إليه رئاسة المذهب بحماة مع الدين والتواضع المفرط والعفة والإنكباب على المطالعة والأشغال والتصنيف والمشاركة في الأدب وغيره وحسن الخطّ.

تولّى قضاء حماة في كبره في أواخر سنة 815هـ في بداية دولة الملك المؤيّد شيخ، تمّ هذا بإشارة ابن البارزي، كاتب السرّ بالديار المصريّة، فباشر عمله بعفّة ونزاهة وحمدت سيرته فيه واستمرّ في هذه الخطّة إلى أن صرف عنها ببلديّه وقرينه ابن الخزري في أوائل سنة 826هـ في عهد الملك الأشرف برسباي الدقماقي [سخاوي، م.س، 4/ 130].

لزم داره في العقد الأخير من عمره واشتغل بالإقراء والإفتاء، مع المطالعة الكثيرة والتصنيف، ورغم أنّ المصادر تذكر أنه انتفع به عامّة أهل حماة علما وقضاء، وأنه درّس بمساجد بلدته ومدارسها، كالمدرسة القاسميّة، إلّا أنّ ترجمته وردت خالية من ذكر تلاميذ له في المجالات الشرعية واللغوية التي له فيها مهارة وتصنيف، واقتصر السخاوي على تسمية بعض من نقل عنه شيئا من أشعاره كالمحبّ بن الشحنة الحلبي، والجمال بن موسى المراكشي، والموفّق الأبيّ [الضوء اللامع، 4/ 130 - 131] وكانت له مكاتبات مطردة مع البدر بن قاضي أذرعات.

عاش أبو الثناء زاهدا متقشّفا، وكان صالحا عالما علّامة صاحب نسك وتألّه معروفا بالديانة والصيانة ملازما للخير والتواضع إلى أن مات بحماة يوم الخميس سابع عشر شوّال سنة أربع وثلاثين وثمانمائة للهجرة وكانت جنازته مشهودة [السخاوي، م.س، 4/ 130].

تفوّق ابن خطيب الدهشة في علوم الفقه، والحديث، واللغة والأدب خاصّة، له جهود ملحوظة في خدمة الفقه الشافعي، إذ عالج بالشرح المتين والاختصار الدقيق بعض أمّهات كتب هذا المذهب الذي انتهت إليه رئاسته بحماة، وله تعليقات وتنقيحاته الخاصّة به الدالّة على استقلال نظره وسعة معرفته بالفقه وأصوله، وأهمّ أعماله في هذا تكملته لشرح منهاج النووي للسبكي في مجلّدات كثيرة، واختصاره لكتابي: قوت المحتاج للأذرعي في الفقه، وقواعد العلائي في الأصول والقواعد الفقهية.

أما أعماله في الحديث فأضيق دائرة من

أبحاثه الفقهية، وهي تأخذ قيمتها من تعلّقها بكتب الرواية من الطبقة الأولى من حيث غريب اللغة فيها ومشكل أسماء رواتها، وله في ذلك تقييدات واستدراكات معتبرة. تفيد في دراسة الأسانيد وفقه الحديث في دائرة الصحيحين والموطأ.

ولا تقلّ جهود في خدمة النحو عن قيمة جهوده في خدمة الفقه والحديث، وأبرز أعماله في هذا المجال عنايته بألفية ابن مالك النحوي (ت 672هـ) شرحا وتنقيحا واستدراكا عليها.

ومنهجه في البحث تجميعي تكاملي ويغلب عليه الطابع الموسوعي ويكثر فيه الاستدراك، ولا تخرج أبحاثه في طبيعتها عن التهذيب والاختصار لكتب المتقدّمين.

آثاره

1 ـ تحفة ذوي الأرب في مشكل الأسماء والنسب، طبع في ليدن سنة 1905 بعناية «Traugott Mann» تروجوت مان، في ضبط أسماء رجال الصحيحين والموطأ؛ 2 ـ مختصر من قواعد العلائي وكلام الأسنوي، في الأصول وقواعد الفقه، مرتب على الأبواب، حققه مصطفى محمود البنجويني في إطار رسالة دكتوراه دولة في كلّية أصول الدين بجامعة الأزهر، ونشرته مطبعة الجمهور بالموصل، العراق 1984م؛ 3 ـ التقريب في علم الغريب، اختصار لتهذيب المطالع لترغيب المطالع، منه نسختان مخطوطتان في دار الكتب المصرية رقمهما 127 و678؛ 4 ـ تهذيب المطالع لترغيب المطالع، هذّب فيه مطالع الأنوار لإبراهيم بن يوسف بن قرقول (ت 569هـ) وهو في ستّة مجلّدات، ذكره السخاوي [الضوء، 4/ 130]، والشوكاني [البدر الطالع، 2/ 294]، وابن العماد [شذرات، 7/ 211] وذكر الزركلي أنه مخطوط [الأعلام، 7/ 162]؛ 5 ـ تكملة شرح منهاج النووي للسبكي، في ثلاثة عشر مجلّدا؛ 6 ـ مختصر القوت للأذرعي، اختصار لقوت المحتاج في شرح منهاج الطالبين للنووي الذي ألّفه الأذرعي وهو في الفقه الشافعي في أربعة أجزاء، قال السخاوي سماه: إغاثة المحتاج إلى شرح المنهاج وقيل إنّه سمّاه لباب القوت [الضوء اللامع، 4/ 130]، وقد وهم الباباني في هدية العارفين [6/ 410] لما اعتبر العنوانين كتابين مختلفين؛ 7 ـ اليواقيت المضية في المواقيت الشرعية؛ 8 ـ كتاب التحفة في المبهمات؛ 9 ـ شرح ألفية ابن مالك في النحو، تحرير الحاشية في شرح الكافية الشافية، وهو في النحو في ثلاثة مجلّدات؛ 10 ـ وسيلة الإصابة في صنعة الكتابة، منظومة في تسعين بيتا وهي ذيل على الكافية، الشافية في النحو لابن مالك نظمها سنة 805هـ.

المصادر والمراجع

● السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار مكتبة الحياة، بيروت 4/ 130 ـ 131؛ ● ابن العماد، شذرات الذهب، دار الفكر، بيروت، ط 1979، 7/ 210 ـ 211؛ ● الشوكاني، البدر الطالع، دار المعرفة، بيروت، 2/ 293 ـ

294؛ ● البـابـانـي الـبـغـدادي، هـديـة العارفين، دار الفكر، بيروت، ط1982، 6/ 410؛ ● البنجويني، مصطفى محمود، دارسة وتحقيق كتاب «مختصر من قواعد العلائي»، مطبعة الجمهور بالموصل، العراق 1984، أصل الكتاب ومقدّمة تحقيقه.

د. محمد الناصر الزعايري
جامعة الزيتونة ـ تونس

خطيب زاده، محيي الدين محمد أفنـدي

(ت 901هـ/ 1496م)

ولد في قسطموني. ويعرف في المصادر بلقب «خطيب زاده» وأحيانا بلقب «خطيب زاده الرومي»، وأحيانا كان يحدث لبس بينه وبين معاصره محيي الدين محمد (بن إبراهيم) النكساري الذي يحمل الاسم نفسه، بل إنه ثمة من يعتقد أن هذين الشخصين هما شخص واحد. غير أن طاش كوبري زاده [الشقائق، ص 147، 273] أزال هذا اللبس من خلال خال والد النكساري.

تلقى خطيب زاده تعليمه الأول من والده الذي كان يعمل في التدريس في إزنيق، كما تلقى على يديه الفقه، وعلم الكلام، والتفسير، وقواعد الإسلام الأولى إضافة إلى علم الصرف، والنحو. وبعد ذلك تلقى دروسا على يد خضر بك، وهو واحد من أهم علماء تلك الفترة، كذلك درس على يد علاء الدين الطوسي الذي جاء من إيران إلى الأناضول. وبدأ أول عمل له في التدريس في مدرسة أورخان غازي في إزنيق. وبقي هناك حتى عام 875هـ/ 1470م. وفي هذه المدرسة الصغيرة لفت خطيب زاده الانتباه بعلمه واجتهاده ونقل في العام نفسه إلى مدرسة صحن ثمان التي أسسها السلطان محمد الفاتح وذلك في التاريخ نفسه. وترقى هناك حتى وصل إلى مرتبة رئيس المدرسين إلا أنه عزل من منصبه وذلك بسبب حادثة وقعت بينه وبين السلطان محمد الفاتح.

وبعد فترة من الزمن أذن له بالعودة إلى وظيفته وذلك بتدخل من الملا جوراني. ومع مرور الزمن كسب ثقة السلطان وتقديره وأصبح أستاذه الخاص. غير أن السلطان الفاتح أبعده من السراي عندما علم أنه يستغل هذا المنصب ويصرح بأنه أستاذ السلطان وذلك أثناء المناظرات. وعقب ذلك عمل خطيب زاده في مهنة التدريس في مختلف مدارس استانبول. وعندما توفي دفن بالقرب من قبر علي كوشجو الموجود في ناحية أيوب سلطان. وتذكر المصادر أنه عمل مدرسا في مدرسة أيوب سلطان وأنه قتل أثناء عمله في هذه الوظيفة من قبل خادمه، كما يُنقل أن له ولداً.

تخرج على يد خطيب زاده عدد كبير من العلماء نجد على رأسهم كلا من كمال باشا زاده، وفناري زاده محيي الدين چلبي. وتلقى على يده العلم كل من تاجي زاده جعفر چلبي، وفناري زاده محيي الدين محمد شاه، وزيريك زاده أحمد ركن الدين، وصاري كورز نور الدين أفندي، وخيالي قديم، وبابيك چلبي، وعبد الوهاب بن عبد الكريم، وإبري زاده، وقره بالي آيديني وغيرهم من العلماء.

كان خطيب زاده شخصا مولعا بالمناقشات العلمية. وبصفة خاصة كان يتباحث دائما مع كبار علماء الفترة التي عاش فيها وذلك أثناء عمله في مدارس الصحن. وكان هذا الجدال أحيانا يتحول إلى نقاش. وكانت هذه الخاصية تضعه أحيانا في مواقف صعبة للغاية. وبالإضافة إلى ذلك فإن قوجه داود باشا الذي عمل صدرا أعظم في عهد السلطان محمد الفاتح قام بدعوة خوجه زاده محيي الدين أفندي - وهو من كبار علماء تلك الفترة - إلى استانبول وطلب منه مناظرة خطيب زاده. وعندما رأى خوجه زاده قصوره في العلم والأخلاق قال إنه يمكنه أولا أن يناقش واحدا من تلاميذه الثلاثة في تلك الفترة، فإذا انتصر عليهم في المناظرة يحق له أن يناظره بعد ذلك.

وفي عهد السلطان بايزيد الثاني دخل في مسامرات علمية مع مصلح الدين مصطفى كستلي، وعلي أفندي الزنبللي، وسنان باشا وغيرهم من العلماء، وبذل ما في وسعه كي يكون هو الغالب في هذه النقاشات والمناظرات. وخاض بعض النقاشات كذلك مع علاء الدين عربي أفندي ومجموعة من العلماء في حضرة السلطان بايزيد الثاني. وعندما لم يجد ما يقوله في موضوع النقاش انزعج السلطان وطلب منه أن يكتب رسالة من أجل إثبات ادعاءاته، فقام خطيب زاده بكتابة مؤلفه «رسالة في بحث الرؤية والكلام»، غير أن السلطان عندما قرأ هذه الرسالة لم تعجبه، وأمر وزيره إبراهيم باشا چاندرلي بأن يطلب منه مغادرة البلاد. غير أن إبراهيم باشا لم يشأ تعقيد الأمر فلم يبلغ أمر السلطان. وأرسل إبراهيم باشا مقدارا من المال باسم السلطان إلى خطيب زاده من أجل أن يطيب خاطره، كما حاول أن ينسيه هذه الحادثة [طاش كوبري زاده، ص 148 - 149].

كان خطيب زاده متحدثا جيدا في المناقشات وكان كذلك صاحب تحليل منطقي قوي، أما من ناحية الأخلاق فلم يرتق إلى درجات عليا، وكان يرى نفسه دائما أعلى من نظرائه [المؤلفون العثمانيون، 1/ 294]. إضافة إلى ذلك أرسل جلال الدين الدوّاني رسالة إلى أحد تلاميذه الذين يوجدون باستانبول، وطلب منه أن يبلغ سلامه إلى خطيب زاده، وخوجه زاده مصلح الدين أفندي. ورأى خطيب زاده أن كتابة اسمه قبل اسم خوجه زاده يعني أنه أعلى منه مرتبة في العلم. وذكر الوزير إبراهيم باشا أن تسلسل الأسماء هذا لا يعني أي أفضلية [غَزّي، 24].

ومن جانب آخر كان خطيب زاده يعتقد أن العلماء أعلى مرتبة من الإداريين. وحسب ما ذكرت المصادر فقد ذهب في أحد الأيام مع أفضل زاده حميد الدين أفندي، شيخ الإسلام في تلك الفترة، إلى الديوان الهمايوني من

أجل مراسيم التهنئة، وعندما رأى شيخ الإسلام يقوم إجلالا للوزراء نبهه قائلا إن احترام الإداريين لا يتناسب مع عزّة العلم. ويُنقل عنه كذلك أنه كان لا يقبل يد السلطان بايزيد الثاني ويكتفي فقط بالمصافحة عند زيارته [طاش كوبري زاده، ص 148].

يذكر أن خطيب زاده أصدر فتوى مع معاصره قاسم عزاري جيرمياني تجيز قتل الملا لطفي أحد علماء تلك الفترة. أما أفضل زاده ومحيي الدين أخوين، فبالرغم من نفورهما من الملا لطفي، فإنهما لم يؤيدا هذه الفتوى. وانزعج خطيب زاده بسبب النقد الذي وجهه له الملا لطفي وكذلك لكتبه. ويقال إنه بعد إعدام الملا لطفي أسرّ إلى مقربيه قائلا: «لقد أنقذت كتبي»، بيد أن الوثائق الموجودة لم تستطع أن تؤكد هذا الأمر [كوك آي، ص 45]. وفي الأساس فإن النقد الذي وجهه الملا لطفي لخطيب زاده لم يكن في موضوع مهم، والقول بأنه أصدر فتوى قتل الملا لطفي لهذا السبب لا يبدو مقنعا. وبالإضافة إلى ذلك ظهرت حقائق جديدة تتعلق بقتل ملا لطفي وذلك من خلال الوثائق التي وصلت إلينا حديثا [أُرْ أونسال، 1980 ـ 1981، 33، ص74 ـ 78].

كان خطيب زاده من الناحية العلمية ينتمي إلى مدرسة فخر الدين الرازي. ووصلت هذه المدرسة إلى الأناضول اعتبارا من القرن الثالث عشر بواسطة كل من محمد بن ناماوير الهنجي، وصدر الدين الخلاطي، واستمرت مع الملا فناري وتلميذه الملا يغان. وكان الملا يغان في الوقت نفسه ـ أستاذ والد خطيب زاده ـ منشغلا أكثر بالفقه وعلم الكلام، وقام بكتابة شروح وحواشٍ لبعض المؤلفات تمشيا مع تقاليد تلك الفترة. وانتقد الملا فناري في حضرة الفاتح مدعيا أن مؤلفاته لا تعدو كونها مجرد جمع وتصنيف [خوجه، سعد الدين، 2/ 412 ـ 413]، والحقيقة أن ما فعله هو لا يختلف في شيء عما فعله فناري.

■ آثاره

أ ـ الفقه وأصوله:

1 ـ حاشية على شرح الوقاية: [مكتبة السليمانية، الفاتح، رقم 3896؛ إسمهان سلطان، رقم 350]. حاشية كتبت على القسم الأول من الشرح الذي كتبه سيد شريف الجرجاني على كتاب «وقاية الرواية» لتاج الشريعة. وكتب هذا المؤلف بطلب من السلطان بايزيد الثاني. وتناول فيه مواضيع مثل الطهارة والوضوء؛ 2 ـ حاشية على شرح المختصر: [مكتبة عاطف أفندي، رقم 672؛ مكتبة السليمانية، جار الله أفندي، رقم 471؛ المكتبة الشعبية بتيره، نجيب باشا، رقم 196]. وهو عبارة عن حاشية للقسم الأول من الحاشية التي كتبها سيد شريف الجرجاني للشرح الذي كتبه عضد الدين الإيجي لكتاب «مختصر المنتهى» الذي اختصر فيه ابن الحاجب مؤلفه «منتهى السُّول والأمل». وانتقد خطيب زاده في مؤلفه هذا الحاشية التي كتبها من قبله أستاذه علاء الدين الطوسي للشرح نفسه؛ 3 ـ حاشية على المقدمات الأربع، في فصل الحسن والقبح من شرح «التلويح في كشف حقائق التنقيح» الذي كتبه التفتازاني لشرح «التوضيح في حل

غوامض التنقيح» وهو شرح كتبه صدر الشريعة عبيد الله بن مسعود لمؤلفه: «تنقيح الأصول». ويوجد الكتاب في مجموعة مستقلة مع الحواشي التي كتبها مصلح الدين مصطفى كستلي وعبد الصمد سامسوني [مكتبة السليمانية، علي باشا رقم 2027؛ مكتبة راغب باشا، رقم 1459]؛ 4 ـ رسالة في نقض الوضوء، [مكتبة السليمانية، جار الله أفندي، رقم 847؛ أسعد أفندي، رقم 951]. ويسمى هذا الكتاب في بعض النسخ بـ «رسالة في حكم التطهير» [مكتبة السليمانية، قصيده جي زاده سليمان سري، رقم 710]. وكتب هذا المؤلف بغرض شرح وتصحيح بعض المعلومات التي تتعلق بنواقض الوضوء في مؤلف «شرح الوقاية» لصدر الشريعة؛ 5 ـ رسالة في فضائل الجهاد، يوجد من هذا الأثر نسخ مخطوطة كثيرة، [مثلا مكتبة السليمانية، آياصوفيا، رقم 1984، 1988، 1989؛ لاله إسماعيل، رقم 691]. ويحمل هذا المؤلف في بعض نسخه اسم «رسالة في الجهاد» [مكتبة السليمانية، الفاتح رقم 3498]. واسم «الإرشاد في فضائل الجهاد» [مكتبة السليمانية آياصوفيا، رقم1984]. ويتكون الكتاب من ثلاثة أبواب تحتوي علي فضيلة الجهاد وحكم تركه والمهام التي تقع على المسؤولين فيما يتعلق بالجهاد وكذلك مرتبة الشهيد.

ب ـ الكلام:

6 ـ حاشية على حاشية التجريد، توجد نسخ مختلفة [المكتبة الوطنية فيض الله أفندي، رقم 1114؛ مكتبة السليمانية، الفاتح، رقم 2927 ـ 2928؛ خالد أفندي، رقم 442؛ لاله لي، رقم 2215؛ حميدية، رقم725]. وهو عبارة عن حاشية للحاشية التي كتبها سيد شريف الجرجاني لشرح «تشييد القواعد في شرح تجريد العقائد» لمحمود بن عبد الرحمٰن الإصفهاني الذي كتبه على مؤلفه «تجريد الكلام» لنصير الدين الطوسي، وهو من الكتب الأساسية التي كانت تدرس في المدارس العثمانية؛ 7 ـ رسالة في كلام الله ورؤيته، كتب هذا المؤلف بطلب من السلطان بايزيد الثاني. استعمل الكاتب في مؤلفه هذا المصادر الكلاسيكية في علم الكلام وتناول فيه مواضيع جواز رؤية الله وأزلية الكلام. وتوجد منه نسخ مخطوطة في مكتبات استانبول [مكتبة السليمانية، آياصوفيا، رقم 2276؛ لا له لي، رقم 2236]. ويحمل هذا المؤلف في بعض نسخه عنوان «رسالة في بحث الرؤيا والكلام» [مكتبة السليمانية الفاتح، رقم 2997؛ مكتبة متحف سراي طوب قابي، أحمد الثالث، رقم 1842]؛ 8 ـ حاشية على شرح المواقف: حاشية كتبها على القسم الأول للشرح الذي كتبه الجرجاني لمؤلف «المواقف» لصاحبه عضد الدين الإيجي. وتوجد منه نسخ مختلفة [مكتب السليمانية، جار الله أفندي رقم 1188؛ مكتبة كوبريلي، فاضل أحمد باشا، رقم 1610؛ مكتبةالسليمانية بأدرنة، رقم 1034]؛ 9 ـ رسالة في نفي نسبة الخسران إلى الأنبياء، [مكتبة السليمانية، مخطوطات جريسون، رقم 100، 3572]. وكتب هذا المؤلف ردا على مقولة «لا يسلم الأنبياء من الخسران إذا تركوا ما هو أولى» لعالم يدعى ابن خير الدين. ويحمل هذا المؤلف في بعض نسخه اسم «إصلاح قول ابن خير الدين»

[مكتبة السليمانية، وهبي أفندي البغدادي، أسعد أفندي، رقم 3547]؛ 10 ـ حاشية على مغلطة الجزر الأسام [مكتبة السليمانية، لا له لي، رقم 2200]، هو عبارة عن شرح لقسم الحسن والقبح من مؤلف «شرح المقاصد» للتفتازاني. ويذكر اسم هذا المؤلف في نسخته الموجودة في المكتبة الوطنية [مراد ملا، رقم706] تحت عنوان «حاشية على الحسن والقبح»؛ 11 ـ رسالة في بحث العلم والكلام، رسالة من ورقتين تتعلق بتعريف مصطلحات العلم والكلام [مكتبة السليمانية، الشهيد علي باشا، رقم 2829].

ج ـ آثاره الأخرى:

12 ـ حاشية على حاشية الكشاف، حاشية على الحاشية التي كتبها سيد شريف الجرجاني على كتاب «الكشاف» للزمخشري، وهو يحتوي على تفسير سورة الفاتحة وتفسير الآيات الخمس والعشرين الأولى من سورة البقرة. وتوجد بعض النسخ المخطوطة من المؤلف تحمل اسم «تعليقات على أوائل الكشاف» [مكتبة السليمانية، جار الله، أفندي، رقم 202؛ المكتبة الوطنية، مراد ملا، رقم 268؛ مكتبة كوبريلي، فاضل أحمد باشا، رقم 1610]؛ 13 ـ رسالة في الجهة، حاشية على القسم الذي يتعلق بالجهة للحاشية التي كتبها سيد شريف الجرجاني للشرح الذي كتبه محمد بن مبارك شاه على مؤلف «حكمة العين» لصاحبه علي بن عمر الكاتبي القزويني. ويحمل المؤلف في بعض النسخ اسم «رسالة في حواشي شرح حكمة العين». وتوجد منه نسختان في مكتبة السليمانية [آياصوفيا، رقم 2350؛ حسن حسني باشا، رقم 600]؛ 14 ـ الأجوبة التسعة، رسالة تتكون من ورقتين تتناول الأجوبة التي قدمها أثناء نقاشاته مع مجموعة من العلماء في ماهية العلم [مكتبة السليمانية، حسن حسني باشا، رقم 600].

■ المصادر والمراجع

● طاش كوبري زاده، الشقائق النعمانية، استانبول 1405هـ/ 1985م، ص147 ـ 150، 273؛ ● محمد مجدي، شقائق ترجمه سي، استانبول 1989، ص166 ـ 171؛ ● خوجه، سعد الدين، تاج التواريخ، استانبول 1279 ـ 1280هـ، 2/ 412 ـ 413، 483 ـ 485؛ ● الغزي، بدر الدين، الكواكب السائرة، بيروت 1945، 1/ 24 ـ 25؛ ● كاتب چلبي، كشف الظنون، 1/ 498، 848، 859، 889؛ 2/ 1892؛ ● ابن العماد، شذرات الذهب، 8/ 9؛ ● اللكنوي عبد الهادي، الفوائد البهية، القاهرة 1324، ص155؛ ● البورصوي، محمد طاهر، المؤلفون العثمانيون، استانبول 1333 ـ 1342هـ، 1/ 294؛ ● كحالة، معجم المؤلفين، 8/ 199؛

● Carl Brockelmann, GAL, I, 346, 671; II, 296; Suppl., I, 646, 847, 926; II, 320; ● Ismail Hakki Uzunçarsili, Osmanli Tarihi, Ankara 1947-1959, II, 654, 659, 663; ● Ismail Hakki Uzunçarsili., Ilmiye Teskilâti, p. 175; ● Ömer Nasuhi Bilmen, Büyük Tefsir Tarihi, Istanbul 1973-1974, II, 621; ● Cahit Baltaci, XV-XVI Asirlarda Osmanli

Medreseleri, Istanbul 1976, p. 327, 385; • Orhan Saik Gökyay, Molla Lûtfî, Ankara 1987, p. 42-47; • Recep Cici, Kurulustan Fatih Devrinin Sonuna Kadar Osmanlilarda Fikih Calismalari (doktora tezi, 1994, MU Sosyal Bilimler Enstitüsü), p. 227-281; • Ismail E. Erünsal, «Fatih Devri Kütüphaneleri ve Molla Lütfî Hakkinda Birkaç Not», Istanbul Un. Edebiyat Fak. Tarih Dergisi, XXXIII (1980-81), p. 56-78.

د. إلياس أوزوم
جامعة استانبول - تركيا
ترجمة: أنعم محمد عثمان
الكباشي - السودان

ابن الخطيب، أبو عبد الله لسان الدّين محمد بن عبد الله

(713هـ/1313م - 776هـ/1374م)

أبو عبد الله لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني، أديب ومؤرّخ وجغرافي وفقيه وطبيب وعالم بالسياسة والموسيقى، يلقب بذي الوزارتين، وزارة القلم اعتبارا لملكته الأدبية وما تحلّى به من نبوغ في الإنشاء والتعبير والترسّل، ووزارة السيف لصحبته للسلاطين عند خوض المعارك. كما يلقّب، من جهة أخرى، بذي العمرين وذلك لانكبابه على الكتابة ليلا وإدارة شؤون الدولة نهارا، وبذي الميتتين، من جهة ثالثة، لأنه دفن ثمّ أخرج من قبره وأحرق.

ينحدر من أسرة شاميّة الأصل هاجرت إلى الأندلس، وتحديدا إلى قرطبة فطليطلة ثم لوشة ومنها إلى غرناطة، وكانت تعرف قبلها ببني وزير ثمّ أطلق عليها «بنو الخطيب» نسبة إلى سعيد الخطيب الجدّ الأعلى لصاحب الترجمة المولود بجنوبي غرناطة ببلدة لوشة وكانت تدعى إلبولا لاوس Ilpula Lauz.

انتقل ابن الخطيب إلى غرناطة صحبة أبيه وكان أحد عمّال بلاط بني نصر وبها قضى شبابه وتلقّى دروسا في الفلسفة والطبّ والأدب على أبرز شيوخها، فقرأ القرآن على أبي عبد الله بن عبد المولى العوّاد وأتقنه كتابة وحفظا وترتيلا، وأخذ العربية عن أبي الحسن القيجاطي، وأبي القاسم بن جزي، ولازم قراءة العربية والفقه والتفسير على إمام النحويين على عهده الشيخ الخطيب أبي عبد الله بن الفخّار البيري. وقرأ أيضا على أبي عبد الله بن بكر. وتأدب على أبي الحسن بن الجياب. كما روى عن كثير من المحدثين كأبي عبد الله بن جابر وأخيه أبي جعفر، وابن البركات بن الحاج، والأخوين بن سلمون، وأبي عمر بن الزبير، وأبي عبد

الله بن بيبش، وأبي محمد الزرقون، وأبي عبد الله بن حزب الله، وأبي عبد الله المقري التلمساني، وأبي عبد الله بن مرزوق، وغيرهم كثير. كما أخذ الطب والتعاليم وصناعة التعديل عن أبي زكريا بن هذيل ولازمه.

وهكذا لمع نجم ابن الخطيب حتّى أصبح أبرز الكتّاب والشعراء والساسة في عصره. بيد أن أباه قد استشهد في وقعة طريف في جمادى الأولى من عام 741هـ/ 29 أكتوبر 1340م، فاتجه نحو السلطان أبي الحجّاج يوسف بن إسماعيل (733 ـ 755هـ/ 1333 ـ 1354م) أحد مشاهير بني الأحمر وظلّ يمتدحه فقرّبه وأثبته في ديوان الكتّاب ثمّ قلّده الوزارة بعد وفاة رئيس ديوانه ابن الجيّاب. وظلّ بعد وفاته وزيرا لابنه الغني بالله محمد الخامس (755 ـ 760هـ/ 1354 ـ 1360م) وسفيره لدى السلطان أبي عنان فارس المريني (749 ـ 759هـ/ 1349 ـ 1359م) لتجديد أواصر الحلف بين دولتي بني نصر وبني مرين، وكان قبلها قد وفد على بلاطه ليعزّيه في وفاة والده أبي الحسن سنة 752هـ/ 1353م، وقد حضر جنازته بقلعة بني شالة.

وفي سنة 760هـ/ 1360م انقلب إسماعيل على أخيه محمد الغني بالله واستلب عرشه، فافتقد ابن الخطيب عزّه وأودع السجن بغرناطة وابتزّت أمواله ممّا حدا بأبي سالم المريني سلطان المغرب إلى أن يستسمح سلطان غرناطة للغني بالله وابن الخطيب في مغادرة بلاد الأندلس والحلول بالمغرب، فكان لهما ذلك ووفدا على فاس سنة 761هـ وبذلك أتيح لابن الخطيب الطواف بأنحاء المغرب، فزار مراكش واقفا على آثار الملوك ومآثر الصالحين. وأثناء أوبته من رحلته عرج على مدينة سلا فأعجبه موقعها وانقطاعها، فرآها موافقة لمراده. فجنح إلى الاستقرار بها وأذن له السلطان في ذلك، كما أجرى عليه جراية واسعة. واستمرّ مقيما بهذه المدينة منتبذا عن سلطانه المخلوع المقيم بفاس، رافضا للسياسة وأسبابها، زاهدا في الوزارة وأتعابها، سعيدا بخلوته حتى نكبه الدهر في حرمه وأم أولاده عام 762هـ فتجددت أحزانه وهاجت أشجانه وتكدرت غربته. وقد بث آلامه وأفجاعه بهذا الحدث الأليم في كتابه «نفاضة الجراب».

وقد اجتمع في سلا بوليها أبي العباس أحمد بن عاشر كما كان يأوي إلى زاوية النساك بهذه المدينة، وكانت مجتمع أهل الخير والصلاح من الأولياء. وكان يتحنث فيها الليالي ذوات العدد، ويقصده بها الزوار من الأدباء والعلماء. وكان يأوي أيضا إلى رباط شالة مرابطا فيه مجاورا لمدافن ملوك بني مرين. وقد دامت سكناه بسلا قريبا من ثلاث سنوات حتى قتل السلطان أبو سالم في فاس، وتولى بعده السلطان تاشفين الموسوس بعدما استبد الوزير عمر بن عبد الله بالتصرف المطلق في دار الملك، فاضطر ابن الخطيب إلى مد اليد إليه والتقرب منه حفاظا على حرمته وذمته، فشد الرحلة إليه. وما لبث السلطان الجديد أن خلع هو الآخر من طرف الوزير المستبد، وبويع للسلطان أبي زيان محمد بن عبد الرحمٰن، فخاطبه ابن الخطيب من سلا بقصيدة يهنئه فيها بالملك، وأردفها برسالة نثرية. ثم شد الرحلة مرة ثانية إلى

فاس زيادة في التقرب قصد تجديد الظهائر التي كانت له. وقد عاد من عند السلطان ببرّ كثير واحترام شهير. وتقرب من الوزير المستبد وامتدحه ببعض القصائد بعدما كان قد هجاه من قبل. وقد عرضت عليه وهو في فاس الخدمة بالأعتاب السلطانية، فاعتذر عن قبولها مفضلا الخمول والراحة وهناء البال والاشتغال بالتأليف والتصنيف.

وفي المغرب التقى ابن الخطيب بابن خلدون فكان بين الرجلين علاقة متينة أرّخ لها الأول في «نفاضة الجراب» والثاني في «التعريف»، وكانت بينهما مراسلات تدلّ على مدى تقدير كل منهما لآخر.

وفي سنة 763هـ/ 1362م أعيد الغني بالله إلى عرشه فدعا ابن الخطيب إلى تقلّد الوزارة ثانية ليقوم بأهمّ دور سياسي يبلغ بفضله غاية النفوذ والجاه في الدولة النصرية، ولكن ما إن استتبّ أمره حتى بدأ يشعر بتقلّب الأنفس من حوله لما ناله من حظوة مما دفعه إلى وضع كتابه «روضة التعريف بالحب الشريف» وتقديمه إلى السلطان مضمّنا معاني الإحساس الحادّ بالزيف والإحباط، وراودته فكرة الفرار ففرّ بالفعل قاصدا جبل طارق فمدينة سبتة ثم تلمسان حيث وفد على السلطان أبي فارس عبد العزيز بن علي المريني (768 ـ 774هـ/ 1366 ـ 1372م) بعد أن كتب «إليه معربا عن متأجّج توقه إلى الرحيل إليه ومناشدا إياه حمايته». فلبّى له السلطان رغبته سنة 772هـ وأكرم وفادته وأرسل سفيرا إلى غرناطة في طلب أفراد أسرته فحضروا جميعهم. عندها بعث ابن الخطيب إلى سلطان غرناطة رسالة يكشف له بين طيّاتها عن أسرار تصرفه، وأقام بمدينة فاس غير بعيد عن مقرّ السلطة تحدوه آمال عريضة بدّدها موت السلطان المريني.

وسعى خصومه وحاسدوه في غرناطة للنيل منه والكيد له فرموه بالزندقة وانتهاج منحى الفلاسفة، ودفعت بعض ما نسب إليه من أقوال إلى غريمه قاضي غرناطة أبي الحسن النباهي. فطالب سلطان غرناطة بتسليمه وأرسل السفارات إلى المغرب لهذا الغرض، فامتنع السلطان عبد العزيز وابنه وخليفته محمد الثالث السعيد (1372 ـ 1374م) عن ذلك المطلب إلى أن انتصب أبو العبّاس المستنصر فعقدت غرناطة معه عهدا من جملة بنوده أنه يسلّم لها ابن الخطيب. وبموجب هذا العهد قبض على ابن الخطيب وتمّ إيداعه السجن.

بعد القبض عليه، حضر ابن زمرك وزير ابن الأحمر إلى فاس، وكان من تلامذته وهو الذي رقاه ورفع منصبه. فلما قدم على السلطان أحضر ابن الخطيب من سجنه أمام جمع من فقهاء الرسوم وأهل الدسائس، فتتبعوا بعض كلمات وردت بطريق الحكاية في كتابه الفريد «روضة التعريف بالحب الشريف». والأمر كله مؤامرة، فأنكروا عليه ذلك ونسبوا إليه القول بالوحدة المطلقة والحلول. وهو أبعد ما يكون عن مثل تلك الأفكار التي انتقدها ورفضها كما يظهر ذلك في الفصل المعنون «الاختيار الخامس في تنظيف الأرض المعتمرة من الأصول الخبيثة والحجارة المعترضة»، ثم امتحن بالعذاب، وأفتى بعض من لا يخاف الله بقتله. ثم تسلل إلى زنزانته بعض الأوغاد فقتلوه وأخرجوا جثته من الغد، فدفن بمقبرة باب المحروق.

لقد كان ابن الخطيب متمكّنا من شتّى علوم عصره تمكّنا كان وراء خصوبة إنتاجه، ذلك أنه ترك آثارا تناهز الستّين أثرًا وهي آثار متنوّعة الأشكال، متعددة الأغراض يسوغ تصنيفها من حيث الشكل إلى مصنّفات كبرى ودواوين شعرية وأراجيز ورسائل ومقامات ورحلات. كما تصنّف، من جهة المضمون، إلى تاريخ وأنساب وجغرافيا وأدب وتراجم ولغة وطبّ وعلوم ودين وسياسة وإدارة وموسيقى، وكان جلّها في تاريخ الأندلس وتاريخ الدولة النصرية بغرناطة، على وجه الخصوص، ويأتي الأدب في مرتبة ثانية ويليه الطب ثم التراجم.

ويمكن اعتبار تصانيفه وثائق أساسية للتعرف على تاريخ النصف الثاني من القرن السابع الهجري وكذلك القرن الثامن وعلى الحياة الثقافية بغرناطة والغرب.

أمّا من الناحية الأدبية فقد جمع ابن الخطيب بين جنسي الكتابة والنثر والشعر وأغلب ما وصلنا من نثره في الترجمة والتاريخ فضلا عن بعض الرسائل الفنية والديوانية ويكشف نثره بحثه عن لغة فنية قوامها جزالة اللغة ومتانة التركيب وهي مرصعة بالمحسنات البيانية والبديعية تقرب في عمومها من اللغة الشعرية.

أما شعره فلقد كانت الصنعة فيه أقلّ تكلفا والصورة فيه طريفة من غير ما قطع عن مرجعياتها المألوفة، والمعاني مترددة بين خصوصي المناسبة ومشترك السنن. كان المدح أهم أغراضه ثم تلاه الوصف فضلا عن بقية الأغراض التقليدية من غزل ورثاء وهجاء وخمرية وزهدية. نهج في مدحياته نهجا مألوفا سواء في المقدمات أم في المعاني المدحية الحربية أو القيمية. أما الوصف فقد استبدت الطبيعة بمواضيعه استبدادا يجعلنا نعد ابن الخطيب في زمرة أشهر شعراء الطبيعة الأندلسيين. وفي الوصف نجد مقطوعات قالها الشاعر في القصور التي بناها بنو الأحمر ووشّيت كثير من جدرانها بأشعار ابن الخطيب.

على أن العلامة الفارقة في شعره هي موشحاته، ويعد لسان الدين بشهادة القدامى والمحدثين من أكبر الوشاحين بالأندلس ومازال الناس يرددون موشحه الذي طالعه: «جَادَكَ الغَيْثُ إذَا الغَيْثُ هَمَى».

ومن جهة أخرى فان ابن الخطيب ساهم بما اختاره في كتاب «جيش التوشيح» من موشحات في التعريف بعيون هذا الضرب من الشعر فضلا عن تكسير الطوق الذي فرضته كتب التراجم والاختيار على هذه النصوص.

وعموما فإن في شعر ابن الخطيب ضغطا مشرقيا صريحا أو ضمنيا، الصريح ما ذكره من أنه يعارض أعلام الشعر المشرقي كأبي نواس [الديوان، 710] وأبي تمام [ص 128] والمتنبي [ص 145] والضمني في اتباعه نهج القصيدة القديمة الكلاسيكية لا المحدثة. كما أن في شعره ضغطا مغربيا يتجلى فنيا في رقة موشحاته وفي تغنيه بالطبيعة الأندلسية ويظهر مضمونيا في ضغط أحداث حياته عليه سواء أكانت أيام الرياسة أم أيام النفي الاختياري.

آثاره

1 ـ الإحاطة بتاريخ غرناطة (7 أجزاء)، طبع بعضه في مطبعة بالقاهرة عام 1319هـ/

1901م على مخطوطة مكتبة الاسكوريال برقم (1673) سماه تسيبولد «المطول في تاريخ غرناطة»، وصدر مختصر بجزئين عام 1319 في القاهرة وهو ناقص. منه أجزاء في الأكاديمية التاريخية بمدريد، والأزهر، وخزانة الرباط، وجامعة القرويين، ونشر عبد الله عنان الجزء الأول منه، علما أن هنالك مختصرا له أنجز في أواخر القرن الهجري الثامن تحت عنوان «مركز الإحاطة» محفوظ في مكتبة معهد المخطوطات بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بالقاهرة وخزانة الرباط؛ 2 ـ رقم الملل في نظم الدول، طبع في تونس سنة 1316هـ و1317هـ سماه تسيبولد «الحلل المرقومة» مشيرا إلى طبعة تونس، تناول فيه تاريخ الخلفاء في المشرق والأندلس وإفريقية [نفاضة الجراب، 2/ 22]. ورد عند فاخوري تحت عنوان «الملل المرقومة في تاريخ خلفاء المشرق والأندلس وإفريقيا» وهو أرجوزة؛ 3 ـ اللمحة البدرية في الدولة النصرية. طبع في المطبعة السلفية في القاهرة سنة 1347هـ بإشراف وتقديم محب الدين الخطيب، وطبع مرّة أخرى بتونس عام 1315هـ، نوه به تسيبولد، ولعله «طرفة العصر في دولة بني نصر»؛ 4 ـ معيار الاختيار في ذكر أحوال المعاهد والديار، أشار تسيبولد إلى نشرة ميلر للكتاب عام 1866. كما طبع بفاس طبعة أخرى عام 1325هـ؛ 5 ـ مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس، طبع بجامعة الاسكندرية ـ الاسكندرية عام 1958؛ 6 ـ أعمال الأعلام (القسم الثالث) من تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط تح. ونشر أحمد مختار العبادي، وإبراهيم الكتاني، الدار البيضاء 1964؛ 7 ـ نفاضة الجراب في علالة الاغتراب (ثلاثة أجزاء) طبع منها الجزء الثاني فقط، بتحقيق أحمد مختار العبادي ومراجعة عبد العزيز الأهواني، دار الشؤون الثقافية بغداد (ب. ت). ألفه الغرناطي بمنفاه (بسلا) أواخر سني حياته (773 ـ 776هـ) 1372م، عمل فهارس الكتاب درويش النخيلي ـ بكلية الآداب، جامعة الاسكندرية؛ 8 ـ جيش التوشيح، تح. هلال ناجي، مطبعة المنار، تونس 1967م؛ 9 ـ الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تح. البشير الفورتي، تونس 1329هـ/ 1911م؛ تح. علوش، الرباط 1936؛ 10 ـ الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، تح. إحسان عباس، فاس ـ بيروت، دار الثقافة 1963 م... الخ؛ 11 ـ روضة التعريف بالحب الشريف، كتاب في التصوف عارض فيه كتاب «في المحبة» لابن أبي حجلة التلمساني (ت 776هـ/ 1374م) قتل بسببه بعد أن نسبه خصومه إلى القول بالحلول، منه نسخة في المكتبة الإسلامية، وأخرى في معهد المخطوطات بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وأخرى ذكرها حبيب الزيات ضمن مخطوطات خزائن الكتب بدمشق [التعريف بالرحلة، 129، 138]، تح. عبد القادر أحمد عطار عبد الستار، القاهرة، دار الفكر العربي، 1968؛ 12 ـ مختصر كتاب التاج، تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري أبي نصر إسماعيل المتوفى سنة (363هـ/ 973م)، طبع ببولاق القاهرة 1282هـ أوجزه الغرناطي إلى الخُمس ويسر فهمه [م. س، 129 ـ 130]؛ 13 ـ استنزال اللطف الموجود في سر الوجود. كتبه في

مراكش سنة 771هـ/ 1369م وذكر في رسالة لابن خلدون [م. س، 138]؛ 14 ـ ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، لم نحدد موقعه، قطعة منه طبعت سنة 1916؛ 15 ـ كتاب عمل من طب لمن أحب، كتبه في علم الأبدان، ألفه أثناء المنفى وأهداه للسلطان المغربي أبي سالم إبراهيم. منه نسخة في خزانة القرويين بفاس. وفي المكتبة الأهلية بباريس تحت رقم 3011، وفي المكتبة الوطنية بمدريد تحت رقم 211 [نفاضة الجراب، المقدمة]؛ 16 ـ كتاب طرفة العصر في أخبار بني نصر، حول أخبار دولة بني الأحمر في غرناطة، أورد بعض نصوص منه في الإحاطة، ربما هو «اللمحة البدرية»، ذكره السخاوي في أجزاء ثلاثة [السخاوي، الإعلان بالتوبيخ، 120]؛ 17 ـ كتاب الصيب والجهام والماضي والكهام، في جزئين [الإحاطة، ورق 433] منه نسخة في الاسكوريال تحت رقم 543، وأخرى في خزانة الزاوية العياشية جنوبي المغرب، وقطعة منه بخزانة القرويين؛ 18 ـ نثر الجمان في شعر من نظمني أيام زمان، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم 1863/ أدب؛ 19 ـ خمس أراجيز تعليمية، في أصول الفقه المعروف بعنوان «الحلل المرقومة من اللمع المنظومة» [نفاضة الجراب، 2/ 368]، لعلها هي المسماة بـ «الأرجوزة المعلومة» [م. س، 2/ 511]؛ 20 ـ كتاب اليوسفي (في جزئين)، في الطب ألفه للسلطان أبي الحجاج يوسف؛ 21 ـ أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام؛ 22 ـ كتاب تخصيص الرياسة بتلخيص السياسة في التاريخ الإسلامي؛ 23 ـ الغيرة على أهل الحيرة؛ 24 ـ حمل الجمهور على السنن المشهور؛ 25 ـ الإشارة إلى أدب السياسة في الوزارة؛ 26 ـ رسالة في غرض السياسة على شكل مقامة؛ 27 ـ رسالة في أحوال الدولة؛ 28 ـ مثلى الطريقة في ذم الوثيقة [نفاضة الجراب، 2/ 188]؛ 29 ـ حظيرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف؛ 30 ـ رسالة: مقنعة السائل عن المرض الهائل (الطاعون) سنة 749هـ/ 1348م؛ 31 ـ مفاضلة مالقة وسلا؛ 32 ـ كتاب عائد الصلة؛ 33 ـ رسائل في التصوف والموسيقى؛ 34 ـ ضميمة في الاجتماع والجغرافيا والسياسة؛ 35 ـ ديوان شعر في جزئين بعنوان «السحر والشعر» مخ. بمكتبة ميونخ تحت رقم 991 ميلر.

المصادر والمراجع

● ابن الخطيب الغرناطي، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، ج 2، نشر وتح. أحمد مختار العبادي، مراجعة عبد العزيز الأهواني، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ب. ت (نشر مشترك)؛ ● م. ن، الإحاطة بتاريخ غرناطة، طبعة القاهرة 1319 بعناية وتقديم الناشر، على مخطوطة مدريد رقم 1673، الاسكوريال؛ ● م. ن، اللمحة البدرية في الدولة النصرية، نشر وتقديم محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة 1347هـ؛ ● م. ن، رقم الحلل في نظم الدول، تونس 1316 ـ 1317هـ؛ ● ابن خلدون، المقدمة، دار القلم بيروت 1978؛ ● م. ن، التعريف بالرحلة غربا وشرقا، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1979 وفيه رسائل ابن الخطيب؛

● السخاوي، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، مطبعة الترقي، دمشق 1349هـ؛ ● العثماني، أبو عبد الله محمد بن غازي، كتاب الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، الرباط 1952؛ ● المقري، أحمد، نفح الطيب، ج 8، القاهرة 1949؛ ● سي، أي، تسيبولد C. E. Sebold، مادة لسان الدين بن الخطيب في دائرة المعارف الإسلامية، بتحرير وترجمة لجنة طبعة دار الشعب، ج 4، القاهرة 1969؛ ● الجابري، علي حسين، فلسفة الحضارة العربية (موسوعة) مخطوطة، ج 2؛ ● م. ن، فلسفة التاريخ في الفكر العربي، ن. ق. ا، بغداد 1993؛ ● التطواني، الفقيه، ابن الخطيب من خلال كتبه، ج2، تطوان 1959، دائرة المعارف الإسلامية، ط. ج، III، فصل ابن الخطيب..

د. عبد الإلاه بن عرفة
جامعة محمد الخامس ـ المملكة المغربية
د. علي حسين الجابري
بيت الحكمة ـ بغداد
د. محمد الأزهر باي
جامعة تونس
د. توفيق قريرة
جامعة منوبة ـ تونس

الخطيب، عدنان بن عبد القادر

(1332هـ/1914م ـ 1416هـ/1995م)

لغوي باحث، وقاض وأستاذ قانون. وُلد بدمشق (سوريا)، ونشأ متأثّرًا بثقافة والده عبد القادر الخطيب الدينيّة واللّغويّة. فقد كان والده عالمًا من علماء دمشق، متنوّرًا فقيهًا في العلوم الشرعيّة واللّغويّة، يجتمع في منزله الفقهاء والعلماء والمثقّفون. وقد حرص الأب على أن يحضر ابنه عدنان هذه المجالس، وأن يتتلمذ على العلماء ليأخذ عنهم أصول الدين واللغة. وكان لدى عدنان الاستعداد للتلقي، فتلقّف علوم الدين واللغة، وزاده وجود الاستعمار الفرنسي في بلاده تشبّثًا باللغة العربية والرغبة في الحفاظ عليها، لأن ذلك وجه من وجوه الدفاع عن الهُوية العربية الإسلامية وشكل من أشكال مقاومة الاستعمار الفرنسي. كما كانت دراسته في ثانوية التجهيز الرسمية ـ وهي معقل وطني آنذاك ـ رافدًا آخر غذّى وطنيته وحبّه اللغة العربية وشوقه إلى العدالة والحريّة. وأضيف ذلك كله إلى فطرته التي جُبل عليها، كالهدوء والحرص على الدقّة، وقيمه التي رُبّي عليها كالتديُّن والإنصاف والصدق واحترام أهل العلم والنُّفور من الظلم، ومهاراته التي اكتسبها كالقدرة على تذوُّق لغة النصوص وإيحاءات الكلمات ومعرفة الأساليب. ومن ثَمَّ اتجه بعد حصوله على البكالوريا إلى اختصاص يُلبّي حاجاته

ومهاراته، ويستجيب لفطرته وقيمه، فقصد جامعة بغداد لدراسة الحقوق وتخرّج فيها عام 1942، وتابع دراسته في فرنسا فنال الدكتوراه في الحقوق عام 1947.

رجع عدنان الخطيب إلى سوريا مملوءًا بالرغبة في تجسيد ما اختزنه طوال حياته السابقة. عمل أوّل الأمر معاونًا للنائب العام في مدينة حمص عام 1947، ثم انتقل إلى دمشق عام 1950 معاونًا للنائب العام أيضًا. وراح بعد ذلك يتدرّج في المناصب القضائيّة، فأصبح قاضيًا في محكمة الاستئناف عام 1953، فقاضيًا في الدائرة القانونيّة في وزارة العدل عام 1954، فمستشارًا في مجلس الدولة عام 1959، فرئيسًا لهذا المجلس 1969 ـ 1974. وكُلِّف ابتداءً من عام 1954 بالتدريس في كلّيتي الحقوق والشريعة في جامعة دمشق، ثم في معهد الدراسات العربية العالية في القاهرة. وكان في أثناء ذلك كلّه عضوًا في عدد غير قليل من اللجان القانونية، كلجنة التشريع ولجنة توحيد التشريعات الجزائية ولجنة توحيد الصيغ القانونية... وقد أوفدته الدولة عام 1953، تقديرًا لجهده وعمله، إلى أوربا الغربية على نفقة الأمم المتحدة للتعمُّق في دراسة الأساليب القضائية لمكافحة الإجرام والاطّلاع على الأنظمة الحديثة في المؤسسات العقابيّة.

انتُخِب، في أثناء عمله في القضاء، عضوًا في مجمع اللغة العربية بدمشق عام 1960. فأولاه عنايته، ووجّه إليه جهده، مما دفع المجمع إلى انتخابه أمينًا له. وقد استمر في هذا المنصب حتى وفاته عام 1995 كما انتُخب ابتداء من تأسيس اتحاد المجامع اللغوية العربية عام 1971 أمينًا مساعدًا للاتحاد، وبقي في هذا المنصب حتى وفاته أيضًا. كما انتُخب عضوًا في المجامع اللغوية في مصر والعراق والأردن، وأسهم في نشاطاتها اللغوية كلها، وحرص على تدوين وقائع المؤتمر السنوي لمجمع اللغة العربية في القاهرة، وعلى النهوض بأعباء عمله في مجمع اللغة العربية بدمشق، دون كلل أو ملل حتى اليوم الأخير من حياته يوم الأحد 24/ 9/ 1995.

اتصف عدنان الخطيب في أثناء عمله في القانون، قاضيًا ومستشارًا ورئيسًا وأستاذًا، بالنزاهة والحرص على العدالة وسيادة القانون وتقديم شروح للقانونين المدني والتجاري وقانون العقوبات. ولم يكن مقصورًا على ذلك، بل راح يُقدِّم المؤلَّفات القانونية واحدًا تلو الآخر، ويكتب في المجالات الحقوقية، ويحاضر في الندوات، ويُسهم في المؤتمرات، مما جعله مشهورًا في حقل اختصاصه، مشهودًا له فيه، معروفًا ببيانه الناصع في الحديث عنه، وبالدقة اللغوية في صوغ قوانينه. وكان ذلك مسوّغًا لنيله وسام الاستحقاق السوري عام 1955. أما عمله اللغوي فقد اتصف فيه بالحرص على إنصاف اللغويين والعلماء ورجالات الفكر، وخصوصًا المجمعيِّين منهم. فكتب عنهم، ودوَّن سيرهم العلمية والموضوعية، حتى إنه اشتهر بين زُصفائه وقرّائه بكتابة التراجم ونشرها في كتب مستقلة، إضافة إلى دعوته الآخرين إلى تدوين سير العلماء والأدباء والمثقّفين حتى لا يغيب ذكرهم وتضيع آثارهم. وكان إلى جانب عمله في التراجم

حريصًا على نقاء اللغة العربية وتخليصها من الأخطاء، ونقد الكتب المعنيّة بذلك، وتدوين قرارات المجامع اللغوية وما انتهت إليه في شؤون الألفاظ والأساليب، ودراسة المعجم العربي ولغة القانون. ومن ثَمَّ أصبح عدنان الخطيب مثالاً لذلك المزيج المتقن من القانون واللغة في إهاب الصدق والنزاهة والعدالة والاعتزاز بالحضارة العربية الإسلامية والتشبُّث بلغة الضاد. ولا شكّ في أن مؤلّفاته تُجسِّد صفاته واهتماماته وما نذر نفسه له طوال حياته.

آثاره

1 ـ شرح قانون العقوبات (القسم الخاص ـ الجرائم المخلَّة بالآداب العامة)، ج 1، سنة 1950؛ 2 ـ لغة القانون في البلاد العربية، ط 2، دمشق 1952؛ 3 ـ شرح قانون العقوبات (القسم الخاص ـ الجرائم المخلة بالآداب العامة)، ج2، دمشق 1954؛ 4 ـ الوجيز في شرح المبادئ العامة في قانون العقوبات، ج 1، 2، دمشق 1955 ـ 1956؛ 5 ـ الوجيز في شرح المبادئ العامة في قانون العقوبات، المسؤولية الجزائية، دمشق 1956؛ 6 ـ النظرية العامة للجريمة في قانون العقوبات السوري (دراسة مقارنة مع قوانين الدول العربية)، جامعة الدول العربية ـ معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة 1957؛ 7 ـ الوجيز في أصول المحاكمات، ج 1، دمشق 1957، منشورات الجامعة السورية؛ 8 ـ الشيخ عبد القادر المغربي، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق 1960؛ 9 ـ المبادئ العامة في مشروع قانون العقوبات الموحّد، دمشق 1961؛ 10 ـ موجز القانون الجزائي: المبادئ العامة في قانون العقوبات، دمشق 1963؛ 11 ـ المعجم العربي ونظرات في المعجم الوسيط، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق 1965؛ 12 ـ المعجم العربي بين الماضي والحاضر، معهد البحوث والدراسات العربية العالية ـ جامعة الدول العربية، القاهرة 1967؛ 13 ـ الإجراءات الإدارية: نظرية الدعوى في القضاء الإداري، معهد البحوث والدراسات العربية العالية ـ جامعة الدول العربية، القاهرة 1968؛ 14 ـ الأمير مصطفى الشهابي، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق 1968؛ 15 ـ المجمع العلمي العربي (مجمع اللغة العربية بدمشق) في خمسين عاما، القسم الأول ـ الأعضاء المؤسسون، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق 1969؛ 16 ـ الشيخ طاهر الجزائري: رائد النهضة العلمية في بلاد الشام وأعلام من خرّيجي مدرسته، معهد البحوث والدراسات العربية العالية ـ جامعة الدول العربية، القاهرة 1971؛ 17 ـ تاريخ القضاء الإداري ونظام مجلس الدولة في سوريا، معهد البحوث والدراسات العربية العالية ـ جامعة الدول العربية، القاهرة 1974؛ 18 ـ عارف النكدي، حياته وآثاره، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق 1975؛ 19 ـ محمد بهجت البيطار، حياته وآثاره، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق 1976؛ 20 ـ الدكتور أسعد الحكيم، دمشق 1979، مطبوعات مجمع اللغة العربية؛ 21 ـ عروبة السريان والبطريرك أفرام الأول برصوم والبطريرك يعقوب الثالث، دمشق 1980؛ 22 ـ بدوي الجبل، حياته العاصفة وحبه الذي لا يفنى، مطبوعات

مجمع اللغة العربية، دمشق 1981؛ 23 ـ وقائع مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة في عام 1985 (الدورة 51)، مطبوعات مجمع اللغة العربية الأردني، عمّان 1985؛ 24 ـ العيد الذهبي لمجمع اللغة العربية بالقاهرة، دار الفكر، دمشق 1986؛ 25 ـ وقائع مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة في عام 1986 (الدورة 52)، مطبوعات مجمع اللغة العربية الأردني، عمّان 1986؛ 26 ـ الدكتور شكري فيصل وصداقة خمسين عامًا، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق 1986؛ 27 ـ وقائع مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة في عام 1987 (الدورة 53)، مطبوعات مجمع اللغة العربي الأردني، عمّان 1987؛ 28 ـ وقائع مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة في عام 1988 (الدورة 54)، مطبوعات مجمع اللغة العربية الأردني، عمّان 1988؛ 29 ـ الدكتور عمر فرّوخ، كفاح خمسة وستين عامًا دفاعًا عن العروبة والإسلام، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق 1988؛ 30 ـ وقائع مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة في عام 1989 (الدورة 55)، مطبوعات مجمع اللغة العربية الأردني، عمّان 1989؛ 31 ـ وقائع مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة في عام 1990 (الدورة 56)، مطبوعات مجمع اللغة العربية الأردني، عمّان 1990؛ 32 ـ عبد الله كنون، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق 1991؛ 33 ـ وقائع مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة في عام 1991 (الدورة 57)، مطبوعات مجمع اللغة العربية الأردني، عمّان 1992؛ 34 ـ حقوق الإنسان في الإسلام، دار طلاس، دمشق 1992.

وإضافة إلى ما سبق خلّف عدنان الخطيب عددًا كبيرًا من المقالات والدراسات المنشورة في مجلات المجامع اللغوية بدمشق والقاهرة وعمّان؛ وفي صحف: الفيحاء، والثورة، والصباح؛ ومجلات: المحامون، وشؤون عربية، والمنهل، والتراث العربي، والخفجي، والضاد، ودنيا المجتمع، والثقافة (القاهرية). ومن المفيد الإشارة إلى أن عدنان الخطيب أشرف على جمع عدد من الكتب القانونية وطبعها، كمجموعة المبادئ القانونية التي أقرّتها المحكمة الإدارية العليا (1966 ـ 1973)، والمبادئ القانونية التي تضمنتها فتاوى الجمعية العمومية للقسم الاستشاري بمجلس الدولة في سوريا (1959 ـ 1974)، وخلاصة آراء القسم الاستشاري بمجلس الدولة في سوريا (1966 ـ 1972)، وقانون مجلس الدولة في سوريا (1974). وهناك مقابلات صحفية أُجريت مع عدنان الخطيب في مجلات الحرس الوطني، وصوت العرب، وجريدة تشرين، تفيد في الاطلاع على آرائه اللغوية.

المصادر والمراجع

● زيدان، نعمة، عالمنا العربي، 1956، ص227؛ ● من هم في العالم العربي، دمشق 1957، 1/ 217 ـ 218؛ ● العقيقي، نجيب، من الأدب المقارن، ج 2، ط 3، سنة 1976؛ ● بدر الدين، حسان الكاتب، الموسوعة الموجزة، سنة 1980، 5/ 17؛ ● الجندي، أنور، أعلام القرن الرابع عشر الهجري، مج1، سنة 1981؛ ● عياش، عبد القادر، معجم المؤلفين السوريين، 1985، ص167 ـ

169؛ ● العلاونة، أحمد، ذيل الأعلام، سنة 1998، ص 138 ـ 169؛ ● الحسيني، جعفر، مجلة مجمع اللغة العربية، سنة 1961، 36/ 326 ـ 331؛ ● قدامة، أحمد، معالم وأعلام، سنة 1965، 1/ 389؛ ● الجندي، أنور، الدكتور عدنان الخطيب فرع من الدوحة التي أينعت الفكر الإسلامي، مجلة المنهل، عدد أبريل ـ نيسان سنة 1976؛ ● هارون، عبد السلام، مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة، 59/ 203 ـ 204؛ ● نويهض، عجاج، الدكتور عدنان الخطيب، مجلة الأديب، عدد أغسطس ـ ديسمبر 1978؛ ● مجلة مجمع اللغة العربية، كلمات التأبين، دمشق 1996، 71/ 367 ـ 414.

د. سمر روحي الفيصل
جامعة العين ـ الإمارات العربية المتحدة

الخطيب، محب الدين بن الشيخ أبو الفتح

(1303هـ/1886م ـ 1389هـ/1970م)

الكاتب الموسوعي والصحفي والمؤرخ والمناضل السياسي والمنظر الاجتماعي محب الدين بن الشيخ أبو الفتح الخطيب من الرعيل الأول من النهضويين العرب. ولد في دمشق وتعلم القراءة والكتابة وتلاوة القرآن في كتاتيبها، ودخل التعليم الابتدائي في مدرسة «نخوته ترقي» أي مدرسة التربية النموذجية وحصل منها على شهادة إتمام الدراسة الابتدائية عام 1896م، والتحق بمكتب عنبر والتعليم فيه باللغات التركية، والعربية، والفرنسية. وقد اضطرته وفاة والده إلى ترك الدراسة، فأخذ يعمل في نسخ الكتب في المكتبة الظاهرية حيث كان والده أمين سرها منذ تأسيسها 1879م وشرع بدراسة العلوم الشرعية على يد عدد من علماء دمشق لمدة سنتين، وانضم إلى حلقة الشيخ طاهر الجزائري الذي كان مفتشا عاما لجميع دور الكتب في الولايات السورية وقد ضمت عبد الرزاق البيطار، وسليم البخاري، ورفيق العظم، ومحمد كرد علي، وعبد الحميد الزهراوي، وسليم الجزائري، وشكري القوتلي، وعبد الوهاب المليحي الإنكليزي، وفارس الخوري، وكان محب الدين أصغر عضو فيها، فاستفاد من ذلك لتوسيع ثقافته، ثم عاد للالتحاق بمكتب عنبر للحصول على شهادة الدراسة الثانوية، وقد تعلم اللغة العربية على يد الشيخ أحمد نويلاتي في مدرسة عبد الله باشا العظم أحد حصون الدعوة إلى الإصلاح. وكان ملازما للشيخ طاهر الجزائري فتعرف إلى جمال الدين القاسمي وآخرين من الإصلاحيين، وتشبع بأفكارهم، وأحب المطالعة في دار الكتب الظاهرية، وفي غرفة جمعية القديس يوحنا الدمشقي الأرثوذكسية التي كانت تأتيها المجلات

المصرية - المقتطف، والهلال، والضياء - وقد أحس في هذه المرحلة بالفارق بين وضع الأمة العربية والأمم الأخرى، وبدأ وعيه القومي يتشكل وينمو ويتميّز، واطلع على مؤلفات ابن تيمية، فتكوّنت لديه عقيدة ترسخت عبر السنين «بأنّ للعرب والمسلمين رسالة عليهم القيام بها في كل زمان ومكان، فظل مؤمنا بها يدعو إليها أقرانه ومعارفه، وبذل كل جهده وفكره في سبيلها وكرس حياته من أجلها»، واطّلع كذلك على أفكار الرعيل الأول من النهضويين العرب (أم القرى لعبد الرحمٰن الكواكبي، والإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية للإمام الشيخ محمد عبده ورده على المستشرق هانوفر)، وكان يحث زملاءه على دراستها مثل الأمير الشهيد عارف الشهابي الذي أعدمه جمال باشا 1916م، وصلاح الدين القاسمي، والدكتور صالح قنباز، وسيف الدين الخطيب من مؤسسي المنتدى الأدبي في الآستانة وأحد شهداء 6 آيار 1916م، ثم بدأ ينشر مقالاته في مجلة ثمرات الفنون لأحمد حسن طبارة.

أدّى اعتناقه لهذه الأفكار إلى ملاحقة إدارة المعهد التركية له والضغط عليه مما اضطره للانتقال إلى بيروت والالتحاق بمدرستها الثانوية الأميرية للسنة النهائية والحصول على شهادة الدراسة الثانوية لعام 1905م، وليسافر بعدها إلى العاصمة اسطامبول ليلتحق بالجامعة وليسجل في كليتي الحقوق والآداب معا، وحرص من هناك على إقامة صلة منتظمة مع محمد كرد علي الذي هاجر إلى مصر وأقام فيها وأسس جريدة المقتبس، وكان يزوده بالصحف العربية الصادرة في القاهرة، فيوزعها على زملائه العرب الذين شعر بأنّهم ضعفاء في اللغة العربية، والوعي القومي والتاريخ العربيين، فشكل حلقة لدراسة العربية وآدابها بالتعاون مع الأمير عارف الشهابي لحفظ مقتطفات من الشعر والنثر، والاطلاع على الثقافة والتاريخ العربيين، ثم قام بتأسيس جمعية النهضة العربية السرية في أيلول (سبتمبر) 1906، كما عمل على تجميع الشباب العربي في مقهى يبث الأغاني العربية لعبده الحامولي، وسلامة حجازي، وصالح عبد الحي. فكشفته الرقابة الضبطية الحميدية، وحمته صلة نسب مع المفتش المكلف بقضيته، فأفلت من الاعتقال، واضطر تحت تأثير هذه الظروف القبول بوظيفة ترجمان في القنصلية البريطانية في الحديدة باليمن 1907، وترك الجامعة إلى حين، وقد عاد بعد ثورة الاتحاد والترقي 1908 لمتابعة دراسته، إلّا أنّ الردة عام 1909 والقضاء عليها وسياسات الاتحاديين المتعصبة ضد العرب اضطرته للهجرة فارا إلى القاهرة ولم يكمل دراسته، واجتمع هناك في طريقه إلى الحديدة بأعضاء جمعية الشورى العثمانية التي كانت تطالب بالحكم النيابي والعودة إلى الدستور ووضع نهاية للحكم الفردي بزعامة عبد الله جودت الأديب التركي المعروف صاحب مجلة اجتهاد، ورفيق العظم اللذين كانا يريدان توسيع نشاط الجمعية في البلاد العربية، فأسس محب الدين الفرع الرابع عشر للجمعية في الحديدة بالتعاون مع شوقي المؤيد العظم البكباشي في الجيش العثماني وعدد آخر من الضباط الأحرار العرب المبعدين إلى اليمن، ومع هؤلاء وعن طريق هذه الجمعية عمل على نشر دستور 1908 والقرارات بإعادة الحياة

الدستورية في الدولة بعد ثورة 1908 ونشر أفكار النهضة العربية والتعليم الحديث وعمل على تأسيس مطبعة جزيرة العرب أول مطبعة في اليمن.

وعندما عاد إلى دمشق بعد الثورة فوجئ بأنّ دولة الاتحاديين تأبى أن تعترف بجمعية النهضة العربية محتجة بأنّ كلمة العربية غير مرغوب فيها، وأجبرت الجمعية على استبدالها بالسورية لتصبح جمعية النهضة السورية بدل العربية. وأصدر جريدة فكاهية «طار الخرج» واضطر إلى الهجرة ثانية إلى القاهرة هربا من الملاحقة والاعتقال. وهناك أقام صلات واسعة مع رجال الفكر والأدب مثل مصطفى صادق الرافعي، وأحمد تيمور باشا، والشيخ علي يوسف صاحب جريدة المؤيد عن طريق الشيخ طاهر الجزائري وعمل في المؤيد فيما يشبه رئيسا لتحريرها فنشر مقالاته ودراساته عن الطورانية والاتحاد والترقي والعصبة التركية ضد العرب، وأسس المكتبة السلفية وقام بنشاط سياسي وثقافي مكثف لتوضيح ونشر الفكرة القومية. وتأسست الجمعية العربية الفتاة 1909 وكان العضو الثامن والعشرين أو السادس والعشرين فيها ثم ممثلها في القاهرة ومنفذا لقراراتها التي لها علاقة بحزب اللامركزية الذي تأسس في القاهرة 1913 وكان عضو مجلس إدارته والسكرتير الثاني له وواسطة العقد في الاتصالات التي هيأت لانعقاد مؤتمر باريس العربي الأول 1913. واشتغل بالصحافة والتدريس في مدرسة «الدعوة والإرشاد» التي أسسها الشيخ رشيد رضا 1913، وظلّ على علاقة بعبد الغني العريسي القيادي البارز في «العربية الفتاة» من خلال مراسلات منتظمة حول أيديولوجيا القومية العربية وخطّة عمل وسياسات الجمعية والموقف من سياسات التتريك والاضطهاد المنهجي للقوميين العرب مع أنّهم وكما كتب لم يكونوا يعملون للانفصال عن الدولة العثمانيّة.

اندلعت الحرب العالمية الأولى 1914 وكانت آراء القوميين متفقة بضرورة الوقوف على الحياد، ولكن تصاعد القمع والمشانق التي علق عليها جمال باشا (السفاح) أحرار العرب جعلت موقف الجمعيات العربية يتغير، إذ أخذ قادتها المدنيون والعسكريون يتحدثون عن ضرورة أخذ المبادرة وإعلان الثورة والاستقلال وباشروا في البحث عن حلفاء لهذه الغاية. فأوفد محب الدين إلى الخليج العربي للاتصال بعبد العزيز بن سعود أمير نجد والأحساء، وبطالب النقيب زعيم العراق الجنوبي، لضمهما إلى جهود الثورة، ولكن الإنكليز قبضوا عليه قبل تنفيذ مهمته وظلّ معتقلا ما يقارب من الستة أشهر، ثم أطلق سراحه ليعود إلى القاهرة. وبعد إعلان الثورة العربية من قبل شريف مكة الحسين بن علي 1916م، بعد مفاوضات طويلة مع الإنكليز ووعود وعهود باستقلال الولايات العربية عن الدولة العثمانية، وإقامة دولة عربية في المشرق العربي بزعامة الحسين، سافر محب الدين إلى الحجاز ملتحقا بالثورة ليؤسس جريدة «القبلة» الناطقة باسم الثورة وليتولى رئاسة تحريرها والمطبعة الأميرية لحكومة الحجاز العتيدة. ولكنه أصيب بخيبة أمل بالشريف حسين قائد الثورة الذي لم

يكن يمثل تطلعات النهضويين العرب الذين أسلموه القيادة، وحكم عليه جمال باشا غيابيا بالإعدام. وعاد إلى دمشق بعد دخول الجيش العربي بقيادة فيصل إليها ليصبح عضوا في اللجنة المركزية للعربية الفتاة وليتولى تحرير الجريدة الرسمية الحكومية، وساهم في تأسيس حزب الاستقلال الواجهة التي عملت من خلاله «العربية الفتاة» على الساحة السورية ليكوّن تحالفا واسعا للثوار والأعيان الذين ظلوا موالين للدولة العثمانية في إطار مصالحة وطنية لمواجهة مؤامرات الإنكليز والفرنسيين واتفاقيات سايكس - بيكو ووعد بلفور التي عقدت بينهما.

ولما اشتدت الضغوط على الملك فيصل (المتوج على سوريا 1920 من قبل المؤتمر السوري الوطني المنتخب) من قبل الحلفاء الإنكليز والفرنسيين واضطراره لتوقيع اتفاقية مع كليمنصو رئيس وزراء فرنسا حينذاك يعترف فيها بالانتداب الفرنسي على سوريا، عمل محب الدين مع الشيخ كامل القصاب على تأسيس اللجنة الوطنية العليا واللجان الفرعية لمعارضة هذه الاتفاقية وتجنيد الشعب للمقاومة منتقدا سياسة فيصل المهادنة ومحاولته تأسيس الحزب الوطني السوري من أعيان دمشق الرجعيين وتسليمهم رئاسة المؤتمر الوطني السوري المنتخب.

وبعد معركة ميسلون هرب إلى القاهرة، وهناك استقر ليعمل من خلال حزب الاتحاد السوري الذي أسسه الشيخ كامل القصاب، فعمل محررا في الأهرام حتى أواخر 1925، وأسس مجلة الزهراء وتولى تحريرها ومجلة الفتح الإسلاميّة، كما تولّى رئاسة تحرير مجلة الأزهر لمدة وجيزة، ثم عمل على إنشاء جمعية الشبان المسلمين في الوطن العربي والإسلامي وصار أمين سر لها.

وبعد أن تشكلت جمعية الإخوان المسلمين تولى رئاسة تحرير مجلتهم. وظل في القاهرة يعمل في الصحافة والتأليف ككاتب عربي إسلامي متنوع المواهب والنشاطات وموسوعي الثقافة. كتب في السياسة والتاريخ، والإسلام، والفقه، وترجم عن التركية والفارسية والفرنسية، وقام بتحقيق العديد من كتب التراث بما يزيد عن الثلاثين عنوانا ساهم فيها تأليفا وتدقيقا وتصحيحا من أهمها الحديقة في أحد عشر جزءا، ومذكراته عن الجيل الذي عاصر بعث العروبة، الذي صدر بعد وفاته بعنوان: «محب الدين الخطيب حياته بقلمه» تروي أحداث عصره وحركته عن مطبوعات جمعية التمدن الإسلامي في دمشق 1979 بدون أوراقه التي تحتوي معلومات هامة جدا وتضمنت أوراق الجمعيات التي أسسها أو شارك في تأسيسها أو عضويتها، كما تضم برامج الأحزاب والنظم الداخلية إلى جانب العديد من النشرات والبيانات الحزبية وبخاصة أوراق العربية الفتاة ومحاضر جلساتها العلنية والسرية وسجل أعضائها والصرخات الثلاث الأولى إلى الاتحاديين، والثانية إلى أبناء العرب، والثالثة بالدعوة إلى الانفصال والثورة بالإضافة إلى الأوراق العسكرية التي تتضمن أربع وثائق حول استقلال البلاد العربية وقد ضمت خزائن كتبه عشرين ألف مجلد تغلب فيها النوادر. فهو مفكر عربي إسلامي تجسدت فيه ملابسات معادلة العروبة

والإسلام، أي القومية العربية والإسلام كما حاول النهضويون صياغتها كإيديولوجيا ثورية لبناء الدولة العربية الحديثة، وكان متأثرا بفكر الكواكبي حول زعامة العرب للبعث الإسلامي، وعندما فشلت الثورة العربية في تحقيق أهدافها في تأسيس دولة عربية إسلامية حديثة، وخاب أمله في الشريف حسين وفي رفاقه الذين انخرطوا في المنافسة على الزعامة في إطار الدويلات التي أنشأها المستعمرون، عمل على إيجاد مؤسسات بديلة وجمعيات إسلامية تقوم مقام الجمعيات العربية النهضوية التي تلاشت بعد انهيار مشروعها النهضوي. ظلّ بعيدا عن صراعات الزعامة متعففا عن المال والجاه مخلصا لأفكاره وقيمه ومثله.

محمد سعيد طالب

دمشق

ابن خطيب الناصرية، علاء الدين أبو الحسن علي بن محمد

(774هـ/1372م - 843هـ/1439م)

علاء الدين، أبو الحسن علي بن محمد بن سعد الجبريني، المعروف بابن خطيب الناصرية. ولد بحلب سنة 774هـ. ودرس فيها، وطوّف في بلاد الشام ومصر طلبًا للحديث والتفسير حتّى اشتهر بهما. وكان حفِظ القرآن وكتبًا، مثل «المنهاج الفرعيّ»، و«الأربعين المخرّجه من مُسند الشافعي»، و«ألفيّة الحديث» للعراقي (ت 826هـ)، و«ألفيّة النحو» لابن مُعْطي (ت 628هـ)، وانتقل صُحبة أبيه إلى بيت المقدس فقرأ ودرس الفقه والقراءات والنحو والأصول، ودرس العربية في بلده وحماه، وطرابلس وأخذ الحديث ببعلبك، ودخل القاهرة وأخذ إجازات الشيوخ، وسمع الشعر بطرابلس وكتبه، وكتب لكاتب سرّها، بل تولّى قضاءها، ووُلي قضاء حلب، والخطابة والإمامة بجامعها الكبير، ودرّس وأفتى بحضور الفقهاء، وحدّث بحلب والقاهرة، وأخذ عنه الأئمّة، وكانت دروسه حافلةً يغصّ الجامع بالحضور لمتابعتها، وهو يدرّس دروس اجتهاد لا نقْل.

وإلى جانب وظائفه التي شغلها ودروسه وفتاويه، وسفراته الكثيرة بين الشام ومصر، كان يدأب على الكتابة والتصنيف، ويميل إلى التاريخ، فكان كتاب «بغية الطلب في تاريخ حلب» لابن العديم الحلبي (ت 660هـ) مثار إعجابه لما فيه من تراجم الحلبيين والعابرين بحلب أو الغرباء الذين سكنوها، فاهتمّ بموضوعه، وأراد أن يُكمل كتاب سَلفه، فاعتنى بأخبار بلده وتراجم أعيانها، وجمع لها تاريخًا حافلاً ذيّل به على «بغية الطلب»، وبدأ سلسلة الذيول التي وُضعت عن حلب

ووفيات أعيانها، التي تعاقب المؤرّخون الحلبيّون من بعده على تأليفها.

استفاد ابن خطيب الناصرية من الكثير من مؤلّفات ابن حجر العسقلاني، وقد طالع ابن حجر مسوّدته في حلب، ثم طالع نسخة ممّا كتبه المؤلّف لكمال الدين بن البارزي (856هـ)، ووضع على هوامشها عدّة استدراكات. وطالع السخاوي الكتاب (ت 902هـ) ونبّه على مواضع مهمّة فيه، وكان نظيف اللسان والقلم في التراجم، لكنْ فاته مما هو على شرطه خلْق لم يذكرهم.

سمّى المؤلّف كتابه «الدرّ المنتخب في تكملة تاريخ حلب»، ووضع له مقدّمة قال فيها إن ابن العديم رتّب كتابه «بغية الطلب» على حروف المعجم ومسوّدته نحو أربعين جزءًا، ولو بيّضه لجاء كذلك، ولكنّه مات قبل إكمال تبييضه، وأحببت أن أذيّل عليه ذيلاً مختصرًا، وقبل الخوض في ذِكر الأسماء صدره بفصول: الأوّل في حلب وأسمائها ومَنْ بناها وألقابها، الثاني في ذكر حدودها وأعمالها .الثالث في ذكر فضلها وخصائصها. الرابع في فتحها .الخامس في نهرها وقنيّها ومساجدها ومعابدها.. وكنت وقفت منه على بعض أجزاء من المبيّضة قبل الفتنة التمُرية، ثم أذكر من هو منها أو من بلادها.. وبدأ بمن كانت وفاته في سنة 658هـ. وهي السنة التي أخذ فيها التتر حلب، ورتّبت التراجم على حروف الهجاء في الاسم واسم الأب والجدّ وإنْ علا مهما أمكن، وكذلك في حروف الاسم واسم الأب وإنْ علا، ليكون أسهل للكشف، ولم أدّع الاستيعاب بل ما وقفت عليه أو علمت أو غلب على ظنّي أنه دخل حلب أو معاملتها، أو كان من أهلها أو وُلدها. وأمّا الملاحم فإنّي أذكرها باسم من اشتهرت به، وكذلك النوازل والنوادر أذكرها في ترجمة من توفّي في السنة التي اتفقت فيها.

خصّص ابن خطيب الناصرية فصلاً ممتعًا عن عمارة حلب وتحصينها من أسوار وأبواب، وأتى بمعلومات جديدة ونادرة، ووصف المواقع وصْف خبير وشاهد عيان، ووصل بمعلوماته عنها حتّى أيامه، ونصّ على تاريخ سنة 831هـ وتوضيحًا لأسلوبه، في عرض مادّة كتابه، فهو يذكر صاحب الترجمة، ونشأته، وتلقّيه العلوم عن الشيوخ، ورحلته إن كان له ذلك خارج بلده حلب، ويأتي بالأحاديث التي رواها بالسند المتّصل، ويذكر تلامذته إن كان له تلاميذ، أو آثاره الأدبية، أو نماذج من شعره إن كان له نظم. ثمّ يؤرّخ لوفاته، فإن صادفت وفاته حدوث واقعة مهمّة في السنة ذاتها، فإنه يجد الفرصة للانتقال إلى تسجيل الحدث بكل تفاصيله المتوفّرة، مستعينًا بالمصادر التي سبقته، ومن ذلك وفاة إبراهيم بن أحمد بن النحاس الأسدي في سنة 744هـ وفيها: «كانت الزلزلة العظيمة المزعجة العميمة» فنقل خبرها عن ابن الوردي (ت 749هـ).

وعند تأريخه وفاة إبراهيم بن بلبان الشهير بـ «قَمْياز» في سنة 777هـ ذكر الغلاء بالشام في تلك السنة، نقلاً عن ابن حبيب الحلبيّ (ت 779هـ) في «تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه»، وعند تأريخه لوفاة إبراهيم بن علي بن العجمي في سنة 749هـ. ذكر خبر الوباء

بالطاعون والفناء العظيم الذي عمّ البلاد في تلك السنة. وهكذا. فكأنّه اتّخذ من تراجم الوفيات متكأً للوصول إلى تاريخ الحوادث والوقائع، معتمدًا على مصادر كثيرة صرّح بها، وينقل عن أكثر من مصدر في الترجمة الواحدة، وزاد عليها تراجم المتوفّين في أيامه، ومن المؤسف أنّ مشروعه الضخم لم يكتمل، إذ لم يتسنّ له أن يذكر سوى ستة حروف من المعجم، أي من حرف الألف حتّى آخر أسماء الحاء. ولا يزال هذا العمل الموسوعيّ مخطوطا إلى الآن.

وأظهر ابن خطيب الناصرية في تنوّع موضوعات مصنّفاته أنه متعدّد المواهب، فهو مفسّر ألّف في التفسير، ومحدّث شرح الحديث، وفقيه صنّف في الفقه، مع كثرة المذاكرة والاستحضار للسيرة النبوية ولكثير من الخلافيات.

آثاره

1 ـ الطيبة الرائحة في تفسير الفاتحة؛ 2 ـ سيرة المؤيّد شيخ المحمودي؛ 3 ـ شرح حديث أمّ زرع؛ 4 ـ شرح على كتاب الأنوار للأردبيلي؛ 5 ـ مجموع فوائد؛ 6 ـ الدرّ المنتخب في تكملة تاريخ حلب.

المصادر والمراجع

● حاجي خليفة، كشف الظنون، 249، 949؛ ● بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، 4/ 77؛ ● تدمري، عمر عبد السلام، موسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان الإسلامي، بيروت، 1411هـ/ 1990م، 14/ 67 ـ 70.

د. عمر عبد السلام تدمري
الجامعة اللبنانية ـ طرابلس ـ لبنان

ابن خفاجة، أبو إسحاق إبرهيم بن أبي الفتح

(450هـ/ 1058م ـ 533هـ/ 1139م)

ابن خفاجة أبو إسحاق إبرهيم بن أبي الفتح بن عبيد الله، أو عبد الله، فالجد الأوّل خفاجة يلتقي في الاسم مع فرع من قبيلة بني عامر العربية، لكن ابن الأبّار ينسبه إلى قبيلة هوّارة البربرية المنتشرة بجهة بجاية.

لا نعرف عن أبيه وأجداده شيئا سوى أنّ أبا الفتح والد الشاعر كان صاحب ضياع بجزيرة شقر ورثها عنه ولده إبراهيم فكفته مؤونة التكسب بالشعر لدى الملوك والأمراء، ووفّرت له مجالا للتعامل المباشر مع الطبيعة تعاملا يوميا محسوسا.

ولد إبراهيم سنة 450هـ/ 1058م وتوفّي يوم الأحد 26 شوال 533هـ/ 1139م، عرف الشاعر أبو إسحاق في طور من حياته فترة سكوت عن قول الشعر واشترك معه فيها عدد من شعراء جيله مثل عبد المجيد بن عبدون،

وابن عبد الغفور الكلاعي صاحب كتاب الإحكام، وابن بسام صاحب الذخيرة. ممّا يدل على أنّ هذا السكوت كان حادثا له معنى في حياة هؤلاء الشعراء، لذلك يمكن تقسيم حياة ابن خفاجة إلى ثلاث فترات:

- فترة ما قبل السكوت عن الشعر.
- فترة السكوت.
- فترة ما بعد السكوت.

فالفترة الأولى تمتدّ تقريبا من تاريخ ولادته إلى سقوط ملوك الطوائف 484هـ/ 1091م. لا نعرف عنها سوى معلومات متفرّقة. منها أنّه تردّد على الكتّاب لحفظ القرآن ودرْس الأدب والحساب. وكان من أساتذته أبو بكر أحمد بن الجنان المرسي قاضي بلنسية، وأبو إسحاق إبراهيم بن صواب (ت 510هـ/ 1115م) من أهل شاطبة، اهتمّ بتعليم النحو واللغة والأدب ثمّ تعلّم الطب وأقام بطنجة ثم بفاس ثمّ بمكناس سنة 206هـ وتوفي هناك. ولابن خفاجة رسالة إليه تفيض مودّة.

ومن أساتذته أبو بكر محمد بن أسود الغساني (ت 536هـ) من شاطبة وتولّى قضاء مرسيّة مدة واشتهر بشدّته وصرامته. ويبدو أنّ ابن خفاجة حسب شهادة صديقه ابن خاقان قد أقبل في طور أوّل على الفقه وأبدى فيه نجابة كان يمكن أن تؤهله للبروز فيه، إلّا أنّه غيّر اتّجاهه إلى الشعر والأدب ربّما تحت تأثير أجواء عصر الطوائف ومشاغلهم الأدبية. فابن خفاجة رغم أنّه كان يتمتّع بسعة من العيش لم يكن بمعزل عن ملوك الطوائف، إذ يحتوي ديوانه قطعتين أولاهما [رقم 115] قالها في مجلس المعتصم بن صمادح بالمريّة. وتعلّقت بوصف تمثال جارية قدّمها المعتصم وطلب من الشعراء وصفها، واستهلّ ابن خفاجة قطعته بالمدح. والقطعة الثانية [رقم 218] ينوّه فيها بجوهرة جارية المعتمد بن عباد حين راسلت سيدها واحتالت لإخفاء اسمها عليه في الرسالة، نُرجّح أنّ ابن خفاجة عند الحادثة كان على علاقة بالمعتمد وأنّ القطعة كانت موجّهة إليه، ولعلّها كانت أكثر من بيتين وإلّا فما الداعي للتغنّي بجوهرة؟ وما أبعدهما عن مشاغل ابن خفاجة! فالحادثتان تشيان بأنّ ابن خفاجة في فترة شبابه هذه لم يعش بمعزل عن أجواء ملوك الطوائف اللاهية. وتمثّل القطعتان من حيث الموضوع نموذجا ممّا كان يملأ دنيا هؤلاء الطوائف. ولئن صحّ أنّه لم يوقف شعره عليهم فإنّه ـ حسب شهادة صديقيه ابن خاقان وابن بسام ـ قد جرى في حياته في هذا الطور على هذا النمط الحضاري الأندلسي الذي ساد في عصر الطوائف وهو اغتنام فرص العيش وطلب المتعة واللذة حتّى في المجون. وفي شعره بعض أصداء هذا النمط الحضاري الأندلسي، تشيد به وتدعو إليه [القصائد، 61، 86، 125، 140، 156، 245]. وفي هذه الفترة عَبَر ابن خفاجة إلى إحدى مدن المغرب الأقصى سنة 483هـ/ 1090م والتقى في عودته بصديقه عبد الجليل بن وهبون. ولا نعرف شيئا عن دواعي هذه الرحلة. وفي نفس الفترة زار ابن خفاجة أيضا تميم بن المعزّ الصنهاجي بالمهدية بإفريقية في تاريخ مجهول ومدح من حاشيته الشاعر أبا الحسن بن الحداد (ت 490هـ/ 1097م).

خلال هذه الفترة سقطت طليطلة في أيدي النصارى (478هـ/ 1085م) فانتصر يوسف بن تاشفين على ألفونس السادس في واقعة

الزلاقة (479هـ/ 1086م)، فاهتزّت الأندلس لهذين الحدثين وقال فيهما الشعراء ما قالوا. ولم يقل ابن خفاجة فيهما شيئًا، بل هو لم يقل شيئا حتّى في سقوط مدينته بلنسية في يد القنبيطور سنة 487هـ، بينما نجده يرثي في أكثر من قصيدة صديقه ابن ربيعة ومن توفّي معه أثناء حصار هذه المدينة الذي دام عشرين شهرا. ولم يقل شيئا في حال المدينة المحاصرة أو إثر سقوطها، ولا أثر لحصار المدينة في تلك المراثي. وينبغي أن ننتظر سنة رجوعها إلى المسلمين 495هـ/ 1102م لكي تجود قريحته بقطعة وقصيدة: الأولى [رقم 285] في التفجع على حالها بعد أن أحرقها العدو، والثانية [رقم 154] في الإشادة بقرب استرجاعها من النصارى.

وكان لابن خفاجة أصدقاء عاش معهم شبابه منهم الماجن الخليع كالفتح بن خاقان (ت 529هـ)، وعبد الجليل بن وهبون (ت 483هـ)، ومنهم الجدّي الوقور كابن أبي تليد (ت 510هـ)، وابن ربيعة (ت 487هـ)، وأبو عبد الله محمد بن عثمان (ت 533هـ)، وابن عائشة. وقد حرص ابن خفاجة على إيراد عديد القصائد المتعلّقة بهم ممّا كان من قبيل الاخوانيات العادية أو الرثاء، ويبدو أنّه قد أهمل ما كان من قبيل اللهو والمجون الصريح، وأبدى سخطه على صديقه ابن خاقان عندما ذكر هذا الجانب من فترة شبابه وتبرّأ من ادعاءاته [القصائد، رقم 151 - 152] يبدو أنّ ابن بسّام يؤكّد لنا أيضًا ما ذكره الفتح. ونعتقد أنّ جانب اللهو والمجون ربّما كان هو الذي شغل ابن خفاجة عن الزواج.

أمّا فترة السكوت عن قول الشعر فربّما امتدّت تقريبا من سقوط ملوك الطوائف (484هـ/ 1091م) إلى وفاة يوسف بن تاشفين (500هـ/ 1106م). وفي هذه الفترة وقع الطعن في النّمط الحضاري الأندلسي القائم على ضروب من التحرر والخرق للقيم الدينية، فاتّهم ملوك الطوائف في أخلاقهم وسياستهم وخُلِعوا. ففقد الشعراء أنصار الشعر حينئذ وعمّت التهمة كل الأندلسيين وخصّت الشعراء لما في شعرهم من ضروب التحرر الفنّي المتّصل بذلك النمط الحضاري الأندلسي. وصاروا منبوذين من قبل رجال الدين وأولي الأمر الجدد، ذوي الثقافة الدينية المتحفّظة في طور انبعاثها وتحرّكها.

لهذا سكت عديد الشعراء عن قول الشعر. قال ابن خفاجة: «ولمّا انصدع ليل الشباب عن فجره.. أضربت عنه (الشعر) إضراب راغب عنه، زاهد فيه..»، ولكن سكوت ابن خفاجة عن الشعر لم يكن كلّيا: «وربّما نشأ ذكره أثناء كلام ودار به مقال في مقام فعّال...». ولابن خفاجة قطع وقصائد عديدة قالها في هذه الفترة [أرقامها 154، 285، 133، 165، 175...] كلّها في مواضيع جدّية. فكأنّ السكوت قد تعلّق أوّلا بشعر المجون وما إليه ثمّ كان وقفة تأمّل بحثا عن أفق انتظار جديد لفنّ الشعر يلتئم وميول سادة الأندلس الجدد وثقافتهم. فكان من أبرز سمات شعره في أمراء المرابطين في الفترة الموالية توظيف المعجم البدوي الصحراوي على نحو لافت.

أمّا فترة ما بعد السكوت عن الشعر فتبدأ تقريبا مع تولّي علي بن يوسف بن تاشفين الحكم بعد موت أبيه سنة 500هـ.

ويتميّز هذا الحاكم المرابطي عن أبيه بكونه ولد بسبتة وعاش شبابه في ربوع الأندلس وتلقّى ثقافتها وتشبّع بها، لذلك تغيّرت في عهده النظرة إلى أدباء الأندلس وشعرائها، رغم استمرار نفوذ الفقهاء. وعقد الكثير منهم الصلة بالنظام الجديد سواء بمراكش أو بالولايات الأندلسية بما في ذلك الشعراء الذين سكتوا عن الشعر، أمثال: عبد المجيد بن عبدون، وابن خفاجة، وابن عبد الغفور... وغيرهم، فزخرت حياة ابن خفاجة في هذه الفترة بالعلاقات المتنوّعة، السياسية، والأدبية، والعلمية واشتهر أمره أديبًا شاعرا ناقدًا. ففي سنة 505هـ تولّى ابن خفاجة كتابة رسالة «عن أهل البلد» (مرسية) إلى أمير المسلمين يشكره على إرجاع القاضي أبي أميّة بن عصام إلى خطّة القضاء.

وكتب ابن خفاجة إلى الأمير أبي الطاهر تميم بن يوسف قصيدتين أولاهما [رقم 1] عندما كان بتلمسان (504هـ) والثانية [رقم 50] لما ولي مرسية يطلب فيها الرعاية والرفق بالرعية.

ولابن خفاجة قصيدة [رقم 194] «يصف فيها معتركا بجهة قرطبة في مدة أبي عبد الله بن الحاج»، وهذا الأمير كان يحكم قرطبة منذ عهد يوسف بن تاشفين و«تلكأ في مبايعة علي بن يوسف ومالأه أهل قرطبة سنة 500 فنُكب وقُبض عليه»، ثمّ رضي عليه علي بن يوسف وولّاه ولايات أخرى إلى أن توفّي سنة 508هـ. فهذه القصيدة ربّما تعود إلى فترة السكوت عن قول الشعر.

وكان لابن خفاجة اتّصال بأبي بكر بن الحاج نجل محمد بن الحاج الذي تولّى بلنسية سنة 503هـ فكتب إليه رسالة تتضمّن قصيدة مدحية [رقم 139].

وكان لابن خفاجة في هذه الفترة علاقة بأبي بكر بن تفلويت (ت 510هـ) ابن عم علي بن يوسف وزوج أخته، له فيه قصيدتان: الأولى مدحية [رقم 2] تعد 99 بيتًا، والثانية [رقم 128] يطلب منه فيها رفع ضيم بعض المتبحّرين عليه، ورثاه بقطعتين [رقم 58 - 59] عارض بهما قطعة لابن باجة في رثائه أيضًا.

وأكثر ما اتّصل به ابن خفاجة من أمراء المرابطين الأمير أبو إسحاق إبراهيم بن يوسف (ت 516هـ). ولّاه أخوه علي بن يوسف على سبتة ثمّ على مرسية ثمّ بلنسية سنة 510هـ، ثمّ على إشبيلية سنة 514هـ، وأهدى له الفتح بن خاقان كتاب القلائد. اتّصل به ابن خفاجة في شاطبة سنة 510هـ وأنشده في حفل عيد الفطر - حسب شهادة ابن خاقان وبحضوره - القصيدة رقم 9، بينما يقول في الديوان «وكتب بها إلى الأمير الأجلّ...».

وظلّ ابن خفاجة يتّصل به كتابة أو مباشرة، واقترح عليه الأمير مرّة أن يقول فيه شعرًا يفتتحه بالغزل ويكون على عروض قطعة ابن باجة في رثاء ابن تفلويت. ففعل [رقم 60]، وتواصلت العلاقة بين الشاعر والأمير حتّى بعد انتقاله إلى ولاية إشبيلية سنة 514هـ [الأرقام 57، 49، 233].

وتعدّدت علاقات ابن خفاجة في هذه الفترة وتنوّعت فصدرت رسائله شعرا أو نثرا في أغراض مختلفة إلى كثير من أدباء الأندلس وعلمائها وفقهائها منهم أستاذ النحو واللغة

إبراهيم بن صواب (ت 510هـ)، وقاضي الجماعة بقرطبة أبو عبد الله بن حمدين [رقم 173]، وأبو بكر بن مفوّز [رقم 131 ـ 159] (ت 505هـ)، وأبو العلاء بن زهر (ت 525هـ)، وأبو مروان بن أبي الخصال [رقم 239] عقب التقائهما بحضرة شاطبة وغيرهم.

ويتبيّن من كل هذه العناصر من حياة الشاعر أنّ ابن خفاجة لم يكن شاعر بلاط بالمعنى المعهود للعبارة وإنّما كان شاعر علاقات.

وممّن وصلته رسائلهم فراجعهم، شعرا أو نثرًا مما يدخل في الاخوانيات ويدل على اشتهار ابن خفاجة أديبًا شاعرا ناقدا، أبو جعفر بن سعدون [رقم 226]، وأبو عامر بن بتّق، والأديب المترسّل أبو عبد الله بن أبي الخصال (465 ـ 540هـ) كاتب علي بن يوسف [رقم 119 ـ 244]، واللغوي المتفلسف ابن السيّد البطليوسي (ت 521هـ). وقد أفاد ابن خفاجة من شرحه أشعار المعرّي في مستوى أسلوب لزوم ما لا يلزم وبعض التأمّلات إلخ...

وفي هذه الفترة تكاثر عليه طلاب شعره من مختلف أنحاء الأندلس لاشتهار طريقته في وصف الطبيعة خاصّة حتّى لقّب بـ «جنّان الأندلس».

وحوالى 515هـ ألّف ابن خفاجة ديوان شعره استجابة لطلب إخوانه. وقد وضعه من غير ترتيب ووعد ـ إن نسأل الله في عمره ـ أن يجعله على حروف المعجم. ولكنه لم يفعل. ومهما كانت الصورة التي كان يمكن أن يصبح عليها الديوان ـ لو فعل ـ فإنّ طرافته تكمن في هذه الصورة الأولى التي وصلنا عليها إذ هو يجمع بين المنظوم والمنثور على نحو لم يحصل قط في أي ديوان من الشعر العربي.

أمّا المنظوم فقد توزّع على أغراض المدح والرثاء والغزل والاخوانيات وخاصّة الوصف، وتعلق الوصف خاصّة بالطبيعة، طبيعة الأندلس لا سواها. ممّا يميّزه عن غيره من شعراء المشرق بمن فيهم الصنوبري. وهذا لا يمنع من كونه يحتذي حذوهم في عديد الأساليب. ذلك لأنّ الروح الأندلسية والخيال النابع من جغرافية الأندلس تتسرّب في تلك الأساليب فتغذوها بنسغ جديد. وهذا الخيال المستمدّ من الطبيعة الزاخرة خصوبة وحيويّة هو أهمّ ما يميّز شعر ابن خفاجة وهو ينتشر في كل الأغراض. وكثيرا ما تأتي الطبيعة الخصبة في خيال الشاعر متوازية ومتقابلة مع طبيعة الصحراء ـ وهذا خاصّة في أشعار الفترة الثالثة من تجربته الشعرية ـ فتخصب الطبيعة المجدبة أحيانا وتنال الطبيعة الخصبة شيئا من بلاغة القِدم ويأتلفان.

ومما يميّز هذا الشعر كذلك «كثرة معانيه وازدحامها في البيت الواحد» حسب عبارة ابن خلدون نقلا عن شيوخه، فالرجل يصدر في شعره عن روافد متعدّدة ومصادر إبداع ثقافية وتجريبية متنوّعة. أما الثقافية فشعر الأوائل وشعر المحدثين والمولدين مشرقا ومغربا حسب تصريحاته هو في الديوان. وأما التجريبية فطبيعة الأندلس الخصبة التي كلف بها وباشرها ومارسها...

لذلك تزدحم العناصر من كل هذه الروافد لتؤلّف «الصورة الخفاجية المتميّزة بالعمق والتركيب...».

وأمّا المنثور فيتألّف من المقدّمة ورسائل وفقرات، المقدّمة ضمنها معلومات كثيرة تساعد على استنباط مكوّنات تجربته الشعرية ومذهبه في الشعر.

وأمّا الرسائل فبعضها من قبيل الإخوانيات ممّا ينشئه الأدباء في مقاصد مختلفة من شؤونهم اليومية. ومن هذا النوع نماذج أوردها ابن بسام تصوّر لهو ابن خفاجة في عهد الطوائف، وبعض هذه الرسائل مدحي أو يتضمّن طلبا من ولي النعمة كثيرا ما يرفق بقصيدة ويردّد ما جاء شعرًا.

أمّا الفِقَر فهي إما تمهيد للقصائد أو القطع الشعرية يذكر مناسبتها أو يشير إلى موضوعها وإمّا تعقيب عليها. ويبدو أحيانًا أنها لغير الشاعر. لكنّ معظمها من وضعه ينبّه فيها إلى توخّيه أسلوبا معيّنًا أو يعلّق على ظاهرة لافتة أو ينقد معنى أو صورة لدى شاعر سابق..

ومن خلال كل ذلك يتكامل الشعر والنثر في الديوان ويأتلف فيه النقد والإبداع.

المصادر والمراجع

● بروكلمان، (G.A.L.) II 272، الملحق I/ 480 ● ابن بسام، الذخيرة، تح. إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، تونس، ليبيا، 1975، 3/ 541...؛ ● ابن خاقان، الفتح، قلائد العقيان، تح. الطاهر بن عاشور، تونس، 1990، ص561...؛ ● ابن بشكوال، الصلة I، رقم 225؛ ● ابن الأبّار، التكملة I، رقم 273؛ ● الحلة السيراء؛ ● الضبي، بغية الملتمس، رقم 502؛ ● المقّري، نفح الطيب، تح. إحسان عبّاس في صفحات كثيرة، الفهرس؛ ● ابن خفاجة، الديوان، تح. مصطفى غازي، الإسكندرية، 1960م؛ ● حمدان، حجّاجي، حياة وآثار الشاعر الأندلسي ابن خفاجة، الجزائر 1974م؛ ● ريدان، سليم، ظاهرة التماثل والتميّز في الأدب الأندلسي من القرن الرابع إلى السادس هجريًا I-II، الفهرس؛

● H. Pérès, la Poésie Andalouse...

د. سليم ريدان
جامعة منوبة ـ تونس

الخفاجي، شهاب الدين أحمد بن محمد

(977هـ/1569م ـ 1069هـ/1659م)

هو الشيخ أحمد بن محمد بن عمر الملقب بشهاب الدين الخفاجي المصري الحنفي قاضي القضاة وصاحب التصانيف في الأدب واللغة، ونسبته إلى قبيلة خفاجة. ولد في «سرياقوس» بالقرب من القاهرة نحو سنة 977هـ أو 979هـ. وتلقى

دروسه الأولى على خاله أبي بكر الشنواني (ت 1019هـ) الذي لقب نفسه بسيبويه عصره. أخذ الفقه الحنفي والفقه الشافعي.

وقد ترجم الخفاجي لنفسه في آخر كتابه «الريحانة» فقال: «فقد كنت في سنّ التميز في مغرز طيّب النبات عزيزا، في حجر والدي ممتعًا. فلما درجت من عشّي قرأت على خالي سيبويه زمانه (يعني أبا بكر الشنواني) علوم العربية، ثم ترقّيت فقرأت المعاني والمنطق وبقية العلوم الاثني عشر، ونظرت كتب المذهبين مذهب أبي حنيفة والشافعي مؤسسا على الأصلين من مشايخ العصر، ومن أجلّ من أخذت عنه شيخ الإسلام محمد بن أحمد الرملي (ت 1004هـ)، حضرت دروسه الفرعية وقرأت عليه شيئًا من صحيح مسلم، وأجازني بذلك وبجميع مؤلفاته ومروياته بروايته عن القاضي زكرياء وعن والده. ومنهم شافعي زمانه الشيخ نور الدين علي الزيادي (ت 1024هـ)، حضرت دروسه زمنا طويلاً. ومنهم العلامة الفهامة خاتمة الحفاظ والمحدثين إبراهيم العلقمي، قرأت عليه الشفاء بتمامه (يعني السيرة النبوية الموسومة بالشفاء للقاضي عياض المتوفى سنة 544هـ) وأجازني به وبغيره.. ومنهم العلامة في سائر الفنون علي بن غانم المقدسي الحنفي (كان في القاهرة ما بين 920 ـ 1004هـ)، حضرت دروسه وقرأت عليه الحديث، وكتب لي إجازة بخطّه. وممّن أخذت عنه (كذا) الطب الشيخ داود البصير، ثم ارتحلت مع والدي إلى الحرمين الشريفين للحج وقرأت ثمة على الشيخ علي بن جار العصام وغيره، ثم ارتحلت إلى القسطنطينية فتشرّفت بمن فيها من الفضلاء والمصنفين واستفدت منهم وتخرّجت عليهم، وهي إذ ذاك مشحونة بالفضلاء الأذكياء كابن عبد الغني، ومصطفى بن عزمي زاده (ت 1040هـ)، والحبر داود بن عمر البصير الأنطاكي (اليهودي) (ت 1008هـ)، وهو ممن أخذت عنه الرياضيات وقرأت عليه إقليدس وغيره، وأجلّهم إذ ذاك أستاذي سعد الملة والدين بن حسن.. ثم لما عدت إليها (القسطنطينية) ثانية بعدما توليت قضاء العسكر بمصر رأيت تفاقم الأمر، فذكرت ذلك للوزير، فكان ذلك سببا لعزلي وأمري بالخروج من تلك المدينة».

وفي القسطنطينية عرف فضل الخفاجي ومكانته العلمية فعيّن قاضيًا للروملي (روم إيلي)، ثم رقي فصار قاضي أسكوب، وذلك بفضل اتصاله بالسلطان مراد العثماني. ثم عيّنه هذا السلطان آخر الأمر قاضيًا لسالونيك، كل هذا في رحلته الأولى التي كلّلت بالنجاح العلمي والمناصب والثراء الوفير، والتي عيّن في نهايتها قاضي عسكر بمصر، وإن لم يدم في هذا المنصب طويلا، إذ سرعان ما أطاحت به المكايد والدسائس التي حيكت له في الآستانة. ومع ذلك فقد عزم على زيارتها ثانية. وفي هذه الرحلة مرّ بدمشق وحلب من بلاد الشام فلقي ترحيبًا جمّا واحتفاء أحاطه بهما علماء هاتين المدينتين. بيد أن الخفاجي أخفق في تحقيق ما كانت تصبو إليه نفسه عندما وصل إلى الآستانة، ووجد مصرفا للغضبة التي انتابته جراء ذلك في مؤلفه الذي سماه «المقامات الرومية»، وفيها تعرّض لعلماء الآستانة وللمفتي المولى يحيى بن

زكريا، فكان ذلك سببا لنفيه إلى مصر حيث عيّن قاضيًا «على وجه المعيشة، فاستقر بمصر يؤلّف ويصنّف ويقرئ، وأخذ عنه جماعة اشتهروا بالفضل الباهر من جملتهم العلّامة عبد القادر البغدادي (صاحب الخزانة) والسيد أحمد الحموي وغيرهما».

وقد ترك الخفاجي مجموعة من المؤلفات في صدارتها «عناية القاضي وكفاية الراضي» وهو شرح تفسير البيضاوي، و«نسيم الرياض» وهو شرح على الشفاء للقاضي عياض الآنف الذكر. وعلى غرار هذين الكتابين في منهج الجمع والتخريج وضع الخفاجي كتابين آخرين اختلفا عن سابقيهما في المادة والمضمون هما: «خبايا الزوايا بما في الرجال من البقايا»، و«ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا» طغى فيهما المدح والتقريظ المنمّق المسجوع على التوثيق العلمي الذي يلتمس في كتب التراجم، وإن انطويا على قدر طيب من الأشعار المتخيّرة وفق الذوق الخاص أو روح العصر.

ومن مؤلفاته «طراز المجالس» الذي جاء في نهجه ومضمونه محاكاة غير متقنة لكتب المجالس والأمالي واستغرق خمسين مجلسا. وكتاب «شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل». على أن الكتاب لم يقتصر على ما يوحي به العنوان من البحث في الدخيل اللغوي وحده، وإنما اتسع المؤلف فعرض للمولّد من الكلام العربي وللملحون والعامي، وللأمثال والأدوات النحوية، إضافة إلى جملة من القواعد اللغوية العامة، ولعل أبرز ما فيه أنه دلّل على معرفة طيّبة باللغات الأخرى.

ومن كتبه «شرح درة الغواص» للحريري (ت 516هـ)، وله أيضًا «ديوان الأدب في ذكر شعراء العرب»، و«السوانح»، و«قلائد النحور من جواهر البحور» في بحور الشعر، و«حديقة السحر» و«الفصول القصار» ذكرهما في«الريحانة» و«الرسائل الأربعون». وله ديوان شعر نظمه في موضوعات وأغراض مختلفة.

ومن يستعرض عنوانات هذه الكتب ويقف على مضموناتها يخلص إلى أن الخفاجي كان مهتما بالبحث اللغوي، واللغات وخصائصها ومراتب الكلم بين الفصاحة وما دونها. هذا في المقام الأول. كما كان شغوفًا في المقام الثاني بالأدب والشعر والتفسير، منقبا في صبر وأناة عن تراجم الأعلام وكتب الرجال وأخبارهم. ولا يخفى في مصنفاته وأسلوبه ومنهجه طابع العصر وأثره مما نلقى نظيره عند بعض أقرانه ومعاصريه.

آثاره

1 ـ شرح درّة الغواص في أوهام الخواص للحريري، ط. الجوائب، القسطنطينية سنة 1299هـ/ 1881م وفي مصر سنة 1273هـ/ 1857م؛ 2 ـ عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي، وهي حاشية على تفسير البيضاوي، بولاق، 1283هـ/ 1866م، ثمانية أجزاء؛ 3 ـ طراز المجالس من كتب اللغة والأدب، مصر 1284هـ/ 1868م؛ 4 ـ ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا، مصر 1284هـ/ 1868م، ط1؛ 5 ـ نسيم الرياض في شرح القاضي عياض، الآستانة 1267هـ/ 1851م؛ 6 ـ ريحانة الندمان أو ذوات الأمثال (الخزانة التيمورية)؛ 7 ـ السوانح،

مخطوط بمكتبة الأزهر الشريف، رقم 253، خصوصية أدب؛ 8 ـ كتاب الرسائل الأربعون؛ 9 ـ كتاب حواشي الرضي والجامي؛ 10 ـ حديقة السحر؛ 11 ـ الفصول القصار؛ 12 ـ الشهب السيارة؛ 13 ـ قلائد النحور من جواهر البحور (في بحور الشعر)، ومعه رسالتان له أيضًا هما «جنة الولدان» و«الكنس الجواري»؛ 14 ـ ديوان شعر، مخطوط في الخزانة التيمورية في نحو 200 صفحة؛ 15 ـ قصائد مختلفة، مخطوط في برلين ودار الكتب المصرية؛ 16 ـ شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل، مصر 1282هـ/ 1866م، ط 1.

■ المصادر والمراجع

● المحبي، خلاصة الأثر، دار صادر، بيروت، 1/ 331؛ ● ابن العماد، شذرات الذهب، 8/ 415؛ ● البستاني، دائرة المعارف، 1/ 588؛ ● مبارك، علي، الخطط التوفيقية الجديدة، مصر، 12/ 141؛ ● الشوكاني، البدر الطالع، 1/ 491؛ ● الزركلي، الأعلام، 5/ 12؛ ● البغدادي، إيضاح المكنون، 2/ 226؛ ● ن.م، هدية العارفين، 2/ 261.

د. مسعود بوبو

الموسوعة العربية ـ سوريا

■ الخفّاف، أبو بكر بن يحيى بن عبد الله

(ت 657هـ/1259م)

هو أبو بكر بن يحيى بن عبد الله الجذاميّ المالقي النحويّ المعروف بالخفّاف (بفتح الخاء وتشديد الفاء) ضبطه كحالة [معجم المؤلفين، 3/ 77]. نحويّ وفقيه على المذهب المالكيّ.

لم تذكر مصادر ترجمته، وهي قليلة، تاريخ ميلاده ولا مكانه؛ لكنها ذكرت أنه توفي بالقاهرة سنة سبع وخمسين وستمائة هجرية.

ويبدو أن مصدر ترجمته الرئيس هو طبقات ابن مكتوم (ت 749هـ/ 1348م) المعروف بـ «الجمع المثنّاة في أخبار اللغويّين والنّحاة». وهو كتاب لم يصل إلينا، ولكن السيوطي نقل عنه الترجمة في البغية [1/ 473] فقال: «مات بالقاهرة يوم السبت الثاني من رمضان (. . .) نقلت هذه التّرجمة من خطّ التاج بن مكتوم».

وقد يلتبس الأمر على بعض المترجمين فلا يميّزون الخفّاف الجذاميّ المالقيّ، عن مالقيّ آخر هو أيضا جذاميّ، وهو محمد بن علي بن الفخّار الجذاميّ (ت 754هـ/ 1353م). وهذا خلط وقع في معجم كحّالة للمؤلّفين، فذكر الخفّاف مرتين الأولى صحيحة [3/ 77]، والثانية خاطئة [12/ 154] إذ قصد محمّدا المذكور؛ ولكنه نسب إليه كتبا كان نسبها إلى أبي بكر، وذكر أنه مات بجزيرة شقر بينما كانت القاهرة مكان وفاة الخفّاف.

وربّما وقع لبس من ضرب آخر إذا ما أسندت بعض الآراء النحويّة في كتب التراث للمالقيّ، فلا يعرف عندئذ أهي للخفّاف أم لابن الطراوة وهو أيضا مالقي اسمه سليمان بن محمد (ت 528هـ/ 1133م) ويشتهر بكنيته المذكورة، أم هي لابن الفخار. وهذا ما حدث مع بعض النحاة من أمثال ابن هشام الذي فرّ من الكنية المشهورة إلى النسبة فوقع اللبس [المغني، 1/ 67، 255].

لم تذكر كتب التّراجم من شيوخ للخفّاف إلّا الشلوبين الكبير، وهو أبو علي عمر بن محمد الإشبيلي (ت 645هـ/ 1247م)، وربما كان هذا الشيخ أشهر شيوخه؛ وكان الخفّاف أحد أربعة تلامذة له مشاهير كانوا جميعا وشيخهم ممّن شرحوا كتاب سيبويه كما كانوا جميعا ذوي نسبة أندلسيّة. وهم ابن الحاج، وأبو العباس الإشبيلي (ت 651هـ/ 1253م)، وابن الضائع أبو الحسن علي الكتامي الإشبيلي (ت 680هـ/ 1281م)، وابن أبي الربيع أبو الحسين عبيد الله بن أحمد الإشبيلي (ت 688هـ/ 1289م).

وإلى جانب نشاطه في النّحو، كان لابن الخفّاف نشاط في الفقه فقد كان من المتفقّهين على مذهب مالك ومن المصنّفين فيه. وربما كان هذا التفقه ممّا قرّبه إلى أحد قضاة العصر والانقطاع إليه، وهو القاضي تاج الدّين بن بنت الأعزّ. ولقد تتلمذ عليه ابنا هذا القاضي وهما صدر الدين وتقي الدين. وقد تكون بعض مصنفاته وخصوصا من الشروح قد وضعت لهذا الغرض. والأكيد أن نقله كثيرا من أمهات الكتب النحوية بخطه كان لهذه الغاية [البغية 1/ 473].

آثاره

أهمّ مؤلّفات الخفّاف في النّحو إلا أن الشرح غلب عليها، وهي:

1 ـ المنتخب الأكمل في شرح الجمل، نسخة بالمكتبة المحمودية بالمدينة رقم 33 [مقدمة شرح الجمل لابن أبي الربيع]؛ 2 ـ شرح كتاب سيبويه، ذكره السيوطي ولم يذكر له عنوانًا، كما ذكره حاجي خليفة وهو يعدّد، في كشف الظنون، أسماء شراح الكتاب. قال: «وشرحه... أبو بكر يحيى الجذامي المالقي المتوفّى سنة 657هـ» [2/ 1428]؛ 3 ـ شرح الإيضاح لأبي علي الفارسيّ، ذكره السّيوطي في البغية وحاجي خليفة في كشف الظنون وهو يذكر شراح الإيضاح [1/ 212]، ونقل السيوطي بعض آرائه في كتابه «الأشباه والنظائر» [1/ 240، 280، 2/ 153، 205]؛ 4 ـ شرح اللمع لابن جنّي.

ويضيف السّيوطي إلى هذه الكتب في النّحو كتابا آخر في الفقه يرجّح أن يكون هو مصنّفه وهو الكتاب المجهول في الفقه المالكي، ويستدلّ على هذا الترجيح بأنه وجد بخطّه وضمن كتبه لكنّه لم يكن منسوبا إلى أحد. إلّا أنّ هذه الحجّة تضعف إذا واجهناها بما قاله السّيوطي نفسه من أنّ الخفّاف كان يكتب الكتب بخطّه، فيجوز أنه من نقله لا من وضعه. والله أعلم.

المصادر والمراجع

● السّيوطي، جلال الدين، بغية الوعاة في طبقات اللّغويّين والنّحاة، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، المكتبة العصريّة، د.ت، 1/ 473؛ ● م. ن.

الأشباه والنظائر، تح. عبد الإله نبهان، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق د.ت؛ ● الخوانساري، الميرزا محمد باقر الموسوي الأصبهاني، روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات، ط 2، طهران، 1381هـ، ص 135؛ ● خليفة، حاجي، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، بيروت دار الكتب العلمية، 1992، 1/ 212، 2/ 1428؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، 2/ 126، ط. استانبول، 1955 - 1951م؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 3/ 77، 12/ 154.

د. توفيق قريرة
جامعة تونس

ابن خفيف الشيرازي، محمد بن خفيف بن اسفكشاذ

(286هـ/ 899م - 371هـ/ 982م)

محمد بن خفيف بن اسفكشاذ الضبي الشيرازي، أبو عبد الله، ولد في شيراز سنة 286هـ/ 889م. وكانت أمه نيسابورية. وكان ابن خفيف شيخ المشايخ في وقته بإقليم فارس. وكان صوفيا صاحب أحوال ومقامات، عالما بعلوم الظاهر وعلوم الحقائق، متمسكا بالكتاب والسنة، وفقيها على مذهب الشافعي. وكان ابن خفيف من أولاد الأمراء ولكنه تزهد، وتتلمذ على يد الشيخ أبي الحسن الأشعري وأخذ عنه.

وقال عنه السبكي في طبقات الشافعية: «شيخ المشايخ وذو القدم الراسخ في العلم والدين، وكان سيدا جليلا، وإماما حفيلا يستمطر الغيث بدعائه». وصحب ابن خفيف أرباب الأحوال، وسافر شرقا وغربا، وصابر النفس حتى انقادت له. وكان من أصحاب رويم، والحريري، وأبي العباس بن عطاء، كما لقي الحسين بن منصور الحلاج وتأثر به. وعن محمد بن خفيف قال: «رحلت من مكة ودخلت بغداد وأردت أن ألقى الحسين بن منصور، وكان محبوسا قد منع الناس عنه. فاستعنت معارفي وكلموا السجان وأدخلني عليه. فدخلت السجن والسجان معي... فقلت له: أين الشيخ؟ فقال: مشغول يشغل... فإذا الحلاج قد خرج علينا، فرأيته حسن الوجه لطيف الهيئة عليه الهيبة والوقار. فإذا هو سلّم علي وقال: من أين الفتى؟ قلت: من شيراز...». وتوفي ابن خفيف بشيراز في رمضان 371هـ/ 982م عن 95 سنة، وقيل بل جاوز المائة بأربع سنين.

قال أبو نعيم في حليته: «كان شيخ الوقت علما وحالا، وهو الخفيف الظريف، له الفصول في الأصول، والتحقق والتثبت في

الوصول». وقال الإسنوي: بلغ ما لم يبلغه أحد في العلم والجاه والمقام عند الخاص والعام، وصنف ما لم يصنفه أحد في العلم، وصار أوحد زمانه مقصودا من الآفاق، مقيدا في كل نوع من العلوم، مباركا على قاصديه، رفيقا بمريديه».

وعن ابن خفيف قال: «لما خلق الله تعالى الملائكة والجن والإنس، خلق العصمة والكفاية والحيلة. فقال للملائكة: اختاروا. فاختاروا العصمة. ثم قال للجن: اختاروا. فاختاروا العصمة. فقال: قد سبقتم. فاختاروا الكفاية. ثم قال للإنس: اختاروا. فقالوا: نختار العصمة. فقال: قد سبقتم. فاختاروا الكفاية. فقال: قد سبقتم. فقالوا: نختار الحيلة. فبنو آدم يحتالون بجهدهم».

وقال ابن خفيف عن التصوف: «التصوف تصفية القلب من موافقة البشرية ومفارقة أخلاق الطبيعة، وإخماد صفات البشرية، وتجنب الدعاوي النفسانية، ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلق بعلوم الحقائق». وقال: «الإيمان تصديق القلوب بما أعلمها الحق من الغيوب، والإنابة التزام الخدمة وبذل المهجة، والرجاء ارتياح القلب لرؤية كرم المرجو، وحقيقة الاستبشار بوجود فضله وصحة وعده».

آثاره

جاء في «شد الإزار» لمعين الدين أبي القاسم جنيد العميري الشيرازي أن مؤلفات ابن خفيف قد بلغت 26 مؤلفا. ولكن لم يصلنا منها سوى عدة مقاطع من التي نقلها عنه السّلمي، وأبو نعيم والقشيري، وذلك نقلا عن سيرة ابن خفيف التي كتبها تلميذه أبو الحسن الديلمي، والتي ترجمها بعد ذلك إلى الفارسية ابن الجنيد المشار إليه أعلاه. وقد ذكرت له بعض المؤلفات مثل:

1 ـ آداب المريدين؛ 2 ـ اختلاف الناس في الروح؛ 3 ـ جامع الإرشاد؛ 4 ـ الفصول في الأصول؛ 5 ـ أسرار الحروف.

المصادر والمراجع

● الأسنوي، طبقات الشافعية، 1/ 82؛ ● البغدادي، هدية العارفين، 2/ 49؛ ● نعيم، حلية الأولياء، 10/ 385 ـ 387؛ ● القشيري، الرسالة القشيرية، 37؛ ● نتائج الأفكار القدسية، 2/ 6؛ ● طبقات الشعراني، 1/ 142؛ ● الحنبلي، شذرات الذهب، 3/ 76؛ ● ياقوت، معجم البلدان، 3/ 350؛ ● ابن الجوزي، المنتظم، 7/ 112؛ ● المناوي، الكواكب الدرية، بتحقيقنا، 1/ 594؛ ● طبقات السلمي، 462 ـ 466؛ ● كحالة، معجم المؤلفين، 9/ 266؛ ● كتابنا «علم الحروف وأقطابه» 84 ـ 85؛ ● شميل، الدكتورة آن ماري، سيرة ابن خفيف، أنقره 1955؛ ● دائرة المعارف الإسلامية، ط 2، ليدن، مادة Ibn Khafif، 3/ 823 ـ 824، بقلم J.C. Vadet.

د. عبد الحميد صالح حمدان
خبير في التراث العربي ـ جنيف

ابن الخلّ، محمد بن المبارك

(475هـ/1082م - 552هـ/1157م)

الإمام أبو الحسن محمّد بن أبي البقاء المبارك بن محمّد بن عبد الله بن محمّد العكبري المعروف بابن الخلّ البغدادي الفقيه الشافعيّ الجامع بين العلم والصّلاح [ابن الجوزي، المنتظم، 18/ 122؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، 4/ 227؛ الذّهبي، سير أعلام النبلاء، 15/ 94].

كان محدّثا أصوليّا فقيها بارعا جليل القدر، ولد ببغداد سنة 475هـ، وسمع بها الحديث النبوي وأخذ العلم عن كبار شيوخها حتى تضلّع في المعقول والمنقول وأصبح من أيّمة الشافعية المشار إليهم بالعراق، قال فيه ابن النجّار: «كان إماما كبيرا في معرفة المذهب، ونقل نصوص الشّافعي ووجوه أصحابه» وقال السّبكي: «وله في النظر والخلاف اليد الباسطة» [سير أعلام النبلاء، 15/ 95؛ طبقات الشافعية الكبرى، 7/ 176].

كان ورعا زاهدا عابدا على طريقة السلف في التقشف وخشونة العيش وطرح التكلّف، جلس بمسجد الرّحبة لا يخرج منه إلّا بقدر الحاجة. قال السّبكي: «وله السّيرة الحسنة والطريقة الحميدة،...وكان من الورع والزهد والتقشّف في غاية» [7/ 176]

كان الإمام أبو الحسن ذا خطّ بديع منسوب، لذلك كان الناس يحتالون على أخذ خطّه في الفتاوى من غير حاجة إليها بل لجودة خطّه، فلمّا كثرت عليه الفتاوى وضاق بها ذرعا صار يكسر القلم ويكتب به جواب الفتوى، فانصرفوا عنه [ابن خلكان، وفيات الأعيان، 4/ 227؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، 15/ 95؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، 7/ 177؛ ابن العماد، شذرات الذهب، 6/ 273].

درّس، وأفتى وصنّف، وأقرأ وانتفع به خلق كثير، وتفرّد بالفتوى في مسألة الدور لابن سريج، قال الإمام السّبكي: «كان قد تلقى المسألة السريجية من شيخه فخر الإسلام الشاشي، وفخر الإسلام تلقى ذلك من شيخه أبي إسحاق الشيرازي، وأبو إسحاق تلقى ذلك من شيخه القاضي أبي الطيّب» [السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، 7/ 177] حدّث عن أبي عبد الله الحسين بن أحمد، وابن طلحة النعالي، وأبي الخطاب نصر بن البطر، وثابت بن بندار، وأبي عبد الله الحسين بن علي بن البسريّ، وجعفر السرّاج، وأبي بكر الطريثيثي، ومحمّد بن عبد السّلام الأنصاري، وأبي بكر الطوسي، وأبي غالب الباقلّاني، وأبي الحسين بن الطيوري، وأبي المعالي عزيزي بن عبد الملك بن منصور وآخرين، وقرأ على فخر الإسلام أبي بكر محمد بن أحمد الشاشي المعروف بالمستظهري صاحب الحلية الخلاف والجدل والأصول وكان من أجلّ أصحابه وتفقّه به

حتى أتقن المذهب وبرع فيه، وعنه أبو سعيد السّمعاني، وعبد الخالق بن أسد، والفتح بن عبد السلام وجماعة آخرُهم وفاةً أبو الحسن القطيعي، وخرّج له أبو الرضا أحمد بن طارق بن سنان الكركيّ عن كلّ شيخ حديثا واحدا بالسماع وقع للسبكي منها بعلوّ الجزء الأول، وبه تفقه أبو إسحاق إبراهيم بن منصور بن مسلم، وأبو نصر أحمد بن عبد الله بن محمد بن أحمد الشاشي، وأبو القاسم يعيش بن صدقة بن علي الفراتي الضرير، وأبو طالب المبارك بن المبارك الكرخي وهو من أكثر التلاميذ اختصاصا به، فقد لازمه مدّة حتّى برع في المذهب والخلاف [الذهبي، سير أعلام النبلاء، 15/ 94؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، 4/ 381؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، 7/ 37، 275، 338].

توفي في المحرم سنة 552هـ ببغداد عن سبع وسبعين سنة، وكان يؤمّ الخليفة في الصلاة، ونقل إلى الكوفة ودفن بها وتوفي أخوه أبو الحسين بن الخلّ الشاعر في ذي القعدة من هذه السنة عن سبعين سنة» [الصفدي، الوافي بالوفيات، 4/ 381؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، 7/ 176؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، 4/ 27؛ ابن العماد، شذرات الذهب، 6/ 273؛ البغدادي، هدية العارفين، 2/ 93].

■ آثاره

روى محمّد بن المبارك بسنده جملة من الأحاديث النبوية الشريفة منها ما حدّث به عن الحسين بن علي عن عبد الله بن يحيى السكري عن إسماعيل بن محمّد الصفار عن عبّاس بن عبد الله الترقفي عن محمد بن يوسف عن سفيان عن سهيل بن أبي صالح عن عبد الله بن دينار عن أبي صالح عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «الإيمان بضع وستون، أو بضع وسبعون بابا، أفضلها شهادة أن لا إله إلّا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»، وهو حديث صحيح عال أخرجه أحمد في المسند، والبخاريّ، ومسلم، والترمذيّ، والنسائيّ في الإيمان، وأبو داود في السنّة، وابن ماجة في المقدّمة، وعن أبي بكر محمّد بن أحمد بن الحسين الشّاشي عن أبي عبد الله محمّد بن بيان بن محمّد الكازروني عن أبي عمر عبد الواحد بن محمد بن مهدي الفارسي عن أبي عبد الله الحسين بن إسماعيل القاضي عن أحمد بن إسماعيل المدني عن مالك عن ابن شهاب عن حميد بن عبد الرحمٰن بن عوف عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال «من أنفق زوجين في سبيل الله ﷻ نودي في الجنّة يا عبد الله هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريّان» وهو حديث أخرجه البخاري في الصوم وبدء الخلق وأصحاب النبيّ، ومسلم في الزّكاة، والترمذيّ في المناقب، والنسائيّ في الصوم والزكاة والجهاد [الذهبي، سير أعلام النبلاء، 15/ 94؛ العبر، 3/ 19؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، 6/ 73 - 74، 7/ 176].

من تآليفه في الفروع «توجيه التنبيه»، وهو أوّل

شرح وضع للتنبيه لأبي إسحاق الشيرازي، قال ابن العماد ليس فيه طائل، وقال صاحب كشف الظّنون «وليس في شرحه تصوير المسألة لكنّه عللها بعبارة مختصرة وله كتاب آخر في أصول الفقه، ومن شعره:

بلّغه عنّي باني بعد فُرقته
ماه السّجون شرابي والضنا زادي

يا منية النفس لا تنسى مودّة من
في قلبه منك همٌّ رائح غاد

المصادر والمراجع

● أحمد، المسند، دار الدعوة ودار سحنون، 1413هـ/ 1993م، ط1، 2/ 414؛ ● البخاري، الجامع الصحيح، دار الدعوة ودار سحنون، 1413هـ/ 1993م، ط2، 1/ 8، 2/ 226 ـ 227، 4/ 88، 193؛ ● أبو داود، السنن، دار الدعوة ودار سحنون، 1413هـ/ 1993م، ط2، 5/ 55 ـ 56؛ ● مسلم، الصحيح، دار الدعوة ودار سحنون، 1413هـ/ 1993م، ط2، 1/ 712، 63؛ ● ابن ماجة، السنن، دار الدعوة ودار سحنون، 1413هـ/ 1993م، ط2، 1/ 22؛

● الترمذي، السنن، دار الدعوة ودار سحنون ط2، 1413هـ/ 1993م، 5/ 614؛ ● النّسائي، السنن، دار الدعوة ودار سحنون، 1413هـ/ 1993م، ط2، 4/ 168، 5/ 9 ـ 10، 6/ 22 ـ 23، 8/ 110؛ ● ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تح. محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1412هـ/ 1992م، ط1، 18/ 122 ـ 123؛ ● ابن الأثير، الكامل في التاريخ، عني بمراجعة أصوله والتعليق عليه نخبة من العلماء، مطبعة الاستقامة بالقاهرة، 9/ 52؛ ● ابن خلّكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح. د. إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، 4/ 227 ـ 228؛

● الذهبي، دول الإسلام، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط 1405هـ/ 1985م، ص288؛ ● م.س، العبر في خبر من غبر، تح. فؤاد سيّد، أمين المخطوطات بدار الكتب المصرية، الكويت 1380هـ/ 1961م، 3/ 19؛

● م.س، سير أعلام النبلاء، تح. محب الدّين أبي سعيد عمر بن غامة العمروي، دار الفكر للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان 1417هـ/ 1997م، ط1، 15/ 94 ـ 96؛

● الصفدي، الوافي بالوفيات، تح ديدرينغ، دار النشر فرانز شتايلز بفيسبادن، 1401هـ/ 1981م، 4/ 381؛ ● اليافعي، أبو محمّد، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، دائرة المعارف النامية، الكائنة بمدينة حيدر آبار الدّكن 1338هـ/ 1919م، ط1، 3/ 302؛

● السّبكي، طبقات الشافعية الكبرى، تح. عبد الفتّاح محمّد الحلو ومحمود محمّد الطّناحي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، ط1، 7/ 176 ـ 177؛

● الإسنوي، طبقات الشافعية، تح. عبد الله الجبوري، مطبعة الإرشاد بغداد 1390هـ/ 1970م، ط1، 1/ 487؛ ● ابن

كثير، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت 1385هـ/ 1966م، ط1، 12/ 237؛ ● ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1352هـ/ 1933م، 5/ 327؛ ● ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح. محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، 6/ 273؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، تصحيح محمد شرف الدين بالتقايا، وكالة المعارف 1362هـ/ 1943م، 1/ 489؛ ● البغدادي، هدية العارفين، أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، استانبول 1955م، 2/ 93؛ ● الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، 1399هـ/ 1979م، ط4، 7/ 17؛ ● كحّالة، معجم المؤلفين تراجم مصنّفي الكتب العربية، مكتبة المثنى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 11/ 170 ـ 171.

د. برهان الدين النفاتي
جامعة الزيتونة ـ تونس

■ الخلال، أبو بكر بن محمد البغدادي

(234هـ/848م ـ 311هـ/923م) ■ ■ ■

أبو بكر، أحمد بن محمد بن هارون البغدادي، الحنبلي، المعروف بالخلال، الفقيه، الحبر، شيخ الحنابلة وعالمهم. ولد سنة أربع و ثلاثين ومائتين للهجرة أو في التي تليها، فيجوز أن يكون رأى الإمام أحمد، ولكنه أخذ الفقه عن خلق كثير من أصحابه وصحب أبا بكر المروزي إلى أن مات، وسمع من الحسن بن عرفة، وأبي داود السجستاني، وعبد الله بن أحمد بن حنبل، وإبراهيم بن إسحاق الحربي وغيرهم وكتب عن الكبار والصغار حتى كتب عن تلامذته. وصرف عنايته إلى الجمع لعلوم أحمد بن حنبل وطلبها فسافر لأجلها إلى فارس وإلى الشام و الجزيرة وسمعها عالية ونازلة وصنفها وجمع منها ما لم يجمعه أحد، وكل من تبع هذا المذهب يأخذ من كتبه [ابن الجوزي، المنتظم، 6/ 174].

روى عنه صاحبه عبد العزيز بن جعفر المعروف بغلام الخليل، والحسن بن يوسف الصيرفي، ومحمد بن المظفّر وغيرهم. قال ابن ناصر الدين: «هو رحّال، واسع العلم، شديد الاعتناء بالآثار»، وقال أبو بكر بن شهريار: «كلّنا تَبَعٌ لأبي بكر الخلال، لم يسبقه إلى جمع علم الإمام أحمد أحد»، قال عبد العزيز بن جعفر: سمعت أبا الحسن علي بن محمد بن بشار، والخلّال بحضرته

في مسجده، وقد سئل عن مسألة، فقال: سلوا الشيخ، فكأن السائل أحب جواب أبي الحسن فقال: سلوا الشيخ، هذا الشيخ يعني «الخلّال» إمام في مذهب أحمد بن حنبل، سمعته يقول هذا مرارا، وقال أبو بكر الشّيرجي: «الخلّال قد صنف كتبه ويريد منا أن نقعد بين يديه ونسمعها منه وهذا بعيد»، وقال أبو بكر بن شهريار: «من طلب العلم يقابل أبا بكر الخلّال، من يقدر على ما يقدر عليه الخلّال من الرواية؟» [البغدادي، تاريخ مدينة السلام، 6/ 301].

وكان شيوخ المذهب الحنبلي يشهدون له بالفضل والتقدم، وكان يقول: من لم يعارض لم يدر كيف يضع رجله، وكانت حلقة علمه بجامع المهدي ببغداد، قال أبو يعلى بن الفراء: توفي أبو بكر الخلّال يوم الجمعة قبل الصلاة ليومين خلوا من شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة وثلاثمائة وقد نيّف على الثمانين، ودفن في يوم السبت إلى جنب أبي بكر المروزي، وصلى عليه أبو عمر حمزة بن القاسم الهاشمي [العليمي، المنهج الأحمد، 1/ 207] وقد رسم في كتبه ومصنفاته إذا حدث عن شيوخه قول: أخبرنا، أخبرنا، فقيل له: إنهم قد حكوا أنك لم تسمعها وإنما هي إجازة قال: «سبحان الله قولوا في كتبنا كلها حدثنا».

آثاره

1 ـ الجامع لعلوم الإمام أحمد، وهو أجمع كتاب لعلوم أحمد بن حنبل ورواياته لم يصنف في المذهب مثله، ويقع في مائتي جزء مجموعة في عشرين مجلدا؛ 2 ـ كتاب السنة وألفاظ أحمد والدليل على ذلك من الأحاديث، في ثلاثة مجلدات كبار، تدل على إمامته وسعة علمه، ولم يكن قبله للإمام مذهب مستقل حتى تتبع هو نصوص أحمد ودوّنها وبرهنها بعد الثلاثمائة؛ 3 ـ كتاب العلل، في ثلاثة مجلدات؛ 4 ـ أخلاق أحمد، وهو في مجلّد أملاه عليه زهير بن صالح بن أحمد بن حنبل (في سيرة أحمد)؛ 5 ـ طبقات أصحاب ابن حنبل (في التراجم)؛ 6 ـ كتاب العلم؛ 7 ـ كتاب تفسير الغريب؛ 8 ـ كتاب الأدب؛ 9 ـ كتاب الحث على التجارة والعمل [سالم علي الثقفي، مصطلحات الفقه الحنبلي، ص 68].

المصادر والمراجع

● الشيرازي، أبو إسحاق، طبقات الفقهاء، تصحيح ومراجعة خليل الميس، دار القلم، بيروت، لبنان؛ ● ابن الجوزي، عبد الرحمٰن، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، 1357هـ، ط1؛ ● الذهبي، محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، تح. الأرنؤوط والبوشي، مؤسسة الرسالة، ط8، 1412هـ/ 1992م؛ ● الصفدي، صلاح الدين، الوافي بالوفيات، اعتناء محمد يوسف نجم، دار النشر فرانز شتاير، فيسبادن، 1401هـ/ 1980م، ط2؛ ● ابن العماد الحنبلي، عبد الحي، شذرات الذهب، دار المسيرة، بيروت، 1399هـ/ 1979م،

ط2؛ ● السيوطي، جلال الدين، طبقات الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. 1، 1403هـ/ 1983م؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1376هـ/ 1957م.

د. هشام قريسة

المعهد الأعلى للحضارة الإسلامية ـ تونس

الخلال، أبو علي الحسن بن علي بن محمد

(ت 242هـ/856م).

الخلال، أبو علي، وقيل أبو محمد، نزيل مكة. الهذلي نسبة إلى قبيلة هذيل، والخلال نسبة إلى عمل الخل أو بيعه، والحلواني نسبة إلى حلوان، وحلوان العراق في آخر حدود السواد مما يلي الجبال من بغداد، وكانت بلدة عامرة ليس بأرض العراق بعد الكوفة، والبصرة، وواسط، وبغداد، وسُرَّ من رأى أكبر منها. وأكثر ثمارها التين وهو في غاية الجودة ويسمّونه لجودته (شاه انجير) أي ملك التين.

وبها رمّان ليس في الدنيا مثله ـ كما ذكر ياقوت ـ وربما سقط بها الثلج، وحواليها عدة عيون كبريتية ينتفع بها من عدة أدواء. وبعد هرب يزدجرد ـ أثناء الفتح الإسلامي ـ فتحها جرير بن عبد الله صلحا، بعد أن أمّن أهلها على ديارهم وأموالهم.

روى الخلال عن إبراهيم بن خالد الصنعاني، وأسعد بن سعد السمان، وإسحاق بن إبراهيم بن يزيد الفراديسي الدمشقي، وإسحاق بن عيسى بن الطباع، وبشر بن ثابت البزار، وبشر بن عمر الزهراني، وجعفر بن عون، وحجاج بن المنهال الأنماطي، والحسن بن موسى الأشيب، وحسين بن علي الجعفي، وأبي أسامة حماد بن أسامة، وخالد بن عمرو القرشي الأموي، وأبي توبة الربيع بن نافع الحلبي، ورَوْح بن عبادة، وزيد بن الحباب، وسعيد بن الحكم بن أبي مريم، وسعيد بن عامر الضبعي، وسليمان بن حرب، وسليمان بن داود الهاشمي، وسهل بن حماد أبي عتاب الدلال، وشبابة بن سرار، وصفوان بن صالح الدمشقي، وصفوان بن هبيرة، وأبي عاصم الضحاك بن مخلد النبيل، وأبي صالح عبد الله بن صالح المصري، وعبد الله بن نافع الصائغ، وعبد الله بن نمير، وأبي عبد الرحمٰن عبد الله بن يزيد المقرئ، وعبد الحميد بن عبد الرحمٰن الحماني، وعبد الرزاق بن همام، وعبد الصمد بن عبد الوارث، وعبد العزيز بن يحيى الحراني، وأبي صالح عبد الغفار بن داود الحراني نزيل مصر، وغيرهم.

وروى عنه: الجماعة سوى النسائي، وإبراهيم بن إسحاق الحربي، وأحمد بن علي

الأبّار، وبكر أحمد بن عمرو بن أبي عاصم النبيل، وإسحاق بن الصباح، وأبو الوليد بشر بن أبي عامر الكوفي، وجعفر بن محمد بن أبي عثمان الطيالسي، والحسين بن إسحاق التستري، وعبد الله بن زيدان البجلي، وعبد الله بن صالح البخاري، وغيرهم.

وحدث عنه عبد الله بن إبراهيم بن محمد بن الحسن الأزدي القصري الضرير [معجم البلدان، 4/ 124]، والمفضّل بن محمد بن إبراهيم [معجم البلدان، 4/ 279]، وأبو سعيد بن أبي بكر بن أبي عثمان موسى بن عبد الرحمٰن البشتي (وبشت بلد بنواحي نيسابور) [معجم البلدان، 1/ 629]، وأبو سعيد المفضّل بن محمد الجندي [معجم البلدان، 2/ 129].

قال يعقوب بن شيبة: كان ثقة، ثبتا، متقنا، وقال النسائي: كان ثقة، وقال أبو بكر الخطيب البغدادي: كان ثقة حافظا، وقال أبو داود: كان لا ينتقد الرجال، وقال: كان عالما بالرجال، ولا يستعمل علمه، وقال الذهبي: ثبت، حجة، وقال ابن حجر: ثقة حافظ، ووثّقه: ابن حبان، ومسلمة بن قاسم الأندلسي وغيرهما.

والخلاصة أنّ الحلواني، مجمع على توثيقه، وما قيل فيه من أجل العقائد لا يؤثر فيه، وقال ابن عدي في كتاب «شيوخ البخاري»: «وله كتاب صنفه في السنة».

وقد روى أحمد بن عبد الرحمٰن البزوري، قال: سألتُ الحسن بن علي الحلواني، فقلتُ: إن الناس قد اختلفوا عندنا في القرآن، فما تقول: قال: القرآن كلام الله غير مخلوق، ما نعرف غير هذا.

قال إبراهيم بن أورمة الحافظ: بقي اليوم في الدنيا ثلاثة: محمد بن يحيى الذهلي بخراسان، وأحمد بن الفرات بأصبهان، والحسن بن علي الحلواني بمكة.

قال ابن يونس: قدم مصر وحدث بها نحو سنة ثلاثين ومائتين. وقال الخطيب البغدادي: ورد بغداد.

روى ياقوت بن عبد الله الحموي البغدادي في معجم البلدان [4/ 279]، قال: حدث أبو العباس القاضي أحمد بن أبي أحمد الطبري، حدثني المفضل بن محمد بن إبراهيم حدثنا الحسن بن علي الحلواني حدثنا الحسين بن إبراهيم ومحمد بن جبير الهاشمي قال: حدثني حمزة بن عتبة عن جعفر (الصادق) بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ﷺ قال:

إن أول خلق هذا البيت أن الله ﷻ قال للملائكة: إني جاعل في الأرض خليفة، قالت الملائكة: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك. قال: إني أعلم ما لا تعلمون. ثم غضب عليهم فأعرض عنهم فطافوا بعرش الله سبعا كما يطوف الناس بالبيت الحرام، ويقوا يسترضونه من غضبه يقولون: لبّيك اللهم لبيك، ربّنا معذرة إليك، نستغفرك ونتوب إليك، فرضي عنهم. وأولى إليهم أن ابنوا لي في الأرض بيتا يطوف به عبادي من أغضب عليه، فأرضى عنه كما رضيت عنكم.

وروى الذهبي في تذكرة الحفاظ [2/ 522 _ 523] بسنده عن الحسن (بن علي) الحلواني بسنده عن رسول الله ﷺ، قال لعلي بن أبي طالب: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبيّ بعدي».

قال هلال بن ناجي: ووجدت في معجم بلدان ياقوت موضعين روى فيهما الرماني عن الحلواني. والموضعان ينمان عن علم الحلواني بأسماء المواضع، أحدهما في مادة (السيء)، قال الشاعر:

إذا قطعن السيءَ والمطاليا
وحائلا قطعنه تغاليا
فابعد الله السويق البالیا

قال التغالي: التسابق. ورواية الرماني عن الحلواني عن السكري: السيء (بالهمز).

والموضع الثاني في مادة (تدوم)، نجد الرماني يروي عن الحلواني.

مات الحلواني في مكة المكرمة في ذي الحجة سنة اثنتين وأربعين ومائتين - رحمه الله -.

المصادر والمراجع

● الخطيب البغدادي، تاريخ مدينة السلام، تح. د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1422هـ/ 2001م، 8/ 351 - 353؛ ● السمعاني، الأنساب، تح. مرجليوث، طبعة بالأوفسيت، بغداد 1970، الورقة 173، والورقة 213؛ ● ابن عساكر، علي بن الحسن، تهذيب تاريخ دمشق الكبير، هذّبه عبد القادر بدران، 1979، ط2، 4/ 236 - 237؛ ● المزي، أبو الحجاج يوسف، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تح. د.بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت 1405هـ/ 1985م، ط 1، 6/ 259 - 263؛ ● الذهبي، تذكرة الحفاظ، ط. حيدر آباد الدكن، الهند 1376هـ/ 1956م، 2/ 522 - 523؛ ● الذهبي، العبر في خبر من غبر، تح. د. صلاح الدين المنجد، الكويت 1960، 1/ 437؛ ● الذهبي، سير أعلام النبلاء، تح. صالح السمر، مؤسسة الرسالة، بيروت 1402هـ/ 1983م، ط 1، 11/ 398؛ ● ياقوت الحموي، معجم البلدان، تح. فردناند وستنفيلد، لايبزغ 1866، 1/ 629، 2/ 129، 318، 3/ 24، 863، 4/ 40، 124، 279؛ ● الصفدي، خليل بن أيبك، الوافي بالوفيات، باعتناء رمضان عبد التواب، النشرات الإسلامية التي تصدرها جمعية المستشرقين الألمان، عمان 1399هـ/ 1979م، 12/ 166؛ ● السيوطي، طبقات الحفاظ، تح. علي محمد عمر، القاهرة 1313هـ/ 1993م، ص228؛ ● كحالة، معجم المؤلفين، دمشق 1377هـ/ 1957م، 3/ 261؛ ● الحنبلي، عبد الحي، شذرات الذهب، المكتب التجاري، بيروت، 2/ 100.

أ. هلال بن ناجي
باحث في التراث العربي - العراق

خلاف، عبد الوهاب بن عبد الواحد

(1305هـ/1888م - 1375هـ/1956م)

عبد الوهاب بن عبد الواحد خلاف، فقيه، أصولي، خطيب، قانوني. ولد في مدينة كفر الزيات إحدى مدن مديرية الغربية (محافظة الغربية حاليا) بمصر.

حفظ القرآن وجوّده على قراء بلده، وتعلّم مبادئ العلوم المختلفة، وحفظ بعض المتون في اللغة العربية، والفقه، والعقيدة، والبلاغة، والمنطق، وسائر مبادئ العلوم النقلية والعقلية.

ولما بلغ الخامسة عشرة من عمره أرسله والده لطلب العلم بالجامع الأزهر بالقاهرة، فمكث فيه وصرف سنوات ينهل من علم مشايخ الأزهر الأجلاء حتّى أتقن سائر العلوم العربية والشرعية بين نحو وصرف وأدب وبلاغة وفقه اللغة، وعقيدة وتفسير، وحديث، والسيرة النبوية، والتاريخ الإسلامي، وسائر العلوم الأصيلة التي كانت تدرس في الأزهر آنذاك. كما كان يحرص على حضور دروس الشيخ الإمام حسن عبده في تفسير القرآن الكريم التي كانت تعقد في ليلتي الأربعاء والخميس من كل أسبوع بصفة مستمرّة، وقد تأثّر الشيخ خلاف بهذه الدروس وظهرت ثمارها الطيّبة في حياته العلمية بصفة عامة، وفي اجتهاداته بصفة خاصة.

وفي سنة 1907م أنشئت مدرسة القضاء الشرعي، كقسم من أقسام الأزهر، تابعة في إدارتها لوزارة المعارف، وكانت تضم نخبة ممتازة من علماء الأزهر، وخرّيجي مدرسة دار العلوم (كلية دار العلوم حاليا) فكانت نموذجا جيّدا للدراسة التي تجمع بين العلوم الأصيلة والحديثة من الرياضة، والقانون، وأدب البحث والمناظرة، وسائر العلوم الإنسانية.

لذلك التحق بها الشيخ خلاف، وانتفع بأساتذة هذه المدرسة، وحصل من العلوم والثقافات المختلفة حتّى نال شهادة «العالمية»، وعيّن مدرسا في هذه المدرسة، فأصبح عضوا في الهيئة التدريسية مع أساتذته الذين تلقى عنهم، وأسند إليه تدريس مادة «أصول الفقه» لطلبة القسم العالي بالمدرسة.

وفي سنة 1921م عيّن قاضيا بالمحاكم الشرعية، ثم مديرا للمساجد بوزارة الأوقاف المصرية، ثم مفتيا قضائيا للمحاكم الشرعية على مستوى الدولة، ومع هذه الأعمال الشاقة لم ينقطع عن تدريس مادتي: السياسة الشرعية، والتمرينات القضائية لطلبة قسم التخصص للقضاء الشرعي.

وفي آخر حياته عيّن أستاذًا للشريعة الإسلامية بكلّية الحقوق بجامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة حاليا). وظلّ يعمل في كلية الحقوق سنين عديدة وخاصة في قسم الدراسات العليا

حتّى خرّج العديد من طلبة العلم الذين غرس فيهم حب الشريعة الإسلامية.

كانت حياة الشيخ خلاف حافلة بالكثير من العلماء الذين أخذ عنهم سواء في الأزهر، أم في مدرسة القضاء الشرعي، أم في غيرهما. ومن شيوخه في الأزهر: الشيخ عبد الهادي مخلوف، والشيخ عبد الله دراز (ت 1351هـ)، والشيخ عبد الرحمٰن السويس (ت 1321هـ)، والشيخ صالح النواوي، والشيخ الإمام محمد عبده (ت 1323هـ).

ومن شيوخه في مدرسة القضاء الشرعي: الشيخ حسن منصور (1350هـ)، والشيخ حسين والي (1354هـ)، والشيخ أحمد أمين (1355هـ)، والشيخ أحمد إبراهيم (1364هـ)، والشيخ حمد الخضري (1387هـ).

أما تلاميذ الشيخ خلاف: فحدّث ولا حرج، فقد كان التدريس في عهده على طريقة الفصول الدراسية التي تجمع المئات من طلبة العلم، الأمر الذي يصعب على الباحث حصر هؤلاء التلاميذ. وأذكر منهم على سبيل المثال: محمد أبو زهرة (ت 1395هـ)، وعلي حسب الله (ت 1398هـ).

آثاره

ترك الشيخ خلاف ثروة علمية لها وزنها في المجالات المختلفة تتّسم بالأصالة والجدّة، والفهم الصحيح لروح الشريعة الإسلامية ومقاصدها العامة، فضلا عن مقارنتها بالقوانين الوضعية، وبيان مميّزات التشريع الإسلامي من خلال هذه المقارنات:

1 ـ الحلقة الأولى من سلسلة الدراسات العليا في علم أصول الفقه في الاجتهاد بالنصوص؛ 2 ـ الحلقة الثانية من سلسلة الدراسات العليا في علم أصول الفقه في الاجتهاد بالرأي؛ 3 ـ نور من القرآن الكريم، في التفسير؛ 4 ـ علم أصول الفقه؛ 5 ـ السياسة الشرعية؛ 6 ـ نور على نور؛ 7 ـ تاريخ التشريع الإسلامي؛ 8 ـ الاجتهاد والتقليد؛ 9 ـ الأحوال الشخصية؛ 10 ـ أحكام المواريث؛ 11 ـ مصادر التشريع الإسلامي فيما لا نص فيه؛ 12 ـ مرونة مصادر الفقه الإسلامي؛ 13 ـ تفسير النصوص القانونية وتأويلها؛ 14 ـ القواعد الأصولية اللغوية.

المصادر والمراجع

• المراغي، عبد الله مصطفى، الفتح المبين في طبقات الأصوليين، المشهد الحسيني بالقاهرة، 3/ 206 ـ 208؛ • الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط 1، 4/ 184؛ • علام، مهدي، المجمعيون في خمسين عاما، ط. مجمع اللغة العربية بالقاهرة، 1406هـ/ 1986م، ص117.

د. شعبان محمد إسماعيل
جامعة أم القرى ـ مكة المكرمة ـ السعودية

ابن الخلخالي، شمس الدين محمد بن مظفر

(ت 745هـ/1344م)

الإمام شمس الدين محمد بن مظفر الخطيبي المعروف بابن الخلخالي، نسبة إلى خلخال بخائين معجمتين مفتوحتين، وهي قرية في نواحي السلطانية [الإسنوي، طبقات الشافعية، 1/ 505؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، 4/ 260؛ ابن العماد، شذرات الذهب، 6/ 144 ـ 145].

اشتغل الخلخالي بالأصول، والفقه، والمنطق، والمعاني والبيان حتى تضلّع من هذه العلوم، وصنّف فيها كتبا مفيدة تشهد بتفوّقه في المعقول والمنقول، وتكاد كلمة مترجميه تطبق على إمامته فيهما، فقد ورد في طبقات الشافعية للإسنوي، والدّرر الكامنة لابن حجر، وبغية الوعاة للسّيوطي أنّه «كان إماما في العلوم العقلية والنقلية». والغريب أن كتب التراجم والطبقات التي وقفت عليها لم تتعرّض لأطوار حياته العلمية مع توفّر الدواعي الموجبة لذلك، فهي لم تفصح عن شيوخه الذين تكوّن بهم وأفاد منهم تلك العلوم، ولا عن تلاميذه الذين أخذوا عنه وتخرّجوا به.

توفي سنة 745هـ بأزّان بهمزة مفتوحة وراء مهملة مشدّدة وبالنون.

آثاره

ألّف كتبا نفيسة اشتهرت في عصره، وانتفع بها خلق كثير منها:

1 ـ شرح مشكاة المصابيح للإمام حسين بن مسعود الفراء البغوي الشافعي سمّاه «تنوير المصابيح»، وقيل «المفاتيح»؛ 2 ـ شرح المختصر، ومنتهى السؤل والأمل في علمي الأصول والجدل لابن الحاجب؛ 3 ـ منظومة في المنطق؛ 4 ـ شرح مفتاح العلوم للسكّاكي؛ 5 ـ تلخيص المفتاح للقزويني في المعاني والبيان، صدّره بقوله «الحمد لله الذي أسبغ على الإنسان نعمه ظاهرة وباطنة» ذكر فيه أن المتن مشتمل على مباحث شريفة لا تكاد توجد في غيره من الكتب ولم يكن له غير ما هو كالشرح له من كتابه الإيضاح وشرحه شرحا وافيا مشيرا إلى أجوبة ما اعترض به مؤلفه فيه وفي كتابه الإيضاح على صاحب المفتاح وسمّاه مفتاح تلخيص المفتاح قال صاحب كشف الظنون «يفهم من عبارته أنّه أوّل من شرحه في ظنّه» [الإسنوي، طبقات الشافعية، 1/ 505؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، 4/ 260؛ السيوطي، بغية الوعاة، 1/ 247؛ حاجي خليفة، كشف الظنون، ص474، 1344، 1699، 1764، 1855].

المصادر والمراجع

● الإسنوي، طبقات الشافعية، تح. الجبوري عبد الله، مطبعة الإرشاد بغداد، ط 1، 1390هـ/ 1970م، 1/ 505؛ ● ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تح. محمد سيد جاد الحقّ، دار الكتب الحديثة، 4/ 260؛ ● ابن العماد،

شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح. محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، 6/ 144 - 145؛ ● السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تح. محمّد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1/ 247؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، تصحيح محمد شرف الدين بالتقايا، وكالة المعارف، 1362هـ/ 1943م، ص474، 1344، 1699، 1764، 1855؛ ● البغدادي، إيضاح المكنون، في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار الفكر، ط 1402هـ/ 1982م، 1/ 334؛ ● م.س، هدية العارفين، أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، استنبول 1955م، 2/ 153؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، ط4، 1399هـ/ 1979م، 7/ 105؛ ● كحّالة، معجم المؤلفين تراجم مصنّفي الكتب العربية، مطبعة التّرقّي، دمشق 1376هـ/ 1956م، 12/ 38 - 39.

د. برهان النفاتي
جامعة الزيتونة - تونس

ابن خلدون، أبو زكرياء يحيى بن محمد

(734هـ/ 1333م - 780هـ/ 1378م)

هو أبو زكريا يحيى بن محمد بن محمد بن خلدون، مؤرّخ وأديب وشاعر، أندلسي الأصل، وتونسي النشأة والقرار، له «معرفة بالتاريخ القديم والحديث واقتدار على سبك الكلام الرّائق وحوك النّظام الفائق» حسب عبارة أبي الوليد بن الأحمر.

هو شقيق عبد الرحمٰن بن خلدون الأصغر منه، انحدر من أسرة عربيّة أندلسيّة عريقة في العلم، هاجرت إلى تونس بعد سقوط مدينة إشبيليّة.

علّم مثل أخيه مبادئ اللّغة العربيّة، والحديث، وتتلمذ في الفقه على أبيه وعلى عدد من الشيوخ نذكر منهم: أبا عبد الله محمد بن برّال القرشي، أصله من بلنسيّة، تضلّع في القراءات؛ وأبو العبّاس أحمد بن محمّد بن القصّار، المتوفّى سنة 800هـ/ 1397م، وكان نحويًا بارعا؛ وأبا عبد الله بن العربي الحصائري، تضلّع بدوره في النحو؛ وأبو عبد الله محمّد بن يحيى، درّسه الشعر العربي.

كما أخذ الفقه من مشاهير علماء تونس عصر ذاك، ونذكر من بينهم: أبا عبد الله محمد بن جابر الوادي آشي، 749هـ/ 1348م درّس الحديث والفقه، وألّف كتاب البرنامج؛ ومحمد بن عبد السّلام الهواري، 749هـ قاضي الجماعة بتونس، وأحد أعلام المذهب

المالكي في بلاد المغرب، وقد أخذ منه كذلك ابن عرفة، وعبد الرحمٰن بن خلدون؛ وأبو القاسم محمد بن القصير، درّس كتاب التهذيب للبرادعي.

ولما قدم أبو الحسن المريني إلى تونس في 8 جمادى الثانية 748هـ/ 1347م، أخذ مثل أخيه من العلماء المرافقين للحملة، وكان من بينهم: أبو عبد الله محمد السّطي، فقيه فاسي توفي سنة 750هـ/ 1349م، ودرّس الفقه المالكي؛ وأبو محمد بن عبد المهيمن الحضرمي، ولد بسبتة وعاش بين سنتي 675هـ/ 1276م - 749هـ/ 1348م، أديب بارع.

وابتداء من سنة 753هـ/ 1352م بدأت رحلة عبد الرحمٰن بن خلدون في اتجاه بسكرة ثم تلمسان، ففاس. ولئن غاب ذكر يحيى وقتذاك، فإنّه استقرّ بفاس مع أخيه، بعد سنة 755هـ، حيث التقى بأمير بجاية السابق أبي عبد الله محمد الحفصي وبعلماء المغرب والأندلس (ابن الخطيب، وأبي عبد الله الشريف)، وتولّى ابتداء من سنة 761هـ/ 1359م خطة كاتب بديوان الإنشاء بفاس.

لمّا تحرّك السلطان المريني أبو سالم إلى تلمسان سنة 761هـ/ 1359م، سرّح أبا عبد الله محمد بن أبي زكريا الحفصي وأعاده إلى إمارة بجاية، للتصدّي لأبي إسحاق ابراهيم، سلطان تونس.

ولمّا تمكّن محمّد الحفصي من استعادة بجاية سنة 765هـ/ 1363م، بمساعدة يحيى، والقبائل البدويّة (الذواودة، وسدويكش)، عيّن صاحبه على الحجابة.

ثم رحل يحيى إلى تلمسان في رجب 769هـ/ فيفري 1368م، فولّاه أبو حمّو موسى كتابة السرّ بديوان الإنشاء، وظلّ في هذه الخطّة إلى أن غادرها إلى فاس سنة 772هـ. ولمّا عاد إلى تلمسان سنة 775هـ/ 1373م، تولّى ذات الخطّة لدى أبي حمو، وحظي بثقته حتى أثار حسد أتباعه، وخصوصا ابن السلطان، أبو تاشفين الثاني الذي اعتقد أنّه عرقل تعيينه على ولاية وهران، فدسّ له من قتله في رمضان 780هـ/ ديسمبر 1378م. وبالتالي، فقد اطلع عن كثب على البلاط السلطاني في المدن المغاربيّة، وعلى حياة القبائل البدويّة بذات القدر وهو ما يسّر له التأليف في تاريخ الزيّانيين.

آثاره

لئن كانت رسائله الديوانيّة التي حرّرها لم تصلنا، فإنّ أهمّ أثر له هو «بغية الرّواد في أخبار بني عبد الواد وأيّام أبي حمّو الشامخة الأطواد»، وقد ورد أيضا تحت عنوان: «بغية الرواد في ذكر الملوك». من بني عبد الوّاد. وفي بعض النسخ المخطوطة: «نجعة الرّواد». وهو كتاب تاريخ، شرع في تأليفه على الأرجح أثناء إقامته الأولى في البلاط الزيّاني سنوات 769هـ/ 1367م - 772هـ/ 1370م، وخصوصا بين سنتي 774هـ/ 1372م - 775هـ/ 1373م.

وقد كان لابن الخطيب تأثير كبير في حذقه لعلم التاريخ، وتأليفه لهذا المصنّف، إذ لازمه رفقة أخيه عبد الرحمٰن بفاس سنوات 773هـ/ 1371م - 775هـ/ 1373م. كتب يحيى بن خلدون هذا الكتاب تقرّبا للسلطان أبي حمّو موسى عند عودته ثانية الى تلمسان سنة

775هـ ويرجّح أن يكون أنهى الجزء الأول في بداية سنة 776هـ/ 1374م والثاني في أوائل سنة 777هـ/ 1375م.

يتناول الكتاب تاريخ الدولة الزيانيّة بتلمسان، منذ النشأة إلى عصر المؤلف. وقد صنّفه بطلب من السلطان أبي حمو موسى، حسبما ذكر ذلك في المقدّمة. وتناول في القسم الأوّل قبيلة بني عبد الواد التي ينحدر منها الزيّانيون، ثم مدينة تلمسان، قاعدة البلاد، وتعاقب الدولة عليها قبل نشأة الإمارة الزيانيّة.

وعالج القسم الثاني بداية نشأة الإمارة، زمن يغمراسن بن زيّان، وأبنائه وصولا إلى استيلاء أبي الحسن المريني على المدينة، على أنّ هذا التأليف المخصّص لإبراز أمجاد بني زيان لم يول اهتماما خاصا بهذه الحقبة المتميّزة بسيطرة المرينيين.

أما القسم الثالث، فقد اهتمّ بفترة حكم أبي حمو موسى الثاني الى حدود سنة 776هـ، فتحدّث عن خصاله وآبائه، ثم استعرض حسب نظام الحوليات تاريخ هذا السلطان، يتخلّلها استطرادات وأشعار.

راوحت مصادره بين المصنّفات التاريخيّة والفقهيّة من جهة، والوثائق المعاصرة، والرّوايات الشفويّة والمشاهدة التي اعتمدها عند تأريخه لعصره، من جهة ثانية. فقد اعتمد الطبري والمسعودي والبكري والزهري، وكذلك مصنفات المحدّثين مسلم والدّارقطني والهروي. ولئن لم يكن على غرار أخيه مجدّدا في المنهج التاريخي، فإنّه سار على منوال مؤرخي القرنين السابع والثامن هجري (عبد الواحد المراكشي وابن الخطيب) في التقديم بدراسة الإطار الجغرافي والوسط الاجتماعي والثقافي، وحاول التوفيق بين عمل المؤرخ الموضوعي الناقل للحقيقة ورجل البلاط المتّصل بالسّلطان.

و تأثّر في أسلوبه بابن الخطيب، وذلك في الدقة في الوصف وبديع العبارة، دون استعمال مفرط للسّجع.

المصادر والمراجع

● ابن خلدون، يحيى، تاريخ بني عبد الواد ملوك تلمسان، نشره ألفرد بل A.Bel (مع ترجمة فرنسيّة) جزءان، الجزائر 1904 - 1913؛ A.Bel, Histoire des Beni Abdel-Wâd, roi de Tlemcen, 1913-1904 jusqu'au règne d'Aboû Hammoû Moussa II, Alger, Fontana 1903 ● م.س، بغية الرّواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تح. عبد الحميد حاجيات، الجزائر 1980؛ ● ابن خلدون، عبد الرحمن، العبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1983، 7/ 802 - 848؛ ● التبسّي، محمد، نظم الدّرر والعقيان في بيان شرف بني زيّان، تح. محمود بوعياد، الجزائر 1985؛ ● ابن الخطيب، لسان الدّين، الإحاطة في أخبار غرناطة، تح. عبد الله عنان، القاهرة 1976، ص 497، 516، 1036؛ ● المقرّي، أحمد، نفح الطيب في غصن الاندلس الرّطيب، دار صادر، بيروت 1968، 7/ 218 - 219؛ ● م.ن، أزهار الرّياض في أخبار عياض، تح. محمد بن تاويت وسعيد اعراب، الرباط، 1/ 202 -

212؛ • ابن الأحمر، أبو الوليد، مستودع العلامة ومستبدع العلامة، تطوان 1964؛ • ابن مخلوف، محمد، شجر النور الزكية، دار الفكر، دار الكتاب اللبناني د. ت، ص228؛

• A.Bel, Ibn Khaldoun, Yahya dans EI(2), T III / 855-856; • G.Marçais, art. Abdal-Wadides, dans EI(2), T I / 95-97.

د. محمد حسن

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية - تونس

ابن خلدون، أبو مسلم عمر بن أحمد بن تقي

(ت 449هـ/1057م)

عمر بن أحمد (أو محمد) بن تقي بن عبد الله بن خلدون الحضرمي الإشبيلي الأندلسي، أبو مسلم، أقدم مَنْ أشار إليه صاعد الأندلسي (ت 462هـ/ 1070م)، فكتب: من أشراف أهل إشبيلية، كان متصرفًا في علوم الفلسفة، مشهورًا بعلم الهندسة والنجوم والطب، متشبهًا بالفلاسفة في إصلاح أخلاقه وتعديل سيرته، وتقويم سياسته، توفي ببلده في السنة التي أثبتناها [صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، 172].

ولد في الربع الأخير من القرن الرابع الهجري تقديرًا في مدينة إشبيلية ونشأ فيها وهو من أشرافها، تلقى علومه وتتلمذ لمسلمة بن أحمد المجريطي (ت 398هـ/ 1008م)، الذي يوصف بأنه إمام الرياضيين في عصره وأعلم من كان قبله بالفلك، والذي ساهم بتألقه العلمي ونشاطه الواسع بتشكيل مدرسة راقية في مدينة قرطبة في تخريج الرياضيين والفلكيين [صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، ص40].

اشتهر عمر بن خلدون بتفوقه في علوم الفلسفة وعلى الأخصّ في ميدان الهندسة والطبّ وعلم الأفلاك وحركات النجوم، نظرًا للعلاقة الوثيقة بين الرياضيات والفلك وهو ما يسفر عن ظاهرة الجمع بين هذه العلوم والبراعة فيها لدى كثير من علماء الأندلس، كما اشتهر عمر بن خلدون بجميل الأخلاق وحسن السيرة والمسلك وهي الصفات التي خلعها عليه من أرّخ له وترجم لحياته، ولعلّ السبب يعود إلى ما اكتسبه من علم وآداب وفلسفة أخلاقية سامية انعكست على سلوكه الاجتماعي.

كان عمر بن خلدون شديد الشغف بعلوم الأوائل، بارعًا في دراسة الفلسفة وأقسامها، وقد دفعه ذلك إلى الاشتهار بممارسة الطب كعلم تجريبي يعتبر متفرّعًا من العلم الطبيعي، الذي يشكل بدوره مع العلم الرياضي العلم الإلهي، الجزء النظري من الفلسفة بحسب التقسيم العام القديم للعلوم [الذاكري، محمد

فؤاد، محنة الفكر الطبي، 99]. والواقع أنّ الأطبّاء في الأندلس توصّلوا إلى علم واسع ونظر دقيق في مسائل الطب، وتمكّنوا من إحداث تطوّر جذريّ في المسيرة العلمية الطبية.

وكانت لأبي مسلم بن خلدون الإشبيلي مراسلات علمية مع أحمد السرقسطي (ت 448هـ/ 1056م)، أنشأ رسالة إلى أبي مسلم بن خلدون الاشبيلي يذكر فيها فساد مذهب السندهند في حركات الكواكب وتعديلها [صاعد، طبقات الأمم، 175؛ طوقان، تراث العرب، 344]. ولعل ذلك وقع حين كان أبو مسلم بن خلدون يدرس زيج السندهند وحركات الكواكب في إشبيلية.

وكان عبد الله بن أحمد السرقسطي قد قعد في بلده سرقسطة ليعلم الهندسة والنجوم، ويوصف بأنه من أحسن العلماء تصرفًا في الهندسة والأكثر ضبطًا لأصولها، وذلك بفضل مساهمته الهندسية في إنشاء العديد من الأبنية في سرقسطة.

ويتضح من أبحاث علماء الفلك والهندسة الأندلسيين، أنهم لم يقبلوا ما وصلهم من نظريات فلكية أو هندسية دون تمحيص ودراسة وتجربة، وإنما أعادوا النظر فيها وحرروها بعد إثبات خطأ من سبقهم، وألفوا الرسائل والكتب الفلكية في ذلك. يقول صاعد الأندلسي: ورأيت رسالة له أي لعبد الله بن أحمد السرقسطي (ت 448هـ)، كتب بها إلى أبي مسلم بن خلدون الإشبيلي، وفيها يذكر فساد مذهب السندهند في حركات الكواكب وتعديلها ويحتج بأشياء، [صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، 171]، ويضيف صاعد، «قد رددنا عليها، وبيّنا موضع الغلط منها في كتابنا «إصلاح حركات الكواكب والتنبيه على أخطاء المنجمين [صاعد، طبقات الأمم، 175]، وهذا يفيد بالأهمية التي أولاها علماء الأندلس لعلوم الحساب والفلك والهندسة والنجوم، لاتصالها الوثيق مع بعضها، وضرورتها لأمور الدين والدنيا [كريم، عجيل حسين، الحياة العلمية، 482 ـ 483].

ولم تنسب إلى عمر بن خلدون مؤلفات ولعلّ انشغاله بالمجالس العلمية وما يدور فيها من مناقشات ومباحثات والممارسة العلمية للطب والفلك ومراقبة حركات النجوم واستخدام آلات الرصد، لم تدع له مجالا للتأليف، ولا يقلّل ذلك من مكانته العلمية ولا يقدح في فضله وعلوّ بُعده بأنّه من المساهمين والمشاركين في ارتقاء الحركة العلمية في الأندلس بعد أن شهد له جمع من المؤرخين.

وقد وقع خلط في ترجمة عمر بن خلدون الحضرمي فقد ذكر ابن أبي أصيبعة أنّ ابن السفار المنطبب من تلامذته، وقد جانبه الصواب، فمن المعروف بأنّ ابن الصفار المتوفى سنة 426هـ/ 1035م، أي قبل عشرين عامًا ونيفا من وفاة عمر بن خلدون هو في الواقع من أشهر تلامذة أبي القاسم، مسلمة المجريطي وزميلٌ لا تلميذا لعمر بن خلدون كما ذكر صاعد، الذي نقل عنه ابن أبي أصيبعة هذه المعلومة [صاعد، المرجع السابق ص91].

كما حصل التباس لدى بعض الباحثين المعاصرين أمثال عبد الحليم منتصر في تاريخ العلم، وقدري طوقان عندما أشارا إلى أنّ أبا

مسلم، ابن خلدون الحضرمي هو مؤلّف الكتاب الشهير مقدّمة ابن خلدون.

المصادر والمراجع

● ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق نزار رضا، بيروت، دار مكتبة الحياة، 1965؛ ● ابن بشكوال، الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم، القاهرة؛ ● ابن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، تح. عبد السلام محمد هارون، مصر، دار المعارف، 1977؛ ● أحمد تيمور باشا، المهندسون في العصر الإسلامي، القاهرة، الفجالة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، 1977؛ ● انخل جنثالث بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، تعريب حسين مؤنس، مصر، مكتبة النهضة المصرية، 1955م؛ ● الزركلي، خيرالدين، الأعلام، قاموس وتراجم، بيروت، دار العلم للملايين، 1979، ج7؛ ● صاعد بن أحمد الأندلسي، طبقات الأمم، تح. حياة بو علوان، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، 1985؛ ● الصفدي، خليل بن ايبك، صلاح الدين، الوافي بالوفيات، ج22، عناية رمزي البعلبكي، فسبادن، دار النشر فرانز شتاينر، 1404هـ/ 1983م؛ ● م.س، الوافي بالوفيات، ج7، عناية إحسان عباس، فسبادن، دار النشر فرانز شتاينر، 1389هـ/ 1969م؛ ● طوقان، قدري حافظ، تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، بيروت، دار الشروق، 1963؛ ● العزاوي، عباس، تاريخ علم الفلك في العراق، بغداد، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، مطبعة المجمع، 1378هـ/ 1958م؛ ● القفطي، علي بن يوسف، جمال الدين، تاريخ الحكماء، عناية جوليوس ليبرت، طبع ليبزج، 1903، (مصور، بغداد، مكتبة المثنى، مصر، مؤسسة الخانجي، د.ت)؛ ● كريم، عجيل حسين، الحياة العلمية في مدينة بلنسية، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1396هـ/ 1976م؛ ● المراكشي، محمد بن محمد بن عبد الملك، الذيل والتكملة، تح. إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، 1964؛ ● المقري، أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح. إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1388هـ/ 1968م، المجلد الثالث...

د. محمد عيسى صالحية
جامعة اليرموك ـ الأردن

د. محمد فؤاد الذاكري
باحث في التراث ـ حلب ـ سوريا

ابن خلدون، وليّ الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد

(732هـ/1332م - 808هـ/1406م)

أبو زيد ولي الدين عبد الرحمٰن بن خلدون مؤرّخ وصاحب أوّل كتاب في فلسفة التاريخ والاجتماع البشري بين علماء الحضارة العربية الإسلامية.

ينحدر ابن خلدون من أسرة عربيّة حضرمية جدّها «وائل بن حجر الكندي» الذي وفد على رسول الله فهشّ له وزاد في إكرامه. هاجر أسلافه إلى الأندلس واستقرّوا في إشبيلية في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي بزعامة جدّهم الذي ينتسبون إليه وهو «خالد بن عثمان» الذي عرف بـ«خلدون».

حاز بنو خلدون على منزلة عالية في إشبيلية، فقد وصف بيت بني خلدون بأنّه: «لم تزل أعلامه بين رئاسة سلطانية ورئاسة علميّة» [ابن خلدون، التعريف، ص7] لكن آخر أدوارهم في الأندلس كان في أيّام «ابن عباد» أثناء معركة الزلاقة 479هـ/ 1086م، عندما حاربوا إلى جانبه ضدّ المرابطين، وكان من نتيجة ذلك ارتحالهم إلى سبتة ثمّ إلى تونس في أواسط المائة السابعة. وفي تونس عمل جدّ ابن خلدون محمد بن الحسن لدى الحفصيين إلى أن اعتزل.

ولد ابن خلدون في تونس، ونشأ في ظلّ والده، الذي كان أكثر اهتماما بالعلم وأقلّ رغبة بالسياسة من جدّه، ونشأ في ظل الوالد العالم، فتلقّى تعليما جيّدا على يديه، وعلى شيوخ تونس في عصره. فقرأ القرآن على أبي عبد الله محمد بن سعد بن برال الأنصاري وكان إماما في القراءات، وقرأ العربية على والده وعلى الشيخ أبي عبد الله بن العربي الحصيري، وعلى إمام العربيّة والأدب أبي عبد الله محمد بن بحر [التعريف، ص19]، ودرس الفقه على أبي القاسم محمد القصير، ومحمد بن عبد الله الجيّاني. أخذ العلوم العقلية عن أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي، الذي ينسب إلى آبلة في الأندلس وكان من تلامذته المبرزين.

دخل ابن خلدون العمل الديواني سنة 751هـ/ 1350م عندما كلفه الحاجب ابن تفراجين خطة كاتب العلامة للسلطان أبي إسحاق، لكن عندما غزا إفريقية أبو زيد سلطان قسطنطينة، سنة 753هـ/ 1352م التجأ ابن خلدون إلى تبسة فقفصة فبسكرة قبل أن يلتحق بفاس سنة 754هـ/ 1353م وينضمّ إلى مجلس أميرها أبي عنان ويتقلّد خطة كتابته. ومن هذا التاريخ إلى سنة 776هـ/ 1375م عاش ابن خلدون مختلف التقلّبات السياسية بفاس، وغرناطة، وبجاية وتقلّد خطط الحجابة والقضاء لدى مختلف السلاطين والأمراء وزج به في السجن مرّتين! وتعرّف على ابن الخطيب عندما التجأ أمير غرناطة إلى فاس سنة 763هـ/ 1362م صحبة وزيره صاحب الإحاطة، فقامت بينهما صداقة استمرّت إلى

أن قتل هذا الأخير خنقا في سجنه. وهكذا خاض ابن خلدون معترك السياسة طوال حياته، وتقرّب إلى الحكّام، وانغمس بالصراعات بين رجال السياسة، ممّا جلب عليه الكثير من المتاعب في كلّ مراحل حياته تقريبا. سواء في تونس، أو المغرب، أو الأندلس، أو مصر، فخلق ذلك له الكثير من الخصوم والمنازعين، فاكتوى ابن خلدون بنار السياسة وتعرّض للكثير من الدسائس والوشايات، ووقع في أحيان كثيرة ضحيّة لها، كما تقلّب أحيانا في نعيمها. لذا نجد من كال له المديح حينا، شخصية وأعمالا، كما نجد بالمقابل من حطّ من قدره لدرجة نزعت عنه كلّ ميزة طيّبة.

والدارس الموضوعي لايستطيع قبول هذا الطعن، كما لا يستطيع رفضه تماما وتنزيه شخصية كان همّها في الكثير من الأحيان التقرّب من السلطان، وهنا تحضر عبارة ختم بها ابن تغري بردي (ت 874هـ/ 1470م) ترجمته لحياة ابن خلدون إذ قال: «رحمه الله ما كان أحبّه في المنصب» [المنهل، ج7].

وفي سنة 776هـ/ 1375 غادر ابن خلدون تلمسان والتجأ إلى حي من العرب هم بنو عريف فأنزلوه بقلعة أولاد سلامة في ناحية تلمسان حيث أقام أربع سنوات (776هـ/ 1375م - 780هـ/ 1379م).

لهذه الإقامة أهمّية كبرى في حياة ابن خلدون، العالم والمؤرّخ والفيلسوف، إذ مكّنته من فرصة للعلم والتفكير بعيدا عن مرافقة السلاطين، فبدأ هنا بوضع كتاب «العبر» كما أنهى وضع «المقدمة»، يقول هو: «وشرعت في تأليف هذا الكتاب وأنا مقيم بها، وأكملت المقدّمة منه على ذلك النحو الغريب، الذي اهتديت إليه في تلك الخلوة» [التعريف، ص 246].

بعد هذه الخلوة عاد ابن خلدون إلى تونس بعد أن سمح له أميرها الحفصي أبو العباس (771هـ/ 1370م - 796هـ/ 1394م) بالعودة، وذلك «قصد مطالعة الكتب والدواوين التي لا توجد إلا بالأمصار» لتنقيح ما أملاه من المحفظ وهو يضع كتابه في التاريخ. فتصدّر للتدريس ولقيت دروسه إقبالا كبيرا ممّا أثار حفيظة إمام الجامع وشيخ الفتيا محمد بن عرفة وكانت حسب عبارة ابن خلدون «في قلبه نكتة من الغيرة» لما كان يتمتّع به صاحب المقدّمة من امتياز عليه، ممّا دفعه إلى مغادرة تونس إلى مصر سنة 784هـ/ 1382م بعد أن توسّل من السلطان ليسمح له بقضاء فريضة الحج [التعريف، ص 262]. هكذا عزم على مغادرة تونس عزما سيدخله في مرحلة جديدة من حياته، ستخرجه ليس من تونس فحسب بل ومن كلّ بلاد المغرب، ومن خدمة سلاطينه، ليدخل سريعا في خدمة سلاطين مصر المماليك. وستمثّل هذه المرحلة الثلث الأخير من حياته ميدانها المشرق، ومصر تحديدا وحكّامها «برقوق»، و«فرج».

كانت سمعة ابن خلدون قد سبقته إلى مصر التي وصلها أواخر عام 784هـ فعمل بالعلم إلى أن حظي بمقابلة السلطان «الظاهر برقوق» الذي ولّاه منصب قاضي قضاة المالكيّة في القاهرة سنة 786هـ.

لكن لم يستمرّ طويلا في المنصب نظرا لما أثير حوله من حسد، ولحادثة ألمّت به شخصيا، وهي فقدانه لأفراد أسرته أثناء

سفرهم بالسفينة من تونس إلى الإسكندرية، نظرا لغرق سفينتهم مقابل ميناء الإسكندرية، ممّا أوقعه في خضم الأسى والحزن. فعاد للعلم والتدريس، وهنا يذكر أنّ ابن خلدون عمل مدرّسا في ثلاث مدارس مشهورة في القاهرة، هي المدرسة القمحيّة التي بناها صلاح الدين سنة 566هـ للمالكية وعرفت بالقمحية نسبة إلى القمح الذي كان يوزّع على مدرّسيها من ضيعة موقوفة عليها بالفيّوم. والمدرسة الظاهريّة، التي بناها «الظاهر بيبرس»، عام 662هـ فنسبت إليه، وهي من أجمل مدارس القاهرة. ومدرسة صرغتمش الناصري، عام 759هـ بجوار جامع ابن طولون.

أدّى ابن خلدون فريضة الحج سنة 789هـ أي بعد خمس سنوات من عزيمته الأولى عليها. وعاد إلى القاهرة دون أن يقيم طويلا هناك، وقيل إنه حاول الانسحاب من الوظائف السلطانيّة ليستمرّ في العلم والتدريس [Wustenfeld, p. 198]، ونرى أنّ علاقته بالسياسة والسلطان لم تمكّنه من هذه المحاولة لأنّ مجريات حياته التي نعرفها عن طريقة نفسه، ومرافقته للسلطان فرج إلى دمشق لصدّ غزوة تيمورلنك عنها عام 803هـ، ومقابلة ابن خلدون لتيمورلنك، وحسن استقبال الأخير له، إلى درجات الإعجاب، وسماحه له بالعودة، معزّزا مكرّما إلى القاهرة، بعد أن وضع له كتابا موجزا في وصف بلاد المغرب، وعودته إلى منصب القضاء في رمضان من نفس العام، لا تؤيّد القول إنه حاول الاشتغال بالعلم والعزوف عن السياسة، إذ تقلّب ابن خلدون خلال الفترة القادمة أي حتّى وفاته سنة 808هـ بين التعيين والعزل في منصب القضاء أربع مرّات. وقد توفّي وهو على رأس عمله ودفن في مقبرة الصوفية خارج باب النّصر بالقاهرة.

وأثناء إقامته بمصر عمل على ربط علاقة ودّ بين الملك الظاهر وسلطان تونس عن طريق تبادل الهدايا.

ولم يكن ابن خلدون مؤرّخا فحسب، بل كان كذلك أبرز كتّاب السياسة والاجتماع في العهد الوسيط، ومفكّرا عبقريّا اهتدى إلى وضع علم جديد هو علم «العمران البشري» الذي عدّ أساسا لعلم الاجتماع في العهد الحديث. فلقد أجمع الباحثون شرقا وغربا على أنّه كان حقّا المؤسّس لعلم الاجتماع بما ابتكر من علم العمران البشري. لقد بيّن ابن خلدون خصائص هذا العلم في كتابه الشهير «المقدّمة» التي هي مقدّمة لكتاب في التاريخ العام، أي كتاب «العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر».

وتشتمل «المقدمة» على ستة أبواب:

1 ـ الباب الأوّل: في العمران على الجملة

2 ـ الباب الثاني: في العمران البدوي..

3 ـ الباب الثالث: في الدول العامة والملك والخلافة

4 ـ الباب الرابع: في البلدان والأمصار وسائر العمران

5 ـ الباب الخامس: في المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع

6 ـ الباب السادس: في العلوم وأصنافها والتعليم.

هذا الباب الأخير بالغ الأهمّية فهو ثلث الكتاب تقريبا. وهذه الأبواب الستة هي بكل وجوه العمران البشري حسب مفهومه العصري الذي يشمل أربعة فروع هي الاجتماع، والسياسة، والاقتصاد، والثقافة. وإذ يخصّ الباب السادس الثقافة فلأنّ الثقافة هي في نظره أهمّ مظاهر العمران البشري أي أهمّ مظاهر الحضارة الإنسانية.

فلذلك يمكن القول بأنّ العمران البشري هو في نظره الحضارة الإنسانية وبأنه لا حضارة إذن إلّا بالعلم، أي أنّ الحضارة تكتمل بالعلم، فالإنسان الذي هو مدنيّ بالطبع - على حدّ تعبيره وحسب مفهوم الحكمة عند قدماء المفكّرين، والعلماء اليونانيين وغيرهم من حكماء الخليقة - مضطرّ في حياته إلى الاجتماع بأخيه الإنسان، وهو يعيش مع أخيه الإنسان ليرتزق ويكسب ويصنع ويتعلّم ويتثقّف، فهو مدفوع بالطبع إذن إلى حياة التمدّن أي إلى الحضارة التي هي إذن الوجه الأكمل للعمران البشري.

يرى ابن خلدون أنه ابتكر هذا العلم على أساس التفكير العميق في موضوع التاريخ الإنساني، لكنّ هذا العلم هو في أصله مسائل من العلوم الحكمية المطروقة عند الأمم القديمة والتي تفرّعت فروعها وتنوّعت مناحيها ونمت مشاربها في العصر الحديث وهي التي تسمّى اليوم بالعلوم الدقيقة أو الصحيحة مثل: الكيمياء، والفيزياء، وسائر فنون علم الحساب، وفنون التقنية الحديثة التي نمت وتنوّعت على قدر نموّ البحث العلمي وتنوّعه وعلى قدر نموّ الاكتشافات والاختراعات وتنوّعها. وهذه العلوم الحديثة كلّها هي في أصلها ترجع إلى العلوم الكونية أو الدنيوية التي نمت ثم ازدهرت عند الأمم السالفة مثل أمّة اليونان قبل أن تنمو وتزدهر عند أمة الإسلام على منهج النظر العقلي، فسمّيت لذلك بالعلوم العقلية تمييزا لها عن العلوم النقلية القائمة على منهج السماع والرواية. وقد كانت العلوم العقلية رائجة في عصر ابن خلدون بالأندلس والمغرب كما كانت مزدهرة من قبل بالمشرق، إذ ازدهرت بالحواضر الإسلامية العامرة في المغرب مثل القيروان، وفاس، وقرطبة وفي المشرق مثل القاهرة، ودمشق، وبغداد المدينة العظمى إذاك حيث كان في زمن المأمون العباسي «بيت الحكمة» الشهير أي مدرسة العلوم العقلية في الثقافة الإسلامية.

لقد تغذّى ابن خلدون من العلوم العقلية بالزيتونة أخذا عن أستاذ الحكمة في عصره، أبي إبراهيم الآبلي عندما قدم إلى تونس صحبة السلطان المريني، لذلك تخرّج ابن خلدون من الزيتونة أكمل تخرّج وأمتنه في العلوم الشرعية وكذلك في العلوم العقلية، فلا عجب إذن أن طلع صاحب «المقدّمة» في مجال العلم والمعرفة مطلعا محكما على وحدة أصليّة بين منهلي المعرفة أي المنهل الشعوري والمنهل النظري، فانسجمت عندئذ في ذاته العالمة المعارف الشعورية الروحيّة والمعارف الفكريّة العقليّة، ولا عجب إذن أن نجد عنده في «المقدّمة» هذا الانسجام العميق في المعرفة بين العقيدة والعقل.

ذلك لأنّ في تفكيره مقاما بارزا للعقل يرتبط

ارتباطا جوهريا بنزعته في المعرفة وبمنزلته في الفكر العلمي، لا باعتبار الثقافة العربية فحسب بل كذلك باعتبار الثقافة الإنسانية إطلاقا.

وكما استحكم عند صاحب «المقدّمة» التكوين الثقافي على هذا المنحى المتكامل في المعرفة وعلى أساس حبّه العميق للدراسة والعلم، فإنه قد استحكم في نفسه حبّ شديد للجاه وطموح قويّ إلى المراتب العالية في مجال السياسة.

لقد خاض السياسة خوضا، طولا وعرضا، بالمغرب والأندلس ثم بمصر والشام، فجنى من ذلك تجربة جزيلة ومعرفة دقيقة بأحوال المجتمع العربي البربري الإسلامي، قلّما أتيحت لمثله من أهل الفكر قبله، وفي عصره، وبعد عصره. فقد اطّلع هكذا اطّلاعا جليّا على خصائص الحياة في البادية فلمس لمسا جيّدا طبائع العمران البدوي كما لمس لمسا جيّدا طبائع العمران الحضري بمدن المغرب مثل تونس، وفاس، وبجاية، وتلمسان، وكذلك بالأندلس لا سيّما بغرناطة، وكذلك بالقاهرة شرقا وبدمشق أيضا، وشاهد أحوال المعاش بالبادية وبالحواضر العامرة وما جرى بربوع المغرب، والأندلس، ومصر، والشام من وقائع جسام وما طرقها من طوارق الحدثان مثل الطاعون الجارف المبيد والفتن والحروب.

لذا تميّز ابن خلدون مؤرّخا عن سائر أسلافه من المؤرّخين لا في الثقافة العربية فحسب، بل كذلك في سائر الثقافات القديمة، لأنّه قصد في التأليف في التاريخ مقصدا جديدا ونحا نحوا مستحدثا وغريبا، ليس منه عند سلفه من المؤرّخين العرب والعجم أجمعين إلّا ملامح شاحبة وشذرات محدّدةلا يرتاح إليها الباحثون المتطلّعون إلى معرفة حقائق الأشياء وأسباب الأحداث وعلل الوقائع ومبادئها.

هذا، مع أنّ الطبري، وابن الأثير، والمسعودي، وهيرودوت وتوسديد قد اهتدوا إلى الربط من حين لآخر بين الأحداث وبين أسبابها فأماطوا اللثام عن بعض أصولها ومبادئها، وحاولوا نقدها أو تمحيصها أو التمييز بين صحيح الأخبار ومنتحلها. من ذلك ما يبدو مثلا عند ابن الأثير من بعض الحرص على النقد والتحقيق والتعليق على ما ينقل من الأخبار (كما هو شأنه في نقل أخبار غزوات رسوال الله: غزوة أحد مثلا)، ومن ذلك أيضا ما يبدو عند «توسديد» من الحرص في كلامه حول حرب البيلوبوناز Peloponese من صلة الأحداث بالأحوال الاجتماعية والأوضاع الاقتصادية، فكأنه متفطّن إلى ما يوجد من الصلة طبعا بين الأحداث وهذه الأحوال وإلى إخراج التاريخ إذن مخرجا علميا صحيحا.

لكن ابن خلدون قد تميّز عن هؤلاء الفحول من المؤرّخين أسلافه بأنه تجاوز درجة الاستيعاب في جمع الأخبار وسرد الوقائع ونقلها على حالها بالرواية من غير تمحيص (إلا قليلا) صحيحها وباطلها ومن غير نقدها والتعليق عليها (إلا قليلا)، لقد تجاوز تلك الدرجة إلى درجة النظر في الأحداث والتأمّل في مجراها للوقوف على أسبابها وإبراز عللها والكشف عن حقائقها، والاستكناه لمعانيها

الدقيقة والإدراك لأثرها ونتائجها وبالخصوص لاستخراج القوانين التي بمقتضاها ترتبط أعمال البشر وأفعالهم في حياتهم بأحوال معاشهم وأوضاع اجتماعهم وأنواع أنظمتهم السياسية ومنشآتهم الصناعية وأصناف علومهم وطرائق تعليمهم وطبائع ثقافاتهم.

وهو يحمل بشدّة في مقدّمته على منهج المؤرّخين السابقين مع أنّه اتّخذ من المسعودي نموذجا له، فقد وصفه بأنه أصبح أصلا يقتدي به من يأتي بعده. إذ قال عنهم: «زلت أقدام كثير من الأثبات والمؤرّخين الحفّاظ، فوقع نتيجة ذلك ضعفه والغفلة عن القياس في المغالط، لتلقيهم الأخطاء من غير بحث ولا رويّة، وبذلك غفلوا عمّا يحتاجه المؤرّخ من العلم بقواعد السياسة ومعرفة طبائع الموجودات».

ولذلك نجد ابن خلدون ينتقد بشدّة منهج الإسناد أي توثيق الخبر من خلال ناقله، ويرى نقد المتون كأصل للتاريخ، فيقول: «وأما الأخبار عن الوقعات فلا بدّ لصدقها وصحّتها من اعتبار المطابقة، فلذلك وجب أن يُنظر في إمكان وقوعها، وصار فيها ذلك أهمّ من التعليل ومقدّما عليه وإن فائدة الإنشاء مقتبسة منه فقط، وفائدة الخبر منه ومن الخارج بالمطابقة، وإذ كان ذلك فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الأخبار بالإمكان والاستحالة أن ينظر في الاجتماع البشري الذي هو العمران...»

إذن نظر ابن خلدون للتاريخ نظرة فلسفية لا نظرة أدبية تقليدية تلك التي كانت تعتبر التاريخ مجرّد جمع للأخبار على غرار الجمع للحديث النبوي سماعا وتدوينا، والقصد من ذلك إنما هو أخلاقي يعني إرادة الموعظة الصالحة والعبرة النافعة. أما ابن خلدون فهو نظر للتاريخ على أنه عِلم يكون القصد منه التفكير في أعمال البشر، والتأمّل فيما يصنعون وينشئون على وجه الأرض التي يعمّرونها، بل خُلقوا ليعمّروها، أي أنّ التاريخ هو عند صاحب «المقدّمة» النظر في منشئات الإنسان في اجتماعه ببني الإنسان. فهو إذن علم جليل لأنه ليس أجلّ ولا أسمى من تفكير العالم فيما يصنع الإنسان الذي هو أعزّ ما صنع الصانع الأوّل ﷻ، كما بيّن ذلك إخوان الصفاء في «الرسالة الجامعة»، فلقد ميّز الله تعالى الإنسان بالفكر كما بيّن ذلك حكماء الخليقة من قبل، مثل حكماء اليونان: سقراط، وأفلاطون، وأرسطوطاليس، وكذلك حكماء الثقافة العربية من فلاسفة الإسلام مثل الفارابي، وابن سينا، وإخوان الصفا بالمشرق، وابن الطفيل، وابن باجة، وابن رشد، الحفيد بالأندلس، تميّز به عن الحيوان الذي يشاركه في الغريزة والحواس.

لكن هل ابتكر ابن خلدون عِلمه هذا الذي يسمّيه عِلم العمران البشري أي الاجتماع الإنساني ابتكارا مطلقا؟ أي هل ابتكره من لا شيء؟ ألم يُسبق من أي عالم من علماء الخليقة إلى البحث في هذا العلم؟ ألم يُوجد عند أمّة الهند أو أمّة اليونان أو أمّة الفرس أو أمّة الرومان أو في الثقافة العربية بإحدى أمصار العلم الشهيرة بغداد، أو البصرة، أو الكوفة، أو القاهرة، أو القيروان، أو قرطبة، من طرق هذا العلم؟ ألم يطرق إخوان الصفاء هذا العلم في «رسائلهم» لا سيّما في «الرسالة الجامعة» ألم يطرق هذا العلم أفلاطون في

«الجمهورية» أو أرسطوطاليس في «السياسة». ألم يطرق هذا العلم ابن الطفيل في «حي بن يقظان»، أو الفارابي في «المدينة الفاضلة»؟. هل ابتدعه حقّا ابن خلدون بعد كل هؤلاء من فحول المفكّرين؟.

يقول ابن خلدون وكأنّه يجيب عن هذه الأسئلة: «ونحن ألهمنا الله إلى ذلك إلهاما وأعثرنا على علم جعلنا بين نُكره وجُهينة خبره، فإن كنت قد استوفيت مسائله وميّزت عن سائر الصنائع أنظاره وأنحاءه فتوفيق من الله وهداية».

لقد خالف إذن موضوع عِلمه مواضيع العلوم التي كانت للسلف، كما خالف منهجه مناهجها وإن وُجد منه مسائل مبعثرة عندهم، فإنه استوفى إخراج مسائله وإقامة هيكله وأكمل مطارقه حتّى أنزل نفسه مفكّرا منزلة فائقة بين أقطاب الفِكر الإنساني جعلت منه حَلقة من حلقات تقدّم الفكر من أرسطوطاليس Aristote، وأفلاطون Platon إلى مونتسكيو Montesquieu، وكوندورسي Condorcet، وكونت Comte، وسبانسر Spencer، أي بين أولئك المفكّرين الذين ملؤوا ربوع أوروبا بنور الفكر الصحيح في عصر النهضة La renaissance الباهرة، فابن خلدون هو إذن حَلْقة وسطى قبل ديكارت Decartes، ولايبنتز Leibnitz، وكانط Kant، عندما كانت ربوع النصرانية قد أخذت تتأهّب لثورة فكرية بعدية المدى، وتتحفّز لبحث ثقافي كان له ما كان من الأثر الحميد في التقدم والرقيّ الحضاري، وأن ابن خلدون لهو إذن حلقة وسطى بعد ابن رشد الحفيد Averroes عندما كان العالم الإسلامي ينحدر في مزالق التقهقر الفكري ويتردى في مهاوي الانحطاط السياسي والاقتصادي قد دهمه المغول شرقا وعبثت به الفِتن غربا، واكتسحت دياره جموع النصرانية الصليبية الغازية فأخذت تنطفىء بربوعه أنوار الحضارة، وبدأ يهوى بسمائه نجم العلم والمعرفة وتكسد سوق الثقافة وتنضب ينابيع الغضارة الحضارية.

لكل هذا تمثل مقدمة ابن خلدون حدثا هاما في الفكر الانساني بما فيها من ثراء فكري اعتبره الكثير من المختصين منطلق اختصاصات وعلوم متنوّعة من تاريخ ذي صبغة علمية وفلسفة التاريخ وعلم الاجتماع. لكن مع هذا فلا يبدو أنه توصّل في كتاب العبر إلى تطبيق دقيق للمنهجية التاريخية التي وضع أسسها في مقدّمته.

■ آثاره

اشتهر ابن خلدون بمقدّمته وبكتابه في التاريخ العام، ويمكن اعتبار هذين المصنّفين مع كتابه في التعريف بنفسه موسوعة تاريخية ذات وحدة متكاملة، ولابن خلدون، أيضًا مصنّفات أخرى من قبيل الشروح والمختصرات.

1 ـ المقدّمة، طبع هذا الكتاب طبعات عديدة منذ 1274هـ/ 1857م، لكنها لم تحظ إلّا بنشرات غير دقيقة عدا الطبعة الأولى التي أصدرها كاترمير E. Quatremere في باريس 1858م والتي تبقى محتفظة بدقّتها وتفوّقها على ما نشر من سواها رغم مرور ما يقرب من القرن ونصف من الزمان منذ صدورها.

وقد ترجمت المقدّمة إلى الفرنسية وصدرت عام 1868م في باريس على يد دي سلان De Slane. وترجمت إلى الإنكليزية بعد ذلك

علـى يـد فـرانـز روزنـتـال F. Rosental، وصدرت عام 1958 في نيويورك. وترجمت إلى الأورديّة، وصدرت في ثلاثة مجلّدات في لاهور 1924 ـ 1932م، وكانت قبل ذلك قد ترجمت لأوّل مرّة إلى لغات أخرى عندما قام بنقلها إلى التركيّة العالم المعروف محـمـد صاحـب الـشـهـير بـيـري زاده (ت 1162هـ/ 1749م) وأعطاها اسم «عنوان السير»، ثم قام أحمد جودت باشا بترجمة المقدّمة سنة 1275هـ ـ 1277هـ. ووضع أحد العلماء الأتراك هو صبحي باشا تكملة للعبر في جزئين طبعًا في اسطنبول عام 1278هـ [بـدوي، مـؤلـفـات، ص223 ـ 226]؛ 2 ـ العبر وديوان المبتدإ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، يبدو أن أخبار البربر هو أصل خطة الكتاب الذي ابتدأ بوضعه وهو في قلعة أولاد سلامة، أي ما يمثل مسوّدته الأولى لأنه كان يفتقر إلى المصادر الضرورية وخاصّة فيما يتعلّق بمادّة تاريخ المشرق. لذا فإنه أكمل ما كتبه في القلعة عندما كان في مصر. كما يفترض أنه راجع ما كان قد كتبه بشكل عام، وهذا ما دعا البعض للقول إنّ لكتابه «العبر» نسختين مغربية ومشرقية. ويوضّح ابن خلدون تطوير مادّة كتابه في مصر إذ يقول: «ثم كانت الرحلة إلى المشرق... فزدت ما نقص من أخبار ملوك العجم بتلك الديار ودول الترك فيما ملكوه... سالكا سبيل الاختصار والتلخيص» [مقدّمة، ص7]، عند ذلك اكتمل الكتاب كما أراده «فاستوعب أخبار الخليقة استيعابا» أي أنّه أصبح كتابا عامّا شاملا للتاريخ العالمي.

وبعد إنجاز الكتاب فكّر ابن خلدون لمن يقدّمه، فوقع اختياره على سلطان فاس المريني «أبو فارس عبد العزيز بن إبراهيم»، فأرسله إلى خزانة جامع القرويّين في فاس، رغم أنه في مصر تحت رعاية السلطان المملوكي، فهل كان الحنين إلى المغرب وراء ذلك؟.

وقد طبع كتابه المقدّمة، وكتاب العبر، طبعات عديدة منذ سنة 1274هـ/ 1857م عندما صدر لأوّل مرّة في القاهرة في سبعة مجلّدات، تضمّ مادّته المقدّمة والكتب الثلاثة التي ذكرها ابن خلدون وهو يصف كتابه، المقدمة اشتملت على ما يزيد على سبعة آلاف صفحة. وصدرت بعدها طبعات أخرى عديدة سواء في القاهرة أو بيروت. لكن أيًا من هذه الإصدارات لم تحظ بالعناية العلمية التي يستحقّها الكتاب ومؤلّفه؛ 3 ـ التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، نشر مع المقدّمة والعبر وكأنّها تشكل معا كتابا واحدا، كما نشر منفصلا ككتاب مستقلّ عن العبر وذلك عندما أصدره «محمد بن تاويت الطنجي» في القاهرة، 1951م، وأعيدت طباعته في بيروت دون الإشارة إلى المحقق 1979م. ولذلك قد يعتبر كتاب العبر ثلاثة كتب هي المقدّمة، والعبر، والتعريف إذ ما أخذنا بعين الاعتبار نشر كلّ من المقدّمة والتعريف منفصلا عن العبر؛ 4 ـ شفاء السائل لتهذيب المسائل، نشره محمد بن تاويت في اسطنبول عام 1958م، وأعيد صدوره في بيروت 1959م؛ 5 ـ شرح لباب المحصّل في أصول الدين، لعلّه يمثّل أوّل مؤلّفاته، وهو شرح لكتاب «فخر الدين محمد بن عمر الرازي»

(ت 606هـ/ 1209م) «المحصّل»، وأضاف عليه ونشر في المغرب 1952م، عن نسخة بخطّ المؤلّف نشره لوسيانور روبيو مع ترجمة للإسبانيّة، لكنّه جاء مع الأسف كثير الأخطاء في النصّ العربي؛ 6 ـ وصف بلاد المغرب؛ 7 ـ شرح البردة للبصيري؛ 8 ـ كتاب في الحساب؛ 9 ـ رسالة في المنطق؛ 10 ـ شرح قصيدة في أصول الفقه لابن الخطيب؛ 11 ـ تلخيص عدد من مصنّفات ابن رشد.

المصادر والمراجع

● ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تح. محمد محمد أمين، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة 1993، رقم الترجمة 1395، 7/ 209؛ ● ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ط 1، دار الكتب العلميّة، بيروت 1992م، 13/ 112؛ ● ابن حجر، العسقلاني (ت 852هـ/ 1448م)، أنباء الغمر بأنباء العمر في التاريخ، ط 2، دار الكتاب العلمية (عن طبعة دار المعارف العثمانية)، بيروت 1986م، 5/ 327 ـ 332؛ ● ابن حجر، رفع الاصر عن قضاة مصر، القسم الثاني، تح. حامد عبد المجيد، المطابع الأميريّة، القاهرة 1961م، ص343 ـ 348؛ ● ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا، دار الكتاب اللبنانيّ، بيروت 1979م؛ ● ابن خلدون، المقدمة، دار الجيل، بيروت، أوفست، د.ت؛ ● روزنتال، فرانز، علم التاريخ عند المسلمين، ط 2، ترجمة صالح أحمد العلي، مؤسّسة الرسالة، بيروت، 1983م، ضمن كتاب «الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ أهل التاريخ» للسخاوي؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط 10، دار العلم للملايين، بيروت 1992م، 3/ 330؛ ● السخاوي، الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ أهل التاريخ، منشور ضمن كتاب روزنتال، علم التاريخ عند المسلمين، ط 2، 1983؛ ● السخاوي، الضوء اللّامع لأهل القرن التاسع، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، أوفست الطبعة المصريّة، د.ت، 4/ 145 ـ 149؛ ● بدوي، عبد الرحمٰن، مؤلّفات ابن خلدون، الدار العربية للكتاب، الطبعة الثانية، ليبيا ـ تونس 1979م؛ ● ابن عرب شاه، أحمد بن محمد الدمشقي (ت 854هـ/ 1450م)، عجائب المقدور في نوائب تيمور، مقابلة ابن خلدون لتيمور بدمشق، ط 1، تح. أحمد فايز الحمصي، مؤسّسة الرسالة، بيروت 1986م، ص 252 وما بعدها؛ ● أمليل، علي، الخطاب التاريخي، دار المنهجيّة ابن خلدون، معهد الانّحاد العربي، بيروت، د.ت؛ ● عنان، محمد عبد الله، ابن خلدون، حياته وتراثه الفكري، ط 2، القاهرة، 1953م؛ ● المقّري، أبو العباس أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، طبعة بولاق، مصر، 1279هـ، 4/ 414 ـ 426.

● Brockelmann, C., Geschichte der Arabischen litteratur, Leiden - Brill, 1937 - 1942, 1943 - 1949, Vol. 2,

p. 314, Sup. Vol2, p. 342; • Issawi, C., An Arab philosophy of History, London, 1950; • Wustenfeld, Feld, Die Geschichteschreiber der araber und iher werke, Gottingen, 1881, pp. 194-199, Nv. 456; • Mahdi, Muhsen, Ibn Khaldun's Philosophy of History, London, 1957; • E.I., Ibn Khaldoun's M. Talibi, New Edition, Vol. 111, Leiden, 1971, p. 825-831.

د. فرحات الدشراوي
الجامعة التونسية
د. فالح حسين
الجامعة الأردنية

الخلصي، محمد السعيد بن حميدة

(1314هـ/1896م ـ 1382هـ/1962م)

هو محمد السعيد بن حميدة الخلصي، شاعر ومترجم، وهو سليل أسرة مؤثلة في المجد لا سيما من جهة أمّه، حفيدة العالم الجليل والشاعر الكبير الشيخ ابراهيم الرياحي (1182هـ/ 1768م ـ 1267هـ/ 1850م).

ولد ونشأ بحيّ «دار الباشا»، أحد الأحياء المشهورة بمدينة تونس العتيقة. أورثه موت أبيه المبكّر كآبة جهدت أمّه في إزالتها بما غمرته به من حنان، وما أحاطته به من رعاية، إذ ألحقته بالكتّاب باكرا. فحفظ نصيبا من الذكر الحكيم. ثمّ أتمّ دراسته الابتدائيّة بمدرسة قرآنية التحق على إثرها بمعهد (كارنو)، فتمكن ـ بفضل ذكائه الوقّاد، وهمته العالية ـ من بلوغ مستوى أقرانه ذوي التكوين الفرنسي البحت. وفي مدّة وجيزة أتقن الفرنسيّة تعبيرا وتحبيرا وهو الذي لم يتزوّد منها، قبل اللحاق بهذا المعهد، إلّا بالنّزر اليسير، كما حذق الإيطاليّة. وملأ أوقات فراغه، خارج المعهد بتعميق ما تلقاه من مبادئ العربيّة في المدرسة القرآنيّة فأقبل على المطالعة إقبالا فتّق مواهبه وثقّف أداته فألّف نظما ونثرا وترجم من روائع الأدب الرّومنسي الفرنسي ما صادف ميلا في فكره وهوى في وجدانه.

وما كاد ينهي دراسته الثانويّة حتّى نال شهرة في أوساط الأدب والفنّ وكان له، بفضل طرافته في الحديث وبراعته في الإلقاء، حضور مميّز في النّوادي الأدبيّة الرّائجة وقتئذ مثل النادي التّونسي الذي جمعت مجالسه بين جدّ الأدب والسياسة ولهو السهرات الراقصة [شيبوب، الهلال، جانفي 1974، 11] و«صالون» الشاعر مصطفى آغا (1288هـ/ 1871م ـ 1366هـ/ 1946م)، وجمعيّة قدماء الصّادقيّة التي أصبح سنة 1920 عضوا في هيئتها وأوّل مدير لمجلتها. «ولمّا تأكدت سمعته لدى المثقفين كمترجم

محنّك وشاعر فحل» [الزمرلي، أعلام، 308] تهاطلت عليه عروض الشغل. فاختار العمل مع البارون درلنجي (1283هـ/ 1866م - 1351هـ/ 1932م) يساعده في جمع وتنظيم المادّة الخاصّة بمؤلّفه الضخم: أصول الموسيقى العربيّة.

لكن همّته العالية نهدت به إلى مواصلة دراسته العالية في القانون. فالتحق بباريس، وفيها اغتنت تجربته الحياتية والأدبيّة، وانعكس كلّ ذلك في نصوص أهمّها «باريس» و«ليلة في الدانسينق» [ديوان، 83 ثمّ 86] لكن موت أمّه عجّل برجوعه دون تحقيق الحلم.

وما عتم أن استأنف حياة جديدة امتزج فيها الفنّ بالأدب والحبّ بالطرب، إذ تعلق قلبه بالفنانة الفاتنة اللعوب حبيبة مسيكة (1311هـ/ 1893م - 1349هـ/ 1930م). لكن هذه التجربة كانت تجربة عشق مريرة، غيرت مجرى حياته وفجرت ينابيع الإبداع في ذاته. فخيبته الغرامية حملته على الهجرة إلى المغرب الأقصى والاستقرار بالدار البيضاء واحتراف مهنة الترجمة ثمّ المحاماة بعد حصوله على شهادة الحقوق سنة 1924.

ولم تفارقه «محنة الأدب» فظلّ - رغم إقلاله - مواظبا على نشر ما يؤلف أو يترجم. ولم يخب أوار حنينه إلى مرابع عشقه وربوع شبابه فلم ينقطع عن زيارة الخضراء. وأبرز تلك الزيارات ما شكّل محطّات هامّة في مسيرته الإبداعيّة والحياتيّة. ففي إحدى زياراته الخاطفة أعجب بقصائد من نظم صديقه الشاعر والمحامي صالح فرحات «فاختطفها منه ونقلها في الحين إلى العربيّة» [الزمرلي، أعلام، 314] وسرعان ما تحوّلت مادّة للتلحين والغناء وأشهرها «يا زهرة» التي لحّنها الفنان خميس الترنان (1312هـ/ 1894م - 1384هـ/ 1964م) ومطلعها [الكامل]:

يا زهرة غضّت وفاح أريجُها
فقطفتُها قرب المياه صباحا

وكان لموت معشوقته «حبيبة مسيكة» المفاجئ والفاجع عظيم الأثر في نفسه، إذ ترك في وجدانه جرحا غائرا انعكس في نصوص أهمّها القصيدة التي أبّنها بها ومطلعها [الخفيف]:

عشتِ عيشَ الأزهار في الجنّاتِ
وتولّيتِ في ربيع الحياة

وشارك في الاحتفال بألفيّة المعري «بقصيدة غرّاء» أنست الحاضرين من كانوا يستمعون إليه من منظومات مملّة ومتكلّفة [الزمرلي، الأعلام، 315]. وقد نوّه بهذه القصيدة صديقه حسن حسني عبد الوهاب (1302هـ/ 1884م - 1388هـ/ 1968م)، ورغم طولها أوردها إلّا بيتا واحدا لجمالها كما قال: [مجمل، 342].

وفي سنة 1947 عاد نهائيا إلى أرض الوطن ليستلم المنصب الذي عرضه عليه الأستاذ مصطفى الكعاك (1311هـ/ 1893م - 1405هـ/ 1984م) في ديوانه بالوزارة الكبرى التي رأسها من سنة 1947 إلى 1950. وتحمّل شاعرنا أعباء المسؤوليّة على أكمل وجه غير آبه بتنكّر الأصدقاء وحسد الحساد. وحين حُلّت الوزارة وجد نفسه عاطلا عن العمل رغم بقائه ملحقا بالإدارة فشغل أوقات فراغه في أعمال ثانويّة لا تستجيب لرغبته باستثناء تلك الساعات التي يقضيها في

النادي الأدبي التابع للجمعيّة الرشيديّة أو النادي التّونسي [الزمرلي، أعلام، 316].

وقد عانى في سنواته الأخيرة من أمراض عديدة أخطرها الشلل الجزئي ومرض القلب وظلّ صبورا راضيا بما قسم له إلى أن وافاه الأجل المحتوم في 23 ديسمبر 1962.

آثاره

محمد السعيد الخلصي علم متعدّد المواهب. فهو شاعر وناثر، مبدع ومترجم. جمعت ابنته ما توفّر لها من نظمه بالفصحى والعامية ومن نثره إبداعا وترجمة، وأصدرته في كتاب سمّته «محمد سعيد الخلصي شاعر العاطفة». وهو عمل ضعيف التحقيق والتوثيق. ولا قيمة له إلّا في ما تضمن من مادّة يهمّنا منها في هذا المدخل ما جاء نظما فصيحا كان أم عاميا.

وقد شمل منظومه خمسا وثلاثين (35) قصيدة ومقطوعة، أربع منها مترجمة عن الفرنسيّة أصلا أو لغة (إليك يا ابنتاه: 79، إلى فيكتور هيجو: 80، على ذكرى «المرتين» وقفة على بحيرة: بورجي: 81 ـ 82، الزهرة المقطوعة: 100)، كما ضمّ ثلاث أنشودات (انشروا الأعلام: 95، يا بني الخضراء: 96، تجلّى القمر: 98 ـ 99) وخمس أغان باللهجة التّونسيّة (ودّعتك: 92، جنينة قلبي: 101 غنّ يا عصفور: 102، ما حلّى حياة الفَرْطَطُو: 104 ـ 105، يا عيني: 106).

وقد تواتر استخدامه للبحور الخليلية تامّة أو مجزوءة تواترا يوضحه الجدول التّالي:

المرتبة	البحر	التواتر (عدد المرات)
1	الخفيف	10
2	الكامل (تامًّا أو مجزوءًا)	10
3	الطويل	5
4	المتقارب (تامًّا أو مجزوءًا)	4
5	الرمل (تامًّا أو مجزوءًا)	3
6	الوافر	2
8	البسيط	2
8	السريع	مرّة واحدة
8	المقتضب	مرّة واحدة

تبيّن قراءة الجدول خروج الشاعر عن الرؤية التقليديّة في مستوى تفاضل البحور، إذ قدّم الخفيف والكامل على الطويل شأنه في ذلك شأن أعلام الشعر الحديث أمثال شوقي (1286هـ/ 1869م ـ 1351هـ/ 1932م)، وعلي محمود طه (1320هـ/ 1902م ـ 1369هـ/ 1949م) وفق استقراء إبراهيم أنيس في كتابه: موسيقى الشعر [220، 226].

ولقد برز انشغاله بتلوين الإيقاع وتنويع النغم في أشكال أهمّها: القصيدة المقطعيّة حيث يتغيّر الرويّ من مقطع إلى آخر، وبعض أبنية المربّع والموشّح.

وتأتي الأغاني باللهجة التّونسيّة شاهدا إضافيًا على عشقه للإيقاع وبحثه عن مختلف السبل

لنقله من أعمال الذات إلى رحاب الأذن.

وقد تنوّعت مواضيعه، فجاء بعضها تقليديّ الغرض، كالمدح، والرثاء، والوصف، والغزل، ونزع بعضها الآخر منزعا تحديثيا، فكان رومنسيا حينا كالتّغنّي بالطبيعة وتصوير الغربة، وطنيا أو اجتماعيّا حينا آخر كالتعلّق بالوطن والدعوة إلى البرّ.

بل إنّ الأغراض التقليديّة جاءت، في الغالب، حديثة المضامين، مطبوعة برؤية الشاعر الفنّية وتجربته الخاصّة، فمزج المدح بالوطنيّة. قال: [الخفيف]

أيّهذا الأميرُ آمالُ شعب
شابثات بتاجك المضفور

ورجاءُ البلاد يبعث حيّا
منْ حواشي لوائك المنشورِ

[الخلصي، ص 40]

وطرق في الوصف مواضيع حديثة كالسباحة والرقص، فرصد في جملة ما رصد طبيعة الحركة وما فيها من تناغم وانسجام. قال مخاطبا البحر مصوّرا حركة السابحات: [المتقارب]

يصارعن لجّاتك الزّاخرات
فيرسبن طورا ويطفين طورا

وظلّ النسيمُ يداعبهنّ
ويذرو على الماء منهنّ شعرا

ورصد ما في حركة الرقص من سرعة أو بطء فقال: [الكامل]

تترنّح القاماتُ نشوى بالمدامة
والهوى والبشر والألحان

في رقصة مجنونةٍ آنا، وآونةً
على نغم بطيءٍ وان

[الخلصي، ص 86]

وجاء الغزل في أغلبه حديثا موسوما بنزعة تحررية غربيّة. ولم تظهر صورة الغزل التقليديّة إلّا في نصوص البدايات.

ولئن وجدت نزعته الحسيّة الإباحيّة رافدا في المدوّنة الشعريّة العربيّة منذ العهد الجاهلي، فإنّها جاءت معبّرة بصدق عن ميله الفطري إلى العبّ من ملاذّ الحياة. تجلّى ذلك فيما نظمه بالفصحى أو بالعامية.

جاء في مطلع قصيدته «ليلة في الدّانسيق»: [الكامل]

يا ليلةً حتّى الصباحَ سهرتُها
بين الطّلا والغيدِ والنغمات

متهاديًا ما بين تلك وهذه
كفراشةٍ حامت على الزهراتِ

[الخلصي، ص 86]

وهو المعنى ذاته الذي صوّره في أغنية بالعاميّة حيث تطالعنا صورة الفراشة (الفرططو باللهجة التّونسيّة). يقول:

[يا] ما حْلى حياةْ الفرطُطو
يتنقلْ من زَهرًا لزهَرًا

يِمَتّعْ جِسْمُ فِين يحطُو
عَ لْبِيضَ ولّا ع سَمْرًا

هكذا اتّسمت أشعاره بنزعة حسيّة مسرفة في الجرأة، مُوغلة في تعقّب فنون اللّذة.

ولم تغب هذه النزعة حتّى عن القصيدة التي

ألقاها في الاحتفال بألفيّة أبي العلاء العمري. فرغم إكباره للرجل، بدا ساخرا من فلسفته، منكرا عليه ما ألزم به نفسه من تقشّف في المأكل والمشرب، وما تكلّفه من حرمان. قال يخاطبه مستنكرا: [الكامل]

حمّلتَ نفسَك ما يضيرُ وفوق ما
في وسْعها، ولزمت ما لا يلزم
جشّمتَها الحرمانَ من نعمَى الحياة
وطيبها... يا هول ما تتجشّم

[الخلصي، ص 51]

وممّا يشير إلى تأصّل هذه النّزعة في جوهره مفهومه للحبّ، وقد خصه بقصيدة كاملة (الحبّ في نظري: 22 ـ 23) تجتزئ منها قوله: [الخفيف]

زعمُوا الحبُّ أن أموت شهيدا
وأرى الحبُّ أن أعيش سعيدا

وكان في المقطع السابق قال ناهيا، آمرا مقرّرا:

خلِّ عنكَ الأسَى وخلِّ النحيبَا
....
واستبحْ ما تشاءُ في الحبّ
لا تأبهْ بواش ولا تحاذر رقيبا.
الهوى متعة الحياة ونعمَاهَا
وريحانة تضوّع طيبا.

ومجمل القول إنّ الشاعر محمد السعيد الخلصي بدأ مقلّدا، فجاء غزله وليد الذاكرة معجما وتراكيب وأخيلة. ثمّ انصاعت له ـ بفعل المران ـ مقاليد النظم، فأبدع شعرا غنيّ الإيقاع، متلوّن النغمات، معبّرا بصدق عن هموم فكره وشواغل ذاته، كاشفا عن عمق ثقافته وتنوّع مصادر مطالعاته، فترددت في أعطاف نصوصه أصوات، بعضها آت من القديم شرقا (المتنبي ـ أبو نواس) وغربا (الوشاحون) وبعضها آت من الحديث (شوقي). فقوله: [الطويل]

منازلُ لا أرضَى سواها منازلا
ولو كانت الفردوس ما كنتُ راضيا

[الخلصي، ص 14]

يبيّن ـ دون شكّ ـ أنّه كان ينظر إلى بيت شوقي: [الخفيف]

وطني لو شغلتُ بالخلد عنه
نازعتْني إليه في الخُلد نفسِي

وقد تميّز شعره، في الجملة، بسلاسة التعبير، ودقّة السبك وبراعة التصوير، حتّى لقد عدّه حسن حسني عبد الوهاب في الرتبة الشاعريّة الأولى بعد الشابي [مجمل، 342]. والسرّ في ذلك «حسّه المرهف وذوقه الرقيق وحياته المأخوذة بروعة الجمال والفن والمتعة» على حدّ عبارة العلامة محمد الفاضل بن عاشور (1327هـ/ 1909م ـ 1390هـ/ 1970م) في ختام «المحاضرة الرّابعة» [الحركة الأدبيّة، 164].

المصادر والمراجع

● أنيس، ابراهيم، موسيقى الشعر، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، د. ط، د. ت؛ ● الخلصي، سعاد، محمد السعيد الخلصي، شاعر العاطفة، ط 1، مطبعة فنّ وألوان، 16 شارع غانا، تونس 1990، ص 7، 11؛ ● الزمرلي،

الصادق، أعلام تونسيون، تقديم وتعريب حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1986، 307، 318؛ ● الشّاعر محمد سعيد الخلصي مدير «المجلّة الصادقيّة» الأوّل، مجلّة الصّادقيّة عدد 235 جانفي 2002، ص 19 ـ 24، نقله من الفرنسيّة إلى العربيّة حمادي الساحلي؛ ● شيبوب، الحبيب، شعراء تونسيون، محمد سعيد الخلصي، مجلّة الهلال، جانفي 1974، ص 111، 115؛ ● ابن عاشور، محمد الفاضل، الحركة الأدبيّة والفكريّة في تونس، الدّار التّونسيّة للنشر، 1972، ص 164، 355 ـ 356؛ ● عبد الوهاب، حسن حسني، مجمل تاريخ الأدب التّونسي، مكتبة المنار، تونس 1968، ص 341، 351؛ ● كرو، أبو القاسم محمد، حصاد العمر، مج2، دار المغرب العربي، تونس، ط1، 1419هـ/ 1998م، ص 376 ـ 377؛ ● محمّد السعيد الخلصي الشاعر الرّحالة، مجلّة الإتحاف، ع 4 ـ 5، ماي جويلية 1987، ص 13 ـ 23.

د. حسين العوري
جامعة منوبة ـ تونس

الخلعي، أبو الحسن عليّ بن الحسين

(405هـ/1014م ـ 492هـ/ 1099م)

الإمام الفقيه القدوة مسند الدّيار المصريّة القاضي أبو الحسن عليّ بن الحسن بن الحسين بن محمّد الموصليّ الأصل، المصريّ الدّار والوفاة، المعروف بالخلعيّ نسبة إلى الخلع بكسر الخاء المعجمة وفتح اللّام، نسب إليها لأنّه كان يبيعها لملوك مصر، فاشتهر بذلك وعرف به، قال ابن الأنماطي: سألت شجاعا المدلجيّ وغيره من شيوخنا عن الخلعيّ نسبة إلى أيّ شيء؟ فما أخبرني أحد بشيء، وسألت السّديد الرّبعيّ، وكان عدلا عارفا بأخبار المصريّين، فقال: «كان أبوه بزّازا، وكان أمراء المصريّين وأهل القصر يشترون الخلع من عنده، وكان يتصدّق بثلث مكسبه» [ابن خلكان، وفيات الأعيان، 3/ 318؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، 1/ 154؛ اليافعي، مرآة الجنان، 3/ 155].

كان محدّثا مكثرا فقيها شافعيا، ولد بمصر في المحرم سنة 405هـ، وسمع بها الحديث النبوي وتخرّج بشيوخها حتى انتهى إليه علوّ الإسناد، وأصبح مسند الدّيار المصرية بعد الإمام الحبّال، وتولّى قضاء الدّيار المصريّة وأقام فيه يوما واحدا ثمّ استعفى وانزوى بالقرافة الصّغرى، قال فيه القاضي أبو بكر بن العربي: «شيخ معتزل في القرافة، له علوّ في الرّواية وعنده فوائد، وقد حدّث عنه

الحميدي، وكنىً عنه بالقرافي»[الذهبي، سير أعلام النبلاء، 15/ 102؛ السيوطي، حسن المحاضرة، 1/ 404].

كان الإمام أبو الحسن ورعا صالحا قشفا، ذا كرامات وتصانيف وروايات متّسعة، حكى أبو الحسن علي بن أحمد العابد عن الشيخ ابن بخيساه أنّه قال: كنّا ندخل على القاضي أبي الحسن الخلعي في مجلسه، فنجده في الشتاء والصيف وعليه قميص واحد، ووجهه في غاية الحسن لا يتغيّر من البرد ولا من الحرّ[ابن خلكان، وفيات الأعيان، 3/ 317؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، 14/ 155، 15/ 102؛ السيوطي، حسن المحاضرة، 1/ 404].

سمع خلقا كثيرا منهم أبو العبّاس أحمد بن محمّد بن الحاج الإشبيلي، وأبو العبّاس منير بن أحمد الخشّاب، وأبو محمد إسماعيل بن رجاء الأديب، والحسن بن جعفر الكلبي، وأبو عبد الله بن نظيف الفرّاء، وأبو الحسن الخصيب بن عبد الله بن محمّد القاضي، وشعيب بن عبد الله بن المنهال، وأبو النعمان تراب بن عمر، وأحمد بن الحسين العطار، وأبو خازم محمّد بن الحسين، وإسماعيل بن بكران وعبد الوهاب بن أبي بكر الكرام، وأبو سعد أحمد بن محمد الماليني، وأبو محمد عبد الرحمٰن بن عمر بن النحّاس، وأبو الفتح العدّاس، وأبو القاسم الأهوازي، وأبو الحسن الحوفي. ولا شكّ أنّه تكوّن بوالده وأفاد منه كثيرا، فقد كان فقيها شافعيا توفي بمصر في شوّال سنة ثمان وأربعين وأربعمائة[ابن خلكان، وفيات الأعيان، 3/ 317؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، 14/ 156 ـ 157].

حدّث عنه الحميدي ومات قبله بمدّة، وأبو عليّ الصدفي، ومحمد بن طاهر، وأبو الفتح سلطان بن إبراهيم النفقيه، وسليمان بن محمد بن أبي داود الفارسي، وعلي بن محمد بن سلامة الروحاني، وعبد الكريم بن سوار التككي، وعبد الحقّ بن أحمد البانياسي الكاتب، ومحمد بن حمزة العرقي اللغوي، والقاضي أبو بكر بن العربي، وأبو علي بن سكّرة، وأبو الفضل بن طاهر المقدسي، وخلق سواهم آخرهم خادمه عبد الله بن رفاعة السعدي. وخرّج له أبو نصر أحمد بن الحسن الشيرازي أجزاء من مسموعاته، آخر من رواها عنه أبو رفاعة، ونقلت منها عن الأصمعي، وقال الحافظ أبو طاهر السلفي: كان أبو الحسن الخلعي إذا سمع عليه الحديث يختم مجالسه بهذا الدعاء: «اللهمّ ما مننت به فتممه، وما أنعمت به فلا تسلبه، وما سترته فلا تهتكه، وما علمته فاغفره»[ابن خلكان، وفيات الأعيان، 3/ 317 ـ 318؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، 14/ 154 ـ 155].

روى القاضي الخلعي بسنده جملة من الأحاديث النبوية منها ما حدّث به عن شيخه أبي محمّد عبد الرّحمٰن بن عمر بن النّحّاس عن أحمد بن الحسين بن داناج الاصطخريّ إملاء، عن إسحاق الدّبريّ، عن عبد الرزاق، عن معمر عن الزّهري، عن أبي سلمة عن أبي هريرة، سمعت رسول الله ﷺ، يقول للشونيز «عليكم بهذه الحبّة السوداء، فإنّ فيها شفاء من كلّ داء إلّا السّام» يريد الموت، وهو حديث أخرجه أحمد في المسند، والبخاريّ، والترمذي، وابن ماجة في الطبّ، ومسلم في السّلام، وما رواه عن ابن الحاج عن غندر

عن إسماعيل بن محمد عن محمد بن إبراهيم عن أبي نوّاس عن حمّاد بن سلمة عن ثابت بن أنس مرفوعا «لا يموتنّ أحدكم حتى يحسن الظنّ بالله» وهذا حديث إسناده ضعيف جدًا أخرجه ابن عساكر في تاريخه والخطيب من طريق أبي نوّاس عن حمّاد عن يزيد الرقاشي عن أنس.

توفي بمصر في ثامن عشر ذي الحجّة يوم السبت، وقال ابن الأكفاني توفي في السادس والعشرين من الشهر المذكور سنة 492هـ، قال ابن الأنماطي: قبره بالقرافة يعرف بإجابة الدعاء عنده [ابن خلكان، وفيات الأعيان، 3/ 317؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، 14/ 154؛ السيوطي، حسن المحاضرة، 1/ 404؛ ابن العماد، شذرات الذهب، 5/ 402؛ حاجي خليفة، كشف الظنون، ص 722؛ البغدادي، هدية العارفين، 1/ 694].

آثاره

صنّف جملة من الكتب أبرزها: 1 ـ الفوائد في الحديث ويعرف بفوائد الخلعي؛ 2 ـ المغني في الفقه في أربعة أجزاء توسّط فيه بين البسط والاختصار وهو كتاب حسن؛ 3 ـ وجمع له أبو نصر أحمد بن الحسن الشيرازي عشرين جزءا من مسموعاته سمّاها الخلعيات.

المصادر والمراجع

● أحمد، المسند، دار الدعوة ودار سحنون، ط2، 1413هـ/ 1993م، 2/ 241؛ ● البخاري، الجامع الصحيح، دار الدعوة ودار سحنون، 1413هـ/ 1993م، ط2، 7/ 13 ـ 14؛ ● مسلم، الصحيح، دار الدعوة ودار سحنون، 1413هـ/ 1993م، ط2، 2/ 1735؛ ● ابن ماجة، السنن، دار الدعوة ودار سحنون، 1413هـ/ 1993م، ط2، 2/ 1141؛ ● الترمذي، السنن، دار الدعوة ودار سحنون ط2، 1413هـ/ 1993م، 4/ 385؛ ● ابن خلّكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح. د. إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، 3/ 317 ـ 318؛ ● الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تح. د. بشار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1424هـ/ 2003م، 10/ 722 ـ 723؛ ● م.س، سير أعلام النبلاء، تح. محب الدّين أبي سعيد عمر بن غامة العمروي، دار الفكر للنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان، ط1، 1417هـ/ 1997م، 14/ 154 ـ 157؛ ● اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، دائرة المعارف النامية، الكائنة بمدينة حيدر آبار الدّكن، 1338هـ/ 1919م، ط1، 3/ 155؛ ● السّبكي، طبقات الشافعية الكبرى، تح. عبد الفتّاح محمّد الحلو ومحمود محمّد الطّناحيّ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، ط1، 5/ 253 ـ 255؛ ● الإسنوي، طبقات الشافعية، تح. الجبوري عبد الله، مطبعة الإرشاد بغداد، 1390هـ/ 1970م، ط1، 1/ 479؛ ● السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربيّة، 1387هـ/ 1967م، ط1،

1/ 404؛ ● ابن العماد، أبو الفلاح شهاب الدّين، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح. محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 5/ 402؛ ● حاجي خليفة، كشف الظّنون عن أسامي الكتب والفنون، تصحيح محمد شرف الدين بالتقايا، وكالة المعارف 1362هـ/ 1943م، ص693 ـ 694، 721 ـ 722؛ ● البغدادي، هدية العارفين، أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، استنبول 1955م، 1/ 694؛ ● الكتّاني، الرّسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنّة المشرّفة وما يتبعها من كتب الوسائل التي تبتغى للقاصد والسّائل، بيروت، 1332هـ/ 1914م، ط1، ص91 ـ 92؛ ● كحّالة، معجم المؤلفين تراجم مصنّفي الكتب العربية، مكتبة المثنى، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 7/ 62.

د. برهان النفّاتي
جامعة الزيتونة ـ تونس

خلف الأحمر، أبو محرز بن حيّان بن محرز

(115هـ/733م ـ 180هـ/796م)

هو خلف الأحمر بن حيّان بن مُحرز مولى بلال بن أبي برده بن أبي موسى الأشعريّ، كنّي بأبي محرز. كان والداه ممّن سباهما قتيبة بن مسلم من الفرغانيين، فنقلا من خراسان إلى بغداد. وهناك وهبهما سلم بن قتيبة لابن أبي بردة حتّى أعتقهما بلال وأعتق خلفا لكنه ظلّ مولى له.

تتلمذ خلف على عيسى بن عمر الثقفي البصريّ (ت 149هـ) أحد شيوخ الخليل وسيبويه، وعلى أبي عمرو بن العلاء (ت 154هـ) أستاذ الخليل ويونس وأحد قرّاء البصرة ولغويّيها المشهورين. وتذكر بعض الأخبار أن أبا عمرو كان يستعين بخلف في نقل اللغة عن أشهر المفوّهين ويرسلهم إلى تلقين الناس مذاهب القراءات المختلفة [الزجاجي، الأمالي، 241 ـ 243]؛ كما تتلمذ خلف على أبي الخطّاب الأخفش الأكبر أستاذ سيبويه ويونس، وعلى حمّاد بن سلمة أوّل من أخذ عنه سيبويه، وروى خلف عن حمّاد الراوية.

خلط بعض النحاة المتأخرين كالأنباري، والاستراباذي، وابن هشام بينه وبين علي بن المبارك الأحمر [الزبيدي، طبقات، 147] وهو من الكوفيّين، فظنّوا أنّ خلفًا هو الذي رافق الكسائي في مناظرته لسيبويه وساهم في مساءلته. والواقع أنّ صاحب الكسائي لم يذكر في أخبار هذه المناظرة إلّا باسم الأحمر، ومن هنا تسرّب الخطأ؛ ولا جدال في أن خلفا الأحمر بصريّ. وقد أدرج الزبيدي ترجمته ضمن اللغويّين البصريّين [طبقات

النحويين واللغويين، 177] وسمّاه السيوطي خلف الأحمر البصريّ [بغية، 1/ 559].

من تلامذته الأصمعيّ، ومحمد بن سلّام الجمّحي، وحمّاد الراوية. وقد كان له دور مهمّ في تكوين أبي نوّاس وصقل مواهبه الشعرية.

اشتهر خلف بأنه راوية للشعر وللغات العرب حتّى قال بعض القدامى إنّه أول من أحدث السمّاع بالبصرة بعد أن سمع من حمّاد الراوية. لكنهم كانوا يرمونه بالانتحال ويقولون إن جمعه بين القدرة على قول الشعر وعلى روايته قد جعله يضع القصائد وينسبها إلى مشاهير الشّعراء، وربّما جعلوا له لاميّة الشّنفرى وبعض قصائد النابغة وغيرها من القصائد العيون. لكنّ بعض القدامى غيرهم قد يقلّلون من شأن هذه الأخبار ويرون خلفا أهمّ حفظة الشّعر والعالمين به، فقد قال عنه ابن سلام الجمحي: «كنّا لا نبالي إذا حدّثنا عنه خبرا أو أنشدنا شعرا ألا نسمعه من صاحبه» [طبقات، 7]. كما يروي عنه ما يدلّ على جمعه بين رواية الشعر ونقده فقد كان يقرأ عليه أهل الكوفة أشعارهم وكان مقصدهم بعدما مات حمّاد الراوية [أبو الطيب اللغوي، مراتب، 47].

وكان بعض النحويّين يقدّمون الأصمعي عليه لأنهم يرونه أعلم بالنّحو [الزبيدي، طبقات، 163].

تنسّك خلف آخر حياته وعزف عن الدنيا ممّا دفعه حسب أبي الطيّب اللغوي إلى أن يعرّف «أهل الكوفة الأشعار التي أدخلها في أشعار الناس» [مراتب، 47]. ولمّا توفي رثاه أبو نواس فكان أهمّ من رثاه.

آثاره

يعدّ خلف الأحمر من رواة القرن الثاني الذين رووا الأشعار ولم يسجّلوها وإنما أخذت عنهم مشافهة. على أنّه تنسب إليه بعض المصنفات: أحدها في النحو، والثاني من قبيل الاختيارات الشعريّة.

1 ـ مقدّمة في النّحو، تح. عز الدين التنوخي، مطبوعات مديريّة إحياء التراث القديم، دمشق 1389هـ/ 1969م. وقد نشر هذا الكتاب اعتمادًا على مخطوط فريد ضمن مجموع في مكتبة شهيد باشا بمتحف الأستانة. ويعتبر المحقق أنه، إن صحت نسبته إلى خلف الأحمر، «أقدم ما ألّف في النّحو من المختصرات» ويتكوّن التصنيف من خمسة وثلاثين بابا لا يتجاوز كل واحد منها بضعة أسطر تناول فيها المؤلف على التوالي الحروف العاملة ووجوه الإعراب والنواسخ الفعلية والحرفيّة وأسماء الإشارة والأفعال والتحذير والإغراء ومنذ وحروف العطف والممنوع من الصرف والمذكّر والمؤنّث وقطّ وربّ وكم؛ 2 ـ جبال العرب وما قيل فيها من شعر؛ 3 ـ ديوان شعر، تذكر المصادر أن له ديوان شعر نقله عنه تلميذه أبو نوّاس. ويقول فيه القفطي: «هو أحد الشعراء المحسنين ليس في رواة الشعر أحد أشعر منه» [إنباه، 1/ 348].

المصادر والمراجع

● الجمحي، محمد بن سلام، طبقات فحول الشعراء، تح. محمود محمد شاكر، دار المعارف للطباعة والنشر، القاهرة، 1967، 69 ـ 71؛ ● الزجاجي، أبو

القاسم عبد الرحمٰن، الأمالي، تح. عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ط2، 1987، 241 - 243؛ • البكري، أبو عبيد، اللآلي، تح. الميمني، القاهرة 1354، 412 - 413؛ • السيرافي، أبو سعيد، أخبار النحويّين، المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1963، 51 - 52، 80 - 81؛ • اللغوي، أبو الطيب، مراتب النحويّين، مط. نهضة مصر، القاهرة 1955؛ • ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله، الشعر والشعراء، ط. محققة ومفهرسة، دار الثقافة، بيروت 1953، 2/ 673 - 674؛ • ابن النديم، أبو الفرج الورّاق، الفهرست، تح. رضا المازندراني، دار المسيرة، بيروت، ط 3، 1988، 2/ 673 - 674؛ • الزبيدي، أبو بكر، طبقات النحويين واللغويين، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، د.ت، 161 - 164؛ • ابن المعتز، الطبقات، تح. عبد الستار فراج، ط. دار المعارف، مصر، د. ت؛ • القالي، أبو علي، الأمالي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت 1980، 1/ 156 - 157؛ • الأنباري، أبو البركات، نزهة الألباء، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، 1967؛ • الحموي، ياقوت، معجم الأدباء، دار المأمون، مصر 1355 - 1357هـ، 11/ 66 - 72؛ • القفطي، جمال الدين أبو الحسن، إنباه الرواة، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، القاهرة، ط 1، 1986، 4/ 383 - 385؛ • ابن قاضي شهبة، تقي الدين، طبقات النحاة واللغويين، تح. محسن غياض، مطبعة النعمان، النجف الأشرف؛ • السيوطي، جلال الدين، بغية الوعاة، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، د. ت، 1/ 554؛ • م. ن، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تح. جاد المولى (وغيره)، ط 3، دار التراث، القاهرة، د.ت، 2/ 462؛ • الزركلي، الأعلام، ط 14، 2/ 310، دار العلم للملايين، بيروت 1999.

• Blachère , Régis: Histoire de la littérature arabe, Adrien, Maisonneuve, Paris 1952, T2/19.

د. توفيق قريرة
جامعة منوبة - تونس

خلف القارئ، أبو محمد خلف بن هشام بن ثعلب

(150هـ/767م - ...هـ/...م)

خلف بن هشام بن ثعلب بن خلف بن ثعلب بن هشام بن ثعلب، ويقال هو خلف بن هشام بن طالب بن غراب، أحد القرّاء العشرة، والمقرئ المشهور ببغداد، واشتهر بلقب «البزار»، وروي عنه أنّه كان يكره أن يقال له البزار، ويقول: ادعوني «المقرئ» كما يلقب بـ «الأسدي» و«البغدادي»، وكنيته أبو محمد.

وقد ولد خلف بفم الصّلح قرب واسط سنة 150هـ/ 767م، حفظ القرآن، وهو ابن عشر سنين، وابتدأ في طلب العلم وهو ابن ثلاث عشرة سنة فبرع في القراءات والنحو، ثم اشتهر أمره وهو في السابعة عشرة من عمره، روى القراءة عرضا عن سليم بن عيسى عن حمزة مرارا وكذلك عن عبد الرحمٰن بن أبي حماد عن حمزة.

كما سمع من الكسائي ولم يقرأ عليه القرآن، إنّما سأله عنه، وسمعه يقرأ القرآن إلى خاتمته، وضبط ذلك عنه بقراءته على أصحابه، وروى عن الكسائي قراءة الأعمش عن زائدة بن قدامة، كما روى خلف قراءة عاصم من طريق أبي زيد الأنصاري عن المفضل الضبي، كما أخذها عرضًا عن يعقوب بن خليفة الأعشى صاحب أبي بكر شعبة صاحب عاصم.

ورواها من طريق يحيى بن آدم زكريا الصلي عن أبي بكر شعبة عن عاصم كما روى قراءة نافع من طريق إسحاق بن محمد بن أبي السائب المخزومي المسيبي.

كما روى القراءة وعرضها على عبد الله بن يزيد أبي الأقفال المخرمي البغدادي. وروى الحروف عن إسماعيل بن جعفر، وعبد الله بن عطاء وعبيد بن عقيل. وروى رواية قتيبة عن عبيد بن عقيل من طريق بن شنبوذ، والمطوعي أداء وسماعًا وروى عن محبوب البصري، عن خالد بن الحذاء بعض قراءة نصر بن عاصم. وفي الحديث النبويّ سمع مالك بن أنس، وحماد بن زيد، وأبا معاوية، وخالد بن عبد الله، وشريك بن عبد الله، وأبا الأحوص سلام بن سليم. وروى عن أبي عوانة، وأبي شهاب الحناط، وابن أبي الزناد، وحبان بن علي، والداروردي. واهتمّ خلف بالنحو فأتقنه، ويلغ من عنايته به أن أشكل عليه باب من النحو فأنفق ثمانين ألف درهم حتّى حفظه.

وبرغم رواية خلف لقراءة حمزة، فقد كان له اختياره الذي رواه عنه إسحاق الوراق وقام به بعده، وأمّا إدريس بن عبد الكريم الحداد فقد روى رواية خلف عن حمزة، كما روى اختيار خلف أبو الحسن بن عبد الكريم البغدادي. فكان خلف يأخذ بمذهب حمزة غير أنّه خالفه في مائة وعشرين حرفًا، تمثّل اختيار خلف في القراءة كما قال ابن أشتة. وقال ابن الجزري: «تتبّعت اختيار خلف فلم أره يخرج عن قراءة

الكوفيين في حرف واحد بل ولا عن حمزة، والكسائي، وأبي بكر إلّا في حرف واحد وإذا كانت قراءة خلف لا تخرج عن قراءات الكوفيّين، فليست تقلّ عنها في التواتر شيئًا».

تنوّه عديد الروايات بمكانة خلف في القراءات والحديث ومنها قول عباس بن محمد الدوري «ما رأيت أقرأ للقرآن من خلف ما عدا خلاد القارئ». ومنها أنه كان محلّ الثقة والقبول من علماء الجرح والتعديل، فلمّا ذكر عند أحمد بن حنبل قيل له: «يا أبا عبد الله إنه يشرب الخمر، فقال: قد انتهى إلينا علم هذا عنه، ولكن هو والله عندنا الثقة الأمين شرب أو لم يشرب».

وقد وثّقه يحيى بن معين، وقال: الصدوق الثقة، وقال عنه أبو عبد الرحمٰن النسائي: بغدادي ثقة، وقال عنه علي بن عمر الحافظ: كان عابدًا فاضلاً.

وقد تلقّى العلم على يديه تلاميذ كثر فروى القراءة عنه عرضًا وسماعًا وراقه أحمد بن إبراهيم وأخوه إسحاق بن إبراهيم، وأحمد بن يزيد الحلواني، وإبراهيم بن علي القصار. وإدريس بن عبد الكريم الحداد، ومحمد بن مخلد الأنصاري، وأحمد بن زهير، وأحمد بن محمد البراثي، وسلمة بن عاصم، وعبد الله بن عاصم، وعلي بن الحسين بن سلم، ومحمد بن إسحاق شيخ بن شنبوذ، ومحمد بن الجهم، ومحمد بن عيسى، والفضل بن أحمد الزبيدي، وعلي بن محمد بن نازك، وإبراهيم بن إسحاق، ومحمد بن إبراهيم، ومحمد بن سعيد الضرير، وموسى بن عيسى، وأبو الوليد عبد الملك بن قاسم، وعمر بن فايد، والحسين بن محمد بن عبد الرحمٰن بن الفهم بن محرز الحافظ البغدادي، وأبو محمد الشعراني الأديب الفقيه العابد، ومحمد بن حماد بن بكر بن حماد المقري.

ومن تلاميذه الذين رووا عنه الحديث أبو زرعة، وعباس الدوري، ومحمد بن الجهم المسري، وأحمد بن أبي خيثمة، ومحمد بن أحمد بن البراء، وإبراهيم الحربي، وإدريس بن عبد الكريم الحداد، وموسى بن هارون، والحسين بن فهم، وأبو بكر بن أبي الدنيا، والحسن بن سلام، وأبو القاسم البغوي.

آثاره

1 ـ الاختيار في القراءات، هذا الكتاب في القراءات، وقد نظمه أحمد بن محمد بن يحيى بن أبي الحزم الدمشقي (ت 732هـ/ 1331م) [غاية النهاية، 1/ 133]؛ 2 ـ كتاب القراءة، حروف القراءات، ذكره الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد [8/ 325]، ونقله الثعلبي في الكشف والبيان، وعن هذا الكتاب ألّف أحمد بن عمر بن محمد الجملاني كتابا بعنوان «نفيس الأثاث في القراءات الثلاث»، ويوجد هذا الكتاب مخطوطا في الظاهرية بدمشق، برقم 5729، وعن قراءة خلف كتب علي بن عساكر بن المرجّب البطائحي (ت 572هـ/ 1177م) [معجم المؤلّفين، عمر رضا كحالة، 7/ 150].

وذكر الخلاف بين قراءة أبي محمد خلف، وأبي عمرو بن العلاء مخطوط في بورسه خراجي زاده 726 ـ 2 (21أ ـ 37ب سنة 644هـ) [فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي، 1/ 36].

المصادر والمراجع

● الزركلي، خير الدين، الأعلام، مطبعة العلوم، توزيع دار العلم للملايين، بيروت، لبنان 1420هـ/ 1999م، ط14؛ ● البغدادي، الخطيب، تاريخ بغداد، مطبعة السعادة، مصر، 1349هـ/ 1931م؛ ● البخاري، التاريخ الكبير، حيدر آباد الدكن، 1379هـ/ 1959م؛ ● ابن حجر، تقريب التهذيب، تح. عبد الوهاب عبد اللطيف، مصر؛ ● الداني، أبو عمرو، التيسير في القراءات السبع، عني بتصحيحه أوتوبرتزل، استانبول، طبعة الدولة، جمعيّة المستشرقين الألمانية، 1349هـ/ 1930م؛ ● الرازي، ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل، ط1، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند، 1372هـ/ 1952م؛ ● الحنبلي، ابن العماد، شذرات الذهب، مكتبة القدسي، 1351هـ/ 1932م؛ ● ابن سعد، الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، 1379هـ/ 1957م؛ ● الداودي، طبقات المفسّرين، تح. علي محمد عمر، القاهرة، 1392هـ/ 1972م؛ ● ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القرّاء، نشره ج. برجستراسر، مطبعة السعادة، 1353هـ/ 1934م؛ ● خليفة، حاجي، كشف الظنون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1413هـ/ 1992م؛ ● القسطلاني، لطائف الإشارات إلى فنون القراءات، تح. وتعليق الشيخ عامر السيد عثمان ود. عبد الصبور شاهين، ط. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1392هـ/ 1972م؛ ● الذهبي، شمس الدين، معرفة القرّاء الكبار على الطبقات والأعصار، تح. محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، القاهرة، 1389هـ/ 1969م؛ ● ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، المطبعة التجارية ومكتبتها، د.ت؛ ● ابن خلكان، وفيّات الأعيان، تح. محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية، مطبعة السعادة، مصر 1367هـ/ 1949م.

د. محمود فراج
جامعة الإسكندرية - مصر
د. صلاح الدين حسنين
كلية الآداب - بني سويف - مصر

ابن خلف، جاسم

(1330هـ/1911م - نحو عام 1395هـ/1975م)

وقع الخلاف في تاريخ ميلاده، ففي كتاب جمعية المؤلفين والكتاب العراقيين في عامها العاشر [ص56] ثبت أنه من مواليد قلعة صالح (عام 1916م)، وفي معجم المؤلفين العراقيين لكوركيس عواد ذكر أنه من مواليد 1917م. وفي كتاب «تاريخ التعليم في العمارة من عام 1917 - 1958» ذكر مؤلفه جبار عبد الله الجبيراوي أن المترجم له ولد في قلعة صالح من محافظة العمارة عام 1911م وأنا أرجح ما أورده الجبيراوي لسببين:

أولهما أنه من مواليد العمارة وصاحب الدار أدرى بالذي فيها.

وثانيهما أن الناس والموظفين منهم خاصة مولعون بتصغير أعمارهم. وقلعة صالح هذه قضاء من أقضية لواء العمارة المسماة حاليا محافظة ميسان.

أكمل المترجم له دراسته الابتدائية والثانوية في مسقط رأسه قلعة صالح، والتحق بدار المعلمين العالية في بغداد وتخرج فيها. ثم التحق ببعثة دراسية إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث حصل على شهادتي الماجستير والدكتوراه من جامعاتها خلال الحرب العالمية الثانية. وعاد إلى وطنه ومارس التدريس الجامعي ونبغ في اختصاصه الجغرافي وانضوى إلى جناح الحركة القومية المناهضة لحكم عبد الكريم قاسم.

وقد دعاه معهد الدراسات العربية العالية في القاهرة لإلقاء محاضرات على طلبته في موضوع جغرافية العراق الطبيعية فألقى تسع محاضرات في المدّة المحصورة ما بين 15 آذار وحتّى 15 نيسان 1958 أيام الحكم الملكي في العراق، ثم دعي ثانية لإلقاء محاضرات على طلبة المعهد المذكور ابتداء من الثامن من شباط (فبراير) عام 1959 فألقى تسع محاضرات في موضوع جغرافية العراق الاقتصادية وتطرّق باختصار إلى أحوال العراق البشرية والسياسية. وكان يأمل أن تتاح له الظروف للتوسّع في موضوع جغرافية العراق البشرية، ولكن الظروف لم تسمح له بذلك وقد طبعت محاضراته هاته في العامين المذكورين في كتاب عنوانه «محاضرات في جغرافية العراق الطبيعية والاقتصادية والبشرية» عام 1959 ثم طبعت ثانية بالقاهرة عام 1961. ثم طبعت ثالثة في القاهرة أيضًا عام 1965.

إنّ إحساس المترجم له القومي المؤمن بالوطن العربي الأكبر والأمة العربية الواحدة جعله ينضمّ إلى التنظيمات الثقافية القومية فكان أن انتمى إلى جمعية المؤلّفين والكتّاب العراقيين وكانت واجهة ثقافية للحركة القومية. ثمّ عُيّن المترجم له رئيسا لجامعة بغداد.

آثاره

1 ـ الأسس الطبيعية لجغرافية العراق، تأليف كوردن هستد، ترجمه إلى العربية، وطبع في بغداد عام 1948؛ 2 ـ كتاب بالإنكليزية عنوانه «مناخ العراق» صدر في نشرة كلّية الفنون والعلوم، المجلّد الثاني، حزيران 1957؛ 3 ـ كتاب بالإنكليزية عنوانه The Water resource in the lower colorado river Basin (2 Vols, Chicago 1951)، وقد طبع في مجلّدين بمطبعة جامعة شيكاغو عام 1951 وربّما يكون رسالته الجامعية.

كان جاسم محمد الخلف من الرعيل الأوّل من الجغرافيين العراقيين، امتاز بعلميته وخلقه الرفيع وحبّه للآخرين، نال درجة الأستاذية في الستّينات، وتوفّي في الولايات المتّحدة الأمريكية في أواسط السبعينات.

إنّ التعرّف على قدرته العلمية يقتضي معرفة خصائص كتابه الوحيد الذي صنّفه باللغة العربية وطبع ثلاث مرات، وأعني به كتاب «محاضرات في جغرافية العراق الطبيعية والاقتصادية والبشرية» ويلاحظ أن المصنّف اعتمد المنهج العلمي في كتابه فاستعان بالخرائط والجداول الإحصائية، ورجع إلى 105 مرجع بالعربية، و56 مرجعا بالإنكليزية، وامتاز كتابه بالدقّة العلمية.

وقد فنّد كثيرا من آراء الخبراء من المصنّفين الأجانب الذين صنّفوا كتبا أو طبعوا تقارير عن جغرافية العراق الطبيعية، ومنها على سبيل المثال قوله [ص114 ـ 115]: «ولقد استطاع كل من كوبين، وثورنثويت، وتريوارثا، وفنج، أن يقسّموا مناخ العراق إلى أكثر من مناخ واحد، ولكن لم تخل تقسيمات كل منهم من أخطاء بعيدة عن الواقع، ويرجع ذلك لعدم توفّر الإحصاءات الكافية لديهم. وظهرت الحدود بين نوع وآخر من المناخ، بشكل لا يتفق وطبيعة توزيع الأمطار والحرارة، فمثلا جعل (كوبين) للعراق أربعة أنواع من المناخات يحتل اثنان منها هما: «مناخ السهوب الحارة والصحاري الحارة»، السهل الرسبوني، والهضبة الصحراوية، وجعل من صفاتها الشتاء الجاف والصيف الممطر، وذلك عكس ما عليه أمطار العراق في الواقع. كذلك لا يوجد ما يبرّر وضع حدود بين هذين المناخين، لأنّهما في الحقيقة مناخ واحد لاتّصافهما بنفس الصفات. أما ثورنثويت فقد جعل للعراق ثلاثة أنواع من المناخ، تتّصف كلّها بأمطار قليلة جدا في جميع الفصول. مع العلم أن الأقسام الشمالية من العراق تستلم ما يقارب الأربعين بوصة سنويا من المطر وأن الأمطار في جميع العراق فصلية». وبعد هذا النقد العلمي لآراء الخبراء الأجانب الذين كتبوا تقاريرهم غير الدقيقة والمخالفة للواقع. طرح المترجم له رأيه المبني على الإحصاءات العلمية الجديدة، فقسم مناخ العراق إلى ثلاثة أقسام:

1 ـ مناخ البحر الأبيض المتوسّط، يقع في شمال شرقي العراق ضمن حدود المنطقة الجبلية تقريبا [شكل 21] ويحتل نحو 12% من مساحة العراق.

2 ـ مناخ السهوب (استبس) وهو مناخ انتقالي

بين مناخ البحر الأبيض المتوسّط والمناخ الصحراوي الحار ويقع ضمن حدود المنطقة شبه الجبلية تقريبا [شكل 21] ويحتل 18% من مساحة العراق.

3 ـ المناخ الصحراوي الحار، ويقع ضمن حدود السهل الرسوبي والهضبة الصحراوية تقريبا [شكل 21] ويحتلّ 70% من مساحة العراق.

وإذا قارنّا خارطة المناطق المناخية [شكل 21] مع خارطة الأمطار [شكل 16] يظهر لنا بوضوح كيف تتميّز، المناطق المناخية عن بعضها البعض من حيث معدّل المطر السنوي. فمعدّل المطر السنوي لمنطقة مناخ البحر الأبيض المتوسّط يتراوح بين 40 ـ 100 سنتمتر، ولمنطقة مناخ السهوب ما بين 20 ـ 40 سنتمترا، ولمنطقة المناخ الصحراوي ما بين 5 ـ 20 سنتمترا.

وقد جرى المصنّف في كثير من فصوله على تقديم الاقتراحات العلمية البناءة لمعالجة الحالة أو تطويرها. فهو حين يعرض للثروة الحيوانية في العراق وكيف أنّ الأساليب البدائية في استغلال الثروة الحيوانية أدّت إلى خفض مستوى الإنتاج الحيواني نوعية وكمّية، عمد إلى تقديم سلسلة مقترحات علمية لتنمية الإنتاج الحيواني معتمدا فيما يطرحه على تقارير خبراء أجانب مختصّين أعدّت لهذا الغرض.

وتناول المصنّف في كتابه ثلاثة أبواب: باب الجغرافية الطبيعية للعراق وقد ضمّ هذا الباب فصولا تحدّث فيها عن موقع العراق والتطوّر الجيولوجي وآثاره في جغرافية العراق ثم تضاريس العراق. وكرّس فصلا لدراسة مناخ العراق وآخر للنبات الطبيعي فيه وآخر خصّصه للحديث عن التربة وأنواعها ومشكلتي الملوحة وجرف التربة اللتين تهدّدان بتدمير الزراعة في العراق وطرح حلولا علمية بنّاءة لمعالجة ذلك. وعقد فصلاً للموارد المائيّة.

وعقد الباب الثاني لجغرافية العراق الاقتصادية، تناول في فصوله: الزراعة والثروة الحيوانية، والثروة المعدنية والصناعة، وطرق المواصلات والتجارة.

وتناول في الثالث: الجغرافية البشرية في العراق، وضمّ فصولا عن السكان وأحوالهم والعوامل المؤثّرة في توزيع السكّان. وفصلا عن التكوين السياسي والإداري في العراق. وانتهى المصنّف في ختام كتابه إلى أنّ في العراق نهضة شاملة ولكنّها تسير في خطى بطيئة بالنسبة لهذا العصر.

ورغم مرور أكثر من أربعة عقود على طبع هذا الكتاب إلّا أنّه ظلّ علامة مضيئة على طريق دراسة الجغرافية الطبيعية والاقتصادية والبشرية في العراق.

المصادر والمراجع

● الخلف، جاسم، محمد، محاضرات في جغرافية العراق الطبيعية والاقتصادية، مطبوعات معهد الدراسات والبحوث العربية، القاهرة، 1969، ط2؛ ● عواد، كوركيس، معجم المؤلّفين العراقيين في القرنين التاسع عشر والعشرين، 1800 ـ 1969، المجلّد الأوّل، طبعة الإرشاد،

بغداد 1969؛ ● كتاب «جمعية المؤلّفين والكتّاب العراقيين في عامها العاشر»، بغداد، مطبعة الشعب 1392هـ/ 1972م؛ ● الجبيراوي، جبار عبد الله، تاريخ التعليم في العمارة، 1917 ـ 1958، بغداد 1422هـ/ 2001م.

أ. هلال بن ناجي
باحث في التراث العربي ـ العراق

ابن خلف، أبو الحسن علي بن خلف

(كان حيًّا في سنة 437هـ/1045)

أبو الحسن علي بن خلف بن علي بن عبد الوهّاب الكاتب، من كبار كتّاب الدّولة الفاطميّة في مصر.

على الرّغم من شهرة علي بن خلف الكاتب، لم توقفنا المصادر على تاريخ ولادته ولا تاريخ وفاته، غير أنّ الذي بين أيدينا من كتبه يشير إلى أنّه كان حيّا حتّى سنة 437هـ/ 1045م؛ فقد ذكر ذلك في كتابه «مواد البيان»، الذي يعتبر من أهمّ مؤلّفاته. ولم يرد ذكر اسم علي بن خلف الكاتب كذلك في كتب الطّبقات أو التّراجم، وحتّى الذين نقلوا عنه ـ مثل القلقشندي في «صبح الأعشى» ـ لم يذكروا عنه شيئا سوى أنّه كان كاتبا من كتّاب الدّولة الفاطميّة.

ولم يقدم لنا حاجي خليفة صاحب «كشف الظّنون» شيئا من الكتاب أو المؤلّف، واكتفى بإيراد اسم الكتاب معنونا بـ «مواد البيان»، لعلي بن خلف. دون أيّ إضافة أخرى تسمح لنا بالتّعرّف إليه بصورة أفضل.

آثاره

1 ـ يعتبر كتاب «مواد البيان» من أهمّ الكتب التي ألّفها على بن خلف الكاتب، وموضوعه الصّناعة الكتابيّة ورسومها المستعملة، وأقسامها، وأوضاعها، وأقسام البلاغة وأنواعها، وهو نفس موضوع «علم الإنشاء» وفنونه.

وله مؤلّفات أخرى لم تصل إلينا، مثل:

2 ـ آلة الكتّاب؛

3 ـ كتاب الخراج.

وقد أشار هو نفسه إليهما في كتابه «مواد البيان».

المصادر والمراجع

● حمدان، عبد الحميد صالح، مجلّة ARABICA، مج 2، 1973م، ص 192 ـ 193، تحت عنوان: MAWADD AL-BAYAN et son auteur Ali Ibn Halaf؛
● نفس المصدر، علي بن خلف بدائرة

المعارف الإسلاميّة، ط 2، ليدن 1982، مادّة «Ibn Khalaf»؛ ● س. أ. بونيبيكر S. A. BONNEBAKKER المنشور بمجلّة Annali dell Istituto oriental di napoli تحت عنوان: «A Fatimid manual» for Secretaries؛ ● مواد البيان، تح. حسين عبد اللّطيف، طرابلس، ليبيا 1982.

د. عبد الحميد صالح حمدان
باحث في التراث العربي - جنيف

■ ابن خلف أبو محفوظ، محرز بن خلف

(340هـ/951م - 413هـ/1025م) ■ ■ ■

من أعلام التصوّف الإسلامي في القرن الرابع للهجرة، غلبت على حياته ممارسة الرياضة الروحيّة والانقطاع إلى الزهد والعبادة، وذاعت شهرته مشرقا ومغربا، واسمه أبو محفوظ محرز بن خلف بن رزين. يتصل نسبه بأبي بكر الصديق. وهو يشترك في جدّه للأم مع أبي عبد اللّه محمد بن أبي زيد القيرواني، وأبي إسحاق الجبنياني، الأول الفقيه المالكي، صاحب «الرسالة» الشهيرة والثاني صوفي وولي كان من أبرز أعلام الساحل التونسي في الفترة ذاتها التي وجد فيها محرز بن خلف.

ولد محرز بن خلف سنة 340هـ/ 951م، ونشأ في أسرة عرفت بالزهد والصلاح، تلقى منذ صغره تعليما متينا جمع فيه علوم الدين كالفقه والتوحيد والتفسير إلى علوم العربيّة وآدابها، وتذكر مناقبه أنّ تكوينه الأساسي يعود إلى المؤدب أبي محمد يونس بن محمد وهو من أهل الزهد والورع والاجتهادات في العبادات، وصفه الوزير السّراج في «الحلل السندسيّة» بأنّه «أستاذه في الطريقة الباطنيّة».

وكان محرز بن خلف كثير التردّد على ابن أبي زيد القيرواني وعلى مدينة القيروان، وكذلك كانت له لقاءات مستمرّة بأبي الحسن القابسي الذي جمع بين الزهد وطلب العلم.

وعند سفره لأداء فريضة الحج تتلمذ في مصر إلى أبرز حَمَلَة العلم والمعرفة هناك من أمثال أبي بكر محمد بن علي 'الأدفوي (ت 388هـ/ 998م)، وأبي إسحاق إبراهيم الدينوري، وأبي بكر محمد بن عبد اللّه الأبهري (شيخ المالكيّة في العراق)، وقد تكرّرت رحلاته إلى المشرق طلبا للعلم والمعرفة ورغبة في اللقاء بالزهاد والعلماء هناك.

وفي البداية آثر أن يتفرغ إلى التدريس وعلى الأخص تدريس القرآن وأساليب تجويده بضاحية أريانة، ثم آثر في ما بعد الاستقرار بباب قرطاجنة (المسماة آنذاك بمرسى الروم والكائنة وسط تونس العاصمة) ليستأنف التدريس ولتتسع دائرة المعارف والعلوم التي تلقاها مثل أصول الفقه، والحديث النبوي.

وقد كان للإمام محرز بن خلف الدور الأساسي في ظهور «الرسالة» لابن أبي زيد

القيرواني الذي يعد من أبرز مصادر الفقه المالكي خاصة لدى علماء إفريقية، إذ طلب محرز بن خلف من بن أبي زيد أن يضع له هذا الكتاب ويجمع بين الاختصار والبيان ويكون مداره بيان أحكام الفقه المالكي في العبادات والمعاملات وأدلتها من الكتاب والسنة.

كثرت الروايات والأقوال حول مدى إسهامه العلمي والمعرفي الذي التصق شديد الالتصاق بسيرته من حيث هو ولي تنسب إليه كرامات، وزاهد عابد له مكاشفات وأحوال ومواجد. ولابد من الإشارة هنا إلى أنّ الشيخ محرز بن خلف قد شغل شبيبته بتعليم القرآن، ولم يكن ذلك محصورا في التحفيظ بل التجويد وعلم القراءات نظرا إلى أنّه يقرأ بالسبع كما أفاده من لازمه وهو إبراهيم البسكري. وتعلمه للقرآن لم يكن مقتصرا فيه على أهل إفريقية، بل ذهب في الغرض ذاته إلى مصر. جاء عن ابن بكر الصقلي قوله: «لما وصل المؤدب سيدي محرز بن خلف إلى مصر قال: القرآن عربي ولكن دلوني على أعلم القرّاء بالعربيّة، فدلوه على ابن الأدفوي فكان يتردد عليه ويقرأ عليه».

ويستنتج من نص المخطوط الذي كتبه أبو طاهر الفارسي أنّ محرز بن خلف كان واسع المعرفة، موسوعيا في اطلاعه، واهتماماته لاسيما وأنّه يعدّ من أعلام المذهب المالكي ومن أعمدة الفقه والعلم. قال إبراهيم بن خلف: قرأت عليه «الموطأ» (موطأ الإمام مالك) في يوم واحد إلّا كتاب الحج سمعته منه في الغد، وقرأت عليه «المدونة» (مدونة الإمام سحنون)، ومن جهة أخرى قال أخبرني عبد الجبار. وذكر أنّ إبراهيم البسكري دخل يوما إلى بيت المؤدب محرز وهو بقصر «قربص» فوجد به ثلاثة ألواح كبار كل لوح منها كتب في الوجهين بخطه، فقال لمحرز: ما هذا؟ فقال: كتبت فيها مسائل الخلاف بين أصحاب الإمام مالك رحمه الله، فنظرت فيها لأقيم لنفسي من ذلك مذهبا على جهة النظر. وقد علق أبو طاهر الفارسي مدوّن مناقبه قائلا: «إنّ هذا يدلّ على علمه بطريق الدلائل والآثار ولا يصح هذا إلّا لأهل العلم».

وقد أثار مع الأبهري مسائل فقهيّة منها أنّه أرسل إليه يسأله عما يأخذه بنو عبيد من الزكاة.

■ آثاره

يبدو أنّ مؤلفاته أو ما دوّن عنه أتلف، ولم تحتفظ لنا مناقبه إلّا بشذرات ومنتخبات من علمه ومنهجه في فهم الدين. وينسب إليه «حرز الأقسام»، وشعر يصف فيه آثار قرطاج [انظر ح. ح. عبد الوهاب، المنتخب المدرسي، ط 2، تونس 1944، ص 58].

ويمكن القول إنّ الشيخ محرز بن خلف كغيره من صوفية إفريقية كان الغالب عليه العمل والعبادة وتعليم الناشئة وإيثار المجاهدة الروحية. وقد جاء قول بعض علماء إفريقيّة في عبد الله بن أبي زيد (مؤلف الرسالة) وفي محرز بن خلف، من أنّ محرز بن خلف عند الناس عالم وعبد الله بن أبي زيد كذلك، فأما ابن أبي زيد فهو للعلم دون العمل عند الناس، وينسبون المؤدب محرز بن خلف إلى العمل دون العلم. وما هو عليه من العلم

«يتضح من خلال النصوص والوقائع التي اشتمل عليها المخطوط المنقبي لأبي طاهر الفارسي أنّ المؤدب محرز بن خلف لم يكن فحسب رجلا صالحا مجذوبا إلى محبّة اللّه زاهدا في الدنيا ؛ بل كان مهتما بالجدل العلمي والمذهبي الدائر في عصره، كما كان منخرطا بصفة جديّة في الحياة العلميّة والفكريّة وما يتصل بها من مشاغل معرفيّة شدّت اهتمام النخبة العالمة في القرن الرابع هجري (العاشر ميلادي). ذلك أن تفكيره في إقامة مذهب على جهة النظر يفترض اطلاعا على علوم الوسائل (المنطق واللغة، والبيان)، وعلوم المقاصد (الشريعة وفروعها). غير أنّه يجب أن نشير إلى أنّ حياة الزهاد والصوفية يكون المطلب الأساسي فيها العلم اللدني باعتباره وسيلة للقرب الفعلي من اللّه على جهة التحقق به، وقلّ وندر أن يبدي بعض من الصوفية تلك العلوم التي تأتي عادة إلهاما لا كسبا، وما عدا ذلك من العلوم والمعارف تغدو منزلتها ثانوية، فهو كان يرى أنّ العلم ما ثبت في القلب وعملت به الجوارح».

ثم إنّ عدم التأليف وندرته هو ميزة أغلب صوفية إفريقيّة إن لم نقل كلهم، وتحفل المناقب بذكر الأقوال وإيراد النصوص التي تؤكد سعة علم الشيخ محرز بن خلف وعمق معرفته بعلوم اللغة وآداب نطقها. قال أبو الطاهر: «اتفق الناس على أنّ المؤدب محرز كان من أطيب الناس كلاما وأحسنهم ألفاظا. وكان مطبوعا على الإعراب، لا ينطق إلّا بالصواب»، وقال أبو القاسم النحوي البزار: «جعلت المؤدب في بالي ما رأيته لحن في شيء من كلامه قط، فلا يتكلّم إلّا كلام العرب». وقد خاض في علوم الصوفية وله تعاريف وأقوال حكمية في بيان حقيقة التصوف وفي صعوبة تمثله من ذلك أنّه يعرّف الصوفي بأنّه «من لبس الصوف على الصفا ورمى الدنيا خلف القفا».

ومثلما كان محرز بن خلف وعلى حد عبارة المؤرخ محمد بن الخوجة «عماد البلد وأهلها يسمونه سلطان المدينة وهو من رجال الدين والدنيا (إذ) جمع بين علوم الشريعة وعلوم الاجتماع البشري» فإنّه كان شاعرا مبدعا، ذلك أنّه وكما قال الحبيب شيبوب له قصائد في غاية الرقة وكان ينظم الشعر بسهولة غريبة، وقد دون الكثير من هذه الأشعار في كتب الأدب والتاريخ.

ومن مظاهر اعتناء الأمراء بضريح الشيخ في العهد التركي وحرصهم على تجسيم رغبتهم في التبرّك بمجاورته إحداث جامع فريد من نوعه في تاريخ العمارة التونسيّة من قبل الباي محمد المرادي (1675 ـ 1696م)، في موضع قريب جدا من ضريح الشيخ حتى اشتهر هذا الجامع الممتاز لا باسم مؤسسه ولكن باسم الشيخ فيقول الناس «جامع سيدي محرز».

أمّا البايات الحسينيون فقد اعتنوا هم أيضا بزاوية سيدي محرز، فقام البعض منهم كحسين باي بن علي مؤسس الدولة الحسينيّة بتحسينات وترميمات ذات أهمية كبيرة، ويتقدّم الشيخ محرز في المواكب الرسميّة للدولة الحسينيّة على سائر مشائخ الزوايا.

وإن ما يزيد الإمام محرز بن خلف مكانة في وجدان غير المسلمين من أهل الديانات

التوحيديّة كاليهوديّة مثلا هو السماح للجالية اليهوديّة آنذاك بالسكن داخل سور المدينة الذي ابتناه بنفسه كما يذكر صاحب «المؤنس» ابن أبي دينار، وأنشأوا حيّا سكنيا صار في ما بعد يعرف باسم «حارة اليهود».

هذا وتوفّي محرز بن خلف في 413هـ/ 1025م.

المصادر والمراجع

● الفارسي، أبو طاهر، مناقب الإمام محرز بن خلف، مذكور مع مناقب أبي إسحق الجبنياني لأبي القاسم اللبيدي، تح. هادي روجي إدريس، كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، الجزائر، باريس، 1959؛ ● القاضي عياض، ترتيب المدارك، نشرة أحمد بكير، بيروت، د. ت، 4/ 712؛ ● ابن خلكان، وفيات الأعيان، القاهرة، 1310هـ، 1/ 87؛ ● المقري، نفح الطيب، القاهرة، 1949، ص 63؛ ● ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقيّة وتونس، دار المسيرة، لبنان، و ومؤسسة سعيدان، ط3، 1993؛ ● الوزير السراج، الحلل السندسيّة، تح. وتقديم محمد الحبيب الهيلة، ج 3، دار الغرب الإسلامي، 1985؛ ● ابن الخوجة، محمد، معالم التوحيد في القديم والجديد، تح. وتقديم حمادي الساحلي والجيلاني بالحاج يحيى، ط 2، دار الغرب الإسلامي، 1985؛ ● السنوسي، زين العابدين، محرز بن خلف، تقديم ومراجعة وتعليق أحمد الطويلي، الدار التونسيّة للنشر، 1401هـ/ 1981؛ ● الإمام محرز بن خلف رائد التسامح ومقاومة التطرّف، أشغال ندوة نظمتها وزارة الشؤون الدينيّة سنة 1992، وصدرت سنة 1994، وضمنها دراسة الحبيب شيبوب ودراسات أخرى عديدة؛ ● ابن عاشور، محمد العزيز، المجتمع التونسي وسيدي محرز في العهدين التركي والحسيني، إفريقية سلسلة الفنون والتقاليد الشعبيّة عدد 12، المعهد الوطني للتراث، 1998.

● Ch. Pellat, art. Muhriz B. Khalaf, in Encyclopédie de l'Islam, Nouvelle édition, Leiden, Paris, 1990, T. VII, p. 473-474. ● Taoufik Bachrouch, Le Saint et le prince en Tunisie, Publication de la Faculté des Sciences Humaines et Sociales de Tunis, Tunis, 1989. ● M. Aziz Ben Achour, Catégories de la Société tunisoise dans la deuxième moitié du XIXe siécle, I.N.A.A., Tunis, 1989.

أ. محمد الكحلاوي
باحث في التصوّف - تونس

ابن خلف المرادي، أحمد بن محمّد

(ق 5هـ/11م)

هو أحمد بن محمد بن خلف المُرادي القرطبي الأندلسي. فلكي، ومهندس.

إنّ تاريخ التقنية العربيّة أقل ميدان تناولته الدراسات والأبحاث العلميّة بالمقارنة مع الميادين الأخرى التي أسهم فيها العرب المسلمين. كما أنّ المعلومات المتوفّرة حتى الآن لدى مؤرخي العلوم الغربيين لم تكشف بعد عن مساهمة العرب في التراث التقني، لأنّ دورهم في تاريخ التقنية لا يزال مجهولا.

وتأتي أهمية المعلومات المتوفرة عن إنجازات العلماء العرب المسلمين في العلوم التقنية من أعمال عدّة علماء أهمّهم أعمال أبناء موسى بن شاكر (القرن 3 هـ)، وأعمال ابن رضوان الساعاتي (القرن 5هـ)، وأعمال ابن الرزاز بديع الزمان الجزري (القرن 6هـ)، وأعمال تقي الدين الشامي (القرن 9هـ).

وظهر مؤلّف مهم للغاية في بلاد الأندلس خلال القرن (5هـ/ 11م) هو العالم العربي أحمد بن خلف المُرادي الأندلسي الذي بقيت شخصيّته العلميّة مجهولة تماما إلى قرابة عقدين من الزمن (أواخر القرن العشرين).

ولد أحمد بن خلف المرادي في قرطبة في أوائل القرن الخامس الهجري، ونشأ فيها. بدأ حياته بتعلّم علوم عصره في قرطبة، ثمّ ما لبث أن تخصص في صنع الأجهزة الآلية (الميكانيكيّة والمائيّة). وقد وفق إلى صنع آلات جديدة ومبتكرة. وشهد في زمانه تدهور حال قرطبة. ولم تذكر المراجع الكثير عن حياته سوى أنّه عاش في الأندلس في القرن الخامس الهجري.

آثاره

يعد أحمد بن خلف المرادي صاحب المخطوطة العلميّة المهمّة التي اكتشفت مؤخرا وهي: «كتاب الأسرار في نتائج الأفكار».

الكتاب عبارة عن مخطوطة علميّة فريدة من نوعها في بلاد الأندلس حتى الآن، ويمكن مقارنة أهميتها بأعمال أبناء موسى بن شاكر والجزري، كما تتوفر المخطوطة على جانب مهم ثان، ذلك أنّ الطريقة التي يعالج ابن خلف المرادي موضوعاته بها تشير إلى احتمال عدم وجود سابق لها.

وتشير المخطوطة أنّ ناسخها هو إسحاق بن السيد شيخ الفلكيين، ويعود تاريخها إلى القرن الخامس الهجري، وهي محفوظة في مكتبة لورانسيانا برقم 142 بفلورانس، ويوجد نسخة مصورة عنها في معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب. وهي مخطوطة فريدة من نوعها في العلوم التقنيّة الأندلسيّة حتى الآن، لكونها ذات خصائص عمليّة تطبيقيّة.

وأورد ابن خلف المُرادي في كتابه أنواعا عديدة لآلات خلال تصنيفها انطلاقا من المواد التي تتطلبها بحسب حجمها، فيجعلها في واحد وثلاثين شكلا أو جهازا أو آلة أغلبها تتضمن أفكارا جديدة، منها تسعة عشرة آلة تمثل ساعات مائيّة وكذلك ساعات زئبقيّة، وكل هذه الساعات تحتوي على تماثيل آلية يمكنها التحرك على فترات زمنيّة محدّدة وبصورة مضبوطة مسبقا، وتشير إلى مرور الساعات.

أوّل خمس آلات في الكتاب هي عبارة عن أجهزة آلية كبيرة تتضمن عناصر مختلفة، وعلى سبيل المثال، فقد كان يتم تشغيل كل واحد من الأجهزة الآلية بواسطة عجلة مائيّة كبيرة الحجم، وهو يتضمن أيضا سلسلة أبواب موضوعة على صف واحد، تنفتح بفواصل زمنيّة منتظمة من أجل إظهار التماثيل الصغيرة الموجودة داخل الحجرات.

وتشير نصوص الكتاب في آن معا إلى آليات أخرى مزودة بمسننات شاقوليّة (بترس قطاعي) وأخرى أفقيّة (بترس دويري فوقي)، وفي الأولى منها، لإحدى عجلات نظام التسنن أسنان على جزء من محيطها، وبذلك تظهر جيّدا سلسلة آليات تتضمن نموذجين من نماذج التسنن هذه.

وهناك عجلة يتوزع على نصف محيطها 64 سنا والصنف الآخر غير مسنن، وهذا يتيح تحريك كرتين مسننتين مما يولد حركات ذهاب وإياب، وأعتقد أنّ هذا النموذج الذي يذكره ابن خلف المرادي هو أوّل نموذج لآلية مركبة تستخدم لنقل مزدوجة التواء كبيرة، كما أنّ ما ورد عنها في كتاب المرادي يعتبر الوصف الأوّل الذي نملكه لآليات بترس قطاعي ولآليات بترس دويري فوقي. أمّا الآليات المعقدّة المخصّصة لنقل مزدوجات مرتفعة، فقد ظهرت للمرّة الأولى في أوروبا في ساعة زمنيّة صنعها الإيطالي جيوفاني دو دوندي حوالي العام (1365م).

إنّ أهميّة هذا الكتاب كبيرة، لأنّه جمع الكثير من التجارب الميكانيكيّة التي سبقته والتي أجراها ابن خلف المرادي بنفسه أيضا وتأكّد من نجاحها، ولذلك يمكن القول إنّ هذا الكتاب هو أوّل كتاب ظهر باللغة العربيّة عن الآلات الميكانيكيّة بشكل مستقل ومتكامل في بلاد الأندلس.

ولقد ظهر واضحا من خلال منهج الكتاب متابعة ابن خلف المرادي للعمليات الهندسيّة منذ اختبار المعادن المناسبة لنوع الآلة، ثم طرق الصناعة، ثم مراحل إنتاج الآلة، وهكذا حتى عمليّة التشغيل النهائيّة، ولعلّ تسجيل هذه المراحل تعطي للنص الهندسي أهميّة بالغة في مجال التراث الهندسي.

ومن خلال دراسة منهج ابن خلف المرادي في كتابه يمكن ملاحظة الآتي:

أ - أنّ الكتاب حوى كثيرا من المصطلحات العلميّة والتعابير الفنيّة في مجال العلوم الهندسيّة. وأنّ هذه المصطلحات العلميّة التي يستعملها ابن خلف المرادي في كتابه تختلف، عن المفردات الدالة، عن تلك المستعملة من قبل غيره من العلماء، وكل ذلك يدفعنا إلى الاعتقاد بأنّنا إما أمام مخترع كبير أو عالم أصيل، وإمّا إزاء ممثل مهم لتراث محلي للحرفيين الفنيين. وهو يبدو، بالصورة عينها، مستقلا عن مخترعي الساعات المائيّة أمثال عباس بن فرناس

(ت 260هـ) والزرقالي (ت 477هـ).

ب ـ استعان ابن خلف المرادي بعنصر الزئبق بغية التحكم في آلية أجهزته الميكانيكيّة ـ في حين نجد أنّ العالم العربي ابن الرزاز الجزري (ت 607هـ) في كتابه «الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل» استعمل كرات معدنيّة لهذا الغرض ـ وذلك بجعل الزئبق يتنقل داخل ذراعي القسطاس الرئيسي للنظام. وتبرهن هذه الآلة على كفاءة الآلية الحركيّة، وهذه هي، في اعتقادنا، المرّة الأولى التي تستخدم بهذه الطريقة.

ت ـ من الواضح أنّ ابن خلف المرادي توفرت له كل القدرات العلميّة والفنيّة المعاصرة حتى تمكّن من الوصول إلى أفضل النتائج الممكنة من المصادر المحدودة التي كانت تحت تصرفه، ولا أعتقد أنّ الآلات التي صنعها كانت مصنوعة قبله لأنّ التصميمات التي ذكرها في معظم الحالات كانت عمليّة وبشكل واضح، كما أنّ وصفه لطرائق التركيب التي أعطاها مقنعة جدّا.

ث ـ كان ابن خلف المرادي ينظر إلى أعماله نظرة جادة، كما كان يولي الآلات التي ينجزها اهتماما معقولا ليس ابتغاء إحراز النتائج المطلوبة وحسب، بل أيضا لضمان سهولة تشغيل الآلات، وبلا شك يكمن واقع جمالي في الابتكار، وفي توفير حلول ممتازة للمشكلات الهندسيّة.

ج ـ من الواضح أن ابن خلف المرادي قد خبر بشكل رئيسي استخدام آثار ضغط الماء وضغط الهواء، وما كان بمقدوره أن يتوصّل إلى مقاييسه الرفيعة بمعزل عن ذلك، ومن المؤكّد أنّ معظم العلاقات الرياضيّة التي تكمن خلف الظواهر العلميّة لم تكن معروفة حينئذ، وذللك كان على المرادي أن يعمد لإجراء فيض كبير من التجارب العمليّة التطبيقيّة، وطبعا لم يكن كل ما عمله على هذا التعقيد، لقد كان لديه فهم واضح للحساب والهندسة والقياسات الدقيقة واستغل هذه المعارف أيّم استغلال في بناء أجهزته، وكان حين تبرز أمامه مجموعة من التقنيات المعقّدة يعمد للتجميع والتعديل النهائي بأسلوب الخطأ والصواب المضني. وتزخر الآلات المنفذة من قبل المرادي بحقائق علميّة لتاريخ الهندسة التقنيّة والمركبات التي استخدمها وخاصة في الأندلس.

المصادر والمراجع

● عنان، محمد عبد الله، 1389 هـ، دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، القاهرة، ص 14، 20، 28؛ ● مجموعة مؤلفين، 1997م، موسوعة تاريخ العلوم العربيّة، إشراف رشدي راشد، 3/ 1007، 1998م؛ ● الجيوسي، سلمى الخضراء، الحضارة العربيّة الإسلاميّة في الأندلس، بيروت، 2/ 1302؛ ● النعسان، محمد هشام، ابن خلف المرادي واسهاماته في العلوم التقنيّة الأندلسيّة، من أبحاث المؤتمر السنوي الرابع والعشرون لتاريخ العلوم عند العرب، معهد التراث العلمي العربي والجمعيّة السوريّة لتاريخ العلوم، جامعة حلب.

د. محمد هشام النعسان
باحث في التراث العلمي العربي
حلب ـ سوريا

ابن خلفان، خلفان بن مصبح

(1342هـ/1923م - 1366هـ/1946م)

ولد خلفان بن مصبح بن خلفان الشويهي، أبًا، والشامسيّ، أمًّا، حوالي سنة 1923، وفي بطحاء الحيرة الممتدة، ومع نخيلها الباسق الغزير حلّق خياله، وتفتقت شاعريته، وكانت تلك البلدة، آنذاك، الواقعة شرقي الشارقة، ذات أهمّية تجارية، تتّصل بصيد اللؤلؤ وتجارته، وتعرف مهنة الطواشين، الغائصين، بحثًا عن اللؤلؤ، وهي بيئة كان التعليم فيها محدود المساحة، وكانت الأمية باسطة أجنحتها، شهدت إنشاء مدرسة بها فقط من بين ثلاث مدارس أنشئت أول الأمر سنة 1903، وهي المدرسة التيمية في الشارقة، ثم الأحمدية في دبي سنة 1912، ثم مدرسة ابن خلف في أبو ظبي، وقد أنشأت مدرسة التيمية مكتبة أدبية ثقافية عامّة عمّ نفعها، وكانت الحيرة قد عرفت شخصيات ثقافية، من أمثال: «الشيخ محمد جاسم بن جروان، والشيخ مشعان بن ناصر، والشيخ الرجباني».

تلقى خلفان تعليمه الأولي في أحد كتاتيب بلدته على يد الشيخ مشعان بن ناصر والشيخ عبد المحسن، وحيث الاهتمام بحفظ بعض آيات القرآن الكريم، وتلقى مبادىء فقه العبادات، والخط، والكتابة، والقراءة. تيتم بعد مقتل أبيه في معركة أهلية بالشارقة سنة 1925، فكفله جده لأمه السيد عبيد بن حمد الشاسي.

تنقّل بين الحيرة، والشارقة، ورأس الخيمة، ومسقط، وعمل مع جده وأخواله في التجارة، ورافقهم في رحلات الغوص صيفًا مع الطواويش، وارتحل إلى الهند شتاء مشاركة لتجارة اللؤلؤ وغيره.

يوصف بأنه كان: طويل القامة، متين البنية، كثيف الحاجبين. داوم على القراءة واطّلع - شأنه شأن معاصريه - على شيء من التراث الشعري، وكان أقرب الناس إليه من أقربائه الشعراء: سلطان بن علي العويس، وصقر بن سلطان القاسمي، حيث جمع بينهم الشعر والأدب، وحلقات الشعر والسمر، ومكتبتا كل من: علي العويس، ووالد الشيخ صقر وكان بذلك أحد شعراء جماعة الحيرة.

ولم يمهله القدر كثيرًا، فلم يطل مكثه في الحياة سوى ثلاثة وعشرين عامًا عانى فيها من مرض، وجروح؛ نتيجة حادث حدث له على متن إحدى السفن، أصابه بجروح وكسور، أخذت تشتدّ به بين معاناة واستشفاء ببلدته، أو بـ «مرج» الهندية، أو بالبحرين، وانتهى به الأمر إلى ملازمته فراشه عاجزًا عن الحركة، في قصة مأساوية أليمة، وفي مرحلة معاناته تلك لم يفارقه رفيقاه الشاعران صقر بن سلطان القاسمي، وسلطان العويس.

وقد عبّر عن بعض جوانب حياته في بعض أشعاره مثل قصائده: مقيم بمرج، (وما مرج

لنا وطن)، والميسم، والبق، وانتهت به مع آلام مبرحة، ونوبات صرع، وموجات سعال، حتى توفي سنة 1946، على نحو يذكرنا بالنهاية المرضية لبدر شاكر السياب، وأمل دنقل، وصغار السن مثل أبي القاسم الشابي، ليترك لنا - وفي هذا الوقت الوجيز - مجموعة من الشعر المتناثر لدى أصدقائه ومعاصريه.

آثاره

عانى الشاعر في حياته من الفقر والمرض، وهكذا نجد في شعره حديثه عن آلامه في كثير من شعره، ومنها هذه الأبيات، مع ملاحظة الخلل الموسيقي فيها:

تسير الحياةُ بأصحابها
وتترك خلفان لأوجاعه (!)
يمرّ به الناسُ من بابها
وخلفان يدنو من مصرعه (!)

ويصوّر ما عاناه في حياته في قصيدة عنوانها «حياتي»:

إلى أي شطر من حياتي أيمّم
وكل الذي فيها سمومٌ وعلقمْ
وما نقت إلّا شدّة البؤس والبلا
فحسبي من دنياي ما كنت أعلمْ

ويستوحي التراث القرآني، في قصة يوسف ﷺ وامرأة العزيز في مجال الغزل:

ما حسن يوسف إلا منك مقتبس
وإن تقدّم أجيالا من القِدَمِ

على هذا النهج الشعري التقليدي؛ يذكر محبوباته بأسمائهن التراثية: عذرا أي عذراء، وأوصافهن التراثية: ظبي، وفي التعبير والتصوير: لعمرو أبيك، ومقلتها كاللؤلؤ.

ويستوحي الشاعر القديم، إذ يقول:

سئمت من المُقام وكلُّ شيء
إذا ما دام يُسأم لا محال

مستوحيا قول الشاعر زهير بن أبي سلمى:

سئمتُ تكاليفَ الحياة ومن يَعش
ثمانينَ حولاً لا أبا لك يسأمِ

إلخ... ويقول:

ولاح الصبحُ من تحت الثريا
كما لاح المشيب بعين قال

مستوحيا الشعر القديم، أو يستوحي طريقة رباعيات الخيام ومعانيها، ويغلب على شعره الشكوى والحنين والأسى، يقول مخاطبا قلبه:

جراحك لا تبرَا وأنتَ تزيدها
إذا التام منها مقتل سالَ مقتَلُ
وتنسى من الأيام ما قد لقيته
وتذكر حبّا بين جنبيك يُوغلُ
تمثل من تهوى قريبا تناجيا
تبث له الشكوى وترجُو وتاملُ
ترفق فؤادي إنه البعد والجفا
وإنك لا تدري بما الأمر مقبلُ

قلنا إن نشأته كانت مع البحر والغوص، ومن هنا كان للبحر منزلته في شعره، وقد أفرد له قصيدة «ركوب البحر»، حيث يحدثنا عن لجته الزرقاء، والفلْكُ ماخِرةُ العباب، والكوت، والنواخذا.

وتشتد صلته وملاحظته الحياة من حوله، فينقد

الناس، ويتحدّث عن الراديو في هذا الوقت الباكر، ويفرد قصيدة عنوانها «مجد العرب»، وهكذا تتنوّع موضوعات شعره، برغم قصر حياته.

ونلحظ ميله إلى الإطالة في بعض قصائده، ويمضي في منهجه الشعري على الطريقة الكلاسيكية في البناء الموسيقي، والبناء اللغوي، وما يتصل به من المعجم الشعري التراثي، واستيحاء التراث، والعناية بالحكم، وبناء الصورة الجزئية، وقيامها على التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز المرسل، ومراعاة وحدة البيت، ويمضي موضوعه الشعري على نحو ما يمضي لدى الكلاسيكيين، فتغلب عليه الموضوعات الدينية والقومية، والاجتماعية، والعاطفية، وهو - في ذلك كله - وثيق الصلة بالشعراء فيما كان يطلق عليه «شعراء ساحل عمان» قبل أن تتّحد الإمارات السبع، حيث كانت تسمّى الإمارات المتصالحة، أو إمارات ساحل الهدنة، أو ساحل عمان. من هنا كان خلفان واحدًا من شعراء ساحل عمان في تلك المرحلة المتقدّمة من تاريخ الشعر في الإمارات، شأنه شأن رفيقيه: صقر بن سلطان القاسمي، وسلطان العويس، وشأن كثير ممّن سبقه، وعلى رأسهم سالم بن علي العويس، أو من عاصره من الشعراء، وفي كتاب «شقائق النعمان على سموط الجمان في أسماء شعراء عمان» لمحمد بن راشد بن عزيز الخصيبي ما يربو على خمسمائة شاعر عماني، وفي الوقت نفسه تشتدّ صلته بالشعر في البيئات العربية الأخرى، وبخاصة في مصر، والعراق، والشام.

المصادر والمراجع

● الطائي، عبد الله، الأدب المعاصر في الخليج العربي، معهد الدراسات العربية، القاهرة 1974، ص147 - 150؛ ● عبد الرحمٰن، عبد الله، الإمارات في ذاكرة أبنائها، ج1، اتحاد الكتاب بالشارقة 1991، وج2، القراءة للميع جبي، 1990، وج3، ندوة الثقافة والعلوم، دبي، 1998؛ ● فهمي، ماهر حسن، تطوّر الشعر العربي الحديث بمنطقة الخليج، الرسالة، بيروت، 1981؛ ● نوفل، يوسف، جماعة الحيرة في دولة الإمارات، وأثرها في الحديث، البحوث الفائزة بجائزة ندوة الثقافة، دبي، ج2، 1991؛ ● الحركة الشعرية في الإمارات، دراسة موضوعيّة وفنّية، مجلّة شؤون أدبية، العدد 22، 1989، ص189؛ ● أبو ملحة، السيد إبراهيم محمد، خلفان بن مصبح، شاعر الإمارات المنسيّ، الخليج، الشارقة، في 24/ 1/ 1987، وله أيضًا دراسة أدبية عنه وعن شعره، ندوة الثقافة والعلوم، دبي؛ ● العيساوي، ريم، خلفان بن مصبح، شاعر الشكوى والأنين، مجلّة الرافد، العدد 25، 1999؛ ● خلفان بن مصبح، شعره يشف عن حزنه، الخليج الثقافي، العدد 4145 في 11/ 9/ 1990؛ ● رافع، شوقي، الشاعر الجامح خلفان بن مصبح، تح. وليد خالص، اتحاد الكتاب، الشارقة 1994؛ ● نوفل، يوسف، شعراء دولة الإمارات العربية المتّحدة، دراسة وبيبليوغرافية، كتاب ندوة الثقافة

والعلوم، دبي، ط1، 1994؛ ● الجدع، أحمد، شعراء معاصرون من الخليج والجزيرة العربية، دار الضياء، الأردن، مؤسسة الشرق، قطر، ط1، 1984؛ ● بوشعير، رشيد، الشعر العربي الحديث في منطقة الخليج، دمشق، 1998؛ ● الشعر العربي المعاصر في الإمارات، مجلة شؤون أدبية، الإمارات، السنة 6، العدد 33، ص44؛ ● حسين، عبد الجبار، الشعر والشعراء في الخليج العربي والجزيرة العربية؛ ● قصائد من الإمارات، اتحاد الكتاب، الإمارات، ط1، 1986؛ ● حسين، عبد الجبار، ملامح الحركة الأدبية في الخليج، القاهرة، 1980م.

د. يوسف حسن نوفل

جامعة عين شمس - القاهرة

ابن خلفون، أبو بكر محمد بن إسماعيل بن محمد

(555هـ/1160م - 636هـ/1239م)

محمد بن إسماعيل بن محمد، بن خلفون الأزدي الأندلسي، يكنى بأبي بكر، وأبي عبد الله، ولد سنة 555هـ/1160م في آوبنة غربي الأندلس، وانتقل إلى إشبيلية مدة من الزمن.

كان بصيرًا بصناعة الحديث، حافظًا للرجال، متقنًا للأسانيد والأخبار، تلقى علوم الحديث على عدد من الأساتذة منهم، أبو بكر بن محمد، وأبو عبد الله بن زرقون، وأبو بكر بن البناء، وأبو العباس بن مقدام، وأبو الوليد سعد السعود بن عفير، وأبو العباس بن خليل الذي درس على يديه لكنه لم يجز له، وأبو البقاء يعيش بن القديم، كما أجازه أبو القاسم بن الملجوم، وأبو الحسين بن الصائغ وغيرهما. . .[ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، 2/ 643].

تقلد وظيفة القضاء ببعض مدن الأندلس، ونال رضا الناس في قضائه، وقد روى عنه عدد من العلماء منهم أبو جعفر بن الطباع، وابن مسدين، وأكثر من رواياته أبو بكر بن ست الناس، كما درس على يديه آخرون، وكان ناجحًا في تدريسه وقد بيّن ابن الزبير أنّه لم يقع على رواية من ابن خلفون باستثناء رواية نقلها النحوي ابو حيان الغرناطي عن آخر [الذهبي، سير أعلام النبلاء، 23/ 71].

ومن بين الروايات التي أوفت حقّه رواية ابن الآبار في كتاب التكملة. حيث أشار إلى أنه قد لقيه بسوق الوراقين من إشبيلية في شهر رمضان من سنة 626هـ/ 228ام وعلى ما يبدو فان الوقت الذي التقيا فيه لم يتح لهما الاستفادة من بعضهما إلّا أنّ ابن الأبار لم يقلل من قيمته العلمية حيث يقول: «ولقيته

بالورافين من إشبيلية، في رمضان سنة ست وعشرين فذاكرته ولم أستجزه ولا سمعت منه شيئًا من روايته، وكان أهلاً للأخذ عنه والسماع منه. . .».

عاش ابن خلفون في الأندلس تحت ظلّ سلطة الموحدين (540 ـ 620هـ/ 1145 ـ 1223م) اذ شهد عهدهم نشاطًا علميًا وأدبيًا، فنهجوا نهج من سبقهم من أمراء الأندلس فاستدعوا العلماء إلى قصورهم وأحاطوهم بالرعاية الدائمة، ودرسوا العلوم المختلفة بما فيها الفلسفة، فامتاز عصرهم بحرية الفكر وتنوع علومهم، سوى ما يخالف معتقداتهم التي جاء بها محمد بن تومرت الذي ابتدأ دعوته منذ عام (515هـ/ 1121م) على أساس ديني قوامها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واتخذ حصن تينملل قاعدة لدعوته [ابن عذاري، البيان، 4/ 68؛ ابن خلدون، العبر، 6/ 228]، وقد كان عصرهم عصر انحسار لسلطة علماء من الفقهاء واهتموا بظاهر النصوص من قرآن وعلوم حديث.

ومن بين مظاهر الإهتمام بعلم الحديث رعاية طلبته في دولتهم، وبوجه خاص على عهد الخليفة يعقوب بن يوسف بما لم ينالوه في أيام أبيه وجده، علاوة على أن غير واحد من أمرائهم كانوا محدثين حفاظًا. ويذكر أن الخليفة يوسف كان يحفظ أحد الصحيحين فيما كان يعقوب يحفظ متون الحديث ويتقنها وكذلك المأمون الذي كان معدودًا من حفاظه وغيرهم [المنوني، العلوم والآداب والفنون، 47].

وبرز من المجايلين لابن خلفون الحافظ أبو الربيع بن سالم الحميري شهيد معركة انيشة سنة 634هـ/ 1236م وهو أستاذ ابن الأبار، وعبد الله بن الأحسن الأنصاري المعروف بابن القرطبي (ت 611هـ/ 1214م) [ابن الأبار، التكملة، تراجم 1991 و1997].

اختتم حياته كما ذكر ابن الزبير بقوله: اعتنى بالرواية والنقل اعتناءًا تامًا، وعكف على ذلك عمره، وكان حافظًا للأسانيد عارفًا بالرجال. توفي في مدينة أونبة سنة 636هـ/ 1239م.

آثاره

لقد ذكروا لابن خلفون تآليف مفيدة في الحديث منها:

1 ـ كتاب سماه المنتقى في رجال الحديث في خمسة أسفار؛ 2 ـ المفهم في شيوخ البخاري ومسلم يوجد الجزء الأول منه بمكتبة الأزهر [مصطلح الحديث 136 رقم 9019]؛ 3 ـ كتاب في علوم الحديث وصفاته نقله [ابن الأبار، التكملة، 2/ 643 ـ 644]؛ 4 ـ أضاف آخرون كتابًا آخر له تناول فيه أسماء شيوخ مالك توجد نسخة منه في مكتبة الاسكوريال تحت رقم 1747.

المصادر والمراجع

● ابن الأبار، محمد بن محمد بن عبد الله، التكملة لكتاب الصلة، عني بنشره وتصحيحه، عزت العطار، القاهرة، 1956، 2/ 643 ـ 644؛ ● الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، ط3، بيروت، 1986، 23/ 71 ـ 72؛ ● تذكرة الحفاظ، مطبعة مجلس دائرة المعارف،

حيدر آباد، 1114هـ، 186؛ ● الصفدي، صلاح الدين، الوافي بالوفيات، باعتناء هلموت ريتر، دار النشر فرانز شتايز 1961، 2/ 218؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين وأسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ط 3، المكتبة الإسلامية، طهران، 1955، 114؛ ● الزركلي، الأعلام، 6/ 261؛ ● ابن عبد الله، عبد العزيز، الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية، دار الحديث الحسنية، الرباط، 1975، 95؛ ● كحالة عمر رضا، معجم المؤلفين، مكتبة المثنى ودار إحياء التراث العربي، بيروت، بلا تاريخ، 9/ 61؛ ● ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح. لجنة احياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت 5/ 185؛ ● المنوني، محمد، العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، ط 2، مطبوعات دار المغرب، الرباط، 1977، 47.

د. مزاحم علاوي الشاهري
جامعة الموصل ـ العراق

ابن خلفون، زياد

(ت 308هـ/ 920م)

زياد بن خلفون، طبيب قيرواني، من موالي الأغالبة. لا يُعرف شيء عن أصله، وفيما إذا كان من أهل البلاد، أم من الوافدين عليها، ولكن يبدو أنه تدرّج في الخدمة وتتلمذ على كبار أطباء القيروان، لاسيما إسحاق بن عمران الطبيب البغدادي الأصل (ت 294هـ/ 907م). ثم ذاع صيت ابن خلفون، فعالج الأمراء والأعيان، واستمرّ في ممارسة مهنته إلى نهاية الأغالبة سنة 296هـ/ 908م.

تميّز ابن خلفون بتفوّقه في صنعة الطب، فقد كان عالما حسن الذهن فيما يتصل بهذه الصنعة، وكان من عادته زيارة المارستان أو المستشفى الرئيس في القيروان أيام الأغالبة، والذي عُرف بـ «الدمنة» بالقرب من المسجد المعروف بمسجد السبت. فكان يخرج إليه في أيام معيّنة، فيزور من به من المرضى، ويتتبع سير مرضهم وعاهاتهم.

وعندما بُنيت مدينة رقادة سنة 263هـ/ 876م في عهد الأمير إبراهيم الثاني بن أحمد، انتقل إليها ابن خلفون، ليكون قريبا من بلاط الأمير. ويبدو أن هذا الطبيب كان يؤمن بأهميّة البيئة في الوقاية من كثير من الأمراض، فقد أورد أبو عبيد البكري رواية تشير إلى أنّ بن خلفون «إذا خرج من القيروان يريد مدينة رقادة وحاذى باب أصرم رفع العمامة عن

رأسه يباشر الهواء برأسه كالمتداوي به لصحته» [المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص24].

وبعد قيام الدولة الفاطمية، التحق ابن خلفون بخدمة أول أمرائها عبيد الله المهدي، فكان من جملة الرجال المقرّبين إليه، لحاجة هذه الدولة في بداية أمرها إلى المتخصصين من أهل المهن والخبرة. وقد رافق ابن خلفون عبيد الله المهدي في حملته باتجاه المغربين الأوسط والأقصى، وظل في خدمته لمدة تقرب من عشر سنوات متوالية. ويبدو أنّ نجاح هذا الطبيب، وعلو نجمه عند الأمير أثار بعض حسّاده من أعوان المهدي لاسيما المدعو بأبي سعيد موسى بن أحمد. وعلى الرغم من تحذير الأمير له بعدم التواجد في القيروان حينما يكون أبا سعيد فيها، لكن هذا الأخير استطاع بواسطة عيونه من رصد تواجد الطبيب في المدينة، وأرسل من دخل داره وقتله سنة 308هـ. وهكذا ذهب هذا الطبيب ضحية الحقد والحسد، ولم يستطع الأمير الذي أبدى أسفه الشديد لمقتله، أن يدرأ عنه العدوان أو يحميه.

المصادر والمراجع

● البكري، المغرب في ذكر إفريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، نشر دي سلان، الجزائر، 1857، ص24؛ ● ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، نشر كولان وليفي بروفنصال، ليدن، أعادت نشره دار الثقافة في بيروت، 1/ 153 ـ 183؛ ● عبد الوهاب، حسن حسني، ورقات عن حضارة العربية بإفريقية التونسية، مكتبة المنار، 1965، ص 24، 234، 239، 241 ـ 243، 277، 361.

د. عبد الواحد ذنون طه

جامعة الموصل ـ العراق

خلقي، علي

(1330هـ/1911م ـ 1401هـ/1981م)

ولد علي خلقي في منطقة دوما ـ دمشق عام 1911م، وتلقى تعليمه فيها، وتخرج في دار المعلمين العليا بدمشق. وعمل معلماً في محافظات متعددة حتى إحالته على المعاش في عام 1971م. ونشر مجموعته القصصية الوحيدة «ربيع وخريف» عام 1931م التي تعدّ من أوائل المجموعات القصصية ذات المستوى الفني الرفيع. وحظيت هذه المجموعة بالتقدير والثناء الذي جعله من رواد الفن القصصي في سورية، وكرّمه اتحاد الكتاب العرب عام 1980م، وأعاد طباعة هذه المجموعة معدّلة ومصدرة ببعض

المقالات التي احتفت به وبإنتاجه القصصي الريادي.

لم ينقطع علي خلقي عن كتابة القصة، ولكن طوابع حياته المضنية اضطرته إلى البحث عن عمل، فخاض معركة الحياة. فقد كان والده ضابطاً وأستاذاً للأدب التركي في أستانبول، وتوفي باكراً، واحتضنه أخوه فترة، فأذاقته زوجة الأخ مرّ العذاب. وبدأ منذ ذلك الوقت تشرده، فكان يعمل إلى جانب دراسته صانع أحذية، ويحضر تمثيليات أخيه الممثل، ويهرب إلى بيروت ليقيم في بيت أخته الكبرى، ثم يعود إلى دمشق ليدرس وليسهم في المظاهرات السياسية، ولينام في الفندق يوماً وفي السجن ليلة. ونال شهادة دار المعلمين، وعين معلماً في مدارس بعض المحافظات النائية. وطبع مجموعته القصصية عام 1931م، وضمت سبع قصص هي: «العم طنوس» و«مونولوج منثور» و«فتاة الحانة» و«على طريق زحلة» و«أورانغ - أوتانغ» و«عازف الكمان» و«مذكرات ممثل بائس». وأثقلته طباعة المجموعة بتكاليف مادية، وانقطع عن النشر. وأعد مجموعة ثانية للطبع أواخر الثلاثينات، وضمت المجموعة سبع قصص أخرى، وهي التي أضيفت بتقدير الباحثين والقاص نفسه إلى الطبعة المعدلة عام 1980. وقد استهلكه التدريس والإدمان على الخمر فترة طويلة بالإضافة إلى ضغوط العيش مع أسرته، فلم يطعمه القلم كسرة خبز. وصرفته الحياة إلى العمل والتعليم، فكان خلال عقود من السنين معلماً ماهراً ثم مدير مدرسة ناجحاً ذا وجدان، وحرق في الخمسينات عدداً من قصصه والمسرحيات التي كتبها لينقذ نفسه من تهمة الشيوعية التي سببت له كارثة، فتوهم أنه ملاحق، وعاش الذعر يومياً. وأحيل إلى التقاعد في أواخر الستينات، وقام بعدة رحلات إلى باريس وألمانيا حيث ابناه يدرسان، وبدأت حياته تأخذ طابعاً هادئاً بفضل ابنته التي سهرت على رعايته حتى رحيله عام 1984م.

نظر إلى علي خلقي رائداً للقصة القصيرة في سورية باتفاق الباحثين والنقاد الذين كتبوا كثيراً حول إبداعه، فقد حوت «قصصه تصويراً رائعاً لحياة عصره، بعضها يروي ما قاسى في حياته الخاصة من مآس، وبعضها يقصّ علينا مشكلات الناس الذين تصيبهم الغيرة والشك والحبّ، وبعضها يعرض علينا النزاع بين الحياة الاجتماعية الجديدة التي تنفتح على الحرية وبين بقايا الطبقة السائدة من المنافقين الذين يدعون الزهد والعفاف والانصراف عن ملذات الحياة، ولكنهم يغرقون فيها حتى آذانهم، وهي قصص تضمّ إلى واقعيتها الصميمة إبداعية واضحة» بتعبير عبد المعين الملوحي في تقديمه للطبعة الثانية المعدلة.

وتصور قصصه على سبيل المثال نماذج إنسانية تعاني من وطأة التغيرات الاجتماعية وخلخلة القيم، ففي قصة «العم طنوس»، آل البطل إلى مجنون إثر خيانة زوجته مع أخيه، فغرق في الخمرة عندما انتحرت زوجته، فبقي طنوس سمير الجعة وسمير الشيطان.

وتصف قصة «فتاة الحانات» امرأة تدعى شمس، تعلق بها صديق الراوي، وكان زواجه منها، وأحضرت فجأة ابنة عمه رزمة من الرسائل تنال شرفه وشرف أبيه إلى الأبد مثل عداء عمه لوالده، ورضخ لأمر زواجه بابنة

عمه، وما كادت سيارة العروسين تسرع بهما خارج الكنيسة حتى زعقت مكابحها، وتجمع الناس، إذ كانت جثة شمس تحت العجلات!

وتناول في قصة «مونولوج منثور» التي تشبه نجوى درامية تفاصيل الحياة على وجدان ممثل. وحفلت بعض القصص بالنقد الاجتماعي القاسي. وفي قصة «الشيخ الورع» يلحق هذا الشيخ بخادم إلى غرفتها، ويواجه بالفضيحة المدبرة، حين التم حشد الرجال المدعوين إلى وليمته، فدخلوا يصيحون برجل الدين، بينما كان الشيخ يخبط بيديه كالمجنون، ويلملم بعض ثيابه، ويهرب من الباب بين أشجار البستان.

وتشير قصص علي خلقي إلى رومانسيته من جهة وآثار المشجاة (الميلودراما) لديه من جهة أخرى، كما في ظهور حالات الموت والدم والانتحار في بعض قصصه مثل انتحار زوجة العم طنوس وانتحار فتاة البار شمس. وظهر تأثر قصصه بالعلاقات بين الفنون مبكراً مثل «المسرحة» و«التوليف» السينمائي بالنظر إلى ملازمته لأخيه الممثل أكرم طويلاً وإلى إقباله على مشاهدة الأشرطة على ندرتها حينذاك، وتبدو هذه الآثار جلية في قصتيه «منولوج منثور أو محاضرات الممثل ف عن العصر» و«الموسيقي البائس: عازف الكمان».

وحرص خلقي في كتابته القصصية على عنصرين: عنصر الواقعية المأخوذة من نطاق تجاربه وخبراته في حياته القلقة والعاصفة، وعنصر التخييل الذي يمضي إلى الانتقاد والسخرية والمفارقة، وهي تقانات فنية بادية في قصصه: «الكأس» و«المرحومة» و«الضيف الثقيل».

وقد انتقل خلقي في قصصه التي منحته قيمة الريادة من أشكال المقال القصصي والصورة القصصية أو القلمية مما هو شائع آنذاك على أقلام الكتّاب، إلى فنية الفنية التي تستند إلى براعة الوصف ودقة تحليل دواخل الشخصيات كما في قصة «الموسيقي البائس: عازف الكمان» التي تعبّر عن حالات تجسيد الشخصية ومعاناتها في مجتمعها من ضغوط البيئة والنفس، وقد ختمها بالعبارات التالية تشخيصاً للدواخل العميقة وتنازعاتها مع ما واجهه هذا الموسيقي تشخيصاً من عذاب:

«جن جنوني واستطار عقلي لهذه الصدمة، راجعت دائرة الشرطة فأبلغت الأمر للمخافر في العاصمة والقرى والمدن المجاورة دون جدوى اختفت ابنتي وزوجتي الفاجرة، ومنذ ذلك اليوم لم أعثر لهما على أثر. لقد فقدتهما إلى الأبد وبفقدهما دفنت هنائي وسعادتي. إني أرى دائماً زوجتي الطاهرة البريئة ماثلة أمامي في السماء في إطار من الغيوم محلولة الشعر منتحبة مولولة تناديني يا خائن ماذا فعلت بابنتي يا ظالم... امتزجت دموعي بدموع محدثي، ولم أجد أمامي لتخفيف آلامه إلا الصمت فقام ورجلاه لا تقويان على حمله يتوكأ على عصاه ينشد السلوى في كأس من الخمر في زوايا الحانات، وسمعته يقول ما أعظم عدلك يا إلهي» [ص132].

وقد حرص خلقي على القيم الأخلاقية والاجتماعية في قصصه مناهضة للرياء والفساد والابتذال بلبوس صريح حيناً، وبإيماء إلى رسوخ القيم الإنسانية حيناً آخر، حين ينتشر الصراع الطبقي إلى منتهاه. وأظهر من أجل ذلك دعوته المباشرة إلى الالتزام بالأفكار

والعقائد والعواطف الهادفة والقيمة المتوخاة. ويتلفع ذلك كلّه بالنصح والحكمة، كخاتمة قصة «الغيرة والشك» على لسان سامي أفندي إزاء موقفه من زوجته المتهمة:

«ـ أين أجدها؟ لقد تمنى لو عرف أين ذهبت ليسرع إليها...، تذكر أنه صفعها على وجهها وانهال عليها بأشد أنواع الشتائم. وبعينيه المخضبتين بالدموع، شاهد طفله يصرخ بين يديها، فشعر بالأسى يطغى على نفسه، ويهصر روحه، فهام على وجهه في ذلك الليل، وما درى كيف وصل المنزل، ولا كيف فتح بوابته الحديدية، ولكنه رأى ويا لهول ما رأى، رأى زوجه المسكينة على درجة أسفل السلم، وقد حضنت طفلها تنتظر عودته، فهلع قلبه وجثا بين قدميها، وراح يضمها، ويبلل وجهها وصدرها بدموعه، وشعر حينئذ أنه غسل بهذه الدموع أدران ماضيه وأنه استفاق من حلم كريه مزعج» [ص123].

وثمة عناية لا تخفى بلغة القصة التي تسعف عنصر التخييل بفيض التحليل النفسي المفعم بالدلالات كقول صاحب الكأس في قصة «الكأس»:

«ـ نعم إنها ذكرى قاتلة، ويا لها من قاتلة فلندعها إلى حين... انظر يا أخي إلى هذه الكأس إنها سمير روحي، ونديم خيالي، وهي هادمة اللذات، ومفرقة الجماعات... هذه الكأس مخففة آلامي، ومبعث فنائي، سبب سقمي وعلة آلامي.. الكأس، الكأس، إنها صديقي الودود، وخصمي اللدود... أجرعها لأنسى، وإذا حرمت أن أجرعها عاودتني الذكرى، ولاحقتني الدماء... الجثة المحبوبة، وعلى ثغرها بسمة الأطفال البريئة.. الدماء دائماً الدماء.. ثم راح يهذي بكلمات مبهمة، فتركته وانصرفت تتنازعني عوامل متباينة صعب عليّ تحليلها» [ص115].

وحمل إهداؤه نفحات صادقة عن ريادته وتوظيفه للقصة في أبعادها الوطنية والإنسانية على أنه يكتب ببساطة، وأنه صنع أسلوبه القصصي بنفسه، وبذر بذور القصة في تراب بلده الطيب، وجاء كتاب بعده، وتعهدوا تلك البذور، ونفخوا فيها روح الحياة.

المصادر والمراجع

● خلقي، علي، ربيع وخريف، قصص، منشورات اتحاد الكتاب العرب، طبعة ثانية معدلة دمشق 1980؛ ● مصطفى، شاكر، القصة في سورية حتى الحرب العالمية الثانية، معهد الدراسات العليا، جامعة الدول العربية، القاهرة 1957؛ ● أبو شنب، عادل، صفحات مجهولة في تاريخ القصة السورية، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق 1976؛ ● ابن ذريل، عدنان، أدب القصة في سورية، مطبعة الأيام، دمشق 1967.

د. عبد الله أبو هيف
جامعة تشرين ـ اللاذقية ـ سوريا

ابن خلّكان، شمس الدين أحمد بن محمد

(608هـ/1211م - 681هـ/1282م)

ولد شمس الدين بن خلّكان بمدينة إربل بالمدرسة المظفريّة.

ولم تطل أيام الوالد شهاب الدين محمد بن إبراهيم بن خلكان مع ولده شمس الدين أحمد، فقد توفّي في الثاني والعشرين من شعبان سنة عشر وستمائة للهجرة، ولم يكن لولده شمس الدين أحمد من العمر سوى سنتين وأربعة أشهر وعشرة أيام، وكان والده من أهل الدين والعلم، رحل إلى الشام، ومصر، والحجاز، وبغداد، والموصل، واستقرّ أخيرا بإربل، ونال جاها عريضا عند صاحب إربل مظفر الدين أبي سعيد كُوكبوري بن علي بن بكتكين، وعيّنه بمدرسته المعروفة بالمدرسة المظفرية، وأقام بها حتّى توفّي فيها.

واستطاع الوالد شهاب الدين بن خلكان أن يستجيز عددا من شيوخ العصر وحُفّاظه لولده شمس الدين أحمد، وهو ما يزال صغيرا، والوالد يعرف جيدا أهميّة هذه الإجازات العلميّة، ويُدرك فائدتها لولده في مستقبل أيّامه، فحصل له على إجازة العالمة المحدّثة أم المؤيّد زينب بنت عبد الرحمٰن النّيسابوريّة الشّعريّة (ت 615هـ/ 1218م) مسندة عصرها، وأجاز له أيضا رضي الدين أبو الحسن المؤيّد بن محمد بن علي الطّوسي (ت 617هـ/ 1220م) المقرئ، مُسند خُراسان المشهور، وأجاز له كذلك أبو روح عبد المُعزّ بن محمد بن أبي الفضل الهرويّ الصّوفيّ البزّاز (ت 618هـ/ 1221م) مُسند العصر، عالي الاسناد، كان بينه وبين رسول اللّه ﷺ سبعة أنفس ثقات، استشهد في دخول التتار هراة.

لقد كانت لهذا الوالد شهاب الدين محمد بن خلكان صحبة جميلة، ومودّة أكيدة مع صاحب إربل مظفر الدين كوكبوري، وقد أتت هذه الصداقة أكلها بعد وفاة شهاب الدين، إذ تولّى مظفر الدين كوكبوري رعاية أولاد صديقه شهاب الدين بن خلكان الثلاثة وهم: بهاء الدين محمد، وضياء الدين عيسى، وشمس الدين أحمد - صاحبنا -.

فانصرف شمس الدين بن خلكان إلى طلب العلم بنفسه، وكان أوّل سماعه بإربل على الشيخ شرف الدين أحمد بن العلامة كمال الدين موسى بن يونس الموصليّ (ت 622هـ/ 1225م) الذي خلف الشيخ شهاب الدين محمد بن خلكان في تدريس المدرسة المظفريّة بإربل.

وسمع بإربل أيضا من عالمها الشهير شرف الدين أبي البركات المبارك بن أحمد بن المبارك اللّخميّ المعروف بابن المستوفيّ (ت 637هـ/ 1239م) صاحب تاريخ إربل المعروف بـ «نباهة البلد الخامل بمن ورده من الأماثل»، ذلك الأديب المؤرّخ كان بيته

مجمع الفضلاء، وله يد طولى في النظم والنثر، وقد لازم ابن خلكان دار ابن المستوفي يتردّد إليها، سامعا من صاحبها وقارئا عليه بنفسه.

واستطاع شمس الدين بن خلكان أن يسمع صحيح البُخاريّ من المحدّث المشهور أبي جعفر محمد بن هبة الله بن مكرم البغداديّ الصّوفيّ (ت 621هـ/ 1224م).

ولأهميّة مدينة إربل ـ موطن ابن خلكان ـ ومكانتها الثقافيّة وبيئتها الفكريّة الخصبة توافد عليها عدد من العلماء والأدباء والفقهاء، سنحت له فرصة لقاء هؤلاء الوافدين والأخذ عنهم والسّماع عليهم، فالتقى الأديب الشاعر جمال الدين أبا المظفر عبد الرحمٰن بن محمد الواسطيّ المعروف بابن السّنينيرة.

وكذلك وفد على إربل الشيخ العلامة أثير الدين المُفضّل بن عمر بن المفضّل الأبهريّ سنة 626هـ/ 1229م، قادما من الموصل فاختلف إليه ابن خلكان يدرس عليه الخلاف.

ووفد أيضا على إربل العلامة أبو الخطاب عمر بن حسن بن دحية الكلبيّ (ت 633هـ/ 1236م) الحافظ الرحّال، كان من أعيان العلماء ومشاهير الفضلاء، مُتفنّنا في الحديث والنّحو واللّغة.

تاقت نفس ابن خلكان إلى الرحلة خارج إربل والتّعرّف إلى المراكز الثقافيّة بالبلدان الأخرى، فعقد العزم على مغادرة إربل إلى الموصل، فدخلها في رمضان سنة 626هـ/ 1229م، ولم تطل إقامته بالموصل فغادرها إلى حلب، وكان دخوله حلب مستهل ذي القعدة سنة 626هـ/ 1229م وكان لرعاية الوجيه القاضي بهاء الدين أبي المحاسن يوسف بن رافع الأسديّ الحلبيّ المعروف بابن شدّاد (ت 632هـ/ 1235م) الأثر البالغ في نفس ابن خلكان، فشرع في تلقي العلم على شيوخ حلب البارزين، وكان أوّل شيخ له بحلب هو جمال الدين أبو بكر الماهانيّ الاربليّ (ت 627هـ/ 1230م)، فأخذ عنه، وقرأ عليه ولم تطل ملازمته له، إذ توفّي الشيخ بعد سنة واحدة من إقامته بحلب.

وأخذ أيضا عن القاضي بهاء الدين بن شدّاد ـ المتقدم ذكره ـ وانتفع منه ومن العلماء الذين يتردّدون على مجلسه.

وأخذ أيضا عن الشيخ أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن علي المعروف بابن الخبّاز الموصليّ (ت 631هـ/ 1234م) الفقيه المشهور، كان مدرّسا بالمدرسة السّيفيّة بحلب درس عليه ابن خلكان كتاب «الوجيز» للغزاليّ، وقرأه عليه، وبلغ فيه حتّى «باب الإقرار».

واغتنم ابن خلكان فرصة وجود العلامة موفق الدين يعيش بن عليّ الأسديّ الموصليّ الحلبيّ النّحويّ (ت 643هـ/ 1245م) فقرأ عليه ابن خلكان كتاب «اللّمع في العربيّة» لأبي الفتح عثمان بن جنّي الموصليّ (ت 392هـ/ 1001م).

وتوطّدت علاقة ابن خلكان مع شيخه المؤرّخ عزّ الدين عليّ بن محمد الشّيبانيّ المعروف بابن الأثير الجزريّ (ت 630هـ/ 1232م) وعلى صغر سنّ ابن خلكان، فقد كان عز الدين بن الأثير يُدنيه منه، ويُقرّبه في مجلسه، وقد غمره بالعناية والرعاية للعلاقة الوثيقة بينه

وبين والده شهاب الدين محمد بن خلكان، فأخذ عنه كثيرا.

وبحلب أيضا أخذ عن العلامة موفق الدين عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن عليّ البغداديّ ثمّ المصريّ النّحويّ اللّغويّ، الطّبيب، الفيلسوف (ت 629هـ/ 1232م).

وقد ترامت إلى أسماع ابن خلكان شهرة الإمام العلامة تقي الدين عثمان بن عبد الرحمٰن الشّهرزوريّ المعروف بابن الصّلاح (ت 643هـ/ 1245م) وهو بدمشق فرحل إلى دمشق متوجّها إلى الشيخ في شوال سنة 632هـ/ 1235م، فدرس عليه وانتفع به. وبعد إقامة سنة كاملة بدمشق، عاد ابن خلكان إلى حلب، وجدّد لقاءه بأصدقائه ورفاق طلبه.

لقد دامت إقامته بحلب ما يقرب من عشر سنوات، وهو يغادرها في الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة 635هـ/ 1238م عازما السفر إلى مصر، وهو يرى فيها المركز العلمي الذي يجب الاطّلاع عليه، لكثرة المشايخ والعلماء فيه، فدخل مصر في أوائل سنة 636هـ/ 1239م وكان أوّل حضور له على الحافظ، محدّث العصر العلامة زكيّ الدين عبد العظيم بن عبد القوي المنذريّ (ت 656هـ/ 1258م) شيخ دار الحديث الكامليّة بالقاهرة.

وقد اجتمع ابن خلكان بالقاهرة بمجموعة طيبة من علماء القاهرة، وأصحاب شيوخها البارزين، وأخذ عنهم، وحصل على إجازاتهم في مروياتهم ومسموعاتهم، كان منهم: أبو محمد عبد الله بن بركات بن إبراهيم الخشوعيّ الدّمشقيّ ثمّ المصريّ (ت 658هـ/ 1260م)، وجمال الدين أبو عمرو عثمان بن عمر بن أبي بكر المصريّ المالكيّ المعروف بابن الحاجب (ت 646هـ/ 1248م).

وتمكّن ابن خلكان ـ وهو بالقاهرة ـ من إقامة علاقات ودّيه متينة مع عدد من أدباء القاهرة وشعرائها المعروفين، بما يملك من مواهب أدبيّة عالية، ومشاركة حسنة في كثير من الفنون والعلوم، أهّلته لأن يحظى باحترام بالغ، ومودّة كبيرة من الجميع، فقد اجتمع بالشّاعر بهاء الدين زهير بن محمد بن عليّ المهلّبيّ (ت 656هـ/ 1258م). وكانت بينه وبين جمال الدين أبي الحسن يحيى بن عيسى بن إبراهيم بن مطروح (ت 649هـ/ 1251م) مودّة أكيدة، ومكاتبات في الغيبة. وأقام مع مُهذّب الدين أبي طالب محمد بن علي المعروف بابن الخيميّ (ت 642هـ/ 1244م) علاقة وثيقة اجتمع به بالقاهرة في مجالس متعدّدة. وبهذه الصداقات استطاع ابن خلكان أن يتولّى منصب نيابة القضاء بمصر، ويستمر في هذا المنصب مدة طويلة، إلى أن تمّ تعيينه قاضيا للقضاة ببلاد الشام، فغادر القاهرة إلى دمشق، وقُرئ تقليده للقضاء بالشباك الكماليّ بجامع دمشق يوم الجمعة التاسع من ذي الحجة سنة تسع وخمسين وستمائة، وقد فُوّض إليه الحكم في جميع بلاد الشام من العريش إلى سلمية يستنيب فيها من يريده، وفُوّض إليه النظر في أوقاف الجامع والمصالح والبيمارستان والمدارس، وتدريس سبع مدارس وهي: العذراوية، والعادلية، والنّاصريّة، والفلكيّة، والرّكنيّة، والإقباليّة، والبهنسيّة. ولكثرة هذه الوظائف وتنوّع مسؤولياتها نزل عن عدد منها لجماعة

من العلماء، وأوكل تدريس بعضها إلى ما كان تحت يده من المُعيدين النابهين.

واستمرّ ابن خلكان قائما بوظائفه خير قيام، حسن السيرة، نزيها، لم تضبط عليه زلة أو تُهمة، حتّى عزل في الخامس عشر من شوال سنة تسع وستين وستمائة، فغادر دمشق في السنة نفسها إلى القاهرة، وعاش خاملا معزولا فصبر واحتسب، حتّى صدر الأمر بتقليده قضاء بلاد الشام في ذي الحجة سنة ست وسبعين وستمائة، وعلى ما كان عليه عند تقليده القضاء بالشام أول مرّة، فدخل دمشق في الثالث والعشرين من المحرم سنة سبع وسبعين وستمائة، فخرج أهل دمشق لاستقباله، وكان يوما مشهودا. فنهض بأعباء ما كُلّف به من قضاء وتدريس ونظر مدّة تزيد على ثلاث سنوات، حتّى عزل في الثامن والعشرين من المحرم سنة ثمانين وستمائة، فسكن بالمدرسة الجماليّة النّجيبة التي يُدرّس فيها ولده موسى، ثمّ تولّى التدريس بالمدرسة الأمينية خلفا لمدرسها علاء الدين علي المعروف بابن الزّملكانيّ (ت 690هـ/1291م) في العاشر من صفر إحدى وثمانين وستمائة.

ويبدو أنّ ابن خلكان قد أثقلته كثرة الوظائف وتولّي القضاء وممارسة التدريس، وصرفته أيضا عن لقاء الأصدقاء والأحبّة من العلماء والشعراء والأدباء وأعيان البلد، فجدّد هذا اللّقاء بدار إقامته بالمدرسة النّجيبة مع هذه النّخبة الفاضلة، واستمرّ الحال كذلك حتّى وافاه الأجل المحتوم وقت أذان العصر من يوم السبت السادس والعشرين من شهر رجب سنة إحدى وثمانين وستمائة بدمشق المحروسة، بالمدرسة الجماليّة النّجيبة، ودُفن يوم الأحد السابع والعشرين من رجب - من بعد ما صُلّي عليه بجامع دمشق في الساعة الثانية - بسفح جبل قاسيون في الصّحراء، جوار التربة الصّوابيّة التي بالسّفح من غربيّ الجب.

آثاره

- وفيات الأعيان: صدّر ابن خلّكان كتابه بمقدّمة لا تتجاوز ثلاث صفحات، تكلم فيها - بعد البسملة والحمدلة - على منهجه في كتابه، والشروط التي قطعها على نفسه في تأليف هذا الكتاب، وما آثر ذكره في كلّ ترجمة من تراجم الأعيان، فجاء كتاب علقا نفيسا انتظم فيه أعيان الشّريعة، واللّغة، والتّاريخ، والأدب والعلوم، جادت قريحته في جمعه من مؤلّفات العلماء السابقين، وما أضافه إليه من مكنون علمه، وسعة اطّلاعه، ومشاركته في قسم كبير من المعارف والعلوم، فأصبح الكتاب مقصد الباحثين والدّارسين في معرفة أعيان كلّ علم وفنّ ونتاجهم الفكريّ، وهم من أقطار متباعدة وعصور مختلفة تجمعهم رابطة العلم والأدب.

ومن أمعن النّظر في هذه المقدّمة وجد أن منهج ابن خلكان منهج متكامل، قد استوفى فيه الشروط التي قطعها على نفسه في تأليف كتابه استيفاء يكاد يكون تامّا، والتزم بما ذكر التزاما كبيرا يدلّ على حرص شديد وذوق فريد.

رتّب ابن خلّكان كتابه على أسماء الأعلام الذين ترجم لهم، وابتدأ بمن أول اسمه الهمزة، ثم الحرف الذي يلي الهمزة كان أو

ماهو أقرب إليها على غيره، وهكذا إلى آخر الحروف. ثم يبدأ بمن أول اسمه الباء (ثاني الحروف) ثم التاء، فالثاء... وهكذا إلى الياء (آخر الحروف).

ويختصّ هذا الترتيب باسم المترجم نفسه ولا يتعدّاه إلى اسم أبيه، أو جدّه، لذلك نجده يقدم: إبراهيم بن يزيد بن الأسود النّخعيّ على إبراهيم بن خالد بن أبي اليمان الكلبيّ وعلى إبراهيم بن أحمد بن إسحاق المروزيّ، وصحّة الترتيب المعجميّ تقتضي أن يكون المترجم الثالث أولا، والمترجم الأول ثالث. وهكذا في كثير من الأسماء.

يُشكّل تاريخ ولادة المترجم ووفاته، ركنا أساسيًا في الترجمة، وقد حرص ابن خلكان على ذكرهما ـ وهو أشدّ حرصا على تاريخ الوفاة ـ وإذا ما وجد اختلافا فيهما أشار إليه، ونبّه عليه، وأحيانا يُرجّح ما يراه راجحا من تلك الروايات لقرينة تدلّ على ذلك.

«وكانت ولادته بسامرّا في الثالث والعشرين من شهر رمضان سنة عشرين ومائتين».

وقوله في ترجمة الإمام محمد بن إدريس الشّافعيّ ﷺ: «مولده سنة خمسين ومائة، وقد قيل إنّه ولد في اليوم الذي توفّي فيه الإمام أبو حنيفة. وكانت ولادته بمدينة غزّة، وقيل بعسقلان، وقيل باليمن، والأول أصحّ».

وقال في ترجمة محمد بن عمر بن واقد الواقديّ: «وتُوفّي عشية يوم الاثنين حادي عشر ذي الحجة سنة سبع ومائتين... وقيل مات سنة تسع، وقيل سنة ستّ ومائتين، والأوّل أصحّ، وقال الخطيب في «تاريخ بغداد» في أوّل ترجمة الواقديّ: إنّه توفّي في ذي القعدة، وقال في آخر الترجمة: إنّه مات في ذي الحجة، والله أعلم».

التزم ابن خلكان بتقييد الألفاظ من أسماء الأعلام والمواضع والأنساب، وضبطها ضبطا مُتقنا بالحروف لا بالحركات، مُتوخّيا بذلك سلامتها من التّصحيف والتّحريف. وأثبت هذا التقييد في نهاية كلّ ترجمة تستوجب ذلك، وأشار إلى الخلاف ـ إن وُجد ـ في ضبط الكلمة، وإلى نسبتها إلى اسم شخص، أو بلد أو مهنة، كقوله في ترجمة أبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطّابيّ البُستيّ: «وقد سمع في اسم أبي سليمان حمد المذكور: أحمد أيضا ـ بإثبات الهمزة ـ والصّحيح الأول. قال الحاكم أبو عبد الله محمد بن البيّع: سألت أبا القاسم المظفر بن طاهر بن محمد البُستيّ الفقيه عن اسم أبي سليمان الخطّابيّ أحمد أو حمد، فإن بعض الناس يقول أحمد، فقال: سمعته يقول: اسمي الذي سُمّيت به حمد، ولكن الناس كتبوا أحمد، فتركته عليه».

وقوله في ترجمة أبي الفتوح أحمد بن محمد بن محمد الغزاليّ الطّوسيّ أخي الإمام أبي حامد الغزاليّ: «والغزاليّ: بفتح الغين المعجمة وتشديد الزّاي المعجمة، وبعد الألف لام، هذه النسبة إلى الغزّال، على عادة أهل خوارزم وجُرجان فإنّهم ينسبون إلى القصّار وإلى العطّار العطّاريّ، وقيل: إنّ الزّاي مُخفّفة نسبة إلى غزالة وهي قرية من قرى طوس، وهو خلاف المشهور، ولكن هكذا قال السّمعانيّ في كتاب «الأنساب» والله أعلم».

وقوله في ترجمة أبي محمد الحسن بن علي بن أحمد المعروف بابن وكيع التّنّيسيّ الشّاعر: «ووكيع: بفتح الواو وكسر الكاف وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها عين مهملة، وهو لقب جدّه أبي بكر محمد بن خلف، وكان نائبا في الحكم بالأهواز لعبدان الجواليقيّ».

تُمثّل المكانة العلميّة والاجتماعيّة للمترجم الرّكن العمود الفقري للترجمة، واستطاع ابن خلكان أن يذكر بدقة متناهية النشاط الثقافي للمترجم له، من نشأته حتّى نبوغه وتصدّره، فيشير إلى شيوخه ورحلاته في طلب العلم، وملازمته لعدد من الشيوخ، ثمّ يذكر تلاميذه، ومناصبه الإداريّة والتّدريسيّة، وصلاته بمعاصريه من العلماء وأرباب السلطة، ويورد أسماء مُصنّفاته من الكتب والرسائل والدواوين، ويذكر طرفا من شعره أو نثره إذا كان المترجم له من أهل الأدب، ونُصوصا من أقواله إذا كان من أهل الحكمة والكرامة، ولا يغفل أن يتطرّق إلى أوصاف المترجم له الجسديّة من بهاء الصّورة، وحسن الهيئة وتمام الخلقة... ويستطرد فيذكر المنافسة بين المتماثلين المتعاصرين، ومحاسن أخلاق المترجم له وما يتمتّع به من مكارم الأخلاق، أو ما يتّصف به من شحّة وبخل وسوء خلق، وما يتعرّض إليه المترجم له من محنة أو نكبة أو قتل غيلة، فضلا عن تشييع جنازته ودفنه ومكان قبره، إلى كثير من الأمور الأخرى التي لا يمكن الإحاطة بها في هذا البحث، ومن ذلك قوله في ترجمة أبي المعالي مسعود بن محمد النّيسابوريّ الطّريثيثيّ الفقيه الشّافعيّ: «تفقّه بنيسابور ومرو على أئمّتها، وسمع الحديث من غير واحد، ورأى الأستاذ أبا نصر القشيريّ، ودرّس بالمدرسة النّظاميّة بنيسابور نيابة عن الجوينيّ، وكان قد قرأ القرآن الكريم والأدب على والده، وقدم بغداد ووعظ بها وتكلّم في المسائل وأحسن، وقدم دمشق سنة أربعين وخمسمائة، ووعظ بها وحصل له قبول، ودرّس بالمدرسة المجاهديّة، ثمّ بالزّاوية الغربية من جامع دمشق بعد موت الفقيه أبي الفتح نصر الله المصيصيّ... ثمّ خرج إلى حلب وتولّى التدريس في المدرستين اللتين بناهما له نور الدين محمود وأسد الدين شيركوه، ثمّ مضى إلى همذان وتولّى التدريس بها، ثم رحل إلى دمشق ودرّس بالزّاوية الغربية، وحدّث وتفرّد برياسة أصحاب الشّافعيّ ﷺ، وكان عالما صالحا، صنّف كتاب «الهادي» في الفقه، وهو مختصر نافع لم يأت فيه إلّا بالقول الذي عليه الفتوى...».

وقال في ترجمة أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، المنصور الموحّديّ: «كان صافي السّمرة جدّا، إلى الطّول ماهو، جميل الوجه، أفوه، أعين، شديد الكحل، ضخم الأعضاء جهوريّ الصّوت، جزل الألفاظ، من أصدق النّاس لهجة وأحسنهم حديثا وأكثرهم إصابة بالظّنّ، مُجرّبا للأمور، ولي وزارة أبيه، فبحث عن الأحوال بحثا شافيا، وطالع مقاصد العمال والولاة وغيرهم مطالعة أفادته معرفة جزئيات الأمور».

وقال في ترجمة أبي سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعيّ: «كان الأصمعيّ صاحب لغة ونحو، وإماما في الأخبار والنّوادر والملح والغرائب، سمع شعبة بن الحجّاج والحمّادين

ومسعر بن كدام وغيرهم. وروى عنه: عبد الرحمن بن أخيه عبد الله، وأبو عبيد القاسم بن سلاّم، وأبو حاتم السّجستانيّ، وأبو الفضل الرّياشيّ وغيرهم. وهو من أهل البصرة، وقدم بغداد في أيّام هارون الرّشيد».

وقال في ترجمة أبي الفرج عبد الله بن أسعد بن علي المعروف بابن الدّهان الموصليّ الأديب الشاعر: قال العماد الكاتب في الخريدة أنشدني ابن أسعد الموصليّ هذين البيتين وزعم أنّه ابتكر معناهما ولم يسبق إليه، وهما:

تردي الكتائبَ كُتْبُه فإذا انبرت
لم تدْرِ أنفذ أسطرًا أم عسكرا
لم يخشَ الإتراب فوق سُطورها
إلّا لأنّ الجيش يعقد عِثيرا

وأورد في ترجمة أبي بحر الضّحّاك بن قيس التّميميّ المعروف بالأحنف بن قيس، الذي يضرب به المثل في الحلم، من غُرر كلامه، ومشهور أقواله، ما يدلّ على رجاحة عقله وفطنته وعلمه، ومن أقواله: «في ثلاث خصال ما أقولهنّ إلّا ليعتبر مُعتبر: ما دخلت بين اثنين قط حتّى يُدخلاني بينهما، ولا أتيت باب أحد من هؤلاء ما لم أدع إليه، يعني الملوك، ولا حللت حبوتي إلى ما يقوم إليه. ومن كلامه أيضا: ما خان شريف، وكان كذب عاقل، ولا اعتاب مؤمن».

عرّف ابن خلّكان بكثير من المواضع والأماكن والبلدان التي وردت أسماؤها في الكتاب بتعريفات مختصرة متقنة دالة على الغرض، وهو في هذه التعريفات لا يختلف مع ما ورد في كتب البلدان من تعريف وتفسير لها.

وكيف يكون الاختلاف وقد اعتمد على مصادر بلدانيّة أساسيّة وخططية معروفة، وفي مقدمتها ما وضعه البلاذريّ، واليعقوبيّ، وابن حوقل، والقضاعيّ، والبكريّ، والزّمخشريّ، والسّمعانيّ، والحازميّ، وياقوت الحمويّ وغيرهم، وذلك في مثل قوله: «الهرث: بضم الهاء وسكون الراء وبعدها مثلثة، وهي قرية من أعمال نهر جعفر، بينها وبين واسط نحو عشرة فراسخ».

وقال: «أدامي: بفتح الهمزة والذّال المهملة وبعد الألف ميم مفتوحة وياء مفتوحة أيضا، وقيل: أدمي، مثل الأول لكنها بغير ألف، وهي خلف شغب وبدا، وهما واديان - وقيل قريتان - بين الحجاز والشام في موضع هو آخر عمل الحجاز وأول عمل فلسطين».

لم يغفل ابن خلكان شرح كثير من الألفاظ التي يرى ضرورة ملحّة في شرحها لفائدة القارئ، ويتوسّع في هذا الشّرح فيتجاوز المعاني اللّغويّة إلى الروايات التاريخيّة أو المعلومات الجغرافيّة. هذا فضلا عن إيراد المعاني المختلفة لعدد كبير من الأبيات الشعريّة والموازنة بين قول الشّاعر وبين قول من سبقه من الشّعراء ليدلّ على اقتباس المتأخّر من المتقدّم أو تأثره به، ممّا يمكن وصفه دراسة أدبيّة نقديّة لعدد من القصائد الشعريّة. ومن ذلك قوله: «طُغرُلْبك: بضمّ الطّاء المهملة وسكون الغين المعجمة وضمّ الرّاء وسكون اللّام وفتح الباء الموحّدة وبعدها كاف، وهو اسم علم تركيّ مركّب من طُغرل: وهو اسم علم بلغة التّرك لطائر معروف عندهم، وبه سُمّي الرّجل. وبك: معناه الأمير».

وقال في شرح هذا البيت ـ وهو من جملة أبيات ـ:

تطاول ليلي واعتراني وساوسي
لآتٍ أتى بالتّرّهات البسابس

قلت: «والتّرّهات» بضمّ التّاء المثناة من فوقها وتشديد الرّاء وبعد الهاء والألف تاء ثانية. والبسابس: بفتح الباء الموحّدة وبعدها سين مهملة وبعد الألف باء ثانية مكسورة ثم سين ثانية، وهي الباطل. وأصل التّرّهات: الطّرق الصّغار غير الجادّة تتشعب عنها، الواحدة: ترّهة، فارسيّ معرّب، ثمّ استعير في الباطل، فقيل: التّرّهات البسابس».

لقد تحرّى ابن خلكان الحقيقة فيما كتب، وبالغ في النّقد والتّقويم لكثير من الروايات، ونبّه على الصّحيح منها، أو أشار ـ في الأقل ـ إلى ما يراه راجحا منها عنده، معتمدا في ذلك على مصادر أساسيّة قريبة من عصر المترجم له واثقا من صحّتها والنّقل عنها، ذاكرا أسماءها، مفاضلا بينها في انتقاء ماهو بحاجة إليه من معلوماتها، ناسبا كلّ قول إلى صاحبه، مستدركا على مؤلفيها ما فاتهم، سواء كان ذلك في اسم المترجم أو في نسبه أو تاريخ ولادته ووفاته، أو فيما يتعلّق بأحواله ومحاسنه إلى كثير من الأمور الأخرى.

ومن ذلك قوله في ترجمة ربيعة بن أبي عبد الرحمٰن فروخ المعروف بربيعة الرأي: «وكانت وفاته في سنة ستّ وثلاثين، وقيل سنة ثلاثين ومائة بالهاشميّة، وهي مدينة بناها السّفّاح بأرض الأنبار، وكان يسكنها، ثم انتقل إلى الأنبار، رحمه الله تعالى. قلت: ولا يمكن الجمع بين قول من يقول: إنّه توفّي سنة ثلاثين ومائة، وإنّه دفن بالهاشميّة التي بناها السّفّاح، لأنّ السّفّاح ولي الخلافة يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين ومائة، كذا نقله أرباب التواريخ واتّفقوا عليه، فتأمله».

المصادر والمراجع

● ابن كثير، البداية والنهاية، القاهرة، مطبعة السعادة، 1929 ـ 1939م؛ ● الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، نسخة خطية محفوظة بمكتبة أحمد الثالث بتركيا تحت رقم 3010؛ ● الإسنوي، طبقات الشافعيّة، تح. عبد الله الجبوري، بغداد، منشورات وزارة الأوقاف العراقيّة 1970م؛ ● السّبكي، طبقات الشافعيّة الكبرى، تح. محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو، القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي، 1964 ـ 1976م؛ ● الذهبي، العبر في خبر من عبر، تح. صلاح الدين المنجد وفؤاد سيد، الكويت، 1960م؛ ● ابن الشعار، عقود الجمان في شعراء هذا الزمان، نسخة خطية في مكتبة أسعد أفندي بتركيا تحت رقم 2323؛ ● أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، القاهرة، المطبعة الحسينيّة، 1907 ـ 1908م؛ ● اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، بيروت، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات 1970م؛ ● ابن أيبك

الصفدي، الوافي بالوفيات، الجزء السابع، تح. الدكتور احسان عباس، نشر جمعيّة المستشرقين الألمانيّة فيسبادن، 1969م؛ ● ابن خلكان، وفيات الأعيان وانباء أبناء الزمان، تح. الدكتور احسان عباس، بيروت، دار الثقافة، 1967م، والمقدّمة الرّائعة التي كتبها الأستاذ الدكتور احسان عباس لابن خلكان ودراسة كتابه وفيات الأعيان؛ ● ابن خلكان، وفيات الأعيان، تح. أحمد الحوفي، بحث منشور في كتاب «تراث الانسانيّة»، القاهرة.

د. صالح مهدي عباس
مركز إحياء التراث العلمي العربي
جامعة بغداد ـ العراق

الخلوتي محمد بن أحمد

(ت 1088هـ/1678م)

هو محمد بن أحمد بن علي البهوتي الحنبلي الشهير بالخلوتي المصري.

يُنسب إلى «بُهُوت»، وهي قرية بمركز المحلة الكبرى من محافظة الغربية بمصر، وفي المصادر المختلفة أسماء كثير من العلماء الذين خرّجتهم هذه القرية.

كان فقيها حنبليا، ولذلك ينسب أيضا إلى مذهب الحنابلة، وقد ظل فقههم ناشطا بمصر زمن الحكم العثماني.

وحمل، مثل كثير من أعلام عصره في مصر والشام، لقب «الخلوتي»، نسبة إلى الطريقة الخلوتيّة (المتفرعة من السهروردية) سُمّيت بذلك لأن «الخلْوة» من لوازمها.

وثمّة عدد غير قليل من الخلوتيين الأعلام يحملون أيضا اسم «محمد»، منهم في «خلاصة الأثر»:

ـ محمد بن محمد بن عبد الله التركي الخلوتي المصري (ت 1007هـ).

ـ محمد بن أيوب بن أحمد بن أيوب الخلوتي الحنفي الدمشقي (ت 1072هـ).

ـ محمد بن أبي السرور بن محمد سلطان البهوتي الحنبلي المصري (ت 1100هـ).

ومنهم في «تاريخ الأدب العربي» لكارل بروكلمان:

ـ أبو التقي كريم الدين محمد بن أحمد بن محمد الخلوتي(ت 986هـ/ 1578م).

ـ محمد بن محمد بن عبد الرحمٰن البهنسي العقيلي الشافعي النقشبندي الخلوتي (ت نحو 1001هـ).

ـ محمد بن أبي الوفاء بن معروف الخلوتي الحموي (كان حيًا سنة 1034هـ/ 1624م).

ـ محمد بن محمد بن محمد البَخْشي الخلوتي (ت 1096هـ/ 1685م).

ولد المترجم له بمصر وبها نشأ، وتوفي بالقاهرة في التاسع عشر من ذي الحجة سنة 1088هـ/ الثالث عشر من فبراير سنة 1678م.

ترجم له «المُحِبِّي» في «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر»، وعن ترجمته نقلت المصنفات بعده مثل «الخطط الجديدة» وغيرها، ووصفه بعض من تحدثوا عنه بأنه «العالم العلم إمام المعقول والمنقول المفتي المدرس» كما وصفه آخرون بأنه «مؤرخ منطقي بياني شاعر».

أخذ الفقه عن العلامة عبد الرحمٰن البهوتي الحنبلي المصري بن يوسف بن علي الملقب زين الدين بن القاضي جمال الدين بن الشيخ نور الدين (كان حيًّا سنة 1040هـ)، قيل عنه إنه كان في عصره «خاتمة المعمّرين البركة العمدة»، وقد تتلمذ عبد الرحمٰن للشمس محمد الشامي صاحب السيرة، وتلقّي منه علوم الحديث، وكان الشمس تلميذ السيوطي.

ولازم العلامة منصور بن يونس بن صلاح الدين البهوتي الحنبلي (ت 1051هـ/ 1641م) وكان ورعا متبحّرا في العلوم الدينية، صارفا أوقاته في تحرير المسائل الفقهية، فذاع صيته، ورحل الناس إليه من الآفاق ليأخذوا عنه مذهب الإمام أحمد، ولذلك عدّه بعض من وصفوه أعظم شيوخ الحنابلة في مصر.

وتخرّج في العلوم العقلية بشهاب الدين أحمد بن محمد بن علي الأنصاري الخزرجي الحنفي المصري، المعروف بالشهاب الغنيمي (ت 1044هـ/ 1634م) وهو من أجلّ الشيوخ الذين انفردوا بعلم المعقول والمنقول، وتبحّروا في العلوم الدقيقة والفنون العويصة حتّى استخرجوها بالنظر الدقيق، وله مؤلفات كثيرة، منها: «حاشية على شرح إيساغوجي للقاضي زكريا»، استفاد منها الخلوتي البهوتي في بعض مؤلفاته.

وانتفع بعده بأبي الضياء نور الدين علي بن علي المعروف بالنور الشَّبْرامَلِّسي (ت 1087هـ/ 1676م) وقد وصفه المحبّي بأنه «كان جبلا من جبال العلم، لا يضجر من البحث في الدرس، ويتعب إن لم يبحث معه الطلبة»، لم يأت مثله في دقة النظر وجودة الفهم وسرعة استخراج الأحكام من عبارات العلماء، وقوة التأتّي في البحث واللطف والحلم والإنصاف، ولم يكن الخلوتي محمد يفارقه في دروسه من العلوم النظرية، وكثيرا ما جرت بينهما في الدرس محاورات ونكات دقيقة لا يعرفها من الحاضرين إلّا من كان من أكبر المحققين، وكان الشبراملّسي يجلّه ويثني عليه ويحترمه، ولا يخاطبه إلا بغاية التعظيم لما هو عليه من الفضل، ولأنه رفيقه في الطلب، وظل الخلوتي ملازما له حتّى مات.

آثاره

1 ـ تحريرات (أو: حواش) على «الإقناع» (يعني: كتاب «الإقناع لطالب الانتفاع» لأبي النجاء شرف الدين موسى بن أحمد الحُجاوي الحنبلي، المتوفي سنة 968هـ/ 1560م)؛

2 ـ تحريرات (أو: حواش) على «المنتهى» (يعني: كتاب «منتهى الإرادات في جمع المقنع، مع التنقيح وزيادات في فروع الفقه الحنبلي وشرحه» لتقي الدين أبي البقاء

محمد بن أحمد بن عبد العزيز الفتوحي المصري الحنبلي، الشهير بابن النجار، وكان قاضي القضاة في القاهرة، توفي سنة 972هـ/ 1564م).

وقال «المحبي»: إن هذه التحريرات جُرّدت بعد موته من هامش نسخه، فبلغت حاشية «الإقناع» اثني عشر كراسا، وحاشية «المنتهى» أربعين كراسا.

3 ـ حاشية على شرح عصام الدين على السمرقندية في البلاغة، وعصام الدين هو إبراهيم بن محمد عَرَبْشاه الإسفرايني (ت 942هـ/ 1535م) ويعدّ من أشهر شُرّاح الرسالة السمرقندية، واسم هذه الرسالة هو الذي يعرف به عادة كتاب «فرائد الفوائد (العوائد) لتحقيق معاني الاستعارة» الذي ألفه سنة 888هـ/ 1483م أبو القاسم بن أبي بكر الليثي السمرقندي؛ 4 ـ كشف اللثام عن شرح شيخ الإسلام على إيساغوجي، في المنطق، جرّده من تعاليق شيخه الشهاب أحمد بن محمد الغنيمي الأنصاري على نسخته من شرح زكريا الأنصاري لإيساغوجي، وقال الزركلي وهو يتحدث عن هذا الكتاب: «عندي بخطه»، أما زكريا بن محمد الأنصاري المصري الشافعي (ت 926هـ/ 1520م) المعروف بشيخ الإسلام، فقد كان قاضيا مفسّرا من حفاظ الحديث، له تصانيف كثيرة في الفقه والتجويد والنحو والحديث والمنطق منها:

ـ «التحفة الظرفيّة في السيرة النبويّة».

ـ «لذّة السمع بنظم رسالة الوضع»، وهي منظومة.

وله شعر، منه قوله:

سمحتْ بعد قولها لفؤادي
نُبْ اسًى يا فؤادَه وتفتّتْ
ونجا القلبُ من حبائلِ هجرٍ
نَصَبَتْها لصيده ثمّ حَلّتْ

وقوله:

كانَ الدهرَ في خَفْضِ الأعالي
وفي رفعِ الأسافلةِ اللئامِ
فقيهٌ عنده الأخبارُ صحّتْ
بتفضيلِ السجودِ على القيامِ

يشير إلى أن كثرة السجود أفضل من القيام، بناء على مذهب الحنابلة.

المصادر والمراجع

● الزركلي، الأعلام؛ ● البغدادي، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون؛ ● بروكلمان، تاريخ الأدب العربي؛ ● مبارك، علي، الخطط الجديدة التوفيقية؛ ● المحبّي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر؛ ● شوقي، ضيف، عصر الدول والإمارات (مصر والشام)؛ ● فهارس دار الكتب المصرية؛ ● كحّالة، معجم المؤلفين، تراجم مصنفي الكتب العربية؛ ● سركيس، يوسف إليان، معجم المطبوعات العربية؛ ● البغدادي، هدية العارفين، أسماء المؤلفين وآثار المصنفين.

د. محمد يونس عبد العال
جامعة عين شمس ـ القاهرة ـ مصر

خلوصي، صفاء

(1336هـ/1917م - 1420هـ/1999م)

ولد صفاء خلوصي في بغداد عام 1917، وتوفي في لندن عام 1999، وهو باحث أكاديمي في مجال الدراسات اللغوية وبخاصة الدراسات المقارنة والدراسات الأدبيّة، فضلا عن كتابته للقصّة القصيرة، التي أنجز فيها إنجازات كانت متميّزة في حينها، واقتصرت على البواكير الأولى من حياته الثقافيّة.

حصل على شهادة الدكتوراه في اللغة الإنكليزيّة وآدابها من جامعة لندن، وعمل أستاذا لهذه اللغة وآدابها في كليّة الآداب بجامعة بغداد، وقد رفد الحياة الثقافيّة بأجيال من المبدعين في مجال الأدب والدراسة واللغويّة، وخلال فترة الثمانينات عمل أستاذا في جامعة «باث» في المملكة المتحدة وأشرف على رسائل الدراسات العليا للعديد من الطلبة في حقل الدراسات اللغويّة المقارنة والترجمة.

في مجال البحث العلمي أنجز خلوصي العديد من البحوث والكتب باللغتين العربيّة والإنجليزيّة، وهو بهذا يعدّ واحدا من الأكاديميين العرب البارزين والمعروفين على المستوين العربي والعالمي.

عرف الدكتور خلوصي بآرائه الجادة في مجال تخصصه، وعرف كذلك بتحمسه للغة العربيّة التي قال إنّها قد أثّرت كثيرا في اللغة الإنجليزيّة من خلال وجود الكثير من المفردات التي يعتقد أنّ اللغة الإنجليزيّة قد أخذتها عن اللغة العربيّة. فمن آرائه أنّ «شكسبير» الأديب الإنجليزي الشهير هو «شيخ زبير» وأنّ كلمة «Solid» هيَ كلمة عربيّة، وقد أخذت عن كلمة «صلد» التي تطابقها في المعنى.

أمّا في مجال القصّة القصيرة، فقد تأثّر خلوصي بكلّ من موبسان، وستيفن زفايج، وأصدر مجموعته الأولى «نفوس مريضة عام 1941» وهي قصص لحالات شاذة فضّل اختيار أبطالها من بيئات أوروبيّة لتكون أكثر صدقا وليكون هو حرّا في تصوير نفوس أبطالها وجعل مسرح أحداثها محيط دراسته في لندن، أصدر بعد هذه المجموعة عددا من المجاميع القصصيّة في الأعوام 1952، 1956، 1958، ونشر عددا من القصص في الصحف والمجلات العربيّة مثل «الهاتف» العراقيّة، و«أهل النفط»، و«اسلاميك رفيو» «Islamic Review» اللندنية والملاحق الأدبيّة التي أصدرها روفائيل بطي، كالإخاء الوطني، والبلاد، والزهراء الفراتية لمحمود شوكت، والهلال المصريّة، والأديب البيروتية، والأحد اللبنانيّة.

تفتقد قصص صفاء خلوصي إلى روح الفن الذي يرتفع بالقصة من مقام الحادثة إلى المجال الإنساني وتنقصها تلك الحرارة التي

تشعرنا بأنّه يكتب إبداعا وليس متفرجا عابرا يصف الحوادث، فالحادث عنده حكاية صغيرة، أي أنّها المادة الخام، حيث يلتقي هنا الفنان والمسجل وكلاهما يختلف عن الآخر بعد ذلك.

وعلى الرغم من الشخصيات الغريبة التي اختارها خلوصي، وبرغم أسلوبه الشيّق لم يتوصل إلى تحليل دقيق لنفسيّة شخصيّاته التي يعاني أكثرها من مرض الكآبة والرغبة في القضاء على وجودها قضاء ماديًا ومعنويًا.

يمكن أن نعتبر بعض المجاميع القصصيّة لخلوصي «أدب رحلات» فهو يستخدم فيها أسلوبا قصصيا، وقد بدا ذلك واضحا في «بنت السراج 1951» حيث يروي الكاتب مشاهداته أثناء سفره إلى إسبانيا على مسامع شخصيّة خياليّة اخترعها هو وأسماها «بنت السراج» محاكيا بذلك أدب المقالة.

وفي كتابه «أبو نؤاس في أمريكا 1951» يتحدث عن سفره عبر البحر المتوسط والمحيط الأطلسي في طريقه إلى الولايات المتحدة الأمريكيّة وما لاقاه من أنس ومرح جعله يتخذ من حياة أبي نؤاس المرحلة العابثة رمزا لحياته أثناء رحلته تلك.

آثاره

أ ـ في مجال القصّة الصغيرة:

1 ـ نفوس مريضة، قصص، بغداد 1941؛ 2 ـ بنت السراج، أو رحلة إلى أسبانيا، قصص، بغداد 1952؛ 3 ـ أبو نؤاس في أمريكا، قصة رحلة، بغداد 1955؛ 4 ـ النافذة المفتوحة، قصص، بغداد 1958؛ 5 ـ أحببت أميرة عباسيّة، قصص بالإنجليزيّة؛ 6 ـ البحث عن السعادة، تأليف، آر. ام. ماك ايفر، ترجمة، بغداد 1960؛ 7 ـ الساعة العجيبة، قصص، تأليف، هاوارد باب، ترجمة (القسم الثاني)، بيروت 1963.

ب ـ النتاج العلمي:

8 ـ الأدب العربي المعاصر، بالإنجليزيّة، (د.ت)؛ 9 ـ تاريخ الأدب العباسي، رينولد أ. نكلسن، ترجمة، بغداد 1967؛ 10 ـ تاريخ بغداد، أو حديقة الزوراء في سيرة الخلفاء، لعبد الرحمٰن السويدي، تح، ج1، بغداد 1963؛ 11 ـ تحليل وتقييم لنهج البلاغة بالإنجليزيّة (د.ت)؛ 12 ـ الترجمة التحليليّة، بغداد 1957؛ 13 ـ دراسات في الأدب المقارن والمذاهب الأدبيّة، بغداد 1958؛ 14 ـ رحلة إلى الشرق الأوسط (د.ت)؛ 15 ـ شواعر العراق المعاصرات (د.ت)؛ 16 ـ فن الترجمة في ضوء الدراسات المقارنة، بغداد 1956؛ 17 ـ فنّ التقطيع الشعري والقافية، ط1 ـ 2، بغداد 1963، ط3، بيروت 1966؛ 18 ـ القصة العربيّة الحديثة، بالإنجليزيّة، (د.ت)؛ 19 ـ معروف الرصافي، بغداد 1953؛ 20 ـ معروف الرصافي 1875 ـ 1945 بالإنجليزيّة، لندن 1950؛ 21 ـ منتخبات مترجمة لطلبة الـ G. C. E المتقدّمين، ج1، بغداد 1959؛ 22 ـ نادر شاه في مخطوطات القرن الثامن عشر العربيّة، بالإنجليزيّة، (د.ت).

المصادر والمراجع

● كوركيس، عواد، معجم المؤلفين

العراقيين في القرن التاسع عشر والعشرين 1800 ـ 1969، مجلد 2، مطبعة الإرشاد، بغداد 1969، اصدار المجمع العلمي العراقي؛ ● المطبعي، حميد، موسوعة أعلام العراق في القرن العشرين، ج1، ط1، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1995؛ ● الطالب، عمر، نشأة القصة العراقيّة الحديثة، جامعة الموصل، الموصل 1979؛ ● أحمد، عبد الإله، فهرست القصّة العراقيّة، وزارة الإعلام، دار الحريّة، بغداد 1973.

د. جاسم محمد حسن
جامعة الموصل ـ العراق

الخليجي الحلواني، شهاب الدين أحمد بن أحمد

(1249هـ/1833م ـ 1308هـ/1891م)

هو الشيخ شهاب الدين أحمد بن أحمد بن إسماعيل، الحلواني الشافعي الخلوتي الخليجي، نسبة إلى بلدة قريبة من مدينة دمياط في مصر، تُسمَّى «رأس الخليج»، وقد وُلد في هذه البلدة، وفيها أيضا كانت وفاته يوم عرفة سنة 1308هـ.

وهو أديب له مؤلفات متنوّعة في البلاغة واللغة والنحو والسيرة ومسائل الفقه وغيرها، وقد وصفه بعض معاصريه بأنه العارف الرباني، وله منظومات يبدو أن الكثير منها في المدائح النبوية، منها منظومة سمّاها «القصيدة المستجيرة»، عدّتها ثلاثة وستون بيتا، مطلعها:

طربي بمدحك فهو لي أبدا نغم
وبه تكون مسرّتي إن عنَّ غمّْ

يا سيد الشفعاء كن لي شافعا
أنا في حماك وأنت نعم المعتصم

وقد جرت العادة إذا أنشد منشد هذه القصيدة أن يجتمع جماعة على إنشاد تشريفتها عقب كل بيتين منها، والتشريفة هي قول ناظمها:

صلّى عليك اللّه يا كنز الامم
وحباك من تسليمه الشّرفَ الاتمّ

وخَمّس البيت الأول من القصيدة بقوله:

كم شاقني ذكر الثنيّة والعلم
ونعوت دارك يا مشفّع في الأمم
واللّه ما طربي بذكر ربا الحرم
طربي بمدحك فهو لي أبدا نغم
وبه تكون مسرّتي إن عنّ غم

آثاره

1 ـ الإشارة الآصفية فيما لا يستحيل بالانعكاس في صورته الرّسمية، وفي بعض المحاسن الدمياطية، وما يتبع ذلك من فوائد فرائد علمية، وأوله: «أحمد من جعل الأدب

صندوق العجب، وأصلي وأسلم على حضرة نضرة صفوة العرب»، وفي هوامشه شروح وتقييدات متنوعة توضح ما غمض من ألفاظه وعباراته وتفسّرها، وقد ألفه سنة 1305هـ لعلي آصف بن حسن محافظ ثغر دمياط في ذلك الوقت، بعد أن جمعت بينهما الألفة ومحبة الأدب، وكان قد زيّن للخليجي أن يُكمل فصلا كتبه فيما اصطلح البلاغيون على تسميته بما لا يستحيل بالانعكاس، ورجاه قائلا: «أرجوك ـ لله أبوك ـ أن تنعم لي بوصل ذلك الفصل»، وقد اهتم الخليجي في مؤلفه اهتماما بالغا بالألفاظ والجمل التي يمكن أن تقرأ طردا وعكسا، وهو أن يكون الكلام بحيث إذا قلبته أي ابتدأت به من حرفه الأخير إلى حرفه الأول كان إياه، سواء في النثر أو في الشعر.

ثم أسهب بعد ذلك في الحديث عن دمياط ومحاسنها والرد على من يعيبها، بمثل قوله: «كفى دمياط شرفا ثم كفاها وكفى ما ذكره غير واحد ممن ورد عليها أنه سلك البلاد من سمرقند إليها فلم ير أنزه منها ولا أنضر ولا أحسن منها ولا أزهر»، وقوله: «ما ظنك ببلد أشار الله إليه في الكتب القديمة، ونوّه بأنه مظهر قدرته العظيمة، وجعل ذلك مدلول تلك الحروف الكريمة، هناك برزخ البحرين فهما لا يبغيان، مع أنهما منذ مَرَجَهما ـ أي أجراهما ـ يلتقيان»؛ 2 ـ البشرى بأخبار الإسرا والمعراج الأسرى، وأوله: «الحمد لله الذي شرّف حبيبه الأعظم بالإسرا، وأشاع تشريفه بذلك في آية سبحان الذي أسرى.» وفي آخر هذا الكتاب ثلاثة أبيات نظمها محمد أفندى إبراهيم مترجم مجلس النظار، تتضمّن تاريخ الطبع، وهو سنة 1307هـ؛ 3 ـ صفوة البشرى بالإسرا، يتضمن قصة الإسراء والمعراج كما وردت في الأحاديث النبوية الشريفة، وأوّله: «حمدا لمن أنزل سبحانه الذي أسرى، وصلاة وسلاما على حضرة حبيبه الأسرى، وآله وصحبه طرّا». وطبع الكتاب مع «البشرى بأخبار الإسرا» في مجلد واحد؛ 4 ـ حلاوة الرز في حل اللغز، وهي رسالة ضمنت حلّ اللغز المشهور الذي أوّله:

ألا أيها السّاري على ظهر أجود
يجوب الفيافي فَدْفَدًا بعد فدفدِ

في جملة فصول للإعراب ومعنى الكلمات مع عدة فوائد لغوية أخرى، وأول الرسالة: «الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله الخ.»؛ 5 ـ شذا العطر في زكاة الفطر، وهي رسالة فقهية على مذهب الشافعي؛ 6 ـ العلم الأحمدي في المولد المحمدي، أوله: «الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله»؛ 7 ـ القصيدة الحلواء في مدح بني الزهراء، أولها:

بنفسي افدي الزّهر من بضعة الزهرا
وإن همْ رضوا نفسي فقد عظمت قدرا

طبعت ضمن مجموعة للمؤلف؛ 8 ـ الناغم من الصادح والباغم، وهو جملة أبيات، اختارها المؤلف من كتاب «الصادح والباغم»، وزاد فيها أبياتا وأشطارا، وأبدل ألفاظا بأخرى، وقد طبع ضمن مجموعة للمؤلف؛ 9 ـ الكأس المروّق على الدورق

في الأضداد، وفي دار الكتب المصرية، مسوّدة هذا الكتاب بخط المؤلف، وأورد الزركلي وهو يترجم للخليجي في «الأعلام» صورة لنهاية هذا المخطوط؛ 10 ـ القطر الشهدي في أوصاف المهدي، يعني المهدي المنتظر، وهو نظم، شرحه سنة 1308هـ السيد محمد بن محمد بن أحمد الحسيني البلبيسي، وهو أحد مصحّحي دار الطباعة المصرية، وسماه: «العطر الوردي بشرح القطر الشهدي، في أوصاف المهدي»، أوله: «الحمد لله رب العالمين حمدا يبلغ به درجة الهادين المهديين. إلخ»؛ 11 ـ قطع اللجاج في الأجاج، وهو رسالة بيّن فيها معنى لفظ «الأجاج»، وأضاف إلى ذلك جملة فوائد لطيفة استطرادية؛ 12 ـ الوسم في الوشم، ألفه من العادات القديمة قبل الإسلام، ورتّبه على الأبواب؛ 13 ـ الحكم في أن أم التي تزوجت بلا ولي بتقليد أبي حنيفة محرم؛ 14 ـ فصل القضية في أنه هل يجب معرفة أن الكتب الأربعة السماوية أنزلت على مَن مِن الرسل الزكية، وهل مسألة القبر خلافية، أوّله: «الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله. إلخ»، وطبع هذا الكتاب مع «الحكم» في مجلد واحد؛ 15 ـ دفع الارتباك عن النظر في الشباك، وهو رسالة شرح فيها منظومة له سمّاها «الشباك»، وهو مخطوط في دار الكتب المصرية؛ 16 ـ مواكب ربيع في مولد شفيع؛ 17 ـ الجمال المبين على الجوهر المتين.

وتجدر الإشارة إلى أن ابنه محمد عبد الرحيم، قد تلقى معظم المعقول والمنقول على أعيان علماء الأزهر، ثم أكمل تعليمه على والده ببلده رأس الخليج حتى تضلّع من كل فنّ، وخلف والده في الإفادة والاستفادة، وله مؤلفات، منها: 1 ـ فيض المنان والفيضان، وكلاهما على «الغيث الهتان في فضائل رمضان»؛ 2 ـ الآية الكبرى على صفوة البشري في الإسرا؛ 3 ـ الوجه الحسن في أن السمك من اللبن.

المصادر والمراجع

● الزركلي، الأعلام؛ ● مبارك علي، الخطط الجديدة التوفيقية؛ ● فهرس دار الكتب المصرية؛ ● سيد، فؤاد، فهرس المخطوطات المصورة، الادارة الثقافية، جامعة الدول العربية؛ ● مخطوطات دار الكتب المصرية؛ ● كحالة، معجم المؤلفين، تراجم مصنفي الكتب العربية؛ ● سركيس، معجم المطبوعات العربية والمعربة؛ ● البغدادي، هدية العارفين، أسماء المؤلفين وآثار المصنفين.

د. محمد يونس عبد العال

جامعة عين شمس ـ القاهرة ـ مصر

خُليد، أبو الفرج، محمد بن علي

(ت 629هـ/1232م)

أبو الفرج جمال الدين محمد بن علي بن خُليد الحاسب.

لا يعرف تاريخ ولادة أبو الفرج خُليد، ويشير ابن الفوطي في كتابه «الحوادث الجامعة» أنه نشأ في بغداد، وتلقّى العلم على علمائها في عصره، وأصبح راوية للأخبار والسير، كما أتقن الحساب والرياضيات.

توفي محمد بن خليد في بغداد سنة 629هـ.

آثاره

1 ـ جواهر اللباب في كتاب الحساب؛
2 ـ اختصار كتاب الأغاني للأصفهاني.

المصادر والمراجع

● ابن الفوطي، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، بغداد 1351هـ، ص 37؛ ● حميدان، زهير، أعلام الحضارة العربية والإسلامية، وزارة الثقافة، دمشق 1996، 4/ 263؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، دمشق، 6/ 280.

د. محمد هشام النعسان
معهد التراث العلمي العربي
حلب ـ سوريا

الخليفة، إبراهيم بن محمد آل خليفة

(1267هـ/1850م ـ 1352هـ/1933م)

ينتمي الأمير الشاعر إبراهيم بن محمد بن خليفة آل خليفة إلى الأسرة الحاكمة في البحرين. ولد في مدينة «المحرق» حوالي 1267هـ/ 1850م، وقبل تولي الشيخ عيسى بن علي الحكم واستقرار الأوضاع فيها لوالده ظل يحكم البحرين من 1842 إلى 1869 حتى نفي منها [الخليفة مي، مع شيخ الأدباء في البحرين، إبراهيم بن محمد الخليفة، ص23 وما بعدها؛ الهاشمي علوي، شعراء البحرين المعاصرون، ص15].
تلقى معارفه الأولى في مجلس والده، كما درس الفقه واللغة العربية وشيئًا من الحساب على يد بعض المشايخ في المدارس الدينية المنتشرة آنذاك، وأستاذه الأول هو الشيخ

عيسى بن راشد أحد القضاة [الخليفة مي، مع شيخ الأدباء، ص28 ـ 29؛ الطائي عبد الله، الأدب المعاصر في الخليج العربي، ص2102؛ الهاشمي، شعراء البحرين، ص15].

قام برحلات سياحية وعلمية، وكانت وجهته الأولى مكة المكرمة لتأدية فريضة الحج، ولمراقبة والده المنفي. وشكلت هذه الرحلات فرصة للتحصيل العلمي حيث تفاعل مع جوها العلمي النشط، وعقد صلات مع علمائها، كما ارتبط بصلات فكرية مع علماء الإحساء، وكانت مركزًا علميًا تتفاعل معه الحركة الثقافية في البحرين [الخليفة مي، مع شيخ الأدباء، ص30 ـ 31].

اتسعت تنقلاته فزار البصرة والهند، وأبحر إلى عدن وزنجبار للالتقاء بوالده المنفي. وأتاحت له هذه الجولات فرصة التعرف على البيئات العلمية وما فيها من شعر وشعراء.

وأوجز التاجر شخصيته الفكرية فذكر أنه استفاد من أسفاره إلى الحرمين وغيرهما في صحبة والده، فالتقى بأفاضل تلك الجهات، وأخذ عنهم علوم اللغة والأدب، وكان له اطّلاع واسع فيهما وفي التاريخ والحياة الفكرية لتلك الأقطار [المنتظم، ترجمة 23].

وتمثل شغفه بالعلم في الطموح إلى نشره بين أبناء قومه، فكان رائدًا من روّاد النهضة الفكرية في البحرين. وأسهم في بناء العديد من المؤسسات الثقافية الحديثة. ويعدّ مجلسه أول منتدى فكري في البحرين [الخليفة مي، مع شيخ الأدباء، ص61]، وحرص على حضوره جمع من الشباب المثقف المتعطش للعلم والمعرفة، وأدت هذه المجالس دورًا تنويريا؛ بالانفتاح على الثقافة العربية. فكانت رفوفه تزخر بالإصدارات المتعددة من الصحف والمجلات، فمن المصرية «المقتطف» و«اللواء» و«المؤيد» و«العروة الوثقى» التي تصدر في باريس، وكذلك «الأهرام» و«الهلال»، وحظيت «المنار» وصاحبها رشيد رضا بمكانة خاصة، كما استورد صحفًا أخرى ذات توجهات مختلفة. ومن الصحف السورية «المفيد» و«المرشد»، ومن صحف المهجر جريدة «السائح» و«الهدى» [الخليفة مي، مع شيخ الأدباء، ص65 ـ 67]، كما ضم المجلس مكتبة غنية بمختلف الإصدارات العربية، مما وفّر مناخًا مناسبًا للقراءة والحوار الفكري المستنير.

وفي إطار هذا المجلس ظهرت بواكير الوعي السياسي والاجتماعي [الخاطر، نابغة البحرين، ص23 ـ 24؛ الخليفة مي، مع شيخ الأدباء، ص61، 65 ـ 67]، وتبنى أصحابه رؤية إصلاحية تشمل مختلف مناحي الحياة، كما تبلورت فكرة وضع آليات تحديث الحياة العلمية.

كانت طموحات الشيخ إبراهيم كبيرة في إنشاء مؤسسات للتعليم مغايرة لما هو معروف وسائد آنذاك. ومن ثم تنادى مع مجموعة من رجال البلاد لتأسيس مدارس حديثة، وكانت التحديات كبيرة، لكن الإرادة والتصميم ذلّلا الصعاب، فتأسس مجلس التعليم، وتمّ افتتاح أول مدرسة حديثة، وهي مدرسة الهداية الخليفية في عام 1919م. واضطلع الشيخ بدور قيادي إذ شغل نائب مدير المعارف، وكان يشرف إشرافًا مباشرًا على سير التعليم

بدءًا باختيار المدرّسين إلى توزيع الحصص وجداول الدراسة [الأنصاري محمد جابر، الشيخ إبراهيم بن محمد الخليفة: أشعاره ورسائله، الخاطر، مضبطة التعليم ص37؛ الخليفة مي، مع شيخ الأدباء، ص125 - 129؛ غلوم، القصة القصيرة، ص35 - 67].

وكان له دور قيادي في تأسيس النادي الأدبي عام 1921م، المؤسسة التي أنعشت الحياة الثقافية، وحرّكت الجو الأدبي، ونشرت الوعي، وقد ضمّ النخبة المثقفة وجلّهم من مرتادي مجلس الشيخ إبراهيم. ووفّر النادي لأعضائه الصحف العربية، وعقد الندوات الفكرية والأدبية، واستقبل المفكرين والأدباء الذين يزورون البلاد، فاحتفى بأمين الريحاني الذي زار البحرين في 1922، ومحمد الشنقيطي، وهو من دعاة الإصلاح، وكان قد زار البحرين عام 1922، والزعيم التونسي عبد العزيز الثعالبي الذي زارها في 1924 وارتبط الشيخ إبراهيم بعلاقات حميمة مع هؤلاء الزعماء المصلحين وراسلهم [الخاطر، نابغة البحرين، ص60 - 61؛ الخليفة مي، مع شيخ والأدباء، ص76، 103 وما بعدها؛ غلوم، القصة القصيرة، ص72؛ المنصور أنيسة، شعر البحرين، ص565 - 566].

ولالتصاق أمين الريحاني بالمترجم له رسم هذا الأخير صورة لشخصيته فقال: «أما الشيخ إبراهيم فهو أشدّ ميلاً إلى الأدب والشعر منه إلى السياسة.. بل هو شيخ الأدباء في البحرين ومن خيرة رجالها..» [الخليفة مي، السابق، ص77؛ الريحاني، أمين، ملوك العرب، 2/ 215 - 216]. على أنّ الشيخ إبراهيم لم يهجر السياسة بل مارسها بمفهومها العميق وهي قيادة حركة المجتمع نحو الوعي الحضاري والثقافي، واتخاذ المواقف الواضحة تجاه القوى الأجنبية، دون التعرّض لخطر الاصطدام المباشر، وكان يكتفي بتوجيه الحركة الوطنية استرشادًا بمفاهيم الحركة الإصلاحية في مصر [الخليفة مي، مع شيخ الأدباء، ص89؛ الهاشمي، شعراء البحرين المعاصرون، ص16].

يمكن تصنيف إبراهيم الخليفة بأنه شاعر إحيائي، بل يعدّ القاعدة الكلاسيكية المتينة التي نهضت على أساسها تجربة الشعر الإحيائي المعاصر في البحرين [الهاشمي، شعراء البحرين المعاصرون، ص17]. ولعلّ ما يميّز موضوعاته الشعرية، رغم انتمائها لتلك المرحلة أنها تتصاعد في أكثرها على وتيرة الذات الشاعرة في تفاعلاتها مع أحداث الحياة، وبالتالي فإن ذلك الشعر يمثل فضاءً تبرز فيه إيقاعات تلك الذات بتنوعاتها الوجدانية والنفسية، مما يجعلها بعيدة عن شعر المناسبات بما فيه من مدح وغيره. وتدور تلك التجربة في أربعة محاور يغلف أغلبها نزعة من الحزن الشفيف، وهي المراثي، وقصائد وجدانية ذاتية، وإخوانيات، ومنوعات ومساجلات وتشطيرات، وجلّها غير بعيد عن مضامين الشعر العربي القديم.

في محاور الرثاء قصيدتان: الأولى في رثاء والده، والثانية في رثاء ابن عمّه الشيخ عيسى بن علي، حاكم البحرين. وتتّسم مرثيته في والده بعمق المشاعر وصدق الأحاسيس. فحالة الفقْد كانت شديدة الوطء على نفسه، ولا غرو فقد كان متعلقا بوالده مرافقًا له في منافيه في الكثير من الأوقات. وافتتح القصيدة

بتعزية نفسه وتصبيرها وحثّها على التماسك من خلال تبرير حادث الموت: [من الوافر]

قضاءٌ محكمٌ لا يستطاعُ
تلافيه ولا عنهُ امتناعُ

وأمرٌ مُبْرَمٌ قَهَرَ البرايا
فلا أحدًا له عنه امتناعُ

[مع شيخ الأدباء، ص221]

ولأن الشاعر افتتح بالحكمة في صياغتها المألوفة في الأسلوب الخبري التقريري فقد تحوّل من ثم إلى الإنشاء معوّلاً على الاستفهام بما يعنيه من تعجّب واستنكار ومنتقلاً من الأفق العام إلى الخاص من خلال التحوّل من ضمير الجمع إلى ضمير المفرد المتكلم:

الا ما للمصائب كلَّ يومٍ
لنا منها انصداعٌ وانقطاعُ؟

وما للمزعجاتِ من الليالي
أراعتنا وليس بها ارتياعُ؟

وما لحوادثِ الأيامِ عندي
أقامتْ ما لها عنّي زَماعُ؟

تمثلت حالة الإحباط واليأس في خطابه لمحن الدهر لتفعل به ما تشاء، فقد وقع المحذور الذي يهابه:

هلمّي يا ملمّات الليالي
فما في الكفِّ بعد الزّندِ باعُ

وشُنّي غارةً فيمنْ تركتِ
فما في العيشِ بعد أبي انتفاعُ

وعرض لمناقب الفقيد وأثنى على سجاياه:

صحبتَ الدهرَ حينًا فاستضاءتْ
بكَ الدُنيا كما ضاءَ الشُعاعُ

وهابتكَ الملوكُ بكلِّ قطرٍ
كما هابتْ من الأُسْدِ الضباعُ

وضمّن مرثيته سلسلة من الحِكَم حاول من خلالها رأب ما أصاب نفسه من صدع وتمزق:

هي الدنيا متاعٌ ليس فيه
هناءٌ بل عناءٌ وانخداعُ

وكلُّ الناس منها في بلاءٍ
وإنْ خُدعتْ ببهرجها الطباعُ

وخلال المرثية خاطب الشاعر إخوته ودعاهم إلى النهوض للمجد، وخصّ نفسه بخطاب محتدّ حثّها فيه على المصداقية والجدية في الأمور وطلب العلياء:

الا يا نفسُ جدّي واستعدّي
فإنّ الأمرَ جدٌّ واضطلاعُ

[مع شيخ الأدباء، ص222 ـ 223]

ويتضاءل في شعره حجم الغزل نظرًا للحزم الذي يأخذ به نفسه، فهو يقترب من المرأة ويتوق إليها: [من الطويل]

تعشّقتُ أحْوَى أسمرَ اللون عينهُ
كأنّ بها هاروتَ ينفثُ بالسحرِ

وما كان في ظنّي انقيادي لأمرِهِ
ولا أنه يستطيعُ يخرجُ من أمري

[مع شيخ الأدباء، ص236]

ولكنه يلزم جانب الحذر في التعامل معها خوفًا من تقلباتها المزاجية. يرسم مشهدًا

حواريًا يديره قلبه وعقله حولها فيقول: [من الطويل]

وهبْ إنه يُرضيكَ بالحسنِ وجهُهُ
فهل طبعُهُ يا قلبُ تلقاه صافيَا

وها انتَ يا قلبي إليهِ دعوتني
فإياكَ لي يومًا تكنْ منه شاكيَا

ويجنح إلى وقائع التاريخ الإسلامي لإثبات قلقه منها:

على أن ربات الخُدُورِ غوادرٌ
وحسبُكَ يغدرنَ العشيرَ المصافيَا

فقد خانتِ الحرثَ بن عمروٍ هُنَيْدةٌ
وكان بها برًا وصولاً مواتيَا

وقد غدرتْ بابنِ الرسولِ جُعَيدةٌ
وقد أُطمعَتْ يومًا بما كانَ فانيَا

[مع شيخ الأدباء، ص238]

ويتبنى الشاعر أفكارًا إصلاحية ويجتهد في نصح قومه وانتشالهم من وهدتهم، فيصطدم بمقاومي الإصلاح ويتعرض للكثير من الأذى والمعاناة. يقول قصيدة بعنوان «عناء المصلحين»: [من الطويل]

لقد بتُّ في وجدٍ من القربِ والبعدِ
لقربيَ من شامٍ وبعديَ عن نجدِ

فيومي عصيبٌ والدُّجى فيه شَقْوتي
وها حالتي يا صاحِ وَجْدٌ على وَجْدِ

يعاملُني بالسوءِ من انا محسنٌ
إليهِ بمحضِ الودِّ في القربِ والبعدِ

وينكرُ فضلي بعدما كان شاهدًا
بهِ على الحالينِ في الهزلِ والجدِّ

كما انكرَ الأحبارُ فضلَ محمّدٍ
وهم سابقًا منه على العهدِ والوعدِ

[مع شيخ الأدباء، ص229]

وتظهر في شعره نزعة من الحزن الشفيف لعلّ مردها إحباطاتها في الحياة ومعاناته من بعض إخفاقاتها: [من الطويل]

فؤادٌ ببحرِ الوجدِ طافٍ وعائمٌ
وجسمٌ بسُمِّ السُّقْمِ فانٍ وعَادِمٌ

وجفنٌ بسيفِ الدمعِ عادٍ وصائلُ
على صَحنِ خَدِّي والدموعُ صَوَارِمُ

فهلْ بينَ نارِ الوجد والبعدِ والجَوَى
مُقامٌ فهلْ يا صاحِ لي أنتَ لائِمُ

[مع شيخ الأدباء، ص229]

وتتزايد المعاناة وتتعمّق حدّتها وتتحوّل إلى شكوى من الدهر وعتاب عليه: [من الطويل]

على الدهرِ لي عَتْبٌ فهل هو زائلُهُ
ولي عندَهُ حَقٌّ فهل انا نائلُهْ

[مع شيخ الأدباء، 227]

وتبرز ردة الفعل عند الشاعر بتحدّي الدهر ومقاومته بالصبر والتماسك وتتحول تلك النزعة إلى فخر وإباء: [من الطويل]

وشنُّ غُوَيْراتٍ وظنُّ بجهلِهِ
تقوم لمثلي عندَ خَطْبٍ مآتمُ

وما أن دَرَى أنّي على كلِّ حادثٍ
صَبُورٌ وصبري في الملماتِ صارِمُ

وما انْ دَرَى أنّي فتاهُ وأنني
على كلِّ حالٍ للمكارِمِ سَائِمُ

أرومُ مــن الأيــامِ مــا لا يــرومُــهُ
سِـوايَ وقــدرُ الــمــرءِ مـا هــو رائــمُ

[مع شيخ الأدباء، 237]

وتتصاعد نزعة الفخر فيعتز الشاعر بنفسه وتحقيق أمجاده وبلوغه العلياء منذ سن مبكرة: [من الطويل]

تسربلتُ سربالَ المعالي على الصِّبا
ومَزَّيتُ لـلـعـلـيـا ثـغـورًا عَـذايـبِ
وباشرتُ خُودَ المجدِ والنفسُ غَضَّةٌ
وصيَّرتُها عندي من اغلى الحبائبِ
واصبحتُ مفتونًا بها لا بغيرِها
ومن واصلتْهُ الشمسُ عافَ الكواكبِ!
فلا نادمٌ يومًا تراني لفائتٍ
ولا مطمعٌ غيرُ العُلاَ فيه راغبِ!

[مع شيخ الأدباء، 274]

لا يلبث هذا الشعر الوجداني الملتحم بنزعة عقلية أن يتسع مداه فتبرز في شعر الشيخ إبراهيم نزعة عقلية لا تخلو من جانب وجداني رقيق. ويتجلى ذلك في شعر التأملات التي يسبر من خلالها آفاق الحياة وأحداث الدهر، وسلوكيات الأفراد، ويعبر عن رؤاه فيها، يقول في ظلم الإنسان لذاته وإهماله ما تتمتع به نفسه من مزايا إنسانية سامية وميول خيّرة، وعدم استثماره أوقاته فيما يجدي نفعًا: [من الطويل]

فوا خجلة الإنسان من فضل ذاتِهِ
وقد شاعَ عنه نقصُ ما هو فاعلُهْ
أضاعَ نفيسَ العمرِ واغتالَ حقَّهُ
لقد تَبَّ مَنْ بيعتْ عليه قواتلُهْ
تجلَّى له بدرُ الوجودِ بُعيدَ ما
ثوتْ في زوايا العُدمِ قُدمًا أوائلُهْ
وأهلَهُ مَنْ كانَ أحسنَ صُنعهُ
لأسرار علمٍ قد أضاءتْ مشاعلُهْ
فلا العلمُ أوعاهُ ولا النفسُ صانها
ولا عقلُهُ عن معقلِ النقصِ عاقلُهْ
فيا ليتَهُ إذْ لم يفزْ بفضيلةٍ
تَحَرَّجَ أن تكسوهُ ذُلّاً رذائلُهُ

[مع شيخ الأدباء، 227]

وإزاء اعتقاد الشاعر بنقص البشر وما يقابله من تطلّع إنساني إلى تجاوز ذلك الخلل راح يمجد ما يقربه من الكمال من مثل عليا ومبادئ أخلاقية تسمو بالإنسان وتعلي من قيمته. فأشاد بالسلوك العقلاني وما ينجرُّ عنه من مزايا رفيعة كالتقوى والترفّع على الدنايا، مع الربط بين السلوك العقلاني والعلم: [من الطويل]

إذا لم يكُنْ عقلُ الفتى عاقلاً له
على مَعْقِلِ التقوَى فلا حبّذا عَقلُ
نُهَاكَ الذي ينهاكَ عن كلِّ هفوةٍ
وحُجْرُكَ ما يحجرُكَ إن وثب الجهلُ
وهل يتصفُ بالعقلِ إلاّ مُهَذَّبٌ
أخو ثِقَةٍ ينهَى إلى قَوْلِه الفَضْلُ
تقيٌّ لَهُ في كلِّ علمٍ بصيرةٌ
لها من لطيفاتِ الحقائق ما يحلُو

[مع شيخ الأدباء، 253]

فكان من الطبيعي إزاء هذه الرؤية أن يمجّد الشاعر العلم ويثني عليه ويتبنّاه ويرى أنه

القيمة الحقيقية في هذه الحياة بما يجلبه من سعادة ومكانة سامقة للإنسان. ويتصوّره الروح الحقيقي للكيان البشري، وأن الوجود هو الجسم الذي يحمل ذلك الروح، وإن العقل هو الذي سيسره ويجعله فاعلاً في هذا الكون: [من الطويل]

بلى تَزْعجُ الأحرارَ أنفاسُ ساعةٍ
تفوتُ سدًى والعلمُ صَفْوٌ مناهِلُهْ

أمَا العلمُ إكسيرُ السعادة للفتى؟
أمَا العلم عِزٌّ لم يفارقْهُ حامِلُهْ ؟

لعمريَ إن العِلمَ رُوحٌ وجسمُهُ
وُجودُ الفَتى والعقلُ يا صاحِ عامِلُهْ

[مع شيخ الأدباء، 253]

وللشيخ إبراهيم رسائل شعرية تبادلها مع أصدقائه (إخوانيات)، مدحهم فيها وتذكّر لقاءاته معهم، وواساهم في محنهم؛ ومما كتبه إلى صديق له من أهل مكة المكرمة ردًّا على قصيدة كان قد بعثها ذلك الصديق: [من الطويل]

ودادُكُمُ فرضٌ عليَّ محتَّمٌ
أُدينُ بهِ ما عشتُ في القربِ والبعدِ

ألفتُكُمُ يا أهلَ "مكةَ" إلفةً
تفردتُ بين العاشقين بها وحدي

جزاؤكُمُ الأوفى من الله عن فتى
بذلتُم له محضَ الودادِ على عمْدِ

فللّه أيامي لديكم وحبّذا
اجتماعي بكم حَوْلَ المقامِ على وَعْدِ

[مع شيخ الأدباء، 246]

ويلمُّ بأحد أصدقائه حادث يريعه فيستاء الشاعر ويتعاطف فيكتب له مواسيًا: [من الطويل]

صَوابٌ لقلبي في أَسَاكَ يُصابُ
ونفسي لها إن لم تصابَ عذابُ

وعيني لها إن لم تفضْ ادمعًا على
مصابكَ يا ابنَ الأكرمين ذهابُ

أيا ماجدٌ قد جدَّ بي الوجدُ حسرةً
ووجدي لوجدٍ قد عَرَاكَ صَوابُ

[مع شيخ الأدباء، 241]

ولا يكتفي الشاعر بإظهار التعاطف بل يحاول انتشال ذلك الصديق من وهدته والأخذ بيده لتجاوز تلك المحنة:

فكنْ يا ابنَ ودّي عن أسائكَ معرضًا
وقُلْ للأسَى غيري عليكَ يُعابُ

فإنّكَ أنْتَى الناسِ للحزم نسبةً
وذو الحزمِ داعي الحزن منه يهابُ

وللشيخ أبيات في التشطير، وهو فن شاع في الشعر العربي في مرحلة الإحياء، والتشطير أن يقسّم الشاعر البيت إلى شطرين يضيف إلى كل منهما شطرًا من نظمه؛ وشطّر الشاعر بيتين لابن خالويه [الحسين بن أحمد لغوي نحوي ت 370هـ/ 980م، أعلام الزركلي، 2/ 312] فقال: [من الطويل]

إذا لم يكُنْ صدرُ المجالس سيدًا
حكيمًا تصدّرهُ الخصالُ النفائسُ

فكلُّ امرئٍ أمسى شريفًا بغيره
رأيتَكَ راجلاً فلا خيرَ فيمنْ صَدَّرتْهُ المجالسُ

وكم قائلٍ ما لي رأيتُكَ راجلاً
كأنَّكَ من تلكَ المكارمِ بائسُ

وقال أجبني عن سؤالي بحكمةٍ
فقلتُ له من أجلِ إنَّكَ فارسُ

[مع شيخ الأدباء، 252]

لقد شغف الشيخ إبراهيم بالشعر، ونهل من تراث العربية الأدبي وتعلّق بعباقرة الشعر القديم. فقرأ ديوان أبي تمام، والبحتري، والمتنبي [الخليفة مي، مع شيخ الأدباء، ص28]، وهضم ذلك الشعر وتمثله وهو يصوغ تجاربه الشعرية، وظهر أثره جليًا في لغته وأساليبه، ومجلس تعلقه بكبار شعراء العربية الأقدمين في محاولة محاكاتهم واستلهام فنّهم فكان يعمد إلى تشطير أشعارهم، كقوله مشطرًا بيتًا لأبي تمام: [من الوافر]

فلبُّ الحزمَ إنْ حاولتَ يومًا
يُلبِّيكَ النجاحُ بلا امتناعِ

وقُلْ للقلبِ بُشْرَى عن قريبٍ
بأن تستطيعَ غيرَ المستطاعِ

[مع شيخ الأدباء، 251]

وبيت أبي تمام من قصيدة مديح وهو:

فلَبُّ العَزْمَ إنْ حاولتَ يومًا
بأن تسطيعَ غيرَ المستطاعِ

[ديوانه، 2/ 23]

كما عمد إلى تضمين أشعاره أبياتًا أو مقاطع من شعر الأقدمين. يقول مضمنًا مقطعًا من بيت عبيدة بن ربيعة [شاعر جاهلي، عبد الرحمٰن عفيف، معجم الشعراء، ص157]: [من الوافر]

فيكتسب المكارمَ وهي عِلْقٌ
نفيسٌ لا يُعارُ ولا يباعُ

[ديوان الحماسة، لأبي تمام، ص66]

كما ضمَّنَ قصيدته التي بعنوان «مناجاة الأحبة» بيتًا للمتنبي: [من الكامل]

أنشدْتُ لما أن أردتُ هِجاءَهُ
بيتًا به نَطَقَ الإمامُ الأروعُ

(قبحًا لوجهكَ يا زمانُ فإنَّهُ
وجهٌ به من كلِّ لُؤْمٍ بُرْقُعُ)

[مع شيخ الأدباء، ص231؛ ديوان المتنبي، ص164]

وكان الشاعر مشغوفًا بالمتنبي ومثله وتراكيبه ويتمثّل ذلك التعلق من وصفه له بالإمام الأروع.

على المستوى الفني غالبًا ما يلتزم الشاعر بالنسق اللغوي العربي الرصين خاصة في عهود الازدهار، وهي خطوة على طريق التطوّر الشعري. وتبتعد لغته عن التكلف والتعقيد وغرابة اللفظ، فتبدو أقرب إلى الصفاء والوضوح. ومن تقنياته الفنية المحافظة على الأسلوب التقريري وعدم تجاوزه إلا في النادر، ومن ثم غلبت على شعره البنية التركيبية للأسلوب الخبر، وما يصاحبها من بروز المشترك الفكري والتعبيري. ومن أدبيات القصيدة العربية التي حرص عليها تصريع مطالع قصائده كقوله في قصيدة بعنوان «مناجاة الأحبة»: [من الكامل]

هل أنتَ ممّن للعواذِلِ يسمعُ
يا قلبُ أم أنتَ الأَصمُّ الأروعُ

[مع شيخ الأدباء، 231]

ومع ابتعاده عن التكلف البديعي في عموم تجربته إلّا أنه أحيانًا يحرص على استخدام فنونه. فقصيدته «عناء المصلحين» [الخليفة مي، مع شيخ الأدباء، ص229] تتضمن العديد من مفرداته، وأكثرها ورودًا الطباق ويبرز ذلك منذ المطلع يقول: [من الطويل]

لقد بثُّ في وجدٍ من القربِ والبعدِ
(لقربي من شامٍ) و(وبعديَ عن نجدِ)

فعلاوة على الطباق في الصدر أتى بالمقابلة في العجز. وكثيرًا ما يأتي بلفظي الطباق متجاورين أو متقاربين:

يعاملُني بالسوء من أنا محسنٌ
إليه بمحضِ الودِّ في القرب والبعدِ

كما يرد التصدير، وغالبًا ما يرد لفظاه متجاورين أيضًا ومتجانسين:

فيومي عَصيبٌ والدُّجى فيه شقوتي
وها حالتي يا صاحِ وَجْدٌ على وَجْدِ

ومن الترادف:

فجازوا ولكنْ بالإساءةَ والأذى
وجادوا ولكنْ بالعداوةِ والحِقْدِ

وورد التقسيم بندرة:

وأرحلُ في إثْرِ المكارمِ والعُلاَ
ونورُ التقَى والعلمِ والحلمِ والرُّشدِ

كما ورد الجناس بقلة أيضًا:

علينا نحثُّ العيسَ في طلب العلا
إلى أن يحلَّ الجدُّ في مطلعِ السَّعْدِ

على إنّ الشاعر لم يثقل النص بالبديع.

وقد يلجأ الشيخ أحيانًا إلى ضرورات شعرية كتسكين أواخر بعض الكلمات المتحركة دون مبرر نحوي بتأثير تجربته في كتابه الشعر النبطي [الهامشي، شعراء البحرين المعاصرون، ص18]. ويظهر تمسّكه بأدبيات القصيدة القديمة من نظمه أكثر أشعاره في إطار البحور الأساسية كالطويل، والكامل، والوافر، والبسيط، والخفيف [الهامشي، شعراء البحرين، ص18].

وفي العموم مثَّل الشيخ إبراهيم مرحلة الشروق لمرحلة أدبية يمكن اعتبارها البداية الحقيقية للوثبة الفكرية الحديثة في البحرين وضمن تفاعلاتها مع مرحلة النهضة العربية المعاصرة.

آثاره

له ديوان شعر صدر في طبعتين؛ الأولى تحت اسم «المجموعة الكاملة لآثار الشيخ إبراهيم بن محمد الخليفة: أشعاره ورسائله، تح. وشرح محمد جابر الأنصاري، طبع في البحرين على نفقة حاكمها الشيخ سلمان بن حمد الخليفة، وصدر عام 1968م بإشراف مديرية التربية والتعليم آنذاك في مائة وخمسة وخمسين صفحة تقريبًا من القطع المتوسط.

أما الطبعة الثانية لهذا الديوان فصدرت في أكتوبر 1993 بعنوان «مع شيخ الأدباء في البحرين، إبراهيم بن محمد الخليفة» أعدتها مي محمد الخليفة حفيدة الشاعر، والكتاب عبارة عن سيرة ذاتية ضمنتها أشعاره وأرفقتها بإضافات مهمة على صعيدي الشعر والوثائق، ونشرتها مؤسسة رياض الريس للكتب والنشر في لندن في 300 صفحة تقريبًا

المصادر والمراجع

● الأنصاري، محمد جابر، المجموعة الكاملة لآثار الشيخ إبراهيم بن محمد الخليفة، أشعاره ورسائله، تح. ونشر المؤلف، بإشراف مديرية التربية والتعليم، البحرين 1968 (صفحات متعددة)؛ ● التاجر، محمد علي، منتظم الدرين في تراجم أعيان القطيف والأحساء والبحرين، نسخة مخطوطة بخط المؤلف (ترجمة 23)؛ ● أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي، ديوانه بشرح الصولي، تح. خلف نعمان، وزارة الثقافة والفنون، الجمهورية العراقية 1978، 2/ 23؛ ● أبو تمام، ديوان الحماسة، تح. عبد المنعم أحمد صالح، منشورات وزارة الثقافة والإعلام بالعراق، 1980، ص66؛ ● الخاطر، مبارك، نابغة البحرين، الشركة العربية للوكالات والتوزيع، البحرين، 1972، ط1، ص23 ـ 24، 60 ـ 61؛ ● الخاطر، مبارك، مضبطة المشروع الأول للتعليم الحديث في البحرين، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، البحرين، 2000م، ص37 وغيرها؛ ● الخليفة، مي، مع شيخ الأدباء في البحرين إبراهيم بن محمد الخليفة، رياض الريس للكتب والنشر، لندن 1993، (صفحات متعددة)؛ ● الريحاني، أمين، ملوك العرب، منشور ضمن الأعمال العربية الكاملة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1986، ط2، 2/ 215 ـ 216؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، 1986، ط7، 2/ 231؛ ● الطائي، عبد الله، الأدب المعاصر في الخليج العربي، معهد البحوث والدراسات العربية، 1974، القاهرة، ص199 ـ 204؛ ● غلوم، إبراهيم، القصة القصيرة في الخليج العربي، منشورات مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة، 1986، ط1، ص65 ـ 67، 72؛ ● المتنبي، أحمد بن الحسين، ديوانه، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ص164؛ ● المنصور، أنيسة، شعر البحرين من القرن السابع عشر إلى الثلث الأول من القرن العشرين، أطروحة دكتوراه دولة بصدد النشر، ص565 ـ 566؛ ● الهاشمي، علوي، شعراء البحرين المعاصرون، الناشر هو المؤلف، 1988، ط1، ص15 ـ 20.

د. أنيسة أحمد خليل المنصور
جامعة البحرين ـ البحرين

ابن خُليفة، علي

(1080هـ/1669م - 1172هـ/1758م)

علي بن محمد بن خُليفة الشريف المساكني. الفقيه المربّي، صاحب المدرسة في آخر عهد البايات المراديين الذين حكموا من منتصف القرن السابع عشر للميلاد إلى سنة 1702م، وفي بداية عهد خلفهم البايات الحسينيين الذين حكموا بداية من سنة 1705هـ.

حفظ علي بن خُليفة القرآن الكريم، وتلقّى مبادئ العربية والفقه بمسقط رأسه. وقد أظهر من النبوغ والاستعداد لطلب العلم ما حمل والده على التفكير في إرساله إلى إحدى المدن التونسية للتفقّه في الدين على علمائها. وقد وقع اختياره على إرساله إلى مدينة صفاقس ليواصل تعلّمه هناك على الشيخ علي النوري الصفاقسي (ت 1117هـ/ 1706م).

رحل علي بن خُليفة إلى صفاقس سنة خمس وتسعين وألف من الهجرة (1095هـ/ 1684م) وأقام عند شيخه أبي الحسن النوري خمس سنوات أخذ عنه فيها جملة من العلوم منها النحو، والفقه، وأصول الدين، وأصول الفقه، والحديث. فقد قرأ عليه من كتب النحو والفقه والقطر والألفية. ومن كتب التوحيد: كتب الشيخ السنوسي، وجمع الجوامع وصحيح البخاري، وصحيح مسلم، والموطأ، وكتاب الشفاء للقاضي عياض، وكتاب الشمائل للترمذي، وكتاب الأربعين النووية، وتفسير البيضاوي، وتفسير الجلالين المحلّي والسيوطي، وكتاب معالم الترتيل للبغوي، وكتاب ألفية السيرة العراقية، وكتاب تذكرة القرطبي.

وكان الشيخ علي بن خليفة معجبا أشد الإعجاب بأستاذه علي النوري، مخلصا له، وقال عنه: «أول مشايخي الشيخ الفاضل المربّي الناصح الجامع بين الشريعة والحقيقة سيدي علي النوري الصفاقسي» [مقديش، نزهة الأنظار، 2/ 363]. وقد نظم في مدحه أبياتا من الشعر قال في مطلعها:

ونورٌ بدا منْ جانب «النوري» ساطع
فإنّهمو من خصّصوا بالعنايه

فمقتبس شُعَب العلوم ليصطلي
بها بردّ قرِّ الجهلِ أصلِ العمايه

ولم يكتف علي بن خليفة بما تحصل عليه من علوم في صفاقس بل رأيناه يرحل إلى مصر على رأس القرن الثاني عشر من الهجرة ويلتقي في القاهرة بعلمائها يستكمل عليهم دراسة العلوم. فقد قرأ على الشيخ محمد بن عبد الله بن علي الخرشي البحيري تلميذ علي الأجهوري. صاحب شرحين على كتاب خليل في الفقه المالكي المسمّى بالمختصر: أحدهما كبير والآخر صغير. وقد قرأ عليه الشرح الصغير.

من شيوخه هناك محمد بن عبد الباقي الزرقاني قرأ عليه رسالة ابن أبي زيد القيرواني. ومن مشايخه أيضًا إبراهيم الفيومي، ومنهم العلامة إبراهيم الشبرخيتي صاحب الشرح على المختصر والشرح على الأربعين النووية. وقد أجاز الشبرخيتي علي بن خليفة بخطه لصحيح البخاري، ومسلم، والمختصر.

عاد الشيخ علي بن خليفة من مصر إلى مسقط رأسه مساكن بعد أن قضى مدة في طلب العلم لا تقلّ عن إحدى عشرة سنة؛ خمسٌ منها بصفاقس وستّ منها على الأقل بمصر. وجمع في رحلته بين المعرفة بعلوم العصر والتقوى والصلاح وقيل في شأنه إنه: «كان رجلا صالحا تقيّا عفيفًا متكلّمًا محدّثًا مفسّرًا واعظًا بعلوم العربية بأسرها» [مقديش، نزهة الأنظار، 2/ 374].

تردّد الشيخ علي بن خُليفة بين الانتصاب للتدريس بمسقط رأسه وبين الاستقرار بإحدى المدن التونسية الكبيرة لنشر العلم فيها، ولكنه فضّل الحل الأول واختار المقام بمساكن وبنى بها زاوية تسمّى أيضًا مدرسة وأقرأ العلوم بها [مخلوف، شجرة النور، 1/ 347]. ولم تكن مدرسة أبيه كما قال حسين خوجة في ذيل بشائر أهل الإيمان.

أسس مدرسته إذن عام أربع ومائة وألف هجرية (1104هـ/ 1693م) حسبما ورد في رخامة منقوشة بمدرسته مازالت موجودة وفيها العبارة التالية: «أسّست هذه الزاوية المباركة سنة 1104هـ جعلها الله معمورة بالعلم والقرآن إلى قيام الساعة آمين». وكان الشيخ قد اقتدى في تأسيسه للمدرسة بشيخه علي النوري «الذي بنى داره زاوية ومدرسة لطلب العلم والقراءات وكان يحسن للطلبة ويطعمهم الطعام ويكسوهم من كسبه ويربّيهم أحسن تربية» [خوجة، ذيل بشائر أهل الإيمان، 140].

وكان تأسيسه لهذه المدرسة في وقت تعطّل فيه بناء المؤسسات التعليمية وخدمات الحياة العلمية بالمؤسسات الموجودة بمدينة تونس وخارجها. ويعود ذلك إلى موت كثير من العلماء بالأوبئة، وإلى انشغال البايات المراديين بالحياة السياسية وتقلّباتها، زيادة على سياسة التعسّف التي سلكها الحكام تجاه العديد من العلماء [محمد الطاهر بن عاشور، أليس الصبح بقريب؟، تونس، 1967، ص89].

وفي هذه الظروف أقدم الخواص على تأسيس المنشآت التعليمية وأنفقوا عليها بوسائلهم الخاصة دون أيّة إعانة من الدولة. ولم يتغيّر هذا الوضع إلّا في عهد البايات الحسينيين. وما قام به الشيخ علي بن خُليفة قام به تلميذ آخر للشيخ علي النوري الصفاقسي هو أحمد بن محمد بن حَمَد بن إبراهيم العجمي المِكْني الذي بنى زاوية - مدرسة ببلده المكنين من الساحل التونسي كذلك [مخلوف، شجرة النور، 1/ 322، رقم 1256].

ويعتبر المؤرخون عمل ابن خُليفة في تأسيس مدرسة دليلا على الانبعاث الثقافي بالساحل الذي تحقق في نهاية القرن السابع عشر للميلاد. وهذه المدرسة هي الأولى في الساحل وكانت أسبق من المدرسة الحسينية التي كوّنها الباي حسين بن علي بسوسة في زاوية الولي سيدي عبد القادر الجيلاني. وجعل عليها الشيخ قاسم المؤخر الأنصاري الذي تلقى بدوره العلوم على الشيخ علي

النوري الصفاقسي. وكان مختصًا في العلوم العقلية ومنها علم الحساب وعلم التوقيت.

وقسّم الشيخ ابن خُليفة دار سكناه إلى قسمين أحدهما احتفظ به للسكنى. والقسم الثاني جعله مدرسة لطلاب العلم. وتشتمل المدرسة على قاعة كبيرة للتعليم ومسجد للصلاة وميضاة فيها بئر، وحجرات سفلية وغرف في طابق علوي صالحة لسكنى الطلبة الوافدين على البلدة من الخارج. ولما اشتهر مؤسسها بتعليم القرآن ومبادئ اللغة العربية والتوحيد والفقه، بالإضافة إلى إحسانه إلى الطلبة المقيمين بمدرسته، فقد توافد عليه التلاميذ من بلده ومن جهات عديدة من الساحل التونسي وغيره من أماكن البلاد التونسية لأجل القيام بمصالح هذه المدرسة، فإنه حبّس عليها من أملاكه الكثيرة الرباع والعقارات ذات الدخل للإنفاق عليها وعلى طلبتها.

وتواصلت مدرسته عامرة بالطلبة والعلم بعد وفاته. وقد ورث ابنه أحمد مهمّة الإشراف عليها مدة حياته. ومنه تحوّلت مهمة إدارة شؤونها إلى حفيده عبد الكريم. وقد ذكر المؤرّخ محمود مقديش أنه اجتمع بحفيده عبد الكريم بن أحمد بن علي بن خليفة سنة 1208هـ/ 1793م وهو شيخ زاوية في ذلك الوقت وأعجب بصلاحه وحبّه للعلم وأهله [مقديش، نزهة الأنظار، 2/ 376].

وقد ساهمت سياسة الحسينيين في تنشيط الحياة التعليمية والثقافية بهذه المدرسة وغيرها من المؤسسات الموجودة أو المحدثة في عهدهم في كامل البلاد. فقد كان الباي حسين بن علي (حكم بين 1705 و1740م) ميالا إلى العلم وأهله فأعاد ربوع العلم بعد اندراسها زمن البايات المراديين. وكان علي باشا (1740 ـ 1756م) وابن أخيه محمد محبا لأهل العلم وله حظ في المشاركة العلمية. كما كان كل من الباي محمد الرشيد بن حسين بن علي (1756 ـ 1759م) وأخيه علي (1759 ـ 1782م) ميَّالَيْن إلى تنشيط الحياة العلمية بشتّى الطرق [ابن عاشور، أليس الصبح بقريب؟، 90 ـ 92].

وقد استفادت مدرسة الشيخ ابن خليفة بمساكن من تشجيعات البايات الحسينيين في حياة مؤسسها وبعد مماته. وكان الباي حسين بن علي قد رعى جهود الشيخ علي بن خُليفة التعليمية في المدرسة وكافأه بتعيينه شيخ (أي أمير) الركب إلى الحج بمقتضى أمر عليّ بتاريخ سنة ستّ وأربعين ومائة وألف 1146هـ/ 1733م. لكن حظوته لديه تغيّرت وقت الفتنة الباشية الحسينية. فرغم انحياز الشيخ ابن خليفة له معتبرًا إياه الحاكم الشرعي للبلاد فإن فتواه في عدم جواز المشاركة في القتال معه خصمه علي باشا قد جعلته يغضب منه ويزجّ به في السجن بالقيروان. وسريعا ما عفا عنه وأطلق سراحه فعاد إلى مباشرة نشاطه في الإشراف على مدرسته. ومع تولّي علي باشا الحكم إثر الفتنة لقي مترجمنا حظوة العلماء، وقبل منه شفاعته في أهل بلده الذين انحازوا إلى خصمه، فخفّف عنهم العقاب وألزمهم مجرّد غرامة مالية. وتواصلت استفادة المدرسة من تشجيع باقي الحكّام الحسينيين للعلم والعلماء فتكاثر نشاطها وزاد عدد تلاميذها. ومن التشجيعات تنمية مواردها، فالأمر الصادر عن الباي محمود (1814 ـ 1824م) بتاريخ شهر صفر 1230هـ/ 1814م،

أعفى بعض أملاك الشيخ عبد الكريم المشرف على المدرسة، من الضرائب حتّى يحسن الإنفاق على طلبتها.

جانب آخر في حياة الشيخ علي بن خُليفة هو القيام بالأعمال الفلاحية إلى جانب الإشراف على شؤون المدرسة. فقد كان يقوم بخدمة أملاكه بنفسه. قال بعضهم: «قصدنا الشيخ بالزيارة فقالوا لنا ذهب إلى الغروس في المكان الفلاني، فذهبنا لنجتمع به، وكان ذلك عقب المطر، فوصلنا المكان، فوجدنا الشيخ في مكان جالسًا يمنع خروج الماء من الغروس، فلمناه على ذلك»، فقال: حُبّب إليّ من دنياكم ثلاث: الغروس، وملازمة الدروس، ومحبّة الملك القدّوس [مقديش، نزهة الأنظار، 2/ 375]، وهو المقتبس من الحديث الشريف المروي عن أنس بن مالك ـ ﷺ ـ «حبّب إليّ من دنياكم النساء، والطيب، وجعلت، قرّة عيني الصلاة» [حديث حسن أخرجه الإمام أحمد في الزهد].

توفي الشيخ علي بن خليفة ليلة الأربعاء في 25 جمادى الأولى سنة 1172هـ/ 1758م عن سن عالية وعمره أربعة وتسعون عاما، ودفن بمدرسته في غرفة مجاورة لبيت الصلاة.

آثاره

تتمثل آثار الشيخ علي بن خُليفة في تلامبذه الذين أخذوا عنه وفي مؤلفاته. فقد أخذت عنه جماعة انتفعوا به، منهم ابنه الشيخ أحمد الصغير رزق الله (ت 1234هـ/ 1818م) وهو حفيده للأخت وقد تصدّر لتدريس العلوم بمدرسة شيخه، وتخرّج على يديه الكثيرون. كما أخذ عنه المفتي محمد الهدّة السوسي، والمفتي بتونس قاسم المحجوب (ت 1190هـ/ 1776م)، وعبد الرحمٰن بن علي الغنوشي السوسي، وشيخ زاوية أبي إسحاق الجبنياني حسين الحلواني، والقاضي أحمد بن اللطيف من القلعة الصغرى، وعبد الرحمٰن الجبنياني الذي ولي وزارة القلم في عهد حمودة باشا، وإبراهيم البقلوطي وغيرهم.

أما مؤلفاته فتتمثل في المنظومات الشعرية التي وضعها وضمّنها معارفه، كما تتمثل في كتابة الإجازات العلمية لتلاميذ ذكر فيها شيوخه بصفاقس ومصر وتحدّث فيها عن حياته وأفكاره. وهذا تفصيلها:

أ ـ المنظومات الشعرية: عديدة منها:

1 ـ الرياض الخلفية، وهي منظومة على رويّ النون وتعرف أيضًا بـ النونية، وموضوعها التوحيد على مذهب أهل السنة، يقارب عدد أبياتها الخمسمائة، فرغ من تأليفها في آخر جمادى الثانية 1131هـ/ 1719م، ووقع تداولها بالبلاد التونسية وخارجها، وتوجد منها نسخ بدار الكتب الوطنية بتونس رقم 1/ 4706، 2996 وفي المكتبة الأزهرية ضمن مجموع 3/ 222، وبدار الكتب المصرية [العمر، 1/ 434؛ محفوظ، فهرست، 14] وهذه بعض أبياتها:

إعلَمْ هداك اللهُ أوّلَ واجبٍ
في حقّ كلِّ مكلَّفٍ يقظانِ

أن يعرفَ المعبودَ جلّ جلالُه
من مستحيلٍ واجبِ الإمكانِ

حزمٌ يطابقُ عن دليلٍ واضحٍ
لا يقبلُ التشكيكَ للإيقانِ

وبلغت هذه النونية من الذيوع حدًا بعيدا، ذلك أنّ الشيخ علي الدمنهوري المنصوري (ت 1192هـ/ 1778م) شرحها شرحا وافيا [نزهة الأنظار، 2/ 375؛ شجرة النور، 367]. ويسمّى الشرح «المنح الوفية على الرياض الخلفية». وتوجد منه نسخ بدار الكتب الوطنية بتونس رقم 4713، 7896، عبدلية 2199، ونسخة بدار الكتب المصرية، رقم 159، 229 توحيد [انظر فهرس الكتبخانة الخديوية 2/ 56 ـ 57؛ فهرس المكتبة الأزهرية 3/ 222]، واختصر الشيخ محمد بن الحاج حسين منصور الورداني هذا الشرح بتاريخ 14 جمادى الثانية سنة 1360هـ/ 1941م [هامش، نزهة الأنظار، 2/ 375]؛ 2 ـ قضاء الحاجة، وهي منظومة لامية في آداب قضاء الحاجة، وتوجد منها نسخة بدار الكتب الوطنية بتونس، مكتبة حسن حسني عبد الوهاب رقم 3855 ورقم 18838، وأوّلها:

بدات بسم الله والحمدُ للهِ أولا
على نعمٍ جلّت وعمّت تفضّلا

3 ـ التوسل بسور القرآن، منظومة أخرى تضمّ أربعة وخمسين بيتا شعريا كلّها أدعية يقرؤها التلاميذ طالبين من الله أن يسهّل عليهم حفظ القرآن، وتوالى ذكر كلّ سور القرآن مرتّبة عبر كامل القصيدة مع اقتران ذكرها بالدعاء. وممّا جاء فيها:

توسُّلي باسم الإله أولاً
وبالرسول مَنْ عليه أنزلا

جئتُ بهذا لذوي الألبابِ
وبدؤه فاتحة الكتاب

أرجو ثوابَ الله والغفرانِ
ببقْرة وسورةِ العمران

ب ـ الإجازات العلمية، وهي آثار مهمّة للشيخ كتبها بيده بطلب من تلاميذه، وتعتبر سجلّات عن حياته وعلومه، ولا زالت هذه الإجازات متداولة بين البعض من الخواصّ، وأهمّها التي حققها وقدّمها الباحث محمد محفوظ وجعل عنوانها فهرست الشيخ علي بن خليفة المساكني، وهي عبارة عن ملخص ذكر فيه ما أخذ عن شيخه أبي الحسن النوري بصفاقس وشيوخه المصريين، وتمّ إصدار هذه الفهرسة في دار الغرب الإسلامي ببيروت سنة 1992.

المصادر والمراجع

● خوجة، حسين، ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان، تح. وتقديم الطاهر المعموري، الدار العربية للكتاب، ليبيا ـ تونس، 1975، ص140 ـ 141؛ ● مقديش، محمود، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأمصار، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان 1988، 2/ 363، 374 ـ 376؛ ● عبد الوهاب، حسن حسني، كتاب العمر، مراجعة وإكمال محمد العروسي المطوي وبشير البكوش، 1990، 1/ 434؛ ● مخلوف، محمد، شجرة النور الزكية، الترجمة رقم 1372، 1/ 347؛ ● محفوظ، محمد، فهرست الشيخ علي بن خليفة المساكني، دار الغرب الإسلامي، 1992م.

د. منير رويس
جامعة تونس

الخليفة، محمد بن عيسى (الوائلي)

(1293هـ/1876م ـ 1384هـ/1964م)

ينتمي الأمير الشاعر الشيخ محمد بن عيسى بن علي بن خليفة آل خليفة إلى الأسرة الحاكمة في البحرين. ولد عام 1293هـ/ 1876م في مدينة «المحرق»، بعد عشر سنوات من تولي والده الحكم في البحرين، واستقرار الأوضاع وتوجهها نحو حياة عصرية جديدة [ديوان الوائلي، ص11؛ الهاشمي علوي، شعراء البحرين المعاصرون، ص33].

تلقى ثقافة تقليدية فتعلّم القرآن وحفظه في سن مبكرة، وكان دائم الحضور لمجلس والده الذي كان يزخر بأحاديث عن التاريخ واللغة والشعر خاصة الشعر النبطي [ديوان الوائلي، ص12 ـ 13]. وكان مولعاً بالسفر والترحال فزار أكثر بلاد العالم؛ ومن الدول العربية زار الشام والعراق، وكان مشغوفاً بزيارة «مصر». ومن الطبيعي أن يختلط ببيئاتها الأدبية ويتفاعل معها، كما أتاحت له الاطلاع على تيارات فكرية أخصبت معرفته وأغنت خياله وشكلت مصدراً مهماً من مصادر ثقافته، وكان كثيراً ما يعقد الندوات الأدبية والمساجلات الشعرية في الأماكن التي يزورها [ديوان الوائلي، ص41]. كما عرف بكثرة القراءة والحرص على اقتناء الكتب، والاطلاع الواسع على التراث الأدبي العربي، مع ذاكرة قوية ومقدرة على الحفظ أعانته على اختزان ثروة شعرية رفدت موهبته وصقلتها [ديوان الوائلي ص37 ـ 42].

ويقسّم مقدِّم «ديوان الوائلي» حياة الشاعر إلى ثلاث مراحل هي: الأولى: من عام 1876م إلى 1919م وهي مرحلة النشأة والتلقّي الفكري والاجتماعي ضمن مجتمع يتسم بغلبة التقاليد، وبساطة الحياة وموسمية الأعمال [ديوان الوائلي، ص27 ـ 31].

الثانية: من عام 1919م إلى 1940 وهي أهم فترة في حياة الشاعر، وفي تاريخ البحرين الفكري الحديث، حيث افتتحت أول مدرسة نظامية، وأول نادٍ أدبي أسهم الشاعر بدور مهمّ في تأسيسه. كما صدرت «ريدة البحرين» وشارك الوائلي في رفد نشاطات هذه المؤسسات [ديوان الوائلي، ص32 ـ 35؛ الهاشمي، ص33].

الثالثة: من 1940 إلى 1964 وهي فترة تاريخ البحرين الحديث بكل مظاهره الثقافية والحضارية وحتى وفاة الشيخ، وتتسم بالصراع الاجتماعي والسياسي والفكري. وتنقسم بالنسبة لعطائه إلى قسمين: الأوّل: من 1940 إلى 1956 وتتميز بثرائها الشعري، حيث قضى جزءاً كبيراً منها في الغربة والتنقل، والإقامة في «مصر» لفترات تطول أحياناً حيث كان يلتقي فيها بالكثير من شعراء العربية وأدبائها، وغلب على أشعاره موضوع الحنين إلى الوطن.

الثاني: من 1959 إلى 1964 وهي سنة الوفاة، وفيها توقف عن إنتاج الشعر وانصبّ اهتمامه على موضوعات الأدب بشكل عام.

لقد أسهم بدور فاعل في تنشيط الحياة الثقافية. فقد كان مجلسه منتدى تطرح فيه قضايا الأدب والفكر، واستطاع من خلال النادي الأدبي تحريك الجو الأدبي، بعقد الندوات، وتشجيع أدباء البحرين على الإنتاج وتهذيب ذلك الإنتاج. ودعوة العديد من الشخصيات الفكرية العربية لزيارة البلاد [ديوان الوائلي، ص33، 44، 71].

كما تبنى أفكاراً إصلاحية وطنية، وانتقد الاستعمار البريطاني الذي هيمن على البلاد، ودعا إلى التحرر منه [عبد الله الطائي، الأدب المعاصر في الخليج، ص 208].

وأشاد بشعره كل من ترجم له؛ ويرى عبد الله الطائي أن بعض أشعاره فريدة في الأدب العربي [ص209] ووصف محمد جابر الأنصاري في كتابه «لمحات من الخليج العربي» أسلوب الوائلي بمتانة اللغة وقوة التعبير» [ص163].

يعتبره الدارسون الركيزة الثانية التي تحتل قاعدة الشعر الكلاسيكي في البحرين إلى جانب الشيخ إبراهيم بن محمد الخليفة (ت 1933م) [الهاشمي، ص35]. كما عدَّ أقرب شعراء الخليج التي تمثّل المدرسة الكلاسيكية الحديثة في لحظة تحوّلها إلى الرومانسية، لذا فإن شعره يجمع من الخصائص ما ينتمي إلى مدرسة الانبعاث ومدرسة التجديد في آن واحد [السابق، ص35].

على مستوى المضامين التقليدية تتركز أكثر تجربته على جوانب الذات الخاصة وفي طليعتها المرأة، فقد تفنّن في وصفها ومخاطبتها [الهاشمي، ص35]. وتداخلت في أشعاره ملامح الغزل المادي والغزل العذري.

ومن ملامح الغزل الحسي تعدّد أسماء المرأة بين ريَّا، ودعد، والرباب، ولمياء، وسعدى وغيرهن. كما عُني بوصف الجمال المادي للمرأة: [الكامل]

ورديةُ الخدّين امّا لحظُها
فصفائحٌ سُلَّتْ من الأغمادِ
رُودٌ إذا ابتسمتْ أرتْكَ فرائدَ الـ
أصدافِ تسبحُ في الرحيقِ النادي

[ديوان الشيخ محمد بن عيسى الخليفة، تح. د. علي أبا حسين، ص105]

وتأتي المرأة في شعر الوائلي متحضرة مترفة تتزين بأغلى الحلي وأنفس الأحجار الكريمة: [مجزوء الكامل]

جَالَ الوشاحُ بخصرِها
متنقِّلاً لا يستقيمْ
البرقُ في حافاتِهِ
شُعَلاً من الحجرِ الكريمْ
وزها النضارُ على النطا
قِ بذلك الخصرِ الهضيمْ
وتحيَّرَ الخلخالُ حـ
تَّى كادَ أن يضحي فصيمْ

[الديوان، ص108]

ووصف عطرها وما يفوح منه من عبير شذي: [الكامل]

عانقْتُ فيها النورَ يغمرُني الدجَى
وأشمُّ نشرَ بوادرِ الإسعادِ

ما المسكُ ما الريحانُ ما زهرُ الربّى
أنا في غديرٍ من عبيرٍ نادِ

[السابق، ص105]

ويبرز عنصر الحوار في كثير من قصائد الغزل، وكما هو الحال في شعر عمر بن أبي ربيعة زعيم الغزل الحسي. فيسم ذلك الشعر بطابع قصصي. وأكثر ما يقيم حواره مع الحبيبة: [البسيط]

باتتْ تنادمُني والبشرُ يغمرُها
وبتُّ أسمعُ من ألفاظِها طُرفا

قالتْ كلامُكَ حلوٌ كلُّهُ حِكَمٌ
فقلتُ منكِ بيانُ الحجَةِ ازدلفا

فأنتِ فاتنتي بل منكِ بادرتي
وعنكِ أروي أحاديثَ النهى صحفا

ما زلتُ أختارُ من ألفاظِها درراً
حتى تنفّس ضوءُ الصبحِ وانكشفا

قمنا ندافعُ خطوَ الوجدِ فالتفتتْ
إليَّ والكلُّ منّا يلتوي أسفا

قالتْ إلى حفظِ ربّي واللقاءُ ضُحى
فمُرْ بربّكَ حادي العيسِ أن يقفا

أوّاهُ من قسوةِ الحادي وغلطتِهِ
كأنه مَا درَى الإنصافَ أو عرفَا

فهل درَى أنها عادتْ تخاطبني
بآلةِ البرقِ تبدي لومَها صَلَفَا

تقولُ ما لي وللحادي يمانعُنا
صفوَ الحياةِ وقد جَرَّ الهوى شَظَفَا

[الديوان، 86]

وأضفت تقنية الحوار حيوية وتدفقاً.

لم تغب ملامح الغزل العذري عن أشعار الوائلي، فقد برزت في الكثير من جوانبها، وتتجلى أبرز ملامح هذا اللون في وصفه معاناة الحب وما يقاسيه من آلام هي محببة إلى نفسه رغم قسوتها، وهو يشير إلى تفرّد الحبيبة بقلبه، وإلى رفضه البديل عنها: [الطويل]

ولن عذابي في هواها مُحبّبٌ
إليَّ وما لي غيرها من مُشاطرِ

[السابق، ص58]

ويصف الألم والسهد وما يتكبّد من دموع جرّاء ذلك الحب، فينادي الحبيب البعيد، ويصف له لوعته وأساه بسبب النوى فتطفو مسحة رومانسية: [الطويل]

أنا الصبُّ إنْ شَطّتْ ركابي وإن دنتْ
حقك ما مرَّ السلوُّ ببالي

وهانذا انشفتْ دمعي بزفرتي
أكافحُ نيرانَ الجوى وأُصالي

وأهتفُ في نومي وأصحو مناديا
بإسمكِ ماذا يا بثينُ جَرَى لي

أُعددُ ساعاتِ الدجى ثم انثني
أُراعي بياضَ الصبحِ حينَ بدا لي

[السابق، ص16]

ويصف تأزمه واشتداد الجوى عليه، والتباس الأمور وفقدان القدرة على التمييز وعدم استساغته الطعام والشراب: [مجزوء الرمل]

أنا لا أدري بشهري
كيف ولّى ثم عادا

أنا في اليقظةِ أم في
النومِ عقلي يتهادى
بُعْدُها أَضْنَى فؤادي
هل تعيران فؤادا
آه يا ريّاءُ لو خُيِّرتُ
ما اخترتُ البعادا
حَالَ من بُعدِك نومي
صرتُ لا أهوى الرقادا
لا أسيغُ الماءَ في شربي
ولا أُطعمُ زادا
أمضغُ الأكلَ ولكنْ
لا أرى فيه مرادا

[السابق، ص112]

لقد ألهبت العاطفة أحاسيسه ورققت مشاعره، فحين يتعذر اللقاء يستحضر الحبيب بخياله ويستعطفه ويلين ويستسلم، ويتصور مصافحته بقلبه ووجدانه: [الطويل]

يمثّلُ مَنْ أهوى خيالي لمقلتي
فأعطفُ رأسي في خضوعٍ وإجلالِ
وإن هَبَّ شرقيُّ النسيمِ وجدتني
أُصافحُهُ مستنشقاً نَشْرَهُ الغالي
بقلبي وما قلبي عليَّ بهيِّنٍ
زمانٌ مَضَى لم يستقرَّ على حَالِ

[السابق، ص68]

لقد تميّز أغلب شعره بصدق العاطفة فأنتج غزلاً فيه الكثير من الرقة والعذوبة. ومع أن أكثره يدور في إطار الوظيفة التقليدية، إلا إن النسيج الشعري فيه ينبض بالحيوية والتدفق، ويغلب على أجوائه فرحة اللقاء وسعادة الحب.

ويشكّل الوطن بأبعاده المختلفة من أهل وربوع وديار العنصر الثاني في تجربة الوائلي الشعرية. وقد كان شديد التعلق ببلاده خاصة عندما تطول الغربة ويزداد البعد عن الديار. ويتجلّى ذلك في تصريحه بذلك الحب، والهيام الذي كان يتحوّل إلى مناجاة: [الطويل]

أحبُّ بلادي وهي أسمى مقاصدي
وصفوةُ شوقي بينَ تلك المعالمِ
إذا شمتُ برقَ العزِّ همتُ بعزّها
وعدتُ أناجيها بصدقِ العزائمِ

[الديوان، ص173]

وحين تشط به النوى ويطول الغياب يضنيه البعد، ويسبب له ضغطاً نفسياً. يقول في قصيدة يتذكر فيها أسرته ودياره ويشكو ألم الغربة: [الطويل]

رَعَى اللهُ عيناً كلما هَجَعَ الورى
رَعَتْ سارياتِ الأفقِ حتّى تولّتِ
وقلباً بنيرانِ الأَسَى ضارباً على
دخائلِ هَمٌّ في الضميرِ استكنّتِ

[السابق، ص50]

ومثّلت العودة للوطن والعيش في أحضان الأهل أعزَّ أمانيه وغاية مطالبه: [الطويل]

إذا كَانَ للناسِ اجتماعٌ وفرحةٌ
وأُنسٌ ففي البحرينِ أُنسي وفرحتي

[السابق، ص50]

وحين يتعذر عليه الرجوع كان يدعو له بالسقيا كالأقدمين لتحيا مرابعه وتخصب الحياة فيه فيتألق في جنان الشاعر ويزهر: [الطويل]

سَقَى معهدَ اللذاتِ في جانبِ الحِمَى
حَيَا كلُّ لمَّاعِ البوارقِ هَطَّالِ
واخصبَ مرعاهُ وأزهَرَ دوحُهُ
وغنَّتْ به الورقاءُ في الغُصْنِ العالي
وعادتْ لياليه التي قد عهدتُها
لأطرحَ عن نفسي همومي وأوجالي

[السابق، ص67]

وتحت تأثير التعلّق والشوق خاطب البرق وساءله عن مروره بالبحرين، وعن مدى جوده على أراضيها لتنعم بالخصب والخير: [الطويل]

لك اللهُ يا برقَ السحائبِ قُلْ متَى
مررتَ على «البحرين» باليمن والرشدِ
هل انهلَّ من مجراكَ سَحّاً بساحةٍ
قد اشتهرتْ بالفضلِ والنائلِ العَدِّ

[الديوان، ص162]

وبدافع مصلحة الوطن والحرص على رؤيته مكرّماً معززاً تبنّى أفكاراً إصلاحية تحررية، فدعا إلى التخلص من ربقة الاستعمار والتبعية، ووجّه خطاباً لوطنه عاتبه فيه ودعاه إلى عدم الاستسلام وإلى التشبث بالحقوق المشروعة في الحرية والاستقلال، كما فعلت الشعوب الأخرى: [الكامل]

وطني أفي هذا الزمانِ وبعدما
نهضتْ رجالُ الشرقِ بالأعباءِ
وتخلّصوا من كلِّ غُلٍّ أثقلَ الـ
أعناقَ واستولَى على الأعضاءِ
نمسي ونصبحُ خاضعين وما لنا
من ملكنا شيءٌ سوى الإطراءِ
فيمَ السكوتُ وقد تَشَبَّثَ غيرُنا
بحقوقِهم في سائرِ الأنحاء

[السابق، ص166 ـ 168]

وحين لم يجد أذناً صاغية لندائه هجر وطنه واعتذر عن ذلك الهجران رافضاً العيش الذليل الذي يورثه الأرق ويفقده لذة العيش: [الكامل]

وطني العزيز لقد هجرتُكَ مكرهاً
وهجرتُ فيكَ مطارحي ووسادي
لا عن قِلًى مني ولا عن رغبةٍ
في غيرِ أجبالي وغيرِ وهادي
لكنَّ نفساً حرةً نشأتْ على
سُننِ العلا حجبتْ عليَّ رقادي

[الديوان، ص184]

وكانت رغبته في النهوض بوطنه قوية، ومن ثم تبنّى آليات عملية لبنائه بناءً راسخاً وحقيقياً، فدعا ولاة الأمر إلى إنشاء المعاهد ونشر العلم بين الشباب لأنهم عماد المستقبل. والعلم في نظره هو مفتاح التقدّم، وهو الاستثمار الأمثل للوطن فليغذ به عقول النشء: [البسيط]

هذي شبيبتُكم جاءتْ طلائعُها
فيها سُيُوفٌ وأتراسٌ ومرّانِ
فهذّبوهم بنشرِ العلمِ فهو لهم
حصنٌ منيعٌ إذا لم تغنِ حيطانُ

وكلُّ ما قد بذلتُم في ثقافتهم
ربحٌ على صفحاتِ الدهرِ يزدانِ

[الديوان، ص165]

واتسعت طموحات الوائلي لتشمل الأمة العربية، فرغب في تحقيق وحدة كلمتها كما عمل على رقيها. فوجّه دعوته لأبنائها لنبذ التخاصم وتجاوز الفرقة، والتوجّه نحو العمل المجدي، والناجع والتطلع نحو الرفعة، وإنفاق المال في سبيل خير الأوطان: [الرمل]

يا بني العربِ افيقوا ما لكم
تتناجون بلومٍ وتَلاحِ؟
كثرةُ الأقوالِ لا تنفعُكم
إعملوا فاللهُ يهدي للنجاحِ
ساهموا في هذه الدنيا فَمَنْ
سَلَكَ القَصْدَ حقيقٌ بالفلاحِ
وخُذوا آراءكم واجتمِعوا
وابذلوا المالَ وجودوا بسماحِ

[السابق، ص41]

ويعُد طرح الوائلي لقضايا الواقع السياسي والاجتماعي منزعاً جديداً في موضوعاته الشعرية فيه ومضات من المدرسة الواقعية.

ومن المضامين المألوفة التي طرقها الوائلي موضوع الفخر. فقد فخر بنسبه العربي العريق: [الرمل]

أنا في أعلَى الذرَى من وائلٍ
فاسألي عنّي جميعَ العَرَبِ

[السابق، ص90]

وفخر بخصاله وبما له من قيم أخلاقية: [الكامل]

وهبَ الإلهُ ليَ الثباتَ فكانَ لي
قبساً يزيدُ على سَنَا المصباحِ
أنا ثابتٌ والفوزُ من أُمنيتي
ومطيَّتي في غدوتي ورواحي
انا صابرٌ حتى افوزَ بمطلبي
واحوزَ حقّي رغمَ عَذْلِ اللاحي

[السابق، ص198]

وفخر بقومه وأسرته ونوّه بعراقة أصلهم وتغنّى بمآثرهم: [الطويل]

أولئك قومٌ من ربيعةَ في الذرى
وفي هامِها لا في ذراعٍ ولا عَضْدِ
خليفيَّةٌ تُعزَى لعنصرِ وائلٍ
هُمُ القومُ في فضلٍ وفي السنِ لُدُّ
وهم يمنعونَ الجارَ من كلِّ معتدٍ
وهم ينزعون الثارَ بالصارمِ الهندي
وهم يبذلون المالَ فضلاً لأنهم
يهينونَ حُرَّ المالِ في طلبِ الحمدِ

[السابق، ص161 ـ 162]

وفي ثنايا الفخر سرت في أعطاف شعره نزعة تاريخية ذات صبغة قصصية. يقول وقد جرّد في حديثه امرأة خاطبها في قصيدة استوحى فيها بائية الشاعر العباسي مهيار الديلمي (ت 428هـ/ 1036م)، وسرد فيها تاريخ أسرته سرداً في نغمة غلب عليها الفخر: [الرمل]

فاسألي عن تغلبٍ ماذا حوتْ
برُبَى دجلةَ أو في حَلَبِ
ثم هاجرنا إلى البحرِ فكمْ
قد تبوَّأنا به من منصبِ

ونـزلـنـا شـاطـئـاً مـن قـطـرٍ
وغـمـرنـا اهـلَـهُ بـالـطـيِّـبِ

ودفـعـنـا عـنـهـمْ بـلـواهُـمُ
هـكـذا تُـدفـعُ سُـودُ الـكُـرَبِ

جـاءنـا نَـصْـرُ بـنُ مـذكـورٍ وقـد
نَزَعَـتْ اعـوانُـهُ فـي الـيَـلَـبِ

فَـقَـتَـلْـنـاهـم ونَـكَّـلْـنـا بـهـم
عـنـدمـا فَـرَّ فِـرارَ الـثـعـلـبِ

ثـم فـاجـانـا «أوالُ» عُـنـوةً
فـمَـلَـكْـنـاهـم بـبـيـضِ الـقُـضُـبِ

[السابق ص91]، وأوال هو الاسم القديم لجزر البحرين.

على المستوى الفني مال الوائلي إلى التحرّر من بعض مظاهر الفن الشعري القديم فكان يستهل الكثير من قصائده بموضوع الوطن فبدا تعويضاً عن المقدمة الطللية في الكثير من الأحيان. كما انسمت جلّ أشعاره بالوحدة الموضوعية بسبب تمحور القصيدة حول موضوع واحد، وساعد على إبراز تلك الوحدة السياق القصصي والسردي وعلى الخصوص في القصائد ذات المنحى التاريخي والاجتماعي. [الهاشمي، شعراء البحرين المعاصرون، ص35].

على مستوى البنية الإيقاعية جاء ذوقه مختلفاً نوعاً ما عن الأقدمين الذين يأتي وزن الطويل في مقدمة أوزانهم. فورد وزن الكامل في المرتبة الأولى تلاه الطويل في المرتبة الثانية، فالبسيط فالرمل فالوافر فالخفيف فالسريع فالمتقارب فالرجز [المنصور أنيسة، شعر البحرين من القرن السابع عشر إلى الثلث من القرن العشرين ص416؛ الهاشمي شعراء البحرين، ص37]. ويلحظ ميله إلى استعمال البحور القصيرة خاصة مجزوءات الأوزان؛ فاستخدم مجزوء الكامل والرمل. كما استخدم قوافي مقيدة وفي هذا ملمح تجديدي.

ومال إلى إغناء موسيقى الإطار بموسيقى الحشو فاستخدم العديد من فنون البديع، وبشكل معتدل، مع نزوع إلى التحرّر من قيود مدرسة البديع، وأكثر ما ورد من فنونها.

الجناس: ويأتي ملتحماً بالكلام ومن غير نتوء. والجناس التام أتى قليلاً ومنه قوله: [الطويل]

وعفرُ الظبا يصطادُها كلُّ عاجزٍ
وبيضُ الظبا يستلُّها كلُّ قاصرِ

فالظبا الأولى مفرد ظبية وهي نوع من الغزال وكنّى بها عن المرأة الجميلة، والظبا الثانية مفرد ظُبّة وهي حدّ السيف. وخدم الجناس المعنى إلى جانب الموسيقى، فأوجد تكاملاً بين القوة المادية والقوة المعنوية وجعلهما مخترقتين من قبل من هو عاجز وقاصر، وبدا الشاعر قادراً على توظيف الجناس. وأكثر ألوان الجناس استخداماً الجناس غير التام، ومنه المضارع وهو ما اختلف فيه لفظا الجناس في حرفين بينهما تقارب في المخرج كقوله مجانساً بين اسمين: [الكامل]

يا بـهـجـةَ الـنـادي وجـوهـرَ حُـسْـنِـهِ
وخـلاصـةَ الـوادي وروحَ هـوائـه

[الديوان، ص145]

وقوله مجانساً بين فعلين: [الكامل]

ريمية اللفتات أمّا خدُّها
فالوردُ لاحَ وفاحَ من اكمامِهِ

[الديوان، ص36]

وأكثر ألوان الجناس وروداً اللاحق وهو ما اختلف فيه اللفظان في حرفين متباعدين مخرجاً كقوله مجانساً بين اسمين: [الكامل]

نَزُّ فيكَ الغيثُ يا نادي المُنَى
وحَمَاكَ الليثُ يا ذَاكَ الصُّوى

[الديوان، ص187]

وقوله مجانساً بين فعلين: [الكامل]

أوّاهُ ما لي في النصائحِ حاجةٌ
والسمعُ عَجَّ وضجَّ من لُوَّامِهِ

[الديوان، ص63]

وقد ترد المجانسة بين لفظين مختلفين أحدهما فعل والثاني اسم: [البسيط]

قِفا بحقِّ الوفا في سفحِ لبنانِ
وحدِّثا عن صباباتي واشجاني

[الديوان، ص22]

وقد تقع المجانسة بين ثلاثة ألفاظ فتزداد الموسيقى وتشتد: [الكامل]

وبقيتُ منهوكَ القوى رهنَ الجوى
يا للنوى كم قد أطَالَ وقصَّرا

[الديوان، ص46]

كما يرد الجناس الناقص وهو ما اختلف فيه اللفظان في عدد الحروف، وقد تقع الزيادة بحرف واحد: [الكامل]

حوراءُ لو لحظَ العذولُ لحاظَها
لأتى برأيٍ في القضية ثاني

[الديوان، ص23]

وقد تقع الزيادة بحرفين ومنه قوله مجانساً بين اسمين: [الرمل]

لا تلاحِ وَلِهاً صَبًّا ابيًا
انا إلفُ الشوقِ مُذْ كنتُ صبيًا

[الديوان، ص120]

ومما جانس فيه بين اسم وفعل: [الطويل]

انا الصبُّ أدْرَى بالذي قد اصابَهُ
فهل أحدٌ أدْرَى بشوقي واحوالي

[الديوان، ص67]

وقد تقع الزيادة بين اللفظين بثلاثة أحرف ومنه ما أتى فيه لفظا الجناس متجاورين في صدر البيت: [الرمل]

هي راحي وانشراحي وبها
كلُّ افراحي بكوراً وعَشيًا

[الديوان، ص120]

وقد يقع اللفظان متجاوربن في عجز البيت وهو الغالب: [البسيط]

لا خيرَ في الحبِّ إن لم يبنِ منزلةً
قلبانِ إلفانِ في روحٍ وريحانِ

[الديوان، ص154]

ويساعد التجاور بين اللفظين على زيادة جرعة الموسيقى.

التصدير: وهو تكرار اللفظة أو مشتقاتها، وتقع الأولى في أي موضع من البيت، والثانية

موضعها قارّ وهو نهاية البيت الشعري. ومما وزعه الوائلي على شطري البيت وأتت اللفظة الأولى في بداية الصدر: [البسيط]

خالينَ من بهجةِ الدنيا وزينتِها
كأنهم خُلقوا في العالمِ الخالي

[الديوان، ص204]

ومما أتت فيه اللفظة الأولى في حشو الصدر: [مجزوء الكامل]

وأنا المطيعُ لها رَضا
وهي المحكمُ والمطاعْ

[الديوان، ص144]

وقد تأتي اللفظة الأولى في موضع العروض: [الطويل]

كأنّ الثريا حفنةٌ من جواهرِ
على حرفِ دالٍ من نقيِّ الجواهرِ

[الديوان، ص9245]

وقد يأتي اللفظ الأول في أول العجز: [الرمل]

أملاكٌ أم من الحورِ أتتْ
عجبي من مقلتيها عجبي

[الديوان، ص89]

ويميل الوائلي إلى إيراد اللفظين المكررين متجاورين في مجال القافية والإتيان بهما متجانسين فتعلو الموسيقى، ومن الجناس التام قوله في قصيدة بعنوان «الرسالة المرتقبة»: [الطويل]

أُمتّعُ طرفي في رياضِ سطورها
وأعتاضُ عن كأسِ الطلا بطلاها

[الديوان، ص71]

ومن الجناس الناقص وهو الأكثر وروداً: [الرمل]

أصدقي القولَ بفعلٍ واتركي
كلَّ زورِ القولِ من حامٍ وسامْ

[الديوان، ص256]

التقطيع: وهو تكرار وحدات متناغمة صوتيًا ضمن البيت الشعري. وأكثر ما ورد التقطيع الثلاثي، وقد يبنيه على جمل اسمية خبرها شبه جملة: [الكامل]

(السحرُ في الحاظِها) (والسكرُ في
الفاظِها) (والظَّلْمُ مِسْكُ ختامِهِ)

[الديوان، ص64]، والظلم ماء الأسنان وبريقها.

وقد يبنيه على جمل اسمية مبتدؤها محذوف، ويكرر التقطيع ضمن بيتين، ويجعل بعض الأخبار مشددة فتزداد الموسيقى وتعلو: [البسيط]

(سهلُ الخليفة) (فصّالُ الوهيقةِ)
(قوّالُ الحقيقةِ) في عسرٍ وفي يسرِ
(جَمُّ المكارمِ) (منّاعُ المحارمِ)
(خوّاضُ الملاحمِ) إن شدُّوا على الأزرِ

[الديوان، ص178]

وقد يأتي التقطيع رباعياً ويجعل الخبر جملة فعلية أفعالها متجانسة فتعظم الموسيقى: [البسيط]

(الإلفُ خالفني) (والسهدُ حالفني)
(والوجدُ ألفني) (والصبرُ أعياني)

[الديوان، ص152]

وقد يأتي الخبر مفرداً مع المجانسة بين الألفاظ: [البسيط]

(فالعينُ حائرةٌ) (والرجلُ خائرةٌ)
(والنفسُ مائرةٌ) (والقلب قد وجفا)
[الديوان، ص87]

وقد يرد التقطيع سداسياً وهو قليل: [البسيط]

يا دار أُنسي وإسعادي وأُمنيتي
وراحتي وصباباتي واوطاري

[الديوان، ص81]

لقد استطاع الوائلي في الكثير من الأحيان توظيف البديع فجعله قادراً على خدمة البناء الفني والفكري. ولم يظهر التكلف البديعي بارزًا في شعره إلا في النادر وبدت لغته أقرب إلى الصفاء والوضوح.

وعلى أية حال مثّل الوائلي بأصالة شعره ومنطلقاته التراثية، ثم محاولة ارتياد آفاق جديدة، نقطة مضيئة في فضاء البحرين الشعري.

آثاره

ـ ديوان الوائلي، صدر في طبعتين: الأولى في 1975 أشرف عليه «الشيخ عيسى بن راشد آل خليفة» (شاعر وأمير من البحرين)، وراجعه وشرح ألفاظه «العوضي الوكيل» (شاعر وأديب مصري). وصدر بمقدمة ضافية عن حياة الشاعر، وأدرج ضمنه كل ما عثر عليه من شعر. وبلغت أبياته حوالي ألف وتسعمائة بيت تقريباً، وطبع في «مصر» في المطبعة العالمية.

الطبعة الثانية: بتحقيق د. علي أبا حسين، وصدّر بمقدمة موجزة. وأضيفت إليه الكثير من الأشعار، ورُتّبت قصائده بنفس الترتيب في الإصدار الأول مع تغيير بعض عناوين القصائد. وطبع في مطبعة وزارة الإعلام بالبحرين عام 1987.

المصادر والمراجع

● الأنصاري، محمد جابر، لمحات من الخليج العربي، الشركة العربية للوكالات والتوزيع، البحرين، 1970، ط1، ص163؛ ● الخليفة، الشيخ محمد بن عيسى بن علي آل خليفة، ديوانه، تح. د.علي أبا حسين، المطبعة الحكومية، وزارة الإعلام، البحرين 1987، صفحات متعددة؛ ● الطائي، عبد الله، الأدب المعاصر في الخليج العربي، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة 1974، ص208 ـ 211؛ ● المنصور، أنيسة، شعر البحرين من القرن السابع عشر إلى الثلث الأول من القرن العشرين، أطروحة دكتورا دولة بصدد النشر، ص416؛ ● الهاشمي، علوي، شعراء البحرين المعاصرون، نشر المؤلف، البحرين 1988، ص33 ـ 38؛ ● الوائلي، ديوان الوائلي الشيخ محمد بن عيسى آل خليفة، إشراف الشيخ عيسى بن راشد آل خليفة، مراجعة وتصحيح العوضي الوكيل، المطبعة العالمية، القاهرة 1975، صفحات متعددة.

د. أنيسة أحمد خليل المنصور
كلية الآداب ـ جامعة البحرين

ابن خليل الدمشقي، أبو الحجاج يوسف

(555هـ/1160م - 648هـ/1250م)

هو يوسف بن خليل بن قراجا بن عبد الله، شمس الدين أبو الحجاج الدمشقي ثم الحلبي [ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 5/ 243؛ كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، 13/ 297؛ الزركلي، الأعلام، 8/ 229] كان فقيها على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، محدّثا، حافظا، مؤرّخا.

ولد وتعلم وتفقه بدمشق، واشتغل بالكسب إلى أن بلغ الثلاثين من عمره، ثم شرع في طلب الحديث النبوي الشريف، وكانت له رحلات عديدة بعدة أقطار وبلدان، منها بغداد، وأصبهان، ومصر، وحلب التي استوطن بها في آخر عمره ونشاطه، وقد تصدر بجامعها [كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، 13/ 297؛ الزركلي، الأعلام، 8/ 229؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 5/ 243].

كان أوسع معاصريه رحلة وأكثرهم كتابة، وجمع لنفسه «معجما» عن أزيد من خمسمائة شيخ، و«الثمانيات»، وكتب بخطه كثيرا [الزركلي، الأعلام، 8/ 229].

كان إماما، حافظا، ثقة، نبيلا، متقنا، واسع الرواية، جميل السيرة. قال ابن ناصر الدين: كان من الأئمة الحفاظ المكثرين الرحالين، بل كان أوحدهم فضلا وأوسعهم رحلة وكتابة ونقلا. وقال ابن رجب: تفرد في وقته بأشياء كثيرة عن الأصبهانيين. وسئل الصريفيني عنه فقال: حافظ ثقة عالم بما يقرأ عليه لا يكاد يفوته اسم رجل [ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 5/ 243 - 244]. وفضلا عن علمه وحفظه، فقد كان طيب الأخلاق مرضي الطريقة، متقنا ثقة [ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 5/ 244].

سمع بدمشق من ابن أبي عصرون، وابن الموازيني، وغيرهما، وسمع ببغداد من ابن كليب، وابن بوش، وغيرهما، وسمع بأصبهان من ابن مسعود الحمال وغيره، وسمع بمصر من البوصيري وغيره، وتخرج بالحافظ عبد الغني واستفرغ فيه وسعه، كما حدّث بالكثير من العلماء والمحدثين [كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، 13/ 297؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 5/ 243]

سمع منه البرزالي، وابن الأنماطي، وابن الدبيثي، وابن نقطة، وابن النجار، والصريفيني، وعمر بن الحاجب، وغيرهم. قال الذهبي: روى عنه خلق كثير، آخرهم بالإجازة زينب بنت الكمال [ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 5/ 243؛ كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، 13/ 297؛ الزركلي، الأعلام، 8/ 229].

توفي بمدينة حلب بسورية في شهر جمادى

الآخرة سنة 648 هجرية، ودفن بظاهرها [كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، 13/ 297].

آثاره

1 ـ التاريخ (جزء فيه من عوالي حديث هشام بن عروة)؛ 2 ـ فوائد في الحديث [كحالة، معجم المؤلفين، 13/ 297؛ الزركلي، الأعلام، 8/ 229]؛ 3 ـ الفوائد العوالي الصحاح، [مخطوط بدار الكتب 1/ 136؛ الزركلي، الأعلام، 8/ 229].

المصادر والمراجع

● الزركلي خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، طبعة عاشرة، سبتمبر 1992؛ ● ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح. لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، مكتبة المثنى، بيروت، و دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان .

نور الدين مختار الخادمي
جامعة الزيتونة ـ تونس

ابن الخليل، عبد الله بن عمر الصوفي

(ت 1196هـ/1782م)

عبد الله بن عمر بن خليل، والمعروف باسم عبد الله الصوفي اليمني.

ولد عبد الله بن عمر في اليمن، وكان عابدا زاهدا عالما بالمنطق والحساب والهندسة والفلك.

توفي في اليمن سنة 1196هـ.

المصادر والمراجع

● البغدادي، إسماعيل، هدية العارفين، 1/ 485؛ ● حميدان، زهير، أعلام الحضارة العربية الإسلامية، وزارة الثقافة، دمشق 1996، 6/ 155؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، 4/ 250؛ ● العزاوي، عباس، تاريخ علم الفلك في العراق، مطبعة المجمع العلمي العراقي1958م، ص 338.

د. محمد هشام النعسان
معهد التراث العلمي العربي
حلب ـ سوريا

الخليلي، أبو عمران موسى بن محمد بن عثمان

(ت 808هـ/1402م)

أبو عمران شرف الدين موسى بن محمد بن عثمان الخليلي الفلكي.

ولد في مدينة دمشق ولا يعرف تاريخ ولادته. وأخذ العلوم الفلكية عن علماء عصره، ومالبث أن أتقنها وأبدع فيها. وقد جاء في فهرس مخطوطات مكتبة الأسكوريال [2/ 3/ 42 ـ 43] أنّ الخليلي هو ابن أخت وتلميذ مؤذن الجامع الأموي بدمشق شمس الدين محمد بن محمد الخليلي. وفيما بعد أصبح الخليلي الموقت في الجامع الأموي بدمشق عندما أتقن هذه الصنعة.

توفي موسى بن محمد الخليلي في حوالي عام 808هـ/ 1402م.

آثاره

1 ـ العمل بالاسطرلاب؛ 2 ـ التلخيص في معرفة أوقات الصلاة وجهة القبلة عند عدم وجود آلات؛ 3 ـ رسالة في الربع المسطر بأرض دمشق؛ 4 ـ جدول فضل الدائر الافاقي؛ 5 ـ رسالة في الفلك.

المصادر والمراجع

● بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي، دار المعارف، القاهرة 1977، 2/ 157؛ ● البغدادي، إسماعيل، هدية العارفين، دار الفكر، بيروت، 2/ 480؛ ● حميدان، زهير، أعلام الحضارة العربية الإسلامية، دمشق 1996م، 4/ 443؛ ● ششن، نوادر المخطوطات في تركية، 2/ 120؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، 7/ 328.

- H. Derenbourg, les manuscrits arabes de l'Escurial Ta 2, p 4, Fa2, p 42.

د. محمد هشام النعسان
معهد التراث العلمي العربي
حلب ـ سوريا

خليل، ياسين عبد الله

(1358هـ/1939م - 1405هـ/1986م)

ولد الدكتور ياسين خليل عبد الله أستاذ المنطق وفلسفة العلم في بغداد يوم التاسع والعشرين من يوليو 1934 والتحق بمدرسة الفضل الابتدائية ومدرسة الغربية المتوسطة ثم المدرسة الإعدادية المركزية. وتخرج في القسم العلمي ثم أصيب بمرض جعله يتوقف لمدة عام عن الدراسة قبل التحاقه بقسم الفلسفة بكلية الآداب عام 1953، وتخرج بعد أربع سنوات بامتياز. حصل على منحة عام 1957 من مؤسسة التبادل الثقافي الألماني، فالتحق بجامعة مونستر بألمانيا الغربية لدراسة الفلسفة والمنطق الرياضي وتحول إلى الدراسة على نفقة حكومته. وحصل على الدكتوراه في يناير 1961 بدراسته «مبادئ عامة في التحليل البنيوي للغة» بإشراف بيتر هارتمان وهي الدراسة التي حلل فيها مبادئ اللغة مستخدما التحليل المنطقي مستفيدا بما قام به هلمسليف في الجبر اللغوي. وألقى وهو لا يزال طالبا محاضرة باعتباره رئيس رابطة الطلبة العرب بالجامعة عن «الإسلام وأوربا» ضمن محاضرات وحلقات دراسية عن تاريخ البلدان العربية وحضارتها، ومحاضرة ثانية عن علاقة المنطق بالرياضيات 1958. وبعد تخرجه التحق للعمل بمعهد اللغة بجامعة مونستر 1961، وألقى بحثا بعنوان السيميوطيقا كأساس للدراسات اللغوية.

عاد إلى وطنه وعين في الخامسة من نوفمبر عام 1961 مدرسا للفلسفة والمنطق الرياضي بآداب بغداد، ونشر عام 1962 بحثا عن «منطق اللغة: نظرية عامة في التحليل اللغوي» وهو من البحوث المبكرة في اللغة العربية في هذا المجال، وبحثا آخر حول «نظرية التعريف والدراسة العلمية» 1963 ومحاضرة في جمعية المؤلفين والكتاب عن «الشباب والتيارات الفكرية» إبريل 1963. وظهر كتابه «نظرية أرسطو المنطقية» 1964 الذي ناقش فيه منطق أرسطو في ضوء إنجازات المنطق الحديث. وكتب عن «المنطق والرياضيات» والقسم الأول من بحثه نظرية جوتلوب فريجة المنطقية سنة 1965 «عن المنطق واللغة» وألف كتابه «القومية الاشتراكية» في نفس العام.

رقي إلى درجة أستاذ مساعد سنة 1965 كما عمل رئيسا لتحرير جريدة الثورة العربية واختير رئيسا للجنة المؤتمر السياسي الأفروآسيوي في باندونج بنفس العام.

آثاره

أصدر كتبا ثلاثة حول: «المفاهيم القومية والاشتراكية»، و«مفهوم التطبيق الاشتراكي» و«دوافع التطبيق الاشتراكي» ونشر سنة 1966 كتابه «الايديولوجية العربية» والقسم الثاني من نظرية فريجة المنطقية عن الطريقة في المنطق. واتجه نحو الفلسفة المعاصرة فكتب عن:

«الذاتية الانتخابية» ناقش فيه فلسفة أرثر ادنجتون، وعن «المثالية الرياضية» ناقش فلسفة السير جيمس جينز وثالث عن «الصيرورة والطبيعة» حول فلسفة وايتهيد. وعمل وزيرا لرعاية الشباب 66 ـ 1967 ثم أمينا عاما للجامعة 1967 ونشر الجزء الثالث من «نظرية فريجة المنطقية: الأفكار الأولية في المنطق» و«الذرية المنطقية» ثم عين وزيرا للشباب ثانية 67 ـ 1968 وأعير إلى ليبيا 1969 ـ 1971.

اهتم بالفلسفة المعاصرة والاتجاهات التجريبية في المعرفة العلمية. ونشر عام 1970 كتاب «مقدمة في الفلسفة المعاصرة» وهو دراسة تحليلية ونقدية للاتجاهات العلمية في فلسفة القرن العشرين في ثلاثة أقسام، الأول: الفلسفة التحليلية عند فريجة ورسل وفتجشتين، والثاني فلسفة الفيزياء عند نيوتن وانيشتاين وبلانك وجيمس جينز وادنجتون ووايتهيد، والثالث فلسفة التجريبية المنطقية خاصة عند كارنانب. ونشر في العام التالي كتاب «منطق المعرفة العلمية» ويمثل الجزء الأول من عمله «نظرية العلم» وهو محاولة فلسفية تهدف إلى ربط الفلسفة الاصطلاحية بالفلسفة الشكلية مع الاهتمام بالموقف التجريبي في المعرفة المعاصرة وهو يناقش دور المنطق في المعرفة العلمية والبناء المنطقي للمعرفة التجريبية والعلوم البرهانية.

رقي عام 1972 إلى درجة أستاذ وقدم في نفس العام مشروع إنشاء مركز إحياء التراث العلمي العربي الذي تحقق بالفعل 1977 وعمل رئيسا له وقدم في هذا المجال العديد من الأعمال في تاريخ العلم العربي. شارك في فبراير 1974 في المؤتمر العلمي الثاني للجمعية العراقية للفيزياء والرياضيات ببحث حول «الطريقة البديهية في المنطق والرياضيات والفيزياء النظرية». وأصدر في نفس العام الجزء الثاني من كتابه نظرية العلم بعنوان «منطق البحث العلمي» ناقش فيه أصول الفكر العلمي وقواعد العلم والمنهج التجريبي والشكل المنطقي للعلم وكان من المفروض أن يكمل بجزء ثان عن «منطق النظرية العلمية» ولم يتم ذلك.

نشر عام 1975 في مجلة «آفاق عربية» بحثه «المعرفة الإنسانية» وبحثه «دور الجامعات في الدول النامية» وبحثا ثالثا عام 1976 حول «نظرة الإنسان الشاملة في الكون» وتحول منذ 1977 عام افتتاح مركز إحياء التراث العلمي العربي وتعيينه رئيسا له إلى الاهتمام بالجوانب العلمية في تاريخنا الحضاري فنشر «خطة تأسيس مركز إحياء التراث العلمي العربي» وبحثا حول «المفهوم الحضاري للتراث العربي»، وأصدر عام 1979 عدة أعمال في هذا المجال منها كتابان «الطب والصيدلة عند العرب»، «التراث العلمي العربي» وبحثان هما: «منطق الخوارزمي في الجبر والمقابلة» و«منطق الحل» وكتابه «مقدمة في علم المنطق». وأصدر عام 1980 كتابه «العلوم الطبيعية عند العرب» وبحثه «العلوم على مذهب العرب» وبحثين آخرين عن «الموضوعية ووحدة الحقيقة» و«الطريقة العلمية في العلوم الطبيعية». ثم يواصل ياسين خليل عطاءه ويصدر 1981 كتابه «نظرية القياس المنطقية» الذي يعد امتدادا لكتابيه «نظرية أرسطو المنطقية» و«مقدمة في علم

المنطق». ويعين مرة ثانية رئيسا لمركز إحياء العلم العربي 1982 وينجز بحثه «منطق الحراني في التحليل والتركيب» الذي يبين فيه أسبقية العرب وفضلهم في استخدام طريقتي التحليل والتركيب في المنطق الهوروستيكي وأسبقية الحراني لديكارت في وضع قواعد منطقية لحل المشكلات العلمية في الهندسة والحساب. ويكتب عن «مسؤوليات الجامعات في العالم الإسلامي في القرن الخامس عشر الهجري» بمجلة معهد البحوث والدراسات العربية.

شارك في ندوة اللغة العربية والوعي القومي بالمجمع العلمي العراقي سبتمبر 1983 ببحثه «اللغة والوجود القومي» ونشر بحثا عن «تعريب التعليم الجامعي» وكتب عام 1985 في الجزء الثامن من موسوعة حضارة العراق فصلا عن «العلوم الصرفة» تناول فيها جهود العرب في مجال العلوم البحتة. وقدم عام 1968 بحثين في الاهتمامين الأساسيين اللذين شغل بهما طوال حياته الأول «المشكلة والطريقة» ناقش فيه المشكلات العلمية وطريقة معالجتها في فلسفة العلوم الرياضية والفيزيائية، والثاني «التجربة المختبرية في التراث العلمي العربي» موضحا جهود العرب في العلوم التجريبية خاصة عند ابن الهيثم، وجابر بن حيان، والبيروني، والخازني.

ويهمنا أن نشير إلى إسهام ياسين خليل الأساسي، الذي قدم تحت عنوان «نظرية العلم» حيث يرى فيه «منطق المعرفة العلمية» ضرورة توفر جهدا ينهض به العالم والفيلسوف معا لبناء نظرة متماسكة منطقية عن العالم، ولأنه يجمع بين الفلسفة والعلم ارتأى أن الفلسفة في مفهومها تتحول إلى نظرية العلم على أساس أنّ نظرية العلم تمثل البناء المنطقي والفلسفي للمعرفة. فليس المقصود بالفلسفة الميتافيزقا بل المعرفة العلمية والأسس العامّة لوحدة العلوم وعلى هذا تجمع نظرية العلم المجالات الثلاثة وهي نظرية المعرفة ومنطق البحث ووحدة العلوم صياغة علمية تمثل صورة عامة للطبيعة، ونظرية العلم.

يتمسك خليل باتجاه فلسفي واحد يعتمد الطريقة التحليلية البنائية من جانب والطريقة البديهية من جانب آخر فهو يبدأ بالأوليات والأفكار البسيطة، ثم يرتقي نحو المعقدات، وصياغة النظريات وبناء مستويات الأفكار، وتتضح الفروق الجوهرية بين العلوم الجوهرية والعلوم التجريبية، من خلال (تحليل) طبيعة الأفكار والقضايا فيها وتثبيت الشروط والقواعد، حتى يصبح التحليل في جوهره توضيحا وتعريفا وكشفا عن الطريقة التي تتوزع المادة تبعا لها. فنظرية العلم ليست علما يضاف للعلوم بل نظرية تحليلية للعلوم. أما الغاية التي تسعى إليها نظرية العلم هي تحقيق وحدة العلوم باعتبارها الهدف الذي كانت الفلسفة وما تزال تحاول تحقيقه عن طريق الدراسات المنطقية والتجريبية.

المصادر والمراجع

● العلاف، مشهد سعدي، الدكتور ياسين خليل سيرته وفلسفته وأعماله العلمية، بغداد 1988؛ ● الراوي، د. عبد الستار، خارطة الفكر الفلسفي العراقي المعاصر، تأملات أولى، في كتاب في الفكر العربي المعاصر، بيت الحكمة، 1999؛ ● عواد،

كوركيس، معجم المؤلفين العراقيين، بغداد؛ ● سماوي، جواد كاظم، الوضعية المنطقية في الفكر الفلسفي العربي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، 1990؛ ● الجابري، د. علي حسين، المشهد الفلسفي العراقي، أعمال ندوة الجمعية الفلسفية المصرية عن الفلسفة في الوطن العربي في مائة عام، نوفمبر 2000؛ ● يافوت، د. سالم، ياسين خليل والتراث العلمي العربي؛ ● الأعسم، د. عبد الأمير، دور ياسين خليل في الفلسفة؛ ● الناصر، د. حازم، مشروع نظرية العلم عند ياسين خليل، وتوجد هذه الأبحاث الثلاثة الأخيرة ضمن أعمال الندوة الفلسفية العربية الثانية، عمان الأردن، فبراير 2000م.

- Who's Who in the world 1971.
- Mam of Achievements 1977.
- The international who's who of intellectual 1978.

د. أحمد عبد الحليم عطية
جامعة القاهرة

الخليلي، جعفر

(1322هـ/1904م - 1404هـ/1983م)

ولد في النجف عام 1904م، في بيت علم وأدب وتولّى غير واحد من أسرته المرجعية الكبرى للزعامة الروحانية الشيعية. ودخل المدرسة العلوية، وهي أوّل مدرسة نجفية درست اللغات الحية إلى جانب اللغة العربية، وعالج الشعر وهو تلميذ لم يتعدّ التاسعة من عمره، وكان لدى والده مكتبة عامرة فتح عينيه على دررها. زاول الكتابة وهو في السادسة عشرة مراسلاً لجريدة «العراق» وجريدة «الاستقلال» ثم بدأ في ترجمة القصص من الفارسية ونشرها في الصحف العراقية. وتأثر بالعديد من الكتّاب وفي طليعتهم القصصي الفرنسي جي دي موباسان.

بدأ كتابة القصص منذ عام 1920 وقد استفاد من توجيهات أبيه السيد محمد الخليلي ومن تأييد أخيه عباس الخليلي. وعمل مراسلاً لمجلّة «الحيرة» النجفية عام 1927م.

أصدر عام 1930 جريدة «الفجر الصادق» وهي جريدة أدبية تجاوزت الأدب إلى السياسة، وأصدر جريدة «الراعي» عام 1934 ثم «الهاتف» عام 1935م.

وقد عنيت صحفه بالقصة القصيرة وتبنّت قيامها ودعت أول ما دعت إلى الأخذ بالترجمة، وأصدرت في كل سنة عددًا خاصًا بالقصة خلال عشرين سنة من عمرها، وإن كثيرًا من كتّاب القصة المعروفين نشؤوا فيها وعرفوا من خلالها، ومنهم صفاء خلوصي،

وعبد المجيد لطفي، بالإضافة إلى ذنون أيوب، وعبد الحق فاضل وغيرهم.

اشترك في الثورات التي قامت ضد المحتلّين بُعيد الثورة العراقية وهو لم يزل يافعًا، بكتابة مناشير على صورة صفحات صحيفة لإثارة الرأي العام ضد السلطة الأجنبية. وأوّل قصّة صدرت له هي «التعساء» عام 1922م. وبالإضافة إلى عمله كصحفي ومؤلّف، عمل في التعليم في الحلة والنجف وسوق الشيوخ والرمثية والكوفة، واستقال من وظيفته في السنة التي توفّي فيها والده، وكان مدرّسًا للتاريخ والجغرافيا في ثانوية النجف لمدة ثلاث سنوات. وحرص على القراءة بلغات أخرى ليوسع دائرة معرفته، فتعلّم الإنكليزية، والفارسية، وشيئًا من الفرنسية.

وقصص الخليلي كثيرة، وجميعها قصص تصوّر المجتمع فوتوغرافيا فهو ينقد المجتمع ويعرض عيوبه ويشخّص أمراضه وتناقضاته بأسلوب ساخر لاذع في سخريته، والقصة عنده أقرب إلى الخبر حينًا وإلى الحكاية حينًا آخر منها إلى القصة الغنية المكتملة العناصر. والخليلي يستطيع أن ينفذ إلى أعماق المجتمع العراقي بما أوتي من قدرة على الملاحظة العميقة، ويصوّر لنا مرض الانتهازية المتفشي بين ظهرانينا. ويقدم لنا صورًا من المجتمع العراقي المبني - حينذاك - على العادات والتقاليد الفاسدة.

كتب الخليلي القصة والأقصوصة والرواية، ولم تكن السياسة تهمّه بقدر ما تهمه معتقدات العامة، تلك المعتقدات التي رسخت في الأذهان كنتيجة لتغرير الدجالين أو لسوء فهم للشرائع الدينية، وللجهل المسيطر على العقول منذ عهد بعيد. والقصة عنده حادثة أو صورة اجتماعية لا مكان فيها لغير ذلك من دراسة أو عاطفة، ليس ثمة لحظة - مأزومة - ولا عاطفة تتطوّر وتسلط عليها أنوار التحليل ولا عقدة تدرس ردود الفعل الإنسانية معها. إنّ الخبر في القصة عنده كالخبر في الحياة له بعداه المكاني والزماني ولكنه لا يحتمل البعد النفسي، وله صدق في الواقع والحدوث ولكنه لا يحتمل الدلالة أو لا يمكن فصله عما قبله أو بعده ثانيًا، أي أنه لا يصل إلى درجة الحدث وإنّما يقف في الحياة وفي القصة عند حدود المادة الخام.

إنّ الصورة التي يرسمها الخليلي ليست مقصودة لذاتها وإنّما تستهدف شيئًا آخر هو النقد الاجتماعي، ومعنى ذلك أنّ الكاتب لا يكتب قصصه لمجرّد أنها تجارب شخصية من حياته وإنّما يكتبها ليتّخذ منها موقفًا معيّنًا من الحياة ويوجّهها إلى المجتمع، تنقده وتكشف مواضعاته الأخلاقية الكاذبة ورياءه البشع، أو تتعرّض الأقصوصة إلى عادات المجتمع بأسلوب فكه وتنقدها بروح ساخرة.

وقد استلهم الخليلي، حكايات عراقية شائعة في أحداث أقاصيصه أي أنه لم يكتف باستخدام عينه التسجيلية بل استخدم أذنه كذلك، كما في أقصوصة «الذكرى» التي تروي تشرّد أسرة لبنانية في الحرب العالمية الأولى، و «ماذا أكتب» التي يسيح فيها بعيدًا عن الواقع ويتكلّف فيها الأحداث وتعتمد على المصادفات وهي تشابه في غرابتها أحداث قصص ألف ليلة وليلة، ففيها تطلب امرأة من رجل في مكتب البريد أن يكتب لها

رسالة إلى زوجها فيعلق بها الرجل ويجن بها حبا ويلاحقها أنى تذهب حتى تكون نهايته على يد زوجها. وقد خلت الأقصوصة من أية فكرة أو غاية أو هدف غير رغبة الكاتب في كتابة حكاية طرقت مسامعه. وإذا كانت قصصه عادة تعتمد على الحدث المتكلّف والمصادفات الغريبة، فإنها لا تخلو من غلالة رومانسية تلفها وتجعلها تمتلىء أحيانًا بالعواطف الجيّاشة والخيال الجامح، وتكاد قدما الكاتب فيها تتعلقان بالهواء.

وأعمال الخليلي، حكايات وأخبار أريد بها غاية تعليمية تستمد منها العبرة والعظة، ويعتمد في صورة المفاجأة التي تلقيها لحظة التنوير حتى يكاد أول الأقصوصة لا يمتُّ بصلة إلى آخرها، وتنقلب فيها الشخصية إلى الضد بسرعة عجيبة ودون إلقاء الضوء على هذا التعبير بتطوير الشخصية حتى تصل إلى ما وصلت إليه من تغيّر وتبدّل.

وتتوفّر بعض أقاصيص الخليلي، على روح النكتة الناقدة للأفكار الخرافية المسيطرة على أذهان بسطاء الناس في العراق فقد التزمت بمبدأ الوحدة والانسجام، وارتبط الحدث بوحدة تشمله وتنظمه وتربط بين جزئياته المختلفة، وتفاعل الحدث بإيجابية مع الشخصية في إطار حياتها. ونكاد لا نعثر على تفصيل أو وصف أو خبر يؤدي دوره في خدمة الحدث الفني والشخصية وخير شهادة على هذا يتجسّد في قصّتي «البركة» و«من أين تؤكل الكتف؟».

والخليلي يعمد إلى التحليل في إبراز سلوك الشخصية وتطوّرها، ويسجّل أحداثًا خاصة لا يقدر على طرقها سواه وروحه الشعبية ظاهرة في اعتماده النكتة والمفارقة وخصوصية البيئة الدينية.

وتفصح بعض قصص الخليلي عن حس إنساني وتعمق في نفسيات الشخوص لكشف انفعالاتها وعواطفها وتفاعلها مع الحدث مثل «غفوة وانتباهة» و«كلبنا جيمي»، ورغم غلبة الجو المحلي على أقاصيص الخليلي وانتزاعه الصور من بيئته واستخدامه شخوصًا من مجتمعه إلّا أنه قد يخرج عن أجزاء أخرى تلمسها في سفراته وجولاته في لبنان وإيران والتعبير عن بيئة جديدة غير العراق.

إن الخليلي، واقعي المورد والصور التي تعرضها قصصه والتفصيلات التي يجري وراءها محتملة الوقوع كما نحس الصدق الجارح أحيانا في سطوره، ونستطيع أن نعرف بصورة عفوية أن بعض هذه الحكايات قد جرت فعلاً وهي مما يعرفه الناس. وفي سبيل الوصول إلى غايته النقدية وسخريته اللاذعة من تقاليد المجتمع وعاداته، يضحي بالشكل. فالشكل عنده يفقد قيمته ولا يبقى من قصصه بعد ذلك غير المصدر القصصي القديم ورواية الحادثة وراء الحادثة ونقل الخبر بالتتابع مع الزمن. فهو يملك مفهوما واضحًا محدّدًا نحو عمله القصصي وهو لا يهمّه هذا المفهوم، بل كل ما يهمه أن يصل في النهاية إلى غايته النقدية الإصلاحية.

وشخصيات الخليلي، بسيطة، قدرية لا تعقيد فيها ولا نوازع حادة تختلج في أعماقها، فهي تأتي على مستوى القضايا البسيطة العادية التي يعرض لها وحوادثها لا مبرر لها سوى ما تشير إلى أن الحياة نفسها تحفل بأمثالها وتزدحم بالعديد من المخلوقات الطافية التي

لا تزيدنا معرفة بطبيعتها ولا بخصائصها الإنسانية العميقة الأغوار. فالكاتب لم يكن معنيًا سوى بالسمات المادية الثابتة، وهو يهب الشخصية دائمًابعض اللمحات الخارجية دون التعمّق في داخلها أو تحليل عواطفها ونفسيتها، فهو يقف عندها في حدود نقل هيكله العظمي على صفحات الورق. وليس للشخصية عنده خصوصية فريدة تميّزها عن غيرها، بل هي مواقف عامة وأنماط بشرية لطبقات الشعب وفصائله العديدة، وهو يسجل بعين ذكية العادات والتقاليد.

وإذا كان الخليلي، أحد رواد القصة والأقصوصة في العراق، فإنه عن حق أحد الرواد في إبداع الرواية أيضًا. ويظن أن أهمّ أعماله الروائية، رواية «في قرى الجن» التي استعار لها جوًا غير واقعي تتحرّك فيه شخصيات كأجواء ألف ليلة وليلة، حيث تعج بالسحر والبخور والدراويش والعفريت الذي يصيح «البيك لبيك». وقد أمعن الكاتب فيها في الحديث عن نقائص الحياة التي عاصرها، وحاول أن يرسم مثلاً أعلى للحياة في السياسة والعمل والجن والقضاء، وكأنه يتحدّث عن مدينة فاضلة يصوّرها في قرى الجن. وتعد هذه الرواية وثيقة احتجاج أدبية على نظام حكم فاسد، يعيشه مجتمع مطحون لمجموعة من الحكام البعيدين عن أحلامه وأمانيه. وقد استعار المؤلف الجو من «ألف ليلة وليلة» ليتخلص من بطش الحكام وعقابهم فوراء البناء القصصي «في قرى الجن» نقد ودعاية وعرض لمشاكل العصر الانسانية من ناحية، ولجميع مظاهر الحياة في العراق من ناحية أخرى، مقارنًا إياها بما هو شائع ومتبع في قرى الجن. وقد خلق المؤلف من هذه القرى مدينة فاضلة، وضع لها أسسها كما فعل أفلاطون في «الجمهورية»، وتوماس مور في «اليوتوبيا» ... ووراء كل ذلك كانت رسالة الخليلي الأدبية في إبراز ما في القصص الشعبي من ممكنات قصصية، تتكيّف مع مقوّمات العصر وتياراته الفكرية المختلفة، ولا تقف هذه الممكنات عند حد المستوى المحلي الوطني والقومي، وإنّما ترمي إلى بلوغ المستوى الإنساني الرفيع بما لها من رسالة إنسانية ووراءها رسالة الكاتب السياسية العامة التي تعكس مجال الحرب العالمية الثانية، ووراءها رسالة الكاتب الاجتماعية، من حيث معنى الخير والشر، ومشكلات السياسة والحرب، وحتّى الديمقراطية ونظام الطبقات والحقوق الدستورية. وقد تفاعلت هذه العوامل مع مقوّمات فن الكاتب العامّة الأولى من نزعة للعناية بالعرض اللغوي الجمالي الذي تكثر في المترادفات اللفظية والمعنوية والتصوير الحسّي للمعنويات.

عد الخليلي كاتبًا من المرتبة الأولى، وكاتبًا كان بين أوائل الذين جعلوا القصة العراقية عصرية، وهو أديب متعدّد الاهتمامات، أنفق أكثر من ستين عامًا من عمره في فصول المعرفة، يكتب ويرفد ويتابع.. وقد كتب في الشعر والقصة والرواية والنقد والترجمة والتاريخ والجغرافية وكان مجموعة مواهب في مبدع واحد، تجلّت منذ السادسة عشرة من عمره حين أنجز كتابة قصته الأولى «التعساء» وقرأها الناس مطبوعةً سنة 1921م، وهو يرى «أنّ الفن هو التاريخ الحقيقي للبشرية، والكتابة عن الفقراء حب، وأن الكبت قد

دفعه إلى تطوير أداته في الكتابة وتحسين مقامه بين الأدباء، وهو يتهيّب من القصة، ويقول إن فنّ القصّة صعب وصعب جدًا، وربّما كان أصعب الفنون ويمتلك القدرة على استيعاب الصورة والشعر والمسرح.

توفّي الخليلي في الثمانينات في معسكرٍ للاجئين في إيران دون تحديدٍ لتاريخ وفاته.

آثاره

1 ـ التعساء، قصة، مطبعة العلوية، النجف، 1923م؛ 2 ـ السجين المطلق، قصة، مطبعة الراعي، النجف 1935م؛ 3 ـ يوميات، مذكرات قصصية، في جزئين، مطبعة الراعي، النجف 1935م؛ 4 ـ اعترافات، اعترافات قصصية، مطبعة الراعي، النجف 1937م؛ 5 ـ خيال الظل، قصة، مطبعة الراعي، النجف 1935م؛ 6 ـ مجمع المتناقضات، قصص، مطبعة الراعي، النجف، د.ت؛ 7 ـ الضائع، رواية، مطبعة الراعي، النجف 1937م؛ 8 ـ حديث السعلى، قصة، مطبعة الراعي، النجف، 1994م؛ 9 ـ حديث القوّة، قصص، مطبعة الراعي، النجف، 1942م؛ 10 ـ في قرى الجن، رواية، مطبعة الراعي، النجف، 1944م؛ 11 ـ من فوق الرابية، قصص، مطبعة الراعي، النجف، 1949م؛ 12 ـ تسواهن، شركة النشر والطباعة العراقية المحدودة، بغداد 1953م؛ 13 ـ أولاد الخليلي، قصص، دار المعارف، بغداد، 1955م؛ 14 ـ هؤلاء الناس، قصص، مطبعة الراعي، النجف، 1956م؛ 15 ـ القصة العراقية قديمًا وحديثًا، مطبعة الأنصاف، بيروت، 1962م؛ 16 ـ نفحات من خمائل الأدب الفارسي، منشورات قسم اللغة الفارسية وأدبها في الجامعة اللبنانية، بيروت، 1965م؛ 17 ـ كنتُ معهم في السجن، مطبعة المعارف، بغداد، 1956م؛ 18 ـ له تحت الطبع أعمال عديدة في الشعر والقصة والبحث والنقد الأدبي.

المصادر والمراجع

● جون توماس هامل، جعفر الخليلي والقصة العراقية الحديثة، أطروحة دكتوراه بالإنكليزية قدمت إلى جامعة ميشيغن، ترجمة وديع فلسطين، والدكتور صفاء خلوصي، مطبعة الدار العربية للطباعة، بغداد، د.ت؛ ● حمودي، باسم عبد الحميد، رحلة القصة العراقية، وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد، بغداد، 1980؛ ● في القصة العراقية، مطبعة اتحاد الأدباء، بغداد 1962م؛ ● الطالب، د.عمر، القصة القصيرة الحديثة في العراق، جامعة الموصل، 1979م، ● الفن القصصي في الأدب العراقي الحديث، الرواية في العراق، مطبعة النعمان، النجف، 1971م؛ ● أحمد، د. عبد الاله، نشأة القصة وتطوّرها في العراق، مطبعة شفيق، بغداد، 1969م؛ ● فهرست القصة العراقية، دار الحرية، بغداد، 1973م؛ ● سعيد، جميل، نظرات في التيارات الأدبية الحديثة في العراق، معهد الدراسات العربية، القاهرة، 1954م؛ ● سلوم، داوود، الأدب المعاصر في العراق، مطبعة المعارف، بغداد، 1962م؛ ● بطي، روفائيل، الأدب العصري في العراق، دار المعارف،

بغداد، 1943م؛ • العزاوي، عباس، تاريخ الأدب العربي في العراق، دار المعارف، بغداد، 1958م؛ • أمين، عبد القادر حسن، القصص في الأدب العراقي الحديث، مطبعة المعارف، بغداد، 1956م؛ • عز الدين يوسف، الرواية في العراق، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1973م؛ • الصائغ، د. عبد الاله، لقاء مع القاص جعفر الخليلي، مجلة الجامعة، العدد1، السنة الثالثة، تشرين الأول، الموصل، 1977م؛ • الأسدي، مشكور، رؤوس أقلام عابرة عن جعفر الخليلي، دار المعارف، بغداد، 1971م.

د. نجمان ياسين

الرئيس الأسبق لاتحاد الكتاب ـ العراق

الخليلي، شمس الدين محمد أبو عبد الله

(720هـ/1320م ـ 781هـ/1380م)

هو محمد بن محمود الخليلي شمس الدين أبو عبد الله، وفي رواية أخرى شمس الدين أبو عبد الله محمد بن محمد الخليلي المولود نحو سنة 720هـ/ 1320م والمتوفى سنة 781هـ/ 1380م، والأرجح أنه ولد وتوفي بدمشق ودرس فيها علم الفلك حين كان هذا العلم في بداية عهده بهذه المدينة. وقد عاصر الفلكي الشهير ابن الشاطر، وهناك ما يثبت أنه كان بدمشق عام 1365م. ولا تذكره كتب التراجم إلا نادرا على الرغم من أنه اشتغل كثيرا بعلم الميقات وعلم الفلك والهندسة الكروية Spherical geometry واهتم على الخصوص بتحديد اتجاه القبلة. فعلى سبيل المثال، لم يشر إليه مؤرخ العلوم المعاصر قدري حافظ طوقان في كتابه تراث العرب العلمي. وحتى عندما أشاد طوقان بما قدمه علماء العرب والمسلمين في علم الفلك ذكر على التوالي 45 عالما من أولئك العلماء، بداية بثابت بن قرة، والمهاني، والبلخي، ونهاية بالتوفيقي، وهبة الله، والمدني، ومبشر بن أحمد، ومحمد بن مبشر دون أدنى إشارة إلى شمس الدين الخليلي [طوقان، تراث العرب العلمي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ودار الشروق، بيروت، (د. ت، صدرت الطبعة الأولى عام 1941)، ص 113].

ومن المعلوم أن المسلمين يحتاجون في أداء المناسك الدينية إلى معرفة مواعيد الصلوات الخمس واستخدام الأشهر القمرية ورؤية الهلال وتحديد سمت القبلة وتوقع كسوف الشمس (صلاة الكسوف) وخسوف القمر. وهذا يتطلب إلماما واسعا بالرياضيات والجغرافيا ويقتضي القيام بحسابات فلكية والتعمق في قواعد الهندسة الكروية، أي تلك التي تعنى بالأشكال المرسومة على الكرات. ومن المسائل التي كان ينبغي على المسلمين

حلها مسألة إيجاد اتجاه القبلة حسب خطوط الطول والعرض على وجه الأرض. إنها مسألة عويصة في حساب المثلثات الكروي. يرى العديد من المؤرخين بأن حاجيات أداء الطقوس الدينية على أحسن وجه هي وحدها التي أدت بعلم الفلك إلى هذا التطور في الحضارة العربية الإسلامية، إلا أن مؤرخين آخرين يرفضون هذا الطرح على الرغم من أنهم يسلّمون به كعامل أساسي دفع قدما بهذا العلم في بداية الأمر، وهم يقدمون عوامل أخرى أدت إلى هذا التطور الجديد بالتنويه [Djebbar, A. Une histoire de la science arabe, Le Seuil, 2001, pp. 156-159]

وقد عثر المؤرّخون ابتداء من السبعينات من القرن العشرين على مخطوطات [سيما مخطوط باريس، المكتبة الوطنية، رقم 2558 AR] تحتوي على أهم هذه الجداول. ويعتبر المؤرخ ديفيد كينغ King من أكثر المؤرخين اهتماما ودراسة لأعمال المؤقت شمس الدين الخليلي [King D.: Khalili In Encyclopaedia of the History of Science pp. 477-478]

■ آثاره

يمكن تصنيف جداول الخليلي إلى خمس فئات:

1 ـ جداول لمعرفة المواقيت من خلال رؤية الشمس بالنسبة لمدينة دمشق، وجداول لتحديد مواقيت الصلاة في مدينة دمشق. الملاحظ أن هذه الجداول لا تخرج عن الإطار العام للجداول الفلكية الكروية التي حددت لمدينة القاهرة والتي تنسب عموما إلى عالم الفلك المصري ابن يونس (القرن 12م)؛ 2 ـ جداول رياضية مساعدة لتحديد المواقيت في كل مكان؛ 3 ـ جداول رياضية مساعدة لحل مسائل علم الفلك الكروي في كل مكان. والغرض منها حل المسائل العامة المتعلقة بعلم الفلك الكروي، وهي جداول ذات فائدة عملية كبيرة عندما يتعلق الأمر بحل المسائل التي تستخدم الدوال functions المثلثية (الجيب، وجيب التمام. . ، الخ) في المثلثات الكروية. وهكذا قدّم الخليلي في هذه الجداول قيم ثلاث دوال تتعلق كل منها بمتغيرين (زاويتين أو طولين). وحتى ندرك الجهد المبذول لإنجاز هذا العمل يكفي الإشارة إلى أن عدد مداخل جدول واحد من هذه الجداول يفوق 13000 (13 ألف) مدخل. وقد استعملت هذه الجداول في أهم مراكز العالم الإسلامي التي اهتمت بعلم المواقيت (دمشق، القاهرة، استنبول، . . .)؛ 4 ـ جداول تحدد اتجاه القبلة وفق خطوط الطول والعرض في أي موقع من العالم الإسلامي حسبها الخليلي في دمشق. وتبيّن هذه الجداول القبلة كزاوية مع خط الزوال (يعبر عنها بالدرجات والدقائق) لكل درجة عرضية ولكل درجة طولية؛ 5 ـ جداول التحويل التقويمي (قمري ـ شمسي).

وقد استعملت جداول شمس الدين الخليلي في دمشق حتى القرن التاسع عشر الميلادي [ديفيد كينغ، بعض الملاحظات عن المخطوطات والآلات العلمية في التراث الإسلامي، ص 182].

ووصفت لأول مرة ضمن الأبحاث الحديثة خلال السبعينات من القرن العشرين [م. س،

المرجع السابق، ص 181]. وإلى حدّ الآن ما زال هذا الموضوع يحتاج إلى المزيد من التدقيق. ويعجب المؤرخون الذين اطلعوا على هذه الجداول في الدقة التي تحصل عليها الخليلي في تحديد وجهة القبلة، وهم يعتقدون أنه أستخدم جداول مساعدة أخرى إضافة إلى ما وجده المحققون في المخطوطات، لكن تلك الجداول يبدو أنها ضاعت أو لم يتم العثور عليها إلى حد الآن.

ولم يكن الخليلي ليقوم بكل هذه الحسابات لولا اعتماده على أعمال البعض ممن سبقوه. فمن أسلافه نجد ابن يونس الذي وضع جداول لتحديد المواقيت ومواعيد الصلوات الخمس لمدينة القاهرة. وقد استفاد من هذه الجداول المصرية العديد من العلماء عبر العالم الإسلامي لوضع جداول من نفس الطراز، مثل ما حدث في استنبول، وتعزّ، وتونس، والقدس، ومكة المكرمة، ودمشق. وفي هذا المقام ينبغي الإشارة إلى الفلكي والرياضي محمد بن أحمد بن عبد الرحيم المِزّي (حوالي 690هـ/ 1291 ـ 750هـ/ 1349م) الذي قضى بداية حياته بالقاهرة، فكان موقتا في الجامع الأموي بدمشق وتتلمذ على ابن الأكفاني بالقاهرة،، ثم عاد إلى دمشق وأقام فيها. وعرف المزي بمهارته في صناعة الاسطرلابات التي كان يبيع الواحد منها بعشرة دنانير، وكان لا يناظره أحد من العلماء والمهندسين في هذه الصناعة. ثم رحل إلى دمشق فحوّل جداول ابن يونس لتكون قابلة للاستخدام في دمشق. وقد فَقَدَ المزي البصر في إحدى عينيه وتوفي بدمشق حوالي 750هـ/ 1349م، ولذا كانت الجداول الأولى للخليلي مماثلة لتلك التي أنتجها المِزّي، لكن الخليلي زادها دقة.

ويلاحظ المؤرخون أن الخليلي استعمل كتاب الحسن المراكشي (توفي 660هـ/ 1261م) إذ يقول في مقدمة جداول القبلة إنه لا يعرف طريقة أفضل لتحديد القبلة من تلك التي وردت في كتاب المبادئ والغايات في علم الميقات للحسن المراكشي [جبار، أحمد، ابن الشاطر، فلكي عربي من القرن الرابع عشر، جديد العلم والتكنولوجيا، باريس، العدد 14، فبراير1991، ص25].

وهو كتاب هام يقع في أزيد من 700 صفحة يحتوي على أساسيات علم الفلك الكروي التي كانت متداولة في ذلك العصر وعلى وصف عدد كبير من الأدوات الفلكية. وبخصوص التواصل بين المغرب والمشرق العربيين، يذكر كينغ [King D.: Overview of the sources for the history of astronomy in the medieval Maghrib, Deuxième Colloque Maghrébin sur l'Histoire des Mathématiques Arabes, Tunis, 1-3 décembre 1988, Université I, Inst. Sup. Education Formation Continue et Ass. Tun. Sci. Math., 1988, p. 138]

أن هناك نسخة مغاربية في لندن من بعض جداول الخليلي [Al-Khalili, Universal auxiliary tables (Maghrib copy), Ms London B. L. Add. 9599,31.]

ولم يكن الخليلي آخر من بحث في هذا الموضوع، ففي القرن السابع عشر مثلا صنعت آلة في إصفهان لازالت موجودة لحد الآن تحدّد وجهة القبلة في كل مكان من

العالم الإسلامي شملت الصين والأندلس. وتسمح الآلة أيضا بإيجاد المسافة التي تفصل مختلف الأماكن عن مكة. والواقع أن علماء العرب والمسلمين عرفوا كيف يحددون اتجاه القبلة والمسافات التي تفصلهم عن مكة المكرمة منذ القرن التاسع الميلادي وقاموا منذ ذلك الوقت بوضع جداول تظهر اتجاه القبلة اعتمادا على خطوط الطول والعرض.

لقد أثبت الخليلي مهارته في تحديد وجهة القبلة وقدم نتائج مذهلة في دقتها حيث لا يزيد الخطأ المرتكب أحيانا عن دقيقة واحدة. وبهذا الصدد يقول كينغ: «إن جداول الخليلي التي تعطي بعضها 3000 قيمة للقبلة تحسب الدرجات والدقائق بالنسبة إلى كل درجة على خط العرض (من الدرجة العاشرة إلى الدرجة الخامسة والخمسين) ولكل درجة على خط الطول من الدرجة الأولى إلى الدرجة الستين، وهي قيم دقيقة إلى درجة أن أحدث الطرق الإحصائية عجزت عن وجود الكيفية التي أنشئت بها» [بعض الملاحظات عن المخطوطات والآلات العلمية في التراث الإسلامي، ص 174ـ 175] ولم يستطع الخبراء التوصل إلى طريقة الخليلي حتى باستخدام أحدث تقنيات الحاسوب [انظر: Van Brummelen G.: The numerical structure of al-Khalili's Tables, Physis-Revista internazionale di storia delle scienza, 28, 1991, pp. 667-697]

ونظرا إلى أهمية أعمال الخليلي في علم الفلك تم اقتراح في لجنة تاريخ الفلك التابعة لاتحاد الفلك الدولي خلال الاحتفال العالمي بذكرى كوبرنيك، إطلاق اسم الخليلي - وغيره من علماء الفلك العرب والمسلمين الذين حققوا إنجازا علميا في مجال علم الفلك ـ على بعض منازل القمر التي اكتشفت حديثا.

المصادر والمراجع

● كينغ، ديفيد، بعض الملاحظات عن المخطوطات والآلات العلمية في التراث الإسلامي: بحوث الماضي والحاضر والمستقبل، أعمال المؤتمر الافتتاحي لمؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ديسمبر 1991، لندن، 1992، رقم النشر 4، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ص 181.

● King D.: Al-Khalili, In Dictionary of Scientific Biography, vol. 15, New York, 1978, pp. 259-261. ● King D.: Al-Khalili's auxiliary tables for solving problems of spherical astronomy, Journal for the History of Astronomy, 4, 2, 1973, pp. 99-110. ● King D.: Al-Khalili's qibla table, Journal of Near-Eastern Studies, 34, 2, 1975, pp. 81-122. ● King D.: The Astronomy of the Mamluks, Isis, 74, 274, 1983, pp. 531-555. ● King D.: L'astronomie en Syrie à l'époque islamique, In Syrie-Mémoire et civilisation, Ed. Cluzan S. et al., Institut du monde arabe, Paris, 1993, pp. 392-394, p. 440. ● King D.: Al-Khalili In Encyclopaedia of the History of Science, Technology and Medecine in non-western cultures, ed. Selin H. Kluwer Academic Publishers, 1993, pp. 477-478. ● Lam-

rabet D.: Introduction à l'histoire des mathématiques maghrébines, Imp. Al-Maarif Al-Jadida, Rabat, 1994. • Van Brummelen G.: The numerical structure of al-Khalili's auxiliary tables, physis Rivista Internazionale di Storia della Scienza, N.S., 28, 3, 1991, pp. 667-697.

د. أبو بكر خالد سعد الله
المدرسة العليا للأساتذة - الجزائر

الخليلي، أبو يعلى الخليل بن عبد الله

(حوالي 370هـ/980م - 446هـ/1055م)

أبو يعلى الخليل بن عبد الله بن أحمد بن إبراهيم الخليلي، القزويني، المحدّث، والحافظ، والعارف بالرجال.

ولد أبو يعلى الخليل في قزوين، ومع أنّ المصادر التاريخية لا تذكر لنا تاريخ مولده، ولا تشير إلى مبلغ عمره عند وفاته، فإنه يمكن الاستنتاج بأنه ولد قبيل سنة 370هـ، فقد أورد الخليلي في كتابه «الإرشاد في معرفة علماء البلاد» خلال ترجمته لأبي سعيد عبد الرحمٰن محمد بن يوسف بن أبي الليث التميمي إمام جامع قزوين قوله: «أدركته وأنا صغير، مات سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة».

نشأ أبو يعلى الخليلي في عائلة علمية لها مكانة متميّزة في قزوين، والظاهر أنها اتّخذت هذه المدينة سكنًا لها منذ النصف الأوّل من القرن الثالث الهجري، وبالتحديد في سنة 235هـ.

يقول الخليلي في ترجمة والد جدّه: «أبو جدي أبو إسحاق إبراهيم بن الخليل ولد بالري، وسمع محمد بن عاصم الرازي، ومحمد بن عبد الله بن أبي جعفر وحمله أبوه إلى قزوين سنة خمس وثلاثين ومائتين وأقام بها».

وقد تلقى الخليلي العلم على علماء عصره، وفيما بعد أجاز له جماعة كبيرة من العلماء ومنهم: الإمام أبو حفص عمر بن شاهين (ت 385هـ)، وأبو الحسن علي بن عمر الدارقطني (ت 385هـ).

يقول عنه ابن العماد الحنبلي في كتابه شذرات الذهب أنه: «أحد أئمّة الحديث، روى عن علي بن أحمد بن صالح القزويني وأبي حفص الكتاني وطبقتهما، وكان أحد من رحل وتعب، وبرع في الحديث. قال ابن ناصر الدين: أبو يعلى القاضي كان إماما حافظًا من المصنّفين».

ورحل الخليلي إلى بغداد ونيسابور وغيرها، حيث أخذ العلم من علماء تلك البلاد ثم عاد إلى بلده حيث كتب معظم مؤلفاته، كما شغل منصب القضاء في قزوين.

وتوفّي أبو يعلى الخليل بن عبد الله الخليلي في قزوين سنة 446هـ.

آثاره

1 ـ الإرشاد في معرفة علماء البلاد، ذكره حاجي خليفة بقوله: «ذكر فيه ـ أبو يعلى الخليلي ـ المحدثين وغيرهم من العلماء على ترتيب البلاد في زمانه، وترجم كل بلد وناحية، أوّله الحمد لله، ولي الطَّوْل والإحسان» الخ، ورتبه الشيخ زين الدين قاسم بن قطلوبغا الحنفي (ت 879هـ)؛ 2 ـ الإرشاد في أخبار قزوين؛ 3 ـ الإرشاد في معرفة المحدّثين، ذكره ابن العماد الحنبلي.

يتألّف كتاب «الإرشاد في معرفة علماء البلاد» من ثلاثة أجزاء:

ـ الجزء الأول والجزء الثاني يضمان القسم الخاص بالحجاز، وهو يكوّن قرابة ربع الكتاب.

ـ الجزء الثالث هو القسم الخاص بعلماء مصر والشام.

وقد حفظ لنا الخليلي في هذا الكتاب صفحات مجيدة من حياة مشاهير علماء المشرق والمغرب ابتداءً من القرن الأوّل الهجري إلى سنة 446هـ وهو تاريخ وفاة المؤلّف.

ويتميّز كتاب الإرشاد عن غيره من كتب التراجم بتنظيم مواده على البلدان لا على أساس زمني، أو علة اعتبار أخرى، مما دلّ على ظاهرة مهمة شهدها عصره، وهي تميّزه بأنه حفظ لنا صورة صادقة عن الحياة العقلية في هذه البلدان طيلة أربعة قرون ونصف القرن، وأظهر مدى الصلات الوثيقة التي كانت تربط بين مراكز النهضة العلمية الإسلامية في المغرب والمشرق.

ولهذا الكتاب أهميته، ذلك فضل سبقه في إيراد العديد من تراجم العلماء، ومنه نقلت كتب التراجم المتأخّرة.

إذن، فليس غريبًا أن يولّيه العلماء عنايتهم البالغة، سواء أكان ذلك بروايته كما فعل الحافظ الكبير السلفي، أم بالنقل منه كما فعل ذلك غير واحد من كبار المؤرّخين المعتمدين المعنيين بعلم الرجال.

فقد اطّلع عليه الرافعي (ت 623هـ) وأفاد منه إفادة كبيرة في كتابه «التدوين في ذكر أهل العلم بقزوين».

كما اطّلع عليه ياقوت (ت 626هـ) ونقل منه في كتابه «إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب» المشهور بـ «معجم الأدباء».

وأفاد منه مؤرّخ الإسلام شمس الدين الذهبي (ت 748هـ) في كتبه ولاسيّما كتابه الكبير «تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام»، وكان الذهبي قد قرأ هذه النسخة على شيخه أبي علي الحسن بن علي الخلال الدمشقي (ت 702هـ).

كما نقل منه الحافظ الكبير أبو الحجاج يوسف المزي (ت 742هـ) في كتابه «تهذيب الكمال في أسماء الرجال» وإن لم يكثر من النقل عنه.

ولذلك عني الحافظ ابن حجر العسقلاني (ت 852هـ) بتتبّع المواطن التي أغفل عنها المزي من النقل عن أبي يعلى الخليلي فاستدركها على المزي في زياداته وإضافاته التي أضافها على الكتاب عند اختصاره بكتابه «تهذيب التهذيب».

إنّ عناية أمثال هؤلاء الحفاظ والمؤرّخين بأقوال أبي يعلى الخليلي في الرجال جرحا وتعديلاً يدل على اعتمادهم أقواله في هذا الفن المهم الذي لا يؤخذ إلا من أوثق الناس، ومع ذلك فقد قال الذهبي عن كتاب «الإرشاد» للخليلي: «وله فيه أوهام جمّة كأنه كتبه من حفظه».

والحق أنه فيما قاله الذهبي كثير من الصحة، فهناك في غير موضع العديد من الأوهام التي ذكرها الخليلي.

المصادر والمراجع

● العسقلاني، ابن حجر، تهذيب التهذيب، دار صادر، بيروت 1968م، 5/ 256، 6/ 173، 8/ 5، 9/ 260؛ ● الحنبلي، ابن العماد، شذرات الذهب، 3/ 272؛ ● الخليلي، أبو يعلى، الإرشاد في معرفة علماء البلاد، تح. آسيا كليبان، جامعة بغداد، 1984م، ص2 - 6؛ ● الحموي، ياقوت، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، 5/ 79، 6/ 35؛ ● خليفة، حاجي، كشف الظنون، 1/ 70؛ ● الرافعي، التدوين في أخبار قزوين [تاريخ قزوين]، مصر، ص154؛ ● الذهبي، شمس الدين، تذكرة الحفاظ، نشره محمد أمين دعج، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 3/ 1123؛ ● الذهبي، دول الإسلام، تح. فهيم شلتوت ومحمد إبراهيم، القاهرة، 1/ 262؛ ● كحالة، عمر رضا، المستدرك على معجم المؤلفين، ص234؛ ● كحالة، معجم المؤلفين، 4/ 121.

د. محمد هشام النعسان
معهد التراث العلمي العربي - حلب - سوريا

ابن خمير السبتي، أبو الحسن علي بن أحمد

(ت 614هـ/1217م)

هو أبو الحسن علي بن أحمد بن خمير الأموي السبتي شهر بابن خمير، وهو عربي أموي انتقل بعض أجداده الأباعد إلى الأندلس قبل أن يستقر جدّه الأقرب بمدينة سبتة أين ولد ونشأ وتعلّم، ويرجّح أن يكون تاريخ ولادته في أواسط القرن السادس الهجري أي حوالي سنة 550هـ/ 1155م، في حين كانت وفاته سنة 614هـ/ 1217م.

جمع في اهتماماته العلمية بين علم الكلام والتصوّف. فكان من أبرز ممثّلي المذهب الأشعري في العقيدة ومن أهم من حاول في تلك الفترة المحورية من تاريخ الفكر بالمغرب الإسلامي التأصيل لعلوم التصوف وآدابه في ضوء الكتاب والسنة وتعاليم الفقه والعقيدة السنّية، وهو ما دفع به إلى التصدي لبعض أفكار التصوّف الفلسفي والإشراقي الذي

انتشرت مبادؤه في تلك الفترة من تاريخ الغرب الإسلامي والأندلس.

في خصوص تكوينه العلمي فإن ابن خمير السبتي حفظ في أول عهده كتاب القرآن الكريم، وتلقى تكوينا ضليعا بعد ذلك في العلوم السائدة في عصره من نحو ولغة وشعر وفقه، وقد كان للانقلاب السياسي والثقافي الذي أحدثه الموحدون أثره في إقبال ابن خمير على العلوم التأصيلية في الثقافة الإسلامية مثل علوم القرآن والحديث وعلوم أصول الدين والعقيدة.

وكانت مدينة سبتة مهد تلقيه العلوم والآداب.

وترجّح بعض الدراسات تتلمذه إلى عدد هام من علماء تلك الفترة ممّن ظهر بسبتة على الأخصّ من هؤلاء أبو محمد عبد الله الحجري (ت 591هـ/ 1195م)، ومحمد بن أحمد اللخمي (ت 577هـ/ 1181م)، وأبو القاسم عبد الرحمٰن الجذامي المعروف بالقراف والخزاز (ت 581هـ/ 1185م)، ومحمد بن عامر الأنصاري الخزرجي (ت 580هـ/ 1184م) وأبو العباس العزفي (ت 633هـ/ 1236م).

كما انتقل ابن خمير السبتي إلى الأندلس حيث لقي جملة من الشيوخ والعلماء هناك وهو ما وفّر له الفرصة لتوسيع معارفه، وصقل منهجه في النظر والتفكير.

في كتابه «مقدمات المراشد لقواعد العقائد» نهج ابن خمير السبتي في عرضه لأفكار الأشعرية في العقيدة وعلم الكلام طريقة تعتمد مقدمات نظرية سبع شكلت المادة الأساسية لهذا الكتاب وهي كالآتي:

- المقدمة الأولى وتتضمّن العلم بحدوث العالم.
- المقدمة الثانية وتتضمّن العلم بصانع العالم (الله).
- المقدمة الثالثة وتتضمّن نفي التشبيه عن الذات الإلهية.
- المقدمة الرابعة وتتضمّن الاستدلال على وحدانية الله.
- المقدمة الخامسة وتتضمّن إثبات الصفات.
- المقدمة السادسة وتتضمّن إثبات النبوات.
- المقدمة السابعة وتتضمّن السمعيات.

وقد أدرج ابن خمير في كل مقدمة من هذه المقدمات فصولاً تتعلّق بالمبحث الكلامي المطروح ويفصل القول في أبرز جوانبها مع رفع الاعتراضات المسجّلة على آراء الأشاعرة في مسائل العقيدة والإيمان.

وهكذا نجده يتتبّع أسلوب «فإن قيل... فالجواب» «وإن قال... قلنا»...

ففي منطلق هذا الكتاب وقبل الشروع في هذه المقدمات نجد ابن خمير السبتي يمهّد بمجموعة من المسائل الفكرية الكلامية ارتكزت بالأساس على إثبات مشروعية النظر والردّ على منكريه. كما نجده يرفض التقليد وينتقد القائلين به، فهو يرى أن النص الديني جاء صريحا بذم التقليد والدعوة إلى الاجتهاد وإعمال الرأي في مسائل العقيدة والشريعة، فالمرء في نظره ولكي تبرأ ذمته في الآخرة عليه أن ينظر في أمور العقائد نظرًا عقليا، وأن يتجنّب التقليد فيها لأن المقلدين لا يعدّون من المتديّنين.

وفي ما يتعلّق بنظرية المعرفة نجد ابن خمير يذهب إلى القول إن الحواس الخمس هي طرق تحصيل المعرفة والإدراكات، لكنها تجعل الإنسان يشترك في ذلك مع سائر البهائم، لكنه يتفرّد عليها بطريقتين هما العقل والنظر، فإذا كان العقل موهبة إلهية تتم بها المعارف وتحصل بها العلوم والحقائق، فإن النظر عند ابن خمير يصبح طريقًا للمعرفة.

ونجد ابن خمير يتصدّى لبحث مسألة النبوّة، يردّ على البراهمة، وأطروحاتهم، ومن سار في دربهم، لكنه لم يهتمّ في مقابل ذلك بالنظر في موضوع الإمامة والسياسة الذي حظي بكبير اهتمام متكلّمي الأشاعرة في المشرق خاصة. ولعلّ ذلك يعود إلى طبيعة الظرف السياسي للمغرب الإسلامي والذي كانت تحكمه دولة الموحّدين التي نظّر لها المهدي بن تومرت وأقامها عبد المؤمن بن علي على أسس تنبني على تصوّر مخصوص للإمامة في علاقتها بالعلم والسياسة دون اشتراط للأصول القريشية لصاحب الإمامة.

لما كانت قضايا التصوّف ومباحثه النظرية والفلسفية والأدبية أحد أبرز مدارات اهتمام الحقل الديني والثقافي بالغرب الإسلامي منذ الفترة المرابطية وإلى فترة متأخرة نسبيًا فإن ابن خمير السبتي كان واحدًا من أهمّ علماء الغرب الإسلامي الذين تصدّوا لبحث مسائل الفكر الصوفي ما بين الشرعية الدينية والمعقولية الفلسفية، وهو في ذلك أميَل إلى توظيف مقولات الأشاعرة ومبادئهم للحسم في هذه القضايا فهو من القائلين بضرورة اتّباع الأخلاق الصوفية لأنها تزيد الإيمان كمالاً، وتساعد في تحصيل اليقين المعرفي، وهو يرى بأنّ «الكرامة» من جهة كونها فعلاً خارقًا للعادة ممكنة في حق الأولياء وعباد الله الصالحين، وهو يتفق في ذلك مع جلّ متكلّمي الأشاعرة. غير أنه يخالف قول الصوفية أنفسهم في المسألة من جهة كونه يرى أن «الكرامة» ليست أمرًا حاسمًا في ثبوت «ولاية» الولي بل إن «الولاية» قد تحصل دون كرامة.

وقد أقدم ابن خمير على نقد التصوّف الإشراقي الذي يقوم على المنهج الكشفي والرؤيا الذوقية العرفانية، وهو يرى أن المنهج الكشفي يعارض ثوابت الدين أصلاً.

وعليه أمكن أن نستنتج أن ابن خمير رغم تلقيه تكوينا صوفيا متينًا في بدء عهده فإنه ظلّ ينظر إلى التصوّف الإشراقي الذوقي في ضوء نظرة فكرة سنية تقليدية محافظة تقف عند حدود النظرة الصوفية الأخلاقية، حيث ترى أن التصوّف ـ فحسب ـ وسيلة لإصلاح الأخلاق وتهذيب النفوس. وهو يعصم المؤمن من الزلات دون أن يكون بذلك منهجًا في المعرفة، ولا فلسفة في فهم الدين أو الإنسان أو الوجود.

آثاره

عُرف ابن خمير السبتي بأثرين بارزين هما:

1 ـ مقدمات المراشد لقواعد العقائد، وهو لا يزال مخطوطًا بخزانة القرويين بالمغرب تحت عدد 712 و719، 2 ـ تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء، تح. محمد رضوان الداية، دار الفكر، بيروت ـ دمشق، 1990، ط 1.

المصادر والمراجع

● ابن خمير، مقدمات المراشد إلى قواعد العقائد، مخطوطة القرويين، فاس تحت عدد 719، ضمن مجموع من ص1 إلى ص53ب؛ ● تنزيه الأنبياء عمّا نسب إليهم حثالة الأغبياء، تح. محمد رضوان الداية، ط. دار الفكر، بيروت ـ دمشق، 1990م؛ ● البختي، جمال علال، الحضور الصوفي في الأندلس والمغرب إلى حدود القرن السابع الهجري، دراسة تاريخية وقراءة تحليلية في مواقف ابن خمير السبتي من التصوّف والمتصوّفة، مطبعة الخليج العربي، تطوان، المغرب 2003، ط1.

د. محمد الكحلاوي
كاتب وباحث ـ تونس

الخميري، الطاهر

(1317هـ/1899م ـ 1393هـ/1973م)

ولد الطاهر الخميري سنة 1899م بحي باب سويقة في مدينة تونس العتيقة، الحيّ الزاخر بالمعالم والمواقع التاريخية.

وتلقّى الخميري تعليما تقليديا في فترة صباه، فتعلّم مبادئ القراءة والكتابة في كتّاب سيدي البنّاني القريب من منزله مع حفظ نصيب من القرآن الكريم ممّا مكنه من الالتحاق بجامع الزيتونة حيث زاول تعلمه لبضع سنوات. ورغم أنّه لم يتخطّ المرحلة الأولى من التعليم الزيتوني فقد ألمّ بأصول اللغة العربية والدين الإسلامي، غير أنّه كان برما بالمناهج المتوخّاة التي كانت قائمة على حفظ المتون وتكرار آراء المصنفين القدامى.

وقد التحق الطاهر الخميري بالمدرسة الخلدونية التي أنشئت سنة 1896 لتعليم طلبة الزيتونة تعليما عصريا في منتصف العقد الثاني من القرن العشرين حيث تأثّر ببعض مدرّسيه مثل محمد الأصرم الذي طالما أثنى عليه. وبعد إلمامه بمعرفة التراث العربي الإسلامي وتحصيله نصيبا من العلوم الحديثة غادر الخميري تونس نحو أوروبا، وذلك في موفى الحرب الأولى ولم يعد إلّا في أوائل الخمسينات.

استقرّ في البدء بالبلاد الانقليزية حيث زاول تعلمه الثانوي وأتقن اللسان الانقليزي.

ثم أقام بمصر سنتي 1929 و1930 ودرّس في الجامعة الأمريكية، فكانت إقامته فرصة للتعرّف على الحياة الأدبية والثقافية المصرية عن قرب. وهناك ربطته علاقات مودّة بثلّة من الأدباء والشعراء، نخصّ بالذكر الأديب السّاخر إبراهيم عبد القادر المازني، وشاعر الشّعب حافظ إبراهيم، والمؤرّخ محمد عبد

الله عنان، والكاتب المصلح أحمد أمين الذي ظلّ على صلة به حتّى بعد مغادرته مصر، يستشيره ويساهم من حين إلى آخر في التحرير بمجلة «الثقافة» التي أسّسها سنة 1936.

ومكّنته إقامته بمصر من إعداد كتاب «زعماء الأدب العربي المعاصر» الذي نشره بالانقليزية إثر عودته إلى بريطانيا في أواخر 1930. ثمّ انتقل من بريطانيا إلى ألمانيا لمواصلة تكوينه الجامعي الذي أهّله للحصول على شهادة الدّكتوراه سنة 1936، وكان موضوعها «مفهوم العصبية لدى ابن خلدون». واشتغل بالتّدريس في جامعة همبورغ لمدّة 17 سنة ساهم خلالها في إعداد قاموس ألماني - عربي. وقد مكّنته حياته الجامعية من الاطلاع على العديد من اللّغات القديمة والحديثة فتوافر على معرفة كلّ من العربية والانقليزية والألمانية والفرنسية، كما ألمّ بأصول اللغة اليونانية واللاتينية والعبرية والفارسية.

هذه الشواغل العلمية لم تصرف الخميري عن نُصرة حركات التّحرير بشمال إفريقيا، فقد كان للظروف السياسية والدّولية التي تلت الحرب العالمية الثانية وتنامي كفاح شعوب الشمال الإفريقي أثر بالغ الأهمية في نشاطه في مكتب المغرب العربي بلندن، وتسخير قلمه للتعريف بقضايا هذه الشعوب للمطالبة بحقّها في تقرير مصيرها. وقد ألّف لهذا الغرض كرّاسين باللغة الأنقليزية: الأول يتعلق بالقضية التونسية، والثاني بالقضية الليبية، . وقُبيل الاستقلال عاد الطاهر الخميري إلى تونس بعدما قام بجولة في الأقطار العربية زار خلالها المغرب الأقصى والمشرق العربي، فتفرّغ للكتابة في الصحف والمجلّات كتابة تمتاز بالدقّة والموضوعية والأسلوب العلمي المركّز والرّصين، وشمولها لشتّى الميادين كالثّقافة والمجتمع واللّغة والنّقد الأدبي والفولكلور. كما كتب للإذاعة وأخرج برامج تلفزية وإذاعية وترجم للمسرح.

وأبرز ما سخّر له الخميري جهده العلمي في مقالاته وبحوثه هو التعمق في مسائل لغويّة استأثرت بسنوات من عمره في تدريسها بالجامعات الأجنبية ومعاناة مشكلاتها كالبحث والتّأليف في القضايا المعجميّة. ورغم معرفته بعديد اللّغات الأجنبية فإنّه كان ينصح بتشجيع المثقفين على تملك اللّغة العربية، مع معرفة لغة أجنبية معرفة جيّدة.

وبإمكاننا تقسيم مباحث الخميري في اللغة إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: يتعلّق بكتابات وصفية عامّة تتّصل بالواقع اللغوي السائد في كافة الأقطار العربية المتّسم بازدواجية بين لغة الكلام ولغة الكتابة وهو لا يعتبرها ازدواجية بين العاميّة والفصحى، إذ إنّ بعض الفصيح خرج عن الاستعمال فصار مهجورا غير شائع ولا فائدة من إحيائه لأنّ ذلك من شأنه أن يُعمق الهوّة بين لغة الكتابة ولغة التخاطب ويعطل الغاية التعليمية للقواميس الموضوعة على ذمّة الطلبة وعامّة القرّاء.

ورأى الخميري ضرورة تقويم ما تقوم به القواميس العربية والأجنبية - العربية بإصدار ملحق سنوي للقاموس العربي الحديث ينظر فيما يراه موفّقا في التعابير الجديدة وما يجدر بعثه من التّعابير القديمة. ولمّا عرض هذا

المقترح على مؤتمر المستشرقين المنعقد بميونيخ في 1957 قوبل بالاستحسان.

القسم الثاني: ويتجلى في اهتمام الطّاهر الخميري بدراسة التّراث الشعبي والتنبيه إلى خطورته في المسيرة الثقافية، فتعامل مع اللغة تعاملا موضوعيا خاضعا للروح العلمية وخاليا من الأفكار المسبقة التي رمى إليها بعض المستشرقين من دراستهم للعاميّة بهدف النّيل من اللّغة العربية.

لقد كان الخميري سباقا إلى دراسة ما يعرف الآن بالإثنولوجيا اللّسانية فوقف على ما ترشح به لغة التخاطب من صلات ثقافية وتاريخية بين الأمم، ولذلك درس ظاهرة الاقتراض اللّغوي الذي دخل العربية المحكية بتونس من اللّغات البربرية، واليونانية، والفارسية، والتركية، والإيطالية، والإسبانية، والفرنسية.

القسم الثالث: ويتمثل في سعيه إلى تعريب المفردات الأجنبية التي تعلّق بعضها بمفاهيم جديدة مثل مصطلحات العلوم الإنسانية والاجتماعية، وارتبط بعضها الآخر باستعمالات جارية في اللّغات الأوروبية. وقد راعى في عملية التّعريب مقوّمات اللّغة العربية فأخضع المفردات المعرّبة لقواعد تنسجم مع التّراث اللّغوي والأدبي العربيين، أو تستجيب للقياس على ما تمّ وضعه إبّان ازدهار الحضارة العربيّة.

آثاره

تنوعت كتابات الطّاهر الخميري وتوزّعت على الدّوريات التونسية والأجنبية. وسنقتصر على ذكر الكتب التي ألّفها دون مقالاته التي كتبها باللّغات الثلاث الانقليزية والألمانية والعربية:

أ - في الانكليزية:

1 - زعماء الأدب العربي، لندن 1930؛

2 - تونس: كتاب ذو طابع سياسي كتبه خلال إقامته الثانية بالعاصمة البريطانية، 1947؛

3 - ليبيا: وهو أيضا ذو طابع سياسي أصدره بلندن عام 1947.

ب - في الألمانية:

4 - مفهوم العصبية في فكر ابن خلدون 1936 (أطروحة دكتوراه)؛ 5 - قاموس ألماني - عربي، بالاشتراك.

ج - في العربية:

6 - مرآة المجتمع، صدر بتونس، سلسلة «كتاب البعث» 1956؛ 7 - مكافحة الثقافة، صدر بتونس، سلسلة«كتاب البعث» 1957؛ 8 - إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان لأحمد بن أبي الضياف، تحقيق (بالاشتراك). صدر في ثمانية أجزاء، تونس، 1963 - 1966؛ 9 - منتخبات الأمثال العامية التونسية، الدار التونسية للنشر سنة، 1967 وكان نشره مسلسلا على صفحات جريدة الصّباح في نحو 7000 مثل انتقى منها 2470 مثلا نشرها مع قائمة بأسماء المراسلين من أنحاء البلاد، وذيّله بقاموس وجيز لشرح الألفاظ العامية التونسية الواردة به؛ 10 - قاموس العادات والتقاليد التونسية، نشر قسما منه من حرف الهمزة إلى حرف الزّاي مسلسلا على صفحات مجلّة الإذاعة بين سنتي 1961 و1963، إلّا أنّه لم يتمكن من نشره في شكل كتاب. وقد حقّق الأستاذ حفناوي عمايرية الجزء الأوّل منه الذي نُشر بالعدد الثاني عشر من مجلّة الفنون والتقاليد الشعبية

التي تصدر عن المعهد الوطني للتراث؛ 11 ـ ترجمة مسرحية «هملت» لشكسبير، الدار التونسية للنشر 1968؛ 12 ـ ترجمة مسرحية «عطيل» لشكسبير، الدار التونسية للنشر 1968؛ 13 ـ تعريب مسرحية «أقفاص وسجون»، لهارولد بنتر، وكانت من آخر أعماله؛ 14 ـ التربية الإسلامية للسّنة السادسة من التعليم الثانوي بالاشتراك مع محمّد توفيق السّلامي، ومحمد الحبيب السّلامي، نشر المركز القومي البيداغوجي تونس (د.ت.).

المصادر والمراجع

● كرّو، أبو القاسم محمد، الأديب وما يكتبه، أو بين صنمية المتنبي وحرية الخميري، الصباح 30 جوان 1959؛ ● نفسه، مستدرك الفهرس التاريخي للمؤلفات التونسية، بيت الحكمة، قرطاج 1988؛ ● عمايرية، حفناوي، الدكتور الطاهر الخميري، دراسات في اللغة والمصطلح، تح. وجمع المركز الوطني للاتصال الثقافي، تونس 1998؛ ● نفسه. الطاهر الخميري، رائد البحث في التراث الشعبي، تقديم لقاموس العادات والتقاليد، القسم الأول، مجلة إفريقيا، الفنون والتقاليد الشعبية، عدد 12، 1999؛ ● الزمرلي، الصادق، أعلام تونسيون، تعريب حمادي الساحلي، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986.

د. حفناوي عمايرية
جامعة تونس

الخميسي، عبد الرحمن

(1339هـ/1920م ـ 1399هـ/1978م)

ولد عبد الرحمٰن الخميسي في 13 نوفمبر 1920 في قرية منية النصر مركز دكرنس بالمنصورة لأم مدنية من بور سعيد وأب قروي واجتمعت فيه عناصر التحضّر وأصول الأخلاق الريفية فتفجّرت موهبته الأدبية مبكرا وهو في الخامسة عشرة من عمره.

تلقى تعليمه الابتدائي بمدرسة الزرقا واستأجر له والده غرفة صغيرة فذاق طعم الوحدة مبكرا، ولكنه عوض ذلك بتفوّقه في الدراسة، كما تعلّم من ذلك الاعتماد على نفسه، وتعلّم أيضا كيف يشعر بالآخرين.

وانتقل بعد ذلك إلى مدرسة المنصورة الثانوية وعاش في مدينة المنصورة بمفرده ثم انتقل إلى مدرسة القبة الثانوية، وفي هذه الأثناء بدأت مواهبه الفنية خاصة في الشعر تظهر ويعرف بين زملائه كما أخذ يعرف في منتديات الشعر، وانتهج الفكر الاشتراكي طريقا له في الفن وفي الحياة وما لبث أن توجّه ناحية القصة القصيرة حيث يستطيع فيها التعبير عن أفكاره.

وانتشر الخميسي بعد ذلك يكتب للصحافة يتكسب منها معاشه بل إنه تعلّم الموسيقى وراح يعزف في المنتديات الثقافية بل ويلحن أحيانا بعض المقطوعات والأغاني البسيطة، ثم توجه للكتابة في الإذاعة بعض المسلسلات ويكتب للسينما قصصا وسيناريوهات فنية بل امتد نشاطه ليطول المسرح أيضًا ومن خلال هذا النشاط كما يقول في مذكراته استطاع أن يكتشف للأدب يوسف إدريس وللفن التمثيلي الفنانة الراحلة سعاد حسني.

وفي تلك الفترة ذاق مرارة السجن والغربة فقد كان اسمه مدرجا بقوائم الاشتراكيين بل والماركسيين لأنه كان عنيفا في مقالاته الصحفية التي طالت بالنقد بعض الحكومات المصرية.

وانتقل للعمل في إذاعة الشرق الأدنى بمدينة حيفا الفلسطينية، وسكن في تل أبيب، وزامله في العمل هناك سامي داود وعميد الأمام والشيخ فريد السنديوني وسليم اللوزي وعبد المجيد أبو لبن ومحمد الغصين. ولما سقطت فلسطين في أيدي الصهاينة نقلت الإذاعة إلى قبرص وعاد هو إلى القاهرة ليكتب بالصحافة والمجلات مرة ثانية، وانهمك في التيارات السياسية التي كانت سببًا في نفيه عن البلاد وسافر إلى الخارج عام 1972 ولم يعد إلا عام 1978 مع عودة كثير من الطيور المهاجرة ولكنه ما لبث أن فارق الحياة في أبريل من عام 1978.

■ آثاره

أ ـ إبداعه الشعري:

بدأ الخميسي ينشر قصائده وهو طالب بمدرسة القبة الثانوية في الثامنة عشرة من عمره وذلك في مجلتي «الثقافة» و«الرسالة»، وفي ذلك الوقت التقى كامل الشناوي على نهج الحرية والانطلاق.

ولما كان مطاردا من البوليس السياسي اختفى في الإسكندرية في منزل واحد من أهلها الذي وافق على إيوائه مقابل أن ينشر أشعاره وأغانيه باسم صاحب البيت المختبئ فيه، وله ديوان كامل من الشعر لم تذكر المصادر التي كتبت عنه اسم الديوان.

يقول عنه د. سيد حامد النساج في كتابه «اتجاهات القصة القصيرة في مصر» إنه «تأثر ببدايته الشعرية وحسه الشعري في كل أعماله» ذلك أن الخميسي بدأ حياته ولا يزال ولاؤه للشعر ملحوظا حتى الآن، فهو شاعر يكتب القصة القصيرة وهو شاعر يبتكر المسرحية، وهو شاعر يخلق لحنا موسيقيا، وهو شاعر حين يكتب المقال الاجتماعي أو الأدبي أو السياسي وهو شاعر حين يدعو إلى فكرة أو يناصر حقا لعامل أو يقود حركة نضال وهو شاعر أيضًا حين يقوم بإخراج عمل درامي أو سينمائي، ويشبهه بالكاتب الروسي الكبير مكسيم جوركي نظرا لتشابه ظروف حياتهما.

ب ـ إبداعه في القصة القصيرة:

ترك الخميسي تراثا ضخما من القصص القصيرة معظمها منشور في الصحف والمجلات المصرية وبعضها جمع في مجموعات قصصية مثل:

1 ـ لن نموت، طبعة مكتبة الخانكي، 1953؛ 2 ـ قمصان الدم، دار النشر المصرية، 1953؛ 3 ـ أمينة، 1966؛ 4 ـ الأعماق، 1966.

ج - في الفنون الأخرى:

في مارس 1958 أنشأ فرقته المسرحية حيث كان يكتب ويمثل ويخرج وقدمت ثلاث مسرحيات قصيرة.

كما قدم مجموعة من الأوبريتات مثل «الأرملة الطروب» وهو مترجم و«مهر المحروسة» كتبه هو عن تأميم قناة السويس.

المصادر والمراجع

● مندور، محمد، مقال في مجلة الكاتب، عدد أبريل 1961، عن تجربته المسرحية؛ ● عفيفي، أسامة، مقال في صحيفة صوت العرب عن رحيله؛ ● الطوخي، عبد الله، مقال في مجلة صباح الخير بعنوان «تعالوا نجلس في خشوع»، بالإضافة إلى عدد من المقالات لكبار الكتّاب مثل يوسف إدريس وأحمد بهجت وأحمد بهاء الدين وموسى صبري ومحمود السعدني وغيرهم الكثير في الصحف والمجلات المصرية.

وأشمل الكتب عنه هو: عبد الرحمٰن الخميسي، القديس الصعلوك. كما أن هناك دراسة جيدة عنه في كتاب د. سيد حامد النساج، اتجاهات القصة القصيرة في مصر، دار المعارف، 1973.

د. محمد علي محمد سلامة

جامعة حلوان - مصر

الخنساء السّلميّة، تماضر بنت عمرو

(47 ق. هـ أو 32 ق. هـ/575م أو590م - 24هـ/644م)

هي تماضر بنت عمرو بن الشريد تنسب إلى بني سليم من قيس عيلان تعدّ أشهر أربع شواعر عربيّات حملن هذا اللقب [كحّالة، 1/ 358 - 373] وهو يعني قصر الأنف ولزوقه بالوجه ولكن العرب كانت تطلقه على الغزال لأنها ترى هذا العيب فيه حلية، ولا صله لهذا اللقب بمعنى الصاحبة مثلما ذهب إليه Gabrielli في دائرة المعارف الإسلامية [EI2 : 4/1059].

لا خلاف بين كتب التراجم في أن ميلادها كان في الجاهليّة لكنّ الخلاف في تحديد سنة ميلادها، أكان عام 590 م [بلاشير، 2/ 293] أم هو عام 575م [دائرة المعارف الإسلامية، EI2: 4/1059] في «عالقة» نجد أين كانت قبيلتها تخيّم.

ليست الأخبار التي تروى عن الخنساء وافرة ولا ينتظمها خطّ رابط سوى خطّ الزمان. ففي مرحلة ما قبل الإسلام تورد الكتب خبر رفضها الزواج من دريد بن الصّمّة سيّد جشم

وفارسها (ت 8هـ/ 630م). وتزوّجت رواحة بن عبد العزّى السّلميّ ومنه أنجبت عبد الله الملقّب بأبي شجرة قبل أن تتزوّج بعده مرداس بن أبي عامر السلمّي أحد فوارس القبيلة المقدامين ومنه أنجبت زيدا ومعاوية وعمرا.

إلّا أن أهم أخبار الحقبة الجاهلية في حياتها يتمثّل في نكبتها في أخويها معاوية وصخر. أمّا معاوية وقد كان أخا الخنساء لأبيها وأمّها فقد قتل في إحدى الغزوات المعروفة بيوم حورة الأوّل سنة 612م، وهو من أيام العرب لسُلَيْم على غطفان. وأمّا صخر وكان أخا الخنساء لأبيها فقتل بعد عام من إصابته في موقعة تعرف يوم كلاب أو يوم ذات الإثل سنة 615م. وفي أخويها وخصوصا في صخر قالت أكثر مراثيها، وتقول الأخبار إنّها ظلّت تبكيهما إلى أن عميت.

ومن أخبارها في الجاهلية حضورها في مواسم الحجّ إلى سوق عكاظ ولقاؤها بفطاحل شعراء عصرها من أمثال «النابغة الذبياني» (ت 604م) حَكَمُ الشعراء في عصره وأعشى قيس(ت 8هـ/ 629م) وحسّان بن ثابت (54هـ/ 673م) ويقال إنّها كانت تنشد الناس بكائياتها في أبيها وأخويها فتقع أشعارها فيهم.

أمّا ما ينقل عنها من أخبار بعد الإسلام فيدور في فلك العقيدة الجديدة أوّلها قدومها مع بني سُلَيم إلى المدينة حوالي 8هـ/ 629م لاعتناق الإسلام بين يدي رسول الله ﷺ وتذكر الأخبار أنّ الرسول ﷺ كان يطرب لشعرها ويقول حين يسمعها تنشده: «هيه يا خنساء». كما تورد الأخبار ما يؤيّد قوّة تفاعلها مع الدين الجديد ويرسّخ قدمها في خطّ الرثاء حين تذكر أنّها كانت تحثّ أبناءها الأربعة على المشاركة في معركة القادسية (سنة 16هـ/ 638م) فاستشهدوا جميعا.

وعموما فإنّ الصورة التي تستقرّ في الأذهان عن الخنساء تبدو طريفة ومثاليّة في كثير من الأحيان. يلحظ ذلك في تحكّمها في مصير رجالها في السّلم وفي الحرب؛ وثباتها على الحزن آمادا وفاء لمن ماتوا من ذويها في الجاهليّة خصوصا؛ وملازمتها بعض سلوك الجاهليّين بعد إسلامها. فلقد روت الأخبار ما دار بينها وبين الخليفة عمر وقد أقبلت تحجّ في زيّ الجاهلية، فوعظها وقلّل من حزنها على أخويها، وقال إنّهما هلكا في الجاهلية فهم «حشْوُ جهنّم». فلمّا أنشدته من مراثيها شدّته بلاغتها فقال: «دعوها فإنّها لا تزال حزينة أبدا». ويروى أنّ عائشة زجرتها للبسها صدارا من الشّعَر نُهي عنه في الإسلام فقصّت عليها ما دلّ على أنّه ردّ لجميل صخر ووفاء له إذ يقول وهو يعنيها:

ولو هلَكْتُ خرّقتْ خِمارها
واتّخذت من شعَرٍ صِدارها

وهذا البيت في ما يبدو حجّة على الوفاء لعادة جاهليّة أكثر منه وفاء لمطلب ميّت عزيز.

لم يضبط تاريخ وفاة الخنساء فمن الأخبار ما يقول إنها ماتت في نهاية خلافة عمر (تمتد بين 14هـ/ 635م - 24هـ/ 644م) ومنها ما يقول إنّ وفاتها كانت في بداية خلافة عثمان (بين 25هـ/ 644م و35هـ/ 656م) في حين يرى غيرهما أنها من الممكن أن تكون أدركت خلافة معاوية (41هـ/ 661م - 61هـ/ 680م)

وماتت في بدايتها. لكنّ أغلب الأخبار ترجّح أن تكون الوفاة إمّا سنة 25هـ/ 644م وإمّا سنة 27هـ/ 647م. تركت الخنساء ابنة شاعرة تسمّى عمرة بنت مرداس لم يصلنا من أخبارها إلّا القليل ومن أشعارها إلّا نتف.

ولئن اقترن اسم الخنساء في الأدب العربي بغرض الرثاء فذلك لأنّ من جمع ديوانها قد يكون اقتصر فيه على هذا الغرض لكثرته في شعرها، ولكنّ الخنساء كانت تنافس في عصرها أعلام الشعر الجاهلي ويعترفون لها بالفضل والسّبق. فقد أنشدت النابغة الذبياني في سوق عكاظ تحكّمه وأنشده معها الأعشى وحسّان بن ثابت فقال لها النابغة: «والله لو لا أن أبا بصير (يعني الأعشى) أنشدني آنفا لقلت إنّك أشعر الجنّ والإنس» [ابن قتيبة، 1/ 26] فقدّمها على حسّان بن ثابت. وقيل لجرير: من أشعر الناس ؟ قال: أنا لولا هذه الخبيثة (يعني الخنساء). وقال بشّار: لم تقل امرأة قطّ شعرا إلّا تبيّن الضعف فيه، فقيل له: أوَكذلك الخنساء قال: «تلك فوق الرجال». وغير ذلك من الأقوال التي تحلّ الخنساء فيها مكانة بين الشعراء رفيعة.

تتكون بنية القصيدة الرثائية في ديوان الخنساء من العناصر التالية التي قد تحضر جميعها أو يحضر بعضها: الافتتاح بمخاطبة العين الباكية ثم ذكر مناقب المرثيّ بما هو رمز للسيّادة والفضيلة وقد تخلص إلى الاستنفار لأخذ الثأر على عادة الجاهليّين.

إنّ الدّوران حول غرض واحد وحول مرثيّ شبه يتيم، ممّا يوقع النص في الرّتابة التي قد نجد لها بعض الملامح في الديوان كإعادة المعنى الواحد بالأسلوب المتشابه والمتماثل وكأنه ضرب من المرارة الذاتية (التناصّ الداخلي). ولكنّ الشاعرة كانت تتقن الإفلات من شرك الرتابة بطرق يمكن إجمالها في ثلاث: أولها أن تجعل الرثاء بابا يُدخلها إلى معان أخرى كالافتخار بالقبيلة أو وصف مشاهد الحرب ومنافراتها. ثانيها أن تغيّر الطريقة التي تثير بها معنى الموت والفاجعة كأن تجعل مثلا ممّا يملك الراثي من قيمة أو من متاع سببا للحديث عن المالك. ثالثها حسن توظيف الوجوه البلاغية وكانت في الغالب تستقي صورها من البيان (تشبيها واستعارة و كناية) وأمّا البديع فتأخذ من محسّنه المعنويّ من غير ما تكلّف. وقد تلجأ إلى ما يصنع الإيقاع الداخلي الرتيب والمحبّذ بما تعتمله من تكرار الصيغة الصّرفية والتوليفة التركيبيّة الواحدة. وأمّا لغتها فهي وإن كانت أقرب إلى عبارات الجاهليين فإنها أكثر ألفة وأقلّ غموضا للجوئها في الأغلب إلى المعجم المشترك أو المألوف.

وأخيرا فإن شعرها يشدّك بما فيه من وصف دقيق لخبايا وجدانها الكليم وللنموذج القيمي الذي تنشده امرأة في رجل مثاليّ؛ دون أن تذهب المبالغة بما في الوصف من صدق في الشعور ووضوح في الرؤيا.

آثارها

جمع ديوانها في العصر العباسي ويرجّح أن ابن السّكّيت هو من جمعه وربما كان لهذا البعد الزمني بين زمن القول وزمن الجمع دور في ترسّخ صورة الخنساء رمزا للبكاء والرثاء بناء على الأخبار التي تروى عنها.

نشر ديوان الخنساء بعناية الأب لويس شيخو

سنة 1888م بمطبعة اليسوعيين، بيروت. ضمّ مراثي شاعرات أخر من شواعر العرب بلغت الستين. ثم شرح الأب شيخوالديوان وسمّاه «أنيس الجلساء في شرح ديوان الخنساء» 1895. كما ترجم ديوانها إلى الفرنسية الأب «كوبيه» P. Coppier ونشرت الترجمة ببيروت عام 1889. وترجمت نماذج من أشعارها إلى الإيطالية بعناية «غبريالي» G. Gabrielli؛ فلورنس 1899 وروما 1944.

ضمّ ديوانها حوالي مائة قصيدة ومقطوعة رثائية كان معظمها في رثاء صخر ونصيب القصائد الطوال فيها قليل أطولها الرائية التي طالعها:

قذى بعينك أم بالعين عوّار

[ص 42 ـ 48 بها 35 بيتا].

نظمت القصائد على البحور التقليدية المختلفة. كان للبحور الخفيفة فيها نصيب مما جعلها تحظى لدى أشهر المغنّين كإبراهيم الموصلي وابن سريج بالاعتناء. وما من شك في أنّ الغناء قد كان من دوافع جمع ديوانها في العصر العباسي. مع الخنساء اتخذ غرض الرّثاء نمطه المثالي فهي أهمّ من نحت هيكل هذا الغرض ورصّف معانية وهي أهم من عبّر في هذا الغرض عن عاطفة كلمى وحسرة عميقة وبكاء لا ينضب. وينبغي أن ننتظر طويلا حتّى نجد راثيا آخر ينافسها في هذا الغرض منافسة جادّة هو علي الحصريّ (ت 488هـ/1095م).

وما يلاحظ في هذا الديوان غياب نصوص ترثي فيها أبناءها الأربعة. ولئن كنا نجهل السر في هذا الغياب هل هو زهدها في الشّعر وقت وفاتهم أم إزاحة الاختيار لها فإنّ انحصار مرثياتها في أخويها وأبيها يجعلها تدور في فلك جاهليّ وهذا هو السبب الحقيقي في ما أثير حول شعرها من آراء تقول إنّها ظلّت تعبّر عن رؤية جاهلية على الرغم من إسلامها [انظر 4 /1059 :EI2]. ونحن قد نجد رغم ذلك في مراثيها المعاني الإسلامية كما في رثائها صخرا

اذهبْ حريبا جزاك الله جنّته
عنّا وخلّدتَ في الفردوس تخليدًا

قد عشت فينا ولا ترمى بفاحشة
حتى توفّاك ربُّ الناس محمودًا

المصادر والمراجع

● ابن سلام، طبقات؛ ● ابن قتيبة، الشعر والشعراء، 1/ 260 ـ 264؛ ● الأصفهاني، الأغاني 13/ 135 ـ 155؛ ● البغدادي، الخزانة، 1/ 208؛ ● حسن الصحابة، 94؛ ● جمهرة الأنساب، 249؛ ● كحالة، أعلام النساء، 1/ 360 ـ 373؛ ● الزركلي، الأعلام، 2/ 86؛ ● سركيس، معجم المطبوعات، 2/ 837 ـ 838؛ ● بلاشير، تاريخ الأدب، 1/ 293 ـ 294؛

● R. Blachère: Histoire 290-292; ● F. Gabrielli : Al- Khansa. EI2: 4/1059.

د. توفيق قريرة
جامعة منوبة ـ تونس

الخوارزمي، أبو بكر محمد بن العباس

(323هـ/935م ـ 382هـ/993م)

هو محمد بن العباس أبو بكر الخوارزمي، ولد سنة 323هـ/ 935م في خوارزم، ولما شب بدأ يطوف في البلاد في سبيل العلم والمال، وقد أقام حينا في الشام واتصل بسيف الدولة ثم غادر حلب إلى بخارى واتصل بابن البلعمي وزير المنصور الأول ابن نوح الساماني (350 ـ 366هـ). ولكنه فارقه واتّجه إلى نيسابور ثم استأنف رحلته إلى سجستان. ولكنه لم يسرّ فيها ذلك أن واليها طاهر بن محمد ألقى به في السجن مدة بعدئذ. وقصد الصاحب بن عباد في أرجان ولكنه هجاه أيضا، وغادر أرجان وعاد إلى نيسابور فلما لم ينل حظوة عند الوزير ابن نصر العتبي هجاه فصادر أمواله وألقاه في السجن، ولكن الخوارزمي استطاع أن ينجو من السجن وهرب إلى جرجان. فلما قتل العتبي خلفه أبو الحسين المزني فاستقدم الخوارزمي إلى نيسابور فقد كان صادقا له ومحبا وعوضه عما كان قد صودر من أمواله.

وتعرض أبو بكر الخوارزمي في أواخر أيامه إلى المنافسة من قبل بديع الزمان الهمذاني، وناله من جرّاء ذلك أذى كبير وخصوصا في المناظرة المشهورة، وكانت وفاة الخوارزمي في نيسابور في منتصف رمضان في سنة 382هـ/ 993م في الأغلب.

ولأن أباه من خوارزم وأمه من طبرستان فركب له من الاسمين اسما كما ذكره السمعاني وهو ابن أخت أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، صاحب التاريخ.

وأبو بكر أحد الشعراء المجيدين الكبار المشاهير، وكان إماما في اللغة والأنساب، ويحكى أنه قصد حضرة الصاحب بن عباد فلما وصل إلى بابه قال لأحد حجابه: قل للصاحب على الباب أحد الأدباء وهو يستأذن إليك في الدخول. فدخل الحاجب وأعلمه فقال الصاحب: قل له: قد ألزمت نفسي أن لا يدخل عليّ من الأدباء إلا من يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب، فخرج إليه الحاجب وأعلمه بذلك، فقال له أبو بكر: ارجع إليه وقل له: هذا القدر من شعر الرجال أم من شعر النساء؟ فدخل الحاجب وأعاد عليه ما قاله، فقال الصاحب: إنّه الخوارزمي. فأذن له بالدخول فدخل عليه فعرفه وانبسط له.

آثاره

لأبي بكر ديوان رسائل، وديوان شعر، وقد ذكر الثعالبي في كتاب اليتيمة قطعة من نثره ثم أعقبها بشيء من نظمه، فمن ذلك قوله:

رأيتكَ إن أيسرت خيّمت عندنا
مقيمًا وإن أعسرت زرتَ لِماما

فما أنت إلا البدرُ إنْ قلّ ضوؤه
أغبُّ وإن زاد الضياء أقاما

ولما رجع إلى الشام سكن نيسابور ومات بها في منتصف شهر رمضان سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة، وذكر شيخنا ابن الأثير في تاريخه أنّه توفي سنة ثلاث وتسعين. وكان قد فارق الصاحب بن عباد غير راض فعمل فيه:

لا تحمدنَّ ابنَ عباد وإن هطلت
يداه بالجودِ حتى أخجلَ الدِّيما

فإنها خطراتٌ من وساوسه
يعطي ويمنع لا بخلاً ولا كرما

فبلغ ذلك ابن عباد، فلما بلغه خبر موته أنشد:

أقولُ للركب من خراسان قافلٌ
أماتَ خوارزميكم؟ قيل لي نعم

فقلت: اكتُبوا بالجصِّ من فوق قبره
ألا لعن الرحمٰن مَن كفر النِّعم

لقد كان الخوارزمي إماما في اللغة، عالما بأشعار العرب عارفا بأنسابها وأخبارها كثير الحفظ للأشعار. أمّا شعره القليل الذي سلم من الضياع فهو أقرب إلى شعر الكتاب منه إلى شعر الشعراء المطبوعين: إنه حسن المعاني، قوي السبك، صافي الأسلوب، ولكنه قليل الرونق والطلاوة. ومن فنون شعره الهجاء والمديح والرثاء مع شيء من الحكم المبثوثة فيها. وأما نثره فكان ترسّلا، وكان أسمى طبقة من شعره إذا قيست برسائل بديع الزمان الهمذاني. وأبو بكر يتكلف الصناعة في رسائله، ولكنه يصيبها في أحيان كثيرة. ويقصد إلى الفكاهة والتهكم فيجيدهما جيدا.

المصادر والمراجع

● الذهبي، شمس الدين، سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، ط 4، بيروت، 1986، 16/ 526؛ ● الحافظ، الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تح. د. عمر عبد السلام تدمري، الناشر دار الكتاب العربي، ط1، 1988، بيروت، لبنان، حوادث ووفيات (381 ـ 400)، 16/ 526؛ ● سيزكين، فؤاد، تاريخ التراث العربي، أشرف على طبعه إدارة الثقافة والنشر، المملكة العربية السعودية، 1983م، المجلد 2، 4/ 247؛ ● فروخ، عمر، تاريخ الأدب العربي، العصور العباسية، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1981م، 2/ 544 ـ 545؛ ● السيوطي، جلال الدين، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية بيروت، لبنان 1964م، 1/ 125.

د. رافعة سعيد حسين السراج
جامعة الموصل ـ العراق

الخوارزمي، أبو عبد الله محمد بن موسى

(164هـ/780م - 235هـ/850م)

هو أبو عبد الله محمد بن موسى الخوارزمي، أحد أشهر علماء الرّياضيّات والفلك والجغرافيّة الّذين اشتهروا في القرن الثّالث الهجري. ولد في بلدة خيوق جنوب إقليم خوارزم (أوزبكستان حاليًا)، ثمّ انتقل إلى بغداد حيث ولّاه المأمون منصبًا في بيت الحكمة فعمل على جمع الكتب اليونانيّة وترجمتها، وانصرف إلى دراسة الرّياضيّات والجغرافيّة والفلك والتّاريخ. لا يعرف كثير عن حياته قبل انتقاله إلى بغداد، ولكن وفقا لرواية ابن النّديم في «الفهرست»: «أنّه كان يهوديًا وأسلم على يد المأمون وكان منجّما له، وهو الّذي بنى الكنيسة الّتي في ظهر باب الشماسيّة في حريم دار معز الدّولة، وعمل في جملة الرّاصدين بل كان على الأرصاد كلّها».

وقد بزغ نجم الخوارزمي في بيت الحكمة حيث عمل في مرصد الشّمّاسيّة ببغداد مع كلّ من يحيى بن أبي منصور المولى، وأبناء موسى بن شاكر الثّلاثة الّذين كانوا يتدرّبون على أعمال التّنجيم تحت إشراف يحيى بن منصور، ومن خلال هذا الفريق طلب المأمون التّأكّد من محيط الأرض بعد أن بلغه أنّ اليونان قد قدّروا محيطه، وقد خرجت بعثة لصحراء سنجار لأداء هذه المهمّة. كما اشترك في حساب ميلان الشمس، وبحث إلى أيّ حدّ نبأ اقتران الكواكب عند مولد النّبيّ ﷺ برسالته، كما أعدّ الخوارزمي أيضا مجموعة من صور السّموات والعالم نزولا عند إشارة المأمون. ولقد تناول الخوارزمي كتاب «السند هند الكبير» بالدّراسة عن قرب فرأى أن يختصره ويصحّحه ويستخلص منه زيجا فحلّ زيجه محلّ كتاب الفزاري. كما أصلح الخوارزمي بمقدار عشر درجات القيمة المبالغ فيها الّتي أعطاها بطليموس لطول البحر الأبيض المتوسّط، واختار خطّ الزّوال الصفري الّذي يمرّ بساحل بحر المحيط الغربي، وبذلك جاءت بغداد على خطّ الطّول المحدّد بـ 70، بدلا عن خطّ الطّول بـ 80 وفقا لجغرافيّة بطليموس، ورسم خريطة جغرافيّة للعالم، لم يعثر عليها وإنّما ظهرت في ثلاث خرائط إقليميّة للبلخي، والاصطخري، والمقدسي.

كان الناس يعوّلون على زيجيه الأوّل والثاني. وهما عبارة عن جداول فلكيّة عملهما اعتمادا على الحساب لا على الرّصد العملي. وقد استفاد من هذين الزيجين علماء الإسلام في المشرق أمثال الفرغاني (ق 3هـ/ 9م)، وحبش الحاسب (ق 3هـ/ 9م)، والبيروني (ق 5هـ/ 11م). وفي المغرب أمثال المجريطي (ق 4هـ/ 10م)، والزرقالي (ق 5هـ/ 11م). وعن طريق علماء الأندلس تعرّف الغربيّون إلى التراث الفلكي الخوارزمي فترجموه إلى لغاتهم وعملوا به.

أمّا إسهامات الخوارزمي في علم الجغرافيا

فتمثل في إشرافه على إنجاز أوّل مؤلّف عربي صرف في هذا الاختصاص. أطلق عليه «كتاب صورة الأرض» أو «الصورة المأمونيّة»، نسبة إلى الخليفة المأمون. وقد استلهم واضعو هذا الكتاب جغرافية العالم اليوناني بطليموس. ومن هنا دخول العديد من المصطلحات اليونانيّة إلى الأدب الجغرافي العربي. وعن طريق العرب، وفي ثوبها العربي، دخلت هذه المصطلحات فيما بعد إلى اللغات الأوروبيّة. منها: إقليم (Climat). الطقس (Temps). القطر (Centre).

ولم يكتف الخوارزمي بالنقل عن الآثار اليونانيّة بل عوّل أيضا على المصادر الهنديّة القريبة العهد من العرب. واستفاد منها خاصة في مجال رسم خطوط الطول والعرض.

واهتمام الخوارزمي بعلمي الفلك والجغرافية مردّه في الواقع إلى اهتمامه بالحساب بمختلف فروعه. وعلى هذا الأساس قرّبه الخليفة المأمون إليه وأدخله بيت الحكمة وشجعه على تأليف مؤلّفه الشهير: «كتاب الجبر والمقابلة».

إن شهرة الخوارزمي ومنزلته لدى العرب والأجانب في العالم القديم ترجع بوجه خاص إلى هذا الكتاب الهام الذي يرجع تاريخ تأليفه إلى الفترة ما بين 813 ـ 833م؛ وهو كتاب نهل منه علماء الغرب وأوروبا على السواء، واعتمدوا عليه في بحوثهم ونظرياتهم مما أحدث بدون شك أكبر الأثر في تقدُّم علم الجبر؛ إذ تظهر كلمة الجبر للمرة الأولى في عنوان للدلالة على مادة رياضية متميزة تمتلك تعابيرها التقنية الخاصة. ولكي تتّضح أهمية كتاب الخوارزمي للأذهان يكفي أن نشير إلى أنّ علم الجبر Algebra أصبح يعرف في الحضارة الأوروبية بذات الاسم الذي أطلقه عليه الخوارزمي في هذا الكتاب. أما اسم الخوارزمي نفسه فلقد تم تحريفه إلى Algorithm وأصبح يطلق للدلالة على الطريقة الوضعية في حل المسائل؛ كما اشتق من اسمه في اللغة اللاتينية المتأخرة كلمة Algorismus للدلالة على الأعداد الزوجية، وأطلق الإسبان كلمة أخرى محرفة عن اسمه هي Guarismo للدلالة على الأعداد أو الأرقام عموما.

إن أقدم نص رياضي معروف في نطاق الجهود العلمية التي سبقت عصر الخوارزمي سواء في المعادلات الرياضية أو في استخدام الطرق الجبرية في حلّ المسائل الحسابية، هو بردية أحمس المصرية التي يرجع تاريخها إلى عام 1700ق.م، ثم نجد من بعدها نصوص علماء الرياضيات الإغريق وعلى رأسهم شيخهم فيثاغورس Pythagoras، ثم نصوص إقليدس Eukleidês الذي عاش وقتًا بمدينة الإسكندرية إبان حكم الملك بطليموس الأول. ومن بعدهم نجد نصوص عالم الرياضيات المشهور هيرون؛ وعالم الحساب ديوفانتوس Diophantos السكندري، الذي تمكن من تطوير علم الحساب ومعادلاته في كتابه الشهير أرتماطيقا Arithmêtika في ثلاثة عشر جزءا لم يتبق منها سوى ستة أجزاء؛ ويعد ديوفانتوس أول من أدخل الرموز الجبرية في حل مسائل الحساب. ولقد تم تدوين تعليقات ودراسات كثيرة على مؤلفات ديوفانتوس من أهمها ما دونته هيباتيا

Hippatia ابنة الفيلسوف السكندري ثيون Theon في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي. وإلى جانب هذا نجد التراث الهام الذي أنتجه كل من الهنود والبابليين في مجال الرياضيات، إذ يرى بعض الباحثين أن اجتماع الهندسة الإغريقية مع الحساب الهندي كان أمرًا ضروريًا لكي ينشأ علم الجبر.

ويتميّز كتاب الجبر والمقابلة للخوارزمي بالجدّة في المفاهيم والتعبيرات الواردة به، وفي تنظيمه وبعده عن الغموض والإبهام وبساطة تقنياته رغم علميتها، وهو أمر يعود بلا شك إلى عقلية الخوارزمي الفذّة وقدرته على هضم تراث علوم رياضية، يسبقه بحوالي عشرين قرنًا من الزمان في كل من الحضارات المصرية القديمة، والبابلية، والهندية، والاغريقية.

يستهلُّ الخوارزمي هذا الكتاب بفقرة عن الغرض من تأليفه أوردها هنا للتدليل على تواضعه الجمّ ورؤيته التي تجمع في آن واحد بين النظرية العلمية والتطبيق العملي: «ألفت كتاب الجبر والمقابلة كتابًا مختصرًا حاصرا للطيف الحساب وجليله، لما يلزم الناس من الحاجة إليه في مواريثهم ووصاياهم، وفي مقاسمتهم وأحكامهم وتجارتهم، وفي جميع ما يتعلمون به بينهم من مساحة الأرضين وكرى الأنهار والهندسة، وغير ذلك من وجوهه وفنونه».

يبدأ الخوارزمي القسم الأول من الكتاب بتحديد ما يعرف باسم التعابير الأولية لنظريته، وهي نظرية تنشأ عن طريقها معادلات قابلة للحل بواسطة الجذور يمكن أن ترجع إليها مسائل علمي الحساب والهندسة على السواء، ويمكن استخدامها في المبادلات التجارية والمواريث ومسح الأراضي وغيرها. هذه التعابير الأولية كانت عبارة عن المجهول الذي أطلق عليه الخوارزمي اسم الجذر تارة أو الشيء تارة أخرى، وكذلك مربع المجهول، والأعداد العقلانية الموجبة، والقوانين الحسابية، وعلاقة المساواة. ولقد أدخل الخوارزمي كذلك في نظريته مفاهيم معادلة الدرجة الأولى، ومعادلة الدرجة الثانية، وثنائيات الحدود وثلاثياتها الملازمة لهذه المعادلات، والشكل المنتظم للمعادلات، والحلول الطرائقية Algorithmique، وبرهان صيغة الحل. وبذلك يكون الخوارزمي قد أدخل مفهوما جديدا نطلق عليه اليوم اسم الصيغة المنتظمة، وهو مفهوم يفرض إرجاع كل من هذه المعادلات إلى الصيغة الطبيعية التي تقابلها. كما أن الخوارزمي قد برهن على مختلف صيغ الحلول - لا جبريا بل عن طريق مفهوم تساوي المساحات - وقدم هذه البراهين بوصفها علة الحل.

ويرى الخوارزمي في كتابه أن الأعداد التي نحتاج إليها في الاستخدام تندرج في ثلاثة ضروب هي: جذور، وأموال، وعدد مفرد لا ينسب إلى جذور أو أموال. فأما الجذر فهو ما يرمز إليه في الجبر الحديث بالرمز (س)، أي المجهول، ولقد استخدم قدماء العرب للإشارة إلى الجذر أو إلى المجهول لفظ شيء.

ويتبين لنا من هذا الكتاب أن العرب كانوا

يعرفون حل المعادلات من الدرجة الثانية، وهي ذات الطريقة التي نجدها الآن في كتب الجبر التي تدرس بالمدارس الثانوية؛ ولم يجهل العرب أن لهذه المعادلات جذرين، وتمكنوا من استخراجهما إذا كانا موجبين. كذلك تنبهوا إلى الحالة التي يكون فيها الجذر (= المجهول) كمية تخيلية Imaginary quantity. ولم يكتف الخوارزمي في هذا السياق باشتراط تقديم برهان واحد لكل حالة من الحالات المطروحة، بل اقترح أحيانًا برهانين مختلفين لنفس النوع من المعادلات، وبذلك صار لزامًا عليه - عن طريق هذا المنهج - إرجاع أية مسألة يعالجها الجبر، حسابية كانت أو هندسية، إلى مسألة بمجهول واحد من الدرجة الثانية على الأكثر. ثم أصبح يلزم بعد ذلك تطبيق العمليات الجبرية، الناقلة والاختزال، لكي توضع المعادلة في شكلها المنتظم. وعند ذلك تجوز فكرة الحل كإجراء تنفيذي بسيط، ثم تبرير صيغة الحل رياضيًا عن طريق نموذج برهان هندسي أولي. وفي باب المساحة من كتاب الجبر والمقابلة نجد عمليات هندسية يتم حلها بطريقة جبرية، الأمر الذي ينهض دليلاً على أن العرب كانوا روادًا في مجال الاستعانة بالجبر في حل المسائل الهندسية أيضا دون الاقتصار في هذا المجال على المسائل الحسابية وحدها. ولقد استطاع الخوارزمي بمهارة وحنكة أن يتوصل في هذا الكتاب - حسب قوله - إلى أن كل ما يعمل به من حساب الجبر والمقابلة لا بدّ أن يخرجنا إلى أحد الأبواب الستة التي وضع تفاصيلها في كتابه.

وكتاب «الجبر والمقابلة» بكل تأكيد هو المحاولة الأولى التي تم تكريسها لدراسة علم الحساب بصفته الجبرية لا العددية. ذلك أن عناصر هذا الحساب توجد عند الخوارزمي كموضوعات لفصول قائمة بذاتها نسبيا. ولقد ألحق الخوارزمي هذه الفصول بفصول أخرى شرع فيها بتطبيق النظرية التي أنشأها من أجل حل المسائل الحسابية العددية والهندسية، قبل أن يعالج في نهاية الأمر المسائل المتعلقة بالميراث والتعاقب.

لقد نقل الخوارزمي علم الحساب كما تسلمه من الإغريق نقلة كبيرة، ويكفي أن نعلم أن الطريقة الإغريقية في الحساب كانت طريقة تفتقر إلى الابتكار وتتسم بالعقم، رغم تميز الهندسة الإغريقية وتقدمها وخصبها - فلقد كان الإغريق يستخدمون في نطاق الأعداد تسعة من الحروف الأبجدية (من حرف ألفا إلى الحرف ثيتا) كرموز للدلالة على الآحاد من 1 - 9، ثم تسعة حروف أخرى (من حرف اليوتل، وإلى حرف الكوبا) كرموز للدلالة على العشرات من 10 - 90. ثم تسعة ثالثة (من حرف الرو إلى حرف السانبي) كرموز للدلالة على المئات من 100 - 900. ثم يعودون ثانية لاستخدام ذات الحروف الأبجدية بعد وضع علامة مميزة عليها كرموز للدلالة على الآلاف. فلما انتقلت الأرقام الهندية إلى العرب، وتم اكتشاف الصفر وامتزج الحساب الجديد بالهندسة الإغريقية، صار من الممكن لعبقري من طراز الخوارزمي أن يضع مواصفات علم الجبر الذي أسسه بقريحته الثاقبة على الجمع بين الفكرة الهندسية والفكرة العددية للكميات.

وإن الجبر يبدو في بدايته نوعًا من الحساب

أكثر شمولاً مما نعرفه الآن باسم اللوجستية Logistie، لأنه يسمح بحل المسائل بمزيد من الدقة بفضل مفاهيمه؛ كما أنه أكثر شمولاً من الهندسية المترية (= القياسية). وهذا الحقل العلمي الجديد في واقع الأمر هو عبارة عن نظرية للمعادلات الخطية والتربيعية، ذات المجهول الواحد والقابلة للحل بواسطة الجذور، وتتناول أيضًا الحسابات الجبرية اللازمة لهذه المعادلات قبل أن تعرف فكرة المعادلات ذات الحدود المتعددة Polynomes.

ويعرّف محمد بن الحسين بهاء الدين العاملي (1547 ـ 1631م)، في كتابه الذي يحمل عنوان «خلاصة الحساب»، الجبر والمقابلة بالتعريف التالي: «الطرف ذو الاستثناء يكمل، ويزاد مثل ذلك على الآخر وهو الجبر؛ والأجناس المتساوية في الطرفين تسقط منها، وهو المقابلة».

وتعليقًا على هذا التعريف البسيط والدقيق في ذات الوقت يجدر بنا أن نشير إلى أن العرب، على عكس الهنود، لم يتوصلوا إلى إدراك المقامات السالبة، وبالتالي كانوا إذا حصلوا عليها في نتائج المسائل اضطروا إلى تصحيح (أي جبر) المعادلة الناقصة أو غير المنتظمة.

إن الخوارزمي لا يعدّ واضعًا لعلم الجبر فحسب، بل إن انتشار هذا العلم من بعده في كل من الشرق والغرب إنما يرجع الفضل فيه إلى كتابه المذكور في الجبر والمقابلة الذي صار المرجع الأول للمؤلفين والمترجمين من عرب وأجانب على السواء. وبفضل هذا الكتاب ومفاهيمه تمكن العلماء العرب ـ بعد الخوارزمي ـ من استخدام الرموز في الرياضيات عمومًا، وسبقوا علماء الغرب في هذا المضمار. كما تمكنوا من استخدام الرموز في حل بعض معادلات الدرجة الأولى بطريقة حساب الخطأين. ومن هؤلاء العلماء الذين عاصروا الخوارزمي أو عاشوا بعده: أبو العباس أحمد بن محمد بن كثير الفرغاني (حوالى 860م) ويعرفه الأوروبيون باسم ألفراغانوس Alfraganus، وهو الذي ألف كتابًا بعنوان «أصول الفلك»؛ ومحمد بن الحسين بهاء الدين العاملي (1547 ـ 1631م)، عالم سوري ألف بكل من العربية والفارسية، وله كتاب بعنوان «خلاصة الحساب»؛ وأبو العباس الفضل بن حاتم الديريزي (ت عام 922م) وهو المعروف عند الأوروبيين باسم أناريتيوس Anaritius، ويعد من مشاهير شراح نصوص عالم الهندسة الإغريقي إقليدس، وعالم الجغرافيا الرياضيات الإغريقي بطلميوس؛ وأبو الحسن ثابت بن قرة بن مروان الحراني (827 (؟) ـ 901 م)، وكان رئيسا لمدرسة الترجمة في عصره؛ وقسطا بن لوقا البعلبكي (ت عام 912م)، وهو مسيحي من أصل يوناني، ترجم كتاب الميكانيكا لعالم الرياضيات الإغريقي الأشهر هيرون.

وعن طريق ترجمة كتاب الجبر والمقابلة للخوارزمي إلى اللغة اللاتينية استطاع الأوروبيون استيعاب علم الحساب وعلم الجبر وتطويرهما، وفي هذا السياق تم نشر كتب بنيت أفكارها على ما جاء في كتابه هذا، نذكر منها:

Alexander ville Dieu, Carmen de Algorismo, 1240.

Jean de Sacrobosco (= John of Halifax), Algorisms Vulgaris, 1256.

آثاره

1 ـ كتاب الجبر والمقابلة وهو أهمّ كتبه، حقّقه علي مصطفى مشرفة ومحمد مرسي أحمد بالقاهرة عام 1937م، ونشر بعناية الجامعة المصريّة؛ كما أعيد طبعه مرّة أخرى على نسخة مشرّفة بالدّار القوميّة بالقاهرة عام 1968م؛ وأعادت الهيئة المصريّة العامّة للكتاب طبعه عام 1998م بمناسبة احتفال كليّة العلوم جامعة القاهرة بذكرى مرور مائة عام على ميلاد مشرفة.

ترجم الكتاب إلى لغات عديدة، كما أعيد كمقرّر دراسي في جامعات أوروبا حتّى القرن السّادس عشر الميلادي . . . فقد ترجمه إلى اللّاتينيّة روبرت أوف تشستر، وكذلك جيرارد الكريموني من كليّة طليطلة بأسبانيا. وقد نشر الكتاب عام 1831م فردريك روزن مع ترجمة باللّغة الإنجليزيّة. وفي عام 1915م نشر كاربنسكي ترجمة عن نسخة روبرت أوف تشستر وعن الأصل العربي، إلّا أنّه كان بين التّرجمة اللّاتينيّة والأصل العربي اختلاف في مواضع كثيرة. ثمّ أعيد طباعة نسخة روزن في مطبعة بول باريبه بلندن عام 1937م. وكذلك نشر مار ترجمة فرنسيّة لأحد فصول الكتاب الّذي يتكلّم فيه عن المساحات. كما ترجم الكتاب إلى لغات أخرى عديدة منها العبريّة والصّينية؛ 2 ـ كتاب الحساب لم يصل إلينا، بل وصلتنا فقط الترجمة اللاتينية له، التي عرفنا منها أنه كتاب كان له أعظم الفضل في تعريف العرب، ومن بعدهم الأوروبيون، بنظام العدد الهندي. كما أنه كان له أكبر الأثر في تطوير علم الحساب عند الأوروبيين في العصور الوسطى، وأنه قد فتح عصرًا جديدًا في علم الرياضيات؛ 3 ـ صورة الأرض، قام فيه بتحديث كتاب الجغرافي الإغريقي بطلميوس وهو ما اعتبره الباحثون بحثا جديدا مستقلا في علم الجغرافيا وليس مجرد نقل أو محاكاة لما ورد عند الإغريق؛ 4 ـ كتاب تقويم البلدان؛ 5 ـ كتاب التاريخ؛ 6 ـ كتاب الرخامة؛ 7 ـ كتاب الزيج الأول والثاني (في علم الهيئة)؛ 8 ـ كتاب العمل بالإسطرلاب؛ 9 ـ كتاب الهندسة، جمع فيه بين الهندسة والحساب والموسيقى والفلك؛ 10 ـ كتاب الجمهرة [هدية العارفين، 6/ 9].

المصادر والمراجع

● الخوارزمي، محمد بن موسى، كتاب الجبر والمقابلة، نشر علي مصطفى مشرفة ومحمد موسي أحمد، القاهرة 1968م، دار الكتاب العربي؛ ● ابن النديم، الفهرست، الفن الثاني، من المقالة السابعة أخبار المهندسين والحساب والمنجمين ط 2، دار المعرفة، بيروت 1417هـ/ 1997م، ص 335 ـ 336؛ ● البغدادي، هدية العارفين، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 6/ 9؛ ● ألدوميلي، العلم عند العرب وأثره في نطور العلم العالمي، تر. عبد الحليم النجار ومحمد يوسف موسى، دار القلم، القاهرة 1962م؛ ● قدري حافظ طوقان، تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، دار القلم، القاهرة 1963؛ ● رشدي راشد (إشراف)، موسوعة تاريخ العلوم العربية، الجزء الثاني: الرياضيات والعلوم

الفيزيائية، بيروت 1997م، مركز دراسات الوحدة العربية، مؤسسة عبد الحميد شومان؛ ● الكتبي، زهير، محمد بن موسى الخوارزمي، وزارة الثقافة، دمشق 1996م، [انظر عرضا له بقلم نسيب شادي في مجلة التراث العربي، س 2، عدد 8 تموز ـ يوليو 1982 م، ص 172 ـ 177]؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط 7، دار العلم للملايين، بيروت 1986م، 7/ 116؛ ● دائرة المعارف الاسلامية، ط. ج، 4/ 1101 فصل الخوارزمي.

د. محمد حمدي إبراهيم
جامعة القاهرة ـ مصر
د. أحمد فؤاد باشا
جامعة القاهرة ـ مصر
المهندس حسين عبد العزيز
مهندس ـ تونس

الخوارزمي، أبو الفضل القاسم بن الحسين

(555هـ/1160م ـ 617هـ/1220م)

القاسم بن الحسين بن محمد أو أحمد مجد الدّين الطرائفي الخوارزمي أبو محمد أو أبو الفضل صدر الأفاضل، نحوي أديب ولد في خوارزم وبدأ تعلّمه فيها ورحل في طلب العلم فحلّ ببخاري ودخل سمرقند ولا نعرف إلّا القليل عن أساتذته، ومنهم علي المطرزي الخوارزمي (538هـ/ 1143م ـ 610هـ/ 1213م) وهو نحوي أخذ عن تلاميذ الزمخشري وربما شرح كتاب المفصل كما أخذ عن تلاميذ الحريري وشرح مقاماته؛ ويذكر الخوارزمي في ما بقي من مصنّفاته بعض الأعلام الذين قد يكون أخذ عنهم وأشهرهم فخر الدّين الرّازي (ت 606هـ/ 1209م) المفسر المشهور وأحد شراح المفصّل أيضا، ويشير إليه الخوارزمي في شرحه لمقامات الحريري [مقدّمة التخمير، 1/ 20]، ومنهم أيضا عبد الكريم الأنماطي فقد قرأ عليه مقامات الحريري؛ وقد يكون أخذ عن أفضل الدّين الغيلاني وأثنى عليه شعرًا، وبرهان الدّين الرشتاني المرغاني ورثاه [مقدّمة التخمير، 1/ 21].

قضى الخوارزمي حياته في التّدريس والتأليف ولكنّا لا نعرف شيئا عن تلامذته؛ وقد ذكر محقّق «التّخمير» بعض الأسماء، اعتمادا على ما وجده منسوخا في بعض نسخ كتب الخوارزمي، ومنهم موفق الدين محمد المفسّري الخوارزمي ناسخ كتاب بدائع الملح، فقد دوّن على نسخة هذا الكتاب أنّ مؤلفه أجازه له، كما أنّ المبارك بن المستوفي الإربليّ (ت 639هـ/ 1241م) ذكر في كتابه «إثبات المحصّل» أنّ الخوارزمي أجاز له. . . ؛ وقد قال ياقوت فيه وقد التقى به في

منزله: «واحد الدّهر في علم العربيّة ذو الخاطر الوقّاد والطبع النقاد» [معجم الأدباء، 16/ 238].

آثاره

وضع الخوارزمي قرابة العشرين مصنّفا في النحو، واللّغة، والبلاغة، والأدب لا نعرف منها إلّا القليل ومنها:

1 - شرح المفصل في صنعة الإعراب الموسوم بالتخمير، تح. د. عبد الرّحمٰن بن سليمان العثيمين، دار الغرب الإسلامي ط 1، بيروت 1990، وهو شرح لمفصّل الزمخشري وقد انتهى الخوارزمي من تأليفه سنة 611هـ/ 1214م؛ بعد أن حلّق عليه حسب عبارته قريبا من ثلاثين سنة [1/ 132]، ويتّسم هذا الشرح بنزعة منطقيّة تتجلّى في طريقة التّقديم وترتيب العناصر وبعض المصطلحات، كما أنّ للشّارح مصطلحات خاصّة به من نوع «المشرّح» عوض الشارح و«الطيفة» لتقديم تعليق له يتّصل بالمجردات من الأمور؛ ويبدو أنّ هذا الشرح سرعان ما انتشر ونقل عنه عدد من الشرّاح للمفصّل ومنهم علم الدّين الأندلسي (ت 661هـ/ 1262م) وقد أتمّ شرحه سنة 619هـ/ 1222م، والزملكاني (651هـ/ 1253م)، وفخر الدّين الاسفندري (698هـ/ 1298م)، وتسمّى بعض المصادر هذا الشرح بكتاب التجمير [معجم الأدباء، 16/ 253].

وللخوارزمي شرحان آخران للمفصل: الشرح الأوسط الموسوم بالسبيكة، وشرح أصغر منه موسوم بالمجمرة؛ 2 - ضرام السقط، وهو شرح سقط الزند للمعري أتمّه سنة 587هـ/ 1191م عند إقامته بسمرقند، وقد نقل عنه عدد من المصنّفين كالبغدادي في خزانة الأدب؛ نشر في مدينة تبريز سنة 1276هـ؛ ثمّ حقّق بإشراف طه حسين حقّقه مع شرحي الخطيب التبريزي وابن السيد البطليوسي مصطفى السقا، وعبد الرّحيم محمود، وعبد السلام هارون، وابراهيم الأبياري، وحامد عبد المجيد؛ 3 - التّوضيح، وهو شرح لمقامات الحريري، ومنه نسخة بمكتبة برلين رقم 8543؛ 4 - اليمنيّ، وهو شرح موجز لكتاب اليمينيّ لمحمد بن عبد الجبار العتبيّ (ت 427هـ/ 1035م) وقد خصّصه لسيرة محمود بن سبكتكين الغزنوي؛ منه نسختان بمكتبة حميدية بتركيا رقم 1004 و1168 ضمن مجموع، ونسخة ولي الدّين رقم 2432...؛ 5 - بدائع الملح، وهو كتاب ذو صبغة أدبيّة ألّفه سنة 590هـ/ 1193م، ويتكوّن من اثني عشر بابا في الحكم، والأمثال، ومكارم الأخلاق، والافتخار بالنّفس، والخمر، والأوصاف، والتّشبيهات، والثّناء والشكر، والاستماحة، والمكاتبات، والهجاء، والمجون، وشكاية الدّهر وأهله، والتهاني والتّعازي، والشيب، والزهد ولطائف الحكايات؛ منه نسخة في مكتبة لا له لي بتركيا رقم 1760؛ 6 - كتاب لهجة الشرع في شرح ألفاظ الفقه؛ 7 - زوايا الخبايا في النّحو؛ 8 - شرح المفرد والمؤلّف؛ 9 - شرح الأنموذج للزّمخشري؛ 10 - شرح الأحاجي النّحويّة للزمخشري؛ 11 - عجائب النّحو؛ 12 - السرّ في الإعراب؛ 13 - شرح الأبنية؛ 14 - عجالة السّفر في الشّعر.

بالإضافة إلى هذه المصنّفات وغيرها،

للخوارزمي شعر أورد منه ياقوت في معجم الأدباء قصائد ومقطوعات، كما ضمن الخوارزمي نفسه مقتطفات منه في كتابه بدائع الملح.

المصادر والمراجع

● ياقوت الحموي، معجم الأدباء، مطبوعات دار المأمون، 16/ 238 - 253؛ ● الذّهبي، تاريخ الإسلام، القاهرة 1367هـ/ 1947م، وفيات سنة 617؛ ● القرشي، الجواهر المضية في طبقات الحنفيّة، دائرة المعارف بحيدر آباد الدّكن 1332؛ ● الفيروز أبادي، البلغة في تاريخ أئمّة اللّغة، تح. محمد المصري، دمشق 1392هـ/ 1972م، 141؛ ● ابن قطلوبغا، تاج التّراجم في طبقات الحنفيّة، بغداد 1962، 50؛ ● ابن الشعار الموصلي، عقود الجمان، 5/ 298؛ ● السّيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللّغويّين والنحاة، تح. محمد أبي الفضل إبراهيم القاهرة 1384هـ/ 1965م؛ 2/ 252؛ ● العثيمين، د. عبد الرّحمٰن بن سليمان، مقدّمة تحقيق التّخمير.

د. عبد القادر المهيري
جامعة منوبة - تونس

الخواص، أبو إسحاق، إبراهيم بن أحمد

(ت 291هـ/904م)

أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل الخواص، صوفي كبير.

أجمع مترجموه أنه من أقران وطبقة النوري، والجنيد، عاش في العهد الذهبي للتصوف معاصرًا لذي النون المصري، والمحاسبي وغيرهما من متصوّفة القرن الثالث الهجري.

من أهل «سُرَّ منْ رأى» (سامراء)، نزل ببغداد فلقب بالبغدادي، وإن كان السُّلمي يعده من أهل العسكر من دون تحديد لأي عسكر يقصد، هل هو عسكر سامراء أو نيسابور أو نابلس أو غيرها من المحال والمواقع الحاملة لهذا الاسم؟ مع ترجيح أن يكون قصد السلمي عسكر سامراء، بحكم أن هذه المسألة ليست خلافية في التراجم [طبقات الصوفية، ص 220؛ حلية الأولياء، 10/ 325؛ معجم البلدان، 3/ 173، 4/ 123 وغيرهم].

ولا تتحدث المصادر التاريخية عن نشأة الخواص وعن والديه، ولا عن السن التي توفي فيها بمسجد الري سنة 291هـ/ 904م، ولكن تتحدث عن أخته لأمه التي كانت سالكة مسلك أخيها أبي إسحاق في الزهد والورع، وعرفت باسم ميمونة أخت إبراهيم الخواص، ويروى عنها مضاهاتها لأخيها في التصوف حتى أنها كثيرا ما تقوّمه، ومما يروى عنها أنه

دخل أخوها إبراهيم «... فقال لها: إني اليوم ضيق الصدر، فقالت: من ضاق قلبه ضاقت عليه الدنيا بما فيها ألا ترى الله يقول: ... ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾... [التوبة: 118]، لقد كان لهم في الأرض متسع ولكن لما ضاقت عليهم أنفسهم ضاقت عليهم بما فيها الأرض» [تاريخ بغداد، 14/ 438؛ وكذا طبقات الصوفية، ص 417]. ولأبي إسحاق الخواص أخ وهوصوفي أيضًا، صاحب صوفي بارز، يقول عنه الخواص: «كان أخي إسماعيل يسافر مع أبي تراب النخشبي ويصحبه وكان له آيات وكرامات، مات قديما» [بغية الطلب، 4/ 1615].

يروي ابن الجوزي في «المنتظم» أن إبراهيم الخواص كان كثير السفر، وهو ما زاده من فرص التعلم والالتقاء بأساتذته وبجهابذة التصوف في عهده، كما مكن العديد من صحبته والتتلمذ على يديه، لكن وعلى كثرة الصوفية وانتشار علم الباطن في عهده والتزايد في التصنيف فيه، إلا أن هناك أستاذين أثّرا بشكل كبير في الخواص، وهما: أبو الحسن خير النساج، الذي عمر حتّى أنه توفي بعد تلميذه سنة 322هـ/ 934م والذي تتحدث جل المصادر على أن توبة الخواص وولوجه العلم الباطن كانا على يديه، ثم عبد الله المغربي (ت 299هـ/ 912م) الذي أعطى لتصوف أبي إسحاق الخواص الاستقرار بمقام التوكل حتّى أضحى لا يعرف إلا به [المنتظم، 6/ 45، 274؛ صفة الصفوة، 2/ 451؛ النجوم الزاهرة، 3/ 178].

أما الذين تتلمذوا عليه فعددهم كبير، منهم: الراويان لأقواله ولمآثره وهما: أبو عثمان الآدمي، وجعفر الخلدي، ومنهم إبراهيم بن شيبان القرميسيني الملقب بشيخ الجبل (ت 337هـ/ 948م)، وسعيد بن الحسين الدراج (ت 320هـ/ 932م)، وأبو الحسن العلوي، وأبو الحسين بن حذيق، وأبو الحسن النحراني، وحتى أبو عمر الزجاجي هناك من يعده ممن صحب الخواص وتتلمذ عليه [طبقات الصوفية، ص 303؛ تاريخ بغداد، 9/ 105؛ بغية الطلب، 4/ 4410؛ الشعراني، الطبقات الكبرى، 1/ 83؛ شذرات الذهب، 1/ 344] الخ...

ذكر السلمي أن لإبراهيم الخواص كتابا جسد تمكنه من مقام التوكل عنوانه: «كتاب المتوكلين»، ويكاد يتفرد السلمي بذكر هذا الكتاب والاستشهاد ببعض محتوياته، وذهب الخطيب البغدادي إلى أن للخواص كتبا مصنفة، كما أدرجه الكلاباذي ضمن قائمة المتصوفة الذين نشروا علوم الإشارة كتبا ورسائل، دون ذكر أي عنوان. غير أن مصادر ترجمة إبراهيم الخواص تكتفي بسرد أقواله ووصف مواقفه مروية في سلسلة تنتهي في الغالب إلى أحد رواته كأبي بكر الرازي، وأبي عثمان الآدمي، وجعفر الخلدي وغيرهم [السلمي، المقدمة في التصوف، ص 46؛ تاريخ بغداد، 6/ 7 ـ 8؛ الكلاباذي، التعرف، ص 31].

عرفت كلمة التصوف اشتقاقات لغوية كثيرة منها: الصوف، الصُفّة، الصف الأول، الصفاء، الصفوة... الخ، ولقد اختار الخواص من بين هذه الاشتقاقات كلمة الصفاء، ويعني بها صفاء القلب من كُدُورات

المادة، والتخلق بالفضائل، والابتعاد عن الدنيا قدر المستطاع، حيث قال: «الصوفي هو الذي اشتق اسمه من الصفاء فصفا ونأى» [تاريخ بغداد، 6/ 8]، كما أن الممارسة الصوفية عنده هي تجسيد أمين لعلم مع قلّته، لأن العبرة في العلم الممارس لا في كثرته غير المصدقة بعمل، يقول الخواص في هذا الصدد: «ليس العلم بكثرة الرواية، إنما العالم من اتبع العلم واستعمله واقتدى بالسنن وإن كان قليل العلم» [الرسالة القشيرية، ص 24]، ولكي يصل السالك إلى هذه الدرجة عليه أولا بصفاء القلب ومعالجته من الأدران، والتي تتم بجملة من الممارسات حددها بقوله: «دواء القلب خمسة أشياء: قراءة القرآن بالتدبر، وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرع عند السحر، ومجالسة الصالحين» [طبقات الصوفية، ص 222].

إن أهم ما يلاحظ على تصوف إبراهيم الخواص تميّزه بفكرة التوكل على الله حتى اقترن بها اسمه لدى الصوفية والمؤرخين، حيث جاء في «النجوم الزاهرة» أنه: «أوحد أهل زمانه في التوكل» [3/ 132]، والتوكل عنده نوعان في الدنيا وفي الآخرة، أما في الدنيا فهو تسليم قلب المؤمن بقضاء الله وقدره، والزهد في العيش مع التيقن بأن العناية الإلهية قد شملت كل شيء، وأما في الآخرة فهو التوكل الأهم الذي غفل عنه الكثيرون، حسب الخواص، وحري بالمرء التحلي به لأنه هناك ـ في الآخرة ـ يحتاج إليه لتخطي عقبة الحساب والعقاب، يقول الخواص: «سنة المتوكلين التوكل وهو اعتماد القلب على أن الله تعالى هو الخلاق الرزاق.. المانع، الضار.. إنما يتوكل على الله في أمر الآخرة الذي لم يضمن له كفايته، مثل الموت... والبعث والنشور...»، كما قال في موضع آخر: «من ترك التدبير، عاش في راحة التوكل، وهو أن يكون العبد كالطفل الصغير في حجر أمه، تقلبه كيف شاءت بأحسن تدبير» [المقدمة في التصوف، ص 45 ـ 46].

إن هذا التوكل عند الخواص لا يعني الخنوع وترك الأسباب بالكلية وعدم السعي في الحياة الدنيا، وإنما التسليم والخنوع يكون لله لا للسبب، وفي مناقبه نلمس هذه المزاوجة بين الأخذ بالأسباب والثقة المطلقة في الله، مع ترك الدنيا والزهد فيها، ومن الأمثلة على ذلك ما قاله الخطيب البغدادي: «كان إبراهيم الخواص مجردا في التوكل يدقق فيه، وكان لا يفارقه إبرة وخيوط وركوة ومقراض. فقيل له: يا أبا إسحاق لِمَ تحمل هذا وأنت تمنع من كل شيء؟ فقال: مثل هذا لا ينقض التوكل، لأن لله علينا فرائض، والفقير لا يكون عليه إلا ثوب واحد، فربّما يتخرق ثوبه، فإذا لم يكن معه إبرة وخيوط تبدو عورته فتفسد عليه صلاته» [تاريخ بغداد، 6/ 8].

ولكثرة خوضه في حقيقة التوكل عِلما وممارسة، فقد أصبح لدى الخواص كأن التوكل هو التصوف بعينه، إذ لم يكتف بأن جعل التوكل أنواعا، فراح يتحدث عن درجاته محددا إياها في ثلاث: الصبر والرضا والمحبة، وهي من المقومات الأساسية للتصوف. كما أنها شروط متتالية يجب أن تتوفر في المتوكل الحقيقي، يقول الخواص:

«المتوكل على ثلاث درجات على الصبر والرضا والمحبة لأنه إذا توكل وجب عليه أن يصبر على توكله بتوكله لمن توكل عليه وإذا صبر وجب عليه أن يرضى بجميع ما حكم عليه وإذا رضي وجب عليه أن يكون محبا لكل ما فعل به موافقة» وإذا تحقق المريد بهذا المقام كان صوفيا وكان يتصف لزوما بائنتي عشرة خصلة، أولها: الاطمئنان وآخرها الرضا [حلية الأولياء، 10/ 326، 329].

المصادر والمراجع

● ابن أبي جرادة، كمال الدين، بغية الطلب، تح. سهيل زكار، دار الفكر، بيروت 1988، 4/ 1615، 4410؛ ● ابن الجوزي، المنتظم...، دار صادر، بيروت 1358هـ/ 1939م، 6/ 45، 113، 274...؛ ● ابن الجوزي، صفة الصفوة، تح. محمود فاخوري، دار المعرفة، بيروت 1979، 2/ 451، 454، 527، 4/ 98، 102؛ ● ابن العماد، شذرات الذهب، دار الكتب العلمية، بيروت، 1/ 344؛ ● الأتابكي، جمال الدين، النجوم الزاهرة...، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة...، ص 132، 178؛ ● الأصبهاني، حلية الأولياء، دار الكتاب العربي، بيروت 1405هـ/ 1985م، ط 4، 10/ 325 ـ 326، 329...؛ ● الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية، بيروت، 6/ 7 ـ 8، 9/ 105، 14/ 438...؛ ● السلمي، أبو عبد الرحمٰن، المقدمة في التصوف وحقيقته، تح. يوسف زيدان، مكتبات الكليات الأزهرية، 1407هـ/ 1987م، ص 45 ـ 46، 83؛ ● السلمي، طبقات الصوفية ويليه ذكر النسوة المتعبدات، تح. مصطفى عبد القادر، دار الكتب العلمية، بيروت 1998، ص 220، 222، 303، 417؛ ● الشعراني، الطبقات الكبرى، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده القاهرة، 1/ 83؛ ● القشيري، الرسالة القشيرية، دار الكتاب العربي، بيروت، ص 24، 76 ـ 77؛ ● الكلاباذي، التعرف لمذهب أهل التصوف، تح. عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، دار الإيمان، دمشق، 1407هـ/ 1986م، ص 30 ـ 31؛ ● الحموي، ياقوت، معجم البلدان، دار الفكر، بيروت، 3/ 173، 4/ 123.

د. ساعد خميسي
جامعة منتوري ـ قسنطينة ـ الجزائر

الخوافي، أبو القاسم مهدي بن أحمد

(ت 450هـ/1058م)

الخوافي نسبة إلى خواف، وهي ناحية من نواحي نيسابور كثيرة القرى والخضرة، متّصلة بحدود (الزوزن) وفيها أودية كثيرة وكروم، كان منها جماعة من العلماء والمحدثين والأدباء والشعراء، ذكر السمعاني جملة منهم وأغفل أبا القاسم.

حلّاه أبو الحسن الباخرزي في دمية القصر بالآتي: لو قلت: إنّي لم أر مثله في عصرنا هذا معرفة بأصول الآداب، وغوصًا على بحار المعاني الطامية العباب، وصحبة لأئمّة الصناعة الذين هم أسنمة الفضل وكواهله، وعندهم شفاء علل الآداب وفيهم مناهله، ومنهم محمد بن أبي يوسف الاسفزاري، والحاج البيتي، وشريح السجزي، وغيرهم ممّن لا أذكره، لما نسبت إلى التزيد والاشتطاط، ولا وصفت إلّا بالتوثيق والاحتياط، وقد صحبته مقتطفا من نواره، ومخترفًا من ثماره، ومغترفا من بحاره، ورانعا في رياض مجموعاته، وكارعًا في حياض مسموعاته، وكلما ازددت منه قربا، ازداد سمعي من فوائده قرطا. وله نثر حسن تدلّك عليه خطبه، التي صدّر بها كتبه، أما النظم فقلّما يعتاده، ولو أراده لكان ميسّرا على لسانه إيراده، فممّا تعلّل به على اشتعال الرأس، ووهن العظم، وكلال الخاطر عن تعاطي النثر والنظم، قوله الذي أنشدنيه لنفسه:

ابا قاسم خلّفتَ عمركَ كلّه
فلا تكُ مغترًّا بما ترجفُ المنَى

فإن امرأً ناجى الثمانين عمرُه
بعيد نجاةِ النفسِ من مخْلبِ الفنا

فوطّن على الترحال نفسك تائبا
ولا ترجُ إلا مرقد اللّحْد موطنا

وقوله أيضًا:

يقولون: قد انفقتَ عمرك كلّه
على ادبٍ لم تحظ منه بطائلِ

فقلت لهم: إذا كان أنسي وزينتي
وكان إلى الصّيد الكرام وسائلي

وميّزني عنْ زمرة الجهل علمه
فلست أبالي بالحُطام المَزايلِ

هذه التحلية اقتبسها القفطي في إنباه الرواة، وأوردها نصًّا وأضاف معلومة في غاية الأهمية قوله: رأيت من تصنيفه شرح ألفاظ عبد الرحمٰن الهمذاني، يعني شرح كتابه الألفاظ الكتابية أتبعها بقوله: وهو في غاية الجودة والإتقان.

أما السيوطي في بغية الوعاة، فأوجز في ترجمته غاية الإيجاز ناقلا عن كتاب السياق في تاريخ نيسابور لعبد الغافر وقال: رجل فاضل معروف، صنّف الكتاب في العربية، وتخرّج به جماعة، وسمع الحديث بنيسابور،

وكان متفنّنا. وأخطأ في لقبه فقال: الجواليقي، وهو الخوافي، وربما هو خطأ الناسخ لم يلتفت إليه المحقق.

وهذا لا يضيف شيئا إلى ما أورده الباخرزي سوى قوله: «وتخرّج به جماعة».

وهذا يعني أنه مارس التعليم وتخرّج عليه بعض الطلبة، كما أنه ممّن سمع الحديث بنيسابور، وكانت آنذاك تعج بالمحدثين، وأنه كان متفننا أي جمع فنونا عدّة. أمّا الزمن الذي عاش فيه فقد انفرد القفطي بقوله: وقد كان ﷺ في النصف الأول من المائة الخامسة. قلت: ويمكن استنتاج ذلك من معاصرته للباخرزي (ت 467هـ).

الزركلي في الأعلام، وكحالة في معجم المؤلفين ذكرا وفاته نحو سنة 450هـ تقديرًا، وأقول: استنتاجا من قوله: «وإن امرأ ناجى الثمانين عمره» يمكن القول إن مولده كان في حدود عام سبعين بعد الثلاثة مائة. والله أعلم.

المصادر والمراجع

● الباخرزي، دمية القصر وعصرة أهل العصر، تح. د. سامي مكي العاني، ط2، 1405هـ/ 1985م، 2/ 499 ـ 500؛ ● السمعاني، الأنساب، تح. مرجليوث، مصورة بالأوفسيت، بغداد 1970، الورقة 211؛ ● القفطي، إنباه الرواة، القاهرة 1374هـ/ 1955م، 3/ 332 ـ 333؛ ● السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة 1384هـ/ 1965م، 2/ 304؛ ● الزركلي، الأعلام، القاهرة، ط2، 8/ 256؛ ● كحالة، معجم المؤلفين، دمشق 1380هـ/ 1961م، 13/ 26.

أ. هلال بن ناجي
باحث في التراث العربي ـ العراق

ابن الخوّام، أبو علي جمال الدين عبد الله

(643هـ/1245م ـ 724هـ/1324م)

هو أبو علي جمال الدين عبد الله بن محمد الخوّام بن الرزاق الحرباوي البغدادي، وهو واحد من أهم علماء الرياضيات في فترة الإلخانيين، وهو شافعي ويكنّى بالأصفهاني والخوارزمي.

وقد اختلف المؤرخون في اسمه الكامل فقال سيزكين إنه عبد الله بن محمد بن عبد الرزاق عماد الدين بن الخوام المتوفى عام 724هـ/ 1324م. أما العسقلاني وبروكلمان فقالا إنه عبد الله بن محمد بن عبد الرزاق الحربوي عماد الدين بن الخوام العراقي المتوفى بعد عام 724هـ. وقد ذكره أيضا الصفدي في الوافي بالوفيات في إحدى الروايات باسم العماد بن الخوام الحاسب ببغداد. كما أشار

إليه جشميد الكاشي (نهاية القرن 14م - مطلع القرن 15م) في مفتاح الحساب باسم عماد الدين الخوام البغدادي.

ولد في بغداد في عام 643هـ/ 1245م وتلقى العلم فيها على يد كثير من العلماء، وأخذ العلوم العقلية عن ناصر الدين الطوسي. وقد كان ابن الخوام فيلسوفا وعالما في الرياضيات وطبيبا وفقيها ومتكلما. درس الفقه الشافعي في مدرسة دار الذهب في بغداد وأشرف على قسم الطب في هذه المدرسة، وأقام في دار المعلمية (Seyhlilik)، كما كان مهتمًا بالتصوف، وتخرج على يديه ثلة من النوابغ منهم كمال الدين الفارسي (ت 720هـ/ 1320م)، وعزّ الدين الإربيلي، كما تلقى العلم على يديه أبناء أحد الوزراء الالخانيين وأحد ولاة بغداد وهو عطاء مالك الجويني وأخوه شمس الدين، ثم انتقل بعد ذلك إلى أصفهان وعمل في خدمة شمس الدين الجويني وابنه بهاء الدين.

وقد أهدى كتابه «الفوائد البهائية في القواعد الحسابية» الذي أكمله في شعبان 675هـ/ يناير 1277م إلى بهاء الدين، وفي عهد Hudabende أسبغ عليه الوزير راشد الدين فضل الله الحمداني حمايته. وقد درّس في المدرسة السلطانية الموجودة في بغداد وذلك بتاريخ محرّم 715هـ/ أبريل 1315م وكتب تقريظًا لتفسير راشد الدين فضل الله، وحكم عليه بالإعدام عام 718هـ/ 1318م بسبب اتهامه بالكفر جزاء هذا التقريظ الذي كتبه، بيد أنه نجا من الإعدام بعد أن نطق بكلمة الشهادة، وقد توفي في بغداد عام 724هـ/ 1324م عن عمر يناهز 81 عاما.

وتتفق المصادر على أنه كان شخصا بشوشا محبا للخير وعالما، كان تحت حماية رجال الدولة الإلخانية، وقد عاش عيشة رخاء، وقام بترميم مدرسة الذهب عندما كان مشرفا عليها، ونظم أوقافها وتبرع للمدرسة بكتب كثيرة، وأمن للطلبة منحا دراسية، كما أنشأ كلية خاصة به. وأسس أوقافا [ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، الوافي بالوفيات، نشر دوروثينا كراوولسكي، بيروت 1982، 17/ 590 - 591؛ ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، حيدر أباد 1348 - 1350، 2/ 294؛ أحمد عيسى، معجم الأطباء، القاهرة 1941، ص 243؛ إحسان فاضلي أوغلي، ابن الخوام وأثره، جامعة اسطانبول، معهد العلوم الاجتماعية، بحث ماجستير 1993؛ ن. م، ابن الخوام، DIA, 77 /21].

آثاره

ألّف ابن الخوام كتبًا قيّمة في الرياضيات، وعلم الكلام، والأخلاق، والطب، وتحتل الرياضيات المرتبة الأولى في اهتماماته. ومن مؤلفاته:

1 - الفوائد البهائية في القواعد الحسابية، وهو أشهر كتبه أتمّ تأليفه سنة 675هـ/ 1277م وتوجد منه عديد المخطوطات. ففي مكتبة تونس وحدها توجد منه خمس مخطوطات. إن تعداد المخطوطات لهذا الكتاب يدل على رواجه في العالم الإسلامي. والملاحظ أنه وقع خلط لدى بعض المؤرخين بخصوص مؤلف كتاب الفوائد البهائية. فقد نسبه محمد السويسي مثلا لجمشيد الكاشي [لغة الرياضيين، ص 71]، ووقع قدري حافظ

طوقان في خلط مشابه [تراث العرب العلمي، ص 405، 436].

والواقع أننا نجد في مخطوطتي تونس اللتين تحملان رقم 8607 و9722 إشارة إلى جمشيد في بداية أو نهاية المخطوطة. بل ذهب أحد الناسخين إلى القول بأن المخطوطة هي مخطوطة مفتاح الحساب للعالم جمشيد. ورغم هذه الأقوال فإن المتمعّن في كتاب الفوائد البهائية يدرك بسهولة أنه لا يمكن أن يكون صاحبه هو جمشيد الكاشي: كيف يكون ذلك وقد أهدى مؤلف الكتاب عمله إلى الوزير محمد بن محمد الجويني، المكنّى صاحب الدولة، والمتوفى عام 683هـ، أي أن ذلك قبل قرن تقريبا من ميلاد جمشيد الكاشي. ثم إننا نجد في آخر الكتاب اسم المؤلف صريحا، وهو ابن الخوّام، الذي يقول إنه انتهى من كتابه عام 675هـ، ومن جهة أخرى نجد جمشيد الكاشي يذكر عماد الدين الخوام البغدادي، وينسب إليه كتاب الفوائد البهائية فيقول: «وقد أورد الحكيم المحقق عماد الدين الخوام البغدادي تغمّده الله بغفرانه في الرسالة البهائية جدولين...» [مفتاح الحساب، تح. أحمد سعيد الدمرداش وزميله محمد حمدي حنفي الشيخ، القاهرة 1967، ص 173].

ومن شراح كتاب الفوائد البهائية نذكر:

- يحيى أحمد الكاشي (ت 744هـ/ 1344م) في «كتاب إيضاح المقاصد من الفوائد»؛ وعبد العلي بن محمد البرجندي (ت حوالي 930هـ/ 1523م)، قال حاجي خليفة في كشف الظنون إنه فرغ من شرحه في أواخر ذي الحجة عام 891هـ؛ وكمال الدين الفارسي (ت 720هـ/ 1320م) في «كتاب أساس القواعد في أصول الفوائد». وبهذا الخصوص قال الفارسي إنه درس علم الحساب سنين متوالية وأزمنة متمادية على يدي الخوام، موضحا أنه درس كتاب الفوائد البهائية الذي ألفه ابن الخوام واطلع على غيره من الكتب الحسابية فوجد جميعها مسائل متلقّنة غير مبيّنة وقضايا متلفقة غير مبرهنة. لهذا قام بشرح كتاب أستاذه وتوضيحه في مؤلف سماه «كتاب أساس القواعد في أصول الفوائد». [مصطفى الموالدي، كمال الدين الفارسي وكتابه أساس القواعد في أصول الفوائد، وقائع الملتقى المغاربي الثالث حول تاريخ الرياضيات العربية، الجزائر 1 ـ 3 ديسمبر 1990، نشر الجمعية الجزائرية لتاريخ الرياضيات، 1991، ص 96].

كما يفهم مما كتبه ابن الخوام نفسه في هذا الكتاب أنه شرحه بنفسه، والظاهر أن هذا الشرح لم يصل إلى المؤرخين. ومن جهة أخرى فإن بهاء الدين العاملي (953هـ/ 1547م ـ 1031هـ/ 1622م) استقى بعض المسائل التي أوردها في كتابه «خلاصة الحساب» من كتاب ابن الخوام دون الإشارة إلى اسم هذا الأخير والمسائل السبع للعاملي التي ختم بها كتابه ـ والتي سماها «المستعصيات الآبيات» ـ موجودة ضمن قائمة المسائل المفتوحة البالغ عددها ثلاث وثلاثون مسألة لابن الخوام. وهي المسائل التي تحمل في كتاب ابن الخوام الأرقام التالية: 4، 8، 17، 18، 19، 24، 32. والغريب أن العاملي يقول بشأنه إنها «من نفائس عرايس قوانين الحساب، (وهي) ما لم يجتمع إلى

الآن في رسالة ولا كتاب. فاعرف قدرها فإن كثيرا من مطالبها حري بالصيانة والكتمان، حقيق بالاستتار عن أكثر أهل هذا الزمان، فاحفظ وصيتي إليك» [جلال شوقي، الأعمال الرياضية لبهاء الدين العاملي، دار الشرق، بيروت، 1981، ص 168]. هذه المسائل السبع التي اشترك في طرحها ابن الخوام والعاملي، بوصفها مسائل مستعصية، هي:

أ ـ عشرة مقسومة قسمين، إذا زيد على كلٌ جذرُه، وضُرب المجتمع في المجتمع حصل عدد مفروض؛ ب ـ مجذور إن زدنا عليه عشرة، كان للمجتمع جذر، أو نقصناها منه، كان للباقي جذر؛ ج ـ أقرّ لزيد بعشرة إلا جذر ما لعمرو، ولعمرو بخمسة إلا جذرَ ما لزيد؛ د ـ عدد مكعّب قسم بقسمين مكعبين؛ هـ ـ عشرة مقسومة بقسمين، إذا قسمنا كلا منهما على الآخر، وجمعنا الخارجَيْن، كان المجتمع مساويا لأحد قسمَي العشرة؛ و ـ ثلاثة مربعات متناسبة، مجموعها مربع؛ ز ـ مجذور، إذا زيد عليه جذره ودرهمان، أو نقص منه جذره ودرهمان، كان للمجتمع أو الباقي جذر.

وقد اهتم الغربيون بمسائل ابن الخوام التي أوردها العاملي أيّما اهتمام، فترجموها إلى الألمانية ثم إلى الفرنسية في القرن التاسع عشر، وحاول العديد من الرياضيين حلّها. وقد جمع دكسون Dickson تلك الحلول [Dickson: Theory of numbers, Chelsea, New York, 1952]. والواقع أن المسائل المفتوحة لابن الخوام تندرج ضمن التقليد العربي الخاص بما يعرف بالمعادلات الديوفانتية التي خاض فيها الرياضيون العرب والمسلمون بعد أن ترجم قسطا بن لوقا (ت 912م) كتاب ديوفانتس (القرن الثالث الميلادي) في الحساب (المعادلات الديوفنتية هي معادلات جبرية نبحث عن مجاهيلها في مجموعة الأعداد الصحيحة أو الناطقة)، وهكذا أسهم هؤلاء العلماء، في آخر المطاف، في تقدّم هذا الفرع الرياضي وطرحوا مسائل ثرية وغير يسيرة الحل، مازال يتدارس الرياضيون تشعّباتها إلى اليوم. ومن المسائل التي طرحها ابن الخوام حالتان خاصتان مما يعرف بالنظرية الأخيرة لفيرما Fermat (1601 ـ 1665) حلهما الرياضي الشهير ليونهارد أولر (Euler 1707-1783) وفيرما خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر [Wiles A.: Modular Elliptic Curves and Fermat's Last Theorem, Anulas of Mathematics, 3, may 1995].

ولم يقتصر كتاب الفوائد البهائية الذي اشتهر به ابن الخوام على المسائل المفتوحة بل تطرّق إلى العديد من المواضيع، منها: تعاريف وخواص حسابية وتقديم للجذاء والكسور والقسمة والجذور. كما تعرض للمساحات والحجوم، وللجبر والمقابلة، وحل المسائل الجبرية؛ وفيها نجد قائمة المسائل المفتوحة التي أشرنا إليها آنفا؛
2 ـ الرسالات الشمسية في القواعد الحسابية، وقد أهداه إلى شمس الدين الجويني، وهو كتاب مختصر مثله مثل «الفوائد البهائية»، وفيه تناول نفس المسائل. وأفضل نسخة منه نسخة قسطموني تحت رقم 2506, yap. 1-35a، تم استنساخها عام 725 هجريا؛ ديار بكر،

دولاب A تحت رقم 2213/4, yap. 44b-64b، تم استنساخه عام 726 هجريا؛ [مختارات من المخطوطات العربية النادرة في مكتبات تركيا، ISAR، استانبول 1977، ص 66؛ GAL, S, 2/215]. وقد تناولت المصادر الكلاسيكية هذا المؤلف، وتوجد له حوالي 25 نسخة معروفة [DIA, 21/78]؛ 3 ـ نقد رأي الناسخين وإبطال تمسكهم بآيات القرآن، ونفهم من اسم الكتاب أنه لم يكن يؤمن بمسألة الناسخ والمنسوخ الموجودة في القرآن، ويذكر خير الدين الزركلي أن هناك نسخة من هذا الكتاب في مكتبة شكري فيصل الخاصة [الأعلام، 4/ 126; DIA, 21/78] 4 ـ رسالة في الفراسة، وهي في موضوع التصوف والفراسة، وقد نشرها حسين علي محفوظ في طهران عام 1954 [DIA، نفس المكان]؛ 5 ـ مقالة في علم الأخلاق، رسالة في الأخلاق من وجهة النظر الفلسفية وتوجد نسختها الوحيدة في قسم أحمد الثالث، رقم 88/ 1461 ورق 114b-109b. ولم تجر بشأنها أي دراسة حتى الآن [مختارات من المخطوطات النادرة. . . ، ص 67؛ DIA، نفس المكان]؛ 6 ـ التذكرة السعدية في القوانين الطبية الكلية، وحسب المصادر فقد وصلت إلينا نسختان من هذا الكتاب، وهو يتناول المسائل الطبية بصفة عامة، ولم يتناول بالدراسة حتى الآن [2/ GAL, 167؛ فهرس مخطوطات الطب الإسلامي، IRCICA، استانبول، 1984، ص 220 في مدرسة الخوارزمي؛ DIA، نفس المكان]؛ 7 ـ فصول على فهم المقالة العاشرة من كتاب أوقليدس، ثمة شروح كثيرة وضعت حول المقالة العاشرة من كتاب أوقليدس المسمى بـ «العناصر». وهو كتاب في أصول الهندسة، ومن ضمن هذه الشروح نجد شرح ابن الخوام، وهي رسالة متعلقة ببحوث هندسية في الأعداد غير العقلية، وأفضل نسخة للكتاب توجد في قسطموني رقم 2/ 2506، ورق 34a-35b (تم استنساخها في عام 725هـ). الفاتح، رقم 6/ 3401، توجد نسختان أخريان في جار الله، رقم 9/ 2060، ولم تجر حولهما أية دراسة؛ [مختارات من المخطوطات النادرة. . ص 66؛ DIA، نفس المكان].

المصادر والمراجع

● ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، نشر مصطفى جواد، دمشق 1962، II/ IV، 754؛ ● الصفدي، الوافي بالوفيات، إشراف دوروته كراولسكي، بيروت 1982 17/ 590 ـ 591؛ ● ن. م، أعيان العصر، آياصوفيا، رقم 2966، 56a,V؛ ● ابن حجر، الدرر الكامنة، حيدر أباد 1348 ـ 1350، 2/ 294 ـ 295؛ ● عيسى، أحمد، معجم الأطباء، القاهرة 1941، ص 243؛ ● كاتب جلبي، كشف الظنون، 2/ 1296؛ ● صالح زكي، الآثار الباقية، استانبول، 1329، 2/ 92، 180، 215، 236، 276 ـ 277؛ ● GAL، 2/ 167، عدد، 2/ 215؛ ● الزركلي، الأعلام، ب، 126؛ ● رمضان ششن، مختارات من المخطوطات العربية النادرة في مكتبات تركيا، ISAR، استانبول 1997، ص 66 ـ 67؛ ● الكاشي، جمشيد غياث الدين، مفتاح الحساب، تح. شرح أحمد سعيد

الدمرداش ومحمد حمدي الحفني الشيخ، دار الكتاب العربي والطباعة والنشر، القاهرة، 1967؛ ● ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دار الكتب الحديثة، القاهرة، 1966؛ ● جلال، شوقي، الأعمال الرياضية لبهاء الدين العاملي، دار الشرق، بيروت، 1981؛ ● طوقان، قدري حافظ، تراث العرب العلمي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، دار الشروق، بيروت.

- Suter, Die Mathmatikler, s. 197; • Sarton, Introduction to History of sciences, III/I, 707; • Sezgin. GAS, V, 115; • Mahdr. Abduljawad-Hamida Hadîfî, Vers Une Etude des aspects Historiques et Mathématiques Arabes, Acte du colloque, Premier colloque international sur L'Histoire des Mathématiques Arabes, Alger 1-3 Décembre 1986, Alger 1988, s. 159-178; • Ihsan Fazli Oglu, Ibn el-Havvam ve eseri. el-Fevâ'ide El-Bahâiyye Fi'L-Kavâid El-Hisabiyya, Ist Ün. Sosyal Bilimler Enstitüsü, yüksek lisans tezi 1993; • Ibn El-Havvam, Eserli ve eL-Fevâid El-Behâiyye fi l-Hisâbiyye-edeki çözümsüz Problemler bahsi, Osmanli Bilimi Arastirmalari, Hazirlayan Feza Günergum, Istanbul 1995, s. 69-127; • Ibnü'l-Havvam, DIA, XXI, 2000, s. 76-78.

د. أبو بكر سعد الله
المدرسة العليا للأساتذة - الجزائر
د. رمضان ششن
جامعة استانبول - تركيا
ترجمة: مصطفى بن الطاهر الستيتي

الخوانساري، أبو تراب عبد العلي بن جعفر

(1271هـ/1855م - 1346هـ/1927م)

كنيته أبو تراب، هكذا نسبه الزركلي في الأعلام، لكن السيد محسن الأمين العاملي في كتابه «أعيان الشيعة» نسبه في الآتي: عبد العلي بن القاسم بن الحسين بن أبي القاسم. وهذا كلّه وهم، فاسم أبيه «أبو القاسم جعفر» واسم جدّه مهدي وليس الحسين (كما سماه العاملي).

وهو من أسرة علم، أبوه جعفر بن مهدي، صاحب المنظومة الخالية من الألف في المواعظ، المطبوعة ضمن كتاب «مباني الأصول»، وأما جدّه مهدي فهو مصنّف الرسالة الموسومة «عديمة النظير في أحوال أبي بصير»، وجد جدّه حسين بن أبي القاسم، رجل علم أجازه بحرّ العلوم وصاحب القوانين.

ولد المترجم له في خوانسار بإيران في السابع عشر من رجب عام 1271هـ.

وكان أبوه قد أحضر له قبل وفاته معلما مخصوصا لتعليمه النحو والصرف، وتوفي أبوه وهو في التاسعة من عمره فتولّى تعليمه ابن عمّته محمد علي الخوانساري، فقرأ عليه العربية ومهمات الأصول، وشيئا من الفقه والحديث واستجازه فأجازه عن شيخه ملّا حسين علي عن الشيخ محمد تقي الاصفهاني صاحب حاشية المعالم، وظلّ يقرأ عليه حتّى توفّي السيد محمد علي الخوانساري سنة 1286هـ أولى سني الغلاء والقحط الأعظم التي كانت كسِني يوسف حتّى أكل الناس بعضهم بعضا، ومات من الخلق من لا يحصيه إلّا الله. وكان تعداد سكان خوانسار نحو ثلاثين ألفا، مات ثلثهم تقريبا جوعًا، وتفرّق الباقون في البلاد، ولم يبق إلّا نحو ألف نفس إلى أن زالت البلية، وقضى الله بزوالها سنة 1288هـ وبقي الخوانساري في مدينته حتّى عام 1291هـ. ثمّ هاجر إلى أصفهان، فقرأ على الشيخ محمد باقر الموسوي الخوانساري الأصفهاني فاستجازه فأجازه ثم عاد إلى خوانسار وقد نوى الرحلة إلى النجف، فبقي في مدينته سنتين، لان الحكومة الإيرانية منعته السفر آنذاك. وفي عام 1295هـ أتيحت له الهجرة إلى النجف لإكمال علومه فقرأ على بعض علمائها وتتلمذ عليهم ونهل من علومهم وهم:

- محمد هاشم الموسوي الخوانساري، وقد أجازه بكونه بالغًا درجة الاجتهاد! - ومحمد باقر الاصفهاني بن الشيخ محمد تقي، صاحب الحاشية المشهورة على المعالم (ت 1301هـ). وكان من كبار الشيوخ في زمنه وقد أجازه؛ - ولقي السيد حسين التبريزي الكوه كمْري، فتتلمذ عنده نحو خمس سنين وكان من مقرري درسه، وكان المترجم له ملازما له في حياته.

وهناك صنف ثان من الشيوخ روى عنهم ولم يتتلمذ ومنهم: عبد العلي الاصفهاني؛ ولطف الله الأملي المازندراني (ت 1311هـ)؛ ومحمد حسين بن هاشم بن ناصر الكاظمي؛ ومحمد بن محمد صادق مؤلف «الصراط المستقيم في أصول آل ابراهيم» (ت 1286هـ).

أمّا تلاميذه فهُم كثر، وكثير منهم هم فقهاء الأحساء، والقطيف، والبحرين، وجبل عامل، والهند، وإيران يروون عنه، ومنهم: ابن أخته محمد حسين بن السيد محمد؛ وابن أخته الثاني السيد محمد حسن بن السيد محمد، تتلمذ عليه وسعى في طبع كتاب خاله «شرح نجاة العباد» في طهران؛ والسيد محمد إبراهيم؛ السيد جعفر الكشفي الدارابي الطهراني؛ ومحمد رضا الزنجاني الكاظمي؛ السيد أبو القاسم بن السيد محمود؛ والشيخ فضل الله بن أبي القاسم الخوئي؛ وناصر بن السيد هاشم الموسوي الاحسائي؛ ومحمد مهدي الموسوي الاصفهاني الكاظمي مؤلّف كتاب أحسن الوديعة؛ وروى عنه إجازة الشيخ عبد الله بن المولى حبيب الله اللنكرودي؛ وروى عنه إجازة السيد أبو القاسم الموسوي الرياضي.

وبعد وفاة شيخه الكوه كمري استقلّ الخوانساري بالتدريس، وكان موثوقا به، مقبولا عند الناس مقلّدا، يصلي إماما في

الصحن الحيدري الشريف في جهة الشمال الشرقي. ولما أوكل توزيع الأموال الهندية إلى جماعة من العلماء كان هو أحدهم، بعد ما كان يوزّعها السيد محمد الطباطبائي وحده، وقد كان ذلك سببا لسقوط المترجم له من أعين الناس [هكذا قال العاملي في أعيانه، 8/ 30].

توفّي المترجم له في النجف في التاسع من جمادى الثانية سنة1346هـ. وبها دفن.

■ آثاره

1 ـ سبيل الرشاد في شرح نجاة العباد، عشرة مجلّدات، طبع منه أجزاء: الصوم والمواريث في طهران؛ 2 ـ سلامة المرصاد في حواشي نجاة العباد، طبع في النجف؛ 3 ـ حاشية على كتاب الخمس من الجواهر؛ 4 ـ عقد اللآلي واليواقيت في تحصيل محل المحاذاة للمواقيت؛ 5 ـ مناسك الحج، ذكر فيها أحكام الحج وفروعها؛ 6 ـ أجوبة المسائل البحرانية الأولى، اثنتا عشرة مسألة، سأل عنها الشيخ علي القطيفي البحراني؛ 7 ـ أجوبة مسائل ابنه الشيخ حسين، اثنتان وثلاثون مسألة؛ 8 ـ رسالة في تحقيق مصرف سهم الإمام، سأل عنها الشيخ محمد صالح البحراني؛ 9 ـ رسالة في مصرف ما ينذر أويوقف أو يوصي لأحد المشاهد أو المعصومين أو أولادهم؛ 10 ـ رسالة في تحقيق مسائل من الرضاع؛ 11 ـ رسالة في مسألة في الحج، ذهب فيها إلى أنّ محلّ الاحرام مدينة جدة؛ 12 ـ رسالة في قيد الربا من القرض؛ 13 ـ حاشية على رسائل الشيخ مرتضى؛ 14 ـ رسالة في الأقلّ والأكثر الاستقلالي والارتباطي؛ 15 ـ رسالة في أصل العدم؛ 16 ـ رسالة في حجية الأصول المثبّتة؛ 17 ـ في الفرق بين الواجب المعلّق والمشروط؛ 18 ـ في تحقيق الأصل في المتعارضين في الأدلّة والأصول والإمارات؛ 19 ـ رسالة في المرجع بعد تساقط في المسبّبين عن أمر ثالث؛ 20 ـ رسالة في كلام الفاضل التوني في الأصل المثبّت في الشبهة المتعلّقة بماهيات الأحكام الشرعية؛ 21 ـ المسائل الكاظميّة، سأل عنها الشيخ مهدي الجرموقي الكاظمي؛ 22 ـ الدر الفريد في شرح التجريد؛ 23 ـ الفوائد الرجالية، نحو خمسمائة فائدة؛ 24 ـ النجوم الزاهرات في إثبات إمامة الهداة، بطريق العقل والنقل من كتب الفريقين؛ 25 ـ البيان في تفسير بعض سور القرآن، قال الشيخ اغابزرك الطهراني، واسمه محمد حسن الرازي، ما نصّه: رأيته بخطّه الشريف في جملة كتبه [الذريعة، 3/ 173]؛ 26 ـ التنبيه فيما أخطأ السيد فيه، وهي رسالة في رد مسائل أفتى بها السيد كاظم اليزدي؛ 27 ـ كتاب السؤال والجواب في الفقه، الإستدلالي؛ 28 ـ لب اللباب في تفسير أحكام الكتاب؛ 29 ـ رسالة عملية باللغة الفارسية في العبادات وكثير من المعاملات، وضعها لمقلّديه؛ 30 ـ بغية الفحول في حكم المهر إذا مات أحد الزوجين قبل الدخول؛ 31 ـ مصباح الصالحين في أصول الدين؛ 32 ـ رسالة في أحوال أبي بصير وإسحاق بن عمار، أورد فيها جملة من القواعد الرجالية؛ 33 ـ حواشي رجال أبي الحسان والصحاح وشرحها في مجلّدين يقارب الوسائل للمحدّث الحر العاملي. وسمّاه صاحب أحسن الوديعة «الصراح في الأحاديث الحسان والصحاح»؛ 34 ـ ذكر

الشيخ أغا بزرك الطهراني في الذريعة [2/ 201 ـ 202]، ما نصّه: كتاب «أصول الفقه» رأيته بخطه عند وصيه السيد محمد رضا التبريزي وذكر فيما رأيته بخطه من فهرس أسماء تصانيفه أنه كتب في الاصول دورة تامّة كبيرة وأخرى مختصرة، والظاهر أنّ ما رأيته هو المختصر لأنّه اقتصر فيه على مهمّات المسائل الأصولية من مباحث الألفاظ إلى التعادل والتراجيح. وذكر مصنّف أحسن الوديعة أنّ اسم هذا الكتاب هو «قصد السبيل في أصول الفقه»؛ 35 ـ رسالة في حكم صلاة الجمعة في زمن الغيبة؛ 36 ـ المسائل الخوانسارية، وهي مسائل سألها عنه أهالي خوانسار مسقط رأسه.

المصادر والمراجع

● الزركلي، الأعلام، القاهرة، المطبعة الثانية، مطبعة كوستاتسوماس وشركاه، 1374هـ/ 1954م، 4/ 156؛ ● الطهراني، أغا بزرك، الذريعة إلى تصانيف الشيعة، ايران، قم، مؤسسة اسماعيليان للطباعة والنشر والتوزيع، 1356هـ، 2/ 201، 3/ 172؛ ● الكاظمي، محمد صالح، أحسن الأثر في من أدرك أنه في القرن الرابع عشر، بغداد، 1352هـ/ 1933م؛ ● الموسوي الاصفهاني الكاظمي، محمد مهدي، أحسن الوديعة في تراجم أشهر مشاهير مجتهدي الشيعة، تتمة لكتاب «روضات الجنات»، ط2، ج2، منشورات المطبعة الحيدرية، النجف 1388هـ/ 1968م؛ ● العاملي، محسن الأمين، أعيان الشيعة، حقق الكتاب وأخرجه حسن الأمين، لم يذكر زمان الطبع ومكانه، 8/ 29 ـ 30؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، دمشق، مطبعة الترقي، 1377هـ/ 1957م، 3/ 90، وقد سماه: أبو تراب بن أبي القاسم بن مهدي بن حسن بن حسين الموسوي الخوانساري النجفي. قلت: الصواب أن «أبا تراب» كنيته، واسمه عبد العلي، وأنّ أبا القاسم اسمه جعفر.

أ. هلال ناجي
باحث في التراث العربي ـ بغداد ـ العراق

خواهر زاده، أبو بكر محمد الحسين البخاري

(ت 483هـ/ 1090م)

وصفه شيخ الإسلام الذهبي بأنه: «شيخ الحنفية، وفقيه ما وراء النهر.. وأنه من بحار العلم» نسب إلى قديد، منزل بين مكة والمدينة. لقب بخواهر ومعناها: ابن أخت عالم بلغتهم الأعجمية. فهو ابن أخت القاضي أبي ثابت محمد بن

أحمد البخاري. ولهذا القاضي ترجمة قصيرة في كتاب طبقات الفقهاء [طاش كبري زاده، ص 78].

سمع أباه الحسين بن محمد، وسمع أبا نصر أحمد بن علي الحازمي، وسمع أبا الفضل منصور بن عبد الرحيم الكاغدي، وسمع الحاكم أبا عمرو محمد بن عبد العزيز القنطري، وسمع أبا سعد سعيد بن أحمد الأصبهاني وغيرهم.

روى عنه: أبو عمرو عثمان بن علي بن محمد البيكندي؛ وعمر بن محمد بن لقمان النسفي.

قال الذهبي واصفا إياه: «كان إمامًا فاضلاً في مذهب أبي حنيفة، وطريقتُه أبسط طريقة لهم، جمع فيها من كل جنس وكان يحفظها، أمْلَى ببخارى».

من الملاحظ أنه بعض مترجميه أخطأوا في اسمه، فالذهبي في العبر [3/ 302] سماه أبا بكر بن محمد والصواب أبو بكر محمد، وسماه طاش كبري زاده في طبقات الفقهاء [ص 88] أبا محمد بن الحسن والصواب أبو بكر محمد بن الحسين.

إنّ نسبة مترجمنا إلى قديد تدل في الأغلب على سكناه مدة من الزمن في هذه المدينة الحجازية وهو أمر غامض لم يذكره مترجموه.

توفي بعد أن أدركته الشيخوخة في بخارى حيث ولد. وأدق الأقوال في تاريخ وفاته ما قاله السمعاني أنه مات ليلة الجمعة الخامس والعشرين من جمادى الأولى سنة 483هـ ببخارى.

آثاره

1 ـ كتاب الذخيرة، ذكره مصنف مفتاح السعادة ومصباح السيادة [2/ 276]؛

2 ـ المبسوط، ويقع في خمسة عشر مجلّدا ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون العمود [1580]. وقال: وقيل له مبسوطان؛

3 ـ شرح الجامع الكبير في الفروع، والجامع الكبير صنّفه الإمام المجتهد محمد بن الحسن الشيباني الحنفي (ت 187هـ)، وقد شرح المترجم له هذا الكتاب. ذكر ذلك حاجي خليفة في كشف الظنون [العمود 569]، كما شرحه بعض كبار علماء الحنفية منهم: نصر بن أحمد السمرقندي (ت 373هـ)، وفخر الإسلام علي بن محمد البزدوي (ت 482هـ)، والقاضي عبيد الله بن عمر الدبوسي (ت 422هـ)، والإمام محمود بن أحمد صاحب المحيط، وشمس الدين أبي محمد عبد العزيز بن أحمد الحلواني (ت 449هـ)، ومحمد بن أحمد بن أبي سهل السرخسي (ت 483هـ)، وأبي عبدك الجرجاني (ت 347هـ).

وللسيد الإمام جمال الدين محمود بن أحمد البخاري (ت 636هـ) شرحان أحدهما مختصر وآخر مطوّل وهو المسمى بالتحرير في شرح الجامع الكبير وهو في ثمانية مجلّدات ألفه حين قرأ عليه الملك المعظّم عيسى بن أبي بكر الأيوبي صاحب الشام (ت 624هـ).

وللملك السالف الذكر شرح على الجامع الكبير أيضًا، وشرح للإمام أبي نصر أحمد بن محمد البخاري (ت 586هـ)، وشرح الإمام أحمد بن علي المعروف بالجصاص الرازي (ت 370هـ)، والإمام افتخار الدين عبد

المطلب بن الفضل الهاشمي الحلبي (ت 616هـ)، وشرح الإمام أحمد بن محمد الطحاوي (ت 371هـ)، وأحمد بن محمد الطبري الحنفي (ت 340هـ) والآخرين؛ 4 ـ فتاوى خواهر زاده، ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون [العمود 1223]؛ 5 ـ الإيضاح، ذكره طاش كبري زاده في مفتاح السعادة [2/ 276]؛ 6 ـ ذكر خير الدين الزركلي كتابا له عنوانه «التجنيس» [الأعلام، 6/ 332]؛ 7 ـ وذكر عمر رضا كحالة كتابا له عنوان «شرح مختصر القدوري»، وهو في فروع الحنفية [معجم المؤلفين، 9/ 253] والقدوري هو أحمد بن محمد القدوري البغدادي الحنفي (ت 428هـ) وهو الذي يطلق عليه لفظ الكتاب عند الحنفية.

المصادر والمراجع

● الذهبي، سير أعلام النبلاء، تح. شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، 1406هـ/ 1986م، 19/ 14 ـ 15؛ ● الذهبي، العبر في خبر من غبر، تح. فؤاد السيد، الكويت، 1961م، 3/ 302؛ ● القرشي، محيي الدين، الجواهر المضيّة في طبقات الحنفية، حيدر آباد الدكن، 1332هـ، 1/ 236، 2/ 49؛ ● السمعاني الأنساب، اعتنى بنشره د. س مرجليوث، أعادت مكتبة المثنى ببغداد طبعه بالأوفسيت سنة 1970، الورقة 211؛ ● الحنبلي، ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت، المكتب التجاري للطباعة، 3/ 367؛ ● طاش كبري زاده، طبقات الفقهاء، تح. أحمد نيله، الموصل 1961، ط2، ص88؛ ● ابن قطلوبغا، تاريخ التراجم في طبقات التراجم في طبقات الحنفية، طبع على نفقة مكتبة المثنى ببغداد، 1962م، ص62؛ ● طاش كبري زاده، مفتاح السعادة ومصباح السيادة، تح. كامل كامل بكري وعبد الوهاب أبو النور، دار الكتب الحديثة في القاهرة، 2/ 276؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، تح. محمد شريف الدين بالتقايا ورفعت بيلكة الكليسي، ط3، طهران، أعادت طبعه بالأوفسيت المكتبة الإسلامية والجعفري التبريزي، 1378هـ، العمود 569، 1223، 1580؛ ● الزركلي، الأعلام، ط2، القاهرة، 6/ 332؛ ● كحالة، معجم المؤلفين، دمشق 1960م، 9/ 253.

أ. هـلال نـاجـي
باحث في التراث العربي ـ بغداد ـ العراق

خوجة، حسين بن علي بن سليمان

(ت 1145هـ/1733م)

هو المؤرّخ والطبيب بالهواية حسين خوجة بن علي بن سليمان الحنفي، ولد بتونس حوالي 1666م حسب ما افترض ذلك الأستاذ المعموري. درس بجامع الزيتونة، وتتلمذ على أهم شيوخه، فامتدح فضلهم ومنهم الشيخ محمود مهتار بن رجب، والشيخ أحمد برناز، والشيخ محمد زيتونة والشيخ عليّ الصوفي وغيرهم. كما أثنى على بعض المتصوّفة وأصحاب الطرق ممّن حضر أورادهم وتحصّل على إجازتهم على غرار الشيخ عليّ عزّوز الذي خصّه حسين خوجة بترجمة مطوّلة.

على أنّ إتقان حسين خوجة عديد اللغات الأجنبية كالتركية والفارسية وضربا من اللغة الإيطالية (Langua-Franca) قد فتح له أفقا جديدا من المعرفة والاطلاع والاتصال، كما نمّى معارفه بفعل موقعه السياسي، إذ شغل رئيس كتبة في عهد حسين بن علي وصار مترجمه الخاص. علما أنه باشر خطّة الكتابة منذ أواخر القرن السابع عشر قبل أن تصيبه محنة لمدة 3 أشهر في عهد طاطار داي ويعود ثانية إلى السلطة سنة 1105هـ/ 1694م. وتتحدّث عنه المصادر الأوروبية فتعدّه بمثابة وزير خارجية تونس آنذاك، إذ يعود إليه الأمر في توقيع الاتّفاقيات مع الدول الأجنبية. وقد صار له هذا الأمر بفعل إتقانه اللغات الأجنبية وكذلك بفعل بقائه في السلطة مدة طويلة صار معها أسّا ثابتا وركيزة أساسية لها مطلعا على أسرارها وخباياها.

ولعلّ هذا الموقع المتميّز هو الذي أهّله لكي يحمّل من قبل حسين بن علي مهمّات خاصّة لاسيّما خارج البلاد فاجتمع مثلا بالمشرق أثناء حجّته الثانية سنة 1125هـ/ 1713م ببعض الخارجين عن السلطة محاولا ثنيهم عن ذلك، واعدا بالتدخّل بغاية الصفح عنهم وعن أفراد عائلاتهم. فيكون بذلك حسين خوجة قد جمّع بين يديه عمليّا مسؤوليات عدّة «وزارات» بالمفهوم العصري للكلمة، إذ صار نظره يشمل علاقات السلطة الخارجية، وتأمين الأوضاع الداخلية بالبلاد فضلا عن إشرافه على الصادر والوارد من المكاتبات في أعلى هرم الدولة.

ولم تكشف لنا المصادر إلّا عن رحلات ثلاث قام بها حسين خوجة إلى الخارج رغم اقتناعنا بأنّ هذا العدد هو دون الواقع بكثير، فالرحلة الأولى كانت إلى أحد البلاد الأوروبية للتداوي، وتخصيصا نحو بعض المدن الإيطالية، وقد وجّهت هذه الرحلة اهتمامه إلى العلوم الطبّية بعد أن كانت له عليها إطلالة مع شيخه علي الصوفي المهتم بالعلوم النقلية. وقد اطّلع في هذه الرحلة خاصة على آخر المستحدثات الطبية في القضاء على أمراض الحمّى لاسيّما دواء الكينة كينة.

وتوجّه في رحلته الثانية إلى الحج وقد التقى بالإسكندرية بشيخه محمد زيتونة، والأكيد أن الرجل قد أطال في أمد رحلته حتى ينجلي أمر الصراع فيما بين مختلف أجنحة السلطة بالبلاد ساعتئذ، فتتضح تبعا لذلك أكثر وضعيته المهنية فضلا عن أمنه الشخصي خشية امتحانه مجددا.

أما سفرته الثالثة فكانت في اتجاه الحج ثانية، وجمع فيها المترجم له بين الممتع والمهمّ، فإضافة إلى المهمة السياسية التي كلّف بها وذكرناها سلفا، فقد أصرّ على القيام بجولة ببلاد الشام إثر الحج، فزار دمشق والقدس والخليل، ثم عاد أدراجه ثانية عبر مصر والإسكندرية بعد اتّصاله بعديد الشيوخ من رجال الدين وأصحاب الكرامات. ومن الثابت أنّ هذه الرحلات جميعها قد مكّنت حسين خوجة من تجميع تآليف هامة ومخطوطات فريدة ستمثل قاعدة عمله في مجمل تآليفه.

آثاره

اشتهر حسين خوجة بتآليف ثلاثة هي عبارة عن كتاب وذيل له ورسالة:

1 ـ أما الكتاب فيحمل عنوان «بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان» ويتكوّن من مقدمة و24 فصلاً، أفردت الفصول الثلاثة والعشرون الأولى لتاريخ سلاطين آل عثمان من عهد السلطان عثمان الأول إلى أحمد الثالث بعد أن تمّ التمهيد لذلك بدراسة جذور القبائل التركية وأصولها. فقد خصّص كلّ فصل للحديث عن أحد السلاطين وإنجازاته، وكثيرا ما أرفقه بخاتمة تضمّ تراجم العلماء الذين عايشوا ذلك السلطان؛ 2 ـ أما «ذيل بشائر الإيمان بفتوحات آل عثمان» الذي عدّه تأليفا منفردا، فإنه لا يمثّل في واقع الأمر سوى الباب الرابع والعشرين ضمن التأليف سابق الذكر، وفيه قدّم الكاتب بسطة عن تاريخ البلاد التونسية منذ استقرار العساكر العثمانيين سنة 1573م، مستعرضًا تاريخ دايات تونس مطنبا الحديث عن حسين بن علي مؤسس الدولة الحسينية مبرزا أهم «مآثره»، خاتما، على غرار ما أوجده «بالبشائر»، بالتعريف بعدد كبير من العلماء والمشايخ والأولياء ممّن عاشوا بمختلف مدن البلاد وبخارجها، وممّن لاقاهم في رحلاته فإذا بهذه الخاتمة تختصّ بقرابة ثلثي حجم الذيل.

وقد بدأ حسين خوجة في تأليف كتابي «البشائر» و«ذيله» في أوائل أكتوبر 1723م وأتمّهما في نوفمبر 1724م حسب ما أعلمنا بذلك في آخر صفحات كتابه، غير أنه كان على ما يبدو، يعود إلى تأليفه ليقحم بعض الإضافات دون أن يحوّر متن النص السابق ضرورة؛ 3 ـ «الأسرار الكمينة بأحوال الكينة كينة» وهو عبارة عن رسالة طبية بعثت له من بلاد الإفرنج فقام بترجمتها مستعينا في ذلك بالحكيم هارون أبو العيون، وتشتمل على توطئة ومقدمة واثنتي عشرة مقالة فخاتمة وتتمّة. وكان الفراغ منها في جانفي 1727م. وجاءت للتعريف بالحميات وأنواعها وكذلك للتعريف بدواء جديد (الكينة كينة) ضدّ حمّى المستنقعات جلبه حسين خوجة ذاته من أوروبا إلى تونس منذ أواخر القرن السابع عشر، في زمن كان الصراع على أشدّه بين حكماء الإفرنج بين داع لاعتماده ورافض

لاستخدامه. وكان لحسين خوجة السبق في الإفادة منه والتعريف بخصائصه وكيفيّة الاستطباب به بعد أقل من 40 سنة من ظهوره بأوروبا، وقد مثّل ذلك مساهمة هامة في القضاء على إحدى الجوائح التي كانت تذهب بعدد كبير من السكان.

ويبدو أن أهمّ دور قام به حسين خوجة في تآليفه يتمثل في ترجمة ما توفّر لديه من مصادر: فقد اعتمد في كتاب «البشائر» على كتاب المولى «مصلح الدين لاري أفندي» الذي اعتمد بدوره على تأليف محمد نشري «تاريخي آل عثمان» وهو الجزء السادس من كتابه العام «جهان نامه» كما اعتمد أيضًا مصدرين عربيين للحديث عن تاريخ سلاطين ما بعد منتصف القرن السادس عشر وهما كتاب «الإعلام بأعلام بيت الحرام» لمحمد بن أحمد النهروالي المكي وكذلك كتاب «نصرة الإيمان في دولة آل عثمان» للشيخ البكري وهما كتابان لا يرقيان من حيث دقة المعلومة وكثافتها إلى المصدر السابق. كما استفاد عند كتابته «الذيل» من تأليفين هما كتاب ابن الشماع «الأدلة البيّنة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية»، وكتاب ابن أبي دينار القيرواني «المؤنس في أخبار إفريقية وتونس». كما لمّح حسين خوجة إلى اطّلاعه على جزء من كتاب الوزير السرّاج «الحلل السندسية في الأخبار التونسية». أما تأليفه الطبي فمصدره مذكّرة بعثها له صديقه الحكيم أنسانو من أحد البلدان الأوروبية.

وتمثّل الجانب الأهم من مصادر حسين خوجة في التآليف التركية والفارسية والإفرنجية، وهو دليل على معرفة الرجل باللغات الأجنبيّة واتّساع شبكة علاقاته ومعارفه ممّا أهّله لتجاوز حدود تكوينه التقليدي الضيّق بأشواط. غير أنّ مشروع حسين خوجة التأليفي ما كان ليتمّ دون اعتماده على مصادر أخرى تكميلية. فقد انتفع كثيرا بعديد الجذاذات و«التقييدات» التي وضعها ترجمان قنصل فرنسا بأصبهان وكذلك بإضافات القاضي البغدادي شمس الدين الأعظمي عند تأليف «البشائر». كما نقل حرفيا في «الذيل» ما حبّره له يوسف برتقيز إمام حسين بن علي. كما مثّلت المصادر الشفوية آخر ما استفاد منه في كتابه «الذيل»، إذ هو كثيرا ما يذكر أسماء من شافهه وأملى عليه معلومات يذكرها برمّتها مذكّرا مرات بقوله «قال الملي...» وفي هذا المجال كان فضل أحمد برناز، ومحمد الصغير داود، ومحمد زيتونة، وعلي الصوفي، ومحمد المكي، وأحمد الطرودي... وغيرهم كبيرا. كما جاءت بعض ترجمات «الذيل» عميقة مطوّلة حين يهمّ الأمر أحد شيوخ المؤلف أو أصحاب المناصب والرتب السياسية أو العلمية، على حين جاءت التراجم «هزيلة» كلّما خالف الأمر ذلك.

أما عن إيراد التراجم في «الذيل» فقد اتّبع حسين خوجة النموذج الأسهل، وذلك بعرض اسم المترجم له وموطنه وشيوخه الذين تتلمذ عليهم ورحلاته، مضيفا تاريخ الوفاة متى توفّر في آخر الترجمة. كما نراه يخصّص في الوقت ذاته جانبا من الترجمة لحشر صفات الشخص المعرّف به الأخلاقية والجسمانية ولون بشرته وكثافة لحيته ونوعية ملبسه وطريقة مشيته وحتّى أنواع تطيّبه. وهذا ما حدا ببعض الباحثين إلى القول على صواب إنّ ترجمات

الذيل متكلّفة ولا ترقى على أي حال إلى الترجمات الواردة بكتاب «الحلل السندسية» للوزير السراج، إذ غابت فيها ملكة التقويم فجاءت محابية مدحيّة. وربما وجدنا لحسين خوجة عذرًا في ذلك، فهو إن أقدم على إنجاز هذه الترجمات فذلك لكي يذكر حسنات الأمير حسين بن علي ولي نعمته لا غير ويعدد تبعا لذلك تفصيليًّا مزايا هذا الأمير على العلماء والصلحاء.

على أننا نغمط مكانة حسين خوجة المؤرّخ والطبيب إن لم نبيّن أيضًا أنّ الرجل، وإن كان يعرض ما أخذه عن مصادر مختلفة في الغالب، فإنه كان يترك بصماته الخاصة أيضًا وذلك بالمزج في تآليفه بين الترجمة الحرفية حينا والتلخيص حينا آخر والاستدراك طورا ثالثا، بل إنه كان ينفرد برأيه الخاص في مرّات أخرى لا سيما في المسائل التي تصطدم بثقافته وقناعته الدينية. فجاءت تآليفه في لغة مفهومة حاول صاحبها أحيانا إيراد السجع في مواطن عدّة، وربّما أخلّت بها أحيانا بعض التعابير الجاهزة والألفاظ «العامية»، ولعل حرص الرجل على التبليغ والإقناع أوّلا وأخيرا كان أكثر من حرصه على جمال اللغة ومتانتها.

المصادر والمراجع

● الزركلي، الأعلام، دمشق، ط2، 2/ 269؛ ● كحالة، عمر، معجم المؤلفين، دمشق 57 ـ 1961، 4/ 31 ـ 32؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، إيضاح المكنون، إسطنبول 1945، 1/ 182؛ ● ابن عاشور، محمد الفاضل، أسفار وزراء الدولة الحسينيّة للحج، الثريا، عدد 12، السنة 2، ديسمبر 1945؛ ● الهادي، صاحب الطابع، على هامش أسفار وزراء الدولة الحسينية للحج، الثريا، عدد 3، السنة 3، مارس 1946؛ ● ابن ميلاد، أحمد، تاريخ الطب العربي التونسي، تونس 1980، ص214، 244؛ ● محفوظ، محمد، تراجم المؤلّفين التونسيين، بيروت 1982، 2/ 250 ـ 256؛ ● بوذينة، محمد، مشاهير التونسيين، تونس 1992، ط2، ص184؛ ● القسنطيني، الكراي، حمّى المستنقعات بتونس وتطوّر العلوم الطبية بها خلال مطلع القرن الثامن عشر، المجلة التاريخية المغربية، عدد 55 ـ 56، 1989؛

● Abdessalam Ahmed, Les histoires tunisiennes, Tunis 1973, pp 206-219; ● Magnin (J-G), «Médecine d'hier et médecins d'aujourd'hui» in IBLA, nº80, 1957, Tome 10, pp 393-416.

د. الكراي القسنطيني
الجامعة التونسية

خوجة، حمدان بن عثمان

(1128هـ/1715م - 1258هـ/1842م)

ينتمي حمدان بن عثمان خوجة إلى أسرة ذات جاه وعلم ومشاركة سياسية في دولة الدايات بالجزائر، فأبوه كان فقيها عالما؛ تولّى خطّة أمين عام للإيالة يشرف على ميزانية الدولة ويمسك بسجلّات موظفيها من الإنكشاريين، أمّا خاله فكان أمينا للسكّة، وهي وظيفة معتبرة.

تلقّى حمدان تعليمه الأوّلي على والده، فتعلّم مبادئ العلوم، كما اختلف إلى بعض شيوخ عصره لمزيد العرفان بعلوم اللغة العربية والشريعة الإسلامية ولا سيما علم الفقه على مذهب أبي حنيفة، باعتباره مذهب فئة الأتراك الحاكمة وأتباعهم من المولدين من أب عثماني وأمّ جزائرية المعروفين بفئة «الكرغلية» التي تنتمي إليها أسرة حمدان خوجة.

استطاع حمدان أن ينمّي معارفه واطّلاعه بالأسفار والرحلات إلى عديد البلدان الشرقية والغربية وهي أسفار تكرّرت منذ صباه وطالت أحيانا، فقد رافق خاله في عام 1784م، وهو لا يزال حدثا، إلى الأستانة عاصمة الخلافة العثمانية وكانت إقامته بها مناسبة لحذق اللّسان التركي الذي كان قد ألمّ بمبادئه في الجزائر. كما زار المشرق العربي وتردّد على تونس ممّا جعله مطّلعا على أوضاع البلاد الشرقية الإسلامية. وتميّز عن غيره من أبناء جيله بمعرفته عن كثب للغرب الأوروبي، وهو في بداية ثورته الصناعية. فحمدان، بالإضافة إلى كونه مالكا عقّاريا ومزارعا كبيرا يمتلك ثروة طائلة بسهل المتيجة الخصب، كان تاجرا يدير معاملات بين الجزائر والموانئ الأوروبية وخاصة ميناء مرسيليا، ممّا جعله كثير الأسفار إلى البلاد الأوروبية من إسبانيا وفرنسا وبريطانيا حيث استهوته مظاهر التمدّن من تقدّم ماديّ مشهود وتنظيم إداريّ جيّد ونظم سياسيّة قائمة على مبادئ المساواة والحرية. ولم تكن زياراته وإقامته بفرنسا وغيرها عابرة مقتصرة على النشاط التجاريّ، بل كانت مناسبات لتعميق وعيه بالحداثة التي لم يكتف بمشاهدة مظاهرها العمرانية والمادية الشاخصة، بل نفذ إلى مراميها في الفكر والممارسة السياسية، إذ كان كثير الاختلاف إلى الصالونات الأدبية والنوادي التي تجمع بين النخب الثقافية والسياسية؛ وقد عرف عنه إسداء النصح إلى حكومة الدايات ولفت انتباهها عند العودة من أيّة رحلة، إلى ما حققه (الأفرنج) من تقدّم في النظام الإداري والسياسي والصناعي، ويحث على وجوب العمل لتدارك الأخلال المختلفة. جاء في كتابه [اتحاف المنصفين] في هذا الصدد ما يلي: «إنّ أقوال الحكمة وأفعالها لا يستنكف العاقل من اقتنائها لضعة مَنْ فعلها أو قالها، بل يبادر للحق وقبوله، واستجلاب النفع وقبوله».

وحالت شواغل حمدان خوجة التجارية والمالية دون التوفّر على الكتابة والتأليف حتّى كان احتلال فرنسا لبلده الجزائر في 1830م مناسبة ليسفر الرجل عن وجهه الثقافي والعلمي، فنجده يبذل طاقة عزيزة المثال في مخاطبة الرأي العام الفرنسي لشدّ انتباهه لما يقترفه جيشه من مظالم بحقّ الجزائريّين والنيل من ممتلكاتهم وحرمانهم من مقدّساتهم، مستخدما في ذلك أساليب الكتابة الصحافية ووسائل المدافعين عن حقوق الإنسان في هذه الأيّام. كما يناشد السلطان العثماني ليتحمّل مسؤوليّته في التفريط بإحدى الإيالات المهمة من الخلافة.

ولذلك تعدّ الفترة التي تلت 1830م أخصب الفترات في حياة حمدان خوجة السياسية والفكرية، فقد اختار هذا المثقّف ذو الثروة الطائلة أن يضع نفسه في خدمة وطنه الجزائر وخدمة مصالحه في الآن ذاته بطريقة لم يخترها إلا نفر قليل من وجهاء مدينة الجزائر. ففي حين أخذت فكرة المقاومة المسلّحة تسري بين سكّان المناطق الغربيّة تحت قيادة الأمير عبد القادر، وفي المناطق الشرقية وراء أحمد باي حاكم مقاطعة قسنطينة، رأى حمدان خوجة وأقليّة من المثقّفين بالعاصمة الجزائر أنّ المصلحة تقتضي أن يكونوا على صلة بالقوّة المحتلّة يفاوضونها فيما يتّصل بشؤون الأهالي ويلفتون انتباهها إلى الخروقات والتجاوزات التي تعمد إليها العساكر الفرنسية متخطّية ما جاء في وثيقة الاستسلام الموقعة يوم 5 جويلية / تموز 1830 م، ولا سيما البند الخامس منها الذي نصّ على: «أنّ الدّين المحمّدي يظلّ معمولا به كما في السابق، وأنّ حرية أهل البلاد مهما اختلفت طبقاتهم ستكون محترمة، وأنّ دين هذا الشعب وممتلكاته وتجارته وصناعته بالإضافة إلى نسائه ستكون محترمة . . . ».

وأمام هذا الوضع المزري، انتخب أعوان مدينة الجزائر وعلماؤها حمدان خوجة ليذهب باسمهم إلى العاصمة الفرنسيّة باريس، ويدافع عن حقوقهم، ويُبرز أمام الشعب الفرنسي وممثّليه الرسميّين، ما كانت ترتكبه الآلة العسكريّة المحتلة من أعمال شنيعة تخالف كلّ عرف إنساني، ناهيك عن منافاة هذا التصرُّف لما احتوته وثيقة تسليم المدينة من شروط.

سافر حمدان خوجة ليقيم في باريس وكان بصحبته ابنه علي، وذلك في شهر ماي من عام 1833م، فبقي فيها حتى عام 1836م، وظلّ خلال هذه الفترة لا ينفكّ عن إشعار جميع الهيئات الرسميّة وغير الرّسميّة في فرنسا، بما يرتكبه الجيش الفرنسي والرسميون الفرنسيون في الجزائر من موبقات، ولكن جميع جهوده لم تلق أي صدى في فرنسا. وأثناء إقامته في باريس كتب سي عثمان مذكراته المعروفة بـ «المرآة»، وقد صبّ فيها جام غضبه على ما آلت إليه الجزائر من تردٍّ وسوء لا مثيل لهما كنتيجة للاحتلال الاستعماري. وممّا جاء في «المرآة» على الخصوص قوله: «إنّ تعاسة وطني قد تسبّبت في قلقي المستمرّ، وكثيرا ما كنتُ أثناء تحبيري لهذه التعاسة، مكرها على إيقاف قلمي لأترك دموعي تسيل».

وفي آخر الأمر تيقّن حمدان خوجة كما تيقّن أعيان مدينة الجزائر أنّ جهوده في باريس لن تفيد في شيء، فغادرها إلى اسطمبول عاصمة

الخلافة العثمانيّة، وهناك أسندت إليه وظيفة مترجم في المطبعة العامريّة، وبقي في هذه الوظيفة، حتّى وافته المنية هناك.

■ آثاره

كان حمدان خوجة أقرب إلى المثقف الحديث منه إلى العالم الفقيه. فقد كانت كتاباته في جلّها أجوبة على قضايا مطروحة في عهده موجّهة إلى الرأي العام الواسع وإن اختلفت في مضمونها بين كتابات سياسية وأخرى دينية وأهمّها:

1 ـ المرآة، نشر في باريس سنة 1833م، صاغه في اللّغة العربيّة، ثمّ ترجمه إلى الفرنسية صديقه حسونة الدغيس، وهو من وجهاء طرابلس (ليبيا)، تحت عنوان «لمحة تاريخيّة وإحصائيّة عن إيالة الجزائر». وهو تأليف جمع بين الجغرافيا البشريّة والاقتصاديّة للجزائر مع تقديم وصفي إثنوغرافي، قسمه إلى مقدّمة وكتاب أوّل من 13 فصلا، وكتاب ثان من 12 فصلا مع ملحق من الوثائق والإثباتات وهي في غاية الأهمّية. كتب حمدان خوجة كتاب «المرآة» وهو في لحظة يأس من مستقبل بلاده الجزائر تحت الاحتلال الفرنسي، لذلك أراده أن يكون وثيقة إدانة لما يجري بوطنه.

وصف اضطهاد الجزائريين من قبل الاحتلال، ثمّ قارن بين ما عليه شعب الجزائر من عبوديّة واضطهاد وبين ما عليه الشعب الفرنسي من حرية وعدل. دعّم آراءه بتقديم إحصائيات عن منتوجات الجزائر الزراعيّة والحرفيّة، وقارن بين الحكم التركي والحكم الفرنسي منتهيا إلى تفضيل الأوّل رغم ما له عليه من مآخذ. وعدا بعض المبالغة في الأرقام الإحصائية يعدّ كتاب «المرآة» أوّل مطبوع عربيّ يصدر عن الجزائر في فجر النهضة جمع فيه صاحبه بين الدفاع عن قضيّة سياسية وبين التأليف العلميّ، كما جمع بين ثقافة عربية إسلامية أصيلة واطّلاع على الحداثة الأوروبية في مجال الفكر السياسي؛ 2 ـ إتحاف المنصفين والأدباء عن الاحتراس من الوباء، كتبه باللغة العربية سنة 1836م ثمّ ترجمه إلى التركية، وأهداه إلى السلطان محمود الثاني، وكان يهدف من ورائه إلى الحثّ على الأخذ بأسباب الوقاية الصحية على نحو ما هو معمول به في أوروبا، وهو كتاب يظهر شخصيّة حمدان الفقيه مع دعوته الصريحة إلى الاقتداء بأوروبا في المجال العلميّ والصحيّ. ولا شكّ أنّ المؤلّف اطلع على تأليف محمد بيرم الثاني في نفس الموضوع الذي عنوانه «حسن النبا في التحفظ من الوبا» (1819م)، وقد كان مشهورا في عصره، كما تؤكد على ذلك شهادة الطهطاوي على ذلك في «تخليص الإبريز». وهذا النوع من التأليف مبعثه الحرص على درء الأوبئة وصيانة الوضع السكّاني باستخدام أساليب الوقاية المتوخّاة في الغرب لنفس الغرض؛ 3 ـ رسالة أسماها حكمة المعارف بوجه ينفع لمسألة ليس في الإمكان أبدع، ألّفها عام 1837م وهو متأثر بالآراء الرواقيّة وفكر الإمام الغزالي. هذا بالإضافة إلى عديد الرسائل تبادلها مع شخصيّات متعدّدة، نذكر من بينها مذكّرة قدّمها للجنة الإفريقية في جويلية 1833م وهي تلخيص لكتاب «المرآة» في شكل 18 نقطة تتضمّن شكاوي الأهالي ممّا أحاق بهم من ظلم وقهر نتيجة الاحتلال.

المصادر والمراجع

● خوجة، حمدان بن عثمان، المرآة، باريس، مطبعة قووتشسي، باريس 1833م؛ ● خوجة، حمدان بن عثمان، إتحاف المنصفين والأدباء في الاحتراس عن الوباء، تقديم وتحقيق الأستاذ محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1968م؛ ● التميمي، عبد الجليل، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي 1816 ـ 1871م، الدار التونسية للنشر، تونس 1972م؛ ● الزبيري، محمد العربي، مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، الجزائر 1981م؛ ● سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الحديث، بداية الاحتلال، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة 1970م. ● جغلول، عبد القادر، حمدان خوجة وموقفه من الاحتلال الفرنسي للجزائر، ترجمة محمد عجيهة، الحياة الثقافية، تونس، جانفي ـ فيفري 1981م؛ ● عميراوي، حميدة، حمدان خوجة، حياته وآثاره، الثقافة، السنة 15، عدد 90، الجزائر، نوفمبر ـ ديسمبر 1985م.

- Yves Gerges, si Hamdan Ben Othman Khodja, La Revue Africaine, 1913.

د. الحفناوي عمايرية
جامعة تونس
د. عبد القادر زبدية
جامعة الجزائر

خوجه زاده، مصلح الدين مصطفى أفندي

(838هـ/1434م ـ 893هـ/1488م)

ولد هذا العالم في بورصه عام 838هـ/1434م على أرجح الاحتمالات. ووالده يوسف أفندي من تجار بورصه. وكان التاجر في تلك الفترة يلقب بـ «الخوجه». ولذلك لقب مصلح الدين أفندي بلقب «الخوجه زاده» أو «سليل التجار».

وتذكر بعض المصادر أنه عارض والده الذي كان يريد منه امتهان التجارة وتمسك بتوجيهه نحو الاستزادة من العلوم. وقام الشيخ ولي شمس الدين الذي كان أحد طلبة الأمير سلطان بمحاولة إقناع والد مصلح الدين بضرورة السماح لابنه بطلب العلم ولكن دون جدوى. ولهذا السبب مرت السنوات الأولى من حياته مليئة بالمتاعب، إلا أن هذه المتاعب لم تثنه عن عزمه. فقد تلقى دروسا في الأصول والمعاني والبيان في مدرسة آغراص (آتابك) على يد محمد چلبي بن قاضي مدينة آياسولوق، وبعدها تلقى دروسا في بورصه على يد خضر بك في المدرسة

السلطانية. وقُدّم إلى السلطان مراد الثاني من قبل أستاذه. فعيّنه السلطان قاضيا في «كستل». وبعدها مدرّسا في المدرسة الأسدية في بورصه، واستمر في مهنة التدريس لمدة ست سنوات، حاز خلالها على إعجاب السلطان مراد الثاني بفضل أبحاثه ومنها حفظه عن ظهر قلب لكتاب «شرح المواقف» لمؤلفه السيد شريف الجرجاني. وحصل في إحدى المرات أن جرت مناظرة علمية في حضرة السلطان مراد الثاني بين علي قوشچو وخوجه زاده، وكان موضوع المناظرة يدور حول فحوى النقاش العلمي الذي دار في مجلس تيمورلنك بين التفتازاني والسيد شريف فمال خوجه زاده إلى رأي السيد شريف، أما علي قوشچو فكان مؤيدا لرأي التفتازاني. على أن قوشچو اضطر إلى أن يعطي الحق في النهاية لخوجه زاده بل ومدحه كثيرا في حضرة السلطان مراد الثاني.

وبعد تولي محمد الفاتح السلطنة العثمانية قام بجمع العلماء والفقهاء في مجلسه، وبلغ ذلك مسامع خوجه زاده فشد الرحال إلى استانبول، وقدمه محمود باشا إلى السلطان محمد الفاتح. ولفت انتباه السلطان من خلال إجاباته عن أسئلة الملا زيرك والملا سيد علي. وعلى ضوء ذلك عينه السلطان معلما له. وتلقى السلطان منه دروسا في الصرف، إلا أن هذا الاهتمام الكبير الذي لقيه خوجه زاده من السلطان محمد الفاتح أدى إلى تولد ضغائن ضدّه في نفوس بعض رجال الدولة مثل محمود باشا وغيره. ولإبعاد خوجه زاده من بطانة السلطان قام محمود باشا بالإيعاز إلى السلطان بأن خوجه زاده يسعى إلى تولي منصب قاضي العسكر، فما كان من السلطان إلا أن وافق على هذا الأمر ظنا منه أنها فعلا رغبة خوجه زاده.

وتشير بعض المصادر التاريخية إلى عدم موافقة خوجه زاده على هذا التعيين أول الأمر، ولكنه وافق على هذه الوظيفة بعد التوجيهات التي تلقاها من محمود باشا والتي مفادها أن الموضوع يتعلق بأمر من السلطان [مجدي، ص147]. وبعد أن مارس وظيفته في القضاء العسكري لفترة وجيزة استقال من منصبه ذلك وعين في المدرسة السلطانية في بورصه مقابل أجر قدره 50 أقجة. وبعدها عيّن مدرسا في صحن ثمان في استانبول. وقام في تلك الأثناء بتأليف كتابه «تهافت الفلاسفة» بأمر من السلطان محمد الفاتح.

وكان السلطان قد طلب في الوقت نفسه من علاء الدين الطوسي تأليف كتاب في الموضوع نفسه، وتمكن خوجه زاده من الفراغ من تأليفه في مدة أربعة أشهر. أما علاء الدين الطوسي فقد أكمل كتابه في ستة أشهر. وتبين أن كتاب خوجه كان أكثر جودة من كتاب علاء الدين الطوسي. ولكن السلطان أكرم كليهما بمنحهما جائزة قدرها 10000 درهم. وإضافة إلى ذلك منح خوجه زاده هدية تتمثل في قفطان. وبسبب هذه الهدية غادر علاء الدين الطوسي استانبول متوجها إلى إيران .

وشغل خوجه زاده في فترة لاحقة منصب قاضي استانبول وكذلك قاضي أدرنه (1466م ـ 1467م). وقام أحد طلبة الطوسي وهو محمد باشا القرماني بالدس ضد خوجه زاده لدى السلطان. فقد قام القرماني بعد توليه منصب الوزارة بالادعاء لدى السلطان بأن

خوجه زاده لا يستطيع التأقلم مع مناخ استانبول وأنه يفضل الاستقرار في إزنيق. وكانت هذه الدسيسة وسيلة من الوزير لإبعاد خوجه زاده عن استانبول. وبذلك استطاع أن يستصدر قرارا بتعيين خوجه زاده مدرسا وقاضيا في إزنيق. إلا أن الأخير ترك منصب القضاء مستمرا في مهنة التدريس. ومكث على ذلك حتى وفاة محمد الفاتح.

وقام السلطان بايزيد الثاني بتعيين خوجه زاده مدرسا في المدرسة السلطانية في بورصه لقاء أجر قدره 100 أقجة. وبعدها عينه مفتيا لبورصه، وأصابه الشلل وهو لا يزال في مهنته تلك. وطلب منه السلطان كتابة تعليق على «شرح المواقف» إلا أن خوجه زاده أوضح للسلطان أنه فعلا سبق وأن كتب مثل هذا التعليق، ولكنه أخذ من قبل حسن چلبي الفناري ليجعله تعليقا على كتابه هو فليس باستطاعته أن يكتب تعليقا جديدا. ولكن السلطان كان مصرا على رأيه. ورضخ خوجه زاده وبدأ في كتابة التعليق، ولكنه توفي قبل أن ينقح ما كتب ودفن إلى جانب الأمير سلطان. وكان لخوجه زاده اثنان من الأبناء أحدهما يدعى محمد والآخر عبد الله. عمل الأول مدرسا لمدة معينة وبعدها انتسب إلى الطريقة الزينية. أما الآخر فقد توفي وهو لا يزال شابا.

وعاصر خوجه زاده ثلاثة من سلاطين آل عثمان. وتتلمذ على يديه الكثير. ومن بين من اشتهر من تلاميذه نجد: الملا بهاء الدين، والملا سراج الدين، والملا مصطفى مصلح الدين يار حصارلي، ويوسف بن حسين القرماستي، ونور الدين يوسف القاره سي، وأحمد ركن الدين زيرك زاده، ومحمد قطب الدين قاضي زاده، وميريم چلبي، والچلبي باشا وغياث الدين القطبي. وبالرغم من أن بعض المصادر التاريخية تشير إلى أن أشرف أوغلي الرومي تلميذ من تلامذة خوجه زاده إلا أن الأبحاث التاريخية أثبتت أن الشخص المذكور إنما هو محمد محيي الدين أشرف زاده [Dia.، 11، 481] ويروى عن خوجه زاده أنه كان باحثا دقيقا في أبحاثه. ومما يدل على قدرته العلمية طلب السلطان محمد الفاتح منه تأليف كتاب «تهافت الفلاسفة».

آثاره

1 ـ تهافت الفلاسفة، يعتبر هذا الكتاب أهم النصوص التي تناولت موضوع التهافت في العالم الإسلامي. وقد أوضح المؤلف أنه كتبه بطلب من السلطان محمد الفاتح الذي أراد منه تأليف كتاب على شاكلة «تهافت الفلاسفة» للإمام الغزالي [تهافت الفلاسفة، ص4]. ويذكر بعض الباحثين أن خوجه زاده ألف هذا الكتاب بهدف المقارنة بين «التهافت» للغزالي و«التهافت» لابن رشد وبيان أيهما على حق، غير أن المعلومات الموجودة عن الكتاب في «الشقائق» و«كشف الظنون» لا تؤيد هذا الرأي، بل إن خوجه زاده لا يذكر هذا الموضوع على الإطلاق.

وبالإضافة إلى ذلك فإنه لا يرد أي ذكر لابن رشد ولا لكتابه «التهافت» في مؤلف خوجه زاده.

وبالنسبة إلى الغزالي فقد نقد الفلاسفة في عشرين مسألة، أما عدد المسائل الموجودة في كتاب خوجه زاده فهو اثنتان وعشرون مسألة،

وهناك أربع مسائل فقط أوردها خوجه زاده بأسماء مختلفة. وجميع المسائل التي تناولها المؤلف في كتابه تناولها الغزالي أيضا بطرق مختلفة.

ويعتبر خوجه زاده متكلّما، وهو إلى جانب ذلك لا يطلق الأحكام جزافا على الفلاسفة. ويتناول خوجه زاده الموضوع نفسه تناولا فلسفيا وكلاميا، ولذلك اعتبر ممثلا لتيار المتكلمين المتأخرين، وينظر إليه على أنه يتحرك بحرية فيما يتعلق بأفكاره حول الأطروحة ونقيض الأطروحة. غير أنه يلاحظ أن تحليله لم يعتبر جديدا ومختلفا، وإنما عمد إلى نقل آراء الفلاسفة والمتكلمين السابقين. ويبيّن المؤلف في مقدمة الكتاب أنه سوف يعالج موضوع الخلاف بين المتكلمين والفلاسفة معالجة محايدة، وأنه سوف لن يستنكف من الكشف عن الأخطاء التي لاحظها في كتاب «التهافت» للإمام الغزالي [المصدر السابق، ص5]. غير أن خوجه زاده أمعن في نقد الغزالي حتى أن ابن كمال علق على ذلك بالقول إنه متردد في فهم ما إذا كان هدف خوجه زاده هو دحض آراء الفلاسفة أم دحض فلسفة الغزالي نفسها [حاشية التهافت، ص511].

وبشكل عام فإن خوجه زاده يستخدم «قياس الخلف» المستعمل في علم الكلام الكلاسيكي. وحسب هذا المنهج يتم النظر إلى المسألة من جهتين، الأطروحة ونقيض الأطروحة ثم يتم بعد ذلك تحليل المسألة من جميع جوانبها وفي كافة أبعادها، ويناقش كل قسم على حده، وهكذا يتم الوصول إلى النهاية، وعلى هذا النحو فكل مسألة تثبت المسألة التي تليها. وهذه الطريقة التي تدعى «الطريقة السيكولاستيكية» قادرة على جعل الذهن يتوصل إلى نتائج جديدة. ولو نظر إلى الموضوع من هذه الناحية لوجد أن كتاب «التهافت» لخوجه زاده يعتبر أضيق أفقا من كتاب الغزالي.

وبالرغم من ذلك قام جلال الدين الديواني بتدقيق كتاب خوجه زاده الذي أهدي إليه من قبل عبد الرحمٰن مؤيد زاده أفندي. وأظهر إعجابه الكبير بعد انتهائه من تدقيق ذلك الكتاب. وبيّن تخلّيه عن نيته بتأليف كتاب مماثل بعد وجود مثل هذا الكتاب [المجدي، المجلد الأول، ص157]. ويوجد من «تهافت الفلاسفة» نسخ مخطوطة كثيرة، نجد من بينها نسخة المؤلف الموجودة في مكتبة السليمانية [الشهيد علي باشا، رقم 1583] والنسخ الموجودة في مكتبة راغب باشا [رقم 828]. ونشر المؤلف على حاشية «تهافت» الغزالي وابن رشد (القاهرة 1302، 1321). وكتب كل من حاكم شه القزويني وابن كمال حاشيتين على هذا المؤلف، وقد أسمى القزويني حاشيته بـ «حاشية على تهافت خوجه زاده»، بينما كانت حاشية ابن كمال بعنوان «حاشية على تهافت الفلاسفة». وقام أحمد أرسلان بترجمة حاشية ابن كمال إلى اللغة التركية وأعد حولها رسالة دكتوراه (استانبول 1987)؛ 2 ـ حاشية على شرح هداية الحكمة لمولانا زاده، عبارة عن حاشية للشرح الذي كتبه مولانا زاده أحمد بن محمد الهروي على المؤلف «هداية الحكمة» لأثير الدين الأبهري [مكتب السليمانية، لا له لي، رقم 2211، ورق 260 ـ 289، رقم 2539، ورق 71 ـ

102، حسن حسني باشا، رقم 1233، آياصوفيا، رقم 4847، ورق 45 ـ 81؛ مكتبة الدواة ببايزيد، رقم 3999؛ مكتبة كوبريلي، محمد عاصم، رقم 269]؛ 3 ـ حاشية على شرح المواقف لسيد شريف الجرجاني، كتبه على مؤلف «المواقف» لصاحبه علاء الدين الإيجي. وعند وفاة المؤلف قام تلميذه الملا بهاء الدين بتبييضه. وتوجد بعض نسخه في مكتبة السليمانية [عمجه زاده حسين باشا، رقم 302؛ وهبي أفندي البغدادي، رقم 826، يوجد بين الأوراق من 248 إلى 333؛ جار الله أفندي، رقم 2119؛ داماد ابراهيم باشا، رقم 784؛ خسرو باشا، رقم 122]، وتوجد نسخ بمكتبة الدولة بايزيد [رقم 2878] ومكتبة تيره [نجيب باشا، رقم 167]؛ 4 ـ حاشية على شرح الطوالع للإصفهاني، هو حاشية للشرح الذي كتبه محمد بن عبد الرحمٰن الإصفهاني على مؤلف «طوالع الأنوار» للقاضي البيضاوي [مكتبة السليمانية، الشهيد علي باشا، رقم 1597؛ خسرو باشا، رقم 122]. وكتب اسم هذا المؤلف في نسخة خسرو باشا على شكل «حاشية على الإصفهاني في علم الكلام». وتختلف هذه النسخة عن نسخة الشهيد علي باشا، وربما كان هذا المؤلف حاشية أخرى للإصفهاني لمؤلف له في علم الكلام؛ 5 ـ رسالة في الاعتراض على دليل إثبات وجودية الباري [مكتبة السليمانية، آياصوفيا، رقم 2350، ورق 18ب ـ 26ب]. ويثبت الأثر بالأدلة العقلية أنه لا يمكن إثبات مقولة الجهة في حق الله تعالى؛ 6 ـ رسالة في التوحيد [مكتبة السليمانية، آياصوفيا، رقم 2206، ورق 12أ ـ 21أ]. ولا يوجد اسم الكاتب في هذه الرسالة، ووجدت عبارة «خوجه زاده» في حاشية الصفحة 12 ب. ويحلل في هذا الأثر مصطلحات الوجوب والواجب والممكن، ويناقش هذه المصطلحات في صلتها بالذات الإلهية؛ 7 ـ رسالة في بحث العلة والمعلول [مكتبة السليمانية، أسعد أفندي، رقم 1161، ورق 98ب ـ 100 أ]. مؤلف كتب من أجل تفسير بحث العلة والمعلول من مؤلف «تجريد الكلام» لناصر الدين الطوسي؛ 8 ـ رسالة في أن كلام الله قديم [مكتبة السليمانية، أسعد أفندي، رقم 3782، ورق 20 ب ـ 21 أ]. تناول فيه ماهية الكلام وعلاقة اللفظ بالمعنى، وأوضح أن الكلام الذي تلاه جبريل ﷺ على النبي ﷺ حادث؛ 9 ـ الجذر الأصم [مكتبة السليمانية، أسعد أفندي، رقم 1143، ورق 89 ب ـ 91 أ؛ الشهيد علي باشا، رقم 2830؛ خالد أفندي، رقم 802، ورق 52ب ـ 56ب]. مؤلف يوضح معاني مصطلحات الحسن والقبح، وما إذا كان بالإمكان معرفتها بالعقل أم لا. وكتب خطيب زاده مؤلفا بعنوان «حاشية على مغالطات الجذر الأصم» للرد على خوجه زاده الذي يرى أن الحسن والقبح أمور عقلية [مكتبة الدولة بايزيد، ولي الدين أفندي، رقم 2122؛ مكتبة السليمانية، لا له لي، رقم 2200]؛ 10 ـ شرح العز في التصريف [مكتبة السليمانية، أنطاليا ـ تكه لي أغلي، رقم 628]. هو عبارة عن شرح لمؤلف عز الدين الزنجاني؛ 11 ـ حاشية على شرح تلخيص المفتاح [مكتبة السليمانية، أنطاليا ـ تكه لي أغلي، رقم 838]. حاشية على الشرح الذي كتبه التفتزاني على مؤلف الخطيب القزويني؛ 12 ـ مقدمات سبع في معرفة قوس

قزح، رسالة تناول فيها انعكاس الضوء وقوس قـزح وخـصـائـصـه، [Osmanli Astronomi Literatürü,p.50]

المصادر والمراجع

● خوجه زاده، تحفة الفلاسفة، القاهرة 1321، ص4 ـ 5؛ ● طاش كوبري زاده، الشقائق النعمانية، استانبول 1984، ص126 ـ 139؛ ● كوچوك نشانجي محمد باشا، التاريخ، استانبول 1279، ص 145، 173، 233؛ ● مجدي، ترجمة الشقائق، 1/ 145 ـ 158؛ ● خوجه سعد الدين، تاج التواريخ، نشر عصمت برماكسز أوغلي، أنقره 1992، 5/ 110 ـ 121؛ ● حسين، بدائع الوقائع، نشر A. S. Tveritinovay، موسكو 1961، ورق 189أ، 295أ، 510ب، 513أ؛ ● كاتب چلبي، كشف الظنون، 1/ 497، 513؛ 2/ 1139، 1892، 2028 ـ 2029؛ ● ابن العماد، شذرات الذهب، 7/ 354 ـ 356؛ ● الشوكاني، البدر الطالع، 2/ 306 ـ 308؛ ● اللكنوي، الفوائد البهية، القاهرة 1324، ص 214 ـ 215؛ ● البورصوي، محمد طاهر، المؤلفون العثمانيون، 1/ 293 ـ 294؛ ● سركيس، يوسف إليان، معجم المطبوعات العربية، 1/ 842 ـ 843؛ ● إسماعيل باشا، هدية العارفين، 2/ 433؛ ● الزركلي، الأعلام، القاهرة 1373 ـ 1378، 8/ 148؛ ● م. جلال شرف، الله والعالم والإنسان في الفكر الإسلامي، بيروت، بدون تاريخ، دار النهضة العربية، ص164 ـ 177؛ ● كحالة، معجم المؤلفين، دمشق 1376 ـ 1381، 12/ 290 ـ 291؛

● Brockelmann, GAL, II, 297-298; Suppl., II, 290, 322; ● Mübahat Türker Küyel, Üç Tehâfüt Bakimindan Felsefe ve Din Münasebeti, Ankara 1956, p. 53-62; ● Ismail Hakki Uzunçarsili, Osmanli Devleti'nin Ilmiye Teskilâti, Ankara 1965, p. 230; ● Cahit Baltaci, XV-XVI Asirlarda Osmanli Medreseleri, Istanbul 1976, p. 492-493; ● Ahmet Arslan, Kemal Pasazâde: Tehâfüt Hâsiyesi'nin Tahlili, Istanbul 1987; ● Recep Cici, Kurulustan Fatih Devrinin Sonuna Kadar Osmanlilarda Fikih Calismalari (doktora tezi, 1994, MU Sosyal Bilimler Enstitüsü), p. 301; ● Ekmeleddin Ihsanoğlu v.diğerleri, Osmanli Astronomi Literatürü Tarihi, Istanbul 1997, p. 48-50.

د. صفت كوسه
جامعة استانبول ـ تركيا
ترجمة: أنعم محمد عثمان الكباشي ـ السودان

خوجه، سنان الدين يوسف بن خضر

(845هـ/1441م - 892هـ/1486م)

من العلماء الذين عاشوا في عهد السلطان محمد الفاتح والسلطان بايزيد الثاني.
وأمه هي ابنة المُلَّا يغان (توفي في عام 1473م) وهو عامل مشهور في عهد السلطان مراد الثاني والسلطان الفاتح. وأما مكان مولده وتاريخه فإن المصادر تعطي معلومات مختلفة بشأن ذلك. وبعض هذه المصادر تذكر بورصه، وسفري حصار، واستانبول، غير أن أغلبها يذكر بورصه مكانًا لمولده. وبالنسبة إلى تاريخ مولده كذلك فإن ثمة اختلافًا في تحديده، ولكن الغالب أنه ولد في عام 1441م. وأبو خضر بك كان من العلماء البارزين في عهد السلطان الفاتح كما عمل أول قاضي لاستانبول. وجلال الدين أفندي، جّده من أبيه، كان قاضيًا لسفري حصار. ووفقًا لبعض المصادر فإن نسله من أبيه يرجع إلى مولانا والبعض الآخر يرجعه إلى نصر الدين خوجه.

تلقى سنان باشا أول تعليمه على يد أبيه خضر بك، وجدّه المُلَّا يغان. وبعد مجيئه إلى استانبول تعرّف بفضل جدّه على أشهر العلماء في تلك الفترة وهم المُلَّا خسرو (ت 1480م) والمُلا كوراني (ت 1488م)، والخوجه زاده مصلح الدين أفندي (ت 1487 - 1488م) ومصلح الدين الكستلي (ت 1496م)، كما أنه استفاد منهم استفادة كبيرة. وكان أول عمل قام به هو التدريس في إحدى مدارس أدرنه، ثم أصبح مدرسًا في دار الحديث بأدرنه. وإثر ذلك استدعي إلى استانبول، وأصبح مدرسًا في مدرسة الصحن وكذلك مدرسًا لدى السلطان. وفي عام 1470م أصبح وزيرًا، وأصبح معروفًا بلقب خوجه باشا.

في عام 1476م أرسله كديك أحمد باشا في غزوة إلى ألبانيا، ولمّا رفض سنان باشا الخروج عزل من منصبه. وإثر اعتقال كديك أحمد باشا في روملي حصار، تم تعيين سنان باشا في مكانه وبذلك أصبح وزيرًا أعظم. بيد أنه عزل في العام نفسه وتم تعيين النشانجي محمد باشا القرماني في مكانه. وبعد أن عزل من منصبه أبعد سنان باشا كذلك من قضاء سفري حصار ومهمة التدريس.

بعد وفاة السلطان محمد الفاتح أصبح سنان باشا مدرسًا في عهد السلطان بايزيد الثاني في مدرسة دار الحديث بمرتب يومي قدره 100 أقجة. وهناك مصادر تقول بأنه توفي في أدرنه ومصادر أخرى تقول بأنه توفي باستانبول، وهي أكثر قبولا لأن قبره يوجد بجوار قبر أبي أيوب الأنصاري. وهناك مصادر تقول إنه عمل موظفًا في لواء غاليبولي.

استفاد سنان باشا كثيرًا من الكتب التي جمعها السلطان محمد الفاتح في قصره، وقد كلف أحد طلبته وهو المُلا لطفي (ت 1494م) بحفظ هذه الكتب. وبدعوة من السلطان محمد، قدم علي كوشجو إلى استانبول (ت 1474م)، فطلب السلطان محمد من سنان باشا أن يحضر إلى دروس علي كوشجو

وأن يتعلم العلوم الرياضية. وإثر ذلك طلب سنان باشا من تلميذه المُلا لطفي أن يحضر دروس علي كوشجو. ثم إن سنان باشا يراجع هذه الدروس الرياضية مع تلميذه، وبذلك يكون وكأنه أخذ العلم عن علي كوشجو.

كان سنان باشا مرتبطًا بالشيخ وفاء، وقد كوّن مجموعة من خوجه زاده، والملا لطفي، وجمالي أفندي. وفي المقابل كانت هناك مجموعة أخرى متكوّنة من خطيب زاده وأفضل زاده. ويلاحظ أن هاتين المجموعتين كانت تحدث بينهما خلافات مستمرة. كان سنان باشا يتابع باستمرار أفكار وآراء الملا فناري باعتباره الممثّل للرأي الرسمي العثماني، ولذلك يمكن اعتبار سنان باشا ممثلا لمفهوم الكلام الفلسفي. ومن بين تلاميذه النجباء الذين أصبحوا بعد ذلك علماء بارزين، نجد الملا لطفي الطوقاطي، وصاري كوروز محيي الدين الباليكسيري، وقره بالي الآيديني، وأستاذ زاده تاج الدين إبراهيم، ومحمود الرياضي قاضي زاده الرومي، وبدر الدين محمود، والشيخ حاجي الجلبي، وميريم جلبي. وكان سنان باشا دائم الاجتماع بأشهر العلماء مثل مصلح الدين القسطلاني، وخطيب زاده محيي الدين، وخوجه زاده وعلي أفندي الزنبيلي، وكانوا في مجلسهم يتدارسون المواضيع العلمية المختلفة. تزوج سنان باشا من أخت أحد قضاة العسكر وهو الملا محمد في عهد السلطان الفاتح. وقد أنجب من هذه الزيجة محمد وأحمد جلبي. وقد عمل محمد جلبي في التدريس في مدرسة محمود باشا، كما عمل في وظيفة القضاء وتوفي وهو في سن الشباب. ولسنان باشا أخوان فاضلان هما أحمد باشا (ت 1510م) وكان مفتيًا لبورصه ويعقوب باشا (ت 1486م) وكان قاضيًا لبورصه. وقد كتب مؤلفات كثيرة. ولسنان باشا أوقاف في كل من استانبول وبورصه، وأدرنه مؤرخة بعام 887هـ/ 1482م.

يُعدّ سنان باشا من العلماء المشهورين الذين عاشوا في عهد السلطان محمد الفاتح، وقد ترك العديد من المؤلفات. وكان يعتمد في البداية على العقل ثم توجه بعد ذلك نحو التصوف. وقد ردّ على الانتقادات التي قيلت في حق شيخه أبي الوفاء في حضور شيخ الإسلام الملا الكوراني، وتمكن من إقناع العلماء بوجهة نظره. ولسنان باشا القدرة على كتابة الشعر بثلاث لغات، وفي الوقت نفسه ترك نماذج جيدة في الأدب التركي في مجال النثر. وقد قيل عن هذا النثر المسجع «أسلوب سنان باشا». وكان سنان باشا يملك مكتبة غنية، وقد قام بوقفها قبل فترة من وفاته. وتشمل مؤلفاته في فترة السلطان بايزيد الثاني مواضيع دينية ومسائل في التصوف والأخلاق. أما المؤلفات التي تتناول مواضيع مثل علم الفلك، والفقه، والكلام فقد كتبها في عهد السلطان محمد الفاتح.

آثاره

أ ـ باللغة التركية:

1 ـ تضرع نامه، هو مؤلف في فن النثر المسجّع، كتبه عندما كان مدرسًا في مدرسة دار الحديث في أدرنه. وهو عبارة عن مناجاة، وهو من أشهر كتبه. وموضوعه التصوُّف. ويورد فيه من حين لآخر بعض المقطوعات الشعرية. ويتحدث الكتاب عن العشق، وقد

حلاه ببعض الحكايات والقصص. ويتحدث الباب الأول من الكتاب عن التضرع وأما الباب الثاني فقد تضمن قصيدة فخرية وينتهي الكتاب بخاتمة. وتضمن الكتاب حياة الأنبياء السبعة الكبار وصفاتهم. وينتهي بتضرع إلى الشيخ وفاء. ويوجد هذا المؤلف في مكتبات كثيرة بنسخ متنوعة. وقد أعدّ حوله مَرْتُول تولوم رسالة دكتوراه، ثم وقع نشر هذه الرسالة فيما بعد (استانبول 1971م)؛ 2 ـ نصيحت نامه، يطلق على هذا الكتاب أيضًا اسم «أخلاق نامه» و«معرفة نامه»، ويتناول سنان باشا في هذا المؤلف الأخلاق الإسلامية. وتوجد منه نسخ كثيرة وعليه إقبال كبير من قبل القراء. وقام إسماعيل حكمت أرطايلان بنشر صورة طبق الأصل للكتاب وللقسم الذي يقدّم بعض المعلومات المتعلقة بسنان باشا [معرفة نامه، استانبول 1961]. وبالإضافة إلى ذلك أعدّ مرتول تولوم رسالة أستاذ مشارك حول هذا المؤلف [معرفة نامه سنان باشا، استانبول 1978م]؛ 3 ـ تذكرة الأولياء، وهو عبارة عن بعض الإضافات التي قام بها على كتاب فريد الدين العطار. وقد تناول فيه مناقب بعض المتصوفة المشهورين. وتوجد منه بعض النسخ المخطوطة، وهي كالتالي: مكتبة جامعة استانبول، قسم المخطوطات التركية، رقم 2607، ورقم 6382. وقد أعدت حول هذا المؤلف رسالة دكتوراه من قبل أمينة كُورسُويَ ناسكالي، ثم نشرت هذه الرسالة في وقت لاحق (انقره 1987). ويتكون عمل ناسكالي من الأقسام التالية: حياة سنان باشا وآثاره، كتابه، تذكرة الأولياء، مقارنة بينه وبين تذكرة الأولياء للعطار، النسخ المخطوطة لكتاب تذكرة الأولياء لسنان باشا. وينتهي بقسم النحو.

ب ـ باللغة العربية:

1 ـ حاشية على شرح الملخص، يتعلق هذا الكتاب بالكوزموغرافيا التي أهداها إلى السلطان بايزيد الثاني. وهو عبارة عن حاشية للشرح الذي وضعه قاضي زاده الرومي لكتاب «الملخص للجغميني». وتوجد بعض نسخه المخطوطة في مكتبة السليمانية [قسم جار الله أفندي، رقم 1465/ I، وقسم لا له لي، رقم 3401] والمكتبة الشعبية [قسم فيض الله أفندي، رقم 1334]؛ 2 ـ رسالة من الهندسة، تتعلق بحل مسألة ناقش فيها علي كوشجو بحضور السلطان محمد الفاتح، وتوجد من هذا المؤلف نسخة مخطوطة في مكتبة كوبريلي [رقم 721]؛ 3 ـ حاشية على شرح المواقف، عبارة عن حاشية على قسم «الجواهر» لشرح مؤلف الجرجاني في الكلام والمسمّى «المواقف». وتوجد منه نسخة مخطوطة في مكتبة جامعة استانبول [قسم المخطوطات العربية، رقم 1568]؛ 4 ـ رسالة خواص حكمة العين وبحث الجهاد، توجد النسخة المخطوطة من هذا الموقف في مكتبة السليمانية [قسم آياصوفيا، رقم 2350]؛ 5 ـ رسالة في جواب الكشتلي عما استشكله من شرح المواقف، توجد النسخة المخطوطة منه في مكتبة السليمانية [قسم قره جلبي زاده، رقم 330]؛ 6 ـ حاشية على صدر الشريعة على الوقاية، حاشية كتبها على «الوقاية» لصدر الشريعة. وتوجد النسخة المخطوطة منه في مكتبة السليمانية [قسم الفاتح، رقم 5384]؛ 7 ـ الحاشية، حاشية كتبها على تفسير

«البيضاوي»، وتوجد منه نسخة مخطوطة في مكتبة نور عثمانية [رقم 368]؛ 8 ـ تعليقات على حاشية التجريد للسيّد الشريف: عبارة عن ملاحظات كتبها على «حاشية التجريد» للسيّد الشريف، وتوجد منه نسخة مخطوطة في مكتبة السليمانية [قسم حاجي بشير أغا، رقم 199].

وبالإضافة إلى ذلك يوجد مؤلف آخر لسنان باشا وهو «جواب» وقد كتبه على مؤلف الجرجاني المسمى «الجهة». ويذكر كتاب جلبي أن لسنان باشا مؤلفًا في علم الفلك حول كتاب قطب الدين الشيرازي المسمى «نهاية الإدراك في دراية الأفلاك»، غير أن هذا المؤلف لم يتم العثور عليه. وهناك مؤلف آخر ينسب إلى سنان باشا ويدعى «رسالة في حل أشكال معدل مسير عطارد»، غير أن علي كوشجو يذكر أن كتاب «فتح الفتحية» هو للغلام سنان (ت 1506م).

المصادر والمراجع

• Köprülüzade Mehmed Fuad-Sehabeddin Süleyman, Yeni Osmanli Tarihi Edebiyati, Istanbul 1332, p. 201-211; • Bursali Mehmed Tâhir, Osmanli Müelliferi, Istanbul 1333, p. 223-225; • Ismail Hami Danismend, Izahli Osmanli Tarihi Kronolojisi, Istanbul 1971 , I, 204, 268, 386 ; • Abdülhak Andnan Adivar, Osmanli Türklerinde Ilim, Istanbul 1982, p. 49-50; • Ismail Hakki Uzunçarsili, Osmanli Tarihi, Ankara 1983, p. 533-534, 595-597, 652-653, 658-660; • Ismail Hakki Unzunçarsili, «Hizir Bey oglu Sinan Pasa'nin Vezir-i Azamligina Dair Cok Kiymetli Bir Vesika», Belleten, Ankara 1963, XXVII/sayi: 105, p. 37-44; • Ismail E. Erünsal, Türk Kütüphaneleri Tarihi, II, Ankara 1988, p. 36; • Osmanli Astronomi Literatürü Tarihi, (Hazirlayandar: Ekmeleddin Ihsanoglu, Ramazan Sesen, Cevat Izgi, Cemil Akpinar ve Ihsan Fazlioglu), Istanbul 1997, p.45-48; • Ihsan Fazlioglu, «Ali Kusçu'nun bir hendese problemi ve Sinan Pasa'ya nisbet edilen cevabi», Divan, Istanbul 1996, sayi: 1, p. 85-106; • «Sinan Pasa», Yeni Türk Ansiklopedisi, IX Istanbul 1985, p. 3580-3582; • «Sinan Pasa», Türk Ansiklopedisi, XXIX, Ankara 1980, p. 67-68; • «Sinan Pasa», Türki Dili ve Edebiyati Ansiklopedisi, VIII, Istanbul 1998, p. 19-20; • Hasibe Mazioglu, «Tazarruât», Necati Lugal Armagani, Ankara 1968, p. 447-462; • Hasibe Mazioglu, «Sinan Pasa», Islâm Ansiklopedisi, X, Istanbul 1980, p. 666-670; • Christine Woodhead, «Sinan Paha, Khodja», The Encyclopaedia of Islam (New Edition), IX, Leiden 1997, p. 630-631.

د. مصطفى بيرول أولكر
جامعة استانبول ـ تركيا
ترجمة: أنعم محمد عثمان الكباشي ـ السودان

ابن الخوجة، محمد بن محمد البشير

(1286هـ/1869م - 1363هـ/1942م)

هو محمد بن محمد البشير بن محمد بن الخوجة. مؤرخ، موسوعي المعارف. [محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، 2/ 259] ولد بمدينة تونس في عائلة علمية ماجدة من أصل تركي استوطنت تونس منذ القرن العاشر للهجرة/ 16م.

بعد أن تعلم نصيبا من القرآن انخرط في سلك تلاميذ المدرسة الصادقة في الرعيل الثاني من طلابها وهي المدرسة التي كوّنها الوزير الأول المصلح خير الدين باشا وتخرّج من بين تلاميذها عدد من المثقفين التّونسيين الذين جمعوا بين العلوم التقليدية والعصرية. ولما انتصبت الحماية الفرنسية احتاجت فرنسا إلى معلمين يحذقون الفرنسية لتعليمها للتونسيين في المدارس العربية الفرنسية المحدثة، كوّنت للغرض المدرسة العلوية سنة 1300هـ/ 1882م، وحوّلت إليها بعض تلاميذ المدرسة الصادقية وكان محمد بن الخوجة من جملة من نقل إليها. وتخرج ابن الخوجة من هذه المدرسة وهو يجيد اللغتين العربية والفرنسية.

ابتدأ محمد بن الخوجة حياته الإدارية منذ سنة 1304هـ/ 1887م بصفته مترجما في الكتابة العامة للحكومة التونسية واشتغل مع المصلح البشير صفر زعيم الشباب الصادقي وصديق المترجم إليه. وقام بأعمال الترجمة بين عمه شيخ الإسلام أحمد بن الخوجة والسفير الفرنسي بول كامبون.

وفي سنة 1309هـ/ 1892م ترأس قسم الحساب بعد أن نقل البشير صفر إلى رئاسة جمعية الأوقاف.

كان مقرّبا من سلطات الحماية وبقي مدّة طويلة عمدة الإدارة التونسية والطريق الوحيد بين المصالح الأهلية والكتابة العامة للحكومة التونسية التي يرأسها فرنسي. وعهدت إليه في نفس الوقت نظارة المطبعة الرسمية من 1319هـ/ 1902م إلى 1334هـ/ 1915م، ومكّنته هذه الخطة من طبع ونشر إنتاجه الفكري المتنوّع. كما أسند إليه منصب تدريس الترجمة والتاريخ بالمدرسة العليا للغة والآداب العربية سنة 1329هـ/ 1911م. وفي سنة 1332هـ/ 1914م عيّن مدير التشريفات السّنيّة. ومن هنا بدأ الدور السياسي في حياته، ولقب أمير لواء سنة 1333هـ/ 1914م ثم أمير أمراء (جنرال) وكان يفتخر بذلك وكتبها في أوراق زياراته واشتهر بها. ولمّا عزل من خطة التشريفات عام 1338هـ/ 1919م سمي عاملا على مدينة قابس. ثم نقل بنفس خطته إلى الكاف سنة 1339هـ/ 1920م وبعدها إلى بنزرت سنة 1343هـ/ 1924م. وفي سنة 1353هـ/ 1934م أحيل على التقاعد وسمي مستشار الدولة التونسية. وخلال سنة 1363هـ/ 1942م توفّي الشيخ محمد بن الخوجة بمدينة تونس ودفن بها.

تمثل نشاط محمد بن الخوجة الفكري في

الكتابة الصحفية والمساهمة في الجمعيات الثقافية، وفي كثرة التصنيف في اختصاصات متعدّدة.

بدأ عمله الصحفي بالمشاركة في الهيأة المكونة لأول جريدة عربية حرة بتونس وهي جريدة «الحاضرة» التي ابتدأ صدورها في ذي القعدة سنة 1305هـ/ 1887م بإدارة الكاتب المصلح علي بوشوشة، ونشر فيها عدة مقالات. وساهم في الحركة الإصلاحية التونسية وكان يشعر بضرورة تحسين أوضاع السكان التونسيين. فاشترك في تكوين «الجمعية الخلدونية» سنة 1314هـ/ 1896م. وكان بهذا العمل من المؤسسين للتعليم العصري باللغة العربية بتونس والواضعين لأسس التعليم العربي الحر. وتواصل عمله في صلب مجلس «الجمعية الخلدونية» إلى أن فارقها صديقه البشير صفر سنة 1326هـ/ 1908م. وإلى جانب عمله في الصحافة وفي الجمعيات اعتنى محمد بن الخوجة بالتأليف وصدر أوّل تآليفه سنة 1315هـ/ 1897م وآخرها سنة 1358هـ/ 1939م. فكان موسم نتاجه الفكري ثلاثة وأربعين عاما [ابن عاشور، تراجم الأعلام، 311].

ساعدت عدّة عوامل محمد بن الخوجة على التأليف والنّشر. فقد مكّنته المناصب التي تولاها من الاطلاع على دواليب الدولة من الداخل. «وبذلك عرف في صغره من غوامض أحوال السياسة التونسية ما لا يعرف إلا القليلون» [ابن عاشور، ن.م، 300]. ثم إنّ تعيينه مديرا عاما للمطبعة الرسمية التونسية سهّل له الكتابة والنشر والقيام بترويج كثير من الكتب مثل: «معالم الإيمان»، و«ذيل تاريخ حسين خوجة»، و«تاريخ الوزير السّراج» [ابن عاشور، ن.م، 18]، واشتراكه في لجنة تأليف الفهرس العلمي لمكتبة الجامع الأعظم سنة 1322هـ/ 1904م مكّنه من الاطلاع على تنوع المخزون العلمي الموجود بجامع الزيتونة.

ثمّ إنّ الرّحلات التي قام بها تعدّ من المؤثرات البارزة في شخصيته الفكرية. فقد طال تردّده على البلاد الفرنسية سنة 1318هـ/ 1900م وعرف منها خصائص مناطقها المختلفة وتملّى من كنوزها الأثرية ومعالمها. وزار أيضا الجزائر، والمغرب الأقصى، وسويسرا، وبلجيكيا، وهولندا واستفاد منها. كما أنّ اشتراكه في المؤتمرات والمجامع العلمية مكّنه من إثراء رصيده الثقافي ومنها مؤتمر شمال إفريقيا المنعقد بباريس سنة 1326هـ/ 1908م، ومجمع قرطاجنة الذي انخرط فيه منذ تأسيسه.

ويتجلّى من خلال دراسة آثار محمد بن الخوجة المكتوبة شغفه وعنايته الكبرى بالتاريخ عامة والتاريخ التونسي خاصّة. واقتفى بذلك أثر والده محمد البشير في العناية بالتاريخ وتحديدا بالتاريخ التونسي الحديث [محفوظ، محمد، تراجم المؤلفين التونسيين، 2/ 295]. ويقول في هذا الشأن الشيخ الفاضل ابن عاشور: «اشتهر الشيخ محمد البشير بن الخوجة بين كتّاب عصره بما له من الضّلاعة في التاريخ التونسي والميل إلى البحث عن تاريخ الدولة الحسينيّة والحرص على تقييد كل حادث هام يمر على مطالعته أو سماعه أو مشاهدته. فكان بذلك ثالث اثنين من الكتاب المؤرخين في ذلك

العصر هما الشيخ محمد الباجي المسعودي، والشيخ أحمد بن أبي الضياف...» [ابن عاشور، تراجم الأعلام، 297].

ونذكر فيما يلي أهم مصنفات محمد بن الخوجة، وهي أوّلا مقالاته الصحفية. وثانيا كتبه ورسائله المطبوعة والمخطوطة. علما وأن محمد بن الخوجة أورد بنفسه في الطبعة الأولى من كتابه معالم التوحيد قائمة في أهم مصنفاته.

انتظم محمد بن الخوجة في نشر مقالات تاريخية في جريدة الحاضرة التي كان من مؤسسيها. وكان قراء الحاضرة في ذلك العصر يلاحظون على هذا القلم الشاب المختص بضبط الأخبار المحلية نزعته السريعة إلى إحياء التاريخ التونسي وتراجم المشاهير من التونسيين بأيسر مناسبة [ابن عاشور، ن.م، 309]، كما نشر مقالات متتابعة في «المجلة الزيتونية» وفيها صدر أغزر إنتاج تاريخي له. وكتب في مجلة «شمس الإسلام» التي كان يصدرها الشيخ محمد الصالح بن مراد بتونس سنة 1356هـ/ 1937م.

وقد قام كل من الباحثين حمادي الساحلي والجيلاني بن الحاج يحيى بإصدار سبعة وثلاثين مقالا من مقالاته الصحفية ـ منها اثنان وثلاثون مقالا من «المجلة الزيتونية» وخمسة مقالات من مصادر مختلفة ـ في كتاب مستقل عنوانه «صفحات من تاريخ تونس» نشرته دار الغرب الإسلامي سنة 1986م. والكتاب هو عبارة عن مجموعة من الدراسات التاريخية التي تولى نشرها محمد بن الخوجة طوال حياته. وتناول الكاتب في الباب الأول من تأليفه البحوث التي تمتُّ بصلة للتاريخ الإسلامي بوجه عام والتاريخ التونسي بوجه خاص. وقال في شأنها إنه «جمع شتاتها من مختلف المصادر المعروفة وغير المعروفة لتكون مرشدا وبيانا لأهل الأجيال القابلة».

وفي الباب الثاني تناول بالدراسة المسألة المتعلقة بالقضاء الشرعي وخطة شيخ الإسلام. وبحث في الباب الثالث من الكتاب في العادات والتقاليد التونسية كدراسة عناصر الشعب التونسي وامتزاجها وعقود الأنكحة وغير ذلك. وفي الباب الرابع تمّ التعريف بالمعالم الأثرية الموجودة بتونس ولا سيما جامع الزيتونة والمدرسة الصادقية وأرباض مدينة تونس. وفي الباب الخامس والأخير ترجم محمد بن الخوجة لعدد من الأعلام التونسيين البارزين منهم: الشيخ إسماعيل التميمي، والوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور، والشيخ محمد النيفر صاحب عنوان الأريب، وأصحاب الإمام أبي الحسن الشاذلي.

حرص محمد بن الخوجة على طبع عدد من مصنّفاته بنفسه بمطابع المطبعة الرّسمية بتونس التي أدارها مدّة من الزّمن. ومنها التي كانت في شكل مقالات صحفية ثم حوّلها إلى كتب فيما بعد. وهذه المصنّفات هي:

آثاره

أ ـ المطبوعة:

1 ـ محاورة الشيخ عمر والحاج فتوح، وهي محاورة بين هذين الشخصين حول آداب رمضان. وأسلوب هذا الكتاب بسيط في لغته ومعانيه وأغراضه وهو أوّل تأليف له صدر سنة 1315هـ/ 1898م [محفوظ، محمد، تراجم

المؤلفين، 2/ 261]؛ 2 ـ تاريخ الحج وعمارة البيت الحرام، وقد نشره ملخصا بالمجلة الزيتونية؛ 3 ـ القضاء الشرعي في الإسلام، نشره ملخصا بأربعة أعداد من المجلة الزيتونية. ثم نشره باللغة العربية في رسالة مستقلة بذاتها عنوانها بحث تاريخي يتعلق بالقضاء الشرعي في الإسلام ويتكون من 67 صفحة صدر بالمطبعة الرسمية بتونس سنة 1326هـ/ 1908م. كما نشر هذا الموضوع في كتاب صفحات من تاريخ تونس المذكور أعلاه؛ 4 ـ تحفة الإنجاد في المقابلة بين تاريخي الهجرة والميلاد. وهو كتيب مهم أصدرته المطبعة الرسمية بتونس سنة 1313هـ/ 1896م ويتكون من 58 صفحة. درس فيه ابن الخوجة التوقيت عند العرب وعرّف بالأشهر وبيّن طريقة احتساب التاريخين الهجري والميلادي وأدرج مقارنة بين التاريخين بلغ بها إلى سنة 1976م؛ 5 ـ وزراء تونس قبل الحماية وبعدها. ونشره ملخصا بالمجلة الزيتونية؛ 6 ـ كشف عن أحوال تونس في عصر الحماية؛ 7 ـ مجموع فقهي في مسائل إنزال الأحباس والكردار والخلوات وغير ذلك؛ 8 ـ الرزنامة التونسية، تواصل صدورها السنوي بانتظام ما لا يقل عن ست عشرة سنة أي من 1319هـ/ 1902م إلى 1335هـ/ 1918م. ويحتوي كل جزء من الرزنامة التونسية على معلومات فلكية وإدارية وتاريخية خاصة بالنسبة للسنة التي أصدر فيها الكتاب، ويمثل هذا الانتاج السّنوي مرجعا لا غني عنه للمؤرخ الذي يبحث في تاريخ تونس ومؤسساتها آنذاك؛ 9 ـ سلوك الإبريز في مسالك باريز، صدر عن المطبعة الرسمية بتاريخ 1318هـ/ 1900م، وتحدث فيه عن جمال باريس ومظاهرها المعمارية وعاداتها. وأنهى الكتاب بفصل شعري قارن فيه بين الحضارة الإسلامية والحضارة العصرية الحديثة وسماه: «العقد النضيد في التنظير بين الحضارة الإسلامية وتمدن العصر الجديد»؛ 10 ـ توادد الكرم، وهو وصف لرحلة المولى محمد الهادي باي لباريس في سنة 1904م؛ 11 ـ الرحلة الناصرية، وصف لرحلة الناصر باي، وطبعت سنة 1913م؛ 12 ـ الرحلة الفليارية، وصف لرحلة رئيس الجمهورية الفرنسية أرمان فليار إلى تونس. وطبع سنة 1912م؛ 13 ـ رسالة في الحج، وهي مكتوبة باللغة الفرنسية؛ 14 ـ فهرس فني لكتب التاريخ المحفوظة بخزائن جامع الزيتونة، وهو مكتوب باللغة الفرنسية، صدر بمشاركة الكاتب العام للحكومة التونسية الفرنسي م. روا والشيخ محمد الحشايشي؛ 15 ـ رسالة في مقابلة السنين المسيحية بالسنين الهجرية لمدة ألف وأربعمائة عام، وهو مكتوب باللغة الفرنسية؛ 16 ـ رسالة في الشرع الإسلامي بعنوان مؤتمر إفريقية الشمالية بباريس في عام 1908، وهو مكتوب باللغة الفرنسية؛ 17 ـ تاريخ معالم التوحيد في القديم وفي الجديد، طبع بالمطبعة التونسية بنهج سوق البلاط عدد 57 سنة 1358هـ/ 1939م ثم طبع مرة ثانية بتحقيق وتقديم من الجيلاني بن الحاج يحيى وحمادي الساحلي ونشرته دار الغرب الإسلامي سنة 1985. ويعتبر هذا الكتاب أهم تأليف لمحمد بن الخوجة إذ «هو كتاب غزير الفائدة» [ابن عاشور، تراجم الأعلام، 316] و«يعتبر من أنفس المصنفات التي لها مساس بتاريخ المعالم الإسلامية بمدينة تونس» [مقدمة الطبعة الثانية للكتاب،

ص 7]، تناول الكاتب فيه بالتأريخ والدراسة الجوامع والمساجد الموجودة في مدينة تونس وأرّخ لها. وركز على تاريخ جوامع الخطبة وقسّمها إلى قسمين: الجوامع التي تقام بها الشعائر على قواعد المذهب المالكي وعددها اثنا عشر وأبرزها جامع الزيتونة الذي اعتنى بتاريخ تأسيسه وأئمته وبرامج العلوم والدروس الموجودة فيه ومشيخته وفروعه مع ذكر لبوس أهل العلم. والجوامع التي تقام بها الشعائر على المذهب الحنفي وعددها تسعة.

كما تحدّث عن المساجد التي تقام بها الصلوات الخمس. ثم انتقل إلى الحديث عن مدارس طلبة العلم المنتشرة في أرجاء مدينة تونس والتي يقيم بها طلبة جامع الزيتونة. وأحصى محمد بن الخوجة في كتابه مائتين وستة وخمسين مسجدا منها اثنان وتسعون معطلة والبقية يذكر فيها اسم الله، أي مائة وستة وستّون مسجدا. ثم أرّخ في كتابه إلى نشأة اختتام الحديث النبوي بتونس.

ب ـ المخطوطات:

1 ـ الفتاوى الشرعية في المستجدات والحوادث العصرية؛ 2 ـ جيش الخيل في اللسان التونسي الأصيل. وهو في جزأين. وعرّف به الباحث محمد العزيز بن عاشور في مجلة جامعة الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط سنة 1992؛ 3 ـ الألفاظ العربية الدخيلة في اللغة الفرانساوية، وهو مكتوب باللغة الفرنسية؛ 4 ـ تكملة عقد الدر والمرجان في سلاطين آل عثمان وشرحها؛ 5 ـ العيون النرجسية في الأنظمة التونسية، وهو في جزأين؛ 6 ـ تاريخ البايات والدايات في الدولتين المرادية والحسينية؛ 7 ـ وفيات أعيان التونسيين في العصر الحسيني؛ 8 ـ الرحلة المشيرية الصادقية للعاصمة الجزائرية؛ 9 ـ الرحلة الحبيبية؛ 10 ـ الرحلة المربية، وهي في جزأين؛ 11 ـ الخلافة، وهو مكتوب باللغة الفرنسية؛ 12 ـ رسالة في المرأة المسلمة، وهي مكتوبة باللغة الفرنسية؛ 13 ـ رسالة في تاريخ مقبرة الزلاج.

المصادر والمراجع

● الزمرلي، الصادق، أعلام تونسيين، تقديم وتعريب حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1986، ص 225 ـ 235؛ ● ابن عاشور، محمد الفاضل، تراجم الأعلام، الدار التونسية للنشر، تونس 1970، ص 291 ـ 316؛ ● محفوظ، محمد، تراجم المؤلفين التونسيين، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1982، 2/ 259 ـ 261.

د. منير رويس
جامعة الزيتونة ـ تونس

الخوري، بشارة عبد الله «الأخطل الصغير»

(1302هـ/1885م - 1388هـ/1968م)

شاعر، كاتب، صحافي. ولد في حيّ الرميلة ببيروت العام 1302هـ/1885م. ثم انتقلت العائلة إلى سد البوشرية في المتن الشماليّ. تلقّى علومه في المدرسة الأرثوذكسيّة في بيروت (1902 - 1903م). ثمّ انتقل إلى مدرسة الحكمة العام 1904م. حيث بدأت براعم الشعر تتفتّح في مخيّلته.

بعدها انتقل إلى مدرسة الفرير. مال إلى الصحافة، وأصدر بعد إعلان الدستور العثمانيّ في العام 1908م، جريدة «البرق» في بيروت والتقى فيها كبار أدباء اللغة العربيّة وشعرائها، والمناضلون من سياسيّين وأدباء يعقدون فيها مجالسهم لكي يراقبوا مصير البلاد ويحاسبوا حكّامها. وجعلها منبراً للدفاع عن القضايا العربيّة ومهاجمة التجاوزات العثمانيّة، وخصوصاً متصرّف جبل لبنان يوسف فرنكو باشا الذي حاول اغتياله العام 1910م. ورغم ذلك فإنه لم ينثنِ عن مواقفه التحرّريّة، فمال إلى العمل السياسي، وانخرط في «الجمعيّة الماسونيّة»، ثمّ تركها وناصر «جمعيّة أرز لبنان» التي كان من أهمّ أعضائها: حبيب باشا السعد، وسليم المعوشي، ونعوم لبكي، وسعيد إرسلان، وأمين الجميّل، وشبلي الملّاط، وتولّى أمانة السرّ فيها.

مع بداية الحرب العالميّة الأولى احتجبت «البرق» ولجأ إلى الجبال، ثمّ توظّف في شركة القمح في بكفيّا من العام 1916 حتّى 1917م.

ولقّب بالأخطل الصغير لأنّه كتب قصيدة العام 1916م، ووقّعها باسم الأخطل الصغير خوفاً من البطش التركي.

استأنف إصدار «البرق» اليومية بعد الحرب العالميّة الأولى، وواصل جهاده فيها. وفي العام 1930م حوّل «البرق» إلى مجلّة أسبوعيّة.

تزوّج العام 1922م أديل خليل فاضل ورزقا أربعة أولاد: عبد الله، ووداد، وجوزيف، وناجي.

وانتُخب العام 1927م نقيباً للصحافة اللبنانيّة، كما انتُخب في العام 1932م عضواً في المجمع العلميّ العربيّ بدمشق.

وفي العام 1933م أجمع أصدقاؤه، وفي طليعتهم رياض الصلح، على أن يمثّل الأخطل الصغير لبنان في أربعينية ملك العراق فيصل الهاشميّ الأوّل. وحمل في أحد مقاطع قصيدته «مصرع النّسر» على الحلفاء عموماً وعلى المنتدبين خصوصاً، فما إنْ نُشرت القصيدة في الصحف حتّى أمر الفرنسيون بتعطيل «البرق» بصورة نهائيّة.

ثم عُيّن مستشاراً فنّيّاً للغة العربيّة في وزارة

التربية الوطنيّة في بيروت العام 1946م، وشارك في الأنشطة الوطنيّة. ومثّل لبنان في عدد من المهرجانات الشعريّة.

احتُفل نهار الأحد في الأوّل من حزيران 1961 بتكريمه والمناداة به «أمير الشعراء» في مهرجان كبير أقيم له في قصر الأونيسكو ببيروت.

توفي الأخطل الصغير في 31 تموز العام 1388هـ/ 1968م، وسمِّيت على اسمه شوارع في لبنان وسوريا. وفي 28 كانون الأوّل، بعد مرور سنة على وفاته، أقيم حفل تذكاري في الأونيسكو، اشترك فيه عدد من أدباء لبنان والعرب. وأصدر المركز الثقافيّ في بلديّة الجديدة، البوشريّة، السدّ كتاباً سنة 2003م تحيّة له بعنوان «الأخطل الصغير أجمل ما كَتَب وما كُتِب فيه».

تنوّعت مقالاته في جريدة «البرق» بين السياسة والأدب والمجتمع معبّرة عن آرائه الخاصّة ومواقفه الجريئة. ودعا إلى سلوك طريق الاشتراكيّة الفعليّة البنّاءة وإلى نبذ التعصّب الطائفي، ومناصرة العمّال والفلّاحين.

يتميّز أسلوب الأخطل الصغير النثري بالفصاحة، فألفاظه قريبة المتناول، لا غموض فيها.

وطغت أحياناً النبرة الخطابيّة على بعض مقالاته وفي ذلك غلبة للشخصيّة الشعريّة على الشخصيّة النثريّة.

الأخطل الصغير «صلة وصل» بين القديم والجديد. ولم يكن صاحب مدرسة في الشعر جديدة، ولا مقلّداً بطريقة عمياء. فقصائده في معظمها غنائيّة، توزّعت على المناحي الآتية: الغزل، الوجدانيّات، السياسة، المجتمع، القصّة، الوصف والمناسبات.

عرف الأخطل الصغير بنزعته العربيّة وصفاء أسلوبه وجزالة شعره، ورقّة عاطفته ورهافة حسّه، وهو من أكبر شعراء الغزل العرب.

وكان شعره قِطَعاً موسيقيّة عذبة الأنغام، منتخبة الألفاظ. فقد ثقّف العبارة فأسقط منها أدوات التعليل والتفسير والصفات المترادفة ممتنعاً عن النثريّة والهلهلة.

غزله يعني التعاقد مع انجمال الحسّيّ. وكانت تجربته رياديّة في ذلك الزمن. فقد آلفت بين إيقاع الداخل وإيقاع الخارج. وعزّز الانفصال عن التقليد وشحن الكلمة الشعريّة نضارة وألَقاً، وهذا ما يلفت في قصائده الثلاث: «جفنه علّم الغزل»، و«أرقّ الحسن»، و«هند وأمّها» التي كانت تمتاز بعذوبتها وموسيقاها.

فالشاعر يرسم للمرأة صورة جسديّة كاملة بتقنيّة وبراعة وكمال جسد: شَعْراً، جبيناً، عينين، خدّين، فماً، عنقاً، قدّاً...

غير أنّه تطلّع من خلال جسد المرأة إلى نَفسها اللطيفة الرقيقة المتميّزة برهافتها وعفويّتها مرّة وبـ «ملعنتها» مرّة أخرى. وهي إمّا حبيبة طاهرة مثاليّة، أو غادرة أو مغدورة. غزله رقيق، عذب، موسيقي تتآلف فيه أقانيم ثلاثة جديدة نوعاً: اللفظة والصّورة والإيقاع.

تمتاز القصيدة الاخطليّة بأنّها نتاج حضارتين عربيّة أصيلة وغربيّة رومنطقيّة: فهو ثمرة لقاح التراث العربي بالجديد الأوروبيّ.

وتُغدُّ القصيدة عنده ثمرة التزاوج بين الصحافة والشعر. إنّه أديب يعايش الناس، في

معاناتهم اليوميّة وفي مشاغلهم السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة. استمدّ موضوعاته من الصحافة وعلّق على الأخبار شعراً. ومن هنا يمكن فهم الحداثة في شعره بمفهومها الصحيح، أي معاصَرة المكان للزمان. وهذا ما يظهر بوضوح في القصائد التي وسمت بطابع «المناسبات». فهي ليست قصائد تقليديّة، بقدر ما هي قصائد تعبّر عن هموم إنسانيّة شعبية.

ولم يلتزم أيّة عقيدة سياسيّة، ولم ينتسب إلى أيّ حزب، وترفّع عن الحساسيّات الطائفيّة، وجعل قصيدته تعبيراً عن إنسان حرّ في مجتمع مقهور. ومن هنا يمكن فهم نظرته إلى الوطن، والمرأة، والفقر، والاستبداد... حتّى في غزله لم يكن الأخطل الصغير شاعر العاطفة فحسب، بل كان شاعر الدفاع عن المرأة وعن حقّها في الحياة والحبّ والاختيار، مع تمتّعها بالعفّة والأخلاق الشريفة. وهكذا تُفهم نظرته إلى الوطن.

لقد اندمج الشاعر في جيله وقضاياه وخصوصاً ما اتّصل منها بالحرب والنضال من أجل التحرّر قومياً واجتماعياً. وبقي حتّى في تناوله هذه المشكلات غنائياً مرهفاً يتلألأ شعره صافياً أميناً كالدمع.

ففي قصائد المناسبات، طرح أفكاراً ورؤى، ما زالت حتّى اليوم تستعاد للتعبير عن أوضاع معيّنة، وكأنّها حِكَم ثابتة أو آراء عقليّة تتحدّى الزمان كما في قوله:

سيّانَ عند ابتناءِ المجدِ في وطن
مَنْ يحملُ السيفَ أو منْ يحملُ القلما

ويمثّل شعر الأخطل مرحلة زمنيّة هي مرحلة النصف الأوّل من القرن العشرين، وهي مرحلة الجمع بين القديم والجديد، أو مرحلة التفاعل بين الشرق والغرب، أو هي مرحلة التفلُّت من قيود موروثة، للتمسّك بنواحي الثورة الشعريّة التي هدمت وحرّرت، وحرّضت على الرفض والعصيان، فكان ما كان من استغلال لهذه الثورة إلى حدّ شيوع الفوضى التي شوّهت الشعر والجمال.

فالأخطل الصغير هو خاتمة مرحلة كان للجمال فيها مقاييس وقوانين. فهو شاعر الجمال يبحث عنه في تراث عربيّ ضخم، وفي حضارة أوروبيّة شاهقة، ويوشّحه بوشاح من شفافيّة نفسه، فيؤثّر ويدهش ويستحقّ.

وتمتاز القصيدة الأخطليّة بالجماليّة الفنّيّة. إنّه عفويّ حتّى البساطة النثريّة، مبدع من دون تصنّع، أنيق من دون تبرّج، يهمس، يغنّي، ويبتكر الجمال.

تميّز بطلاوة ليست لغيره، يهرب من القواميس إلى لغة الناس، يخطفها من الأحاديث اليوميّة، ويبثّ فيها بعض عطره الشعريّ، فكأنّ الشعر كيمياء تحوّل ترابيّات الألفاظ إلى درر وقلائد.

أسلوبه سهل، جميل. غرابته أنّه يعرف كيف يجعل الألفاظ رابطة نفوس، ولا تكلُّف. يضاف إلى ذلك نزعته إلى العام وهو الاختصاصيّ.

تتناغم ألفاظه حتّى الإيقاع. ومن هنا نزعته الغنائيّة المرهفة. إنّه سرّ الفنّ. وفي قراءة شعره تكاد موسيقى الألفاظ ترافق القارئ، فيخال نفسه في جوّ سمفونيّ خاصّ.

هذه النغميّة الراقية برزت، في أجمل

مظاهرها، في القافية والرويّ حيث الموسيقى تعبِّر عن حالة النفس وانفعاليتها:

الهوى والشبابُ والأملُ المنشودُ
توحي فتبعثُ الشعرَ حيّا

والهوى والشبابُ والأملُ المنشودُ
ضاعتْ جميعُها من يديّا

يشربُ الكأسَ ذو الحجى ويبقّي
لغدٍ في قرارةِ الكأسِ شيّا

لم يكنْ لي غدٌ فأفرغْتُ كأسي
ثمّ حطّمتُها على شفتيّا

هذه الآهة المتمادية في رويّ القصيدة، تعبّر عن هذا الانكسار الحزين، وعن هذه الحسرة الموجعة، بعد أن أضاع الشاعر الهوى والشباب والأمل المنشود.

ولا بدّ من التوقف على الخيال الشعريّ الذي تميّز به الأخطل، والذي يراوح بين التقليد والتجديد. فإذا أخِذَت عليه حيناً بعض الصور العتيقة المنهوكة، المردّدة، كما في غزليّاته، حيث العين عين ظبي، والعنق عنق غزال، والقدّ قدّ الغصن، فإنّه، في بعض القصائد، كان مجلّياً حتّى الإبداع. فهو يرى ما لا يُرى. وتتراءى له مشاهد وأحاديث، فكأنّه "يمسرح" الواقع.

قُمْ نقبّلْ ثغرَ الجهادِ وجيدَهْ
أشرقَ الكونُ يومَ جدَّدَ عيدَهْ

أو

مشتِ الشامُ إلى لبنانَ
شوقاً والتياحا

فافرشي الطرقَ قلوبا
وثغورا وصداحا

أو

خذِ الطريقَ الذي يرضى الفؤادُ بهِ
ولا تخفْ فقديماً ماتتِ الرُّقبا

واسكبْ على راحتيها روحَ عاشقِها
ومُصَّ من شفتيها الشعرَ والعِنَبا

ورحل الأخطل، وبقي الشعر والجمال والهوى، وخلدت قصائده.

آثاره

1 ـ الهوى والشباب، 1953م؛ 2 ـ الوتر الجريح أو شعر الأخطل الصغير، 1961م؛ 3 ـ من بقايا الذاكرة، بيروت؛ 4 ـ أحداث وأعلام.

المصادر والمراجع

1 ـ الكتب:

● أبو جوده، سهام إيليا، بشاره الخوري الأخطل الصغير حياته وأدبه نثر الأخطل الصغير، رسالة أعدّت لنيل شهادة الماجستير، الجامعة الأميركيّة، الدائرة العربيّة، بيروت، 1970؛ ● الأخطل الصغير أجمل ما كَتَبَ وما كُتِبَ فيه، اختيار أسعد جوان، تحيّة له من المركز الثقافي لبلديّة الجديدة، البوشريّة، السدّ، 2003؛ ● داغر، يوسف أسعد، مصادر الدراسة الأدبية الفكر العربي الحديث في سير أعلامه، الجزء الثالث: الراحلون (1800 ـ 1972)، القسم الأول، منشورات الجامعة اللبنانية قسم الدراسات

الأدبية 7، بيروت، 1972، ص 387 ـ 389؛ ● شراره، عبد اللطيف، الأخطل الصغير، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1961؛ ● غريِّب، جورج، أمير الشعر الأخطل الصغير بشارة عبدالله الخوري، ط 1، دار الثقافة، بيروت، 1983؛ ● قميحة، مفيد محمّد، الأخطل الصغير حياته وشعره، ط 2، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1982؛ ● لبكي، صلاح، لبنان الشاعر، المجموعة النشريّة، ط 1، المؤسّسة الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1982؛ ● مطر، سهيل، الأخطل الصغير، سلسلة شعراء لبنان 4، ط 1، دار المشرق، بيروت، 1991؛ ● المقدسي، أنيس، أعلام الجيل الأوّل من شعراء العربيّة في القرن العشرين، بيروت، لا ط، 1971؛ ● مندور، محمّد، الأخطل الصغير، مصر، 1970؛ ● نمر، نسيب، سابا، فوزي، الأخطل الصغير أبو عبدالله بشاره الخوري، بيروت، 1948؛

2 ـ الجرائد والمجلّات:

● الآداب، عدد حزيران 1961؛ ● الأديب، الجزء 3، السنة 13، المجلد 25، (مارس 1954)، ص 64 ـ 66، الجزء 4، السنة 13، المجلد 25، (أبريل 1954)، ص 71 ـ 72، (أيلول 1968)، ص 9، 53؛ ● الجريدة، عدد 2574، 14 أيّار 1961، ص 11؛ ● الحديث، حلب، السنة السابعة، 1933، مجلد 10، (1936)، ص 88؛ ● الحكمة، عدد 24، (1955)، ص 38؛ ● العرفان، 1910، عدد 4، ص 204، 1938، عدد 4، ص 359، 1954، عدد 5، ص 584، وعدد 10، ص 1117؛ ● المقتطف، مجلّد 81، (1932)، ص 94؛ ● الورود، الجزء 1، السنة 14، (أيلول 1960) ص 3، والجزء 4، السنة 14، (كانون الأوّل 1960)، ص 10 وعدد أيّار 1961.

أ. د. يوسف لبكي
الجامعة اللبنانية ـ لبنان

الخوري، خليل

(1352هـ/1933م ـ 1417هـ/1996م)

ولد الشاعر السوري خليل الخوري بدمشق عام 1933 وترعرع في قلب أسرة عربية مسيحية لها مكانتها الاجتماعية والعقيدية والثقافية، الأمر الذي أتاح له أن ينهل من الثقافة والفكر، كل ما هو عميق وثري وجادّ ليدخله في نسيج تكوينه الذي أثمر شاعرًا فذًا، ومترجمًا مدهشًا، وباحثًا قديرًا، ترك أثرًا بليغًا في ذاكرة الثقافة العربية المعاصرة.

توفي خليل الخوري ببغداد عام 1996، نعته الأوساط والمؤسسات الثقافية والفكرية عراقيًا وعربيًا، وقد نظم الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق ندوة موسعة في السابع عشر من أيلول 1997، كرست للتعريف به: الشاعر والإنسان والمترجم، وأسهم في الندوة باحثون عراقيون وعرب مرموقون.

كان شعره كما حياته، كلاهما يتوهّج ليضيء بنوره الخاص صور التعبير الحية.. والتفرّد الذي يحمل ميسمه الطليق والجريء على الحياة واللغة والتعبير، مما يجعل ما يعلق منه بالذاكرة كثير.

حين نقرأ خليل الخوري الشاعر لا نجده إلّا مرتبطًا بالحياة.. يعانقها في الفرح والمأساة، يعريها ويندلح كالبلسم في جراحاتها - وإن كان كثيرا ما يعمد إلى فتح هذه الجراحات كاشفًا عن عالم لا يقهر كان يؤمن به من خلال إيمانه «بالإنسان عربيًا» وكان في شعره هذا يمتلك القدرة على إدهاشنا باستمرار، وكانت أدواته الشعرية إيقاع خاص، وأنغام هي أنغامه وحده.

في شعر خليل الخوري قصائد رؤيا، وقصائد تجربة..

إن التحوّل الأبرز والأهم في حياة الخوري الشعرية، هو ما حقّقه ديوانه الثالث «لا درّ في الصدف» عام 1963 الذي ضم ما كتب من شعر في الأعوام (1958 - 1963م). فمعظم قصائد هذا الديوان تشكل تجليات التفاعل الخلاق بين الإنسان - الشاعر - والعصر بتحولاته الجذرية، وقد بلغ فيه من تفتح الرؤيا وتوهجها والتعبير عنها بالرمز الكلي، والصور الموحية، والايقاع الحي بتنوعاته وانطلاقه وانضباطه ما جعل من تعبيره الشعري تعبيرًا عضويًا.. هنا يمكن الكلام عن معطيات الحس الصافي للتجربة لدى خليل الخوري من خلال الكلام على مصادر الرؤيا الذاتية ومنابعها، فهو من الشعراء الذين التقت أعماقهم الحياة لقاء تفاعل وإخصاب بما أمدّ رؤياه الشعرية بالحيوية، وأتاح له أن يستمد من هذه الحياة عناصر البناء الفعلي لعالمه الشعري، وقد تعامل مع هذه الحياة تعاملاً لا يقوم على القبول. وإنّما كان تعاملاً يتحرّك بإحساس الرفض ويتحدد بفكرة التعبير، منطلقًا في هذا من موقف شمولي، ورؤيا نافذة عبر ماهو كائن إلى ما يجب أن يكون.

فهو من بين القلة من الشعراء المجددين الذين استطاعوا أن يجعلوا من شعرهم، بالرؤيا التي انفتحت له على الحياة والوجود، فاتحة عصر حضاري حر، وقد نجح، إلى حدود بعيدة، في وضع الأسس الفعلية لرؤياه هذه في «لا درّ في الصدف» فكانت رؤيا كيانية تنزع إلى التحرر والتغيير في مجال التقنية الشعرية. إن جرأته الفنية والرؤيوية في هذا الديوان تمثلت أكثر ما تمثّلت، في اكتشاف المفجع والمأسوي في الحياة، فكشف عنهما وأنذر بهما، وكتب بغضب المتمرّد، وكان أن دخل، بهذا الديوان منطقة الشعر الأكثر حيوية.

وفي ديوان «اعتراف في حضرة البحر» يكون البحر رمزًا للثورة، وقصائد البحر منظومة بلغة انبثاقية حيوية تتوالى فيها الصور المتوترة

النابضة الحسّية الملوّنة بألوان البحر نفسه، والخوري مثقل بهموم عصره، يحس الفجيعة فيه ويعيشها ويدركها، والحب هنا ممزوج بالألم والارتعاش. والنقمة لا تقود إلى العدمية بل إلى الوعي، ولذلك يظل الحلم فاتحا نوافذه على المستقبل، ولخليل الخوري قدرة على اقتناص الصورة وتركيبها ومنحها دلالة واضحة. إنه مسيطر على اللغة العربية الجزلة، سيطرة المتمكّن المتمرّس، وهذه المجموعة ثرة بخيالها وضراوة انفعالاتها.. وبكثير من الصدق يمكن القول، إنّ الخوري شاعر قومي هروبي وفنان مغامر جسور يبث عشقه في دم القصيدة، شأنه في ذلك شأن المناضل والثوري المسكون بحلم التغيير وتحديث الحياة العربية بعد تقويض الأشكال والمضامين القديمة وإقامة مملكته الجديدة في الحب والحرية والحلم العظيم.

كان خليل الخوري في مجمل نتاجه، يعمل على إعادة الماء إلى حطب الروح اليابس ليصبح غصنا مرنًا، وكان ممتلكًا لرشاقة الحلم الانبعاثي الذي يضيء ويمور بالرغبة في إخراج الإنسان العربي من دائرة الظلام إلى دائرة الضوء والتحقق والفعل. وهذا ما يفسر لنا أيضًا، تلك العلاقة بين هموم وأحزان وآمال وصَبَوَات الشاعر التي يحملها في دمه أبدًا، وبين معاناته النفي والغربة والاعتقال والتشرّد.

كان الوطن عند الخوري، ليس تجريدًا ذهنيًا، بل أناس، وكان قد دفع مبكرًا ثمنًا يدفعه دائمًا من يبكرون في اكتشافات الحقائق، ولقد قادته نظرات الجمهور في أماس شعرية كثيرة إلى آن الشعر هو الذي يدخل آخر كوخ في الوطن ـ أما أنا فكنت أكوّن يقينًا جديدًا: الشاعر شعر حتّى لو لم يقل شعرًا، الشاعر بأي شكل أدى ـ ليصل إلى قناعة مفادها: «إن ارتطام الأثر بصخرة الزمن وصموده ـ مع ذلك ـ حضورًا وتوهّجًا واغتناء وإعادة إنتاج مع الأيام، هما المعيار الوحيد الصالح لمعرفة قيمته الحقيقية»، وهو أمر ينطبق بالتأكيد على ما تركه الخوري من آثار إبداعية. وبلا مبالغة، نستطيع أن نعد الشاعر خليل الخوري، مجموعة من الأشخاص تعيش في جسد واحد: فشخص منصرف إلى إبداع الشعر، وشخص منهمك في الترجمة، وشخص عاكف على النقد والبحث، وشخص مفعم بالحياة، يعيشها بالطريقة التي يفهمها، وهو في كل ما أبدع من شعر، وما حقق في الترجمة، وما أنجز من نقد، وما تصرّف في الحياة، ليعبّر عن تناغم عقلي متّصل ببعضه، فترجماته في الشعر والقصة والبحث، تستبطن ما يدل عليه إبداعه الشعري، ومقالاته النقدية توحي بذوقه الفني، وحاسته الجمالية وثقافته الرفيعة.

وخليل الخوري، بعد هذا وذاك، في الشعر والنثر معًا، إبداعًا وترجمة وبحثًا، صاحب أسلوب خاص، تسترسل فيه السليقة المدرّبة مع المقدرة الموجّهة: وضوح ساطع ينأى عن البدع اللغوية، وعمق ينأى عن الغموض المفتعل.

ومن أجل ذلك كله، يعد إنجاز خليل الخوري، في شتّى حقول المعرفة، مكتبة شبه كاملة، إن لم تكن كاملة، دونكم دواوينه لتجدوا أنه يزاحم الروّاد في الابتكار والتنوّع، ودونكم ترجماته المتنوّعة لتتيقّنوا أن ما اختاره

أصبح جزءا من ثقافته الأديب العربي، يغني نصّه العربي عن نصّه الأجنبي، كذلك: هذا فضيلة لا يرقى إليها إلّا الجهابذة في الترجمة، كطه حسين، والمازني، وسامي الدروبي، ومنير البعلبكي وغيرهم. لقد أصبح لكل من رامبو وبودلير وجه عربي ناطق بلغة عربية فصيحة، في دقة الترجمة وسلامتها. وقل مثل هذا القول في السِّيَر التي نقلها إلى العربية تشيخوف، تولستوي، وفي الروايات التي ترجمها: ابنة الضابط لبوشكين، إليك يا بلدي الحبيب، لآلن باتون، تيزيه لأندريه جيد.

لكن خليل الخوري يظل، قبل هذا وبعده، شاعرًا - شاعرًا يحاول أن يقف على محور الأشياء، وقد كان حريصًا على أن يضلّ واقفًا على محور الأشياء، وقد جاء شعره متنوّعًا: فيه القصائد الطوال والقصار، وفيه الشطريّ والتفعيليّ والنثريّ، لم يترك بابًا من أبواب الشعر، ولا غرضًا من أغراضه إلّا ضرب فيه بسهم، كما يقول القدماء، ومع أنّ نتاجه الشعري ليس غزيرًا، لكنه ظلّ متّصلاً بعضه ببعض، يفضي أوّله إلى آخره، وأنت إذا ما قرأت شعره قراءة تدبر، وجدته مهمومًا بأمرين جوهريين: الهم القومي، بكل ما ينتابه من عوامل النصر والهزيمة والإحباط والتشرذم، والهم الذاتي الوجودي، بكل ما يحمل في داخله من تأمّلات وانفعالات بمعنى الحياة، والموت، والمرأة والطبيعة، والسماء والأرض.

وخليل الخوري، من أوائل الشعراء العرب الحديثين، الذين انغمروا في التجريب الشعري، ولكن من دون أن يضيعوا في متاهاته بعيدًا عن الشعر، إذ كان في تجريبيته حريصًا على أن يصل إلى جوهر الشعر وأن يمسك به، وفي هذا الصدد يقف ديوانه «لا درّ في الصدف» في طليعة الدواوين التجريبية للشعر العربي منذ وقت مبكر، وقد استطاع في أحد تجريبياته الشعرية هذه، أن يخترق ويتجاوز كل المحاولات التي تهدف إلى الغاية نفسها في وقت مبكر. وأقصد بذلك قصيدته الرائدة «الشمس والنمل» باعتبارها علامة فارقة في تطوّر الشعر العربي وبحثه التجريبي اللاهث وراء الأشكال والإيقاعات والتطوّرات، والقصيدة نموذجية، تستحق الدرس والتحليل بما تنطوي عليه من «شعرية» خاصة بها. وهي قصيدة متميّزة، تميز قصائد الخوري الأخرى المحكومة بوحدة في الأسلوب التي هي الطريق إلى وحدة القصيدة الفكرية والروحية.

لقد أنشد الخوري لدمشق:

من قاسيون أطل يا وطني
وأرى دمشق تعانق السحبا

وأنشد لبغداد:

أبغداد حبي إن قلبي ربابة
ولا تعذليني أن تزيدي فأسكرا
أبغداد إنا شاعران - وإنما
أردد ما تمليـن أنتِ لأشعرا

وأنشد للأمّة العربية:

«فرح مخاضك:

تحملين، وتجهضين، وتحملين،
الغيم يعبر فوق صمتك والبروق،
كثيرة، فرحٌ بأنك تربة واجنة،
إن الرعود كثيرة، إن البروق كثيرة،

إن المواسم قد تكون ولا تكون».

وهكذا شاعر، بهذا الصفاء، وهذا الصدق، وهذه الموهبة النادرة، لا بد أن يظل نجمًا ساطعًا في سماء الإبداع أبدًا.

آثاره

1 ـ حبات قلب، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، 1961، ط1؛ 2 ـ لا درّ في الصدف، المكتبة العصرية، بيروت، 1963، ط1؛ 3 ـ أغاني النار، دار الطليعة للطباعة والنشر، باريس، 1977، ط1؛ 4 ـ اعتراف في حضرة البحر، وزارة الثقافة والأعلام، دار الرشيد، دار الحرية للطباعة، سلسلة الشعر العربي الحديث، بغداد، 1983؛ 5 ـ رسائل إلى أبي الطيب المتنبي، مطبعة الأديب البغدادية، وزارة الأعلام، بغداد، 1971؛ 6 ـ صلوات للريح، دار الطليعة، بيروت، 1963، ط1؛ 7 ـ تقاسيم على وتر البطولة، ديوان المعركة، دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة والأعلام، بغداد، 1987، ط1؛ 8 ـ رامبو، حياته وشعره، ترجمة عن الفرنسية، دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة والأعلام، بغداد، 1989؛ 9 ـ بودلير، أزهار الشر، ترجمة عن الفرنسية، دار الشؤون الثقافية العامة.

المصادر والمراجع

● السوداني، ثامر خلف، شعر خليل الخوري، دراسة فنّية، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية التربية، الجامعة المستنصرية، 1999؛ ● الجواري، إخلاص محمود عبد الله سليمان، الفضاء الشعري عند خليل الخوري، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الآداب، جامعة الموصل، 2001؛ ● مصطفى، خالد علي، خليل الخوري رائد قصيدة التدوير، مجلّة الموقف الثقافي، العدد5، وزارة الثقافة والأعلام، بغداد، 1996؛ ● السامرائي، ماجد، خليل الخوري شاعر الرؤيا المكبّلة، مجلة الموقف الثقافي، العدد5، وزارة الثقافة والأعلام، بغداد، 1996؛ ● السامرائي، ماجد، وجه في الذاكرة، خليل الخوري الشاعر والإنسان، المجلة الثقافية، العدد 43، الأردن، 1988؛ ● عبيد، محمد صابر، موسيقى القصيدة الحرّة، دراسة في الظواهر الفنية للجيلين الرواد ومن بعد الرواد، رسالة دكتوراه قدمها إلى كلية الآداب بجامعة الموصل، 1991؛ ● ملف خاص عن الشاعر خليل الخوري، مجلّة الموقف الثقافي، العدد 5، أيلول، تشرين الأوّل، السنة الأولى، دار الشؤون الثقافية العامّة، بغداد، 1996م؛ ● الطالب، د.عمر، الرؤية للعالم عند خليل الخوري من خلال قصيدته رسائل إلى أبي الطيب المتنبّي، بحث منشور في كتاب «شعر البعث في العراق» الصادر عن المركز الثقافي والاجتماعي بجامعة الموصل والاتحاد العام للأدباء والكتاب في نينوى 1991م؛ وانظر في نفس المرجع شهادة الشاعر خليل الخوري ص 77 ـ 88؛ ● عبد القادر، مؤيد، وداعًا خليل الخوري، جريدة القادسية العراقية،

الخميس 1 آب 1996؛ ● الحديثي، طاهر مهدي، المناضل والأديب الفاضل، جريدة الثورة العراقية، العدد الصادر في 1 آب 1996م؛ ● ياسين نجمان، خليل الخوري، الحلم وشرف الموقف، جريدة القادسية العراقية، السبت 19 تشرين الأول، 1996م.

د. نجمان ياسين

الرئيس الأسبق للاتحاد العام للأدباء - العراق

خوري، رئيف نجم

(1331هـ/1913م - 1387هـ/1967م)

رئيف نجم خوري، شاعر وأديب وصحافي وسياسي من أبرز حملة القلم في لبنان والوطن العربي. ولد في نابيه، إحدى قرى جبل لبنان، ودرس فيها على والده، وكان معلم مدرسة تحت السنديانة، ثم في مدرسة برمانا للفرندز، ثم في الجامعة الأمريكية في بيروت، فتخرج منها حاملا شهادة بكالوريوس علوم في التاريخ والأدب سنة 1933م.

زاول مهنة التعليم في عدد من المدارس الوطنية والأجنبية في القدس، وبيروت، ودمشق، وجونية. ومارس العمل الصحافي في جريدة «البرق» للأخطل الصغير، وجريدة «الدفاع» في دمشق، التي اشترى امتيازها، وفي «المكشوف»، ومجلة «الطريق».

انتسب إلى عصبة مكافحة النازية والفاشستية، وعمل في أواخر الحرب العالمية الثانية معلقا في الإذاعة اللبنانية. مثّل الشباب العربي الفلسطيني في مؤتمر الشباب العالمي الثاني في نيويورك سنة 1938.

أسس ندوة أدبية ثقافية باسم «ندوة عمر فاخوري» الذي ربطته به أواصر متينة من الصداقة، لكن الحكومة اللبنانية أقفلت هذه الندوة متهمة إياها بالشيوعية، فأسس «جمعية أهل القلم اللبنانية»، ثم انفصل عنها مع فريق من أعضائها ليؤسس «جمعية أهل القلم المستقل». توفّي عام 1967 وهو في ذروة عطائه، على أثر مرضٍ عضال.

آثاره

أ - الكتابات:

1 - امرؤ القيس، نقد وتحليل، مطبعة صادر، بيروت 1934؛ 2 - حبة الرمان وقصص عربية أخرى، المكتبة الأهلية، بيروت، 1935؛ 3 - جهاد فلسطين، كفاح العرب في سبيل الحرية والاستقلال، دمشق، 1963 (صدر بتوقيع «الفتى العربي»)؛ 4 - ثورة بيدبا، بيروت 1936م، والكتاب مسرحية شعرية من سبعة فصول تدور عقب فتح الاسكندر للهند عام 327 ق.م، تصرف رئيف خوري

بالشخصيات والأحداث وفقا للغرض الذي قصده؛ 5 ـ حقوق الإنسان، دار الطليعة، بيروت 1937م. وفي هذا الكتاب هاجم رئيف الفاشستية والنازية وبرزت نزعته التحريرية؛ 6 ـ مجوسي في الجنة، دار المكشوف، بيروت، 1938، والكتاب تمثيليات صغيرة ذات أغراض اجتماعية وأخلاقية؛ 7 ـ وهل يخفى القمر؟، دار المكشوف، بيروت 1939م، والكتاب دراسة نقدية حول حياة عمر بن أبي ربيعة وشعره؛ 8 ـ النقد والدراسة الأدبية، دار المكشوف، بيروت، ط1، 1939، وط2، 1969م وموضوع الكتاب النظر في الأدب؛ 9 ـ معالم الوعي القومي، دار المكشوف، بيروت 1941م، والكتاب رد على كتاب الدكتور قسطنطين زريق «الوعي القومي»، وفيه يبحث المؤلف مسألة القومية بوجه عام، والقومية العربية بوجه خاص؛ 10 ـ مع العرب في التاريخ والأسطورة، دار المكشوف، بيروت 1942، في الكتاب ستة وعشرون موضوعا مستمدة من التاريخ العربي القديم؛ 11 ـ الفكر العربي وأثر الثورة الفرنسية في توجهه السياسي والإجتماعي، دار المكشوف، بيروت، 1943م؛ 12 ـ صحون ملونة، دار المكشوف، بيروت 1947م، والكتاب مجموعة قصص تاريخية مستمدة من التراث العربي؛ 13 ـ ديك الجن ـ الحب المقدس، دار المكشوف، بيروت، 1948، والكتاب في سيرة الشاعر ديك الجن؛ 14 ـ الثورة الروسية، قصة مولد حضارة جديدة، دار الطبيعة، بيروت 1948م وفي الكتاب عرض لمقدمات الثورة الروسية التي قادها لينين، والحضارة التي أحدثتها التجربة الاشتراكية في روسيا؛ 15 ـ الطغاة، دار المكشوف، بيروت 1949م، والكتاب مختارات من شعر خليل مطران، جمعها رئيف خوري وقدم لها بنبذة عن حياة مطران وآثاره، وأيد دعوته إلى نبذ الظلم والاستبداد؛ 16 ـ الحب أقوى، دار المكشوف، بيروت 1950م، والكتاب رواية تاريخية بطلاها عاشقان من بني عذرة عاشا في العصر الأموي انتصرا على المصاعب و المكايد بفضل حبهما؛ 17 ـ التعريف في الأدب العربي، دار المكشوف، بيروت، ط1، 1951، وط4، 1963م، والكتاب جزءان ومخصص للصفوف التكميلية بحسب المناهج الرسمية في لبنان؛ 18 ـ نصوص التعريف في الأدب العربي ـ عصر الأحياء والنهضة 1850 ـ 1950، دار المكشوف، بيروت 1957م، والكتاب مختارات شعرية ونثرية لأدباء عرب عاشوا بين عام 1850م وعام 1950م؛ 19 ـ الأدب المسؤول، دار الآداب، بيروت 1967م، والكتاب مجموعة مقالات متفرقة جمعتها دار الآداب بعد وفاة رئيف خوري.

ب ـ الترجمات:

20 ـ باغانيني ساحر النساء، لبوريس فارتانون، دار المكشوف، بيروت 1947م؛ 21 ـ رحلة في لبنان في الثلث الأول من القرن التاسع عشر، لجون كارن، دار المكشوف، بيروت 1948م؛ 22 ـ إن الأدب كان مسؤولا، لأندريه جدانوف، دار القارئ العربي، بيروت 1949م.

ج ـ المخطوطات:

23 ـ الجاحظ، سيرته وأدبه؛ 24 ـ التعريف في الأدب العربي (الجزء الثالث، كتاب

مدرسي)؛ 25 ـ على أعتاب الفلاسفة (مجموعة محاضرات لطلاب الفلاسفة)؛ 26 ـ شاعر العروبة، المتنبي، مأساة عبقرية فردية في عصر انهيار (مجموعة مقالات نشرت في جريدة النهار عام 1935) 27 ـ ديوان شعري؛ 28 ـ مائة ذقن (نوادر وطرائف لبنانية).

وكتب في جريدة «إلى الأمام» (سنة 1965 وسنة 1966)، و«الأخبار» (1951 ـ 1962)، و«الأنباء» (1951 ـ 1954 ـ 1965 ـ 1966)، و«التلغراف» (1949 ـ 1950 ـ 1955 ـ 1958م)، و«الشعب» (1961 ـ 1963)، و«الطيار» (1948 ـ 1954 ـ 1958 ـ 1959)، و«الكفاح» (1958م)، و«النداء» (1959 ـ 1961م)، و«النهار» (1934 ـ 1935 ـ 1938 ـ 1960 ـ 1965).

كما كتب في مجلات «الآداب» (1953 ـ 1966)، و«الأديب» (1942 ـ 1944)، و«البرق» (1930 ـ 1932)، و«الجمهور» (1938 ـ 1946م)، و«الجندي اللبناني» (1953 ـ 1966م)، و«الرياض» (1931 ـ 1933م)، و«الطريق» (1941 ـ 1965)، و«الطليعة» (1935 ـ 1939)، و«المكشوف» (1935 ـ 1950).

وله ديوان شعري ما زال مخطوطا بالإضافة إلى الكثير من المقالات والأبحاث التي نشرها في جريدة «البرق»، وجريدة «المكشوف»، ومجلة «الطريق» التي كان يكتب فيها باسم مستعار هو «عباس»، ومجلة «المكشوف»، ومجلة الآداب وغيرها.

تميز أدبه بنزعة إنسانية، وبالالتزام الأدبي والإصلاح الاجتماعي. واتصف شعره بالأسلوب الكلاسيكي، وبصفاء تعبيري، وبالطرافة والحلاوة القصصية.

المصادر والمراجع

1 ـ الكتب والدراسات:

● رزق، إلياس يوسف، الالتزام في أدب رئيف خوري، أطروحة أعدت لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها، جامعة القديس يوسف، بيروت، 1984م؛ ● أبي فاضل، ربيعة، رئيف خوري الناقد، رسالة أعدت لنيل شهادة الكفاءة في اللغة العربية وآدابها، الجامعة اللبنانية، كلية التربية، 1973م؛ ● طوق، مطانيوس، رئيف خوري سيرته وأدبه، رسالة أعدت لنيل شهادة الكفاءة في اللغة العربية وآدابها، الجامعة اللبنانية، كلية التربية، 1971م؛ ● الزركلي، الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، 1984م، ط6، 3/ 13؛ ● عبود، مارون، دمقس وأرجوان، دار مارون عبود، بيروت، (ضمن المجموعة الكاملة)، د.ط، د.ت، ص264؛ ● جبر، جميل، لبنان في روائع أقلامه، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، د.ط، د.ت، (تاريخ المقدمة 1964م)، ص325 ـ 337؛ ● كحالة، عمر رضا، المستدرك على معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية، مؤسسة الرسالة، بيروت 1985م، ط1، ص247 ـ 248؛ ● الفيصل، سمر روحي، معجم الروائيين

العرب، جروس برس، طرابلس (لبنان) 1995م، ط1، ص155 ـ 156.

2 ـ الجرائد والمجلات:

● جريدة التلغراف، بيروت، عدد 23/ 1167؛ ● جريدة الحياة، عدد 3/ 10/ 1967؛ ● مجلة الآداب، العدد 12، عام 1967 (مجموعة مقالات عن رئيف خوري)؛ ● مجلة الأديب، عدد مارس 1968، ص53 ـ 54؛ ● مجلة الفكر الجديد، عام 1968، العدد 1، (مقال لميشال سليمان بعنوان «رئيف خوري في نصف قرن»، والعدد 27 ص10 (مقال لميشال عاصي بعنوان «رئيف خوري أديبا كبيرا كان وإنسانا كبيرا»).

د. إميل يعقوب
الجامعة اللبنانية ـ لبنان

الخوري، رشيد بن سليم (القروي)

(1305هـ/1887م ـ 1404هـ/1984م)

رشيد بن سليم بن منصور بن حنا الخوري، من كبار الشعراء والأدباء العرب في العصر الحديث. ولد في الخامس من شهر نيسان سنة 1887م في قرية البربارة في منتصف الطريق بين جبيل والبترون من محافظة جبل لبنان، وقد تردد اسم قريته كثيرا في أشعاره.

تلقى مبادىء القراءة والكتابة على والده، ثم درس في مدرسة قريته، ولما ناهز الثالثة عشرة من عمره، درس سنتين في مدرسة الفنون الأمريكية في صيدا، وسنة في مدرسة سوق الغرب. وفي السنة 1904م عمل في مدرسة أنفة الوطنية، ثمّ عاد فأنهى دراسة الاستعدادية في الكلية السورية الإنجليزية ببيروت، ثم انصرف إلى التعليم، فعمل في مدرستي طرابلس والميناء الأميركيتين 1906 ـ 1907م، ومدرسة بشمزين الوطنية 1908 ـ 1909م، والكلية الشرقية في زحلة 1910 ـ 1911م، ومدرسة الإنكليز في الشوير 1911 ـ 1912م، فمدرسة الأمريكان في سوق الغرب 1912 ـ 1913م.

في السنة 1913م سافر إلى البرازيل حيث عمل في التجارة، وفي السنة 1958م عاد إلى وطنه، ولسان حاله يردد في مطلع قصيدة نونية ملؤها الشوق والحنين إلى مرتع صباه:

بنتَ العروبة هيّئي كفَني
أنا عائدٌ لأموت في وطني

الجود منْ خلف البحار له
بالروح ثمّ اضِنٌّ عليه بالبدنِ؟

أمضى شاعرنا في وطنه ثماني سنوات، ثمّ عاد فسافر سنة 1966م إلى البرازيل حيث استقرّ في سان باولو عدة سنوات، عانى

خلالها مرضا لازمه اثنين وعشرين عاما، ثمّ عاد إلى وطنه في السنة 1970م، حيث بقي فيه حتّى وافته المنية سنة 1984م.

لم يتزوّج القروي، وعلّل بنفسه سبب ذلك، فقال: «كان شبابي وقفا على إخوتي الأصاغر، فلمّا كبر بي العمر، كبر عقلي ولم يكبر جيبي».

لقب شاعرنا بعدة ألقاب، منها «شاعر القومية العربية»، و«قروي الجبل»، و«قديس القومية العربية»، و«الشاعر القروي»، إلا أن اللقب الأخير هو الذي اشتهر به الشاعر، وهو في الأصل من مقال نقدي جارح كتبه نجيب قسطنطين الحداد في جريدة «المؤدّب» في سان باولو في البرازيل، وقد تلقف شاعرنا هذا اللقب، إذ اعتبره لقب فخر واعتزاز لا يحط من قدره كما أراد مطلقه، وراح يوقع، بعد ذلك، قصائده كلّها به حتّى غلب على اسمه الحقيقي.

وكان القروي معجبا بغاندي، متأثرا به أشدّ التأثّر، حتّى وضعه في مصاف الأنبياء، إذ قال:

منْ شطّ بحر الغَنْج زار غضنْفرَ
أشجى لسمعي من هديلِ حمَامِ
صوت يردده مسيحُ الهند في
دلهي لتسمع يا مسيحَ الشام

وكما قاطع غاندي المستعمرين الإنكليز، قاطع القروي لباس الجوخ الإنكليزي، وترك حبيبته «مود»، لأنها من نسل المستعمرين الذين كان يناضل ضدهم، حاثا على الجهاد في سبيل التحرر والتخلّص من الاستعمار الأوروبي.

يمتاز شعر القروي بحدة الإحساس، وصدق الشعور، وتوهّج العاطفة، وبراعة التصوير، ومتانة السبك، وجزالة الألفاظ، وفصاحة المفردات، وبلاغة العبارة.

وغلبت الحماسة على شعره، وقد علل ذلك بقوله: «ما كدت أنهض بقادمتي حتّى صكت مسمعي أنات أمتي، ولفحت وجهي زفراتها، فطويت جناحي عند سريرها مخضعا خيالي لواقعها الأليم، مقدما واجب تمريضها على التغريد في الخمائل والتنقير بين الحقول. ولو أني أدركت أمتي صحيحة قوية، لحلقت مع الأسراب في ألف سماء بعد سمائها».

وبالإضافة إلى النزعة الحماسية الطاغية على شعره، يرى المطالع لشعره أن أبرز ما يميّز أدب وفكر القروي ثلاثة أمور: أولها نزعته العروبية، وثانيها حنينه إلى وطنه وأهله، وثالثها تسامحه الديني ودعوته إلى التوحّد في سبيل الانتصار على المستعمر.

أما نزعته العروبية، فهي الطاغية على فكره وأدبه عموما، فهو عربي حتّى العظم، يدعو إلى وحدة العرب، وإلى الفخر بالانتماء إلى الأمة العربية والتراث العربي واللغة العربية. والعروبة عنده كما جاء في مقدمة ديوانه: «شعار الأمة العربية، وروحها، وشمس أوطانها، ومهوى أفئدتها، وملتقى ما تعدد من أقاليمها ولهجاتها.

العروبة روح حاتم، ومعن، والسموأل في سلوك كل نبيل عربي، وروح عنترة، وطرفة، وامرىء القيس، والأخطل، والمتنبي، في خيال كل شاعر عربي، وروح خالد، وأسامة، وطارق، وصلاح الدين، ويوسف العظمة على

سيف كل جندي عربي، وروح علي وأبي بكر، وعمر على قلب كل متسلّط عربي...

العروبة أن يشعر اللبناني أن له زحلة في الطائف، والعراقي أن له فراتا في النيل. العروبة دم زكي يجري في عروق جسد واحد أعضاؤه الأقطار العربية، وكلّ ما يعوّق دورة هذا الدم يعرض الجسد كله للأخطار.

ويقولون: فشلت العروبة. قولوا بل عوقت عن النصر إلى حين، ثم كان المؤتمرون بها هم الفاشلون.

أما حنينه إلى وطنه وأهله وملاعب صباه، فكان من الطبيعي أن يبرز في أدبه، وهو المتعلّق بوطنه حتّى الهوس، والبعيد عنه بحكم ظروف قاهرة عشرات السنوات، فلنسمعه يقول:

أحـبـابـنـا سـكـتـتْ عـلـى
الأغـصـانِ أصـواتُ الـبـلابـل

وأتـى الـرعـاةُ مـن الـجـبـالِ
ولـم يـعـد فـي الـحـقْـل عـامِـل

قـومُـوا نـعـود إلـى الـحِـمـى
عـاد الـجـمـيـعُ إلـى الـمـنـازل

ولنسمعه يخاطب نسيم البحر الذي اعتاد أن يزور شاعرنا ليلا، وهو في بيته على شاطىء البحر:

يا نـسـيـمَ الـبـحْـر الـبـلـيـل سـلام
زارك الـيـومَ صـبُّـك الـمـسـتـهـام

إن تـكـنْ مـا عـرفـتَـنـي فـلـك الـ
ـعُـذر غـيَّـر الـمـحـبَّ الـسـقـامُ

أو لا تـنـكـر الـغُـلامَ رشـيـدٌ
إنـنـي يـا نـسـيـم ذاك الـغـلامُ

طـالـمـا زُرتَـنـي إذا انـتـصـفَ الـ
ـلـيـل بـلـبـنـان والأنـامُ نـيـام

ورفـعـتَ الـغـطـاء عـنـي قـلـيـلاً
فـأحـسـسـت بـمـزحـك الأقْـدام

يـا بـرازيـل لـو أفـضْـت عـلـيَّ الـ
ـمـالَ فـيـضًـا مـا طـاب فـيـك الـمـقـامُ

أيـن زهـرُ الـنـجـوم فـيـكِ وأيـن الـشـ
ـمـسُ، أيـنَ الـهـلال، أيـن الـتـمـامُ

أما تسامحه الديني، فيظهر من انفتاحه على الدين الإسلامي، وإعجابه بالإسلام حتّى قيل: إنه أسلم. والواقع أن القروي لم يسلم، لكنّه، كما يعترف، عزف عن الأرثوذكسية المكاريوسية إلى الأرثوذكسية الآريوسية القائلة إن الله واحد أحد، وإن يسوع المسيح عبده ورسوله. وقد جاء في وصيّته: «أطلب أن يصلّي على جثماني شيخ وكاهن، فيقتصران على تلاوة الفاتحة والصلاة الربانية لا أكثر ولا أقل. ثم أوارى الثرى في بقعة طيبة حددتها قرب منزلي، وينصّب على قبري شاهد خشبي متين وبسيط، في رأسه صليب وهلال متعانقان، رمز الوحدة التي جاهدت في سبيلها طول حياتي».

آثاره

كتب القروي عدة دواوين شعرية، منها:

1 ـ الرشيديات، سنة 1916م؛ 2 ـ القرويات، سنة 1922م؛ 3 ـ الأعاصير، سنة 1933م؛ 4 ـ اللاميات الثلاث، سنة 1946م.

وجمعت هذه الدواوين مع قصائد أخرى في

ديوان سماه «ديوان الشاعر القروي» صدر في السنة 1952م في سان باولو في البرازيل، ثم أعيد طبعه في مصر سنة 1961م، وسنة 1971م في ليبيا، وسنة 1978م في بيروت، وسنة 1983م بدمشق. أما طبعته الأخيرة فقد صدرت في طرابلس لبنان سنة 1996م، وهي مبوّبة حسب الروي، وفيها زوائد على الطبعات السابقة.

أما أعماله النثرية، فقد صدرت في كتيّبات متفرّقة، ثمّ جمعت في مجلّد كبير، وطبعت عدة طبعات، آخرها في طرابلس لبنان سنة 1996م.

المصادر والمراجع

● صيدح، جورج، أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأميركية، بيروت، ط2، 1957م، ص 323 ـ 342؛ ● روبرت ب. كامبل، أعلام الأدب العربي المعاصر سير وسير ذاتية، نشر المعهد الألماني في بيروت، توزيع الشركة المتّحدة، بيروت، ط1، 1996 م، 2/ 765 ـ 768؛ ● قبش، أحمد، تاريخ الشعر العربي الحديث، دار الجيل، بيروت، د.ط، د.ت، تاريخ المقدمة 1971 م، ص 314 ـ 319؛ ● عبود، مارون، دمقس وأرجوان، دار مارون عبود، بيروت، ضمن المجموعة الكاملة، د.ط، د.ت، ص 169 ـ 174؛ ● حسن، محمد عبد الغني، الشعر العربي في المهجر، مؤسسة الخانجي بالقاهرة، ط 3، 1962 م، ص 278 ـ 294؛ ● الجندي، أنور، الشعر العربي المعاصر تطوره وأعلامه 1875 ـ 1940، مكتبة المعارف، بيروت، د.ط، د.ت، ص 295 ـ 301؛ ● الدقاق، عمر، شعراء العصبة الأندلسية في المهجر، دار الشرق، بيروت، 1973م، ص 591 ـ 609؛ ● سركيس، يوسف اليان، شعراء المطبوعات العربية والمعرّبة، مطبعة سركيس بمصر، ط 1، 1928م، ص 933؛ مقدمة ديوانه؛ ● الرمادي، جمال الدين، من أعلام الأدب المعاصر، دار الفكر العربي، د. بلد، د.ت، ص 306 ـ 311؛ ● البدوي الملثم (يعقوب عودات)، الناطقون بالضاد في أميركا الجنوبية، دار ريحاني للطباعة والنشر، بيروت 1956، 1/ 272 ـ 283؛ ● جنيف، عبد الصمد، الالتزام القومي في شعر رشيد سليم الخوري، رسالة أعدت لنيل شهادة الماجستير في اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، الجامعة اللبنانية، بيروت 1987م؛ ● الجانب القومي في أدب الشاعر القروي، رسالة أعدت لنيل شهادة الماجستير في اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، الجامعة اللبنانية، بيروت 1981؛ ● الدسوقي، صالح، الشاعر القروي، دار النفائس، بيروت 1992م؛ ● عيناوي، سليمان، الشاعر القروي شاعر المهجر الجنوبي الأكبر، رسالة أعدت لنيل شهادة الماجستير في اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، الجامعة اللبنانية، بيروت 1971م؛ ● غنام، نجاة سعيد، الفن الشعري عند الشاعر القروي، رسالة أعدت لنيل شهادة الماجستير في اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، الجامعة

اللبنانية، بيروت 1990م؛ • مطلوب، أحمد، القروي شاعر العروبة في المهجر، دار الفكر، عمان 1985م؛ • نجيب حبيب أبو أنطون، لبنان في أدب رشيد سليم الخوري، رسالة أعدت لنيل شهادة الماجستير في اللغة العربية وآدابها، كلّية الآداب، الجامعة اللبنانية، الفرع الثاني، الفنار 1980م؛ • الصباغ، محمد، مضامين القومية والصوفية عند الشاعر القروي، رسالة أعدت لنيل شهادة الماجستير في اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، الجامعة اللبنانية، بيروت 1980؛ • أبي خير، منى، النزعة القومية في شعر الشاعر القروي، رسالة أعدت لنيل شهادة الكفاءة في اللغة العربية وآدابها، كلية التربية، الجامعة اللبنانية، بيروت 1979م؛ • مبارك، رشيد، النزعة الوطنية في الشعر المهجري، أيوب، والقروي، والجر، رسالة أعدت لنيل شهادة الماجستير في اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، الجامعة اللبنانية، الفرع الثاني، الفنار 1979م.

د. إميل يعقوب
الجامعة اللبنانية

الخوري، شاكر يوسف

(1263هـ/1847م ـ 1329هـ/1911م)

ولد في بكاسين ـ قضاء جزين ـ محافظة لبنان الجنوبي، وتعلّم في مدرسة القرية، ثمّ نقله والده إلى المختارة (قضاء الشوف) ليتعلّم العربية على يد الشيخ ابراهيم الأحدب الطرابلسي، مع ولدي الشيخ سعيد جنبلاط: نجيب ونسيب.

في العام 1858 انتقل إلى مدرسة مشموشة التي أنشأها بطرس البستاني، وظلّ فيها سنتين، ثمّ غادرها مع والده بسبب حوادث العام 1860م، والتحق بمدرسة عينطورة، فأجاد فيها تعلّم الفرنسية، وبقي فيها أربع سنوات.

وفي العام 1864م، التحق بالمدرسة الوطنية التي كان أسّسها في بيروت في العام 1863م المعلّم بطرس البستاني، وكان من أساتذته فيها: الشيخان ناصيف اليازجي وولده إبراهيم. كما كان من زملائه فيها: سليمان البستاني مترجم الالياذة، وسليم تقلا مؤسّس جريدة الأهرام. وقد تعلّم الانكليزية على يد سليم البستاني نجل المعلّم بطرس البستاني.

وفي العام 1868م قصد مصر والتحق ـ على نفقة الحكومة المصرية ـ بالمدرسة الطبّية التي أسّسها كلود باشا الفرنسي في القصر العيني بالقاهرة.

وفي العام 1873م تخرّج من المدرسة الطبّية، حاملاً شهادة اختصاص في طب العيون، وبقي لفترة يمارس الطب بمعيّة أستاذه الدكتور حسين بك عوض. ثمّ انتقل إلى دمشق، وأقام

فيها بضع سنين. وفيها ألّف كتابه المشهور «تحفة الراغب» والذي طبع في دمشق 1879م.

وفي هذا العام انتقل نهائيًا إلى بيروت حيث تزوّج من فتاة بيروتية «مريم خليل التيّان»، ورزق منها خمسة ذكور وبنتًا.

وعندما فتحت المدرسة الطبّية الفرنسية في بيروت العام 1883 عُيّن شاكر أستاذًا فيها لأمراض العين. وبقي فيها إلى العام 1906م. وقد نال شهرة في عالمي الطب والأدب، نال بسببها عددًا من الأوسمة، تقديرًا لخدماته، من الدولة العثمانية والحكومة الفرنسية.

وفي العام 1907م قام بسياحة إلى الآستانة، وقصد باريس ولندن، وبعودته إلى الوطن، عرّج على مصر وزار القدس، وطاف بالبلاد السورية، وعاد إلى بيروت مستقرًا فيها، إلى أن وافاه الأجل في العام 1911م عن أربع وستّين سنة.

كان الدكتور شاكر الخوري من روّاد الطب في لبنان، «بارعًا في مهنته وافر الخبرة كثير الاطّلاع» على عناية بالأدب وبالتاريخ الاجتماعي. وكتابه «مجمع المسرّات» يشهد له بهذه العناية، إذ صور فيه مظاهر الحياة الاجتماعية في عصره مع نوادر مستملحة ومعلومات طريفة نظما ونثرًا»، من ذلك قوله: إن الاعتقاد بالعفاريت كان شائعا في مصر «والأغرب أنّ بعض تلامذة الطب يعتقدون بها مع أنّهم متعلّمون ومتفهّمون».

ومع أنّ الدكتور الخوري كان شخصية علمية إلّا أنّه كان ميالا إلى الدعابة، وصاحب نكتة لاذعة في غالب الأحيان، «فيها كثير من الصراحة المرّة والهزء بعادات أهل ذلك العصر ومصطلحاتهم». ولم تكن تنقصه سرعة الخاطر والبديهة. يروي عنه شفيق طبارة في مجلّة الأمالي البيروتية عددًا من النوادر، نكتفي بواحدة منها تدل دلالة قاطعة على سرعة بديهته. قال: «ومن نوادره أنه كان ذات ليلة مع أربعة من أصدقائه ينتمي كل واحد إلى عائلة: فأحدهم إلى عائلة سلامة، والثاني إلى دبس والآخر إلى أصفر والرابع إلى زعد.

وبينما كانوا مجتمعين إذ دعي المترجم له إلى عيادة مريض، ولمّا رجع طالبوه بتوزيع الأجرة بينهم. فقال لهم: أفعل إذا ساعدتموني على هذا المريض. فقالوا نفعل، فصف لنا المريض لنساعدك بالرأي. فقال: إن المريض مصاب بالإمساك والمغص الشديد. فعملت له حقنة دبس، فأخرج صوتًا كالرعد، وخرج خروجا أصفر والكل راحوا على سلامة. فضحكوا وقالوا: «الأجرة لا يستحقها إلا سلامة».

وكان الدكتور شاكر الخوري من مفكّري النهضة الذين تأثّروا بمبادىء الثورة الفرنسية، غير أنّه وقف موقف النقد من روسو وفولتير لأنّه - كبعض مفكّري ذلك العصر - خالهما يريدان نقض الدين. كما يقول رئيف خوري. ويضيف «... ولكن ليس من شك أنّ رجال الأدب والفكر عندنا أيّدوا جميعًا مطلب فصل الدين عن الدولة،، وحصر نفوذ السلطات الروحية في نطاق خاص بها لا تتعدّاه. ومفهوم أنّ أوضاع الإمبراطورية العثمانية كان فيها ما يدفعهم دفعًا إلى تأييد هذا المطلب، فشاع على الألسنة، والأقلام الشعار التالي:

«الدين لله والوطن للجميع» [الفكر العربي والحديث، ص 136].

كما كان من أنصار الحياة الدستورية ومؤيّدا لإعلان الدستور العثماني، وكان يرى أنّ الحرّية السياسية التي نالها العثمانيون هي خلاصهم من الجاسوسية والمراقبة، ويدعو إلى سنّ قوانين خاصّة بكل ولاية حسب عوائدها ومناخها وعلمها وجهلها ليكون الاتحاد العثماني أعظم.

وللدلالة على هذه المعاني وعلى أسلوب الدكتور الخوري الواضح والمباشر نورد النص التالي وعنوانه «الحرية السياسية»:

«الحرية السياسية التي نلناها هي: خلاصنا من الجاسوسية والمراقبة. فالأولى تخرّبنا وتجعلنا محتالين غشاشين قاتلين، وتجعل حياتنا بيد مُفسد دنيء، يبيعنا حسب شهواته، والثانية تجعلنا في جهل وتأخر، بحيث نرى أنفسنا أدنى من الحيوانات فالمراقبة هي التي جعلت صاحب مطبعة كتابي أن يقول: طُبع في مصر، مع أنه طُبع في بيروت. والذي علّمه الكذب هي المراقبة. فلا ظلم أمرّ من الجاسوسية، ولا ضعف أذلّ من المراقبة التي تفتكر أنه بمجرّد كتاب، أو حرف في كلمة، أو كلمة في مجلّة، تخرب المملكة وتتغيّر أفكار الرعايا. فأي كتاب، لحدّ الآن، عمل هذا العمل؟!»

وعن تعلّقه بالدستور وكيفيّة المحافظة عليه يقول:

«فالدستور الذي هو الكتاب السياسي المقدّس للمملكة العثمانية لا يمكن حفظه ما لم تحفظه الجندية وتُحامِ عنه، فليلزم عند دخول الجندي في العسكريّة أن يحلف يمينًا بالمحافظة عليه، وكذلك كل مستخدم. والأمل من (المبعوثان) تعديله. ولا يكون اجتماعه كبرج بابل تتبلبل فيه اللغات لكثرتها، ويتقلّدون الخطبا الأقدمين بخطاباتهم، ويخرجون عن موضوع الاصلاح الحالي، وأن يسن لكل ولاية بعض قوانين مخصوصة حسب عوائدها، ومناخها، وعلمها، وجهلها...»

■ آثاره

1 ـ مجمع المسرّات، كتاب حافل بالمعلومات المفيدة وإفادات كثيرة ذات شأن، جمع كثيرًا من الحوادث والأخبار والقضايا التي وقعت في عصره أو شهدها بنفسه أو اتّصلت به من الرواة والنقلة في لبنان وسوريا ومصر، وغير ذلك من المرويات في عهد المتصرفية. قدّم له الياس خطار، بيروت، دار لحد خاطر، 1985، ضمن مجموعة الخزانة التاريخية، 554 صفحة، وكان طبع لأوّل مرّة في مطبعة الاجتهاد بيروت، 1908م؛ 2 ـ تحفة الراغب في صحة المتزوّج وزواج العازب، دمشق 1879م، وبيروت 1889م، 280 صفحة، وهو في الإرشاد الجنسي؛ 3 ـ مذكرات بيروتي، مطبعة الاجتهاد 1900م، جمع فيها ما مرّ به من أحوال وما جرى له من النكات؛ 4 ـ نائب الطبيب، بيروت 1881، مطبعة المرسلين اليسوعيين، بيروت 1881م؛ 5 ـ صحة العين، بيروت، 1890، المطبعة العمومية الكاثوليكية، 328 صفحة؛ 6 ـ مؤلفات لم تطبع، ذكرها جرجي ابراهيم نصر في مجلّة المشرق، ت1، 1970م، ص 407 ـ 420:

أ ـ الخالق والخليقة، كتاب علمي فلسفي؛

ب ـ الطبيب السائح، رواية علمية؛ ج ـ تاريخ شيخ الجبل رئيس الاسماعيلية؛ د ـ كتاب في فن الموسيقى العربية وعلاماتها؛ هـ ـ قاموس طبي في ثماني لغات (الفرنسية هي الأساس) والعربية، والتركية، واللاتينية، والايطالية، والاسبانية، والألمانية، والإنكليزية، ولم يتسنّ له طبعه بسبب مرضه.

المصادر والمراجع

● داغر، يوسف أسعد، مصادر الدراسة الأدبية الألفية، 2000م، ص748 ـ 749؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، تراجم مصنّفي الكتب العربية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت، تاريخ المقدّمة 1957، 2/ 808؛ ● الخليلي، محمد، معجم أدباء الأطباء، مطبعة الغري بالنجف، 1946م، ص 189 ـ 191، وهو ينقل عن مجلّة الأمالي البيروتية السنة الأولى عدد 38، بقلم شفيق طبارة، هامش ص189؛ ● عيسى بك، أحمد، معجم الأطباء، جامعة فؤاد الأول، كلّية الطب، المؤلّف رقم18، الطبعة الأولى 1361هـ/ 1924م، مطبعة فتح الله والياس نوري وأولاده بمصر، ص 214 ـ 215؛ ● الخوري، شاكر، مقدمة كتابه معجم المسرات؛ ● جرجي، إبراهيم نصر، مجلّة المشرق، ت1، 1970م، ص407ـ 420؛ ● زيدان، جرجي، تاريخ آداب اللغة العربية، 4/ 204؛ ● عبود، مارون، رواد النهضة الحديثة، ص115 ـ 123.

● Brockelmann. S III, 383.

د. نزيه كباره
الجامعة اللبنانية ـ بيروت ـ لبنان

الخوري، يوسف الحداد

(1281هـ/1865م ـ 1369هـ/1949م)

عبد الأحد حنا طنوس الحداد، كاهن وأديب ومسرحي ومربّ وشاعر. ولد في عين كفاع في قضاء جبيل في لبنان، كان والده وجيه قومه، وشيخ صلح قريته، ووكيل عام على أملاك مدرسة مار يوحنّا مارون في عين كفاع وجوارها.

ألحقه والده عندما بلغ السادسة من عمره، بمدرسة تحت السنديانة في قريته، حيث علّمه جَدُّه لأمه الخوري يوحنا عبود مبادىء القراءة والكتابة، ولما رأى فيه النباهة والفطنة علّمه السريانية.

في السنة 1876م التحق بمدرسة مار يوحنا مارون، فتعلّم العربية فيها على يد الخوري يوسف أبي صعب، ودرس اللاهوت والفلسفة، وحصّل اللغتين الفرنسية واللاتينية، وقال الشعر في الرابعة عشرة من عمره. واتّفق

في ذلك الزمان أنّ خلافا نشب بين متصرّف جبل لبنان رستم باشا، والمطران فريفر، فطلب منه هذا الأخير تخميس بيت عنترة:

إنْ كُنْتَ تَعْلَمُ يا نُعْمانُ انَّ يدي
قصيرةٌ عَنْكَ فالأيامُ تنْقَلِبُ

فقال عبد الأحد:

لا تَظْلُمَنَّ إذا مَا كُنْتَ ذا عَدد
إنَّ البَعُوضَةَ تُدْمي مُقْلَةَ الاسَدِ
ولا تَغُرَّنَّكَ الأيامُ في أحَدِ
إنْ كُنْتَ تَعْلَمُ يا نُعْمانُ انَّ يَدِي
قصيرةٌ عنْكَ فالأيَامُ تَنْقَلِبُ

في 11 حزيران من العام 1889م، سمي كاهنا باسم يوسف، وتقديرا لمواهبه وأخلاقه كلّفه البطريرك بولس مسعد الوعظ والإرشاد في الكنائس.

في السنة 1889م انصرف إلى ممارسة التعليم، فدرّس في مدارس بجّة، ومعاد، وقرنة شهوان، ومدرسة الحكمة 1899م في بيروت حيث بقي فيها حتّى وفاة مؤسسها المطران يوسف الدبس سنة 1907م. وجدير ذكر أن على يديه تلقى جبران خليل جبران مبادىء العربية والبلاغة والشعر.

في العام 1907م استدعاه البطريرك إلياس الحويك، وعيّنه كاتما لأسراره. وفي السنة 1909م استقال من وظيفته ليعود إلى ممارسة مهنة التعليم، حيث بقي يزاول هذه المهنة حتّى السنة 1939م، منتقلا بين مدارس عدّة في أقضية جبيل، والبترون، وكسروان، وبيروت.

وفي 28 شباط من السنة 1949م وافته المنيّة، فنعته الصحف الوطنية والمهجرية مُشيدة بكفاحه ونضاله.

عرف الخوري يوسف الحداد بتواضعه وعفّته ومحبّته وتقواه، وصدقه وسماحته وقوّة ذاكرته، وهو القائل:

أهوى التنقّل من سهل إلى جبل
واترك الناس في قيل وفي قال
وما تركت ورائي غير طيبة
وما لقيت امامي غير أفضال

تخرّج على يده أدباء عديدون، منهم جبران خليل جبران، وأمين تقي الدين، وميشال زكور، ووديع عقل، وتوفيق حسن الشرتوني، وبركات بركات، كما كان له علاقات وطيدة مع أدباء عصره، أمثال خليل مطران، وحافظ إبراهيم، ومارون عبّود (ابن قريته)، وعبد الله البستاني.

آثاره

1 ـ المطبوعة:

1 ـ أرثور دوق بريطانيا، 1913م، مسرحية أدبيّة تدور حوادثها حول الصراع الذي نشب على منصب الملكية في انقلترا، بعد وفاة ريكاردوس قلب الأسد، بين ولي العهد أرثور وعمّه جان سنتر الذي كان النصر له بفضل دهائه ومكره، مطبعة البرق، بيروت 1913، 88 ص؛ 2 ـ اللبنانية، 1922، رسالة وجهها إلى المهاجرين اللبنانيين، صور فيها المجاعة في لبنان، وسوء أحواله خلال الحرب العالميّة الأولى، مطبعة الصواب، ريو دي جانيرو، البرازيل 1922م، 84 ص؛ 3 ـ ملك السجون، 1927، مسرحية تاريخية

أدبية تصوّر الصراع على الإمارة بين أنكران وروجينال، أو بين الشرعية واللاشرعية، 70ص؛ 4 ـ النجوى، كتاب في جزءين، ظهر الجزء الأوّل منه في السنة 1935م، وكان قد نشره مقالات في جريدة المراقب، مناوس، البرازيل 1921م، مطبعة المرسلين اللبنانيين، جونية، 134 ص، أما الجزء الثاني منه، فقد وضعه بعد إعلان استقلال لبنان سنة 1943م، لكن المنيّة عاجلته قبل نشره، فتولّى ابن أخيه حنا عام 1951م نشره، مطبعة الاتحاد، بيروت، 96 ص، وطبع الجزءان في مجلّد واحد سنة 1965م، مطبعة معتوق، بيروت، ويتضمّن هذا الكتاب مباحث في العائلة والوطن والتربية والأخلاق، نقده إميل داغر في مجلّة الحكمة، 2/ 170، وفي مجلّة المشرق، 33/ 474؛ 5 ـ المروءة، 1945م، رواية تاريخيّة تنتقد حكم الأمير بشير الشهابي الثاني الكبير الخانع للجزار مستهيناً بالشعب إرضاء لمصالحه الخاصّة، وقد ركّز فيه على الفضائل اللبنانية من تضحية وإخلاص وعفو، مطبعة المرسلين اللبنانيين، جونية 1945م، 135 ص؛ 6 ـ مختارات الحداد، 1950م، صدر هذا الكتاب بمناسبة الذكرى الأولى لوفاته، وفيه مختارات من قصائده ومقالاته الكثيرة التي نشرها في الجرائد والمجلّات؛ 7 ـ اللقاء، 1958م، مسرحيّة دينيّة طبعت بعد وفاته بتقديم الأب أنطونيوس شبلي، مستوحاة من العهد القديم من الكتاب المقدّس، وتعرف بقصّة يوسف الحسن بن يعقوب الكنعاني، منشورات الحكمة، بيروت 1958م.

ب ـ غير المطبوعة:

8 ـ المرأة والحقيقة، بحث عن دور المرأة في المجتمع؛ 9 ـ الأشباح، مسرحية تاريخية أخلاقيّة اقتطع حوادثها من قصّته «المروءة»؛ 10 ـ مجموعة مقالات الاجتماعي وسياسية، غايتها الإصلاح الاجتماعي؛ 11 ـ مجموعة رسائل، إلى أصحابه وتلامذته وأصحاب النفوذ؛ 12 ـ ديوان شعر، يربو عدد أبياته على ألف وخمسمائة بيت، قالها في مناسبات شتّى، وفي أغراض وطنية واجتماعية ودينيّة ووجدانية، وفيه قصائد في مدح بعض الأحبار والأدباء.

المصادر والمراجع

● أدباء بلاد جبيل الراحلون، منشورات المجلس الثقافي في بلاد جبيل 1985، 1/ 43 ـ 58؛ ● جدد وقدماء، مارون عبود، دار مارون عبود، ضمن المجموعة الكاملة، بيروت، لا. ط، لا. ت، ص 211؛ ● داغر، يوسف أسعد، مصادر الدراسة الأدبية، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت 1983، 2/ 304 ـ 305؛ ● الفيصل، سمر روحي، معجم الروائيين العرب، جروس برس، طرابلس، لبنان، ط 1، 1995، ص 502؛ ● كحالة، معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لا. ت، تاريخ المقدمة 1957، 13/ 188؛ ● مختارات الحداد، منشورات مجلّة الورود، بيروت 1950م؛ ● الخوري، يوسف الحداد، نمر ناصر، رسالة أعدت لنيل شهادة الكفاءة في كلّية التربية، الجامعة اللبنانية، بيروت 1970م.

د. إميل يعقوب
الجامعة اللبنانية ـ بيروت ـ لبنان

الخولي، أمين

(1313هـ/1895م ـ 1385هـ/1966م)

ولد أمين الخولي بشوشاي، إحدى قُرى المنوفية مركز أشمون بمصر. وعلى عادة أهل الريف تلقّى مبادئ العلم في القرية، وحفظ من القرآن الكريم قدرًا أعطاه الفرصة ليلتحق بالأزهر، ثم أكمل دراسته في مدرسة القضاء الشرعي. وأثناء تعلّمه بها كان يكتب التّمثيليّات لجوقٍ، له شأن في ذلك الزّمن «جوق عكاشة»، وينجح طالب القضاء الشّرعي فيما يكتبه من تمثيليّات حتّى يعرض عليه أصحاب الجوق ـ كما تحدّث هو للرّاوي ـ أن يترك دراسته ويفرغ لوضع التّمثيليّات، لكنّه ثابر على دراساته الفقهيّة وبرز فيها وواصل مسيرته العلميّة بين التّدريس والوظيفة والتّأليف [أمين الخَوْلِي، مناهج تجديد في النّحو والبلاغة والتّفسير والأدب، ص 9].

وبعد تخرّجه من القسم العالي للقضاء الشّرعي سنة 1920م، أختير لتفوّقه ضمن هيئة التّدريس بها، ورأس تحرير مجلّتها في سنتيها الأولى والثّانية، ثمّ تهيّأت له أسباب الرّحلة إلى أوروبا حيث عيّن سنة 1923م ضمن مفوّضيّة مصر بروما إمامًا للجالية الإسلاميّة، وبها أحدث أزمة حملت الحكومة الإيطاليّة على طلب نقلته، فعيّن بالسّفارة المصريّة ببرلين حيث أثار أزمة أخرى، فدعته حكومته إلى مصر سنة 1927م للتدريس بقسم التّخصّص في مدرسة القضاء الشّرعي، وقد نفعه عمله في هاتين المفوّضيّتين فألمّ باللّغتين الإيطاليّة والألمانيّة ممّا ساعده على الإطّلاع على بحوث المستشرقين الألمان والطّليان في الإسلاميّات [الزركلي، الأعلام، 2/ 16].

وفي أواخر 1928م، عُيّن مدرسا لفنون العربية والفلسفة بكلية جامعة فؤاد الأول (القاهرة بعد ذلك). ولقد أحبَّ العمل في تلك الكلية، وشغل فيها منصب الوكالة دون أن ينصرف بولائه عن ضروب المناهج الدراسية المتقدمة التي عرفتها البيئات العلمية المتغيّرة بمصر وبالعالم العربي قبل انتصاف القرن العشرين، بل مثّل مصر في مؤتمر تاريخ الأديان ببروكسل سنة 1936م.

ولقد عُرفت تلك المرحلة بتنوّع منطلقات التجديد على أيدي أمثال لطفي السيد، وسلامة موسى، وطه حسين. ورأى الخولي بدوره أن يضع مشروعًا علميًا للخروج بقوة من أسر التقليد العقيم، ولتطوير الأدوات البحثية كافة. وآثر أن يطيل النظر في الفكر الإسلامي البلاغيّ من أجل دفعه إلى مجال النقد الأدبي، بشرط تطهير أرضه من أوشاب التراث الميتة. كما آثر استرفاد ما تحقّقَ به جمالياتُ المعرفة وتتدعّم آليات التغيير المبنيّ على ما ينشّط الفكر والعقيدة وفنية الأدب.

وفي عام 1943م ـ وكان اسمه في الكلية يلهج به كلّ لسان ـ كوّن جماعة الأمناء لتكون مدرسة الفن والحياة، ولتضمّ نخبا من مثقفي

العصر وشُداة عِلْمه الواعين، ومنهم عبد الحميد يونس، ومحمد العلائي، وشكري عياد، ومؤسسو الجمعية الأدبية المصرية، إضافة إلى عائشة عبد الرحمن. وبرعايته واصلوا عمليات التجديد منتفعين بما يرد على الساحة من نظريات الأدب ونقده، ومعترفين في الوقت نفسه بقيمة التآلف الصحيح الذي يجعل الأمل في الإنسانية يتراءى لهم على الأفق - كما اعتاد أن يقول - أكثر وضوحا وأقرب مكانا، وهم أكثر تمثّلا له، وأقوى وَعْيا به طالما ظلوا أوفياء لعمليات التواصل الخلاق بثقافة أرضهم وبمعطيات المعارف المتفاعلة بمنطق التطور.

وبعد عشر سنوات من تكوين «جماعة الأمناء»، أي في سنة 1953م ترك الشيخ أمين الخولي الكلية مُكْرها، لكنه لم يترك تلاميذه ولا محاضراته في مختلف معاهد التعليم وفي اللقاءات الفكرية. وشغل في أثناء ذلك وظيفة مستشار فني لدار الكتب، ثم وظيفة مدير عام لإدارة الثقافة التي كانت خاضعة لوزارة التربية والتعليم. ولم يلبث سوى عامين، أحيل بعدهما إلى التقاعد سنة 1955م، وبعد عام واحد أصدر مجلته «الأدب» وقد استمر صدورها إلى ما بعد وفاته، ثم توقفت.

وفي سنة 1957م كان يحاضر في معهد الدراسات العليا، وكذلك في معهد الدراسات الإسلامية إلى عام 1958م، ولم تمنعه اهتماماته الدراسية من حضور مؤتمر المستشرقين الدولي في ميونيخ سنة 1957م، ثم في موسكو سنة 1960م ببحثه «صلات بين النيل والفولجا»، وفي العام التالي 1961م عين عضوًا بمجمع اللغة العربية، وشارك في أكثر لجانه.

لم يكن الخَوْلِي يؤمن في تدريسه بأنّ المعرفة تلقين بل يرى أنّها اكتساب، بل قل إنّه كان يراها حريّة وعملا إنسانيّا مجيدا، لا تكتمل الكرامة الإنسانيّة ولا يصلح المجتمع الإنساني إلّا بالسّعي إليه، فكان درسه أكثر من ساعة علم، إنّه تجربة عقليّة، يعلّم بها طلبته أخذ المعْرفة باختيار الطّريق الأصعب، وربّى فيهم الإحساس بعظم المسؤوليّة في الجمع بين قبول الواقع النّاقص والاستشراف إلى الكمال الممكن، وقد مكّنه إيمانه بهذا، الجمع من أن يقدّم للنّاس إنتاجا كثيرا على عمقه، وأن يخدم الثّقافة العربيّة خدمات جليلة باقية، رغم ما يؤكّده هو - تواضعا - من أنّها محدودة بحدود عصرنا [شكري محمود عيّاد، مناهج التّجديد، م. س، ص 8].

التّجديدُ والمحافظةُ يلتقيان في مزاجه وتفكيره ويتلازمان كما يلتقي فيهما ويتلازم الواقع مع المثال، فكان يبدو أحيانا محافِظًا صلبا في محافظته، وأحيانا أخرى مجدّدا متطرّفا في تجديده. يتحدّث عن مطالب الحياة المتجدّدة وارتباط اللّغة بالحياة، ويرتّب النّتائج على المقدّمات حتّى يصل إلى آراء يُحسب لأجلها من غلاة المجدّدين بل من الثّائرين [شكري محمود عيّاد، مناهج التّجديد، ن. م، ص 9].

وإذا كان الشيخ الجامعي أمين الخولي المؤمن بمصريته العربية يميل إلى اتخاذ عمليات التقابل بين محصّلاته الأصولية، وما أتيح له من معرفة جمالية بقضايا التعبير في ثوب متجدّد، فإن إقليميات الأدب العربي - بل كذلك مشكلاته المحلية - كانت مرتبطة لديه بمستحدثات الإبداع غير المتعصّب لجنس أو

عقيدة أو هوًى، وبترفّع نزيه للحقيقة التي من العبث أن نستبدل بها عَرَضا خادعا بِوَهْمِ أيّ وهْم.

ومن هذا المنطلق قدّم لنا كتابه «في الأدب المصري» المنتمي إلى عربية تضرب جذورها في أرض الجاهليين. وفي «صلات بين النيل والفولجا» ـ وكان تكريسا لما بين مصر والاتحاد السوفياتي من علاقات وطيدة ـ طرح المعنَى المتمثل في ذلك الأمل الذي يخايل البشرية بما سمّاه الأخوة الإنسانية.

وبين العملين كان فكر الشيخ، الذي حمل لواء أول التجديد، قتل القديم فَهْمًا، يرفض كل ما يتعثّر فيه النشاطُ الحضاري للفاعلية العربية. وبقدر ما كان يهفو إلى إنجازات أوروبا مستقرّ الحياة الجديدة، أنكر احتلالها للشرق، كما ندّد بما صدرت عنه من عصبية صليبية مقيتة. وقد تجاذبت كلٌّ من مصر والشام الهزيمة والنصر، في حين ظلت العراق تعيش شيخوخة لا تُغني غناء فعالا في تلك الحروب المهلكة.

هكذا كانت ثقافة أمين الخولي، وبذلك حاضر تلامذته وناقشهم، فيما كانت «جماعة الأمناء» تروّج لخطته في تجديد الأدب وبلاغته بتوجيهات منهج تاريخي كان طابع عصره عالميا. وكان يؤرّق الشيخ فيه ضرورة التخلّص نهائيًا من سيطرة المنطق ـ بله الفلسفة ـ على الفن القولي وموضوعاته قديما وحديثا، وكذلك على عباراته أو أساليبه في دلالتها على شخصية المتفنِّن.

ومعنى ذلك أن الشيخ كان شعلَة نشاطٍ طَوَال حياته العلمية، وخاصة في شتى ميادين الفن واللغة والأخلاق والفلسفة والملل والنحل. ولقد أهّله ذلك إلى أن يشارك في التعليق تصحيحا لترجمة دائرة المعارف الإسلامية وحرَّر فيها عددًا من المواد، بجانب ما كان يخصّ به المجمع من بحوث ظلت تتابع حتى توفاه الله عام 1966م.

ومن خلال تلك البحوث أثبت هذا الشيخ الأصولي أنه يعيش حياته الفكرية مؤمنًا بفكرة خلص لها، وهي أن الإسلام بكتابه الكريم لا يصادر ما يكشف عنه العلم. وآية ذلك ما صدر عنه بعض القادة الأولين، أمثال الإمام الشافعي، وأبي الحسن الأشعري، والباقلاني، من تجديد صدق عليه قوله ﷺ: «إن اللّه يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدّد لها أمر دينها».

ولعل ذلك كان حافزًا لإصدار كتابه «المجددون في الإسلام» وإن سُبِق بكتابين من التراث هما: «التنبئة بمن يبعثه اللّه على رأس كل مائة سنة» للسيوطي في أوائل القرن العاشر الهجري، و«بُغْية المقتدين ومنحة المجددين» للمراغي الجرجاوي خلال القرن الثالث عشر الهجري.

وفي كتابه «في أموالهم» دعوة رفض أن يجعل منطلقها مذهبية بِقَدْرِ مَا هي عنده «مثالية» تَحُضُّ على عمل فاضل يختاره المسلم على قاعدة أن «الإسلام دين البحث والعقل، وليس في معتقداته ما يضرب عن ذلك، ولا من آياته حبس الفكر، ولا من فاهميه حقّ الفهم».

ومن ناحية أخرى نجد في «دراسات لغوية»، وهو كتاب طبعته دار الكتب المصرية عام 1996م، مجالا مهمّا من المجالات التي

تحرّك فيها بِسَداد، وقوامُها الأعمال العلمية التي قدّمها لمجمع اللغة العربية بالقاهرة طَوَالَ خمسة أعوام (1961 - 1966) بوصفه أحد أعضائه، وتتضمن تسعة بحوث أولها خطاب عنوانه «لسان العرب اليوم»: أُلقِي في مؤتمر المجمع خلال دورته الثامنة والعشرين.

وقارئ تلك البحوث بما صاحبها من مناقشات دارت حول كلِّ بحثٍ يحسّ ما عناه الشيخُ في تقريبه الفصيح من العاميّ، أو لغة اللسان من لغة القلم. وكانت ثمرة ذلك الجهد وضع «المعجم الوسيط» فاتحا بابَ الوضع للمحدثين، مع الاعتداد بالألفاظ المولّدة وتسويتها بالألفاظ المأثورة عن القدماء. بمعنى أن يوضع معجمٌ يضمُّ الصائبَ الصحيح في عاميات كلّ البلاد الناطقة بالضّاد - بمتابعة أعضاء المجمع في بلادهم - ليكون وسيلة تفاهُم يجعل العربية عاملاً فاعلاً في الحفاظ علىّ قومية أهلها، وليس مجرد مهادنة العامية، أو معرفة ما في العاميات من فصيح.

ونجد في كتابه المرموق «فن القول» إلحاحًا على هذا التوجه اللغوي بدءًا باللفظة ومبيّنًا قيمتها الجمالية في الجُملة من حيث جزالتُها ورقّتها. وكذلك من حيث تناسُبُ معناها مع رنين صوتها في عمليات التجنيس والتسجيع والترصيع والتصريع ونحو ذلك مما تقتضيه الأحوال النفسية المختلفة والذوق الفني الذي يُسلِّم بأن الأدب هو «فن الكلمة»، وأن البلاغة من ثَمَّ هي «البحث عن فنية القول». وهذه الفنية ملتصقة بالحياة، وبها ينتفع الأديب ومتلقّي أدبه على حدّ سواء. لأنها تستهدف أصول «التعبير» نفسيًا وجماليًا جرّاء مجاوزة كل لفظة - في التعبير - معناها المعجمي إلى آفاق الدلالات الفنية، أو - بعبارة البلاغيين - إلى المعاني الثواني متنوّعة الأشكال اللغوية.

والخلاصة أن الشيخ لم يَرْضَ عن الثوب القديم لبلاغة العرب ولا بتشقيقاتها على أيدي المتكلمين أصحاب الجدل، والأصوليين أصحاب الصناعة القانونية، في تناولهم الشرع الإسلامي من القرآن الكريم بل انصرف عن كثيرٍ رآه لا يُجْدي من كلام المتأدبين - أمثال أبي هلال العسكري - برغم ما يبدو على بعضه من لمحات فنية لافتة، وبرغم فضل الجرجاني في دلائله حين جعل «إدراك البلاغة، في الذوق والإحساس الروحاني»، وجعل - أيضًا - كتب الموازنات الأدبية والشروح الأدبية وغيرها في عمليات التحليل الفني، من معارض الفن القولي.

ومن هذا المنطلق أصدر عام 1931م «البلاغة والفلسفة»، وفي عام 1934م أصدر «مصدر في تاريخ البلاغة»، وفي عام 1939م «البلاغة وعلم النفس». وتبدو مادة «بلاغة» التي خصّ بها الترجمة العربية لدائرة المعارف الإسلامية، من هذا الأمر وإليه. وقد أضاف إليها مواد التفسير والسيرة والشريعة والطلاق.

وبالمستوى العلمي المدقّق قدّم «كتاب الخير» الصادر عن دار الكتب المصرية عام 1996م. وهو مجموعة محاضرات ألقاها في الفلسفة الإسلامية مطبقة على الحياة الشرقية والتفكير الإسلامي، وتراها يُمْنَى طريف الخولي في تقدمتها لها منطلقًا لمعرفة «التطور والتجديد في الفكر الديني» وتنمّ على بعض ما يُشكّل فلسفة الخولي في الدين والأدب.

وكان أوّل ما قام على خدمته أمين الخَوْلي في كليّة الآداب، بجامعة فؤاد الأوّل هو «علم التّفسير» وله فيه وجهة نظر خاصّة تدعو إلى الخروج به عن نمطه التّقليدي في تفسير القرآن سورة سورة تأخذ فيه اللّغة أو الآية، مقتطعة من سياقها العام في القرآن كلّه ممّا لا سبيل معه للاهتداء إلى الدّلالة القرآنيّة لألفاظه أو لمح ظواهره الأسلوبيّة وخصائصه البيانيّة وهو - لئن يعدّ في ذلك - من تلاميذ «محمد عبده» والمتأثّرين به، والمطمئنّين لما يراه «رشيد رضا» وأستاذه من: «أنّ المقصد الأعلى للتفسير الّذي يطلبانه في المنار هو فهم الكتاب من حيث هو دين يرشد النّاس إلى ما فيه سعادتهم في حياتهم الدّنيا وحياتهم الآخرة، وأنّ ما وراء هذا من المقاصد تَابعٌ له أو وسيلة لتحصيله»، فإنّه لا يرى بدْعا من الرّأي أن ينظر في هذا المقصد ليختلف مع صاحبَي المنار ويقول إنّه ليس الغرض الأوّل من التّفسير وليس أوّل ما يعنى به ويقصد إليه؛ لِيُفصحَ عن مقصد أسبق وغرض أبعد تقوم عليه المقاصد المتعدّدة وتنشعب عنه الأغراض المختلفة، لا بدّ من الوفاء به قبل تحقيق أيّ مقصد آخر علميّا كان أو عمليّا، دينيّا أو دنيويّا، ويتمثّل في أنّ التّفسير الّذي يطلبه المترجم له هو النّظر في القرآن من حيث هو كتاب العربيّة الأكبر وأثرها الأدبي الأعظم باعتباره الكتاب الّذي أخلدها وحمى كيانها وخلد معها فصار فخرها وزينة تراثها، وتلك صفة القرآن يعرفها العربيّ مهما اختلف به الدّين أو اختلف به الهوى [عائشة عبد الرحمٰن، التّفسير البياني، 2/ 17 - 18].

وهو بذلك أسّس للتّفسير البياني الموضوعي وأرسى قواعده بتقريره ضمن مواد قسم التّفسير بكليّة أصول الدّين بالجامع الأزهر.

ويرى في تعليقه على مادّة التّفسير في دائرة المعارف الإسلاميّة أنّ ترتيب القرآن في المصحف قد ترك وحدة الموضوع ولم يلتزم مطلقا، ففرّق الحديث عن الشّيء الواحد في سياقات متعدّدة ومقامات مختلفة ممّا يقضي بوضوح أنّ: الصّواب في أن يفسّر القرآن موضوعا موضوعا وأن تُجمع الآيات الخاصّة بالموضع الواحد جمعا إحصائيّا مستقصِيًا، ثمّ يعرّف بترتيبها الزّمني ومناسباتها وملابساتها الحافّة، ثمّ ينظر فيها بعد ذلك لتفسّر وتفهم وفق منهج لا يضع المفردة القرآنيّة بمختلف استعملاتها الحقيقيّة والمجازيّة في سياقها من السّورة فحسب، بل في كلّ السّياق القرآني. وهو توجّه جديد منه لدراسة القرآن أدبيّا وفنيّا، على أساس عمليّة التّوزيع في أبحاثه وأبوابه باعتماد المعجم القرآني لألفاظ القرآن الكريم [عائشة عبد الرحمٰن، التّفسير البياني، ج 2، الوجه الخلفي للغلاف].

وقد تبعه في ذلك كلّ من عائشة عبد الرحمٰن بنت الشّاطئ في التّفسير البياني للقرآن الكريم [ج 1، ج 2، سلسلة مكتبة الدّراسات الأدبيّة بإهداءٍ إلى أستاذها أمين الخَوْلي صاحب المنهج ومؤصّله]، وشوقي ضيف في «تفسير سورة الرحمٰن وسور قصار»، [دار المعارف، ط 2، مصر، 1980م]، ومصطفى مسلم في [مباحث في التّفسير الموضوعي، دار العلم، دمشق، 1410هـ/ 1989م]، وشكري محمد عيّاد مقدّم كتاب «مناهج تجديد في النّحو والبلاغة والتّفسير والآداب»، لأمين الخَوْلي،

دار المعرفة، 1961م. كما استفاد من إيجابيّات هذا المنهج مفسّرون آخرون بدرجات متفاوتة، وطبّقه بعض تلاميذ الشّيخ تطبيقا ناجحا في موضوعات قرآنيّة اختاروها لرسائل الماجستير والدّكتوراه.

آثاره

1 ـ في الأدب المصري، القاهرة 1943م؛ 2 ـ مناهج تجديد، في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، دار المعرفة، ط 1، القاهرة 1961م؛ 3 ـ مشكلات حياتنا اللغوية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1987م؛ 4 ـ المجددون في الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1992م؛ 5 ـ مالك بن أنس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1994م، 3 ج؛ 6 ـ فن القول، القاهرة 1947م، دار الفكر العربي، القاهرة 1996م؛ 7 ـ دراسات إسلامية، دار الكتب المصرية، القاهرة 1996م؛ 8 ـ دراسات لغوية، دار الكتب المصرية، القاهرة 1996م؛ 9 ـ كتاب الخير، دار الكتب المصرية، القاهرة 1996م . . . إلخ.

المصادر والمراجع

● زكي، أحمد كمال، النقد الأدبي الحديث، أصوله واتجاهاته، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1972م؛ ● سعفان، كامل، أمين الخولي في مناهج تجديده، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، القاهرة 1977م؛ ● شعبان، حامد محمد أمين، أمين الخولي والبحث اللغوي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1980؛ ● لجنة الدراسات الأدبية واللغوية، الأصالة والتجديد، القاهرة 1996م؛ ● الخولي، يُمنى طريف، قراءة في كتاب الخير، التطوّر والتجديد في الفكر الديني، القاهرة 1996م؛ ● سعفان، كامل، أمين الخولي، سلسلة أعلام العرب رقم 103، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1998م؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط 14، دار العلم للملايين، بيروت 1999م، 2/ 16. . . إلخ.

د. أحمد كمال زكي
جامعة القاهرة ـ مصر
د. حسن مزيو
جامعة الزيتونة ـ تونس

الخُونَجي، أفضل الدين أبو الفضائل محمد

(590هـ/1194م - 646هـ/1248م)

أفضل الدين أبو الفضائل أبو عبد الله محمد بن ناماور (ويقال ماء ورد) بن عبد الملك الخونجي، عالم بالطبّ والحكمة والمنطق.

ولد سنة 590هـ/ 1194م، وهو من أصل فارسي. انتقل إلى القاهرة، وبها لقيه ابن أبي أصيبعة صاحب «عيون الأنباء» سنة 632هـ/ 1234م [عيون الأنباء، ص 586]. وتولّى القضاء والفتيا بها سنة 641هـ/ 1243م، وصار قاضي قضاء مصر وأعمالها. توفي بالقاهرة سنة 646هـ/ 1248م.

كان مهتمّا بعلوم الأوائل، وتابع في المنطق فخر الدين الرازي، وهو من أهمّ مناطقة المدرسة الغربية، أي مدرسة بغداد، وكان من أشهر أعلامها الفارابي، وابن رشد، وكانت تنافسها المدرسة الشرقيّة التي تزعّمها ابن سينا. تتلمذ عليه الأرموي أو أخذ عنه.

يصف ابن خلدون في الفصل الذي خصّصه للمنطق من المقدّمة [ص912 - 913]، المنعرج الخطير في تطوّر هذا العلم والذي أحدثه فخر الدين الرازي الذي سيتابعه الخونجي بعده مباشرة. يقول ابن خلدون: «ثمّ جاء المتأخرون فغيّروا اصطلاح المنطق، وألحقوا بالنظر في الكلّيات الخمس ثمرته، وهي الكلام في الحدود والرّسوم، نقلوها من كتاب البرهان. وحذفوا كتاب المقولات لأنّ نظر المنطقي فيه بالعرض لا بالذات، وألحقوا في كتاب العبارة الكلام في العكس، وإن كان من كتاب الجدل في كتب المتقدّمين لكنّه من توابع الكلام في القضايا ببعض الوجوه. ثمّ تكلّموا في القياس من حيث إنتاجه للمطالب على العموم، لا بحسب مادّة. وحذفوا النظر فيه بحسب المادّة، وهي الكتب الخمسة: البرهان والجدل والخطابة والشعر والسفسطة. وربّما يلمّ بعضهم باليسير منها إلماما. وأغفلوها كأن لم تكن وهي المهمّ المعتمد في الفنّ. ثمّ تكلّموا فيما وضعوه من ذلك كلاما مستبحرا ونظروا فيه من حيث إنّه فنّ برأسه لا من حيث إنّه آلة للعلوم، فطال الكلام فيه واتّسع.. وهُجرت كتب المتقدّمين وطرقهم كأن لم تكن، وهي ممتلئة من ثمرة المنطق وفائدته».

ويقول ابن خلدون [ص 913] عن الخونجي: «وعلى كتبه معتمد المشارقة لهذا العهد. وله في هذه الصّناعة كتاب «كشف الأسرار»، وهو طويل. و(اختصر فيها) مختصر «الموجز»، وهو حسن في التعليم، ثمّ مختصر «الجمل» في قدر أربعة أوراق، أخذ بجامع الفنّ وأصوله، يتداوله المتعلّمون لهذا العهد، فينتفعون به».

آثاره

أشهرها الجمل أو المختصر، وهو جمل

قواعد المنطق وأحكامه. اشتهر هذا الكتاب وانتشر انتشارا واسعا واعتمد في تعلّم المنطق وتعليمه في العالم العربي والإسلامي. وكتبت عليه الشروح العديدة، ومنها «كفاية العمل» للشهاب أبي جعفر أحمد بن عبد الرحمٰن المعروف بابن الأستاذ التدرومي التلمساني وهو «شرح ممزوج»، وشرحه أبو عبد الله محمد بن مرزوق العجيمي التلمساني (ت 842هـ/ 1438م)، وسمّاه «نهاية الأمل في شرح الجمل»، ووضع له نظما سمّاه «كنز الأماني والأمل في نظم منطق الخونجي في الجمل». وهذّب برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي هذا المنظوم سنة 861هـ [حاجي خليفة، كشف الظنون، ص 602، 1986]، ومنها شرح سراج الدين الأرموي (ت 682هـ/ 1283م)، صاحب «مطالع الأنوار» في المنطق [انظر كذلك عن الشروح، مقدّمة سعد غراب، على تحقيقه للجمل، ص 14 - 20].

وقد نشر هذا الكتاب بتحقيق سعد غراب وتقديمه، في رسالتين في المنطق: الجمل للخونجي، والمختصر في المنطق لابن عرفة، الجامعة التونسية، 1976.

أمّا كتبه الأخرى فمنها:

1 - أدوار الحميات في الطب؛ 2 - شرح الكلّيات [من كتاب القانون لابن سينا]؛ 3 - شرح مختصر ابن الحاجب؛ 4 - شرح مقالة ابن سينا في النبض؛ 5 - كشف الأسرار عن غوامض الأفكار، في المنطق، وعليه حاشية لابن بديع البندهي، وشرح للكاتبي القزويني (ت 675هـ) صاحب الشمسيّة [حاجي خليفة، كشف الظنون، ص 1486]؛ 6 - مختصر المطالب العلية، ولعلّه مختصر لكتاب فخر الدين الرازي (ت 606هـ/ 1209م) «المطالب العلية» في علم الكلام؛ 7 - مقالة في الحدود والرّسوم؛ 8 - مقالة في الخدور والوروم؛ 9 - الموجز في المنطق وعليه شرحه لسيف الدين عيسى المنطقي (ت 705هـ) [حاجي خليفة، كشف الظنون، ص 1901].

المصادر والمراجع

● ابن خلدون، المقدّمة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط 3، 1967؛ ● ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د. ت.، ص 586 - 587؛ ● الصفدي، الوافي بالوفيات، ص 89؛ ● ابن العماد، شذرات الذهب، 5/ 237؛ ● السبكي، طبقات الشافعيّة، 5/ 43؛ ● السيوطي، حسن المحاضرة، 1/ 312؛ ● طاش كبري زاده، مفتاح السعادة، 1/ 246؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين، إستانبول، 1955، 52/ 123؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون، إستانبول، 1941؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، 7/ 344؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلّفين، دمشق، 1380هـ/ 1960م، 12/ 73؛ ● نيقولا ريشر، تطوّر المنطق العربي، ترجمة ودراسة وتعليق د. محمد مهران، دار المعارف، 1985، ص 437 - 439؛ ● غراب، سعد، رسالتان في المنطق: الجمل الخونجي، والمختصر في المنطق

لابن عرفة، الجامعة التونسيّة، 1976، المقدّمة، ص 5 ـ 25.

- F. Wüstenfeld, Geschichte der arabischen Ärzte, Göttingen, 1840, p. 131; nº 232; • Brockelmann (Carl), Geschichte der arabischen Litteratur, Leiden, Brill, 1, 1943, p. 607 (463), Suppl. I, Brill, 1937, p. 838.

د. مقداد عرفة
جامعة تونس

ابن خويز، أبو بكر منداد محمد بن أحمد

(ت 390هـ/1000م تقريبا)

محمد بن أحمد بن علي بن إسحاق، أبو عبد الله البصري. هذا الذي رجّحه القاضي عياض، وذكر ابن فرحون أنّه رأى اسمه وكنيته هكذا على كتبه بخطّه. وعند غيرهما، هو محمّد بن أحمد بن عبد الله، وكنيته أبو بكر. واشتهر بابن خويز منداد، نسبة لأحد آبائه. كذا ضبطه الصفدي (بالخاء المعجمة والياء للتصغير والزاي) ويقال: «خوّاز منداد».

المحدّث الفقيه الأصولي، من كبار علماء المذهب المالكي بالعراق.

كان مشتغلا بعلوم الشريعة المزدهرة في عصره؛ فكان مهتمّا برواية الحديث، فسمع من أبي بكر بن داسة، وأبي الحسن التمّار، وأبي الحسن المصيصي، وأبي إسحاق الهجيمي، وأبي العبّاس الأصمّ.

وكان مهتمّا بالفقه وأصوله؛ وأبرز أساتذته في ذلك، إمام المذهب المالكي في عصره، أبو بكر الأبهري. كما كان له اعتناء بعلم العقيدة.

وما يلفت النظر عند مترجميه أنّه لم يكن بمحلّ الرضا من علماء مذهبه، إذ انتقدوه انتقادا شديدا، بأنّه «لم يكن بالجيّد النظر ولا بالقوي الفقه»، ويكون لهذا الانتقاد شأن حين يصدر، أوّل ما يصدر، عن كبير مترجمي علماء المذهب، وهو القاضي عياض [ترتيب المدارك، 7/ 78] ثمّ ينقله عنه من تحدّث عنه بعده، حتّى كادوا بذلك أن يسقطوه عن مرتبة العلماء، ويخرجوه من دائرة علماء المذهب، لولا أنّ المؤلّفات هي التي تشهد بقيمة أصحابها العلمية؛ وهي كانت منه مرجعا في مضمونها راجت في حياته، ووجد صداها في مؤلّفات علماء المذهب المالكي بعد وفاته؛ وممّن اعتمدها ونقل عنها، على سبيل المثال، الإمام الباجي (ت 474هـ/ 1082م) في كتابيه «المنتقى شرح الموطّأ»، و«إحكام الفصول في إحكام الأصول»، والإمام القرافي (ت 684هـ/ 1285م) في كتابه

«الذخيرة»، والإمام القرطبي (ت 671هـ/ 1273م) في «الجامع لأحكام القرآن».

ولعلّنا حين نعرف الاتجاه الذي آلت إليه الحركة العلمية في بعض نواحيها، في عصره، ونعرف طبيعة آراء ابن خويز التي انتقدت عليه، يمكن أن ندرك حقيقة موقف علماء مذهبه منه؛ فقد شهد أوائل القرن الرابع الهجري تحوّلا في موقف علماء أهل السنّة من علم الكلام، برجوع الإمام أبي الحسن علي الأشعري (ت 330هـ/ 942م) عن مذهب الاعتزال وتبنّيه مذهب السلف وآرائهم في العقيدة، والانتصار لها وفقا لمنهج المعتزلة، باعتماد قواعد علم الكلام وآلياته؛ ممّا جعل علماء المذاهب الفقهية السّنّية، وخاصّة المالكية والشافعية، يرونه منقذا لهم من مأزق الافتقار للأدلّة العقلية فيما يختلفون فيه، من قضايا العقيدة، مع المعتزلة وغيرهم من فرق المتكلّمين ونحل المعتقدات المخالفة للإسلام؛ فالتف حوله علماء أهل السنّة وتقبّلوا منهجه واعتمدوه واعتبروه إماما لهم في هذا العلم، وزالت بذلك الجفوة بينهم وبين علم الكلام، التي كانت في أسلافهم. وفي نفس الفترة قام أبو منصور محمّد الماتريدي الحنفي (ت 333هـ) بسمرقند فيما وراء النّهر، بمثل ما قام به الأشعري، من اعتماد هذا المنهج والاحتجاج به لعقائد أهل السنّة، وقد وجد قبولا من فقهاء المذهب الحنفي وتبنّوا طريقته.

فقد كان الاتجاه يسير نحو عقلنة الدراسات والبحوث في مجال العقائد، للانتصار للنصّ الديني والمعتقدات التي تضمّنها. ضرورة أنّ أهل السنّة فرضت عليهم، فيما بعد الفتنة الكبرى، عديد التساؤلات العقدية، لم يجدوا لها إجابات واضحة وقطعية في النصوص الدينية؛ وقد زادها تراكما وإشكالا أمران: الأوّل، اختلاطهم بأصحاب الديانات والملل والنحل في البلاد المفتوحة، وقيام هؤلاء ـ في إطار حرية المعتقد التي ضمنها الإسلام للشعوب ـ بإظهار معتقداتهم والدفاع عنها، ومناقشة المسلمين في ما عندهم من عقائد؛ والثاني، جنوح طائفة من المسلمين، وهم المعتزلة، للخوض معهم في مباحثهم، مع وقوعهم في تقريرات وآراء، اعتبرها جمهور علماء أهل السنّة انزلاقات خطيرة نبذوا من أجلها علم الكلام وأهله، حتّى اقتنعوا بضرورته ورأوا أنّ جانب مخاطره ضئيل في جانب منافعه ومصالحه، بما قام به كل مّن الأشعري والماتريدي، من الدّفاع عن عقائد الإسلام والإقناع بها، وتقديمها في قالب يتفهّمه عقل المخالفين من معتنقي الديانات والملل الأخرى.

لكنّ مذهبا فقهيا لم يستوعب علماؤه هذا التحوّل في الحياة الفكرية، ولم يتفهّموا ضرورة مواجهته بوسائل تناسبه، وهم فقهاء المذهب الحنبلي الذين ظلّوا متمسّكين بمنهج سلف الأمّة، من الصحابة والتابعين، الذي يقوم على التسليم فيما فيه إشكال من النصوص، ومنع التساؤل فيما لم يرد فيه نصّ، ومنع البحث في قضايا العقيدة بغير الآيات القرآنية والأحاديث النبوية. ومن ثمّ شنّ تيار الحنابلة حملة على المتكلّمين، سواء من المعتزلة أو من أهل السنّة ـ الشافعية والمالكية ـ، ونسبوهم إلى الابتداع في الدين والخروج عن المنهج القويم.

وقد كان لهذا الاتجاه الحنبلي أثره في بعض فقهاء المذاهب السنّية، ومنهم شخصية هذا المدخل، ابن خويز منداد المالكي؛ فقد كان رافضا لمنهج المتكلّمين، منافرا لأهله؛ وآخذه القاضي عياض بأنّه تعدّى ذلك إلى منافرته المتكلّمين من أهل السنّة، وحكمه على كلّ المتكلّمين من المعتزلة وأهل السنّة وغيرهم بأنّهم من أهل الأهواء.

ومن آرائه الأصولية أنّ خبر الواحد - وهو الروايات عن النبيّ ﷺ المنقولة بطريق لا يبلغ فيه عدد الرواة مبلغ التواتر في كلّ حلقة من حلقات الإسناد - يفيد العلم اليقيني؛ وهي مسألة من أصول النظر العقلي في تأسيس العقائد، من يقول بمثل هذا الرأي - وهو ما يتفق فيه ابن خويز مع الحنابلة - يثبت كلّ المسائل الغيبية الاعتقادية الواردة في الأحاديث المروية بطريق الآحاد، كمسألة المهدي المنتظر ونحوها. وأمّا من يقول إنّ خبر الواحد لا يفيد العلم القطعي، وإنّما يفيد - فقط - الظنّ الراجح القريب من اليقين، ومجال إعماله التشريع والآداب والترغيب والترهيب؛ وهو رأي جمهور أهل السنّة، وهو تفريق دقيق مبنيّ على أنّ العقائد هي المعيار الأساس للانتماء للإسلام والكفر به، ولا يمكن - عندهم - اعتبار مسألة من المسائل عقيدة من العقائد إلّا إذا كان دليلها يفيد العلم الضروري، ولا يوجد ذلك إلّا في النصّ المتواتر، وهو القرآن الكريم وقليل من الأحاديث النبوية.

ويضاف إلى هذا، بعض آرائه في الفروع الفقهية الاجتهادية، التي خالف فيها إمّا الاتجاه العام للمذهب، أو جملة المذهب، أو حتّى جميع المذاهب في قوله إنّ العبيد - حين كان الرقّ موجودا عند نزول الوحي - لم يكونوا داخلين في خطاب الأحرار، بمعنى أنّه لم يكن التكليف يشملهم. وآراؤه مبثوثة في كتب علماء المالكية الذين اعتنوا بالخلاف داخل المذهب.

وعموما فإنّه يمكن تصنيف ابن خويز، من خلال بعض آرائه التي وقفنا عليها، ضمن الاتجاه الأثري الظاهري داخل المذهب المالكي الذي كان يشهد تنوّعا قبل أن يتوحّد بتأثير المدونة السحنونية بعد انتشارها واعتمادها من قبل علماء مراكز الفقه المالكي في العراق ومصر والأندلس وإفريقية [انظر مقدمة تحقيق "الإشراف على نكت مسائل الإشراف"، 1/ 42 - 51] ولا يغضّ من شأنه أنه كان غير مساير لأهل مذهبه في جميع آرائهم، كما لا يعيق مسيرة علماء الأمّة نحو تطوير مناهجهم إن وجد فيهم من يرفض الانخراط في توجّههم ؛ إذا كان كلّ طرف يصدر في تفكيره عن التزام لثوابت الدّين واجتهاد صادق لإظهار الحقّ وآداب عالية في الحوار.

ومن خلال ذلك يكون ابن خويز متّفقا مع المنهج العام في التأليف الذي طبع مؤلّفات علماء المالكية بالعراق، والذي يختلف عن منهج التأليف لدى علماء هذا المذهب، في باقي مراكزه، بميزتين: ميزة التأصيل للفقه المالكي، بالكشف عن الأصول والقواعد التي كان يستند إليها إمام المذهب في اجتهاده، وتحريرها، وبيان مشروعيتها وشروط العمل بها؛ وميزة الحوار الذي يقيمه المؤلّف في تأليفه الفقهي بين مذهبه ومذاهب

المخالفين له، باستعراض مختلف الأقوال وأدلّة أصحابها، والإفاضة في الانتصار لمذهبه أو لرأيه الخاص، وهو ما يسمّى بعلم الخلاف؛ ضرورة أنّ الفقيه المالكي ببغداد كان يعيش في زحمة التنافس بين مذاهب فقهية كبرى، سنّية وغير سنّية، كلّ طائفة كانت تسعى لنشر مذهبها والتعريف به وبيان صحّة أصوله وسداد رأيه. وأمام هذا لم يكن متيسّرا لعلماء المذهب المالكي ـ عند الدرس أو التأليف ـ أن يغمض الواحد منهم عينيه عن مخالفة المذاهب الأخرى لمذهبه أو يصرف النظر عن الاطّلاع على آرائها ودراسة أدلّتها، وأدرك أنّه لا يستقيم له نصرة مذهبه والإقناع به إلّا إذا قابلها بما عند مخالفيه، وقام بالردّ عليهم وإبطال احتجاجاتهم، ثمّ بإقامة أدلّته. ورائد جميع المذاهب الإسلامية تلك القاعدة الذهبية التي أنتجها الفكر الإسلامي، وهي: «قولي صواب يحتمل الخطأ، وقول غيري خطأ يحتمل الصواب». وفي هذا الإطار تتنزّل كتب ابن خويز منداد.

آثاره

لابن خويز منداد مؤلّفات، هي مفقودة إلى حدّ الآن، ولم تذكر في كتب التراجم بأسمائها، وإنّما بموضوعاتها وهي كالآتي:

1 ـ كتاب في الخلاف، وقد وصف بأنّه كبير؛

2 ـ كتاب في أصول الفقه؛ 3 ـ كتاب في أحكام القرآن.

المصادر والمراجع

● ابن حجر العسقلاني، أحمد، لسان الميزان، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، 1390هـ/ 1971م، ط2، 5/ 291؛ ● السبتي، اليحصبي، عياض بن موسى، ترتيب المدارك، تح. مجموعة من الباحثين، وزارة الأوقاف المغرب، 1403هـ/ 1983م، 77 ـ 78؛ ● الشيرازي، أبو إسحاق، طبقات الفقهاء، تح. إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان 1970م، ص167؛ ● ابن طاهر، الحبيب، مقدّمة تح.كتاب الإشراف على نكت مسائل الخلاف، للقاضي عبد الوهاب البغدادي، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط 1420هـ/ 1999م، 42 ـ 66؛ ● ابن فرحون، اليعمري المدني إبراهيم، الديباج المذهب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص268؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، مطبعة الترقي، دمشق 1380هـ/ 1960م، 8/ 280؛ ● مخلوف، محمد، شجرة النور الزكية، دار الفكر، 1/ 103؛ ● الصفدي، صلاح الدين، الوافي بالوفيات، اعتناء هلموت ريتر، 1381هـ/ 1962م، ط2، 2/ 52.

د. الحبيب بن طاهر
وزارة الشؤون الدينية ـ تونس

الخويّي، أبو العباس شمس الدين أحمد

(583هـ/1187م ـ 637هـ/1240م)

أبو العباس شمس الدين أحمد بن الخليل بن سعادة بن جعفر المهلّبي الخويّي نسبة إلى خوي وهي مدينة بأذربيجان من إقليم تبريز، قاض شافعي له علم واسع بالفقه والنحو وعلم الكلام وله دراية بالطبّ. قال عنه الذهبي: «كان فقيها إماما، منظرا، خبيرا بعلم الكلام، أستاذا في الطبّ والحكمة، ديّنا، كثير الصلاة والصيام».

ولد الخويّي بأذربيجان في شوّال سنة 583هـ/ ديسمبر 1187م وتعلّم بها ثمّ دخل خراسان وبها قرأ الأصول على القطب المصري صاحب الإمام فخر الدين الرازي (ت 606هـ/ 1210م)، وقيل على الإمام نفسه، ودرس الجدل على علاء الدين الطوسي، والفقه على الرافعي، وسمع الحديث من ابن الزبيدي وابن الصلاح وغيرهما. تولّى القضاء بعد رفيع الدين عبد العزيز بن عبد الواحد بن إسماعيل بن عبد الهادي الحنبلي وذلك إلى جانب ممارسة التدريس بالمدرسة العادليّة، ومنها أصبح قاضي القضاة بالشام بعد جمال الدين المصري، ثمّ قلّده الصالح إسماعيل الوزارة وتحالف معه على أكل أموال الناس بالباطل، وفي ذلك قال أبو شامة: «تظهر منه سوء سيرة وعسف وفسق وجور ومصادرة في الأموال» [ذيل الروضتين، ص 169؛ ابن كثير، البداية والنهاية، 19/ 155]. وكانت وفاته بالمدرسة العادليّة في شعبان 637هـ/ فيفري ـ مارس 1240م عن 55 سنة ودفن بسفح قاسيون.

آثاره

وضع الخويّي مؤلّفات في العروض، والنحو، والأصول، على وجه الخصوص. ومنها:

1 ـ كتاب به رموز حكميّة قال عنه ابن أبي أصيبعة: «يشتمل على رموز حكميّة، صنّفه للسلطان الملك المعظّم عيسى بن أبي بكر بن أيّوب»؛ 2 ـ كتاب في علم الأصول؛ 3 ـ السفينة النوحيّة في النفس والروح، ذكر في مقدمته أنّه كان يزمع شرح كتاب الفخر الرازي في النفس وأحجم عنه إلى تأليف هذا المختصر؛ 4 ـ ينابيع العلوم؛ 5 ـ شرح الإرشاد لمحمد العميدي السمرقندي في الخلاف والجدل؛ 6 ـ كتاب في النحو؛ 7 ـ عرائس النفائس وهو مختصر النفائس في الجدل لمحمد العميدي؛ 8 ـ نظم؛ 9 ـ كتاب في العروض قال عنه أبو شامة:

أحمدُ بن الخليل أرشدَهُ الله
كما أرشدَ الخليلَ بن أحمد
ذاك مستخرِجُ العروض وهذا
مُظهِر السرّ منه والعوْد أحمد

[ذيل الروضتين، ص169].

المصادر والمراجع

● ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، 2/ 171، ط. بيروت 1957م؛ ● الصفدي، الوافي بالوفيات، ص 275 ـ 274، ط. فيسبادن 1981؛ ● ابن كثير، البداية والنهاية، 13/ 155، ط. بيروت 1966؛ ● ابن العماد، شذرات الذهب، 5/ 183، ط. بيروت 1983؛ ● ابن طولون، القلائد الجوهرية، ص 582 ـ 583، ط. دمشق 1981م.

د. محمد الأزهر باي

جامعة منوبة ـ تونس

الخياري، أحمد ياسين بن أحمد بن مصطفى

(1321هـ/ 1903م ـ 1380هـ/ 1960م)

أحمد ياسين بن مصطفى الخياري الشافعي المدني، ولد بالمدينة المنوّرة. وتلقى دراسته الأولى في كتاب الشيخ إبراهيم الطرودي، ثم تتلمذ على والده الشيخ ياسين الخياري. حفظ القرآن في كتاتيب المدينة المنوّرة، ودرس علم القراءات العشر على يد الشيخ حسن الشاعر، ولازمه طويلا، وكان من أبرز تلاميذه. ثم درس بالأزهر الشريف بالقاهرة، ونال شهادته العالمية. وبعد عودته للمدينة المنوّرة أدرج اسمه ضمن علماء المسجد النبوي الشريف، وكانت له حلقة كبرى لكنّه لم يستمر طويلا في التدريس بالمسجد النبوي، وعكف على التدريس في منزله. ثم عيّن أستاذًا في مدرسة النجاح سنة 1353هـ/ 1934م وأمضى فيها عدّة سنوات. وكان أحد أعضاء لجنة الاختبار السنوي لمدارس المدينة المنوّرة، ونائبا لرئيس لجنة تنظيم مكتبات المدينة المنوّرة.

أسّس مكتبة الحرم النبوي الشريف في سنة 1359هـ/ 1940م، وكانت الكتب الموجودة بها غير منظّمة أو مفهرسة، وجاءت من جهات مختلفة، فضمّ إليها من مكتبته الخاصة ما يقرب من الثلاثمائة كتاب في شتى الآداب والفنون والعلوم، وبعض كتب والده الشيخ ياسين الخياري، بالإضافة إلى كتب العديد من العلماء والفقهاء، فكتملت المكتبة بفضل جهوده، وعيّن أوّل مدير لها.

كان عضوا في مجلس الأوقاف بالمدينة المنوّرة، وحاز على عضوية وسكرتارية ونيابة مشيخة القرّاء والحفّاظ بالمدينة المنوّرة. وعيّن عضوًا منتدبًا في المحكمة الشرعية للبحث في سجلّاتها عن الأوقاف العائدة نظارتها إلى مديريّة الأوقاف بالمدينة المنوّرة، وكان مندوبا في الحرم المكّي الشريف عن أوقاف علماء المدينة المنوّرة. كان كذلك عضوًا في جمعيات الإسعاف الخيري، ومشروع القرش، وعضوًا في شركة المدينة للطباعة والنشر، ولجنة إصلاح طريق قباء، وعضوًا

وسكرتيرًا لأوّل نادٍ أدبي أسّس في المدينة المنوّرة. ثمّ عيّن مديرا للمدرسة السعودية للقراءات (معهد القراءات الآن). وقبل وفاته بسنة صدر مرسوم ملكي بتعيينه مديرا للمكتبة العامة التابعة للأوقاف بالمدينة المنوّرة مع الإشراف على المكتبة المحمودية ومكتبة الحرم النبوي الشريف.

آثاره

إنتاجه العلمي كثير وغزير، ويغلب عليه التخصّص في القرآن وعلومه بجانب الأدب والتاريخ وآثار المدينة المنوّرة، وأغلب إنتاجه لا يزال محفوظا، ومن مؤلفاته:

1 ـ تاريخ معالم المدينة المنوّرة قديما وحديثا، وصدرت منه إلى الآن ثلاث طبعات الأولى 1410هـ/ 1990م، والثانية 1411هـ/ 1990م، والثالثة 1412هـ/ 1991م، عن مطابع شركة دار العلم للطباعة والنشر بجدة؛ ويتكوّن الكتاب من خمسة عشر بابا، تتناول تاريخ المدينة المنوّرة قبل الهجرة، تاريخ المدينة المنوّرة في عهد الرسول الله ﷺ، تاريخ المسجد النبوي، المساجد، الدور الأثرية المشهورة بالمدينة المنوّرة، القصور الأثرية المشهورة بالمدينة المنوّرة، الأودية المشهورة بالمدينة المنوّرة، العيون المشهورة بالمدينة المنوّرة، الثنايا المشهورة بالمدينة المنوّرة، الجبال المشهورة بالمدينة المنوّرة، الحرار المشهورة بالمدينة المنوّرة، أماكن أثرية متفرّقة، الأسوار، الأمراء والحكام من عهد النبوّة؛ 2 ـ أمراء المدينة المنوّرة وحكّامها من عهد النبوّة حتى اليوم؛ 3 ـ تاريخ المدينة المنوّرة في الشعر حديثا وقديما؛ 4 ـ التحفة الشماء في تاريخ العين الزرقاء، صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب عن دار العلم للطباعة والنشر بجدّة سنة 1420هـ/ 1999م، وتضمّن الكتاب عدّة فصول تحكي تاريخ العين الزرقاء التي كانت من أهمّ المنابع التي يستقي منها سكّان المدينة المنوّرة منذ القرن الأوّل الهجري، لذا فقد ارتبط تاريخ هذه العين بتاريخ المدينة المنوّرة بعد الإسلام؛ 5 ـ حمام الحمى الحجازي، صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب عن دار العلم للطباعة والنشر بجدة سنة 1412هـ/ 1991م؛ 6 ـ روضة الفكر والجنان في فضائل أمهات البلدان؛ 7 ـ السر الموصول في آثار الرسول؛ 8 ـ الأوائل في تاريخ المدينة المنوّرة .

المصادر والمراجع

● الأنصاري، عبد القدوس، دمعة حزن ووفاء على فقيد عزيز كريم، المنهل، رجب، 1380هـ/ 1960م؛ ● سلم، أحمد سعيد، موسوعة الأدباء والكتاب السعوديين خلال ستين عاما 1350 ـ 1410هـ، القسم الأول، نادي المدينة المنوّرة، الطبعة الأولى 1413هـ/ 1992م؛ ● كتبي، أنس يعقوب، أعلام من أرض النبوّة، الجزء الأول، الطبعة الأولى، المدينة المنوّرة، 1414هـ/ 1993م؛ ● الموسوعة الثقافية الشاملة للمملكة العربية السعودية، الجزء الأول، معجم الأدباء والكتاب، الطبعة الأولى، الدائرة للإعلام، الرياض 1410هـ/ 1990م.

د. عبد الرحمن طيب الأنصاري
جامعة الملك سعود ـ الرياض ـ السعودية

الخيّاط، الأمير الكبير علم الدين سنجر

(ت 695هـ/ 1296م)

الأمير الكبير، عَلَم الدين، سَنْجَر المسروري، الصالحي، الحاجب، المعروف بالخيّاط، متولّي القاهرة.

اختلف بدر الدين العيني (ت 855هـ/ 1451م)، والمقريزي (ت 852هـ/ 1448م) في تاريخ وفاته، فالأوّل أرّخها بسنة 695هـ، وهو الصواب، والثاني بسنة 698هـ.

ومن المصادفات المُلفتة، وجود شخص آخر معاصر له يحمل الرُتبة، واللقب، والاسم نفسه، وهو متولّي القاهرة أيضًا: الأمير الكبير، علم الدين، سَنجور المسروري، الأشرفي المعروف بالخازن توفي سنة 735هـ/ 1334م.

ومن جرّاء التشابه بين اسمي الأميرين ولقبهما ووظيفتهما، وقع الخلط بينهما، وهذا ما نراه عند المؤرّخ الحافظ ابن حجر العسقلاني (ت 854هـ/ 1450م) في الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، في الترجمة رقم 1879م.

وقد فرّق بين الاثنين المؤرّخ اليوسفي، موسى ابن محمد بن يحيى (ت 759هـ/ 1358م). وهو معاصر للاثنين، وصديق للثاني المعروف بالخازن.

والذي ميّز الخياط عن الخازن أنّه ألّف كتابًا في التاريخ، اختصر فيه السنوات الأخيرة من الكامل في التاريخ لابن الأثير (ت 630هـ/ 1232م) وزاد عليه سنوات أخرى.

ولا يُعرف تاريخ مولده، ولكنّ أوّل ما وصلنا من أخباره أنه كان في سنة 663هـ/ 1265م مشاركا مع السلطان الظاهر بيبرس في فتح أرسوف، وهي مدينة على ساحل فلسطين بين قيسارية ويافا، وفي سنة 678هـ/ 1280م أنعم عليه بولاية القاهرة. وله ترجمة عند بدر الدين العيني في عقد الجُمان.

أما الترجمة عند ابن حجر فنصفها الأول عنه، والنصف الآخر عن الخازن وكلّ الذين ترجموا له لم يذكروا أنه كان مؤلّفا، ولهذا لم يذكره كحّالة (ت 1408هـ/ 1987م) في معجم المؤلّفين، ولا في المستدرك، ولا في تكملة معجم المؤلّفين لمحمد خير رمضان يوسف، أمّا الوحيد الذي ذكره فهو الدكتور شاكر مصطفي دون أن يبحث له، واكتفى بالقول إنه مؤرّخ من عهد الملك الظاهر بيبرس هو علم الدين سنجر المسروري، وأنّه ذيل على كتاب البستان الجامع للعماد حتّى سنة 632هـ.

وما تقدم غير صحيح، فكتاب البستان ليس للعماد الأصفهاني، بل يُنسب إليه، وكتاب المسروري لم يقف عند سنة 632هـ. بل هو ينتهي بحوادث سنة 636هـ/ 1238م، وقد قمنا بتحقيقه ونشره، بعنوان المختصر من الكامل في التاريخ وتكملته، ومن مطالعته نعرف أنّ

المؤلّف كان موجودًا في القاهرة سنة 635هـ/ 1237م، وأنه طالع كتاب «الكامل في التاريخ» لابن الأثير، واختصر القسم الأخير منه، وطالع كتاب «البستان» المنسوب للعماد، وألّف كتابه هذا ليكون ذيلاً له، كما ذكر في مقدّمته، ولكنّه لم يضع له عنوانا، واطّلع على رسالةٍ كتبها أحد الفضلاء عن كيفية أخذ سلطان مصر الملك الكامل الأيوبي لمدينة آمد في سنة 629هـ، فاختصرها وكتب المقصود منها، واطّلع المؤرّخ ابن واصل (ت 697هـ/ 1297م) بدوره على هذه الرسالة وأثبتها كاملةً في كتابه «مفرّج الكروب في أخبار بني أيوب». كما اطّلع المؤلّف الخياط على رسالة للفقيه المَوْصليّ عفيف الدين الحنفيّ. ونقل عنه أخبارًا نادرة عن أحداث دمشق، وهذا ما جعل كتابه ـ على صغره ـ مصدرًا أساسيًا ومهمّا عن تلك الفترة، أفاد منه المؤرّخون، وخاصّة ابن واصل.

ومن كتابه نعرف أيضًا أنه كان أيوبيّ الهوى، مُحبًا للسلطان الملك الكامل، ومن بعده لابنه السلطان الملك الصالح، وذلك يتّضح من كثرة ترحّمه على الملك الكامل كلّما ذكره، بقوله: رحمه الله وقدّس الله روحه، وذكر له ترجمةً موسّعة عند وفاته سنة 635هـ. قياسا إلى وفيّات غيره من الملوك والسلاطين، وأثبت ضمن ترجمته رثاءً من عشرة أبيات لم ينسِبها لأحد، ونقلها المؤرّخ الحنبلي، أحمد بن إبراهيم (ت 876هـ) في كتابه شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، وهو ينسبها إلى ابن واصل، فقال إنه قالها يرثي الملك الكامل ويمدح ولده الملك الصالح.

ولا نجد الأبيات في «مفرّج الكروب»، بل هي في كتاب آخر لابن واصل هو التاريخ الصالحي لا يزال مخطوطا، ما يعني أنّ الخيّاط ينقل عنه، أو العكس هو الصحيح، لتقارُب وفاتهما.

ويستخدم الخياط صياغة السَجَع في وصف الملك الصالح نجم الدين أيوب، وفي الحديث عنه، ويُفرط في ذلك على عادة أهل عصره، وامتدحه شعرًا مستشهدًا بأبيات لـ «السلامي، محمد بن عبد الله المخزوميّ» الشاعر (ت 393هـ/ 1002م)، وهذا يعني أنه اطّلع على كتب الأدب، ومنها ديوان السلامي، أو على بعض المصادر التي ذكرت شعره، ولا غَرْو في ذلك، فقد كان أخصّ أصحاب الخياط من الأدباء والشعراء والعلماء، عَرَفنا منهم: سراج الدين الورّاق (ت 695هـ/ 1295م)، وشمس الدين الكحّال (ت 710هـ/ 1310م)، ونصير الحمّامي (ت 713هـ/ 1313م).

انتهج الخياط أسلوب الاختصار إلى حدّ الإيجاز الشديد أحيانا، فكتب الكثير من الحوادث التي استغرق الواحد منها عند ابن الأثير صفحتين أو أكثر، في سطر واحد، واختصر أيضًا في ذكر الوفيات، فلم يذكر كلّ المتوفّين الذين أرّخ لهم ابن الأثير في كل سنة، واكتفى ببعضهم على سبيل الاختصار، أيضًا، ولم يذكر إلّا الاسم أحيانا، إلّا أنه أتى على ذِكر وفيات لم يذكرها ابن الأثير، ومن أمثلة ذلك في وفيات 604هـ، 609هـ، 612هـ، 617هـ، 626هـ. وأتى على ذِكر أخبار لم يذكرها ابن الأثير أيضًا في سنوات: 607هـ و611هـ و627هـ.

آثاره

- المختصر من الكامل في التاريخ وتكملته.

المصادر والمراجع

● المقريزي، السلوك، ج 1، ق 3، ص 672، 683، 712، 736، 743، 745؛ ● العيني، عِقْد الجُمان، 3/ 340؛ ● ابن حجر، الدرر الكامنة، الترجمة رقم 1879؛ ● الخيّاط، المختصر من الكامل في التاريخ، تح. عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت 1423هـ/ 2002م.

د. عمر عبد السلام تدمري
الجامعة اللبنانية - طرابلس - لبنان

ابن الخيّاط، أبو بكر محمد بن أحمد بن منصور

(ت 320هـ/932م)

هو أبو بكر محمد بن أحمد بن منصور المعروف بابن الخيّاط، ولد بسمرقند في تاريخ غير معروف.

كان رحل إلى بغداد، وأخذ النحو عن المبرّد ونقل عن ثعلب وكان من جيل من النحاة عرف بجيل البغداديين الأوائل، ويمثله ابن كيْسان (ت 299هـ)، وابن شقير (ت 315هـ)، وابن الخياط نفسه. وقد غلبت عليهم النزعة الكوفيّة. وقال الزجاجيّ في شأنهم: «هؤلاء قدوة أعلام في علم الكوفيّين، وكان أول اعتمادهم عليه، ثم درسوا علم البصريين بعد ذلك، فجمعوا بين العلمين» [الإيضاح في علل النحو، ص 79]. وأضاف أنّ هؤلاء الأعلام ومعهم ابن الأنباري الكوفي الخالص هم الذين نقل عنهم احتجاجات الكوفيين لآرائهم لأنهم ضبطوا هذه الاحتجاجات، ووثقوها وأحكموها، يقول: «فنحن إنما نحكي علل الكوفيين على ألفاظ هؤلاء، ومن جرى مجراهم، مع أنه لا زيادة في المعنى عليهم ولا بخس حظ يجب لهم» [الإيضاح، ص 131].

وكانت بغداد حاضرة الدولة ومحطّ الرحال، ومقصد رجال العلم والثقافة، نفقت فيها سوق الأدب، وأقيمت حلقات الدراسة في شتّى العلوم، منها حلقات البصريين مثل ابن السراج، والأخفش الصغير، والزجّاج، وابن دريد، ونفطوية، وكذلك حلقات البغداديين الأوائل، وخاصة حلقة ابن الخيّاط التي عكف عليها الزجاجي وأبو علي الفارسي. وفي هذا الجوّ جرت بين العلماء مناظرات، منها مناظرة بين الزجّاج وابن الخيّاط، إلا أن كتب التراجم وكتب النحو كذلك لم تفدنا بفحوى هذه المناظرة. ولم تنقل إلينا أيضا

آراء ابن الخيّاط ومواقفه من بعض القضايا النحوية ليتسنّى لنا تقييمها.

وذكر ياقوت أن المرزباني رأى ما كتبه أبو علي الفارسي بخطّ يده من علم في النحو أخذه عن ابن الخياط. وعرض ياقوت أيضاً شهادة لأبي علي سجّلها في رقعة وجّهها إلى سيف الدولة ينفي فيها ما نسب إليه من أن ابن الخيّاط كان لا يعرف شيئاً. «كيف أستجيز ذلك وقد كلمت ابن الخيّاط في مجالس كثيرة؟ ولكنّي قلت إنه لا لقاء له لأنه دخل إلى بغداد بعد موت محمد بن يزيد، وصادف أحمد بن يحيى، وقد صُمّ صَمَما شديدا لا يخرق الكلام سمعه. فلم يمكن تعلّم النحو منه، وإنما كان يقوله فيما كان يؤخذ عنه على ما يمليه دون ما كان يقرأ عليه. وهذا أمر لا ينكره أهل هذا الشأن ومن يعرفهم» [معجم الأدباء، 5/ 2309]. وهذا يثبت أن ابن الخيّاط أصيب بالصمم الشديد حين دخل بغداد، وأن أبا علي الفارسي أخذ النحو عنه إملاء لا قراءة.

وذكرت كتب التراجم والطبقات أنه كان «جميل الأخلاق، طيّب العشرة، محبوب الخلقة».

آثاره

نسبت إليه خمسة كتب، لم يصلنا منها شيء هي:

1 ـ معاني القرآن؛ 2 ـ كتاب النحو الكبير؛ 3 ـ كتاب المقنن في النحو؛ 4 ـ كتاب الموجز في النحو؛ 5 ـ النحو الملتزم، نسبه إليه إسماعيل باشا البغدادي في هدية العارفين.

المصادر والمراجع

● الزجاجي، الإيضاح في علل النحو، تح. مازن مبارك، دار النفائس، سنة 1402هـ/ 1982م، ص 63، 79، 132، ط 4؛ ● ابن النديم، الفهرست، تح. رضا تجدّد، ص 89؛ ● الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، ط 2، دار المعارف، ص 117؛ ● الأنباري، نزهة الألباء، تح. عطية عامر، ستكهولم، 1962، ص 149، ترجمة رقم 91؛ ● القفطي، إنباه الرواة على أنباء النحاة، 3/ 54 ترجمة رقم 581، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة دار الكتب المصرية، 1374هـ/ 1954م؛ ● ياقوت الحموي، معجم الأدباء، تح. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، 5/ 2309 ـ 2310، ترجمة رقم 960، ط1، 1993؛ ● الصفدي، الوافي بالوفيّات، دار النشر فرانز شتاينر Franz Steiner بفيسبادن Weisbaden، 2/ 88، ترجمة رقم 402، ط2، 1401هـ/ 1981م؛ ● السيوطي، بغية الوعاة، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، 1/ 48، ترجمة رقم 78، ط2، سنة 1399هـ/ 1979م؛ ● شمس الدين الداودي، طبقات المفسّرين، دار الكتب العلمية، بيروت، 2/ 87، ترجمة رقم 449، ط1، 1403هـ/ 1982م؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون، 2/ 1730، 1899، منشورات مكتبة المثنى، بغداد؛ ● إسماعيل باشا البغدادي، هدية

العارفين، 2/ 31، استانبول 1955، أعادت طبعه منشورات مكتبة المثنى، بغداد؛ ● إسماعيل باشا البغدادي، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، 2/ 342، منشورات مكتبة المثنى، بغداد؛ ● عمر كحّالة، معجم المؤلفين، 2/ 23، دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت؛ ● دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الجديدة (E. I.)، 3/ 861 ـ 862؛ ● شوقي ضيف، المدارس النحوية، ص 246 ـ 248، دار المعارف بمصر، 1968.

د. الشاذلي الهيشري
جامعة منوبة ـ تونس

الخياط، أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد

(ت 300هـ/912م)

عبد الرحيم بن محمد بن عثمان، ويلقب بـ«أبي الحسين» ويكنى بـ«الخياط». متكلّم معتزلي يصفه القاضي عبد الجبار (ت 415هـ) بأنه أحفظ الناس باختلاف المعتزلة في الكلام، وأعرفهم بأقاويلهم [فضل الاعتزال، ص 296]، ويعده ابن المرتضى من الطبقة الثامنة من طبقات المعتزلة (وهي تشمل من مات من المعتزلة في النصف الأخير من القرن الثالث أو أوائل القرن الرابع)، ويصفه بأنه كان فقيها وصاحب حديث [المنية والأمل، ص 174]، كما يصفه الذهبي بأنه من بحور العلم، ويعده رئيس متكلّمي معتزلة بغداد[سير، 4/ 220].

لا نعرف تاريخ ميلاده؛ ومن الصعب تخمينه لأنه عاش النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد، وعلى الأرجح توفّي بعد سنة 300هـ/ 912م بقليل، كما يذهب نيبرك Nyberg في مقدمته لكتاب الانتصار والرد على ابن الريوندي، القاهرة، 1925، بينما قال بروكلمان «لعلّه توفي حوالي نهاية القرن الثالث الهجري» [4/ 29]، ويشير الزركلي [الأعلام، 4/ 122] إلى أنه توفي نحو 300هـ/ 912م.

والخياط، كما نستخلص من تاريخه، نشأ وترعرع وتعلّم وانتسب إلى الاعتزال في بغداد، حتّى أصبح واحدًا من أبرز شيوخ المعتزلة في الطبقة الثامنة منهم، تبعًا لابن المرتضى [المنية والأمل، ص49]، وكان أخذ العلم من جعفر بن مبشر (ت 234هـ/ 848م)، من معتزلة بغداد، كذلك عن عيسى بن الهيثم المعروف بعيسى الصوفي (وهو مجهول لدينا)، وهذا الأخير هو من الذين أخذوا الاعتزال من جعفر بن حرب (ت 236هـ/ 850م)، وأبي الهذيل العلاف (ت 226هـ/ 840م)، وكلاهما من معتزلة البصرة. . ذكر الشهرستاني كذلك [الملل، 1/ 53] أن الخياط لازم أحمد بن علي الشوطي في صحبة عيسى الصوفي ثم لزما معا أبا مجالد، وهذا

الأخير هو أحمد بن الحسين البغدادي، تلميذ جعفر بن بشر وأستاذ الخياط، وهو من معتزلة بغداد تتلمذ على أبي موسى المردار والجعفرين (جعفر بن بشر، وجعفر بن حرب). كما يذكر البلخي [مقالات، ص 74]، والشهرستاني [الملل، 1/ 34 ـ 35] أن الخياط صحب أبا عيسى بن الهيثم الصوفي، وكذلك أبا بكر محمد بن سعيد بن زرعة بنيسابور، ورافقه في هذه الصحبة لهذين الأستاذين أحمد بن أبي علي الشطوي.

على أنّ المرتضى [المنية والأمل، ص 45] ذكر أنه صحب أبا الهذيل العلاف، ولكن هذا الأمر مستبعد تاريخيا، لأنّ العلاف توفّي ـ على الأرجح ـ عام 235م.

ويشير الخطيب البغدادي أنّ الخياط سمع من يوسف بن موسى القطان [تاريخ، 11/ 87]. يقرر البلخي الكعبي (ت 319هـ)، وهو أوّل مصنّف لطبقات المعتزلة، أنه تتلمذ على يدي أبي الحسين الخياط [مقالات، ص74]، وهو من أبرز تلاميذه، احتلّ مقام الرئاسة في معتزلة بغداد، واعتبره النيسابوري المتحدّث باسم معتزلة بغداد في كتابه «مسائل الخلاف بين البغداديين والبصريين». ومن تلاميذه أبو عبد الله محمد بن عمر الصيمري ذكره القاضي عبد الجبار ضمن الطبقة العاشرة [فضل الاعتزال، ص 301]، وذلك قبل تلمذته على يدي أبي علي الجبائي.

وقد ذكر سزكين أن أبا علي الجبائي من تلاميذه، ولكن هذا غير صحيح، لأنّ أستاذ أبي علي هو أبو يعقوب الشحام الذي انتهت إليه رئاسة المعتزلة، وقد حلّ الجبائي محل أستاذه في رئاسة المعتزلة بعد وفاته عام 267هـ.

ومن تلامذه فيما يذكر ابن المرتضى [المنية، ص 45] عبد الله ابن أحمد. وقد روى القاضي عبد الجبار أن الخياط قد حكى أنه كان يختلف إليه أرباب المذاهب المختلفة للدراسة على يديه، فكان ممّن يختلف إليه أبو العباس بن سريح وهو من شيوخ الشافعية [السبكي، طبقات الشافعية، 2/ 89]، وابن منتاب المعروف بـ«الكرابيسي» من فقهاء المالكية، والإيادي من فقهاء الظاهرية.

والخياط كان رئيسا لفرقة من معتزلة بغداد تدعى بـ«الخياطية»، وسمّي هو وأصحابه بـ«المعدومية» لقولهم بـ«شيئية المعدوم» [الصفدي، الوافي، 1/ 685؛ الشهرستاني، الملل، 1/ 97].

وقد عاصر الخياط مجموعة من المعتزلة: أمثال أبي علي الجبّائي (ت 303هـ/ 915م)، وعبد الله بن محمد الناشي (ت 293هـ/ 905م). أغلب الظن أنّ شخصية أبي الحسين الخياط اختلطت أحيانا بشخصية أبي الحسن بن زفرويه (وقد يعرف غلطا بفرزويه) وهذا الأخير مؤلف كتاب المشايخ [ابن المرتضى، المنية 45، 47] والمعروف عنه أنه كان من أتباع أبي علي الجبائي. وكان بين الخياط والجبّائي (الأب) منافسة واضحة كشيخين لمعتزلة بغداد والبصرة. ومن جهة أخرى نلاحظ هنا أنّ الجبّائي كان «يفضّل البلخي على أستاذه أبي الحسين الخيّاط» [ابن المرتضى، المنية 49].

ولغرض معرفة منهج الخياط في تأليفه كتاب الانتصار من جهة، ولبيان فلسفته المعتزلية بعامة، نجد كلّ تفصيلات ذلك في الرد على أصل كتاب «فضيحة المعتزلة» لابن الريوندي [انظر مادة ابن الريوندي في هذه الموسوعة]، الذي كتبه أصلا للردّ على أبي عثمان الجاحظ (ت 255هـ/ 868م) في كتابه «فضيلة المعتزلة» حيث نلاحظ مسألتين:

الأولى، أنّ الخياط كان خصما قاسيا ومكفّرا لابن الريوندي في جملة أقواله التي نقلها عنه بخصوص المعتزلة، وهذا الانحياز أضرّ بمنهجه كثيرا لأنه لم يكن قاصدًا الحجة بقدر ما قصد إلى الطعن.

الثانية، أن الخيّاط كان متعصبا شديد التعصّب على متشيعة بغداد من المعتزلة، وليس على ابن الريوندي وحده، وهنا يظهر الخياط مدافعا عن الاعتزال السنّي أكثر مما هو جدلي من أجل ترسيخ عقيدة المعتزلة بعامة.

ونحن لا نستطيع اليوم، وبعد مرور ما يقارب من ثمانين عامًا على نشر كتاب الانتصار للخياط أن نصل إلى الحقائق التي اختلف فيها الخياط مع ابن الريوندي [انظر كتاب: Al-A'asam: Ibn an-Riwandi's Kitab Fadihat al Mu'Tazilah, Beyrouth - Paris 1975-1977, 47-52].

ومن أهم أخطاء فلسفة الخياط في صلب كتاب «الانتصار»، أنه حاول الكذب والافتراء والتزييف والتزوير على كل أقوال ابن الريوندي، ليس في الحجة والبرهان؛ بل بالشتم والاتّهام ونعته بالصفات التي تخرجه ليس من المعتزلة بل من الإسلام، فاتّهمه بالإلحاد والزندقة والمروق عن الدين، وفات الخياط أن مجمل رجال المعتزلة إنّما كانوا يتجادلون على وفق منهج ابن الريوندي، سواء في ذلك الكبار منهم كالعلّاف، والنظام، والجاحظ؛ أو المغمورين منهم مثل أبي مجالد، وأبي زفر وغيرهما.

إن مسألة المسائل في كتاب «الانتصار» للخياط هي هذه القدرة الفائقة التي تمتع بها الخياط لإلباس ابن الريوندي كل أخطاء المعتزلة الذين انتقدهم هذا الأخير، حتّى يحسب المرء أنّ كتاب «الانتصار»، ليس وثيقة دفاع جدلية عقلية في الاعتزال، بل إنه وثيقة اتّهام لمن هم خالفوا القواعد التي رآها الخياط صحيحة، وهي تعبّر عن فكره وذاته قبل أن تعبّر عن آراء الآخرين، وأراد الخياط بحماس شديد أن يثبّت الأصول الخمسة للمعتزلة:

- القول بالتوحيد؛ - القول بالعدل؛ - القول بالوعد والوعيد؛ - القول بالمنزلة بين المنزلتين؛ - القول بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

إلى حدّ أنه وصف المعتزلة بأنّه «ليس يستحق أحد منهم اسم الاعتزال حتّى يجمع القول بالأصول الخمسة» [الانتصار، القاهرة 51، بيروت 93]، لكن المشكل في جدليات الخياط مع ابن الريوندي في النصوص الكثيرة التي عرضها هذا الأخير [Al-Aasam, pp. 105 - 167] أنها تناولت جزئيات كثيرة تقع في جزئيات الكلام، ومن الممكن التعرّف على هذه المسائل

[الانتصار، القاهرة 3 ـ 8، بيروت 151 ـ 156].

ومن نافلة القول، بأنّ فلسفة الاعتزال قامت أساسا على ما وصل إلينا من شذرات «فضيحة المعتزلة» وردود الخياط عليها في كتاب «الانتصار»، وسنجد كل المعنيين فيما بعد بعلم الكلام الاسلامي في الاعتزال أو الردود عليه إنّما يعتمدون على هذه الأصول في الخاص والعام على حد السواء، وأمثلة ذلك كثيرة في كتب الفرق، والملل، والنحل، وأصول الدين وغيرها من كتب الكلام، حيث نجد تفاصيل هذه الأقوال، التي كادت تندثر في مرجعيات المعتزلة أو تُحَرَّفُ في كتب خصومهم، لأنها ستكون الفيصل في حسم موضوع كل هذا الجدل العقلي الديني في الاسلام.

وإذا كان الخياط قد تابعته جماعة المعتزلة المعروفة بالخياطية، فقد طوّر مع معاصره من معتزلة البصرة الشحّام المعتزلي، وأتباعه يعرفون بالشحامية [Al-Aasam, 48, nº 79] طوّر تنظير القول بالخَلْق من عدم، وبوجود «المعدوم» [جار الله، المعتزلة، 58 ـ 148]، وهو إشكال فكري عند المعتزلة والمدارس الكلامية الأخرى، كما هو من المسائل الغامضة عند الفلاسفة. يرى الخياط ومن ذهب مذهبه أنّ المعدومات الممكنة قبل دخولها في الوجود هي ذوات وأعيان وحقائق، وغالى الخياط في إثبات المعدوم شيئا [الرازي، محصل، ص37]، وقال الشيء هو ما يعلم ويخبر عنه [الشهرستاني، الملل، 1/ 76] مستفيدا من المعنى اللغوي للشيء، ومن ثم يكون الشيء عند الخياط (ومن وافقه من المعتزلة) هو المعلوم [الجرجاني، شرح المواقف، ص 107؛ الأشعري، مقالات، 1/ 241، 2/ 202]، وهكذا يوسع الخياط دائرة الإثبات لتشمل الوجود العيني والذهني، لأنّ الثبوت عند المعتزلة ـ عامّة ـ أعم من الوجود حيث يشمل الموجود والمعدوم معا، فيكون الثبوت عندهم أعم من الوجود العيني [الشهرستاني، نهاية الأقدام، ص152]، ومن ثم ينتهي الخياط إلى القول بأنّ معنى أنّ الله شيء هو إثباته [الأشعري، مقالات، 1/ 203].

ومن الآراء التي اختلف فيها مع بعض أعلام المعتزلة: رأيه في الأفعال المتولّدة: وتأكيدا للمسؤولية الإنسانية يؤكّد الخياط على أن الأفعال المتولّدة أي التي تتولّد عن الفعل المباشر هي من فعل الفاعل المباشر، رافضا بذلك رأي بعض معتزلة البصرة في القول بأنّ الأفعال المتولّدة أفعال لا فاعل لها، وهو بهذا يؤكّد مسؤولية الإنسان عن أفعاله المباشرة وما يتولّد عنها من أفعال [الانتصار، ص76 ـ 78].

آثاره

1 ـ الانتصار والرد على ابن الريوندي الملحد، تنفرد دار الكتب المصرية بالنسخة المخطوطة الوحيدة في العالم، برقم 852 التوحيد، التي أعدّها للنشر، مع مقدّمة وتعليق هـ. س. نيبرك (H. S. Nyberg) وطبعها في القاهرة سنة 1925م. وقد أعاد نشر الكتاب ألبير نصري نادر في بيروت، مع تصرّف غير مدروس في حذف مقدّمة نيبرك، مع ترجمة فرنسية للكتاب برمته بما فيه ترجمة مقدّمة

نيبرك ظهرت في طبعة مزدوجة في المطبعة الكاثوليكية بيروت 1957؛ 2 ـ كتاب الاستدلال، ذكره القاضي عبد الجبار [المحيط، ص167]، والذهبي [سير، 4/ 220]؛ 3 ـ كتاب الرد على من قال بالأسباب، ذكره الذهبي [سير، 4/ 220]، وهذا العنوان قد يوهم بأنّ الخياط قد أنكر السببية، وهذا غير صحيح، فهو يؤكّد على السببية، ويقول بـ «الحتمية»، ولم يذكر هذا الكتاب غير الذهبي؛ 4 ـ نقض كتاب التاج، وكتاب «التاج» كتاب بطل فيه ابن الريوندي القول بـ «حدوث العالم»، ونفى القول بـ «خالق قديم»، متبنّيا فيه مذهب الدهرية [الخياط، الانتصار، ص 172 ـ 173]؛ 5 ـ نقض كتاب الزمرد، وموضوعه فيما أشار الخياط يدور حول الطعن في معجزات الأنبياء، وكذلك الطعن في القرآن، وجعل فيه بابا «على المحمدية خاصّة» [الانتصار، ص2، 155]، كما ذكر ابن النديم [الفهرست، هوتسما، ص5] وابن المرتضى [طبقات، ص85] نقض الخياط لهذا الكتاب؛ 6 ـ نقض كتاب الفرند، ذكره القاضي عبد الجبار [تثبيت دلائل النبوّة، 1/ 51]، وابن الجوزي [المنتظم، 6/ 99]؛ 7 ـ نقض كتاب قضيب الذهب، ذكره ابن النديم [الفهرست، قطعة هوتسما، ص5]؛ 8 ـ نقض كتاب «عبث الحكمة»، نقض الخياط ما ذهب إليه ابن الريوندي في الطعن في الحكمة الإلهية [القاضي عبد الجبار، تثبيت دلائل النبوة، 1/ 51؛ ابن الجوزي، المنتظم، 6/ 99]، ويرى نيبرج أنّ كتاب «عبث الحكمة» هو بعينه كتاب ابن الريوندي «التعديل والتجوير»، لاتفاقهما في الموضوع [مقدمة تحقيقه لكتاب الانتصار للخياط، ص37]، وقد ذكر الذهبي نقد الخياط لهذا الكتاب تحت عنوان «نقض نعت الحكمة» [سير، 4/ 220]، والصحيح «عبث الحكمة».

المصادر والمراجع

● ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، دار إحياء التراث العربي، بيروت د.ت، ج1؛ ● ابن الأثير، اللباب في تهذيب الأنساب، طبعة القاهرة، 1357هـ، ج1؛ ● ابن الجوزي، المنتظم في التاريخ، حيدر أباد الدكن، 1938م، ج6؛ ● ابن حجر، لسان الميزان، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، 1407هـ/ 1987م، ج4؛ ● ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل للشهرستاني، دار المعرفة، بيروت، مصورة عن النسخة الأصلية د.ت، ج5؛ ● ابن المرتضى، المنية والأمل في شرح الملل والنحل، تصحيح توما أرنولد، دار المعارف النظامية، حيدر أباد الدكن، الهند، 1320هـ/ 1902م، تح. محمد جواد مشكور، دار الفكر، بيروت؛ ● نفسه، طبقات المعتزلة، تح. سوسنة ريفلد فلزر، بيروت 1961م؛ ● ابن النديم، الفهرست، بيروت 1934م، وقطعة هوتسما؛ ● أبو القاسم البلخي، باب ذكر المعتزلة من مقالات الإسلاميين، ضمن كتاب فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، اكتشف المخطوطات وحققها فؤاد السيد،

الدار التونسية للنشر، تونس 1974م؛ ● البغدادي، الفرق بين الفرق، دار الآفاق الحديثة، بيروت، الطبعة الأولى، 1393هـ/ 1973م؛ ● الإسفراييني، التبصير في الدين، تح. كمال الحوت، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى 1403هـ/ 1983م؛ ● الأشعري، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تح. محمد محيي الدين عبد الحميد، نهضة مصر، القاهرة، الطبعة الثانية 1969م؛ ● الجرجاني، شرح المواقف، مطبعة بولاق، مصر 1266هـ؛ ● الخياط، الانتصار والرد على ابن الريوندي، ما يقصد به من الطعن على المسلمين، تح. نيبرج، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة 1344هـ/ 1925م؛ ● الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية، بيروت، ج11؛ ● الذهبي، سير أعلام النبلاء، تح. أكرم البوشي، ج4، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة التاسعة، 1413هـ/ 1993م؛ ● الرازي، محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء، المطبعة الحسينية، مصر د.ت؛ ● السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، القاهرة 1324هـ، ج2؛ ● الشهرستاني، نهاية الأقدام في علم الكلام، حرّره وصحّحه الفرد جيوم، القاهرة د.ت؛ ● نفسه، الملل والأهواء والنحل لابن حزم، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، أعيدت بالأوفسيت، 1395هـ/ 1975م؛ ● الصفدي، الوافي بالوفيات، باعتناء س. ويدرينغ، دار نشر فرانز شتاينر بفيسبادن، ج1، الطبعة الثانية، 1401هـ؛ ● القاضي عبد الجبار، فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، اكتشف المخطوطة وحققها فؤاد السيد، الدار التونسية للنشر، تونس 1974؛ ● القاضي عبد الجبار، المحيط بالتكليف، جمع الحسين بن أحمد بن متويه، تح عمر السيد عزمي، ومراجعة أحمد فؤاد الأهواني، الدار المصرية للتأليف والتراجمة والنشر، القاهرة 1965م؛ ● القاضي عبد الجبار، تثبيت دلائل النبوة، تح. عبد الكريم عثمان، بيروت 1966م؛ ● النيسابوري، مسائل الخلاف بين البغداديين والبصريين، تح. معن زيادة ورضوان السيد، بيروت 1979م؛ ● صبحي، أحمد، في علم دراسة فلسفية لآراء الفرق الكلامية في أصول الدين، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، الطبعة الرابعة 1982م، ج1؛ ● الأعسم، عبد الأمير، تاريخ ابن الريوندي الملحد، بيروت 1975؛ ● ابن الريوندي في المراجع العربية الحديثة، مجلّدان، بيروت 1977، 1978؛ كذلك بالأنكليزية كتابه - Ibn an-Riwandi's Kitab Fadihat al Mu'tazilah, Beyrouth - Paris 1975-1977; Passim, esp. 416 index. ● بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، 4/ 29 ـ 30؛ كذلك الأصل، Brockelmann, suool., I, 341؛ ● جار الله، زهدي، المعتزلة، القاهرة 1947،

58 ـ 59؛ ● الزركلي، الأعلام، 4/ 122؛ ● ريتر، تنظر مقالته في مجلة الإسلام Ritter, H.: I. 38, 1929؛ ● العقيقي، نجيب، المستشرقون، 3/ 889؛ ● نيبرك، هـ.س، مقدمة كتاب الانتصار، القاهرة 1925؛ وقارن الترجمة الفرنسية Le livre du triomphe, préface, pp. XV ff.

د. عبد الأمير الأعسم
بيت الحكمة ـ بغداد
د. محمد صالح محمد السيد
جامعة المنيا ـ مصر

الخياط، أبو محمد عبد الله بن علي

(464هـ/1072م ـ 541هـ/1146م)

عبد الله بن علي بن أحمد بن عبد الله، البغدادي، أبو محمد، ولد في بغداد، ونشأ في أسرة علمية، فجدّه لأمّه شيخ الإسلام، الإمام المقرئ، الزاهد، الشيخ أبو منصور الخياط البغدادي، محمد بن أحمد بن علي (ت 499هـ)، أقرأ السنين الطويلة، وختم القرآن عليه ألوف من الناس، وروى الحديث الكثير، وكانت له كرامات، وله كتاب «المهذب في القراءات» [المنتظم، 17/ 96؛ سير الذهبي، 19/ 222؛ معرفة القراء، 457؛ غاية النهاية، 2/ 74].

وأخوه الحسين بن علي أبو عبد الله المقرئ المحدّث (ت 537هـ) المعروف بابن بنت الشيخ أبي منصور الخياط، قرأ عليه القرآن وحدّث عنه جماعة، وهو أسنّ من أخيه [م. س].

تلقّن أبو محمد القرآن من شيخه علي بن المبارك بن علي بن الفاعوس البغدادي، أبي الحسن (ت 521هـ)، الفقيه، الزاهد، العابد، القدوة [المنتظم، 7/ 10؛ سير الذهبي، 19/ 521]، وأخذ علوم العربية والادب على أبي الكرم، المبارك بن فاخر النحويّ البغدادي، المعروف بابن الدبّاس (ت 505هـ) [نزهة الألباء، 382] ولازمه نحوا من عشرين سنة، قرأ عليه فيها: «كتاب سيبويه»، وشرحه للسيرافي، و«المقتضب» للمبرّد، و«الأصول» لابن السرّاج، و«المحتسب» لابن جنّي، [نزهة الألباء، 402؛ سير الذهبي، 20/ 133].

وقرأ القراءات على جدّه أبي منصور الخياط، وأبي الخطاب بن الجرّاح، علي بن عبد الرحمٰن البغدادي، (ت 497هـ)، وأبي المعالي ثابت بن بندار البقّال (ت 498هـ)، وأبي البركات محمد بن عبد الله الوكيل (ت 499هـ)، ويحيى بن أحمد السيبي (ت 490هـ)، وأبي طاهر بن سوار، أحمد بن علي البغدادي (ت 496هـ)، وأبي العز

القلانسي، محمد بن الحسين الواسطي، مقرئ العراق (ت 521هـ)، والشريف عبد القاهر بن عبد السلام العباسي المكّي، النقيب المقرئ (ت 493هـ)، وأبي الغنائم محمد بن علي الكوفي النرسي، المعروف بأبيّ، لجودة قراءته (ت 510هـ) وابن بدران الحلواني، أحمد بن علي البغدادي (ت 507هـ)، وغيرهم.

وسمع الحديث من أبي الحسين أحمد بن محمد بن النقور البغدادي (ت 470هـ)، ورزق الله بن عبد الوهاب التميمي البغدادي (ت 488هـ) الإمام، المقرئ، الفقيه، اللغوي، المفسّر، وطراد بن محمد بن علي القرشي الهاشمي الزينبي، البغدادي، مسند العراق، نقيب النقباء (ت 491هـ)، وأبي منصور محمد بن محمد العكبري (ت؟)، وأبي الخطّاب نصر بن أحمد بن عبد الله بن البطر، البغدادي، البزّاز، المقرئ، المحدّث (ت 494هـ)، وآخرين [المنتظم، 18/ 51؛ سير الذهبي، 20/ 130؛ معرفة القراء، 491؛ غاية النهاية، 1/ 434].

تمكن أبو محمد بما تلقّى عن شيوخه من علوم القرآن والحديث والعربية، وبما زاول من نشاط في الإقراء والتدريس والتصنيف أن يحقق لنفسه منزلة رفيعة في نفوس معاصريه، ومن جاؤوا بعدهم من المشتغلين بالعلم وتاريخ الرجال، فكثر تلاميذه وتحلّق الناس حوله يأخذون عن القراءات وعلوم العربية، وتخرّج عليه خلق كثير، فسار ذكره في الآفاق ووصف بـ «الأستاذ البارع» و«شيخ الإقراء ببغداد»، و«رئيس المقرئين في عصره»، و«أحد الذين انتهت إليهم رئاسة القراءة علما وعملا، والتجويد علما وعملا وطربا»، كما وصف بأنه «كان إماما في اللغة والنحو جميعا»، بل كان «من كبار أئمة اللغة» [م. س].

قال عنه الذهبي: «كان إماما محققا، واسع العلم، متين الديانة، قليل المثل، وقد أقرأ بمسجد ابن جردة بحريم الخلافة ببغداد، وأم الناس به بضعا وخمسين عاما، حتى وفاته فيه عام 541هـ [م س] وكان هو يقول: لو قلت إنه ليس مقرئ بالعراق إلّا وقد قرأ عليّ أو على جدّي أو قرأ على من قرأ علينا، لكنت أظنني صادقا [نزهة الألباء، 402].

ولأن رواية القراءات والاشتغال بها، والخوض فيها أمر ينطوي على غير قليل من الإشكال واللبس، وقدر من الحرج الذي وقع فيه بعضهم، وانتقد بسببه عدد من القراء والرواة والعلماء، وامتحن فيه نفر منهم تعرّضوا للأذى والقهر على نحو ما وقع لابن مقسم المقرئ (ت 328هـ) فقد تعرّض أبو محمد أيضا إلى شيء من هذا في علمه. فقد نقل الذهبي وغيره أنه خولف في بعض تصانيفه في القراءات، وشنّعوا عليه، قال: ثم سمعت أنه رجع عن ذلك [سير الذهبي، 20/ 633؛ معرفة القرّاء، 496].

إلى جانب ما وهب أبو محمد من ذكاء وفطنة وثروة علمية غزيرة، رزق أيضا شخصية محبّبة مهيبة، فقد وصف بأنه كان لطيف الأخلاق، ظاهر الكياسة والظرافة، حسن المعاشرة للعوّام والخواص، متواضعا متوددا، وكان أكابر العلماء، وأهل البلاد يقصدونه، فقد كان حسن القراءة في المحراب، لا سيّما في ليالي رمضان، إذ يحضر الناس عنده لاستماع قراءته، فهو أطيب أهل زمانه صوتا بالقرآن،

وقد وصف بأنه كان جمال العراق بأسره [غاية النهاية، 1/ 435؛ نزهة الألباء، 402].

عمّر أبو محمد طويلا، وقرأ عليه خلق كثيرون، إذ اجتذبت شخصيته وعلمه جموع الدارسين، وقد كتب لنفر من هؤلاء أن يكونوا أعلاما في تاريخ العلوم الإسلامية مشاركين في الاقراء والتصنيف منهم:

أبو البركات الأنباري النحوي، كمال الدين عبد الرحمٰن بن محمد (ت 577هـ) صاحب كتاب «الإنصاف في مسائل الخلاف» وقد قرأ النحو على أبي محمد، وأبو الفرج عبد الرحمٰن بن الجوزي (ت 597هـ) المحدّث، المؤرخ، وأبو سعد السمعاني، عبد الكريم بن محمد (ت 562هـ) صاحب كتاب «الأنساب»، وأبو اليمن الكندي، زيد بن الحسن (ت 613هـ) العلّامة تاج الدين البغدادي، المقرئ، النحوي، شيخ القرّاء والنحاة بدمشق، وهو آخر من روى عنه القراءات، وقرأ عليه أيضا النحو، وحمزة بن عليّ المعروف بابن القبيّطي (ت 602هـ)، وزتهر بن رستم، أبو شجاع الأصبهاني، المقرئ الفقيه (ت 609هـ)، ونصر الله بن علي، أبو الفتح بن الكيّال، الواسطي، المقرئ، الفقيه، شيخ الإقراء بواسط (ت 586هـ)، وأبو شجاع بن المقرون البغدادي، محمد بن أبي محمد (ت 597هـ)، ومحمد بن محمد بن هارون الحلّي، المعروف بابن الكال (ت 597هـ)، والمبارك بن المبارك، أبو جعفر الحدّاد، المقرئ (ت 596هـ) وعبد الوهاب بن عليّ الإمام أبو أحمد بن سكينة، البغدادي، المقرئ، الصوفي، شيخ العراق في عصره (ت 607هـ)، ومحمد بن يوسف الغزنوي، الإمام شهاب الدين، أبو الفضل، المقرئ الحنفي (ت 599هـ)، وعبد الواحد بن عبد السلام بن سلطان، أبو الفضل الأزجيّ المقرئ (ت 604هـ)، وهؤلاء جميعا أخذوا عنه القراءات ورووها عنه وأقرأوا مصنّفاته فيها.

توفي أبو محمد في الثامن عشر من ربيع الآخر، عام 541هـ في غرفته التي بمسجده، مسجد ابن جردة، بحريم الخلافة ببغداد، وأخرج إلى جامع القصر، فصلى عليه الشيخ عبد القادر الجيلي (ت 561هـ)، قال ابن الجوزي: رأيت أيام جماعة من الأكابر فما رأيت أكثر جمعا من جمعه. ودفن في دكّة الإمام أحمد بن حنبل عند جدّه أبي منصور.

آثاره

وضع أبو محمد طائفة من المصنفات في القراءات، رزقت حظّا وافرا من الذيوع والانتشار، وتداولها الدارسون في حياة مصنّفها وبعد وفاته، وصار بعضها موارد لمن ألّف بعده في القراءات، مثل ابن الجزري (ت 833هـ) في «النشر في القراءات العشر» وفي «غاية النهاية في طبقات القرّاء»، ويتضح هذا لمن تصفّح كتب طبقات القرّاء وأخبارهم وسيرهم، حيث تلقانا أسماء مصنفاته في سياق الحديث عمّن أقرأها أو قرأ بها على الشيوخ المعروفين. قال ابن الجوزي عنه: صنّف كتبا في القراءات وقصائد [المنتظم، 18/ 51]. ومن مصنفاته:

1 ـ الاختيار في اختلاف العشرة أئمة الأمصار (خ) كوبريلي 10؛ 2 ـ إرادة الطالب

وإفادة المواهب في القراءة، ذكره إسماعيل البغدادي، وهو فرش القصيدة المنجدة في القراءات كما في كشف الظنون، 52 وهو من مصادر النشر، 84، 3 ـ الإيجاز، في القراءات السبع وهو من مصادر النشر، 83؛ 4 ـ التبصرة، تبصرة المبتدئ وتذكرة المنتهى في القراءات وهي من مصادر النشر، 84؛ 5 ـ الروضة، في القراءات؛ 6 ـ الشمس المنيرة؛ 7 ـ القصيدة المنجدة، في القراءات العشر؛ 8 ـ الكفاية، في القراءات الستّ التي قرأها الشيخ أبو القاسم هبة الله بن أحمد بن عمر الطبري البغدادي (ت 531هـ)؛ 9 ـ المؤيدة للسبعة، قصيدة؛ 10 ـ المبهج في القراءات الثماني، وقراءة ابن محيصن والأعمش وخلف واليزيدي، وهو أشهر مصنفاته، ألّفه جامعا للروايات التي قرأ بها على شيخه الشريف عبد القاهر العباسي (ت 493هـ) بالمدرسة النظامية ببغداد. وقد قرأه الطلبة عليه في حياته، وعلى تلاميذه بعد موته، وأشهر من رواه عنه تلميذه أبو اليمن الكندي (ت 613هـ) وهو من مصادر النشر، 83؛ 11 ـ الموضحة في العشرة، قصيدة.

المصادر والمراجع

● القفطي، إنباه الرواة، تح. محمد أبو الفضل ابراهيم، دار الكتب المصرية، القاهرة 1954م؛ ● السمعاني، الأنساب، دار الجنان، بيروت، 1988م؛ ● ابن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، ط2، مكتبة المعارف، بيروت، د ت؛ ● بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ط. ليدن، 1937م؛ ● شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، ط 2، مؤسسة الرسالة، ببيروت 1982م؛ ● ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، دار إحياء التراث، بيروت (مصورة)؛ ● الذهبي، العبر في أخبار من غبر، تح. صلاح الدين المنجد، وزارة الإرشاد، الكويت 1963م؛ ● ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، تح. برجشتراسر، مكتبة الخانجي، القاهرة 1932م؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون، طبعة استانبول، مصورة مكتبة المثنى ببغداد؛ ● الذهبي، معرفة القرّاء الكبار، تح. بشّار عوّاد معروف وزميليه، مؤسسة الرسالة، بيروت 1984؛ ● ابن الجزري، مناقب الإمام أحمد بن حنبل، دار الآفاق الجديدة، بيروت 1973م؛ ● ابن الجوزي، المنتظم، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992م؛ ● الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تح. محمد الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر؛ ● ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، تح. محمد علي الضباع، المكتبة التجارية، القاهرة؛ ● البغدادي، اسماعيل باشا، هدية العارفين، وكالة المعارف، استانبول.

د. صاحب جعفر أبو جناح
جامعة صنعاء ـ اليمن

■ الخياط، أبو علي يحيى بن غالب بن محمد

(ت 250هـ/864م) ■ ■ ■

أبو علي يحيى بن غالب بن محمد البغدادي الخياط، المعروف باسم يحيى الخياط الفلكي. عاش الخياط في القرن الثالث الهجري، وكان من تلاميذ ما شاء الله، وكان من أفاضل المنجمّين وعلماء الفلك. واختلف المترجمون بتاريخ وفاته، إذ يرى بروكلمان أنه توفي في سنة 240هـ.

■ آثاره

أشار النديم في كتابه الفهرست أن للخياط عشرة كتب:

1 ـ كتاب المدخل؛ 2 ـ كتاب المعاني؛ 3 ـ كتاب الدول؛ 4 ـ كتاب المنثور، عمله ليحيى بن خالد؛ 5 ـ كتاب النكت؛ 6 ـ كتاب قضيب الذهب؛ 7 ـ كتاب تحويل سني العالم؛ 8 ـ كتاب تحويل سني المواليد، ترجم إلى اللاتينية؛ 9 ـ كتاب فوائد فلكية؛ 10 ـ كتاب المسائل؛ 11 ـ كتاب المواليد؛ 12 ـ كتاب سر الأعمال، يوجد نسخة في برلين برقم 5876؛ 13 ـ كتاب المسائل في أحكام النجوم، ويتألّف من قسمين، الأوّل في المسائل من عام 1073هـ، والثاني في الكلام على الأحكام البسيطة، يوجد نسخة منه في مكتبة البلدية بالإسكندرية برقم ن/ 52/ 36/ج.

■ المصادر والمراجع

● البغدادي إسماعيل، هدية العارفين، 2/ 516؛ ● حميدان، زهير، أعلام الحضارة العربية الإسلامية، وزارة الثقافة، دمشق، 1996، 2/ 530؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، 9/ 204؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، 13/ 219؛ ● النديم، أبو الفرج، الفهرست، تح. رضا تجدد، طهران، ص 335.

د. محمد هشام النعسان
معهد التراث العلمي العربي
حلب ـ سوريا

ابن خياط، أبو عمرو خليفة بن هبيرة

(160هـ/776م ـ 240هـ/854م)

هو أبو عمرو خليفة بن هبيرة بن خليفة خياط العَصفري التميمي البصري الملقب بشباب. محدث ومؤرخ وعالم بالأنساب. كان حافظا عارفا بالتواريخ، وأيام الناس. ويستنتج مما أوردته بعض الأخبار ضمنيا أنه قد ولد في البصرة حوالي سنة (160هـ/ 776م)، وذلك لأنه توفي في سنة (240هـ/ 854م)، وكان في الثمانين من العمر، كما يذكر الذهبي، فلا بد أن ولادته كانت في حوالي سنة (160هـ)، وإن مما يقوي هذا الاستنتاج أن خليفة لم يذكر أنه التقى بجده أبا هبيرة الذي توفي في عام (160م) ولم يرو عنه مباشرة مما يدل على أنه لم يكن قد ولد آنئذ أو أنه كان صغيرا جدا.

نشأ خليفة في بيت علم، فقد كان أبوه من رواة الحديث، روى عنه بعض الأحاديث. كما كان جده أبو هبيرة من أهل الحديث، وقد روى عنه محدثون كبار مثل: عمرو بن منصور، ووكيع بن الجراح، وأبي الوليد الطيالسي، ومسلم بن إبراهيم الفراهيدي أحد شيوخ البخاري.

وقد تأثر خليفة في تكوينه الثقافي بالاتجاهات التي كانت سائدة في البصرة، وكانت هذه المدينة في القرن الثالث الهجري أحد أهم مراكز الثقافة العربية الإسلامية، ولا سيما في ميادين اللغة والحديث والسيرة والتاريخ، ويبدو أن مصادر المعرفة في البصرة قد أشبعت تطلعات خليفة بن خياط الثقافية، فلم يسع للرحلة في طلب العلم في مدن أخرى كبغداد بدليل أن الخطيب البغدادي لم يذكره فيمن وفد عليها لهذا الغرض. ومن يقرأ مؤلفات خليفة بن خياط يلحظ أن معظم الشيوخ الذين روى عنهم كانوا من أهل البصرة، وكان في طليعة هؤلاء الشيوخ يزيد بن زريع. وقد ذكر ابن سعد أنه كان «ثقة حجة كثير الحديث، وتوفي في البصرة سنة ثمانين ومائة، وكان عثمانيا» [ابن سعد، الطبقات، 7/ 289].

تألفت ثقافة خليفة بن خياط من أربعة علوم أساسية يكمل بعضها بعضا وهي: علوم القرآن، والحديث، والتاريخ، والأنساب. وقد أخذ كل علم من هذه العلوم من المبرزين فيها، فكان من شيوخه في علوم القرآن: أبو عمرو بن العلاء، وورقاء بن عمرو. وفي الحديث: يزيد بن زريع، وسفيان بن عيينه، وأبو داؤد الطيالسي، وعبد الرحمٰن بن مهدي. وفي التاريخ: علي بن محمد المدائني، وأبو عبيدة معمر بن المثنى. وفي الأنساب: هشام بن الكلبي، وأبو اليقظان سحيم بن حفص.

كان خليفة منذ مطلع شبابه ذا ولع بعلم الحديث، وكان توجهه الفكري «عثمانيا» وهو الاتجاه الغالب على المحدثين مما سيضعه في

موقف معارض للاتجاهات المؤيدة أو المتعاطفة مع الخارجين على الخليفة عثمان بن عفان مثل الخوارج والشيعة والمعتزلة.

وقد أورد ابن حيان [في أخبار القضاة، 2/ 175] خبرا يشير إلى وقوف خليفة بن خياط مع عدد من وجهاء مدينة البصرة إلى جانب قاضيها أحمد بن رباح، حينما شكته المعتزلة لدى الخليفة الواثق (227هـ/ 841م ـ 232هـ/ 846م). إن هذا الخبر يدل على أن خليفة بن خياط كان آنئذ من وجهاء مدينة البصرة، وأنه على الرغم من تقدمه في السن (يتراوح عمره بين 67 ـ 72 سنة) كان على استعداد لإعلان معارضته لأفكار المعتزلة أمام الخليفة الذي كان يتبنى بقوة مذهب الاعتزال ويضطهد العلماء المعارضين له.

هذا وقد اختلف في توثيقه، فقد قال المديني عنه «شجر يحمل الحديث» [العقيلي، الضعفاء، 4/ 122]، ويعلق ابن عدي على ذلك بقوله: «شباب من متيقظي رواة الحديث، وله حديث كثير، وتاريخ، وكتاب في طبقات الرجال، فكيف يوهن بهذه الحكاية عن عليّ (المديني) فيه. وهو من أصحاب عليّ. ولخليفة الحديث الكثير ما يستغني أن أذكر له شيئا من حديثه. وهو مستقيم صدوق» [ابن عدي، الكامل 2، ورقة 123ب، 124أ].

وروى البخاري في صحيحه عن خليفة بن خياط في ثمانية عشر موضعا.

وقد استفاد كثير من أعلام المؤلفين من كتاب الطبقات لابن خياط كان منهم: ابن سعد في «الطبقات الكبرى»، والبخاري في «التاريخ الكبير»، والرامهرمزي في «المحدث الفاصل»، وابن عبد البر في كتابيه «الاستيعاب في معرفة الأصحاب»، و«القصد والأمم». وأبو نعيم الأصبهاني في كتابيه «حلية الأولياء» و«ذكر أخبار أصبهان»، وابن عساكر في «التاريخ الكبير»، وابن الأثير في «أسد الغابة في معرفة الصحابة»، وابن كثير في «البداية والنهاية»، والذهبي في كل من «تاريخ الإسلام» و«سير أعلام النبلاء» و«تذكرة الحفاظ»، وابن حجر العسقلاني في كل من «تهذيب التهذيب» و«الإصابة في تمييز الصحابة»، وغيرهم [العمري، مقدمته لكتاب الطبقات لابن خياط، ص 64م ـ 65م].

آثاره

1 ـ كتاب الطبقات، تح. كل من سهل زكار بدمشق 1966م، وتوماس كوشينفسكي بمدينة جوتنجن بألمانيا (رسالة دكتوراه) 1967م، وأكرم ضياء العمري بمدينة النجف بالعراق 1967م. وهو يتضمّن تراجم ما يقارب 3375 من الصحابة والتابعين وتابعيهم رجالا ونساء.

وقد بدأ خليفة كتابه بالتحدث عن الرسول ثم أخذ يترجم للصحابة، حتى إذا تحدث عن الأمصار ترجم لصحابة كل مِصْرٍ للتابعين فيه. أما الصحابيات فأفرد لهن بابا خاصا في آخر الكتاب. وهكذا فإن كتاب الطبقات ذو فائدة كبيرة للمحدث والمؤرخ في مجال توثيق الرواة. وقد رتب ابن خياط كتابه على ثلاثة أسس: التنظيم على النسب، وعلى الطبقات وعلى المدن. ويعد ابن خياط أقدم من كتب في هذا المجال، إلى جانب ابن سعد مؤلف كتاب الطبقات الكبرى. ويزيد الخياط على ما ذكره ابن سعد طبقة أو طبقتين ويرجع ذلك

إلى أن خليفة مات بعد ابن سعد بعشر سنوات تقريبا، على أنه يخلي طبقاته من السرد التاريخي الذي يتميز به ابن سعد، إذ إنه أفرد لتاريخ الحوادث كتابا آخر. ويلاحظ أن المؤلفين، وإن اتفقا في منهج التأليف وتصنيف الكتاب إلى طبقات، إلا أنهما يختلفان في نسب بعض الأشخاص إلى هذه الطبقة أو تلك، فبعض الرواة الذين نجدهم عند خليفة في الطبقة التاسعة، نجدهم لدى ابن سعد في السابعة؛ 2 ـ كتاب التاريخ، وهو أقدم كتاب في تاريخ الإسلام العام مرتب على أساس السنين أو ما يعرف بـ «الحوليات»، ويبدأ من الهجرة النبوية وحتى سنة (232هـ/ 846م)، ويقدم لنا الكتاب معلومات عن شمال أفريقية ووقعتي الحرة والزاوية لا نجدها في بقية المصادر، كما يبدي اهتماما خاصا بذكر أسماء الشهداء في الغزوات المهمة، وكذلك يقدم معلومات قيمة عن أسماء الولاة ومن تولى أعمال الشرطة وبيت المال وغير ذلك من الوظائف الإدارية. وقد دقق في ذكره في الحديث خلافا لما جرى عليه في كتاب «الطبقات» من تساهل في الإسناد، والاكتفاء غالبا بتقديم قائمة بمصادره في بداية الطبقات، وبتعداد أسماء من أخذ عنهم مادة كتابه، ولم يذكر الإسناد إلا فيما ندر، عندما يكون ثمة تعارض في الرواية، وعندما لا يريد تحمل مسؤولية الرواية كما يرجح الأستاذ العمري. حقق الكتاب أكرم ضياء العمري عام 1967م. وتحدث الشيخ محمد الفاسي من الرباط عن كتاب تاريخ ابن خياط في مؤتمر المستشرقين الخامس والعشرين في موسكو سنة 1963 م عند حديثه عن بعض المخطوطات النادرة في مراكش؛ 3 ـ كتاب طبقات القراء، ورد ذكره في غاية النهاية في طبقات القراء [1/ 75]، وذكره العسقلاني في التهذيب عند الحديث عن سعيد بن أبي الحسن البصري، فقال: «ذكره خليفة بن خياط في الطبقة الثانية من قراء أهل البصرة» [تهذيب التهذيب، 274]؛ وذكره إسماعيل باشا البغدادي في هدية العارفين [5/ 350]؛ 4 ـ كتاب الزمنى والعرجان والمرضى والعميان؛ 5 ـ كتاب أجزاء القرآن وأعشاره وأسباعه وآياته.

المصادر والمراجع

● ابن خياط، خليفة، كتاب الطبقات، تح. سهيل زكار، دمشق 1966م، وكذلك تح. أكرم ضياء العمري، النجف 1967م؛ ● البستي، ابن حبان، مشاهير علماء الأمصار، القاهرة 1959م، ص 157؛ ● السمعاني، الأنساب، تح. عبد الرحمٰن اليماني، بيروت 1966م، 5/ 225؛ ● ابن خلكان، وفيات الأعيان، تح. إحسان عباس، بيروت 1977م، 2/ 243 ـ 244؛ ● ابن كثير، البداية والنهاية، بيروت 1977م، 10/ 323؛ ● ابن حيان، وكيع، أخبار القضاة، بيروت، د. ت، 2/ 175؛ ● الذهبي، سير أعلام النبلاء، تح. شعيب الأرنؤوط، بيروت، 1989م، 11/ 473 ـ 472؛ ● ابن أبي حاتم الرازي، الجرح والتعديل، حيدر آباد الدكن، 1952م، 3/ 378 ـ 379؛ ● ابن الأثير، اللباب وتهذيب الأنساب، بغداد، د. ت، 1/ 475؛ ● ابن حجر العسقلاني،

تهذيب التهذيب، حيدر آباد الدكن، 1325هـ، 3/ 160 ـ 161؛ ● الزركلي، الأعلام، بيروت، 1979م، 2/ 312؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، دمشق 1957م، 3/ 108؛ ● سزكين، تاريخ التراث العربي، ترجمة فهمي أبو الفضل، القاهرة 1971م، 1/ 298؛ ● مصطفى، شاكر، التاريخ العربي والمؤرخون، بيروت 1978م، 1/ 234 ـ 236؛ ● ناجي، عبد الجبار، إسهامات مؤرخي البصرة في الكتابة التاريخية، بغداد، 1990م، ص 60 ـ 68، 178 ـ 212.

● Wüstenfeld. 57; ● Sezgin. Geschichte des arabisichen Schrifttums, Band I; ● Rosenthat, History 321.

د. محمد عوني عبد الرؤوف
جامعة عين شمس ـ مصر
د. هاشم يحيى الملاح
جامعة الموصل ـ العراق

■ الخياط، محيي الدين بن أحمد

(1292هـ/1875م ـ 1332هـ/1914م) ■■■

محيي الدين بن أحمد بن ابراهيم الخياط، يتّصل نسبه بالإمام الحسين، أديب وشاعر ومؤرّخ ولغوي وشارحٌ.

ولد الخياط في صيدا (جنوب لبنان) من أبوين أميين، ونشأ في بيروت. تلقى علومه الأولى في مدرسة المقاصد الخيرية في صيدا، ثمّ انتقل منها إلى بيروت، وأتمّها في مدارس الجمعية. تتلمذ على الشيخين المعروفين يوسف الأسير (ت 1307هـ/ 1889م)، والشيخ إبراهيم الأحدب (ت 1308هـ/ 1891م).

اختير فيما بعد معلّما في مدرسة المقاصد الخيرية فخرّج أجيالاً من الشباب المثقّف. عُيِّنَ بعد ثماني عشرة سنة من ممارسة التعليم مفتّشًا عامًا لمدارس الجمعية.

كان محيي الدين رائدًا من رواد النهضة الحديثة، تشهد له مؤلفاته التي تركها، وتحكي صفاته أبحاثه التي نثرها في صحف بيروت وغيرها. تناولت مؤلفاته ومصنّفاته الأصول والتاريخ والفقه، فمهّدت الطريق للناشئين ينهلوا من معينه، ويغتذوا من كتبه، ممّا يجعل أمر التحصيل يسيرًا عليهم، وسهل المنال لديهم. قال عنه يوسف إليان سركيس: «نبغ في الآداب حتّى أصبح من خيرة أدباء المسلمين في بيروت».

حرّر الشيخ محيي الدين الخياط في جريدتي «الإقبال»، و«ثمرات الفنون». وُصفت مقالاته ـ على حد تعبير مارون عبود ـ «بأنّها شائقة».

نظم الشعر وهو ابن خمسة عشر عامًا، ولم يكد يصل إلى سنّ العشرين حتّى أصبح معدودا في طليعة الشعراء الذين يشار إليهم بالبنان. وما كاد يبلغ الخامسة والعشرين حتّى طار ذكره في البلاد، وانتشر صيته. معظم قصائده نشرت - في حينها - في الصحف والمجلّات. من غرر قصائده الرائية الشهيرة التي مطلعها: [من الخفيف]

نكّرت بالفضاء ربْعًا ودارًا
فهي تأبى دون الفضاء ديارا

والقصيدة الميمية التي مطلعها: [من البسيط]

بكيتُ حتّى هوى من أنملي القلم
وكدتُ أجري ويجْري والدموع دمُ

ومنها في خطاب الشرق البيت الشهير الذي جرى مجرى المثل حين إعلان الدستور، وهو:
[من الطويل]

فلا نفترق في الدين فالدينُ واحدٌ
ويا شؤمَ شعبٍ فرّقتْه المذاهبُ

عُرف شعره برقته وروعته، بالإضافة إلى متانة الديباجة وحسن السبك. من أشهرِ ما له من شعره قصيدةٌ تحمل عنوان «سوانح وبوارح»، بناها مخمسة على أحرف الهجاء، في كل مخمّس توحّد القصيدة. جاء مطلعها:
[من الوافر]

هيولى الكوْن في صوَر الهباء
إلامَ نجولُ في هذا الفضاءِ

أتبقى يا فناءُ بلا فناءِ؟
أم الأفناءُ سلسلة البقاءِ
أم الإبقاء مُجْلبةُ الفناءِ؟!

ويواصلُ إنشاده إلى أن يقول مخاطبًا الإنسان، وقد رآه خلاقًا مبدعًا يريد أن يطاول خالقه:
[من الوافر]

فسِرْ في الأرض زَهْوًا أو زميلا
فلن تصلَ الجبال الشمَّ طولا

وليسَ لخرْقها تبغي سبيلا
نَعَم حاولتُ فيها المستحيلا
ولكن ذاك حوْلُ الكهرباءِ

ومعظم قصائده - بوجه الإجمال - من الشعر الاجتماعي الراقي. وله في شعره طريقة مستقلّة لم يقلد بها أحدًا من الشعراء الأقدمين، وأسلوبه أقرب إلى الجزالة منه إلى الرقة، فضلاً على المنزع العربي. من روائع شعره قصيدته اللامية التي مطلعها:
[من الطويل]

إليكَ فما تغني القَنا والقَنابلُ
إذا لم يقُمْ بالأمر كافٍ وكافلُ

ومنها البيت المشهور:

وما صولجانُ الملك يدفَعُ أكرة
إذا لَعِبَتْ بالصولجانِ الأسافلُ

وقد جاء في آخرها:

لقد صُغْتُها والشعرُ يشهد أنّني
هجرتُ قوافيه فهنّ قوافلُ

وما تبتغي منّي البلاغةُ إن أكن
بليغًا بعصْر فيهِ ما قل قائلُ

دعوني وشاني والتظاهر لا أرى
فليس يُعاب البدر والبدرُ آفلُ

أصيب بحمى، وهو في عنفوان قوته، فقضت

في أسبوع واحد على حياته، وذلك في بيروت يوم 23 جمادى الأولى عام 1332هـ/ آذار 1914م. احتفلت بيروت بتشييع جنازته، فأقيمت له حفلة تأبين تحدث فيها كبار العلماء والشعراء والأدباء عن مآثره. وممّن رثاه الشاعر الخالد المرحوم معروف الرصافي من قصيدة فريدة: [من الطويل]

عليك العفا بيروت هل لكِ بعدما
ثوى فيكِ محيي الدين من متبصّرِ

فقد كان ركنًا فيكِ للعلم والحِجى
وغرَّ القوافي والكلامِ المحبَّرِ

فتى نابه صلت الجبين مهذّبا
كريم سجايا النفس عفّ الموازرِ

لقد عاش شيخًا في العلوم مقدّما
فما ضرّه أن مات غيرُ معمّرِ

آثاره

ترك الشيخ محيي الدين كتابات نثرية ونظمية، منها:

1 ـ دروس التاريخ الإسلامي، 4 أجزاء، الجزء الأول في السيرة النبوية، والثاني في الخلفاء الراشدين، والثالث في الدولة الأموية والرابع في الدولة العباسية؛ 2 ـ دروس النحو والصرف، جزآن، المطبعة العصرية، بيروت 1910م؛ 3 ـ دروس في الفقه، جزء واحد، بيروت؛ 4 ـ مدخل دروس القراءة، بيروت؛ 5 ـ سوانح وبوارح، بيروت؛ 6 ـ دروس القراءة، 4 أجزاء، بيروت؛ 7 ـ تفسير الغريب من ديوان أبي تمام؛ 8 ـ تفسير الغريب من ديوان ابن المعتزّ؛ 9 ـ تعليق على شرح نهج البلاغة للشيخ محمد عبده.

بالإضافة إلى التأليف في العربية، عرف له نشاط في التعريب، تمثّل في تعريبه رواية «الوطن» أو سلسترة التي وضعها الكاتب التركي نامق بك كمال، صدر في بيروت سنة 1908م.

المصادر والمراجع

● آل جندي، أدهم، أعلام الأدب والفن، مطبعة الاتّحاد، دمشق، 1958م، 2/ 382 ـ 383؛ ● الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط7، 1986م، 7/ 189؛ ● كحالة، معجم المؤلفين، دار المثنى ودار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت، مج 6، 12/ 205؛ ● عبود، مارون، رواد النهضة الحديثة، دار الثقافة، بيروت، ط. جديدة، 1977م، ص 161 ـ 162؛ ● داغر، يوسف أسعد، مصادر الدراسة الأدبية، المكتبة الشرقية، بيروت 1972م، ج 3، ق1، ص403 ـ 405؛ ● سركيس، يوسف إليان، معجم المطبوعات العربية والمعرّبة، دار صادر، بيروت د.ت، 1/ 855 ـ 856.

د. محمد كشاش
الجامعة اللبنانية

الخيالي، أحمد بن موسى شمس الدين

(829هـ/1425م ـ 862هـ/1458م)

أحمد بن موسى شمس الدين الرومي الحنفي المعروف بالخيالي. عالم بالعقيدة. تلميذ المولى خضر بيك بن أحمد باشا المتوفّى سنة 863هـ/ 1458م. درّس في المدرسة السلطانية ببروسية بتركيا ثمّ في أزنيق. وتوفي بها سنة 862هـ/ 1458م.

آثاره

1 ـ تعليقة على المقاصد في علم الكلام لسعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني (ت 791هـ/ 1388م) [حاجي خليفة، كشف الظنون، ص 171]؛ 2 ـ حاشية على أوائل شرح التجريد للطوسي، والمتن هو تجريد الكلام لنصر الدين الطوسي (ت 672هـ/ 1273م)، وهي حاشية السيد الشريف علي بن محمد الجرجاني (ت 816هـ/ 1413م)، وهي «تعليقة على الأوائل» [حاجي خليفة، ص347]؛ 3 ـ حاشية على شرح العقائد، لعلي بن محمّد السيّد الشريف الجرجاني (ت 816هـ/ 1413م) على العقائد العضدية لعضد الدين الإيجي (ت 756هـ/ 1355م) [حاجي خليفة، كشف الظنون، ص 1144]؛ 4 ـ حاشية على شرح العقائد النّسفيّة، لسعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني (ت 791هـ/ 1388م)، ألّفها الخيّالي سنة 862هـ/ 1457م، يقول حاجي خليفة عن هذه الحاشية «وهي مقبولة سلك فيها مسلك الإيجاز يمتحن بها الأذكياء من الطلاب. يقال مأخذه حاشية ابن أبي الشريف القدسي من تلامذة ابن الهمام مات 903» [كشف الظنون، ص 1145]؛ 5 ـ حاشية على شرح وقاية الرواية في مسائل الهداية، في الفقه، والمتن للإمام محمود بن عبيد الله بن ابراهيم المحبوبي الحنفي الشهير ببرهان الشريعة (ت 673هـ/ 1274م)، والشرح للإمام عبيد الله بن مسعود المحبوبي الحنفي (ت 750هـ/ 1349م) [حاجي خليفة، كشف الظنون، ص 2021]؛ 6 ـ شرح العقائد النسفية، وهي لنجم الدين عمر بن محمد النسفي (ت 537هـ/ 1142م). طبع؛ 7 ـ حاشية على منتهى السؤل والأمل في علمي الأصول والجدل، لابن حاجب المالكي (ت 646هـ/ 1248م)، في أصول الفقه [حاجي خليفة، كشف الظنون، ص1857]؛ 8 ـ شرح القصيدة النونية في علم الكلام لخضر بيك بن جلال الدين بن أحمد باشا (ت 863هـ/ 1458م) [حاجي خليفة، كشف الظنون، ص 1348].

المصادر والمراجع

● ابن خلدون، المقدمة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط 3، 1967؛
● سركيس، معجم المطبوعات العربية والمعرّبة، القاهرة، 1928، ص 852 ـ 853؛ ● ابن العماد، شذرات الذهب، 7/ 343؛ ● الشوكاني، البدر الطّالع،

1/ 121 ـ 122؛ ● الشقائق النعمانية، 1/ 152؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون، إستانبول 1941؛ ● البغدادي، اسماعيل باشا، هدية العارفين، استانبول، سنة 1951، 1/ 132؛ ● الزركلي، الأعلام، ط 14، بيروت 1999، دار العلم للملايين، 1/ 262؛ ● كحالة، معجم المؤلفين، دمشق 1376هـ/ 1957م، 2/ 187 ـ 188؛

- Brockelmann (Carl), Geschichte der Arabischen Litteratur, Leiden, Brill, II, 1944, p.; ● art., in Encyclopédie de l'Islam, Ed. 2, Leiden/ Paris, 19, t., p.;

د. مقداد عرفة
الجامعة التونسية

الخيام، أبو الفتح، عمر بن إبراهيم

(439هـ/ 1048م ـ 526هـ/ 1131م)

عمر بن إبراهيم الخيام ـ أبو الفتح. رياضي، وفلكي، وفيلسوف وشاعر.

لا نعرف عن حياته إلّا النزر اليسير، بل بقي تاريخ مولده ووفاته من المسائل الشائكة التي ظلّت موضع جدل كبير حتى استطاع أحد الباحثين الهنود، وهو «سوامي جوقندا تيرثا» تحديد تاريخ ميلاده بسنة 439هـ/ 1048م معتمدا على بعض المصادر التي طبعت مؤخرا مثل كتاب «تتمّة صوان الحكمة» الذي ألّفه أبو الحسن بن زيد البيهقي، أحد معاصري الخيام. ثمّ تمكّن اثنان من الباحثين الروس وهما «روزنفيلد» و«يوشكفيتش» من تحديد تاريخ وفاته معتمدين على حسابات فلكيّة بيّنت أنّ الخيام توفي في الثاني عشر من المحرم سنة 526هـ/ الرابع من ديسمبر 1131م.

أمّا ما تناثر عن الخيام في كتب تلاميذه ومعاصريه فلا يكاد يزوّدنا بشيء عن مراحل حياته الأولى سوى أنّه ولد في نيسابور ـ عاصمة خراسان آنذاك ـ ثمّ ارتحل وهو في ريعان الشباب إلى بخارى في بلاد ما وراء النهر، وألّف حين بلغ الخامسة والعشرين كتابه الكبير «رسالة في الجبر والمقابلة» وقدّمه هديّة إلى قاضي سمرقند أبي طاهر السمرقندي الذي يبدو أنّ الخيام كان يعيش حينذاك في كنفه.

وكانت قد راجت بين الناس قصّة عرفت بقصة الأصدقاء الثلاثة: عمر الخيام، ونظام الملك، والحسن بن الصبّاح، مفادها أنّ ثلاثتهم كانوا من سنّ واحدة، وقد تلقوا تعليمهم الأوّلي سويا، وتعاهدوا فيما بينهم على أن يساعد كلّ منهم صاحبيه. وقد أبرّ نظام الملك بوعده حين تولّى وزارة السلاجقة فساعد الخيام على تنفيذ مشروعاته العلميّة وأسند وظيفة مهمة في الديوان إلى الحسن بن الصباح

الذي أخذ يكيد لنظام الملك بهدف الإطاحة به ثمّ اعتنق المذهب الإسماعيلي بعد ذلك، وقد تبيّن أنّ القصّة لا يمكن أن تكون حقيقيّة بسبب التفاوت في السن بينهم

[Byle, J.A., The Sar-Gudhasht-i Sayyidna, The Tale of Three School Fellow, J.R.A.S., 1931, pp. 771-782].

وحين تولّى السلطان ملكشاه (465هـ/ 1072م) كانت الدولة السلجوقيّة قد بلغت أقصى اتساعها، وشملت «سمرقند» التي كان يعيش فيها الخيام، فما لبث أن حظي بمكانة رفيعة في بلاط ملكشاه حين أنقذ ابنه الأمير سنجر من موت محقّق بعد علاجه من حمى الجدري. ووافق السلطان ووزيره نظام الملك على تنفيذ المشروع الذي تقدّم به الخيام لبناء مرصد كبير في إصفهان لإجراء القياسات الفلكيّة بهدف إصلاح التقويم الذي كان معمولا به. وكلّفت أعمال الرصد أموالا طائلة، وشارك فيها عدد من أعيان المنجّمين إلى جانب عمر [ابن الأثير، الكامل، 15/ 58]. وفي سنة 471هـ/ 1078م تمّ انجاز التقويم الذي عرف بـ «التقويم الجلالي» نسبة إلى السلطان جلال الدين ملكشاه.

كان الخيام قبل أن ينشغل بأعمال الرصد الفلكيّة في إصفهان قد أنجز كتابة رسالة «فيما أشكل من مصادرات إقليدس»، وهو الكتاب الذي وضعه في مصاف كبار العقليات الرياضيّة في تاريخ البشريّة [ق. ب. سميلجا، بحثا عن الجمال، طبع موسكو، 1954، 128 ـ 129]. غير أنّ نشاط الخيام العلمي ما لبث بعد فترة أن فقد من كانا يقدّمان له العون على تحقيق طموحاته العلميّة إثر اغتيال الوزير نظام الملك بيد الإسماعيليّة ثمّ وفاة السلطان ملكشاه في ظروف غامضة (485هـ/ 1092م). لكنّ الخيام ظلّ يعمل مستشارا لمن أتى بعد ملكشاه من سلاطين السلاجقة، وقد أدّى فريضة الحج ثمّ عاد إلى نيسابور حيث قضى بقيّة حياته.

أشار معاصرو الخيام إلى مكانته الرفيعة في علم الفلك بخاصة، وسائر العلوم الرياضيّة والطبيعيّة [نظامي عروضي، جهاز مقاله، بالفارسيّة، ص 60]. وبعد وفاة الخيام بقرابة نصف قرن وصفه الشهرزوري بأنّه كان صنو ابن سينا في أجزاء الحكمة، أي الفلسفة بمستوياتها الثلاثة من الأدنى إلى الأعلى: الطبيعي، الرياضي، والإلهي . . . وكان عالما بالفقه واللّغة والتواريخ والقراءات . . . وله صلة بالتأليف والتعليم، ويشير الشهرزوري إلى أنّ الأمام أبا حامد الغزالي أحسّ للخيام بكثير من البغض والكراهيّة بعد ما تباحث معه في مسألة من المسائل، وينقل الشهرزوري سبعة أبيات من أشعار الخيام العربيّة [نزهة الأرواح، 2/ 408].

ولم يمض قرن على وفاة الخيام حتّى أشاد به القفطي [إخبار العلماء بأخبار الحكماء، 163]، باعتباره علّامة الزمان، يعلّم علم اليونان ويحثّ على طلب الواحد الديّان بتطهير الحركات اليونانيّة لتنزيه النفس الإنسانيّة، حسب القواعد اليونانيّة. وبدا منذ ذلك الحين، في أوائل القرن السابع الهجري ومنتصفه الهجوم على شعر الخيام، أو بالأحرى رباعياته الفارسيّة، يقول القفطي: «وقد وقف متأخرو الصوفيّة على شيء من

ظواهر شعره فنقلوها إلى طريقتهم، وتحاضروا بها في مجالساتهم وخلواتهم، وبواطنها حيّات للشريعة لواسع ... إلخ».

وفي القرن السابع نفسه ألصقت بالخيام بسبب رباعياته تهمة أنّه فيلسوف ودهري وطبيعي على نحو ما ذكر نجم الدين الرازي في كتابه الفارسي «مرصاد العباد» [براون، تاريخ الأدب في إيران، الترجمة العربيّة، ص 308 - 309].

وتعود شهرة الخيّام إلى نبوغه بأعمال الرّياضيّات والفلك. ففي أعمال الجبر، اشتغل الخيّام بالمعادلات ذات الدّرجة الثّانية محتذيا حذو أستاذه الخوارزمي، فاستطاع فكّ المقدار الجبري ذي الحدّين مرفوعا إلى أس 2، 3، 5، 6، 7، ...، ن، أي عـــــدد صحيح موجب، فكان مبتكرا لنظريّة ذات الحدّين، بعد أن كان علماء الرّياضيّات في القرون الوسطى قد وقفوا عند المقدار الجبري ذي الحدّين مرفوعا إلى قوّة أس اثنين فقط.

ولم يتوقّف بحث الخيّام عند تطوير علم الجبر فقط باعتباره علما مستقلا، بل اهتمّ بإدخال الجبر على علم حساب المثلّثات فيما يعرف بهندسة الجبر. وكان الهدف من ذلك هو محاولة تحديد الجذور ا لموجبة للمعادلة الّتي لم يتمكّن بعد من تحديد جذورها بوسيلة جبريّة. وقد تمكّن الخيّام من بناء نظريّة هندسيّة للمعادلات من الدّرجة الثّالثة وما دونها. واستطاع الحصول على أحد جذورها بطرق هندسيّة باستخدام القطوع المخروطيّة، على اعتبار أنّ الإحداث الأفقي لنقطة تقاطع دائرة بقطاع مخروطي.

وقد وضع الخيّام تصنيفه الصّوري للمعادلات تبعا لعدد حدودها، وجعلها محصورة في ثلاثة عشر نوعا، واستخرج الجذور لكلّ درجة من هذه الدّرجات، فوصل إلى درجة من النّضج الرّياضي لم يسبقه إليها أحد. فعالج بالتّرتيب معادلات الدّرجة الثّانية ذات الحدّين، ومعادلات الدّرجة الثّالثة ذات الحدّين، ومعادلات الدّرجة الثّانية ثلاثيّة الحدود، ومعادلات الدّرجة الثّالثة ثلاثيّة الحدود، ومعادلات الدرجة الثّالثة رباعيّة الحدود، والمعادلات الّتي تحوي عكس المجهول. وقد وصل الخيّام إلى نتيجتين تمّ نسبتهما إلى ديكارت، هما: حلّ عام لكلّ معادلات الدّرجة الثّالثة بواسطة قطعين مخروطين، وحسابات هندسيّة يمكن إجراؤها من خلال انتقاء وحدة قيسيّة للأطوال. كما حاول الخيّام إعطاء حلّ عددي تقريبي للمعادلة التّقريبيّة عن طريق جداول علم المثلّثات، ووضع حلولا للكثير من المسائل الصّعبة في علم حساب المثلّثات باستعماله المعادلات الجبريّة ذات الدّرجة الثّالثة والرّابعة. ولقد استخدم نصير الدين الطوسي حلول الخيّام هذه في الحصول على جذور المعادلات التّكعيبيّة. وقد نسبت تصنيفات الخيّام للمعادلات فيما بعد إلى "سيمون ستيفن» (1548 - 1620م).

كما امتدّت إسهامات الخيّام إلى الهندسة، فهو يعدّ أوّل من اكتشف أنّ مجموع زوايا أي مربّع هو 360°، وأنّ مجموع زوايا المثلّث 180° وأثبت بالبراهين الرّياضيّة صحّة استنتاجاته. كما عكف على دراسة هندسة إقليدس المشروحة والمعلّق عليها من قبل

علماء الرّياضيّات المسلمين، فأعطى اهتماما خاصًا للموضوعة الخامسة من موضوعات أقليدس، وابتكر برهانا جديدا بخلاف ذلك الّذي قدّمه ابن الهيثم، وثابت بن قرة. ومن ذلك قوله: «وقد أتى أقليدس بمصادرة عظيمة ولم يبرهن عليها وهي قوله إنّ كلّ خطّين مستقيمين يقطعان خطّا مستقيما على نقطتين ويكونان خارجين منه في جهة واحدة على أقلّ من زاويتين قائمتين فإنّهما يلتقيان في تلك الجهة، بل أخذها مسلمة. وهذه مسألة هندسيّة لا تتبرهن أصلا، فهي لازمة للمهندس شاء أم أبى وليس له أن يبني عليها شيئا إلا بعد البيان. ثمّ شاهدت جماعة من متصفحي كتابه وحالّي شكوكه لم يتعرّضوا لهذا المعنى أصلا لصعوبته مثل إيرن وأوطوقس من المتقدّمين. وأمّا المتأخرون فقد مدّت منهم جماعة أيديهم إلى البرهان عليها مثل الخازن والنيريزي، وغيرهما. فلم يتأتّ لواحد منهم برهان نقي بل كل واحد منهم صادر على أمر ليس تسليمه بأسهل من ذلك».

كما أولى الخيّام علم الفلك عناية خاصّة، وقد كلّفه السلطان ملكشاه أثناء زيارته في مرصده بنيسابور بتعديل التّقويم، فأشرف على وضع التّقويم الجلالي الّذي فاق التّقويم الرّوماني، فحسب طول السّنة الشمسيّة لعام 471هـ/ 1079م بمقدار 365 يوما و55 ساعات و49 دقيقة، 75,5 ثوان. وهو يعد أكثر دقّة من التقويم الجريجوري السّائد حاليًا، إذ أنّ معدّل الخطأ في تقويم الخيّام هو يوم واحد كلّ 3770 عاما، بينما نسبة الخطأ في التّقويم الجريجوري يوم واحد كلّ 3330 عاما. كما وضع زيجه الشّهير باسم «زيجي مليك شاه».

وكان الخيّام إذا سئل عن مسألة طوّل في شرحها. فيروى: «أنّه دخل على الخيّام ذات يوم الإمام الغزالي، فسأله عن تعيين جزء من أجزاء الفلك للنّقطة دون غيرها مع كونه متناسب الأجزاء، فطوّل الخيّام وابتدأ من أنّ الحركة من مقولة كذا وضنّ بالخوض في محلّ النّزاع، حتّى إذا أذن الظّهر، قال الغزالي: جاء الحقّ وزهق الباطل. وقام».

وفي مجال الميكانيكا، اخترع الخيّام ساعة مائيّة أهداها إلى الأمير توقش السلجوقي وكانت دقّاتها للثّواني عبارة عن تساقط قطرات ماء، وكان لها عقربان يحدّدان الوقت بالضّبط أثناء اللّيل والنّهار.

وللخيام شعر عربي وآخر فارسي، أمّا شعره العربي فلم يصلنا منه إلّا ثلاثة عشر بيتا، ذكر بعضها الشهرزوري بينما ذكر القفطي بعضها الآخر. وأما شعره الفارسي فلم يلق من الشهرة وذيوع الصيت إلّا منذ النصف الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي حين ترجم إدوارد فيتزجيرالد رباعية الخيّام شعرا إلى الإنجليزيّة في سنة 1859م.

والرباعيّة مقطوعة من الشعر تتكوّن من أربع شطرات: الأولى والثانية والرابعة منها مقفّاة بقافية واحدة، وهي تعبّر عن فكرة واحدة محدّدة موجزة وواضحة، وتعدّ من حيث الموضوع وحدة مستقلّة بذاتها لا صلة لها بما قبلها وما بعدها من رباعيّات.

والواضح أنّ عدد الرباعيّات الخياميّة لم يزد في مصادر القرن السادس / الثاني عشر على أكثر من 36 رباعيّة [علي دشتي، دمي باخيام، طهران 1358ش، ص 199]، لكن

هذا العدد بلغ في القرن الثامن / الرابع عشر نحو 60 رباعيّة، ثمّ أخذ العدد يتزايد باطراد حتّى بلغ في بعض الطبعات المتأخّرة، مثل طبعة فيض الدين خان [حيدر آباد، الدكن 1893]، 1030 رباعيّة [El-Well Sutton in Search... p. 22]، الأمر الذي جعل من المستحيل أن نجزم - إلّا في أمثلة قليلة نادرة - بأنّ هذه الرباعيّة أو تلك إنّما هي للخيام حقّا، ما لم يتم العثور على نسخة خطية قديمة من الرباعيّات قريبة من عصر الشاعر يمكن الوثوق بها. وقد أعلن في سنة 1949م أنّ مكتبة تشستربتي في دبلن قد اشترت نسخة خطية قديمة للرباعيّات، ثمّ أعلن في سنة 1952م أنّ مكتبة جامعة كامبردج في إنجلترا قد اقتنت مؤخرا نسخة أخرى أقدم عهدا يجعلها متقدّمة على سائر النسخ المعروفة بنحو قرنين من الزمان. لكنّ النقاد ساورهم الشكّ في صحة النسختين، وأعلن الناقد الإيراني مجتبي مينوي أنّهما مزيفتان [خيام ساختكي، توضيح، مجلّة راهنماي كتاب، جلد ششم، عدد سوّم، طهران أوريل، 1963م].

[Minorsky, The Earliest Collections, of I. Khayyam, Yadname-ye Jan Rypka, Prague, 1967].

واتجه النقاد الإيرانيون المحدثون صادق هدايت، ومحمد علي فزوغي، وعلي دشتي، اتجاها آخر لمعالجة قضيّة الانتحال في الرباعيات، فاعتمدوا منهج النقد الداخلي، لنص الرباعيّة بهدف تمييز الصحيح من المنحول، واستبعدوا الرباعيات التي تشتمل على أخطاء لغويّة أو تاريخيّة كالرباعيّة التي تشير إلى هولاكو القائد المغولي الذي قضى على الخلافة العباسيّة في بغداد سنة 656هـ/ 1258م أي بعد وفاة الخيام بنحو قرن ونصف. كما استبعدوا من الرباعيات ما يتعارض موضوعه مع ما عرف من آراء الخيام التي بدت في مؤلفاته ورسائله الفلسفيّة وما بقي من أشعاره العربيّة، وقبل هؤلاء النقّاد دون منازع معظم الرباعيات التي وردت في مصادر القرنين السابع والثامن / الثالث عشر والرابع عشر لقربها من عصر الخيام.

وانتهى أحد هؤلاء النقاد، وهو علي دشتي، إلى قبول 35 رباعيّة وردت في تلك المصادر جعلها أساسا لاختيار الرباعيّات التي ظهرت في مصادر متأخّرة توفّر فيها الشرطان المذكوران آنفا. وانتهى دشتي إلى اختيار 102 رباعيّة وجد أنّها أقرب ما تكون إلى روح الخيام. [دمي باخيام، ص 199 وما بعدها]. واتجه الشيخ أبو النصر مبشر الطرازي نفس الاتجاه، ولكنّه حصر نطاق الاختيار في 40 رباعيّة [كشف اللثام عن رباعيّات عمر الخيام، المؤسسة المصريّة العام للتأليف والنشر، القاهرة 1967م].

قلّما نجد شاعرا غير عربي أثّر في الأدب العربي الحديث بقدر ما أثّر عمر الخيام، فقد ترجمت رباعياته شعرا وترجمت نثرا، ودارت حول هذه الترجمات حركة نقديّة واسعة وتأثر الكثيرون من شعرائنا بفكره وطريقته، ووظّفه بعضهم توظيفا فنيا، وحاول بعضهم تصحيح صورته التي ظهرت من خلال الرباعيات المنسوبة إليه أو المنحولة عليه.

وقد انقسمت الترجمات العربيّة لرباعيات الخيام إلى نوعين: ترجمات مباشرة وهي التي تمّت عن الفارسيّة مباشرة، وترجمات غير مباشرة وقد تمّت عن طريق ترجمة وسيطة

كالإنجليزيّة أو الفرنسيّة. وبلغ عدد الترجمات العربية في احصائيّة الدكتور يوسف بكار حتى سنة 1987م ستا وخمسين ترجمة بين شعرية ونثرية، من بينها سبع ترجمات شعبية مصريّة وعراقيّة ولبنانية [يوسف بكار، الترجمات العربيّة لرباعيات الخيام، طبع الدوحة (قطر)، 1987م].

وقد شارك في هذه الترجمات عدد من كبار الأدباء والشعراء على مستوى العالم العربي كلّه، بل وأدباء المهجر أيضا. وكانت ترجمة وديع البستاني أهمّ بواكير الترجمات العربيّة للرباعيّات (بيروت 1911م)، ويبدو فيها ـ بل في كلّ الترجمات غير المباشرة التي تتابعت بعد ذلك كترجمة محمد السباعي، وأحمد زكي أبي شادي وغيرهما ـ أثر ترجمة فيتزاجيرالد الإنجليزيّة التي أهمل منها قسما كبيرا، وهو ما كان موضوعه المناجاة والدعاء والاستغفار، إلى أن جاءت الترجمات المباشرة عن الفارسيّة التي استهلّها أحمد رامي، مصر 1924م، وتتابعت بعدها ترجمات أخرى من هذا النوع مثل ترجمات جميل صدقي الزهاوي، بغداد 1928م، وأحمد الصافي النجفي، دمشق 1931م، وإبراهيم العريض، البحرين، بيروت 1966م، وغيرها من الترجمات.

آثاره

1 ـ رسالة في شرح ما أشكل من مصادرات كتب إقليدس، توجد نسخة خطية منها في مكتبة ليدن بهولندا؛ 2 ـ رسالة في براهين الجبر والمقابلة (طبعها الأستاذ وبكه مع ترجمة فرنسيّة لها في باريس سنة 1851م)؛ 3 ـ رسالة في لوازم الأمكنة؛ 4 ـ زيج ملكشاه (التقويم الجلالي)؛ 5 ـ رسالة في الطبيعيّات؛ 6 ـ رسالة في الاحتيال لمعرفة مقداري الذهب والفضّة في جسم مركّب منها (نشرها السيد سليمان النّدوي ضمن «مجموعة الرسائل» بعنوان ميزان الحكم)؛ 7 ـ رسالة في الكون والتكليف؛ 8 ـ رسالة متمّمة لرسالة الكون والتكليف؛ 9 ـ رسالة في الوجود، وقد طبعت بمصر بمطبعة السعادة بعنوان رسالة الضياء العقلي في موضوع العلم الكلي؛ 10 ـ الرسالة الثانية في الوجود وسمّاها بعضهم: رسالة الأوصاف للموصوفات؛ 11 ـ رسالة في كليات الوجود (بالفارسيّة).

ونشرت هذه الرسائل كلّها في كتاب «خيام أوراس كي سوانح وتصنيفات برناقدانه نظر» (بالأردية) للسيد سليمان الندوي، مطبعة المعارف بأعظم كره، بالهند، سنة 1923م؛ 12 ـ نوروزنامه (كتاب النيروز)؛ 13 ـ الرباعيّات.

المصادر والمراجع

● البيهقي، أبو الحسن علي بن زيد، تتمّة صوان الحكمة، طبع لاهور 1935م؛ ● براون. إ. ج. تاريخ الأدب في إيران، الجزء الثاني، ترجمة إبراهيم أمين الشواربي، Introduction, 1971 pp. 1-12، مصر 1954م، ص 304 وما بعدها؛ ● الشهرزوري، شمس الدين محمد بن محمود، نزهة الأرواح وروضة الأفراح، تصحيح

خورشيد أحمد، دائرة المعارف العثمانيّة، حيدر آباد، الدكن، 1976م، 2/ 308؛

● القفطي، الوزير جمال الدين يوسف، كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، دار الآثار، بيروت، (د.ت.)، ص 163؛

● طوقان، حافظ، تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، منظمة الألكسو: الطبعة الثالثة، 1963م؛ ● جمال الدين، محمد السعيد، الأدب المقارن، دراسات تطبيقيّة في الأدبين العربي والفارسي، الطبعة الأولى، دار ثابت بالقاهرة، 1989م، ص 139 ـ 143.

- Iran, vol. 4. p. 658;
- L.p. Elwell-Sutton, In Search of Omar Khayyam, by Ali Dashti, London.
- Maine, G.F. Edward Fitzgerald, The Man, an article in Rubaiyat Of Omar Khayyam, Collins Press, London and Glasgow, 1971.
- Swami Govinda Tirtha, The Nectar of Grace, Omar Khayyam's Life and Works, Allah-Abed, 1941;
- Boyle, Umar Khayyam, Astronomer, mathimatician, and Piet.

د. محمد السعيد جمال الدين
جامعة القاهرة ـ مصر
د. محيي الدين عطية
جامعة القاهرة ـ مصر

ابن أبي خيثمة، أبو بكر أحمد زهير

(ت 279هـ/892م)

أبو بكر أحمد بن أبي خيثمة زهير بن حرب بن شدّاد النسائي البغدادي.

كان إماما في الحديث، ولم تكن إمامته محض صدفة، ولا وليدة لحظة، بل كانت نتاجا لعمر طويل، وعناية فائقة من أب حريص على ولده، وإمام مهتم بتلميذه. فوالده أبو خيثمة زهير بن حرب صاحب المكانة العالية المعروفة، كما كان ابن أبي خيثمة راوية للأدب وملما بعلم النسب، وأيام الناس، وقد أخذ علم الحديث عن يحيى بن معين، وأحمد بن حنبل، وعلم النسب عن مصعب بن عبد الله الزبيري، وأيام الناس عن الحسن المدائني، والأدب عن محمد بن سلّام الجمحي، وروى القراءة عنه ابنه مجاهد، ومحمد بن حامد البغدادي [تاريخ بغداد، 4/ 163؛ تذكرة الحفاظ، 2/ 596؛ الأنساب، 13/ 19].

نشأ ابن أبي خيثمة في أحضان العلم، ورث همّة أبيه وشغفه، كما تربى في كنف أب إمام وتحت سمعه وبصره، فأسمعه أبوه في الصغر، ورعاه في مراحله المختلفة، كما انتقى الأب لابنه الشيوخ ودلّه على الأئمة،

وأخذه معه في رفقة ابن معين، وغيره من أصحاب أبيه كالإمام أحمد، وجماعة فكتب عنهم وسمع منهم، وشاركهم في الكتابة عن بعض الشيوخ.

أثّر هذا كله في نشأة ابن أبي خيثمة، وأثمر علما وإمامة حتّى فاق أقرانه، بل وبعض شيوخه قد أخذ الفروع العلمية وغيرها عن أئمّتها العارفين بشعابها، وأغلب شيوخه من أصحاب المصنفات كالإمام أحمد، وأبي عبيد وغيرهما، حيث بلغ عدد شيوخ ابن أبي خيثمة في كتابه «التاريخ الكبير» مائة وتسعة وتسعين شيخًا [التاريخ الكبير، 1/ 17 وما بعدها].

كما سمع ابن أبي خيثمة أباه سمع أبا نعيم، وهوذة بن خليفة، ومحمد بن سابق، وأبا سلمة التبوذكي، وأبا غسان النهدي، وأحمد بن يونس، وقطبة بن العلاء، ومسلم بن إبراهيم، وأحمد بن إسحاق الحضرمي، وموسى بن داود الضّبيّ، وحسين بن محمد المروزي، وسعيد بن سليمان، وخالد بن خداش، وسُريج بن النعمان، وسليمان بن حرب، وأحمد بن حنبل، وعلي بن الجعد، وخلف بن هشام، وغيرهم كثيرون فهو أوسع دائرة من أبيه [سير أعلام النبلاء، 1/ 492].

روى عنه ابنه محمد بن أحمد الحافظ، وأبو القاسم البغوي، ويحيى بن صاعد، وعلي بن محمد بن عبيد، ومحمد بن مَخْلَد، ومحمد بن أحمد الحكيمي، وإسماعيل بن محمد الصَّفّار، وأبو سهيل بن زياد، وقاسم بن أصبَغ، وأحمد بن كامل وغيرهم [سير أعلام النبلاء، 1/ 493؛ طبقات الحنابلة، 1/ 44؛ تذكرة الحفاظ، 2/ 596].

ومما ذكره الإمام الذهبي عن مكانته في رواية الحديث: أخبرنا عز الدين بن الخراء، حدثنا ابن قدامة، حدثنا ابن هلال، حدثنا عبد الله بن علي، حدثنا علي بن محمد، حدثنا محمد بن عمر، حدثنا أحمد بن زهير، حدثنا عفّان، حدثنا عبد الصمد بن كيسان، حدثنا حماد بن سلمة، عن قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «قد رأيت ربي» [تذكرة الحفاظ، 2/ 596]، وقد روى عن الإمام أحمد بن حنبل ﷺ [طبقات الحنابلة، 1/ 44] أخبرنا أبو القاسم بن حبابة، حدثنا عبد الله البغوي، قال: حدثني أحمد بن زهير، قال: سمعنا أحمد بن حنبل يقول: حدثنا يحيى بن سعيد قال: قال شعبة: أتاني سليمان التيميُّ وابن عون يعزياني بأبي، وذكره الدارقطني فقال: ثقة مأمون ويقع لنا كثير من روايته من طريق السِّلفي، وشهدة [سير أعلام النبلاء، 11/ 494]، وقال الخطيب كان ابن أبي خيثمة كبير الكتاب، أكثر الناس السماع عنه، وكان الناس ينسبونه إلى القول بالقدر [معجم الأدباء، 1/ 358].

لا يعرف أغزر فوائد من تاريخه الذي أحسن تصنيفه ـ كما قال الخطيب ـ وكان لا يرويه إلا على الوجه كاملا، وقد أجاز روايته لجمع كبير، وسمعه الشيوخ الأكابر كأبي القاسم البغوي ونحوه [تاريخ بغداد، 4/ 163؛ الوافي بالوفيات، 6/ 376].

والتاريخ الكبير يعرف أيضًا بتاريخ ابن أبي خيثمة، وهو مطبوع في أربعة مجلّدات، نشرته دار الفاروق الحديثة للطباعة والنشر 1424هـ/ 2004م، ويعدّ الكتاب كما يقول محققه:

نادرة الزمان الغابر، وعقلية الإمام العلم أحمد بن الإمام زهير بن أبي خيثمة، أرباب عصر العلم وأصحاب الفن وسادته.

والكتاب ليس تقليديا كباقي الكتب لكنه أضحى موسوعة علمية، ودائرة معارف إسلامية، تقرأ فيها عن فنون الحديث وأصول الرواية، وتنقل منها سير الرجال وأخبارهم، وتسترشد بها في أحوال الرجال وتعديلهم وتجريحهم، كما تتعلّم منها السير والمغازي، فضلاً عن بعض قضايا الفقه إلى غير ذلك من فنون ومعارف [مقدمة كتاب التاريخ الكبير، 1/ 9 - 10].

وقد رتّب ابن أبي خيثمة كتابه فأحسن فيه وأجاد، وعرض تراجمه فأوفى من الدور وزاد، وأتقن مادته فما اختلط عن الطريق ولا حاد، فجاء ترتيبه حاويا، لم يدع في كتابه حديثًا ولا راويًا إلا وضع خطته، وسلك به طريقته.

ولم يضع شيئا بلا مناسبة، ولا أغفل شيئا يتحتّم ذكره، بل ذكر ما لا يسع إغفاله، وأغفل ما لا ينبغي ذكره، يفعل ذلك بعقل راجح، وذهن يقظ فطن، وخطى إمام بارع يعرف ما يخرج من رأسه، وما يأتي وما يذر.

ودل ترتيبه للكتاب على براعة فائقة، ويقظة نادرة، فلم يرتب كتابه على حروف المعجم فيضع الترجمة حسب الحرف الأول منها دون النظر إلى سابق أو لاحق، أو تمييز بين متقدّم ومتأخر، ونزه نفسه عن سلوك العامة، وميّز نفسه مع المميّزين من أهل العلم، وصعد بنفسه إلى مراتب العظماء فسلك سبلا وعرة هو لها أهل، وخاض بحورا هو ربّانها، فجاء ترتيبه مذهلاً لمن طالعه.

وقد رتّب كتابه على البلدان، ولوّن هذا الإطار العام فذكر من اشترك في صفة أو نسب أو قرابة في سياق واحد مع الإشارة لذلك.

مثال ذلك: ذكر [643] عبد الله بن عبيد الله بن عبد الله بن أبي مليكة بن عبد الله بن جدعان ثم ذكر [653] علي بن زيد بن جدعان ابن عم عبد الله بن أبي مليكة.

وذكر [769] عبد الله بن أبي نجيح وذكر عقبة: سلمان بن الأحوال، وقال [787]: «وسليمان الأحول هو خالد بن أبي نجيح [التاريخ الكبير، 1/ 26 وما بعدها].

ولابن أبي خيثمة من الشعر كثير، منه ما أورده ابن المرزبان في «معجم الشعراء»:

أرى الدهر يُبلي صرفُه كلّ جدّة
ووجْدي على صرف الزمان جديدُ
وتنتقصُ الأيام من كان زائدًا
وحُبّي على طول الزمان يزيدُ
وليس ابتناء الدار للصبّ ضائرًا
إذا لم يكن بين القلوب بعيدُ
ولكن قرب الدار ممّن يحبُّه
على البعد من قلب الحبيب شديدُ

وأنشد له الخطيب:

قالوا اهتجارك من تهواه تسلاه
فقد هجرت فما لي لست أبلاهْ
من كان لم يَرَ في هذا الهوى
أثرًا فَلْيَلْقني ليرى آثار بلواهْ
من يَلْقَني يلقَ مرهونًا بصبْوته
متيّما لا يُفَكّ الدهرَ قيداهُ

متيّمٌ شفّه بالحبّ مالكُهُ
ولو يشاء الذي أدواه أدواه

[الوافي، 6/ 276 ـ 377؛ معجم الأدباء، 1/ 357].

توفي ابن أبي خيثمة في شوال سنة تسع وسبعين ومائتين في خلافة المعتمد على الله، عن أربع وتسعين سنة [لسان الميزان، 1/ 54؛ تذكرة الحفاظ، 2/ 596؛ تاريخ بغداد، 4/ 164].

■ آثاره

1 ـ كتاب التاريخ الكبير وهو أشهرها؛ 2 ـ كتاب المتّهمين؛ 3 ـ كتاب الإعراب؛ 4 ـ أخبار الشعراء [الفهرست، ص 286؛ لسان الميزان، 1/ 174].

■ المصادر والمراجع

● السمعاني، الأنساب، نشر الدار السلفية، القاهرة، الطبعة الأولى 1402هـ/ 1982م؛ ● الذهبي، تذكرة الحفاظ، نشر دار إحياء التراث العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، د.ت؛ ● البغدادي، الخطيب، تاريخ بغداد، نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة، المكتبة العربية بغداد، 1394هـ؛ ● ابن أبي خيثمة، التاريخ الكبير، تح. صلاح فتحي هلل، نشر الفاروق الحديث للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 1424هـ/ 2004م؛ ● الأرناؤوط، سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، 1412هـ/ 1991م؛ ● ابن أبي يعلى، طبقات الحنابلة، نشر مطبعة السنة المحمّدية بالقاهرة، 1371هـ/ 1952م؛ ● ابن النديم، الفهرست، نشر مكتبة الجامعة الأمريكية بالقاهرة، د.ت؛ ● العسقلاني، ابن حجر، لسان الميزان، نشر مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية 1390هـ/ 1971م.

د. محمد إبراهيم عبد الرحمن
جامعة عين شمس ـ مصر

■ أبو خيثمة، زهير بن حرب بن شدّاد

(160هـ/777م ـ 234هـ/849م)

زهير بن حرب بن شداد الحَرَشي مولاهم أبو خيثمة النسائي، نزيل بغداد، وكان اسم جدّه أشتال فعرّب شدّادا [الأنساب، 13/ 90؛ تهذيب الكمال، 9/ 402؛ طبقات ابن سعد، 9/ 357؛ تاريخ بغداد، 8/ 482].

وأبو خيثمة من المحدِّثين، وعنه أكثر من ألف حديث بواسطة، وروى القراءة عن يونس بن محمد المؤدِّب، وحدَّث عن جرير وهشيم، وروى القراءة عنه ابنه أحمد، وحدَّث عنه البخاري ومسلم [غاية النهاية، 1/ 295؛ طبقات الحفاظ للسيوطي، 194]، وكان ثقة مأمونًا، وهو أثبت من أبي بكر بن أبي شيبة، كما كان صدوقًا حافظًا متقنًا، وقال في حقه يحيى بن معين: أبو خيثمة زهير بن حرب يكفي قبيلة [الجرح والتعديل، 3/ 591].

ومن شيوخه: أحمد بن إسحاق الحضرمي، وأبو الجوّاب الأحوص بن جوّاب، وإسماعيل بن عُليّة، وبشر بن السَّريّ، وجرير بن عبد الحميد، وحيّان بن هلال، وحجاج بن محمد المصّيصيّ، وحُجين بن المثنَّى، والحسن بن موسى الأشيب، والحسين بن محمد المروزي، وحفص بن غياث، وحُميد بن عبد الرحمٰن الرُّؤاسيّ، وسفيان بن عيينة، وعبد الرزاق بن همّام، وعلي بن حفص المدائني، وعمر بن يونس اليماميّ، وأبو نعيم الفضل بن دُكين، والقاسم بن مالك المزني، وكامل بن طلحة الجحدري، ووكيع بن الجراح والوليد بن مسلم، ويحيى بن سعيد القطان، ويزيد بن هارون وغيرهم كثيرون.

ومن تلاميذه: البخاري وهو أشهر من روى عنه، ومسلم، وأبو داود، وابن ماجة، وإبراهيم بن إسحاق الحربي، وابنه أبو بكر أحمد بن أبي خيثمة، وأبو إبراهيم أحمد بن سعد الزهري وأبو بكر أحمد بن علي بن سعيد المروزي القاضي، وأبو علي أحمد بن علي الموصلي، وبقيّ بن مَخْلَد الأندلسي، وجعفر بن أبي عثمان الطيالسي، والحارث بن محمد بن أبي أسامة التميميّ، وعباس بن الدُّوري، وأبو حاتم محمد بن إدريس الرازي، ويعقوب بن شيبة السَّدوسيّ.. وغيرهم [تهذيب الكمال، 9/ 404؛ غاية النهاية، 1/ 295؛ طبقات الحفاظ، 194؛ الأنساب، 13/ 91؛ الرسالة المستطرفة، 56].

كان أبو خيثمة قد نزل بغداد، وأكثر التَّطواف في العلم، وجمع وصنّف، وبرع في الحديث هو وابنه وحفيده محمد بن أحمد، وكان أبو خيثمة حُجّة في الرجال كما ذكر كثير من العلماء، ومن نماذج الأحاديث الشريفة التي تسجّل اسم أبي خيثمة في أسانيدها: «أخبرنا أبو الحسين علي بن محمد، وأبو العباس أحمد بن محمد، ومحمد بن إبراهيم النحوي وطائفة، قالوا: أخبرنا أبو المنجّي عبد الله بن عمر العتّابي، وأخبرنا أحمد بن إسحاق الهمذاني، أخبرنا زكرياء بن علي، قالا: أخبرنا عبد الله بن عيسى، أخبرتنا بنت عبد الصمد الهرثمية، أخبرنا أبو محمد عبد الرحمٰن بن أبي شريح الأنصاري، حدثنا أبو القاسم عبد الله بن محمد البغوي، حدثنا أبو خيثمة زهير بن حرب، حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، أخبرني روح بن القاسم، عن عطاء بن أبي ميمونة، عن أنس بن مالك، قال: كان رسول الله يتبرّز لحاجته، فآتيه بماء يغتسل به» (أخرجه مسلم عن أبي خيثمة فوقع عاليا من الموافقات).

ومن هذه الأحاديث ما أخرجه البخاري: «أخبرنا علي بن أحمد بن عبد المحسن الحسيني قراءة عليه، أخبرنا محمد بن

أحمد بن عمر الحافظ، أخبرنا أبو بكر محمد بن عُبيد الله الزاغواني، أخبرنا محمد بن محمد بن علي الزيني، أخبرنا محمد بن عبد الرحمٰن المخلّص، أخبرنا أبو القاسم البغوي، حدثنا أبو خيثمة زهير بن حرب، وشجاع بن مَخْلد، والحسن بن عرفة، قالوا: أخبرنا هُشيم، أخبرنا حميد، عن أنس قال: قال رسول الله: «اعتدلوا في صفوفكم، وتراصوا فإني أراكم من وراء ظهري» إسناده صحيح وأخرجه البخاري 1/ 172 في صلاة الجماعة: باب إلزاق المنكب بالمنكب من حديث زهير عن أنس عن النبي: أقيموا صفوفكم فإني أراكم من وراء ظهري» [سير أعلام النبلاء، 11/ 489 ـ 492].

وكانت وفاة أبي خيثمة ليلة الخميس لسبع خلون من شعبان سنة أربع وثلاثين ومائتين في خلافة جعفر المتوكّل، وهو ابن أربع وسبعين سنة [تهذيب الكمال، 9/ 406؛ الأنساب، 13/ 91؛ التاريخ الصغير، 1/ 262؛ تاريخ بغداد، 8/ 484].

آثاره

1 ـ كتاب العلم؛ 2 ـ التاريخ؛ 3 ـ المسند [تاريخ التراث العربي، 1/ 292؛ معجم المؤلفين، 4/ 186؛ شذرات الذهب، 2/ 80؛ كشف الظنون، 2/ 1439؛ الفهرست، 286].

كتاب العلم الذي ألفه أبو خيثمة، طُبع وقام بتحقيقه الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، وهو مطبوع ضمن رسائل أربع تحت عنوان: «من كنوز السنة» من هذه الرسائل، ويحتلّ هذا الكتاب الرسالة الثالثة طبع المطبعة العمومية بدمشق.

وهذه الرسالة المسماة «كتاب العلم» تقع في 45 صفحة تبدأ بسند الكتاب إلى المؤلّف، ثم الأحاديث والآثار في فضل العلم وتعلّمه ونشره، تورّع بعض السلف عن التحديث. . ثم أبواب الرسالة الأخرى إلى باب: تحسين حديث: مثل الذي يعلّم العلم ولا يحدّث به [العلم لأبي خيثمة، 232 ـ 323].

المصادر والمراجع

● السمعاني، الأنساب، نشر دار السلفية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1402هـ/ 1982م؛ ● المزي، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تح. د. بشار عواد، نشر مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، 1407هـ؛ ● البغدادي (ت 463هـ)، تاريخ بغداد، نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة، المكتبة العربية ببغداد، 1349هـ؛ ● سزكين، فؤاد، تاريخ التراث العربي، نقله إلى العربية د. فهمي أبو الفضل، نشر الهيئة المصرية العامّة للتأليف والنشر، القاهرة 1971، المجلّد الأوّل؛ ● الرازي، حاتم، الجرح والتعديل، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ومطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد 1371هـ/ 1952م؛ ● الإمام الكتاني، الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة، نشر دار البشائر الإسلامية، الطبعة الرابعة، 1406هـ/ 1986م؛ ● الذهبي، سير أعلام النبلاء، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية،

بيروت، 1412هـ/ 1992م؛ ● الحنبلي، بن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1403هـ/ 1982م؛ ● ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير، تح. د.علي محمد عمر، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى، 1421هـ/ 2001م؛ ● ابن النديم، الفهرست، نشر مكتبة الجامعة الأمريكية بالقاهرة، د.ت؛ ● أبو خيثمة، كتاب العلم، تح. محمد ناصر الدين الألباني، ضمن رسائل «من كنوز السنة»، نشر المطبعة العمومية بدمشق، د.ت؛ ● الحموي، ياقوت، معجم الأدباء، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1411هـ/ 1991م.

د. محمد إبراهيم عبد الرحمن
جامعة عين شمس - مصر

الخيرآبادي، فضل الحق

(1212هـ/1797م - 1278هـ/1861م)

هو العالم الجليل والشاعر الكبير فضل الحق بن فضل إمام الخيرآبادى. ولد بمدينة خيرآباد بمديرية «سيتابور» الكائنة بالإقليم الشمالي للهند في 1212هـ الموافق 1797م [محمد عبد الشاهد خان شرواني باغي هندوستان، ص130]، ونشأ وترعرع في مهد العلم والمعرفة إذ كان أبوه هو العلامة فضل إمام المتوفى 1243هـ/ 1828م عالما متبحرا ذا مؤلفات عديدة قيمة وكانت له شهرة واسعة في العلوم العقلية والمنطقية، وكتابه «المرقاة» لا يزال في ضمن المقررات الدراسية في أكثر المدارس الإسلامية الهندية.

تلقى الخيرآبادي عن أبيه دروس العلوم المتداولة ما عدا علم الحديث الذي درسه على الشاه عبد القادر بن الشاه ولي الله الدهلوي. وسرعان ما أصبح متمكنا من العلوم والمعارف التي كان يمتاز بها عصره، وقد وهبه الله ذكاء خارقا وفكرا ثاقبا وذاكرة قوية فحفظ القرآن بأكمله في غضون أربعة شهور ولم يطالع كتابا إلا وكان يسبر أغواره ويستوعب أطرافه وبسبب هذه الميزة البارزة فاق أقرانه ولا سيما في العلوم العقلية مثل المنطق، والحكمة، والفلسفة [عبد الحي، نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، 7/ 431].

وبعد إكمال دراسته الرسمية تولى في مدينة دلهي وظيفة كاتب في ديوان الإنشاء في فترة حكم الأنجليز وتجدر الإشارة إلى أن والده أيضا كان موظفا في نفس المصلحة فكان لكليهما دخل كبير من وظيفتيهما وكانا يعيشان في بحبوحة من العيش. ولكن هذا الرخاء

والترف لم يصرفهما عن متابعة الكتب وكتابة الأبحاث والتعليقات على مبادئ الحكمة والفلسفة، كما لم يمنعهما من التعبير عن عواطفهما وأفكارهما في قوالب من الشعر والأدب كما لم ينقطعا عن التزامهما بأعمال التدريس، فاستفاد منهما عدد كبير من الطلاب والمولعين بالأدب والفلسفة. وكان هواة العلم والمعرفة يترددون على منزلهما بحثا عن حلول لمشاكلهم العلمية والأدبية وللمعضلات اللغوية والألغاز الفلسفية، فكان كلاهما يوضح للناس ويفسّر ما غمض بكلمات سهلة ونبرات واضحة. ولذا أصبحت لكليهما شهرة واسعة في الأوساط العلمية والفلسفية، ولم يكن لهما نظير في الفلسفة والحكمة والمنطق في ذلك العصر. ولم يزل نبراس علمهما يبدد ظلمات الجهل والأمية في ربوع الهند حتى انتقل العلامة فضل إمام الى رحمة الله في 1243هـ/ 1828م

[Contribution of Indo-Pakistan to Arabic literature by M.G.Zubaid Ahmad p.131].

وبعد والده تولى الخيرآبادي مسؤولية نشر العلم والمعرفة ولما أدرك أن وظيفته الحكومية تعرقل نشاطاته العلمية والأدبية وتكبل أفكاره الحرة استقال من منصبه في 1831م وأخذ يتجول في مختلف المدن والأمصار الواقعة في شمال الهند لإذكاء جذوة التطلع لكسب العلم والأدب ونشدان الحرية والاستقلال وبذرها في قلوب الناس. ولم يلبث أن بدأ الناس يتأثرون بأفكاره المناوئة للحكومة الإنجليزيّة في الهند، وبذلك أثار حماس الجماهير الوطنية وحرك غيرتهم الدينية ضد السلطات الإنجليزية، إذ كان يصور لهم أن الإنجليز ليست لهم غاية إلا قطع دابر الإسلام في الهند، ومن ثمة فقد وجب على كافة المسلمين مقاومة التيارات المتنكرة في زي العلوم والفنون والمعارف الحديثة لمرام أخرى. وسرعان ما أثمرت جهوده وجهود أمثاله الآخرين، واندلعت الثورة الهندية الكبرى في 1857م بزعامة الملك المغولي الأخير «بهادرشاه ظفر». ومنذ الوهلة الأولى كان النصر حليفا للثوار، إلا أن فرحة هذا الانتصار لم تدم أكثر من ستة شهور نجح بعدها الإنجليز في إخماد الثورة، وقاموا بمحاكمة كل من كان لهم أدنى ضلع في أعمال الشغب والعصيان.

وبما أن الخيرآبادي كان من أبرز زعماء هذه الثورة، وكان توقيعه مرتسما على عريضة الجهاد التي أعدها ونشرها العلماء الهنود ضد الاستعمار الغربي، فقد تم اعتقاله بمنزله في 1859م ورفعت ضدّه قضية بمدينة «لكناؤ» وأصدر عليه حكم بالنفي إلى جزيرة «اندمان» حيث قضى بقية حياته، ثم انتقل إلى رحمة ربه في 12 من صفر المكرم 1278هـ الموافق 25 من اغسطس 1861م.

وهكذا احتلّ ابنه من زوجته الأولى شمس العلماء مولانا عبد الحق الخيرآبادي مكانة بين الباحثين، إذ حاز شرحه على المتن المشهور في الفلسفة «هدية الحكمة» إعجابا عظيما في الهند، وكان له من زوجته الثانية مولوي شمس الحق، ومولوي علاء الحق، وكلاهما من العلماء.

يعتبر كتاباه تاريخ «فتنة الهند»، و«الهدية السعيدية» أهم ما كتب. والكتاب الأول هو مذكرات المؤلف الخاصة، أثبت فيها شهادته عن الظلم الذي حاق بالمسلمين من جراء

احتلال الإنجليز للهند، وحلل فيها أسباب الثورة ونتائجها، والكتاب بذلك له أهمية تاريخية.

أما كتاب الهدية السعيدية في الحكمة الطبيعية فهو كتاب في موضوع الفلسفة والحكمة، ويتضمن مقدمة وثلاثة فصول، [وقد وصفه زبيد بالتفصيل، ص 160] كان قد أهداه إلى سعيد الدين خان حاكم رامبور الذي كان ملحقا ببلاطه، والكتاب مثال جيد للمتون، يتركز في جوهره على فلسفة أرسطو.

يرى المؤلف في كتابه أن الأرض لا تتحرك كما كان يعتقد بعض الفلاسفة المتقدمين، وكما استمر مفكرو عصره في أوروبا يعتقدون ذلك، وهو يعالج في كتابه الكائنات الجوية والأرصاد وعلم المعادن، وعلم النباتات، وأخيرا يناقش علم النفس، ويذكر أن النفس جوهر مجرد في المادة فلا هي جسم ولا جزء من جسم ولكن لها ارتباط بالجسم توجهه وتديره أكثر من الارتباط الموجود بين الكل وأجزائه، وهو يؤيد النظرية العامة التي عليها فلاسفة المسلمين.

وقد قال عنه صديق حسن خان في أبجد العلوم: «وله نظم رائق، وشعر فائق لولا أنه أكثر من الجناس الذي ينبو عن السماع، وتأباه الطباع». كما ذكر عبد الحي الحسني في كتابه الثقافة الإسلامية أن «له قصائد وأشعارا أتى فيها بكل لفظ لطيف ومعنى بديع لولا أنه أكثر من الجناس والطباق».

وقد نظم في المدائح النبوية والمراثي، وله شعر سياسي وآخر وصفي، وله قصيدة عربية مشهورة وردت ضمن كتابه «الثورة الهندية»، وقد نشرت القصيدة ضمن قصائد «فتنة الهند» في كتاب «بهادر شاه وعهده» لمولانا رئيس أحمد جعفري، وهذه أبيات منها يعبر فيها عن حاله في الأسر.

الأسْر أنأى أسرتي وأقاربي
ما من حميم فيه إلا المَاءُ
عميَتْ على الأنباء أبنائي كما
عميتْ علينا منهُم الأنباءُ
أبكي لبعد أقاربي وأحبتي
ولهمَ علَى فقْدي أسًى وبكاءُ
حتى البكاء لهم علَى إذ الردى
والعيشُ في الحبس الرديء سواءُ

■ آثاره

ترك فضل الحق مؤلفات مطبوعة وأخرى لا تزال مخطوطة.

أ ـ المؤلفات المطبوعة:

1 ـ فضل التحيات، في مسألة الصفات، في علم الكلام، طبع رامبور 1328هـ؛ 2 ـ الروض المجود، في تحقيق الوجود، في التصوف، دون تاريخ ودون اسم المطبعة؛ 3 ـ قصيدة مدح فيها علي نقي خان بهادر، طبع 1275هـ؛ 4 ـ الثورة الهندية، رسالة في تاريخ ثورة 1857، طبع بجنور 1947م مع ترجمتها الأردية لعبد الشاهد خان الشرواني باسم باغي هندوستان؛ 5 ـ قصائد فتنة الهند، بجنور 1947م مع ترجمتها الأردية لعبد الشاهد خان الشرواني عن الثورة الهندية؛ 6 ـ الهدية السعيدية في الحكمة الطبيعية، عدة طبعات منها بريلي 1283هـ، كانبور 1288هـ وطبعة 1298هـ/ 1881م مع حاشيتها النحفة

العلية لمحمد عبد الله البلكرامي؛ 7 ـ الكافي لحل إيساغوجي في المنطق طبع بريلي 1301هـ (وإيساغوجي كتاب في المنطق لأثير الدين المفضل بن عمر الأبهري متوفى 660هـ/ 1261م وعليه شرح للسيد الشريف الجرجاني المتوفى 816هـ/ 1413م ويسمى مير إيساغوجي)؛ 8 ـ حاشية على شرح السلم للقاضي مبارك طبع مصلح المطابع بدلهي 1317هـ.

ب ـ المؤلفات المخطوطة:

9 ـ ديوان القصائد العربية؛ 10 ـ مجموعة لبعض رسائله وقصائده؛ 11 ـ حاشية على الأفق المبين لباقر داماد في الإلهيات؛ 12 ـ الرسالة في تحقيق العلم والعلوم، وهي رسالة في الحكمة؛ 13 ـ الرسالة في تحقيق الكلي الطبيعي؛ 14 ـ رسالة في قاطيغورياس (المقولات العشر)؛ 15 ـ الرسالة في الرد على القائلين بحركة الأرض.

ج ـ المؤلفات المجهولة:

16 ـ رسالة في تحقيق الأجسام؛ 17 ـ الحسن الغالي في شرح الجوهر العالي في الحكمة الإلهية؛ 18 ـ الرسالة في التشكيك في الماهيات في الحكمة؛ 19 ـ حاشية على تلخيص الشفاء لوالده.

المصادر والمراجع

● الحسني، عبد الحي، نزهة الخواطر، 7/ 374 ـ 377؛ ● صديق، حسن القنوجي، أبجد العلوم، 3/ 915، بهوبال 1296هـ/ 1878م؛ ● جميل، أحمد، حركة التأليف بالعربية في الإقليم الشمالي الهندي، للاطلاع على نماذج من أشعاره العربية، كراتشي، ص197 ـ 206؛ ● قمر النسا، بحث بعنوان العلامة فضل حق الخيرآبادي، مجلة ثقافة الهند، المجلد 27/ 73 ـ 123، العدد 3 ـ 4؛ ● زبيد أحمد، الآداب العربية في الهند، ترجمة عبد المقصود الشلقامي وزارة الثقافة والفنون العراق سلسلة الكتب المترجمة، رقم 50، 1978م، ص159 ـ 160؛ ● جامعة البنجاب (مجموعة من المؤلفين)، تاريخ أدبيات مسلمانان باكستان وهند، م2 عربي أدب، طبع المكتبة العلمية لاهور 1972م، ص397 ـ 399؛ ● سيد أحمد خان، آثار الصناديد، نولكشور لكهنو 1876م، ص62؛ ● مولوي، رحمان علي، تذكره علمائي هند ايجيو كيشنل بريس، كراجي1967، ص164 ـ 165؛ ● فكر ونظر، مجلة علمية دينية، إدارة تحقيقات إسلامي، إسلام آباد، مجلد 22، العدد الأول شوال ـ ذو الحجة 1404هـ/ يوليو ـ سبتمبر 1983م، بحث بعنوان علامة فضل حق خيرآبادي للدكتورة ثريا دار، ص51 ـ 75.

د. سمير عبد الحميد إبراهيم
جامعة الإمام محمد بن سعود ـ السعودية
د. محمد أسلم إصلاحي
جامعة جواهر لال نهرو ـ الهند

ابن أبي الخير، فتح الله سعيد بن أحمد المتهنى

(357هـ/967م - 440هـ/1049م)

ولد بتأريخ 1 محرم 357 هجرية الموافق لـ7 ديسمبر 967 ميلادية في قصبة ميْهنة (ميهنه أو مَهْنة). وتقع هذه القصبة في منطقة خراسان بين سرخس وأبي ورد إلى الغرب من سرخس بـ 75 كيلومترا. وهنالك بعض المؤرخين يعتبر ميهنة تابعة إلى أبي ورد، ولذلك يلقبونه بـ «أبي وردي». وكان معروفا عن أبيه التدين وعمل الخير، لذلك كان يلقب بـ «أبي الخير». وكان أبوه يمتاز أيضا بقربه من المتصوفين وحضوره الدائم لمجالس السماع فضلا عن كونه عطارا.

قضى أبو سعيد طفولته في ميهنة. وكان يحضر مجالس السماع بصحبة أبيه. وبهذا الشكل تولد لديه ميل نحو التصوف. وبالإضافة إلى ذلك كان يتلقى دروسا في الشعر والتصوف من الشاعر المتصوف أبي القاسم ياسين البشري. وتأثر كثيرا بهذه الدروس إلى درجة كان يلقي القصائد التي يتلقاها من هذا الشاعر على أسماع الحاضرين في المجالس المختلفة، بل كانت هذه القصائد مصدر إلهام له. وهناك رواية تفيد بحفظه لـ30000 بيت من الشعر عن ظهر قلب. وتلقى أيضا دروسا في اللغة والأدب من المفتي والأديب والمشهور أبي سعيد العنازي.

ارتحل أبو سعيد إلى مرو لينال مزيدا من العلم في مجالات الفقه، والتفسير، والحديث. وتلقى فيها ولمدة أربع سنوات دروسا من الفقيه الشافعي المشهور أبي عبد الله محمد بن أحمد الخضري المروزي. وبعد وفاة هذا الفقيه تلقى دروسا لمدة خمس سنوات من أبي بكر عبد الله بن أحمد الكفال المروزي. ويُرجّح أنه ذهب في الثلاثين من عمره إلى سرخس كي يتلقى دروسا في التفسير والكلام وأصول الفقه والحديث على يد أبي علي الظاهر بن أحمد. ورافقه في هذه الدروس كل من أبي محمد عبد الله بن يوسف الجويني، والد إمام الحرمين الجويني، وأبي علي السنجي، وناصر المروزي وهؤلاء علماء في الفقه والحديث.

وتعرف خلال هذه الفترة على أحد أشهر متصوفي العصر وهو لقمان السرخسي. ويحتمل أن يكون لقمان قد عرّفه على أبي الفضل السرخسي وهو أحد مريدي أبي نصر السراج عام 387هـ/ 997م. وتأثر أبو الخير كثيرا بمواعظ الذكر التي تلقاها من هذا الشيخ، بل وحقق وصيّته بضرورة عودته إلى ميهنة. وعاش فيها سبع سنوات عيشة التقشف. وبعدها عاد إلى سرخس ليدخل في معية الشيخ أبي الفضل. ولكن الأخير بعثه مرة أخرى إلى ميهنة. وبدأ يعمل في الحفاظ على نظافة المسجد ودورة المياه، وكان يغتسل قبل كل صلاة. ويخرج إلى البيداء منزويا لمدة عشرين أو ثلاثين يوما. وعاش خلال هذه

الفترات التي كان ينزوي فيها حياة صعبة جدا. ويروى أنه كان يعلق نفسه من رجليه على غصن شجرة أو متدليا من فوهة بئر، ويروى أن هاروت وماروت علقا نفسيهما بالطريقة ذاتها في أحد آبار مدينة بابل. ويروى أيضا أنه كان يقرأ القرآن ويؤدي الصلاة وهو معلق بهذا الشكل المقلوب. وعاد بعد هذه الفترة إلى سرخس مرة أخرى. واستمر على العيش بالطريقة نفسها ولكن عند الشيخ أبي الفضل. وذهب بعدها إلى نيسابور نزولا عند نصيحة الشيخ وتعرف فيها على علماء ومتصوفين أمثال أبي القاسم القشيري، وإسماعيل الصابوني، وابن الباقوية (الكوخي الشريزي). وتروي بعض المصادر أن أبا سعيد لبس بردة في نيسابور من قبل أبي عبد الرحمٰن السلمي.

وهناك بعض الروايات تروي عودته إلى ميهنة ليعيش فيها عيشة التقشف قبل ممارسته النشاطات الإرشادية. وعاش حياة الانزواء لمدة سبع سنوات في مكان يقع بين أبي ورد وسرخس. وكان يتناول خلال هذه الفترة أوراق النباتات والأعشاب. وتوفي في تلك الأثناء شيخه أبو الفضل، لذلك ذهب أبو سعيد إلى آمول لينتسب إلى طريقة المتصوف الحنبلي أبي العباس أحمد بن محمد القصاب، وألبسه الأخير البردة. وعاش في كنف هذا الشيخ مدة سنتين تأثر خلالهما به خصوصا من الناحية الأخلاقية، ولكنه عاد إلى ميهنة مرة أخرى بعد وفاة هذا الشيخ. وكانت حياته عبارة عن صلاة وذكر لله تعالى دون أن يذوق لذة النوم ليلا. وكان يصوم نهاره أيضا مع اهتمامه بالتوجه جهد الإمكان نحو القبلة دون أن يستمتع بالراحة، بل يقضي أغلب أوقاته في المسجد والتكية، ولا يتردد على الأسواق والمتاجر لأنه اعتبرها أماكن سوء. ومكث على هذه العيشة حتى اقتنع بأن نفسه فانية. وبعدها اضطلع بمهمة إرشاد الناس. واستطاع أن يجمع حوله عددا كبيرا من المريدين في تكيته سواء في نيسابور أو في ميهنة. وتنقل لنا الروايات ذهابه إلى طوس ومكوثه فيها لفترة التقى خلالها بالمجذوب الشهير محمد معشوق الطوسي. وقرر الذهاب إلى الحج خلال إحدى الفترات التي كان يقيم خلالها في نيسابور. وخرج في رحلته تلك وبصحبته عدد كبير من مريديه، ولكن عند وصوله إلى مدينة خاراقان قام بزيارة المتصوف أبي الحسن الخاراقاني الذي نصحه بالعودة، وبذلك عدل عن أداء فريضة الحج وقفل راجعا إلى نيسابور.

كان أبو سعيد يمكث بعض الأحيان مستغرقا الليل في السماع والرقص وقراءة الموشحات الدينية حتى أنه كان يؤثر على الحاضرين مُفضيًا إلى استثارتهم بشكل كبير. وقد كانت موائد الضيافة والحفلات تتخللها أوقات من السماع المصحوب بالاستثارة الكبيرة. وعوّد أبو سعيد نفسه على عدم حَمْل المال أو جمعه، وكان خادمه حسن المؤدب هو الذي يعد هذه الحفلات.

وتمتد سلسلة أبي سعيد التصوفية من أبي الفضل إلى أبي نصر السراج فأبي محمد المرتعش حتى ينتهي بجنيد البغدادي. إلا أن أبا سعيد كان يمتاز بطريقة في التصوف شبيهة بطريقة أبي يزيد البسطامي، ومنصور الحلاج، حيث كان يقوم مثلهما ببعض الشطحات، ويعبّر عمّا يجول في خاطره عند

أوقات الوجد بكل حرية. وينقل عنه قوله: «إن القبلة حق» و«ولا يوجد في جبتي غير الله». وكانت حالته المذكورة في مجالس السماع شبيهة بحالة مولانا جلال الدين الرومي الذي أتي بعده وأدام هذه الطقوس على المنوال نفسه. وقد كان أبو سعيد يتلو القصائد خلال المجالس واجتماعات الوعظ والإرشاد، ويؤثر بعمق على الحاضرين، وبذلك انتشر صيته في جميع الأنحاء، ولكنه تعرض لانتقادات من قبل حاجه عبد الله الأنصاري. وبالرغم من ذلك ذهب إلى نيسابور مرتين للقائه، ويروي معاصره ابن حزم أن شهرته بلغت الأندلس.

يعرف عن أبي سعيد أنه أول من وضع قواعد آداب التكايا. ويروي القزويني أن أبا سعيد كان يمتلك أسلوبا خاصا في التصوف، وبنى تكية خاصة به، وأنه كان يقيم مائدتي طعام في اليوم. ويوضح القزويني أن جميع آداب التصوف قد وضعت من قبل أبي سعيد [آثار البلاد، ص 361].

ويعتبر أبو سعيد أول من عبر عن مشاعر التصوف وأفكاره باستخدام الشعر. وكانت قصائده بالفارسية وأغلبها على شكل رباعيات، وقد سار على نهجه من بعده كل من الثنائي وفريدون العطار ومولانا جلال الدين الرومي. وكانت آداب التكايا والشعر الذي ألفه أبو سعيد ذا تأثير على عدد كبير من المتصوفة الذين ظهروا في حقب لاحقة. ويقول أبو الحسن الخاراقاني عن نفسه أنه من أهل القبض، أما عن أبي سعيد فمن أهل البسط. وكان الخاراقاني لا يهتم بالرقص والسماع على عكس أبي سعيد. وهنا يتوضح لنا الفرق بين الطريقتين. ولا يعتبر الخاراقاني المشي فوق الماء أو التحليق في الهواء وطي المكان من باب الكرامات، فالكرامة عنده هي الفراسة ومعرفة ما يدور في خلد الناس. ولهذا السبب سمي من قبل المتصوفة اللاحقين بـ «فارس الغيوب، جاسوس القلوب، مشرق الضمائر».

ومثلما كان لأبي سعيد أصدقاء ومريدون، كان له مناوئون وأعداء؛ فالبعض كان يعتبره صديقا، أما البعض الآخر فكان يعتبره زنديقا لأنه كان يبين في إرشاداته ضرورة التعامل مع كافة الأديان بالمسافة نفسها، وهو في ذلك يشبه مولانا يونس أمره في منهجهما. ويروى عنه قوله «طالما المساجد والمدارس لم تهدم، والفرق بين الفكر والإيمان لم يزل فإن مهمة الدراويش لم تنته بعد» [انظر، سعيد نفيسي، ص6]. واعتبر قوله هذا دليلا على زندقته. واتهم أبو سعيد كذلك بتفضيله حفلات السماع مع الشباب وقراءة الشعر والموشحات الدينية على قراءة القرآن والحديث، فقد ناوأه كل من الكراميين، والشيعة، والحنفية، بل قدموا الشكاوى ضده لدى بلاط السلطان محمد الغزنوي.

وبناءً على هذه الشكاوى أمر السلطان عددا من علماء نيسابور بأن يتحروا في مدى صحة هذه الشكاوى، إلا أن أبا سعيد استطاع أن يقنع هؤلاء بصحة منهجه. وبذلك نجح في التغلب على مناوئيه، بل يجعلهم يقرون بصحة ما يعتقده ويؤمن به. وحتى القشيري شعر في بداية الأمر بالشكوك تجاه أبي سعيد، إلا أنه نبذ هذه الشكوك بعيدا بعد تعرفه عليه فيما بعد. وبالرغم من ذلك لم يذكره ضمن

معاصريه من كبار المتصوفة الذين ذكرهم بالاسم ضمن كتابه «الرسالة». ولكن أبا سعيد قد ذكر باعتباره من كبار المتصوفة من قبل معاصره الهجويري، الذي ذكره كمتصوف وعالم كبير ذي منهج سليم وإيمان راسخ، وينصح بعدم الاكترات بما ذكره كل من ابن حزم، والذهبي من سوء بحق أبي سعيد [الطبقات، 5/ 307 ـ 308].

وتفيد بعض المصادر أن أبا سعيد راسل ابن سينا بل والتقى به وجها لوجه لفترة طويلة. وتبين هذه المصادر أن ابن سينا خرج من لقائه ذلك قائلا: «إنه يرى كل ما أعلمه»، وأن أبا سعيد خرج من اللقاء نفسه قائلا: «إنه يعلم كل ما أراه»، أي أن هذه الروايات توضح أن الحقائق يمكن التوصل إليها بالعقل والكشف [سعيد النفيس، ص 11؛ عبد الحسين زرين قوب، ص62].

ويرجح أن يكون أبو سعيد قد توفي في ليلة الجمعة 4 من شعبان 440 هجرية الموافق لـ 12 يناير 1049 ميلادية عن عمره يناهز الثانية والثمانين. وكانت وفاته في ميهنة بعد أن عاد إليها من نيسابور. وكان قبل وفاته بأسبوع قد عيّن نجله أبا طاهر سعيد خليفة له، وتوارثت أولاد هذا الأخير هذا المنصب الطرقي من بعده. ويبيّن سعيد النفسي أن هنالك موقعين يدعيان بـ «ميهنة»، أولهما في إيران جنوب تربة حيدر باثني عشر كيلومترا، وثانيها في تركمانستان وبالتحديد جنوب غربي مدينة مرو. ويحتوي الموقعان على قبر لأبي سعيد، ولكن الموقع الأول ما يزال قبره ظاهرا فيه حتى يومنا هذا [سوهانان منظوم أبي سعيد إلي الخير، ص 4]. وبقيت تكيته في نيسابور موجودة حتى تم هدمها بعد قرن من الزمان على يد الأوغوزيين الذين احتلوا خراسان عام 549هـ/ 1154م. وأعيد بناء تكيته مرة أخرى في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري على يد السلطان سنجر، ولكنه هدم أيضا من قبل الأوغوزيين. ومع ذلك احتفظ بمكانته خلال الفترات اللاحقة. فقد قام الحاكم الإيخاني غازان خان بزيارة قبره. وكان الحكام التيموريون يظهرون احترامهم لشخصيته. وبُنِيَتْ مقصورة على قبره في القرن العاشر وغطيت بقبة مبنية عليها. وتقع مدينة ميهنة ـ التي تحتوي على قبره ـ في عصرنا الحالي داخل حدود دولة تركستان وتدعى مانة وتكتب بالحروف اللاتينية على شكل «Meana» ويدعى الشيخ بين العامة بـ «مانة بابا».

ورزق أبو سعيد خمسة أولاد هم: أبو طاهر سعيد، أبو الوفا المظفر، وأبو الأعلى الناصر، وأبو علي المطهر، وأبو البقاء المفضل. وقتل بعض أحفاده عند دخول الأوغوزيين لخراسان، وأما من نجا منهم فقد انتشروا هنا وهناك. وظهر من هؤلاء فيما بعد الكثير من الشيوخ والعلماء [سعيد النفيسي، ص2235]. وكان أبو سعيد قد أرسل أحد مريديه ويدعى «أبو النصر الشيرواني» إلى شيروان لنشر أفكاره فيها. وبنى هذا الأخير تكية في شيروان ليبث من خلالها أفكار شيخه أبي سعيد. وللشيخ مريد آخر يدعى «أبو عمرو البشاقاني» (ت 472هـ/ 1080م) كان قد نشر أفكار شيخه في باشقان الواقعة على مقربة من نسا ومريد آخر يدعي «محمد الشقاني» مارس النشاط نفسه ولكن في «شقان» هذه المرة والواقعة على مقربة من سرخس.

ويمكننا أن نعتبر كلًا من عبد الصمد بن حسن الكالانيسي السرخسي، وحسن المؤدب، وأحمد بن علي الطرايسيسي، وأحمد بن محمد الميهني، وأبو سعد دست دادا من جملة الذين ورثوا أفكار أبي سعيد أبي الخير التصوفية. ويذكر من العلماء الذين تلقوا منه دروسا ورووا عنه الأحاديث كلًا من إمام الحرمين الجويني، وحسن بن أبي طاهر الجيلي، وأبي القاسم بن ناصر الأنصاري، وعبد الغفار الشيروي.

آثاره

كتب أحفاد أبي سعيد سيرة لجدهم إثر وفاته وهم يذكرون أن الرجل لم يترك أي مؤلف ما عدا رباعيته المسماة «حوراء» [أسرار التوحيد، ص218] . ولم يسمح أبو سعيد في حياته لمريديه بأن يسجلوا ما كان يقوله، وبالرغم من ذلك فهناك مخطوطات [مكتبة السليمانية، ناذف باشا، رقم 448، ورق 4أ ـ 10ب] تحتوي على أكثر من سبعين رباعية له.

وقد قام سعيد نفيسي بنشر قسم كبير من هذه الرباعيات بعنوان «سهانان منظوم أبو سعيد أبو الخير» (طهران 1334 هجري شمسي). بيد أن أكثر هذه الرباعيات ليست لأبي سعيد وإنما لشعراء عاشوا من بعده مثل عبد الله الأنصاري، وثنائي، والعطار، وعمر الخيام، وفخر الدين العراقي. كما أن المؤلف المسمى «مصابيح» هو لعين القضاة الهمذاني وليس لأبي سعيد. وقد تم نشر كتاب «حوراء» لأبي سعيد مرفوقا بشروحات قام بها كل من محمد المغربي، وشاه نعمة الله ولي وشخص آخر غير معروف.

وبالإضافة إلى هذه الرباعية توجد له رسالة يبين فيها أن المتصوفة يقومون برحلة إلى الله تعالى يمرون أثناءها بأربعين محطة، وهذه الرسالة تسمى «شهيل مقام». ويقال إن هذه الرسالة هي في الحقيقة لمحمد حمويه الجويني ترجمها فيما بعد سيد علي الهمذاني إلى اللغة الفارسية. بيد أن الإشارات الموجودة في نسخ مكتبات استانبول تقوي الاحتمال بأن هذه الرسالة هي بالفعل لأبي سعيد.

ويبدو أن الفروقات الكبيرة بين النسخ سببه اختلاف الأشخاص الذين نقلوا عن أبي سعيد كلامه. وهذه النصوص الموجودة في «شهيل مقام» نشرها تحسين يازجي في استانبول عام 1959. ونشرت هذه الرسالة أيضا من قبل محمد دامادي بعنوان «مقامات أربعين» [معارف إسلامي، XII، أبريل 1971، ص 58 ـ 62]. وبالإضافة إلى الرسائل التي تبادلها مع مختلف رجال الدولة فهنالك احتمال كبير بأن لديه كذلك رسائل تبادلها مع ابن سيناء [مكتبة السليمانية، برتاف باشا، رقم 617، ورق 179 ـ 188؛ انظر أيضا معصوم علي شاه، ص560 ـ 561].

المصادر والمراجع

● لطف الله، محمد بن أبي روح، حالات وسهانان شيخ أبو سعيد، نشر إراج أفشار، طهران 1341 هـ. ش؛ ● ابن أبي سعيد، محمد بن منور، أسرار التوحيد في مقامات الشيخ أبي سعيد، نشر ذبيح الله صفاء، طهران 1323 هـ. ش؛ ● ابن حزم، الفصل، بيروت 1406هـ،

4/ 188؛ ● الهجويري، كشف المحجوب، نشر أحمد رباني، لاهور 1387هـ/ 1977م، ص 171، 211، 275، 350؛ ● الصريفيني، إبراهيم بن محمد، الحلقة الأولى من تاريخ نيسابور: المنتخب من الصباغ، نشر محمد كاظم المحمودي، قم 1403/ 623؛ ● الجامي، نفحات الأنس، طهران 1337هـ. ش، ص300؛ ● العطار، تذكرة الأولياء، نشر نيكلسون، ليدن 1905م، 1/ 135، 179؛ 2/ 59، 135، 184، 205 ـ 207، 268، 322 ـ 337؛ ● الباخرزي، أوراد الأحباب، طهران 1340هـ. ش، ص 84، 177، 206، 209، 213، 221، 256، 266؛ ● القزويني، آثار البلاد، بيروت، نشر دار صادر، ص360 ـ 361؛ ● الذهبي، سير أعلام النبلاء، 17/ 622؛ ● السبكي، طبقات الشافعية، القاهرة 1950، 4/ 10، 5/ 307 ـ 308؛ ● خاندمير، حبيب السير، طهران 1342هـ. ش، 2/ 310، 444؛ ● معصوم عالي شاه، طرائق الحقائق، طهران 1339 ـ 1345 هـ. ش، 2/ 501، 559 ـ 561؛ ● سعيد نفيسي، سهانان منظوم أبو سعيد بو الخير، طهران 1334 هـ. ش؛ ● قنوات، عبد الرحمٰن، داستان دانش وران، آز فردوسي تا أبو سعيد أبو الخير، مشهد 1377، ص69 ـ 80؛ ● ذبيح الله صفاء، تاريخ أدبيات در إيران، طهران 1332 ـ 1364 هـ. ش، 1/ 604، 2/ 974 ـ 981؛ ● سيد محمد دامادي، أبو سعيد نامه، زندقي نامه أبو سعيد أبو الخير، طهران 1374هـ. ش/ 1995م؛ ● زرين قوب، عبد الحسين، جوست وجودار تصوف إيران، طهران 1367 هـ. ش، ص61 ـ 64؛ ● هروي، نجيب مايل، «أبو سعيد أبو الخير»، دائرة المعارف بوزركي إسلامي، 5/ 521 ـ 532؛

● R. A. Nicholson, Studies in Islamic Mysticism, Cambridge 1921, p.1-76; ● Annemarie Schimmel, Mystical Dimensions of Islam, Carolina 1975, p.88,116, 211, 235, 241-244, 433; ● H. Ritter, «Abu Said b. Abil-Khayr», Encyclopaedia of Islam (new edition), I, 145-147; ● G.Böwering, «Abu Said Fazlallah b. Abil-Kayr», Encyclopaedia Iranica, I, 377-378; ● Tahsin Yazici, «Ebu Said Ebül-Hayr», Türkiye Diyanet Vakfi Islam Ansiklopedisi, Istanbul 1994, X, 220-222.

د. أحمد أوزال
مركز البحوث الإسلامية ـ استانبول ـ تركيا
ترجمة: مصطفى بن الطاهر الستيتي ـ تونس

ابن أبي الخير المسيحي، أبو نصر سعيد

(573هـ/1177م - 658هـ/1260م)

أبو نصر سعيد بن أبي الخير بن عيسى المسيحي المتطبّب الحضيري النسطوري العراقي المعروف بأبي نصر بن المسيحي.

ولد ابن أبي الخير في العراق عام 573هـ/1177م، وعاش في بغداد ودرس الطب على أيدي علمائها، وأصبح طبيبا، وكان كما يقول عنه ابن أبي أصيبعة في كتابه عيون الأنباء في طبقات الأطباء: «من المتميّزين في صناعة الطب، والأفاضل من أهلها والأعيان من أربابها». اشتهر ابن أبي الخير كثيرا في معالجاته الطبية حتّى أصبح طبيبا للخليفة العباسي الرابع والثلاثين الناصر لدين الله في سنة 598هـ.

ويروي ابن أبي أصيبعة قصة طريفة عندما استدعاه الخليفة الناصر لدين الله لمعالجة حصاة فشل طبيبه في إنزالها من مثانته، فلمّا حضر أبو النصر، أراد الخليفة أن يصلب طبيبه الأوّل، فقام أبو النصر وقبّل الأرض بين يديه، وقال: بحق نعمة الله عليك، وبمن مضى من أسلافك الطاهرين لا تسنَّ على الأطباء هذه السنة.

فالرجل لم يخطىء التدبير، ولكن لسوء حظه أن المرض لم ينته، فاستجاب الخليفة له وأمر بالعفو عنه على ألّا يدخل إليه مرة أخرى. ثم نجح أبو النصر في معالجة الخليفة، ونزلت الحصاة دون جراحة، وكانت خمسة أو سبعة مثاقيل، فغمره الخليفة بإحسانه وقرّبه منه. ثم خصّه بمكافأة متميّزة بأن أمر بإدخاله إلى بيت المال، وأن يسمح له بحمل كل ما يستطيع حمله من ذهب، وبأن تخلع عليه الخلع والهدايا، وأن يرتّب له الراتب والإقامة، وقد استمرّ راتبه وإقامته حتّى وفاته.

وتشير المصادر التاريخية أنّ أبا النصر قد توفّي في حياة الخليفة الناصر لدين الله وذلك في سنة 658هـ، وأنه قد ترك ولدا واحدا متخلّفا، فأمر الناصر أن تترك له أموال والده، «فما خرج منا لا يعود إلينا»

آثاره

تشير كتب التراجم إلى قلّة مؤلّفات ابن أبي الخير، فيذكر ابن أبي أصيبعة في كتابه عيون الأنباء، والزركلي في كتابه الأعلام أنّ هناك كتابين ألّفهما أبو نصر هما:

1 - كتاب الاقتضاب المجموع على طريقة المسألة والجواب؛ 2 - كتاب انتخاب الاقتضاب على طريق المسألة والجواب، وهو موجز للكتاب الأوّل، أحسن فيه الأداء وأجاد في الإيضاح والكشف عن الغوامض في الحقائق والأمثال، مما هو يفيد يملأ الفراغ.

يضع أبو النصر كتابه «الاقتضاب» المجموع على طريقة المسألة والجواب ككتاب تعليمي، إذ يلجأ فيه إلى حوارية السؤال والجواب مما

يبسط المعلومات ويسهّل على القارىء حفظها، ولربّما كان أبو النصر أستاذا يعلّم ويريد أن يضع بين أيدي طلابه كتابا مقتضبا يجمع فيه أصول الطب والمداواة، لذا لجأ إلى هذا الأسلوب التعليمي.

وبالطبع لم يكن أبو النصر الذي عاش في القرن 7هـ/ 13م هو أول طبيب سلك في كتابه «المسائل في العين» والذي يحتوي على مائتين وسبع عشرة مسألة مع أجوبتها. كما أننا نجد هذا النمط أيضًا لدى أبي بكر الرازي (ت 313هـ/ 925م) في كتابه «ما الفارق أو كلام في الفروق بين الأمراض» والذي يحتوي أسئلة من النمط التالي على سبيل المثال: سؤال «ما الفارق بين السبات والسكات؟» الجواب: . . .، سؤال «ما الفرق بين ورم الدماغ وورم أغشيته؟» الجواب: . . .

وعلى كل حال فإن أبا النصر وإن لم يكن أول من أوجد هذا الأسلوب في الكتابة، إلّا أنه أجاد استعماله وأبدع فيه، فقدم المعلومات الطبية في كتابه وفق عرض مكثّف دقيق، وبترتيب منهجي تعليمي.

أما أهمية كتاب «الاقتضاب» فتكمن في كونه يعكس وضع العلوم العربية في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، أي في العصر الذي انتهت فيه ترجمة المؤلّفات الطبية الأجنبية إلى اللغة العربية، وانتهى شرحها والتعليق عليها، وبعد أن ظهرت مؤلّفات طبية عربية موسوعية كانت محطات بارزة ومهمة جدا في تاريخ الطب.

يوجد من هذا الكتاب عدة نسخ منها ثلاث نسخ موجودة في المكتبة الظاهرية بدمشق هي الأولى برقم 147 ط.م تتألّف من 71 ورقة، والثانية برقم 53 طط وتتألّف من 42 ورقة، والثالثة برقم 146ط اختلطت أوراقها مع أوراق مخطوطات أخرى.

يسير أبو النصر في كتابه «الاقتضاب» على خُطى الطبيب العربي ابن سينا في كتابه القانون في الطب، ولا يحيد عنه في شيء. فمن خلال الاطّلاع على كتاب الاقتضاب يتبيّن للباحث مقدار التأثر بمدرسة وأفكار ابن سينا. كما يمكن ملاحظة أنّ أبا نصر اعتمد أحيانا على أقرباذين القلانسي (ت 560هـ) الذي عاش في القرن 6هـ/ 12م وخاصة فيما يتعلّق بالأدوية المركّبة. ولكن مما يؤخذ على أبي النصر عدم ذكره للمصادر والمراجع التي استقى منها معلوماته.

ويمكن القول إنّ أبا النصر لم يقدّم في كتابه «الاقتضاب» شيئا جديدا مبتكرا في عالم الطب، وإنّما اقتصر كتابه على النقل والتلخيص والتبويب وجمع وترتيب لما ذكره قبله كثير من المؤلّفين في الصناعة الطبية، ولما كان معروفا في عصره.

كان أبو النصر في ترتيبه لتسلسل الأسئلة وتبويبها ناجحًا وشبيها بالتقسيمات الحديثة في عالم الطب والصيدلة، كما كانت تعليلاته وتفسيراته كلّها معتمدة على نظرية الأخلاط والأمزجة.

وإنّ كثرة التفريعات والتقسيمات في الكتاب ترتبط بتأثر أبي نصر بالفلسفة وحرصه على تحقيق الدقّة العلمية في عرضه لمسائل الطب. ولذلك كانت غلبة المصطلح العلمي العربي على المصطلح المُعرّب، وكذلك غلبة

المصطلحات المعرّبة في المجال الصيدلي لأنّها في أغلبها أسماء نباتات وأدوية مفردة أو مركّبة تنتمي في غالبيّتها إلى اليونانية أو السريانية أو الفارسية مع نسبة قليلة من الألفاظ اللاتينية والعربية والهندسية.

المصادر والمراجع

● ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تح. نزار رضا، دار المكتبة الحياة، بيروت، 1965، ص304؛ ● ابن سينا، الحسين بن عبد الله، القانون في الطب، طبعة بولاق، أعاد طبعه بالأوفست مكتبة المثنى، بغداد، 3 أجزاء؛ ● ابن مراد، إبراهيم، المصطلح الأعجمي في كتب الطب والصيدلة العربية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، جزآن؛ ● بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي، تح. عبد الحليم النجار، ط3، دار المعارف، مصر، ملحق 1/ 892؛ ● حمارنة، سامي خلف، فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية، مجمع اللغة العربية، دمشق 1969م، ص 318 ـ 473؛ ● خليفة، حاجي، كشف الظنون، دار الفكر، 1/ 129 ـ 135؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، 1984، 3/ 94؛ ● قطاية، سلمان، مخطوطات الطب والصيدلة في المكتبات العامّة بحلب، معهد التراث العلمي العربي، جامعة حلب، 1976م، ص 376؛ ● القلانسي، بدر الدين، أقرباذين القلانسي، تح. محمد زهير البابا، معهد التراث العلمي العربي، جامعة حلب، 1983؛ ● مجموعة مؤلّفين، موسوعة العلوم الإسلامية والعلماء المسلمين، دار المستقبل، القاهرة، ص 163.

د. محمد هشام النعسان
معهد التراث العلمي العربي
حلب ـ سوريا

ابن خير الإشبيلي، أبو بكر محمد بن خير بن عمر

(502هـ/1108م ـ 575هـ/1179م)

هو أبو بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة الإشبيلي، مولى إبراهيم بن محمد بن يعمور اللمتوني، من أهل إشبيلية. «فقيه محدّث، من أهل الإتقان وجودة الضبط» [بغية الملتمس، أديبا، 1/ 104]. ولد ليلة الأحد لليلتين بقيتا من شهر رمضان سنة 502 هـ، وعاش في إشبيلية فترة طفولته وصباه، ويظهر أنه بدأ طلبه للعلم منذ عام 518هـ/ 1124م في إشبيلية، ومن المرجح أنه لم يغادر مسقط رأسه قبل سنة 527هـ/ 1132م فهو يخبرنا أنه في سنة 518 سمع كتاب «الهداية إلى مذاهب القراء السبعة» لأبي

العباس أحمد بن عمار، وكتاب «اختيار فصيح الكلام» لثعلب، على الشيخ الأديب أبي عبد الله محمد بن سليمان بن أحمد النفري المالقي في منزله بإشبيلية.

وفي سنة 520 سمع بعض مصنّف الإمام الترمذي على الشيخ أبي الحسن عباد بن سرحان بن مسلم المعافري بجامع إشبيلية. وفي رمضان سنة 526 سمع كتاب «الأموال» لإسماعيل القاضي علي القاضي أبي مروان عبد الملك بن عبد العزيز اللخمي الباجي. وفي أواخر سنة 529 نراه في قرطبة حيث يذكر أنه قرأ «الرسالة» لأبي محمد عبد الله بن عبد الرحمٰن النفزي المعروف بأبي زيد، قرأها على الشيخ الفقيه الزاهد أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمٰن بن معمر المنحجي بمنزله بقرطبة في ذي الحجة من تلك السنة.

وفي سنة 535هـ يعود إلى إشبيلية ويتصدّر للإقراء والإسماع، ومنها يرحل إلى المرية ثم إلى طريف سنة 540، ثم كانت له رحلات إلى بلاد مختلفة، فنحن نقرأ له أنه كان بمدينة شلب سنة 549، وبمدينة موزور عامي 563، 564. وينتهي به المطاف إلي قرطبة حيث ولي الصلاة بجامعها الأعظم سنة 573، برغبة من واليها. وبقي في هذا المنصب إلى أن توفي في قرطبة سحر ليلة الاربعاء من شهر ربيع الأول سنة 575هـ بعد أن عاش 73 سنة. ودفن بالدار التي أنزل فيها، ثم نقل جثمانه بعد ذلك إلى إشبيلية، ودفن بمقبرة مشكة منها. وكانت جنازته مشهودة، حضرها الوالي ولم يتخلف عنها كبير ولا صغير في البلد. وبيعت كتبه بأغلى ثمن، لأنها غاية في الصحة والإتقان، لكثرة ما عاناها، وعالج تصحيحها بحسن خطه، وجودة تقييده وضبطه. وفي ذلك قطع دهره، وأنفق زهرة حياته، فلحق بالمتقدمين، وأربى على المتأخرين، ولم يكن له نظير في هذا الشأن، مع الحظ الأوفر في علم البيان. وفي مكتبة القرويين نسخة من «صحيح مسلم» التي قابلها مرارا، وسمع فيها وأسمع، وعليها تعليقاته المفيدة والغنية، وتعدّ أعظم أصل موجود من صحيح مسلم في إفريقية.

بالإضافة إلى ما ذكر من أعلام تتلمذ عليهم خاصة من إشبيلية فقد أخذ القراءات عن أبي الحسن شريح بن محمد، ولازمه واختص به إلي حين وفاته، وسمع منه ومن أبي إسحاق بن حبيش، وأبي بكر بن طاهر، وأبي عبد الله بن عبد الرزاق وغيرهم. «وسمع بقرطبة من أبي جعفر بن عبد العزيز، وابن عمه أبي بكر، وأبي القاسم بن بقي، وأبي عبد الله بن الحاج، وابن المغيث، وابن أبي الخصال، وابن مسرة. ولقي أبا محمد بن عطية، وأبا الفضل بن عياض فسمع منهما ومن ابن أخت غانم، وابن معمر، وعباد بن سرحان، وأبي الحسين بن الطلاء وجماعة سواهم. وأجاز له من الأعلام الأندلسيين أبو محمد بن عتاب، وأبو بحر الأسدي، وابن الوارق، وابن طريف، وابن موهب، والرشاطي وأبو الحسن بن نافع، وابن بقوة وغيرهم. ومن الشرقيين أبو طاهر السلفي، أبو عبد الله المازري بالمهدية وغيرهما» [التكملة، ص 523 ـ 524].

وقد بلغ عدد من سمع منه أو كتب إليه نيفا ومائة رجل ذكرهم في فهرسته الشهير، وهو كتاب وصفه ابن الأبار بأنه «لا يُعلم لأحد من

طبقته مثله» [التكملة، ص 524]، وتجاوز عدد الكتب التي سمعها أو قرأها أو أجيزت له الألف كتاب كما يتضح من فهرسته. وصفه ابن الأبار بأنه «كان مقرئا مجوّدا ضابطا محدّثا جليلا متقنا أديبا نحويا لغويا واسع المعرفة، رضيا مأمونا، كريم العشرة فاضلا، ما صحب أحدا ولا صحبه أحد إلا أثنى عليه» [التكملة لكتاب الصلة، ص 524]، وروي عن أبي الحسن بن مغيث قوله: «أبو بكر بن خير خيّر ابن خير» [التكملة، ص 524]. وقال عنه ابن العماد الحنبلي إنه «فاق الأقران في ضبط القراءات، وسمع الكثير من أبي مروان الباجي، وابن العربي وخلق، وبرع أيضا في الحديث، واشتهر بالإتقان وسعة المعرفة بالعربية» [شذرات الذهب، 4/ 252].

عدّ ابن خير من كبار مقرئي عصره وأكثرهم ضبطا للقراءات واهتم بالأحاديث وإتقان روايته والتبحر في علومه، وتمييز رجال إسناده؛ فأصبح أحد الشيوخ المميزين بالرواية الحديثية في وقته، وبعد رجوعه إلي إشبيلية للإقراء والتسميع، قائما على الصناعتين مبرزا فيهما، قصده الناس للأخذ عنه، وأسندوا بواسطته الروايات. وممن تلا عليه ابن أخته العمر أبو الحسين بن السراج، وسمع منه «تفسير النسائي»، وكتاب «الخصائص» وهُمَا له.

آثاره

الراجح أن ابن خير ألف كتابين هما:

1 ـ فهرسة شيوخه، تكلم في مقدمة الفهرسة عن فضل العلم، وفائدته، وعن الوسائل التي يتم بها نقل العلم، كما تعرض لأسامي كل ما قرأه من الكتب في شتى العلوم، وأسماء شيوخه الذين درس عليهم، وأجازوه، مرتبين حسب النواحي: إشبيلية، وقرطبة، والمرية، ومالقة، والجزيرة الخضراء، وغيرها من البلدان. وأهمية هذه الفهرسة تتجلّى في ذلك العدد الضخم من الكتب التي ذكرها، والتي تفرق 1045 كتابا في كل العلوم، والمؤلفين الذين أثبت أسماءهم؛ غير أن حاجي خليفة في كتابه «كشف الظنون» لم يذكر منها غير عدد ضئيل جدا، يقول عنها ابن الأبّار: «إنه فاق الجميع في قراءة الشعر، وشرح السير». طبعت بسرقسطة بإسبانيا عام 1893م؛ بإشراف المستشرق كوادره ومعاونة تليند خوان روبارة، وأعيط طبعه سنة 1382هـ/ 1963م بإشراف زهير فتح الله ومشاركة المكتب التجاري ببيروت ومكتبة المثنى ببغداد ومؤسسة الخانجي بالقاهرة؛ 2 ـ شرح صحيح مسلم، ذكره الكتاني في كتابه «فهرس الفهارس».

المصادر والمراجع

● فهرسة ابن خير، نشرت باعتناء الشيخ فرنشكه قداره زيدين ومن معه، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط 2، 1399هـ/ 1979م؛ ● السيوطي، بغية الوعاة، تح. محمد أبي الفضل إبراهيم، دار الفكر، ط 2، 1979م، 1/ 103؛ ● السيوطي، طبقات الحفّاظ، دار الكتب العلمية، بيروت 1983، 482؛ ● الذهبي، تاريخ الإسلام، تح. عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، ط 2، بيروت 1998، 178؛ ● م. ن. تذكرة الحفاظ، مكتبة الحرم المكي 1374هـ/

1954م، 4/ 1366؛ ● م. ن. ذيل العبر في خبر من غبر، تح. أبو هاجر محمد السعيد زغلول، دار الكتب العلمية بيروت، 3/ 69؛ ● م. ن. سير أعلام النبلاء، تح. شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط 7، 1990، 21/ 85؛ ● م. ن. معرفة القراء الكبار، تح. محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، مصر د. ت.، 2/ 445؛ ● ابن العماد الحنبلي. شذرات الذهب، بيروت، د. ت.، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، 4/ 252؛ ● ابن الجزري، غاية النهاية، عني بنشره ج. برغستراسر، دار الكتب العلمية، بيروت 1980، ط 2، 2/ 139؛ ● ابن الأبار، التكملة، تح. عبد السلام الهراس، الدار البيضاء، المغرب، د. ت.، دار المعرفة، 2/ 49؛ ● الكتاني، فهرس الفهارس، نشر باعتناء إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1982، 1/ 384؛ ● كحالة، معجم المؤلفين، مكتبة المثنى، ودار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت.، 9/ 294؛ ● الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت 1980، ط 5، 6/ 119؛ ● عمر الدقاق، مصادر التراث العربي، مكتبة دار الشرق، بيروت، د. ت.؛ ● عبد الله المرابط الترغي، فهارس علماء المغرب، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1999م، 599؛ ● آنخل جنثالث بالنسيا، تاريخ الفكر الأندلسي، نقله إلى العربية حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د. ت.، 281.

د. أحمد متفكر
جامعة القاضي عياض ـ مراكش ـ المغرب
د. عبد الستار الحلوجي
جامعة القاهرة ـ مصر

خير الله، أمين ظاهر

(ت 1367هـ/ 1948م)

أمين ظاهر خير الله (الشّويريّ). تثقّف على أبيه. فأخذ عنه شدّة التعلّق بالتراث العربي وحبّ اللّغة العربيّة، بعلومها المختلفة، ولا سيّما التبحّر بمباحث الأبنية والأوزان.

ولد أمين في بلدة الشّوير، من قضاء المتن، في لبنان. تعلّم في مدرسة البلدة، ثم تتلمذ لأبيه في علوم اللغة العربيّة، والفكر الديني المسيحي. وانصرف بعد وفاة أبيه (1916م) إلى التأليف والتعليم وعمل سنوات عدّة في تحرير جريدة «لبنان» لإبراهيم الأسود.

لمع اسمه في فترة سجاله مع الأب انستاس

الكرملي، واللّغوي مصطفى جواد، وبعض أعضاء المجامع اللّغويّة، فعرفته المجلات الكبيرة كالمقتطف والمشرق والعرفان والمسرّة ذلك المحاجج الجلود، والمدافع بصدق وحرارة عن أفكاره وكتاباته.

استطاع أمين خير الله إنجاز مباحث عدّة في علوم الصرف، منها ما يعود إلى إنتاجه الشخصيّ، ومنها ما يعود إلى والده الذي حال الموت بينه وبين إصدارها أو إنجازها بالكامل، ممّا طبع مؤلّفات الأب وابنه بخصائص واحدة، يصعب التمييز في ما بينها. لذا، فهو ابن اتّجاه لغويّ يتلخّص بميزتين اثنتين:

الأولى: إعمال القياس في أحكام اللغة. مع الاحتكام إلى الأصول التي لا محيد عنها،

والثانية: إحياء وظيفة الأبنية والأوزان وما لها من دلالات، باعتبارها المدخل الصحيح لإصلاح ما شاب كتابة المنشئين، وأصحاب المعاجم من خلل واضطراب وزلل. وكان يأمل من خلال هاتين الميزتين تحقيق حلمه في إخراج معجم عربي، محرّر المتن، سليم اللغة، دقيق المباني، واضح العبارة.

وأضاف أمين إلى شهرته في التخريج اللّغوي، غزارة إنتاجه في أدبيّات العقيدة المسيحيّة، فوضع العديد من الدراسات والتراتيل والتمثيليات التي اتّخذ مادّتها من العهدين القديم والجديد.

آثاره

1 ـ طيب الأريج في الجلاء عن حاجة علم متن اللّغة إلى المباني والتخريج، يعرّف المؤلّف في هذا الكتيّب مقصده في مصطلحي «علم المباني» و«التخريج اللّغوي»، ويبيّن أهميّة «المباني» (أو الأوزان الصرفيّة) في تحرير نصوص المعجم. ويدعو إلى اعتماد التخريج لبلوغ القياس الصحيح في الكلمات والعبارات.

أمّا «علم المباني» فهو من الصرف كعلم المعاني من النحو، أو مسك الدفاتر من حساب «العدد»، وعالم «المباني» ينظر في المعنى ويختار له المبنى الخاص به، فيقول المعنى الفلاني له المبنى الفلاني، وأنّ المبنى الفلاني للمعنى الفلانيّ [ص3].

وقد دلّل على فائدة هذا العمل من خلال ما نشره «من دقائق المباني في ثلاثة كتب، هي المنهاج السويّ، واللؤلؤ المنضود، والرّأي الحاسم» [ص4]، ممّا يدعونا إلى اعتبار هذا الكتاب مقدّمة صالحة لما نشره في كتبه الثلاثة.

وأمّا «التخريج» فهو تقليب أحكام الكلمة الواحدة على وجوه الصرف والاشتقاق، ومقايستها بنظائرها اهتداء إلى صحّة مبناها؛

2 ـ الرّأي الحاسم في الكلام الصحيح الذي خلت منه المعاجم، يشير المؤلّف في التوطئة إلى سبب تأليف هذا الكتاب، فيعزوه إلى حاجة أبناء العربيّة إلى «معجم محرّر القواعد، مستوفي مواد اللغة»؛ فالمعاجم، قديمها وحديثها، لا تزال في حاجة إلى مزيد من الكلمات «ولا سيّما أنّ طائفة كبيرة من الكلام الصحيح الفصيح لم توردها هذه المعاجم، وهي ترد في كتب الثّقات في آداب اللغة وفي البلاغة وفي العلوم التي تشتدّ الحاجة إليها ككتب علم الحيوان، فيقف

لديها الطالب حائرا في أمرها، فإذا عاد إلى الاستيضاح عنها في المعاجم، لا يجد بيانا عنها» [ص2].

إنّ ما شكّل مادة هذا الكتاب، من نقد معجميّ، قِوامه التصويب الصرفي، في الغالب، على قاعدة اطّراد القياس، يتكرّر بصيغ مختلفة في مؤلّفات أمين خير الله الذي كان مسكونا ومشغولا بتحقيق حلم إصدار معجم عربي، صحيح العبارة، مستكمل المادة؛ 3 ـ اللؤلؤ المنضود في دفع نقود، يتضمن هذا الكتاب ردّ المؤلّف على خمسة وثلاثين اعتراضا، أو نقدا، كان أحد الأدباء الصحفيين قد وجّهها لكتاب «المنهاج السويّ في التخريج اللغوي» الذي وضعه ظاهر خير الله (والد المؤلّف)، فأكبّ المؤلف على ما جاء في الرسالة النقديّة، وعزم على الردّ، فجاء الكتاب مشفوعا بالشواهد والأدلّة والاحتجاج بأقوال أئمّة اللّغة.

وينحصر النقاش، أو الاعتراض والردّ عليه، في مسائل متفرّقة تتناول الصرف والنحو والنقد المعجميّ واطّراد القياس أو عدمه، وحدود الاحتجاج بأئمّة اللّغة، وهل تصحّ المعاجم مستندا؟

وكثيرا ما يستطرد المؤلّف في الردّ على مسألة بعينها، فيجوز أفق الكتاب إلى إطلاق الأحكام التي تكشف عن معقوله اللّغويّ، ولا سيّما التزام القياس؛ 4 ـ البرهان الجليّ على علم الأب الكرملّي، يتضمّن هذا الكتاب القسم الأوّل من النقاش الذي دار بين المؤلّف (أمين) والأب أنستاس الكرملّي حول من كان له السّبق في بيان أهميّة «علم المباني» أو «أسرار الأوزان»، وما أثاره المؤلّف من مسائل صرفيّة تتعلّق بالأوزان والجموع، وتوهّم المعجميّين في تخريجها، وهي جملة مسائل كان قد نشرها في مقالين، وكان قد استفتى عددا من العلماء في مضمونها، ومن بينهم العلامة الأب الكرملي، الذي بعث بردّه للمؤلّف. وسرعان ما استدعى الجواب ردّا طويلا من (أمين)، وأعقب ذلك رسالة جوابيّة ثانية من الكرملّي، وأعقبها ردّ من (أمين). ولم تخل الرسالة الثانية من الكرملّي وجوابها من حدّة وتبادل التقليل من الشأن. وكان (أمين) قد اعتمد في انتقاد ما جاء في جمع المادّة المعجميّة معياريّة مشفوعة بالدليل والشاهد، وكان (الكرملّي) يعتمد في ردّه، بالمقابل، المقايسة والتجوّز؛ 5 ـ الأرج الزّاكي في تهاني غبطة البطريرك الانطاكيّ السيد ملاتيوس، المطبعة العثمانيّة، بعبدا (لبنان) 1899، 160ص؛ 6 ـ كلمة شاعر في وصف خطب نادر، وصف شعريّ لزلزال مدينة فرنسيسكو، مطبعة جريدة مرآة الغرب، نيويورك 1906، 90ص؛ 7 ـ المرأة ملاك وشيطان، مطبعة جريدة مرآة الغرب، نيويورك 1907، 77ص؛ 8 ـ الأرض والسماء، قصائد أدبيّة أخلاقيّة تاريخيّة (نظمها على أسلوب إلياذة هوميروس)، المطبعة الأدبيّة، بيروت 1909، 143ص؛ 9 ـ دروس الحياة الإنسانيّة في مدرسة الله النباتيّة، المطبعة الأدبيّة، بيروت 1909، 152ص؛ 10 ـ البنت في بيت أبيها، المطبعة البطريركيّة الأرثوذكسيّة، دمشق 1911، 188ص؛ 11 ـ مريم المجدليّة، نشرت تباعا في مجلة النعمة: 4/ 773، 817، 894، 5/ 65، 145 (سنة 1913)؛

12 ـ البيان الصراح عن نذر يفتاح، المطبعة البطريركيّة الأرثوذكسيّة، دمشق 1913، 104ص؛ 13 ـ أرينب بنت إسحق (مسرحيّة)، مطبعة أمين هندية، مصر 1919، 276ص؛ 14 ـ الأزاهير المضمومة في الدين والحكومة، مطبعة أمين هنديّة، مصر 1919، 400ص؛ 15 ـ نغمات الملائكة (مجموعة أناشيد)، مطبعة أمين هنديّة، مصر 1920، 80ص؛ 16 ـ رواية العلم السماويّ (تتضمن اهتداء الإمبراطور قسطنطين الكبير إلى الإيمان المسيحي)، مطبعة أمين هنديّة، مصر 1920، 203ص؛ 17 ـ اللؤلؤ المنضود في دفع نقود، مطبعة الاجتهاد، بيروت 1929، 152ص؛ 18 ـ تسبيح صهيون (تراتيل روحيّة)، مطبعة الاجتهاد، بيروت 1930، 26ص؛ 19 ـ الرأي الحاسم في الكلام الصحيح الذي خلت منه المعاجم، المطبعة العلميّة، بيروت 1932، 55ص؛ 20 ـ طيب الأريج في الجلاء عن حاجة علم متن اللغة إلى المباني والتخريج، مطبعة بن زيدون، دمشق 1934، 19ص؛ 21 ـ البرهان الجليّ على علم الأب الكرملّي، مطبعة ابن زيدون، دمشق 1934، 80ص؛ 22 ـ القول السّداد في مساجلة الشيخ مصطفى جواد، (ملحق الجزء 3 و4 من المجلد 26، من مجلة العرفان) ومطبعة العرفان، صيدا 1935، 24ص؛ 23 ـ المحجّة البيضاء في صحّة نعت الجموع بفعلاء (الجزء الثاني في الردّ على الكرملّي). مطبعة الترقّي، دمشق 1937، 224ص.

المصادر والمراجع

● داغر، مصادر الدراسة الأدبيّة، 3 (القسم الأول)، 409 ـ 412؛ ● سركيس، معجم المطبوعات، 476؛ ● شيخو، تاريخ الآداب العربيّة في الربع الأول من القرن العشرين، 172؛ ● كحّالة، معجم المؤلّفين، 3/ 8؛ ● جواد، مصطفى جواد، غلطات خير الدين، الشيخ أمين ظاهر، (م) العرفان، 26/ 116، 374، 529، (م) الحارس، 9/ 755، (م) المرّة، 24/ 415 ـ 416. (م) المقتطف، 56/ 181؛ ● قاسم، رياض زكي، اتجاهات البحث اللّغوي الحديث في العالم العربي، 2/ 269 ـ 271، 508، 510، 561 ـ 564، مؤسسة نوفل، بيروت 1982.

د. رياض زكي قاسم
الجامعة اللبنانية

خير الله، ظاهر إلياس

(1252هـ/1836م - 1335هـ/1916م)

ظاهر إلياس خير الله، الشُّوَيْرِي. لغويّ، مربّ، صحافيّ. اشتهر ببحوثه اللغويّة التي تنمّ عن غزارة علم، واجتهاد. كان متبصرا بعلوم العربية، ولا سيّما التخريجات الصرفيّة. وكان يعتقد أنّ المدخل الصحيح إلى معرفة اللغة وتحرير متنها من الأخطاء لا يكون إلّا بإتقان «علم المباني»، والتعمّق بمدلول الأوزان والصيغ.

ولد ظاهر خير الله في بلدة الشّوير، من قضاء المتن (لبنان). تلقّى في مدرسة البلدة مبادئ العربية والحساب والخط. وكان قد انصرف منذ حداثته إلى العمل، فاشتغل بنّاء سنوات عدّة. لكنّه رغب أن يقلّد ابن بلدته وقريبه جرجس همّام (صاحب معجم الطالب) في طلب العلم فترك حرفته، وغادر إلى بلدة عَبَيه (في جبل لبنان) ليتعلّم في مدرستها، التي أسّسها كرنيليوس فنديك (ت 1895م) سنة 1862، فأتقن فيها العربية والحساب، إضافة إلى مطالعاته الكثيرة في العقيدة المسيحيّة.

دفعه حبّه للتربية والتعليم إلى تدريس الحساب وعلوم اللغة العربيّة سنوات طويلة. وكان يجمع إلى ذلك «التحرير في بعض الجرائد والمجلات، كالمقتطف، والآثار، والهديّة، والنّشرة الأسبوعيّة، والإقبال»؛ ثمّ عمل بعد مرحلة لاحقة في إدارة مدارس طائفة «الروم الأرثوذكس» في بيروت ودمشق والبلمند.

تميّز ظاهر خير الله بعصاميّته ورصانته في كلّ ما انتدب إليه من أعمال. ولعلّ أبرز ما مهر شخصيّته حبّه الشديد للغة العربيّة والغيرة على تراثها، وشدّة تمسّكه بالدّين المسيحيّ.

سجّل في بحوثه اللّغويّة المنشورة آراء مهمّة في مسائل: عين المضارع وأوزان المطاوعة والانفعال، وجموع التكسير، وتقسيم المصادر، واسم الآلة، واسمي الزمان والمكان.

تميّزت بحوثه بدقّة التحرّي عن الأحكام، وقدرته على المقايسة والرّبط بين النظائر، وبراعنه في استخلاص المقارنة والنتائج المقنعة.

اطّلع في كثير من بحوثه اللّغويّة على ما نشره فارس الشدياق (ت 1888م) في كتابه «الجاسوس على القاموس»، واقتفى أثره في النقد المعجمي، مضيفا إليه نهجه في القياس والاحتكام اليه.

آثاره

1 - اللُّمَعُ النّواجِمُ في اللّغة والمعاجم، المطبعة العثمانيّة، بعبدا، لبنان، 1907، 74 ص.

حشد المؤلّف في هذه اللّمع، (هي مقدمة لـ «معجم الطالب») عددا من مسائل فقه اللّغة،

وبسطها للقارئ بشكل مركّز، ليطّلع في أربع نبذ، على تاريخ اللغة العربيّة، ودواعي جمع المادة اللّغويّة وتصنيفها في المعاجم، وما شاب التأليف في اللّغة، عموما، من خلل واضطراب.

ثم يعرض لمسائل في الصرف والنحو والدلالة بأربع لمع، جاعلا الأولى في الأفعال الثلاثيّة المجرّدة وتقسيمها إلى طوائف بحسب حركة عين الفعل، والثانية في مزيدات الأفعال، والثالثة في المصادر والأسماء المصدريّة، والرابعة في المشتقات؛ 2 ـ المنهاج السوي في التخريج اللّغوي، ويهدف المؤلّف في هذا الكتاب إلى دراسة بعض المسائل الصرفية ودلالة الأوزان، دراسة نقديّة، معياريّة، وهو يشدّد على تعزيز نظرية ردّ اللغة، ولا سيما متن المعجم، إلى القياس، «إزالة للإشكالات التي طرأت عليها من تساهلات اللغويّين والصرفيّين وتسامحاتهم التي فاقت الحصر عدّا» [ص 103].

وقد عالج، في سبيل تحقيق ذلك مسائل: أ ـ الفعل في حالتي الوضع (المعنى العريق)، والتوسّع والمجاز. ب ـ أوزان المطاوعة والانفعال. ج ـ المفرد والجمع، مع اهتمام خاص بجموع التكسير. وللكتاب أهميّة نقديّة، تتلخّص في اعتماد المعياريّة طريقة في تصويب المتن المعجمي وتنقيح ما جاء فيه من زَلَل؛ 3 ـ «رسالة جيّد» ويليها مطلب العلان، المطبعة الأدبيّة، بيروت، 1903، 84 ص.

يتحرّى المؤلّف في هذه «الرسالة» الوجيزة أصل الوزن (جيّد)؛ فيتساءل: هل هو على وزن فَعِيل أو فَيْعَل أو فَيْعِل؟

ويذيّل الرسالة بمبحث بناء (فعلان) و (فعلان) و(فعلان) شارحا ومعقبا، ومصوّبا، أحيانا، ما ورد في هذا الشأن في متن المعاجم ومصنفات الصّرف والاشتقاق؛ 4 ـ «رسالة المفعلة» ويليها مطلب انقسام جموع التكسير إلى ما يشترك بين ذي الحياة وغيره، وما يختصّ بذي الحياة، المطبعة الأدبيّة، بيروت، 1903، 32 ص.

يبسط المؤلّف في هذه «الرسالة» الوجيزة الكلام على اشتقاق اسمَي الزمان والمكان وصيغة المبالغة من موزونات المفعلة (بتثليث حرف العين: الفتح والكسر والضمّ)، وما يعرض لأوزانها في ما يُجمع منها وما لا يجمع.

وهو يستهل الرسالة برفض ما جاء عن «الأيمّة» بأن المفعلة تكون على بناء واحد، وبالتالي أنّها لا تنضبط تحت قاعدة.

وتكمن أهميّة هذه «الرسالة» في محاولة المؤلّف جعل صيغة المفعلة، بأوزانها الكثيرة، أقرب إلى القياس منه إلى السّماع، فقد استقصى المادة من مظانها، وأعاد تصنيفها، وقدّمها للقارئ بشكل مختلف عمّا كانت عليه؛ 5 ـ «تحقيق المقال في أنّ الخلاص بالإيمان والأعمال»، مطبعة الاتّحاد، بيروت، 1913، 338 ص. ويردّ المؤلّف في هذا الكتاب على الإنجيليين (البروتستانت) الذين يقولون إن الخلاص إنّما هو بالإيمان.

وقد تصدّى لكلّ فكرة من أفكارهم محاججا مفنّدا «مزاعمهم»، ثم خلص إلى إبطال مزاعمهم [ص 332]. ويذهب إلى القول إنّ

إيمان البروتستانت «مخالف لتعليم السيد ورُسُله، وبالتالي هو ساقط وباطل...» [ص 334].

المصادر والمراجع

● كحالة، معجم المؤلفين، 5/ 48؛
● شيخو، لويس، تاريخ الآداب العربية في الربع الأوّل من القرن العشرين، 75 ـ 76؛ ● المخطوطات العربيّة، 141؛
● الزركلي، الأعلام، 3/ 306؛
● سركيس، معجم المطبوعات، 1161؛
● داغر. مصادر الدراسة الأدبيّة، 3، القسم الأول، 406 ـ 408؛ ● فهرس دار الكتب المصرية، 2، 39.

د. رياض زكي قاسم
الجامعة اللبنانية ـ بيروت

خير الله، عبد الحق أفندي

(1233هـ/1818م ـ 1283هـ/1866م)

ولد في استانبول بتاريخ 25 ذي الحجة 1233هـ/ 26 أكتوبر 1818م. وكان والده عبد الحق أفندي يشغل منصب رئيس العلماء وكذلك رئيس الأطباء (حكيم باشي).

وينحدر خير الله أفندي من أسرة عريقة أغلب أفرادها من العلماء وهي أسرة اشتهرت برئاسة الأطباء [لمعرفة شجرة العائلة انظر: علي حيدر بيات، ص 125]، وانخرط خير الله في مهنة الطب مثل جده محمد خير الله أفندي، وعمه بهجت مصطفى أفندي، ووالده الذي كان يرأس المدرسة الطبية العدلية الشهانية بصفته حكيم باشي وناظرا، ودخل خير الله هذه المدرسة عام 1839م. وقد تولى مهمة الإشراف على التدريس وهو لايزال في سنته الأولى من الدراسة. وكُرِّمَ في سنته الثانية أي بتاريخ 24 مارس 1840م بالرتبة الثالثة وهي جائزة خاصة بأهل العلم حينذاك. وأعقب ذلك تسلمه منصب قضاء إزمير في محرم 1258هـ/ فبراير 1842م، وقضاء مكة المكرمة في محرم 1259هـ/ فبراير 1843م. وكرّم بجائزة أخرى خاصة بالحرمين الشريفين نظرا لأدائه الجيد. وبسبب كون هذه المناصب فخرية، فقد شاع خطأ في المعلومات التي أوردتها بعض المصادر عن ممارسته الفعلية للقضاء بالرغم من كونه طالبا في المدرسة. وتخرج من المدرسة الطبية المذكورة عام 1843م. وأعد دراسة علمية خاصة به أسماها «المقالات الطبية» نشرت في بداية عام 1844م.

بعد تخرجه مباشرة أعدّ رسالة الدكتوراه بعنوان «ضرور المخاط» التي نشرت كمؤلف طبي. وألف كتابا عام 1844م بعنوان «صحت

نومايي أطفال». واستمرت مهمته في الإشراف على التدريس حتى بعد تخرجه. وأثناء شغله لتلك الوظيفة كُرِّمَ بالرتبة الثالثة التي كانت تعتبر مفتاحا للترقي في المناصب الحكومية وذلك عام 1845م. وفي 9 أكتوبر 1845م تمَّ عزل والده من نظارة المدرسة الطبية. وتمَّ تعيين إسماعيل صاقيزلي الجراح أفندي بدلا منه، وقام هذا الرجل بتوقيف خير الله أفندي عن التدريس وقطع راتبه. وعين عام 1847م عضوا في المجلس الزراعي. وقام خير الله أفندي في تلك الأثناء بترجمة كتاب «البيت الدهقاني» الذي يتألف من جزأين. وهو كتاب يتناول المواضيع الزراعية ذات العلاقة بالعلوم الطبية. ووزعت نسخ من ترجمة هذا الكتاب على الإدارات الزراعية. وقد عاد والد خير الله إلى وظيفته السابقة. وبعدها مباشرة صدر مرسوم سلطاني مؤرخ بـ 2 ذي القعدة 1264هـ/ 30 سبتمبر 1848م يعيد خير الله أفندي إلى وظيفته السابقة مشرفا على التدريس في المدرسة الطبية. وكان عبد الحق أفندي رائدا من الروّاد المؤسسين لهذه المدرسة التي كانت تصدر دورية باللغتين التركية والفرنسية تسمى «الوقائع الطبية». وشهدت هذه الدورية تقدما ملحوظا تحت إشراف خير الله أفندي.

عيّن خير الله أفندي عام 1848م عضوا في مجلس المعارف العمومي. وألف كتابا أسماه «مسائل الحكمة» في العلوم التطبيقية لتدريسه في المدارس المتوسطة. وأتاحت له عضويته في المجلس المذكور فرصة جيدة لتتبع الوضع التعليمي في الدولة، ولهذا السبب طلب بعد فترة من اختياره عضوا في المجلس المذكور إعفاءه من وظائفه العلمية ومنحه مناصب إدارية، فمنح الدرجة الوظيفية الأولى من قبل السلطان عبد المجيد. وفي عام 1849م عين والده مرة ثانية في منصب القضاء العسكري لمنطقة الروميلي، لذلك تخلى والده عن منصبه كناظر للمدرسة الطبية، وبالتالي اضطر خير الله أفندي للتخلي عن منصبه في المدرسة المذكورة وقبلت استقالته. وعين عضوا في مجلس الأشغال عام 1850م على أن يحتفظ بعضويته في مجلس المعارف العمومي.

وأثناء شغله لهذه المهمة في هذا المجلس كانت الحاجة قد أصبحت ملحَّة له بسبب التوسع الذي طرأ على الوضع التعليمي في الدولة وبالتالي عين رئيسا ثانيا للمجلس الاستشاري. وكان هذا المجلس قد تولى تلبية كافة المتطلبات الثقافية للدولة بما فيها إعداد المناهج المدرسية. وعين في هذا المنصب عام 1851م، ومنذ ذلك التاريخ كرس جهوده لتأليف كتب تلبي الاحتياجات الثقافية العامة. وبدأت مسؤولياته الوظيفية تزداد حتى اختير في 11 رمضان 1268هـ/ 29 يونيو 1852م عضوا في مجلس ولائي أحكام عدلية الذي كان يضم أهم الشخصيات في ذلك الوقت.

وفي 28 رمضان 1270هـ/ 24 يونيو 1854م عين ناظرا للمدارس العمومية. ونتيجة لجهوده القيمة في هذا المنصب تم تكريمه بالوسام المجيدي من الدرجة الثالثة وهو أعلى وسام عثماني وذلك في 24 شعبان 1272هـ/ 30 أبريل 1856م. وعندما أسست نظارة المعارف العمومية حول منصبه إلى مستشار للنظارة في 20 أبريل 1857م. وبعد سنة أصبح ناظرا للمعارف العمومية بالوكالة، وذلك بعد تعيين ناظر المعارف حينذاك عبد الرحمٰن سامي

باشا واليا على جزيرة كريت. ومكث خير الله أفندي ناظرا بالوكالة حتى عودة الناظر بعد تسعة أشهر.

في 17 مايو من عام 1859م أعيد خير الله أفندي إلى المدرسة الطبية ناظرا لها بعد أن ابتعد عنها فترة طويلة، وبدأ في اتخاذ إجراءات إيجابية في تلك المدرسة وذلك بعد تخرجه منها بعشر سنوات. واستمر في منصبه هذا سنتين وثلاثة أشهر حتى تمت إقالته لسبب غير معروف في 19 أغسطس 1861م. وبقي دون عمل لفترة ثمّ تمّ تعيينه رئيسا لمجلس الدائرة البلدية السادسة عشرة في 16 فبراير 1862م، إلّا أنه استقال من منصبه بعد سنة أي في 26 شعبان 1279هـ/ 16 فبراير 1863م. وسافر إلى أوروبا في أواسط أبريل من العام نفسه، فذهب إلى فيينا ومكث فيها فترة وجيزة، وظل بدون عمل ما يقرب من عام. وبعدها عين مرة أخرى عضوا في مجلس ولائي للأحكام العدلية في يوليو 1864م.

بعد أن عاد إلى استانبول من رحلته إلى أوروبا كان بصدد إعداد الجزء الخامس عشر من كتابه عن تاريخ الدولة العثمانية من جهة، ومن جهة أخرى أتم تأليف «كتاب الأسفار» وتناول فيه رحلاته السابقة إلى فيينا ورحلته الأخيرة إلى فرنسا. ولم يلبث أن تم تعيينه بتاريخ 23 شعبان 1281هـ/ 21 يناير 1865م قائما بالأعمال في طهران. وأثناء شغله لهذا المنصب توفي فجأة في 17 شعبان 1283هـ/ 25 ديسمبر 1866م. وأعد له موكب جنازة مهيب بأمر من الشاه ناصر الدين. وتم دفنه في مقبرة الشاه عبد العظيم التي تقع في مدينة الري الواقعة على بعد 15 كيلومتراً من طهران.

آثاره

أثبت خير الله أفندي جدارة كبيرة في الوظائف الرسمية التي شغلها، كما أثبت كفاءته في مجالي الفكر والتأليف. وكتب مؤلفات عديدة عبر تأليفًا وترجمةً. وألف في مجالات الطب، والزراعة، والفيزياء، والبستنة، والجغرافية، والتاريخ، والسياحت نامه. أمّا أهمّ مؤلّفاته فهي:

1 ـ تاريخ دولت علية عثمانية (تاريخ خير الله أفندي): كانت خطة المؤلف تتلخص في إفراد مجلد كامل لكل سلطان من سلاطين آل عثمان البالغ عددهم اثنين وثلاثين سلطانا، غير أنه تمكن فقط من الكتابة عن 14 سلطانا فقط، ابتداء من أرطغرل غازي ونهاية بأحمد الأول (1603م ـ 1617م)، ولم يكتمل الأثر بسبب وفاته.

ويعتبر هذا المؤلف من المؤلفات التي بذل فيها خير الله أفندي جهدا كبيرا، وهو أشهر مؤلفاته. وكتب هذا الأثر بعقلية جديدة لإحساسه بحاجة التاريخ العثماني لذلك. بدأ في تأليفه في أعوام «أنجمن دانش» واستمر فيه حتى وفاته. وكانت الأبحاث التي تتعلق بالتاريخ العثماني حتى وقت قريب تعتمد عليه مصدرا أساسيا. والكتاب دراسة جادة اهتمت بوحدة الموضوع وتضمّنت أشياء جديدة وحملت خصائص قيمة فأكسبه ذلك أهمية خاصة. ونشر من قبل علي شوقي أفندي، مفتش ديوان الأحكام العدلية مع الذيل الذي كتبه في ثلاثة مجلدات حتى عام 1648م وذلك في الفترة الزمنية من عام 1853 إلى عام 1857م في 2054 صفحة و18 جزء؛

2 ـ كتاب الأسفار، وهو أهم مؤلفات خير

الله أفندي من الناحية العلمية. يذكر أنه ألف هذا الكتاب من أجل أن يكون معيناً للأشخاص الذين يذهبون من تركيا إلى أوروبا، ويبين أنه من الخطأ عدم التعريف بالعالم الغربي الذي يعتبر جارا قريبا لدولة كبيرة هي تركيا. وذكر أنه سوف يأتي وقت تكون فيه هناك ضرورة لرؤية أوروبا عن قرب. وبهذا الشكل مثل هذا المؤلف أول دليل للأسفار كُتب عن أوروبا من قِبَل مؤلف تركي. عمل فيه على التعريف بالجوانب المختلفة لمؤسسات العالم الغربي، وقد كانت التقارير التي يعدها موظفو السفارة قبله تتسم بمحدودية كبيرة ومع ذهابه هو إلى أوروبا خرج من هذا الإطار الضيق، فكان هذا المؤلف وثيقة ذات أهمية بالغة من ناحية الاتجاه التغريبي لتركيا.

وعند تصفّح الكتاب للوهلة الأولى يبدو كأنّما هو اقتباس لبعض المعلومات من مؤلف شبيه به كتبه الكاتب المصري رفاعة الطهطاوي بعنوان «تخليص الإبريز في تلخيص باريس» [بولاق 1250هـ، الترجمة التركية بسيم بك، بولاق 1255هـ]، غير أننا إذا وضعنا في الاعتبار أن مؤلف الطهطاوي اقتصر على فرنسا وحدها ومؤلف خير الله تناول حتى فيينا ولندن، فإننا نجد «كتاب الأسفار» أكثر تفصيلا من «تخليص الإبريز».

ظهر هذا الأثر المهم بعد مرور أعوام طويلة من تأليفه، وبسبب عدم طبعه في وقته فقد فقدت الحياة الفكرية التركية مصدرا قيما. وكان محمد طاهر البورصوي أول من أخبر بوجود هذا المؤلف، وعنه نقل إسماعيل باشا البغدادي. وبقي فترة زمنية طويلة دون أن يستفيد منه الباحثون. وفي فترة لاحقة تم التعريف به من قبل سهيل أونور وإسماعيل حامي دانشمند وكندوز أقنجي وأرجماند كوران. وفقدت النسخة الوحيدة المخطوطة التي كانت موجودة في كلية اللغات والتاريخ والجغرافية بأنقرة، وكانت هذه النسخة تحتوي على بعض الأوراق والمسودات التي تعود إلى الشاعر والأديب المشهور عبد الحق حامد، وهو ابن المؤلف، كما فقدت نسخة الميكروفيلم التي كانت توجد في المكتبة الوطنية؛ 3 ـ هزار أسرار (استانبول 1279هـ، 1285هـ)، عبارة عن مؤلف يتناول علاج بعض الأمراض، ويبدأ بعرض مجموعة من الشكايات الطبية حتى يصل إلى العمليات التي تتعلق بطرق فيزيائية وكيميائية، ويبين حل المشاكل بأقصر الطرق، ولهذا السبب استعمل كلمة «سر». وهو مؤلف بدأ الكتابة فيه من قبل عمه رئيس الأطباء بهجت مصطفى أفندي، واحتوى على 1000 مادة طبية. وبعد وفاته بقيت 850 مادة مكتوبة قام والده عبد الحق أفندي بالعمل على إتمامها، غير أنه لم يستطع إكمال العمل. وجاء خير الله أفندي وأدخل عليه بعض الإضافات وأكمله بعد أن وصل بالأسرار إلى 1000 سرٍّ؛ 4 ـ مقالات طبية (استانبول 1259هـ/ 1844م)، هو عبارة عن دليل كتبه خير الله أفندي للأطباء الذين يعملون في العيادات الطبية. ويحمل المؤلف خاصية أخرى مهمة وهي كونه أول دليل لتدريس الطب باللغة التركية وذلك بعد أن كان الطب يدرس باللغة الفرنسية. وقد كتب لطلاب الطب المبتدئين، وهو لا يتناول علم التشريح ولا علم الصيدلة ولا علم وظائف الأعضاء، وركز فقط على إيراد معلومات عن

الأمراض؛ 5 ـ لغات طبية، حسب ما ذكره المؤلف في بداية الكتاب فإن هذا الأثر هو نتيجة لدراسة طويلة بدأت في أوائل عام 1839م واستمرت حتى عام 1851م، ويتكون من 577 صفحة و6000 مادة، وكانت جميع المصطلحات ذات أصل عربي، ووضع خير الله مقابلها بالتركي وقام بتوضيحها، وفي نهاية كل مصطلح وضع كيفية نطقه باللغة الفرنسية. ويلاحظ أحيانا أنه يذكر المقابل اللاتيني. وتوجد النسخة المخطوطة الوحيدة من مؤلف «لغات طبية» في مكتبة قسم تاريخ الطب وdeontoloji بكلية جراح باشا للطب التابعة لجامعة استانبول [رقم 581]؛ 6 ـ مجموعة تدور حول المعالجات (مجموعة في المعالجات) [مكتبة جامعة استانبول، المخطوطات التركية، رقم 1427]، هو دفتر تم ترتيبه ببيان أسماء الأمراض؛ 7 ـ مفردات طبية في بيان أوزان الأدوية [مكتبة جامعة استانبول، المخطوطات التركية، رقم 1251]، مؤلف رتبه خير الله أفندي عندما كان في الصف الأخير في مكتب الطبية، وهو عبارة عن دفتر وصفات طبية. صنف الوصفات في هذا الدفتر وفقا للأمراض. ويلاحظ أنه احتوى على وصفات علاجية مكتوبة باللغة اللاتينية؛ 8 ـ تربية ومداواة الأطفال (صحت نوماي أطفال) [المكتبة الوطنية، قسم علي أميري أفندي، الطب، رقم 148]، هو عبارة عن كتاب تدريجي في ثلاث مراحل لدراسات إعداد الدكتوراه، ويتكون من 57 ورقة، ويبدأ من الولادة وأمراض الأطفال والعناية بالرضيع وتربية الطفل؛ 9 ـ حفظ صحة الجيش، يمثل هذا المؤلف ترجمة من اللغة الفرنسية. وكتب لبيان الخدمات الصحية اللازمة للجيش العثماني، ألفه خير الله أفندي في عام 1856م عندما كان ناظرا لمكتب العمومية، وقدمه إلى السلطان عبد المجيد، ويلاحظ أن له رسالة أخرى بعنوان «حفظ صحت»؛ 10 ـ ضرور المخاض، كتبه خير الله عندما كان في الصف الخامس بالمكتب الطبي أثناء دراسته لإعداد الدكتوراه، وهو يتعلق بالأمراض التي تظهر على الأعضاء التناسلية، وبعد أن تخرج تمت طباعته في عام 1260هـ/ أبريل 1844 في مطبعة المكتب الطبي؛ 11 ـ بيت دهقاني (I-II، استانبول 1264هـ)، ذكر المؤلف أنه سوف يقوم بنشر هذه الترجمة في ثلاثة مجلدات، وطبع المجلد الأول في أواسط شهر مارس من عام 1848م، والمجلد الثاني في أواخر شهر مايو من العام نفسه، بينما لم يطبع المجلد الثالث. وهو في الأصل اختصار وإضافات لكتاب MAISON RUSTIQUE الذي يتكون من أربعة مجلدات تدور حول الزراعة؛ 12 ـ مسائل حكمت (استانبول 1265هـ)، كتاب درس ألفه بغرض تقديم ما يقابل مفردات الفيزياء التي تم وضعها حديثا للرشدية؛ 13 ـ قطعة أفريقيا (استانبول 1268هـ)، عبارة عن ترجمة اختصر فيها مؤلف «الجغرافية العالمية» للجغرافي المشهور في القرن التاسع عشر كونراد مالطبرون وضمنه إضافات وحواشي؛ 14 ـ نقش خيال، هو أول مؤلف أدبي لخير الله أفندي، وقد أورد فيه الحوادث التي تعرض لها في حياته، وهو يحمل الخصائص الفنية للمثنويات القديمة، وهذه الحكاية المنثورة وشحها المؤلف ببعض الأبيات من شعره وأبيات أخرى اختارها من أشعار مختلفة، وقد كتبه عندما كان في الصف الأول

في مكتب الطبية، وذلك بتاريخ 11 رجب 1255هـ الموافق لـ 20 سبتمبر 1839م. ولم يتم الحديث عن هذا المؤلف ضمن الأعمال التي تحدثت عن خير الله أفندي، وهناك نسخة مخطوطة بخط الكاتب موجودة في مكتبة جامعة استانبول [المخطوطات التركية، رقم 1265، ورق 3ب ـ 29ب]؛ 15 ـ حكاية إبراهيم باشا به إبراهيم غلشني، كتبه لكي يمثل في متحف القصر الذي افتتح في عام 1859، ويعتبر أقدم عمل يتناول التاريخ العثماني؛ 16 ـ روضة النجاة، [مكتبة جامعة استانبول، المخطوطات التركية، رقم 7074]؛ 17 ـ اصطلاحات طبية، [مكتبة جامعة استانبول، المخطوطات التركية، رقم 7050، 7098].

المصادر والمراجع

● فتين، داود، تذكرة خاتمة الأشعار، استانبول 1271هـ، 88 ـ 89؛ ● ثريا، محمد، السجل العثماني، استانبول 1308 ـ 1315، 2/ 319؛ ● سامي شمس الدين، قاموس الأعلام، استانبول 1308، 3/ 2074؛ ● باشا أحمد جودت، التذكرة، نشر م. جاود بايسون، أنقرة 1953 ـ 1957، 4/ 57، 67، 71؛ ● البورصوي، محمد طاهر، المؤلفون العثمانيون، استانبول 1333 ـ 1342، 3/ 50 ـ 53؛ ● باشا، إسماعيل، هدية العارفين، 1/ 358؛

● Riza Tahsin, Tip Fakültesi Tarihçesi (Mir'ât-i Mekteb-i Tibbiye), Eklerle Yayinlayan Aykut Kazancigil, Istanbul 1991, p. 4, 32, 136; ● Th. Menzel, «Hayrullah Efendi», Islam Ansiklopedisi, V, 393-394; ● A. Süheyl Unver, «Hekimbasi ve Muverrih Dr. Hayrullah Efendinin Avrupa'ya Seyahatinden Notlar», Tip Tarihimiz Yilliği, I, Istanbul 1969, p. 52-54; ● A. Süheyl Unver, «Hekimbasi Hayrullah Efendi (1820-1866)», Dirim, XLVII/9, Istanbul 1972, p. 426-428; ● A. Suheyl Unver, «Tabib Hayrullah Efendi ve Makâlât-i Tibbiye», Tip Tarihi Arastirmalari, Istanbul 1986, I, 11-16; ● A. Süheyl Unver, «Hayrullah Efendi», Türk Ansiklopedisi, XIX, 128; ● Ismail Hami Danismend, «Türk Tiyatro Tarihine Ait Cok Mühim Bir Vesika: Hamid'in Babasi Hayrullah Efendinin Piyesi», Türklük, nr. 2, Istanbul 1939, p. 92-93, 109-122; ● Ismail Hami Danismend , «Türk Tiyatrosunun ilk Piyesi», ayni eser, nr. 8, 1939, p. 73-91; ● Ibrahim Alaaddin Givsa, Türk Meshurlari Ansiklopedisi, Istanbul 1946, p. 174; ● Fethi Isfendiyaroğlu, Galatasaray Tarihi, Istanbul 1952, p. 367-370; ● Ramazan Sesen, and Others, Fihrisu mahtûlâti't-tibbi'l-Islâmî fî mektebati Türkiyâ, Istanbul 1404/1984, p. 224-225; ● Zuhal Özaydin, Tanzimat Devri Hekimi Hayrullah Efendi, Hayati ve Eserleri (doktora tezi, 1990, Istanbul Universitesi Sağlik Bilimleri Enstitüsü), ISAM Ktp., nr. 78458; ● Ali Haydar Bayat, Osmanli Devletinde Hekimbasilik

Kurumu ve Hekimbasilar, Ankara 1999, p.121-125; • Ercümend Kuran, «Khayr Allah Efendi», Encyclopaedia of Islam (new edition), 1978, IV, 1153; • Nuran Yildirim, «Hayrullah Efendi», Dünden Bugüne Istanbul Ansiklopedisi, IV, 33-34; • Ömer Faruk Akün, «Hayrullah Efendi», Türkiye Diyanet Vakfi Islam Ansiklopedisi, XVII, 67-75; • Ömer Faruk Akün, «Hayrullah Efendi Tarihi», Türkiye Diyanet Vakfi Islam Ansiklopedisi, XVII, 76-79.

د. أحـــمـــــد أوزال
مركز البحوث الإسلامية ـ استانبول ـ تركيا
ترجمة: مصطفى بن الطاهر الستيتي ـ تونس

ابن خيرون الشاطبي، أبو جعفر أحمد بن عتيق

(ت 743هـ/1342م)

أحمد بن عتيق بن أحمد بن محمد بن أحمد بن يوسف بن خيرون الأزدي المعروف بالشاطبي، الغرناطي، كان من قدماء القضاة في زمنه ممّن أتقنوا مهنتهم، ضابطا للشروط، عالما بالوثائق، بصيرًا بعللها، وأحكامها، إماما متقدّما فيها، حافظا للنوازل، فقيها مشاورا. تولّى القضاء بمدينة برجة زمنا طويلا وعمّر وهو يمارس مهنته، وقد وصفه لسان الدين بن الخطيب فقال: «شيخ طالت مصاحبته للأنساء، وملازمته للأصباح والأمساء، طالما نظر بين غني ومسكين، وذبح بغير سكين، يقضي عمره في الحقوق، ويهب بين رعود وبروق، واكتسب مالاً، وبلغ من الدهر آمالاً، إلى أن أوثقته أشراك الحمام، وكل شيء فإلى تمام».

وقد جمع إلى جانب الفقه والقضاء الشاعرية أيضًا، وكان في شعره خفيف الروح وصاحب دعابة، من ذلك قوله يخاطب نفسه وقد عمر:

تراخت بك الدنيا وجدَّ بك السيرُ
وأُشْغِلْتَ بالفاني وقد زهدَ الغيرُ

فحتّى متى تكبو السوابقُ في الثرى
وتصحبُ رجلاك السلامةَ يا عيرُ

عدتْ بك عن نيلِ المعيشة كبرة
تراخت لها الاعضاءُ واستنزرَ الخيرُ

وقلَّ انتفاع الاهل منكَ فاعرضوا
كأنّك فرخ ملَّ من زقّه الطيرُ

وقال وقد استسلم للقضا وعجز عن خطة القضاء:

قد عجزتَ عن القضا
كل شيء إلى انقِضا

أغمدَ الدهرُ مرهَفا
كان منّا قد انتضى

كـل مـا يـفـعـل الالـهُ
قـبـلـنـاه بـالـرُّضـى
نـسـأل الـلـه عـفـوه الـ
ـمـرتـجـى فـي الـذي مـضـى

ولمّا عمّر صرف عن القضاء، وتوفي في برجة عن سنّ يقارب التسعين أو يزيد عليها، في السادس والعشرين من ربيع الأوّل عام ثلاثة وأربعين وسبعمائة. ولأنّ المُصنفين المتأخرين من الأندلسيين لم يفردوا لقُضاتهم كتابا برأسه - على ما نعلم - فقد شحت أخباره ولم نقف على شيء من أقضياته. ولم يذكر له مترجموه خبر كتاب صنّفه، فلم يبق من آثاره غير أشعار أوردناها. ولم تحفظ المصادر الشحيحة سنة مولده.

المصادر والمراجع

● التنبكتي، أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، إشراف وتقديم عبد الحميد الهرامة، وضع هوامشه وفهارسه طلاب من كلية الدعوة الاسلامية في الجماهيرية الليبية، منشورات كلية الدعوة الاسلامية، طرابلس، الطبعة الأولى، 1398 من وفاة الرسول/ 1989 ميلادية، ص 93؛ ● ابن الخطيب، الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، تح. إحسان عباس، بيروت د.ت، دار الثقافة، المقدمة مؤرّخة سنة 1963، ص105 - 106؛ ● المكناسي، أحمد بن القاضي، لقط الفرائد من لفاظة حقق الفوائد، تح. محمد حجي، ونشر ضمن كتاب «ألف سنة من الوفيات في ثلاثة كتب»، الرباط، 1396هـ/ 1976م، ص195 .

أ. هلال ناجي
باحث في التراث العربي - بغداد - العراق

ابن خيرون المعافري، أبو عبد الله محمد بن عمر

(ت 306هـ/918م)

في حي قديم من أحياء المدينة العتيقة، جنوب جامع عقبة بالقيروان، يقع مسجد صغير الحجم. مربّع الشكل، يعرف اليوم بمسجد الثلاثة بيبان، تسمية بأبوابه الثلاثة في وجاهته، تلك الواجهة التي تشير إلى أهمّيته المعمارية والفنّية، وأنّه أحد الشواهد القليلة الباقية من العصر الأغلبي.

على الواجهة كتابة بالقلم الكوفي نقشا على الحجارة، نصّها: «باسم الله الرحمٰن الرحيم، لله الأمر من قبل ومن بعدُ، أمر ببناء هذا المسجد محمد بن خيرون المعافري الأندلسي، تقرّبا إلى الله، ورجاء مغفرته ورحمته» [النقائش العربية بالقيروان، 1/ 62؛ الرياض، أبو جعفر، 2/ 152؛ أبو عبد

الله، 2/ 135 ـ 136؛ الخشني، 175، 233؛ المعالم، 2/ 288 ـ 292].

أبو عبد الله محمد بن عمر بن خيرون المعافري باني المسجد، أندلسي ثم قيرواني إمام في القراءات القرآنية، اشتهر بمسجده هذا وبأنه الذي خطّ للقراءات بافريقية طريقها الذي سارت فيه إلى اليوم، فهو الذي عمّم قراءة نافع بالقيروان وغيرها من البلاد المغاربية. وهو عميد عائلة خيرون التي ساهم أفرادها مساهمة ملحوظة في الحركة العلمية بالقيروان وغيرها من بلاد المغرب.

في البداية تجدر الإشارة والتنبيه إلى ما وقعت فيه بعض المصادر من الخلط بين المترجم له وبين ابنه أبي جعفر محمد بن خيرون، والذي أوقع أصحابها في ذلك، اتفاق الأب والابن في اسم «محمد» واتفاقهما في التخصص في القراءات. مثل حسن حسني عبد الوهاب في ترجمته للأب في مجلّة «الثريا»، وكذلك جامعو النقائش القرآنية. على أن هناك من ميّز الأب عن الابن وأفرد كلا منهما بترجمته مثل المالكي في «رياض النفوس» ومن هذه المصادر ما ترجم للابن فقط مثل الخشني وصاحب «معالم الإيمان».

والخلط بينهما مردود بأمور تستدعي التمييز بين الأب والابن.

أوّلا: من الثابت ـ حسب المصادر ـ أن للأب أبي عبد الله محمد بن خيرون ابنا يدعى محمدًا. ثانيا: من الثابت أيضًا باتفاق المصادر أن الابن أبا جعفر مات مقتولا من قبل المهدي الفاطمي سنة 303هـ/ 915م. ثالثا: نصت المصادر على تخصص الأب أبي عبد الله في القراءات ولم تنسب ذلك إلى الابن أبي جعفر.

فإذا عدنا إلى مَنْ نترجم له وهو الأب عرفنا أنه أبو عبد الله محمد بن عمر بن خيرون الأندلسي ثم القيرواني. ولد بالأندلس ونشأ بها ثم ارتحل قبل منتصف القرن الثالث الهجري إلى المشرق للحج وطلب العلم ـ على عادة الأندلسيين ـ فاستقر بمصر، وفيها حصر اهتمامه في دراسته في علم القراءات، وفي قراءة أبو ريم نافع (ت 169هـ/ 785م) برواية ورش (ت 197هـ/ 812م) عنه.

وقد ذكرت المصادر أبرز شيوخه الذين أخذ عنهم قراءة نافع وكلهم من تلاميذ ورش. وهؤلاء هم:

- أبو بكر بن سيف، المختص في قراءة ورش عن نافع.
- إسماعيل النحّاس، الذي أخذ عن أشهر تلاميذ ورش.
- محمد بن سعيد الأنماطي الذي أخذ عن أشهر تلاميذ ورش.
- عبيد بن محمد البزّار.

وبعد إقامة طويلة في مصر تضلّع فيها من القراءات، أدّى فريضة الحجّ. وفي عودته إلى بلده توقّف بالقيروان للتجارة ثمّ استوطنها. ولم يرجع إلى الأندلس. ولذلك عُدّ في الإفريقيين. وكان دخوله القيروان أواسط القرن الثالث الهجري.

وفي القيروان صرف همّته إلى التجارة وإقراء العلم. فاتّخذ محلّات للتجارة قرب سجن البلد، وبنى مسجده المشار إليه آنفا واتخذه

للإقراء، وقد أشار ابن عذاري إلى ذلك حيث قال: «وفي سنة 256 بنى محمد بن خيرون المعافري الجامع الشريف بالقيروان، المنسوب إليه، بناه بالآجر والجصّ والرخام، وبنى فيه جبابا».

ويبقى الوقوف على مكانته العلمية وعلى أثره في القراءات القرآنية بإفريقية.

يصف أبو عمرو الداني في كتابه «طبقات القراء» مكانة ابن خيرون العلمية بقوله: «هو شيخ القراء بالقيروان، وإمام في قراءة نافع من رواية ورش عنه». ويصفه المالكي في رياض النفوس بقوله: «كان صالحا ثقة، كريم الاخلاق، سمح النفس، إماما في القراءة» [رياض النفوس، 2/ 135].

ولمكانته تلك، ولأنه جاء بقراءة نافع برواية ورش، أصبح ـ كما وصفه الداني ـ شيخ القرّاء بالقيروان، وأقبل عليه دارسو القرآن من القيروان وكافة بلاد المغرب. وبخصوص الدافع الثاني ـ وهو تخصصه في قراءة نافع فإن للأفارقة صلة بها قبل مجيء ابن خيرون إلّا أنها كانت قليلة الانتشار، لا يقرأ بها إلّا الخواصّ، وكان الغالب على أهل المغرب والأندلس قراءة حمزة (156هـ/ 772م)، وجاء ابن خيرون فخطّ للقراءات القرآنية بإفريقية طريقها الذي انتهجته وجدّد عهد الأفارقة بقراءة نافع برواية ورش، وتواصل ذلك إلى يومنا هذا، وأشار ابن الفرضي إلى ذلك حيث قال: «كان رجلا صالحا، فاضلا، كريم الأخلاق، إماما في القراءة، قدم بقراءة نافع على أهل القيروان» [تاريخ رواة العلم، رقم 1395].

وقد لاحظ المقدسي الذي زار القيروان حوالي سنة 370هـ/ 980م فقال: «وأمّا القراءات في جميع الإقليم فقراءة نافع».

وسبب الانتشار السريع لهذه القراءة مع مجيء ابن خيرون، الإمام في قراءة نافع، يعود كما أسلفنا إلى صلتهم القديمة بها، فقد وجدهم متهيّئين نفسيا لتقبلها. فما كاد يستقر بالقيروان حتّى أتاه الناس من كل حَدَب وصوب، فأخذوا عنه هذه القراءة وعمّت فيهم.

والباحث يكتشف أن هذه القراءة جاءت افريقية والأندلس مع المذهب فقد ذكر في شجرة النور في ترجمة الغازي بن قيس أنه «أوّل من أدخل الموطأ وقراءة نافع للأندلس». وكانت وفاة الغازي بن قيس سنة 199هـ/ 814م.

وهناك من علماء القيروان من استحسنها وحثّ عليها كما فعل محمد بن سحنون ـ ورأيه رأي أبيه سحنون ـ فقد جاء في كتابه «آداب المعلمين»: «ويلزمه ـ أي المعلم ـ أن يحكمهم ما علم من القراءة الحسنة وهو مقرأ نافع. ولا بأس إن أقرأهم بغيره إن لم يكن مستبشعا» [كتاب آداب المعلمين، ص102] أي من القراءة الشاذّة.

بل هناك من علماء القيروان من فرض القراءة بها كما فعل قاضي القيروان عبد الله بن طالب (ت 275هـ/ 888م)، فقد روى القاضي عياض عن أبي عمرو الداني أن عبد الله بن طالب أيام قضائه بالقيروان سنة 267هـ/ 880م، أمر ابن برغوث كبير القراء بجامع القيروان ألّا يقرىء الناس إلّا بحرف نافع

[المدارك، 4/ 313] أي بقراءته.

فهل يدلّ هذا الاحتفاء بقراءة نافع على ميزة توجد فيها ولا توجد في غيرها من القراءات القرآنية.

القراءات السبع بل الأربع عشرة كلّها تعتمد الأثر وتتوفّر فيها الشروط الأساسية التي لا تقبل القراءة إلّا بتوفّرها وهي:

- صحة القراءة لغويا - نقلها عن الثقات
- موافقتها لرسم المصحف.

فاذا كان الأمر كذلك فما الذي جعل الأفارقة ينحازون لقراءة نافع منذ العهود الأولى بل آل الأمر بالعامة إلى التعصب لها.

سبب ذلك هو تقليدهم لإمامهم مالك. فمالك يرى: «أن نافعا هو إمام الناس في القراءة» [ابن الجزري، 2/ 333]. كما نقل عنه قوله: «قراءة أهل المدينة سنة»، قيل له: قراءة نافع؟ قال: «نعم». وجاء في كتاب التبصرة لمكي بن أبي طالب: «قراءة نافع هي السنة» أي سنة أهل المدينة.

والتعصّب إنّما جاء من العامّة، لأنّ العلماء لم يتشدّدوا، فقد رأينا في كلام محمد بن سحنون - آنفا - أنّ المعلّم يمكنه أن يقرىء طلبته بغير قراءة نافع. وأن يتجنّب القراءات الشاذّة التي لا تتوفّر فيها الشروط الثلاثة المذكورة.

ويصف نافع قراءته بقوله: «لا نُسقِط الإعراب، ولا نشدّد مخفّفا، ولا نخفف مشددا، ولا نَقْصر ممدودًا، ولا نَمُدّ مقصورًا، قراءتنا قراءة أكابر أصحاب رسول الله سَهْل جَزل، لا نمضغ ولا نلوك، نستهل ولا نشدد. نقرأ على أفصح اللغات وأمضاها، ولا نلتفت إلى أقاويل الشعراء وأصحاب اللغات، أصاغر عن أكابر، مليّ عن وفيّ، ديننا دين العجائز، وقراءتنا قراءة المشائخ، نسمع في القرآن، ولا نستعمل فيه الرأي [مجلة المورد، م17، ع4، ص1988، نقلا عن كتاب «التحديد» للداني، ص93]...

هذا الذي أسلفناه يبيّن أن الأفارقة كانوا متهيّئين نفسيا لقبول هذه القراءة - كما مرّ - فبمجرّد مجيء ابن خيرون من مصر وحلوله بالقيروان أقبل عليه الدارسون، وانتشر بفضله علم القراءات وقراءة نافع خاصّة، وأسهم تلاميذه في هذا العمل الكبير، وقد ذكرت المصادر بعض تلاميذه. فمن أشهرهم:

- ابنه أبو جعفر محمد بن محمد بن عمر بن خيرون الذي أشرنا إليه سابقا. أخذ عن أبيه القراءات، وجمع من روايته عنه كتاب «الابتداء والتمام» في القراءات وكتاب «الألفات واللّامات» في رسم المصحف، وقد نسب إليه كتاب حول نسب الشيعة.

- أبو جعفر أحمد بن أبي بكر [الثريا، س2، عدد5، ص2].

- أبو بكر محمد بن خلفون المؤدّب الهواري. وقد ترجم له المالكي في الرياض [الرياض، 2/ 425].

- أبو الفضل عبد الحكيم بن إبراهيم القروي ثم البجائي الإمام في قراءة ورش [القراءات القرآنية، ص299] وقد أخذها عن تلاميذ ورش وعن ابن خيرون.

توفي أبو عبد الله محمد بن خيرون بسوسة التي تحوّل إليها واستوطنها - وكانت وفاته في

15 شعبان سنة 306هـ/ 918م (306 هي السنة التي أرّخ بها أغلب مترجميه وفاته، وانفرد المالكي بتاريخ 305).

خلّف ابن خيرون من الأبناء، أبو جعفر محمد بن محمد بن خيرون وهو المشار إليه سابقا والذي قتله المهدي سنة 303هـ/ 915م؛ وأبو الحسن علي (ت 310هـ/ 922م)؛ وأحمد؛ والحفيد أبو محمد الحسن بن أحمد. ومازالت قبورهم ظاهرة بالقيروان قرب أبيهم [النقائش العربية بالقيروان، 1/ 186]. وكلّهم نبلاء مشتغلون بالعلم والتجارة.

آثاره

1 - كتاب الابتداء والتمام، وهو في فن القراءات، ذكره ابن الجزري من كتابه «غاية النهاية» في ترجمة ابن خيرون؛ 2 - كتاب الأداء، وهو ملخّص ما رواه ابن خيرون عن أصحاب ورش من قراءة نافع وانفرد ابن الأبّار بذكره، وقد أورده حسن حُسني عبد الوهاب نقلا عنه إذ قال: «قال ابن الأبّار وقد أخذ الناس عنه هذا الكتاب بإفريقية وحمل منه إلى المغرب والأندلس» [مجلة الثريا، س2، ع5، ص2]. وهذا يدل على أهمّية الكتاب؛ 3 - كتاب الألفات واللامات، في رسم المصحف، ذكره ابن الجزري [غاية النهاية، 2/ 217].

المصادر والمراجع

● ابن الجزري، شمس الدين، غاية النهاية، مصر، ط 1932 - 1933، 2/ 217؛ ● العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر، تبصير المنتبه، تح. علي محمد البجاوي، القاهرة، الهيئة المصرية العامّة، 1/ 277؛ ● الحميدي، محمد بن الفتوح، جذوة المقتبس، رقم 46؛ ● الذهبي، محمد بن أحمد، المشتبه في الرجال، القاهرة، مكتبة عيسى البابي الحلبي، 1/ 277؛ ● الذهبي، محمد بن أحمد، معرفة القراء الكبار، مصر، ط1، 1959، 1/ 227 - 228؛ ● ابن سحنون، محمد، آداب المعلّمين، تح. حسن حسني عبد الوهاب، تونس، دار الكتب الشرقية، 1972، ص102؛ ● السلاوي، أحمد الناصري، الاستقصاء، مجلّدان، 4 أجزاء، 1312هـ، 1/ 62؛ ● الضبي، أحمد بن يحيى، بغية الملتمس، مجريط، 1884، ص102؛ ● شلبي، هند، القراءات بإفريقية، تونس، الدار التونسية للنشر، ص284 - 294؛ ● عباس، صالح مهدي، مجلّة المورد، م17، ع4، 1988، ص334؛ ● عبد الوهاب، حسن حسني، كتاب العمر، تونس، بيت الحكمة، 1/ 112 - 115؛ ● ن. م، صدور الأفارقة، مجلّة الثريا، س2، ع5، ص2؛ ● ابن عذاري، البيان المغرب، تح. ج. س كوزن وأ. ليفي بروفنسال، بيروت، دار الثقافة، 1980، 1/ 114؛ ● الفرضي، تاريخ رواة العلم بالأندلس، مصر، 1954، 1973، 2/ 112 - 113؛ ● القاضي عياض، أبو الفضل بن موسى، ترتيب المدارك، تح. أحمد بكير، بيروت، نشر مكتبة الحياة، 1967، 4/ 313؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، دمشق، 1960، 11/ 214؛ ● المالكي، رياض النفوس، تح. بكوش

والمطوي، بيروت، دار الغرب الاسلامي، 1981، 2/ 135 ـ 136؛
● محفوظ، محمد، تراجم المؤلفين التونسيين، بيروت، دار الغرب الاسلامي، ط1، 2/ 264 ـ 267؛
● مخلوف، محمد، شجرة النور الزكية، القاهرة، المطبعة السلفية، 1349؛
● الزبيدي، تاج العروس، القاهرة، المطبعة الخيرية، 1306، مادة خير.

أ. عبد الباقي خريف
باحث ـ تونس

خيري، السيد محمد

(1336هـ/1917م ـ 1405هـ/1984م)

ولد محمد خيري في الرابع عشر من شهر يناير عام 1917م بحي الجمرك بمدينة الإسكندرية، وتوفي بمدينة الرياض بالسعودية ودفن بها في 31 من شهر مارس عام 1984م عن عمر يناهز 67 عاما، وكان الابن الأكبر في أسرة يعمل والده كبيرا لتجّار النحاس بحي الجمرك بمدينة الإسكندرية. وقضى مرحلة تعليمه الابتدائي بمدرسة طاهر برأس التين بالإسكندرية، كما تلقّى تعليمه الثانوي بالمدرسة المرقسية الثانوية بالإسكندرية أيضًا، حيث حصل على شهادة التوجيهيّة منها عام 1932م، وتخرّج من كلية العلوم قسم الرياضيات عام 1936م وكان الأوّل على دفعته، ولذلك رشح في بعثة للحصول على الدكتوراه في علم النفس والإحصاء من جامعة لندن. وسبق سفره العمل مدرّسا لعدّة سنوات بالمدرسة الابتدائية النموذجية بالجيزة، ثم بالمدرسة الابتدائية النموذجية بحدائق القبّة حتّى سفره عام 1948م لإنجلترا حيث حصل على الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى في علم النفس عام 1952م، وكان موضوعها: «التنظيم الهيدراكي للعمليات المعرفية» وذلك تحت إشراف الأستاذ سيرل بيرت Cyril Burt.

وبعد حصول خيري على الدكتوراه عيّن في نفس العام (1952) مدرّسا لعلم النفس بقسم الدراسات النفسية والاجتماعية بجامعة إبراهيم (جامعة عين شمس الآن)، ثم أستاذًا مساعدا عام 1961م، وأستاذا في مارس عام 1968م، ثم رئيسًا لقسم علم النفس وعميدا لكلية الآداب في نفس العام في أكتوبر عام 1968م، وفي عمله بآداب عين شمس ساهم مع مصطفى زيوار وزملاء له آخرين (لويس كامل مليكه، وعبد المنعم المليجي، وحسن الساعاتي، وحسن شحاتة سعفان) في إنشاء قسم الدراسات النفسية والاجتماعية (فرع الدراسات النفسية)، وفي تدعيم النظرية الكمّية الإحصائية والتجريبية في تناول مختلف الموضوعات النفسية.

ولقد تلقى العلم على يد خيري الكثير من

الطلّاب المصريين والطلاب العرب من جامعات عين شمس والقاهرة والأزهر وقسم علم النفس ببنات عين شمس ومعاهد أخرى كثيرة. ولقد كان لخيري في محاضراته مع تلاميذه نظرة شمولية اتّضحت في رأيه عندما قامت جمعية علم النفس الأمريكية بتغيير اسم علم النفس المهني إلى علم النفس الصناعي والتنظيمي، إذ اعتبر أنّ اسم علم النفس المهني أكثر شمولية واتّساعا، لأنّه يتناول ميادين أخرى غير الصناعة والإدارة، كمهن المحاماة والأطبّاء والمهن التجارية والحرّة.

أشرف خيري على رسائل جامعية يقرب عددها من خمسين رسالة ماجستير ودكتوراه عن مشكلات المجتمع المصري والعربي، كمشكلة جنوح الأحداث التي عكست في ذلك الوقت أزمة البطالة ولجوء بعض الأسر في الستينات إلى إيداع أطفالهم في مؤسسات الجانحين، والاتجاهات الوالدية في التنشئة، والقيادة الرسمية وغير الرسمية، والتي عالجت مشكلة الدكتاتورية والحاجة للديمقراطية، والقدرات العقلية المتطلّبة في مختلف المهن، والمراهق العربي ومشكلاته، والاستهداف للحوادث، وتدريب المشرفين، والعمال المتغيّبين في المصانع، واتجاهات تلاميذ التعليم الفني نحو العمل والأمراض السيكوسوماتية (النفس جسمية)، والشخصية الإسلامية، وتلوّث البيئة. ويتقلّد أصحاب هذه الرسائل الجامعية الآن مناصب جامعية صار منهم الأساتذة ورؤساء الأقسام العلمية وعمداء الكليات وعمداء معاهد الدراسات العليا بجامعة عين شمس وغيرها.

وقام خيري بإجراء كثير من البحوث الفردية والجامعية كبحث التنبّؤ بالنجاح الجامعي (1954)، والبروفيل النفسي (1955)، واتجاهات الصغار نحو برامج الأطفال في التلفزيون (1960). والعوامل الثقافية في الذكاء (1975)، والرأي العام وعلاقته بالاتجاه نحو الجريمة بالدراسات الأمنية بالرياض، والنموّ الحسّي للطفل بمجلة عالم الفكر (1984).

ولقد كان السيد خيري ضمن فريق من الباحثين بالمراكز القومية للبحوث الاجتماعية والجنائية لدراسة الآثار النفسية والاجتماعية لتعاطي الحشيش (1960)، الذي أغرقت إسرائيل مصر به عبر شبه جزيرة سيناء. ولقد صار هذا البحث نواة لبرنامج عالمي ممتدّ حتى الآن خاص ببحوث المخدّرات بالمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية. ولم يكن بحث المخدّرات هو البحث الوحيد الذي شارك في إجرائه خيري بالمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، فقام بإجراء بحث عن الاستجابات الإدراكية لدى الجانحين الذي مثّل أساسًا لكثير من البحوث، والذي تناول فيها الباحثون ظاهرة الختان من زوايا أخرى كالذكاء والتنشئة الاجتماعية. كما قام خيري بعد ذلك (1970) بإجراء بحث عن الروح المعنويّة في الصناعة، ولقد وجّه بهذا البحث النظر لدراسة الاتجاهات نحو إدارة العمل لما لذلك من أثر كبير في رفع الكفاية الإنتاجية للعمّال. وبرصد البحوث التي جاءت بعد ذلك حتى عام 2001 نجد كثيرا من الباحثين قد سار في نفس الاتجاه بدراسة الروح المعنويّة وعلاقتها بالخصخصة Privatisation والإبداع وغير ذلك من الجوانب.

وعندما أنشئ ديوان الموظّفين بمصر عام 1952 في نفس الوقت الذي عيّن فيه خيري بجامعة عين شمس استعان الديوان بخيري ضمن هيئة فنية رأسها خيري وذلك لوضع خطط الاختيار المهني للأفراد الذين يلتحقون بالوزارات والمصالح الحكومية وذلك وفقا لقدراتهم الذهنية وميولهم المزاجية حتى يتحقّق من جرّاء ذلك أقصى أداء من الفرد. ولقد أصدر ديوان الموظّفين عددا من الإصدارات التي توضّح خططه وسياساته في العمل أسهم فيها خيري بالقدر الأكبر ومن هذه الإصدارات: 1 ـ ما يجب أن نعرفه عن الوظيفة، 2 ـ كيف نختار المهندسين، 3 ـ الاختيار للوظائف الكتابية، 4 ـ اختيار الوظائف الزراعية.

وإلى جانب ديوان الموظّفين كان للسيد خيري دور رائد في إنشاء القسم النفسي بمصلحة الكفاية الإنتاجية والتدريب المهني فقد عمل السيد خيري مستشارا نفسيا للمصلحة قام خلال ذلك بوضع الأسس المتعلّقة باختيار وتوجيه التلاميذ الذين يلتحقون بمراكز التدريب على مهن الغزل والنسيج والمعادن والبناء والسيارات والكهرباء والميكانيكا، ليتحقق من جرّاء ذلك التوصّل لأكبر قدر من التوافق النفسي والاجتماعي والصحة النفسية لهؤلاء المتدرّبين، ليتمكّنوا من خلال هذا المناخ الصحّي من اكتساب أكبر قدر من معدّلات برامج التدريب، ولقد تم على يد السيد خيري إعداد عدّة نماذج من الاختبارات التي تستخدم في اختيار التلاميذ لمراكز النسيج والبناء والمعادن. ولم يقتصر استخدام هذه الاختبارات على ذلك المجال فقط بل استخدمها باحثون كثيرون في رسائلهم الجامعية.

آثاره

لخيري مؤلفات كثيرة على رأسها كتاب «الإحصاء في البحوث النفسية والتربوية والاجتماعية»، الذي كان الأساس في تعليم الطلّاب للقياس النفسي وعلم النفس التجريبي والاختبارات العقلية والاختبارات الشخصية، والذي تعتمد في موضوعاتها كالثبات والصدق والتقنين على الإحصاء وتطبيقه في المجال النفسي. ومازال هذا المؤلّف حتى اليوم من أهمّ المراجع التي يعتمد عليها طلّاب الدراسات العليا. وعلى الرغم من أنّ مؤلّف خيري عن علم النفس الصناعي لم يكن الأوّل، إلّا أنه انفرد بكونه اهتمّ بالتطبيقات المحلّية واستخدام الشركات الصناعية لأسس علم النفس في مجال التدريب المهني والاختبار والتوجيه.

وفي مجال الترجمة اشترك خيري في ترجمة مجموعة من الكتب تعتبر من أهمّ الكتب في التخصّص حتى الآن، وهي كتاب علم النفس الفارق (تأليف: انستازمي وفوللي)، وكتاب علم النفس الاجتماعي في الصناعة (تأليف: جيلفورد). ولم يظهر في تخصّص هذه الكتب حتى الآن مؤلفات عربية تشمل ما تضمّنه من موضوعات، ولذا يعتمد عليها في التدريس في كثير من أقسام علم النفس إلى يومنا هذا.

وفي مجال إعداد الاختبارات النفسية كان لإعداد خيري لكثير من الاختبارات النفسية السبق. ومن هذه الاختبارات اختبار الذكاء العالي، اختبار الذكاء الإعدادي، تلك

الاختبارات التي ما زالت تستخدم حتى الآن في مجال التوجيه التربوي والمهني والبحوث التي يقوم بها الطلّاب في رسائلهم. كما اشترك مع زميله لويس كامل مليكه في ترجمة بطارية الاستعدادات الفارقية (مسيشور وآخرون) التي استخدمت على نطاق واسع في كثير من البحوث.

وله إسهام في وسائل الإعلام أيضًا، فبعد العدوان الإسرائيلي على العرب عام 1967 بلغ الصراع العربي الإسرائيلي أشدّه، وجاء البرنامج الصباحي عن الحرب النفسية في الإذاعة المصرية على يد الدكتور السيد خيري ليسهم في زيادة التماسك والروح المعنوية بين المصريين. ولم يقتصر دور خيري الإعلامي على هذا البرنامج بل سار في موازاة معه برنامج آخر عن علم النفس في حياتنا اليومية ليتناول مشكلات الحياة للمواطن وهمومه اليومية بتوجيه الإنسان وإرشاده للطرق السويّة التي يواجه بها هذه الهموم ليتمكّن من التكيّف معها.

عمل خيري في جامعة الملك سعود (الرياض سابقا) منذ عام 1972 حتّى وفاته عام 1984؛ فأنشأ قسم علم النفس بكلية التربية جامعة الرياض (الملك سعود حاليا)، وفي أثناء عمله بها اشترك في تأليف كتب علم النفس العام وعلم النفس التجريبي وعلم النفس التربوي، تلك المؤلفات التي تمّ طبعها عدّة مرات، إذ يتم تدريسها لطلّاب الجامعات السعودية حتى الآن. ولم يقتصر عمل خيري على المهام التعليمية في الجامعات، بل امتدّ إلى الإسهامات المجتمعية، فشارك في وضع الخطة التدريبية لرجال الأمن في وزارة الداخلية السعودية وبالمركز العربي للدراسات الأمنية بالرياض.

ولكي يكتمل لقسم علم النفس مسيرته وضع خيري خطة الدراسات العليا على مستوى الماجستير في المجال الإرشادي والمجال الإكلينكي والفئات الخاصة، كما أشرف على العديد من رسائل الماجستير التي قام بإجرائها الطلاب السعوديين.

■ المصادر والمراجع

● خيري، السيد محمد، الإحصاء في البحوث النفسية والتربوية والاجتماعية، دار التأليف بالمالية، القاهرة 1956؛ ● م.س، علم النفس الصناعي وتطبيقاته المحلية، دار التأليف بالمالية، القاهرة 1975؛ ● خيري السيد وآخرون، علم النفس التربوي، منشورات جامعة الرياض، الرياض 1978؛ ● خيري، السيد محمد، مستويات العمليات العقلية المعرفية، الكتاب السنوي في علم النفس، الجمعية المصرية للدراسات النفسية، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة 1954؛ ● مراد، يوسف، في تاريخ علم النفس، الدراسات السيكولوجية في مصر، الكتاب السنوي الثاني، الجمعية المصرية للدراسات النفسية، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة 1975؛ ● أبو النيل، محمود السيد، الأمراض السيكوسوماتية، مكتبة الخانجي، القاهرة 1984؛

- Moursi, E.M.K.M., 1952, a factorial Investigation of the hierarchical of cognitive levels. A thesis submitted to London university for the Degree of the Ph. D. in Psychology.

د. محمود السيد أبو النيل
جامعة عين شمس ـ مصر

الخيري ناصر، بن جوهر بن مبارك

(1293هـ/1876م - 1344هـ/1925م)

ناصر بن جوهر بن مبارك الخيري، مؤرّخ، أديب، ولد في البحرين في مدينة «المنامة»، وتوفي فيها عام 1925 [كحالة، معجم المؤلفين 13/ 70].

درس في الكتّاب، ولما أتمّ قراءة القرآن انتقل إلى مدرسة أهلية وفيها ظهر نبوغه خاصة في اللغة العربية، ثم أخذ يتردد على مجالس العلماء في المدارس الدينية الأخرى وعلى المساجد.

انتظم عام 1894 في مدرسة البروتستانت المبشرين، وأمضى فيها قرابة ثلاثة أعوام، ألمّ خلالها باللغة الإنجليزية وبشيء من العلوم الحديثة.

عمل كاتباً لدى أحد تجار «المنامة»، وعقد صداقات متينة مع وكلاء تجاريين أجانب غربيين وشرقيين، فاستفاد منهم في مجال المعارف الحديثة. وأعانه بعضهم في جمع معلومات عن تاريخ البحرين القديم. وفي 1914 عمل كاتباً لدى الأمير الشاعر محمد بن عيسى الخليفة، فنشأت بينهما علاقات فكرية حميمة، وحصل الخيري على معلومات قيّمة في تاريخ البحرين القديم والحديث. وفي عام 1918 عُيّن موظفاً في بلدية «المنامة»، وفي عام 1921 نقله المعتمد البريطاني إلى دار الحكومة موظفاً في قسم القضايا الخاصة بالقضاء المدني، وبقي فيها حتى عام 1924 حيث أُصيب بمرض عضال أقعده عن العمل حتى توفي.

ساهم في تأسيس نادي إقبال أوال عام 1913، والنادي الأدبي بالمحرق عام 1920 [الخاطر، ناصر الخير، الأديب الكاتب ص17 ـ 18]، وكان عضواً نشيطاً فيهما.

وارتبط بعلاقات فكرية بالكثير من المفكرين العرب خاصة أصحاب الصحف المعروفة في العقود الأولى من القرن العشرين كالأستاذ محمد رشيد رضا صاحب مجلة «المنار»، والأستاذان فارس نمر، ويعقوب صرّوف من أصحاب مجلة «المقتطف» وغيرهم، وكان يتبادل الرسائل معهم [الخاطر، ناصر الخيري، ص20].

تمتّع بحافظة قوية، وكان يروي الكثير من الشعر والنثر قديمه وحديثه، وشغف بدراسة التاريخ خاصة القديم، وتمكن بمثابرته وجدّه أن يجمع مادة تاريخية هامة عن البحرين.

آثاره

له كتاب «قلائد النحرين في تاريخ البحرين» وبقي مخطوطاً مجهول المكان، حتى تمّ العثور عليه في السنوات الأخيرة.

وعزا تأليفه إلى الواجب الوطني تجاه تاريخ بلاده. وقسّمه إلى قسمين جعل القسم الأول في تاريخ البحرين بالمصطلح القديم ويشمل «القطيف»، و«الأحساء»، وجزر، «أوال» و«قطر»، وعرض فيه تاريخ البحرين من أقدم

العصور إلى العصر الحديث، [الشقير، قلائد النحرين، المقدمة، ص ذ]، وتحدّث عن حدودها وأقسامها وطبيعتها الجغرافية وسكانها وحِرفها وصناعتها وأشهر مُدنها، والأماكن التاريخية المشهورة فيها، وأنهى هذا القسم بالحديث عن تاريخها بعد الإسلام.

أما الجزء الثاني فخصصه لتاريخ جزر «أوال» أي البحرين بالمصطلح الحديث. وعرض لتاريخها منذ انفصالها عن مجموع البحرين في النصف الأول من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، أي إلى عهد الشيخ عيسى بن علي الخليفة [المقدمة، ص ذ]. وتحدّث عن أصل أسرة آل خليفة ومساكنها الأولى، ومن توالى على البحرين من حكام من أبنائها، وعرض لبعض الحوادث المهمة التي عاصرها. كما تحدث عن أهم مدنها وقراها. وختم الكتاب بملحق أضيف من النسخة المسودة تناول فيه تاريخ نجد وتاريخ الكويت وتاريخ عمان.

أما مصادره فهي الكتب العربية القديمة كـ «فتوح البلدان» للبلاذري، و«الكامل في التاريخ» لابن الأثير، وديوان ابن المقرب العيوني»، كما اعتمد على مراجع عربية حديثة كدائرة المعارف لبطرس البستاني، ومصادر أجنبية قديمة كـ «الجغرافية القديمة» لبطليموس، واسترابو وبليني، كما استقى من مصادر أجنبية حديثة وصحف ومجلات، وروايات شفوية، ومشاهد ميدانية [قلائد النحرين، المقدمة، ص ش و ص ا.

المصادر والمراجع

● الخاطر، مبارك، ناصر الخيري الأديب الكاتب، المطبعة الحكومية، البحرين 1982، ط1، ص17 ـ 24؛ ● الخيري، ناصر، قلائد النحرين في تاريخ البحرين، قدّم له بدراسة قصيرة الباحث السعودي عبد الرحمن بن عبد الله الشقير، وقدّمه مصوّرًا عن النسخة المخطوطة وهي مكتوبة بخط المؤلف نفسه، وألحق به فهارس عامة، ونشرته مؤسسة الأيام، البحرين ط1، 1424هـ/ 2003م، المقدمة ص أ ـ ظ وصفحات أخرى؛ ● كحالة، عمر، معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت د.ت، 13/ 70.

د. أنيسة أحمد خليل المنصور
كلية الآداب ـ جامعة البحرين

فهرس المحتويات

ابن خاتمة الأنصاري، أبو جعفر أحمد ابن علي/د. محمد حسن/جامعة تونس/د. صالح مهدي عباس الخضيري/مركز إحياء التراث العلمي العربي - جامعة بغداد - العراق 7

ابن خاتمة اللخمي، محمد بن علي بن هانئ /د. عبد السلام العيساوي/ جامعة منوبة - تونس 12

خاجه كمال الدين، عبد القادر بن غيبي المراغي /د. نوري أوزجان/جامعة مرمرة - استانبول - تركيا 13

الخادمي، أبو سعيد محمد بن مصطفى /د. هشام قريسة/جامعة الزيتونة - تونس 18

الخارجي، منصور الحاج إبراهيم الخليل/د. صبري فارس الهيتي/ جامعة بغداد - العراق 20

ابن أبي خازم، بشر بن عمرو بن عوف/د. سعدي عبد اللطيف ضناوي/الجامعة اللبنانيّة - طرابلس 23

أبو خازم القاضي، عبد الحميد بن عبد العزيز السكوني/أ. هلال ناجي/ باحث في التراث العربي - بغداد - العراق 28

الخازن، أبو جعفر محمد بن الحسين/ د. أبو بكر خالد سعد الله/المدرسة العليا للأساتذة - الجزائر/د. أحمد أوزال/مركز الأبحاث الإسلامية - استانبول 31

الخازن، العلاء أبو الحسن علي بن محمد/د. حسين مزيو/جامعة الزيتونة - تونس 37

الخازني، أبو الفتح عبد الرحمن/د. أبو بكر خالد سعد الله/المدرسة العليا للأساتذة - الجزائر/د. محمد عيسى صالحية/جامعة اليرموك - أربد - الأردن 40

خاطر، لحد صعب/د. يوسف لبكي/ الجامعة اللّبنانيّة 46

الخاطر، مبارك راشد جاسم/د. أنيسة أحمد خليل المنصور/د. عبد الجليل منصور العريض/كلية الآداب - جامعة البحرين 49

خاطر، مرشد/د. إبراهيم بن مراد/جامعة منوبة - تونس 59

الخاطري، أحمد بن محمد/د. محمد هشام النعسان/معهد التراث العلمي العربي - حلب - سوريا 60

ابن خاقان، الإشبيلي، أبو نصر الفتح بن محمد/د. محمد اليعلاوي/ الجامعة التونسية/د. المنجي الكعبي/ الجامعة التونسية 61

ابن خاقان البغدادي، الفتح بن خاقان بن غرتوج/د. المنجي الكعبي/الجامعة التونسية 64

الخاقاني، محمد بك محمود/ د. مصطفى أوزون/جامعة استانبول - تركيا 65

خالد، محمد خالد ثابت/د. زينب رضوان/جامعة القاهرة ـ فرع الفيوم ـ مصر 69
الخالدي، أحمد سامح/د. نقولا زيادة/الجامعة الأمريكية ـ بيروت ـ لبنان 72
الخالدي، روحي بن ياسين/د. حسام الخطيب/جامعة دمشق 74
الخالديان الموصليان محمد وسعيد ولدا هاشم بن وعلة/أ. بسام إدريس الجلبي/الموصل ـ العراق 78
الخالع أبو عبد الله، الحسين بن محمد بن جعفر/د. محمود الربداوي/جامعة دمشق ـ سوريا 82
ابن خالويه، الحسين بن أحمد/د. مختار نويرات/جامعة عنابة ـ الجزائر 85
خان، الأمير صديق حسن/د. أحمد محمد أحمد عبد الرحمن/جامعة الأزهر ـ مصر 90
خان، حكيم محمّد أجمل/د. جلال السعيد الحفناوي/جامعة القاهرة ـ مصر 93
خان، سير سيّد أحمد بن مير/د. جلال السعيد الحفناوي/جامعة القاهرة ـ مصر 99
خان، محمّد أحمد رضا/د. أحمد محمد أحمد عبد الرحمن/جامعة الأزهر ـ مصر 106
ابن الخبّاز أبو العباس، أحمد بن الحسين بن أحمد/د. توفيق قريرة/جامعة منوبة ـ تونس 108
ابن الخباز، نجم الدين أبو الفداء إسماعيل/أ. هلال ناجي/باحث في التراث العربي ـ بغداد ـ العراق 110
ابن خبَازة، أبو عمرو، ميمون بن علي/د. حسناء بوزويتة الطرابلسي/جامعة تونس 112
الخبازي، أبو محمد جلال الدين عمر بن محمد/د. هشام قريسة/المعهد الأعلى للحضارة الإسلامية ـ تونس 113
الخَبْري، أبو حكيم عبد الله بن إبراهيم/د. منير التليلي/جامعة الزيتونة ـ تونس 115
الخبوشاني، أبو البركات محمد بن الموفق/د. برهان النفّاتي/جامعة الزيتونة ـ تونس 121
ولد ختّي، محمد السالك/د. سعيد زونغو/بوركينا فاصو ـ إفريقيا 125
الخجندي، أبو بكر محمد بن عبد اللطيف/د. أسامة ناصر نقشبندي/دار المخطوطات ـ بغداد ـ العراق 127
الخُجندي، أبو محمود حامد بن الخضر/د. هاني محيي الدين عطيّة/جامعة القاهرة ـ مصر 129
ابن خدادة، أبو عمر خليل بن عمر/بسام إدريس الجلبي/الموصل ـ العراق 131
الخدري، أبو سعيد سعد بن مالك بن سنان/د. أميمة بدر الدين/جامعة دمشق ـ سوريا 133
الخرائطي، أبو بكر محمد بن جعفر/أ. هلال ناجي/باحث في التراث العربي ـ بغداد ـ العراق 143
الخرّاز، أبو سعيد أحمد بن عيسى/أ. محمد الخالدي/شاعر ـ تونس 149

الخراساني، أبو أيوب عطاء بن ميسرة/د. رجاء محمد عودة/جامعة الملك سعود بن عبد العزيز/الرياض - المملكة العربية السعودية/أ. هلال بن ناجي/باحث في التراث - بغداد - العراق 151

ابن الخراساني، أبو العزّ محمد بن محمد/د. عبد القادر المهيري/جامعة منوبة - تونس 154

الخراساني النيسابوري الأعرج، نظام الدين الحسن بن محمد/د. حسن مزيو/جامعة الزيتونة - تونس 155

ابن خراش، أبو محمد عبد الرحمن بن يوسف/أ. هلال بن ناجي/باحث في التراث العربي - العراق 159

ابن الخرّاط، أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن/د. فاروق حمادة/جامعة محمد الخامس - الرباط - المغرب 161

ابن خُرداذبَه أبو القاسم، عبيد الله بن عبد الله/د. محمود عصام الميداني/جامعة دمشق - سوريا 165

خُرد اليمني، محمد علي/د. محمد عبد الله بن هاوي باوزير/جامعة عدن - اليمن 168

الخرشي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله/أ. الحبيب بن طاهر/وزارة الشؤون الدينيّة - تونس 169

خرفي، صالح بن صالح/د. محمد صالح الجابري/مدير الموسوعة 172

الخرقي، أبو بكر محمد بن أحمد/د. محمد هشام النعسان/معهد التراث العلمي العربي - حلب - سوريا 174

الخِرَقي، أبو القاسم عمر بن الحسين بن عبد الله/د. نور الدين الخادمي/جامعة الزيتونة - تونس 176

الخرقي، أبو محمد بهاء الدين عبد الجبار/د. جميل آقپكار/جامعة استانبول 180

الخِرنُق بنت هفان بن بدر/د. محمد لطفي اليوسفي/جامعة منوبة - تونس 184

ابن خروف أبو الحسن، علي بن محمد بن علي/د. منصف عاشور/جامعة تونس 190

خروفة أبو الربيع، سليمان بن عمران بن هاشم/د. نجم الدين الهنتاتي/جامعة تونس 192

ابن الخريطة، الشَمَرْدَل بن شَريك اليربوعي/د. ياسين الأيوبي/الجامعة اللبنانية 196

خريّف، البشير بن إبراهيم/د. محمود طرشونة/جامعة منوبة - تونس 203

خريف، مصطفى بن إبراهيم/د. محمد لطفي اليوسفي/جامعة تونس 209

الخزاعي، أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد/د. أحمد أوزال/مركز البحوث الإسلامية - استانبول - تركيا 214

الخزاعي، دعبل بن علي بن رزين/د. محمد لطفي اليوسفي/جامعة منوبة - تونس 217

الخزرجي، إسماعيل بن محمد الأنصاري/د. محمد بن إسماعيل الأنصاري/باحث - المملكة العربية السعودية 228

الخزرجي، حماد بن محمد الأنصاري/ د. عبد الباري بن حماد الأنصاري/ باحث - المملكة العربية السعودية 230

الخزرجي، رشيد الدين علي بن خليفة بن يونس/د. محمد عيسى صالحية/جامعة اليرموك - الأردن 232

الخزرجي، صفي الدين أحمد بن عبد الله/خديجة محمد كامل/دار الكتب والوثائق المصرية/القاهرة - مصر 241

الخزرجي، أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن/د. حسن جلاب/كلية اللغة العربية - مراكش - المغرب/د. عبد الواحد ذنون طه/جامعة الموصل - العراق 243

الخزرجي، محمد الطيب الأنصاري/ د. عبد الرحمن الطيب الأنصاري/ جامعة الملك سعود - المملكة العربية السعودية 247

الخزرجي، موفق الدين أبو الحسن علي بن الحسن/د. نبيلة عبد المنعم داود/مركز إحياء التراث العلمي العربي - بغداد 250

خزندار، محمد الشاذلي/د. توفيق قريرة/جامعة منوبة - تونس 252

الخزنداري، قرطاي العزي/د. عمر عبد السلام تدمري/الجامعة اللبنانية - طرابلس - لبنان 255

ابن خزيمة، أبو بكر محمد بن اسحاق/د. محمد الناصر الزعايري/ جامعة الزيتونة - تونس 258

خسرو، أبو الحسن بن سيف الدين محمود/د. محمد أسلم إصلاحي/ جامعة جواهر لال نهرو - الهند 267

خسرو زادة، مصطفى بن محمد البروشوي/أ. هلال ناجي/باحث في التراث العربي - بغداد - العراق 269

خسرو، أبو المعين ناصر المروزي/ د. ناصر عبد الرزاق الملاّ/جامعة الموصل - العراق 271

الخسروشاهي، شمس الدين أبو محمد عبد الحميد/د. سامي خلف حمارنة/ باحث في التراث العلمي - واشنطن 274

الخشاب، أبو الحسن إسماعيل بن سعد/د. محمد هشام النعسان/ معهد التراث العلمي العربي - حلب - سوريا 277

ابن الخشّاب، عبد الله بن أحمد بن أحمد/د. المنصف عاشور/جامعة منوبة - تونس 280

الخشخاش بن سعيد بن أسود القرطبي/أ. حسين عبد العزيز/ مهندس - تونس 282

ابن الخشرم، أبو سليمان هدبة بن كرز/د. واضح الصمد/الجامعة اللبنانية 287

الخشني، أبو ذر مصعب بن محمد بن مسعود/د. فاروق حمادة/جامعة محمد الخامس - الرباط - المغرب 292

الخشني، أبو عبد الله محمد بن حارث بن أسد/د. منير رويس/ الجامعة التونسية 295

الخصّاف، أبو بكر أحمد بن عمرو الشيباني/د. محمد بوزغيبة/ جامعة الزيتونة - تونس/د. هشام قريسة/المعهد الأعلى للحضارة الإسلامية - تونس/أ. هلال بن ناجي/باحث في التراث العربي - بغداد 300

ابن أبي الخصال، أبو عبد الله محمد بن مسعود/د. توفيق قريرة/جامعة منوبة - تونس 303

خصباك، جعفر حسين عبّاس/د. بهجة كامل عبد اللّطيف/جامعة بغداد - العراق 307

الخصيب، أبو بكر الحسن الكُوفي/ د. محمد هشام النعسان/معهد التراث العلمي العربي/حلب - سوريا 310

خضر، موفّق/د. نجمان ياسين/الرئيس الأسبق لاتحاد أدباء العراق 311

ابن خَضْرَوَيه، أبو حامد أحمد بن الخضر/د. ساعد خميسي/جامعة منتوري - قسنطينة - الجزائر 314

أبو خضور، محمد/د. عبد الله أبو هيف/جامعة تشرين - اللاذقية - سوريا 319

ابن الخطاب، أبو بكر محمد بن عبد اللّه/د. حرّاث بوعلاّقي/جامعة الزيتونة - تونس 324

ابن الخطاب، سالم عبد الله بن عمر/ د. منير رويس/جامعة تونس 327

الخطّابي، أبو سليمان حمْدُ/د. محمد الناصر الزعايري/جامعة الزيتونة - تونس 329

الخُطبي، أبو محمد إسماعيل بن علي/ د. نبيلة عبد المنعم داود/مركز إحياء التراث العلمي العربي - بغداد 335

الخَطّي العبدي، أبو البحر جعفر بن محمد/د. انيسة احمد خليل المنصور/جامعة البحرين 339

الخطيب الإسكافي أبو عبد اللّه، محمد بن عبد اللّه/د. محمود الربداوي/جامعة دمشق - سوريا 349

الخطيب التبريزي، أبو زكريا يحيى بن علي/د. أحمد اوزال/مركز البحوث الإسلامية - استانبول - تركيا 350

ابن خطيب الدهشة، أبو الثناء نور الدين محمود/د. محمد الناصر الزعايري/جامعة الزيتونة - تونس 354

خطيب زاده، محيي الدين محمد أفندي/د. إليـاس أوزوم/جامعة استانبول - تركيا 357

ابن الخطيب، أبو عبد الله لسان الدّين محمد بن عبد الله/د. عبد الإلاه بن عرفة/جامعة محمد الخامس - المملكة المغربية/د. علي حسين الجابري/بيت الحكمة - بغداد/د. محمد الأزهر باي/ جامعة تونس/د. توفيق قريرة/جامعة منوبة - تونس 362

الخطيب، عدنان بن عبد القادر/د. سمر روحي الفيصل/جامعة العين - الإمارات العربية المتحدة 368

الخطيب، محب الدين بن الشيخ أبو الفتح/محمد سعيد طالب/دمشق 372

ابن خطيب الناصرية، علاء الدين أبو الحسن علي بن حمد/د. عمر عبد السلام تدمري/الجامعة اللبنانية - طرابلس - لبنان 376

ابن خفاجة، أبو إسحاق إبرهيم بن أبي الفتح/د. سليم ريدان/جامعة منوبة - تونس 378

الخفاجي، شهاب الدين أحمد بن محمد/د. مسعود بوبو/الموسوعة العربية - سوريا 383

الخفّاف، أبو بكر بن يحيى بن عبد الله/د. توفيق قريرة/جامعة تونس 386

ابن خفيف الشيرازي، محمد بن خفيف بن اسفكشاذ/د. عبد الحميد صالح حمدان/خبير في التراث العربي - جنيف 388

ابن الخلّ، محمد بن المبارك/د. برهان الدين النفاتي/جامعة الزيتونة - تونس . 390

الخلال، أبو بكر بن محمد البغدادي/ د. هشام قريسة/المعهد الأعلى للحضارة الإسلامية - تونس 393

الخلال، أبو علي الحسن بن علي بن محمد/أ. هلال بن ناجي/باحث في التراث العربي - العراق 395

خلاف، عبد الوهاب بن عبد الواحد/ د. شعبان محمد إسماعيل/جامعة أم القرى - مكة المكرمة - السعودية 398

ابن الخلخالي، شمس الدين محمد بن مظفر/د. برهان النفّاتي/جامعة الزيتونة - تونس 400

ابن خلدون، أبو زكرياء يحيى بن محمد/د. محمّد حسن/كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية - تونس 401

ابن خلدون، أبو مسلم عمر بن أحمد بن تقي/د. محمد عيسى صالحية/جامعة اليرموك - الأردن/د. محمد فؤاد الذاكري/باحث في التراث - حلب - سوريا 404

ابن خلدون، وليّ الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد/د. فرحات الدشراوي/الجامعة التونسية/د. فالح حسين/الجامعة الأردنية 407

الخلصي، محمد السعيد بن حميدة/ د. حسين العوري/جامعة منّوبة - تونس 416

الخلعي، أبو الحسن عليّ بن الحسين/ د. برهان النفّاتي/جامعة الزيتونة - تونس 421

خلف الأحمر، أبو محرز بن حيّان بن محرز/د. توفيق قريرة/جامعة منوبة - تونس 424

خلف القارئ، أبو محمد خلف بن هشام بن ثعلب/د. محمود فراج/ جامعة الإسكندرية - مصر/د. صلاح الدين حسنين/كلية الآداب - بني سويف - مصر 427

ابن خلف، جاسم/أ. هلال بن ناجي/ باحث في التراث العربي - العراق 430

ابن خلف، أبو الحسن علي بن خلف/ د. عبد الحميد صالح حمدان/باحث في التراث العربي - جنيف 433

ابن خلف أبو محفوظ، محرز بن خلف/أ. محمد الكحلاوي/باحث في التصوّف - تونس 434

ابن خلف المرادي، أحمد بن محمّد/ د. محمد هشام النعسان/باحث في التراث العلمي العربي/حلب - سوريا ... 438

ابن خلفان، خلفان بن مصبح/ د. يوسف حسن نوفل/جامعة عين شمس - القاهرة 441

ابن خلفون، أبو بكر محمد بن إسماعيل بن محمد/د. مزاحم علاوي الشاهري/جامعة الموصل - العراق 444

ابن خلفون، زياد/د. عبد الواحد ذنون طه/جامعة الموصل - العراق 446

خلقي، علي/د. عبد الله أبو هيف/ جامعة تشرين - اللاذقية - سوريا 447

ابن خلّكان، شمس الدين أحمد بن محمد/د. صالح مهدي عباس/مركز إحياء التراث العلمي العربي/جامعة بغداد ـ العراق 451

الخلوتي محمد بن أحمد/د. محمد يونس عبد العال/جامعة عين شمس ـ القاهرة ـ مصر 459

خلوصي، صفاء/د. جاسم محمد حسن/جامعة الموصل ـ العراق 462

الخليجي الحلواني، شهاب الدين أحمد بن أحمد/د. محمد يونس عبد العال/جامعة عين شمس ـ القاهرة ـ مصر 464

خُليد، أبو الفرج، محمد بن علي/د. محمد هشام النعسان/معهد التراث العلمي العربي ـ حلب ـ سوريا 467

الخليفة، إبراهيم بن محمد آل خليفة/د. أنيسة أحمد خليل المنصور/جامعة البحرين ـ البحرين 467

ابن خُليفة، علي/د. منير رويس/جامعة تونس 477

الخليفة، محمد بن عيسى (الوائلي)/د. أنيسة أحمد خليل المنصور/كلية الآداب ـ جامعة البحرين 482

ابن خليل الدمشقي، أبو الحجاج يوسف/نور الدين مختار الخادمي/جامعة الزيتونة ـ تونس 492

ابن الخليل، عبد اللّه بن عمر الصوفي/د. محمد هشام النعسان/معهد التراث العلمي العربي ـ حلب ـ سوريا 493

الخليلي، أبو عمران موسى بن محمد بن عثمان/د. محمد هشام النعسان/معهد التراث العلمي العربي ـ حلب ـ سوريا 494

خليل، ياسين عبد الله/د. أحمد عبد الحليم عطية/جامعة القاهرة 495

الخليلي، جعفر/د. نجمان ياسين/الرئيس الأسبق لاتحاد الكتّاب ـ العراق 498

الخليلي، شمس الدين محمد أبو عبد اللّه/د. أبو بكر خالد سعد الله/المدرسة العليا للأساتذة ـ الجزائر 503

الخليلي، أبو يعلى الخليل بن عبد الله/د. محمد هشام النعسان/معهد التراث العلمي العربي ـ حلب ـ سوريا . 507

ابن خمير السبتي، أبو الحسن علي بن أحمد/د. محمد الكحلاوي/كاتب وباحث ـ تونس 509

الخميري، الطاهر/د. حفناوي عمايرية/جامعة تونس 512

الخميسي، عبد الرحمن/د. محمد علي محمد سلامة/جامعة حلوان ـ مصر ... 515

الخنساء السّلميّة، تماضر بنت عمرو/د. توفيق قريرة/جامعة منوبة ـ تونس 517

الخوارزمي، أبو بكر محمد بن العباس/د. رافعة سعيد حسين السراج/جامعة الموصل ـ العراق 521

الخوارزمي، أبو عبد اللّه محمد بن موسى/د. محمد حمدي إبراهيم/جامعة القاهرة ـ مصر/د. أحمد فؤاد باشا/جامعة القاهرة ـ مصر/المهندس حسين عبد العزيز/مهندس ـ تونس 523

الخوارزمي، أبو الفضل القاسم بن الحسين/د. عبد القادر المهيري/جامعة منوبة ـ تونس 529

الخواص، أبو إسحاق، إبراهيم بن أحمد/د. ساعد خميسي/جامعة منتوري ـ قسنطينة ـ الجزائر 531

الخوافي، أبو القاسم مهدي بن أحمد/ أ. هلال بن ناجي/باحث في التراث العربي ـ العراق 535

ابن الخوّام، أبو علي جمال الدين عبد الله/د. أبو بكر سعد الله/المدرسة العليا للأساتذة ـ الجزائر/د. رمضان ششن/جامعة استانبول ـ تركيا 536

الخوانساري، أبو تراب عبد العلي بن جعفر/أ. هلال ناجي/باحث في التراث العربي ـ بغداد ـ العراق 541

خواهر زاده، أبو بكر محمد الحسين البخاري/أ. هلال ناجي/باحث في التراث العربي ـ بغداد ـ العراق 544

خوجة، حسين بن علي بن سليمان/ د. الكراي القسنطيني/الجامعة التونسية 547

خوجة، حمدان بن عثمان/د. الحفناوي عمايريّة/جامعة تونس/د. عبد القادر زبدية/جامعة الجزائر 551

خوجه زاده، مصلح الدين مصطفى افندي/د. صفت كوسه/جامعة استانبول ـ تركيا 554

خوجه، سنان الدين يوسف بن خضر/ د. مصطفى بيرول أولكر/جامعة استانبول ـ تركيا 560

ابن الخوجة، محمد بن محمد البشير/ د. منير رويس/جامعة الزيتونة ـ تونس 564

الخوري، بشارة عبد الله «الأخطل الصغير»/أ. د. يوسف لبكي/الجامعة اللبنانية ـ لبنان 569

الخوري، خليل/د. نجمان ياسين/ الرئيس الأسبق للاتّحاد العام للأدباء ـ العراق 573

خوري، رئيف نجم/د. إميل يعقوب/ الجامعة اللبنانية ـ لبنان 578

الخوري، رشيد بن سليم (القروي)/ د. إميل يعقوب/الجامعة اللبنانية 581

الخوري، شاكر يوسف/د. نزيه كباره/ الجامعة اللبنانية ـ بيروت ـ لبنان 585

الخوري، يوسف الحداد/د. إميل يعقوب/الجامعة اللبنانية ـ بيروت ـ لبنان 588

الخولي، أمين/د. أحمد كمال زكي/جامعة القاهرة ـ مصر/د. حسن مزيو/جامعة الزيتونة ـ تونس 591

الخُونَجي، أفضل الدين أبو الفضائل محمد/د. مقداد عرفة/جامعة تونس 597

ابن خوين، أبو بكر منداد محمد بن أحمد/د. الحبيب بن طاهر/وزارة الشؤون الدينية ـ تونس 599

الخويّي، أبو العباس شمس الدين أحمد/د. محمد الأزهر باي/جامعة منوبة ـ تونس 603

الخياري، أحمد ياسين بن أحمد بن مصطفى/د. عبد الرحمن طيب الانصاري/جامعة الملك سعود ـ الرياض ـ السعودية 604

الخيّاط، الأمير الكبير علم الدين سنجر/د. عمر عبد السلام تدمري/ الجامعة اللبنانية ـ طرابلس ـ لبنان 606

ابن الخيّاط، أبو بكر محمد بن أحمد بن منصور/د. الشاذلي الهيشري/جامعة منوبة ـ تونس 608

الخياط، أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد/د. عبد الأمير الاعسم/بيت الحكمة ـ بغداد/د. محمد صالح محمد السيد/جامعة المنيا ـ مصر 610

الخياط، أبو محمد عبد الله بن علي/ د. صاحب جعفر أبو جناح/جامعة صنعاء ـ اليمن 616

الخياط، أبو علي يحيي بن غالب بن محمد/د. محمد هشام النعسان/معهد التراث العلمي العربي ـ حلب ـ سوريا . 620

ابن خياط، أبو عمرو خليفة بن هبيرة/د. محمد عوني عبد الرؤوف/ جامعة عين شمس ـ مصر/د. هاشم يحيى الملاح/جامعة الموصل ـ العراق 621

الخياط، محيي الدين بن أحمد/ د. محمد كشاش/الجامعة اللبنانية 624

الخيالي، أحمد بن موسى شمس الدين/د. مقداد عرفة/الجامعة التونسية 627

الخيام، أبو الفتح، عمر بن إبراهيم/ د. محمد السعيد جمال الدين/جامعة القاهرة ـ مصر/د. محيي الدين عطية/جامعة القاهرة ـ مصر 628

ابن أبي خيثمة، أبو بكر أحمد زهير/ د. محمد إبراهيم عبد الرحمن/جامعة عين شمس ـ مصر 634

أبو خيثمة، زهير بن حرب بن شدّاد/ د. محمد إبراهيم عبد الرحمن/جامعة عين شمس ـ مصر 637

الخيرآبادي، فضل الحق/د. سمير عبد الحميد إبراهيم/جامعة الإمام محمد بن سعود ـ السعودية/د. محمد أسلم إصلاحي/جامعة جواهر لال نهرو ـ الهند 640

ابن أبي الخير، فتح الله سعيد بن أحمد المتهني/د. أحمد أوزال/مركز البحوث الإسلامية ـ استانبول ـ تركيا . 644

ابن أبي الخير المسيحي، أبو نصر سعيد/د. محمد هشام النعسان/معهد التراث العلمي العربي ـ حلب ـ سوريا . 650

ابن خير الإشبيلي، أبو بكر محمد بن خير بن عمر/د. أحمد متفكر/جامعة القاضي عياض ـ مراكش ـ المغرب/ د. عبد الستار الحلوجي/جامعة القاهرة ـ مصر 652

خير الله، أمين ظاهر/د. رياض زكي قاسم/الجامعة اللبنانيّة 655

خير الله، ظاهر إلياس/د. رياض زكي قاسم/الجامعة اللبنانيّة ـ بيروت 659

خير الله، عبد الحق أفندي/د. أحمد أوزال/مركز البحوث الإسلامية ـ استانبول ـ تركيا 661

ابن خيرون الشاطبي، أبو جعفر أحمد بن عتيق/أ. هلال ناجي/ باحث في التراث العربي ـ بغداد ـ العراق 667

ابن خيرون المعافري، أبو عبد الله محمد بن عمر/أ. عبد الباقي خريف/ باحث ـ تونس 668

خيري، السيد محمد/د. محمود السيد أبو النيل/جامعة عين شمس ـ مصر ... 673

الخيري ناصر، بن جوهر بن مبارك/ د. أنيسة أحمد خليل المنصور/كلية الآداب ـ جامعة البحرين 677